المؤلفات الفلسفية

بليخانوف



ترجمة : حنا عبود

مصادر الاشتراكية العلمية

المجلد الرابع

دار دمشق

مصادر الإشتراكية العلمية

جيورجي بليخانوف

المؤلفات الفلسفية

في خمسة مجلدات

المجلد الرابع

ترجمة : حنا عبود



م ٢ ٨٣/٩٤٩٢

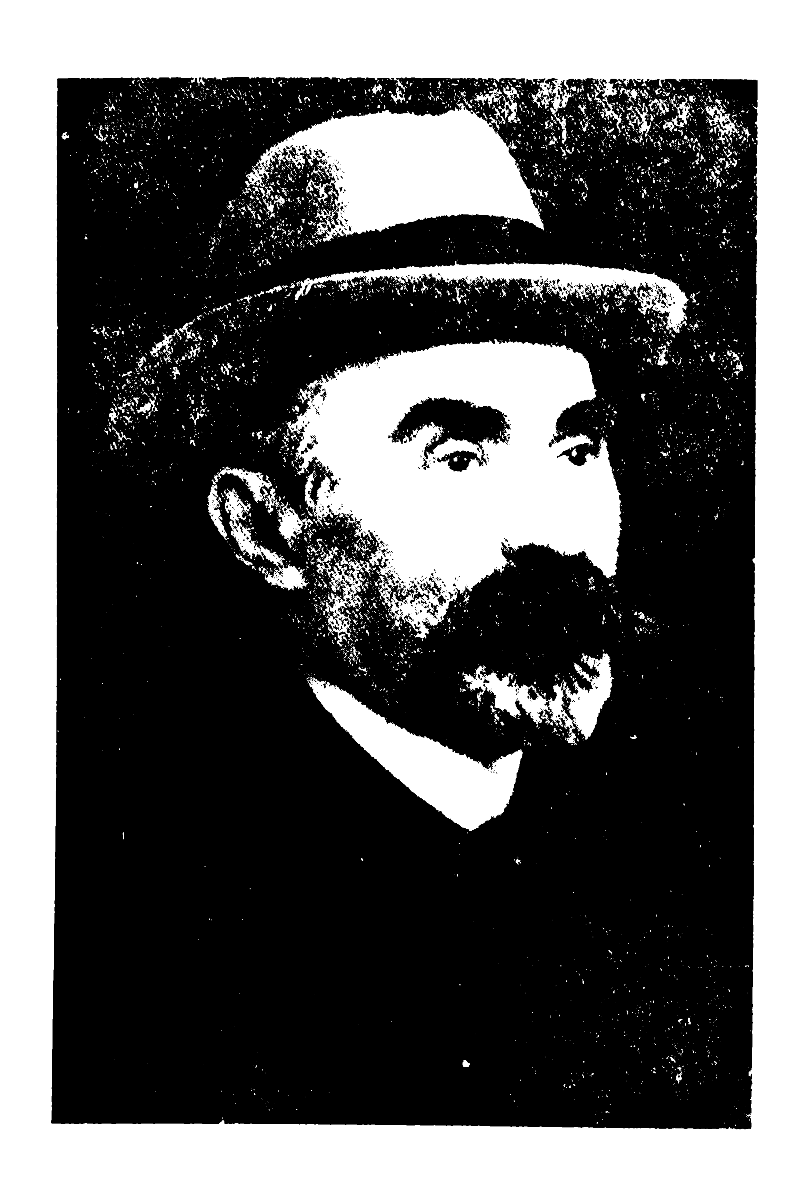
طبعة اولى ٣٠٠٠

١٩٨٣



دار دمشق — دمشق - شارع بورسعيد - هاتف ١١١٠٢٢ - ١١١٠٤٨ ص ب ٧٠٨٨

لبنان - بيروت - شارع سورية - بناية صمدي وصالحة



مقدمة

بليخانوف وكتاباته في تاريخ الفكر الفلسفي في روسيا

كان جورجي فالنتينوفيتش بليخانوف مؤرخا ماركسياً بارزاً للفلسفة، وكاتباً مشهوراً في الفكر الفلسفي للبشرية وعلاّمة في أروع تقاليدها

كان مجال الاهتمامات العلمية لبليخانوف في ميدان تاريخ الفلسفة واسعاً جداً وقد استرعى اهتمامه الفكر الفلسفي لما قبل التاريخ وأفكار الشعب السابقة على العلم زمن تحلل المجتمع البدائي، وفي المراحل المبكرة لتاريخه، أي تعاليم قدامى اليونان. وتتضمن أعمال بليخانوف تحليلاً للأنظمة الفلسفية في العصر الحديث، وللماديين الانجليز في القرنين السابع عشر والثامن عشر وديكارت وسبينوزا، وللماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر، وللمثاليين بركلي وهيوم، والفلسفة الكلاسيكية الألمانية، وبالأخص هيغل وفيورباخ وتحلل مؤلفاته، من وجهة نظر ماركسية تاريخ المذاهب السوسيولوجية لعصر الرأسمالية، وقبل كل شيء، الآراء السوسيولوجية لكتاب التنوير في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر والاشتراكيين الخياليين والمؤرخين الفرنسيين لزمن النهضة.

والى قلم بليخانوف يعرى عدد من المقالات حول المذاهب الفلسفية والسوسيولوجية لأواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، بما في ذلك أعماله التي قدمت نقدا علمياً نفاذاً للنظرة العالمية للنارودنيك والفوضويين والكانتيين الجدد والماخيين، وبحّاث الرب وبناة الاله(*) و« الفيكهستيين » والتولستويين، ومحرفي الماركسية ومبتذليها

---

* بحاث الرب God - Seekers اتجاه فلسفي ديني ظهر في روسيا في بداية القرن العشرين، من أنصاره بروبائيف ومسكي وبلغاكوق. وغيرهم. وقد دعوا إلى « الاصلاح الديني » وذهبوا إلى أن الهدف من الحياة هو البحث عن الرب، ذلك أن غرض التاريخ هو تحقيق الرب في الانسانية وخلق ما يسمى « الانسانية =

إن بليخانوف، كمؤرخ للفلسفة، لم يحصر نفسه في دراساته العلمية بالماضي ففي عودته إلى تاريخ الفكر الفلسفي في العصور السابقة لم يدافع فقط عن التقاليد المادية والديالكتيكية للماضي، بل أكد على الأفكار الفلسفية التقدمية لزمنه، الأفكار الماركسية

إن بليخانوف، رائد الماركسية في روسيا والعضو النشيط في الحركة العمالية العالمية، خصص عدة مؤلفات لتحليل كل من الفلسفة الروسية والفلسفة العالمية. كان يعي بعمق الحاجة النظرية والسياسية الملحة الى تفسير ماركسي لتاريخ الفلسفة والفكر الاجتماعي الشامل في روسيا كان هذا أشد ضرورة لأن مسائل تاريخ الفكر الاجتماعي في روسيا كانت مثار صراع ايديولوجي وسياسي مرير تشنه الماركسية الثورية ضد الاتجاه الفوضوي الرجعي والكاديت الأحرار والنارودنيك والاتجاهات الأخرى المعادية للماركسية. وقد رجع بليخانوف، فيما يتعلق بهذا الصراع الايديولوجي السياسي، إلى تاريخ الفكر الفلسفي الاجتماعي السياسي الجمالي الروسي، دافعاً إلى المقدمة تعاليم المفكرين الثوريين للقرن التاسع عشر، وبشكل خاص بيلنسكي وهرزن وتشيرنيشفسكي، معارضاً بهذه التعاليم تعاليم الايديولوجيا الرجعية والليبرالية والمثالية والصوفية.

إن مؤلفات بليخانوف في تاريخ الفلسفة، بما فيها الفلسفة الروسية، كلها ذات طبيعة واحدة وقيمة واحدة من حيث مضمونها الايديولوجي.

قدم بليخانوف في العشرين سنة الأولى من نشاطه الماركسي (١٨٨٣ -١٩٠٣) بعض المؤلفات العلمية البارزة، برهن فيها عن تحليل نظري عميق لتاريخ المادية والديالكتيك والأفكار السوسيولوجية التقدمية من منطلق الفلسفة الماركسية.

= المقدسة» أي المجتمع القائم على مبادىء دينية. أما بناة الاله God Builders فاتجاه فلسفي آخر ظهر في الفترة ذاتها وارتبط بفلسفة بوغدانوف محاولاً التوحيد بين الاشتراكية العلميه والدين وخلق ما يسمى «الاتحاد الديني أي دين من غير إله، إذ أن الإنسان هو الذي يبني الاله حسب متطلباته وضروراته فيحقق بذلك كماله، وقد اعتبرت الماركسية ذاتها نظاماً دينياً ويسمي بناة الاله الى حرب العمل الاشتراكي الديمقراطي وهم يعارضون بحاث الرب وقد انضم اليهم غوركي ولكن الى حين.

«المترجم»

في ١٩٠٤-١٩١٣ كتب عدداً من المؤلفات تعالج قضايا تاريخ الفلسفة العالمية. وتتضمن بعض هذه المؤلفات أخطاء ونواقص ذات طبيعة أساسية، وتحمل ميسم الخطيئة السياسية التي اقترفها بليخانوف في المؤتمر الثاني للحزب (١٩٠٣) عندما انحاز إلى الموقف المنشفيكي ولكن مع كل هذه الأخطاء والنواقص ساعدت هذه المؤلفات في التأكيد على التقاليد المادية التقدمية وحاربت الأعداء الايديولوجيين للماركسية.

ومع كل الأخطاء الأساسية التي اقترفها، وخصوصا في المرحلة المنشفيكية، يعتبر تراث بليخانوف في ميدان تاريخ الفلسفة مساهمة نفيسة في الفكر النظري الماركسي، تنتمي بحق إلى حركة الطبقة العاملة العالمية ولا تزال حتى يومنا هذا تخدم قضية الصراع الايديولوجي للماركسية ضد الفلسفة وعلم الاجتماع البرجوازيين الرجعيين.

* * *

إن قسماً ضخماً وهاماً من كتابات بليخانوف مكرس لتاريخ الفلسفة الروسية والفكر الاجتماعي الروسي بشكل عام. ويرجع الفضل الى قلم بليخانوف في الكتاب الضخم عن تشيرنيسيفسكي، الذي طبع في الأصل في «الاشتراكي الديمقراطي (طبعت في الخارج) في ١٨٩٠-١٨٩٢، وعندئذ ظهرت طبعتان تختلف كل واحدة عن الأخرى اختلافاً كبيراً في ١٨٩٤ (بالألمانية) وفي ١٩٠٩، وكذلك عدة مقالات عن هذا الثوري الروسي الشهير وقدم بليخانوف عدداً من المؤلفات الحية والعميقة عن المفكر والناقد الروسي الكبير ف.ج بيلنسكي (في ١٨٩٧-١٨٩٨ و١٩٠٩-١٩١١). وفي ١٩١١-١٩١٢ كتب بليخانوف مقالات وأحاديث ومراجعات في الذكرى المئوية لميلاد مؤسس الصحافة الروسية الحرة في الخارج هرزن، ومقالة عن «دوبروليوبوف وأوستروفسكي ومؤلفات أخرى حول المفكرين الثوريين الروس. وكتب أيضاً سلسلة مقالات ومراجعات للكتب حول «المستغربين» شاداييف وبيشرين وميكوف وايديولوجي «القومية الرسمية» بوغودين والمتحمسين للسلافية كيريفسكي وخومياكوف المؤرخ الروسي وشابوف ونيكراسوف والشعبيين وتولستوي ومفكرين روسيين آخرين. وخلال حياة بليخانوف طبعت ثلاثة أجزاء من كتابه الكبير عن تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي من أيام روسيا الكييفية إلى أوائل القرن التاسع عشر

وخلافاً للنظريات الليبرالية بأن الفكر الثوري الروسي في القرن التاسع عشر كان بلا «أساس ويعاني من نقص «المبدئية أثبت بليخانوف أن المفكرين الثوريين

الروس بيلنسكي وهرزن وتشيرنيشيفسكي كانوا، بشكل خاص، سباقين إلى الماركسية في روسيا وأن الماركسية هي ميراثهم الجديد كتب: «آراؤنا وطموحاتنا الحالية هي النتاج العضوي لتاريخ الحركة الثورية الروسية

وفي تطبيق مبادىء المادية التاريخية على الواقع الروسي هاجم بليخانوف التزييف الديني -الصوفي والنزعة السلافية وما شابه ذلك من تزييف تاريخنا للفكر الاجتماعي الروسي، ووصفه أنه مثالي وديني يرفض أن تكون الحركات الثورية والاتجاهات التقدمية في الفكر الاجتماعي في الغرب قد أثرت فيه. وأظهر بليخانوف أن روسيا في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر عرفت تطور الفكر الفلسفي الاجتماعي والسياسي على أساس الظروف التاريخية الاجتماعية الروسية ليس في حالة عزلة بل في حالة تماس مع الثقافة والحركة الثورية، وبالاستفادة من تأثير الاتجاهات التقدمية في الفكر النظري الغربي

وفي كتابه «تطور النظرة الأحادية في التاريخ» ومؤلفات أخرى سعى للكشف عن هذا القانون كنوع من الترابط في تطور الايديولوجيا، والفلسفة من ضمنها، في أي قطر على أساس البيئة الاجتماعية والتاريخية للأقطار الأخرى وخاصة المتاخمة. كتب: «بما أن كل قطر يخضع لتأثير جيرانه، فإنه يمكن القول **توجد في كل مجتمع بيئة اجتماعية تاريخية معينة تؤثر في تطوره**». «تأثير البيئة التاريخية لمجتمع ما تظهر أيضاً في ايديولوجياته» ويتساءل بليخانوف «هل التأثيرات الأجنبية تضْعِف، وإلى أي مدى، اعتماد هذا التطور على البناء الاقتصادي للمجتمع؟»(*) وفي التحليل الأخير، كما نرى من مؤلفات بليخانوف، تعتمد درجة المؤثرات الأجنبية على البيئة الاقتصادية للمجتمعات المتداخلة وهي ترجع في قسمها المباشر إلى تشابه العلاقات الاجتماعية للأقطار المعنيّة.

عالج بليخانوف قضية التأثير المتبادل للأفكار السياسية والفلسفية والجمالية والأفكار الأخرى التي تتطور في هذا القطر أو ذاك، ووضع الطبقات في المجتمع والصراع الطبقي ورفض التفسير التخطيطي للفكر الاجتماعي للشعوب المختلفة، الذي يتجاهل السمات التاريخية لهذا التفكير، مؤمناً أن كل اتجاه أدبي، كل فكرة فلسفية

---

* بليخانوف «المؤلفات الفلسفية المختارة» المجلد الأول، دار دمشق ص ٦٢٠ وما بعد

تحقق ظلاً خاصاً بها، وأحياناً تحقق معنى جديداً، في كل قطر على حدة

إن بليخانوف، على عكس النظريين الدينيين الصوفيين والنارودنيك، بإلحافه المحق على الوحدة الايديولوجية للفكر الاجتماعي الروسي والأوروبي الغربي وعلى دور تأثير الفكر الأوروبي الغربي في الفكر الروسي، بالغ فيما ذهب إليه على نحو ما، و« اشتط »، على حد تعبيره هو، في الاتجاه المعاكس: إنه لم يحلل دائماً العملية الداخلية لتطور الفكر الفلسفي في روسيا، وقلل من تقدير استمرارية اتجاهاته المختلفة، وبالغ أحياناً في تأثير الفلسفة الأوروبية الغربية في الفلسفة الروسية.

آراء بليخانوف في تاريخ الفلسفة الروسية معاكسة لآراء أنصار السلافية وللآراء الليبرالية التي اعتبرت التفكير الفلسفي والاجتماعي السياسي الروسي « جدولا وحيداً خالياً من التناقضات ومستقلاً عن الصراع الطبقي وذهب بليخانوف إلى أن تطور الفكر الاجتماعي الروسي هو تاريخ صراع الأفكار التقدمية والثورية ضد الأفكار المحافظة والرجعية، وإلى أن تاريخ الفلسفة الروسية هو تاريخ الصراع بين المادية والمثالية وقد تقصى نمو اتجاهين في الفكر الاجتماعي الروسي: الاتجاه الثوري والاتجاه الليبرالي، وأظهر أن الفكر الاجتماعي الثوري تطور في الصراع ضد الليبرالية وقد كتب بليخانوف في ١٨٩٠ واصفاً موقف تشيرنيشيفسكي من الليبراليين: « الجبن والعجز في الاستبصار، والذهنية الضيقة والعطالة والتشدق الصاخب - تلك هي السمات المميزة التي رآها في ليبراليي ذلك الزمان »*

ومن غير أن يحصر بليخانوف نفسه في تاريخ الابستمولوجيا والمنطق والطرائقية، أظهر أن تاريخ الأفكار السوسيولوجية والجمالية والأخلاقية جزء مكمل لتاريخ الفلسفة. وبفضل متطلبات الحياة الاجتماعية تركز اهتمام الفكر الفلسفي الروسي التقدمي على قضايا علم الاجتماع والجمال والأخلاق. وفي حل هذه القضايا ذات الأهمية القصوى للمجتمع، تقدم المفكرون التقدميون الروس في مضمار نظرية المعرفة والمنطق، وطوروا الطريقة الديالكتيكية. الخ ومن أجل توسيع ميدان بحث الفكر الفلسفي الروسي إلى بحث تطور الأفكار السوسيولوجية والجمالية والأخلاقية، كان بليخانوف أول من تقدم في روسيا بتفسير علمي لعملية تطور المبادىء المادية للقرنين

---

* انظر هذا المجلد « تشير نيشيفسكي » [١٨٩٠] المقطع ٧

الثامن عشر والتاسع عشر، التي اعتبرتها «العلوم الرسمية» سواء في ذلك الوقت أو فيما بعد «خارج حدود الفلسفة وخلافاً لبعض الجهابذة السطحيين الذين شكوا في أن بيلنسكي وهرزن وتشيرنيشيفسكي يمكن اعتبارهم فلاسفة أو علماء اجتماع بسبب أنهم كتبوا قليلا، أو لم يكتبوا، أطروحات خاصة في قضايا نظرية المعرفة أو علم الاجتماع، أفلح بليخانوف في العثور على بعض الشذرات من الفكر الفلسفي والسوسيولوجي في المؤلفات النقدية والصحفية لأولئك المفكرين الروس الكبار

بين بليخانوف في مؤلفاته أن الأساس النظري لآراء المفكرين الثوريين الروس في القرن التاسع عشر، بيلينسكي وهرزن وأوغاريف وتشيرنيسيفسكي ودوبروليوبوف وبيساريف وآخرين كان ماديتهم المقاتلة «الحازمة التي انطلقت، في اعتقاده، من مادية فيورباخ فكانت تطبيقاً لها في التربة الروسية. وكان بليخانوف محقاً في تأكيده في مؤلفاته على التأثير الكبير والجدي لفلسفة فيورباخ على المفكرين الماديين الروس في صراعهم ضد المثالية والصوفية. وكان أيضاً محقاً، ولكن ليس تماماً، عندما لاحظ أن ثمة بعض آثار من النزعة الانتروبولوجية في آراء المفكرين الماديين الروس الذين اتبعوا فيورباخ

إلا أنه كان مخطئاً في اعتقاده أن تشيرنيشيفسكي وبقية الماديين الروس لم يكونوا في الفلسفة أكثر من أتباع لفيورباخ إنه لم يبين أنهم تخطوا تخوم المادية الانتروبولوجية وفشل في التحقق أن النظرة المادية العالمية لهرزن وبيلنسكي كانت مصدراً ايديولوجيا هاماً لتكوين فلسفة «جيل الستينات

لقد أظهرت مؤلفات بليخانوف أن بيلنسكي وتشيرنيسيفسكي ودوبروليوبوف قدموا أساساً نظرياً للواقعية في الفن، وطبقوا المادية الفلسفية على علم الجمال، واختبروا الفن من منطلق تاريخي، وشنوا نضالاً لا هوادة فيه ضد النظريات المثالية في «الفن من أجل الفن الخ. لقد كان بليخانوف أول من كشف التأثير الثوري والثقافي الايديولوجي الهائل للكتابات الأدبية والنقدية للمفكرين الثوريين الروس لقد كتب مثلاً عن رواية تشيرنيسيفسكي **ما العمل؟**: «من لم يقرأ، أو لم يعد قراءة هذا العمل الشهير؟ من لم يتأثر به، ومن لم يصبح أنقى وأحسن وأنصع وأشجع تحت تأثيره المجدي؟ من لم يتأثر بالصفاء الأخلاقي للشخصيات الرئيسية؟ من، بعد قراءة هذه الرواية، لم يتأمل حياته

الخاصة، ومن لم يضع للاختبار نزوعاته وميوله الخاصة؟ لقد أمدتنا جميعاً بكل من القوة الأخلاقية والايمان بمستقبل أفضل. »*

مؤلفات بليخانوف حول الفلسفة الروسية، بما في ذلك تلك التي كتبت أثناء فترة الصراع ضد نزعة التصفية والنزعة اللبرالية المناوئة للثورة، تقدم مفهوماً ماركسياً علمياً، من حيث الأساس، لآراء حول تاريخ الفكر الاجتماعي السياسي والفلسفي الروسي، الذي ينطلق من تفسير ماركس المادي للتاريخ. إلا أن قيمة هذا المفهوم العلمي الماركسي تنخفض بسبب بعض الأخطاء النظرية والطرائقية الجدية التي اقترفها بليخانوف، والتي تبدت بسكل رئيسي في مرحلته المنشفيكية تحت تأثير الانتهازية السياسية هذه الأخطاء في آراء بليخانوف عن تاريخ الفلسفة الروسية ظهرت بوضوح كامل في الطبعة الجديدة لكتابه عن تشيرنيشيفسكي (١٩٠٩) وفي مقالاته عن بيلنسكي وهرزن التي كتبت في بداية العقد الثاني للقرن العشرين، وعلى وجه الخصوص في كتابه الذي لم يكتمل **تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي**.

يعلن بليخانوف في مؤلفاته المستقلة بصورة خاطئة أن الفكر الفلسفي للأقطار المتخلفة اقتصادياً لا يمكن أن يمارس تأثيراً قوياً على الفكر الفلسفي للأقطار الأخرى إن وقائع التاريخ ترفض هذا الرأي فألمانيا، مثلاً، في القرن الثامن عشر، مع أنها كانت متخلفة نسبياً في الميادين الاقتصادية والسياسية، تعتبر مهد الأنظمة الكلاسيكية للفكر الفلسفي، والديالكتيك من أعظم مكتسباتها، فكانت متفوقة بما لا يقاس على فلسفة الأقطار المتقدمة في ذلك الزمن - انكلترا وفرنسا - حيث سادت الميتافيزياء كما أخطأ بليخانوف أيضاً في إنكار تأثير الثقافة الروسية في القرن الثامن عسر (لأن روسيا كانت مخلفة اقتصادياً) في ثقافة فرنسا والأقطار المتقدمة الأخرى. وبينما كان التأثير الايديولوجي لفرنسا والمانيا والثقافات الأخرى جارياً، كانت أيضاً الثقافة الروسية في القرن الثامن عشر، كما أثبتت معظم الأبحاث العلمية الحديثة، تمارس تأثيراً إيجابياً على العلم والفكر الاجتماعي الأوروبيين الغربيين.

إن مؤلفات بليخانوف في تاريخ الفلسفة الروسية لم تتابع بدقة استمرارية التقاليد المادية في روسيا

---

* انظر هذا المجلد «تشيريشيفسكي [١٨٩٠] المقطع ١٢

كما قلل إلى حد ما من التقليد الفلسفي الروسي كتب في خلافاتنا يمكن ان يكون ثمة وضع جدي فيما يتعلق بمسائل الطريقة فقط في المجتمع ذي الثقافة الفلسفية الجدية، وهذا ما لا يمكن للمجتمع الروسي أن يتباهى به. وقد تبدى نقص الثقافة الفلسفية، بقوة خاصة، في قطرنا في الستيات عندما بدأ «واقعيونا الفكريون»، بعد توطيدهم عبادة العلوم الطبيعية، يطاردون بجور «الميتافيزياء الفلسفية وتحت تأثير هذه الدعاية المعادية للفلسفة لم يستطع أنصار تشيرنيسيفسكي حذاقة طرائق تفكيره الديالكتيكي، ولم يركزوا اهتمامهم إلا على نتائج دراساته»* فإن كان ما يقوله بليخانوف هنا صحيحاً إلى حد ما فيما يتعلق بالنارودنيك، الذين حذقوا بدقة المظاهر الضعيفة والخاطئة لآراء تشيرنيشيفسكي الاجتماعية، إلا أنه غير صحيح فيما يتعلق بالديمقراطيين الثوريين، «أبناء الستيات الذين اتبعوا تشيرنيسيفسكي فهم بمحاربتهم الميتافيزياء المثالية لم ينجرفوا في اضطهاد التقاليد المادية والديالكتيكية (بما في ذلك الهيغلية) للفكر الفلسفي، بل اتبعوها وطوروها

وثمة خطأ آخر في آراء بليخانوف حول تاريخ الفكر الروسي هو أنه لم ير أن الدور الرئيسي في الآراء الاجتماعية السياسية والسوسيولوجية للمفكرين الثوريين الروس في القرن التاسع عشر لم تلعبه الاشتراكية المثالية، كما اعتقد بليخانوف، بل الديمقراطية الثورية التي عبّرت عن مصالح جماهير الفلاحين. وإذ يسمر في اعتبار الآراء الاجتماعية السياسية لبيلنسكي وتشيرنيشيفسكي وبقية المفكرين الثوريين الروس على أنها آراء ثقافية محضة، لم يمسك بليخانوف بالرأي المصيب الذي أمسك، به لينين الذي أظهر أن الديمقراطية الثورية لبيلنسكي وتشيرنيسيفسكي كانت ذات سمة فلاحية مقاتلة عبرت عن أمرجة الأرقاء الفلاحين وآمالهم.

كما أجحف بليخانوف أيضاً في عدد من التسيبات في تقديره لآراء المفكرين الروس الفلسفية في القرن التاسع عشر، وديالكتيكهم بوجه خاص فبينما يعتبر، مثلا، بيلنسكي وتشيرنيشيفسكي ديالكتيكيين، اقترف، مع ذلك، عدة أخطاء في استنتاجه أن موقفهم المتنور أعاق تطور محاكماتهم النظرية، وعلى الأخص ديالكتيكهم

فاذا كان فلاسفة الأنوار في القرن التاسع عشر في مطاليبهم بإعادة تنظيم المجتمع

---

* انظر المجلد الأول من «المؤلفات المختارة الطبعة العربية. دار دمشق

حسب الطبيعة البشرية ميتافيزيكيين في تناولهم لظواهر الحياة الاجتماعية والانسان، وإذا كان فلاسفة الألمان المثاليون الديالكتيكيون قد فسروا الحياة الاجتماعية تاريخياً إلا أنهم أدانوا الأفكار الثورية والتنويرية لمفكري القرن التاسع عشر فإن المفكرين الثوريين الروس، كبيلنسكي وتشيرنيشيفسكي مثلا، بتبنيهم موقف عصر الأنوار، كانوا مضطرين الى التخلي عن الديالكتيك حسب الأداة المنطقية

الطباق التي طبقها بليخانوف بصورة واسعة. ومن وجهة نظر بليخانوف أنهم بقدر ما كانوا يتصرفون كمتنورين، بقدر ما كانوا يبعدون عن الطريقة الديالكتيكية والعكس بالعكس. والواقع أن مؤلفات بلنسكي ١٨٤٥-١٨٤٨ عندما كان مؤيداً قوياً

الأنوار كانت مشوبة بالطريقة الثورية؛ ومؤلفات تشيرنيشيفسكي ١٨٥٩-١٨٦٢ عندما علق آماله على الثورة الفلاحية في روسيا، وحضر لها ايديولوجيا، كانت مشوبة الى درجة كبيرة بأفكار الديالكتيك أكثر من مؤلفاته الأولى. إن مؤلفاتها في هذه الفترة طورت أفكار النفي الثوري لكل ما هو قديم من عادات ومن مؤسسات بالية، وهي أفكار كانت ترمي إلى مناهضة الآراء الرجعية لـ «الحياة» وأنصار السلافية والنظريات المحافظة لليبراليين.. الخ

إن بليخانوف نفسه اعتقد محقاً أن المفكرين الثوريين الروس أورثونا «عدة. محاولات في تطبيق الطريقة الديالكتيكية على حل القضايا الهامة في لحياة الاجتماعية الروسية »*

لم يوضح بليخانوف أن النظرة العالمية للديمقراطيين الثوريين الروس الذين اتبعوا أهم مبادىء مادية فيورباخ تختلف اختلافاً كبيراً عن فلسفتهم الميتافيزيائية المعارضة للديالكتيك لقد اعتبر الديمقراطيون الثوريون الديالكتيك «جبر الثورة فتبنوا التفسير التاريخي للانسان من غير أن يدافعوا عن «الانسان العام» المجرد، بل الانسان العامل المألوف، لقد كانوا متحررين من الاضافات الدينية - الأخلاقية التي كانت تسم مادية فيورباخ، مقرين بالدور العظيم للممارسة في عملية المعرفة، وهكذا لقد عجز بليخانوف عن فهم أن الديمقراطيين الثوريين الروس بتأسيس أفكارهم على الديالكتيك والاكتشافات الجديدة للعلوم الطبيعية، تقدموا أكثر من فيورباخ في

---

* المؤلفات الفلسفية المختارة المجلد الأول الطبعة العربية، دار دمشق.

الفلسفة، وطوروا ما كان من حيث الأساس نمطاً جديداً من النظرة المادية العالمية، وهي التعبير الفلسفي عن مصالح وأمزجة وآمال الفلاحين النزاعين إلى النضال الثوري.

وبقراءة طبعة ١٩٠٩ من كتاب بليخانوف عن تشيرنيشيفسكي ومقارنتها بمقالات بليخانوف عن تشيرنيشينسكي في مجلة **الديمقراطي الاشتراكي** (١٨٩٠-١٨٩٢) علق لينين: «بسبب الفرق النظري بين النظرة المثالية والنظرة المادية في التاريخ **تجاوز** بليخانوف الفرق العملي والسياسي **والطبقي** بين الليبرالي والديمقراطي»*

في المرحلة الأخيرة من حياته، في ١٩١٢-١٩١٦ إذ ينكب على مؤلفه **تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي**، تأثر بليخانوف، وكان في ذلك الزمن منشفيكيا انتهازياً، ثم أصبح أخيراً شوفينياً اجتماعياً، في آرائه حول تاريخ الفكر الاجتماعي في روسيا بالمفاهيم الليبرالية للعملية التاريخية الروسية. ويعكس كتابه الذي لم ينته النظرية الليبرالية في «مبادىء الدولة» التي تؤكد أن كل المبادرات في روسيا جاءت من فوق، من الحكومة. إن **تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي** يتجاهل ويقلل من الحركة الثورية للفلاحين، التي وصفت أنها «فوضى» و«عصيان».. الخ وهو يقدم النظرة الخاطئة أن كل الطبقات والمقاطعات في روسيا تستعبدها القيصرية، لذا فالصراع الطبقي في روسيا لا يهز البنية الأوتوقراطية، بل بالأحرى يقوي ملكية الأرض. الخ وأخيراً يؤكد هذا الكتاب بصورة خاطئة، أن الفكر الاجتماعي في روسيا يكرر الأفكار ذاتها والمسائل ذاتها التي في الغرب، وأن تطور الفكر الاجتماعي الروسي، في التحليل النهائي، يفسر بمنطق التطور الاجتماعي الأوروبي - الغربي

ثمة الكثير من أمثال هذه الآراء الخاطئة في **تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي** تشهد أن بليخانوف في السنوات الأخيرة من حياته تخلى عن الآراء الماركسية في التاريخ، والآراء التي كان يعتنقها عندما كان ماركسياً ثورياً ولهذا فإن تراث بليخانوف في تاريخ الفكر الاجتماعي في روسيا لا بد من أن يدرس ويقوم ليس بمقياس **تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي** (مع أن هذا يتضمن مادة وقائعية قيمة من التاريخ الروسي في القرن الثامن عشر والمراحل المبكرة) بل بمقياس مؤلفاته في الموضوع نفسه، التي كتبت

---

* مجموعة لينين المجلد الخامس والعشرون، الطبعة الروسية ١٩٣٣ ص ٢٣١.

في ثمانيات وتسعيات القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين وخلال سوات ردته (١٩٠٧-١٩١٠)

إن جوهر وأهمية آراء بليخانوف حول تاريخ الفلسفة الروسية والفكر الاجتماعي لا تحددهما أخطاؤه ونقائصه التي أتينا عليها أعلاه فلعدة سوات دافع بليخانوف عن الفكر الاجتماعي التقدمي الروسي من مطلق المادية الماركسية، وقدم التعاليم الثورية للقرن التاسع عشر في ضوء الماركسية، وعلى الأخص بيلنسكي وتشيرنيشيفسكي

★ ★ ★

إن بليخانوف، منذ أكثر من ربع قرن، بدءاً من مؤلفاته الماركسية الأولى، كتب باهتمام كبير في النظرة العالمية وفي نشاط تشيرنيشيفسكي، الذي اعتبره زينة مجيدة في الأدب الروسي ومن بين مؤلفات بليخانوف الممتازة عن تشيرنيشيفسكي مقالات أربع تحت عنوان ن غ تشيرنيشيفسكي في الديمقراطي الاشتراكي التي تطبع في الخارج، والتي نشرت مباشرة بعد الخمود الثوري الروسي المعروف في ١٨٩٠-١٨٩٢ وكذلك مقدمته لملحق الترجمة الألمانية (وبشكل خاص عرضه) للمقالات المشار إليها بعنوان **تشيرنيشيفسكي طبعت في مجلد مستقل من قبل دنيتز** عام ١٨٩٤ وفي ١٨٩٧ كتب مؤلفه القيم «النظرية الجمالية عند تشيرنيشيفسكي وفي ١٩٠٨ أعد طبعة جديدة لكتاب **تشيرنيشيفسكي** الذي أخرج بالروسية عام ١٩٠٩ عن طريق الناشرين شيبوفنيك الشرعيين، **وقد كتب بليخانوف لهذه الطبعة مقدمة جديدة والقسم الأول منها** وكتب في ١٩٠٩ مقالة **تشيرنيشيفسكي** عن **تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر** وقام في ١٩١٠ بمراجعة كتاب **سكلوف** عن تشيرنيشيفسكي وطبعت في **سوفريميني مير** تحت عنوان «المزيد عن تشيرنيشيفسكي

وتأتي مقالة «تشيرنيسيفسكي في سيبريا لتكمل مؤلفات بليخانوف عن سيرنسفسكي، وقد طبعت في الصحيفة الروسية المسموحة **سوفريمينيك** في ١٩١٣*

---

* يتضمن المجلد الحالي المقالة الأولى المنشورة في العدد الأول من «الاشتراكي الديمقراطي ١٨٩٠ من كتاب بليخانوف تشيرنيشيفسكي الذي يقدم وصفاً عاماً لنشاط تشيرنيشيفسكي ونظرته العالمية وآرائه الفلسفية والسوسيولوجية (المقالات ٢ ٣ ٤ من الاشتراكي الديمقراطي التي عرضت آراء تشيرنيشيفسكي الاقتصادية والسياسية و الاشتراكية الخيالية غير موجودة في المجلدات الخمسة لمؤلفات بليخانوف المختارة) والمجلد الحالي يتضمن نصاً مقدمة وإضافة كتبها بليخانوف ١٨٩٤ للطبعة الألمانية لكتاب «تشيرنيشيفسكي ويتضمن

هذه المقالة التي تعالج رسائل تشيرنيشيفسكي ومؤلفاته في المنفى في سيبريا ونشرت وقتها لأول مرة، فقدمت بعض العناصر الجديدة لتقدير بليخانوف للآراء الفلسفية المادية الروسية

يتحدث بليخانوف في مؤلفاته عن تشيرنيشيفسكي عن الرائد الكبير للديمقراطية الاشتراكية بإعجاب واحترام كبيرين يقول لنفسه: «إن تطوري الثقافي تأثر كثيراً بتشيرنيشيفسكي، وقد كان تحليل أفكاره أعظم حدث في حياتي الأدبية »*

إن مؤلفاته عن تشيرنيشيفسكي تعيد بناء شخصية مفكر وثوري روسي كبير، فتظهره «رجل الصراع السياسي الذي لا مساومة فيه و«مدافعاً عن مصالح الفلاحين في الصحافة وتوضح ارتباط أفكاره مع نظرية ماركس

بحثاً عن اثبات امكانية تطبيق المبادىء الماركسية في روسيا ودفاعاً عنها ضد هجمات الايديولوجيين النارودنيك من الطبيعي أن يميل بليخانوف إلى التفسير النقدي لتعاليم تشيرنيشيفسكي، وعلى الأخص آراؤه الخاطئة والضعيفة التي تبناها النارودنيك وبالغوا فيها لمعارضة الماركسية (أي الاشتراكية الخيالية الفلاحية، والنظرية الاقتصادية. الخ) ومع أن بليخانوف اعتبر أن هذه الآراء «ترجع الى عصر من تاريخ الاشتراكية يجب أن نعتبره الآن من الماضي فإنه سعى دائماً لتفسيرها تاريخياً، باعتبارها آراء كانت تقدمية في زمنها، إلا أنها لم تعد في العصر الحديث تلبي متطلبات الزمن.

وبالرجوع إلى الطبعة الأولى لكتاب بليخانوف **تشيرنيشيفسكي**، علق لينين في مقالته «اتجاه تراجعي في الاشتراكية الديمقراطية الروسية «إن بليخانوف في كتابه عن تشيرنيشيفسكي (مقالات في مجموعة **الاشتراكي الديمقراطي**، ظهرت في مجلد مستقل بالألمانية) قدر تقديراً عالياً أهمية تشيرنيشيفسكي وشرح موقفه من نظرية ماركس وانجلز**

= أيضاً القسم الأول ومقدمه لكتاب «سيربيسيمسكي المطبوع ١٩٠٩ ومقاله «سيربيسيمسكي في سيبريا ومقالة «النظريه الجمالية عند تشيربيشيفسكي موجودة في المجلد الخامس من الطبعه الحاليه

* انظر هذا المجلد «نشير نيشيفسكي في سيبريا».

** لينين المؤلفات الكاملة المجلد ٤ ص ٢٧١

وبقراءة الطبقة الثانية لكتاب طبعه بليخانوف عام ١٩٠٩ عن تشيرنيشيفسكي لاحظ لينين عدداً من المقاطع (وعلى الأخص في المقدمة الجديدة للكتاب) اتخذ فيها بليخانوف خطوة تراجعية بالقياس إلى مقالته في العدد الأول من الاشتراكي الديمقراطي. فقد حذف بليخانوف من طبعة ١٩٠٩ عدة أطروحات لتشيرنيشيفسكي تقدم وصفاً هاماً وجديراً لليبرالية الروسية، كذلك تشخيصاته أن تشيرنيشيفسكي حذر الرأي العام ضد التأثير الضار للمدافعين عن النظام البرجوازي، أي الليبراليين، والوصف القوي الحي لنضال تشيرنيشيفسكي ضد الليبرالية الذي قدمه بليخانوف في طبعة ١٨٩٠ حذف أيضاً «من لا يعرف أن هؤلاء الناس هم أنفسهم المستغلون في السياسة كما هم في الميدان الاقتصادي، حيث ينتمون إلى طبقة رجال الأعمال وأصحاب المشاريع؟ وبسبب هذه الميول الاستغلالية كرههم تشيرنيشيفسكي وتظهر هذه الكراهية للمستغلين من خلال كل صفحة من مراجعاته السياسية»* وكذلك حذف المقطع الذي أظهر فيه بليخانوف أهمية نقد تشيرنيشيفسكي لليبرالية بسبب النضال ضد الاتجاهات اللبرالية في الحركة الاجتماعية الروسية في أواخر القرن التاسع عشر «يتساءل بليخانوف: ما الذي قاله تشيرنيشيفسكي لحفنة من الناس هنا الآن، الذين بينما يدعون أنهم ثوريون، يعلقون آمالهم على «المجتمع اللبرالي ويبحثون، بطريقة أو بأخرى لقلب حربنا الثوري إلى حزب من اللبراليين المتواضعين والمحترمين؟»**

كل هذه التغيرات التي قام بها بليخانوف في مؤلفه تشيرنيشيفسكي لطبعة ١٩٠٩ لا توضح فقط حقيقة أنه طبع في هذا الزمن بصورة شرعية في روسيا القيصرية، بل توضح أيضاً تأثير الانتهازية السياسية والاتجاهات التصالحية للمنشفيك.

ولم يستطع لينين في تعليقاته على طبعة ١٩٠٩ من كتاب بليخانوف عن تشيرنيشيفسكي أن يتجاهل حقيقة أن بليخانوف قد وجّه اهتمامه بصورة رئيسية إلى ضعف آراء تشيرنيشيفسكي النظرية، إلى مثالية آرائه التاريخية، ولم يول أهمية كافية لنشاط تشيرنيشيفسكي الثوري العملي وبالرجوع إلى تصريح بليخانوف: «إن تشيرنيشيفسكي مثل معلمه ركز اهتمامه كله تقريباً على النشاط النظري للبشرية.»***،

---

* انظر هذا المجلد مقالة تشير نيشيفسكي ١٨٩٠ المقطع ٧

** انظر المجلد الحالي ص ١٢٤

*** انظر هذا المجلد، تشير نيشيفسكي [١٩٠٩] الفصل السادس.

علق ليبين محقاً: إن كتاب بليخانوف عن تشيرنيشيفسكي يعاني من النقيصة ذاتها »*

اعتقد بليخانوف أنه: « ليس ثمة شيء غريب في افتراض أن تشيرنيشيفسكي يسمي إلى جمعية ثورية »** بيد أنه لم يقدم تحليلا شاملا لنشاط تشيرنيشيفسكي في مؤلفاته إن كتابات بليخانوف لا تبين تأثير تشيرنيشيفسكي في الشباب الثوري والضباط التقدميين والأعضاء العاملين في حركات التحرر الوطني في بولونيا والأقطار الأخرى بالطبع كان بليخانوف مخطئاً عندما كتب، على أساس ملاحظات تشيرنيسيفسكي النقدية عن التخلف واضطهاد الجماهير، أن تشيرنيسيفسكي « لم يحسب حقاً حساب مبادهة الشعب سواء في روسيا أو في الغرب وأن « المبادهة من أجل التقدم وكل التغيرات في بنية المجتمع المفيدة للناس ترجع في رأيه إلى « الناس الأفاضل أي إلى الانتلجنسيا*** والواقع أن بليخانوف غالباً ما تحدث عن ايمان تشيريشيفسكي بالثورة الشعبية واعتقاده أن « الشعب ينهض من غفوته، باذلا جهوداً ضخمة لتحسين حياته، وإن كان بصورة لا واعية

إن ليبين، في عرض تعاليم تشيرنيشيفسكي من مطلق ماركسي ثابت، لم ير من الضروري أن ينتقد علناً العناصر الخاطئة في كتابات بليخانوف عن تشيرنيشيفسكي، خاصة وأن بليخانوف كان قريباً من البلشفيك في تلك الأيام يدافع عن التقاليد المادية والثورية للقرن التاسع عشر

وعلى الرغم من الأخطاء الجدية في كتابات بليخانوف عن تشيرنيسيفسكي، فقد لعبت هذه المؤلفات دوراً ايجابياً كبيراً ففيها ظهر تشيرنيسيفسكي ثورياً ومفكراً مادياً ومحارباً صلباً عن مصالح الجماهير ونصيراً للاشتراكية الخيالية، ورائداً للطريق الاشتراكي المتطور من الكومون الفلاحي الخ

يؤكد بليخانوف في مؤلفاته الأولى عن تشيرنيسيفسكي الكراهية الثورية الروسية لكل أنواع الاضطهاد، بما في ذلك الاضطهاد البرجوازي والتمجيد اللبرالي للرأسمالية

---

* مجموعة ليبين المجلد ٢٥ بالروسية ١٩٣٣ ص ٢٢١

** انظر هدا المجلد مقالة عن تشير نيشيفسكي [١٩٠٩] المقطع ١١

*** المرجع السابق

وفي الوقت نفسه يقدم تشيرنيشيفسكي على أنه مدافع عن مصالح الديمقراطية العالمية، مفعم بالعاطفة المشبوبة بحركات التحرر حيثما قامت - في فرنسا أو أميركا أو ايطاليا أو هنغاريا لقد كره تشيرنيسيفسكي اللبراليين الذين عملوا في هذه الحركات كمستغلين، مستخدمين أيدي الشعب لانتشال «الكستناء من النار ومع أن تشيرنيسيفسكي، كما أشار بليخانوف محقاً في مقالته الأولى للاشتراكي الديمقراطي، لم يجعل من الشعب شيئاً مثالياً في ذلك الوقت، ولم يبالغ في المزاج الثوري ولا في وعي الفلاحين الارقاء، الذي كان مدهوراً جداً وغير متطور، فانه علق آماله، وبشكل خاص بعد ١٨٥٩ على الانتفاضات الفلاحية، وأيضاً على النمو السريع لـ «حرب متطرف يقف كلياً إلى جانب الفلاحين، وآمن بامكانية الثورة الفلاحية*

إن مؤلفات بليخانوف عن تشيرنيشيفسكي تقدم تحليلاً مفصلاً للأفكار الاشتراكية الثورية الروسية وبانتقاد ستكلوف، الذي بالغ في كتابه في المشابهة بين آراء تشيرنيسيفسكي عن مجتمع المستقبل والاشتراكية العلمية، اعتبر بليخانوف آراءه نمطاً من الاشتراكية الخيالية

كان بليحانوف محقاً في اعتبار تشيرنيشيفسكي اشتراكياً خيالياً، لأن تشيرنيشيفسكي لم يربط التحول الاشتراكي للمجتمع مع النضال الثوري للبروليتاريا، ولم يستطع أن يفعل ذلك بتخلف روسيا القنانة في ذلك الزمن

ولاحظ بليخانوف في الوقت نفسه أن تشيرنيشيفسكي كان واعياً أهمية الصراع الطبقي في المجتمعات البشرية، متحققاً من ارتباط مفاهيم الشعب بالبيئة الاجتماعية، يمتلك فهماً عميقاً للشروط الاجتماعية التي تحت تأثيرها يظهر تطور الفكر السياسي والفلسفي الخ** وقد طفق يفهم التأثير الحاسم للعامل المادي لحياة الأمم على العوامل الأخرى لهذه الحياة***

كتب بليحانوف كان تشيرنيسيفسكي قادراً على تفسير تطور الفكر الفلسفي عن

---

* المرجع السابق

** المرجع السابق

*** المرجع السابق

طريق الصراع السياسي، أي أيضاً بتطور البيئة الاجتماعية ونحن نعرف أيضاً من مقالته «المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة أن أي مجتمع معين وأي قسم عضوي من ذلك المجتمع يعبر مفيداً، وهو مفيد بالضبط لذلك المجتمع أو لقسم منه كان على سيرنيسيفسكي فقط أن يطبق هذه النظرة باستمرار على تاريخ التطور الأيديولوجي للبشرية حتى يرى بوضوح كيف أن هذا التطورمشروط بالمصالح البشرية المتعارضة في المجتمع أي «اقتصاد هذا المجتمع المعني ولم ير تشيرنيسيفسكي في الواقع هذا بوضوح، أو في بعض الحالات على الأقل»*

وبتقصي الأفكار الاشتراكية التي يعرضها تشيرنيسيفسكي في **ما العمل؟** يلاحظ بليخانوف الخطوة الى الأمام التي اتخذها تشيرنيسيفسكي بالقياس إلى طوباويات الماضي، فيكتب «في هذه الأحلام [الشاهد هنا أحلام فيرا بافلوفنا بطلة رواية سيرنيسيفسكي « **ما العمل؟** م.ا] تسحرنا الثقة الكاملة عند تشيرنيسيفسكي بحقيقة أن النظام الاشتراكي يجب أن يقام على أساس التطبيق الواسع لانتاج القوى التكنيكية التي تطورت في المرحلة البرجوازية ويمكن لتحرر البروليتاريا أن يأتي من خلال انعتاق الانسان من « **سلطة الأرض** » والطبيعة بشكل عام. وقد خلق هذا الانعتاق تلك الجيوش من العمال وذاك التطبيق الواسع من القوى المنتجة المعاصرة على الانتاج الذي عنه يتحدث تشيرنيسيفسكي في أحلام فيرا بافلوفنا. .»** هذه الواقعية والنظرة العميقة لتشيرنيسيفسكي في المجتمع الاشتراكي المستقبلي يرفعانه فوق طوباويات النارودنيك التي صورت هذا المجتمع على شكل اتحاد الكومونات الفلاحية التي تفلح أرضها بالمحراث

لقد صنف بليخانوف تشيرنيسيفسكي الثوري الروسي بين أنصار المادية الحديثة وآمن أنه وهب ذهنا وقاداً نادراً فذاً يمكنه أن يكتشف التقصيرات والنواقص في آراء معلمه [يقصد فيورباخ م.ا] أي باختصار، يفعل ما فعله ماركس وانجلز »***

---

* المرجع السابق

** انظر هذا المجلد مقدمة «سيرنيسيفسكي [١٩٠٩]

*** المرجع السابق.

إلا أن هذا كما يسير بليخانوف، لم يتحقق بسبب الظروف الخارجية غير الملائمة في الحياة حوله

سعى بليخانوف في تتبع تطور أفكار تشيرنيشيفسكي فيما يتعلق بمتطلبات التطور الاجتماعي في روسيا وقد كان محقاً تماماً عندما قال عن تشيرنيشيفسكي: «اهتم بالفلسفة بصورة رئيسة باعتبارها الأساس النظري لبعض المتطلبات العملية* وفسر الضيق المشروط تاريخياً في النظرة العالمية لتشيرنيشيفسكي، الذي لم يصل الى مستوى الماركسية، بتخلف روسيا مالكة الأقنان وبالانعطاف غير الملائم الذي اتخذته حياته.

لقد أظهر بليخانوف أن تشيرنيشيفسكي بدأ طريقه من النقطة ذاتها التي ابتدأ بها ماركس وانجلز بالانتقال من هيغل إلى فيورباخ، إلا أنه يختلف عنهما في أنه عجز عن إخضاع الفلسفة الانتروبولوجية المادية الألمانية لمراجعة جذرية وظل نصيراً هذه الفلسفة طيلة حياته يكتب بليخانوف: «إن المقالة الفلسفية الوحيدة التي كتبها تشيرنيشيفسكي تشير إلى فيورباخ كان فيورباخ أول من تكلم عن المنطلق الانتروبولوجي في الفلسفة فلم يكن فيورباخ عنده مقصراً عن هيغل، وهذا يعني الشيء الكثير، لأن تشيرنيشيفسكي كان يعتبر هيغل واحداً من أعظم المفكرين الأعمق وهكذا عثر مؤلفنا على المنطلق الفلسفي وقد كان تشيرنيشيفسكي مادياً لأنه من أتباع فيورباخ** وفي اعتقاد بليخانوف أن تشيرنيسيفسكي، مثل فيورباخ، وجه اهتمامه في الفلسفة، بصورة رئيسية، إلى مسألة علاقة الذات بالموضوع، وقد حل هذه المسألة بطريقة مادية. إلا أنه لم يهبط إلى مستوى المادية المبتذلة التي كانت سائدة بين الطبيعيين

ولاظهار دور فيورباخ كمعلم في الفلسفة لتشيرنيشيفسكي، كان بليخانوف متجنياً في نظرته الأحادية التي اعتبر فيها تشيرنيسيفسكي مادياً انتروبولوجيا، فلم ير أنه لم يتبع فقط فلسفة فيورباخ المادية، بل تابع وطور تعاليم الديمقراطيين الثوريّين الروسيين الأولين بيلنسكي وهرزن بما في ذلك موقفهما من الديالكتيك «جبر الثورة» وتفسيرهما التاريخي للحياة الاجتماعية والفكر النظري للبشرية الذي كان، حسبما نعرف، غريباً

---

* المرجع السابق

** المرجع السابق

عن نظام فيورباخ الميتافيزيكي إن بليخانوف لم يصف في مؤلفاته المراحل الأولى في تكوين النظرة العالمية الفلسفية لمؤلف « العلاقة الجمالية بين الفن والواقع ولم يبين أنه تلقى معموديته الفلسفية ،لحقيقية الأولى من هرزن وبيلنسكي اللذين أصبحت مقالاتها في أوتيشستفيني زابسكي وسوفريمينيك رمز الايمان لتشيرنيسيفسكي الفتى في سنواته الثانوية والجامعية.

كان بليخانوف محقاً في ايضاح الدور الهام الذي لعبه ديالكتيك هيغل في تشكيل النظرة العالمية لتشيرنيسيفسكي، إلا أنه لم يكن دقيقاً تماماً فيما افترض أن مؤلف مقالة حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي تعلم الديالكتيك قبل كل شيء من هيغل، فنحن نعرف من تشيرنيسيفسكي نفسه أن ديالكتيك هيغل وعلى الأخص الروح الثورية التي تمثلها وفسرها بيلنسكي وهرزن، كان قد درسه تشيرنيسيفسكي في مؤلفات ذيك المفكرين الروسيين، وأن هيغل الأصلي كان أقل قرباً إليه من هيغل الذي شرحه تلميذاه الروسيان

وإذ اعتبر بليخانوف تشيرنيسيفسكي « مادياً حازماً و« مادياً بارزاً في العصر الحديث فانه أظهر أن مستوى آراء تشيرنيسيفسكي الفلسفية في روسيا القنانة تلك الأيام، كان ليس فقط وراء ماركس وانجلز بل وراءهما بقليل فقط، وهذا ما يدهشنا

يبين بليخانوف أن تشيرنيسيفسكي كان « عبداً لفيورباخ وأنه طبّق « النظريات الأساسية » للفلسفة على علم الجمال، والعلوم « الأخلاقية وهلمجرا وفي « المبدأ الانتربولوجي في الفلسفة » ومؤلفات السينات والسبعينات يبدأ تشيرنيسيفسكي، بخلاف فيورباخ، يرى الارتباط بين المثالية الفلسفية ومصالح الطبقات المستغلة. وقد كتب بليخانوف حول هذا في ١٩٠٩ أيضاً   لنا الحق أن نفترض أنه جمع الحالة القائمة للفلسفة مع الوضع الطبقي للشعب، فقام بدراسة خاصة في ذلك. وبالأحرى أقام تشيرنيشيفسكي ارتباطاً سببياً بين الانتشار الواسع لـ « الوهمية الفلسفية في الوقت الراهن وانحطاط الطبقة الاجتماعية التي أيديولوجيوها هم في معظمهم فلاسفة عصرنا »*

لم يكشف بليخانوف في مؤلفاته الاربناط الذي قام بين نظرة سيرنيسيفسكي

* المرجع السابق

العالمة والعلوم الطبيعية ومكنه من تقديم تقدير صحيح، من حيث الأساس، للاكتشافات الديالكتيكية العفوية في تلك العلوم، وبرهن في مؤلفاته، وإن من غير تماسك دائماً على مبدأ التطور في تطبيقه على ظواهر الطبيعة. كذلك لم يول بليخانوف اهتماما كافياً لحقيقة أن المادي الروسي، في تعبيره عن مصالح الفلاحين ارتقى الى مستوى النضال الثوري ضد القنانة، كان هو نفسه حراً من تأملية المادية القديمة، في طريقه إلى وضع قاعدة للممارسة العملية في نظرية المعرفة، من غير ارجاع الممارسة، كما فعل فيورباخ، إلى تأمل حسي ونشاط نظري، بل بجعل « النشاط المادي للشعب » في الممارسة باعتباره أهم العناصر

يضع بليخانوف فعلا اساساً خاصاً لجماليات تشيرنيشيفسكي إن الأخير، حسب تعبير بليخانوف « أعاد اعتبار الواقع » ليس في الفلسفة فحسب، فهذا ما فعله فيورباخ، بل في تطبيقه على فرع خاص من العلوم، مطوراً المبادىء التي وصل إليها بيلنسكي في السنوات الأخيرة لنشاطه الأدبي

بين بليخانوف في مقالاته في الاشتراكي الديمقراطي أن تشيرنيشيفسكي حارب ضد المثالية في كل « أركان وزوايا جمالياته وبشكل خاص في حل المسائل النظرية العامة حول منشأ الفن وأهميته في الحياة، في فهم الأنواع الاستاطيقية للجميل والرائع والمأساوي الخ

نجد في مؤلفات بليخانوف برهاناً رائعاً هو أن الناقد الروسي العظيم هذا كال ضربات أليمة للمثالية والميتافيزيكية في الجماليات وللنظرية الرجعية، الفن للفن » مدافعاً في المبادىء المادية في الأدب والفنون، وبين أن الفن باعلانه الحكم على ظواهر الحياة يعلمنا كيف نعيش، ولذلك نفجر نتائج جديدة في الفن.

غالباً ما أظهر بليخانوف أن سيربيسيفسكي (مثلاً في مقالته « نقد الميول الفلسفية المعادية للحيازة الجماعية للأرض ») ديالكتيكي رائع. ويأتي في مؤلفه عن سيربيشيفسكي ١٩٠٩ بوصف الأخير لطريقة هيغل الديالكتيكية، فاعتبر أنه « في آرائه الفلسفية يجد المرء جنين الديالكتيك المادي وهو جنين قابل للحياة فعلاً »* والشاهد على هذا، عند بليخانوف، هو اقرار

---

* المرجع السابق

سيرنيسيفسكي بالطبيعة الأبدية الشاملة لقانون تغير الأشكال، وتلاشي الأشكال القديمة وظهور أشكال جديدة الخ وهذا ما تثبته حقيقة أن « تشيرنيسيفسكي يرى أن الكائن الاجتماعي يشتمل على عناصر متصارعة متبادلة، إنه يرى أيضاً كيف أن صراع هذه العناصر الإجتماعية المتصارعة يقدم ويجدد الصراع المتبادل للأفكار النظرية ولكن هذا ليس كل شيء إنه لا يرى فقط أن تطور أي علم يحدد تطور النوع المطابق من الظواهر الاجتماعية إنه يعلم أن الصراع الطبقي لا بد من أن يترك أثراً عميقاً في مجمل التاريخ الداخلي للمجتمع »*

تظهر مؤلفات بليخانوف أن تشيرنيسيفسكي طالما ظل من حيث الأساس مثالياً في فهمه لتاريخ المجتمع، لكنه، بالطبع، لا يستطيع أن يكشف علمياً المنطق الداخلي وقوانين تطور الواقع الاجتماعي الذي يقود الأخير إلى ضرورة الانتقال إلى نقيضه، أي إلى واقع جديد وللسبب نفسه ربما انحرف أحياناً عن الديالكتيك متقدماً، مثلاً، بفرضيات حول « المتطلبات العادية للانسان والعلاقات الاجتماعية « اللا طبقية و« اللامعقولة وانسياقاً مع « المبدأ الانتروبولوجي استنتج من هذا « المبدأ النضال بين الرغبة في التحسين و« قوة العادة الخ وتظهر محدودية ديالكتيك سيرنيسفسكي أيضاً في تطبيقه الفاشل لما يسمى « الطريقة الافتراضية على دراسة ظواهر اقتصادية معينة في ما يسمى « شكلها الصافي ومن حيث المبدأ لا يمكن اعتبار الطريقة الافتراضية مسمية للميتافيزيك وبفضل هذه الطريقة سعى الاقتصادي الروسي البارز إلى الكشف عن جوهر الظواهر الاقتصادية، مجرداً نفسه من كل فرصة، من حيث أن « العنصر الأساسي الأهم في تلك الظواهر المفيد لنا لا بد من أن يكشف طبيعته في طريقة لا تجادل إلا أنه بتجريد نفسه من الشروط التاريخية الحسية التي تبدو فيها هذه الظاهرة أو تلك، غالباً ما انحرف عن المبدأ الديالكتيكي لحسية الحقيقة، نتيجة اختيار هذه الظواهر من منطلق متطلبات الانسان مثل الخير أو « الشر الخ إن على المرء ألا يفكر كما فكر بليخانوف في أن تشيرنيسيفسكي في اتباعه الطريقة الافتراضية في دراساته الاقتصادية، رفض الطريقة التاريخية (أي الديالكتيكية) لقد رفض بليخانوف نفسه هذه النظرة

---

* المرجع السابق

الأحادية الجانب باظهار التطبيق الرائع للديالكتيك من قبل مؤلف نقد الميول الفلسفية المعادية للحيازة الكوميونية للأرض» وهو كتاب اقتصادي ولا جدال

إن التناقضات في تقديرات بليخانوف لديالكتيك تشيرنيشيفسكي تفسرها حقيقة أنه غالباً ما يرى هذا الثوري الروسي كتابع لفيورباخ ولا يرى الخلافات الأساسية بين الفلسفة المادية للاتجاه الديمقراطي الثوري، في أكبر ممثليه تشيرنيشيفسكي، والمادية الميتافيزيكية لفيورباخ، حيث تتضمن فلسفة الديمقراطيين الثوريين الديالكتيك كطريقة أساسية للاقتراب من معرفة العالم فاعتبره بديلا نظرياً عن التحولات الثورية (جبر الثورة) والواقع كانت طريقة غير كاملة، وأيضاً غير موضحة ولا تطبق دائماً بتماسك، وخصوصاً في السوسيولوجيا على أي حال لم تكن إحدى الطرق الممكنة من التفكير، بما في ذلك الميتافيزيكية، التي طبقها سيرنيسيفسكي فقط، بل الطريقة الأساسية للديمقراطيين الثوريين التي شربت الجميع بنظرتهم العالمية إن الانطلاق من الصراع الطبقي والدفاع عن مصالح الناس العاديين والرفض الثوري للقديم والأنظمة البالية، كان أصيلا في تشيرنيشيفسكي، كديمقراطي ثوري، لذلك تخطى حدود الانتروبولوجية والميتافيزيك فقط «الشروط الخارجية غير الملائمة التي غالباً ما يحدث عنها بليخانوف، وتخلف روسيا الاقتصادي وغياب الحركة العاملة الثورية حتى سيبات القرن الماضي، وأخيراً العزلة القسرية لتشيرنيسيفسكي، الذي كان سجين القيصرية لأكثر من اثني عشر عاماً، عن الحركة الثورية، هو ما حال بينه وبين توسيع الديالكتيك الى حد ادراك الحياة الاجتماعية

إن مؤلفات بليخانوف عن سيرنيسيفسكي، كما يبدو لنا، تتضمن عددا من التصريحات المتناقضة والأحكام القابلة للنقاش ولكن بشكل عام، وعلى الرغم من عدم توفر التماسك، ووجود الأخطاء الفردية في تقديراته لتشيريسيفسكي، وعلى الأخص في مؤلفاته في الفترة المنشفيكية، قدم بليخانوف في مؤلفاته أول تحلل علمي ماركسي لنشاط العلامة والكاتب الروسي الكبير، ولنظرته العالمة

كان بليخانوف محقاً تماماً في الاعتقاد أنه قبل انتشار الماركسية في روسيا كانت

تشيرنيسيفسكي أهم مكتسب للفكر الاجتماعي والفلسفي الروسي وحالما تخلى هذا الفكر عن مكتسبه [مثلاً النارودنيك م.١] تعثر في تطوره

★ ★ ★

من بين جميع المفكرين الثوريين الروس كان فيساريون غريغوريفتش بيلنسكي، مع سيرنبسيفكي، من حظي بأعمق التعاطف والتقدير إن بليخانوف هو مؤلف عدد من الكتب عن بيلنسكي «بيلنسكي والواقع العقلي (١٨٩٧) وخطاب «بيلنسكي (١٨٩٨) ومقالة طويلة عن **تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر** بعنوان فيساريون غريغوريفتش بيلنسكي (١٩٠٩) ومقالاته «عن بيلنسكي في صحيفة **سوفر ميني مير** (١٩١٠)* و«فيساريون بيلنسكي وفاليريان ميكوف (١٩١١) ومقالة في الذكرى المئوية لميلاد بيلنسكي (١٩١١) في صحيفة **ناش بوت** وتناول علم الجمال والآراء النقدية لبيلنسكي في مقالة «الآراء الأدبية لبيلنسكي (١٨٩٧) ومراجعة كتب في العام نفسه حول كتاب بيلنسكي **النقاد الروس**** وأيضاً مراجعة كتبت في (١٩١١) حول كتاب اشيفسكي **بيلنسكي في نظر معاصريه**.

لقد اعتبر بليخانوف بيلنسكي إحدى الشخصيات الرئيسية في تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي كتب في ١٨٩٧ إنها لمناسبة أن ندرس الآن تاريخ تطوره الثقافي ونشاطه الأدبي من وجهة نظر التصورات **الملموسة** لأيامنا وكلما زاد اهتمامنا بدراسة هذا التاريخ، أصبحنا أعمق قناعة أن بيلنسكي كان أرفع منظومة فلسفية ظهرت في أدبنا »***

لاحظ بليخانوف بحق، في تتبعه تطور بيلنسكي السياسي والايديولوجي في الثلاثينات والأربعينات من القرن السابق أنه مهما أدان ناقدنا «صمت الشعب أمام الواقع الروسي لذلك الزمن، فإنه لا يمكن أن يعتبر ممثلاً لأي اتجاه معاد للديمقراطية في الفكر الروسي الاجتماعي، لقد «شعر بتعاطف عميق مع المضطهدين أكثر بكثير من الأعضاء الآخرين من المسغربين****، أي هرزن وتشيرنيشيفسكي والآخرين واذ رأى بحق أن بيلنسكي مدافع عن الشعب، إلا أنه، على غير ما ذهب ليبين، لم ير فيه متحدثاً عن آمال الأرقاء والفلاحين وطائعهم، بل رأى فيه ممثلا ل

---

* في هذه المؤلفات موجودة ضمن هذا المجلد

** هذان المؤلفان موجودان في المجلد الخامس من الطبعة الحالية

*** انظر هذا المجلد «بيلسكي والواقع العقلي [١٨٩٧]

**** المرجع السابق

Ranzochintsi ومحدثاً عن طموحاتهم. إلا أن بلبخانوف على النقيض من اللبراليين وأيديولوجي « البرجوازية الصغيرة للعصر الحديث لم ير بالتأكيد في كتابات بيلنسكي أنها بلا أساس أملاها عليه « قلبه النبيل » كتب: « لم يكن بيلنسكي نبيلاً من الدرجة الممتازة فحسب، بل أيضاً أظهر بصيرة مذهلة، إن لم يكن في الحل ففي صيغة أهم وأعقد قضايا تطورنا الاجتماعي **حتى اليوم، فان كل خطوة إلى الأمام حققها الفكر الاجتماعي هي مساهمة جديدة في حل تلك المسائل الأساسية للتطور الاجتماعي التي اكتشفها بيلنسكي ببصيرته السوسيولوجية الرائعة، إلا أنها لم تكن لتحل على يديه بسبب التخلف الشديد لـ « الواقع » الروسي المعاصر »***

يبين بليخانوف أن بيلنسكي حتى في مرحلة « المصالحة مع الواقع أي ١٨٣٧-١٨٣٩ اتجه إلى الأمام وليس إلى الخلف في الميدان النظري رافضاً « المثال المجرد الرومانتيكي الذي لا أساس له في الواقع، فاتبع هيغل في الايمان بضرورة الانطلاق من الواقع، لدراسة تناقضاته واتجاهات تطوره. وبالتالي بحث بيلنسكي عن أساس أكثر واقعية لفكرته عن النفي أكثر من النفي تحت اسم « المثال المجرد » ليجسد فكرة النفي للواقع القديم بواقع جديد ينمو مطقياً في عملية الصراع على أساس الواقع القديم

إن تخلف روسيا العبودية في ذلك الوقت حال بين بيلنسكي وحل هذه المهمة النظرية الهامة جداً

لم يكن بيلنسكي في الأربعينات متنوراً فحسب، بل كان أيضاً ديمقراطياً ثورياً، وناقداً للرأسمالية ورائداً للاشتراكية المثالية. ودفاعه عن حقوق « الفرد الانساني في تلك السنوات لا تحدها ولا تقيدها طريقته الديالكتيكية في كتاباته، كما ذهب بليخانوف خطأ على العكس، فقد طبق بيلنسكي مبدأ التطور الديالكتيكي بصورة رائعة (مثلاً في مقالته « خفايا بارير » وفي رسائله من فرانسا وألمانيا) ليس فقط على فهم العالم الاقطاعي، بل أيضاً على تقدير العالم الرأسمالي، وأدى بناقدنا إلى نتيجة هي أن النظام الرأسمالي، على الرغم من تقدميته بالقياس بالاقطاعية، كان نظاماً عابراً ولا يمكن أن يعتبر النظام الاجتماعي المثالي

---

* المرجع السابق

كان بليخانوف مخطئاً في تشبيه آراء بيلنسكي بأنصار السلافية، فقد كتب في مقالته ١٩٠٩ أن الشعب من وجهة نظر بيلنسكي، أو البروليتاريا على وجه الدقة، محكوم عليها إلى الأبد أن تظل أداة سلبية للبرجوازية »* ومع أن بيلنسكي تحقق من الطبيعة التقدمية للتطور الرأسمالي في روسيا، قياساً بالاقطاعية، فانه لم يعلق آماله أبداً على البرجوازية، كما أنه أيضاً لم يكن مثالياً في نظرته إلى التخلف البطريركي للقنانة كما فعل أنصار السلافية.

يظهر بليخانوف من تحليل آراء بيلنسكي الفلسفية أن هذا الناقد الروسي العظيم يضوي تحت لواء مدرسة الفلسفة الألمانية الكلاسيكية التي فتحت أمامه، وأمام غيره من المفكرين آفاقاً عريضة واسعة، مظهراً أن قوة الفرص تخلي المكان لانتصار العقل وأن الضرورة تصبح القاعدة الأساسية للحرية إن بيلنسكي يصف في الفلسفة الألمانية الكلاسيكية، وفي فلسفة هيغل على وجه الخصوص

وحيث أن بيلنسكي في السوات الأولى لحماسته لهيعل (١٨٣٧-١٨٣٩) فسر « الواقع بشكل واسع جداً، فجعله مساوياً للوجود، وكان هدا - وان لوقت قصير أحد أسباب وصوله إلى نتائج محافظة، فقد تمرد على هده النتائج منذ ١٨٤٠ إن بليخانوف يشرح ذلك كما يلي: « باعلان هيغل عن نفسه أنه مالك الحقيقة المطلقه ومسجم مع الموجودات، أدار هيغل ظهره لكل تطور وأقر أنه عقل الضرورة التي تعاني منه البشرية في أيامه. وكان هذا مثيل اعلان نفسه مفلساً فلسفياً وهذا الافلاس هو ما أغضب بيلنسكي »**

كان تمرد بيلنسكي ضدهيغل، كما يرى بليخانوف، مؤسساً تأسساً نظرياً جيداً بقدر ما كان قائماً على ديالكتيك هيغل.

ويكتب بليخانوف أن بيلنسكي بعد مضي فترة قصيرة من الحماسة للهعلنة اليسارية، انتقل من هيغل إلى فيورباخ، مثل المفكرين الأوروبيين الغربيين. وقد فهم بليخانوف جوهر المسألة في هذه الناحية فهماً صحيحاً. ولكن فكرته عن تطور بيلسكي السياسي والفسفي، بصورة عامة، فكرة مخططة ومبرمجة وخاطئة في عدة مجالات نقرأ

---

* المرجع السابق

** المرجع السابق.

في مقالته عن بيلنسكي (١٩٠٩): « الفصول الثلاثة الأولى من مسرحية بلنسكي الثقافية يمكن أن نعطيها العناوين التالية: ١) المثال المجرد والفلسفة الفخمية ٢) المصالحة مع الواقع تحت تأثير النتائج « المطلقة لفلسفة هيغل ٣) التمرد ضد « الواقع والانتقال جزئياً إلى نظرة مجردة عن « الفرد »، والانتقال جزئياً أيضاً إلى نظرة حسية لديالكتيك هيغل.

وابتدأ الفصل الرابع من هذه المسرحية بالانفصال الكلي عن المثالية والتحول إلى الموقف المادي لفيورباخ بيد أن يد الموت أسدلت الستار بعد المشاهد الافتتاحية لهذا الفصل »*

إن تطور بيلنسكي النظري والايديولوجي الحقيقي يختلف إختلافاً أساساً عن أفكار بليخانوف حول التطور الفلسفي لهذا الناقد العظيم إن البحث السوفياتي يبين أن بيلنسكي اعتنق فلسفة الأنوار الفرنسية وراديسيف في بداية الثلاثينات أثناء مرحلته الجامعية، قبل أن يصبح مؤيداً وتابعاً للفلسفة المثالية الألمانية. إن تأثير التعاليم الفلسفية لفختة مع « مثالها المجرد » على بيلنسكي كان قصيراً جداً، ولم يظهر هذا التأثير في أي شيء هام عند هذا الناقد الفتى وكان بليخانوف محقاً في اعتقاده أن بيلنسكي خلال هذه الفترة اتخذ موقف التعاطف التام والصريح من الثورة الفرنسية »**

خلال المرحلة التالية لتطوره السياسي والأيديولوجي لم يوقف هذا الناقد الروسي عن خدمة الأفكار التقدمية الموجهة مباشرة ضد العبودية والملكية ويكتب بلنخانوف نفسه إن بيلنسكي لم يتصالح مع الواقع، بل مع المصير القاتم لمثاله المجرد »*** إلا أن بيلنسكي الفلسفة انطلق من المثالية الموضوعية التي أقرت بالواقع باعتباره خالق الروح المطلق وقد تصارع هذا الرأي مع طموحات بيلنسكي التنويرية

وإذ أصبح ديمقراطياً ثورياً واشتراكياً خيالياً في المرحلة الثالثة من تطوره، بعد ١٨٤٠ سعى بيلنسكي. وأفلح في مسعاه بعد ١٨٤٠ في التغلب على التناقض بين آرائه الاجتماعية السياسية التقدمية والتصورات القوية للمثالية الفلسفية في نظريه

---

* المرجع السابق

** المرجع السابق

*** المرجع السابق

العالمية، فوضع بيلنسكي الثوري « التنويري في ميدان الأيديولوجيا السياسية ساعده في تقوية العناصر الديالكتيكية في آرائه الفلسفية، ولم يسبب له هذا تراجعاً عنها، كما ذهب بليخانوف

يبين بليخانوف أن « المرحلة الرابعة في تطور بيلنسكي الايديولوجي والنظري (١٨٤٤-١٨٤٨) تتسم بنزاعه مع المثالية وانتقال الى مادية فيورباخ إن معظم مقالات بيلنسكي النقدية بما في ذلك مقالاته الأخيرة عن بوشكين، ومراجعاته السوية عن الأدب الروسي لعامي ١٨٤٦ و١٨٤٧ ورسالته الشهيرة إلى غوغول، ومراجعاته الرائعة لكتب تاريخية، ومقالاته اللاذعة المدمرة لمثالية أنصار السلافية الخ كتبت بروح النظرة العالمية المادية.

يكتب بليخانوف: « مقالات بيلنسكي المكتوبة في الأعوام الأخيرة لنشاطه، تتضمن برنامجاً كاملاً لم يقم بتنفيذه حتى الآن نقدنا الأدبي، وسينفذ فقط عندما يتهيأ تطبيق الموقف السوسيولوجي. وهذا يظهر أيضاً القوة الرائعة لثقافته*

وكان بليخانوف محقاً أيضاً عندما تحدث عن بصيرة بيلنسكي السوسيولوجية العظيمة وأشار إلى أنه في أواخر حياته، بعد أن ترك المثالية وتحول الى مادية فيورباخ « اعتبر تطور الطبقات والعلاقات الاجتماعية وليس تطور الروح المطلق، كمثال أخير للنقد »**

غالباً ما كان بليخانوف محقاً في قوله أن بيلنسكي « في مرحلة ماجرته المريرة مع أنصار السلافية كان ديالكتيكياً، بينما كان العنصر الديالكتيكي في نظرته العالمية غائباً تماماً وعلى هيغل أن يسمي هؤلاء ميتافيزيقيين من الدرجة الأولى »***

إلا أن انحراف بيلنسكي عن نتيجته الصحيحة، جعل بليخانوف يعتبره خطأ ملتزماً بالديالكتيك فقط عندما كان يتناول التطور الاجتماعي لأوروبا الغربية واعتناقه لنظرة المتنورين عندما كان يعالج تطور روسيا ففي مجادلته مع أنصار السلافية حول مسائل التطور التاريخي لروسيا اعتنق بيلنسكي نظرة الصراع الطبقي،

---

* المرجع السابق

** المرجع السابق

*** المرجع السابق

الي طمها ليس فقط على الحياة الاجتماعية للغرب، بل أيضاً على تاريخ روسيا لقد ربط بيلنسكي مستقبلها كله بآماله في تمرد الفلاحين المضطهدين

لقد اقترف بليخانوف عدة أخطاء في تقويمه لآراء بيلنسكي الفلسفية وطبيعة ماديه وديالكتيكيه، إلا أننا لا نستطيع تعمية الشيء الرئيسي وهو أن بليخانوف جعل بيلنسكي مفكراً رفيع المسوى، وعلى الأخص في ميدان علم الاجتماع وعلم الجمال قال بليخانوف إن بيلنسكي «ولد فيلسوفاً وعالم اجتماع ذاك الذي حار كل الصفات الضرورية لجعله ناقداً ممتازاً وداعية رائعاً »* وفي مراجعه عن كتاب أسيفسكي **بيلنسكي في نظر معاصريه** (١٩١١) أظهر بليخانوف أن بيلنسكي لم يكن فقط رجلا رائعاً وناقداً ممتازاً بل كان أيضاً عالم اجتماع رائعاً كتب. «لم يكتب بيلنسكي دراسة سوسولوجية واحدة، إلا أنني مقتنع كل الاقتناع أنه -عندما لا يغلب العنصر المتنور فيه على العنصر الديالكتيكي ويسكته - كان واعياً تماماً، بل صاغ ما يمكن أن يسمى عندئذ مقدمات تمهيدية لكل سوسيولوجيا مستقبلية تطمح أن تصبح علماً وفي أيامه مفكر رائع فقط بإمكانه امتلاك مثل هذا الوعي وهذا هو السبب في أنني سميته عالم اجتماع رائعاً

تكشف مؤلفات بليخانوف السمات الهامة لآراء بيلنسكي السوسيولوجية التي قدمت لنا الأسس لاعتباره سوسيولوجياً رائعاً: التفسير الديالكتيكي للواقع، بما فيه الواقع الاجتماعي، كعملية ناقضية داخلية تحكمها قوانين، وفكرة الرأسمالية كنظام اجتماعي تقدمي قياساً بالاقطاعية، وتحول الرأسمالية إلى نظام غريب عن مصالح الشعب، وفكرة نفي كل العلاقات الاجتماعية البالية والمؤسسات والأفكار القديمه الخ

لقد قدم بليخانوف صورة حية، وصحيحة في مجملها، عن تطور الآراء الجمالية عند بيلنسكي وهكذا في مقالته في الذكرى المئوية لميلاد بيلنسكي، التي طبعت في صحيفة باش بوب، يدعو بليخانوف بيلنسكي الناقد الروسي الأعظم الذي نجد في مقالاته أصح تقدير للمؤلفات البارزة في الأدب الروسي وأظهر هنا بليخانوف بيلنسكي في آخر سني حياته بحث، نتيجة دراسته تطور الفلسفة، في استخدام الطريقه العلميه في دراسة الظواهر التاريخية ويكتب بليخانوف «عندما اعسو بيلنسكي

* المرجع السابق

مثالية هيغل شرح تبدل الظاهرات الأدبية، وكذلك كل الحركة التاريخية للبشرية، بالحركة الديالكتيكية للفكرة المطلقة. ولكن عندما تجاوز ذلك الى مادية **فيورباخ**، طفق يربط **تطور الأدب بتطور العلاقات الاجتماعية، بالتبدل التاريخي لمختلف الفئات والطبقات** » بعد أن خلع بيلنسكي « قبعة » هيغل الفلسفية، أي بعد الانفصال عن المثالية المطلقة يلاحظ بليخانوف محقاً أنه « ..طفق » يطبق الطريقة الديالكتيكية للأخير [بصورة متماسكة]. ويتضح ذلك في تطور آرائه الأدبية: فقد تغيرت بشكل رئيسي بمعنى أنها أصبحت مدمجة بعنصر الديالكتيك »*

إن بيلنسكي يتحدى الآن ما يسمى نظرية « الفن الخالص التي ترى أن الفن « اعادة انتاج الواقع، نسخة مطابقة للعالم، اعادة خلقه، كما كان الآن، كما يلاحظ بليخانوف بحق، ينظر إلى واجب الفنان « من منطلق ديالكتيكي، مؤمناً أن الفنان ينسج الواقع ويتأثر به »** ومن جهة أخرى، اعتقد بليخانوف أن بيلنسكي بعد تمرده على « الواقع الروسي الوضيع » أقام محاكماته الأدبية على مفاهيم مجردة نبيلة من الوجهة الأخلاقية إلا أنها غير مقنعة من الوجهة النظرية. وفي مقالة « حول بيلنسكي يصف بليخانوف، كمتراجع عن الديالكتيك، حقيقة أن الناقد العظيم، باعتباره متنوراً ذهب الى أن الفن، وهو أبعد من أن يصور الواقع بدقة « يجب أن يوجه رأي القارىء إلى مظاهر معينة من الواقع »***

إلا أن بيلنسكي لم يحاول أن يضفي على الواقع أو الفن أي ادراك مسبق، أي مبادىء قبلية من « القسر فالفن يلفظ حكمه على ظواهر الحياة ليس باسم المفاهيم المجردة لـ « العقل » وليس باسم مقولات « ما يجب أن يكون لقد آمن بيلنسكي أن المحاكمات الجمالية تعبر عن وجهة نظر تلك القوى المحددة تاريخياً في المجتمع، التي بفضل الظروف التاريخية تحارب من أجل تحويل الحياة جذرياً بحيث أن القديم يخلي المكان للجديد

في التحليل الأخير، قدر بليخانوف المستوى العلمي لآراء بيلنسكي الجمالية تقديراً

---

* المرجع السابق

** المرجع السابق

*** المرجع السابق

عالياً جداً ‌ انه يذهب أن الجمال من وجهة نظر بيلنسكي لا يفرض على الفن المثل التي يجب أن ىحقق في الفن، بل على الجمال أن « يعتبر الفن موضوعاً وجد قبله بكثير وهو مدين له بوجوده ‌ ويلاحظ بليخانوف أن « هذه المهمة العلمية الخطيرة التي طرحها علم الجمال لم تحل بعد بمجملها ويمكن أن تحل فقط في المستقبل البعيد تقريباً »*

بسكل عام، فهم بليخانوف فهماً صحيحاً جوهر آراء بيلنسكي الجمالية، التي وجدت تعبيرها في معالجته المادية لمسألة موضوع الفن، وواقعية الطبيعة الأيديولوجية للفن، ووحدة المضمون والشكل في الفن.

وابتداء من مراجعته المكتوبة في ١٨٩٧ على مقالات فوليسكي وكتاب **النقاد الروس** اتجهت جميع مؤلفات بليخانوف عن بيلنسكي إلى الدفاع عن التقاليد الثورية والنظرية للمفكر والناقد الروسي العظيم

على الرغم من بعض الأخطاء في مؤلفات بليخانوف عن بيلنسكي، فان الفضل يرجع إلى هذه المؤلفات التي ظهر بيلنسكي لأول مرة في تاريخ العلم الروسي والفكر الاجتماعي مفكراً كبيراً، وممثلا بـارزاً للرازنوشنتسي Raznochintsi الثورية، وسلفاً رائعاً للماركسية في روسيا

* * *

طالما كتب بليخانوف عن النظرة العالمية لالكسدر ايفانوفيتش هرزن ونشاطه في ١٨٩٠ و١٩٠٠ ‌ إلا أنه تناول آراءه في عدة « مؤلفات كتبت في ١٩٠٩-١٩١٢ « هرزن في المهجر ‌ وهي مقالة كتبت ١٩٠٩ ونشرت في المجلد الثالث من **تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر** و« الذكرى المئوية لميلاد الكسندر هرزن » (نشرت في صحيفة **بودوشي** ٨ذار ١٩١١) و« هرزن والقنانة (طبعت في **سوفريميني مير**في تشرين الثاني وكانون الأول ١٩١١) و« الآراء الفلسفية لهرزن » (مقالة نشرت في **سوفريميني مير** في آذار ونيسان ١٩١٢) وخطاب على قبر هرزن في نيس (نيسان ١٩١٢) ومراجعة كتاب بوغوتشارسكي **هرزن** (نشرت في **سوفريميني مير** في حريران ١٩١٢) ومحاضرة بليخانوف « تولستوي وهرزن » (ألقيت في حزيران

---

* المرجع السابق

١٩١٢) التي ظلت من غير نشر طيلة فترة حياته، وبعض مختصرات المحاضرات غير الكاملة حول هرزن التي ألقيت أيضاً في ١٩١٢*

كتب بليخانوف عن آراء هرزن الاجتماعية السياسية والفلسفية مؤخراً في فترة ساطه المنسفيكي وقد ترك هذه أثراً قوياً في مضمون تلك المؤلفات: فالعناصر المغلوطة في آراء بليخانوف عن الفكر الثوري الروسي في القرن التاسع عشر بدت فيها أكثر بكثير مما بدت في كتاباته عن بيلنسكي وتشيرنيشيفسكي

تضمن مؤلفات بليخانوف عن هرزن الكثير مما هو قيم وتعليمي في هذه المؤلفات، وعلى الأخص في مقالة «هرزن القنانة أظهر بليخانوف دور هرزن كمحارب متفان ضد والقنانة والقيصرية وأحد رواد حركة التحرير في روسيا لقد لاحظ بحق أنه كلما فقد هرزن وأوغاريف الايمان بالنبالة تعاظم ايمانهما بالقدرة والقوة الثوريين للرازنوسسي Raznochintsi

لقد دافع هرزن عن مصالح الارقاء الفلاحين. كتب بليخانوف عن هرزن. «عندما ينتقل الانسان المنتمي إلى الطبقة الحاكمة إلى الطبقة المضطهدة، فانه لا يثبت أنه حرر نفسه من كل تأثير طبقي بشكل عام، بل يثبت فقط أنه حرر نفسه من تأثير طبقة واحدة وبات خاضعاً لتأثير أخرى»**

أظهر بليخانوف في كتاباته أن هرزن بعد أن أصبح اشتراكياً خيالياً في مستهل الثلاثينات، في الجامعة، بتأثير أفكار سان سيمون، ظل اشتراكياً بقية حياته. لقد كان بليخانوف متنبهاً إلى الطبيعة المحدودة للاشتراكية الخيالية عندما كتب: «ألح هرزن حتى آخر حياته على خطيئة لا تميز فقط تعاليم سان سيمون، بل تعاليم الاشتراكية الخيالية بشكل عام. **أقصد عجز هذا النمط من الاشتراكية عن الامساك بالعلاقة بين الكائن والوعي، بين الاقتصاد والسياسة**»***

يكشف بليخانوف الفارق الأساسي، وإن بشكل متقطع، بين آراء هرزن الثورية

---

* يتضمن المجلد الحالي المقالات التالية هرزن والقنانة الاراء الفلسفية لهرزن خطاب على قبر هرزن في نيس ومراجعة كتاب بوغوسلافسكي هرزن

** المرجع السابق

*** المرجع السابق

في الخمسيات وآراء الليبراليين الروس والأوروبيين الغربيين حول المسائل الأساسية للحياة الاجتماعية. وبانتقاد بليخانوف للمؤرخين الليبراليين شيشخين فيترينسكي وباغوسارسكي اللذين قدما هرزن كليبرالي، يسدد على الطبيعة الاشتراكية لأفكار هرزن حول المجتمع كتب: «هرزن الاشتراكي الذي لا يقبل التصحيح، لم يستطع حل تلك المسائل بالطريقة التي حل بها أغلب هذه المسائل معظم المعجبين المعاصرين له. وعندئذٍ أدار هؤلاء المعجبون المعاصرون ظهورهم **للكولوكول***

يلاحظ بليخانوف بحق أن أوغاريف وهرزن في مقالاتها من ١٨٦٢ في الكولوكول وفي المنشورات الأخرى، مع أنها تريّت بالنبالة الضيقة، حرضت على الانضمام إلى القوى المشتركة والاعتماد على الفلاحين. على أي حال فان رأي **بليخانوف الخاطىء اللاحق حول** القدرة الثورية الهزيلة للفلاحين، عزاه خطأ لكل من هرزن وأوغاريف اللذين، حسب اعتقاده، رأيا في الفلاحين «موضوعاً سلبياً للتأثير التنويري للأقلية المثقفة»**

إن بليخانوف يخطىء عندما يقول في مقالته «هرزن في المهجر» أن هرزن بسبب نقص معرفته من جهة الشعب «لم يؤمن بالنشاط التاريخي المستقل للشعب. إنه يتوقع مثل هذا النشاط المستقل من بعض فئات الطبقات العليا، من الانتلجنسيا، كما سمي الآن في روسيا والنتيجة التي وصل إليها بليخانوف في مقالته «آراء هرزن الفلسفية [وهي أن الاشتراكي الروسي الذي تبنى رأياً متفائلاً في سيكولوجيا الصراع الطبقي للفلاحين لم يساعد على حل المصالحة الطبقية بل أزّمها، وهذا هو سبب اتباع هرزن للاشتراكيين الخياليين في إدانة الصراع الطبقي وخيانة الطريقة الديالكتيكية لمعلمه، هيغل]، هي نتيجة خاطئة كل الخطأ(***)

الواقع أن هرزن في أواخر أيامه بالضبط أصبح ديمقراطياً ثورياً متماسكاً، ونصيراً عنيداً للصراع الطبقي، ورائداً للثورة الفلاحية في روسيا (التي اعتبرها خطأ اشتراكية في طبيعتها)؛ وتعاطف بحرارة مع الحركات التحررية الأوروبية الغربية، ومع حركة

---

* المرجع السابق

** المرجع السابق

*** المرجع السابق

الطبقة العاملة المتعاظمة أيضاً، كما تظهر ذلك رسائله «إلى صديق قديم

إن بليخانوف لم يول اهتماماً للحقيقة التي أولاها لينين اهتماماً جدياً أي أن هرزن، ليس قبل أن يموت بكثير طفق في رسائله «إلى صديق قديم يعلق آماله على البروليتاريا الصناعية لأوروبا الغربية ونضالها الثوري الذي قادته الأممية الأولى

فيما يتعلق بهرزن يكرر بليخانوف الغلطة ذاتها التي يقترفها مع بيلنسكي فحيث يؤيد هرزن الصحفي، في رأي بليخانوف، النضال الطبقي الحازم ضد ملاك الأرض والقيصرية، فانه، كما يقول بليخانوف، اعتنق في فلسفة التاريخ رأياً خاطئاً وهو أن النضال الطبقي لا يلعب دوراً على الاطلاق في تطور الحركة الداخلية في روسيا

إن بليخانوف يعارض بصورة خاطئة الرأي الذي يعتنقه هرزن وأوغاريف بالآراء المشابهة للديمقراطي الثوري المتنور بيلنسكي، معتقداً أن هرزن وأوغاريف يعلقان آمالهما على «الطبقة المثقفة في الدولة أي النبالة، وبيلنسكي على النبالة التي انتقلت إلى البرجوازية: والواقع أن هرزن وأوغاريف، على الرغم من تذبذبهما في الخمسينات، علقا آمالهما في مستقبل روسيا على الحركة الفلاحية، معتبرين «الأقلية المثقفة»، النبلاء التقدميين والرازنوشنتسي، «عامل تخمر مدعوة إلى دفع الفلاحين للقتال ضد القنانة. وإفادة بليخانوف أن هرزن، باعتباره نصيراً لـ «الاسراكية الفلاحية اختلف جداً في آرائه عن سيرنيسيفسكي، الذي اعتبره بليخانوف نصيراً لـ «الاشتراكية الغربية الخالصة لا أساس لها أيضاً فالواقع أن الاختلافات بين هذين الديمقراطيين الثوريين الروسيين كانت تكتيكية قبل كل شيء، ولم تكن نظرية أو سياسية.

إن بليخانوف قدر دور هرزن في حركة التحرر الروسية تقديراً عالياً، رغم كل الأخطاء في تحليله الآراء الاجتماعية السياسية التي تبناها هرزن والديمقراطيون الثوريون الروس الآخرون، التي ارتبطت باهمال بليخانوف لدور الفلاحين وايديولوجييهم في تاريخ النضال الطبقي وقد أظهر بليخانوف في كتاباته أن هرزن كان شخصاً موهوباً جداً، كرس موهبته الفكرية والمعرفية والأدبية لقضية انعتاق الشعب الروسي، ذلك أن فكرنا الاجتماعي في شخصه، وقد اضطرته الرقابة إلى التنكر بثياب النقد الأدبي قد خطا أخيراً بصورة مكشوفة وجريئة في ميدان الصحافة لقد استعرض بليخانوف بصورة حيوية ومقنعة الدور الذي لعبه هرزن في

عرض الحركة الديمقراطية العالمية، التي عرف روسيا كدركي في أوروبا روسيا أخرى، روسيا المفكرة، روسيا المتألمة، روسيا المقاتلة

آراء هرزن الاجتماعية السياسية وكل نشاطه الاجتماعي والثوري كانت مربطة أساساً بنظرته الفلسفية العالمية كتب بليخانوف عنه: كانت فلسفته، في امبيارها، فلسفة رجل **نشيط** لقد اهتمت أن تتابع في يومياته الانطباع الذي تتركه فيه قراءاته لكبار الفلاسفة وتقديره لميزاتهم النظرية لم تكن تخلو دائماً من الخطأ، وهي، كما يُعتقد، سطحية عابرة، بيد أنه لم يكن يخطىء (ويضع تعليقات مُسْهبة في ذلك) في تقدير ما يمكن أن يسمى المظاهرة **النشيطة** في نظرياتهم*

يقدم بليخانوف في مؤلفاته فكرة أن الآراء الفلسفية لهرزن مسوبة بديالكتيك تمثله من آراء هيغل الفلسفية مثل « جبر الثورة

وفي حديثه عن كتاب هرزن **رسائل في دراسة الطبيعة** الذي كشف فيه السمة الديالكتيكية لظواهر الطبيعة، يكتب: كل هذه المقتطفات يمكن أن تقدم بسهولة الانطباع أنها لم تكتب في بداية الأربعينات، بل في النصف الأخير من السبعينات. ولم يكتبها هرزن بل انجلز إلى هدا الحد شابه أفكار الأول الأخير ويبين هدا التشابه الدقيق أن فكر هرزن كان يعمل في اتجاه انجلز ذاته، وبالتالي في اتجاه ماركس »**

يقدم بليخانوف تقديراً صحيحاً لبعض المزايا التي لا جدال فيها في الآراء الفلسفة لمؤلف **رسائل في دراسة الطبيعة**. الذي تمرد على المبدأ اللاهوتي في خلق الله للطبيعة. وعلى ترجمة هيغل لهذا المبدأ إلى لغة من الفلسفة، فدخل هرزن في مساندة مع صديقه غرانوفسكي الذي رفض ترك آرائه الدينية الخ ولاحظ بليخانوف أن هرزن في السنات « لم يكن راضياً عن الجواب المثالي لهيغل وشلنج عن مسألة علاقة الفكر بالكائن. في ذلك الوقت لا بد أنه عرف جيداً وشارك تماماً في الرأي الذي اعتنقه فيورباخ المادي في هذه المسألة »***

إلا أن بليخانوف كان على خطأ كبير في شرحه فلسفة هرزن عندما يعتبر أن مؤلفي

---

* المرجع السابق

** المرجع السابق

*** المرجع السابق

هرزن الفلسفيين في ١٨٤٢-١٨٤٦ « الهواية في العلم و« رسائل في دراسة الطبيعة » يعكسان وجهة نظر المثالية المطلقة. لقد عجز بليخانوف عن فهم أن المصطلح الهيغلي المثالي عند هرزن، وتطبيقه المتقطع للمبادىء المادية، ونقده القيود الميتافيزيكية للمادية القديمة، وعلى الأخص في مسألة وحدة الكائن والفكر، لا تميز هرزن كنصير للمثالية وخصم للمادية الفلسفية مطلقاً إن بليخانوف يعتبر خطأ أن **رسائل في دراسة الطبيعة** ترمي فقط إلى مناوأة المثالية الذاتية ويستنتج بصورة خاطئة أن **رسائل في دراسة الطبيعة** تدخل ضمن الاستنتاجات المثالية، وأن « **مؤلفها** في كل مرة يحاول انتقاد **المادية**، يثبت أن **مثالي** عنيد »*

إلا أن هرزن كان على حق في نقده المادية الميتافيزيكية القديمة لتجريبيتها واحتقارها التفكير النظري، بسبب أن ماديي الماضي غالباً ما اعتبروا الفكر نتاجاً فقط للمادة، حركة للمادة، من غير أن يضعوا في حسبانهم الدور الفعال للتفكير، وتأثيره الكبير في الكائن. وفي انتقاد هرزن، المبالغ فيه إلى حد ما، للماديين الميتافيزيكيين الذين حلوا تناقض الكائن والفكر بارجاع الفكر للكائن وتجاهل الدور الفعال للفكرة لم يسقط في التطرف المثالي، ولم يحاول حل هذا التناقض عن طريق انحلال الكائن في الروح المطلق كما فعل هيغل. وإنطلاقاً من مواقف مادية، أظهر هرزن وحدة الفكر والكائن وآمن أن « الروح والفكر هما نتيجتان للمادة والتاريخ وألح في الوقت نفسه على الفرق بين المادة والفكر ورأى أن الكائن ووعي الكائن متناقضان ويمكن التغلب على هذا التناقض بالتأثير المعكوس للفكر على الكائن إن آراء هرزن في **رسائل**... كانت مادية من حيث الأساس، مع أن عدداً من فروضه، وخاصة مصطلحاته لم تكن خالية من « الهيغلية غير المستوعبة أي من تأثير المثالية.

لم يفهم بليخانوف هذا ووصل إلى نتيجة خاطئة هي أن الواحدية التي ينتمي إليها هرزن في **رسائل**... كانت من حيث الأساس مثالية.

كان بليخانوف أيضاً مخطئاً في زعمه أن هرزن لم يكن ينتقد الطبيعة المحدودة لهذا النظام المادي أو ذاك، بل المادية كاتجاه فلسفي بشكل عام إنه لم ير أن هرزن، الذي دعا فلسفته « الواقعية » (التي تكشف عن بعض النقص في تماسك آرائه المادية) لم يكن

---

* المرجع السابق

يتقد المادية، بل الطبيعة الميتافيزيكية والتأملية للمادية القديمة وعلى الأخص الارجاع المبتذل للفكر إلى المادة التي نجدها في مؤلفات بعض الطبيعيين. لقد كان بليخانوف مخطئاً في ايمانه أن هرزن بقدر ما هو اشتراكي مثالي، انحرف عن الديالكتيك

إن مؤلفات هرزن، وعلى الأخص رسائله «إلى صديق قديم»، ورسائله المفتوحة التي ينتقد فيها آراء أنصار السلافية مثل سامارين وآخرين، تشهد بحقيقة أن ديمقراطية هرزن الثورية، بتحريرها نفسها من ترددات الخمسينات، باتت قائمة بصورة متزايدة على المبادىء الديالكتيكية للتطور والنفي والنضال وقد شجعه هذا على التخلي عن المثالية في فهمه لمسائل التطور الاجتماعي، والاقتراب من موقف المادية التاريخية، والتشديد على الدور العظيم للنضال الطبقي، للثورات، في التاريخ

وقد تحقق بليخانوف من ذلك حين استنتج أن وعي هرزن «بصورة أليمة لعدم كفاية المثالية التاريخية في تفسير قضية العلاقة بين الفكر والكائن في تاريخ البشرية، انتقل، بصورة طبيعية، وإن لم يكن بوعي تام، إلى المادية التاريخية

إن الأخطاء الجدية التي اقترفها بليخانوف في تحليله للآراء الفلسفية، وبشكل خاص السوسيولوجية، التي اعتنقها هرزن، لم تمنعه من الوصول إلى النتيجة الصحيحة القائلة إن هرزن قام بمجهود ثقافي جبار في سبيل العثور على الأساس العلمي للاشتراكية، مع أنه لم يكن قادراً على حل هذه المهمة في التخلف الاقتصادي لروسيا في ذلك الوقت

كتب بليخانوف في مقالة هرزن في المهجر كان هرزن واحداً من أفضل الناس الذين قدمتهم الأربعينات لقد كان بيلنسكي متفوقاً في قوة الفكر المنطقي، ولكنه كان متفوقاً عليه في اتساع المعرفة وحيوية العرض الأدبي أما كصحفي سياسي فلا مثيل له في روسيا حتى اليوم وفي الخطاب الذي ألقاه بليخانوف على قبر هرزن في نيس في ٧ نيسان ١٩١٢ شدد على الدور الهام لهرزن في حركة التحرر الروسية والعالمية وعلى الصلة الأيديولوجية الوثيقة بين الأجيال الثورية الجديدة في روسيا والإيمان بالمستقبل الوضاء لروسيا الذي بشر به هرزن

ومع أن لينين وحده نجح في كتابه «في ذكرى هرزن في تقديم تقدير شامل

وعميق لنظرة ونشاط هذا المفكر والثوري الروسي العظيم، فان مؤلفات بليخانوف حول هرزن، مع كل أخطائها وأحكامها المتناقضة، ساعدت ولا شك على شرح دور هرزن في تاريخ الثورة الروسية، وفي النضال من أجل التقاليد الثورية

* * *

وإلى جانب دراساته للنظرة العالمية ونشاط المفكرين الثوريين الروس في القرن التاسع عشر، كتب بليخانوف أيضاً حول مؤلفات تعالج تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي، ظهرت في آخر القرن التاسع عشر، وبداية القرن العشرين*

إنه مؤلف مقالتين حول المتنور المثالي الروسي شاداييف: «التشاؤمية كانعكاس للواقع الاقتصادي (١٨٩٥) و«شاداييف (مراجعة كتبت في ١٩٠٨ في كتاب هرشنون) وينتقد بليخانوف الأفكار المثالية والصوفية في نظرة شاداييف العالمية، ويظهر في الوقت نفسه تهافت محاولات هيرشنسون والايديولوجيين الآخرين للاتجاه الفيخي البرجوازي المعادي للثورة، لاتخاذ تعاليم شادابيف على أنها تعاليمهم. ويعبر بليخانوف، بصورة صحيحة، كتاب شادابيف «الرسالة الفلسفية» الأولى على أنه كراس قوي فعال ضد تخلف روسيا، مالكة الأقنان وانه كتاب أدبي كتب بصدق وبمستوى عالٍ. ومن غير أن يتجاهل بليخانوف الموقف اللاهوتي لشادابيف، الذي يتجلى في هذه الرسالة، يثبت محقاً أن شادابيف قدم بعض الخدمات الهامة لحركتنا التحررية «فهرزن، مثلاً، حتى وفاته كان يكن تعاطفاً كبيراً لشادابيف، ولم يكن سبب ذلك أن شادابيف كان صوفياً»** إن السمة الغالبة في نظرة شادابيف العالمية، حسبما يذهب بليخانوف، لم تكن الصوفية، بل الموقف السلبي من واقع القنانة الذي يميز شادابيف كما يميز هرزن؛ لذلك فانه يعتبر شادابيف ،بحق، على الرغم من صوفيه الأخيرة، مشاركاً في حركة التحرر

يقدم بليخانوف نقداً مقنعاً للأفكار الصوفية في نظرة شادابيف العالمية، ملاحظاً أن هذه الصوفية كانت ذات طبيعة اجتماعية، انتجتها الرغبة غير المسبقة لدفع الشعور

---

* يتضمن هذا المجلد أهم مراجعات كتب هرشنسون: شادابيف، حياته وتعاليمه، وتاريخ روسيا الفتية. وملاحظات تاريخية، وكتاب بوغاشارسكي هرزن

** انظر هذا المجلد، القسم الرابع، مراجعات

في الحياة حوله، وأن الصوفية لا سطيع أن تقدم لشاداييف، في التحليل الأخير، الارياح الدي يمكن أن يجده في النشاط الاجتماعي فقط إلا أن بليخانوف لاحظ في الظروف التاريخية المعاصرة، في عصر النضال الثوري للطبقة العاملة المتسلحة بالاشتراكية العلمية، أن الحركة الثورية والدعوة الواعية للصوفية لا يسجهان.

كان بليخانوف مصيباً أيضاً في اعتراضه بقوة على تصريح هيرشنسون أن تشادابيف بعد « الرسالة الفلسفية الأولى بقليل غيَّر آراءه حول روسيا واقترب أكثر من أنصار السلافية، متحدثاً عن « فوائد موقفنا المنعزل إن سلسلة شادابيف « الرسائل الفلسفية التي لم تطبع في حياته، بل طبعت بعد ثورة أكتوبر، وكذلك أعماله الأخرى ىد أظهرت أن مؤلف « الرسالة الفلسفية الأولى لم يتراجع عن أن يكون عدواً حازماً صد النزعة السلافية وأن يؤيد إنتشار الثقافة في روسيا، ومنجزات الحضارة الغربية الخ وإذ يلخص بليخانوف تحليله العلمي لنشاط شاداييف ونظرته العالمية في مراجعة كتاب هيرشنسون عن شاداييف، يظهر بليخانوف بصورة مقنعة تفوق المادية على الصوفية يقول إن « الصوفية لم تلق خيطاً من ضوء على الطريق المؤدي إلى القضاء على الشر ولا يمكنها أن تفعل ذلك فوفقاً لطبيعتها لا يمكنها إلا أن تعوق اكتشاف هذا الطريق، فتحرف الانسان الموهوب عن هذا الطريق إلى طريق في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي يجب أن يسلكه »*

انتقد بليخانوف الداعية اللبرالي بوغاتشارسكي لمحاولته، بعد الانضمام إلى الصوفيين والفيخسيين، تصوير الفيلسوف والثوري الروسي البارز هرزن نصيراً للنظرة العالمية الصوفية - الدينية، وللبرنامج الاصلاحي - اللبرالي. إن « الحكماء اللبراليين أمثال بوغاتشارسكي، كما لاحظ بليخانوف بحق، لم يفهموا طبيعة عدم وهم هرزن القذارة الأوروبية الغربية إن هرزن، لاعتقاده أن إنتصار البروليتاريا على البرجوازية سوف يعْقبه انهيار « البرجوازية الصغيرة »، شعر بالطبيعة غير المستقرة للمثاليات الاشتراكية، وبحث عن أساس علمي للاشتراكية. ويرفض بليخانوف تصريحات بوغاتشارسكي، بعد انفصاله عن جوهر إيمانه الديني السابق، أن هرزن أخذ سيئاً منه إلى « الشاطىء الآخر واسبقى هذا الشيء طيلة حياته، ويظهر أن هرزن

---

* المرجع السابق

تحت تأثير كتاب فيورباخ **جوهر المسيحية** وصل إلى موقف نقدي من المسيحية ويكتب بليخانوف: « إن هرزن »، وقد تمثل هذا الموقف من جوهر المسيحية لا يمكنه أن يظل تحت تأثير هذا الجوهر « فيما بعد أي عندما استفاق عقله بل العكس تماماً **فموقفه تجاهه كان سلبياً** »*

مراجعات بليخانوف لمؤلفات عن تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي تظهر أنه على الرغم من الأخطاء والانحرافات الفردية عن أطروحات الفلسفة الماركسية، فانه كان مدافعاً عن النظرة العالمية المادية.

* * *

لا يمكن للمرء أن يدرس تاريخ حركة التحرر الروسية، والفكر الاجتماعي الروسي التقدمي، ويفهم الروابط الوثقى مع الحركة الثورية والفكر النظري للغرب، ودورهما في الاعداد الأيديولوجي لأساس الماركسية في روسيا، من غير أن يعود المرة تلو الأخرى إلى مؤلفات بليخانوف الفلسفية العميقة والرائعة، التي تسجل صفحات رائعة من تاريخ الحياة الروحية للشعب الروسي

م ايوفشوك

---

* المرجع السابق.

١ - مؤلفات عن
ن.غ. تشيرنيشيفسكي
[١٨٩٠]

ن - غ - تشيرنيشيفسكي[1]

مقدمة لطبعة الكتاب الألمانية ١٨٩٤

Seine Zeit*

يرجع النشاط الأدبي لتشيرنيشيفسكي إلى الجزء الأعظم لزمن الاصلاحات السيئة السمعة للاسكندر الثاني

ولا يزال اللبراليون الروس يتذكرون « القيصر المحرر الطيب ، بتعاطف ، ولا يزالون يكيلون الاطراءات التي لا تسر أقرباء الامبراطور الحالي الذي ، كما هو معروف ، يعتبر أباه **يعقوبياً** إن كاتب هذه الأسطر لا يحظى بشرف الانتماء إلى اللبراليين الروس وليس له ، من جهة ثانية ، أدنى ولع بالاسكندر الثالث ولذلك يمكنه اتخاذ نظرة معارضة لاصلاحات الحكم السابق.

لثلاثين سنة خلت أناخت سياسة نيقولا « التي لا تنسى بكلكلها على روسيا وبات الركود عقيدة كنسية تقريباً كل حياة وفكر ومعارضة كانت تخنق على الفور أو تضطر إلى التنكر خلف الموافقة على سياسة الدولة إلا أن حرب القرم[2] غيرت مجرى الأمور تغييراً أساسياً وافتضح افلاس نظام نيقولا ، ولم يعد خالق هذا النظام قادراً على العثور على مخرج للوضع الحرج سوى الانتحار العناصر الساخطة ، التي كانت حتى الآن متخفية بجبن ، رفعوا رؤوسهم بجرأة الاصلاحات ، أو انتحار جديد وهذه المرة ليس انتحار الأوتوقراطي الفردي ، بل المبدأ الفعلي للأوتوقراطية - هذا هو الخيار الذي وضعه التاريخ أمام خليفة نيقولا وقد اختار الاصلاحات بحذر ، ومن أهم هذه الاصلاحات **إلغاء القنانة في روسيا**

---

* [عصره]

إنالعبودية الموجودة في هذا القطر (تحت اسم **خولو بتسفو**) تمتد إلى زمن غير محدود. إن القوانين التشريعية الروسية المبكرة تتحدث عنها إن أي إنسان فقير صمم أن يبيع نفسه لصاحبه الريفي الغني يمكن أن يصبح **خولوباً**. وبالطريقة ذاتها ينقلب أسرى الحروب إلى **خولوبيين**. إلا أن العبودية في الوقت الحاضر غير منتشرة. خدم البيوت لدى الأمراء وأصحاب الأطيان وملاك الأراضي الأغنياء هم الذين كانوا عبيداً فقط. وعندما كان الأمراء الروس المستقلون يهبون المقاطعات المسكونة لخدمهم، فان هذا لا يعني أنهم حولوا فلاحي هذه المقاطعات إلى أقنان. إنه يعني فقط أن الأسياد سلموا «الخدم» حقهم في الدخل المجبى من المقاطعات. إن الالتزامات التي كان الفلاحون يقدمونها أمام الأمير يقدمونها الآن للمالك العقاري. إلا أن الفلاحين أنفسهم ظلوا «أحراراً» كما في السابق، مع حق الانتقال بحرية من مالك عقاري إلى آخر، أو من مقاطعة مالك عقاري إلى كومونة حرة (أي أن المرء مسؤول عن تقديم الالتزامات فقط فيما يتعلق بالدولة). وكان لهذا اِلنظام فائدتان هامتان.

أولاً، إن الملاك العقاريين الكبار، الذين كانوا أقوياء بفضل ملكيتهم ومركزهم في الدولة، يمكنهم أن يضمنوا لفلاحيهم مزيداً من الحماية وأن يجعلوهم في وضع مادي أفضل من الملاك العقاريين الفقراء، الذين لم يكونوا أحياناً أفضل من فلاحيهم إلا قليلاً. ولذلك اندفعت أفواج الفلاحين من الملاك العقاريين الفقراء إلى الملاك العقاريين الأغنياء إلا أنه كان ثمة الكثير من الملاك العقاريين الفقراء لقد شكلوا القوة «الخادمة» الرئيسية للدولة الموسكوفية. وحتى نهاية القرن السابع عشر كانت الجيُوش الموسكوفية تجند منهم بشكل أولي. فاذا كانت الدولة غير عازمة على خنق هذه القوة، فان عليها أن تحرم على الفلاحين ترك مقاطعات الملاك العقاريين الفقراء وحدث هذا فعلاً، بالحد من حق الفلاحين في حرية التنقل في نهاية القرن السادس عشر.

ثانياً، حرية الفلاحين أنزلت خسارة مباشرة بخزينة الدولة. وبعد أن تحطمت قوة التتر، الذين أحاطوا الدولة الموسكوفية من الجنوب والشرق، تحققت توسعات ضخمة لكل الأراضي غير المحتلة والتربة الخصبة جداً، ففتحت المجال للاستعمار الزراعي واستغل الفلاحون حقهم في التنقل فاندفعت أفواجهم إلى الالدورادو ومن نافلة القول إن الدوائر القيصرية التي فرضت الضرائب

والالترامات عليهم قد لحقت بهم. إلا أن هذا استغرق زمناً، وأحياناً، في ظروف تلك الأيام، ليس زمناً قليلاً لقد مرت عشرات السنين قبل أن تضع الدولة يدها الثقيلة على المستوطنين أثناء ذلك لم يدفع المستوطنون شيئاً إطلاقاً للدولة، التي استاءت، بالطبع، كثيراً والواقع أن Krugovaya Poruka (المسؤولية الجمعية) فتحت للدولة حقاً شرعياً لأن تقوم بإجراء كامل لفرض الضرائب والالتزامات السابقة على الفلاحين الذين ظلوا في مكانهم وسجلوا في قوائم الدافعين (Tyagliye Lyudi الناس الذين يدفعون الضرائب). **هؤلاء الحاضرون** يدفعون **للغائبين**. إلا أن تجربة مريرة كانت قد مرت منذ أن أظهرت دولة موسكو أن **مفهوم** المسؤولية **الشرعية** لانتراع الضرائب لم يكن اطلاقاً مثل **مفهوم** المسؤولية **الاقتصادية**: Ou il n'ya rien, le Roi perd ses droits* إلا أن الدوائر القيصرية مهما انتزعت الضرائب من الفلاحين، فان من المستحيل أن تنترع، مثلاً، من الأعضاء العشرة الباقين من الكوميونة كمية النقد والانتاج والعمل ذاتها (في ذلك الوقت كان الدفع بالسلعة سائداً) التي دفعتها عندما كانت تتألف فعلاً (وليس حسب القائمة) من **أربعين** بيتاً، مثلاً كانت «صناديق الدولة تعاني من خسائر فادحة في زمن تطلبت فيه العلاقات المتطورة مع الغرب أن تمتلىء خزينة الدولة من جديد، بصورة متزايدة. إن ربط الفلاحين بالأرض كان الطريقة الممكنة الوحيدة للخروج من الوضع في ذلك الوقت. وحكومة موسكو لم تتجاوزه. وفي مجرى القرن السابع عشر كانت حركة تحرر الفلاحين قد انتهت تماماً لقد أصبح الفلاحون عبيداً يعتمدون كلياً على **الملاك العقاريين والدولة**.

بيد أن الأقنان الفلاحين كانوا لا يزالون غير متساوين قانوناً مع **العبيد**. إن «إرتباط الفلاح بالأرض» كان لا يزال غير الصك الصريح الذي امتلكه **الخولوب** من الزمان السحيق. إن شرف العبودية العام للفلاح الروسي يرجع الى المصلح الروسي الأكبر بطرس الأول، وميسالينا الشمال المشهورة كاترين الثانية.

اضطر بطرس إلى أن يمد روسيا بجيش مستعد مدرب وفقاً للطريقة الأوروبية، ليقوم بالادارة وليبادر إلى تطوير التجارة والنقل التجاري والأسطول والصناعة والثقافة. وكل هذا يتطلب المال والمال والمزيد من المال. ولم يدخر بطرس

---

* يفقد الملك حقوقه، حيث لا يوجد شيء

وسعاً في سبيل الحصول على المال. والذين دفعوا المزيد لإصلاحه كانوا بالطبع Podanliye Sosloviya (أي دافعي ضرائب المقاطعات): الفلاحين وبرجوازيي المدينة الصغار الفقراء إن النتيجة الاقتصادية الفورية لهذا الإصلاح كانت الاملاق المرعب للشعب. ومن نافلة القول إن بطرس لم يستطع أن يقف عند مثل هذه التفاهة كانحطاط نهائي للقن الفلاح إلى مستوى الخولوب. إن تقوية القنانة وتوسيعها لم يكونا أبداً عكس خططه في الاصلاح. العكس تماماً، إن الأقنان هم الذين عملوا في المشاغل والمصانع التي بناها لقد كانت القنانة ظرفاً محتوماً لتأريب روسيا (جعلها أوروبية - المترجم). وتابع خلفاء بطرس عمله بنشاط. فلم يبق لكاترين الثانية «المتنورة» سوى أن تقدم الدوطة لـ «الذوات». في قانون ٧ أكتوبر ١٧٩٢ أعلنت أن «أقنان الملاك العقاريين والأقنان الفلاحين سوف، بل يجب أن يدخلوا ضمن الممتلكات التي، في حال البيع من شخص إلى آخر، تكتب وتنقل صكوك الشراء في غرفة شؤون الأقنان وتدفع الالتزامات للخزينة، مثل أي ملكية منقولة أخرى» لقد أصبح الفلاح صكاً صريحاً*، ينتمي بطبيعته الفعلية إلى الملكية المنقولة وليس غير المنقولة. وكان الفلاحون الأقنان يباعون أحياناً أسراباً، مثل القطيع، في المعارض.

وإلى جانب هذا غدت القنانة أكثر إنتشاراً ووهب القياصرة والقيصرات المقاطعات المأهولة للمقربين. وأدخلت كاترين الثانية القنانة إلى روسيا الصغرى(٣) وقد ابتهجت طبقة النبلاء إلا أن ابتهاجها عكرته أحياناً مقاومة غير متوقعة من الفلاحين.

ومع كل احتمال الفلاح الروسي، ومع كل محافظته، فانه لم يذعن من غير نضال. إن كل خطوة تقريباً تتخذها الحكومة في طريق عبوديته كانت تتسم بانتفاضات فلاحية واسعة تقريباً. في القرنين السابع عشر والثامن عشر عانينا حروباً حقيقية («تمردات» ستيبانورازين وبوغاتشيف). والواقع أنه كلما ازدادت الدولة الروسية أوروبية، ضعفت أكثر القوة النسبية لمقاومة الشعب. ففي القرن التاسع عشر لم تقم أي حركة فلاحية يمكن أن تقارن بـ «تمردات» القرون السابقة. ولكن، على الرغم من هذا، أصبحت انتفاضات الفلاحين مألوفة أكثر فأكثر فثمة عدد ضخم من التمردات

---

* Instrumentum Vocale

الفلاحية في حكم نيقولا الذي أخمدها بقسوة وحشية حقاً وأقرت الاحصاءات الرسمية بوجود تمردات فلاحية من أواسط الثلاثينات وحتى حرب القرم. لقد أظهرت أنه في هذين العقدين تضاعف عدد الانتفاضات الفلاحية سنوياً بدقة حسابية. وفي بعض الأوقات كانت جميع المقاطعات تقريباً في حالة هياج، واندلعت معارك حقيقية بين الفلاحين والجنود. وأثناء حرب القرم أشيع أن الحكومة سوف تمنح كل الفلاحين المتطوعين للعمل حريتهم. وقد أدت هذه الشائعة إلى « الاضطراب » وخاصة في روسيا الصغرى. ونتيجة السلم ظهرت شائعة أخرى: فقد طفق الناس يقولون إن نابليون الثالث وافق على وقف الحرب فقط شريطة الغاء القنانة. والحكومة تعرف مراج الفلاحين جيداً، فخشيت من انفجار بينهم. قال الامبراطور اسكندر الثاني « أن نلغي القنانة من فوق أفضل من أن ننتظر الغاءها من تحت »

في مثل هذا الوضع كان من الطبيعي أن تخاف الحكومة السخط الذي تبدى في « المجتمع المثقف » مباشرة عقب موت نيقولا فمن الأفضل أن تمنح طوعاً ما يمكن أن يتحقق كرهاً وهكذا نفسر المصلح المتوج، وهكذا نفسر معظم مؤيديه.

فقط « جنود نيقولا القدماء، الذين لا يعرفون سوى العصا، يمكن أن يفسروا تفسيراً آخر إن العصا غالباً ما أنقذت الحكومة الروسية من الصعوبات. ولكن العصا أيضاً هي التي وضعتها في موقف يائس وجدت فيه نفسها في نهاية حكم نيقولا وانقلب النظام العسكري الذي كان يتبجح به حكم نيقولا إلى نظام متعفن: فالضباط والجنرالات بشكل خاص كانوا جهلة جبناء، وكانت التجهيزات هزيلة جداً*، ووصل الهدر في الميزانية العامة، في القيادة وسلاح المدفعية والهندسة إلى نسب عالية جداً

---

* « إن المدى الذي وصله جنرالات حرس نيقولا في ساحة المعركة يمكن، مثلاً، أن يظهر من العمليات في يغناثوريا الجنرال كورف الذي، والعدور على مرمى البصر، لم يحتل مواقع متقدمة مما أوقع الخسارة في البطاريات والرجال وكان هناك جساء مثل الجنرال كيرياكوف الذي اختبأ في أخدود في ألما » (**مقالات تاريخية حول روسيا من زمن حرب القرم حتى اتفاقيه معاهدة برلين**، والكاتب مجهول الاسم، ليبريغ ١٨٧٩ المجلد الثاني ص ٣٣) ومنذ سنوات قليلة طبعت صحيفة **روسكايا ستارينا**[٤] ذكريات مشتركة في حرب القرم فحاء أنه عندما استولى الفرنسيون على المواقع الروسية في المعركة أصابتهم الدهشة: « انظر بماذا يحارب هؤلاء الهمجيون .

تفوق كثيراً ما هو محدد قانوناً وفوق ذلك لم تستطع روسيا، بسبب فقدان الاتصالات، أن تستخدم استخداماً موفقاً في اللحظة المناسبة حتى القوى العسكرية التي تمتلكها في حرب القرم كان نقل القنبلة الواحدة من ازميل (على الدانوب) إلى سيباستوبول يكلف ليس أقل من خمسة روبلات وأخيراً كانت روسيا مالياً على حافة الافلاس وقد وصل العجز في ١٨٥٥ إلى ٢٦١,٨٥٠,٠٠ روبلاً (الدخل ٢٦٤,١١٩,٠٠٠ والنفقات ٥٢٥,٩٦٩,٠٠٠). وازداد أكثر في العام التالي. وهرعت الحكومة إلى السلم. بيد أن ذلك لم يكن كافياً إن مصادر جديدة من الدخل لا بد من العثور عليها، قوى إنتاجية جديدة تدفع إلى العمل. إلا أن هذا يعتبر مستحيلاً طالما القنانة قائمة وكان لانتشار الشائعة بين الناس نوع من المعنى العميق: إن تحرير الفلاحين فرضه «نابليون» فعلاً، أي بسبب مجرى ونتيجة حرب القرم.

أما أن الصناعة الروسية زمن ميلادها في ظل بطرس الأول، لا يمكنها أن تسير من غير العامل القن، في منتصف القرن العاشر فمسألة مختلفة تماماً العامل الحر اليوم ضروري من أجل المزيد من تطويرها وليس من أجل تطويرها فقط وفي أواسط الأربعينات طفقت الأصوات تسمع في أدبنا، مؤكدة (وان بجبن وحذر بسبب الرقابة المشددة) أن نجاح الزراعة لا يمكن أن يتحقق مع استمرار وجود القنانة. وقد عالج ذلك بصورة أشد إقناعاً زابلوتسكي - دزياتوفسكي(٥) في مذكراته التي سببت ضجة كبيرة.

أثناء حكم نيقولا مدت سكتان حديديتان فقط في روسيا من بطرسبرج إلى تسارسكوي سيلو (مدينة صغيرة جنوب العاصمة بـ ٢٢ كم) ومن بطرسبرج إلى موسكو وليس هنا مكان مناقشة السرقات الضخمة التي تمت أثناء اقامة هاتين السكتين. إننا نشير فقط إلى أن خط بطرسبرج - موسكو وحده كان ذا أهمية اقتصادية، أما خط تسارسكوي سيلو فلم يستخدم إلا للرحلات الممتعة لـ «مجتمع» بطرسبرج إن من الصعب الآن حتى أن نتصور الصعوبات التي نتجت عن نقل البضائع فوق الطرق القذرة من منطقة موسكو الصناعية إلى معارض روسيا الصغرى مثلاً. وكلّما ازداد الانتاج تطوراً، اشتد الشعور بالحاجة إلى بناء شبكة من السكك الحديدية التي تغطي، على الأقل، أهم مدن روسيا

ولم تكن مصلحة التلغراف أفضل. فحتى ١٨٥٣ لم يكن في روسيا سوى تلغراف بصري، بين بطرسبرج ووارسو، ويحتفظ به لاستخدام الامبراطور الشخصي وقد أنشئت التلغرافات في الأعوام التالية، ولكن بأعداد ضئيلة: في ١٨٥٧ لم تتجاوز شبكة التلغرافات ٣٧٢٥ فرستاً إن تطور التجارة والصناعة تطلب أعظم « الاصلاحات جدية أيضاً من وجهة النظر هذه

ولم يسمح نيقولا باقامة شركات خاصة ذات رأسمال مشترك، وعلى الأخص شركات مصرفية. والملاك العقاريون والتجار تقدموا بطلب إلى مؤسسات حسابات الدولة من أجل المال. يقول مؤلف **مقالات تاريخية حول روسيا** التي اقتبسنا منها أعلاه: « شركة روسية - أميركية وشركتان للتأمين ضد الحريق، وشركتان أو ثلاث شركات صناعية أو شركات نقل هي كل عالم الرأسمال المشترك في روسيا ». إن بداية الحكم الجديد اتسم بحمى الرأسمال والمساهمة الفعلية. وطفق الواحد بعد الآخر يقيم الشركات التي وعدت الناس السذج بايرادات ضخمة، وكانت مهيأة لأن تغطي كل الأبعاد المختلفة للحياة الاجتماعية الاقتصادية (هناك مثلاً شركة **غيردوستات** لـ « نشل البواخر الغارقة في المياه » وشركة **أولي** لـ « تحسين الحياة اليومية للعامل » وهلمجرا). إن الكثير من هذه الشركات قد أفلس، بالطبع بعد أن ملأ أصحابها جيوبهم. إلا أن وجود هذه الحمى يظهر إلى أي مدى نفضت روسيا تلك الأيام عنها الأشكال القديمة للحياة الاقتصادية، الموروثة عن نيقولا وما كان يلزم لتطوير الأشكال الجديدة هو قبل كل شيء ازالة **العبء الثقيل للقنانة عنها**.

وأخيراً - وهذا هو أهم عامل لعدة دوائر قيصرية - منعت القنانة الحكومة من وضع يدها بحرية في جيوب الفلاح وكانت الضرائب تجبى من الأقنان عن طريق الملاك العقاريين. ومن نافلة القول إن أي زيادة جديدة في الضرائب، أي عبء جديد على الأقنان الفلاحين كان يقابل باستياء ملاك الأراضي، ويخنق الاستقرار الاقتصادي لـ « الأنفس » التي تخصهم. إن تحرير الفلاح من سلطة المالك العقاري كان يعني زيادة سلطة الدولة عليه. إن العلاقات المباشرة للفلاحين مع الدولة تخطت كل تصور وزارة الماليّة، ولهذا السبب وحده اضطرت الحكومة أن تلجأ إلى « التحرير واذا استخدمنا التعبير الفج، فان مسألة « التحرير انتقلت الى مسألة من سيحظى

بالنصيب الأكبر من الانتاج الزائد (القيمة الرائدة - الخاصة) الذي يوجده الأقنان: **الدولة أم الملاك العقاريون**.

وقد سعت الدولة بحسم هذه المسألة لصالحها ولكن بسبب هذا كان لا بد من تحرير الفلاح مع الأرض وليس من دونها كما أراد الملاك العقاريون. إن الحق التاريخي للفلاحين الروس بالأرض التي يحرثونها كان مفروغاً منه. إلا أن الحكومة لم تسترشد بهذا الحق في مخططاتها للتحرير كانت تفكر فقط في وضع الفلاح في الظروف التي تتيح لها أن تعصر أكبر كمية ممكنة من العمل (على شكل الدفع عيناً) والمال منه. ولم يكن العمال الرراعيون الذين لا يملكون أرضاً مناسبين لهذا الغرض، وهذا هو السبب في أن الحكؤمة لم تستطع مهما كانت الظروف أن توافق على طلبات حزب الملاك العقاريين. إلا أنها بذلت كل جهدها في تمويه الجرعة التي قدمتها لهذا الحزب ففي تحرير الفلاحين مع الأرض، جعلتهم يدفعون رسوم الاسترداد لها، وكانت رسوّمات بالغة القيمة. وبعملها هذا هدأت أولا من روع الملاك العقاريين، وثانياً بعملها كوسيط في هذه العملية تمكنت من حيازة كمية كبيرة نقداً وهي الفرق بين ما كان يقدم للملاك الاقطاعيين وما كان الفلاحون يتعهدون بدفعه.

هكذا كانت الظروف التي حددت بداية الاصلاح الفلاحي في روسيا ومجراه وحصيلته. فلنشر الآن الى بعض الظروف الأخرى التي حملت اصلاحات أخرى معينة للاسكندر الثاني وحددت اتجاهها

أولا أشرنا من قبل الى أن حرب القرم أظهرت بوضوح مدى السوء الذي كان عليه النظام العسكري الروسي وكانت إحدى السمات المميزة للجيش الروسي حاجته الى ضباط حتى بثقافة بسيطة. وقد كان نيقولا نفسه منتبهاً إلى هذه النقيصة، بيد أنه لا يستطيع أن يعالجها لسبب بسيط هو أن كـل حكمه كان حرباً مستمرة مع الثقافة. وتمشياً مع هذه الروح من الحكم لم تكن تولي أهمية للعلوم في المؤسسات الثقافية العسكرية، فكل شيء كان متركزاً على نجاح الطالب في « **مادة التدريب** » ولكن حتى هذه المؤسسات الثقافية الهزيلة كانت لا تكفي عددياً لتجهيز الجيش. وكان الضباط بحكم الضرورة يجنّدون من طلاب الكليات الحربية، الذين تلقوا «ثقافة محلية (أي من غير ثقافة أبداً) وخدموا فترة في الألوية في الصفوف الدنيا ولم يكن الوضع فيا يسمى المؤسسات الثقافية المدنية، أي غير العسكرية أفضل إلا قليلاً جداً وهنا أيضاً

أولي الاهتمام الأول لروح الطاعة والتواضع في التلاميذ والاهتمام بالجامعات كان محدوداً جداً في آخر حكم نيقولا فتدريس الفلسفة* كان محظوراً في الجامعة، بيد أن الطلاب كانوا يتعلمون. المارش العسكري ومن نافلة القول أن الحكومة الروسية، بعد حرب القرم، وجدت من الضروري أن «Se recueillir»**، فكانت مضطرة أن تولي اهتماماً أكبر بالثقافة. فأقيمت ثانويات جديدة وتأهيليات للرجال، وإلى جانب «مؤسسات النبلاء حيث كانت بنات النبلاء يتلقيْن التعليم، أقيمت الثانويات والتأهيليات للبنات في كل المقاطعات والأنظمة التي كانت تحدد عدد طلاب الجامعة أبطلت، والمؤسسات التربوية التكنيكية العليا (حيث كانت لسلك طلاب الضباط في عهد نيقولا) أعيد تنظيمها أخيراً كمؤسسات تربوية عسكرية، وعلى الأخص بعد أن عين مليوتين وزيراً للحربية، فبدأ عهد جديد: فقد ألغيت تقريباً الملاكمة كلها (لم يعد يخصص لها أكثر من حصة أسبوعية) وبات التعليم بارعاً، واتسعت المناهج وجرى تجنب العقاب الجسدي بصورة كلية تقريباً (لم يستطع القيصر «المحرر أن ينهيه كلياً حتى هنا، أو في الجيش بشكل عام). ومع ذلك فان المرض العام لم يعالج بكل هذه الاجراءات: فاعادة تنظيم المؤسسات التربوية العسكرية لم تخرج سوى عدد من الضباط غير ذي أهمية نسبياً، وقد لوحظ أن من الضروري أيضاً تجنيد طلاب الكلية الحربية الذين لم يتلقوا سوى ثقافة عامة وثقافة عسكرية هزيلتين. ولكن مع كل هذا فان اصلاحات الاسكندر الثاني أدت إلى تدفق الشباب إلى المؤسسات الثقافية، ولعب الطلاب الشباب دوراً هاماً جداً في الحركة الاجتماعية لذلك العصر

ومع أهمية الاصلاحات في المؤسسات الثقافية الروسية لم تتخذ حكومة القيصر الأوتوقراطية ولا تستطيع أن تتخذ الخطوة الحاسمة في هذا الاصلاح: فليس لدينا ما

---

* إن مصير الفلسفة في روسيا كان دائماً مضطرباً وقلقاً، فكانت تعاليمها أحياناً تشجع حتى من قبل الحكومة، لتحُول دون «أحلام المساواة والحرية الجامحة وأحياناً كانت تحرم في الجامعات نهائياً، على اعتبارها المصدر الرئيسي لأحلام «المساواة و«الحرية الجامحة لقد حرم نيقولا تعليمها في ١٨٥٠ وقد صرح وزير الثقافة العامة شيريسكي شيخماتوف متعجباً بهذا الصدد «لقد وضع حد لثرثرات الفلسفة المغرية وقد عين بعض أساتذة الفلسفة مراقبين ويشير هذا بحد ذاته الى أن أحلامهم في «الحرية الجامحة» كانت متواضعة جداً.

** تفكر ملياً

يسمى الحرية الأكاديمية ، وكانت سلطة مجالس الجامعة قد طمسها نهائياً سلطة أوصياء المناطق الثقافية ، الذين لم يكن لديهم شيء يقدمونه لـ « الثقافة العامة وهكذا مثلاً ، في شهر عسل لبرالية الاسكندر ، في ١٨٦١ عين الجنرال القوقازي فيليبسون وصياً على منطقة بطرسبرج الثقافية (وفي الوقت نفسه عين الأميرال بوتياتين وزيراً للثقافة العامة) مثل هذه الأحوال كان لا بد من أن تؤدي إلى « اضطراب طلابي ظل يتكرر حتى الوقت الحالي بدقة الظواهر الفلكية

وقد اشتهرت المحاكم القانونية الروسية منذ أمد طويل بفسادها ، وبعور حكامها العام لمعرفة القوانين على الأساس الذي دعوا إليه لاعلان قضائهم إن إعادة تنظيم النظام القضائي كانت إصلاحاً من جملة الاصلاحات غير المؤذية التي اتخذتها حكومة اسكندر الثاني وقد حظي هذا الاصلاح من كل الناس ما عدا القضاة القدماء الذين يتعاطون الرشوة ولكن يمكن أن ينفذ بشرط واحد هو اذا جرى تحديد سلطة البوليس والادارة بشكل عام ، التي أخذت بحرية الأحكام القضائية المتغيرة باعتبارها ملائمة لها ومع ذلك فان هذا أيضاً لم تستطع حكومة المصلح الأوتوقراطي أن تقوم به ، ولا رغبت أن تقوم به وهذا هو السبب في أن اعادة تنظيم النظام القضائي قد ظل نبتة غريبة في بلادنا ، كما لو أنها ملائمة للنموذج العام لمؤسسات الدولة في روسيا مثل قبعة من الطيلسان للاسكيمو الذي ارتدى جلد الدب

دعنا الآن ننتقل إلى آخر اصلاح فرضته حاجات العصر ونفذه « القيصر المحرر لقد رأت الحكومة أنها لا تملك ما يكفي من المال لتحقيق حتى أدنى حاجات الدولة وقد تصرفت بأن جعلت بعض نفقات الدولة على عاتق المؤسسات المحلية إن موظفي الحكومة لا يستطيعون أن يكونوا في مستوى العبء الثقيل للمخصصات المتزايدة لتغطية « النفقات الاضطرارية المحلية ، إلى جانب هذا يقوم الموظفون بسرقات كبيرة فبات من الضرورة طوعاً أو كرهاً الالتفات إلى السكان المحليين ومنحهم « حكومة ذاتية تبقى دائماً تحت الرقابة المشددة للادارة . وفي مؤسسات الزيمستفو عهد بالدور الرئيسي إلى الملاك العقاريين الكبار وحتى لا يؤذي هذا القيصر المسيطر مصالح البرجوازية ، التي كانت وقتها تترعرع ، كما لو كانت في حاضنة ، انتزع من الزيمستفويين حق فرض الضرائب على المؤسسات الصناعية حسب تقديرهم : ولفرض

هده الضرائب عمدت الحكومة الى معدل خاص ملائم جدا للمعهدين الكبار والسحة أن الفلاح هنا، كما في أي مكان، هو الذي دفع كل شيء وفرض الريسفو ضريبة على أرض الفلاح أعلى بكثير من ضريبة أرض المالكين الأغنياء

اننا لا ندعو اصلاحاً ذاك الاضعاف الخفيف لقوانين الرقابة، التي، في الأعوام الأخيرة من حكم نقولا وصلت ذروة السخافة. حتى أنها حظّرت تعبير «تيار الهواء الحر» في كتب الطبع بيد أن هدا الاضعاف جعل بالامكان لصحافتنا أن ناقش مسائل لم تكن تجرؤ حتى الاشارة إليها في حياة الذي لا ينسى وفي ظل حكم نيقولا انحصر نشاط سيربيسيفسكي الأدبي بالمقالة الصخمة الأولى التي قدمها الى الرقيب

هكذا كانت أهم إصلاحات الاسكندر الثاني فكيف استجابت لها مختلف طبقات الامبراطورية الروسية؟

كان لدينا ولا زال أربع طبقات رئيسية: الأكليروس والنبلاء والتجار (البرجوازية الكبرى والمتوسطة) والفلاحون وتحت اسم ميشانتسفو تؤلف البرجوازية المدنية الصغيرة الطبقة الخامسة، إلا أن حقوقها في أيام نيقولا لم تكن تختلف إلا قليلاً عن أولئك الفلاحين الذين لا ينتمون إلى الملاك العقاريين إن الميشان. مثل فلاحي الدولة كانوا في حالة ارتباط عبودي حقيقي مع الدولة

كانت طبقة الاكليروس ولا تزال تنقسم في روسيا إلى الاكليروس الأسود (الرهبان) والاكليروس الأبيض (الأبرشية) وبعض المقامات الكنسية، الرفيعة من الرهبان فقط، الأشخاص المنتمين إلى الاكليروس الأبيض من دون أن يتجاوز ذلك دائرة الكاهن وتجمع ثروة ضخمة في أيدي الاكليروس الأسود، فالاكليروس الأبيض فقراء جداً فلا هذا ولا ذاك مباشرة استفاد من الاصلاح الفلاحي فحتى ذلك الوقت كان يحق للاكليروس اقتناء «النفوس الخادمة» ولكن الاكليروس الأبيض، عامة، رحبوا بانهيار نظام كان المطارنة أنفسهم في ظله يتصفون بروح جريئة ويفرضون طاعة عسكرية فعلية في الميدان الكنسي وفوق ذلك فان حيوية الحياة الاجتماعية التي سببها الاصلاحات فتحت سبلا جديدة كلياً أمام أبناء الأشخاص الذين ينتمون إلى الاكليروس الأبيض* وفي دوائر طلبة الجامعة، حتى في أدب ذلك

* كما نعرف لم تكن العزوبة في روسيا غير مطلوبة من الأكليروس الأبيض بل العكس فالأشخاص المنتمون اليها كان يفرض عليهم أن يتزوجوا

العصر، لعب السيميباريون (أبناء الاكليروس) دوراً بارزاً جداً وجدرياً جداً

تأثرت مصالح «النبلاء» تأثراً أساسياً من جرّاء «تحرير» الفلاحين فقط الملاك العقاريون الجهلة والمتخلفون كانوا معارضين لالغاء المؤسسة العتيقة للقنانة، ولكن هده المسألة بالنسبة إليهم جميعاً كان سفندها تحت أي شروط ذا أهمية أساسية لقد أيد حرب الملاك العقاريين، كما أسرنا سابقاً، تحرير الفلاحين من دون الأرض، وهدا ما لا يوافق عليه الحكومة. ومن هنا نشأ مراج المعارضة لدى النبلاء، قال الملاك العقاريون. «إن تاج القيصر الكبير مصنوع من تيجاننا الصغيرة؛ وبتحطيم تيجاننا يحطم القيصر تاجه». وقد رددت الغالبية هذه الكلمات مثل نبوءة مشؤومة ولكن كانت بين النبلاء أقلية لبرالية لم تعارض تحرير الفلاحين وفق خطة الحكومة، بل أرادت دفع ما بقي من الدولة الروسية إلى الانسجام مع الثورة التي تمت، ولهذا بعد أن كشفت بلا رحمة سوءات ادارتنا ومحاكمنا وماليتنا الخ دعت الى إجتماع الزيمسكي سوبور [جمعية الأرض] كخلاص أوحد لروسيا، وباختصار، لتظهر للحكومة أنه تجب متابعة عمل ما كان قد ابتدأ* وفي شباط ١٨٦٢ أعلنت جمعية النبلاء في مقاطعة تفير تأييدها لاجتماع الزيمسكي سوبور في خطاب إلى الامبراطور ودارت أيضاً في بقية المقاطعات مشاريع خطب مماثلة بين النبلاء فكانت ثمة فكرة خطاب مشترك يوقع عليه أشخاص من مختلف الطبقات ولم تجد الحكومة سوى صعوبة بسيطة في سحق الرغبات الدستورية لطبقة النبلاء إن الأقنان الذين حررتهم كانوا سيسحقون مالكيهم السابقين بكلمة منها فقط

أما طبقة التجار البرجوازية الوسطى والكبيرة - فقد وافقوا على اصلاحات المحرر بابتهاج وقد شعرت هده الطبقة أن زمنها آت الآن، فلم تمل إلى المعارضة قيد شعرة

أما عن أمزجة الفلاحين في زمن حرب القرم فقد سبق أن تحدثنا عنها وحتى مبادرة الحكومة لالغاء القنانة، كان من المتوقع أن يكون هناك اضطراب فلاحي متنامٍ وقوي ولكن عندما كان قد بدأ عمل «التحرير»، فقد انتظر الفلاحون بفارغ الصبر نتيجته كانت المسألة كلها هي كيف يتصرفون بـ «الحرية» التي منحتهم اياها

---

* من رسالة تورجنيف في ٨ تشرين الأول ١٨٦٢ الى هرزن.

الحكومة مادا لو طلبوا حرية أخرى، حرية مختلفة، حرية كاملة؟ إن هدا ما كان يحساه القيصر والموظفون والنبلاء، وهذا ما كان يعمد إليه **ثوريو** تلك الأيام

كان الحرب الثوري لتلك الأيام يكون أساساً مما يسمى رازنوسسي [اللا ارسقراطي] فما هي الرارنوشنتسي؟ حتى يفهم المرء اشتقاق هذه الكلمة، عليه أن يدكر أن حقوق الطبقات في روسيا ستقل بالوراثة **فقط** بين طبقة النبلاء **والميشانتسفو** والفلاحين وكما نعلم فان حقوق الأخيرة حتى يوما هذا أشبه ما يكون **بفقدان الحقوق** إلا أن هذا لا يغير الأمور إن ابن الفلاح، ولا عبرة لما يسغل، يظل فلاحاً، إلا نال «**رتبة**» في خدمة الدولة أو صار له «**سجل**» كتاجر - الذي بامكان أي سحص أن يكونه اذا كان يملك أموالاً كافية يدفعها للحصول على شهادة نقابة - أو إذا سحل في ميشانسفو هذه المدينة أو تلك وبالمثل فان ابن النبيل*، يظل نبيلاً حتى لو حرث الأرض أو أصبح خادماً وليست هذه حالة الأشخاص الدين يتمون إلى طبقات الاكليروس والتجار إن ابن التاجر يظل تاجراً فقط إذا دفع رسم شهادة النقابة. وإلا فانه يضم إلى صفوف الرارنوشنسي إن أبناء الاكليروس الذين لا يجري احسارهم لمتابعة سيرورة آبائهم، يضمون أيضاً إلى **الرازنوشنتسي** إن فقدان **الميشانستفو** للحقوق يشبه تماماً وراثة حقوق النبالة إلا أن ساين أعمال **الميشانستفو** قرب سعب هذه الطبقة أكثر إلى **الرازنوشنتسي** **فالرازنوشنتسي** هم في الحقيقة **كل** الناس الذين **لا يكون نشاطهم ضمن إطار الطبقة**.

إن **فئة الرازنوشنتسي** دائماً ضخمة العدد فيستحيل من دونها القيام بالكثير من وظائف آلة الدولة وما يسمى بالأعمال العامة ولكن في مرحلة ما قبل الاصلاح كان **الرازنوشنتسي** وضيعاً وغير مثقف في كل مكان ودائماً كان يضطر أن يخلي الطريق للأسحاص ذوي الحقوق من الطبقات العليا إن الاصلاحات التي أعقبت هزيمة سباسوبول وأوجدت علاقات اجتماعية جديدة، خلقت وضعاً ملائماً **للرازنوشنتسي**. والآن كمهندس أو محامٍ أو طبيب يمكنه أن يضمن لنفسه مركزاً يحسد عليه أكثر من السمّاس الريفي الصغير، على سبيل المثال لقد أسرع **الرازنوشنتسي** إلى المؤسسات الثقافية، حتى أبناء سالة ملاك الأرض الصغار

---

* لا يزال ثمه موظفون نبلاء شخصياً» في روسيا الا أن المعنى العملي يبين أن حقوقهم غير موروثه

إن **الرازنوشنتسي** لم يمتلك الصقل الاجتماعي للنبيل إنه لا يعرف اللغات الأجنبية، وثقافته الأدبية تشكلت بمعظمها حسب رغائبه إلا أن له ميزة على الأقل ليتفوق بها على النبالة الكسولة: فقد اضطر منذ نعومة أظفاره أن يشن معركة ضارية من أجل الوجود، لقد كان أكثر حيوية بما لا يقاس هذه الصفة **للرازنوشنتسي** غالباً ما دفعت إلى الشعب الروسي، ولا تزال، الكثير من المتاعب إن الموظف **الرازنوشنتسي** يحارب من أجل «روح الحرية أشد تصمياً من موظفٍ من النبلاء إن **الرازنوشنتسي** مالك الأرض أكثر مهارة في استغلال الفلاح الصغير من « **لورد** » من النمط القديم. إلا أن **الرازنوشنتسي** نفسه يحارب الحكومة بكثير من التصميم والفعالية عندما تضعه في مركز سلبي. وغالباً ما يشغل مثل هذا المركز يقول فيغارو بومارشيه: إنه Rien que pour exister* اضطر إلى إستخدام المريد من الفطنة أكثر من أن يحكم جميع الاسبان (pour gouverner toutes les Espagnes) ويمكن أن يقال الشيء نفسه عن نفسه، **الرازنوشنتسي** الروسي الذي يتعامل مع الحكومة باستبداد ومن دون احتفاء أكثر من حكومة فرنسية في الأيام القديمة الطيبة. وكرجل « حرفة حرة يحتاج إلى الحرية قبل أي شيء آخر، ومع ذلك في كل مكان يواجه استبداد البوليس الذي لا حدود له. فليس من العجب أن « الاتجاه السلبي يجد أنسب تربة بين الرازنوشنتسيين و« سلبهم » ليس محدوداً بفطنة النبيل ونميمته السطحية. إن النبيل الفطن والمثقف والليبرالي **تورجنيف** كان على حق في تسميته « **نهلستي** »: إنه حقاً لا يقف عند شيء في سلبه، الذي سرعان ما ينتقل من الكلمات إلى الأفعال إن **الرازنوشنتسي** المثقف **هو** رسول روسيا الجديدة، الذي أعلن الحرب على النظام القديم، واتخذ دور المبارز الأول في هذه المعركة الضارية حتى الموت.

وحتى نهاية السبعينات كان تاريخ الحركة الثورية الروسية، بشكل أساسي، تاريخ الصراع مع القيصرية على يد هذه **الطبقة** من السكان في روسيا الآن قوى جديدة دخلت تساعد **الرازنوشنتسي**، الآن المعركة رفدتها الطبقة العاملة، بروليتاريو العمل الجدي، الذين يتضاعفون عدداً ويزدادون وعياً لمهمتهم السياسية** ولكن في الزمن

---

* [فقط من أجل أن أوجد]

** أنظر مقالة اكسلرود الرائعة «Das Politischen» (التطور السياسي) الخ

الذي نشير إليه كان مقاتلو هذا النوع لا يزالون in statu nascendi* ، بالمعنى الكامل للكلمة فلم يكن يحسب لهم حساب ، ولا يعتمد عليهم. كان على الرازنوشنتسي أن يبدأ ويقوم بالنضال ، بكل ما يستطيع ، بقواه الخاصة.

فلننظر تحت أي راية ابتدأت أفكار حركة التحرر في روسيا لم يتجرأ أدبنا في حكم نيقولا أن يمس المسائل السياسية والاجتماعية. لقد حصر نفسه «الرسائل الجميلة وانتقادها وقطع شوطاً بعيداً في الرسائل الجميلة والنقد في ذلك الزمن كان ليسغسا ، بيلنسكي ، في العمل ، وكان غوغول يكتب مؤلفاته الخالدة ، وكان أروع روائيينا قد ظهروا ونضجوا وحتى هذا اليوم كل شيء مميز في أدبنا ونقدنا الرائعين إنما ولد من التراث الأدبي للأربعينات. ولكن حيث كان نضجنا الأدبي مسألة مفروغاً منها في ذلك الوقت ، كان نضجنا السياسي لا يزال شيئاً في المستقبل. وقد طرحت المسائل الاجتماعية السياسية حصراً في صراع مرير بين أنصار السلافية والمتغربين[٦] حول ما إذا كانت روسيا سوف تتبع طريق التطور الأوروبي أم لا وذهب المتغربون الى أنها يجب أن تسير في طريق التطور الغربي ، وذهب أنصار السلافية أنها يجب ألا تتبع طريق التطور الغربي ، وأن عليها أن تخلق حضارتها الخاصة تحت حماية الاله اليوناني – الروسي ، والقيصر الروسي الصرف. وكان موضوع النزاع مهماً جداً ، قدم كثيراً من المواد الرائعة في مضمونها ، إلا أن نتيجته الأخيرة كانت مستحيلة ، أولاً بسبب أن الرقيب لم يسمح للنزاع أن يتجاوز النقاط الأشد غموضاً ، وثانياً – وهو الأهم لأنه ليس لطرف ما يملكه من المواد الفعلية اللازمة لايضاح المسألة المتنازع عليها

انطلق الروس التقدميون أيام نيقولا في أدبهم ومناقشاتهم السياسية من فلسفة هيغل. وحتى زمن معين كان المفكر الألماني المشهور أكثر من أوتوقراطي في روسيا مثل امبراطور بطرسبرج إن الفرق كان فقط أن سلطة هيغل الأوتوقراطية معترف بها في الدوائر الفلسفية فقط التي كانت صغيرة وقليلة عددياً ، بينما انتشرت سلطة نيقولا «من مرتفعات فنلندا الباردة حتى مرتفعات الكولشيس النارية»[٧] ولا بد من الاعتراف أن الروس أحياناً عانوا من هيغل أكثر مما عانوا من نيقولا إن الفهم السقيم ، أو

* [في حالة ولادة]

بالأحرى، سوء الفهم الكامل لتعاليمه حول الطبيعة المعقولة للواقع الشامل جعلها أحياناً تنحصر في طبيعة ألوية الدرك التي أنشأها نيقولا بيد أن درك نيقولا يمكن أن تكره، فمن المسموح تضليلها فكيف يمكن لهيغلي روسي أن يسمح لنفسه تضليل الدرك الروحيين المعينين لمراقبته، كما اعتقد، من قبل معلمه الذي اختاره طوعاً؟ وقد كان هذا مأساة حقيقية انتهت بالتمرد على «الميتافيزياء بشكل عام، وعلى هيغل بشكل خاص

«الواقع الروسي – القنانة، الاستبداد، البوليس المهيمن، الرقابة، وهلمجرا ظهر بليداً، غير عادل، وغير محتمل من قبل التقدميين أيام نيقولا لقد تذكروا بتعاطف جارف محاولة الديسمبريين[٨] المعاصرة لتغيير هذا الواقع الى الأفضل. ومع ذلك فانهم أنفسهم – على الأقل معظم الموهوبين منهم – لم يكونوا راضين لا بالرفض المجرد للقرن الثاني عشر ولا بالرفض المتعالي الأناني المحدود للرومانسيين وقد أصبحوا بفضل هيغل أكثر دقة لقد فهموا أن التاريخ عملية ذات قانون متحكم، وأن الفرد لا حول له في الأوضاع التي يتصارع فيها مع قوانين التطور الاجتماعي قالوا لأنفسهم: برهن على الطبيعة المعقولة لرفضك، واعثر على تبريره في مجرى اللا وعي للتطور الاجتماعي، أو اهمله كما لو كان نزوة شخصية، كما لو كان هوى أطفال إلا أنك حتى تبرر نظرياً رفض الواقع الروسي[٩] (بالقوانين الداخلية لتطوره) يعني أن تحل مسألة كانت أبعد من قدرة هيغل. فلنأخذ، مثلا، القنانة الروسية فحتى نبرر رفضها يعني أن نثبت أنها رفضت نفسها، أي أنها لم تعد تلبي الحاجات الاجتماعية التي بفضلها ظهرت إلى الوجود في يوم ما ولكن الى أي حاجات اجتماعية يعزى ظهور القنانة الروسية؟ إلى الحاجات الاقتصادية لدولة سوف تموت اعياء من دون الفلاح القن وبالتالي فقد كانت المسألة مسألة اثبات أن القنانة في القرن التاسع عشر قد باتت وسيلة هزيلة جداً في تلبية الحاجات الاقتصادية للدولة، أي، أنها أبعد من أن تلبيها، لقد كانت عائقاً مباشراً أمام تلبيتها كل هذا جرى اثباته مؤخراً بطريقة جد مقنعة في حرب القرم ونكرر هنا أن هيغل نفسه لم يكن قادراً على اثبات ذلك نظرياً وحسب المعنى المباشر لفلسفته فان النتيجة كانت أن أسباب أي تطور تاريخي لمجتمع معين هي ذات جذور في تطوره الداخلي وقد أشارت هذه النتيجة إلى أعظم مهمة في العلوم الاجتماعية إلا أن هيغل نفسه ناقض، وما كان له إلا أن يناقض، هذه النظرة

الصحيحة العميقة وكمثالي مطلق اعتبر السمات المنطقية لـ « الفكرة السبب الأساسي لأي تطور وهكذا تحولت سمات الفكرة الى سبب جذري للتطور التاريخي وفي كل مرة تواجه هيغل مسألة تاريخية كبرى، يرجع قبل كل شيء إلى تلك السمات. ولكن حتى يرجع إليها يعني أن يترك أساس التاريخ، وأن ينزع نفسه طوعاً من أي إمكانية العثور على الأسباب الفعلية للتطور التاريخي وباعتبار هيغل رجلا مثقفاً رائعاً وعظيماً، فانه نفسه شعر بأن ثمة شيئاً ما خطأ وأن تفسيراته، اذا ما أردنا الدقة، لم تفسر شيئاً ولذلك فقد أسرع، معطياً « **الفكرة** » أهمية كبرى، إلى الأساس الملموس للتاريخ ليبحث عن الأسباب الحقيقية للظواهر الاجتماعية، ليس في سمات الأفكار، بل في الأفكار ذاتها، في الظواهر الفعلية التي كان يتحراها في ذلك الوقت وفي عمله هذا غالباً ما كان يضع تخمينات كانت رائعة فعلاً (لا شيء عن الأسباب **الاقتصادية** للتطور التاريخي) إلا أن تخمينات العبقرية تلك لم تكن أكثر من تخمينات وإذ ليس لهذه التخمينات أساس نظامي ثابت، فانها لم تلعب دوراً جدياً في الأفكار التاريخية لهيغل والهيغليين. وهذا هو السبب في قلة الاهتمام المولى إليها، في الزمن الذي أعلنت فيه.

إن المهمة الكبرى التي أناطها هيغل بالعلوم الاجتماعية للقرن التاسع عشر بقيت دون تحقيق، فقد ظلت الأسباب الداخلية الحقيقية لتطور الانسانية التاريخي غير مكتشفة ومن نافلة القول أنه لا يمكن أن يظهر في روسيا الرجل الذي يستطيع اكتشافها وكانت العلاقات الاجتماعية في روسيا متخلفة جداً، فقد أطبق الركود الاجتماعي بشدة على البلاد، بسبب تلك الأسباب المجهولة لتنبثق على سطح الظواهر الاجتماعية في روسيا لقد اكتشفها ماركس وانجلز في الغرب، في ظروف اجتماعية مختلفة كل الاختلاف إلا أن هذا لم يحدث إلا في زمن متأخر نوعاً ما وخلال الفترة التي نحدث عنها، أصبح الرافضون الهيغليون هناك أيضاً متورطين في تناقضات المثالية وبعد كل ما قلناه، من السهل أن نفهم لماذا بدأ اتباع هيغل الشباب يتصالحون تماماً مع الواقع» الروسي الذي كان، في الحقيقة، شيئاً إلى حد أن هيغل نفسه لن يعترف به كواقع »؛ وموقفهم الرافض منه، غير المبرر نظرياً، كان في نظرهم مجرداً من أي حق معقول في الوجود وباعلانهم ذلك، ضحوا بتفان وتجرد بكل نضالاتهم الاجتماعية من أجل الشرف الفلسفي ولكن من ناحية ثانية أظهر الواقع أنهم مضطرون إلى التراجع عن تضحيتهم ولكونه يؤذيهم في كل ساعة وفي كل يوم، فقد أجبرهم على اتخاذ موقف

الرفض مهما كان الثمن، أي حق الرفض غير القائم على أساس نظري مقنع وكما نعرف استسلموا لالحاح الواقع، فتبنوا موقفاً عدائياً مه، من غير التحري فيما اذا كان مسجماً مع روح الفلسفة الهيغلية أم لا لقد تمرد الهيغليون الروس ضد معلمهم وراحوا يصبون السخرية على « قبعته الفلسفية »[١٠] حتى الوقت الحالي مع قدسيته في أعيبهم. كانت هذه الثورة في ظروف العصر، أمراً هاماً جداً ولا شك ولكن يجب ألا ننسى أنه، في التمرد ضد هيغل، كان تقدميونا يخفضون مستوى تجهيزاتهم الفلسفية، باعلانهم

Н. Г. Чернышевский.

Глава I.
Seine Zeit.

Литературная деятельность Чернышевского
относится главным образом ко времени предшест-
вующих реформ Александра II. ~~Русские~~
Русские либералы до сих пор с умилением
вспоминают доброго "царя-освободителя", до сих пор
[illegible] ему [illegible], выражающие неудовольствие
[illegible]
[illegible], своего [illegible]
[illegible]. [illegible]
[illegible] принадлежащих к русским либералам. С
другой стороны, они вовсе не [illegible]
Александру III. Поэтому они [illegible]
[illegible] реформы [illegible].
[illegible]
[illegible] на России [illegible]
"неудобным". [illegible]
[illegible]. Все живое, все мыслящее,
все [illegible]
[illegible] до [illegible]
[illegible] Крымская война [illegible]
существенно [illegible] положение [illegible]
2

الصفحة الأولى من الأصل الروسي لمقدمة الطبعة الألمانية لكتاب « ن.غـ. تشيرنيشيفسكي ».

فكرة تبرير رفضهم بالمجرى الموضوعي للتطور الاجتماعي ، وكانوا يقنعون أنفسهم بحقيقة أن هذا الرفض يتطابق مع مراجهم الخاص وهكذا فان خصوم « الواقع الروسي سموا وجهة نظر خيالية ، تمسك بها الكثير من الثوريين الروس بعدهم. الآن فقط ، تحت تأثير التعرف على كتابات ماركس وانجلر يمكن تلمس حركة معينة تجاه الاشتراكية العلمية في روسيا في العصر المشار إليه ، أي بداية حكم الاسكندر الثاني ، لم يستطع أبرز ممثلي الفكر الثوري عبقرية في روسيا أن يتجاوز الاشتراكية الخيالية ، ولن يستطيع

إن الاشتراكية الخيالية ، كما نعرف ، عاجزة عن إقامة أي مهمات سياسية محددة مهما كانت للبروليتاريا ، التي بدت جمهوراً مضطهداً متألماً ، غير قادر أن يمسك زمام أموره بيده كان هذا ، سياسياً ، أضعف أركان الاشتراكية الخيالية ، التي تبرز بوضوح في تاريخ الحركة الاشتراكية كلها في مرحلة ما قبل الماركسية ظهر هذا الركن الضعيف للاشتراكية الخيالية في روسيا في حقيقة أن أنصارها كانوا باستمرار يتذبذبون في موقفهم من القيصرية ولا يزالون. أحياناً اعتقدوا أن عليهم أن يتركوا الأموات «يدفنون موتاهم واعتبروا أنفسهم ملزمين فقط بتحقيق « مثلهم » الاشتراكية تقريباً ، متجاهلين كل شيء يحمل أدنى مشابهة مع « السياسة ». وأحياناً العكس ، إذ حلموا بمؤامرات « سياسية صرفة » مهدئين ضميرهم الاشتراكي بفكرة أن « الشعب » الروسي كان دائماً وسيبقى « شيوعياً بالولادة » حتى من غير دعاية اشتراكية. هذا الاعتقاد العذب دعمه قيام كومون القرية في روسيا ، مع اعادة تقسيم الأرض الدوري الذي اكتشفه - بعد أن أشار إليه عرضاً أنصار السلافية - الهكستوسن الألمان.

كتب ماركس في ربيع ١٨٤٥ « إن المبدأ المادي القائل إن الناس نتاج الظروف والتربية ، ولذلك فان الناس المختلفين هم نتاج ظروف أخرى وتربية مختلفة ، ينسى أن الناس هم الذين يغيرون ظروفهم وأن المربي نفسه يجب أن يربى». ولذلك فان هذا المبدأ مضطر إلى تقسيم المجتمع إلى قسمين ، أحد القسمين أعلى مقاماً من المجتمع (عند روبرت أوين مثلاً)[١١] إن أنصار الاشتراكية الخيالية كانوا دائماً يضعون أنفسهم فوق المجتمع في برامجهم ، وهي نتيجة عانوا بسببها الكثير من الفشل والاحباط

سوف يفهم القارىء أن كلمات ماركس التي اقتبسناها لا تتعلق بالمادية الديالكتيكية الحديثة ، التي ترتبط ارتباطاً وثيقاً باسم ماركس نفسه ، بل تتعلق بالمادية

الميتافيزيكية القديمة ، التي كانت عاجزة عن أن تتبنى نظرة تاريخية لا في الطبيعة ولا في العلاقات الاجتماعية وقد ابتدأت هذه المادية تنتشر في روسيا انتشاراً واسعاً في نهاية الخمسينات. وقد نالت أسماء كارل فوغت وبخنر ومولیخوت شهرة مبجلة ، حيث غدت أسماء الفلاسفة المثاليين الألمان مرادفة للطريقة الرجعية وقد أثار هيغل ، بشكل خاص ، عداء « البروليتاريا المفكرة » في روسيا على أي حال فان هذا كان الحد الذي لم يتجاوزه معظم الممثلين المثقفين لـ « البروليتاريا المشار إليها أعلاه. أما الذين تعرفوا على تاريخ الفلسفة الألمانية فقد ظلوا يحترمون المفكر العظيم في هيغل ، مع أنهم كانوا الآن أبعد ما يكون عن الاعجاب بفلسفته عند هؤلاء كانت السلطة الرئيسية في الفلسفة هي لفيورباخ في ذلك الوقت إن فيورباخ لا يقاس أعلى من فوغت أو موليخوت لقد شعر ، بصورة مميزة ، بعيوب المادية التي يدافعان عنها إلا أنه لم يستطع نقدياً أن يتجاوز هذه العيوب. إنه لم يصل إلى النظرة الديالكتيكية في الطبيعة والمجتمع «لقد انطلق من الانسان ، ولكن ليس ثمة اشارة في الأخلاق إلى العالم الذي يعيش فيه هذا الانسان ، ولذا فان هذا الانسان يظل دائماً ذلك الانسان المجرد الذي يشغل ميدان فلسفة الدين. ولأن هذا الانسان لم تلده امرأة ، فانه ينبثق من إله الأديان التوحيدية ، كما لو أنه ينبثق من خادرة. ولذلك فانه لا يعيش في عالم واقعي تكوّن تاريخياً وتحدد تاريخياً والحقيقة أنه يتداخل مع غيره من الناس ، إلا أن كل واحد منهم يشبهه تماماً في التجريد »* فمن الواضح أنها ليست فلسفة فيورباخ التي استطاعت أن تكشف لرازنوشنتسي أواخر الخمسينات ، الروسي المثقف ، الركن الضعيف في الاشتراكية الخيالية. ولم يكن أحد في روسيا ، وقتئذ ، قد تخطى فيورباخ وكانت الأفكار التاريخية لماركس وانجلز لا تزال غير معروفة هناك وكتاب داروين في أصل الأنواع ترجم إلى الروسية بعد ظهور الطبعة الانكليزية الأصلية بقليل[١٣] بيد أن « البروليتاريا المفكرة » استخدمت [نظرية داروين] حصراً كسلاح في النضال ضد الخرافة الدينية. إنها لم تقض على العنصر الأحادي الجانب في المادية الميتافيزيكية التي تجذرت عميقاً وتغلغلت لعدة سنوات في عقول « البروليتاريين المفكرين ».

---

* انجلز لورنيج فيورباخ ص ٢٩ من الترجمة الروسية[١٢]

سوف نلاحظ ، أخيراً ، أن المعرفة الاقتصادية ليس فقط عند الرأي العام الروسي المطلع ، بل أيضاً عند معظم الكتاب الروس المثقفين في الأربعينات كانت محدودة للغاية. فبيلنسكي لم يتناول قط المسائل الاقتصادية في مقالاته ، وتوفي هرزن وهو يؤمن أن برودون كان اقتصادياً عظيماً وفي أوائل الستينات غدا الاقتصاد السياسي علماً ذا شكل بارز في روسيا إلا أن الحماسة لم تكن بديلاً عن الاطلاع الايجابي. والخطوات الأولى لهذا العلم اتجهت بالضرورة نحو الطوباوية.

يقول انجلز في مكان ما إن الاشتراكيين الألمان في المرحلة الخيالية اعتقدوا أن « الحب » يتغلب على جميع الصعوبات النظرية. وقد أولى الحب الكثير من الخدمات التي من هذا النوع لـ « البروليتاريين المفكرين » الروس أيضاً وحيث لم يكن « الحب » متوفراً ، فان يد المساعدة كان يقدمها « العقل » المجرد الذي هو سمة مميزة لجميع مراحل التنوير إنطلاقاً من وجهة نظر هذا العقل فان كل المسائل الاجتماعية المشوشة ، حلت بسهولة وسرعة كبيرتين. يكتب بوشكين أنه يعرف نبيلة روسية راقية متقدمة في السن ، رأت في صغرها الثوري الفرنسي الشهير روم قالت:

*C'était une forte tête, un grand raisonneur; il vou aurit rendu claire i'apocalypse

إن متنويرنا في بداية حكم اسكندر الثاني كانوا أيضاً « أذكياء جداً و« فلاسفة كباراً وسوف يفسرون سفر الرؤيا ، تماماً مثلما كان روم يفسره ، ومثله لن يدرسوه من زاوية تاريخية.

* * *

هكذا كانت البيئة التاريخية التي عاش وعمل فيها تشيرنيشيفسكي فلننظر الآن كيف عاش ، والأهم ، كيف عمل.

---

* كان رجلاً ذكياً ، فيلسوفاً كبيراً ، بإمكانه أن يفسر لك سفر الرؤيا.

ن - غ تشيرنيشيفسكي
[١٨٩٠]

« حياتي وحياتك تنتميان إلى التاريخ، ولسوف تمر مئات السنين، واسمانا يظلان عزيزين على الشعب، الذي سيتذكرهما بتقدير، في حين يغيب أولئك الذين عاشوا معنا »
(من رسالة تشيرنيشيفسكي الى زوجته مكتوبة في ٥ تشرين الأول ١٨٦٢ في قلعة القديسين بطرس وبولس)

توفي نيقولاي غافريلوفتش تشيرنيشيفسكي في ١٧ تشرين الثاني ١٨٨٩ وقد شيعه اعلاما « المشروع إلى القبر بترحمة حياة صغيرة ونعوات فاترة. لقد أعلنت النعوات نهاية اليقظة الأدبية لكاتب يؤلف نشاطه مرحلة كاملة في تاريخ أدبنا واذ تنشر صحافتنا « المستقلة » كلمتين أو ثلاث كلمات عنه بلهجة رعديدة متلعثمة ولن نتحدث عن الصحافة « المدافعة عن النظام » - فانها تبدو كأنما نسيت كل شيء عنه، كما لو كانت في عجلة للانتقال إلى موضوعات أكثر أهمية. وفي رأي الأجنبي - مثلاً - الذي يعرف الروسية، والمطلع على الأدب الروسي، سيبدو هذا غريباً جداً بالنسبة إليه. والحقيقة، ما شاء الله، ليس لدينا صحيفة واحدة يمكنها أن تدعي أنها تتعاطف مع طموحات تشيرنيشيفسكي وآرائه الأخيرة لقد تقدم الفكر الروسي بالمقارنة مع أواخر الخمسينات وبداية الستينات، وأصبحنا الآن عقلاء ومتواضعين وحكماء بحيث لا يبدو لنا مؤلف رواية **ما العمل؟** المحتفى به أكثر من موهوب فقط، بل أيضاً يبدو حالماً غير عملي، بل حتى يبدو حالماً خطيراً اننا نعرف الآن أن ما نحتاج إلى عمله

ليس أبداً ما رغب فيه تشيرنيشيفسكي لقد ناقش الموضوعات الاشتراكية، بيد أننا نفكر أنه يكفي أن ندرأ الدمار الذاتي للزيمستفو، وأن ننقذ عقابيل كومون القرية من أسنان الكولاك. وهكذا أصبحنا، وقد أنضجتنا التجربة، هادئي الروع ولكن هذا ليس كل شيء إن الشيء الرئيسي هو أننا الآن **نعمل** أشياء (هذا إذا عملنا شيئاً ما) تختلف تماماً عن **الطريقة التي عمل بحسبها** تشيرنيشيفسكي نحن نتعجل قليلاً، وهو لا يبدو أنه سمع بهذه القاعدة الحكيمة. فقلما اتخذ مثل هذه الخطوات الحذرة، سامحاً لنفسه بهذه التعبيرات الجزئية التي لا فكر فيها، حيث أن إعادة جمعها الآن، بعد ما يقارب ثلاثين عاماً، يكفي لتقديم « فلان » على أنه حكيمٌ عاقلٌ لبراليٌ أو راديكاليٌ معتدل. كل هذا هكذا، ولا خلاف، إلا أن المرء لا يحتاج إلى مقاسمة الكاتب أفكاره ونوازعه كلها حتى يكرس صفحات قليلة في صحيفة ما تقديراً لنشاطه. ولذا يكفي أن نعلم أنه في ذلك الوقت، لهذا السبب أو ذاك، لعب دوراً هاماً في الأدب ماذا أثبت « فلان » اللبرالي من آراء كاتكوف؟ ومع ذلك ألم تكن ضجة كبرى أحدثها عقب وفاته؟ أم ان نشاط ميخائيل نيكيفوروفيتش كاتكوف تسترعي الاهتمام أكثر من نشاط نيكولاي غافريلوفتش تشيرنيشيفسكي؟ فهل أصبحنا إلى هذه الدرجة حكماء حتى نفكر بمثل هذه الأشياء؟

إن التفسير بسيط للغاية. فقد كان نيقولاي غافريلوفتش تشيرنيشيفسكي ضحية أعظم ملاحقة ماكرة لا ترحم شنتها عليه الحكومة. واذ يكون الحديث عن **الضحايا** فان صحافتنا « المستقلة »، لحكمتها المجربة، لا يمكنها أن تساعد إلا بأن تهمس ببضع حقائق مرة **للجزارين**. ومع ذلك طالما أن عصا التأديب بأيدي أولئك الجزارين حقاً، فليس يدهشنا أن صحافتنا الدورية، رأت من الأفضل أن تتجنب دغدغة الموضوع كله؛ تقول حكمة شعبنا « لا تحارب القوي »، وفي هذه الحالة، توافق الصحافة الروسية على هذه الحكمة كل الموافقة.

ولكن لا يسع المرء إلا أن يأسف لهذه المطابقة بين الحكمتين. انه من الأجدى أن نقارن العصر الحاضر والعصر الغابر وان نطلع القارىء ببساطة، وبتحليل مؤلفات تشيرنيشيفسكي، كم نحن بعيدون الآن عن المبادىء « الخاطئة » لهذا الاشتراكي والثوري. واذ يقتنع القارىء بهذا، فانه سوف يشكر السماء لهذا التطور السريع في الفكر الاجتماعي الروسي.

إننا نحن، من نكتب مں خارج البلاد، نتأثر تأثراً غير مباشر بعصا الرقابة، من خلال ىدخل مختلف «الضغوط الدبلوماسية وفوق ذلك فان السبب الفعلي في أننا نكتب من الخارج هو أننا لسنا بعد مستعدين للحصول على درجة كبيرة من الحكمة، ونكابر في الاعتقاد أنه لا شيء خطأ في فتح المعركة ضد القوي، وتذكير الجرارين بجرائمهم بيں الحيں والحيں ولهذا السبب نعتبر من واجبنا في العدد الأول من صحيفتنا أن نقدم قدر الامكان تقويماً كاملاً ومحايداً للنشاط الأدبي الذي قام به تشيرنيسيفسكي(١٤)

واذ ننىر كما لو كان ىطبيو هذا الواجب هو لأنفسا، فان هذه المهمة ليست سهلة أبداً انىا لم نشر إلى عدم كفاية قوانا في مثل هذه المادة الهامة هذا من نافلة القول ولكننا فوق ذلك سوف نسأل القارىء أن يتذكر أنه ليس ثمة أبداً مجموعة كاملة من مؤلفات تشيرنيسيفسكي إن مقالاته التي طبعت في الخارج (على يد إلبيديس وجرئياً على يد زيمانوف) لا تشكل حتى نصف ما كتب وبالتالي فاننا مضطرون إلى العودة إلى المصدر الأصلي، أي صحيفة **سوفريمينيك**(١٥) (المعاصر) التي ساهم نيكولاي غافريلوفتش في تحرير القسم الرئيسي مىها إن كل امرىء يعرف أنه ليس من السهل الحصول على الصحف الروسية القديمة في الخارج وبامكاننا التغلب على هذه الصعوبة جرئياً اننا لا نسطيع الحصول على **السوفريمينيك** في السنوات التي كتب فيها تشيرنيسيفسكي وبقراءة تلك التي حصلنا عليها، واجهسا صعوبة جديدة فالكثير من مقالات تشيرنيسبفسكي كل تلك التي في أقسام «الكتب الجديدة و«السياسة و«الأدب» (الروسي والأجبي) - طبعت من غير توقيع لذلك كنا مضطرين إلى جمع كتاب ناقد مع كتاب بيبيلوغرافي، وقراءه المقالات غير الموقعة حتى تحدد من اللغة وطرائق العرض مشابهها لمقالات تشيرنيسيفسكي ومن الواضح أن شكوكاً، وحتى أخطاءً، كانت موقعة هنا ومهما كانت طريقة سيرنيسيفسكي متميزة، ومهما كان من السهل لكل من يقرأ بعناية حتى القليل من مؤلفاته أن يميز أسلوبه، فاننا لا نستطيع، فيما يتعلق بمقالات معينة أن نقرر فيما إذا كانت تعود إليه أو إلى شخص آخر وبسكل عام تفادينا الرجوع إلى مقالات مشكوك فيها من هذا النوع في حالة واحدة فقط، أشرنا إليها في مكانها، قررنا الانحراف عن هذه القاعدة وعدنا إلى مقالة ربما، أو بالحقيقة لا ترجع الى مؤلفنا، إلا أنها هامة جداً لتقدير آراء هيئة **سوفريمينيك** في القضية الاجتماعية أما

المقالات الأخرى التي اقتبساها فلا شك أن تشيرنيسيفسكي كتبها، كما سوف يرى ذلك بسهولة كل من يجد في قراءتها

بعد هذا التحفظ الأساسي، ولكنه ليس مفيداً كثيراً يبدو أننا يمكن أن نباشر عملنا إلا أن تحفظاً آخر يبرز أمامنا، كما لو كان حظاً عاثراً فعلينا أن نعتذر للقارىء عن حقيقة أن مقالتنا النقدية سوف تبدأ باقتباس طويل سبياً ومن لا يعرف أن مثل هده التمهيدات قبيحة ومتحذلقة؟ إلا أننا هيأنا أنفسنا لهذه الحقيقة، لأن اقتباسنا يقدم شرحاً جيداً لموقفنا من القضية. وعندما يتصارع السرور والعمل لا بد من أن يضحي المرء بالسرور للعمل رغب في ذلك أم لم يرغب. وبالمناسبة فقد أخذنا هذا الاقتباس من مصدر جيد، من المؤلف الذي نحن بصدد مناقشته، أي، من كتابه « **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي** »

يقول في **مقالاته** ملتفتاً إلى نقد مرِحلة غوغول: « إذا كان ثمة بالنسبة إلى كل واحد منا موضوعات عزيزة على قلبه بحيث، في حديثه عنها، يحاول أن يفرض على نفسه البرودة والهدوء، يحاول أن يتجنب التعبيرات التي يسمع منها شغفه المفرط، واذ يعرف مقدما أنه بينما يحافظ على البرودة قدر الامكان، فان كلامه سوف يكون مشحوناً بالعاطفة – نقول إذا كان ثمة بالنسبة إلى كل واحد منا مثل هذه الموضوعاتالعزيزة على القلب، عندئذ سيحتل موضوع نقده مرحلة غوغول المكانة الأولى بينها، على مستوى غوغول نفسه... ولهذا السبب سوف نتحدث عن نقد مرحلة غوغول بقدر ما نستطيع من البرودة، وفي هذه الحالة لا جدوى من الجمل الصاخبة، إنها مؤذية لنا هناك درجة من الاحترام والتعاطف يرفض عندها كل تقريظ باعتباره شيئاً لا يعبر عن مشاعر المرء الكاملة » اننا نرى الناقد الرائع لمرحلة غوغول، بيلنسكي، يحمل التقدير العميق ذاته والحب القوي نفسه اللذين يشعر بهما تجاهه مؤلف **المقالات** وبهذا الصدد لا نستطيع أن نحذف أو نضيف شيئاً على الشاهد الذي اقتبساه. إلا أننا نلاحظ أن تشيرنيشيفسكي نفسه في الوقت الحاضر موضع حب قوي وتقدير عميق عند كل اشتراكي روسي. ولهذا السبب سوف نتبع مثاله، وسوف نحاول، في الحديث عنه أن نحافظ على البرودة والهدوء ما استطعنا، لأن ثمة فعلا « درجة من الاحترام والتعاطف يرفض عندها كل تقريظ باعتباره شيئاً لا يعبر عن مشاعر المرء الكاملة ».

١

لا ننوي كتابة سيرة تشيرنيشيفسكي فليس لدينا المادة الكافية لذلك. لدينا معلومات جد ضئيلة عن حياته إلا أن القليل الذي نعرفه عنه من هذه الناحية يتضمنه عرض سيرورته الملحق بالطبعة الأجنبية لمؤلفاته (أنظر كراسته «لسنغ والطبعة الثانية من روايته **ما العمل؟**) والعرض هذا مختصر جداً إلا أنه يتضمن بعض المعلومات المرتبة تاريخياً، وما يحظى بأهمية أكبر الوثائق المتعلقة بمحاكمة تشيرنيشيفسكي بالطبع سوف نستخدم هذه المعلومات، ونضيف إليها وقائع معينة استقيناها من كتابات المؤلف نفسه. إلا أن هـ قليل جداً، ولذلك نأمل من الأشخاص الذين يعرفون أكثر مما نعرف عن تشيرنيشيفسكي أن ينشروا ذكرياتهم عنه بأقصى سرعة، وكذلك رسائله وأوراقه التي بحوزتهم. وسوف يقدمون بعملهم هذا خدمة كبرى للرأي العام وللأدب معاً

وأثناء ذلك علينا أن نقنع أنفسا بالمعلومات التي تحت تصرفنا وهذه المعلومات هي التالية. كان نيكولاي غافريلوفتش ابناً لكاهن في كاتدرائية ساراتوف، ولد في ١٨٢٩[١٧] درس في مدرسة ساراتوف، ثم في جامعة بطرسبرج، حيث تخرج في فرع الفيلولوجيا في ١٨٥٠ وظل فترة بعد ذلك معلماً في مدارس بطرسبرج التأهيلية في بطرسبرج، ثم في ثانوية في سارتوف وهناك، في تلك المدينة الأصيلة، تزوج من أخت الكاتب المدرس المشهور الآن بيبين[١٨]، إذا لم نكن مخطئين. بيد أن الفتى تشيرنيسيفسكي سرعان ما لاحظ ركود الهواء في الأقاليم المضطهدة، ونجده في ١٨٥٣ يعود الى بطرسبرج، حيث علم ثانية في المدارس التأهيلية الثانوية، كما ترجم وراجع كتباً جديدة لصحيفة **أوتيشيتفيني زابسكي**[١٩]، نشرها كرانيسكي ودودشكين. ولن يكون خطأ افتراضا أن مؤلفنا عانى الكثير من الحرمان والمشقة في هذه المرحلة الانتقالية من حياته. في ذلك الوقت كان شغيلا أدبياً بسيطاً غير ماهر، وكما نعرف فان الشغيل غير الماهر لا يكافأ كثيراً في أدبنا ولم يكن تشيرنيشيفسكي يملك أي مصدر آخر للدخل. إلا أنه كان فتياً معافى لا يخاف أي عمل مهما كان. وإلى جانب العمل الأدبي الضروري لكسب معيشته، كان يعمل أيضاً في أطروحته الرئيسية في «العلاقة الجمالية بين الفن والواقع ويبين الاختيار الدقيق لموضوع الأطروحة بوضوح كافٍ المهمات التي يضعها أمام نفسه في نشاطه المستقبلي. وبثقافته وقدراته وكده الذي لا مثيل

له وموهبه المشهورة في سرح أسد الموضوعات صعوبة وضبابية بحيث كان الجميع يسوعونها، اسطاع أن يضمن عملاً أكاديمياً رائعاً وادا اضطر إلى العمل هذا، فقد حصل على كرسي استاذ إلا أن ما يريده كان شيئاً مختلفاً فقد جذبه نشاط الناقد والصحافي ومع كل صرامة الرقابة الروسية، يبذكر كل فرد مثال بيلنسكي الذي على الرغم من الرواجر الرقابية، لم ينجح فقط في أن يضع في التداول الأدبي حشداً من الحقائق الهامة جداً، بل أقام أيضاً نقدنا على أساس نظري جديد كل الجدة وقد عرفنا من قبل ما يكنه تشيرنيشيفسكي لهذا الكاتب من حب قوي وتقدير عميق. فليس عجباً أن يبع خطوات بيلنسكي ليتابع قضيته بكل طاقته. وفوق ذلك كانت حياة الامبراطور نيقولا في الحكم قريبة من خاتمتها، وبات افلاس نظامه واضحاً للجميع، بحيث أن المرء يستطيع أن يتوقع في النظام الجديد القادم تراخياً سياسياً معيناً وتوانياً في صرامة تلك:

الغبيّة الأنثى المنافقة
رقابتنا الشديدة الاحتشام

كما دعاها بوشكين. فكان لدى الكتاب الشباب سبب في أن يأملوا بمستقبل أفضل نوعاً ما وأخيراً كان لدى نيكولاي غافريلوفتش أفكارٌ أساسية جداً حول مهمات الشعب الذي يرغب في تكريس أعماله من أجل خير روسيا وبفضل هذه الأفكار لم يول اهتماماً كبيراً للنشاط الأكاديمي الصرف لأبناء جلدته. في **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي** التي أشرنا إليها سابقاً، يعبر بنفسه عن هذا الموضوع بصورة أكثر تحديداً يقول: «إن الكثير من العلماء والشعراء والفنانين الكبار وضعوا في ذهنهم خدمة العلم المحض أو الفن المحض من غير أي متطلبات استثنائية لوطنهم. بيكون وديكارت وغاليلو وليبنتز ونيوتن، واليوم هامبولت وليبغ وكوفير وفاراداي عملوا ويعملون شاخصين إلى إفادة العلم بشكل عام، وليس الى ما هو ضروري في زمن محدد لسعادة بلادهم الخاصة التي هي وطنهم. وباعتبارهم أعضاء في عالم الفكر، فانهم كوسمو بوليتيون إلا أن أعضاء عالم الفكر في روسيا ليسوا - كما يظُن في هذا الموقف إنهم لا يمكن أن يكونوا كوسموبوليتيين، أي لا يستطيعون التفكير بمصالح العلم المحض أو الفن المحض. وبهذا الصدد وانسجاماً مع ظروف بلادهم، اضطروا أن

يكونوا « وطنيين » أي أن يفكروا أولا وقبل كل شيء في الحاجات الخاصة لوطنهم. ولهذا فان « الوطني » المثالي عند تشيرنيشيفسكي هو بطرس الأكبر، الرجل الذي وضع نصب عينيه هدف جلب كل بركات الحضارة الأوروبية الى روسيا لقد اعتقد تشيرنيشيفسكي أن هذا الهدف، حتى في زمنه، لا يزال أبعد من أن يتحقق. « بالنسبة الى الروسي حتى الآن فان الخدمة الممكنة الوحيدة للأفكار النبيلة للحقيقة والفن والعلم هي أن يعزز انتشارها في وطنه. ومع الزمن فاننا أيضاً، مثل بقية الشعوب، سوف يكون لدينا مفكرون وفنانون يعملون مخلصين من أجل العلم والفن، ولكن حتى تكون ثقافتنا في مستوى ثقافة أكثر الأمم تقدماً، فان لكل منا قضية أخرى أعز على قلبه وهي - تعرير المريد من التطور لما كان قد بدأه بطرس الأكبر، قدر ما نستطيع. وهذه القضية تتطلب اليوم، وسوف تتطلب لفترة طويلة، جمع كل القوى الفكرية والأخلاقية التي يمتلكها أبناء وطننا الموهوبون »* فمن أجل نشر الأفكار النبيلة للحقيقة والفن والعلم في وطنه أراد تشيرنيشيفسكي أن يكرس قواه** كيف فهم هذه الأفكار؟ يمكن، في الحقيقة، ان نتبين ذلك من تحليل كتاباته. ولكن قبل أن نبدأ هذا التحليل، نرغب في ان نصف وجهة نظره العامة ونبين موقفه من أسلافه الأدباء، وبعد أن نفعل ذلك سوف نكون قادرين على تقدير هذا الرأي أو ذاك من آرائه الفردية من غير صعوبة كبيرة. إن ما يقنعنا أن نقوم بذلك الآن هو أننا لا نزال نعالج مرحلة حياته حيث لم يكن بعد قد شارك بنشاط خاص في الأدب، بل كان منشغلا في صنع آرائه في حذق « الأفكار النبيلة للحقيقة والفن والعلم » وتحليلها

كان تشيرنيشيفسكي يحترم من بين كل أسلافه الأدباء ف غ بيلنسكي وحلقته، أعظم الاحترام. ولذلك يمكن أن يعتقد المرء أنه تربى على كتابات بيلنسكي وحلقته، حتى استقى فهمه لأفكار الحقيقة والفن والعلم من هذا المصدر إلا أن هذه ليست هي القضية تماماً فمع أن تشيرنيشيفسكي في كتاباته لم يشر إلى تاريخ تطوره الفكري، فانه يجعل المرء يرجع بصورة خاطفة إلى دوبروليوبوف الذي يمكن أن يلقي ضوءاً عليه. إننا نرجع إلى رسالة كتبها بعد موت دوبروليوبوف رداً على مقالة لمن يدعى السيد ز ...

---

* انظر السوفريمينيك ١٨٥٦ الكتاب الرابع قسم النقد ص ص ٢٩ ٣١

** انظر فيا بعد ما أضيف الى هذه الصفحة في الطبعة الألمانية في هذا المجلد.

ن وسرت في عدد شباط في صحيفة السوفريميك في ١٨٦٢ قال السيد ر .ن في مقالته، من جملة ما قال، إن دوبروليوبوف في آخر أيامه كان تلميذاً لتشيرنيسيفسكي، وكان ذا تأثير كبير فيه وقد رفض تشيرنيسيفسكي ذلك بانفعال، بل حتى بغضب، قائلاً إن دوبروليوبوف قد وصل إلى أفكاره بصورة مستقلة، وأنه أكثر منه تفوقاً سواء في القوى الفكرية، أم في الموهبة الأدبية ولسنا بحاجة الآن إلى أن نحدد إلى أي مدى يتطابق هذا التصريح المتواضع مع الأمور الحقيقية إن كل ما يهمنا الآن في رسالة سيرنيسيفسكي هو الصفحة التالية بعد تذكيرنا أن دوبروليوبوف يعرف الفرنسية والألمانية وبامكانه أن يؤمن لنفسه قراءة أروع المؤلفات الأدبية الفرنسية والألمانية بلغتها الأصلية، يقول تشيرنيسيفسكي «اذا كان روسي موهوب في السنوات الحاسمة من تطوره يقرأ كتب أشهر المعلمين الغربيين، فان الكتب والمقالات المكتوبة بالروسية يمكن أن تسره، يمكن أن تبهجه ولكن لا يمكن أن تخدمه كمصدر هام للمعرفة والمفاهيم التي اشتقها من المطالعة»* وهذا صحيح حقاً إلا سيرنيسيفسكي يعرف أيضاً اللغات الأجنبية، وأيضاً يقرأ الكتب لأعظم معلمي الغرب في السنوات الحاسمة من تطوره لذلك يمكن أن يفترض المرء أنه استطاع هو أيضاً أن يبتهج فقط ببعض المقالات والكتب بالروسية، إلا أن ذلك بالنسبة إليه أيضاً لم يكن المصدر الأصلي لمفاهيمه ومعرفته. إن السؤال الآن هو ماذا كان المصدر الأصلي؟ في أي الآداب وفي أي الفروع لتلك الآداب يجب البحث عنه؟

كانت الفلسفة الألمانية في الثلاثينات والأربعينات إحدى الدعائم الهامة لشبابنا في السنوات الحاسمة من تطوره وفي العقود التالية لم تكن الحالة هكذا في الخمسينات كان الموقف من الفلسفة الألمانية في روسيا، على ما يبدو، موقفاً بسيطاً هو اللامبالاة في الستينات بدأ الناس ينظرون إليها نظرة عداء وازدراء وقد صرح «الواقعيون المفكرون»[٢٠] أن الفلسفة الألمانية «ميتافيزياء لا يضيعون وقتهم فيها ومن بين الفلاسفة الأوروبيين كان الوضعيون هم المعترف بأنهم يستحقون الغفران إن الحرب ضد الفلسفة الألمانية شنت بنجاح في روسيا بحيث أن «واقعيينا المفكرين يمكن أن يفخروا بنصرهم على «الميتافيزياء»، ومع كبرياء مقبولة يمكنهم الادعاء أن ليس لديهم

---

* تعبيراً عن الامتنان، رسالة الى السيد ز ن **السوفريمنيك** شباط ١٨٦٢

أي فكرة عن الفلسفة الألمانية ولكن لا تشيرنيسيفسكي ولا أقرب أصدقائه، يسموں إلى أولئك الواقعيين المتصرين إذ استفادوا من الفلسفة الألمانة ودرسوا تاريخها بدقة وقد أثر فيهم كثيراً تطورها وظرفها في ذلك الوقت من دون شك، كما أثرت في بيلنسكي وأصدقائه أيضاً ولكن من من الفلاسفة الألمان كان سيرنيسيفسكي يسفيد منه؟

ليس فيخته ولا شلنج ولا هيغل أيضاً لقد اسفاد بيلنسكي منهم في يوم ما أما بالنسبة إليه فان الكثير من أنظمة هؤلاء الفلاسفة، في النصف الثاني من ساطه النقدي كانت، كما يقول الألمان، ein Uberwundener Standpunkt* ويمكن أن يقال هذا وأكثر عن تشيرنيسفسكي فخلال سوات تطوره الحاسمة، كانت الفلسفة قد انفصلت إلى الأبد عن كل أشكال المثالية ولكن إذا كان هذا هو الأمر فأي الفلاسفة الألمان كان له التأثير الأكبر فيه؟ فلنبحث عن الجواب مرة أخرى في كتاباته الخاصة في «جواهر المناظرات التي كتبها رداً على صحيفتي **روسكي فستنيك**[٢١] **وأتشيشتفيني زابسكي** اللتين هاجمتا بسدة اتجاهه بسكل عام ومقالته «المبدأ الأنتروبولوجي في الفلسفة»، يقول تشيرنيشيفسكي إن النظام الدي يعتبره صحيحاً «هو الحلقة الأخيرة في سلسلة الأنظمه الفلسفية وأنه «انشق من نظام هيغل، مثلما انشق هذا الأخير من نظام شلنج ومن هنا يعرف الناس المطلعون على تاريخ الفلسفة عن أي نظام يتحدث أما بالنسبة إلى أولئك الذين لا ترال القضية غامضة لديهم فسوف نقتبس قليلاً من الأسطر الأخرى «لا شك أنك ترغب في أن تعرف من هو هذا المعلم الذي أتحدث عنه؟ هكذا يسأل سيرنيسيفسكي ديدشكين في المقالة نفسها ويتابع وحتى أساعدك في تحرياتك سأقول لك إنه ليس روسيا ولا فرنسياً ولا انكليزياً، ولس بوخنر ولا ماكس سيرنر ولا برونو بوير ولا مولنخوت ولا فوغت من هو إذن؟ لقد بدأت تحرر وبالفعل لا يمكن للمرء ألا يحرر إن سيرنسفسكي يتحدث عن فيورباخ إن الاسم الحقيقي للمقالة الفلسفية الوحدة التي كتبها سيرنيسيفسكي يسير إلى فيورباخ ففوورباخ كان أول من تحدث عن النظرة **الانتروبولوجية في** الفلسفة ويمكن أن نقتبس من مقالات سيرنيسفسكي كمية كبيرة تثبت الاحترام العميق الذي يكنه لفيورباخ كان

---

* [موضة قديمة]

فيورباخ بالنسبة إليه ليس أقل من هيغل، وهذا الكلام يحمل الكثير، فقد كان تشيرنيشيفسكي يعبر هيغل واحداً من أعظم المفكرين الرائعين وهكذا فان النظرة الفلسفية لمؤلفنا قد ظهرت لقد كان تشيرنيسيفسكي مادياً باعتباره تابعاً لفيورباخ كتب في المقالة المشار إليها أعلاه « المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة « ان المبدأ الذي تخصع له النظرة الفلسفية للحياة الانسانية هو الفكرة التي اسسجتها العلوم الطبيعية، فكرة وحدة العصوية البشرية، فقد استبعدت دراسات الفيزيولوجيين وعلماء الحيوان والأطباء فكرة الثنائية في الانسان. والفلسفة تراه مثلما يراه الطب والفيزيولوجيا والكيمياء لقد أثبتت هذه العلوم أنه ليس ثمة ثنائية في الانسان، وتضيف الفلسفة أن الانسان لو كان يملك طبيعة أخرى، بالاضافة الى طبيعة الحقيقة، فان هذه الطبيعة الأخرى سوف تفصح حتماً عن نفسها بطريقة ما، ولكن طالما أنها لم تفصح عن نفسها بأي طريقة، طالما أن كل شيء يظهر في الانسان هو من طبيعته الأصلية فقط، فانه لا يمكن أن يملك طبيعة أخرى ». إن هذا لا يحتاج إيضاحاً

٢

ولكن لا ضير أن نشير إلى المكانة التي يحتلها معلم مؤلفنا في تاريخ الفلسفة لقد انبثقت نظرية فيورباخ من نظرية هيغل. بيد أن هيغل كان مثالياً بينما كان فيورباخ مادياً عنيداً والفضل الرئيسي لفيورباخ هو أن الفلسفة في شخصه قد انفصلت عن المثالية إلى الأبد إلا أن المرء لا بد من أن يتحفظ هنا فهناك ماديون قبل فيورباخ أيضاً وحتى لا نشتط في الأمثلة بعيداً، نشير إلى الماديين الفرنسيين في نهاية القرن الماضي فـ Systeme de la nature (نظام الطبيعة) يعتبر كتاباً مادياً كاملاً ولكن هل يمكن أن يقول المرء إن فيورباخ أحيا الفلسفة بآراء بارون هولباخ ورملائه؟ إن هذا سيكون خطأ إن المادية الجديدة تختلف كل الاختلاف عن المادية في نهاية القرن الماضي، ويكمن الفرق بشكل رئيسي في طريقة التفكير المعلية فالمادية الحديثة بالطبع أفضل شراحها وأعظمهم سستخدم طريقة خاصة في التفكير تسمى الديالكتيكية، وهي تسم الماديين الفرنسيين في القرن الماضي بأقل جداً مما تسم، مثلاً روسو المؤمن. ولا حاجة تدعونا أن نشرح للقارىء عما يؤلف السمات الخاصة للطريقه الديالكتيكية الحديثة في التفكير، لأن هذا قد تم على يد شخص أجدر منا وهذا ما

قاله في هذا الموضوع فريدريك انجلز الرجل الذي قدم الكثير بكتاباته لتعزيز المزيد من التطور المنظم لآراء فيورباخ

بالنسبة إلى الميتافيزيكي ، الأشياء وانعكاساتها الذهنية ، والأفكار ، معزولة ، فالأشياء يأتي الواحد منها بعد الآخر بصورة منفصلة ، موضوعات للبحث ثابتة صلبة خلقت مرة وإلى الأبد إنه يعتقد بالطاقات التي لا يمكن مصالحها مطلقاً إنه يجيب إما بنعم أو بلا ، لأن ما عدا ذلك يأتي من الشيطان ، فبالنسبة إليه إما أن يوجد الشيء أو لا يوجد فلا يمكن للشيء أن يكون هو نفسه وفي الوقت ذاته يكون شيئاً آخر الايجاب والنفي ينفي أحدهما الآخر مطلقاً ، السبب والنتيجة يقفان في طباق صارم الواحد مقابل الآخر الديالكتيكي لا يفكر هكذا إنه « يستوعب الأشياء وما يمثلها من أفكار في ترابطها الأساسي ، وتسلسلها ، وحركتها ، ونشأتها ، وموتها لذلك فان جميع الظواهر وجميع الأفكار في نظره تتخذ شيئاً مختلفاً كل الاختلاف عنها في نظر الميتافيزيكي إنه لن يقول ، كما يقول الميتافيزيكي ، بصدد لا يقبل أي اعتراض إن الشيء في وقت محدد إما يوجد أو لا يوجد وبالنسبة إلى الأمور اليومية فان الميتافيزيكي على حق طبعاً ، إلا أنه في البحث العلمي الدقيق يصبح مشوشاً كلياً ، وعندئذٍ يبدأ الديالكتيكي ينتصر « بالنسبة إلى الأمور اليومية نعرف ، ويمكن أن نقول ، مثلاً فيما إذا كان حيوان ما حيّاً أو غير حي ولكن في البحث الدقيق نجد أن الأمر ، في كثير من الحالات ، مسألة معقدة جداً كما يعرف ذلك القانونيون جيداً فهم عبثاً يشحذون أدمغتهم لاكتشاف حد معقول لاعتبار قاتل الطفل في الرحم مجرماً فمن المستحيل مطلقاً تحديد لحظة الموت ، لأن الفيزيولوجيا تثبت أن الموت ليس فورياً ، ليس ظاهرة عابرة ، بل عملية طويلة الأمد وفوق ذلك ، من الواضح للديالكتيكي أن أي شيء يمكن أن يكون هو نفسه تماماً ويمكن أن يكون شيئاً آخر أيضاً في الوقت ذاته ، لأن الأشياء في تغير مستمر والتغير هو عملية حقيقية من خلالها يكف الشيء عن أن يكون هو نفسه ويصبح شيئاً آخر إن كل مخلوق عضوي هو في أي لحظة نفسه وليس نفسه ، ففي كل لحظة يمثل مادة تأتيه من الخارج ، ويتحرر من مادة أخرى ، ففي كل لحظه تموت بعض خلايا الجسد وتجدد ذاتها خلايا أخرى ، وفي زمن طويل أو قصير تتجدد مادة الجسد تجدداً كلياً ، وتحل محلها ذرات أخرى في المادة ، بحيث أن كل مخلوق عضوي هو نفسه وهو شيء آخر غير نفسه وبالطريقة ذاتها تتخذ مفاهيم الايجاب

والسلب والسبب والنتيجة معنى مختلفاً عند الديالكتيكي أكثر مما تتحد عند الميتافيزيكي «وفوق ذلك نجد في الدراسة العميقة أن قطبي الطباق الايجابي والسلبي، مثلاً، لا ينفصلان بقدر ما هما متعارضان، وأنهما على الرغم من كل تعارضهما يتداخلان بشكل متبادل ونجد، بطريقة مماثلة، أن السبب والنتيجة مفهومان لا يمكن أخذهما إلا في تطبيقهما على الحالات الفردية، ولكن حالما نأخذ الحالات الفردية في ترابطها العام مع الكون ككل، فانهما يتداخلان الواحد بالآخر، ويصبحان ممرجين عندما نتأمل الفعل ورد الفعل الشاملين حيث الأسباب والنتائج تغير أمكنتها، بحيث أن ما هو نتيجة هنا الآن تصبح سبباً هناك والعكس بالعكس»[٢٢]

فاذا ألقينا نظرة، بعد كل ما قيل، على الطريقة التي التزمها الماديون الفرنسيون في نهاية القرن الماضي (ويجب أن نتذكر أن الطريقة هي جوهر أي نظام فلسفي) فاننا نرى حالاً كيف أنهم لا يلتقون مع الماديين المحدثين إلا قليلاً فهم، على العكس من الماديين المحدثين، يجب أن يسموا **ميتافيزيكيين**. وحتى يتأكد القارىء بنفسه من ذلك، فليلق نظرة، مثلاً، على الكتاب المشار إليه أعلاه، أي **نظام الطبيعة** ويلاحظ كيف يعالج هولباخ وأصدقاؤه المسائل التي طرحوها في النضال ضد خصومهم، بيد أنها لم تحل لا من قبلهم ولا من قبل العلم المعاصر تلك المسائل تتعلق بالموضوعات الرئيسية للمعرفة البشرية تطور الكون، وأصل الانسان ومفاهيمه المختلفة، وأخيراً العلاقات الانسانية في المجتمع العلم حالياً - العلوم الطبيعية والتاريخ - يحل كل تلك المسائل عن طريق مبدأ **التطور** أي عن طريق الطريقة الديالكتيكية ذاتها التي يتحدث عنها الماديون المعاصرون، ولكن التي يدين لها حتى معظم البحاثة المشهورين في اكتشافاتهم الكبرى، من غير أن يكون لديهم فكرة عنها فهولباخ وأصدقاؤه، كما يبدو، قاموا بمهمة عزل فكرة التطور كلياً عن مناقشاتهم. لقد نظروا إلى الأشياء على أنها خارج علاقاتها المتبادلة، الواحد تلو الآخر، والواحد في استقلاله عن الآخر لقد كان جوابهم حقاً اما «نعم أو لا» وكل ما عدا ذلك اعتبروه من الشيطان. ولهذا السبب لم يفشلوا فقط في حل العديد من المسائل التي طرحوها، بل إنهم لم يثبتوا دائماً عند نظرتهم المادية الخاصة، فغالباً ما يتركونها ويأخذون بحجج مثالية كلياً إنهم فيما يتعلق بالعلاقات الانسانية وتاريخ الفكر الانساني محض مثاليين يتجنبون المفاهيم العلمية فليس تاريخ البشرية في نظرهم أكثر من تاريخ أخطاء المغفلين الشرفاء ومكائد الأشرار المأجورين

لقد عانت البشرية وعاشت في بؤس لأنها كانت غبية وغير مثقفة، ولكن في القرن الثامن عشر أشرقت شمس العقل أخيراً، وسوف تتنور البشرية الآن، وبالتالي سوف تكون سعيدة هذا ما وصلت إليه فلسفتهم في التاريخ إلا أن مثل هذه الفلسفة يقصها أهم شرط أساسي في العلم: **مفهوم المطابقة للقوانين**. فقد عانت البشرية حقاً من نقص الثقافة، ولن تعاني من هذا النقص بفضل التنوير الذي جاء به القرن الثامن عشر حسن جداً، ولكن المسألة المطروحة هي ما الذي سبب نقص تطور البشرية في القرون السالفة وما الذي جعل التنوير خاصاً بالقرن الثامن عشر؟ إنه لم يأت من الهواء إننا، كماديين لا نعترف بالأفكار الفطرية، بل نقول إن مفاهيم الانسان ليست سوى انعكاسات فكرية للموضوعات التي تحيط به والظواهر التي تحدث أمامه. إلا أننا اذا التزمنا بهذه النظرة، فإننا نفعل ذلك بثبات ولا نتساها إذا ما انتقلنا إلى تاريخ الفكر الانساني إننا، في هذا التاريخ، لا نستطيع أن نتحدث عن الصدفة أكثر مما نستطيع أن نتحدث عن العناية الالهية إن هذه المفاهيم غير علمية مطلقاً، ولا تليق اجمالاً بماديين إن تاريخ الفكر البشري بالنسبة إلى المادي يشبه تماماً القانون السائد والضرورة، إنه عملية، مثل تطور النظام الشمسي لذا فالصعوبة هي في شرح مجرى شروط هذه العملية، لأنك لو فسرت تاريخ الفكر بنقص تطور الفكر، كنت مثل الطبيب الذي قال: «إن ابنتك ليست جيدة لأنها مريضة ولكنك إن نظرت إلى تاريخ البشرية على أنه عملية ضرورية يحكمها القانون، لم تُظهر تعاقباتها لك على أنها السبب الأولي الأساسي للتطور الاجتماعي فأنت بالضرورة مضطر أن تتذكر التعاليم الديالكتيكية في السبب والنتيجة وستقول لنفسك: فعلا السبب والنتيجة يتبادلان المواقع باستمرار، فما كان نتيجة هنا، يبدو سبباً هناك، والعكس بالعكس إن منجزات الفكر الانساني تؤثر ولا شك تأثيراً حاسماً في العلاقات الاجتماعية، ولكنها في الوقت نفسه تعتمد على تلك العلاقات، فتخطو خطوات جبارة في نمط من المجتمع، وتظل لفترة طويلة، إن لم يكن إلى الأبد، في مجتمع آخر وفوق ذلك فان هذا الشكل أو ذاك من العلاقات الاجتماعية لا ينشأ لأنه يبدو لأعضاء مجتمع معين بأنه معقول وصحيح العكس تماماً، فايمان الشعب في الصحة والمعقولية لعلاقاتهم الاجتماعية هو بكل بساطة نتيجة حقيقة أنهم باتوا معتادين على تلك العلاقات، انهم تثقفوا وتربوا تحت تأثيرها. فكيف اذن تنشأ تلك العلاقات الاجتماعية وتتطور؟ إن نشأتها وتطورها

واختفاءها في التاريخ بقسمها الأعظم عملية لا واعية يتجمع فيها البشر في نضالهم من أجل الحياة وعندما تتغير ظروف نضال الناس من أجل الحياة، فان التجمع البشري يتغير أيضاً، وتتخذ علاقاتهم الاجتماعية شكلاً جديداً، مع أن الناس غالباً لا يلاحظون مثل هذا التغير اطلاقاً، أو أنهم يلاحظونه جزئياً، أو يخترعون تفسيرات غير منطقية له - مثلاً يستشهدون بالأوامر الالهية، والنظام الطبيعي للأشياء، وهلمجرا وقد لاحظ هيغل بحق أن «بومة مينرفا» في العلاقات الاجتماعية «لا تبدأ طيرانها إلا عند هبوط الليل»[٢٣] أي أن الناس يبدؤون يفكرون في نظام اجتماعي ما عندما يقضي أجله ويصبح عديم الفائدة ومضراً في الظروف التاريخية الجديدة. عندئذٍ يكافح الناس لاقامة نظام جديد يبدو لهم في مثل هذه الحالات أنه أعظم نظام طبيعي ومعقول، إلا أنه في الحقيقة ذو فائدة كبرى هي أنه النظام الأعظم ملاءمة للناس في الشروط التاريخية المتغيرة لنضالهم من أجل الحياة.

والآن من الطبيعي أن يسأل المرء نفسه على أي شيء تقوم شروط النضال الانساني من أجل الحياة، وكيف تتغير إنها أولاً مشروطة بالطبيعة، وثانياً يخلقها الناس، ولكنهم يخلقونها من غير وعي في الأغلب إن تأثير الشروط الجغرافية التربة والطقس والنبات والحيوان ومعالم السطح، أنظمة الأنهار والشواطىء الخ - في تطور المجتمعات الانسانية شرحها كلها تقريباً العلم ولا حاجة لأي أمثلة لتوضيحها إلا أن سمة وطبيعة شروط النضال من أجل الحياة، التي يخلقها الناس أنفسهم من غير وعي، لا تزالان غير واضحتين للكثيرين ولهذا السبب فان تقديم مثالٍ هنا ليس في غير مكانه فلنأخذ مجتمعاً اختفى فيه الاقتصاد الطبيعي والمنتجات تنتج للبيع، للتبادل في السوق، أي، بكلمة أخرى، أصبحت سلعاً فمن نافلة القول إن المنتجين لا يفكرون إلا قليلا في السمة السلعية لمنتجاتهم، مثل برجوازي موليير الذي لم يكن يفكر بالنثر العادي لكلامه اليومي إنهم ينتجون السلع ليس لأن الانتاج السلعي يبدو أنه الانتاج الطبيعي والمعقول بالنسبة إليهم: إنهم يتركون مناقشة هذا لنوع من الرجال المختصين يدعون الاقتصاديين. إنهم يجعلون منتجاتهم سلعاً لأنهم ببساطة في ظروف محددة لا يستطيعون إلا أن يجعلوها سلعاً إنه يضعونها في السوق لأنهم في حاجة إلى مبادلتها بمنتجات أخرى ضرورية لهم. إلا أن هذه المنتجات، التي توضع في المخزن بأمن وهدوء عندما تكون فقط منتجات، تبدأ تتخذ شكلاً خاصاً عندما تظهر في السوق وتكتسب

اسم سلع أحياناً هذه السلعة أو تلك تحقق «سعراً مرتفعاً فيطيب خاطر منتجها ولكن أحياناً تبدأ فجأة، ومن دون سبب معقول، «تتدنى فالطلب عليها قليل وسعرها يهبط إن المنتج يطأطىء رأسه. ويحدث أحياناً أن سلعة معينة لا يشتريها أحد، فالويل عندئذٍ لمنتجها إن لم يضع جانباً قسماً من القروش البيضاء للأيام السوداء إلا أن القضية ليست محصورة بتذبذبات السعر العشوائي في مجتمع منتجي السلع. فقليلاً قليلاً يبدأ التفاوت فيما بينهم يظهر فعمل أحدهم أفضل من الآخر، وهكذا يصبح غنياً ويتدمر الآخر هذا التفاوت بشكل عام الذي هو أيضاً نتيجة التقدم التكنيكي - يصل إلى الدرجة التي تظهر فيها سلعة جديدة في السوق هي قوة العمل. إن قطاعاً من منتجي السلع المدقعين لا يستطيعون متابعة الانتاج على حسابهم الخاص، فيبيعون أنفسهم ليعملوا موظفين. هكذا لدينا الآن عمال وموظفون، والمجتمع السلعي يصبح مجتمعاً رأسمالياً من خلق هذا المجتمع الرأسمالي؟ لماذا خلق؟ ألأنه اعتبر أعظم الأنظمة معقولية و«طبيعية»؟ لقد خلقه الناس لأن علاقاتهم المتبادلة كانت علاقات منتجي سلع، منها تطورت بالتالي العلاقات الرأسمالية إلا أنهم خلقوا هذه العلاقات من غير وعي إن ايفان وبطرس والكسي لم يفكروا بالنتائج التي نجمت عن الانتاج السلعي، إنهم لم يفكروا حتى في معنى الطبيعة السلعية للانتاج على أي حال فان ايفان وبطرس والكسي ليس لديهم، كما سبق وعرفنا، أفكار فطرية إن سبيلهم في التفكير يتأثر بمحيطهم. وعيشهم في مجتمع رأسمالي، جعلهم يفكرون أنهم يعيشون في مجتمع لا يستطيع الناس أن يعيشوا في غيره، ذلك أن النظام الرأسمالي هو النظام الأكثر «طبيعية والأكثر «صحة وحتى هذا يفكرون فيه في حالات نادرة، إلا أنهم في معظمهم لا يفكرون في نظامهم الاجتماعي نهائياً: إنهم يأخذونه كمسلمة، من غير أن يتساءلوا فيما اذا كان يمكن تغييره. على أي حال فان تأثير النظام الرأسمالي لا يزال يظهر في طريقة تفكيرهم ومشاعرهم وعاداتهم. إنهم لا يرتبون مفاهيمهم في نظام. بيد أن مفاهيمهم المبعثرة وغير المنظمة تتسرب إليها روح الرأسمالية. إنها تتسرب إلى كل شيء القانون المدني وقانون الدولة والفن والأدب والعلوم الطبيعية والعلوم الاجتماعية وفيما يتعلق بالعلوم الاجتماعية يتضح أن: العلوم الاجتماعية في المجتمع الرأسمالي ليست سوى اقامة العلاقات الرأسمالية في صرح نظري. فاذا طبقنا ذلك على العلوم الطبيعية بدا تفسيرنا للوهلة الأولى غريباً جداً. كيف يمكن لأفكار الناس في

الأكسجين أو مسارب الانتاج أن تتشرب بروح الرأسمالية؟ ولكننا لا نقول إنّ ذلك ممكن. إننا ببساطة نرغب في القول إن الناس لا يعرفون دائماً شيئاً عن الأكسجين ومسارب الإنتاج لقد مرت فترة ما كانوا يعرفون أي فكرة عن ذلك. متى إذن بدأ الناس يهتمون بذلك؟ قال عظيم إيطالي منذ زمن قديم « إن مجرى الأفكار يتطابق مع مجرى الأشياء، وكل العلوم تنشأ من حاجات الناس ومطلباتهم »[٢٤] إن اهتمام الناس كان يتجه إلى هذا الميدان أو ذاك من الظواهر الطبيعية التي تتطابق مع حاجات المجتمع الذي يعيشون فيه. والممارسة، في كل العلوم، تسبق النظرية، ولا تكف عن ممارسة التأثير فيها فما الحاجات، وما الممارسة الموجودة في المجتمع الرأسمالي؟ إنها ولا شك حاجات المجتمع الرأسمالي وممارسته، ولا شيء آخر تلك الحاجات وهذه الممارسة لا سج فقط نظريات معينة، بل تترك ميسمها عليها، فتعوقها أحياناً، وتسرعها أحياناً أخرى فتحسنها قل ما شئت، إلا أن الحقيقة أن الفكرة ذات الأهمية الكبرى للنضال من أجل الحياة التي ظهرت بين علماء الحيوان بعد أن صاغها نظريو الرأسمالية الاقتصاديون في مبدأ، هي أكثر بروزاً

إلا النظام الرأسمالي ليس مستمراً دائماً فتدريجياً، تحت تأثير الكثير من الأسباب، ولكن أيضاً من دون وعي المشاركة الانسانية، ظهرت فيه الكثير من المعوقات والكثير من المظاهر السلبية غير الملائمة. إن يوم دينونته آت. « الليل » يهبط و« بومة منيرفا » تطير إن إنتقاد العلاقات الرأسمالية يبدأ إن الناس يسألون أنفسهم: ألا يمكن أن يظهر نظام آخر؟ إن هؤلاء الذين تأثروا بمعوقات الرأسمالية المتزايدة يفكرون بهذه المسألة باهتمام، ولا يجدون أن نظاماً آخر لا يمكن أن يحل، بل يرون أن نظاماً آخر يجب أن يحل. إن النظريات المعروفة بأنها المبادىء الضارة للشيوعية والاشتراكية قد ظهرت. وتحت رايتها تجمع كل أولئك الذين نبذهم واضطهدهم النظام القائم ولكن لماذا لم يكن هذا من قبل؟ ألم يكن نظريو العصور السابقة - كل أولئك الذين يعتبرون نجوم المعرفة الكبار بيتي وسميث وريكاردو - متملقين خبثاء يدافعون عن قضية لا تفيد إلا حفنة صغيرة من الأغنياء؟ بالتأكيد لا فقد كانوا مفكرين شرفاء، ولكن كيف لكم أن تتوقعوا منهم اكتشاف ما لم يوجد بعد في الواقع؟ في أيامهم لم تكن الحركة التاريخية قد كشفت، أو بشكل أكثر دقة، لم تكن معوقات النظام الرأسمالي قد ظهرت، تلك التي يحارب الاشتراكيون ضدها، ولذلك لم يخامرهم

شعور أنها يمكن أن تظهر فالاقتصار على دراسة العصر هو مصدر الخطأ وهذا ما يجب ألا يسى في دراسة تاريخ الفكر الانساني

ربما سئلنا فيما إذا كان ثمة رابطة بين الشروط الطبيعية والجغرافية للتطور البشري المعروة إلى ما سبق، وشروطه التي يخلقها الناس من غير وعي في عملية الانتاج إن هذه الرابطة توجد من غير شك إن تطور الانسان الاقتصادي يتم تحت تأثير الظروف الجغرَافية إنه يطلق بسرعة أو ببطء، ويتخذ هذا الاتجاه أو ذاك الاتجاه بالضبط بسبب هذه السمة أو تلك من سمات البيئة الجغرافية للمجتمع المعني في الصين وفي أتيكا، في سهول أميركا الشمالية وعلى ضفاف النيل كانت أشكال العلاقات الاجتماعية في المراحل البدائية للتطور هي ذاتها تماماً، حتى ليقول المرء إنها واحدة. إن علم الشعوب البدائية يجد الحياة القبلية في كل مكان، على سبيل المثال إن للبشرية نقطة انطلاق واحدة إلا أن الشروط الطبيعية والنضال من أجل الحياة تختلف، ولذلك تتخذ أشكال المجتمع البشري سمة مختلفة بمرور الرمن. إن الحياة القبلية التي وجدت في كل مكان أفسحت الطريق للعلاقات الاجتماعية المختلفة إن بنية المجتمع الأثيني لا سبه بنية المجتمع الصيني، ومجرى التطور الاقتصادي في الغرب لا يُشبه نهائياً مجرى التطور الاقتصادي في الشرق. هنا، بالطبع، تقع تبعة كبيرة على عاتق تأثير البيئة التاريخية التي تحيط المجتمع المعني، بيد أن «الأساس الجغرافي» لتطور الانسان يبرز بدون شك بصورة قوية.

ما الغرض من كل هذا؟ الغرض هو أن نشير إلى الخصائص النوعية للمادية الجديدة التي كان تشيرنيشيفسكي أحد أتباعها لقد شئنا فقط أن نقول إن الماديين المعاصرين يفسرون مجرى التطور التاريخي تماماً   تقريباً كما فسرناه نحن، في حين مثل هذا التفسير للتاريخ كان ينقص ماديي القرن الأخير نقصاً كاملاً إن هناك الكثير من بقايا المثالية في نظرتهم العالمية وقد ظلوا في آرائهم التاريخية، كما قلنا، مثاليين إلى أقصى حد لقد رفضوا وجود الأفكار الفطرية في رأس الفرد، بيد أنهم اعترفوا بولادة الأفكار في المجتمع الانساني وتطورها بصورة عفوية حتى انهم لم يخامرهم شعور أن التطور التاريخي للفكر الانساني يخضع لتأثير الأسباب التي لا تملك شيئاً تؤثر فيه على الوعي والارادة الانسانيين لذلك بظهور الاشتراكية المعاصرة فقط أمكن تفسير التاريخ تفسيراً علمياً فمن وجهة نظر المادية الجديدة «لا يبدو تاريخ الانسانية نزوة

وحشية من أفعال العنف التي لا معنى لها ، وكلّها تدان في قوس محكمة الفكر الفلسفي الناضج ، وتنسى بأسرع ما يمكن ، وإنما هو عملية تطور الانسان نفسه. إنها الآن مهمة المثقف أن يتبع المسيرة التدريجية لهذه العملية... ويتقصى القانون الداخلي المتخلل جميع مظاهره العرضية بشكل واضح »(٢٥)

لقد حلت هذه المسألة إلى حد بعيد في مؤلفات ماركس وانجلز ، الاشتراكيين العظيمين ، اللذين عليهما وقعت مهمة متابعة تطور الفكر الفلسفي بعد هيغل وفيورباخ لكن على المرء أن يتذكر أننا مدينون بالتفسير المادي ، أي العلمي الوحيد ، لماركس وانجلز (وجزئياً إلى الكاتب الأميركي مورغان أيضاً) وليس إلى فيورباخ في أيام فيورباخ كان هدف الفكر الفلسفي مختلفاً لقد احتاج ، أولاً وقبل كل شيء ، إلى الانفصال عن المثالية في كل أشكالها وأنواعها ومن أجل هذه الغاية استخدم فيورباخ كل قواه وهكذا علينا في الأفكار الفلسفية ألا ننظر فقط إلى الخطوة الأولى للمادية الحديثة لقد قدم بعض الفرضيات فقط ، أما الأخرى ، الفرضيات الأساسية ، وكل ما نجم عنها من سلسلة الاستنتاجات الرائعة فنحن مدينون بها لماركس وانجلز إن المظهر التاريخي لنظرة فيورباخ العالمية ، وهو مصدر فخر وقوة المادية الحديثة ، لم يكن قد تطور بعد فما أهمية هذا العامل في تاريخ التطور الفكري لتشيرنيشيفسكي؟

إذا فكر المرء بشكل نظري ، اعتقد أنه ، كرجل موهوب ورائع ، عقل استثنائي ونشيط جداً ، استطاع اكتشاف النقائض وعالج القصورات في آراء معلمه ، أي بكلمة أخرى ، قام بما قام به ماركس وانجلز ولكن حتى نخلق مرحلة في تاريخ العلم ، لا يكفي أن نملك قدرات رائعة لأن الظروف الخارجية المناسبة ضرورية أيضاً لصب هذه القدرات في الاتجاه المناسب وفي هذا الصدد إلى أي مدى كانت الظروف المحيطة بمؤلفنا مواتية؟ لقد عاش في قطر غير متطور ، لا بالمعنى الاقتصادي ولا بالمعنى السياسي للكلمة والفكر الفلسفي الخالص والفكر العلمي الصرف لم يكونا متميزين بأي تطور وليس لمساهمة أي جَهْبذ روسي تأثير حاسم في مصير الفكر والعلم الأوروبيين. لقد رأينا كيف فسر تشيرنيشيفسكي هذه الظاهرة وما المهمات التي ألقاها على الأبناء الموهوبين في وطنه إنها تصل إلى حد نشر « الأفكار النبيلة للحقيقة والعلم والفن المدروسة في الأقطار التي تسبقنا في طريق الحضارة كان تشيرنيشيفسكي محقاً تماماً عندما ألقى هذه المهمات على أبناء جلدته من دون الآخرين إلا أن نمط النشاط الذي

اختاره وأشار به دو مسطو داخلي خاص يميز الموهوبين إن ناشر الأفكار التي شرحها أناس آخرون في أقطار أخرى يمكنه، اذا وهب قدرات عظيمة، أن يصنع مكتشفات فردية ثانوية قليلة، إلا أنه لن يصنع ثورة في العلوم، لأن هذا ليس من اهتمامه هذه هي حالة مؤلفنا أيضاً فمؤلفاته تتضمن ملاحظات هامة كثيرة تلقي ضوءاً جديداً على شتى المسائل العلمية هذه الملاحظات تطابق تطابقاً تاماً مع أهم اكتشافات العلوم الغربية في ذلك الوقت إلا أن هذه الومضات من التفكير الرائع لم تعمل باستمرار ولا بانتظام، ولذلك نجد في كتابه الى جانب هذه الومضات آراء تعتبر حتى في وقتها بائدة هجرها العلم كلياً وهكذا نجد أن القصورات والنقائص في فلسفة المفكر الذي كان له تأثير كبير فيه لم يكن لها علاج أو تصحيح لديه ففي أفكار تشيرنيشيفسكي المادية لم يتطور أيضاً الركن الذي قلما طوره معلمه وبشكل عام، لم يصل سيرنيسيفسكي إلى المفهوم المادي الحديث للتاريخ، وغالباً ما أضفى عليه شكلاً ساذجاً عندما حاول شرحه اعتماداً على ثقافته

٣

إن مادية سيرنيشيفسكي في آرائه «الانتروبولوجية أوضح بكثير من آرائه التاريخية ويتبنى تشيرنيشيفسكي، في رؤيته الانسان نتاجاً محتوماً للبيئة، موقفاً أكثر انسانية حتى بالنسبة إلى المظاهر السيئة في الطبيعة الانسانية الفاسدة التي لم ير فيها المثاليون سوى «نية شر» تستحق عقاباً صارماً فيذهب إلى «أن كل شيء، يعتمد على العادات الاجتماعية والظروف أي، في التحليل الأخير، كل شيء يعتمد حصراً على الظروف لأن العادات الاجتماعية بدورها تنطلق من الظروف أيضاً فاذا لمت شخصاً

فحاول أولا أن ترى فيما إذا كان هو المذنب وبم تتهمه هو، أو بم تتهم الظروف والعادات في المجمع فانظر بروية. إد ربما ليس ذنبه على الاطلاق. وإنما هو «سوء حظه و«المترمتون يميلون إلى أن هذه التصريحات من تشيريسيفسكي ليست سوى دفاع عن الأخلاق الفضفاضة. إلا أنهم طبعاً بعملهم هذا إنما يفصحون عن عدم فهم القضية

إن التفسير القاصر الذي تقدمه أفكار تشيرنيشيفسكي يبدو في عدة مظاهر من تعاليمه حول الأخلاق فبالنسبة إليه، كما بالنسبة إلى هلفتيوس، ليست أعظم التضحيات الذاتية سوى شكل خاص للأنانية العقلية فعنده «من الضروري أن نختبر

عن كتب عملاً أو شعوراً يبدوان غيريين لنرى فيما اذا كانا قائمين على فكرة المصلحة الخاصة، أو الاشباع الشخصي، أو الفائدة لذاتية، فيما إذا كانا قائمين على الشعور الذي يسمى أنانية وبين الفينة والأخرى كانت أفكار تشيرنيشيفسكي حول هذه القصية ذات صفة غريبة الى حد ما «لقد طعنت لوكريسا نفسها بعد أن اغتصبها ترانكيبوس سكسوس، إلا أنها كانت مدفوعة بمصلحة ذاتية ويلي ذلك مناقشة لاثبات أن عمل المصلحة الذاتية هذا كان مصيباً «ربما قال كولاتيبوس من لروجته. اعتبرك نقية وأحبك كالسابق وبالمفاهيم التي كانت سائدة في تلك الأيام، والسائدة اليوم مع تغير قليل فيها، لم يستطع البرهان على كلماته بأفعال، فقد أضاع، طوعاً أو كرهاً، كل احترام وحب لروجته ربما حاول اخفاء هذا الضياع بلطف مفتعل مبالغ فيه تجاهها، إلا أن مثل هذا اللطف أشد إهانة من الفتور، وأقسى من الضرب والشتم الخ بيد أن من المشكوك فيه أن تكون لوكريشا قد خاضت مثل هذه التقديرات الواقعية قبل أن تنتحر إن هذه التقديرات تتطلب مؤلفاً موسيقياً، وليس في مقدورها أن تؤلف ألم يك من الأصح أن نفترض أن العقل في عملها لعب دوراً أقل بكثير من الشعور الذي تطور تحت تأثير العادات والعلاقات الاجتماعية لذلك الوقت؟ إن المشاعر والعادات الانسانية تجعل نفسها مطابقة للعلاقات الاجتماعية القائمة بطريقة تبدو فيها الأعمال المرتكبة تحت تأثيرها كما لو كانت ثمرة التقديرات الواقعية، في حين أنها ليست نتيجة التقديرات على الإطلاق من الملاحظ جداً، بشكل عام، في آراء سيرنيسيفسكي عن الأنانية العقلية هو محاولة مراجعة «مرحلة الأنوار كلها، عن دعم للأخلاق في العقل وتفسير شخصية الفرد وسلوكه بتقدير عقلي* إلا أن كلمات تشيرنيشيفسكي المقتبسة أعلاه تتضمن رفضاً لهذا الشطط في التقليل إن اعمال الفرد هي نتيجة العادات الاجتماعية، والعادات الاجتماعية لم تتشكل تحت تأثير تقديرات العقل، بل تحت تأثير التطور التاريخي للمجتمع وحتى نضع المسألة وضعاً صحيحاً لا بد من صياغتها على النحو التالي: ما أخلاق الفرد العادي؟ أهي نتيجة التقديرات، أم الثمرة اللاواعية للعلاقات الاجتماعية؟ وأخيراً لا بد من أن يسأل المرء عن تأثيرات المجتمع في الفرد هل تجعله يرى المصلحة في الصالح العام؟ مثل هذه الأسئلة على جانب

---

* انظر فيما بعد الملاحظة حول هذه الصفحة في الطبعة الألمانية

كبير من الأهمية ولا نرى حاجة في خوض نقاش حول اسم هذه المصلحة - الغيرية أم الأنانية النبيلة

وتمشياً مع الأهمية المفرطة التي أولاها تشيرنيشيفسكي للثقافة الانسانية، يشرح الأحداث التاريخية أيضاً بالتقدير الواعي للمصلحة في الحالات التي يجب فيها على المرء أن يسعى لشرحها بقوى التطور الاقتصادي التي لا يعيها الناس. للوهلة الأولى يمكن أن تدل شروحات تشيرنيشيفسكي هذه أنه في نظرياته التاريخية تبنى موقف المادية الحديثة إلا أن الدراسة المتأنيه للقضية تبين العكس تماماً إن من لا يرى في النشاط التاريخي الانساني سوى تأثير التقدير الواعي، يظل بعيداً عن أن يفهم قوة الاقتصاد وأهميته إن تأثيره في الحقيقة، يمتد ليشمل حتى أفعال الانسان وعادات الطبقات الاجتماعية المختلفة حيث لا يمكن أن تكون مسألة تقدير واعٍ لقد عرفنا من قبل أن العوامل المؤثرة الرئيسية في التطور الاقتصادي حتى الآن هي أبعد من تأثير التقدير الواعي ورأينا أيضاً أن كل العلاقات الاجتماعية، وكل العادات الأخلاقية وكل النزوعات الثقافية تشكلت في العمل غير المباشر أو المباشر لتلك القوى العمياء في التطور الاقتصادي إنها تحدد أيضاً، بالمناسبة، كل أشكال التقدير البشري، وكل مظاهر الأنانية الانسانية ولا يمكن للمرء، بالتالي، أن يتحدث عن التقدير الواعي للمصلحة باعتباره المحرك الأول للتطور الاجتماعي مثل هذا الرأي في التاريخ يناقض مع تعاليم المادية الحديثة، مثل هذه المادية التاريخية لا تزال ساذجة.

لم تكن آراء تشيرنيشيفسكي التاريخية قد اتخذت نظاماً بعد وغالباً ما كان الرأي يعارض الآخر ويمكن أن يختار المرء، من غير أي صعوبة، آراء في التاريخ من كتبه، فتبدو كأنها لكتاب مختلفين ولا يمكن شرح تناقضات من هذا النوع بافتراض التغير التدريجي في طريقة تفكير مؤلفنا لقد انطلق في نشاطه الأدبي من نقطة في تطوره الثقافي كانت قد تشكلت فيها آراؤه، بصورة رئيسية ولذلك فالتناقضات والتفككات التي نواجهها في آرائه التاريخية يجب أن تعرى إلى غموض نظرته العامة في تاريخ الانسانية واضطرا بها

ولاثبات ذلك سنقدم هنا بعض الأمثلة في كتابه **مختصرات في الاقتصاد السياسي**، وبعد أن يشرح قوانين « التوزيع الثلاثي للسلع التي توجد في الأقطار المتقدمة ويرسم نتيجة موجزة نهائية من شروحاته، يعبر تشيرنيشيفسكي عن الرأي التالي المفيد جداً في

الدوافع الداخلية للتاريخ الأوروبي الحديث «لقد رأينا أن فوائد الريع معارضة مع فوائد الربح وأجور العمال معاً إن **الطبقة الوسطى والشعب عامة كانوا دائماً متحالفين ضد الطبقة التي تتلقى الريع** ورأينا أن فائدة الريع تتعارض مع فائدة أجور العمال وحالما يقوم حلف بين طبقة الرأسماليين وطبقة العمال للتغلب على الطبقة التي تتلقى الريع، **فان تاريخ القطر سوف يكون مضمونه الرئيسي هو الصراع بين الطبقة الوسطى والشعب** »* إن أي مادي ديالكتيكي حديث يتمنى أن تنسب إليه هذه الأسطر ويتمنى أكثر، لأن الرأي الوارد أعلاه لتشيرنيشيفسكي عن سبب الصراع بين «الطبقة الوسطى و«الشعب مشروح في مقطع آخر من المختصرات بالمزيد من الاشارة إلى انحطاط الصناعة الصغيرة وحراثة الأرض الصغيرة، والانحصار المحتوم للمشاريع الرأسمالية الكبرى في كل من الصناعة والزراعة وبالطريقة ذاتها فان أي مادي ديالكتيكي حديث، مع بعض التحفظات، سيقر بحقيقة الرأي التالي لتسيرنيسيفسكي عن تاريخ الفكر السياسي والفلسفي «لقد وجدت النظريات السياسية والمبادىء الفلسفية عامة، تحت التأثير القوي للأوضاع الاجتماعية التي يخضع لها أرباب النظريات والمبادىء، وان أي فيلسوف يمثل دائماً حرباً من الأحزاب السياسية التي سعى في زمنه إلى السيطرة على المجتمع الذي ينتمي إليه الفيلسوف ولن نتحدث عن المفكرين الذين قاموا بدراسة اجتماعية لمظهر الحياة السياسي إن إنتسابهم إلى الأحزاب السياسية أمرٌ بادٍ للعيان. لقد كان هوبز من الحزب الملكي المطلق ولوك من الويغيين. وملتون من الجمهوريين، ومنتكسيو من الليبراليين بعد النكهة الانكليزية، وكان روسو ديمقراطياً ثورياً، وكان بنتام ديمقراطياً ببساطة، ثورياً أو غير ثوري حسب الظروف ولا حاجة بنا أن نتحدث عن كتاب أمثال هؤلاء فلنعد إلى أولئك المفكرين الذين اهتموا باقامة النظريات العامة، الذين أقاموا الأنظمة الميتافيزيكية، إلى الذين يسمون فلاسفة بسكل خاص فكانت انتمى إلى الحرب الذي أراد تتويج الحرية في المانيا بالسبيل الثوري، إلا أنه يكره الطرق الارهابية وذهب فيخته خطوات أبعد، إلا أنه كان يخاف أيضاً من الطرق الارهابية وكان شلنج يمثل الحرب الذي كانت الثورة ترعبه، وبحث في هدوء في مؤسسات العصور الوسطى، بحيث يعيد إلى المانيا الدولة

---

* إشارة التشديد منا.

الاقطاعية ما دَمّرَهُ نابليون الأول والوطنيون الباريسيون الذين نطق فيخته بلسانهم وكان هيغل ليبرالياً معتدلاً ، وكان محافظاً جداً في استنتاجاته ، إلا أنه تبنى المبادىء الثورية في النضال ضد الرجعية المتطرفة على أمل الحؤول دون تطور الروح الثورية ، التي خدمته كسلاح للاطاحة بما هو قديم وعتيق جداً وملاحظتنا ليس أن أولئك الناس يعتنقون العقائد كأفراد ، فليس في ذلك كبير أهمية ، بـل أنّ أنظمتهم الفلسفية كانت تتخللها بعمق روح تلك الأحراب السياسية التي انتمى إليها مبدعو تلك الأنظمة »* فاذا ترك المرء التفصيلات في آراء هذا الفيلسوف أو ذاك ، أمكنه أن يقول بسكل عام إن الكلمات المقتبسة أعلاه تنم عن فهم عميق للظروف الاجتماعية التي بتأثيرها يتم تطور الفكر السياسي والفلسفي إن الماديين الديالكتيكيين الحديثين سيضيفون فقط أن النضال السياسي نفسه ، الذي حدد اتجاه الفكر الانساني ، شن ليس لاعتبارات مجردة ، بل تحت التأثير المباشر لحاجات هذه الطبقات أو تلك القطاعات في المجتمع الذي تنتمي إليه الأحراب المتصارعة ولن يكون لدى تشيرنيشيفسكي أي اعتراض على ذلك إن آراءه في تاريخ العلوم الاقتصادية تعبر بوضوح كامل عن وعيه في اعتماد المفاهيم الانسانية في المحيط الاجتماعي وفي مراجعته كتاب روشير **مبادىء الاقتصاد الطبيعي****، يسير مؤلفنا إلى « القانون السيكولوجي الذي بفضله كل امرىء - عادياً كان أم خطيباً أم أديباً ، وسواء كان في محادثة أم خطابة أم في الكتب

يعتبر خيراً من الوجهة النظرية ، ومما لا جدل فيه ، وبصورة دائمة أن ذلك من الوجهة العملية يعود بالفائدة على مجموعة الناس التي يمثلها هذا القانون السيكولوجي يجب أيضاً أن يستخدم لشرح حقيقة أن الاقتصاديين السياسيين من مدرسة آدم سميث وجدوا أشكال الحياة الاقتصادية التي سادت أو سعى أن سود في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي صالحة جداً وسحق أن سود لقد مثل كتاب هذه المدرسة التبـادل أو الطبقـة التجاريـة بالمعنى الواسع للكلمـة: من مصرفييـن وتجار وصاعيين بسكل عام إن الأشكال الحالية للتنظيم الاقتصادي مفيد للطبقة التجارية ، بل أكثر افادة لها من كل الأشكال الأخرى ، وهذا هو السبب في أن المدرسة التي

---

* المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة ص ص ٢-٣

** أساس الاقتصاد الوطني

كانت تمثلها وجدت أن هذه الأشكال هي الأفضل في نظريتها ولكن عندما تؤخذ مسائل الاقتصاد السياسي ليس من قبل أولئك الذين مثلوا الطبقة التي تلائمها الأشكال الاقتصادية الحالية، بل من قبل ممثلي الجماهير، نجد مدرسة أخرى قد ظهرت في العلم الذي يدعى، لسبب غير معلوم، الحرب الخيالي»* هنا وعي التأثير الذي يتركه النضال الطبقي في تطور العلم يتم التعبير عنه بوضوح ملحوظ إلا أن من الخطأ أن نستنتج من هذا أن هذا الوعي لم يتخل عنه تشيرنيشيفسكي فثمة هوة بين الفهم البسيط، أو معرفة مبدأ معين، واستمرار تطبيقه من خلال نظام كامل من الآراء وإذ فهم تشيرنيسيفسكي بدقة أهمية الصراع الطبقي في المجتمعات البشرية، اعتنق رأياً في «التقدم أكثر التصاقاً بتعاليم بوكل (Buckle) من تعاليم الماديين الجدد وحتى نقدم فكرة عنه، سوف نقتبس مقطعاً طويلاً قليلاً من مقالته الممتعة للغاية «حول أسباب سقوط روما التي كتبت بخصوص نشر الترجمة الروسية لكتاب غيزو تاريخ الحضارة في أوروبا يهاجم تشيرنيسيفسكي بقوة الرأي المنتشر جداً بأن الامبراطورية الرومانية الغربية سقطت لعجزها الموروث عن أن تتطور، حيث جلب البرابرة معهم بذور التقدم. ولا نرغب الآن أن نتحقق فيما إذا كان المؤلف مصيباً في مهاجمة هذا الرأي إن كل ما هو مهم بالنسبة إلينا الآن هو نظرته في مجرى التقدم. وإليكم هذه النظرة يتساءل مؤلفنا «أفكر ما هو التقدم ومن هو البربري إن التقدم قائم على التطور الثقافي، فيكمن المصدر الأساسي بالضبط في نجاح المعرفة وانتشارها الرياضيات تتطور، وهذا يؤدي إلى تطور الميكانيكيا التطبيقية، وتطور الميكانيكيا التطبيقية يؤدي إلى تحسين الاختراعات والحرف الخ المعرفة التاريخية تتقدم، وهذا يخفف عدد الأفكار الخاطئة التي تمنع الشعب من تنظيم حياته، والتي تصبح منظمة أكثر من السابق وأخيراً إن كل عمل ثقافي يطور قوى الانسان الفكرية، وكلما ازداد عدد الناس الذين يعرفون القراءة والكتابة في البلاد، الذين اعتادوا وأحبوا قراءة الكتب، ازداد عدد الذين يتقنون تعريف الأشياء، مهما كانت – وهذا ما يدل على أن جميع مظاهر الحياة في البلاد تتحسن وبالتالي فان القوة الرئيسية الكامنة وراء التقدم يتم تعلمها، وتتوزع مجرات التقدم كمياً ونسر المعرفة اذن

---

* سوفريمينيك ١٨٦١ نيسان، الكتب الجديدة ص ص ٤٣١ ٤٣٢

هدا هو التقدم. سيجة المعرفة ولكں من هو البربري؟ انه اسان لا يرال يمرغ في الجهل المطىو، انسان وسط بيں الوحش الضاري والكائن البسري المتمع بأصول مں الفكر المتطور ولكن ما الخير في المجتمع، اذا كانت المؤسسات، جيدة أم سيئة، إلا أنها مؤسسات اسانىة، فيهـا شيء مـا مں درجات الفكر تحل محلها عادات الحيوانات؟

ليس هناك اشارة، كما نرى، لا إلى العلاقات الاجتماعية الداخلية في روما التي سببت ضعفها والتي أشار إليها غيزو في المقالة الأولى من **مقالات في تاريخ فرانسا** ولا إلى أسكال الحياة التجمعية التي فرضت قوة البرابرة الألمان رمن غرو الامبراطورية الغربية لقد نسي تشيرنيشيفسكي حتى الكلمات المشهورة: لقد كانت الأرياف سبب دمار ايطاليا ولم يكن في صيغته عن التقدم (كما دخلت الجملة قطرنا) أي مكان مخصص للعلاقات الداخلية لهذا القطر «المتقدم أو ذاك لقد أرجع كل شيء إلى الكمية وانتشار المعرفة، ولم يبدر مىه أي تساؤل فيما إذا كان تاريخ المعرفة لا يعتمد على تاريخ العلاقات الاجتماعية للأقطار المتحضرة ويستمر في النقاش: «قيل إن المجتمع يجد الأشكال الوطيدة التي تعني أن في المجتمع قوة تقدمية، أن في المجتمع حاجة إلى التقدم إلا أن الحاجة إلى التقدم شيء، وظهور «القوة التقدمية في المجتمع، التي تستطيع تحقيق هذه الحاجة شيء آخر تماماً وعلى المرء ألا يخلط بين هذين المفهومين، اللذين يختلفان سمة ومضموناً فأحدهما سلبي تماماً («الحاجة إلى التقدم تشير فقط إلى الطبيعة المنكمشة للأشكال القائمة) والآخر ايجابي، لأن ظهور «القوة التقدمية القادرة على تحقيق التغير الضروري في المجتمع في أشكال الحياة الجمعية، تحقق مسوى معيناً من التطور الثقافي والأخلاقي والسياسي للطبقة أو الطبقات التي تتأثر بالمظاهر غير المناسبة لتلك الأشكال. فاذا كانت هذه المفاهيم واحدة، فان التقدم البشري سيكون قضية بسيطة جداً، ولن نواجه في التاريخ المقامرة المؤسفـة للمجتمعات التي انهارت تحت ثقل أسكال الحياة الجمعية التي لا يمكن القضاء عليها، مع كل أضرارها، لأنه لا توجد قوى حيوية في الشعب قادرة أن تفعل هذا ومن نافلة القول إننا لا نتحدث هنا عن الأشكال التي تضر بجميع الطبقات في المجتمع مثل هذه الأشكال تنهي نفسها بنفسها ولكن غالباً ما تكون أشكالاً أخرى، لا تناسب الأكثرية، وتناسب تماماً مصالح الأقلية، فتضر بشكل خاص بنجاحات

المجتمع مثل هذه الأشكال يمكن انهاؤها فقط إذا كانت الأغلبية المضطهدة تملك أقل ما يمكن من القدرة على القيام بعمل سياسي مستقل. إلا أنها لا تملك دائماً هذه القدرة هذه القدرة ولا شك سمة داخلية للأغلبية المضطهدة. إنها نفسها أوجدها **الاقتصاد** في مجمع معين ويبدو أنه ليس ثمة شيء أكثر فائدة لبروليتاريي روما من أن يُؤيدوا مشروع قوانين غراشي إلا أنهم لم يؤيدوها، ولا يمكنهم أن يفعلوا هذا، لأن الوضع الاجتماعي الذي وضعهم فيه التطور الاقتصادي لروما، ليس فقط لا يريد من تطورهم السياسي، بل العكس، يخفض مستواه. أما بالنسبة إلى الطبقات العليا، فمن العبث أولاً أن نتوقع منها عملاً سياسياً مناقضاً لمصالحها الاقتصادية، وثانياً كانت هي نفسها قد دب فيها الفساد أكثر فأكثر بتأثير مظهر آخر من مجرى التطور الاقتصادي ذاته الذي خلقته البروليتاريا الرومانية وفي الوقت نفسه حولتها إلى غوغاء متعطشة للدماء وأخيراً وصلت الأمور إلى درجة أن الرومانيين، غزاة العالم، لم يكونوا مؤهلين للخدمة العسكرية، فدعمت الفيالق بالبرابرة الذين وضعوا نهاية لوجود الامبراطورية التي كانت نصف ميته وهكذا، على عكس شروطات تشيرنيشيفسكي، ليس ثمة شيء عرضي في سقوط روما، لأنه كان نهاية طبيعية لحركة تاريخية اقتصادية بدأت منذ أمد بعيد

بالتأكيد لا نرغب أن نعلم الكتاب الألمان بشكل خاص، كما فعل الكثير، أن الشعوب الجرمانية جلبت معها روحاً خاصة ونوازع خاصة، تضمن لها مكانة راقية في تعاقب تاريخ البشرية. إننا نقول فقط إن ضعف روما في الصراع ضد البرابرة سببه مجرى تطورها الاقتصادي، الذي دمر طبقة الملاك العقاريين الصغار، الذين كانوا يسكلون يوماً ما قوتها واختلطت أبنية الفلاحين الصغار بالقرى الضخمة التي تقطنها جماهير العبيد بيد أن العبيد هم الركيزة الفقيرة للدولة نقلوا من كل أنحاء العالم، ومن أجناس ولغات مختلفة، فهم لا يشكلون **شعباً** بالمعنى الحقيقي للكلمة إنهم كانوا ولا يزالون **غوغاء** (إذ كانت هذه الكلمة تطلق على جمهرة من الناس تجمعوا معاً، ولكن من دون ارادتهم الحرة) وبالطبع لا يولون أهمية لمصالح الدولة الرومانية ويلاحظ تشيرنيشيفسكي فعلاً أن العبودية تعدلت تدريجياً في الامبراطورية الرومانية، وسارت حتى نهايتها عن طريق **الفلاحين** الكولونيين (Colonatus) ولكن، تعليمات الأباطرة، أولاً، لم تكن فيما يتعلق بالفلاحين الوسط أكثر من نضال الدولة لتأمين

تسلمها قسماً من الانتاج الزائد الذي يخلقه العمل الاجباري للمزارع والانتقال الى الفلاحة لم يخفف من وضعه جذرياً في الوقت الذي كانت فيه كل قطاعات المجتمع مسحوقة تماماً بضرائب الدولة ومصادراتها* ثانياً، من الواضح أن الفلاحين[٢٦] الكولونيين والفلاحين الملحقين[٢٧](Colons Adseripts) لا يستطيعون أن يحلوا محل المزارعين الأحرار وأخيراً حتى عددياً فان الفلاحين الملحقين والفلاحين الكولونيين، على الأقل في القرى، كانوا أقل من سكان ايطاليا القديمة من المزارعين الأحرار وحتى ليفي دهش كيف أن بعض المناطق في ايطاليا، حيث لم يكن ثمة في أيامه سوى بعض الرعيان وقطعانهم، استطاعت أن تنهض بجيوش ضخمة وشجاعة للحرب ضد روما في زمن استقلال هذه المناطق إن التفسير بسيط: لقد عاشت هذه الأقاليم أثناء استقلالها في علاقات اقتصادية مختلفة كل الاختلاف، وهم مدينون بها لسكانها الأقوياء العيدين الكثيرين في ذلك الوقت كانت لا تزال لديهم مؤسسات قبلية قوية ضمنت وفرة لكل أعضاء الكومون وزرعت فيهم روح الاستقلال والقتال وكان لدى الجرمان المؤسسات ذاتها، وإليها تدين القبائل البربرية بقوتها وجبروتها وباختصار يمكن أن يذهب المرء إلى أنه حوالي نهاية الامبراطورية الرومانية سادت العلاقات الاقتصادية التي جعلت قدرتها على المقاومة في **الحد الأدنى**. في حين تضاعفت في ذلك الحين قوة المهاجمة لدى الشعوب الجرمانية إلى **الحد الأقصى**. وتلك هي القضية: إنها مسألة اقتصاد، لا روح ولا سمات غيبية للجنس السكاني.

فاذا كنا مضطرين، في تفسير المصير التاريخي لمختلف الأقطار، أن نحصر أنفسنا بالاعتبارات المجردة حول « تقدميتها وحول كمية المعرفة المتراكمة لديها، فلن نكون قادرين أبداً على فهم تاريخ اليونان، مثلاً، حيث طفقت الأقطار المثقفة « المتقدمة تنسحب، الواحدة بعد الأخرى، مفسحة الطريق للأقطار الأقل ثقافة والأقل « تقدمية كيف يمكن تفسير هذه الظاهرة؟ عن طريق تطور الاقتصاد، وبشكل رئيسي، علاقات الأرض في اليونان هذا التطور في الأقطار الأكثر « تقدمية » أدى مبكراً إلى تركيز الملكية العقارية في أيدي القلة، وإلى الزيادة المرعبة في عدد العبيد، وإلى ضعف وإفساد الطبقة الدنيا من المواطنين الأحرار إن سلطة الدولة في الأقطار

---

* انظر المقالة الأولى المشار اليها أعلاه بقلم غيزو في كتابه **مقالات في تاريخ فرانسا**

اليونانية التقدمية تقلصت بنسبة مباشرة من جراء هذه الظاهرة هذه العملية ابتدأت مؤخراً في البلدان الأقل « تقدمية وانطلقت ببطء أكثر، وبالتالي فان سلطة دولها انحطت أيضاً ببطء، وإن تضاعفت أثناء فترات معينة من هذه العملية (كما حدث أحياناً في الأقطار الأكثر « تقدمية أيضاً) وهذا هو السبب في أنها كانت قادرة على أن تلعب دوراً بارزاً عندما انحطت الأقطار الأكثر « تقدمية انحطاطاً كاملاً تحت التأثير الضاري للصراع الطبقي، الذي لا حل له في ذلك الزمن (ولكن ليس في زمننا حيث وجد حل له) بيد أن الأقطار الأقل « تقدمية انحطت هي الأخرى تدريجياً نتيجة العملية المشار إليها، فطفقت الواحدة بعد الأخرى تغني أغاني بجعها (أغاني احتضارها) وترول، حتى وضعت أخيراً اليد الحديدية لروما خاتمة للوجود المستقل لليونان وعندما جاء الرومان لم يكن ثمة من يدافع عن الأقطار اليونانية، باستثناءات قليلة وقد لاحظ هذه الحقيقة بولبيوس وبلوتارخ

ثمة في الآراء التاريخية لمؤلفنا حيز كبير خصص للصدفة بشكل عام فحتى نظامنا الاقتصادي الحديث، وسمته وقوانينه واتجاهاته التي شرحها طبقاً لمدرسة سميث ريكاردو، تعتبر نتاج الصدفة التاريخية يقول في المرجع المشار إليه أعلاه من كتاب روشير « يبين التاريخ أن الأشكال الاقتصادية الحالية ظهرت تحت تأثير العلاقات التي تناقضت مع متطلبات علم الاقتصاد، ولم تكن متفقة مع النجاحات في العمل والاقتصاد في الاستهلاك، وباختصار كانت نتيجة أسباب مناوئة لكل من العمل والثروة فمثلاً في أوروبا الغربية كانت الحياة الاقتصادية تقوم على الغزوات والمصادرات والاحتكارات »* ولن يدعي أحد أن الغزوات والمصادرات والاحتكارات لم تقع في تاريخ أوروبا الغربية. إلا أنها وقعت في اليونان القديمة وفي الهند وفي الصين، ومع ذلك فان البنية الاقتصادية لتلك الأقطار كانت مختلفة كل الاختلاف أو لا تزال تختلف عن البنية الاقتصادية لأوروبا الحديثة ما الذي أوجد هذا الفرق؟ أليس حقيقة أن كل تلك الغزوات والمصادرات و« الاحتكارات أبعد من أن تحدد اتجاه التطور الاقتصادي، بل بالعكس كانت هي نفسها نتيجة التطور الاقتصادي بكل أشكالها، وبالتالي فهي نتائج اجتماعية؟ إن اتجاه ومجرى التطور

---

* سوفريميينيك نيسان ١٨٦١، الكتب الجديدة ص ٤٣٤

الاقتصادي لليونان القديمة، أو الهند أو الصين لم يكن مشابهاً لاتجاه ومجرى التطور الاقتصادي لأوروبا الوسطى والحديثة، ولهذا فان النتائج أيضاً بكل تأثيراتها أدت إلى أنظمة مختلفة هناك أكثر مما في أوروبا الغربية وبالنظر إلى الأهمية الحاسمة التي يعروها تشيرنيسيفسكي للغرو في خلق النظام الاقتصادي لأوروبا الحديثة، فاننا لا نسطيع تجنب كلمات انجلر «حتى إذا استثنيا كل احتمال السرقة والقوة والخداع، حتى اذا افترضنا أن كل ملكية خاصة قامت أساساً على العمل الخاص للمالك، وان كل العملية الناتجة كانت عبارة عن تبادل قيم متساوية بقيم متساوية، فان التطور التقدمي للأنتاج والتبادل سيؤدي إلى ضرورة قيام الطريقة الرأسمالية الحالية في الانتاج، و لى إحتكار وسائل الانتاج ووسائل الحياة في أيدي طبقة صغيرة عددياً وإلى تحويل طبقة أخرى إلى بروليتاريين بلا ملكية، طبقة تؤلف الأغلبية العظمى، وإلى التغيرات الدورية.لازدهار الانتاج والأزمات المالية، وإلى كل فوضى الانتاج الحالية»* هكذا يرى الماديون الديالكتيكيون الحديثون القضية. بيد أن تشيرنيسيفسكي رآها بصورة مختلفة تماماً

إن مؤلفنا بعروه الأشكال المختلفة للحياة الاقتصادية التي قامت في التاريخ الى الغرو واعتبارها معارضة لـ «مطلبات علم الاقتصاد»، لا يستطيع، طبعاً، أن يضفي كبير قيمة على دراستها وباعتباره اطلع على ما يسمى الطريقة التاريخية في علم الاقتصاد فقط من مؤلفات ممثليها مثل وليم روشير وبقية Citaten Professoren**، فقد نظر إليها باسخفاف واعتبرها ثمرة رد الفعل ضد النزوعات التحررية للطبقة العاملة «إنهم يهاجمون المؤسسات التي لا تتطابق مع مصالح الطبقة التجارية. باسم العقل، ولكن الناس، عندئذٍ، كما لو حل حظ سيء، بدؤوا يقولون: وفقاً للعقل الذي تريدون أن يكون موجوداً لكنه أيضاً يطلب المريد، نطقتم فقط ببداية الصيغة، إلا أن نهايتها جاءت على الشكل التالي، أمام المفكرين المتناقضين هناك مفكرون متماسكون فما العمل؟ فاذا نطق الفكر ضدك، مستنجداً بالتاريخ، فقد نجا وحفاظاً على مثل هذا الأصل للطريقة التاريخية، فان المهمة النظرية لممثلي الطبقة

---

* الاشتراكية الخيالية والاشتراكية العلمية الملحق [هنا يستشهد بليخانوف بالروسية(٢٨)]

** [الأساتذة المغرمون بالاستشهادات]

العاملة التقدميين، في نضالهم ضد « المفكرين المتناقضين قد تدنت ببساطة إلى حد إظهار أن النظام الاقتصادي الحديث نشأ من الغروات والمصادرات والاحتكارات وهذا، طبقاً لتشيرنيسيفسكي، ما يجب أن يفعله الاشتراكيون فعندهم أن « التاريخ يدين ما هو مدعو للدفاع عنه »* ولكن حتى قبل أن يبدأ سيرنيسيفسكي طريق النشاط الأدبي، في عصر أسلافه، أي بيلنسكي وحلقته، استخدم أعظم الممثلين النظريين للطبقة العاملة التاريخ ولكن ليس فقط كمراجع جدلية للغروات والمصادرات وقد أقام ماركس وانجلر دراسة التاريخ الاقتصادي للبشرية على أساس علمي وطيد، باظهار ضروريه الملحة، وتطابقها الدقيق مع القوانين** إلا

كل سيء يسير إلى تشيرنيسيفسكي لم يكن مطلعاً على هذا الاتجاه الذي نشأ من نظريات معلمه فيورباخ، بالضبط كما نشأت نظريات معلمه فيورباخ من نظام هيغل.

وإذ يرفص مؤلفنا الطريقة التاريخية، فإنه يستخدم في دراساته الاقتصادية طريقة أخرى سماها الطريقة **الفرضية**. وسوف نصفها بكلمات تشيرنيسيفسكي الخاصة. يقول في تعليقه على الكتاب الأول لميل **مبادىء الاقتصاد السياسي**: « هذه الطريقة هي أننا عندما نحتاج إلى تقرير سمة عنصر معين، علينا أن ننحي جانباً المهمات المعقدة موقتاً.

---

* سوفريمينيك نيسان ١٨٦١ الكتب الجديدة ٤٣٢ ٤٣٣ ٤٣٤

** إن روشير وأولئك الذين يشاركونه نظراته، باعتمادهم على التاريخ، يعارضون طريقة العمل الثوري وهو المبدأ ففي رأيهم أن التطور ينفي الثورة نهائياً وفي هذه النظرة من الخطأ ما في نظرة بعض الثوريين الذين يعارضون التطور إن كلا الطرفين أبعد من أن يفسرا التاريخ تفسيراً صحيحاً إن الاشتراكيين الجدد مسلحين بالطريقة الديالكتيكية، يرون القضية بصورة مختلفة فعندهم أن التطور من حيث الأساس عامل في عملية التطور التاريخي للبشرية، انه ثورة. إن التطور يمهد للثورة، والثورة تسهل مجرى التطور و« الطريقة التاريخية التي وافق عليها العلماء الألمان خاصة، تحد ميدان الرؤيا في العلم بشكل اعتسافي تماماً لواحد من تلك العناصر، وهو التطور، ولذا اعتبرت غير علمية ولا يزال مسوغاً للمرء اليوم أن يقول في جهديه مثلما ما قاله ماركس فيهم ١٨٤٤ « مدرسة تشرع وضاعة اليوم بوضاعة الأمس، مدرسة تعلن التمرد في صيحة كل عبد ضد السوط حين يكون السوط تاريخياً، مدرسة لا يبين التاريخ عندها سوى ما عبر مثلما فعل إله إسرائيل لعبده موسى فلكل رطل يقطع من لحم الشعب شيلوخ، الا أن شيلوخ الكفيل يقسم على ميثاقه، ميثاقه التاريخي الخ كل هذا صحيح تماماً الا أن ماركس الثوري الذي خنوع الممثلين الرسميين لـ« الطريقة التاريخية » بهذه الكلمات القوية الذكية، لا يجهل التطور التاريخي، بل كان أول من بين بواعثه الرئيسية ومطابقته الدقيقة للقوانين

وأن نبحث عن المهات التي يظهر فيها العنصر الذي يهمنا سمته بوضوح أكثر، أن نبحث عن المهات في أبسط طبيعة. عندئذٍ، وقد عثرنا على سمة العنصر الذي يهمنا، يمكننا أن نحدد ببساطة الدور الذي يلعبه في المهمة المعقدة، التي نحياها جانباً بشكل موقوت فمثلاً بدلاً من المهمة المعقدة التالية: هل كانت الحروب مع فرنسا في نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي مفيدة لانكلترا، يمكن للمرء أن يطرح السؤال الأبسط أيمكن أن تكون الحرب غير مفيدة لحفنة من الناس، بل مفيدة للوطن كله؟ والآن كيف يحل المرء هذه المسألة؟ إنها قضية ربح، أي، كمية الازدهار أو الثروة، نقصها أو زيادتها، أي القيم التي يمكن تقديرها بالأشكال. ولكن من أين نحصل على هذه الأشكال؟ لا يمكن لواقعة تاريخية أن تقدمها لنا في الشكل الذي نحتاجه، أي في الشكل الأبسط، بحيث تعتمد فقط على العنصر الذي نحدده، وهو الحرب وهكذا علينا أن ننتقل من ميدان الفكر المجرد، الذي بدلاً من المعطيات التاريخية التي يقدمها التاريخ، يعمل في الأشكال المجردة، ذات الأهمية التقليدية والتي يكون اختيارها وفقاً لما هو مناسب فمثلا إنه (أي الفكر المجرد) يعمل كالتالي فلنفرض أن المجتمع يضم ٥٠٠٠ بينهم ١٠٠٠ من الذكور البالغين الذين يحافظون بعملهم على المجتمع فلنفرض ان ٢٠٠ منهم ذهبوا إلى الحرب فما العلاقة الاقتصادية لهذه الحرب بالمجتمع؟ فهل نريد من ازدهار المجتمع أم تنقصه؟ حالما نواجه المسألة بهذا الشكل البسيط، يصبح الحل بسيطاً وغير متناقض بحيث يمكن لأي فرد أن يجده بسهولة، ولا أحد ولا شيء يمكن أن يدحضه ومن كلمة «فرضية» و«افتراض اكتسب الطريقة اسمها «الطريقة الفرضية»

يعتنق سيرنيشيفسكي* هذه الطريقة في كل دراساته الاقتصادية، وبسبب هذا حازت على سمة مجردة جداً ومميزة تماماً فكما نعرف أن الكتاب الاقتصادي الرئيسي لمؤلفنا هو ترجمته الجزئية وعرضه الجزئي لكتاب ميل **مبادىء الاقتصاد السياسي**، المشفوعان بملاحظات موسعة وملحق خاص وحالما يقرأ المرء هذا الكتاب يدفعه الفضول إلى تقصي كيفية تطبيق المؤلف لطريقة البحث التي تنقله باستمرار من ميدان العلاقات الاقتصادية الواقعية القائمة إلى ميدان الفكر المجرد أما ذاك الذي يعلق

---

* مؤلفات تشير نيشيفسكي المجلد ٣ صص ٨٩ ٩٠ ٩١

بالعلاقات القائمة، فقلما يتحدى تشيرنيشيفسكي ميل. إنه في القسم الأعظم يقبل بتحليل هذا الأخير الذي، كما نعرف، يترك قسماً كبيراً مشوقاً بسبب غموضه وتناقضه. إنه لا يخالف ميل حتى في مسائل مبدئية مثل القيمة والسعر والنقد وقانون أجور العمال الخ ويقول تشيرنيشيفسكي إن ميل مصيب تماماً في تلك المسائل التي تعالج العلاقات القائمة، ولكن دعنا ننظر فيما اذا كانت هكذا، فيما اذا كانت كما يجب أن تكون النظرية الاقتصادية العقلية. «فلنفرض الخ يتلوها عادة نقد رائع للعلاقات القائمة، نقد يقوم على تناقضات واعتبارات مجردة تماماً إن نقائص الطريقة واضحة وضوحاً صارخاً، ولا يمكن، بالطبع، اثباتها من قبل أي خصم علمي للرأسمالية، لأنّ أولئك الأعداء يعتمدون الآن ليس على متطلبات «النظرية» المجردة، بل على التناقضات الداخلية للنظام القائم، التي بتطورها ستؤول حتماً إلى الزوال

القراء المطّلعون على طريقة المدرسة الفلسفية التي اعتبر تشيرنيسيفسكي نفسه من أتباعها، سوف يلاحظون من غير صعوبة أن مؤلفنا لم يظل مخلصاً لها في دراساته والواقع أن «الطريقة الفرضية لا علاقة لها البتة مع الطريقة الديالكتيكية لمعلمي سيرنيشيفسكي الألمان وحتى يقنع المرء نفسه بهذا يكفي أن يتذكر السمات المميزة التي رآها تشيرنيشيفسكي نفسه في نظام هيغل، الذي أنتج تعاليم فيورباخ إن الإشارة إلى هذه السمات سوف تساعدنا جداً في شرح آراء تشيرنيشيفسكي وانتقادها ولذا نرجو القارىء أن يولي أكبر اهتمام ممكن لهذه القضية، التي قد تبدو قاتمة ومملة، إلا أنها ليست بلا فائدة

إن أبرز ميزة، بنظر الماديين الديالكتيكيين الجدد، لنظام هيغل وكل الفلسفة الألمانية بصورة عامة هي، إذا ما استعرنا كلام انجلز، «ان العالم كله، الطبيعي والتاريخي والثقافي، للمرة الأولى يتمثل بعملية، أي بحركة وتغير وانتقال وتطور مستمر، وبذلت محاولة لتحري الرابطة الداخلية التي تجعل كل هذه الحركة والتطور مستمرين»[٣٠] ونظراً لثقافة تشيرنيشيفسكي الضخمة وأساسه العميق في الفلسفة لم يستطع تجاهل هذه الناحية من الموضوع لقد فهم الأهمية العظيمة للمبدأ الهيغلي في التطور، بل إنه شرحه بلغة قوية مثيرة. ويدهش في مقالته «إنتقاد الميول الفلسفية المعادية للحيازة الكوميونيّة للأرض»:«التغير المستمر للأشكال، والرفض المستمر لشكل أنتجه مضمون ما، أو الكفاح، المستمر، الناجم عن قوة ذاك الكفاح، يعقب

التطور الأعلى لذاك المضمون   كيف لمن يفهم هذا القانون الشامل المستمر (العظم) أن يجرب بهدوء ما يخاف الآخرون أن يجربوه مردداً بعد الشاعر

ich hale «mein» Sach auf Nights gestellt und mur gehört die ganze Welt.*(٣١)

إنه لا يأسف لأي سيء   يطيل رمه، ويقول فليأت الذي يأتي، إن لهواً صاخباً سوف يكون في شارعنا »** ولكن، كما نرى، لم يكن « القانون الشامل المستمر العظيم الذي اعبره الميزة الرئيسية والسمة الأبرز لفلسفة هيغل. إنه، على الأقل في **مقالات عن مرحلة غوغول في الأدب الروسي**، بمناقشة هيغل مفصلاً فيا يتعلق بالإهتمام المشهور الذي تلقت به حلقة ستانكيفتش وبيلنسكي تعاليم هيغل، يولي اهتماماً كبيراً لناحية أخرى من فلسفة هيغل. هنا يبدو أن الميزة الرئيسية لهيغل هي نقله الفلسفة من ميدان الفكر المجرد إلى موقفه المشدود إلى **الواقع** «إن شرح الواقع بات واجباً أسمى للفكر الفلسفي ونتيجة ذلك أولي اهتمام رائد بالواقع الذي جرى تجاهله من قبل وشوّه بقصد تلبية الميول الشخصة الأحادية الجانب   إن كل شيء يعتمد في الواقع على الظروف، على سرطي المكان والرمان   ولذلك وجد هيغل أن الجمل العامة السابقة التي كانت تقيس الخير والشر من دون اختبار الظروف والأسباب التي دفعت بالظاهرة   وجد أن تلك الأقوال المأثورة المجردة لم تكن مقنعة   ليس ثمة حقيقة مجردة؛ الحقيقة ملموسة، أي برهان محدد يمكن اعلانه فقط عن واقعة محددة بعد اختبار كل الظروف التي تعمد عليها »*** وفي ملاحظة في الصفحة المذكورة يوضح سيربيسيفسكي هذه الفكرة على النحو التالي مثلاً هل المطر خير أم شر؟ هذا سؤالٌ مجرد، ولا يمكن لجواب محدد أن يرد عليه فأحياناً يكون المطر مفيداً، وأحياناً وإن نادراً يكون ضاراً وعلى المرء أن يتحرى بسكل نوعي بعد بذارة الحبوب أمطرت بسدة مدة خمس ساعات - فهل كان المطر مفيداً للمحصول؟ - الجواب هنا هو   المطر كان مفيداً جداً   فقط، فهو جواب واضح وملموس   « هل الحرب مدمرة أم مفيدة؟ هذا السؤال لا يمكن وضع جواب محدد عنه بشكل عام فعلى المرء

---

* [لقد جربت حظي في العدم واري
العالم كله الآن ينتمي الى]

** تشير نيشيفسكي، المؤلفات، المجلد ٥ ص ٥٣١

*** سوفريميك ١٨٥٦ الكتاب التاسع، النقد. ص ١٢

أن يعرف أي نوع من الحرب مقصود، فكل شيء يعتمد على شرطي الزمان والمكان إن معركة الماراثون كانت مفيدة جداً حتى في تاريخ البشرية الخ ومن هذا يمكن أن نرى أن مسح الواقع اهتماماً معيناً، حتى ولو كان السؤال واضحاً كالسؤال عن ضرر الحرب وفائدتها، لا يخول المرء أن يقرر اعتماداً على هذه «الفرضية المجردة أو تلك إن كل شيء يعتمد على شرطي الزمان والمكان وهذا صحيح تماماً ولكن لسوء الحظ، أن الصحيح هو أن تشيرنيشيفسكي غالباً ما ينسى هذا سواء في دراساته العامة أم في مناقشاته حول الظواهر الحسية مثل الظاهرة الروسية الحيازة الكوميونية للأرض

سوف نرى فيما يلي أن الواقع الذي نسيه غالباً ما وجه الانتباه إلى ذاته في أشد الأشكال فجاجة إلا أن علينا الآن أن نتابع وصف الآراء التاريخية عند سيرنيشيفسكي، التي سوف تساعدنا في تحديد المكانة التي يحتلها مؤلفنا في التطور العام للفكر الفلسفي الأوروبي

٤

من الملاحظ أنه بينما لم يقم وزناً أبداً للنظرة التاريخية في ميدان الاقتصاد السياسي، اعتبرها مبدئية في ميدان النقد الأدبي وفي مقالاته الأولى مقالة عن كتاب أرسطو الشهير الشعر ترجمة أردبنسكي، يعزو إلى علم الجمال ميزة عظيمة هي أنه لم يكن في روسيا معادياً لتاريخ الأدب «لقد أعلنا دائماً ضرورة تاريخ الأدب، وان أولئك الذين اشتغلوا خاصة في النقد الجمالي قدموا أكثر من أي كاتب معاصر خدمة جلى لتاريخ الأدب ثمة اعتراف في أدبنا وهو أن على علم الجمال أن يقوم على الدراسة الدقيقة للوقائع **إن تاريخ الفن يستخدم كأساس لنظرية الفن**»* إن المرء يعتقد أن الشخص الذي كتب هذه الأسطر، إذا كان صادقاً مع نفسه، يجب أن يعترف من دون أي تحفظات أن تاريخ التطور الاقتصادي للبشرية يجب أن يستخدم كأساس لـ «النظرية الاقتصادية. بيد أننا رأينا من قبل أنه رأى هذه «النظرية» بصورة مختلفة.

إن الدقة الكبرى لنظرة تشيرنيشيفسكي في نظرية الفن شرحت أولاً عن طريق

---

* تشير نيشيفسكي، المؤلفات، المجلد الأول صص ٣ ٤

التأثير المجدي لأسلافه. فبعد علم الجمال لهيغل والمؤلفات النقدية لبيلنسكي (لنكتف بالاشارة إلى مقالاته عن بوشكين) من المحال تجاهل النظرة التاريخية في نظرية الفن. أضف إلى ذلك حقيقة أنه في النظرية الجمالية فقط أنصار ما يسمى « الفن من أجل الفن أي الناس الذين رغبوا في إبعاد الفن « الأبدي عن أي صلة بالواقع وضغطه، والمسائل الاجتماعية الفعّالة، يمكنهم أن يعارضوا النظرة التاريخية. ومن الطبيعي أن سيرنيسيفسكي اضطر إلى أن يميل باتجاه النظرة التاريخية في الفن، طالما تمكن المرء من أن يربط مهمات الفن مع أهم النزوعات الاجتماعية لعصر ما قال شلنج « إن الأجيال المختلفة تتميز بهمم مختلفة وبتطوير هذه الفكرة من السهل سحق أنصار الفن « الصافي أما في الاقتصاد السياسي فالقضية مختلفة. هناك كان روشير المتحجر وجماعته معادين لنزوعات الطبقة العاملة، العريرة على قلب تشيرنيشيفسكي كانوا الممثلين الوحيدين للنظرة التاريخية في الاقتصاد السياسي التي كان مطلقاً عليها فليس مدهشاً أنه، كردة فعل ضدهم، تبنى موقفاً من هذه النظرة، مما يجعل الطبيعة الخاطئة سجلى له بصورة صارخة في ظروف أخرى

وبالمناسبة لا يمكن أن يقال إن مؤلفنا نجح في تطوير رأيه في أهمية تاريخ الفن تطويراً مسجماً كقاعدة أساسية لنظرية الفن. فقد رأينا من قبل أن الأمر أكثر من الموافقة المحضة على مبدأ معين في تطبيقه المنسجم وفقاً لفرع العلم. لقد كان لدى تشيرنيسيفسكي فرصة رائعة لربط نظرية الفن بتاريخه في أطروحته « **العلاقة الجمالية بين الفن والواقع** »، التي قدمها إلى فرع الفيلولوجيا في جامعة بطرسبرج في بداية ١٨٥٤ للحصول على درجة الماجستير ويشغل هذا الكتاب مكانة هامة جداً بين كتابات هامة جداً بين كتابات المؤلف. ولهذا السبب فان كل المزايا والنقائص لآرائه وطرق تفكيره عبر عنها بوضوح كامل فيه. ويتصدى تشيرنيشيفسكي، مخلصاً لآرائه المادية، في أطروحته لمهمة وضع نهاية للمثالية في علم الجمال. فهو يتعقب المثالية في كل زواياها وصدوعها الجمالية من المسائل النظرية العامة الى نشأة الفن وأهميته في الحياة حتى التفصيلات، مثل مبدأ المأساوي والرائع وسوف نثبت هنا بعض أطروحاته التي قدمها، باعتبارها تقدم رفداً رائعاً لنظرة تشيرنيسيفسكي المادية في الفن.

« إن التعريف الحقيقي للجمال هو الجمال هو الحياة وبالنسبة للانسان فان الكائن

الجميل هو الكائن الذي يرى فيه الحياة كما يفهمها، والموضوع الجميل هو الموضوع الذي يذكره بالحياة

إن الرائع لا يؤثر في الانسان بأن يوقظ فيه فكرة المطلق، فمن الصعب ايقاظها

إن الرائع بالنسبة إلى الانسان هو ما يبدو أكبر من الموضوعات، أو أقوى بكثير من الظواهر التي يقارنه بها

لا علاقة أساسية للمأساوي مع فكرة القدر، أو الضرورة فالمأساوي في الحياة الواقعية طارىء على الأغلب، فهو لا ينبع من جوهر الأحداث السابقة. إن شكل الضرورة التي تتخذه بواعث الفن من المبدأ العادي لآثار الفن: «يجب أن تنبع الادانة من العقدة، وإلا فانها ترجع الى خضوع الفنان لمفهوم القدر خضوعاً في غير مكانه

إن المأساوي، حسب مفهوم التعاليم الأوروبية الحديثة، هو «المرعب في حياة الانسان

ليس الواقع مفعماً بالحيوية فقط، بل أنه أكثر كمالا من الخيال إن صور الخيال شاحبة، وهي في الأغلب تقليد فاشل للواقع».

الجمال في الواقع الموضوعي جميل للغاية

الجمال في الواقع الموضوعي يشبع الانسان تماماً

إن الفن لا ينبع من رغبة الانسان في اختلاق العيوب في الواقع

إن الحاجة التي تولد الفن بالمعنى الجمالي للكلمة (الفنون الجميلة) هي نفسها تلك التي تتجلى في لوحة الرسم والفن يذكرنا، باعادة انتاجاته،، بما هو مفيد لنا في الحياة، ويكافح حتى يطلعنا، إلى درجة ما، على تلك النواحي المفيدة لنا في الحياة، التي لم تتح لنا الفرصة أن نجربها أو نراها في الواقع

اعادة انتاج الحياة، تلك هي السمة العامة البارزة للفن، وتؤلف جوهره هناك آثار أخرى للفن ذات غرض آخر، أي شرح الحياة، كما أن لها هدفاً آخر.هو اعلان الحكم على ظواهر الحياة

هذه الفرضيات يمكن أن يوافق المرء مع بعض التحفظات التي تمنحها معنى أوسع إلا أنه مع واحدة منها لا يمكنه أن يوافق عليها، أي، لا يمكن أن يقول المرء أن

« المأساوي ، وفقاً لمفهوم التعاليم الأوروبية الحديثة ، هو المرعب في حياة الانسان   لا شك أن « التراجيدي لا يملك ارتباطاً جوهرياً مع فكرة القدر   ولكن ارتباطه مع فكرة الضرورة لا جدال فيه. ليس كل ما هو مرعب في حياة الانسان مأساوي. إن قدر أناس انهارت عليهم جدران منزل في عملية البناء ، مثلاً هو شيء مرعب ، ولكنه مأساوي فقط بالنسبة إليهم ، وبالنسة إليهم بالضبط ، لأنهم يعيشون ضمن ظروف معينة (مساريع كبيرة ، نروعات سياسية عريضة) تضفي معنى مأساوياً على موتهم المفاجيء تحت ركام الآجر على أي حال فان المثال المقدم عن المأساوي لا يرال أقرب إلى الصدفة ، ولذلك ليس مأساوياً بالمعنى الحقيقي للكلمة. إن المأساوي الحقيقي قائم على فكرة الضرورة التاريخية المأساوي الحقيقي هو قدر الأخوين كراتشي ، اللذين تحطمت خططهما وحياتهما لعجز البروليتاريا الرومانية في اتخاذ فعل سياسي مستقل. المأساوي الحقيقي هو قدر روبسبير وسان جوست اللذين هلكا بسبب التناقضات المحتومة التي لا يمكن سويتها في موقفها التاريخي بين الطبقات المختلفة للمجتمع الفرنسي التي كانت تقاتل للسيطرة إن المأساة الحقيقية ، بشكل عام ، يخلقها انسحاق النزوعات الواعية لدى الشخصية الانسانية ،.التي تحصرها الضرورة بالجانب الأحادي تقريباً ، بالقوى العمياء للحركة التاريخية التي تعمل مثل قوانين الطبيعة. إن تشيرنيشيفسكي لم يول ، ولم يسطع أن يولي إهتماماً لهذه الناحية من القضية ، لأن نضاله ضد المادية كان لا يرال محصوراً في ميدان الفرضيات الفلسفية المجردة في هذا النضال تطرف أيضاً في النزعة العقلية وساوى بساطة بين المأساوي والمرعب. ولكن حيثما تذكر ، ولو شرح المأساوي الذي اسخدم له هيغل مثال أنتيغوني لسوفوكليس ، فانه يعتقد أن المرء يمكن أن يتحدث عن الضرورة من غير أن يكون مثالياً يشير هيغل إلى تصادم قانونين. القانون القبلي وقانون الدولة ، في أنتيغوني. تمثل أنتيغوني الأول ويمثل كريون الثاني إن الصراع بين هذين القانونين لعب ولا شك دوراً كبيراً في التاريخ ، ومن دون الاغراق في المثالية يمكن للمرء أن يربط المأساوي مع نمط الصراع إن تشيرنيسيفسكي لا يرى هذا لأنه يبدو مساسياً التاريخ في هذه الدراسة وهذا مؤسف أكثر لأن سيرنيسيفسكي لو تذكر قاعدته في وقتها لكان نجح في تقديم علم جمال على أساس نظري جديد كل الجدة. إنه في البرهان على أطروحته في أن الجمال هو الحياة ، يضع ملاحظة هامة وهي أن الطبقات المختلفة في المجتمع ذات مثل مختلفة من الجمال تقوم على

الظروف الاقتصادية لحياتها وهذا المقطع من الخطورة بحيث نقتبسه كله تقريباً

« تعني « الحياة الطيبة و « الحياة كما يجب أن تكون بين العامة، الكفاية من الطعام والسكن في بيت جيد والكفاية من الراحة والنوم ولكن في الوقت نفسه يضمن مفهوم الفلاح عن الحياة دائماً فكرة العمل - من المستحيل الحياة من غير عمل. فالحياة من دونه قائمة فعلاً ونتيجة حياة الكفاية، المصحوبة بالعمل الشاق ولكن غير المضني ستتمتع الفتاة الفلاحة [أو الفتى الفلاح ج، ب] بطبيعة قوية ووجنتين متوردتين - الصفة الأولى للجمال حسب مفاهيم العامة. العمل بشدة، لذلك يكون البناء قوياً، وستكون الفتاة الريفية، اذا حصلت على كفايتها من الطعام، عامرة الصدر وهذه أيضاً صفة ضرورية للجمال في القرية: فأهل الريف يعتبرون جمال المدن الأثيري « قبيحاً بل حتى يسخرون من فتاة هذا الجمال، فقد اعتادوا أن يروا في النحافة أثراً للمرض أو نتيجة « الحظ السيء إن العمل لا يمكن المرء من السمنة، فاذا كانت فتاة ريفية سمينة، اعتبر ذلك فيها نوعاً من المرض، ويقولون إنها مترهلة ويعتبرون البدانة عيباً إن الريفية الجميلة لا يمكن أن تكون صغيرة اليدين والقدمين، لأنها تمارس عملاً قاسياً ولم تشر أغانينا إلى هذه الصفات وباختصار لن تجد في أوصاف الجمال في أغانينا الشعبية صفة واحدة من الجمال الذي لا يعبر عن الصحة الجيدة والبنية المتوازنة، وهما دائماً نتيجة حياة الكفاية والعمل القاسي الدؤوب، ولكنه غير المضني أما جمال المدينة فمختلف كل الاختلاف فأسلاف ابنة المدينة عاشوا لعدة أجيال من غير قيام بعمل جسدي وفي حياة الكسل لا يصل الأطراف إلا قليل من الدم ومع كل جيل جديد تضعف عضلات الذراعين والساقين، وتصبح العظام أرفع والنتيجة الحتمية لكل هذا هو الأيدي والأقدام الصغيرة - إنها مظاهر نوع واحد فقط من حياة طبقات المجتمع العليا التي تظن أنها ممكنة وهي حياة من غير عمل جسدي فاذا كانت سيدة المدينة ذات يدين أو قدمين كبيرتين، فينظر إلى ذلك على أنه عيب، أو على أنه دلالة على أنها ليست سليلة أسرة نبيلة قديمة. والحقيقة أن الصحة الجيدة لا يمكن أن تفقد قيمتها لأن الرجل، حتى في حياة الكفاية والفراغ، يعتبر الصحة السيئة عيباً ولذلك فان الوجنتين المتوردتين ونضارة الصحة الجيدة لا تزال جذابة أيضاً لأبناء المدن، إلا أن الشحوب والتواني والتراخي والكسل تتمتع بميزة الجمال في نظرهم ما دامت تبدو نتيجة حياة

الكسل واللهو الوجنات الشاحبة والتراخي والكسل لها دلالة أخرى لدى سكان المدن. إن الفلاحين يسدون الراحة والهدوء، إلا أن الناس المنتمين إلى المجتمع المثقف، الذين لا يعانون الحاجة المادية ولا الاعياء الجسدي، بل يعانون من السقم الناجم من الكسل وغياب السعي المادي، يبحثون عن «النشوات والعواطف والاثارات التي تهب اللون والتنوع والجاذبية لحياة المدينة القاتمة التي لا طعم لها إلا أن النشوات والعواطف القوية سرعان ما تبلي الانسان. فكيف لا يؤخذ المرء بكسل الفتاة وشحوبها عندما يكونان اشارة إلى أنها تعيش «حياة مفعمة بالملذات»*

إن مفاهيم الناس عن الجمال جرى التعبير عنها في الآثار الفنية. إن مفاهيم الجمال للطبقات الاجتماعية المختلفة، كما رأينا، هي مفاهيم مختلفة، وأحياناً متعارضة. فالطبقة التي تسيطر في عصر ما في المجتمع، تسيطر أيضاً في الأدب والفن. إنها تقدم آراءها ومفاهيمها الخاصة لهم. ولكن في المجتمع المتطور تسيطر الطبقات المختلفة في أوقات مختلفة. وفوق ذلك إن كل طبقة لها تاريخها الخاص، إنها تتطور وتحصل على الازدهار والسيادة، وأخيراً سحط. وانسجاماً مع هذا فإن آراءها الأدبية ومفاهيمها الجمالية ستغير أيضاً ولهذا نواجه في التاريخ آراء أدبية مختلفة ومفاهيم جمالية مختلفة: الآراء والمفاهيم التي تسود في عصر ما تصبح بالية في العصر التالي. وقد أظهر تشيرنيشيفسكي أن مفاهيم الناس الجمالية ذات إرتباط سببي وثيق بحياتهم الاقتصاديه. لقد كان هذا الاكتشاف رائعاً بكل ما في الكلمة من معنى إن كل ما بقي بالنسبة إليه أن يتقصى فعل المبدأ الذي اكتشفه من خلال كل تاريخ البشرية مع تبدلات الطبقات الحاكمة المختلفة، ويكون قد حقق ثورة كبرى في علم الجمال، بربطه نظرية الفن مع التفسير المادي الحديث للتاريخ لكننا نعلم أن مثل هذا الشرح للتاريخ كان غريباً عنه إلى درجة بعيدة إنه لا يسطيع، لذلك، اكمال المادة التي ابتدأها بصورة رائعة، ولذلك فاننا في كتابه «**العلاقة الجمالية بين الفن والواقع**» نجد تعليقات مادية فعلية على تاريخ الفن أقل بكثير مما نجده مثلاً، في علم الجمال لهيغل**، «المثالي المطلق» إن

---

* تشير بيشيفسكي، المؤلفات ٥ المجلد الأول صص ٤٤ ٤٥ - ٤٦

** انظر مثلاً ملاحظات هيغل على تاريخ الرسم الهولندي، الذي يوافق عليها أي مادي ديالكتيكي حديث من غير أي تحفظ (علم الجمال: الجرء الأول ٢١٧ - ٢١٨ الجزء الثاني ٢١٧ - ٢٢٣) وهناك عدة ملاحظات في كتابه علم الجمال.

أطروحة تشيرنيشيفسكي، كما أشرنا من قبل،، تعكس بوضوح خاص كل عيوب ومرايا طريقته في التفكير

(٥)

إن الجناح اليساري الهيغلي، الذي إليه اسمى تشيريسيفسكي وأسلافه اعسق، كما نعرف، الاشتراكية. كما اعتنقها أيضاً الهيغليون اليساريون الروس واهتمام بيلنسكي الشديد بالاشتراكية معروف جيداً فمؤلفاته تتضمن مقالات نم عن فهم عميق جداً في عصره للعلاقات بين البروليتاريا والبرجوارية الغربيين* وفي هذا المجال كان سيريشيفسكي، كما في المجالات الاخرى، المتابع المباشر والفوري لقضية بيلنسكي ومن نافلة القول انه ذهب أكثر من بيلنسكي انه لم يستفد فقط من الاشتراكية، بل قام بدراسة عميقة للأدب الاشتراكي والاقتصادي الذي وصل إليه لقد تحدث عن الاشتراكية ليس فقط عدما وردت في مقالات مكرسة لقضايا أخرى ان ساطه الأدبي كان يرمي حصراً إلى تقدير المَبادىء الاشتراكية بين المتعلمين الروس وبالنظر الى ذلك نحن مضطرون إلى تقديم وصف مفصل قدر الامكان عن موقف سيريشيفسكي من الاشتراكية الاوروبية الغربية

إن أي امرىء يتحدث عن الاشتراكية اليوم إما أن يتحدث عن تعاليم ماركس أو أنه لا يقول شيئاً يستحق الاهتمام. ولكن في ذلك الوقت الذي ترجع إليه السنوات الحاسمة لتطور تشيرنيشيفسكي (أواخر الأربعينات وأوائل الخمسينات)، لم تكن القضية هكذا. فلم تكن السيادة لتعاليم ماركس، كانت لا تزال في بداية سكلها، سرح وتختبر في المعركة مع النظريات الاشتراكية الأخرى والمؤلفات الرئيسية لمدرسة ماركس لم تكن قد طبعت بعد. فكان من المسموح للمرء أن يقول إنه إسراكي من عير أن تكون لديه أدنى فكرة عن ماركس. إن تأثير ما يسمى اليوم الاشتراكيين الخياليين، وعلى الأخص فورييه وأوين، كان لا يزال قوياً وإن الاشتراكيين الموهوبين لذلك الوقت شعروا جميعاً بهذا التأثير وأكملوا نظريات معلميهم محين العاصر الخيالة غير العلمية منها لقد كان تشيرنيشيفسكي في هذا الموقع بالضبط فقد قلنا من قبل أنه لم

* انظر مثلاً مقالته عن أوجين في الجزء السابع من الطبعة الكاملة لمؤلفاته.

يكن لديه أي فكرة عن مؤلفات مدرسة ماركس.لقد قرأ بيلنسكي بسرة كبيرة **الحوليات الفرنسية الألمانية**[٣٢] العدد المردوج الأول والأخير الذي نشره أرنولد روح بالتعاون مع ماركس وانحلر إلا أن تأثير هده الصحفة على الرأي العام الروسي لم يكن قوياً بما فيه الكفاية حتى يؤثر على الاتجاه الجديد في الفكر الاشتراكي الروسي فقد تطور هذا الأخير مدة طويلة، طويلة جداً طويلة أكثر مما يجب، من غير أدنى تأثر بمؤلفات ماركس العلمية فلس من العجب أن سيرنيسفسكي في شرح أفكاره الاشتراكية لم يضع في حسابه الاتجاه الجديد في الاشتراكية الذي كان قد لعب دوراً هاماً في تاريخ الحركة العمالية الألمانية، والذي منذ النصف الثاني للسبعينات بات سائداً بين الطبقة العاملة الأوروبية وبما أن سيرنيسفسكي كان رجلا ذا ثقافة علمية كبيرة فقد كان بعيداً كل البعد عن الأوهام الغريبة التي اختلطت في تعاليم فورييه بالأفكار الرائعة في التاريخ والحياة الحديثة للبشرية لقد كان دائماً ناقداً متطرفاً لتعاليم سان سيمون وكان سيرنيسفسكي معجباً جداً بروبرت أوين الذي يسميه لوبوخوف العجوز القديس في رواية « **ما العمل؟** إلا أن الذهن الحكيم لمؤلفنا قلما سمح له أن ينحرف مع آمال أوين لمساعدة الأغلبية المضطهدة من الدولة والطبقة العليا ويمكن أن يقول المرء أن سيرنيسفسكي بدراسته العلاقات الاجتماعية الأوروبية الغربية وصل بشكل عفوي إلى النتيجة التي باتت حجر الأساس في برنامج الأممية والتي تقول إن تحرير العمال مسألة تهم العمال أنفسهم إلا أن رأي مؤلفنا في المهمات التاريخية للطبقة العاملة فيه غموض قد يبدو غريباً للقارىء الحالي إن سيرنيسفسكي لا يميز بين البرولتاريا والجماهير العامة للكادحين والمضطهدين وحتى يحدد الطبقة العاملة التي تحرر نفسها بمساعيها نفسها يستخدم سيرنيسفسكي تعبيراً يشير إلى شخصية الكاتب الروسي ويدل على غموض فكرته عن دور البرولتاريا في تاريخ أوروبا الغربية إن سيرنيسفسكي يدعو العمال الغربيين **الشعب العام** ويحدد حاجاتهم ومهماتهم بالطريقة نفسها التي يحدد بها الروسي الانساني المثقف حاجات « الشعب العام » الروسي ومهماته في ذلك الوقت وفي إحدى مقالاته التي كتبت في حرارة الجدال الذي أثارته قضية تحرير الفلاحين يذهب مؤلفنا بعيداً إلى حد التعبير عن الأفكار الغريبة التالية حول آراء الديمقراطيين الأوروبيين الغربيين إنه يؤمن أن الحرية السياسية لا أهمية لها بالنسبة إلى جماهير الشعب. ولذلك فان المدافعين عن مصالح الشعب يمكن ألا يهتموا بالسياسة واليكم كيف يدافع عن

الآراء السياسة للبراليين، من جهة، و«الديمقراطيين من جهة أخرى* «إن الرغائب والدوافع الأساسية للبراليين والديمقراطيين مختلفة اختلافاً أساسياً فالديمراطيون يبوون الاجهار بأسرع ما يمكن على سيطرة الطبقات العليا على الطبقات الدىيا في بنية الدولة. أما بالنسبة إلى الآخرين فانهم يبوون منح ثقل أكبر للطبقات الدىيا والمريد من الرفاهية أما كيف، بهدا المعنى بغير القوانين وبدعم البىية الجديدة للمجتمع، فتلك **قضية مختلفة تقريباً**** بالنسبة إليهم ومن جهة أخرى لا يوافق البرالون مطلقاً على منح السيادة في المجتمع للطبقات الدىيا، فنظراً لنقص ثقافتها وشقائها المادي فان هذه الطبقات لا تأبه بالمصالح الهامة جداً للجانب اللبرالي، أي حق حرية الكلام والنظام الدستوري أما بالسبة إلى الديمقراطي حيث الشعب العام في حاله جيدة، فانه يقف أعلى من انكلترا حيث أغلبية الشعب يعاني الحرمان الكبير ومن بين كل المؤسسات السياسية لا يكن الديمقراطي عداء إلا للارستقراطية (ولكن لىس المطلقة؟)، ويجد اللبرالي دائماً تقريباً أن المجتمع بدرجة قليلة من الارستقراطية تمكن يحقق النظام اللبرالي ولذلك فان اللبراليين هم الأعداء اللدودون للديمقراطيين، ويقولون إن الديمقراطية تقود إلى الطغيان والقضاء على الحرية»***

إن المقالة التي استعرنا منها هذه الأسطر كتبت، كما قلنا، في ذروة المناقشات حول المسألة الفلاحية إن من الممكن جداً أن تشيرنيشيفسكي كتبها إلى درجة ما من أجل الدوفين(٣٣) وفي رغبته أن يظهر للحكومة الروسية أن لا داعي للخوف من الديمقراطيين الروس الذي تركز اهتمامهم فعلاً في وقت ما على الوضع الاقتصادي للفلاحين المحررين وفيما بعد، وبخاصة في **رسائل بلا عنوان** عبر تشيرنيشيفسكي عن رأي جديد في أهمية الحرية السياسية في رفاهية الشعب إلا أن الرأي المقتبس يظل سمة مميزة في تاريخ الوعي السياسي الروسي لقد كان متأثراً بالديمقراطية الروسية النامية، التي تابعت حتى نهاية السبعينيات احتقارها العميق «للسياسة بالطبع لا

---

* على المرء ألا ينسى أن من الصعب الحديث عن الاشتراكيين بسبب ظروف الرقابة

** إشارة التشديد منا

*** «نضالات الحرب في فرانسا في ظل لويس الثامن عشر وشارل العاشر طبع في العدد الثالث من **الاشتراكي الديمقراطي الروسي**، في جنيف ١٨٧٥ صص ٥، ٦.

يفسر هذا فقط بتأثير سيرنيسيفسكي - فقد قام الداعية باكونين بمجهود كبير في هذه الناحية إلا أن عدم ثبات الآراء السياسية لمعلم الشباب الروسي المحبوب، وغموض هذه الآراء، ساهما بوضوح في تقلبات البرنامج اللاحق للثوريين الروس أما أن سيرنيسيفسكي في المهمات السياسية للبروليتاريا الأوروبية الغربية لم تكن واضحة تماماً، فيظهر ذلك من رأيه التالي في أهمية الاقتراع العام إننا نأخذ هذا الرأي من مقالة «ملكية تمور التي كتبت في ١٨٦٠ أي في الوقت الذي كان قد صحا من أوهام معالجة الحكومة لمسألة الفلاح ولم يعد يسطيع أن يكتب من أجل الدوفين في هذه المقالة، بالمناسبة، يخاطب تشيرنيسيفسكي أولئك «الناس الكرام الذين وقد رأوا أن مسح حق الاقتراع العام في فرنسا أفاد الرجعيين واعداء التقدم، كفوا عن أن يولوا أي أهمية للاقتراع إن تشيرنيشيفسكي يؤكد مجدداً لهم، ولكن من غير اعتبار أن الرجعيين وأعداء التقدم اسطاعوا الاستفادة من نتيجة الاقتراع فقط بعد مذبحة ثوار حريران[٣٤] إنه لم يخبرهم أن الاقتراع العام ضروري جداً من أجل تثقيف الطبقة العاملة سياسياً إنه يرجع ببساطة إلى تخلف «الفلاحين «النتيجة المباشرة للقانون (الذي مسح الاقتراع العام في فرنسا) كان مخيّباً لتوقعات جميع الفرنسيين الشرفاء ولكن ماذا عنه؟ ألم يكن هذا القانون مفيداً للمجتمع الفرنسي؟ ان الناس رأوا الآن أن جهل الفلاحين دمر فرنسا وحتى يكون لهم صوت، لا أحد اهتم بفاجعتهم المرعبة لا أحد لاحظ أنه في قاع التاريخ الفرنسي يكمن دائماً جهل الفلاحين لقد كان المرض سراً وظل سراً من دون معالجة، إلا أنه أتلف العضوية كلها وعندما ظهر الفلاحون في الانتخابات انكشف أخيراً جوهر المسألة كان يبدو أنه لا شيء مفيداً فعلاً يمكن تحقيقه في فرنسا حتى اهتم الفرنسيون الشرفاء بتثقيف الفلاحين لقد تم هذا الآن، ولم تكن المحاولات من غير ثمار وعاجلاً أم آجلاً سوف يصبح الفلاحون أكثر تعقلاً وعندئذٍ سيكون التقدم أسهل على فرنسا وهكذا علينا أن نعيد التأكيد حتى اذا كان الاقتراع العام لا يبقى حين تقوم المؤسسات الشرعية في فرنسا حتى إذا كانت الثمار المريرة التي جاء بها القانون جعلت الرأي العام يرفض الاقتراع لفترة، إلا أن القانون على الرغم من كل أذاه المباشر، كان مفيداً بصورة غير مباشرة بشكل كبير»*

* «مكتبة تمور في الاشتراكي الديمقراطي الروسي جنيف ١٨٧٥ صص ٥٨ ٥٩.

هنا كما نرى، لا توجد اشارة إلى الصراع الطبقي في المجتمع الفرنسي، أو الى الدور الثوري للبروليتاريا الفرنسية إن كل آمال مؤلفنا معلقة على الشرفاء الذين يهمون بتثقيف الفلاحين، الذي ستكون نتيجته «تسهيل التقدم على فرنسا هده الأصوات غريبة جداً في أيامنا ولكن مرة أخرى علينا ألا ننسى أن البروليتاريا كانت بالنسبة إلى تشيرنيشيفسكي «الشعب العام الذي يختلف قليلاً في صفاته وبروعاته ومهماته عن القطاعات الأخرى من الكادحين. وإذا رأى تشيربيسيفسكي أي شيء ثوري في السمات النوعية للظروف الاقتصادية للبرولبتاريا الأوروبية الغربية، فان ذلك كان فقط بمعنى أن الفواجع الاقتصادية أثارت سخط العمال. ولكن طالما أن القطاعات الأخرى للكادحين تعاني أيضاً من الفواجع غير القليلة، فان المزاج الثوري بينهم يبدو له كأنه بين البروليتاريا وعندما دافع تشيرنيشيفسكي عن الحيازة الكومونية الروسية للأرض، كمزية من المزايا، أشار إلى حقيقة أنها أنقذتنا من «قرحة خلق البروليتاريا والحقيقة أنه بعمله هذا إنما ردد كلمات الرجعيين، أمثال البارون فون هاكسهاوزن أو تنغوبورسكي الذي اعتقد أن «قرحة خلق البروليتاريا كانت مصدر الحركات الثورية في أوروبا الغربية. ولديه، أيضاً، شكوك في فوائد ازالة «القرحة المزعومة لقضية التقدم الروسي ولكنه رد على تلك الشكوك بالشكل التالي من الملاحظة: «الطبقة الزراعية وإن استخدمت الأرض في ظل النظام الكوموني في قطرنا لم تظهر دائماً في التاريخ الروسي بسمتها الثابتة ذاتها التي رآها فيها سغوبورسكي، الذي يثق ثقة كبيرة بالعبارة العامة عن أن الثبات سمة للمزارع في أوروبا الغربيّة، وطبق هذا التعبير غير الواقعي على الفلاح الروسي فلا حاجة أن ناقش هنا شخصية الفلاح الأوروبي الغربي يكفي أن نشير هنا إلى أن القوقازيين تحدروا بمعظمهم من الفلاحين، وأنه من بداية القرن السابع عشر تقريباً تمت جميع الموضوعات الدراماتيكية في تاريخ الشعب الروسي بقوة السكان الزراعيين هنا يمكن أن نصف الحروب الفلاحية، كما نرى، حسب أهميتها مع الحركات الثورية للبروليتاريا الحديثة - إنه إضطراب مستحيل تماماً بالنسبة إلى الاشتراكي المعاصر

الحركات الثورية للطبقة العاملة في نظر الاشتراكي الحديث هي نتيجة النضال الطبقي في مجتمع تطور على أساس الصناعة الضخمة الاشتراكي الحديث يرى في التطور السريع لهذه الصناعة ضمانة لانتصار قضيته إن تشيرنيشيفسكي لم ير القضية

في هذا المنحنى إن آراءه فيها مشوبة كثيراً بالمثالية الواضحة وإليكم كيف يناقش الموضوع في مراجعته كتاب برونو هيلد براند **الاقتصاد السياسي حاضراً ومستقبلاً***
« إن ما هو انساني فعلاً ، ما هو عقلي فعلاً ، سوف يجد تأييداً بين الناس جميعاً فالعقل واحد في كل الأرجاء ، لدى ذوي البشرة السوداء ، وأصحاب الشعر الأشقر من الطبيعي أن يوجد في البراري الأميركية شعب مختلف عن ذاك الذي في القرى الروسية . وفي جزر الساندويش يقطن أناس لا يشبهون الجنتلمانات الانكليز إلا قليلاً ، ولكن علينا أن نؤمن أن الفلاح الروسي ، والمتوحش والكاردينال الروماني الموقر يحتاجون جميعاً إلى تناول الطعام. وحتى يفعلوا ذلك لا بد من أن يكون لديهم شيء يؤكل. فالاندفاع إلى تحسين وضع الفرد هو صفة أساسية للبشرية جمعاء فاذا تضاربت النظريات الجديدة مع الطبيعة البشرية ، فانها لا تتعدى القطر أو الشعب الذي رأى من المناسب اختراعها ، وجميع الشعوب في العالم المتمدن لن يكافحوا من أجلها »** إن من الضروري بمكان أن نكرر أن الشعوب في العالم المتمدن يكافحون من أجل الاشتراكية وليس انسجاماً مع الطبيعة البشرية » (وهذا لا يثبت شيئاً على الاطلاق) ، بل من أجل الانسجام فقط مع الظرف الاقتصادي للبشرية المتحضرة الحديثة.

كيف يمكن لتشيرنيشيفسكي ، بمثل هذه الآراء عن الاشتراكية ، أن يقتنع بالمهمات العملية للحزب الاشتراكي؟ وبسبب ظروف الرقابة قلما تحدث عنها في الصحافة ، بل عبر عن نفسه بصورة محددة في هذا المجال بحيث أن التفاصيل فقط تؤدي إلى المسألة. إن الطبيعة العامة لنزوعاته العملية واضحة تماماً

فلنقل أولاً ، قبل كل شيء ، أن تشيرنيشيفسكي بفكره الحكيم وكفاحه الدؤوب في النشاط العملي لا ينتمي إلى أولئك الاشتراكيين الذين يطالبون البشرية بأن توافق على طوباوياتهم من غير قيد ولا شرط والذين يرون كل الاصلاحات الاقتصادية الفردية عقيمة ، أو مضرة هكذا هم الفوضويون المحدثون ، اذا كان الفوضويون يسمون اشتراكيين ، حتى باللغة الدارجة ، وليس بالمعنى الدقيق للكلمة . إن تشيرنيشيفسكي يسخر من تلك الرؤى بصورة لاذعة « فالرفض باسم المثل العليا ، مع أنه ليس منطبقاً

* [Die National äkonomie der Gegenwart und Zukunft]

** سوفريمنيبيك آذار ١٨٦١ الكتب الجديدة ص ٧١

تماماً على الواقع ، هو اللجوء الى المثل بافراط واستمتاع المرء بالنظريات ففي رأيه ، أن الأمر ، بسبب ميل الناس إلى هذه الاستمتاعات « ينتهي عادة بعد محاولات شاقة إلى الوصول إلى المثل فتسقط النظريات لأنها لا تضع مثالاً أمامهم » . لقد أصاب هنا كبد الحقيقة فيما يتعلق بالفوضويين . ولكن ليس هنا بيت القصيد فلنر كيف نظر تشيرنيشيفسكي في الاصلاحات المفيدة والممكنة من موقف رأسمالي

من المعروف أن الاشتراكيين الديمقراطيين المحدثين لا يرفضون فقط أهمية الاصلاحات الاقتصادية المتفرقة ، بل يطالبون بها بشكل ملح إن برامج الاصلاحات الخاصة أو ما يسمى الحد الأدنى الذي جرت الموافقة عليه في كل الاقطار المختلفة ، شديدة الصلة بنزوعاتها النهائية إنهم يأملون أن الاصلاحات التي كسبوها من الحكومات الحديثة سوف يساعدهم على الاقتراب من هدفهم النهائي ، ذلك أنها سوف تكون سلسلة من الانتصارات لاقتصاد العمل على اقتصاد الرأسمال . وقد تحقق تشيرنيشيفسكي أن الاصلاحات التي طالب بها الاشتراكيون يجب أن تتطابق مع هدفهم النهائي إلا أنه لم يمتلك فكرة واضحة عن الهدف النهائي للاشتراكية مثل الاشتراكيين الديمقراطيين المعاصرين ففي اعتقاده أن الانتصار الفعلي للاشتراكية تنحى لتحل محله صفة غامضة ، وقد افترض أنه نتيجة « قرون من تجربة البشرية . لذلك حتى برنامج ما يعتبره اصلاحات منفردة كبيرة لا يعتبر برنامجاً كافياً ويمكن القول ، بشكل عام ، إن سيرنيشيفسكي ، لأنه رأى الاشتراكية نظاماً من الجمعيات ، دافع عن كل شيء رأى فيه بارقة بسيطة من مبدأ الاتحاد ومن منطلق تسهيل قيام الجمعيات دافع تشيرنيشيفسكي عن الحيازة الروسية الكومونية للأرض . لقد رأى في الكومون الأساس التاريخي الجاهر للجمعيات الزراعية وقد نصح الاشتراكيين الروس باقامة الجمعيات في روايته **ما العمل؟** أيضاً ومن المفيد أن نلاحظ الحقيقة التاريخية أن الجمعيات كان يجري الدفاع عنها في روسيا والمانيا في الوقت نفسه لقد شهد عام ١٨٦٣ ظهور رواية تشيرنيشيفسكي ، التي حدد نشرها بداية سلسلة كاملة من المحاولات في بلادنا لاقامة الجمعيات وكذلك نصح لاسال في عام ١٨٦٣ العمال الألمان باقامة الجمعيات باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتحسين حياتهم مهما كانت درجتها ولكن ما أشد الفرق بين الطريقة التي ظهرت فيها هذه المسألة في روسيا والطريقة التي ظهرت فيها في المانيا ! في رواية تشيرنيشيفسكي التي أصبحت لفترة برنامج الاشتراكيين الروس ، تميز الأفراد

الانسانيين المثقفين الذين تعهدوا باقامة الجمعيات: فيرا بانلوفنا ورفاقها وحتى الكاهن المتنور مرتسالوف ينضم إلى القضية، وهو الذي، كما يقول تشيرنيشيفسكي، يلعب دور «الدرع» في المشاغل التي أقامتها فيرا بافلوفنا ولكن لا توجد كلمة واحدة في الرواية عن النشاط السياسي المستقل للطبقة التي تستفيد من إقامة هذه الجمعيات. كما أن أبناء الستينات، الذين حاولوا تنفيذ البرنامج الذي اقترحه تشيرنيشيفسكي، لم يقولوا كلمة واحدة عن ذلك بينما أول كلمة في تحريض لاسال كانت الاشارة إلى أن العمال من الضروري أن يقوموا بنشاط سياسي مستقل. لقد ذهب لاسال إلى أن العمال، بعد أن يتحدوا في حزب سياسي خاص، وبعد قدرتهم على التأثير في مجرى الأحداث في البلاد، يجب أن يجبروا الحكومة على اعطائهم الأموال الضرورية لاقامة جمعياتهم. وفي مشروع لاسال تتسم إقامة الجمعيات بسمة اجتماعية واسعة. ولم يول لاسال كبير أهمية فيما إذا كانت الجمعيات تقوم على جهود الأفراد المثقفين. إن تشيرنيشيفسكي، بالمقارنة مع لاسال، يعتبر طوباوياً حقيقياً في روايته. ولاسال، بالمقارنة مع تشيرنيشيفسكي يعتبر ممثلاً حقيقياً للاشتراكية الحديثة في تحريضه هذا الفرق لا ينبع من حقيقة أن لاسال كان أكثر ثقافة من تشيرنيشيفسكي ويمكن للمرء أن يقول بثقة أن تشيرنيشيفسكي لم يكن من حيث القوى الذهنية متخلفاً عن لاسال. إلا أن الاشتراكي الروسي كان ابن وطنه، ابن التخلف السياسي والاقتصادي الذي أضفى على كل مخططاته العملية، وحتى على العديد من آرائه النظرية سمة الطوباوية. وفي مخططاته العملية لاقامة الجمعيات كان أقرب إلى سكولز - ديلتزش منه إلى لاسال. ومن جهة أخرى، نشير إلى أن لاسال أيضاً في مخططاته العملية ممثل حقيقي للاشتراكية الحديثة فقط بالقياس إلى تشيرنيشيفسكي إن الرجلين اللذين يمثلان حقاً الاشتراكية الحديثة، ماركس وانجلز، اعتقدا أن خطط لاسال لم تكن هي الأخرى غير محض طوباويات. لقد أحجما عن تأييد المحرض الشهير بالضبط لأنهما لم يرغبا في أن يبثا في الطبقة العاملة الألمانية مذاق الطوباويات الاقتصادية[٣٥]

إن السنوات الحاسمة لتطور تشيرنيشيفسكي ترجع إلى الزمن الذي كانت فيه البروليتاريا أوروبا الغربية، وقد ثبطتها ثورة ١٨٤٨ لا تبدي أي بادرة في الحياة السياسية إن تشيرنيشيفسكي إذ لاحظ الحركات البروليتارية في العصر السابق بشكل جانبي ملاحظة شخصية من غير أن يتسنى له أن يندمج فيها، ليس له طبعاً أن

يبرر الدور التاريخي لها وحتى لو عرف المبدأ القائل بأن على البروليتاريا أن تحرر نفسها بنفسها ما كان له إلا أن يميل إلى المخططات العملية الغريبة جداً، لتسهيل مهمتها وبقولنا هذا نتذكر مقالة نشرت في عدد أيار في **سوفريمينيك** ١٨٦١، في قسم الأدب الأجنبي إن من الممكن، بل من المحتمل، أن هذه المقالة لا تخص سيرنيسيفسكي نفسه ولكن بما أنها تعالج موضوعات اقتصادية، وبما أن كل شيء في **السوفريمينيك** له أدنى علاقة بالمسائل الاقتصادية سوف يمر على يدي تشيرنيشيفسكي، فما كان للمقالة أن تنشر لو تعارضت مع آراء مؤلفنا مهما يكن الأمر لا بد أن نعلم أنها تبرز آراء حلقة **السوفريمينيك** حول المسألة الاجتماعية. في مطلع المقالة يقدم المؤلف بعض الملاحظات النفسية جداً حول أن البروليتاريا ظاهرة خاصة حصراً بالتاريخ الحديث «في القرن الحاضر فقط ظهرت في أوروبا الغربية بشكل واعٍ ومستقل وربما قبل القرن التاسع عشر كان هناك أناس أشد فقراً بحاجة إلى المساعدة أكثر من اليوم، ولكن لم تكن ثمة بروليتاريا إنها ثمرة التاريخ الحديث وفوق ذلك يلاحظ المؤلف بصورة صحيحة أن عمل الأنثى الصناعي سوف يضمن تحرر المرأة في العائلة وعندما يقرأ أحدنا هذا، يمكن أن يعتقد أنه أمام شخص يعتنق نظرة الاشتراكية الحديثة. بيد أن الاضطراب يظهر حالما يصل النقاش إلى السبل العملية لتحسين نصيب البروليتاريا وبالتحديد إن المؤلف في تناوله نساجي الحرير في ليون، يرى انعتاقهم في «لا مركزية الانتاج»، وإقامة المشاغل خارج المدينة، والجمع بين النسج والزراعة. وفي رأي المؤلف أن جمع حرفة النسيج إلى الزراعة سوف يزيد جداً رفاهية العمال. انه يرى رخص المواد الأولية في القرى كمصدر آخر للتحسين الممكن في رفاهية النساجين. وها هي كلماته بالحرف: «بالنسبة إلى عامل ليون فان بداية انعتاقه من مستخدمه تكمن في تنظيم مشغله خارج المدينة. ولكن كيف يقيمه؟ وبمال من؟ إن المستثمرين وأصحاب المصانع يمكن الاعتماد عليهم بصورة استثنائية فقط، وهذا ما يجعل من الضروري البحث عن دعم من الحكومة، من أموالها فقط بالاعتماد الذي تفتحه الحكومة لبروليتاري ليون يمكن أن يتحرر من استغلال الرأسمالي لعمله، وأن يقف على قدميه إلا أن المؤلف يجزع من أن العمال لا يرغبون في الانتقال إلى القرى. «إن حياة المدينة بالنسبة إلى الكثير منهم تقدم مباهج لا يجدونها في حياة الريف... إلا أن هذا شر عابر بالطبع لا يتوقع المرء أن ينتقل جميع العمال من ليون

فوراً إلى الريف المجاور، ولكن لا أساس للتفكير أن فائدة هذا الانتقال لن يفد إلى الوعي العام للعمال أكثر فأكثر فبأمثلة ناجحة قليلة سوف يجد العامل حلاً لوضعه الحالي البائس فيكفي للبدء أن تقوم بعص المساكن والمشاغل لأسر متعددة، وعندئذٍ لن يكون صعباً التحول إلى جمعية واقامة مشآت مشاغل بأنوال ضخمة »* ولن نعجب اذا نحن قرأنا مثل هذه الخطة في مؤلفات السيد أوسبسكي أو في مؤلفات أي « عالم اجتماع روسي « ذاتي إلا أن ذلك يثير الدهشة والانطباع السيء إذا عثرنا عليه في صحيفة تشيرنيسيفسكي فمن الواضح أن الشخص الذي فكر بهذه الخطة والناس الذين نشروها في صحيفتهم ليست لديهم أي فكرة عن أن تحرير العمال يمكن أن يكون شأناً خاصاً بهم أنفسهم. فالمسألة واضحة تماماً بالنسبة إلى الاشتراكي الديمقراطي إن الانعتاق **الاقتصادي** للبروليتاريا سوف يكون نتيجة سيادتها **السياسية**، انتزاع السلطة بيديها إن واضع الخطة المشار إليها أعلاه للتحرر الاقتصادي لنساجي ليون يلقي الدور الرئيسي في هذا التحرر على حكومة نابليون الثالث وحسب هذا المشروع، من المفروض القيام بالمبادرة وجعل العمال يعتادون بالتدريج على فكرة الانتقال الى الريف وهكذا سوف يكون العمال الموضوع السلبي لعمل الحكومة البونابرتية. وهذا ما يتناقض جذرياً مع آراء الاشتراكيين الديمقراطيين، ناهيك عن الناحية الاقتصادية للمشروع التي لا تحمل أي انتقاد إلا أن ظهور هذه المشاريع على صفحات **السوفريمينيك** طبيعي ويمكن فهمه لقد سبق ورأينا كيف نظر تشيرنيشيفسكي إلى حق الاقتراع العام إنه لم يعتبره أداة أساسية للبروليتاريا في نضالها ضد البرجوازية إن الرجل الذي لا يكون واضحاً فيما يتعلق بأهمية الاقتراع العام في هذا النضال، سوف لن يكون واضحاً أيضاً فيما يتعلق بكل مهماتها السياسية، وسوف لن يرى ضرورة توحيد البروليتاريا في حرب سياسي خاص بهدف انتزاع السلطة في المستقبل في مثل هذه الظروف سوف يتردد حتى المؤيد الصادق للطبقة العاملة عندما تكون المسألة مسألة اجراءات عملية لتحسين حياة العمال سوف يتعاطف بعمق مع حركتهم الثورية، بيد أنه في فترة السلم لن يتدنى إلى حد وضع قضية تحسين حياتهم في أيدي الحكومات القائمة: إنه بفهمه الغامض للمهمات السياسية للعمال لن يستطيع فهم أهمية نشاطهم

---

* **سوفريمينيك** ١٨٦١ أيار،، الأدب الأجنبي صص ٢٢ - ٢٣

السياسي المستقل. يمكن القول بشكل عام أن فهم شخص ما للمهمات الحديثة للبروليتاريا يتجلى أكثر ما يتجلى في آرائه حول تكتيك تلك الطبقة في زمن السلم الهادىء وحتى يعاطف المرء مع الانتفاضة الثورية للعمال، لا يحتاج إلا أن يكون غير مستفيد من دعم النظام البرجوازي. ولكن حتى تكون لديه فكرة واضحة عن التكتيك الذي يجب أن يستخدمه العمال في الزمن الذي لا تكون ثمة ثورة، فانه يجب أن يفهم تماماً جميع المهمات، وجميع الشروط، والمجرى العام لحركة تحرر الطبقة العاملة. وكل هذا لم يكن واضحاً بعد لتشيرنيشيفسكي، ولهذا ظهرت مشاريع على صفحات سوفريمينيك أمثال المشروع الذي أشرنا إليه من قبل.

المهم أن مؤلفنا، إذ يدافع بقوة عن تدخل الدولة في العلاقات الاقتصادية لشتى الطبقات الاجتماعية، لا يشير إلى تحديد القانون ليوم العمل. إنه، كما هو واضح، لا يولي أهمية لهذه الناحية من المسألة، أو بالأحرى، لا يفكر بها اطلاقاً

لقد أوضحنا الآن بما فيه الكفاية الأفكار الاشتراكية لتشيرنيشيفسكي أما بالنسبة إلى القراء الذين اطلعوا على الحركة في الغرب وعلى الأدب الاشتراكي لأوروبا العربيّة، من المهم طبعاً أن نشير هنا إلى حقيقة أن مؤلفنا رأى برودون «مثالاً نموذجياً للوضع الثقافي الذي وصله الرجل العادي في الغرب لم يكن تشيرنيشيفسكي معجباً ببرودون مطلقاً إنه يرى جوانب ضعفه وتردده وتناقضه. ولكن «في كل ذلك نحن نرى أيضاً السمات العامة للوضع الثقافي الذي يجد فيه نفسه الرجل العادي في أوروبا الغربية. وبفضل قوة طبيعة الرجل العادي في أوروبا الغربية وتجربته الصارمة في الحياة، يفهم جوهر الأشياء أفضل بكثير وأصح بكثير وأعمق بكثير من أولئك الذين من الطبقات الأعلى إلا أنه لم يكن بعد قد استوعب المفاهيم العلمية التي تنسجم مع وضعه وميوله وحاجاته، والتي تنطبق على الوضع الراهن للمعرفة »* عن أي أناس عاديين» يتحدث تشيرنيشيفسكي هنا؟ هل كان يفكر بالفلاحين أم الحرفيين المستقلين الصغار أم البروليتاريين بالمعنى الحقيقي للكلمة؟ إنه يتحدث عنهم عامة من غير أي تفريق بين القطاعات المختلفة للكادحين، لأنهم جميعاً، كما نرى، اختلطوا في ذهنه في فكرة عامة عن «الناس العاديين». إن الاشتراكيين الحديثين يرون القضية بصورة

* المبدأ الأنتروبولوجي في الفلسفة صص ٢١ ٢٤

مختلفة فمنذ مطلع ١٨٤٨ أشار ماركس وانجلز في البيان الشيوعي إلى الفرق الكبير بين الفلاحين والحرفيين، من جهة، والبروليتاريا من جهة أخرى إن مؤلفي البيان يريان أن الفلاحين والحرفيين الصغار، عندما يدافعون عن المطالب الاقتصادية لوضعهم، ولا يعتنقون نظرة البروليتاريا، هم رجعيون لأنهم يحاولون إعادة عجلة التاريخ إلى الوراء(٣٧) في البروليتاريا وحدها فقط يرى ماركس وانجلز طبقة ثورية في المجتمع الحديث وانسجاماً مع ذلك رأى ماركس وانجلز في برودون أيضاً ممثلاً للناس العاديين في أوروبا الغربية، إلا أن الناس العاديين لهم مكانهم في الشروط الخاصة للانتاج البرجوازي الصغير لقد ظهرت اشتراكية برودون لماركس اشتراكية البرجوازيين الصغار، أو إذا أرادت، اشتراكية الفلاحين، برجوازيي الزراعة الصغار لقد أوضح ماركس مدى التفكك والتذبذب في فكر برودون، ليس لأنه لم يكن مطلعاً على آخر التقدمات في العلوم، بل لأنه صاحب ميول وانحرافات اكتسبها من بيئة البرجوازية الصغيرة فجعلت من الممكن بالنسبة إليه أن يفهم هذه التقدمات حتى وإن مسته* إن الفرق بين موقف ماركس وموقف تشيرنيشيفسكي من برودون يبين جيداً الفرق في موقفهما من حركة الطبقة العاملة لأوروبا الغربية ككل.

(٦)

إننا نعرف الآن موقف تشيرنيشيفسكي من « معلمينا الغربيين الكبار الذين منهم يجب أن يتعلم الروسي بدأب حتى اليوم إننا نعرف أن للفلسفة الألمانية تأثيراً كبيراً على شكل أفكار تشيرنيشيفسكي ونحن نعرف أيضاً أي مرحلة من مراحل تطور الفلسفة الألمانية درس مؤلفنا: لقد درس مرحلة الانتقال من المثالية إلى المادية. وفي هذه المرحلة الانتقالية لم تكن الأفكار المادية الحديثة قد وصلت إلى حد الصفاء والوضوح والتماسك كما وصلت مؤلفات ماركس وإنجلز وقد كان لهذا تأثير قوي على آراء تشيرنيسيفسكي وبمقارنتها بتعاليم المدرسة التي تطورت من تعاليم فيورباخ، نجد فيها عدة ثغرات، والكثير من الغموض والتفكك. ولا يمكن اعتبار آراء تشيرنيسيفسكي التاريخية والاشتراكية كافية من وجهة نظر العلوم الأوروبية اليوم. إن كل من يرفعها في هذه الأيام يعتبر قديماً ولكننا في قولنا هذا لا نرغب أن نلوم

---

* انظر بؤس الفلسفه.

الكاتب الروسي الكبير إن ما أعاق تطوره هو حقيقة أنه عاش في قطر كان متخلفاً في كل المجالات، ولم تصله المكتشفات والاتجاهات الأخيرة في العلوم الاجتماعية نهائياً تقريباً وفي الظروف التي تحيط به لم يكن ثمة مواد لاكتشافات مستقلة بهذا المعنى. وفوق ذلك، على المرء أن يتذكر أن الثورة في العلوم الاجتماعية التي أنجزها ماركس وانجلر لم تقدر مباشرة حتى من قبل أولئك الموهوبين في أوروبا الغربية. لقد وضع لاسال في شروط مفيدة جداً لتطوره الاجتماعي والسياسي، فكان على معرفة وثيقة من مؤسسي الاشتراكية الحديثة، وكل ما كان يجب أن يفعله، كما يبدو انه يتقن الأفكار التي شرحها الآخرون والتي كان يستوعبها بسبب ظروف حياته، ومع ذلك نجد حشداً من التناقضات الصارخة في مؤلفاته. ففي كتابيه الكبيرين **فلسفة هيراكليت الغامض، نظام اقامة الحق)** يتدنى إلى مستوى المفكر المثالي ويتحدث عن **التطور الذاتي للمفاهيم** (Selbstentwicklung der Begrippe) إنه في كراساته التحريضية أقرب إلى الاشتراكية الحديثة، فهو يعرف تقريباً كل أطروحاتها، ولكن حتى في هذه الكراسات نجد الكثير من الغموض وعدم التماسك. فكم يقتضي اليوم كتابه الجدلي (Bastiat – Schulze) من تصحيح[٣٨] يجب أن يعتبر لاسال ممثلاً للعصر الانتقالي في تطور الفكر الاشتراكي الفلسفي، تماماً كما كان تشيرنيشيفسكي إلا أن الثغرات والتناقضات في آراء لاسال لم تمنعه من تقديم خدمة كبرى لتطور بلاده. ونقص التكوين في آراء تشيرنيشيفسكي لم يمنعه من القيام بالخدمة ذاتها والآن، انطلاقاً من نظرة ماركس، يمكننا أن ننتقد كثيراً فرضيات تشيرنيشيفسكي التاريخية وخططه العملية. ولكن في زمنه وبالنسبة إلى بلاده حتى تلك الآراء الخاطئة من آرائه، حسبما نعتبرها اليوم، كانت مهمة جداً ومفيدة، لأنها رفعت الفكر الروسي وقادته في طريق لم يكن ليسير فيه خلال الفترة السابقة. طريق دراسة المسائل الاجتماعية والاقتصادية. في الاقتصاد السياسي وفي التاريخ، وحتى في علم الجمال والنقد الأدبي عبر تشيرنيشيفسكي عن كثير من الأفكار الهامة التي لا تزال حاذقة في ميدانها، وعلى الأخص التي طورها الأدب الروسي. وحتى نحدد بكلمات قليلة أهمية كل شيء قدمه تشيرنيشيفسكي لتطور الفكر الروسي، يكفي أن نشير إلى الحقيقة التالية التي يعرفها بداهة كل من اطلع على حالة الأدب في السنوات الثلاثين الماضية. فلا الاشتراكيون الروس بأعداد فرقهم واتجاهاتهم الضخمة، ولا النقاد والناشرون الروس قاموا بخطوة ولو واحدة، منذ أن

توقف نشاط تشيرنيشيفسكي الأدبي. إنك لواجد في مقالاته الأفكار والآراء التي كان انتشارها سبباً لشهرة الكتاب التقدميين في الفترة التالية. إن هؤلاء الكتاب لم يقوموا بأي تعديل على آراء تشيرنيشيفسكي، وليس في مقدورهم فعل ذلك، لأن كل النقائص في النظرة العالميـة لتشيرنيشيفسكي تسم أيضاً نظرتهم العالمية إلى درجة بعيدة جداً[٣٩]. والجانب الضعيف في آراء تشيرنيشيفسكي تفسره حقيقة أنه كان غير مطلع على الاتجاه الأخير في الفكر الفلسفي لأوروبا الغربية، لتعاليم ماركس وانجلز. ولكن هل حذق الأدباء البارزون في الحقبة التالية تلك التعاليم؟ لقد طفقوا يتحدثون عن عدم امكانية تطبيق النظريات الأوروبية الغربية على بلادنا، وعن «الطريقة الذاتية» في علم الاجتماع، وعن خصوصية الحياة الاقتصادية، وعن أخطاء الغرب - باختصار كانوا تقريباً محامين واعين وغيورين على تعاليم النارودنيك التي بدت لتشيرنيشيفسكي صوفية عتيقـة* وحالما ينحرف الممثلون القادة للفكر الروسي عن النارودنيك، فانهم لا يفكرون حتى بانتقاد تشيرنيشيفسكي انتقاداً جدياً. على العكس انهم غالباً ما يدافعون بغيرة قوية بالضبط عن آرائه التي تجلت فيها أخطاؤه وتكشف تخلفه فيما يتعلق بالعلم الأوروبي الغربي. الا كم هو بارز مصير الناس الموهوبين اللامعين، أو حتى البسطاء الذين كان لهم تأثير كبير في الحركة الثقافية لبلادهم! إن أنصارهم والمعجبين بهم غالباً ما يتمثلون أخطاءهم وأوهامهم وبعدها يدافعون عنهم بكل الحماسة التي يثيرها الاسم الكبير. إن تاريخ الحركة الثقافية للبشرية موفور الأمثلة لولع الطلاب بأخطاء معلميهم، وهذا ما يبدو غريباً للوهلة الأولى. فما الذي تمثله الجناح اليميني من المدرسة الهيغيلية؟ لقد تمثل أخطاء الفيلسوف الرائع وتناقضاته. ما الذي كرره الوضعيون بالحاح خاص؟ الجزء المدرسي من تعاليم أوغست كونت (وليسامحنا القراء على هذه المقارنة الآثمة بين كونت وهيغل). ما الذي حال دون انضمام اللاساليين إلى زمرة

---

* يصف أرستوف في كتابه عن شابوف كيف استفاد تشيرنيشيفسكي من كتب شابوف، وبحث في معرفته له، وكان بينهما نقاش طويل في لقاء تم في منزل صديق مشترك. ويبين هذا النقاش لتشيرنيشيفسكي ان شابوف لا يستطيع أن يساهم في السوفريمينيك وهكذا كانت أفكارهما متباينة جداً ولكن ماذا كان موقف أولئك الدين يعتبرون أنفسهم انصار تشيرنيشيفسكي المتحمسين من شابوف؟ لقد كانت آراء شابوف في التاريخ الروسي جزءاً متكاملاً من تعاليم النارودنيك، وبينما «يجل» نارودنيكيونا تشيرنيشيفسكي، لم يزعجوا أنفسهم ويطرحوا على أنفسهم ما إذا كان ثمة تناقض بين آرائه ومحاولة شابوف في النظرة إلى الحياة الشعبية القديمة نظرة مثالية.

ليبكنخت- بيبل؟ ولعهم بأخطاء لاسال السياسية وطوباوياته الاقتصادية. لا شك أن أصحاب نرعة الغموض جدفوا على العقل البشري، عازين إليه التوق الكفاحي الدائم والسخط المستمر على ما هو قائم. والحقيقة أنه تحول إلى أن يكون أشد كسلاً من جميع المحافظين.

ولكن لنعد الى مؤلفنا. فبعد أن عرفنا السمة العامة لأفكاره، ومزايا ونقائص مسيره الشخصي لـ «الأفكار النبيلة للحقيقة والعلم والفن»، نستطيع الآن بسهولة أن نشكل صورة عن نشاطه الادبي*

لقد سبق وقلنا أن تشيرنيشيفسكي، بينما يحضر أطروحته عن «العلاقة الجمالية بين الفن والواقع» اشتغل في الترجمة والتأليف الأدبي، وبصورة رئيسية في **أوتيشستفيني زابسكي**. إن ظهور أطروحته مطبوعة لفتت انتباه هيئة تحرير **السوفريمينيك** التي كان يحررها نكراسوف وباناييف منذ ١٨٤٧ لقد أسند منصب دائم لتشيرنيشيفسكي في الصحيفة، بل أسند إليه قسم النقد بكامله. وفي ١٨٥٩، عندما سمح للصحيفة أن تكتب في السياسة استلم تشيرنيشيفسكي القسم السياسيّ إن الفضل الكبير يرجع الى نكراسوف وبانابيف ذلك أنهما لم يتجنبا الناس الذين تابعوا قضيته، كما فعل العديد من «أصدقاء بيلنسكي». من البديهي أن هيئة التحرير لم تتح لها الفرصة حتى تندم على تعاونها مع تشيرنيشيفسكي. في عدد كانون الأول ١٨٥٥ من صحيفة **السوفريمينيك** ظهرت المقالة الأولى من السلسلة التي أشرنا إليها تكراراً **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي**، وتعتبر من أفضل مؤلفات تشيرنيشيفسكي، ولا تزال أعظم مرجع لكل من يريد الاطلاع على انتقاد مرحلة غوغول. والمقالة الثانية في هذه السلسلة الرائعة من المقالات نشرت في عدد كانون الثاني، ونشرت الثالثة في عدد شباط، والرابعة في عدد نيسان من **السوفريمينيك** من السنة التالية. في هذه المقالات الأربع تقدير للنشاط الأدبي لبوليفوي وسنكوفسكي وشفيريوف ونادزدين. في عدد تموز تحول المؤلف الى بيلنسكي الذي خصصت له المقالات الخمس الباقية. في تلك المقالات أشير الى اسم بيلنسكي لأول مرة منذ ١٨٤٨[٤٠]، عندما بدأ بيلنسكي يعتبر كاتباً محظوراً ويمكن القول بكل تأكيد وبدون مبالغة أنه بظهور **المقالات** أصبح لبيلنسكي وريث

* [انظر فيما بعد الملحق لهذا المقطع في الطبعة الألمانية].

جدير ومنذ اللحظة التي ظهر تشيرنيشيفسكي ناقداً ومحرراً في **السوفريمينيك**، حققت هذه الصحيفة مرة أخرى مكانة عليا بين الدوريات الروسية كانت قد وصلتها أثناء حياة بيلنسكي لقد حظيت الصحيفة باهتمام واحترام من قبل القطاع التقدمي لجمهور القراء، إذ من الطبيعي أن يتجه إليها كل موهوب أدبي متفتح وهكذا في أواسط ١٨٥٦ بدأ الفتى دوبروليوبوف يكتب إليها ومن الصعب على أناس هذه الأيام أن يتخيلوا الآن مدى أهمية الصحافة في روسيا عندئذٍ إن للرأي العام الآن صحافة متضخمة جداً، بينما كانت لا تزال فتية في الأربعينات في أواخر الخمسيات وأوائل الستينات كان عصر التعاون التام بين الرأي العام والصحافة والتأثير الأكبر للصحافة في الرأي العام. في مثل هذه الظروف فقط كان من الممكن أن يظهر الاهتمام الجارف بالنشاط الأدبي، والإيمان العميق بأهمية الدعاية الأدبية التي يجدها المرء لدى جميع كتاب ذلك الوقت البارزين. وباختصار كان العصر الذهبي للصحافة الروسية. إن الحصيلة السيئة لحرب القرم أجبرت الحكومة على بعض التنازلات للفئة المثقفة، وظهر ذلك على الأقل في الإصلاحات الصحفية التي باتت أساسية جداً منذ أمد بعيد وحالما فرضت قضية تحرير الفلاحين نفسها على نظام تلك الأيام، ظهرت قضية أثرت مباشرة على مصالح جميع الطبقات ولا حاجة أن نقول أن نيكولاي غافريلوفتش تصدى برغبة لشرح هذه القضية. ومقالاته الرائعة حول قضية الفلاحين كتبت في ١٨٥٧ و١٨٥٨ ويمكن أن نعرف كمية ما كتبه في هذا الموضوع من حقيقة أن تلك المقالات كونت مجلداً ضخماً من الطباعة الدقيقة في دار نشر أجنبية. إن العلاقات المتبادلة لقوانا الاجتماعية في مرحلة إلغاء القنانة باتت اليوم معروفة جيداً لذلك سوف نشير إليها بشكل عابر، عندما يكون ذلك ضرورياً لتوضيح الدور الذي لعبه في هذه القضية صحفيونا التقدميون، وعلى رأسهم ن.غ.تشيرنيشيفسكي ومن المعروف جيداً أن أولئك الكتاب دافعوا بحماسة عن مصالح الفلاحين. وكتب مؤلفنا مقالة بعد أخرى، مدافعاً عن تحرير الفلاحين مع الأرض وذاهباً إلى أن الحكومة لن تجد صعوبة في تحرير الأراضي المخصصة للفلاحين. وعزز فرضيته ببراهين نظرية عامة وبتقديرات تفصيلية جداً كتب في مقالته «**هل تحرير الأرض عسير؟**»: «في الحقيقة كيف يمكن أن يكون استرداد الأرض عسيراً؟ وأنى للشعب أن يتحمل منها؟ إن ذلك أمر بعيد الاحتمال إنه يسير عكس المفاهيم الأساسية للاقتصاد. يقول الاقتصاد السياسي ببساطة أن كل

الرأسمال المادي الذي يستلمه جيل ما من الأجيال السابقة لا يعتبر كثيراً من حيث القيمة إذا قورن مع كتلة القيم التي ينتجها عمل ذلك الجيل. فمثلاً كل الأرض العائدة للشعب الفرنسي مع كل المساكن وما تحتويه، مع السفن والناقلات، كل المواشي والأموال والثروات الأخرى التي تخص تلك البلاد، بالكاد تساوي مئات الآلاف من ملايين الفرنكات بينما عمل الشعب الفرنسي ينتج خمسة عشر ألف مليون فرانك أو أكثر من القيم سنوياً، أي إن الشعب الفرنسي ينتج في مدة لا تزيد عن سبع سنوات كتلة من القيم تساوي كل فرنسا من القنال إلى البيرينيه. وبالتالي إذا كان على الفرنسيين أن يحرروا كل فرنسا، فإنهم يمكن أن يفعلوا ذلك على مدى حياة جيل واحد، مستخدمين فقط خمس مدخولهم لهذا الغرض. ولكن ماذا عن الموضوع في بلادنا؟ هل علينا أن نحرر كل روسيا مع كل ثرواتها؟ لا إنما الأرض فقط وهل كل أرض روسيا؟ كلا فالتحرير يقتصر فقط على أرض مقاطعات روسيا الأوروبية وحدها حيث القنانة متجذرة الخ* وبعد أن يبين أن الأرض الواجب تحريرها لا تشكل أكثر من سدس مساحة روسيا الأوروبية، يضع ثماني خطط لتنفيذ التحرير فإذا وافقت الدولة، حسب اعتقاده، على أي خطة، فإن بالإمكان تحرير الأراضي الموزعة ليس فقط من دون تشكيل عبء على الفلاحين، بل أيضاً لفائدة خزانة الدولة. كانت كل خطط تشيرنيشيفسكي قائمة على فكرة أن «**من الضروري تثبيت أثمان الأرض المعتدلة لتحديد كمية مدفوعات التحرير**». إننا اليوم نعرف تماماً مدى الاهتمام الذي أولته الحكومة لمصالح الفلاحين في إلغاء القنانة، وكم انتبهت إلى نصيحة تشيرنيشيفسكي فيما يتعلق بالتعديل في مدفوعات التحرير الثابتة. إن الحسابات تظهر ان المدفوعات التي ثبتت على أراضي الفلاحين زادت كثيراً من المدخول التي تنتجه الأراضي. وأظهرت أيضاً أن أراضي الفلاحين الذين كانوا عند الإقطاعيين السابقين هي التي تحملت عبء المدفوعات. ولهذا اتضح أن الحكومة في تحريرها الفلاحين، لم تنس ولو لحظة واحدة الفوائد العائدة الى خزينة الدولة، ولم تفكر بمصالح الفلاحين إلا قليلاً. في عمليات التحرير كانت تضع في ذهنها حصراً المصالح المالية ومصالح أصحاب الأرض. وهذا معقول تماماً، لأن المرء لا يفكر في مصالح الطبقة (طبقة

---

* انظر مقالة «هل تحرير الأرض عسير؟» في المجلد الخامس للطبعة الأجنبية من مؤلفات تشير نيشيفسكي

الفلاحين في هذه القضية) التي لا تستطيع أن تدافع عنها بقوة وبشكل منظم. ولكن في الوقت نفسه، عندما كانت الشائعات عن تحرير الفلاحين لا تزال قائمة، فكر معظم الروس التقدميين تفكيراً مختلفاً. وقد انتعشت هذه الآمال منذ وقت طويل على أيدي هرزن. كذلك بعثها تشيرنيشيفسكي. ومن هنا كان الإلحاح الذي أبداه في مقالاته حول مسألة الفلاح، والاجتهاد الذي شرح به للحكومة مصالحها. إلا أن تشيرنيشيفسكي كان أول كاتب روسي فهم الدور الوضيع والمنافق للحكومة الروسية في قضية تحرير الفلاحين. وظهرت من قبل في ١٨٥٨ مقالته «نقد الميول الفلسفية المعادية لحيازة الأرض الكومونية» بمقطع هام من فاوست: «يا للألم، يا للألم، يا للألم». هذه المقالة الرائعة تعتبر عادة أقوى وأنجح دفاع عن حيازة الأرض الكومونية، إلا أننا سنختبرها من وجهة نظر المبدأ الفعلي لتحرير الفلاح مع الأرض. إن المقالة تبين أنه في ١٨٥٨ كان تشيرنيشيفسكي قد قطع كل أمل في حل مقبول تقوم به الحكومة في مسألة أراضي الفلاحين. يقول في بداية المقالة: «إني لجد خجول من نفسي، خجول أن أتذكر التأكيد الذي جاء قبل أوانه، الذي وضعت فيه مسألة الحيازة الكومونية للأرض. هذا الأمر جعلني متهوراً، ولنقل بجرأة جعلني غبياً في نظر نفسي... من الصعب أن أشرح سبب خجلي، إلا أنني سأحاول ذلك قدر المستطاع. فمهما اعتبرت مسألة حيازة الأرض الكومونية هامة، فإنها لا تؤلف سوى جانب واحد فقط للمسألة التي تتعلق بها. وكضمانة أكيدة لسعادة الناس المعنيين، فإن هذا المبدأ يصبح ذا معنى فقط عندما تقوم الضمانات الدنيا الأخرى للرفاهية الضرورية لفسح المجال ليعمل هذا المبدأ الممنوح مسبقاً عمله. شرطان لا بد منهما لهذه الضمانات. أولاً عودة الريع إلى أولئك الناس الذين يساهمون في الحيازة الكومونية للأرض. لكن هذا ليس كافياً. لا بد من أن نشير هنا إلى أن الريع يستحق اسمه بجدارة فقط عندما لا يثقل الشخص الذي يتسلمه بالديون الناجمة من تلقيه هذا الريع... عندما لا يكون المرء محظوظاً إلى درجة أنه يتسلم ريعاً خالصاً من كل الديون، عندئذٍ يفترض، على الأقل أن دفع تلك الديون ليس ضخماً جداً بالمقارنة مع الريع... إذا كان هذا الشرط الثاني فقط مراعى فإن الناس الذين يستفيدون من رفاهيته يرغبون في تسلمه الريع». ولكن هذا الريع لا يمكن أن يراعى في حال تحرر الفلاحين. ولذلك فكر تشيرنيشيفسكي أن من العبث ليس الدفاع فقط عن الحيازة الكومونية للأرض، بل حتى عن تسليم الأرض للفلاحين. إن أي امرىء

لا يزال يضمر شكاً في هذه القضية سوف يقتنع تماماً بالمثال التالي الذي اقتبسه مؤلفنا. يقول مستخدماً طريقته المفضلة في الشرح عن طريق «الأمثال»: «لنفرض أني استفدت في اتباع الخطوات للاحتفاظ بالمؤن من المخزن، التي منها ستعد وجبة غذائك. من الواضح أني إذا فعلت ذلك من غير شعور تجاهك، عندها ستكون حماستي قامت على الافتراض أن المؤن تخصك وأن الوجبة التي هيئت منها مغذية لك. تخيل الآن مشاعري عندما أعلم أن المؤن لا تخصك وأنك سوف تدفع في كل وجبة أعدت منها مبلغاً من المال ليس فقط أكثر مما تستحق الوجبة، بل إنك لا تستطيع الدفع من غير أن ترهق نفسك جداً. ما الأفكار التي تدخل رأسي عندما أواجه هذه المكتشفات؟... كم كنت غبياً حتى أنزعج لقضية شروط جدواها لم تكن مضمونة. من غير الأبله يمكن أن ينزعج حول الاحتفاظ بالملكية في أيد معينة، من غير أن يكون متأكداً أن الملكية سوف تستقر في تلك الأيدي، وبالمعنى المصلحي؟... وبالأحرى فلتتلف كل هذه المؤن، التي تسبب الضرر للشخص الذي أحب. ألا فلتنته كل هذه القضية التي تسبب دمارك*».

إذا كان القارىء غير مقتنع بالمقاطع المقتبسة، ويرغب بفكرة أوضح كيف أصبح تشيرنيشيفسكي مشوشاً بـ «تحرير» الفلاحين، فإننا نوجه انتباهه إلى رواية مقدمة المقدمة التي نشرت في ١٨٧٧ من قبل هيئة تحرير صحيفة فبريود وكتبها تشيرنيشيفسكي، وهي نسبياً أسبق من رواية ما العمل؟[41] وليست رواية فعلاً، بل هي ملاحظات المؤلف فيما يتعلق بمرحلة إلغاء القنانة شخصيات أدبية وسياسية مشهورة في تلك الأيام ظهرت تحت أسماء مستعارة للكونت شابلان وريازنتسيف وسافيلوف وليفتسكي وسوكولوفسكي... الخ[42]. وفوق ذلك تحت اسم فولغن يصور تشيرنيشيفسكي نفسه، وهذا ما يمنح روايته، أو ملاحظاته، فائدة بيوغرافية عظيمة. ومن غير أن نرمي إلى عرض مضامين الرواية، سوف نقتبس فقط محادثات فولغن مع نيفلزين وسوكولوفسكي فيما يتعلق بتحرير الفلاحين. يقول فولغن لسوكولوفسكي: «فلندع قضية تحرير الفلاحين يتسلمها حزب المالكين العقاريين. ليس ثمة فارق كبير»، وحسب ملاحظة هذا الأخير فإن الفارق، على العكس، هائل، طالما يقف حزب

* انظر المجلد الخامس من طبعة جنيف لمؤلفات تشير نيشيفسكي صص ٤٧٢ - ٤٧٨.

المالكين العقاريين ضد منح الأرض للفلاحين، إنه يجيب مؤكداً «لا ليس هائلاً بل تافه. إنه يكون هائلاً إذا استلم الفلاحون الأرض من غير تحرير ثمة فرق بين انتزاع شيء من شخص أو تركه يحتفظ به، ولكن الأمر سيان إذا جعلته يدفع مقابل ذلك. إن خطة حزب المالكين العقاريين تختلف عن خطة التقدميين فقط من حيث هي أبسط وأقصر لذلك إنها أفضل. **وكلما قل التأخير، قل العبء على الفلاحين*** إن هؤلاء الفلاحين الذين يملكون أموالاً سوف يشترون أرضاً وليس ثمة ما يجبر هؤلاء الذين لا يملكون مالاً أن يشتروا أرضاً **إن ذلك سوف يدمرهم فقط**. فالتحرير نفسه مثل الشراء والحقيقة سوف يكون من الأفضل تحريرهم من غير أرض. إن المسألة تطرح بطريقة لا أجد سبباً لأن أثار حتى فيما لو تحرر الفلاحون أم لم يتحرروا مطلقاً، وكل ما بقي من سيحررهم، اللبراليون أم المالكون العقاريون. وعندي أن الأمر سيان. أو ربما كان من الأفضل لو أن المالكين العقاريين فعلوا ذلك** ».

في مكالمة مع نيفلزين فولغن يبرز جانباً مختلفاً في موقفه من صياغة مسألة الفلاحين في ذلك الوقت. أنه يعجب: «يقولون: حرروا الفلاحين! أين القوى لمثل هذا الإجراء؟ ليس ثمة قوى بعد فمن العبث المباشرة بإجراء حيث لا تتوفر القوى التي تقوم به. ما الذي سوف يحدث - أحكم بنفسك ما الذي يحدث عندما تواجه أمراً لا تستطيع عليه. سوف تفسده، وسوف تكون النتيجة كريهة. أيها المحررون الجنتلمان، وكل ريازنستفييكم وجماعته يا لكم من متبجحين ثرثارين أغبياء *** ».

هذه الملاحظات التي أبداها فولغن حول الطبيعة غير الناضجة لمسألة تحرير الفلاحين خاطئة طبعاً لقد كانت القنانة شراً خطيراً، إنها تعوق تطور كل نواحي الحياة الاجتماعية في روسيا في ذلك الوقت إلى هذه الدرجة، ذلك أن إلغاءها لا يمكن

---

* كل إشارات التشديد من قبلنا نحن

** مقدمة المقدمة ص (١٩٩)

*** المرجع السابق ص (١١٠) والواضح من الرواية أن تلك الملاحظات التي وضعها فولغن تنتمي الى الفترة التي ظهرت فيها مقالات تشير نيشيفسكي عن التحرر الا أن مسألة نشر تلك المقالات يتعذر تفسيرها من سيدافع عن المشاريع التي يعتبرها هو نفسه غير ملائمة نهائياً في تلك الظروف؟ نعتقد أن تشير نيشيفسكي عندما كان يكتب روايته عرا أفكاره الأخيرة حول شروط تحرير الفلاحين الى مرحلة سابقة، من غير أن يلاحظ ذلك.

أن يكون غير ناضج مهما كانت الظروف ولكن حتى نفهم رأي تشيرنيشيفسكي في هذه الناحية لا بد من أن نتذكر أن أحداث ذلك الزمن يمكن أن تكون قد بدت له من منظور مختلف تماماً عما ظهرت لنا في هذه الأيام. ويبدو أن شيئاً من الأمل في انتفاضة فلاحين قد انتعش فيه، وأنه في الوقت نفسه اعتبر أن من الممكن أن يحصل نمو سريع في الحرب المتطرف الذي يقف كلياً إلى جانب الفلاحين[٤٣] وهكذا يمكن أن يبدو التحرير غير ناضج بالنسبة إليه بمعنى أنه يمكن أن يخمد الغليان الفلاحي، وعقدة غورديان لسلطة المالكين العقاريين لا يمكن عندها لفأس الفلاحين أن تقطعها، ومن جهة أخرى، فإن الحزب الديمقراطي المتطرف لم يمتلك القوة للضغط الجدي على الحكومة. إن اكتساب الحرب قوة كافية لهذا يمكن أن يبدو له قضية سنوات قليلة فقط، وقد يكون اعتبر تأخير التحرير مفيداً بالنظر إلى أهمية النتائج التي يعد بها هذا التأخير ثمة بعض البوارق في مقالاته تظهر أنه اعتبر الحركة الثورية في روسيا ممكنة تماماً في تلك الأيام، بوارق سوف نلفت إليها انتباه القراء فيما بعد، طالما أنها تفسر إلى درجة بعيدة اتجاه نشاطه الأدبي اللاحق.

إن نارودنيكيينا الآن يجعلون الطبقة الفلاحية الروسية مثالية بشكل فظيع ويكتشفون فيها بسهولة عجيبة كل الصفات والطموحات التي يرغبون هم أنفسهم أن يروها ولذلك فإننا إذ لا نشبه تشيرنيشيفسكي ولو للحظة بهم، فإننا نسرع ونضيف أنه على الرغم من إيمانه بإمكانية الثورة الفلاحية، كان في الحقيقة بعيداً عن النظر إلى الشعب نظرة مثالية زائفة. إن روسيا في ذلك اليوم لم تظهر له جذابة من الناحية العملية. وقد ابتعد في التعبير بحدة عن موقفه السلبي تجاه أبناء جلدته. يقول فولغن، الذي تحت اسمه كما قلنا صور تشيرنيشيفسكي نفسه في مقدمة المقدمة: «يا للوطن البائس، يا للوطن البائس، وطن من عبيد ولا شيء غير العبيد من القمة إلى القاع* وحتى في اللحظات الهادئة جداً لم يتخل عنه فهمه للتخلف المرعب وللطبيعة المنهارة للفلاحين الروس. وقد كان في هذا الخصوص الوريث المباشر لآراء بيلنسكي، الذي اعتاد في أواخر حياته أن يقول إن المناقشة مع أنصار السلافية دفعته إلى «رفض الإيمان الصوفي بالشعب»** وحتى نكون أكثر إقناعاً سوف نشير إلى مقالة

* ص ٢٠٩

** بيبين: بيلنسكي، حياته ومراسلاته. بطرسبرج ١٨٧٦ المجلد الثاني صص ٣٢٤ - ٣٢٥

تشيرنيشيفسكي التعليمية الرائعة «هل هذا بداية تغير؟» في عدد كانون الثاني من السوفريمينيك عام ١٨٦١ لقد كتبت الرسالة بمناسبة نشر مجلد من قصص أوسبنسكي. وفيها ينتقد المؤلف «الحافز الشديد لتزيين وزخرفة العادات والمفاهيم الشعبية». ففي اعتقاده أن القصص التي تعالج حياة الشعب والتي كتبها تورجنيف وغريغوروفيتش أظهرت مثل هذا الحافز. إنه يقارن موقف هذين الكاتبين من الشعب بموقف غوغول من أكاكي اكاكيفيتش(٤٤). إن غوغول لم يشر إلى عيوب بطله، لأنه يعتبر هذه العيوب مستعصية على العلاج. «كان أكاكي أكاكيفيتش غبياً. ولكن تقديم الحقيقة الكاملة عن أكاكي أكاكيفيتش لا معنى له، ومخجل... إنه لا يستطيع شيئاً لنفسه، فلنتجه إلى الآخرين نيابة عنه... فلنلزم الصمت عن عيوبه». إن تورغنيف وغريغوروفيتش وجميع مقلديهما اتخذوا الموقف نفسه من الشعب. وقد أخفيت كل «عيوب الشعب وطليت ولمّعت، والإشارة الوحيدة التي شدد عليها هي أن الشعب بائس، بائس*». إن الميزة الرئيسية لأوسبنسكي، في نظر المؤلف، كانت الغياب الكلي لمثل هذا الموقف تجاه الشعب. يلاحظ تشيرنيشيفسكي أن أوسبنسكي «قدم الرجل الروسي العادي على أنه أخرق» يجد من «الصعب أن يضع في رأسه فكرتين في وقت واحد». ولكن لا يمكن أن يكون خلاف ذلك. وليس الفلاحون الروس، بل أيضاً الفلاحون في أوروبا الغربية أظهروا تخلفاً شديداً من التطور. أما بالنسبة إلى صفة «الأخرق» فإنه «مستعد أن يثبت أن أفراد جميع الطبقات خرقاء». إن معظم الناس في كل الطبقات وكل الأقطار يعيشون برتابة ويبدون فطنة بطيئة جداً حالما يتركون دائرة أفكارهم المعتادة. وحتى يقدم لنا الأدب صوراً عن حياة الناس الواقعيين حقاً، عليه ألا يتجاهل النواحي السلبية للشخصية الشعبية. وفي قصص أوسينسكي - التي غالباً ما تصل حد الكاريكاتور - رأى تشيرنيشيفسكي «بداية تغير» في موقف الأدب من الشعب، وحيّا في مؤلف هذه القصص ظهور قطاع جديد من الروس المثقفين الذين كانوا قادرين على التعامل والحديث مع الفلاحين ليس كأسياد بل كأنداد. إنه يرجو شيئاً عظيماً من ظهور هذا القطاع.

إن النظرة إلى الفلاحين كطبقة من «الخرقاء» تبدو أنها لا تدع أي إمكانية

---

* انظر العدد المشار اليه سابقاً في قسم الأدب الروسي ص ٨٣.

لحركة ثورية في الشعب الروسي. إلا أن تشيرنيشيفسكي يدين ذلك. إنه لا يعلن مطلقاً أن الفلاحين غير متطورين نهائياً أو أنهم، ببساطة، أغبياء «لا تكن متسرعاً في استخلاص النتائج من اعتبار آمالك حقيقية أو غير حقيقية، إذا رغبت في التخفيف من حظ الشعب». هكذا يقول في نهاية المقالة. ويتابع «...خذ العامي... الشخص الضحل: فعلى الرغم من الحياة القذرة التي يعيشها، فإنها تتضمن لحظات من الظل مختلفة كلياً، لحظات من المجهودات الحيوية، من القرارات الجريئة. والأمر نفسه يواجهنا في تاريخ كل أمة».

وعلى لحظة من هذه القرارات الجريئة علق تشيرنيشيفسكي آماله. لقد ظن أن هذه اللحظة لم تكن بعيدة، وأن معظم الناس في ذلك الوقت اعتقدوا الشيء نفسه. إن الجمعيات الثورية السرية، التي انتشرت في بداية الستينات أقيمت على أساس هذا الاعتقاد[٤٥]. وقد أيده من جهة غليان الفلاحين المتحررين، الذين كانوا ينتظرون «الحرية الحقيقية» ومن جهة أخرى الحالة القائمة في الغرب. إن الأحداث في إيطاليا وحرب أميركا الشمالية[٤٦]، والتخمر السياسي الضخم في النمسا وبروسيا - كل هذا يمكن أن يقدم المبررات للاعتقاد أن الرجعية التي حكمت منذ ١٨٤٩ سوف تندحر بالتدريج على يد حركة التحرر الجديدة. وكان من المبرر أن يأمل أن الأحداث في أوروبا سوف تؤثر في روسيا أيضاً. والإيمان سرعان ما يدخل بسرعة في ذلك الذي يريد أن يؤمن. إن تشيرنشيفسكي وأولئك الذين شاركوه أفكاره لم يتأكدوا بعد أن الحركات السياسية للغرب يمكن أن تخدم كدوافع مفيدة للتطور الداخلي في روسيا بشرط أساسي واحد فقط هو: إذا كانت العلاقات الداخلية، وقبل كل شيء العلاقات الاقتصادية تحمل ولو مشابهة بسيطة للعلاقات في الغرب. واليوم توجد المشابهة ويمكن أن يدعي المرء أنها تتزايد في كل ساعة. ولكن في بداية الستينات كانت بعيدة جداً. لذلك فإن حركات التحرر في الغرب كانت أميل إلى دعم الجمود الروسي أكثر من دعم التقدم الروسي في ذلك الوقت. في بداية الستينات كانت روسيا لا تزال تحاول أيضاً أن تلعب دور الشرطي في أوروبا، وقد نفذته بشكل رائع في ١٨٤٨-١٨٤٩

(٧)

إذا كان مؤلفنا، مع حبه الجارف للشعب، قادراً على إلقاء نظرة على عيوبه، فإن

المرء يمكن أن يتخيل كيف نظر إلى النبلاء والحرب اللبرالي، الذي كان بارزاً جداً في تلك الأيام. هنا كان شديداً تماماً لقد اقتبسا من قبل ملاحظة فولغن حول ريازانتسيف اللبرالي ومجموعته. وهناك الكثير من هذه الملاحظات في **مقدمة المقدمة**. ولم يتوان تشيرنيشيفسكي من أن يسخر من الليبراليين الروس في مقالاته ويكتب في مقالاته أنه لا هو ولا كل الحزب المتطرف يملك شيئاً مشتركاً معهم. الجبن وقصر الرؤيا والذهنية المحدودة والخمول والتشدق - تلك هي السمات المميزة التي رآها في اللبراليين في ذلك الوقت مثل هذا الوصف قدمه كلمة كلمة في مقالة «الروسي على موعد التي نشرت في الأثينيوم في ١٨٥٨ لقد كتبت فيما يتعلق بقصة تورغنيف آسيا، ولكن منذ ظهرت آسيا في السوفريميبك لم يجد تشيرنيشيفسكي مبرراً للكتابة عنها في صحيفته. وما قيل عن القصة في المقالة قليل جداً، أو بالأحرى لا شيء يذكر إن المؤلف يلفت النظر فقط إلى المشهد الذي فيه يعلن بطل القصة حبه لآسيا، وفيما يتعلق بهذا المشهد فإنه يغرق نفسه في «تأملات». وبالطبع سوف يتذكر القارىء أن بطل تورغنيف انقلب في اللحظة الحرجة إلى جبان ونكث وعده. وهذا الظرف بالذات جعل تشيرنيشيفسكي «يتأمل». إنه يلاحظ أن الجبن والتردد هما السمتان المميزتان ليس لهذا البطل، بل لمعظم أبطال كتبنا الأدبية الكبرى. إنه يتذكر رودين وبلتوف ومعلم ساشانكراسوف[٤٧]، ويرى السمتين ذاتهما في كل منهم. إنه لا يلوم مؤلفي الروايات في هذا المجال طالما أنهم لم يكونوا غير مسجلين لما يواجهونه في كل منعطف في الحياة الواقعية. ليس ثمة رجولة في الشعب الروسي، ولذلك لا رجولة في شخصيات الروايات. ولا يملك الشعب الروسي رجولة لأنه لم يألف المشاركة في الحياة العامة. «عندما ننخرط في المجتمع نرى حولنا أناساً في لباس الصباح أو المساء الموحد، وقد يبلغ طول هؤلاء الناس خمسة ونصف أو ستة أقدام، وأحياناً أطول؛إنهم يكبرون ويحلقون الشعر عن وجناتهم، وفوق شفتهم العليا وعن ذقونهم، ويتراءى لنا أننا ننظر إلى رجال. إن هذا خطأ كبير، ووهم بصري، وهلوسة ولا شيء غير ذلك. ومن غير أن تكون لدينا عادة المشاركة المستقلة في الحياة المدنية، من غير أن تكون لدينا مشاعر المواطن ينمو الطفل الذكر ويصبح متوسط العمر، وعندئذٍ يتكون الجنس المذكر، إلا أنه لا يصبح رجلاً، أو بالأحرى لا يصبح رجلاً ذا شخصية نبيلة». وبين الناس المتطورين والمثقفين واللبراليين لا تزال الرجولة النبيلة مفقودة أكثر بكثير من الناس

الجاهلين، لأن الرجل المتطور واللبرالي يحب أن يتحدث عن الأمور الهامة إنه يتحدث بحماسة وفصاحة، ولكن إلى حد أن تنتقل القضية من الأقوال إلى الأعمال «وهكذا طالما لم تكن هناك مسألة عمل، بل فقط الحاجة إلى ملء ساعات الفراغ، ملء الذهن الفارغ، ملء القلب الفارغ، بالحديث والأحلام، فإن البطل ذرب اللسان، ولكن حالما تصبح القضية قضية التعبير عن مشاعره بدقة وبساطة، فإن معظم أبطالنا سرعان ما يأخذون يترددون ويسعرون بعقلة في لسانهم. وقلة منهم، الأكثر شجاعة، يجدون قواهم ويتلعثمون بشيء ما لا يقدم سوى فكرة غامضة عما يفكرون ولكن فقط حاول أن تأخذ رغائبهم في المحك العملي وقل لهم: «أنتم تريدون كذا وكذا إننا مسرورون ابدؤوا بعمل شيء ما وسوف تلقون تأييدنا إذا تقدمت بهذه الملاحظة فإن النصف الأول للأبطال الشجعان سوف يتخاذلون، ويبدأ النصف الآخر بلومك بفجاجة لأنك وضعتهم في موقف حرج، فيقولون إنهم لا يتوقعون مثل هذه الاقتراحات منك، وإنهم لا حول لهم، ولا يستطيعون التفكير لأن من المستحيل أن تفعل ذلك في ملاحظة عابرة وأنهم، فوق ذلك، قوم شرفاء، وليس شرفاء فقط، بل أيضاً لطفاء، ولا يريدون أن يسببوا لك أي إزعاج، وأن من المستحيل بشكل عام أن يرعج المرء نفسه حول كل ما قيل وهو لا يملك حيلة، وأن من الأفضل ألا يحشر المرء نفسه في كل شيء، لأن كل شيء يتضمن إزعاجاً وسخطاً، وليس من الممكن أن يأتي الخير حالياً، إذ كما قلنا سابقاً، لن ينتظروه لحظة، ولن يشاركوا فيه. وهكذا وهلمجرا

والحقيقة لم نقرأ أبداً مثل هذا الوصف المرير، والدقيق في الوقت نفسه، للبرالية الروسية ماذا سيقول تشيرنيشيفسكي لبعض الناس اليوم الذين، في حين يدعون الثورية، يعلقون آمالهم على «الجمعية اللبرالية ويبحثون بأي وسيلة لقلب حزبنا الثوري إلى حرب لبراليين محترمين ومعتدلين؟ لأن اللبراليين الروس تغيروا قليلاً منذ أمطرتهم **السوفريمينيك** شآبيب السخرية.

وحتى يكون المرء منصفاً لا بد أن يضيف أن مؤلفنا لم يكن يحتقر اللبراليين الروس وحدهم. ففي المراجعات السياسية الرائعة التي كتبها **للسوفريمينيك** حتى نهاية حياته، أظهر مؤلفنا احتقاراً شديداً لكل اللبراليين الأوروبيين بسكل عام. وبشكل خاص للبراليين النمسويين (أي الحرب اللبرالي للألمان النمسويين) وللبراليين البروسيين والإيطاليين. وفي مقالاته عن تاريخ فرنسا، كما هو معروف، لم يظهر أي احترام

للحزب اللبرالي أيضاً إن كل هذا لا يرضي طبعاً اللبرالية الروسية، وفي صراع اللبراليين معه عمدوا الى المكر الذي غالباً ما يلجأ إليه لبراليو جميع الأقطار في حملاتهم على أولئك الذين تقدموا عليهم كثيراً في السياسة: فقد اتهموه بكراهيته للحرية وحتى بتعاطفه مع الاستبداد. وطبيعي أن مثل هذه الاتهامات من قبل اللبراليين لم تكن إلا مثار ضحك تشيرنيشيفسكي وما كان ليخاف منهم إلا ليثيرهم نحو المزيد من الاتهامات الجديدة، محتجاً أنه على علم بتلك الاتهامات تماماً يقول في إحدى مراجعاته السياسية الأخيرة: « بالنسبة إلينا لا شيء يثير ضحكنا أكثر من النزعة اللبرالية، ولدينا رغبة لا تقاوم تدفعنا إلى البحث عن اللبراليين للهزء بهم »* ويشرع يسخر من اللبراليين البروسيين، الذين، كما لاحظ حقاً، كانوا منزعجين من أن الحرية السياسة في بروسيا « لا توطد نفسها »**

بيد أن مثل هذه « السخرية » لم تمنع القارىء من التحقق أن موقف تشيرنيشيفسكي الازدرائي تجاه اللبرالية لم يكن سببه قلة حبه للحرية. فيكفي أن نقرأ فقط بعضاً من مراجعاته السياسية لنرى كيف تعاطف بشدة مع الحركات التحررية من غير أن يأبه أين بدأت: في فرانسا أو إيطاليا أو أميركا أو هنغاريا لقد اعتقد فقط أن دور الليبراليين في هذه الحركات كان في الأغلب دوراً تافهاً للغاية فهم أنفسهم لا يفعلون سوى القليل، وغالباً ما يعرقلون جهود الآخرين، ويهاجمون الناس الذين أجرأ منهم وأصلب. وأخيراً عندما يكون النضال، بفضل هؤلاء الحازمين، قد وصل إلى نهايته وبات النصر مؤكداً، يشق اللبراليون طريقهم إلى المقدمة ويتمتعون بالكستناء التي أخرجتها من النار أيدي « المتعصبين ». من لا يعرف أن اللبراليين يتخذون هذا المسلك في كل مكان؟ من لا يعرف أن هؤلاء الناس هم المستغلون في السياسة كما هم مستغلون في ميدان الاقتصاد، حيث ينتمون إلى طبقة رجال الأعمال والمتعهدين؟ وبسبب هذه الميول الاستغلالية كرههم تشيرنيشيفسكي ويظهر كراهيته للمستغلين هذه من خلال أي صفحة من صفحات مراجعاته السياسية. ونحن نأسف من قبلنا لا لأن تشيرنيشيفسكي عبر عن نفسه بوضوح ودقة، بل نأسف لأن أحداً بعده من مراجعينا

---

* السوفريمينيك ١٨٦٢ آذار. السياسة ص ١٨٨

** السوفريمنييك ١٨٦٢ نيسان. السياسة ص ٣٥٧

السياسيين لم يعبر عن نفسه بمثل وضوحه ودقته. لقد أصبحت المفاهيم السياسية لصحفيينا التقدميين شديدة الاضطراب والضحالة، بشكل مخيف في الخمس والعشرين سنة الماضية. وهذا هو سبب عدم وجود مراجعات سياسية رائعة مثل التي كتبها تشيرنيشيفسكي في السوفريمينيك في أي من صحف روسيا إننا نشعر بفكره الوثاب ورأيه الراجح بقوة خاصة في تلك المراجعات. ففيها لم ينحرف عن أطروحته «مجرى التاريخ تحدده العلاقات الفعلية للقوى»* وانطلاقاً من هذا، يقدم تحليلاً دقيقاً للدوافع الداخلية للحياة السياسية في الأقطار المتحضرة لزمنه. فقط انتقاد واحد يمكن أن يوجه إلى مراجعات تشيرنيشيفسكي. بالطبع كان أحياناً يخطىء في هذا التنبؤ السياسي أو ذاك: وهكذا مثلاً لم يعتقد أن الحرب الأهلية في أميركا الشمالية يمكن أن تستمر طويلاً، فكتب في بداية ١٨٦٢ أن المرء يمكن أن يعتبر أن هذه الحرب وكأنها انتهت مسبقاً بانتصار كلي للشمال. ولكن من لا يخطىء في مثل هذا النوع من التنبؤات؟ ولكنه بشكل عام قدم نظرة سياسية كبيرة وقيم العلاقات بين مختلف الدول والأحزاب السياسية بدقة بارعة. إلا أن الشيء الوحيد الذي لم يتنبأ به ويعلنه هو الدور السياسي البارز الذي ستأخذه، على عاتقها الطبقة العاملة في البلدان المتقدمة في المستقبل القريب (من زمن تأسيس جمعية العمال العالمية في ١٨٦٤). هذا الثوري من حيث المبدأ، الذي رأى أن كل قطر في العلاقات الداخلية كما في العلاقة بين الدول، لا يمكن حل النزاع الكبير إلا بالحرب** في التحليل الأخير، لم يكن قد رأى بعد الدرجة التي وصلتها القوى الثورية في المجتمعات المتقدمة، والتي انخرطت في الطبقة العاملة وحدها. كان لا يزال أيضاً ميالاً إلى تعليق الآمال الكبيرة على «الناس العظام» من طبقات المجتمع الأخرى. هنا كان غموض فكرته عن البروليتاريا باعتبارها «أناساً عاديين» قد شل بصيرته المعهودة.

ونلاحظ أننا في مناقشة موقف مؤلفنا من اللبرالية واللبراليين قد استطردنا استطراداً كبيراً لقد جعلنا هذا الموضوع الهام ننسى تتابع العرض. فلنسع إلى تصحيح غلطتنا.

---

* ربما يذكر القارىء أن لا سال في خطابه عن جوهر الدستور يتحدث تقريباً بالكلمات ذاتها علاقات القوى كأساس أولي للتنظيم السياسي في أي قطر

** السوفريمنيك ١٨٦٢ نيسان، السياسة، ص ٣٦٤

أولا وقبل كل شيء، إذا أردنا أن نكون منصفين، نقول إن جبن اللبراليين الروس كان مدهشاً جداً فقط بسبب ولعهم بالحديث المرتفع. والواقع أن «حزب المالكين العقاريين» الرجعي لم يظهر شجاعة أكبر ولم يكن لتشيرنيشيفسكي علاقات مباشرة مع «ارستقراطيينا». «إنه لا ينتمي حتى الى الصفوف الدنيا من النبلاء ناهيك عن الصفوف العليا ولكن أي مدينة، صغيرة أم كبيرة لم تقرع أجراس المجد لأعمالهم المجيدة؟ إنه يعرف منذ طفولته أنهم قوم متعجرفون عنيفون»* في عصر تحرير الفلاحين كان الشيء الأهم هو ذاك الذي ينظر إليه هؤلاء الناس على أنه يمثل مصالحهم فقط. إنهم يحتجون بصخب صارخين: «لن نسمح به، لن نسمح به - اننا لا نريده» وهم لا يجرؤون دعهم يجرؤوا وسوف نرى ماذا يعني اغضاب النبالة الروسية، ولم ترفع الحكومة بسرعة صوتها، أكثر مما وضعوا ذيولهم بين سيقانهم - لقد صمتوا «كأنما أصيبوا بالشلل» وقد وجد تشيرنيشيفسكى «باعتباره ديمقراطياً» أن من المفرح أن يرى مثل هذا التغير. إنه لا يكنّ حباً للنبلاء، ولكن ثمة لحظات لم يشعر فيها بالعداء نحوها. وأنى للمرء أن يكره العبيد البائسين؟**

(٨)

هكذا كان موقف تشيرنيشيفسكي من مختلف الطبقات والأحزاب الروسية في أيامه. وكلما أوغل في هذا الموقف السلبي، احتدت لهجته في مقالاته، وازدادت سخريته، وألقى نفسه في غمار المجادلات. وقد كان، بشكل عام، معجباً بالجدال. وحسب كلامه حتى أصدقاؤه أنفسهم لاحظوا ذلك: «في رأيهم أنه وصل حتى الحب المفرط في شرح المسائل المتناقضة عن طريق الجدل الانفعالي»*** وقد بدت له المجادلات دائماً

---

* هكذا يتحدث تشير نيشيفسكي عن فولغن في مقدمة المقدمة

** مقدمة المقدمة صص ٢٠٨ - ٢٠٩

*** المجلد الخامس من المؤلفات ص ٤٧٢ .وفي مقالات حول مرحلة غوغول يدافع عن نادزدين، سلف بيلنسكي، ضد منتقديه لانجرافه في مجالات حادة. «لماذا استخدم نادومكو (الاسم المستعار لنادزدين) مثل هذه اللهجة الحادة؟ أما كان في مقدوره أن يقول ما قال بصورة لطيفة؟ أنها واضحة تماماً مفهوماتنا الأدبية وكل المفهومات الأخرى عن الموضوع إن السؤال المطروح باستمرار هو لماذا يحرث المزارع حقله بمحراث حديدي أو بشفرة حادة! وكيف لآخر أن يفلح في تربة غنية لكنها عسيرة على الفلاحة؟ لا شك ليس من الصعب أن نفهم أنه ليس من مسألة هامة تتقرر من غير حرب، والحرب تدار بالسيف والنار، وليس بالكلمات الجدلية المناسبة =

مقنعة تماماً، بل حتى انها أداة أساسية لتوليد أفكار جديدة في المجتمع على أي حال في بداية نشاطه الأدبي يبدو أنه تجنب المجادلات **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي** كتبت في هدوء ولهجة تصالحية فقط فيا يتعلق بسيفيروف، الناقد الموسكوفي المعروف في أيام بيلنسكي، يكتب بلهجة ساخرة لاذعة، ويكتب أيضاً عن سكوفسكي (بارون برامبوس) بلهجة احتقار واصفاً اياه أنه رجل يفق قواه الضخمة بالتهريج الأدبي التافه. ويتحدث في القسم الأعظم من مقالاته عن بقية الكتاب في مرحلة غوغول بالاطراء حتى في النشاط الأدبي لبوغودين الذي سخرت منه حلقة بيلنسكي كثيراً والذي سماه شدرين فيا بعد عالم الآثار المتكلم من جوفه - حتى نشاط بوغودين يجده مفيداً وذا سمات جديرة ويتحدث عن أنصار السلافية باحترام صادق فعلى الرغم من أوهامهم الواضحة يعتبرهم أصدقاء «التنوير ويتعاطف بحرارة مع موقفهم تجاه كوميون الأرض الروسية**

ولكن منذ زمن النزاعات حول الحيازة الجماعية للأرض اضطر إلى التخلي عن هدوئه ولهجته الأنيسة ويستخدم كامل موهبته الجدلية إن المثلين المعروفين للاقتصاد اللبرالي سيئو الحظ، وعلى الأخص فيرنادسكي، محرر أكونوميخسكي أوكاراتيل[٤٩] وقد خلد تشيرنيشيفسكي هذا ال «م،د (مستشار دولة) و« د،ع،ت،ق،س،ا (دكتور في العلوم التاريخية والاقتصاد السياسي والاحصاء). إن المعلم المجرب حتى يموج الملهاة، وليس فقط حتى يهرب من الميدان، طفق يؤكد احترامه لتشيريشيفسكي الذي سمح لنفسه، في بداية النزاع، بحرية معاملته كجاهل وقح ولا بد من الاعتراف أن

فقط عندما يكون الصراع بالسلاح قد حقق أغراضه؟ فليس من الحق أن نهاجم المجرد من السلاح والذي لا يستطيع الدفاع عن نفسه، المسن والعاجز، لكن الشعراء ورجال الأدب الذين كتب عنهم نادردين لم يكونوا هكذا » (**السوفريمينيك** بيسان، النقد صص ٤١ - ٤٢)

★ «مفهوم سيادة Mir، الكوميون، على الفرد في روسيا القديمة هو من أهم معتقدات أنصار السلافية هكذا يقول في المقالة الثالثة وهذه التعاليم حول علاقة الفرد بالمجمع تؤلف في رأيه القسم الصحي للنظام الصحي ويستحق كل احترام لانصافه» (انظر **السوفريمنيك** ١٨٥٦ شباط، النقد ص ٨٠) وحول هذه التعاليم عن الكوموبه دافع أحياناً عن روسكايا بيزيدا[٤٨] ذات النزعة السلافية ضد هجمات المجلات الدورية الأخرى (انظر **ملاحظات تشير نيشيفسكي على الصحف**، آذار ١٨٥٧، وأعيد طبعها في المجلد الخامس للطبعة الأجنبية من مؤلفاته).

من الصعب الدفاع عن أي قضية بالمهارة التي دافع فيها تشيرنيشيفسكي عن الكوميون. لقد قال في صالحها ما يجب أن يقال تماماً، وقد خرج منصراً من النزاع، حتى ولو كان خصومه أقوى مما هم عليه عدة مرات وإذا كانت «الانتلجنسيا ملترمة حقاً بالكوميون حتى اليوم، فالفضل في ذلك يرجع إلى تأثير تشيرنيشيفسكي الذي لا يمحى*

لقد رأينا من قبل أن مؤلفنا توقف سريعاً عن أن يولي اهتماماً بتسليم الأرض للفلاحين. ففي رسائل بلا عنوان يقول بصراحة أن الفلاحين الذين تحرروا مع الأرض صاروا في حالة اقتصادية أسوأ بكثير مما لو كانوا اقناناً يعتمدون على المالكين العقاريين. ولذلك نحجم كلياً عن تفحص براهينه المؤيدة للكوميون. ولكن بما أن أهمية عملية كبرى عريت لها في روسيا حتى هذا اليوم، فاننا نشعر بضرورة تقديم تقييم مختصر لها يكشف تشيرنيشيفسكي في دفاعه عن الحيازة الكوميونية للأرض عن العيب ذاته الذي تتسم به كل كتاباته الاقتصادية. إنه تجريدي جداً إنه يتحدث أساساً ليس عن الكوميون الروسي في وضعه القائم والشروط الممكنة للمزيد من تطويره، بل عن الكوميون an sich**، الذي يوجد في النظرية والذي يلبي فقط بعض مطالب تتعلق بالاعادة الدورية لتقسيم الأرض ولكن لا الكوميون ولا الأشكال الأخرى للحياة الشعبية رأى أن يناقشها في هذا السبيل. ويرد تشيرنيشيفسكي في مقالته «نقد الميول الفلسفية المعادية لحيازة الأرض الكوموية» على خصومه بالرجوع الى مبدأ هيغل الشهير بأن المرحلة الثالثة أو الأخيرة في تطور أي ظاهرة معينة مشابهة في الشكل للأولى. لقد بدأ الناس بالحيازة الكومونية للأرض، وسوف يعودون إليها ثانية في تطورهم الأخير ولا بد من القول إن تشيرنيشيفسكي ذهب بعيداً هنا أكثر من هيغل. يتحدث هيغل عن المشابهة الشكلية للمرحلة الثالثة من التطور للمرحلة الأولى، ولكنه لم يتحدث عن **الوحدة** الكاملة لهاتين المرحلتين. بينما يبدو أن تشيرنيشيفسكي يفترض وحدة كاملة. ويمكن أن يفترض المرء، حسبما يرى هيغل، أن الشعوب، وقد ابتدأت بالملكية **العامة**، سوف ترجع إليها أخيراً، ولكن المرء لا يمكن أن يقول إن الشعوب سوف تعود إلى الأشكال ذاتها للحيازة الكوموية للأرض التي ابتدأت بها تطورها فاذا كان هذا

* [انظر فيما بعد ملحق هذه الصفحة للطبعة الألمانية]

** [في ذاته]

موقعاً، لماذا نقف عند كوميون القرية مع اعادة التقسيم؟ لا بد من الافتراض في مثل هده الحالة أن الشعوب سوف تعود إلى المؤسسات القبلية البدائية، لأن كوميون القرية ذاتها هي ذخيرة وتعديل لاحق لهذه المؤسسات وبكن ليس من المسحب أن يغامر المرء في مثل هذا الافتراض اليوم وبالعودة إلى هيغل أمسك تشيرنيسيفسكي بسمتين هامبين في الفلسفة الهيغلية. الأولى كا تطور عبد هيغل - في المنطق، وفي الطبيعة، وفي العلاقات الاجتماعية - يتخذ مكانه بنفسه، بقوة من داخله، بديالكتيك « متأصل ». وكان على تشيرنيشيفسكي أن يبين أن الكوميون الروسية تملك ذلك المنطق الداخلي من العلاقات، التي تنقلها مع الزمن من الحيازة الكوموية للأرض إلى الحراثة وإلى الاستخدام الجماعي لمنتوجها وكان من مصلحة هذا الشكل من الملكية الجماعية أنه دافع عن الحيازة الكومونية للأرض، فاعتقد أن الكوميون سوف تسهل الإنتقال إليها إلا أن تشيرنيشيفسكي لم يفعل شيئاً من هذا لأنه، وقد علق آماله بشكل رئيسي على إنتشار المعرفة، اهتم قليلاً بالمنطق الداخلي للعلاقات الاجتماعية، تحت تأثير تطور البشرية الجاري. وفوق ذلك نسي تشيرنيشيفسكي الاهتمام الدائم بالواقع الذي يشخصه هيغل، على حد قوله. فلنتذكر كيف شرح أفكار هيغل في مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي: « ليس ثمة حقيقة مجردة، الحقيقة ملموسة، أي حكم محدد يمكن أن يعلن فقط حول واقعة محددة، بعد اختبار كل الظروف المرتبطة بها، فهل الحرب ضارة أم مفيدة؟ هذا لا يمكن أن يجاب عنه على وجه التحديد، فعلى المرء أن يعرف نوع الحرب المعنية، فكل شيء يعتمد على ظرفَيْ الزمان والمكان والكوميون أيضاً يجب أن يُناقش بالطريقة ذاتها بالضبط: هل كوميون الأرض شيء مفيد أم ضار؟ إن المرء لا يستطيع أن يقدم جواباً محدداً عن ذلك: عليه أن يعرف أي نوع من الكوميون يعني، فكل شيء يعتمد على الزمان والمكان، إلا أن تشيرنيشتفسكي لم يناقش بهذه الطريقة. لقد انشغل بالمجردات وهكذا خان روح الفلسفة الفعلية التي اقتبس منها في مقالته الجدلية الرئيسية*

---

* يبدو أن تشير نيشيفسكي ضد المسؤولية الجماعية ونحن نفترض هذا للسبب التالي في الملاحظة البيبلوغرافية عن كراسة غان « حول الطريقة الحالية لحياة البرجوازية الصغيرة في مقاطعة ساراتوف » يقتبس من دون أي تحفظ رأي المؤلف الذي كان يحلل أن المسؤولية الجماعية عائق لرفاهية دافعي الضرائب يقول غان: « من يدفع يفرض عليه أكثر ويبدو أن تشيرنيشيفسكي موافق معه كل الموافقة (انظر =

إن تشيرنيسيفسكي، إذ يعتبر الملكية الخاصة شكلاً وسيطاً في تطور العلاقات الاقتصادية، أكد بشدة حقيقة أن المراحل الوسيطة، حسب رأي هيغل، يمكن في ظروف معينة، أن تكون متقلصة جداً أو حتى أنها لا تظهر اطلاقاً وهذا ما تمسك به النارودنيك، الذين أقاموا براجمهم على فرض أن الرأسمالية - وهي مرحلة وسيطة في تطور البشرية - لن تظهر في روسيا على الاطلاق. وإذا تحدثنا بشكل مجرد فان هذه التقلصات للمراحل الوسيطة ممكن تماماً ولكن الطريق طويل بين إمكانية الظاهرة وواقعيتها وحتى تتحقق هذه الظاهرة أو تلك نظرياً في الحياة الواقعية، لا بد من ظروف ملموسة، أي لا بد من سبب كافٍ. وفي الزمن الذي كان يدفع فيه تشيرنيشيفسكي عن الحيازة الكوموية للأرض، استطاع أن يعتبر السبب الكافي لازاحة « قرحة البروليتاريا » موجوداً في الارادة الطيبة للحكومة التي، على ما يبدو، لن تجد صعوبة في فهم أن مصلحتها الخاصة تعتمد على رفاهية طبقة الفلاحين. بيد أن الحكومة لم تفهم هذا، لذلك لم يكن ثمة سبب كافٍ في روسيا لازالة « قرحة البروليتاريا والمرحلة

= السوفريمينيك ١٨٦١ كان الأول ١٨٦١، الأدب الروسي ص ٦٤) فلندع جانباً البرجوازية، الصغيرة، ونسأل كيف يمكن للدولة الحديثة أن تضمن الدفع الدقيق للضرائب من قبل الفلاحين الكوميونيين من دون مسؤولية جماعية فاذا كانت أراضي الفلاحين ملكاً للكوميون، ولذلك لا تنقل في حالة العجز عن دفع الضرائب من قبل المالكين بشكل افرادي، فان كل الكوميون يجب أن تكون مسؤولة عن عجز دافعي الضرائب وأن تدفع الضرائب في هذا الحالة ليست المسؤولية الجماعية طبيعية وحسب، بل أساسية. ومن جهة أخرى اذا كانت الملكيات العقارية هي ملكية المسكن الفردي وما هو حوله، فلا معنى للمسولبة الجماعية، ولكن المرء عندئذٍ يجب أن يسمح بنقل الملكيات في حالة عجر ساكني البيوت عن دفع الضرائب. والحقيقة أن النظرية توافق على حل ثالث فاذا تحدثنا بشكل مجرد نقول إن المرء يمكن أن يبطل المسؤولية الجماعية، ولكنه في الوقت نفسه يقر أن الأرض ترجع الى الكوميون ولا تنقل مطلقاً ولكن كيف يتم هذا عملياً؟ كيف يمكن أن تتعامل الدولة مع دافعي ضرائب مفلسين؟ أتبيع أملاكهم المنقولة؟ ولكن بيع الأملاك المنقولة يجعلها مستحيلة كلياً، حتى يفلح الفلاح الأرض التي صارت من نصيبه أو ربما أقرت أن المواشي وكل الأدوات البيتية لا تنقل؟ ولكن هل لدى الفلاح الروسي المتوسط المريد من الأشياء للبيع مثل الأملاك المنقولة، اذا استثنينا المواشي والأدوات؟ تظهر التجربة أنه في مثل هذه الحالات كل ما يتبقى للفلاح هو ملكية منقولة واحدة. جسده، الخاضع للعذاب من أجل الاستحقاقات ولكن تعذيب دافعي الضرائب المفلسين لا يعتبر حلاً مرضياً للمسألة، التي يجب أن تحل لأن الدولة لا توافق على نزع نفسها من كل ضمانات دفع الضرائب الدقيق. إننا نذكر القارىء، أنه في الوقت الذي كان تشيريشيفسكي لا يزال يعتقد بضرورة الدفاع عن الكوميون، كان يأمل أن الفلاحين سيحتلون وضعاً اقتصادياً ماسباً، لا تكون فيه مسألة الضرائب ملحة كما هي عليه حالياً.

المربطة بالتطور الاقتصادي وسيرنيسيفسكي نفسه، كما نعرف، سرعان ما تحقق كم كان طبيعياً هذا التخلف في الفهم من قبل الحكومة لقد اعتقد أن من العبث الدفاع لس عن الحيازة الكوموبية للأرض، بل أيضاً عن كل مبدأ يمنح الأرض للفلاحين المعتقين. وحسب تعبيره الحاد والصارم أنه «أصبح غبياً في نظر نفسه» ويستحي من تذكر «التأكيد الذاتي الذي كان في غير محله والذي دافع به عن الحيازة الكومونية للأرض إلا أن النارودنيك المحدثين لا يشعرون بالخجل في الحديث عن الأسس المديدة للحياة الشعبية والتقلص في مراحل التطور تقلص لا يشيرون إلى أي سبب خارج أفكارهم «المثالية» الخاصة هذا السبب لا يمكن الاقرار به على أنه السبب الكافي لعناد نارودنيكيينا، من غير صعوبة إنه يكمن، إلى جانب أسباب أخرى، في ضعف التلاميذ الصغار بسبب أخطاء المعلمين الكبار، حول ما تحدثنا به سابقاً وسوف نرى فيما بعد أن تشيرنيشيفسكي نفسه لم ينظر إلى الكوميون بالطريقة نفسها التي نظر فيها النارودنيك المحدثون*

بعد الاستهلال بالحيازة الكومونية للأرض، اتخذ نزاع تشيرنيشيفسكي مع اقتصاديينا الليبراليين بسرعة طبيعة نظرية وانقلب إلى مسائل عامة في السياسة الاقتصادية. إن رجال نشسترنا[٥٠] بفضل عقائد الاقتصاد المبتذل التي تحت تأثيرها سكلت كل آرائهم، أسرعوا بوضع حصنهم العلمي على المرحلة: مبدأ عدم تدخل الدولة. إنهم يعرفون أن كل تعاليم باستيات وأتباعه قامت على هذا المبدأ وادعت ببساطة أنه لا يوجد أحد على الأرض أعظم من باستيات وبالطبع اتخذت القصية هذا المنعطف بحيث أن النزاع

* فيما يتعلق بتقليص مراحل معينة من التطور، فهم سيرنيسيفسكي تماماً أنه عندما تتقلص مرحلة ما لا تؤدي دائماً الى النتائج ذاتها التي تقود إليها فيما اذا استمرت فترة طويلة في جواهر نسماش (المؤلفات المجلد ١ ص٣٧) يتحدث عن السيجارات التي تتمتع بخصائص معينة للمدخنين، عندما تخضع لعملية التجفيف البطيء والتغيرات المرافقة لها ولكن حاول أن تنقص طول عملية التجفيف هذه وجفف السجارات الأولية بطريقة صناعية. واذا ما أخذنا كلام مؤلفنا فان مثل هذه السيجارات لن تكون جيدة ماذا يعني هذا يعني أن المجرى المختلف للعملية يقود الى نتائج كيميائية مختلفة أليس كذلك في الحياة الاجتماعية؟ أليس ثمة أسس للتفكير أن عملية تطويل التطور الرأسمالي تخلق سمات سياسية وثقافية وأخلاقية في الطبقة الكادحة لا نجدها إطلاقاً في الشعب الذي لم يتخل عن «الأسس» القديمة لحياته في أي مرحلة من تاريخه؟ الا يخاف المرء أن مثل هذا الشعب لن يرفض فقط المرحلة الوسط، بل كل «مراحل التطور وسوف يتقدم الى مواقع سلطة الشعب التي يفرضها حتى المرحلة النهائية من التطور الاجتماعي؟ فما رأي النارودنيك؟

حول عدم تدخل الدولة في حياة الشعب الاقتصادية لم يستخدم إلا كمناسبة من أجل انتصار جديد لتشيرنيشيفسكي وباطلاعه على الأدب الاقتصادي والاشتراكي حطم كل حدلقات باستيات تحطيماً كاملاً من غير أدنى جهد، هازئاً منها ويمكن أن تعتبر مقالته «**النشاط الاقتصادي والتشريع**» من أروع ما كتب في دحض نظرية (دعه يعمل دعه يمر) لا في الأدب الاقتصادي الروسي، حيث يشغل سيرنيشيفسكي مكانة لائقة في أيامه، بل في الأدب الاشتراكي الأوروبي عامة في هذه المقالة يستخدم مؤلفنا كل قوته الجدلية ومهارته النقاشية ويبدو أنه كان مسروراً من هذا القتال الذي تفادى فيه ضربات خصومه بسهولة إنه يلعب بهم مثل القطة والفأرة، إنه يقدم لهم كل التنازلات، ويعبر عن استعداده لقبول أي من عقائدهم، والموافقة على أي تفسير لأي فرضية - وعندئذ، بعد أن بدا كأنه منحهم فرصة النصر ووضعهم في الشروط المناسبة لانتصاره، انتقل الى الهجوم وبين تهافتها بثلاثة أو أربعة قياسات وعندئذٍ بدأ بتنازلات جديدة، جديدة حتى في التفسيرات الملائمة للمعتقد ذاته فبرهان على تهافتها وفي نهاية المقالة يسير سيرنيشيفسكي، كما هي عادته، إلى أخلاق خصومه ويجعلهم يشعرون كيف أنهم لا يعرفون إلا القليل من الطرق الدقيقة والتفكير العلمي، ليس هذا فقط، بل لا يعرفون أيضاً المتطلبات الأساسية بالمعنى العادي إنه من المفيد أن مبدأ عدم تدخل الدولة، الذي كان له أنصار مسددون في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات، قد تخلى عنه الاقتصاديون الروس نهائياً تقريباً وهذا ما يفسره إلى درجة بعيدة الوضع العام لصناعتنا وتجارتنا والتأثير اللاحق على نظريي المدرسة الألمانية من اشتراكية الكرسي[1] ولكن في هذه الحالة فان حقيقة أن المبدأ المطروح، منذ بداية تقويمه في الأدب الروسي واجه هذا الخصم القوي، تشيرنيشيفسكي، ذات أهمية كبرى ولا شك. وإذ تعلم رجال مانشستر الروس هذا الدرس، فقد وجدوا من الحكمة الصمت والرجوع إلى الخلف والاستراحة

٩

لم تكن القضايا الاقتصادية وحدها التي شن فيها سيرنيشيفسكي نقاشاً ضارياً ولم يكن خصومه لبراليين وحسب أما بالنسبة إلى تأثير حلقة **السوفريمينيك** في الأدب الروسي فكلما تعاظم، ازداد عدد الحملات التي شن من مختلف القطاعات سواء على الحلقة عامة أم على مؤلفنا خاصة. لقد كان المحررون في **السوفريمينيك** يعتبرون أناساً

حطيرين مسعدين لتدمير الأسس السيئة بعص أصدقاء بيلنسكي الدين كان من الممكن أن يرافقوا سيرنيسيفسكي والـذين يعسقون أفكـاره (ومن بينهم دوبرولوبوف الذي حقق مكانة رفيعة) رفضوا أن تكون **السوفريمينيك** لسان حال الهلسيين وطفقوا يعلنون أن بيلنسكي ما كان ليسحس اتجاهها هكذا كان موقف بورغنيف* وحتى الراديكالي هررن نفسه بدأ يندمر في **الكولوكول** من ايرقان و« الصافرين الذين يرفضون من أجل الرفض فقط ، ويسخرون من أجل سحرية فقط ، والذين يبدو أن من المسحيل الرضا بأي شيء مهما كان إن القارىء يعرف طبعاً أن الصافرين أو فرسان الفوضى كانت الاسماء التي أطلقت على محرري **السوفريمينيك** بعد أن أخذت **السفيستوك** تظهر على شكل ملحق خاص لها ، والتي كانت سخر بلا رحمة من كل المظاهر الأدبية والاجتماعية للطغيان واللفظية وبرعة التجهيل والحذلقة[٥٢] إن معظم المقالات في **السفيستوك** ليست بقلم سيرنسيفسكي وقلما ساهم فيها وفي السنوات اللاحقة لنشاطه الأدبي لم يساهم نظامياً في كل عدد من السوفريمينيك فحسب ، بل ان كل عدد كان يضمن عدة مقالات بقلمه. كانت مقالاته موزعة عادة بين مختلف أقسام الصحيفة كالتالي: ساهم أولاً بمقالة طويلة حول قصية نظرية عامة ، عندئذٍ كتب مقالة سياسية وقام بمراجعة في الأدب الروسي ، وأحياناً في الأدب الأجنبي ، فراجع عدة كتب جديدة ، وأخيراً في أوقات راحته ، وسليه قام بعدة هجمات نقاشية ضد خصومه **والسوفريمينيك** من ١٨٦١ غنية بالمقالات النقاشية بقلم سيرنيسيفسكي وفي هذا الوقت كتب جواهر النقاش و« افتقار الذوق الوطني (ضد **سلوفو** صحيفة لفوف) و« التشويش الشعبي (ضد داين **اليوم** »[٥٣]صحيفة اكساكوف) ، وعدة ملاحظات نقاشة في قسم الأدب الروسي الأجنبي ومن الضروري التوقف عند بعض هذه المقالات النقاشية

لن نقول الكثير عن « جواهر النقاش تلك المقالات تؤلف رداً على هجومات

---

* يقص تشير نيشيفسكي أن تورغنيف لا يزال يتحمله الى حد ما ، أما دوبروليوبوف فلا يطيق عليه صبراً قال لتشير نيشيفسكي: « إنك لست أكثر من أفعى ، أما دوبروليوبوف فإنه كوبرا (انظر الرسالة التي اقتبسنا منها سابقاً تعبيراً عن الامتنان »)

صحيفتي **روسكي فستنيك وأوتيشيستفيني زابسكي** ومن المفيد جداً لمؤرخ أدبنا أن يذكر حجج أعداء **السوفريمينيك**، وحسب وصفة سيرنيسفسكي لا حاجة إلى الأخبار بالتفصيل عن الإتهامات الغريبة، والتافهة في معظم الأحيان، التي صدرت عن كاتكوف أو البرتيني أو دوديسكين[٥٤] ولكن مؤلفنا يعبر في مقالة يهاجم فيها روسكي فستنيك، عن نظرة مفيدة جداً حول نشاطه الأدبي وسوف نقتبسها هنا لقد كان سيرنسيفسكي واعياً أنه يحتل مكانة مرموقة في الأدب الروسي وكان أعداؤه يخافونه وغالباً ما يقدمون له المجاملات إلا أن تعاظم سهرته لم يجعله سعيداً ولم يكن لديه سوى رأي ضعيف جداً عن الأدب الروسي حتى يعرف المكانة المرموقة التي يحتلها فيه كم هي مسرفة لقد كان «بارداً جداً تجاه سمعته الأدبية إن الشيء الوحيد الذي كان يهمه هو فيما إذا كان يستطيع الاحتفاظ بنضارة فكره وشعوره حتى الأيام التي يُصبح فيها أدبنا مفيداً للمجتمع أنا أعرف أن أفضل الأيام سوف تأتي للنشاط الأدبي عندما يكون مفيداً للمجتمع وعندما يحصل حقاً من يملك موهبة على اسم شهير وهكذا أتساءل عندما يحل الأوان فيما إذا كنت لا أزال قادراً أن أخدم المجتمع حقاً إن هذا يحتاج إلى قوة نضرة وإلى معتقدات جديدة ولكني أرى أنني أخذت ألحق بركب الكتاب «المحترمين أي أولئك الكتاب الذين جفّ معينهم، الذين يتثاقلون خلف المتطلبات الاجتماعية وقد أثار هذا شعوراً من المرارة ولكن ما العمل؟ إن للسن حقه فالشباب لا يأتي مرتين أنا لا أستطيع إلا أن أحسد أولئك الأكثر شباباً وحدة مني مواجهة تلك المخاوف النبيلة أمر غريب بالنسبة إلينا نحن الذين نعرف أن سيرنيسيفسكي عندما عبر عنها لم يكن قد أطلق سراحه إلا منذ عام فقط والأسطر التي اقتبسناها أعلاه نشرت في عدد تموز ١٨٦١ من السوفريمينيك، وفي تموز العام التالي كان قد أودع قلعة القديسين بطرس وبولس ولكن يمكن للمرء أن يتصور مدى الاحتقار الذي كان يكنه هذا الرجل لأعدائه. الذين على الرغم من تحققهم الكامل من تفوقه الهائل عليهم لم يولوا أي اهتمام حتى بمراياه الأدبية إن كل صفحة من جواهر النقاش تسع في الحقيقة بالاحتقار الكبير لمنتقدي **السوفريمينيك** ومن الملاحظ أن سيرنيسفسكي في رده على **أوتشيستفيني زابسكي**. لم يكن غاضباً من أعدائه في **أوتشيستفيني زابسكي** إنه يحدثهم برقة مثلما يحدث المعلم الطبيب تلميذه

الذي أساء السلوك. وبالطبع المعلم الطيب، في قيامه لوظيفته، يخبر تلمبذه أحياناً بحقائق مريرة ولا يخفي عنه تفوقه الثقافي عليه ولكنه يفعل ذلك لصالح التلميذ وهكذا يفعل تشيرنيسيفسكي أيضاً إنه لم يس غلطة واحدة ولا سهواً واحداً من أوتشستفيني زابسكي ويحذر المحررين من أخطائهم لقد أغاظهم بوهجه الحكيم الذي عليه شنوا المعركة ويكرر على مسامعهم أنهم ليسوا أنداداً في النقاش، مظهراً مدى التهافت التام لهذه التهمة أو تلك التي يوجهونها ضده وعندما سنح الفرصة يخبرهم أنه يعرف الأشياء ويفهمها أكثر منهم، وأنهم ليسوا في وضع يؤهلهم الحكم على الأفكار الجديدة التي ارتادها في الأدب يقدم نفسه لدودشكين الذي اتهمه بالجهل المطبق بما تقدمه الصحف الأخرى: «أنت ترغب أن تعرف إلى أين تصل معرفتي؟ أنها تصل إلى حيث أقدم إليك جواباً واحداً إنها لا تقارن بمعرفتك وأنت تعرف ذلك بنفسك ولكن لماذا لم تحاول أن تحصل على رد في الصحافة؟ الحق أن من غير الحكمة أن تضع نفسك في هذا الموضع وأرجوك ألا تأخذ هذا على أنه تكبر فليس هنا فخر في أن أكون أعرف أكثر منك كما لا تأخذ هذا على أنه يعني أنني أريد أن أقول إنك لا تملك سوى القليل من المعرفة لا الأمر ليس هكذا إنك تعرف شيئاً وبشكل عام أنت رجل مثقف فقط لماذا تناقش بمثل هذه الرداءة؟ الخ كل هذا سوف يكون سخرية إن لم يكن حقيقة مؤكدة

والآن لم يوفر تشيرنيشيفسكي حتى أنصار السلافية الذين كان يتحدث عنهم باحترام من قبل. الآن لم يعودوا يظهرون له أصدقاء حقيقيين للتنوير إن اتجاه أنصار السلافية بات واضحاً منذ بداية الستينات بحيث بات من الأفضل أن نسميهم أنصار التجهيل. بالطبع تابعوا الدفاع عن الكوميون وعن الملكية الفلاحية للأرض بيد أن سيرنيسيفسكي الآن لم يعد يولي أهمية لذلك وبغض النظر عن الدفاع عن المبادىء المشار إليها سابقاً، فان أدب أنصار السلافية لهذه الأيام ليس فيه سوى هجمات سخيفة على الغرب المتفسخ والخبيث ومدائح مفرطة للأرثوذكسية والأوتوقراطية والمباهج المشابهة الأخرى في الحياة الروسية وهكذا قرر تشيرنيشيفسكي أن يلقنهم درساً وكان سبب ذلك ظهور صحيفة اكساكوف داين (اليوم) حيث تضمنت الأعداد القليلة الأولى هجمات على السوفريمينيك وقد رد تشيرنيشيفسكي في مقالة «التشويش الشعبي

ويشرح فظاظة العنوان بحقيقة أنه، وقد تعرف على نفسه في مناقشات أنصار السلافية، قرر تجنب استخدام الكلمات الأجنبية التي بدون تغيير عنوان المقالة يمكن أن تجعله في شكل أكثر لطفاً

كان تشيرنيشيفسكي غربياً مسدداً دائماً واذا كان تعاطف مع الحيازة الكوموية للأرض التي قربه من أنصار السلافية فترة وإلى حد ما، فانه تحقق دائماً من سخافة حديثهم عن تفسخ الغرب وبعث البشرية عن طريق الأساطير البيزنطية. وقد عبر من قبل في مقالته **مقالات حول مرحلة غوغول** عن هذا ولكن بحسم أكثر لقد آمن أن سبب آراء كتاب النزعة السلافية حول تفسخ الغرب وافلاس فلسفته يكمن في حقيقة أنه حتى أفضلهم لم يكن مطلعاً على الأوضاع في أوروبا الغربية وعلى اتجاه الفكر الأوروبي الغربي التقدمي لم يكن الغرب في نظر تشيرنيشيفسكي عجوزاً عاجزاً، على العكس، كان فتياً يضج بالشباب المعافى «الذي يقول (على لسان مفكريه التقدميين): أعرف قليلاً، ولكن لا أزال أجد مندوحة كبيرة أمامي للتعلم، ولا تزال لدي الرغبة إلى المزيد من المعرفة وأنا أتعلمها تماماً على أن أعمل بسدة حتى أوفر لنفسي وجوداً ثابساً مريحاً، لكني راغب في العمل، وأنا أملك القوة، وهكذا لا ييأسوا من مستقبلي»* وحول مسألة مستقبل أوروبا الغربية لا يتفق أبداً ليس فقط مع أنصار السلافية، كما هو واضح، بل مع هرزن، الذي تأثر بعلاقاته مع حلقة أنصار السلافية في موسكو في الأربعينات[55]، والذي عبر باستمرار عن خوفه من أن الغرب، وقد تقدم حتى الاشتراكية في تفكيره، لا يملك القوة لتنفيذ برنامجه، كما كانت روما القديمة لا تملك القوة لتنفيذ مطالب المسيحية. ولا حاجة أن نقول إن روسيا، في نظر فرضية عجز الغرب، كانت أرض الميعاد للاشتراكية، ومدعوة إلى بعث البشرية العاجزة على أي حال، إن مقالة تشيرنيشيفسكي التي استشهدنا بها من قبل «**حول أسباب سقوط روما** كانت موجهة مباشرة ضد رأي هرزن هذا وفي هذه المقالة يذهب المؤلف الى أنه لن يناقش الأفكار المسحوذة كما عند أنصار السلافية، حول مصير الغرب، وأنه يتوجه إلى أناس آخرين، يتمتعون بحس عام وإلى هؤلاء الناس بحسهم العام يناقشهم بأن أوروبا الغربية لا يمكن أن تكون قد استنفذت قواها، طالما أن تاريخها،

---

* السوفريمنيك ١٨٥٦ شباط، النقد، ص ٧٣ ٧٤

حتى العصر الحاضر، يقرره نشاط طبقة واحدة فقط الارستقراطية. وحتى الطبقة الوسطى لم تصبح بعد مسيطرة في القارة الأوروبية حتى العصر الحالي وخلف الطبقة الوسطى تقف الطبقة الدنيا التي لا تزال لا تؤثر في مصير أوروبا ويسأل سيرنيشيفسكي، على أي أساس يفكر الناس أن هذه الطبقة الجديدة بدورها لن تكون قادرة، بعد دخول المسرح التاريخي، على حل المهات الاجتماعية التي لم تستطع الطبقات العليا حلها؟ ليس من أساس للتفكير على هذا المنوال، وبالتالي لا أساس للخوف على مصير الغرب وكم هو مضحك الخوف من غزو البرابرة، نظراً للتفوق الهائل لقوى العالم المتحضر وأخيراً يفضح تشيرنيسيفسكي، فيما يتعلق بروسيا والدعوة المزعومة لبعث البشرية، تهافت هذا الوهم الذاتي الوطني إنه يرى الحيازة الكومونية للأرض ليس أكثر من سمة لحياتنا تستحق التعاطف ومع ذلك فإن الحيازة الكومونية للأرض لم يرحمها من نقده ففي رأي تشيرنيشيفسكي أن الكوميون يمكن أن ساهم نصيبها الجدي في التطور اللاحق لروسيا، ومع ذلك علينا ألا نتباهى بذلك، لأنها دلالة على التخلف الاقتصادي. ويقتبس مثالاً، على عادته في توضيح أفكاره، لتبسيط نظريه في الكوميون الروسية. يقول إن المهندسين الأوروبيين يستخدمون اليوم الميكانيك التطبيقي لبناء الجسور المعلقة. ولكن يبدو أنه في قطر أسيوي متخلف - ولا يذكر أي قطر هو - بنى المهندسون المحليون هناك منذ أمد طويل الجسور المعلقة في المواضع المناسبة. فهل يعني ذلك أن الميكانيك التطبيقي يمكنه في آسيا أن يقف ندا لما في أوروبا؟ هناك جسور وجسور، وجسر المهندسين الآسيويين المعلق أدنى ولا شك من نظيره الأوروبي. وللتأكد نجد أن المهندسين الأوروبيين عندما يصلون إلى القطر الآسيوي الذي عرف الجسور المعلقة منذ أمد طويل سوف يجد سهولة في اقناع موظف أن الجسر المعلق اليوم ليس اختراعاً ملحداً إلا أن ذلك هو كل شيء فعلى الرغم من الجسور المعلقة سيظل القطر الآسيوي قطراً متخلفاً بينما تظل أوروبا معلمته. والشيء نفسه بالنسبة إلى الكوميون. فربما كانت تطور قطرنا، لكن الدافع الرئيسي سوف يأتي ولا شك من الغرب، ولن يلائمنا لتجديد العالم، حتى عن طريق الكومون

على أي حال فان «الأفكار المتسلطة السلافية لا تذهب فقط إلى حد تجديد أوروبا عن طريق الروح البيزنطية الروسية، بل أيضاً تقدمت ببرنامج من أجل هذا التجديد وفي رأي صحيفة اكساكوف «داين أن على روسيا أن تقدم للسلافيين

« هبات الوجود المستقل تحت حماية جناحي النسر الروسي   وقد ناقش تشيرنيشيفسكي في أن مثل هذه الأفكار ليست أكثر من نتاج « التشويش الشعبي أولا ، يعتقد أن النسر الروسي القوي ذو قضايا روسية داخلية خاصة، لا يمكن تجاهلها من أجل سواد عيون تجديد العالم يقول: « إذا أردت الحرب فاسأل نفسك فيما اذا كانت الظروف تسمح لنا أن نفكر في الحرب   ثانياً يؤمن أن تدخلنا العسكري سوف يؤلب كل قوى أوروبا ضد تحرر السلاف: « لأنه لا يوجد غير مليوني تركي في أوروبا، بينما يوجد سبعة أو ثمانية ملايين من السلاف إن كل ما يلزمهم هو ألا تحول القوى الأخرى دون تحررهم   واذا كان أنصار السلافية حريصون جداً على السلاف الأتراك، فعليهم أن يحاولوا اقناع القوى الأوروبية أن انهيار السلطة التركية في أوروبا لن ينجم عنه إلحاق امارات الدانوب من قبل روسيا، ولن يؤدي إلى تحويل القسطنطينية إلى مدينة اقليمية روسية، فإذا فعل أنصار السلافية هكذا، فسوف يحرر السلاف الأتراك حتى من غير مساعدة   الشيء نفسه يطبق على السلاف النمسويين – « هل ينوي الألمان مساعدة النمسا حقاً، ألا يخافون أن يؤدي سقوط هذه الامبراطورية إلى ضم نصفها الشرقي إلى روسيا؟ ويقول تشيرنيشيفسكي لمحرري « اليوم » أنتم تريدون دفع الألمان ضد تحرر السلاف النمسويين، ويضيف أن انتعاشهم العسكري ليس سببه التعاطف من أجل السلاف النمسويين، بل الرغبة في اخضاع القبائل السلافية للحكم الروسي

وبالمناسبة يرفض تشيرنيشيفسكي أيضاً الحجج المتعالية لأنصار السلافية عن الموقف الخبيث لأوروبا من روسيا يقول، عذراً ولكن ألا تظهر معظم الصحف الأوروبية تعاطفاً كبيراً للإصلاحات الهامة في روسيا؟ وهل التعاطف مع منجزات الحياة الاجتماعية الروسية يعني الرغبة في أن تكون روسيا مريضة؟

في العام التالي شن تشيرنيشيفسكي هجوماً على أنصار السلافية أشد مرارة. إن المفكرين الكبار للسلافية يتعلقون بالفكرة الغريبة الرامية الى توجيه سلسلة من المواعظ الساذجة إلى الصربيين. وقد جمعت هذه المواعظ في كراسة **إلى الصرب. رسالة من موسكو** ووقعت من قبل الممثلين البارزين للحزب السلافي. بعض هذه الأفكار الواردة في هذه الكراسة مضحكة جداً، والأفكار الأخرى ليست مضحكة فحسب، بل

رجعية متطرفة إلى أقصى حد أيضاً وهكذا، مثلاً، ينصح أنصار السلافية الصربيين ألا يمنحوا حقوقاً سياسية للشعب الذي ليس على الإيمان الارثوذكسي وقد رد سيرنيشيفسكي على هذه **الرسالة** بمقالة جارحة عنوانها «**الأكبرون المزيفون**».

وإلى جانب النزاعات حول موقف روسيا من السلاف بشكل عام، كان ثمة نزاع حول العلاقات المتبادلة لبعض القبائل السلافية إننا نعرف أن أنصار السلافية يشجعون نضال الروثيبيين[٥٧] الغال ضد البولونيين. وقد كان تشيرنيشيفسكي ميالا نحو «الروس الصغار لقد اعتبر موقف بيلنسكي السلبي من قيام أدب «روسي صغير غلطة كبرى ففي عدد كانون الثاني ١٨٦١ نشرت **السوفريمينيك** مقالة متعاطفة جداً مع ظهور **اسنوفا**[٥٨]، لسان حال «الروس الصغار ولكن موقفه تجاه نضال الروثيبيين الغال ضد البولونيين ليس واحداً من التأثيرات غير المشروطة. فقبل كل شيء، يرفض حقيقة سعي الروثيبيين إلى كسب تأييد الحكومة الفيينوية ولا يقر بالدور المؤثر للكهنوت في حركة الروثيبيين الغال كتب «دع الشؤون يعنى بها أصحابها وأخيراً لا يقر تشيرنيشيفسكي بالصيغة **القومية** للمسألة التي يعتبرها بالأساس مسألة **اقتصادية**.
وفي مقالة بعنوان «**الفظاظة القومية**» (**السوفريمينيك** تموز ١٨٦١) انتقد بحدة، **مهاجماً** صحيفة لفوف **سلافو**، القومية المتطرفة لتلك الصحيفة. كتب: «من المحتمل جداً أن اختباراً دقيقاً للعلاقات القائمة سوف يبين لصحيفة **سلافو** أنه في أساس القضية هناك قضية أبعد بكثير من القضية العرقية - أي قضية الطبقات من الممكن جداً أن يكون الروثيبيون والبولونيون على طرفي نقيض فالشعوب تختلف عرقياً، ولكنهم في الوقت نفسه يحتلون مركزاً اجتماعياً واحداً فلا نصدق أن الفلاح البولوني يعادي تخفيف الالتزامات وشروط حياة المسوطنين الروثيبيين. إنما لا نصدق أن عواطف المالكين العقاريين الروثيبيين تختلف كثيراً في هذه القضية عن عواطف المالكين العقاريين البولونيين. إن جذر المسألة الغالية، إذا لم يجانبنا الصواب، يكمن ليس في العلاقات العرقية، بل في العلاقات الطبقية

إن العداء المتبادل بين الشعوب التي تؤلف النمسا لا بد أن يظهر لتشيرنيشيفسكي أكثر فظاظة طالما أن الحكومة الفيينوية عندئذٍ، كما في السابق، انتزعت كثيراً من مصالح شعبها كتب في مراجعة سياسية في العدد نفسه من**السوفريمينيك** الذي انتشرت فيه «الفظاظة القومية : «عندما يفكر المرء ملياً لا يعجب للسنوات العديدة لوجود

الامبراطورية النمسوية، ولماذا لا تحافظ على نفسها عندما توجد مثل هذه الدماثة السياسية من جانب القوميات المنتشرة داخل تخومها إن الألمان النمسويين والتشيك والكرواتيين والروسيين بالنسبة إلى تشيرنيسيفسكي مساوون - كما رأينا - في بطء الفطنة لقد كان خائفاً أن بطء الفطنة السلافية التي اتضحت في ١٨٤٨ ١٨٤٩ يزداد أكثر فأكثر وفي بداية الستينات كانت هنغاريا تشن نضالاً عنيداً ضد المركزيين الرجعيين الفيينويين. كان سخط الهنغاريين يتصاعد حتى كاد المرء يتوقع أن يكون ثمة انفجار ثوري في بلادهم. وفي مراجعاته السياسية عبر تكراراً عن خوفه من أن يصبح السلاف النمسويون، في حال قيام حركة ثورية هنغارية، أدوات طيعة في أن يصبح السلاف النمسويون، في حال قيام حركة ثورية في هنغارية، أدوات طيعة في يد الرجعية إن تكتيكات العديد من القبائل السلافية في النمسا يمكن أن تقوي هذه المخاوف، طالما أن السلاف النمسويين يتباهون بالدور المشين الذي لعبوه في أحداث ١٨٤٨ ١٨٤٩ لقد أدان سيرنيسيفسكي هذه التكتيكات بشدة وبين أن مصلحتهم، على عكس ما يفعلون، تكمن في مساندة أعداء الحكومة الفيينوية. أعداء يمكن أن يحصلوا منهم على تنازلات أساسية لقد قال ذلك بالنظر إلى موقف الكرواتيين من الهنغاريين وتكرر ذلك من الروسيين. نقرأ في مقالته «الفظاظة القومية إن الحرب الطبقي المعادي للروسيين مستعد الآن للتنازلات ولا ضير إذا أولت **سلافو** هذا الأمر تفكيرها، فربما كانت هذه التنازلات المستعد لتقديمها شعب تظنه معادياً، من الضخامة بحيث ترضي الروسيين بصورة كاملة، وتلك التنازلات، مهما تكن، أعظم كثيراً ولا شك وأكثر أهمية من التنازلات التي يمكن أن يحصل عليها المستوطنون الروسيون من النمسويين

وأخيراً في الوقت الذي كان فيه سيربسيفسكي يناقش ضد **سلافو**. كانت ثمة حركة سياسية قوية نظر إليها بعين العطف الكبير تأخذ مجراها في بولونيا الروسية ولهذا السبب فقط لا تبدو له الهجمات الروسية لبيت هسبرج ضد البولونيين لائقة ومناسبة له

وقد أقيمت فروع للمنظمة البولونية الثورية في بطرسبرج أيضاً، حيث عاش سيرنيسيفسكي بشكل مستمر تقريباً فهل كان لنا أي علاقات شكلية محددة مع الثوريين البولونيين؟ إننا حتى الآن لا نملك أي مؤشر على ذلك إن من الأفضل أن

يقوم المؤرخون البولونيون لتلك المرحلة بتوضيح هذه المسألة. ولا شيء يُوقَع من الأدب لأسباب عديدة معلومة وسوف تخبرنا **الروسكايا ستارينا** شيئاً ما، ولكن لن يكون عاجلاً وحتى لا نغرق في الحرازير، فاننا سنكبح أنفسنا في توضيح العواطف العامة لتشيرنيسيفسكي تجاه القضية البولونية، حتى نحصل على معلومات من كتاباته. ولكن أيضاً لا يوجد سوى القليل من ذلك.

يمكن أن نحجم كلياً عن معالجة رواية **مقدمة المقدمة** هنا إنها تصور وضع فولغن (تشيرنيشيفسكي) من سوكولوفسكي (سيراكوفسكي) إن فولغن يحب في سوكولوفسكي تكريسه نفسه لمعتقداته، وخلوه من التفاهة المفسدة، وسيطرته الذاتية، بالاضافة إلى الغيرة العاطفية كمحرض حقيقي إن فولغن يسميه **رجلا حقيقياً** ويعتقد أن لبرالييا يمكن أن يعلموا الكثير منه كل هذا مفيد، بيد أنه لا يفسر موقف تشيرنيشيفسكي العملي من القضية البولونية، التي لا تجد كلمة واحدة عنها ومن المقالات التي نشرت تحت الرقابة في **السوفريمينيك**، يمكن أن نرى أنه يستغل أي فرصة ليعبر عن دفاعه عن بولونيا إنه حتى يدافع عنها ضد هجمات الكتّاب الروس الرسميين على نظام الدولة البولونية القديم، الذي لم يعاطف معه إلا قليلا بآرائه الديمقراطية. إلا أنه يمتدح فيه نواحي العلاقات الاجتماعية، التي لم يكن يوليها أي اهتمام في مقالاته السابقة. وكما عرفنا من قبل، في مقالته « الصراعات الحربية في فرنسا يظهر لا مبالاة كلية بالأشكال البولونية. وعندما كتب هذه المقالة (في عام ١٨٥٨) آمن أن الديمقراطي لا يستطيع أن يتصالح **مع الارستقراطية فقط**، وأن الديمقراطي، على الرغم من الحرية السياسية في انكلترا يفضل سيبريا حيث يعيش.« الشعب العام على انكلترا ويعتبر تشيرنيسيفسكي قضايا التنظيم السياسي مختلفة كل الاختلاف يقول في مراجعة القسم الثاني من **أرشيفات روسيا الغربية الجنوبية** الذي كان ظهر لتوه « وراء كل غياب بولوني للمركزة البيروقراطية تكمن الحاجة إلى اقامة نظام إجتماعي يختلف عن ذاك الذي وصلت إليه القوى الأخرى (هذه طبعاً اشارة إلى الدولة الموسكوفية) « نظام قائم، لا على تضحية الفرد من أجل فكرة مجردة، تجسدت في الرغبة بالسلطة، بل على قبول الأفراد الأحرار من أجل رفاههم المتبادل هنا تكون القضية نتيجة للفكرة الاجتماعية، هنا ينتقل الصراع المسمر للمفاهيم والعقائد من ميدان الفكر والكلمة إلى مظاهر الحياة فلنفرض أن المجتمع البولوني كان كله

ارسوقراطياً ، إلا أن الدائرة المسفيدة يمكن أن تمتد أكثر فأكثر وتشمل الجماهير المهملة والمبوذة مں الشعب ، والمنزوعة لحقوقه ، اذا أصحت المفاهيم المدنيّة أوسع ونمت ضمن الأفكار الانسانية العامة ، من غير أن تقيدها الأهواء العابرة التي تحد تكاملها »* حتى الديمقراطيون البولونيون لم يظهروا دائماً مثل هذه العاطفة دفاعاً عں الطريقة القديمة للحياة في بولونيا لأن المسألة كلها كانت أساساً كيف يمكن لأعضاء المجلس الأعلى من الدييت البولوني أن يقذفوا « الأفكار الانسانية الشاملة

وحول مسألة النتائج التاريخية لتلاقي الدولة الكبرى مع بولونيا ، لا يتفق تشرنيسيفسكي أيضاً مع مؤرخينا الرسميين. ويتساءل في رد على المؤرخين الذين ذهبوا إلى أن التلاقي مع بولونيا كان السبب الوحيد لكل ما هو خاطىء في أوروبا الغربية. « هل كانت دولة روسيا القديمة في زمن أولغيردس ولوبارتاس وسكايريفيلوس وسفيدرغيلوس أفضل فعلاً مںها أيام سيجيسموندس في القرنيں السادس عشر والسابع عشر؟ ، لقد مضى الزمن الذي كنا فيه أحاديي النظرة وغير عادليں بالنسبة إلى بولوںا ويتابع « فلىعترف على الأقل بالطبيعة النفعية لتأثيرها في روسيا القديمة ، ولو حتى فيا يتعلق بالتنوير فلنأخذ مستوى الثقافة الفكرية في تلك الأيام من العالم الروسي الذي تلاقى مع بولونيا ولنقارنه بمستوى الثقافة الموجود في القسم الآخر مں روسيا الأم الذي ظل مستقلا – في شكل دولة موسكوفية ألم يأت التنوير من روسيا الصغرى إلى موسكو في القرن السابع عشر ، ألم يهيء هذا التنوير السبيل لثقافتنا اللاحقة؟ ألم يترعرع في ظل تأثير بولونيا التي نمت في روسيا الصغرى؟

إن البولونييں ، في رأي سيرنيشيفسكي ، غير ملومين حتى على بلننة روسيا الغربية إن الطبقة العليا في روسيا الغربية لها الحق في اتخاذ الوسائل للدفاع عن معتقدها ولغتها وانقاذ شعبها من الاذلال وبالمناسبة من يرضى لنفسه العبودية. وإذا كانت الارستقراطية الروسية الغربية ، على الرغم من ذلك ، قد أصبحت متبلننة كلياً ، فان عليها أن لا تلقي اللوم على الآخرين   ذاك ما يلاحظه مؤلفنا[٥٩]

---

* السوفرييميك ١٨٦١ نيسان. الكتب الحديث ، ص ٤٤٣ وما يليها.

* ١٠

إن المزاج الثوري للمجتمع البولوني نطابق ع التحريض الضخم للحرب المتطرف في روسيا لقد كان الطلاب في حالة تخمر ، فانتشرت الجمعيات السرية التي أصدرت المنشورات والبرامج الثورية ، وكانوا يتوقعون أن تقوم انتفاضة للفلاحين الذين لم يرتاحوا لـ « الحرية المريفة لقد رأينا أن تشيرنيسيفسكي نفسه آمن بامكانية مثل هذه الانتفاضة ، وحول مسألة موقفه من الجمعيات السرية في روسيا في ذلك الوقت لا نعرف ، لسوء الحظ ، إلا القليل ، كما نعرف عن موقفه من المنظمات البولونية هنا يمكن فقط أن نتكلم عن مزاج سيربيسيفسكي الذي ظهر على شكل ومضات في مقالاته التي نشرت في **السوفريمينيك** هذا المزاج أصبح ولا شك ثورياً أكثر فأكثر إن سيربيسيفسكي الذي وجد في يوم ما أن من الممكن والمفيد أن يشرح للحكومة مصالحها الخاصة في مسألة تحرير الفلاحين ، لم يعد يفكر حتى في تقديم نفسه للحكومة لقد بدا له أن من العبث التعامل معها ، فما ذلك إلا محض وهم في مقالة « **المصلح الروسي** » المكتوبة بمناسبة ظهور كتاب البارون كورف **حياة الكونت سبيرانسكي**، يبين تشيرنيشيفسكي أنه لا يمكن لمصلح في بلادنا أن يعتمد على الحكومة فيما يتعلق بالاصلاحات الاجتماعية الهامة. إن الثوريين يعتمدون عليها حتى في أقل من ذلك. لقد سمى الأعداء سبيرانسكي ثورياً ، ولكن قبل هذا التقويم يبدو لتشيرنيسيفسكي مضحكاً لقد كان لدى سبيرانسكي حقاً خطط اصلاحية ضخمة جداً ، ولكن « من المضحك أن ندعوه ثورياً ، مأخوذين بالوسائل التي اقترحها لتنفيذ مقاصده لقد استطاع الاحتفاظ بمركزه فقط لأنه سعى للحصول على ثقة الامبراطور الاسكندر. وإذ وثق بتأييده ، عمد إلى تنفيذ اصلاحاته. ولهذا السبب بالضبط اعتبره تشيرنيسيفسكي حالماً خطراً وغالباً ما يكون الحالمون مضحكين ، وتكون أوهامهم سخيفة ، إلا أنهم « يمكن أن يكونوا خطرين على المجتمع عندما تتناول أوهامهم قضايا هامة وفي نشاطهم الصاخب في الطريق الخاطىء ، يظهرون كأنما يحققون شيئاً من النجاح ، وهكذا يسوشون العديد فيتبعونهم نتيجة هذا النجاح الموهوم ومن هذا المنظار يبدو نشاط سبيرانسكي خطيراً »**

---

* [أنظر أدنى النسخة من بدايه هدا الفصل المكتوب للطبعة الألمانية]

** **السوفريمينيك** ١٨٦١ تشرين أول ، الأدب الروسي ، صص ٢٤٩ ٢٥٠ .

وإذ يلمح سيرنيسيفسكي للشباب بضرورة الأسلوب الثوري في العمل، فقد شرح لهم أن الثوري، حتى يحقق أهدافه، مضطر عادة أن يجد نفسه في مواضع لا يسمح فيها الرجل الشريف الذي يسعى وراء أهداف شخصية لنفسه أن يوافق عليها وهكذا منذ كانون الثاني ١٨٦١ في تحليل كتاب الاقتصادي الأميركي، ينتقل من غير توقع إلى مناقشة البطلة اليهودية جوديث، فيبرر عملها بحماسة يلاحظ مؤلفنا: «إن طريق التاريخ ليس ممهداً مثل طريق نيفسكي بروسكت، إنه يتلوى عبر الحقول، الغبارية والطينية، ويعبر مستنقعات أو غابات كثيفة أما ذاك الذي يخاف أن يغمره الغبار، أو أن يلوث حذاءه الطين، فانه من الأفضل ألا يشغل بالنشاط الاجتماعي، لأن هذا عمل نبيل عندما يأخذ المرء بعين الاعتبار صالح الناس، ولكنه بالضبط ليس عملاً هيناً والحقيقة أن الصفاء الأخلاقي يمكن أن يفهم بصورة مختلفة؛ فقد يشعر بعضهم، مثلاً، أن جوديث لم تخمد بريق نفسها وسع اعتباراتك وفي عدة مسائل فردية سوف تكون لك التزامات تختلف عن تلك التي تنجم عن التجربة المنعزلة للمسائل ذاتها

فيما يتعلق بالحكومة الروسية تتغير لهجة تشيرنيشيفسكي فتصبح أكثر تحدياً قررت الحكومة في بداية الستينات أن ترفع أنظمة الرقابة الى حد ما كانت قد عزمت على اصدار أنظمة رقابة جديدة، فسمح للصحافة أن تعبر عن رأيها في مسألة قمعها فلم يدخر تشيرنيسيفسكي وسعاً في إبداء رأيه في القضية، رأي يختلف كل الاختلاف عن الرأي الليبرالي والواقع أن سيرنيسيفسكي يهزأ بشدة من أولئك الذين يفترضون أن للصحافة سلطة نوعية مثل البيلادونا وحمض الكبريت وفلمينات الفضة الخ ان رأينا لا يميل نحو توقع نتائج مؤذية من أشياء وأعمال لا تملك قدرة فرض هذه الفواجع ونعتقد أن الصحافة أيضاً أضعف من أن تفرض بلية اجتماعية ولا تملك حبراً يمكن أن يراق ويغرق البلاد، ولا نوابض تضغط عليها فتنطلق النار إلا أن سيرنيسيفسكي يوافق على أن هناك فترات يمكن للطباعة ألا تكون أقل خطراً من إطلاق النار على حكومة البلاد فهناك فترات تختلف فيها مصالح الحكومة عن مصالح المجتمع فتكون الانتفاضة الثورية وشيكة إن حكومة في هذا الوضع لها كل المبررات في كبح الصحافة، لأن الصحافة، مع القوى الاجتماعية الأخرى، مهيأة لاسقاطها إن جميع الحكومات الفرنسية الناجحة في هذا القرن كانت دائماً في هذا الموقف إن كل هذا قصده سيرنيسيفسكي ولا شيء قيل في المقالة حتى قبيل نهايتها

عن الحكومة الروسية ولكن سيربيسيفسكي يسأل قارئه فجأة أنفترض أن قوانين الصحافة ضرورية حقاً لبلادنا؟ عندئذٍ سنحتج أن نسمى أنصار التجهيل، أعداء التقدم، كارهي الحرية، مداحي الطغيان الخ تماماً كما عرضنا أنفسنا من قبل عدة مرات لمثل هذه الملامة في بلادنا يقول « نخشى أن يؤدي بنا التحري الواعي إلى القول نعم انها ضرورية والنتيجة واضحة إنها ضرورية لأن روسيا دخلت المرحلة الثورية من تطورها

وفي عدد آذار نفسه من السوفريمينيك حيث نشرت المقالة التي اقتبسنا منها آنفاً، ظهرت مقالة نقاشية بعنوان « **هل تعلمنا الدرس؟** تتناول المظاهرات الطلابية المعروفة عام ١٨٦١[٦٠] ويدافع فيها عن الطلاب، الذين لامهم « المحافظون » بحجة أنهم لا يريدون الدراسة، وهو - بالمناسبة - يخبر الحكومة عدة حقائق داخلية والسبب المباشر لهذه المناقشة هو مقالة مجهولة الكاتب في نشرة أكاديمية بطرسبرج بعنوان **ندرس أم لا ندرس؟** » ويجيب تشيرنيسيفسكي أن هذا السؤال بالنسبة إلى الطلبة لا معنى له، طالما أنهم يريدون دائماً أن يتعلموا، إلا أن أنظمة الجامعة الكابحة تمنعهم من ذلك، إن أنظمة الجامعة عاملت الطلاب وهم أناس في سن تبيح فيه قوانيننا الزواج لهم، يؤخذون إلى الخدمة المدنية أو « يستدعون إلى وحدة عسكرية معاملة الأطفال فلا دهشة إذا احتجوا على ذلك إنهم محرومون حتى من منظمات لا ضرر منها البتة، مثل جمعيات المساعدة المشتركة التي كانت ضرورية ولا شك نظراً للعوز المادي عند أغلبية الطلاب فلا مندوحة أمام الطلاب سوى التمرد ضد هذه الأنظمة، لأنها كانت مسألة كسرة خبز وإمكانية الحصول على المحاضرات وقد انتزعت منهم هذه الكسرة وتلك الامكانية وقد صرح تشيريسيفسكي فوراً أن الذين وضعوا أنظمة الجامعة أرادوا حقاً انتزاع إمكانية التعليم من أغلبية أولئك الذين دخلوا الجامعة

إذا كان مؤلف المقالة وأولئك الذين يتفقون معه يعتبرون من الضروري اثبات أن هذا لم يكن الهدف لدى وضع الأنظمة، فلينشروا الوثائق الخاصة بالاجتماعات التي تقررت فيها الأنظمة ».

إن المؤلف المجهول للمقالة « ندرس أم لا ندرس؟ » وجه اتهامه في عدم الرغبة في الدراسة ليس ضد الطلاب فقط، بل ضد كل المجتمع الروسي. وقد استفاد تشيرنيشيفسكي من هذا لنقل الخلاف في اضطراب الجامعة إلى ميدان عام أوسع.

وقد تنازل خصمه واعترف أن ثمة دلائل معينة للرغبة الدراسية في المجتمع الروسي. والدليل على ذلك في رأيه هو « مئات » الدوريات الجديدة، و« عشرات » مدارس الآحاد للبالغين التي أخذت تظهر في روسيا ويتساءل تشيرنيشيفسكي: « مئات الدوريات الجديدة، ولكن أين أحصى تلك المئات؟ إن المئات فعلاً ضرورية. ولكن هل يريد المؤلف أن يعرف لماذا لم تؤسس مئات الدوريات الجديدة، كما يجب؟ السبب أنها تحت ظروف رقابسا يستحيل على أي دورية أن توجد في أي مكان ما عدا المدن الكبرى القليلة إن كل مدينة تجارية عبية يجب أن تملك العديد من الصحف، ولو كانت صغيرة، والعديد من نشرات الأخبار المحلية يجب أن تطبع في كل مقاطعة إنها بوجد لأنهٔ غير مسموح بها عشرات من مدارس الآحاد للبالغين... الآن هنا لا مبالغة فليس الشيء ذاته كما مع مئات الدوريات الجديدة: ففي امبراطورية تعد فوق ٦٠ مليوناً يمكن لمدارس الآحاد للبالغين أن تعد بالعشرات ومع ذلك يجب أن يكون منها لا عشرات، بل عشرات الآلاف، وسيكون من الممكن الاسراع في تأسيس عشرات الآلاف منها، كما يجب أن يكون منها عدة آلاف اليوم. فكيف لا يوجد منها غير عشرات؟ لأنها مسبوهة معثرة مطوقة، ذلك أن الناس الذين يرغبون في القيام بالتعليم ولديهم الاندفاع إلى ذلك، قد طردوا

بعد الاشارة إلى وجود « مئات الدوريات الجديدة و« عشرات » مدارس الآحاد للبالغين كدلائل واضحة على رغبة المجتمع في الدراسة أسرع كاتب المقالة التي كان يحللها سيرنيسيفسكي وأضاف أن تلك الدلائل مضللة. يقول بحزن: « لقد سمعتم صرخات في الشوارع فلا شك أن شيئاً أو آخر يكون قد حدث هنا أو هناك، فتمد رأسك بسكل عفوي وتتخلص من أوهامك ويعترض تشيرنيشيفسكي قائلاً: « اعذرني أيها السيد مؤلف المقالة، فما الصرخة التي تسمعها في الشوارع؟ إنك تسمع صرخات الشرطة وضباط البوليس ونحن نسمع صراخهم أيضاً أتتحدث عن تلك الصرخة؟ لقد أخبرتنا أن شيئاً ما قد حدث هنا أو هناك... أي نوع، مثلاً، يكون قد حدث؟ هناك حدثت سرقة وهنا نفذت السلطة حكمها، هناك ديست حقوق الضعيف، وهنا جرى التغاضي عن القوي - اننا نعلم مثل هذا النوع وبسبب هذه الصرخة التي يسمعها كل فرد، وهذا الحديث المستمر، يمد المرء رأسه بشكل عفوي ويتخلص من أوهامه... ».

إن متهم الطـلاب هاجمهم لتعصبهم الواضـح لآراء الآخرين، للجوئهم في الاحتجاجات إلى الصفير والفواكه الفاسدة وبقية «أسلحة الشارع ويناقشه سيرنيشيفسكي أن «الصفير والفواكه الفاسدة ليست أسلحة الشارع أسلحة الشارع هي الحراب والبنادق والسيوف ويسأل خصمه أن يتذكر «فيما إذا كان الطلاب استخدموا أسلحة الشارع ضد أي شخص، أو أنها استخدمت ضدهم وفيما إذا كان ثم ضرورة لاستخدامها ضد الطلاب

من السهل أن نفهم تأثير مقالات تشيرنيشيفسكي في الطلاب الروس وعندما حدثت مظاهرات الطلاب ثانية في نهاية السينات قرئت مقالته «هل تعلمنا الدرس؟ في اجتماعات الطلاب باعتبارها أفضل دفاع عن مطالبهم العادلة ومن السهل أيضاً أن نفهم موقف بقية القوى من هذه المقالات الجريئة لقد بات التأثير «الخطر للكاتب الكبير على الطلاب الشباب يتضح لهم أكثر فأكثر

وإلى جانب عمل تشيرنيشيفسكي الصحفي، كان مسغلاً بسدة في الدعاية للأطروحات النظرية الرئيسية لنظرته العالمية وقد أظهرت مناقشته مع ممثلي الاقتصاد الروسي المبتذل في ذلك الوقت ضحالة المعلومات الاقتصادية في الدوائر المثقفة الروسية وقد قرر أن يعالج هذا النقص فانكب على ترجمة ميل وعرضه. وعرفت صفحات السوفريمينيك سلسلة طويلة من المقالات الاقتصادية بقلمه نشرت في غضون سنين وأكثر (١٨٦٠ - ١٨٦١) لقد عبرنا من قبل عن رأينا في طريقة تشيرنيسيفسكي في استخدام البحث الاقتصادي في المقالة الثانية، المكرسة لهذا الموضوع، سوف نحلل بالتفصيل التعاليم الاقتصادية لمؤلفنا[٦١] ولذلك فاننا في الوقت المناسب سوف نحصر أنفسنا فقط بالملاحظة التالية. إن اختيار كتاب ميل باعتباره نصاً يتخذ لاعادة بث الأفكار الاقتصادية السياسية الصحيحة بين جمهور القراء الروس لا يعتبر بحال من الأحوال اختياراً موفقاً إن أفكار ميل الاقتصادية ليست واضحة ولا متماسكة بحيث يستحيل ترك أي مفهوم واضح من المفاهيم الاقتصادية في ذهن القارىء، على الرغم من كل التصحيحات والاضافات التي قام بها تشيرنيسيفسكي واتضح تأثير «توفيقية ميل في الوقت نفسه على تشيرنيسيفسكي نفسه. إن تشيرنيشيفسكي، بانتقاله سريعاً إلى إنتقاد العلاقات الاجتماعية القائمة من موقف «النظرية» السليمة، لم يحلل آراء ميل

التي حتى علم تلك الأيام لم يسطع الاقرار بها على أنها أفكار صحيحة وفي عدة أماكن يبدوكأن سيربيسيفسكي يساهم نفسه بالمفاهيم الخاطئة[٦٢] ولن نقف هنا عند ذلك على نحو مفصل.

في الأدب الاقتصادي لأوروبا الغربية في تلك الأيام كان في مقدور تشيرنيشيفسكي أن يجد كتاباً أكثر جدارة من ميل، يوليه اهتمامه فحول مسألة علاقة العمل برأس المال يعتبر رودبرس جاراً بالمقارنة مع ميل. أما في الأقسام الأخرى فكان من الأجدى أن نترجم كتاب ريكاردو وأن نروده بالملاحظات والاضافات إن نصيب ريكاردو كبير في تعليم القارىء المطلع، بينما حتى القارىء المطلع يصبح مسوساً بتأير ميل. إن التأثير الخطير لهذا الرجل، الذي أنفق عمره متردداً، على جمهور القراء اتضح فيما بعد عندما منعت من النسر ملاحظات واضافات تشيربيسيفسكي على الترجمة التي بقيت وحدها للبيع إن القارىء الروسي باستساخ المفاهيم الاقتصادية من ميل. لا يعود يملك مفاهيم اقتصادية

وفي الوقت الذي حاول سيربسيفسكي جعل ميل شعبياً، عمد إلى ترجمة شلوسر إلى الروسة، وهو مؤرخ يحبه جداً وجدير بالاحترام حقاً

١١

في ذلك الوقت كان عمر سيرنيسيفسكي ٣٤ سنة كان في قمة قواه العقلية، ومن يعرف إلى أي ذرا كان سيصل في تطوره إلا أنه ما عاش كثيراً في حرية كان القائد المعترف به للحرب المتطرف، والرائد الكبير للمادية والاشتراكية لقد اعتبر «رأس فتنة الشباب الثوري، وليم على كل اضراباتهم وانفجاراتهم وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات ضخمت الشائعة الأمر وعزت إلى تشيرنيشيفسكي مقاصد وأعمالاً غريبة عنه. إنه نفسه يصف في **مقدمة المقدمة** الشائعة التعاطفية اللبرالية التي انتشرت في بطرسبرج فيما يتعلق بفولغن (أي هو نفسه) والعلاقات المرعومة مع حلقة لندن للمنفيين الروس وكما هي العادة لم تقف الأمور عند حد الشائعة فقط لقد اشغلت صحافة المحافظين منذ أمد طويل في الاتهامات الأدبية لتشيربيسيفسكي وقد اتهمت **السوفريمينيك** لمدة غير محدودة وعندئذٍ جاء دور الاتهامات غير الأدبية أيضاً قال متهم تشيربيسيفسكي إن مدير القسم الثالث لمسارية جلالته تلقى رسالة مجهولة نسبه

الحكومة ضد تشيريشيفسكي « أنه رأس الفتنة » و« الاشتراكي المتطرف » وقد أعلن هو نفسه أنه بريء ، وقيل انه محرض خطير ، ويطالب الناس بالخلاص من هذا الرجل ، وكل أصدقاء تشيرنيشيفسكي السابقين وكل الناس المتنويرين يرون أن ميوله لا تقتصر على الكلمات بل تتعدى ذلك إلى الأفعال ، وقد انفضوا عنه . ويكتب صاحب الرسالة

ما لم تبعدوا تشيرنيشيفسكي فان المشاكل والدماء سيظل قائمة ، انهم عصابة من المشاغبين المتهورين والناس الطائشين . ربما يقضى عليهم تدريجياً هناك لجان من هؤلاء الاشتراكيين في فورونيش وساراتوف وتامبوف وأمكنة أخرى ، وفي كل مكان يحرضون الشباب اطردوا تشيرنيشيفسكي أينما ترغبون ، ولكن أسرعوا واحبطوا قدرته على العمل . خلصونا من تشيرنيشيفسكي من أجل السلم العام

لقد اعتقل تشيرنيشيفسكي في ٧ تموز ١٨٦٢ وطالما أن تشيرنيشيفسكي قال ، حسب كلمات المدين ، أنه بريء ، فقد أسرع الفرسان الزرق من القسم الثالث إلى تلفيق حجة رائفة . أما كيف دبرت قضية تشيرنيشيفسكي فيمكن أن تظهر من حقيقة أن مدبرها لم يكن يخجل من الاستشهاد برسالة من متهم مجهول حتى في المقاضاة ، فحسب القانون الروسي « إن التحقيق لا يمكن أن يبنى على اتهامات وطعون ورسائل مجهولة » (المادة ٥٢ من الجرء الثاني من قانون العقوبات المجلد الخامس عشر ، نظام القوانين طبعة ١٨٥٧) حتى قبل اعتقال تشيرنيشفسكي ، كان فيتوشكين(٦٣) محجراً ، فقيل إنه كان يحمل رسالة من هرزن إلى سيرنو سولو فييفتش تضمنت الحاشية التالية

« ننوي أنا وتشيرنيشيفسكي أن نطبع **السوفريمينيك** هنا أو في جنيف وعلى أساس هذه الحاشية اعتقل تشيرنيشيفسكي وفي أثناء ذلك أعلن هررن في العدد ١٩٣ من **الكولوكول** أنه لم يقل كلمة واحدة في رسائله عن خططه في النشاط الأدبي مع تشيرنيشيفسكي «أنا لم أراسل تشيرنيسيفسكي أبداً أنا لم أكتب مطلقاً أني أنوي واياه طباعة **السوفريمينيك** إذ لا علم فيما اذا كان يرغب في طباعة **السوفريمينيك** خارج روسيا أم لا وقد أعلن حظر **السوفريمينيك** في الصحف فاقترحنا فوراً وبصورة علنية وصريحة على محرري السوفريميك أنا على استعداد لطباعتها على نفقتنا في الخارج ولم تكن ثمة أي استجابة على ما قدمناه فأنى لي أن أكتب عن هذا بشكل مؤكد ، وفي روسيا؟ من يدري فربما كنت أنا أيضاً أخدم في الشرطة السرية؟ ولكن متى يكف خدم الحكومة الروسية الغيورون عن البهتان والأباطيل؟ لقد وجدت في

منزل تشيرنيشيفسكي أثناء سيسه بضع أوراق ورسائل لا تثبت شيئاً، وقد أدخل عدة مهمين مشهورين في القضية أمثال فسيفولود كوستوماروف، وقد كشفت مذكرة الاتهام أنه كتب، حتى قبل أن يروج أنه «يمكن أن يعتقل في أي يوم» وقد تمّ الأمر ونفذت المهمة مثل تشيرنيشيفسكي أمام المحكمة العليا وواجه التهم التالية: ١) العلاقات مع هرزن ٢) تأليف البيان التحريضي «إلى فلاحي الضيع الذي زعم أنه أعطاه للمتهم كوسوماروف للقيام بطباعته ٣) «الاستعدادات لانتفاضة» كانت رسالة حملها كوشوماروف إلى المدعو الكسي نيكولا يفتش، تقول بلهجة غامضة جداً أنه لا مجال لاضاعة الوقت فاما «الآن أو لا شيء أبداً وأن الكسي نيكولا يفتس المزعوم لا طاقة له وقد أنكر تشيرنيشيفسكي أن تكون هذه الرسالة منه، ولكن حتى لو كانت منه، فان كل ما يمكن اتباعه على أساسها مشاركته في إقامة صحافة سرية «منذ ستة وحتى الآن وأنت تغشا بصحافتك، والآن حان الوقت الذي لا يمكن أن نتأخر بعده، إذا أردنا أن تنتصر قضيتنا   إلى أي قضية تشير الرسالة   هذا غير معروف أبداً لا شك أنها تشير إلى طباعة بيان، ولكن ليس كل البيانات «استعدادات للتمرد إن المرء ليفكر أنه حتى على محامي القسم الثالث أن يفهموا أن هناك مدة طويلة جداً من إقامة صحافة سرية وطباعة بيانات حتى الاستعدادات للتمرد بالطبع إنهم يفهمون ذلك ولكنهم يفهمون أيضاً أن تشيرنيسيفسكي كان قوة ثورية ضخمة

ليس ثمة شيء غير محتمل في افتراض أن تشيرنيشيفسكي ينتمي إلى جمعية ثورية على العكس، فمثل هذا الافتراض محتمل تماماً ولكن أين في العالم المتحضر من يعتبر **الاحتمال حجة قانونية**؟ ليس في أي مكان خلا روسيا، وحتى في روسيا فقط في المحاكمات السياسية

إن قلة ذوق مجلس النائب العام فيما يتعلق بالاثبات في قضية تشيرنيشيفسكي تجلت في الواقعة التالية إن الاتهام يستشهد برسالة من المتهم إلى زوجته، كتبت من قبل في القلعة «حياتي وحياتك تنتميان إلى التاريخ، ولسوف تمر مئات السنين، واسمانا يظلان عزيزين على الشعب، الذي سيتذكرهما بتقدير، في حين يغيب أولئك الذين عاشوا معنا   وإلى جانب هذه الكلمات، التي تشير بوضوح الى «الاستعدادات للتمرد يستشهد الاتهام بالأسطر التالية من الرسالة ذاتها يكتب تشيرنيشيفسكي مخبراً زوجته بقصده في تصنيف **موسوعة المعرفة والحياة**: منذ زمن ارسطو لم يفعل أحد ما أرغب

في فعله، وسوف أكون معلماً ممتازاً للشعب عبر القرون كما كان أرسطو فما الذي تشمه هذه الأسطر؟ ولماذا يرجع إليها ملفق الاتهامات؟ إنها واضحة رجل يسعد لطباعة موسوعة هو رجل يعد فعلاً لـ «تمرد

اسغرق التحقيق في قضية تشيرنيسيفسكي مدة سنين وقد رفض باستمرار الاتهامات الموجهة ضده، ومن الواضح أنه كان يأمل في تدبير أمر خلاص من براثن السر الروسي سريعاً ويسير مقصده إلى طباعة **موسوعة** إلى هذا الأمل إن رواية **ما العمل؟** التي كتبت عندما كان في السجن ملأى بهذه الآمال البراقة وبالمناسبة إن الآمال في روايته ليست معلقة على اعتبارات قانونية حول عدم إمكانية الحكم عليه بسبب نقص الأدلة، بل بالنصر السريع لحركة التحرر في روسيا وما أكثر الأوهام التي نجدها في هذه الرواية حول اقتراب يوم النصر في الخاتمة هناك بعض المراجع الغامضة من عام ١٨٦٦ (تمت الرواية في نيسان ١٨٦٤)(٦٤) نجد فيها شيئاً ما سوف يحدث في روسيا إن السيدة التي تظهر في المشاهد الأخيرة من الرواية مرتدية ثياب الحرن على صديق في السجن أو المنفى كما هو واضح، تندفع عبر شوارع بطرسبرح في ١٨٦٦ فرحة مسرورة يصحبها صديقها الطليق إننا نحرر طبعاً ماذا يعني المؤلف بهذا

١٢ *

لن نشرح مضمون رواية **ما العمل؟** من لم يقرأ أو يكرر قراءة هذا العمل الشهير؟ من لم يتأثر به، من لم يصبح أنقى وأحسن وأنصع وأشجع تحت تأثيره الفعال؟ من لم يتأثر بالصفاء الأخلاقي للشخصيات الرئيسية؟ من، بعد قراءة هذه الرواية، لم يتأمل حياته الخاصة ومن لم يختبر نزوعاته وميوله الخاصة؟ لقد أمدنا جميعاً بكل من القوة الأخلاقية والايمان بمستقبل أفضل

والثقة الكبرى

بالعمل الذاتي(٦٥)

لقد أشار أنصار التجهيل مراراً إلى غياب المزايا الفنية من الرواية، بسبب قصديها الواضحة هذه الاتهامات، بصراحة، مسوغة فالرواية ذات قصدية كبيرة فعلاً، وليس فيها سوى القليل من السمات الفنية ولكن ليقدموا لنا أي عمل فني فعلي

---

* [انظر نهاية النسخة من بداية الفصل المكتوب للطبعة الألمانية]

في الأدب الروسي يمكن أن يُنافس رواية **ما العمل؟** في تأثيرها على تطور البلاد الأخلاقي والثقافي لن يستطيع أحد أن يريبا مثل هذا العمل، لأنه لم يوجد ولن يوجد منذ ميلاد الطباعة في روسيا وحتى يوما هذا لم يطبع عمل واحد حقق النجاح الذي حققته **ما العمل؟** في روسيا فلنحاول بعد ذلك أن نناقش قصدية المؤلف، ولنحاول أن نكرر أنه ليس بكاتب إن جمهور القراء سوف يخبرونك تماماً أن هذا لا أهمية له، ذلك أن كل الحكايات جيدة إلا المملة - وقد كانت مسلية بلا ملل في رواية تشيرنيسيفسكي وهذا يكفيها وأخيراً أيها السادة أنصار التجهيل أنتم أيضاً لا تتجنبون القصْدية في مؤلفاتكم عن الخرافة أنتم أيضاً لا تتورعون عن كتابة رواية قصدية أو قصة غرضية المرعج هو أن لا أحد يقرأ مؤلفاتكم القصدية، ولا تسحر أحداً من أين يببع الخلاف في اعتقادكم؟ ألا تعتقدون أن ثمة اتجاهات واتجاهات، وأن هناك بعض الاتجاهات تحول دون نجاح المؤلفات المتأثرة بها؟

فما سر النجاح الضخم الذي لا نظير له لرواية **ما العمل؟** إن السر يكمن بالضبط في سمة الاتجاه، أي أن الأفكار التي عبر عنها المؤلف قدرت تماماً في الوقت المناسب إلا أن هذه الأفكار بحد ذاتها لم تكن جديدة، إن تشيرنيشيفسكي اقتبسها كلها من الأدب الأوروبي الغربي ففي فرنسا* دافعت قبله برمان جورج صاند عن الحرية، وأهم من ذلك دافعت عن العلاقات **المخلصة والشريفة** في حب الرجل للمرأة أما المطالب الأخلاقية التي وضعتها على الحب فلا تختلف لوكريسيا فلوريايي عن فيرا بافلوننا أبداً لقد قوبلت أفكار جورج صاند في بلادنا بتعاطف شديد قبل الأربعينات لقد كان بيلنسكي معجباً متحمساً لهذه المؤلفة لقد دافع في مقالاته عن آرائها في الحرية والصدق في الحب إننا نعرف كيف لام بطلة بوشكين تاتيانا لأنها في حبها لأونيجين لم تتبع ما يمليه قلبها، ولأنها «أعطيت لآخر فاستمرت تعيش مع زوجها الهرم الذي لم تحبه إن «أبناء الأربعينات في موقفهم من المرأة التزموا

(*) فلنلاحظ بالمناسبة أن مسرحيه غوته «**التبادلات المزدوجة**» وبعض مسرحياته الأخرى تقدم دفاعاً عن حرية الحب وقد فهم ذلك الكثير من المؤرخين الألمان للأدب الألماني الذين بينما لا يجرؤون على شجب هذا الكاتب الرسمي، فانهم في الوقت نفسه لا يجرؤون على موافقته بسبب فضيلتهم القدرة، فيتهامسون عادة بشيء غير مبين عن المغالطات العربيه للكاتب الألماني العظيم

بالمادىء نفسها التي اتخذها لوبوخوف وكيرسانوف[٦٦] على أي حال قبل ظهور رواية **ما العمل؟** لم يكن يأخذ بهذه المبادىء سوى حفنة « مختارة فجمهور القراء لم يفهمها أبداً وحتى هرزن تردد في شرحها بشكل واضح كامل في روايته **من الملوم؟** ومع ظهور **ما العمل؟** شرحت المسألة بوضوح وقوة لم يكن ثمة مجال للشك فالناس المفكرون باختيار اما الاسترشاد بمبادىء لوبوخوف وكيرسانوف في الحب، أو الانصياع لحرمة الزواج والاستقرار تنشأ عاطفة جديدة، وإن تقدم السن، فاما تجريب طريقة في المغامرات العاطفية السرية، واما اخضاع كل العواطف في القلب وكبحها نظراً لواقع **الارتباط** بشريك زوجي، ليس بينهما حب ولا بد من أن يتم الاختيار بشكل واع لقد عالج تشيرنيسيفسكي الموضوع بطريقة أن كل ما هو صادق وكل ما هو غريزة طبيعية يصبح مستحيلا في الحب وتمتد السيطرة الفكرية إلى الحب، وقد تسنى الرأي العام نظرة واعية للعلاقات بين الرجل والمرأة وقد كان هذا هاماً في بلادنا في الستينات إن الاصلاحات التي قامت بها روسيا لم تقلب علاقاتها الاجتماعية فقط رأساً على عقب، بل علاقات الأسرة أيضاً إلا أن خيطاً من نور وصل الأعماق التي كانت في ظلمة دامسة وقد اضطر الشعب الروسي لاختبار نفسه، لينظر في علاقته مع العشيرة والمجتمع والأسرة إن عنصراً جديداً أخذ يلعب دوراً كبيراً في العلاقات العائلية، وفي الحب والصداقة - **المعتقدات** التي لم تكن من قبل إلا ملكاً لحفنة صغيرة من « المثاليين هذه الفروق أدت إلى تمزقات غير متوقعة امرأة « تقدم بالزواج إلى رجل غالباً ما تكتشف برعب أن « مالكها القانوني تافه مرتش مملق زاحف أمام الأعلين رجل يسره أنه « يملك زوجته الجميلة، وتأثرت فجأة بمجرى الأفكار الجديدة، غالباً ما تتحقق بهلع أن لعبته السحرية التي تهمه لم تكن « الناس الجدد أو الأفكار الجديدة إنما الملابس الجديدة والرقصات الجديدة ولقب زوجها ومرتبه ولا تجدي النصائح ولا التحذيرات، فتنقلب المرأة الجميلة إلى سليطة حقيقية حالما يحاول زوجها أن يقول أنه « مسرور أن يقوم على خدمتها إلا أن تلك المذلة تثير الغثيان كيف يتصرف المرء؟ وماذا يجب أن يعمل؟ لقد أظهرت الرواية الشهيرة كيف يتصرف المرء وماذا يعمل فتحت تأثير الناس الذين اعتبروا أنفسهم بشكل مسبق ملكاً مشروعاً للآخرين، طفقوا يكررون مع المؤلف قذر قذر من يجرؤ أن يملك آخر - وهناك استيقظ فيهم وعي الكرامة الانسانية، وبعد عواصف عائلية

وروحية مريرة، أصبحوا مستقلين، فنظموا حياتهم بحسب معتقداتهم، وتقدموا بوعي نحو هدف انساني معقول وبالنظر إلى هذا وحده يمكن القول إن اسم تشيرنيشيفسكي يسمي إلى التاريخ، وأنه سيظل عزيزاً على الناس، الذين سيتذكرونه باعجاب في حين يغيب هؤلاء الذين يعرفون المتنور الروسي الكبير شخصياً

لقد اتهم أنصار التجهيل تشيرنيسيفسكي أنه يدعو إلى «اعتاق الجسد» في روايته ولا شيء، أشد سخفاً ونفاقاً من هذا الاتهام خذ أي رواية عن حياة المجتمع الراقي وتذكر المكائد الغرامية للنبلاء والبرجوازيين في كل البلدان وكل الشعوب - وسوف ترى أن سيرنيسيفسكي لم يكن بحاجة إلى الدعوة إلى اعتاق الجسد، الذي كان حقيقة مفروغاً منها إن روايته، على العكس، تدعو إلى اعتاق الروح الانسانية والفكر الانساني لا أحد تأثر باتجاه الرواية لديه أي رغبة في مغامرات نسائيه بدونها تبدو فارغة حياة أبناء «المجتمع الذين يكنون احتراماً منافقاً للأخلاق التقليدية إن السادة أنصار التجهيل يفهمون تماماً الطبيعة الأخلاقية الحازمة لكتاب تشيرنيسيفسكي وتضايقوا منه بسبب هذه الصرامة الأخلاقية بالضبط إنهم يشعرون أن أناساً مثل أبطال ما العمل؟ لا بد أن يعتبروهم اجمالاً فاسقين ويجب أن يشعروا بالاحتقار تجاههم

يلاحظ بعض الناس أيضاً أن من حق لوبوخوف وفيرا بافلوفنا أن يظهرا مشاعرهما النبيلة، لأنهما لا يملكان أطفالاً ولو كان لديهما أطفال لاضطرا أن يسلكا الطريق المعتادة في حبهما يقول تشيرنيسيفسكي نفسه، لو أن فيرا بافلوفنا كان تملك أطفالا لكان عليها أن تتصرف على نحو آخر لقد فهم تماماً أن مسألة العلاقات بين الرجل والمرأة وثيقة الصلة بمسألة الأسرة التي بدونها لا يمكن للناس أن يعيشوا في المجتمع القائم اليوم وعرف أن الحب حتى يكون حراً من الضروري اعادة تنظيم الأسرة وبالتالي كل العلاقات الاجتماعية إلا أنه لم يقف عند هذه الفكرة، لأن علاقات الحب التي سوف يدخلها الناس في المستقبل هي شيء والانسانية والعقلانية الممكنتين حالياً في الزواج بين المتنورين شيء آخر تماماً ولو تكاثر نسل فيرا بافلوفنا ولوبوخوف بعدد رمل البحر لظلوا بشراً معقولين، وسوف لن يسمم الواحد حياة الآخر بسبب الانحرافات القسرية للشعور المستقلة عن إرادتهم ربما كان تشيرنيسيفسكي صور في روايته أبسط قصة بصورة معقدة يقظة حب جديد في امرأة متزوجة من دون أطفال وبتقديم مثال

لهذه الحالة من الالترامات المتبادلة بين الناس المحسمين، ظن أنه يتوقع من القراء الدين فهموه أن يقرروا بأنفسهم كيف يجب على الزوجين ذوي الأطفال أن يسلكا في الأوضاع المماثلة فتحت تأثير شتى الاعتبارات الشخصية نجدهما يسلكان سلوكاً مختلفاً إلا أنهما إذا فهما تشيرنيسيفسكي فلن يسلكا أبداً مسلك أبناء الطريقة القديمة

١٣

كما نعرف كان انتشار الأفكار الكبرى للحقيقة والعلم والفن في روسيا الهدف الرئيسي، ويمكن أن نقول الوحيد، في حياة مؤلفنا وكان من فوائد هدا الانتشار أنه كتب رواية **ما العمل؟** ومن الخطأ اعتبار هذه الرواية كرازة للعلاقات المعقولة في الحب فقط إن حب فيرا بافلوفنا للوبوخوف وكيرسانوف هو لوحة فقط رسمت فيها أفكار هامة أخرى للمؤلف لقد تحدثنا سابقاً عن التعاونيات التي أقامها فيرا بافلوفنا إن المؤلف يجعلها سخرط في هذا الساط ليسير على أتباعه بالمهات العملية للاشتراكيين في روسيا وقد ارسمت مىل المؤَلف الاشتراكية في أحلام فيرا بافلرفنا بألوان براقة وصورة المجتمع الاشتراكي التي رسمها مضروبة ضرباً على نمط فورييه إن تشيرنيسيفسكي لم يقدم للقارىء جديداً إنه يعرفه فقط بالنتائج التي وصلها الفكر الأوروبي الغربي منذ أمد طويل ولا بد أن نشير هنا إلى أن آراء فورييه كانت معروفة تماماً في روسيا حتى في الأربعيات لقد اتهم «البتراشيفكسي بالنزعة الفورييه إلا أن تشيرنيسيفسكي نشر أفكار فورييه بسكل لم يسبق له ميل لقد أدخلها إلى الجمهور بصورة واسعة وفيما بعد حتى المعجبون بتشيرنيسيفسكي في بلادنا سوف يهزون أكتافهم في الحديث عن أحلام فيرا بافلوفنا إن التعاونيات الخيالية (الفالانتيات الفورييه) التي حلمت بها قد تبدو لبعض المتأخرين ساذجة وقيل كان على الكاتب المشهور أن يتحدث للقارىء عن أشياء أقرب إلى قلوبنا وعملية أكثر وحتى الناس الذين يدعون أنهم اشتراكيون يكررون هذا لا بد أن نعترف أننا نعتبر هذه القضية مختلفة تماماً فنحن نرى في أحلام فيرا بافلوفنا خصائص سيرنيسيفسكي الاشتراكية التي لسوء الحظ لم يولها الاسراكيون الروس الاهتمام الكافي في تلك الأحلام يلفت نظرنا تأكد سيرنيسيفسكي الكامل من حقيقة أن النظام الاشتراكي يجب أن يقوم على التطبيق الواسع لانتاج القوى التكنكيه

الـتي تطورت في المرحلة البرجوازية. إن في أحلام فيرا بافلوفنا جيوش عمل ضخمة ستحرث مجمعة في الأنساق مسقلة من آسيا الوسطى إلى روسيا ومن أقطار الطقس الحار، إلى أقطار الطقس البارد. وكل هذا بالطبع، جرى استيعابه بمساعدة فورييه أيضاً. إلا أن من الواضح حتى من التاريخ اللاحق لما يسمى الاشتراكية الروسية أن جمهور القراء الروس لم يكن واعياً لهذا. إن ثورييا في أفكارهم عن المجتمع الاشتراكي ذهبوا بعيداً في ادراكه على شكل كومونات فلاحية متحدة، تزرع حقولها بالمحراث القديم ذاته الذي كان يستخدم لكشط التربة أيام باصيل الأعمى* إلا أن من الواضح أن مثل هذه الاشتراكية لا تعبر اشتراكية. إن تحرير **العمل** يمكن أن يتم فقط من خلال تحرير الانسان من «**سلطة الأرض** و«**الطبيعة**» بشكل عام. وهذا الانعتاق يشكل أساس جيوش العمل تلك. وأساس التطبيق الواسع لقوى الانتاج الحديثة التي تحدث عنها سيرنيسفسكي في أحلام فيرا بافلوفنا، والتي سيباها نهائياً رغبة في أن تكون عملية.

آراء تشير نيسيفسكي الاشتراكية تلك التي لم يفهمها الكثير من قرائه يمكن أن نجد عدم الفهم هذا في مقالة بيساريف، الرائعة من الناحية الأدبية، «**البروليتاريا المفكرة**» التي هي تحليل لرواية **ما العمل**؟ فبيساريف شديد الغبطة بفيرا ولوبوخوف وكيرسانوف. فهم بالنسبة اليه الممثلون الحقيقيون لـ «النمط البازاروفي»[69] الموضوع في الظروف الملائمة لهم** إنهم أناس جدد بكل معنى الكلمة. ولكن ما الصورة التي شكلها لنفسه عن شخصية ونشاط الناس الجدد؟ قبل كل شيء يتعلق بحقيقة أنهم جميعاً مهتمون بالعلوم الطبيعية. وكانت العلوم الطبيعية، كما نعرف، ألفباء المعرفة عند بازاروف. تعلّمْ واحداً من هذه العلوم **الحقيقية**، واعمل بجد، ونظم علاقاتك مع زوجتك وأصدقائك بحكمة - وسوف تصبح بروليتاريا مفكراً. سوف تعمل لصالح الآخرين الذين ليسوا بعد بروليتاريين مفكرين، وعليك أن تكون **منسجماً** تماماً

---

* [انظر فيما بعد الإضافة الى هذا المقطع للطبعة الألمانية]

** الإ... سيرنيسفسكي نفسه قلما اعتبر أبطاله ممثلين لـ «نمط بازاروف». إن **السوفريميينيك** ترى بازاروف **مخلوقاً** من حقل الشباب (انظر مقالة انطونوفتش المشهورة اسموديوس عصرنا في عدد **السوفريمينيك** لعام ١٨٦٢)

معهم ولكن ليس ثمة كلمة واحدة في المقالة عن حقيقة أن البروليتاري المفكر عليه القيام بمهات أخرى أوسع بالنظر الى البروليتاريين الآخرين. بالطبع من الجيد أن نقيم هده التعاونية أو تلك، مثل فيرا بافلونا، ولكن هذا ليس الشيء الرئيسي إن الشيء الرئسي هو سظيم الحياة الخاصة بحكمة والاهتمام بالعلوم الطبيعية إن بيساريف لم يفهم أبداً راخميوف ربما لا يغفر من إطراء راخميوف (إن المرء مضطر الى إطرائه لأن سير نيسيفسكي أطراه) ولانه لم يفهم هدا النمط، فيبدي، بشكل عفوي، كراهيته له إن الناس الجدد «المثاليين الحقيقيين بالنسة الى بيساريف هم فيرا بافلوفنا ولوبوخوف وكيرسانوف بينما راخميتوف، عند تشيرنيشيفسكي، بالنسبة الى لوبوخوف وأصدقائه الحميمين مثل القلعة الضخمة بالنسة الى المنزل العادي لقد رسم راخميوف بالضبط ليظهر العادي في الناس أمثال لوبوخوف إن لوبوخوف إنسان ذو علاقات شخصسة إنه يتعاطف كثيراً مع الاشتراكية، ولكنه يهتم بالنشاطات الاجتماعية اهتماماً عابراً، فقط عندما سمح الفرصة أما راخميتوف فيكرس كل وقته وكل فكره للمجتمع لا يعرف بهجة شخصية أو ألماً شخصياً إطلاقاً أنه يقرر حتى أن لا يكون قريباً من امرأة لذلك هو ضد النمط الذي رسمت فيه شخصيتا لوبوخوف وكيرسانوف إنه إنسان مكرس لفكرة فقط في خدمة هده الفكرة يمكن للقوى الغنية في هذه الشخصية الحديدية أن تفصح عن ذاتها وهو صعب في العلاقات الشخصية، أو أنه، إذا رغبت، لا يحتمل، كما تخبره فيرا بافلوفنا بصراحة. وهو نفسه يعرف ذلك ولا يسعر بأي ازعاج لهذه المعرفة إن سفينة كبيرة تجر بعيداً

لقد قدم تشيرنيشيفسكي ميلاد النمط الجديد لـ «الناس الجدد في بلادنا - نمط الثوري لقد رحب بفرح بظهور هذا النمط الجديد ولم يستطع أن يقاوم بهجة رسم ولو سيرة حياته الغامضة وفي الوقت نفسه، تنبأ آسفاً بالمحاكمات والآلام التي تنتظر الثوري الروسي، الذي يجب أن تكون حياته نضالا شديداً وتضحية ذاتية عظيمة وهكذا يقدم تشيرنيشيفسكي لنا في راخميتوف الراهد الحقيقي إن راخميتوف يعذب نفسه عن قصد إنه «لا يعرف الشفقة تجاه نفسه» بتاتاً، كما تقول صاحبة الأرض حتى أنه يقرر اختبار ما اذا كان قادراً على تحمل العذاب الناجم من قضاء الليل اضطجاعاً على فراش لباد غررت فيه المسامير أن كثيرين، بمن فيهم بيساريف اعتبروا هذا مجرد شذوذ. اننا نوافق على أن بعض نواحي شخصية راخميوف قد رسمت بشكل مختلف.

لكن الشخصية ككل تبقى شخصية حقيقية بالنسبة للحياة إن كل ثوري روسي بارز يمتلك الكثير من روح راخميتوف

واليوم انتهى ثوري الانتلجنسيا من لعب دوره لم تعد فيه إصالة، إنه يكرر نفسه ويرداد ضحالة لا بد من أن يحل مكانه. وسوف يحتل. ثوريون من الطبقة العاملة. أطفال الشعب الحقيقيون إلا أنه ذو تاريخ مجيد. ولذلك لا يستطيع المرء إلا الإعجاب بإستيعاب سيريتشيفسكي الذي نجح في تصوير السمات الرئيسية، على الأقل للنمط الذي كان يولد عندئذٍ(٧٠)

١٤

حكم المجلس الأعلى على سيرتشيفسكي بالتجريد المدني مشفوعاً بأربع عشرة سنة من الأشغال الشاقة في المناجم، ثم النفي الى سيبريا مدى الحياة وفي الحكم النهائي خفض الأشغال الشاقة الى سبع سنوات وفي ١٣ حزيران ١٨٦٤ وفي ساحة ميتسكي في بسكي قرىء الحكم علناً على الاشتراكي الروسي العظيم أحضر الى منصة التشهير شاحباً هزيلاً مرهقاً فوقف بصمت وقد أدار ظهره للضابط الذي كان يقرأ الحكم وأجريت مراسيم كسر السيف فوق رأس المتهم. وعندئذٍ سحب الجلاد يديه إلى تعليقتين في السقالة وفي هذه اللحظة سقطت باقة ورد على السقالة، وانطلقت صيحات تعاطف مع المتهم من قلب الجمهور المحتشد في ساحة ميتسكي وأرسل سيريتشيفسكي الى سيبريا

وعزم الجلاد المشهور مورافيوف على إشراكه بتهمة في قضية كاراكوزوف، ولكن القيصر اسكندر الثاني، لسبب ما، رفض ذلك، وظل تشيرنيشيفسكي في سيبريا أمضى هناك عشرين سنة، وبناء على إلحاح رئيس الدرك، الكونت شوفالوف، لم يشمله أي عفو .وفي نهاية السنة السابعة للأشغال الشاقة، أرسل الى فيليويسك، في إقليم ياكوتسك حيث لم يستطع أن يكلم أحداً غير القوزاق والدرك الذين يحرسونه. وعاش سيريتسفسكي في هذا المعتقل الجديد في زاوية نائية غير صحية من سيبريا حتى ١٨٨٣ عندما سمح له أن يذهب ويعيش في استراخان ويمكن أن يعجب المرء من هذا الرجل الهزيل، ضعيف الصدر كيف تحمل كل هذه الإجراءات.

لن نتحدث هنا عن المحاولات العديدة لاطلاق سراح تشيرنيسيفسكي طالما أنها معروفة تماماً للجمهور[٧١]

وبعد عودة تشيرنيشيفسكي مباشرة من سيبريا انطلق في التأليف الأدبي بقوة ترجم بساط كتاب فيبر **التاريخ العالمي**، وكتب عدة مقالات للدوريات ومن المثير أن إحدى المقالات الأخيرة التي كتبها مؤلفنا قبل النفي كانت «مواد لسيرة حياة ن .دوبروليوبوف»، وإحدى أولى المقالات الطويلة التي كتبها بعد عودته من المنفى كانت متابعة لتلك «المواد ومن الواضح أن ذكرى هذا الرفيق الموهوب والمجبوب، الذي مات قبل اكتماله، لم تترك تشيرنيشيفسكي

سوف نتكلم في مقالة ثانية عن المقالات التي كتبها بعد المنفى وسوف نكتفي حالياً بالقول أنه على الرغم من اللغة والأسلوب اللذين يميزان تشيرنيشيفسكي في هذه المقالات، إلا أن توهجه وعمقه السابقين لا نجدهما فيها إن مقالته عن دارون ضعيفة جداً حتى أنها تركت انطباعاً سيئاً[٧٢] عندما تقرؤها تشعر أنك تقرأ كاتباً مهزوزاً جداً ومحطماً إن الجزء الصغير من الحرية التي سمحت له قبل وفاته لم تستطع أن تبعث تشير نيشيفسكي السابق. إن تشيرنيشفسكي السابق قتله حكم المجلس الأعلى، ولم تقترف الحكومة الروسية جريمة أعظم من هذه في ميدان التطور الفكري في روسيا وهذا هو السبب في أننا حين نطلع على هذه المقالة الأولى، نكرر بتعاطف كبير كلمات هرزن التي كتبها عندما سمع بالحكم على تشيرنيشيفسكي: «يمكن لهذه الجريمة النكراء أن تحل لعنة على الحكومة، على المجتمع، على الصحافة القذرة الفاسدة، التي أوقعت هذا الاضطهاد، التي أبرمته بسبب حزازات شخصية. لقد سمحت للحكومة أن تذبح أسرى الحرب في بولونيا، وأن تصادق في روسيا على أحكام الجهلة المتوحشين في المجلس الأعلى والأوغاد الحمقى في مجلس الدولة.. وعندئذ يقول الشعب البائس الكسول أنه لا يجوز أن نلعن هذه العصابة من المتشردين الانذال التي تحكمنا».

إضافة الى الطبعة الألمانية لكتاب ن غ تشيرنيشيفسكي (١٨٩٤)

ملحق الصفحة ٩٣ من الاشتراكي الديمقراطي*

[فمن أجل نشر الأفكار النبيلة للحقيقة والمن والعلم في وطنه أراد تشيرنيسيمسكي أن يكرس قواه](٧٣)

لقد أصبح كاتباً وقد جذب انتباه هيئة تحرير **السوفريمينيك** ظهور أطروحته فقد طبعت منذ ١٨٤٧ على يد باناييف والشاعر نكراسوف وكان تشيرنيشيفسكي قد تسلم مركزاً دائماً في الصحيفة، وقد شملت مسؤوليته كل أقسام النقد وفيما بعد، في ١٨٥٩، عندما سمحت **السوفريمينيك** بالكتابة في السياسة أشرف تشيرنيشيفسكي أيضاً على قسم السياسة عمل بلا كلل. وكانت مقالاته موزعة بين مختلف أقسام الصحيفة كالتالي: أولا ساهم بمثالة طويلة حول مسألة نظرية، ثم كتب مطالعة سياسية وقام بمراجعة في الأدب الروسي، وأحياناً في الأدب الأجنبي، وراجع عدة كتب جديدة، وأخيراً في أوقات الراحة واللهو قدم عدة هجومات نقاشية ضد خصومه هذا العمل الشاق الدؤوب تفسره لنا، الى درجة بعيدة، حقيقة أنه حتى محررو **السوفريمينيك** وعلى الأخص في السوات الباكرة لنشاط تشيرنيشيفسكي الأدبي، قليل أولئك الذين نضجت أفكارهم مثل تشيريشيفسكي في رواية **مقدمة المقدمة** يقول فولفن، الذي تحت اسمه صور تشيريسيفسكي شخصيه هو** أنه مضطر الى كتابة أشياء كثيرة لخوفه أن الآخرين سيكتبون أموراً تافهة ومنذ أن أصبح تشيرنيشيفسكي المحرر الرئيسي في **السوفر يمينيك** اتجهت بشكل طبيعي كل القوى الأدبية المتفتحة الى الصحيفة وهكذا

---

* أنظر ص ٧٠ من الطبعه العربيه هده

** تقوم مديه ساراتوف. مسقط رأس سيرىسمسكى على صفه الفولغا

في ١٨٥٦ بدأ يكتب فيها دوبروليوبوف الذي سرعان ما اشتهر والذي وضعه تشيرنيشيفسكي - في تواضع جم - في مكانة أعلى من نفسه بكثير لقد كانت أهمية الصحافة كبيرة جداً في بلادنا في ذلك الوقت وللرأي العام اليوم صحافة أكبر (تقيدها الرقابة)؛ في الأربعيات كانت لا تزال فتية جداً، ولكن في نهاية الخمسيات وبداية السيات حلّت مرحلة التفاهم الأكبر بين الرأي العام والصحافة، مرحلة التأثير الأكبر للصحافة في الرأي العام. في مثل هذه الظروف فقط كان بالإمكان أن يتكون الاهتمام المندفع بالنشاط الأدبي والإيمان العميق بأهمية الدعاية الأدبية اللذين يجدهما المرء في الكتاب البارزين لذلك الوقت. وكل ما كان قديماً تقليدياً موروثاً عن الأسلاف خضع للنقد، وكل ما كان جديداً نوقش من موقف « العقل » الذي جرى الاعتماد عليه، كما بدا، لاعادة تكوين أفكار القراء الروس، من المسائل الفلسفية العامة حتى مسائل ما اذا كان يجب تقميط الأطفال في المهد وضربهم في سني التعليم هذه المرحلة في الحياة الروسية تذكرنا بفترة في فرنسا عندما كتب المتنور الكبير فولتير حول كل شيء تحت الشمس من نظرية نيوتن حتى تربية السيدات اليافعات

وقفت صحيفة تشيرنيشيفسكي يومها على رأس الحركة الأدبية في روسيا لقد كانت مقروءة من قبل « الناس الجدد »[٧٤]، ويخافها جداً، لسبب أو لآخر، أولئك الدين يسمون عرقلة هذه الحركة. والخوف يورث، ولا شك، الحقد وكلما تعاظم تأثير السوفر يمينيك، ازداد عدد الهجمات التي تشها مختلف القطاعات على الصحيفة عامة، وعلى تشيريشيفسكي خاصة. وبدأ محرور السوفر يميبيك يعتبرون أناساً خطرين يدمرون كل « أسس المجتمع بعض « التقدميين » في الأربعيات، الذين كانوا في وقت ما أصدقاء أعظم الكتاب تأثيراً في ذلك الوقت، بيلنسكي، شهروا بالسوفريمينيك على أنها صحيفة « البهلستيين »، وبدؤوا يعلنون أن بيلنسكي ما كان يستحسن هذا الاتجاه الذي سببه هكذا كان موقف تورغنيف* وكذلك هرزن الراديكالي نصير السلافية، الذي هاجم في صحيفته كولوكول في لندن « الحقد الذي زعم أنه من المستحيل الرضا عنه، فعمل بالطريق نفسه. وقد ردت السوفريمينيك بدورها الصاع بالصاع لقد ردت على الهجمات

---

* يروي تشيريشيفسكي تورغنيف يستطيع أن يحمله الى حد ما ولكنه لا يحمل مطلقاً دوبروليوبوف قال لتشيريشيفسكي «أنت مجرد أفعى، أما دوبروليوبوف فانه كوبرا

بمقالات نقاشية حادة، وفوق ذلك سخرت منها في ملحق خاص يحمل عنوان **السفيستوك**. وكتب تشيربيسيفسكي أيضاً بين الحين والآخر الى **السفيستوك**، بيد أن المحرر الأول فيها كان دوبرو ليوبوف، صاحب الموهبة الكبيرة في كتابة المساخر الأدبية شعراً عن أحاديث «المحافظين الصاخبة المملة وقد حاول «المحافظون محاربة **السوفريمينيك** بالسلاح نفسه، ولكن سرعان ما تبينوا أن «Les rieurs» (الضاحكين) لم يكونوا الى جانبهم

انخرط سيربيسيفسكي في المعركة الأدبية، حتى أن كتابة تاريخ تلك الفترة من حياته تعني كتابة تاريخ نشاطه الأدبي. ومن الواضح أننا لن نتجاهل هذا النشاط، ولكن دعنا أولاً ننظر كيف شرح أفكار «الحقيقية والفن والعلم التي عرضها ودافع عنها في السوفريمينيك

في أفكاره الفلسفية كان تابعاً لفيورباخ، الذي يكن له أعظم تقدير والذي صنفه في مرتبة هيغل، الذي قيل الكثير في ذلك بالنسبة الى تشيربيشيفسكي، على الرغم من تزايد انتشار التعصب لدى البروليتاريين المفكرين في اعتبار هيغل واحداً من أعظم المفكرين في كل الأزمان وكل الشعوب * وقد عارض تشيرنيشيفسكي، باعتباره من أنصار فيورباخ، المثالية والثنائية الفلسفيين. كتب في مقالته «المبدأ الأنتروبولوجي في الفلسفة «إن المبدأ الذي تخضع له النظرة الفلسفية في الحياة الإنسانية هو الفكرة التي قدمتها العلوم الطبيعية عن وحدة العضوية الإنسانية، فملاحظات الفيزيولوجيين وعلماء الحيوان والأطباء قد نفوا فكرة الثنائية في الإنسان فالفلسفة تراه تماماً مثلما يراه الطب والفيزيولوجيا والكيمياء لقد أثبتت هذه العلوم أنه لا ثنائية في الانسانية وتضيف الفلسفة أن الإنسان اذا حاز طبيعة أخرى، علاوة عن طبيعته الحقيقية، فان هذه الطبيعة الأخرى سوف تفصح عن نفسها بطريقة ما، وبما أنها لا تفصح عن نفسها بأي طريقة، وبما أن كل شيء يظهر ويعبر عن نفسه في الإنسان ينشأ فقط من طبيعته الحقيقية. فانه لا يمكن أن يملك طبيعة أخرى »** هذا واضح تماماً

---

* في الحقيقة كان فيورباخ أفقر وأدنى بكثير من هيغل. كما أظهر ذلك ببراعة انجلز وكما أشار ماركس في رسالة الى محرر **الاشتراكي** الديمقراطي في برلين. نشرت بعد وفاة برودون بقليل

** يذكر القراء الألمان ثانية أن سيرنشفسكي يعبر بحذر شديد لأنه كان يكتب في الصحف الروسية الخاضعة للمراقبة

ولكن لا يبجم من هذا أن تشيريشيفسكي كان مادياً متماسكاً بالمعنى الحديث للكلمة إن فيورباخ نفسه، كما نعرف، كان بعيداً جداً عن هذا التماسك، وقد تركت أخطاء المعلم أثرها العميق في النظرة العالمية للتلميذ إن مادية تشيرنيشيفسكي في أفكاره الأنتروبولوجية أكثر وضوحاً في آرائه التاريخية ففيما يتعلق بكون الإنسان نتاجاً للظروف يتبنى تشيرنيشيفسكي موقفاً إنسانياً حتى من المظاهر السيئة للطبيعة الإنسانية الفاسدة (التي يرى فيها المثاليون « مقصداً شريراً يستوجب العقاب الصارم .)

[ملاحظة على الصفحة ١٠٥]*

[من الملاحظ جداً، بشكل عام، في آراء تشيرنيشيفسكي عن الأنانية العقلية هو محاولة مراجعة كل « مراحل التنوير » بحثاً عن دعم للأخلاق في العقل وتفسير شخصية الفرد وسلوكه بتقدير عقلي تقريباً]

يقتبس اكسيوفان في كتابه **مذكرات عن سقراط** (٦ - ٢٧) المناقشة التالية من هذا الرجل الحكيم دعماً للفكرة القائلة أن من الأفضل مصادقة الشرفاء لا مصادقة الأوغاد: « إن من الأجدى أن تفعل الخير مع الخيرين لأن عددهم أصغر بكثير من الأوغاد الذين عددهم أكبر لأن للأوغاد حاجة أبعد من أعمال الخير أكثر من الخيرين وهذا هو النصر التام والتخم الأخير للعقلانية، حيث لا يكون بعد هذا التخم سوى العبث.

مخطوطة تابعة للصفحة ١٣٤**

(ولكن لنعد الى مؤلفنا أننا نسطيع الآن بسهولة أن نشكل صورة عن نشاطه الأدبي، بعد أن عرفنا السمة العامة لأفكاره.ومزايا وعيوب تفسيره لـ « الأفكار النبيلة للحقيقة والعلم والفن ».)

إن المسألة العملية الأولى التي واجهت تشيريشيفسكي كانت القضاء على القنانة ففي ذلك الوقت، عندما وضعت هذه المسألة كأمر يومي تقوم به حكومة الأسكندر الثاني، اعتقد التقدميون في روسيا أن من السهل أفهام هده الحكومة المدى الذي سطابق فيه مصالحهم مع مصالح الفلاحين المحررين بعضهم أعتقد أن هدا واضح

* أنظر ص ٣٧ من الطبعة الألمانية وص ٨٢ من الطبعة العربية

** أنظر ص ٧٢ من الطبعة الألمانية وص ١١٣ من هدا المجلد.

للحكومة من غير أي تفسير كتب هرزن الى القيصر الصغير «إنك تربح أيها الغاليلي

وفي الوقت نفسه دعا علناً الى شرب نخب القيصر المحرر[٧٥] وقد بدا لفترة أن تشيرنيشيفسكي انساق مع هذه الأوهام إنه، على الأقل، بذل جهده ليشرح للحكومة أين تكمن مصالحها بالضبط أما كم كتب في مسألة الفلاحين فيمكن أن يظهر من واقع أنه في طبعة أجنبية خاصة شكلت مقالاته المتعلقة بهذا مجلداً ضخماً ولكن باعداد قليلة لقد دافع عن تحرير الفلاحين مع الأرض طبعاً، وقال إن الحكومة لن تجد مشقة في الأراضي الموزعة على الفلاحين. ولقد دعم هذه الفرضية ببراهين نظرية عامة، وبتقديرات تفصيلية وافية

مخطوطة تابعة للصفحة ١٤٨*

(اذا كانت «الانتلجسيا ملتزمة حقاً بالكوميون حتى اليوم، فالفضل يعود الى التأثير الذي لا يمحى لتشيرنيشيفسكي)

أحد براهينه الرئيسية لصالح الكوميون هو أن الكوميون سوف تنقذنا من «قرحة البروليتاريا من الواضح أنه أشار الى حجج الرجعيين أمثال البارون هاكستهاورن الذي رأى في «قرحة البروليتاريا المصدر الرئيسي للحركة الثورية في أوروبا الغربية. وكان أحياناً يعتريه الشك فيما اذا كان حذف القرحة المزعومة يخدم قضية التقدم في روسيا ولكنه سرعان ما أنهى تلك الشكوك «إن الطبقة الزراعية، وان استخدمت دائماً الأرض في ظل نظام الكوميون، فانها لم تظهر دائماً في التاريخ بسمة ثابتة لا حاجة أن نناقش هنا سمة الفلاح الأوروبي الغربي. اننا نشير فقط الى أن القوزاق في معظمهم جاؤوا من الفلاحين، ومنذ البداية حتى القرن السابع عشر تقريباً كل الأحداث الدرامية في تاريخ الشعب الروسي حققتها قوة السكان الريفيين هنا، كما نرى، صفت حروب الفلاحين في أهميتها التاريخية مع الحركات الثورية للبروليتاريا، وهذا وهم يستحيل تصديقه بالنسبة للاشتراكي في عصرنا، الا أن الثوريين الروس أيام تشيرنيشيفسكي لم يلاحظوه

اعتبر الاقتصاديون البرجواريون الكومون شكلا متخلفاً من ملكية الأرض لا تميز

* أنظر الطبعة الألمانية ص ٨٥ وهذا المجلد ص ١٢٧

سوى الشعوب البدائية والمتوحشة ولمقارعة هذه الحجة رجع تشيريشيفسكي الى هيغل. قال إن المرحلة الثانية والأخيرة من تطور أي ظاهرة تشبه المرحلة الأولى تماماً فالشعوب ابتدأت بالحيازة الكومونية للأرض وسوف تضطر للعودة اليها في المستقبل القريب في الأغلب. والواقع أن شعوب أوروبا الغربية انتقلت من الحيازة الكومونية للأرض الى الملكية الخاصة للأرض، مضطرين الى ذلك لفترة. إلا أن هذه المرحلة الوسطى يمكن أن تتجاوزها الأقطار الأخرى التي انطلقت في طريق التطور التاريخي مؤخراً وأمامها تجربة أوروبا الغربية ومن هذه الأقطار روسيا فلا حاجة بها أن ستتقدم شكلا من ملكية الأرض أثبت تاريخ أوروبا الغربية أنها باطلة.

إن المقالة التي تتضمن هذه المناقشة لتشيرنيشيفسكي[٧٦] كتبت بمهارة وصراحة بحيث أن أعداء كوميون القرية اللبراليين لم يجدوا اعتراضاً عليها هذه الحقيقة وحدها تبين مدى ما كانته أفكارهم من تجريد في المسائل الاقتصادية، إن مناقشات سيرنيشيفسكي لا يمكن أن تقنع غير الناس الذين وضعوا أنفسهم « **فوق المجتمع** » ، أنها لا تقنع غير **الطوباويين** من شتى التيارات صحيح أنه عند هيغل كل تطور   في المنطق، وفي الطبيعة وفي المجتمع - يحتل مكانه خارج ذاته بقوة ديالكتيكه الداخلي. ماذا أراد تشيريشيفسكي الدفاع عن الحيازة الكوموبية للأرض من وجهة نظر هيغل، عليه أن يبين أن العلاقات الداخلية لكوميون القرية الروسية تؤدي هي ذاتها الى خلق نظام اجتماعي يتجنب أولا «أخطاء   الغرب، وثانياً يقترب من أفكار الاشتراكيين (حيث تحقق ابن شعوب أوروبا الغربية من بطلان الملكية الفردية للأرض) ولكن سيريشيفسكي لا يقول عن هذا المنطق للحيازة الكوموبية للأرض في رأيه أن هذا المنطق الموضوعي قد استبدله الشعب الروسي «التقدمي   المطلع على الاشتراكية الأوروبية الغربية (في شكلها الطوباوي) بمنطق ذاتي، واعتقد أن روسيا سوف ستخدم تجربة أكثر الأقطار تقدماً ما كان لهيغل أن يوافق على مثل هذا التطبيق لأفكاره هذا فضلا عن أن المرحلة الثالثة عند هيغل تحمل فقط المشابهة الشكلية للمرحلة الأولى، بينما ساوى تشيرنيسيفسكي تقريباً بين المجمع الاشتراكي   كما لو رسمه الاشتراكيون الخياليون - و [كوميون] القرية الروسية التي ابتعدت كثيراً عن الشكل البدائي الحقيقي لملكية الأرض

وقال تشيريشيفسكي نفسه في مقالة أخرى في شرح هيغل: «ليس ثمة حقيقة مجردة،

الحقيقة ملموسة   كل سيء يعتمد على سرطي الرمان والمكان   وبدفاعه عن الحيازة الكوموبية للأرض بالرجوع الى هيغل، كان عليه أن يتذكر **هذه الناحية** من أفكار هيغل، أولا وقبل كل شيء وعندها سوف يعلل الأمور بشكل مختلف هل الحيازة الكوموبية للأرض خير أم سر؟ إن من المستحيل أن تقدم جواباً محدداً على المرء أن يعرف وضعها الحالي والوضع الذي يمكن أن تحول اليه في المستقبل. «ليس ثمة حقيقة مجردة   الحقيقة ملموسة   ولكن سيرنيسيفسكي أراد أن يجد حقيقة مجردة فعاكس روح الفلسفة الفعلية التي استقى منها

المدى الذي لم يلاحظه تشيربيسيفسكي، والذي أدى اليه بطلان نظرته المجردة يتضح من الواقعة التالية فالمقالة، والبراهين التي عرضاها للتو، انطلقت من مقدمة يعبر فيها المؤلف عن نظرته الكئيبة الى مستقبل ملكية الأرض لدى الفلاح الروسي، التي نعرف عليها القارىء من قبل، و« **خجله**   أنه اندفع بلا روية في الدفاع عن الكوميون وللوهلة الأولى يبدو هدا غير مفهوم: فمن جهة يقول الرجل أنه أصبح « بائساً   بل أكثر « بت غبياً في نظر نفسي   لأنه دافع عن الكوميون ومن جهة أخرى يدافع عنها من جديد. ويدافع عنها بما يعتبره سلاحاً غير مقنع ماذا يعني هذا؟ يعني أن سيربيسيفسكي من جهة يتحدث عن الكوميون الروسية الحقيقية التي هي في وضع تاريخي محدد وسبب هذا الكوميون يبدو له مفقوداً تماماً ولكنه من جهة أخرى باعتباره **طوباوياً**. لا يعترف ليس فقط بالعلاقات الاجتماعية **الواقعية**، أنه أيضاً لا ينسى العلاقات **الممكنة** التي تلعب دوراً كبيراً في النظرة العالمية لكل الطوباويين وانطلاقاً من راوية هذه العلاقات الممكنة تبقى الكوميون شيئاً رائعاً، والدفاع عنها ليس شيئاً مخجلاً، بل على العكس، إنه سيء عظيم وهكذا فان **الممكن** مجال مستقل كل الاستقلال عن **الواقع** هذا الخطأ المنطقي كرره باستمرار مؤخراً جميع الناروديك الروس. بمن فيهم أوسبنسكي إلا أن نظرة سيربيسيفسكي في الحيازة الكوموبية للأرض تختلف كل الاختلاف عن نظره الناروديك

مخطوطة تابعة للصفحة ١٦٠*

المراح الثوري للمجتمع البولوني تطابق مع الهياج الضخم للعناصر المعارضة في

* انظر ص ١٠٥ من الطبعة الألمانية من الفصل العاشر المجلد الحالي ص ١٤١

روسيا كان الطلاب في حالة تخمر، وانتشرت الجمعيات السرية التي ورعت النداءات وانتظرت انتفاضة عامة للفلاحين الذين لم يكونوا راضين عن شروط « انعتاقهم كل هده « الاضطرابات كان لها تأثير مباشر على مصير تشيرنيشيفسكي

يقول شيلفونوف في مذكراته: « في ذلك الوقت وزعت البيانات بجرأة كبيرة وعلنية واضحة. ويقابل المرء أصحابه بجيوب منتفخة، ورداً على سؤال: ما هذا؟ يأتي الجواب الهادىء « بيانات كما لو أنها كانت شيئاً مشروعاً أو مطبوعات مسموحه أو يقرع جرس البيت. فتفتح أنت الباب وترى صديقاً لك، ومن غير كلمة واحدة، أو حتى الادعاء أنه لا يميزك، يلقي في يدك قبضة من البيانات، ويعود كما أتى كانت البيانات تترك على مقاعد صالات المسارح، وتلصق مثل الطوابع على جدران قاعات الكونسرتو، حتى أنها تحشى في الجيوب كما في بيان « الى جيل الشباب »[٧٧]، وتسير القصة بأن يأتي سيد يخب في شارع نيفسكي على حصان أبيض يميل ذات اليمين وذات اليسار، وأخيراً كانت البيانات ترسل بريدياً وبيان الى الضباط[٧٨] انتشر بجرأة خاصة. فقد وزع أثناء صلوات منتصف الليل* وسلم باليد في الكنائس، هكذا قالوا ويلاحظ شلفونوف أن مما لا يقل أهمية عن البيانات « أعمال الجرأة التي تترك انطباع المفرقعات الصاخبة ». وهذا صحيح تماماً إن الكادحين في بطرسبرخ لم يفهموا شيئاً من بيان « الى جيل الشباب » الذي وزع في الشوارع وبيان « روسيا الفتاة ». ولكن الجرأة القوية في توزيع النداءات أجبرت الحكومة على الأقرار أنها مطوقة بقوة ثورية ضخمة. وهذا قدم الذريعة الجيدة لاتخاذ « إجراءات الرعب التي بواسطتها

---

* أي أثناء صلاة أحد الفصح وأشهر النداءات في ذلك الوقت نشرة « روسيا الفتاة »[٧٩]، التي دعت الطلاب الشباب (أملنا الأول) استعداداً لثورة دمويه عنيفة مع هتاف « عاشت الجمهورية الروسية الديمقراطية الاجتماعية وقد أعلنت النشرة حكم الموت على أسرة القيصر وعلى جميع أفراد « الحزب الأمبراطوري ». والدستوريون الليبراليون نالوا فيه تقريعاً عنيفاً بصورة عدائية وقدم مؤلف البيان أسماء الإرهابيين الفرنسيين الكبار في القرن الماضي كمثال يحتذيه الثوريون الروس أن على الحرب الثوري أن يستولي على السلطة السياسة « ليقيم بواسطتها مختلف أسس الحياة الاقتصادية والاجتماعية بأسرع ما يمكن » وكان هرزن على حق عندما لاحظ في صحيفته الكولوكول في « روسيا الفتاة » أنها « دعوة الى السلاح لا توجه عادة إلا قبل المعركة و إن كل دعوة غير ناضجة هي سانحة تمنح للعدو، وعرض الجانب الضعيف أمامه » إلا أن المشكلة كانت أن الثوريين الروس في ذلك الوقت اعتقدوا أنهم فعلاً « في عشية المعركة » إنهم لم يفهموا أنه لا يمكن أن يدور حديث عن الثورة طالما أن الطلاب الشباب هم « الأمل الأول للثوريين.

اعتادت الحكومة الروسية أن توجه خصومها الى الطريق الحقيقية وابتدأت الاعتقالات وفي اليوم الذي أعقب توزيع بيان « الى جيل الشباب (وكان هذا في حريف ١٨٦١) اعتقل أحد أبرز موزعي **السوفريمنيك وهو ميخائيلوف** وبعد يومين أو ثلاثة تجمع في مكتب رئيس تحرير **الروسكوي سلوفو**[٨٠] الكونت كوشيليف، رجالات الأدب للتدارس فيما يسطيعون عمله لمساعدة الرجل المعتقل. وقد تقرر إرسال استرحام الى وزير الثقافة العامة (وكانت الصحافة تحت مسؤوليته) يرجوبه التدخل في مصير ميخائيلوف واسلم الورير الاسترحام (الأميرال بوتيانين)، وأن أشار على الوفد الذي جاءه بالاستراحام أنه ليس هناك « **طبقة** أدبية في روسيا ولكن الاسكندر الثاني اللبرالي أمر باعتقال الوفد في غرفة الحرس* في هذه الأثناء كان ميخائيلوف معتقلاً في غابة يحير المحققين الذين كانوا يسجوبونه بقسوة من أجل الحصول على إجاباته الحقيقية لقد سلم أنه مؤلف واحد من البيانات. وأعلن كرهه للنظام القائم في روسيا من كل قلبه، وإنه ليسظر اليوم الذي تنقلب فيه حكومة القيصر وقد حكم المجلس الأعلى عليه بخمس عسرة سنة من الأشغال الشاقة في المناجم (وهي أقسى أشغال شاقة) وقد خفض القيصر الحكم الى سبع سوات وقد كان عمله هذا شهامة كبيرة، ولكن في الوقت نفسه لم يجر شيئاً من تحقيق الهدف: سحية أحد « رؤوس الفتنة في الحركة الثورية لقد جاء الآن دور « رأس الفتنة **الأول** تشيرنيشيفسكي

إن الاضطرابات الطلابية لعام ١٨٦١ التي تذكرها أهل بطرسبرج مدة طويلة، سببها حقيقة أنه حتى في شهر عسل ليبرالية حكومة القيصر الثاني، لم تستطع، كما أشرنا سابقاً، أن تتحمل أدنى بارقة من الحرية الأكاديمية. وفي ١٨٥٦ عين الأمير شيرباتوف، وفيه شيء من اللبرالية رئيس حامية مطقة بطرسيرج الثقافية لقد سمح للطلاب بمعونة مالية ومكتبة وقائمة مطالعة وبطبع « مجموعاتهم » الخاصة. ومن أجل إدارة كل هذه الفروع في الحياة الطلابية، عقدت الاجتماعات لانتخاب الممثلين. وبدأ الطلاب يديرون حياة مشتركة كانت هذه الحقيقة هي التي أزعجت الحكومة. وفي ١٨٦٠ أجبر الأمير شيرباتوف على الاستقالة وعين مكانه الجنرال القوقازي فيلبسون ووقع الطلاب « **في القبضة** فحظرت اجتماعات الطلاب، كما حظرت المحاضرات

* وبالمناسبة فقد عفا عنهم فيما بعد.

العامة التي يقدمها الأساتذة لجمع المال لمعونات الطلاب، ومنعت المعونة نفسها وأغلقت المكتبة التي تعود للطلاب لقد تم وضع حد لحياة الطلاب المشتركة، وفي الوقت نفسه اتخذت إجراءات لكبح تدفق الطلاب الى الجامعة. (في ذلك الوقت كان ١,٥٠٠ منهم في جامعة بطرسبرج، وفي نهاية حكم نيكولاس لم يكن سوى ٣٠٠): فلم يعد مجلس الجامعة قادراً على استثناء الطلاب من الدفع لحضور المحاضرات هكذا كانت القوانين الجامعية التي وضعها «البحار المتنور وزير الثقافة العامة الأميرال بوتياتين. إن أعظم أساتذة جامعة بطرسبرج قدموا استقالاتهم، وبدأ الطلاب، على الرغم من الحظر، يعقدون اجتماعات صاخبة. وكانت هناك مظاهرة طلابية ينوي الطلاب القيام بها على الرغم من فيلبسون واخلاصاً من فيلبسون لذكرياته العسكرية انقلب الى قوة مسلحة. غص الشارع بالطلاب الذين اصطدموا بالجنود المرابطين. واغلقت الجامعة اغلاقاً موقتاً، واعتقل الكثير من الطلاب حتى أن قلعة القديسين بطرس وبولس لم تسع لهم، فنقلوا بالقوارب الى كرونستاد

كل هذا جرى في ١٨٦١، وفي ربيع السنة التالية في بطرسبرج بدأت سلسلة من إطلاق النار، فألقت الحكومة اللائمة على «النهلستيين». وطفقت الصحافة الرجعية تدعى الحاجة الى إجراءات صارمة وإدانة تشيرنيشيفسكي وأولئك الذين يؤيدون أفكاره بصورة لا مواربة فيها

أما تشيرنيشيفسكي فقد نفح مقالاته بمزيد من السمة الثورية. إنه، وهو الذي رأى في يوم من الأيام أن من «الممكن والمفيد أن يشرح للحكومة مصالحها في قضية تحرير الفلاحين، لم يفكر حتى في إظهار نفسه للحكومة)

مخطوطة ملحقة بالصفحة ١٦٨*

إن العقدة في رواية ما العمل؟ بسيطة للغاية. طالب في أكاديمية الجراحة في جامعة بطرسبرج، هو لوبوخوف، يلتقي فتاه شابة ذات إيراد متواضع هي فيرا بافلوفنا، عزم أبواها على تزويجها ضد إرادتها من ضابط ضحل فاسق ولكنه غني جداً وحتى يخرجها لوبوخوف من هذا الموقف الحرج يقترح عليها أن تعقد معه حلفاً رواجياً وهمياً وتوافق فيرا وهكذا يخلصها من الرقابة الخانقة لأبويها تبقى فترة

* أنظر ص ١١٥ من الطبعة الألمانية، بداية الفصل السابع وهذا المجلد ص ١٤٩.

روجة لوبوخوف الوهمية فقط، ولكنها تقع في حبه وتصبح زوجته فعلاً لا اسماً ويفرح آل لوبوخوف كثيراً أنهم يشرفون على الحياة العقلية لـ «**الناس الجدد** الحاطين بالأصدقاء المعقولين والمخلصين. إلا أن فيرا بافلوفنا لا تنسجم مع هذه الحياة. إنها تنوي تنفيذ الأفكار الاشتراكية التي طالما فكرت فيها وتحدثت عنها مع أصدقائها، تنفيذاً عملياً فاعتبرت، هي وأصدقاؤها، منظمة الجمعيات الانتاجية العمالية أفضل سبيل لتنفيذ تلك الأفكار وهكذا تأخذ المبادرة في تنظيم خياطات بطرسبرج هذا المشروع - الذي شرحه تشيرنيشيفسكي حسب رغبته، مع جداول كاملة من التقديرات والحسابات التفصيلية التي تبرر فوائد المبدأ الجديد يتطور بسرعة. ويمكن لفيرا بافلوفنا الآن أن تدعي أنها سعيدة تماماً إلا أن دراما مؤلمة كانت تنتظرها فمن بين أصدقاء لوبوخوف كان هناك شاب وأستاذ كبير في الفيزيولوجيا اسمه كيرسانوف وتتحقق فيرا والرعب يخيفها أنها وقعت في حبه، وهو بدوره يكتشف فجأة أنه يحبها ويكافح الاثنان ضد هذه المشاعر ولكن مشاعرهما لا تخضع ولا تستكين: ويلاحظ لوبوخوف هذا ويقرر أن يسحب حرصاً على سعادة صديقه ومحبوبته. ويختفي، فيعتقد البوليس وجميع أصدقائه أنه أغرق نفسه في النيفا وتصبح فيرا حرة في نظر القانون. والآن لا شيء يحول دون زواجها من كيرسانوف وتقدم على ذلك بعد علمها أن لوبوخوف حي وفي أميركا وعندما يرى الأخير أنه نجح في التغلب على شعوره نحو فيرا بافلوفنا، ينتقل الى بطرسبرج ويتزوج من صديقة من آل كيرنا سوف وتهتم زوجته الجديدة أيضاً في تنظيم مشاغل الخياطة. وتعيش كل من الأسرتين: آل لوبوخوف وآل كيرسانوف في أعظم صداقة

وكما يمكن أن يرى القارىء، فان كل شخصية من الشخصيات الرئيسية تقريباً سلك في الرواية بحيث أن «المحافظين» يملكون كل الحق في الشكوى من تقويض «الأسس المقدسة للأسرة، والإساءة الى الأخلاق، وخرق القانون الخ ولا زال ما شكا منه «المحافظون قائماً حتى اليوم. وفي الوقت نفسه يدعون أن الرواية خالية من كل ميزة فنية، فكشف تشيرنيشيفسكي فيها عن نقص كامل في الموهبة الفنية. هذا الاتهام الثاني صحيح جزئياً فقط: فالشخصيات الساخرة في رواية **ما العمل؟** (والدا فيرا بافلوفنا، مثلاً) مرسومة جيداً ومفعمة بالحياة، ولكن الأبطال الحقيقيين للرواية، فيرا بافلوفنا وأصدقاءها غير ناجحين فعلاً من حيث النظرة الفنية. ولكن ماذا في

ذلك؟ فليريا هؤلاء (أي عمل فني رائع في الأدب الروسي يضاهي رواية **ما العمل**؟ في تأثيرها على الأخلاق والحركة الثقافية للبلاد)

مخطوطة ملحقة بالصفحة ١٧٢*

إن مسوريا ،في أفكارهم عن المجتمع الاشتراكي ذهبوا بعيداً في إدراكه على شكل كوميونات فلاحية محدة. ررع حقولها بالمحراث القديم ذاته الذي كان يستخدم لكشط التربة أيام باصيل الأعمى)

ومن جهة أخرى. ليس من شك أن رأي سيريبسيفسكي في الأسلوب العملي لتنفيد الأفكار الاشتراكية الذي عبر عنه في روايه المشهورة. يجب أن يعبر مخلفاً حتى في أيامه إن الحقيقة التاريخية أن الدفاع عن التعاونيات جرى في الوقب نفسه في كل من روسيا وألمانيا مفيدة جداً فقد ظهرت رواية تشيربيسيفسكي في ١٨٦٣ وأيضاً في ١٨٦٣ تقدم لا سال بمعاوبيات الانتاج للعمال الألمان باعتبارها الوسيلة الوحيدة لتحسين حياتهم الى درجة بعيدة ولكن الفرق في الطريقة التي ظهرت فيها هذه المسألة في روسيا وفي ألمانيا في رواية سيربيسيفسكي الأفراد الإنسانيون المثقفون هم الذين يقيمون التعاونيات فيرا بافلوفنا وأصدقاؤها حتى الكاهن «المتنور ميرسالوف انضم الى القضية ولعب. إذا استخدمنا كلامه. دور د ع المشاغل التي اقامها فيرا بافلوفنا ولكن ليس ثمة كلمة واحدة جاءت في الرواية عن النشاط السياسي المستقل للطبقة العاملة ولم يقل «أبناء السيبات الروس الذين حاولوا نفيذ البرنامج الذي اقترحه سيربيسيفسكي. كلمة واحدة حول ذلك أيضاً في حين أن الكلمة الأولى في تحريض لا سال كانت الإشارة على العمال بضرورة قيامهم هم بالعمل السياسي في مسروع لا سال يسم إنشاء التعاونيات بالمسألة الوطنية الواسعة أما عند تشيرنيسيفسكي فيبقى ذلك من شأن الأفراد وكان لاسال سيظن تشيرنيسيفسكي من اتباع Delitzsch Schulze والفرق بين المخططات العملية للاسال من جهة. ومخططات تشيربيسيفسكي من جهة أخرى. يبين تماماً كم هو كبير الفرق بين ألمانيا وروسيا في العلاقات الداخلية ولكننا بهذا لا نريد أن نقول طبعاً أن مخططات لاسال. مثل المخططات القديمة للويس بلانك. لم تكن طوباوية

في رواية **ما العمل**؟ قيل الشيء الكثير. على **عكس** عادة سيربيسيفسكي عن الحب الذي يفترض أنه يحرر البشرية وهنا يرى المرء بوضوح تأثير فيورباخ

ن.غ. تشيرنيشيفسكي

[١٩٠٩][٨١]

مقدمة

لن نناقش هنا أهمية تاريخ مجتمعنا في « مرحلة السبينات العظيمة التي إليها ترجع أروع فترة في حياة ن.غ.تشيرنيشيفسكي ونشاطه الأدبي إننا نأمل أن تكون هذه الأهمية معروفة الآن لدى الجميع بشتى ألوانها ولا ننوي كتابة سيرة حياة مؤلفنا الواقع أن مواد قيمة جداً موفرة الآن في الصحافة لكتابة مثل هذه السيرة إلا أن العمل في هذه المواد القيمة لا بد من أن يقوم به أحدهم كي يدخل إلى مواد قيمة أكثر، أي إلى الأرشيف الرئيسي لتشيرنيشيفسكي وبهذا الصدد فإننا نذكر السيد لياتسكي الذي نشر مقالته المفيدة جداً « تشيرنيشيفسكي سنوات المدرسة وفي الطريق إلى الجامعة (**سوفريميني مير**. أيار وحزيران ١٩٠٨) وإني لآمل أن يتابع السيد لياتسكي كتابه وأن يصف بالتدريج حياة هذا الممثل العظيم لمرحلة السبينات وكان كتابنا قد طبع عندما ظهرت في **السوفريميني مير** مقالة السيد لياتسكي المكملة عن سنوات الجامعة عند تشيرنيشيفسكي أما من ناحيتنا فإننا سوف نحصر أنفسنا هنا ببعض الوقائع الأساسية ولا شك

كان نيكولاي غافريلوفيتش إبناً لكاهن أسلافه، الذين انتموا منذ زمن بعيد إلى الكهنوت، انحدروا من « الروس العظام من شيمبارسك اكروغ، اقليم بنزا أي وسير هنا بشكل عابر من منطقة أسلاف بيلنسكي ذاتها ولكنه هو نفسه ولد في ساراتوف (في ١٢ تموز ١٨٢٨) حيث كان أبوه كاهناً مبتدئاً في كنيسة القديس سرجيوس ويصيب السيد لياتسكي في قوله إن في تاريخ طفولة تشيرنيشيفسكي وشبابه

الواقعة الهامة التالية الي تلف الانتباه كل الشروط التي تطور فيها هدا الشخص المرموق العظيم تكوبت بسكل طبيعي وشكلت مجموعة أفكار كاملة من الثقافة الفكرية والأخلاقية التي أمكن لجو عائلة سيرِيسيفسكي، بدون مبالغة، أن يكون مفيداً بسكل كبير جداً في تطوير روح التفكير المستقل في الصبي والإرادة القوية التي مكنت من السيطرة على الصحة والمشاعر الطبيعية إن أفضل ما يمكن أن تقدمه الحياة الروسيه القديمة في القرن الماضي، يبدو أنه تجمع في هذه الأسرة لإنقاد كاتب المستقبل من النواحي الكئيبة للواقع الروسي، التي كلف النضال ضد هذه النواحي كثيراً من أرواح الغيوريں »* لا بد من تحفظ واحد فقط هنا ليس لأي عائلة، مهما كانت علاقاتها الداخلية جيدة، أن تصون الطفل من النواحي الكئيبة التي تسم المجتمع المحيط بهده العائلة والسيد لياتسكي نفسه يوافق على هذا يقول « بين ملاحقات وألعاب المراهق نيكولاي لم يسطع ذهنه الوقاد أن ينجو من تأثير النواحي الكئيبه للحياة من حوله، التي لم تسطع البيئة ولا عناية الأبوين أن يخففا منها »** ويقتبس سطرين من مذكرات بيبين يقدمان فكرة واضحة لنواحي الحياة في تلك الأيام التي تركت تأثيراً قوياً جداً على الطفل الموهوب كانت « صوراً كئيبة من العنف والظلم واضطهاد كرامة الإنسانية والشخصية »*** ولكن إذا كان الأمر هكذا فإن السيد لياتسكي مضطر إلى الإقرار ملاحظات نيكولاي غافريلوفيتش التي تلقاها في الطفولة والشباب قدمت له مواد كثيرة لاستنتاجاته، على أساسها قامت الحالات النفسية التي استدعت كثيراً من أرواح الغيوريں في هذه الناحية ليس ثمة تناقض بين طفولة تشيرنيسيفسكي وشبابه من جهة، وفترة النضج في حياته، من جهة أخرى إن الشيء المؤكد فقط هو أن بيئة الأسرة السعيدة هيأت للفتى سيريسيفسكي فرصة لادخار الكثير من القوة الروحية والجسدية الخالصة التي قلما حازتها « حيوات الشباب المشتكين مع الواقع المؤلم في معركة

أما بالنسبة إلى المؤثرات الخارجية فقد أمست بدفقها المستمر له حقيقة بسيطه هي أنه ربي تربية كانت بالأحرى ديمقراطية - إن لم نقل إنها ديمقراطية متطرفة وكانت

* أنظر المقالة المشار إليها أعلاه في السوفريميني مير ١٩٠٨ عدد أيار ص ٤٥-٤٦

** المرجع السابق ص ٥٧

*** المرجع السابق الصفحة داتها

أسرته تعتبر في الدوائر الكهنوتية مزدهرة جداً وسوف نرى في فترة ما أن هذا الازدهار النسبي كان يخيف فقراء الأكليروس في ساراتوف أما كم كانت درجة ازدهار أبوي نيكولاي غافريلوفيتش متواضعة في حقيقتها، وكم كانت ديمقراطية تربيته، بسبب أنها متواضعة. فتدلنا على ذلك كلماته التي كتبها إلى بيبينا في رسالة في ٢٥ شباط لا نملك سوى القليل القليل جداً من المال. إن أفقر أناس في بطرسبرج رأيهم - حتى من الشحاذين لا يعرفون الآن ما إذا كان عشرة كوبيكات في أيدي أسرتنا غير الفقيرة إنها غير فقيرة هناك وفرة من الطعام والملابس، ولكن لم يكن أبداً شيء من المال، لذلك فإن الكبار فينا لم يحلموا بكثير من الأشياء كمربيات أطفال وما شابه لم يكن لدينا حتى مربيات أطفال كان هناك العديد من الخدم ولكنهم جميعاً منهمكون في الأعمال البيتية كانوا يعتنون بالأطفال فقط في لحظات سانحة قليلة مثل وقت الراحة من العمل، وهذا كل ما في الأمر - ولكن ماذا عن كبيرينا؟ كلاهما كان يكتب الأوراق الرسمية من الصباح حتى الليل لم يكن لديهما وقت حتى للزيارة والوالدتان تعملان في المنزل من الصباح حتى المساء وعندما يصيبهما الكلل ستريحان قليلاً وتقرآن الكتب كانتا تريدان أن تكونا مربيتين لنا إلا أنهما كانتا تختلطان لزوجيهما وأولادهما وتهتمان بالبيت. وتعملان بكل ما لا يجلب المال

« وهكذا في لحظات سانحة كانت لنا مربيات - يقرأن ونحن نسمع، ولكن الأغلب أن نقرأ بأنفسنا لا أحد « سجعنا بل نحن أصبحنا مغرمين بالمطالعة

« وإلى جانب هذا نفعل ما توحي لنا المخيلة كانت هناك نصيحة دائمة وهي ألا نرض جباهنا وأقل مغامرة من هذا النوع تجعل البالغين* يسرعون لمساعدتنا - سواء أبوانا أم الخدم إلا أنه لم تكن هناك أي كوارث كبيرة ليس في أيدينا أشياء خطرة فلا شيء صنع من حديد، ولا شيء حاد وكان هذا بسبب أننا لم نشتر دمى على الإطلاق ليس لدينا المال للدمى لم يكن لدينا شيء نؤذي فيه أنفسنا وكان الكبار هادئين، فلا ضجة ولا فوضى حتى بين الخدم كل الخدم كانوا طيبين حقاً وهكذا فإننا أيضاً ترعرعنا في بيئة سرقة متواضعة وتطورنا في عادات متواضعة في ألعابنا

---

* يشير تشيرنشفسكي هنا إلى جانب أبيه إلى والد بيبين. الذي عاش أسرته في جوار أسرة تشيرنيشفسكي

وهكذا لم يبحم خطر من التسليات وقد سأنا كالغير يسعلون وقتهم أي بفعل ما يحلو لنا »*

وماذا يحلو للأطفال؟ قبل كل شيء ممارسة قواهم الجسدية، اللعب والمرح ويقول دوفوميكوف في هذه المقالة عن حياة سيرنيسيفسكي في ساراتوف إن نيكولاي غافريلوفيتش قام بألعابه بكل حماسة ورغبة وهذا ما يمكن أن نراه أيضاً من ذكريات سسوكوف، الذي كان ربيبه ولكن في ذكريات الأخير عن ألعاب نيكولاي غافريلوفتش في الطفولة والصبا تظهر سمة أخرى تستحق الملاحظة

يقول «بعد أن قرأ نيكولاي غافريلوفيتش الكثير جداً عن حياة اليونان والرومان، تجلت له حتى أثناء الطفولة (في الرابعة عشرة من عمره) أهمية التمارين الرياضية في تقوية الجسد (وكثيراً ما كان يخبر أترابه عنها) فاهتم بها من غير معرفة أبويه، اللذين كانا سيمنعان مثل هذه التسليات وفي الساحة الخلفية كان، مع بعض الأولاد، يحفر حفرة للقفز فوقها وأولئك الذين قفزوا فوق الحفرة تلقوا جائزة تفاحاً وبندقاً وغير ذلك وكان نيكولاي غافريلوفيتش يقفز عادة فوق الحفرة ولكنه باعتباره أكبرنا ما كان يأخذ جوائز تاركاً إياها للأولاد الآخرين، وإلا فإنه يشركهم معنا وكانت تماريننا الرياضة الأخرى هي القفز فوق شتى الأشياء وتسلق سارية وتسلق الأشجار ورمي الحجارة بالمقلاع، ومطاردة أحدنا للآخر والتسابق في الجري الخ »**

من يعرف أن جسد سيرنيسيفسكي سوف يكافح الظروف غير الصحية التي أحاطت به في النصف الثاني من حياته، ولا يصلب جسده منذ الطفولة بهذه التربية الديمقراطية والألعاب الرياضية المأخوذة من اليونان والرومان »؟

من نظرة أخلاقية كانت حريته في أن يفعل ما يحلو له مفيدة في أنها منحت الطفل الفرصة الكاملة لأن ينظر في الحياة مباشرة من غير أن يحول بينه وبينها سور صيني من كل أنواع العقائد والواضح من كل شيء أنه في صباه المبكر كان قادراً أن ينظر في الحياة التي حوله بعمق وقادة في الجزء الأول من رواية **المقدمة**. ذات

---

* السوفريميي مير أيار ١٩٠٨ ص ٧٠-٧١

** فيودوروف حياة الروس الكبار **تشيرنيشيفسكي** اسخاباد ١٩٠٤ ص ص ٥-٦

الأهمية البيوغرافيه ولا شك، يتحدث عن علاقة بطله فولغن بـ « الأرستقراطية لم يتم حتى إلى أدنى صفوف النبلاء، ناهيك عن الصفوف العليا الهامة ولكن أي مدينة كبيرة أم صغيرة لم تلهج بمجد هده الأعمال العظيمة؟ كان يعرف منذ الطفولة أنهم أناس عنيفون مسحون »*

ولم تكن الارستقراطية وحدها التي لاحظها فولغن (أي سيرنيسيفسكي) في طفولته لقد لاحظ أيضاً الناس العاديين

« لقد تذكر حشداً من السكارى يتصايحون عبر شارع في مدينته صحة وصياح وأغان جريئة وأغاني لصوص إن الغريب سوف يفكر إن المدينة في خطر - لحظة وسوف ينهبون المحلات والبيوت ويدمرون كل شيء حتى يسحقوه سحقاً ويفتح باب كوخ الحارس قليلاً قليلاً ويطل وجه عجوز ناعس بشاربين شائبين أشعثين، وفم بلا أسنان ينفتح ويصرخ، أو بالأحرى يجأر كمواء هرة: حول أي شيء هذه الضجة أيها الخنازير؟ سأنزل بكم ما تستحقون فتصمت العصابة الصاخبة، وكل واحد منهم يختبىء وراء الآخر صرخة أخرى مثل تلك والشباب الطائشون الذين سموا أنفسهم «ليس لصوصاً ولا نهابين بل رجال سكارازين مسجحين أنهم إذا ما رفعوا قبضاتهم فإن موسكو ترتجف وتركع أمام أقدامهم، هؤلاء الرجال كانوا سيركضون كل إلى شأنه لو انطلقت صرخة أخرى من باب كوخ الحارس ولكن الحارس العجوز يعرف أن من العيب إخافة هؤلاء الفتيان إخافة قوية إنهم سوف يضربون رؤوسهم ويحطمون سيقانهم رحفاً إلى مساغلهم - وهكذا يأخذ الحارس قليلاً من السعوط ويقول: اذهبوا الله معكم أيها الشباب ولكن لا توقظوني ولا ترعجوني ويغلق باب الكوخ، وعصبة الفتيان الصاخبين، رجال سكاراريس الأسقين، تنسحب بهدوء، متهامساً الواحد مع الآخر ذلك أن من حسن حظهم أن الحارس كان رجلاً طيباً »**

يقول سيرنيسفسكي إن مثل هده المشاهد كانت تذهل فولغن في الطفولة

وبالنظر إلى طبيعة السيرة الذاتية في رواية **المقدمة** (أي الجزء الأول من **مقدمة المقدمة**) يمكن القول إن انطباعات الطفولة في سيرنيسيفسكي قدمت له الأفكار التي

---

* تشيرنيشفسكي، **المؤلفات الكاملة**. المجلد العاشر الجزء الأول المقطع الثاني ص ١٧١

** المرجع السابق الصفحة ذاتها.

لم تقتصر على تقديم المشاهد المسحمة من النمط السابق المشار إليه وحتى هده المشاهد المسحمة لم تكن إلا لتترك تأثيراً عميقاً في النافع سيريبسفسكي في الناس العاديين الدين سوف نلاحظ فقط أن الطفل الدي يترعرع من غير أن يحال بينه وبين الاقتراب من الواقع والتفكير في ظواهره هو وحده الدي يستطيع أن يلاحظ هده المشاهد من الحياة اليومية وتعتريه الدهشة منها*

ولكن على الرغم من كل الطبيعة الديمقراطية في تربية سيرنيسيفسكي فانها تضمنت عنصراً من ارستقراطية خاصة جديرة باهتمامنا الكامل وحتى نفهم أهمية هدا العنصر، لا بد أن نأخد بالحسبان مثلاً الشهادة التالية من تشيرنيسيفسكي

والآن، كما أسمع، في كثير من المعاهد، وربما فيها كلها، قل السكر أو ألغي نهائياً ولكن في زمن أيام معهد ساراتوف لم يكن ثمة اجتماع بين الطلاب إلا وفيه شراب وما كان نكولاي الكسندروفيتش** أصغر من رفاقه الطلاب كثيراً ومع دلك لم يكن يرتاح للمشاركة في الشراب، حتى في حياة أسرته لم يكن ثمة ما يمنعه من هدا الميل »***

ويكتب أيضاً « عندما نهضت إلى الخطابة في ١٢٢ من الأصدقاء الطلاب أربعة فقط كانوا في الرابعة عشرة وواحد فقط كان في الثالثة عشرة وقد اعتبرناه طفلاً هدا الفتى شرب كثيراً جداً وشارك في كل مراحات الشباب بحماسة ملحوظة »****

كما نرى، كان الشرب يغري طالب تلك الأيام؛ كان طريقة لتحقيق سمعة طيبة بين الأتراب ولكن تشيرنيسيفسكي، على ما نعلم، لم ينجرف وراء هدا الاغراء لماذا؟ فلنترك جانباً الشروحات الممكنة الأخرى، ولنذكر القارىء أن تشيرنيسيفسكي نفسه يقول عن دوبروليوبوف « ولم يكن دوبروليوبوف لصباه مسجماً في مشاركة المعهد حفلات الشراب مع أن حياته العائلية لم تمنعه من الشرب هذه الكلمات تبين، في

---

* يقول لياتسكي « وفي ساراتوف أثناء الطفولة والصبا فهم فهما عميقاً حاجات الشعب وطموحاته التي أفصح عنها فيما بعد في مقالاته عن المسألة الفلاحية (سوفريميني مير ١٩٠٨ أيار ص ٥٧) وهدا صحيح تماماً

** اشارة إلى دوبرولوبوف

*** مؤلفات تشيرنيشفسكي المجلد التاسع ص ص

**** المرجع السابق ص ١١.

رأي سيرنيسفسكي، أن حياة الأسرة منعت الشاب من الملل إلى السكر ولكن هناك عائلات وعائلات فحتى تحول الحياة العائلية دون مثل هذه الاغراءات عليها ألا تقدمها بنفسها وقد كانت أسرة تشيرنيسيفسكي أسرة طيبة في هذا المضمار لقد كان والد نيكولاي غافريلوفيتش رجلاً من المدرسة القديمة طبعاً، ولكنه كان دائماً حكيماً جاداً وقد كان هذا كله فرصة للصبي ولكن هذا ليس كل شيء وإذا ما اتصلنا بشكل وثيق مع رفاق سيرنيسفسكي الطلاب، فما الذي يجعله لا ينحرف وراء شريهم المتبجح إن لم يكن العنصر الارستقراطي الذي تحدثنا عنه من قبل هو الذي حال دون ذلك إن اتصاله باصدقائه الطلاب لم يجعله يتجاوز حدوداً معينة بسبب الازدهار النسبي لعائلته إن سيرنيسيفسكي نفسه يوافق على الأهمية الكبرى لهذا العنصر في حديثه عن حياة دوبروليوبوف ومن الممتع أنه يشرح هذه الأهمية مستخدماً نفسه كمثال

يقول. كان نيكولاي الكسندروفيتش ابن كاهن مدينة يرى متعة في تقدير رؤسائه في الأسقفية وحتى يفهم ذلك الناس الذين لم يطلعوا على حياة المعهد، سوف أقول كلمة عن علاقاتي الخاصة مع أصدقائي الطلاب والدي أيضاً كان كاهناً في مدينة إقليمية في أبرشية غنية (كان دخل والدي من عائدات الخدمة يصل إلى ١٥٠٠ روبل نقداً وقد عشنا في بحبوحة) وقد كنت على علاقة طيبة مع كل زملائي الطلاب، وكان حوالي عشرة منهم أصدقائي الحميمين. كيف كان الواحد يعالظ مع الآخر بخشونة رفاقية - ما لا يعد من المرات؛ باختصار في غرفة الصف والمعهد (حيث كنت أذهب يومياً للمجادلات الرفاقية) وقف معي كما مع غير قليل من الطلاب في الاحتفال. إلا أن اثنين أو ثلاثة منهم فقط زاروني في المنزل، ونادراً ما حدث ذلك، ولا بد من القول إن هؤلاء كانوا من أقرب الاصدقاء إلي. لم يكونوا أكثر من معارف، ولكنهم كانوا يخجلون من زيارتي في أسرتي. لأنهم كانوا في ثياب ممزقة وأحذية بالية لا شيء يمكن أن يقاس ببؤس الأغلبية العظمى من الطلاب تذكرت أنه في أيامي كان طالب واحد فقط من ٦٠ طالب في المعهد يملك معطفاً من فراء الثعلب وكان معطفاً غريباً لبس على قياس طالب المعهد كما لو أن فلاحاً قد وضع عليه بقعة على شكل معين إني أذكر الفقيد ميسالمسكي الذي لم يكن يملك من الثياب سوى معطف سيء

أزرق لأيام الشتاء وكسوة كتانية صفراء لأيام الصيف - أذكر أن هذا الصديق العظم لم يتحرأ ويزورني عندما كنت مريضاً بالحمى، ولم يغادر منزله ثلاثة أسابيع، مع أننا أنا وليفتسكي ما كان يمر يومان إلا يرى واحدنا الآخر وعندما كان لا يأتي إلى الدروس كنت أذهب الى بيته كل يوم وباختصار لا أهمية لمدى تواضع أسرتي ومبلغ ثروتها فأصدقائي كانوا يعتبرون زيارة منزلي شيئاً خيالياً فيشعرون كما لو أنهم فقراء ولا حاجة لهم فيه. مثل شعوري لو كنت في مرسم دوق ديفنشاير »*

إن طفولة نيكولاي غافريلوفتش وصباه أتاحا له أن يرى بسهولة الواقع المؤلم الذي يحيط به، كما أتاحا له في الوقت نفسه الفرصة الكافية لامكانية الخلاص من قذارته وهذا ما لم يتوفر للجميع

الظرف الثالث المناسب لهذه الفترة من حياته كانت حقيقة أن والده، الرجل المثقف جداً علمه حتى درجة المعهد بصورة تامة، فمكنه بذلك من أن يتجنب مدرسة الكنيسة التي كان الأطفال فيها، طبقاً للعادة المتبعة في تلك الأيام، يخضعون لـ اضطهاد جسدي » على يد أساتذة مسحلين لأقل هفوة ودخل المعهد في ١ أيلول ١٨٤٤ في صف الخطابة وقد أحرز هنا تقدماً بشكل عام لكنه أبدى موهبة خاصة، على ما يبدو، في الانشاء في الموضوعات التالية «لا بد من كبح العواطف و«الرحل القويم. مثل قمة صهيون، لا يترحرح و«الرب يقودنا جميعاً إلى الانعتاق الخ إن ناقد المستقبل ومحرر **السوفريمينيك** طور هذه الموضوعات المهذبة حتى الرضا التام لأستاذه في اللغة وقد وجد هذا الأخير أنه كان هناك دافع للأمل أن المؤلف سوف يكون حاذقاً جداً لحرفته مع الوقت »**

ومع الانتقال إلى صف الفلسفة، أصبحت الموضوعات التي تدرب عليها المؤلف الفتى نفسه أكثر جدية إن طالب معهدنا الفتى الذي كتب موضوعاً انشائياً عالج فيه «رأس الحكمة مخافة الله كتب أيضاً مصدر قرابين العهد القديم وأهميتها و«جوهر العالم و«الانتقال التدريجي من الجوهر الأساسي إلى الظواهر و توسع العالم»، الخ ولكن النقطة الهامة هي التي كانت تواجه نيكولاي غافريلوفيتش في هذه

---

* تشيرنيشيفسكي. المؤلفات الكاملة، المجلد التاسع ص

** لياتسكي المرجع المذكور من السوفريميني مير حزيران ١٩٠٨ ص ٣٨.

التمارين بسؤال استرعى انتباهه جدا في سني النضج وطرحه في إحدى المقالات التي كتبها أثر عودته من سيبريا («سمة المعرفة السرية نوقشت فيما بعد) وعالجه: السؤال هو «هل أعضاء حسنا تخدعنا لا؟ وإليكم ما نقرأ في هذا عند السيد لناسكي

«لم يسلم سيريبيسفسكي مع اكارسورن بصحة زعمه أن من المستحيل تحديد مطابقة أفكارنا حول الأشياء للأشياء في ذاتها فاعتبر سيريبيسفسكي حجة اكارسورن غير مقنعة إذا كنا لا نملك برهاناً مكتسباً عملياً من طبيعة موضوع البحث الفعلي، يمكننا أن نستخدم برهاناً قبلياً ففي هذه الحالة ما العرض من أننا نملك حواس. إذا كانت تخدعنا وبالتالي لا ساعدنا بل تضرنا وتشوشنا؟ في تلك الحالة من الآثم المسؤول عن الخداع الذي جرنا إليه حواسنا؟ لا شك أن الآثم هو ذاك الذي أعطانا هذه الحواس ولكن من المستحيل أن يكون الله مرتكب اثم الضلال ومسبب الخداع فإذا كان من المستحيل أن يكون الله مرتكب اثم الضلال. فان علينا أن نوافق على أنه ليس هو الذي منحنا أعضاء الحس التي لم توجد إلا لتخدعنا كتب المعلم على المقالة جيد جداً ومن الواضح أن جواب السؤال قد أرضى متطلبات المعلم تماماً ولم يكن مسموحاً بالتنظير المتطرف»*

بالطبع حل سيريبيسفسكي فيما بعد هذه المسألة بالاعتماد على براهين أخرى، إلا أن هذه النتيجة الأخيرة تظل. في التحليل الأخير ذاتها لقد كان دائماً يسخف بالنظريات التي تدعو إلى عدم معرفة العالم الخارجي

إلا أنه لم يكن يرضي سلطات المعهد لتقدمه في العلوم في نهاية كانون الأول ١٨٤٥ منح السماح بالمغادرة، وفي آيار من العام التالي كان قد سافر إلى بطرسبرج بعربة حول لندخل الجامعة وقد تم هذا برضا أبويه التام. اللذين كانت لديهما الأسباب الدنيوية لمنحه الرضا** أما فيما يتعلق بسيربيسفسكي نفسه فليس لدينا سوى القليل من المؤشرات عبر المباشرة للأسباب التي دفعته إلى رفض مهنه في الكنيسة هذه المؤشرات واضحة تماما لقد كتب نفسه كان بنوير نكيفوروفيس كاراكاروف. كاهن كنيسة

---

* المرجع السابق ص ص

** المرجع السابق ص ص ٤٤ - ٤٥.

مسسفى الكسدروف، أول مں أرادني أں أحقق ما أرغب فيه مں كل قلبي قال محدثاً عں رحلتي الوسيكة إلى بطرسبرج «نأمل مں الله أں نلتقي عد إلىا مں هناك أستاذاً رجلاً عظماً، وعندئد سوف نكون قد سببا ويضف تشيرنسفسكي إلى هدا خفق قلبي على الفوز ما ألد أن أرى شخصاً بسكل عفوي وربما بصورة عرضية يقول ما أنت تفكر فيه، الرغائب التي سماها والتي يرغبها كل واحد، وعلى الأخص في مثل هدا السن الذي أنا فيه، وفي مثل الوضع الدي أنا فيه»* وبعد التقائه الشماس بروتاسوف في الطريق إلى بطرسبرج، الذي قال له «ربما تكون أنت الدي يقوم بالتنوير وخدمة روسيا»، يكتب طالب المستقبل مرة اخرى: أمامي الآن واجب: أں أكون ممتناً إلى الأبد له ولبيوتر نيكيفوروفتش لرغائبهما أمثال هؤلاء الناس يفهموں تماماً ما يعني الكفاح مں أجل التجديد وخدمة البشرية قالت أمي هذا كثير جداً، يكفي المرء أن يخدم أباه وأمه. لا إن ذلك قليل جداً إن على المرء أن يخدم كل وطنه عليّ أن أتذكرهما إلى الأبد»** ويمكن للمرء أن يضيف إلى هذا أن سيرنيسيفسكي في احدى مقالاته في المعهد تحدث كنصير متحمس لـ التنوير وقد كتب هذه المقالة حول موضوع أن ثقافة البشرية تقوم على تثقيف جيل الشباب وحسب السيد لياتسكي، الذي يقتبس هذه المقالة الناضجة فان سيرنيسفسكي أقام الصلة بوضوح بين المهمات الملقاة على عاتق الجيل الجديد والثروة المعرفة الثقافة التي يتلقاها هذا الجيل مں الماضي»*** إنه يقول إن «المعرفة غير مرهقة، فكلما عمل أصحابها بعمق ومشقة، منحتهم غناها إلا أں الفائدة الخاصة هي خاتمة هده المقالة. التي فيها يدعو المؤلف الشاب إلى نشاط لا يكل في ميدان المعرفة يبدي عجبه ألا فكروا فقط أن مجرى ثقافة كل البشرية يقوم على نشاطنا»**** ولكن سيرنسفسكي في الزمن الذي نعود إليه هذه المقالة لا يبدو أنه يفرق بين الثقافة الدنيوية وما يسمى الثقافة اللاهوتية وقد أدرك ذهنه فيما بعد هذا الفرق بسرعة كبيرة فرأى أں مهنه في الكنيسة لا تنسجم وأفكاره ولا تتفق مع كفاحاته

---

* المرجع السابق ص ٤٦ - ٤٧

** المرجع السابق ص ٤٧

*** المرجع السابق ص ٤٠

**** المرجع السابق الصفحة ذاتها

في اب ١٨٤٦ قبل طالبا في جامعة بطرسبرج ولا نعرف إلا القليل من سنواته الجامعة ولا شك أنه يبدو كما يقول السد فيودورف، أنه خلال دراسه نكولاي غافريلوفيش الجامعية تعلم اللغات الكلاسكيه والفيلولوجيا واللغات السلافية. واسمع إلى محاضرات الفيلسوف وعالم الآثار المشهور سرير نفسكي، وتحت إشرافه رتب مصنفاً للحوادث التاريخية الهيباتية* [نسبة إلى هيباتيا المرأة الحكيمة الجميلة في الاسكندرية في مصر توفيت ٤١٥ ق.م المترجم] هذا المصنف طبع مع **ملاحق «وقائع القسم الثاني لأكاديمية العلوم» في ١٨٥٣**** ولكن كل هذا غامض جداً مثلاً نحن لا نعرف بالضبط متى ابتدأت تجارب سيرنيسيفسكي الأولى. إن **المؤلفات الكاملة** تبدأ بملاحظتين ببليوغرافيتين (على كتب هلفرديغ وبيوكيرش) نشرتا في العدد السابع من **أوتيشيستفيني زابسكي** لعام ١٨٥٣ ولهذا يمكن أن يستنتج المرء أن بداية نشاطه الأدبي يعود إلى أواسط تلك السنة ولكن في المجلد نفسه، في ملاحظة ببليوغرافية طويلة حول **المعجم الموسوعي المرجع** لستارشيفسكي نقرأ حول نشر المجلد الأول من هذا **المعجم** الذي قدمنا (في العدد/٨/١٨٤٧/من أوسيسفيي زابسكي) تحليلاً مفصلاً له، وأظهرنا فيه أن القيام بمثل هذا النوع حتى يكون مفيداً حقاً للجمهور لا بد أن يصنف وفقاً لخطة دقيقة وأن ينفذ بدقة، وأن **المعجم المرجع** لا يحقق هذه الشروط والجمهور، كما نلاحظ، يوافقنا تماماً»*** ماذا يعني هذا؟

يمكن أن نقدم هنا افتراضين وسوف نختبر كلاً منهما على حدة

أولاً يمكن أن يفترض المرء - وهذا طبعاً الافتراض الأول الذي يخطر على البال - أن النشاط الأدبي لتشيرنيسفسكي ابتداء في ١٨٤٧ **(إن لم يكن قبل)**، وبالتالي ليس سوى سهو ناشر **المؤلفات الكاملة** جعل الملاحظة عن المجلد الأول من المعجم المشار إليه لا تدخل في المجموعة الكاملة ولا شيء بعيد الاحتمال في هذا الافتراض في ١٨٤٧ كان عمر سيرنيسيفسكي ١٩ عاماً أي السن الذي يمكنه من كتابة ملاحظة ببليوغرافية جدية وبقبول هذا الافتراض يواجهنا سؤالان هل كانت الملاحظة تلك فعلاً أول

---

* يرتكب السد فيودوروف غلطة مطبعية هنا عند وضع معرفيه موضع «هيباتيه» والمصنف طبع الآن في الجزء الثاني من المجلد العاشر لمؤلفات تشيرنيشيفسكي الكامله

** فيودوروف **تشيرنيشيفسكي** استحاباد ١٩٠٤ ص

*** تشيرنيسيفسكي، المؤلفات الكامله، المجلد الأول ص ١٤.

عمل لمؤلفنا ظهر في الطباعة؟ أمن المحتمل أنه بعد نشرها في ١٨٤٧ لم ينشر سيئاً آخر حتى تموز ١٨٥٣ عندما ظهرت، كما نعرف، ملاحظاته حول كتب هلغرديبغ ونيوكريس في العدد نفسه من الصحيفة؟ إننا لا نستطيع الإجابة عن هذين السؤالين. الإجابة فقط عند م-ن تشيرنيشيفسكي أو عند السيد لياتسكي*

الافتراض الثاني المحتمل هنا هو أن الملاحظة حول المعجم الموسوعي المرجع المنشورة في المجلد الأول من مؤلفات تشيرنيشيفسكي ليست له بل لمحرر آخر في أونيشيستفيني زايسكي، الذي تعزى إليه طبعاً المراجعة المنشورة في ١٨٤٧ من المجلد الأول من المعجم. ليس ثمة شيء غير محتمل أيضاً في هذا الافتراض. ولم تكن المراجعات في أونيشيستفيني زايسكي موقعة في تلك الأيام. والحقيقة أن مؤلف المقالة يمكن أن يعرف ليس من التوقيع. لغة المقالة ومضمونها غالباً ما تقدم المؤشر عن المؤلف واهتداء بالمؤشرات الأخيرة نجد الافتراض الثاني يرجح على الافتراض الأول.

لقد تحققنا أن من الصعب أن نحكم على لغة الكتاب المبتدئين، مثلما كان سيرنيسيفسكي ١٨٤٧. فالكتاب المبتدئون يستخدمون لغة لم تتطور بعد. ولذلك لا شيء يميزهم. بيد أن لغة المراجعة التي نشرت في ١٨٤٧ تبدو لنا متطورة تماماً. إلا هذا في حد ذاته لا يشكل أهمية حاسمة: فلا أحد قرأ الأعمال المطبوعة الأولى لدوبروليوبوف مستعد أن يقول أن الذي كتبها مبتدىء في الأدب. إلا أن النقطة هي أن سيرنيسيفسكي حتى في سنته الجامعية الرابعة، كتب بلغة أقل تطوراً بكثير من تلك التي كتبت بها المراجعة. وهذا واضح إذا قرأ المرء مقالته «بريجادير فونفيزين» طبعت أولاً في الجزء الثاني من المجلد العاشر من مؤلفاته، ولكن كما يمكن أن نرى من الملاحظة التي قدمها الناشر تنتمي إلى الزمن الذي كان فيه

---

* أثناء التحري عن هذه القضية، شهد سيرنيشفسكي أنه في حزيران وآب ١٨٤٦ أخذ إلى هيئة تحرير أوتشيستفيني زابسكي ترجمة من صفحة التسلية في صحيفة المناقشات. وفي نهاية ١٨٤٧ وبداية ١٨٤٨ سلم نكراسوف للنشر في السوفريمينيك رواية (حول سوء طالع بيمة ربت في مؤسسة ثم وقعت في أيدي أنباء سوء) هذه الرواية لم تنشر (ليمك «قضية سيرنيشفسكي» بتلوي ١٩٠٦ رقم ٤ ص . هذا كل ما نعرفه إلا أن هذه الحقائق القليلة تبين أن تشيرنيشفسكي لم تكن له محاولات أدبية في ذلك الوقت لا مع كرايفسكي (أي مع أوتشيستفيني زابسكي) أو مع نكراسوف (أي مع السوفريمينيك) وإلا كان أشار إليها حسب يقول في شهادته أنه لم ير قط الأشخاص المومى إليهم مرة أخرى إلا في ١٨٥٣.

تشيرنيشيفسكي في سنته الرابعة في الجامعة لا شك أن لغة هذه المقالة هي لغة كاتب « قليل الخبرة أكثر من ذاك الذي كتب الملاحظة للمجلد الأول من **المعجم الموسوعي المرجع**

والشيء نفسه يمكن أن يقال عن مضمون الأخيرة: إنها تكشف في المؤلف اكتمال نظرة عالمية وثروة معلومات لا نجدها في المقالة التي عن **البريجادير** هذه المقالة كتبها سيرنيشيفسكي عندما كان في السنة الرابعة، ولكن مراجعة ١٨٤٧ إذا كانت تعزى إليه، ستكون كتبت إما في نهاية السنة الأولى، أو عقب انتقاله إلى السنة الثانية مباشرة ولذلك نعتقد أن ناشر أعماله أخطأ حين عزا إليه الملاحظة الموجودة في المجلد الأول من ص ١٤ إلى ص٢٥

إلا أن هذا أيضاً، لسوء الحظ، لا يجيب عن سؤال متى ابتدأت التجارب الأدبية الأولى لمؤلفنا وسعيا وراء إجابة، دعنا ننتقل ثانية إلى المقالة التي كتبت عن **البريجادير** إنها تستحق كل اهتماما

في بدايتها الأولى تقريباً يقدم المؤلف الشاب التحفظ الهام التالي

« لن أقول شيئاً حول تأثير فونفيزين في المجتمع، لأنه لو كان لفونفيزين تأثير لكان جد ضئيل ولا بد من أن نوافق على ما يمكن أن نسميه تأثير عمل أدبي على المجتمع فإذا كان هذا يعني أنه في ظهور عمل جديد، يسرع الناس يتحدثون عنه، مادحين أو قادحين المؤلف، فإن فونفيزين حقق ذلك، وبشكل خاص مع **البريجادير** فهو نفسه يقول في **اعترافه** كم تحدث **بريجاديره** في المحكمة، وكيف تنافس النبلاء في دعوته لقراءة ملهاته - ولكن، حسب ظننا هذا لا يمكن أن يسمى تأثيراً في المجتمع إنه يوجد فقط عندما تدخل الأفكار التي قام عليها الكتاب في صلة حية مع حياة المجتمع الحقيقية (الثقافية أو الأخلاقية أو العملية فلا فرق. المهم أن تكون حقيقية) يجب بعد قراءة الكتاب، يبدأ المجتمع يشعر بفارق قليل عن السابق. يشعر أن نظرته إلى الأشياء أصبحت أوضح أو تغيرت، يشعر أن دفقة قد حلت في حياته الثقافية أو الأخلاقية »*

تلك الكلمات تعبر بإيجاز عن مهمة الأدب، التي طورها بالتفصيل فيما بعد

---

* سيرنيشيفسكي، المؤلفات الكاملة. المجلد العاشر جزء ٢ ص ٢

سيريشيفسكي، والتي تمثلها أيضاً دوبروليوبوف* وهنا يمكن للمرء ان يرى مستقبل مؤلف مرحلة غوغول في الأدب الروسي إلا أن هذا المؤلف لم يكن بعد قد طور أسلوب التعبير الأصلي الذي اتسم به فيما بعد، أنه بالضبط بدأ يطوره وفي الوقت نفسه نجد مناقشته أيضاً لا تتميز بثروة من المعلومات التي تدهش قارىء مؤلفاته الأخيرة من الواضح تماماً أن أمامنا «تجربة قلم ولكن ما أهمية هذه «التجربة القلمية هذا ما نوضحه، إلى جانب المقطع الذي اقتبسناه للتو الأسطر التالية:

المطلوب هو أن شخصيات الكاتب، وعلى الأخص كاتب الدراما، يجب أن تطور، فإذا بقيت جامدة فاللوم يقع على المؤلف، ويخلو الكتاب من الميزة الفنية كثيراً ما تسمع هذا المطلب كما تسمع دائماً نقداً لهذا أو ذاك العمل لأنه لم يحقق ذاك المطلب ولكن عندنا أن هذا المطلب لا يستطيع أن يكون قانوناً ثابتاً يحدد الجمال الفني للعمل الأدبي إن القوانين الفنية لا يمكن أن تتعارض مع ما هو قائم في الحياة، إنها لا تستطيع أن تطالب بتصوير الواقع بشكل مغاير لما هو قائم بحيث يجب أن ينعكس في الأعمال الفنية ولكن في الحياة الواقعية غالباً ما نواجه مثل هذه الطبيعة الصحلة، والشخصية غير المعقدة، بحيث في مقدورك أن تراها في شخص ما دفعة واحدة، وتراه كله، بصورة مطلقة، بحيث أنك حتى لو عشت معه عشرين عاماً فإنك لن ترى فيه شيئاً جديداً عما ظهر لك منذ كلمته الأولى، ومنذ اللمحة الأولى كيف يمكن أن تطور شخصية مثل هذا الشخص أمامك في عمل فني في حين هو نفسه لم يطور شخصيته في الحياة الواقعية؟**

الأفكار المعبر عنها هنا كانت أفكار بيلنسكي، كما تطورت في المرحلة الأخيرة من نشاطه الأدبي، الاهتمام بالواقع ذاته، والاعتقاد نفسه أن على الفنان تصوير الواقع كما هو من غير زخرفة ولا حذف ولهذا فإن مقالة البريجادير في هذا الصدد هامة جداً لكاتب سيرة تشيرنيشفسكي إنها تبين أن المؤلف في نهاية دراسته الجامعية أصبح تابعاً مخلصاً لبيلنسكي، الذي شعر دائماً بالاحترام الكبير له

---

* حول أهمية مسألة الهجاء أنظر بشكل خاص مقالة دوبروليوبوف الهجاء الروسي زمن كاترين (السوفريمينيك ١٨٥٩ رقم ١٠) نشرت في المجلد الأول من مؤلفاته

** تشيرنيشفسكي. المؤلفات الكاملة، المجلد العاشر جزء ٢ ص ٧

ولكن هل يمكن للمرء أن يقول أنه تثقف بمؤلفات بيلنسكي وحلقته؟ وهل كان هذا هو المصدر الذي استقى آراءه؟ لا لن يكون هذا صحيحاً تماماً لا شك أن تشيرنشيفسكي يدين بالكثير لبيلنسكي، ومع ذلك لا بد أن نعرف أنه لس مديناً له بكل شيء أبداً

وعلى الرغم من أن سيرنيسيفسكي في كتاباته قلما يلمس تاريخ التطور الثقافي، فإن المرء يجد فيها بعض الملاحظات العابرة التي تلقي ضوءاً عليه فمن بين هذه الملاحظات النادرة جداً رسالة كتبها بعد وفاة دوبروليوبوف رداً على مقالة كتبها ر .ن ونشرها في عدد شباط من **السوفريمينيك** ١٨٦٢ قال السيد .ن. من جملة ما قال، أن الفقيد دوبروليوبوف كان تلميذاً لتشيريسيفسكي وكان متأثراً به كثيراً ويرفض تشيريسيفسكي هذا عاطفياً، بل حتى بغضب قائلاً إن دوبروليوبوف وصل إلى آرائه بسكل مستقل تماماً وكان متفوقاً عليه بقواه الفكرية وبموهبته الأدبية لا حاجة الآن أن نقرر إلى أي مدى ينطبق هذا التصريح المتواضع على الحقيقة وحتى نكون منصفين فإن الشك يساورنا كثيراً في هذا التطابق مع الحقيقة. ولكن هذا لا يعنينا هنا، إن كل ما يهمنا الآن من رسالة تشيرنيسيفسكي هو المقطع الثاني فبعد تذكير ز .ن أن دوبروليوبوف يعرف الألمانية والفرنسية، ولذلك يمكنه أن يطالع أعظم المؤلفات الأدبية لفرانسا وألمانيا بلغتها الأصلية، يقول: « إذا كان روسي موهوب في السنوات الحاسمة من تطوره يقرأ كتب معلمينا الغربيين الكبار فإن الكتب والمقالات التي تكتب بالروسية يمكن أن تسره، يمكن أن تفرحه (كما كان دوبروليوبوف يفرح وقتها ببعض الأشياء المكتوبة بالروسية)، ولكنها لا يمكن بحال من الأحوال أن تفيده كمصدر هام في المعرفة والمفاهيم التي يستقيها من مطالعته أما بالنسبة إلى تأثير مقالاتي في دوبروليوبوف، فإن مثل هذا التأثير ليس له وجود حتى بدرجة طفيفة كذاك التأثير لمقالات بيلنسكي وفي ذلك الوقت لم يكن لي تأثير هام في الأدب* والواقع أنه في الزمن الذي يشير إليه تشيرنيسيفسكي هنا، أي ١٨٥٥-١٨٥٦ عندما كان قد ظهر كتابه الشهير **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي**، كان تأثيره أقوى بكثير مما يدعي ولكننا نكرر هنا أن هذا لا يهمنا هنا النقطة الهامة بالنسبة إلينا الآن هي فقط أنه هو

---

* « تعبيراً عن الامتنان رسالة إلى السيد ر ن المؤلفات الجزء التاسع ص ١٠.

أيضاً يعرف اللغات الأجنبية وأنه أيضاً قرأ كتب « معلميا الغربيين الكبار في السوات الحاسمة من تطوره. ولذلك يمكن للمرء أن يفترض أنه هو أيضاً تفرحه بعض الكتب والمقالات التي كتبت بالروسية، التي يفخر من بيبها بكتب بيلنسكي، ولكنها أيضاً بالسبة إليه لم تكن « المصدر الأصلي لمفاهيمه ومعرفته

ما هو ذاك المصدر؟ تقدم لنا مقالة « بريجادير فونفيزين » بعض المؤشرات في هذا الصدد أيضاً يقول مؤلفها الشاب:

« إنك لا تسطيع أن تقرأ «Lapetite Fadette» و «Françaisle champi» وروايات أخرى من هذا النوع لأعظم كتاب عصرنا من دون أن تشعر بالمسرة: فكم تستريح في هذا الجو الرائع الصافي وسكون مسروراً أن تجعل كلاً من هؤلاء الفلاحين أصدقاء لك، وأن تعيش لسوات في صحبتهم مس غير شعور بالضجر، ولن يكون، كما أعتقد، أنك سكون أرفع مبهم ثقافة، حتى لو كنت فعلاً أرفع مبهم، ولكن في الوقت نفسه أليس صحيحاً أبهم جميعاً (بغض النظر عن فاديت نفسها) ذوو عقول ضيقة، وانهم بلداء جداً جداً في أغلبيتهم؟ »*

هذا المطع الممتع جداً يبيں أن تشيرنيسيفسكي قرأ بشغف روايات جورج صاند التي تعالج حياة الفلاحين والتي كانت في ذلك الوقت روائية أدبية** لقد منح جورج صاند مكانة رفيعة بين كتاب عصرها ولكنه لم يكن يقرأ ويدرس الكتاب الفرنسيين فقط إن الملاحظات عن الأدب الفرنسي في القرن السابع عشر التي يجدها المرء في المقالة ذاتها تبين أنه كان وقتها متأثراً جداً بليسنغ، الذي كرس له فيما بعد كتاباً كاملاً*** ولا بد أن نلاحظ بالمناسبة أن تلك الملاحظات محازة تماماً وإذا كانت تفسر على أنها من تأثير ليسنغ، فلا بد من تحفظ واحد هو أن التلميذ الروسي الشاب في حماسته بالغ في أفكار معلمه الألماني مبالغة كبيرة****

---

* المؤلفات المجلد العاشر الجرء الثاني ص ١٣

** ظهرت رواية « فاديت الصغيرة في ١٨٤٨ ورواية « فرانسوا ليشامي في ١٨٥٠

*** ليسغ، عصره وحياته ومؤلفاته (السوفرييبك ١٨٥٦ الأعداد ١٠-١٢ و١٨٥٧ الأعداد١ ٣-٦ أنظر المؤلفات الكاملة المجلد الثالث

**** أنظر مثلا (المرجع السابق) ملاحظاته الاردرائية جداً عن الكوميديا الفرنسية في القرن السابع عشر وممثلها الأكبر موليير، « في كل مؤلفاته يمكن المرء أن يجد بصعوبة صفحتين فقط من المحادثة الطبيعية =

وإذا تجاوزنا شلر وغوته، اللذين قرأ تشيريسيفسكي مؤلفاتها أول ما قرأ، بينما كان لا يزال في المعهد، فيبدو أنه أخذ يدرس الفلسفة الكلاسيكية الألمانية، وبوجه خاص هيغل، في الفترة السابقة للجامعة نفسها ولكن في ذلك الوقت، حسب تعبيره، لم يكن يعرف «غير شروحات نظام هيغل الروسية الناقصة جداً ويتضح أيضاً من كلماته أن تلك الشروحات الناقصة «عرضت المثالي الألماني الكبير من وجهة نظر الجناح اليساري للمدرسة الهيغلية»* (هل كانت يا ترى رسائل في دراسة الطبيعة لهرزن؟) وفوق ذلك فاننا نعرف، أيضاً بشهادة سيرنيسيفسكي أنه بعد هيغل - الذي بدأ يدرسه بالألمانية بعد انتقاله إلى بطرسبرج والذي أحبه في اللغة الأصلية أقل مما أحبه في الشروحات الروسية انتقل «عرضاً إلى واحد من المؤلفات الأساسية للودفيغ فيورباخ كان لمؤلف **جوهر المسيحية**** تأثير حاسم عليه يقول تشيريسيفسكي نفسه انه أصبح من أتباع ذلك المفكر ويقرأ ويعيد مؤلفاته بحماسة

معرفته لفيورباخ ابتدأت، كما يقول نفسه، حوالي ست سنوات قبل أن تضطره الضرورة المادية إلى كتابة اطروحة علمية، أي بمعنى آخر قبل البدء بأطروحته الكبرى في علم الجمال ومنذ أن كتب أطروحته في ١٨٥٣*** لا بد من أن تكون علاقته بفيورباخ قد بدأت في السنة الثانية من الجامعة. على أي حال بقي من أتباع فيورباخ حتى نهاية حياته، وسوف نسمح لأنفسنا أن نلفت نظر السيد فيودوروف إلى حقيقة أن تأثير ذلك المؤلف في الأفكار الفلسفية لمؤلفنا أقوى بما لا يقاس من تأثير «الفيلسوف المشهور سرنيفسكي (أنظر أعلاه)

لقد قدم فيورباخ لتشيرنيسيفسكي أساس كل نظرته العالمية ولكننا عرفنا من قبل أن مؤلفنا أعجب بروايات جورج صاند هذه الروايات عالجت الكثير من الموضوعات المتعلقة مباشرة بالحياة الاجتماعية والعائلية ولن نخطيء إذا افترضنا أن تشيرنيسيفسكي حين كان في الجامعة كان قد درس هذه الموضوعات كثيراً والأرجح

المألوفة، فكل شيء مصطنع ومبالغ فيه لادخال المتعة وجعل الشخصيات تبرز بروزاً حاداً

* أنظر مقدمة الطبعة الثالثة من «العلاقة الجمالية بين الفن والواقع المنشورة في الجزء ٢ المجلد العاشر من المؤلفات الكاملة وللمزيد عن هذه المقدمة الهامة أنظر فيما بعد فصل «آراء تشيرنيشيفسكي الفلسفية

** [Das Weesen des Christentuns]

*** أنظر ملاحظة الناشر ص ٨٤ جزء ٢ المجلد العاشر من مؤلفات تشيرنيشيفسكي المختارة.

أنه في هذا الوقت بالذات تعرف على الأنظمة الاشتراكية الهامة، وبدأ يدرس **الاقتصاد السياسي*** لكننا لا نملك مؤشرات مباشرة عن كيفية نجاح دراساته التي من هذا النوع شيء واحد يمكن قوله بتأكيد تام فمع أنه في عشية انتقاله إلى بطرسبرح ابهج بكلمات الكاهن كاراكوزوف، الذي عبر عن أمله بأنه سيصبح معلماً، فهو في سي نصحه لم تكن لديه النية في أن يصبح أكاديمياً مختصاً إن نشاط النقد الأدبي والصحافة جذبه إليه. في المعهد صمم أن يكرس قواه للعمل من أجل صالح بلاده وربما في ذلك الوقت آمن أن هذا العمل لا يتطلب شخصية أكاديمية صحفية في **مقالات حول مرحلة غوغول**، يعبر عن نفسه بشكل محدد في هذا الموضوع

يقول «إن الكثير من الجهابذة والشعراء والفنانين العظام لم يضعوا في ذهنهم سوى خدمة العلم المحض أو الفن الخالص، وما من متطلبات استثنائية لوطنهم. بيكون وديكارت وغاليلي وليبنتز ونيوتن واليوم هامبولت وليبيغ وكوفير وفارادي عملوا ويعملون غير مفكرين إلا بمصلحة العلم عامة وليس بما هو ضروري في زمن معين لثروة بلادهم الخاصة التي هي وطنهم. إننا لا نعرف ولا نسأل أنفسنا فيما إذا أحبوا بلادهم وهكذا طارت شهرتهم من غير أي صلة بخدماتهم الوطنية. وباعتبارهم أعضاء في العالم الثقافي، فانهم كوسموبوليتيون والشيء نفسه يجب أن يقال عن الكثير من الشعراء العظام في أوروبا الغربية فلنأخذ أعظمهم مثالاً على ذلك - شكسبير ولنذكر أسماء اريوسو وكورنيل وغوته إن أسماءهم تذكرنا أنهم قدموا خدمات فنية للفن وليس محاولات خاصة أولية لصالح بلادهم»** والأمر ليس كذلك في بلادنا أما المثقفون الروس فإنهم في مركز مختلف كل الاختلاف في نظر تشيرنيشيفسكي. إنهم لا يستطيعون أن يكونوا كوسموبوليين، أي لا يفكرون بمصالح العلم المحض أو الفن الخالص. وبهذا الخصوص، وانسجاماً مع شروط بلادهم، فان عليهم أن يكونوا «وطنيين» أي يفكرون أولاً وقبل كل شيء في الحاجات الخاصة لوطنهم وفي هذا المجال فان «الوطني المثالي عند تشيرنيسيفسكي هو «بطرس الأكبر، الرجل الذي جعل نصب عينيه إدخال كل بركات الحضارة الأوروبية إلى روسيا لقد اعتقد

* منذ ١٨٥٤ في ملاحظته القيمة عن كتاب لموف (الأرض عنصراً للثروة).

** تشيرنيشيفسكي المؤلفات الكاملة المجلد الثاني ص ص ١٢٠ - ١٢١.

تشيرنيسيفسكي أن هذا الهدف. حتى في أيامه، كان لا يزال أبعد من أن يحقق تحققاً كاملاً حتى اليوم بالنسبة إلى الروس، الخدمة الممكنة الوحيدة للأفكار المثالية للحقيقة والفن والعلم هي السعي إلى نشرها في وطنه ومع الزمن فإننا مثل غيرنا من بقية الشعوب، سوف يكون لدينا مفكرون وفنانون يعملون بتجرد لمصالح العلم أو الفن، ولكن إلى أن تكون ثقافتنا في مستوى ثقافة الأمم الأكثر تقدماً، فان كل واحد منا يملك قضية عزيزة على قلبه جداً قضية دفع البلاد، بكل ما يمكن، نحو المزيد والمزيد من التطور الذي ابتدأه بطرس الأكبر هذه القضية تتطلب اليوم وسوف ستطلب لفترة طويلة تجميع كل القوى الفكرية والأخلاقية التي يحوزها أعظم الأبناء موهبة في وطننا »* إن تشيرنسيفسكي أراد تكريس قواه لنشر الأفكار النبيلة للحقيقة والفن والعلم في وطنه وكل شيء يشير أن نيته تكونت أبكر بكثير من بدايته في النشاط الأدبي على أي حال فان نيته اتخذت شكلها الأخير في سنوات الجامعة

بالتالي، عندما كان في السجن بتهمة الترويج للمبادىء الاشتراكية، كتب سيرنيسيفسكي

« لست اشتراكياً بالمعنى الأكاديمي الجدي للكلمة، بسبب بسيط جداً أنا لست من عشاق النظريات القديمة ضد النظريات الجديدة مهما كنت فانا أحاول أن أفهم الوضع الحالي للمجتمع والمعتقدات المنتشرة فيه إن تقسيم الناس المشتغلين بالاقتصاد السياسي إلى مدارس اشتراكية ومدارس غير اشتراكية هو حقبة من التطور التاريخي للعلم الذي أصبح مهجوراً إن التطبيق العملي لهذا التقسيم الداخلي للعلم بات أيضاً شيئاً من مخلفات الماضي منذ زمن طويل في انكلترا، ومنذ أحداث ١٨٤٨ في القارة الأوروبية الغربية إنني أعلم ان هناك الكثير من الناس المحافظين الذين يؤمنون أن رأيي هذا هو ايذان بالنزاع، ولكن هذا النزاع حول ما إذا كانت معتقداتي الأكاديمية مؤسسة جيداً أم لا موضوع ليس له أهمية قانونية ومع ذلك فقد حشر في القضية »**

ليس ثمة نوع من الأخلاقية يمكنه أن يفرض على سيرنسفسكي أن يكشف أفكاره العميقة المخبوءة لمتهميه وبالتالي فان كل شهادة من هذا النوع الذي قدمه يمكن أن

---

* المرجع السابق ص ص

** لمك « قضية تشيريشيفسكي (بولوي ١٩٠٦ رقم ٥ ص ١٠٢)

سخدم كمواد لسيرة حياته، فقط إذا كان كاتب السيرة يبىي منها موقفاً نقدياً في القصية المشار إليها يجب ان يشرح الناقد معنى التصريح «أنا لست اشتراكياً بالمعنى الاكاديمي الجدي للكلمة في الحقيقة يعني، في رأي سيرنيسيفسكي، أن المعارضة القديمة المعروفة بين الاشتراكية والاقتصاد السياسي قد غدت مهجورة تماماً وهذا الرأي، بدوره، يعني أن الاشتراكية يجب ليس فقط ألا تحارب ضد الاقتصاد السياسي، بل العكس تماماً، أن توحد مطاليبها مع الاتجاهات الأساسية لهذا الأخير واسجاماً مع ايمانه هذا انطلق يترجم كتاب ميل **مبادىء الاقتصاد السياسي** ويعلق عليه وعندما اتهم بسر المبادىء الاشتراكية، اشار إلى هذه الواقعة كشاهد معه. إن هدا واضح جداً من المقاطع الأخرى من الوثيقة التي اقتبساها

يقول سيرنيسيفسكي هنا «بالمعنى القانوني للكلمة، بالمعنى الأكاديمي الجدي، الدي يحظى وحده بالأهمية القانونية، يتناقض مصطلح «الاشتراكي مع وقائع ساطي إن أعظم أعمالي في الاقتصاد السياسي كان ترجمة اطروحة ميل، تلميذ ريكاردو، وميل أعظم ممثل لمدرسة آدم سميت في زمنا، إنه أعمق ايماناً بآدم سميث من روشر ومن الملاحظات التي ألحقتها بالترجمة، أضخمها دراسة للقانون المالتوسي فقد اتخذته وحاولت* دحض صيغة مالتوس هذا المبدأ يعتبر حجر الراوية في الاخلاص غير المشروط لروح آدم سميت »**

بالمعنى **القانوني** للكلمة، طبعاً من الغريب من الموقف المشار إليه أعلاه وهو المعارضة بين الاشتراكية والاقتصاد السياسي أن نتهم شخصاً بترويج الاشتراكية وكان قد ترجم ميل وطلب من الاقتصاد الاخلاص لروح آدم سميث إلا أن هذا لا يلغي أبداً الأهمية **النظرية** للمسألة بالمعنى الذي علق به تشيرنيسيفسكي على ميل، وفيما إذا كان آمن أن الاقتصاد الذي كان مخلصاً بلا قيد ولا شرط لروح آدم سميث لا بد أن يؤدي إلى الاشتراكية فيما بعد سوف نبين أن مؤلفنا لم يعلق على ميل بالمعنى الاشتراكي وسنبين أيضاً الطريقة التي استخلص بها النتائج الاشتراكية من العقائد الرئيسية للاقتصاد السياسي ولا يستحب من أي امرىء أن يسك في هذا غير مستحب

---

* تتضمن مقالة ليمك كلمة «تطور» ولكن هذا ولا شك غلطة مطبعية

** المرجع السابق الصفحة نفسها

من أي امرىء يسك أن تشيريشيفسكي كان اشتراكياً ولكن كما سبق وقلنا في المقدمة[٨٣]، كثيرون ما يرالون يرفضون الاعتراف ان تشيرنيشيفسكي كان من معتنقي الاشتراكية الطوباوية. اننا على يقين أن عرضنا الأخير سوف يكشف للقارىء بوضوح كاف أن مثل هذا الرفض لا أساس له اطلاقاً هنا سوف نلاحظ ببساطة ما يلي.

لقد اعتبر سيرنيسفسكي المعارضة القديمة بين الاسراكية والاقتصاد السياسي نافلة. ولكن بالنسة إليه يعي هذا أولاً أنه بعد تجربة ١٨٤٨ لا يسطيع المرء تعليق آماله على مساعر الناس العيرية: الشفقة على المضطهدين والتعاطف مع الجار الخ، إن على المرء أن يباشد عقولهم ويدافع عن الاشتراكية من موقف «التقدير الاقتصادي المصلحي ولكن، كما سنبين، هذه المناشدة للتقدير لا سفي الموقف الطوباوي من المجتمع

في الجزء الثاني من رواية المقدمة التي كتبها تشيرنيسيفسكي في سيبريا، يلاحظ ليفيسكي (دوبروليوبوف) في يومياته عقب لقاء مع فولغن (تشيرنيسيفسكي): «إنه لا يؤمن بالشعب في رأيه إن الشعب رديء ومبتذل كالمجتمع »* إن هذا يعني، إن لم نخطىء، أن رأي تشيرنيسيفسكي في الشعب، حسب مذكرات تشيرنيسيفسكي الخاصة، قد أثر في دوبروليوبوف كنقص «إيمان كلي وسوف نعرض هذا الموقف بالتفصيل فيما بعد، وسوف يرى القارىء أن تشيرنيسيفسكي لم يحسب حساب مبادرة الشعب في كل من روسيا، أو في الغرب إن المبادرة من أجل التقدم وكل التغيرات في بناء المجتمع التي تفيد الشعب ترجع، في رأيه، إلى «الأفاضل أي إلى الانتلجنسيا وفي هذا المجال - وفي هذا المجال وحده يقترب موقفه جداً من الآراء التي شرحها فيما بعد لافروف في رسائل تاريخية. وليس هنا مكان انتقاد هذا الموقف ولكن من الجدير أن نذكر القارىء بتلك الفترة التي شكل فيها تشيرنيسيفسكي رأيه هذا كان عصر الانكشاف الذي أعقب انهيار الآمال التي كانت قد علقت على حركة ١٨٤٨ عصراً اتسم بالتقلص العام، وإن كان موقتاً، للطبقة العاملة الأوروبية الغربية

هذا العصر من الانكشاف ليس بالطبع لصالح ظهور أي آمال مضخمة بالمستقبل القريب عند سيرنيسيفسكي وهذا هو السبب في أنه، بعد إنهاء دراسه الجامعية بمدة

---

* المؤلفات، المجلد العاشر الجزء الأول المقطع الثاني ص ص ٢١٥-٢١٦.

قصيرة (١٨٥٠) ذهب إلى ساراتوف حيث استلم مركز معلم مخرج في الجمنازيوم ولكن اليومية التي احتفظ بها في ساراتوف والتي تعو. إلى ١٨٥٢-١٨٥٣ تظهر أنه وإن لم يبالغ في آماله في المستقبل القريب، لم يكن واحداً من هؤلاء الناس الذين فقدوا كل أمل في النصر الوشيك للمشروعات التقدمية وإليك ما يلي على سبيل المثال. كتب في ٥ آذار ١٨٥٣ «أخيراً سوف أتزوج، لأصبح أشد حذراً لأني إذا تابعت كما بدأت، فإن من الممكن فعلاً أن أعتقل، يجب أن تتكون في فكرة أنني لن أنتمي إلى نفسي، فليس لدي الحق أن أخاطر بنفسي، وإلا من يعرف؟ ألن أخاطر؟ يجب أن تتكون في تلك الفكرة حتى أدافع عن نفسي ضد الاتجاه الديمقراطي والثوري، ولا شيء سوى فكرة الزوجة يمكن أن تكون هذا الدفاع »* إنه في الحقيقة لم يتروج أولغا سوكراتوفنا فاسيلييا في ٢٩ نيسان ١٨٥٣ لا بد من القول، على أي حال، إنه هو نفسه لم يكن يتوقع جدياً أن يدافع الرواج عنه «ضد الاتجاه الديمقراطي والثوري لقد حذر خطيبته أنه يمكن أن ينتهي نهاية سيئة ومن الجرء الأول لرواية **المقدمة** يمكن أن نرى أنه يتحدث مع أولغا سوكراتوفنا حول هذا الموضوع وبعد أن أصبحت زوجته أيضاً كيف صور مجرى الأحداث التي هددته بالسقوط؟ جواب ذلك في المقطع التالي من **يوميات ليفيتسكي** (الجرء الثاني من رواية **المقدمة**) وبقراءة هذا المقطع، لا بد أن يتذكر المرء أن القاص فيه هو ليفيتسكي (دوبروليوبوف) الذي يسجل الكلمات التي يحدثه بها فولغن (تشيرنيشيفسكي):

« سوف يحل زمن خطير متى؟ إنني فتى، ولذلك بقدر ما أسعد له، عندئذٍ لا يهمني متى يحل: في أي حال سوف يجدني لا أزال في أوج قواي، إن لم أزهقها كيف سيحل؟ إننا نتحدث عن زمن القوة - سلطان الطبيعة وحده القوي

هبات من الزوابع في الهواء الآن
من يدري من أين تهب وكيف

إن احتمالات المستقبل مسوعة أي منها سوف يحدث؟ هل يؤثر؟ هل أرغب في سماع رأيه الشخصي عن أي احتمال أرجح من بقية الاحتمالات؟ انكشاف المجتمع ومس

---

* المؤلفات المجلد العاشر الجرء الثاني المقطع الثالث ص ٣٩ ويكتب في مقطع آخر «لا بد أن أكبح نفسي بشيء ما في الطريق إلى اسكاندر (المرجع السابق ص ٩٦).

الانكشاف ليبرالية جديدة بأسلوب جديد، صغيرة محتقرة دنيئة كما في السابق بالنسبة إلى أي شخص ذكي، ولا أهمية لمنزع ذهنه، ودنيئة بالنسبة إلى الجذري الذكي، كما هي فارغة ووضيعة وجبانة ومحطة وغبية بالنسبة إلى المحافظ الأريب، وسوف تتطور وتتطور وضيعة وجبانة إلى أن تهب في مكان ما في أوروبا - والأرجح في فرانسا - عاصفة تكنس كل ما بقي من أوروبا كما في ١٨٤٨

« في ١٨٣٠ هبت عاصفة في ألمانيا الغربية فقط، وفي ١٨٤٨ استولت على فيينا وبرلين. وإذا ما اعظ المرء بهذا فإنه لا بد أن يفكر انها في الزمن التالي سوف تستولي على بطرسبرج وموسكو »*

مهما يكن فإن تشيرنيسيفسكي برر هكذا عن نفسه أيضاً في اتمامه الدراسة الجامعية: « من المستحيل التصرف في أي شيء عملي الآن، إلا أن زمناً خطيراً سوف يأتي ولا شك بتأثير هذه « الورطة أو تلك في الحياة الدولية وعندئذٍ سيكون من الممكن الانطلاق في نشاط اجتماعي، ولكن حتى يحل ذلك الزمن لا بد من أن أستجمع قوتي وأهتم بنفسي، وبالشباب الذين على اتصال وثيق معي بالطبع هو لم يعمل. ومن الصعب الشك أنه، وهو معلم في جمازيوم ساراتوف، لم ينتهر فرصة بث البذور في روح الشباب ولكن هذا تمّ فعله في توقع المهمات الكبيرة، وكان مرحلة إعدادية، « مقدمة لنشاطه الاجتماعي أما ما كان عليه مراجه في ساراتوف فيظهر من الكلمات التالية التي كتبت في يومياته في ٧ آذار ١٨٥٣ بعد الانتهاء من **ويليام تل**: « لقد أخذت أخذاً **بويليام تل** حتى أني صرخت »** يمكن لهذه الكلمات حتى أن تترك انطباعاً مبالغاً فيه في القارىء، بالإيحاء له أن تشيرنيشيفسكي كان مؤيداً بلا تحفظ للطريقة الثورية في العمل وحتى نحول دون هذا الخطأ، نرجع مرة أخرى إلى **يوميات ليفيتسكي** ونقتبس منها المقطع الذي يلي مباشرة المقطع الذي سبق واقتبسناه إننا نذكر القارىء أن ليفيسكي ينقل أفكار فولغن

هل صحيح؟ [أي هل صحيح أن العاصفة الأوروبية في المستقبل سوف تستولي على بطرسبرج وموسكو؟ جـ.ب] ليس ثمة شيء حقيقي فيما يتعلق بهذا، إنه احتمال فقط.

---

* المؤلفات المجلد حرء مقطع ٢ ص ص ٢١٤ - ٢١٥

** المؤلفات المجلد ١٠ جرء ٢ مقطع ٣ ص ٩٣

هل هذا الاحتمال معرِ؟ في رأيه ليس هناك أي شيء ملائم حول هذا أبداً مجرى التحسيات الأهدأ هو الأفضل. هذا قانون عام للطبيعة: كمية محددة من الطاقة تسج أعظم كمية من الحركة عندما تعمل بهدوء واسمرارية، العمل في توقفاته وابتداءاته يقل اقتصاده لقد اكتشف الاقتصاد السياسي أن هذه الحقيقة لا تتغير في الحياة الاجتماعية أيضاً ولهذا من المأمول أن كل شيء هنا سوف يحدث بهدوء وسلام الأهدأ هو الأفضل »*

يصور تشيرنيسيفسكي في رواية مقدمة مراجه كما كان في أواسط الخمسيات وفوق ذلك سوف نبين أن رأيه قد تغير تغيراً هاماً حول « التوقفات و« الابتداءات ولكن ليس لدينا مرتكزات للتفكير أنه عندما كان طالباً وفي السوات الأولى بعد الانتهاء من الدراسة الجامعية اعتنق رأياً مختلفاً في « التوقفات و« الابتداءات عن رأيه فيها خلال الرمن الذي كان فيه معاوناً جداً مع دوبروليوبوف وهذا هو السبب في أننا نقترض أن الشاب تشيرنيسيفسكي لم يكن مطلقاً مؤيداً مقنعاً للثورة

وحتى ننتهي مع مرحلة إقامة مؤلفنا في ساراتوف، لا بد أن نلاحظ، أيضاً على أساس يومياته الخاصة، سمتين في شخصيته جديرتين بالاهتمام

إن « رجعيبا صوروه لأنفسهم على أنه « قائد النهلسيين والنهلسون في نظرهم ليسوا إلا

عصابة من اللصوص والمارقين
الذين يحربون آباءهم.

إن اليوميات تقدم إلى حد ما فكرة مختلفة عن « قائد النهلسيين عندما نوى تشيرنيشيفسكي الرواج من فاسيلييفا كتب إلى أبويه: « لا يسطيعون الإدلاء بهذه القضية، لأن أفكارهم عن الحياة العائلية، عن الصفات الضرورية في الروجة، عن العلاقات بين الرجل وزوجته، عن أعمال المنزل وطريقة الحياة تختلف عن أفكاري، إني شخص من عالم مختلف جداً عن عالمهم، وإنه لمن الغريب أن أتبعهم فيما يتعلق بالسياسة والدين كأن أسألهم، مثلاً، نصيحتهم في الرواج هذا بسكل عام أما بسكل

* المؤلفات المجلد ١٠ جزء مقطع ٢ ص ٥/ ٢

خاص فإنهم لا يعرفون سيئاً مطلقاً عن شخصيتي وأي نوع من النساء أريد في هذه القضية لا أحد سواي يدلي برأيه، لأن لا أحد يستطيع أن يدخل في شخصيتي وأفكاري، غيري »* إن من الصعب الاعتراض على هذا الآن بأي شكل، ويبدو أن تشيرنيسيفسكي صاحب الأربعة والعشرين ربيعاً قد تروج باختياره الخاص ووعيه الصافي ومع ذلك كان وعيه أبعد ما يكون عن الصفاء، فكان يتعذب باسمرار من الشكوك في أن أبويه ربما لا يوافقان على زواجه كتب « ولدت لأكون مطيعاً مذعناً، إلا أن هذه الطاعة يجب أن تكون حرة إنك تنظرين إلي على أنني شديد الاستبداد مثل طفل حتى في السبعين سوف نظل ابي وسوف تطيعي عندئذٍ كما أطعت أنا أمي حتى الخمسين» فالخطأ أن ** كبيرة بحيث علي أن أقول. في التفاهات والأشياء غير الهامة، وقبل أن تكون تلك التفاهات أشياء هامة، كنت ولداً مطيعاً ولكني في هذه القضية لا أسطيع، ولا حق لي، لأنها قضية خطيرة لا أيتها السيدة ها أنذا لم أعد ذلك الابن الذي يقول: « اسمحي لي بزيارة نيكولاي ايف أيتها الأم العزيزة فتردين « حسناً يمكنك أن تزوره « اسمحي لي أن أزور آنا نيكولاي أيتها الأم العزيزة « لا إياك أن تزورها، إنها امرأة دنيئة في هذه القضية لا أنوي أن أطلب السماح، وإذا رغبت أن تأمريني، فعلي أن أخبرك بكل أسف أنك تأمرين عبثاً »***

ولكن بما أن سيرنيسيفسكي كان خائفاً من أن يؤمر فقد اتخذ القرار التالي ليكون منقذاً « إذا أنتم ألححتم، حسناً، لن أناقش، سوف أقتل نفسي وسنرى ماذا يحدث وإذا اقتضت الضرورة سوف أنفذ تهديدي، لأن من الأفضل أن أموت من أن أعيش غير شريف في نظر نفسي، أو غريباً عن أولئك الذين أحبهم، والذين يحبونني فعلاً، إن الغريب في طلبهم هو أن يعرفوا كل شيء، وأن يكونوا أصحاب الأفكار الصحيحة عن الناس، وكيف يجب على المرء أن يسلك أو لا يسلك في القضية إياها »****

والحقيقة أن تشيرنيسيفسكي نفسه بعد بضعة أسطر يلاحظ أن هذا الخوف من

---

* المؤلفات المجلد جزء ٢ مقطع ٣ ص ٤٧

** لم يستطع الناشر قراءة هذه الكلمة (٨٤)

*** المرجع السابق ص ص ٤٨ - ٤٩

**** المرجع السابق ص ٤٩.

عقبات زواجه من قبل والديه ليس أكثر من « خيال جامح وأن القضية في كل الاحتمالات سوف تسوى بسهولة وسرعة ولكن مع ذلك دب الوسواس فيه نتيجة تفكيره أن هذه العقبات بارزة جداً ، ونتيجة اعتقاده أن من المستحيل أخلاقياً بالنسبة إليه أن يعيش « غريباً » عن أبويه وهذا شيء أكثر بروزاً من العقبات كل هذا لا يرضي أبداً فكرة الرجعيين الشائعة عن « النهلسيين ».

وكذلك لا تنسجم معها السمة المميزة لتشيرنيشيفسكي التي تظهر في الأسطر التالية من يومياته: « وفوق ذلك أريد أن أكون مملوكاً لزوجتي بجسد لا يخص امرأة أخرى غيرها إنني أريد الزواج من جسد عذراء ، تماماً مثلما أن كبريائي عذراء »* لقد ادعى « الرجعيون » أن « شعب الستينات » دعا إلى الفسق الجسي**، وكثيرون، حتى أولئك الذين ليسوا « رجعيين آمنوا حقاً أنه ليس غير أخلاق الكونت بولسوي النقية بدأت تصلح القسم المنهار من الأخلاق الذي سببه ذاك الجموح ويمكن أن نرى إلى أي مدى كان هذا صحيحاً

وباختصار بعد زواجه انتقل إلى بطرسبرج حيث تابع في السنة الأولى نشاطه التربوي ، موظفاً في فيلق طلاب الحربية الثاني في « وظيفة معلم من الدرجة الثالثة كما نصفه وثيقة رسمية وكان أن أولى أعماله المنشورة بدأت تظهر ، على حد علمنا كتب أولاً في **أوتيشيستفيني زاپسكي** وعندئذٍ في **السوفريمينيك**. ومن بداية ١٨٥٥ وما بعد حتى اعتقاله عمل حصراً في **السوفريمينيك** فقط ، هذه هي القاعدة العامة التي لا نعرف لها سوى استثنائين: في ١٨٥٨ ظهرت مقالته النقدية « الروسي على موعد » في **أثينيوم** (العدد ٣) وفي السنة نفسها كان لفترة محرراً للمجموعة العسكرية وأثناء عامه الأول في بطرسبرج عمل في أطروحته الرئيسية: (العلاقة الجمالية بين الفن والواقع) وقد أرجأت سلطات الجامعة النظر في الأطروحة ، على ما يقول ناشر **المؤلفات الكاملة**، حتى عام ١٨٥٥ حيث ، كما نعرف ، انتهت إلى ما يسوء الطالب الفتى فاتجاه التفكير الذي ظهر في مؤلفه لم يكن ليعجب سلطات الجامعة ، فلم ينل لقب أستاذ في الفن هذه

* المرجع السابق ص ٤٠

** أنظر ، على سبيل المثال ، الهجاء القذر الذي كتبه البروفسور تسيتوفيتش ماذا فعلوا في رواية **ما العمل؟**

المغامرة التعيسة لأطروحته هي بالضبط التي دفعت مؤلفها للاجتماع مع محرري السوفريمينيك التي، كما يقول، أسندت إليه وظيفته

فيما يتعلق بأطروحته أعلم تشيرنيشيفسكي أباه في رسالة في ٢١ أيلول ١٨٥٣ «أنا أكتب أطروحتي في علم الجمال فإذا أجازتها الجامعة في شكلها الحالي فستكون أصيلة من حيث أنها لا تتضمن اقتباساً واحداً وليس فيها غير مرجع **واحد** فإن لم يكن هذا كافياً أكاديمياً فسوف أضيف مئات الشواهد خلال ثلاثة أيام إني أقول بثقة إن السادة الأساتذة المحليين في الفيلولوجيا لم يدرسوا الموضوع الذي اتخذته لأطروحتي، ولذلك لا يرغبون أن يروا ما علاقة أفكاري بالطريقة الحديثة في التفكير في المسائل الجمالية ربما يتخيلون أنني تابع للفلاسفة الكبار الذين أتصدى لآرائهم، وإن لم أتحدث عن ذلك صراحة لذلك لا أعتقد أن الناس هنا سوف يفهمون مدى أهمية المسائل التي أناقشها، إلا إذا اضطررت إلى شرحها لهم مباشرة لقد أصبحت مفهوماتنا عن الفلسفة، بشكل عام، غامضة منذ أن مات أو صمت أولئك الذين فهموا الفلسفة واطلعوا عليها»*

في رسالة مؤرخة في ٣ آذار ١٨٥٥ كتب أيضاً إلى والده «حتى نوفر النفقة والوقت سرت الاطروحة على ورق كبير وبحرف صغير، وللسبب نفسه اختصرتها بشكل كبير (مع أن رقيب الجامعة لم يشطب كلمة واحدة) بعد أن أعدت المخطوطة للطباعة ولهذا السبب يوجد فقط ـ ٦ ألواح طباعة بدلاً من ٢٠ التي سيستغرقها من دون اختصار وبالحرف العادي ومما يميزها أنه لا يوجد فيها اقتباس **واحد** وعلى العكس من عادة الدراسات الأكاديمية التي تعتمد على المعرفة الواسعة ولكن الرخيصة وهناك ميزة أخرى وهي أني كتبتها **من دون أي مسودات أساسية** - وهو أمر من الصعب جداً أن يحدث مع شخص آخر ولهذا لا يمكنني إلا أن أضحك من الناس الذين (لا يستطيعون) أن يفعلوا الشيء ذاته أما عن الرضا عنها فلن أقول شيئاً هنا - بل في رسالة أخرى إن العنوان نعرفه العلاقة الجمالية بين الفن والواقع »**

---

* المؤلفات المجلد جزء ٢ مقطع ص ٨٤

** المرجع السابق الصفحة ذاتها

كان تشيرنيشيفسكي الصحفي الرئيسي، وحتى أواسط ١٨٥٦ كان الناقد الأدبي الرئيسي في **السوفريمينيك**. وسيكون من حسن حظ نكراسوف وباناليف أنهما لم يبرزا سيرنيشيفسكي وأولئك الذين يشاركونه آراءه، مثلما فعل معظم الآخرين «أصدقاء بيلنسكي والحقيقة من أجل صالح تقدم الصحيفة ليس لهما أن يأسفا لوضعها تحت تصرف مؤلف «العلاقة الجمالية ومن قبل في عدد كانون الأول من **السوفريمينيك** ١٨٥٥ ظهرت المقالة الأولى من السلسلة التي أشرنا إليها **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي**، وهي أروع مؤلفات تشيرنيشيفسكي ولا تزال أفضل نص لمن يرغب أن يتعرف على نقد مرحلة غوغول. والمقالة الثانية في هذه السلسلة الرائعة من المقالات نشرت في عدد كانون الثاني، والثالثة في عدد شباط، والرابعة في عدد نيسان من **السوفرمينيك** من العام التالي. تتضمن هذه المقالات الأربع تقويماً للنشاط الأدبي لبوليفوي وسكوفسكي وشيفيريوف ونادزدين وفي عدد تموز انتقل المؤلف إلى بيلنسكي، مكرساً له المقالات الخمس الباقية. في هذه المقالات أسير إلى اسم بيلنسكي لأول مرة منذ ١٨٤٨، حين أخذ بيلنسكي يعتبر كاتباً محظوراً وبظهور **المقالات** يمكن القول على وجه التأكيد ومن دون أي مبالغة، إن بيلنسكي قد صار له وريث جدير ومنذ أن ظهر تشيرنيشيفسكي كناقد وصحافي في **السوفريمينيك**، احتلت هذه الصحيفة بين الدوريات الروسية المقامة المرموقة التي كانت عليها في فترة حياة بيلنسكي لقد قوبلت **السوفريمينيك** بالاهتمام والاحترام من قبل القطاع التقدمي لجمهور القراء إذ من الطبيعي أن يتجه إليها كل موهوب أدبي متفتح وهكذا في أوائل ١٨٥٦ طفق دوبروليوبوف يكتب لها ومن الصعب على أبناء هذه الأيام أن يتصوروا مدى الأهمية التي كانت للصحافة في روسيا تلك الأيام. إن الرأي العام اليوم يملك صحافة متضخمة جداً، كانت لا تزال فتية في الأربعينيات وفي أواخر الخمسينيات وأوائل الستينيات تحقق عصر التعاون التام بين الرأي العام والصحافة والتأثير الأكبر للصحافة في الرأي العام. فقط في مثل هذه الظروف كان من الممكن أن يظهر الاهتمام الجارف بالنشاط الأدبي والايمان العميق بأهمية الدعاية الأدبية التي يجدها المرء في مؤلفات كل الكتاب البارزين في ذلك الوقت. وباختصار كان العصر الذهبي للصحافة الروسية وقد أجبرت الحصيلة السيئة لحرب القرم الحكومة على تقديم تنازلات للفئة المثقفة، وظهر ذلك على الأقل في الاصلاحات الصحفية التي باتت أساسية جداً منذ أمد بعيد

وحالما وضعت مسألة تحرير الفلاحين موضع التنفيذ من قبل نظام تلك الأيام، ظهرت قضية أثرت مباشرة في مصالح جميع الطبقات ولا حاجة إلى القول إن نيكولاي غافريلوفتيش تصدى برغبة لشرح هذه القضية. ومقالاته الرائعة حول قضية الفلاحين كتبت في عامي ١٨٥٧ و١٨٥٨ إن العلاقات المتبادلة لقوانا الاجتماعية في مرحلة إلغاء القنانة معروفة تماماً لدينا اليوم. ولذلك سوف نشير إليها بشكل عابر، حيث يكون ذلك ضرورياً لإيضاح الدور الذي لعبه في هذه القضية صحفيونا التقدميون، وعلى رأسهم تشيرنيشيفسكي من المعروف تماماً أن هؤلاء الكتاب دافعوا بغيرة عن مصالح الفلاحين. وكتب مؤلفنا المقالة تلو الأخرى، مدافعاً عن تحرير الفلاحين مع الأرض وزاعماً أن الحكومة لن تجد عسراً في تحرير الأراضي المخصصة للفلاحين. وأيد فرضيته باعتبارات نظرية عامة وبتقديرات تفصيلية جداً كتب في مقالة «**هل تحرير الأرض عسير؟**»: «في الواقع ألا يمكن أن يكون استرداد الأرض عسيراً؟ كيف يمكن أن يكون فوق احتمال الشعب؟ إن ذلك غير محتمل. إنه يعارض المفاهيم الأساسية للاقتصاد. يقول الاقتصاد السياسي ببساطة أن الرأسمال المادي الذي يرثه جيل ما عن الأجيال السابقة لا يعتبر من حيث القيمة إذا قيس بكتلة القيم التي أنتجها عمل ذلك الجيل. فمثلاً كل الأرض التي تعود للشعب الفرنسي، مع كل الأبنية ومحتوياتها، مع كل السفن والناقلات، مع كل المواشي والأموال وما يعود من ثروات لتلك البلاد، بالكاد يساوي مئة ألف مليون فرنك، بينما عمل الشعب الفرنسي ينتج سنوياً ما يريد عن خمسة عشر ألف مليون فرانك كثروة من القيم، أي أن الشعب ينتج في غضون ما لا يزيد عن سبع سنوات كتلة من القيم تساوي كل فرانسا من القنال حتى البيرينيه. وبالتالي إذا كان على الفرنسيين أن يحرروا كل فرنسا، فإنهم يمكن أن يفعلوا ذلك على مدى حياة جيل واحد، مستخدمين خمس عائداتهم فقط لهذا الغرض. ولكن ماذا عن الموضوع في بلادنا؟ هل علينا أن نحرر كل روسيا مع كل ثرواتها؟ لا إنما الأرض فقط وهل كل الأرض الروسية؟ كلا فالتحرير يقتصر على مقاطعات روسيا الأوروبية وحدها حيث القنانة متجذرة»* الخ، وبعد أن يبين أن الأرض الواجب تحريرها لا تشكل أكثر من سدس مساحة روسيا الأوروبية، يضع حوالي ثماني خطط لتنفيذ التحرير كانت كل

* المؤلفات المجلد ٤ ص ص ٣٣٥ - ٣٣٦

خطط تشيرنيسيفسكي قائمة على فكرة «**أن من الضروري تثبيت لأثمان الأرض المعتدلة لتحديد كمية مدفوعات التحرير**». أننا اليوم نعرف تماماً مدى الاهتمام الدي أولته الحكومة لمصالح الفلاحين في إلغاء القنانة، وكم انتبهت إلى نصيحة سيرنيسيفسكي فيما يعلق بالتعديل في مدفوعات التحرير الثابتة. ولقد اتضح ان حكومنا في تحريرها الفلاحين لم تنس لحظة واحدة مصالح خرنية الدولة، في حين لم تفكر في مصالح الفلاحين إلا قليلاً لم يدر في خلدها في عمليات تحرير الأرض، سوى المصالح المالية العامة ومصالح المالكين العقاريين. وهذا يمكن فهمه تماماً، إذ لا أحد يضطر أو يرغب أن يفكر في مصالح طبقة (والمقصود هنا طبقة الفلاحين) لا تستطيع الدفاع عنها بسكل قوي ومنظم ولكن في الوقت نفسه، حين لم يكن سوى الشائعات عن تحرير الفلاحين أخذ معظم الروس التقدميين يفكرون بطريقة مختلفة نوعاً ما اعتقدوا أن الحكومة نفسها يمكنها بصعوبة كبيرة أن تفهم إلى أي مدى تتطابق مصالحها مع مصالح الفلاحين. ولقد انبعثت هذه الآمال إلى حين في هرزن كما انبعثت في تشيرنيسيفسكي أيضاً ومن هنا كان الالحاح في العودة إلى المسألة الفلاحية في مقالاته، وكانت البراعة التي شرح بها للحكومة مصالحها ولكن تشيرنيشيفسكي كان الكاتب الروسي الأول الذي فهم أنه كان يخدع نفسه بأمل فارغ، والذي أوقف محاولة اقناع أولئك الذين لم يولوا ماقشاته أدنى اهتمام. وهذا أيضاً يسجل لصالحه.

لن نشرح ونحلل هنا الرأي الذي قدمه تشيرنيشيفسكي عن الكوميون الروسية في مقالاته عن المسألة الفلاحية سنتعرض لذلك تفصيلاً فيما بعد إننا سنضيف هنا فقط أنه، حتى في مرحلة حماسته الكبيرة للكوميون ظل في آرائه عنها مخالفاً الآراء المتطرفة نصف السلافية التي تبناها هرزن أو ميخائيلوف في ندائه «إلى جيل الشباب (١٨٦١)* تحت تأثير هرزن الواضح

لقد احرز تشيرنيشيفسكي بسرعة كبيرة تأثيراً في أدبنا التقدمي ولكن مهما كان هذا التأثير كبيراً فان قلة هم أولئك الذين يشبهون ذهنيته، بالمعنى الفعلي للكلمة وما جعلنا نفكر على هذا النحو الكلمات التالية لفولغن توجه بها إلى نيفلرين في القسم الأول من رواية **مقدمة**: إن رؤوس جميع المتنورين من الجمهور مملوءة بالنفايات،

---

* أنظر الملحق الثاني لمجموعة جرائم الدولة في روسيا.

يكتبون الغثاثات ويخبطون خبط عشواء في تناول المجتمع الروسي الذي هو، على أي حال، في وضع أقرب إلى الجنون. ليس هناك شخص واحد بيهم أستطيع أن أتخذه رفيقاً إني مضطر، شئت أم أبيت، أن أكتب كل المقالات التي تعبر عن رأي الصحيفة، ولا أستطيع الاستمرار في ذلك، لا يوجد أحد بذهن واضح، وهذا كل ما في الأمر »* وكان دوبروليوبوف وحده ذا ذهن واضح يمكن أن يعتمد عليه تشيرنيشيفسكي كلياً ولهذا السبب أحبه حباً جارفاً حقيقياً**

فيما بعد عثر تشيرنيشيفسكي على مساعد جيد هو أنطونوفيتش، الذي انجذب إليه مؤلفنا «البارد بسرعة وسرعان ما توفي دوبروليوبوف، وكانت وفاته خسارة لا تعوض بالنسبة إلى السوفريمينيك.

كان تشيرنيشيفسكي متعلقاً جداً بالنقاش. ويعترف أنه حتى أصدقاؤه لاحظوا دائماً فيه حباً غير عادي «بل في رأيهم كان حباً مفرطاً لتوضيح المسائل المتناقصة عن طريق المجادلات المثيرة***، إن المجادلات بدت له دائماً مقنعة تماماً، أو بشكل أكثر دقة، أداة أساسيةَ لتقديم أفكار جديدة للمجتمع**** ويبدو أنه تجنب المجادلات في بداية

---

* المؤلفات المجلد جزء مقطع ٢ ص ٨٩

** الثقة التي أولاها لدوبروليوبوف ككاتب من اللقاء الأول واضحه من المشهد التالي من يوميات ليفتسكي يكتب ليفتسكي: «بعد الذي حدث البارحة لا أستطيع الشك أنه (أي فولغن - ج - ب) يعتبرني محرراً جيداً إلا أن هذه الكلمات أدهشتني «محتني يداً مطلقة في الجريدة؟ «حسناً أتكون مفيداً لي إن لم تكن هكذا؟» إن المحررين الذين يراقبون مراقبة الأطفال كل عشرة ببس، ولكن ما الفائدة منهم؟ إن المراجعة والتصحيح عملان مزعجان، فمن الأسهل أن يكتب المرء بنفسه إدن أنت لن تراجع مقالاتي؟ «ما الدي يظهر فيها؟ سأقول لك الحقيقة، انني لن أقرأها حتى بعد نشرها وليس قبل. علي أن أقرأ كثيراً من النفايات، ها ها، فاشكرني لهده المجاملة» «ولكن يمكن أن أقترف أخطاء «إلى جهم أنت وأحطاؤك، إني أضيع الوقت معك هيا إلى اللقاء تعال بعد غد سوف يكون لنا حديث آخر، حتى وإن لم يكن حول سيء (المؤلفات المجلد الجزء الأول المقطع ٢ ص ص ٢١٠-٢١١)

*** المؤلفات المجلد ٤ ص (٣٠٤)

**** في مقالات حول مرحلة غوغول يدافع عن تاديريديس ضد الذين لاموه على اعماله في المناقشات الحادة لماذا استخدم نادومك (الاسم المستعار لناديريديس) مثل هذه اللهجة الحادة؟ ألم يكن باستطاعته أن يقول الشيء ذاته بشكل ألطف؟ إن مفاهيما الأدبية وكل مفاهيما لتلك القضية باررة تماماً والسؤال الدي يسأل لماذا يحرث الفلاح أرضه بالسكة الحديدية أو المحراث الحديدي كيف يمكن لآخر أن يحرث التربة العيه ولكنها عسيرة الحراثة؟ لا شك أن من الصعب فهم أنه لا مسألة صعبة تحل من غير حرب والحرب تدار بالسيف =

ساطه الأدبي لقد كتب **مقالات حول مرحلة غوغول** بلهجة هادئة تصالحية فقط فيما يعلق بسيفيروف، وهو ناقد مسهور في رمن بيلنسكي، يعرض سخريته وكذلك يكتب عن شنكوفسكي (بارون برامبوس) بسخرية مريرة، فيصفه انه يفق قواه الضخمة في التهريج الأدبي العقيم ولكن بسكل عام يحدث عن معظم الكتاب الآخرين في مرحلة غوغول حديث اطراء حتى في النشاط الأدبي لبودوغين، الذي سخرت منه حلقة بيلنسكي، يجد شيئاً مفيداً وسمات تستحق التقريظ ويحدث عن أنصار السلافية باحترام حقيقي وعلى الرغم من أباطيلهم الواضحة، يعتبرهم أصدقاء حقيقيين للتنوير ويعاطف بحرارة مع موقفهم من كوميون الأرض الروسية

سوف نلاحظ هنا، من غير أن نتطرق إلى مسألة الكوميون، أنه في المنازعات حول هذا الشكل من الملكية للأرض كان مضطراً إلى التخلي عن هدوئه ولهجته اللطيفة والى اسخدام موهبته الجدلية بكاملها وقد كان حظ الممثلين المشهورين للاقتصاد الحر سيئاً معه، وعلى الأخص فيرنادسكي، محرر **ايكونوفسكي أوكازاتل**. والحقيقة أن سيرنيشيفسكي خلد هذا الـم.د (مسسار دولة) ود.ع.ت.ق.أ (أي دكتور في العلوم التاريخية والاقتصاد السياسي والاحصاء اشارة إلى الألقاب والشهادة التي يوقع بها فيرنادسكي بافتخار) ولم يكتف هذا الأستاذ المحطم بالانسحاب من ميدان المعركة، بل توج الكوميديا بالتأكيد على احترامه لتشيرنيشيفسكي، الذي في بداية النزاع، أخذ كامل حريته في معاملته كجاهل أخرق ولا بد من الاعتراف ان من الصعب الدفاع عن أي قضية بمهارة تفوق تشيرنيشيفسكي في دفاعه عن الكوميون، لقد قال مدافعاً عنها كل شيء يمكن أن يقال وإذا كانت تسويته لهذه المسألة المتناقضة غير مرضية الآن، فلا يفسر هذا إلا بالتجريد المتطرف للزاوية التي عولجت منها هذه المسألة على أي حال لا بد أن نلاحظ، كما سنشرح فيما بعد، أنه دافع عن كوميون الأرض الروسية بقناعة كبيرة

بعد الشروع في الحيازة الكوميونية، للأض تنازع تشيرنيشيفسكي مع اقتصاديينا اللبراليين واتخذ النزاع طبيعة شاملة وانقلب إلى مسائل عامة في السياسة الاقتصادية

= والنار وليس بالكلام الدبلوماسي، المناسب فقط بعد أن يكون الصراع المسلح قد تحقق؟ لس من الحق أن تهاجم غير المسلح الذي لا يستطيع الدفاع، والشيخ والعاجز، إلا أن الشعراء ورجال الأدب الذين يكتب عنهم نادازدين ليسوا مثل هؤلاء (المؤلفات المجلد ٢ ص ١٣٠)

أيد الاقتصاديون اللبراليون مبدأ عدم تدخل الدولة، ووقف سيرنيسيفسكي ضد ذلك وقد اسغل موضوع عدم تدخل الدولة في الحياه الاقتصادية للشعب فرصة للانتصار على المؤلف ويمكن اعسار مقالته « النشاط الاقتصادي والتشريع من أهم المقالة دحضاً لنظرية « دعه يعمل، دعه يمر ليس في الأدب الاقتصادي الروسي، بل في الأدب الاقتصادي العالمي عامة يسخدم مؤلفنا فيها كل قوته الجدلية ومهارته النقاسية ويبدو أنه اسمع بهذا العراك، الذي كال فيه الضربات لخصومه بسهولة. كان يلعب بهم لعب القطة بالفأرة، واستخدم كل الطرق لجعلهم يسازلون، فيعبر عن رغبته في المؤافقة على أي عقيدة من عقائدهم، وقبول أي تفسير لأي فرضية مطروحة

وعندئذٍ، بعد أن يكون قد محهم كل فرصة للنصر ووضعهم في أفضل شروط الانتصار، عندئذٍ فقط ينقلب إلى الهجوم ويبين تفاهتهم بثلاثة قياسات أو أربع وعندئذٍ تبدأ تنازلات جديدة، وتفسيرات أكثر ملاءمة للعقيدة الواحدة ذاتها وبرهان جديد على تفاهتها، وفي نهاية المقالة يسير تشيرنيشيفسكي، وكانت هذه رغبته، إلى خصومه ويجعلهم يشعرون بضعف معرفتهم ليس في الطرق الصارمة للتفكير العلمي فقط، بل أيضاً في المتطلبات الأساسية للحس العادي ومن المهم أن مبدأ عدم تدخل الدولة، الذي وجد كثيراً من الأنصار في روسيا في أواخر الخمسيات وأوائل السيات، سرعان ما تخلى عنه الاقتصاديون الروس. ويتضح هذا إلى حد بعيد من الحالة العامة لصاعتنا وتجارتنا والتأثير التالي على نظريبا من المدرسة الألمانية في اشتراكية الكرسي ولكن في هذه الحالة تحظى بأهمية كبيرة حقيقة أن المبدأ المطروح جوبه، منذ بداية انتشاره في الأدب الروسي بعداء تشيرنيشيفسكي الشديد وإذ تلقى رجال ماسستر الروس درساً، لرموا الصمت واختفوا في الصفوف الخلفية واستكانوا

بالطبع إذا أردنا أن نقارن الحجج التي قدمها تشيرنيشيفسكي في هذه المناقشة، بالحجج التي اسخدمها ماركس، في حديثه عن حرية التجارة، علينا أيضاً أن نوافق على أن نظرة مؤلفنا تعاني من مسألة التجريد إلا أن هذا عيب عام في الآراء الاقتصادية التي سناقشها في القسم الثاني من كتابنا

ليس في المشكلات الاقتصادية وحدها شن تشيرنيسيفسكي مناقشة ضارية ولم يكن

---

* أعيد نشرها في المجلد ٤ من المؤلفات المختارة ص ص ٤٢٢ - ٤٦٣.

خصومه محصورين في الاقتصاديين اللبراليين. وبارديارد تأثير حلقة السوفريمينيك في الأدب الروسي، تعاظم عدد الهجمات من مختلف القطاعات التي شنت على الحلقة عامة وعلى مؤلفا خاصة لقد اعتبر محررو السوفريمينيك أناساً خطرين يعدون لتقويض كل الأسس »السيئة. بعض « أصدقاء بيلنسكي الذين رأوا أن من الممكن التعاون مع سيرنيسيفسكي ومن يشاركه أفكاره، رفضوا السوفريمينيك باعتبارها لسان حال « النهلسيين وبدؤوا يدعون أن بيلنسكي ما كان ليوافق على اتجاهها هكذا كان موقف تورغنيف* وحتى هرزن في صحيفته كولولول يهزأ على « المهرجين ». إنه يحذرهم أنهم « في حين يصبون كل سخرتهم على أدب التعريضيين، ينسى هؤلاء المهرجون أنهم بسلوكهم هذه السبيل الزلقة لا « يصفرون على أنفسهم ليصبحوا مثل بولغارين وكريتش فحسب، بل ليشملهم قانون ستانسلاف وأكد هرزن أن ثمة أشياء رائعة في « أدب التعريضيين الذي يسخر منه « المهرجون فهل تتصورون أن جميع حكايات شدرين يمكن أن ترمى في الماء مع أوبلوموف(٨٥)؟ لقد ورطتم أنفسكم كثيراً أيها السادة »** والإشارة إلى شدرين لم تكن موفقة أبداً لأن تشيرنيشيفسكي نفسه قدر مؤلفاته تقديراً عالياً بشكل عام، كل شيء يبين أن هرزن انخدع بأصدقائه اللبراليين أمثال كافيلين إن « المهرجين »- أو « الصاغرين »كما سموا في روسيا - لم يسخروا من الفاضحين، بل من الساذجين الذين لا يستطيعون السير وراء التعريضيين، ناسين حكمة حكاية كريلوف « الهرة والطاهي »***(٨٦)

ولو كان هرزن تريث لرأى سريعاً كم كان أصدقاؤه اللبراليون، الذين ظلوا يساولون بالنقاش علاقاته بتشيرنيشيفسكي، سيئين بالمعنى السياسي للكلمة. وعندما تشاجر مع كافيلين ربما قال في نفسه إن « الحاقدين » لم يكونوا دائماً على خطأ****

---

* يخبر تشيريشيفسكي أن تورغنيف ما زال يستطيع تحمله إلى حد ما، ولكنه لا يطيق صبراً على دوبروليوبوف قال تشيريشيفسكي « انت مجرد أفعى، أما دوبروليوبوف فانه كوبرا » (أنظر الرسالة التي أشرنا إليها من قبل « تعبيراً عن الامتنان المؤلفات المجلد التاسع ص ١٠٣)

** مقالة « خطرون جداً في كولوكول رقم ٤٤

*** فيما يتعلق بمقالة « خطرون جداً » ونتائجها الحدسية أنظر كتاب فتريسكي هرزن (بطرسبرج ١٩٠٨ ص ٣٥٤)

**** تاريخ هذه المشاجرة وما تلاها في رسائل كافيلين وتورغنيف إلى هرزن نشرها دراغوماتوف في صيف عام ١٨٩٢.

وبالمناسبة، معظم المقالات في سفيستوك التي أثارت سخط الليبراليين المهذبين ليست بقلم تشيرنيشيفسكي قلما كان يساهم فيها، لانشغاله بعمل آخر وفي السنوات القريبة من نشاطه الأدبي، لم يساهم فقط بشكل منظم في كل عدد من السوفريمينيك، بل إن كل عدد تقريباً كان يتضمن عدة مقالات بقلمه كانت مقالاته موزعة عادة بين مختلف أقسام الصحيفة كما يلي: أولاً ساهم بمقالة في مسألة نظرية عامة، وكتب مسحاً سياسياً وراجع عدة كتب، وأخيراً في أوقات راحته وتسليته كان يقوم بعدة معارك نقاشية ضد خصومه وقد باتت السوفريمينيك منذ ١٨٦١ غنية بشكل خاص بالمقالات النقاشيّة التي كتبها وفي هذا الوقت كتب «جواهر النقاش و«الفظاظة القومية (هجوم على صحيفة لتوف سلوفو) و«التشويش الشعبي» (هجوم على صحيفة أسكاسوف داين وسنحدث عن هذه المقالة فيما بعد) وعدة ملاحظات نقاشية في قسمي الأدب الروسي والأدب العالمي

المهم الآن في جواهر النقاش هو أفكار مؤلفنا في نشاطه الأدبي الخاص ولسوف نستشهد بها هنا كان سيرنيسيفسكي يعرف تماماً أنه يحتل مكانة مرموقة في الأدب الروسي كان خصومه يخافونه، وقلما كانوا يجاملونه ولكن شهرته المتصاعدة لم تجعله سعيداً في النهاية ولم يكن لديه سوى رأي ضعيف جداً عن الأدب الروسي حتى يعرف المكانة المرموقة التي شغلها كم هي مسرفة كان «بارداً جداً فيما يتعلق بسمعته الأدبية الشيء الوحيد الذي كان يهتم به هو ما إذا كان قادراً على الاحتفاظ بنضارة تفكيره وسعوره حتى الأيام العصيبة عندما يصبح أدبنا مفيداً حقاً للمجتمع «أنا لا أعرف ظروفاً أفضل سوف سوفر للنشاط الأدبي، عندما يكون مفيداً للمجتمع. وعندما يحظى صاحب الموهبة بالاسم الطيب وهكذا فإني أعجب فيما إذا كنت لا أزال قادراً على خدمة المجتمع عندما تحل تلك الظروف القوة النضرة والعقائد النضرة ضرورية لذلك ولكنني ألاحظ أنني ألحق بركب الكتاب «المحترمين أي أولئك الكتاب الذين جف معينهم، ويتثاقلون خلف حركة المتطلبات الاجتماعية إن هذا يثير في سعور المرارة ولكن ما العمل؟ إن للسن حقه الشاب لا يعود مرتين أنا لا أستطيع إلا أن أحسد أولئك الذين هم أكثر سناناً ونضارة مني »* إن مواجهة تلك المخاوف السلة أمر غريب إلى حد ما الآن

* المؤلفات المجلد الثامن ص ٢٣١.

بالنسبة إليها ، نحن الذين عرفنا أن تشيرنيسيفسكي عبر عنها،فلم يكن قد مضى على إطلاق سراحه أكثر من عام. إن الأسطر التي اقتبسناها أعلاه نشرت في عدد تموز من **السوفريمينيك** لعام ١٨٦١ وفي تموز العام التالي كان في قلعة القديسين بطرس وبولس. ولكن يمكن للمرء أن يتصور أي احتقار شعر به نحو خصومه ، هذا الرجل الذي تفوق عليهم كثيراً لم يولوا أدنى جدارة حتى لمراياه الأدبية. والحقيقة أن كل صفحة من « جواهر النقاش تفوح بالاحتقار الكبير على لائمي **السوفريمينيك**. ويلاحظ بشكل خاص في رده على **أوتيشيستفيني زايسكي**. إن تشيرنيشيفسكي لم يكن غاضباً أبداً من خصومه في **أوتيشيستفيني زابسكي**. كان يؤنبهم بتأثر كما يؤنب معلم طيب تلميذه الذي أساء السلوك. بالطبع المعلم الطيب ، حين يؤنب تلميذه يطلعه على الحقائق المرة ولا يخفي تفوقه الفكري عليه. ولكنه إنما يفعل ذلك في مصلحة التلميذ وهكذا كان يفعل تشيرنيشيفسكي إنه لم يس غلطة واحدة ، ولا هفوة واحدة من **الأوتيشيستفيني زابسكي**، ويؤنب المحررين بلهجة أبوية على أخطائهم. لقد اغتاظ منهم للحماقة الطائشة التي اندفعوا بها في معركة ضده إنه يكرر عليهم أنهم ليسوا من مسواه في النقاش ، ويريهم البطلان الكامل لهذه التهمة أو تلك التي لفقوها ضده وعندما سنح الفرصة يخبرهم بجرأة أنه يعرف ويفهم الأشياء أكثر بكثير مهم ، ذلك أنهم ببساطة ليسوا في وضع يخولهم الحكم على الأفكار الجديدة التي جاء بها في الأدب إنه يعرف نفسه لدود شكيں الذي اتهمه بجهله الفاضح لما في الصحف الأخرى « أتريد أن تعرف إلى أي مدى تصل معرفتي؟ سأعطيك جواباً واحداً على ذلك: إنها أوسع من معرفتك بما لا يقاس وأنت تعرف ذلك بنفسك إذن لماذا تحاول العثور على جواب في الصحافة؟ لم يكن من الحكمة أبداً أن تضع نفسك في مثل هذا الموقف وأرجوك ألا تأخذ ذلك على أنه تكبر فليس هناك فخر في بذك في المعرفة كما لا أريد أن تأخذ هذا على أني أريد أن أقول أنك لا تمتلك سوى معرفة قليلة لا ليس الأمر هكذا فأنت تعرف إلى حد ما ، وأنت رجل مثقف بشكل عام فقط لماذا تناقش بمثل هذه الرداءة؟* الخ كل هذا سوف يكون سخرية إن لم يكن حقيقة لا شك فيها

وأثناء ذلك توهجت مشاعره ، على الأقل في قسم « المجتمع الروسي وقد امتلأ

---

* المؤلفات المجلد ٨ ص ٢٧٠.

الطالب الفتى جيساناً والمنظمات الثورية السرية التي تنشأ كانت سسر طابعة بياناتها وبرامجها منتظرة قيام انتفاضة فلاحية وشيكة وقد عرفنا من قبل أن تشيرنيسيفسكي أقرّ بإمكانية حلول «وقت خطير في روسيا وسوف نرى كيف انعكس نهوض المراج الاجتماعي في نشاطه كصحفي بصورة قوية ولكن هل كان مرسطاً بالجمعيات السرية؟ ليس من المحتمل بعد أن نجيب بالتأكيد على هذا السؤال، ومن يعرف ما إذا كنا نحصل على الوقائع التي تخولنا الرد وفي رأي السيدليمك، الذي قدم دراسة رائعة عن قضية تشيرنيشيفسكي «أن من الممكن **الاقتناع** (الاقتناع من سديده) أنه كان **مؤلف** بيان «إلى فلاحي الضيع الذي جعل المحكمة تتهمه بكتابته وتحرمه لذلك ويؤيد السيدليمك حدسه بالإشارة إلى أسلوب البيان ومضمونه ونعتقد أن هذه البراهين ليست بلا أساس ولكننا نسرع فنكرر مع السد ليمك أن كل ذلك اعتبارات محتملة لا أكثر»* أيضاً رأي السيد ليمك في أن النشرة المشهورة **فيليكورس** كانت، في بعضها، من عمل تشيرنيسيفسكي كان رأياً مدعماً صحيحاً ويؤيد السيد فرضيته بالاستشهاد بالسيد ستاخيفيش، الذي عاش مع سيرنيسيفسكي في سيبريا عدة سنوات لاحظ أن سيرنيسيفسكي يميل إلى التعاطف الواضح مع النشرة التي ظهرت في المراحل المحظورة تحت عنوان **فيليكوروس**. وتذكرت ثلاثة أعداد صدرت وبإصغائي لمحادثة نيكولاي غافريلوفيتش، لاحظت أحياناً في كل من أفكاره والطريقة التي عبر بها بقوة ما ذكرني بنشرة **فيليكوروس**، فقررت في نفسي أنه إما كاتبها أو على الأقل مساعد في كتابتها، تلك التي كانت تدافع عن ضرورة الاصلاحات الدستورية»** إننا نوافق تماماً السيد ستاخيفش على أن الشكل والمضمون في **الفيليكوروس** يُذكرانا كثيرا جداً بمقالاته الصحفية وإذا كان سيرنيسيفسكي المؤلف الحقيقي، فإن هذا يفسر لنا كون **الفيليكوروس** أكثر حكمة وذوقاً من النشرات الأخرى لذلك الزمن

وفي الوقت نفسه بنهوض الحزب المتطرف في روسيا نامت الحركة الثورية في بولونيا فهل كان لتشيرنيسيفسكي أي علاقات شكلية مع الثوريين البولونيين الذين كان

---

* ليمك «قضية تشيرنيشيفسكي بيلوي ١٩٠٦ رقم ٤ ص ١٧٩

** ليمك «محاكمة ناشري فيليكورس بيلوي ١٩٠٦ رقم ٧ ص ٩٢ نشرت مقالة السيد ستاخيفيش في راكاسبيسكوي أوبرريي ١٩٠٥ رقم ١٤٣.

منهم عدد غير قليل في بطرسبرج آنئذٍ؟ أيضاً لا معطيات حول هذه النقطة ولا نريد أن ننجرف وراء التخمينات، بل سنقيد أنفسنا، في توضيح عواطف تشيرنيسيفسكي تجاه القضية البولونية بالمعطيات التي تقدمها كتاباته وإن كانت معطيات غير كثيرة

إننا نعرف أن أنصار السلافية أيدوا بشدة نضال الروثينيين الغال ضد بولونيا وقد كان تشيرنيسيفسكي يميل إلى التعاطف مع الروس الصغار وقد اعتبر الموقف السلبي لبيلنسكي من ظهور أدب الروس الصغار غلطة كبرى. في عدد كانون الثاني من **السوفريمينيك** نشر مقالة حماسية جداً بمناسبة ظهور **أسنوفا** لسان حال الروس الصغار ولكن موقفه من نضال الروثيين الغال ضد البولونيين لم يكن التأييد بدون قيد ولا شرط أولا لم يرتح لحقيقة أن الروثينيين يسعون إلى كسب تأييد الحكومة الفيينوية. ولم يرتح للدور الفعال للاكليروس في حركة الروثيين الغال، كتب: «الأمور العلمانية (غير الكهنوتية) يجب أن توكل إلى علمانيين وأخيراً لم يرتح تشيرنيشيفسكي للصيغة **القومية** التي انحصرت فيها المسألة، التي اعتبرها مسألة **اقتصادية** بالأصل وفي مقالة بعنوان «الفظاظة القومية» (**السوفريمينيك** تموز ١٨٦١) بمهاجمة تشيرنيشيفسكي لصحيفة لفوف **سلوفو**، انتقد بشدة القومية المفرطة لتلك الصحيفة. كتب: «من المحتمل جداً أن امعاناً دقيقاً في العلاقات القائمة سوف يبين لصحيفة السيد لفوف **سلوفو** أنه في أساس الأمر هناك مسألة أبعد جداً من المسألة العرقية مسألة الطبقات فمن المحتمل جداً أن نرى الروثيين والبولونيين من الطرفين – فقد يختلفون عرقياً ولكنهم يحتلون مركزاً اجتماعياً واحداً نحن لا نؤمن أن الفلاح البولوني يعادي تخفيف الالترامات وشروط الحياة بشكل عام عن المسوطنين الروثيين، نحن لا نصدق أن عواطف المالكين العقاريين تختلف كثيراً في هذه القضية عن عواطف المالكين العقاريين البولونيين. إن جذر المسألة الغالية، إذا لم يجانبنا الصواب، يكمن ليس في العلاقات العرقية، بل في العلاقات الطبقية

إن العداء المتبادل، بين الشعوب التي تؤلف النمسا، لا بد أن يظهر لتشيرنيشيفسكي أكثر فظاظة طالما أن الحكومة الفيينوية عندئذٍ، كما في السابق، استلبت كثيراً من مصالح شعبها كتب في مراجعة سياسية في العدد نفسه من **السوفريمينيك** الذي نشرت فيه «الفظاظة القومية» «عندما يفكر المرء ملياً لا يعجب للسنوات العديدة لوجود الامبراطورية النمسوية، ولماذا لا تحافظ على نفسها عندما توجد مثل

هذه الدماثة السياسية من جانب القوميات المنتشرة داخل تخومها إن الألمان النمسويين والتشيك والكرواتيين والروثينيين بالنسبة إلى تشيرنيشيفسكي متساوون، كما رأينا، في «قلة الذكاء لقد كان خائفاً أن «قلة الذكاء السلافية التي اتضحت في ١٨٤٨-١٨٤٩ تزداد أكثر فأكثر وفي بداية الستينات كانت هنغاريا تشن نضالاً عنيداً ضد المركزيين الرجعيين الفينويين. كان سخط الهنغاريين يتصاعد حتى كاد المرء يتوقع أن يكون ثمة انفجار ثوري في بلادهم. وفي مراجعاته السياسية عبر تكراراً عن خوفه من أن يصبح السلاف النمسويون، في حال قيام حركة ثورية في هنغاريا، أدوات طيّعة في يد الرجعية. إن تكتيكات العديد من القبائل السلافية في النمسا يمكن أن تقوي هذه المخاوف، طالما أن السلاف النمسويين يتباهون بالدور المشين الذي لعبوه في أحداث ١٨٤٨-١٨٤٩ لقد أدان تشيرنيشيفسكي هده التكتيكات بشدة وبين أن مصلحتهم، على عكس ما يفعلون، تكمن في مساعدة أعداء الحكومة الفيينوية، أعداء يمكن أن يحصلوا منهم على تنازلات أساسية لقد قال ذلك بالنظر إلى موقف الكرواتيين من الهنغاريين وتكرر ذلك من الروثينيين. نقرأ في مقالة «الفظاظة القومية «إن الحرب الطبقي المعادي للروثينيين مستعد الآن للتنازلات ولا ضير إذا أولت سلافو هذا الأمر تفكيرها، فربما كانت هده التنازلات المستعد لتقديمها شعب تظنه معادياً، من الضخامة بحيث ترضي الروثينيين بصورة كاملة، وتلك التنازلات، مهما تكن، أعظم كثيراً ولا شك، وأكثر أهمية من التنازلات التي يمكن أن يحصل عليها الروثينيون من النمسويين

إن المبادىء التي أوردها تشيرنيشيفسكي في هذه المقالة كانت بالطبع ذات أهمية أكثر من محلية غالية كان يرنو إلى أن يجعلها أساس كل العلاقات بين الروس الصغار والبولونيين، وهكذا كانت مقالته «الفظاظة القومية نوعاً من تحذير الروس الصغار الذين شكلوا قسماً من الامبراطورية الروسية

وفي العام نفسه راجع الجزء الثاني من أرشيفات روسيا الغربية الجنوبية الذي كان قد نشر في عدد نيسان في السوفريمينيك. يناقش المؤلف في هذه المراجعة، من بين ما يناقش، مسألة الطريقة القديمة للحياة في بولونيا ويقول: «وراء كل غياب بولوني للمركزة البيروقراطية تكمن الحاجة إلى إقامة نظام اجتماعي يختلف عن ذاك الذي وصلت إليه القوى الأخرى (هذه طبعاً اشارة إلى الدولة الموسكوفية) «نظام قائم،

لا على تضحية الفرد من أجل فكرة مجردة، تجسدت في الرغبة بالسلطة، بل على قبول الأفراد الأحرار من أجل رفاههم المتبادل. هنا تكون القضية الاجتماعية نتيجة للفكرة الاجتماعية، هنا ينتقل الصراع المستمر للمفاهيم والعقائد من ميدان الفكر والكلمة إلى مظاهر الحياة». فلنفرض أن المجتمع البولوني كان كله أرستقراطياً، «إلا أن الدائرة المستفيدة يمكن أن تمتد أكثر فأكثر وتشمل الجماهير المهملة والمنبوذة من الشعب، والمنزوعة الحقوق، إذا أصبحت المفاهيم المدنية أوسع ونمت ضمن الأفكار الانسانية العامة، من غير أن تقيدها الأهواء العابرة التي تحد تكاملها»* حتى الديمقراطيون البولونيون لم يظهروا دائماً مثل هذه العاطفة دفاعاً عن الطريقة القديمة للحياة في بولونيا لأن المسألة كلها كانت أساساً كيف يمكن لأعضاء المجلس الأعلى من الدييت البولوني أن يعترفوا «الأفكار الانسانية الشاملة

وحول مسألة النتائج التاريخية لتلاقي الدوقية الكبرى لليتوانيا مع بولونيا، لا يتفق تشيرنيشيفسكي أيضاً مع مؤرخينا الرسميين. ويتساءل في رده على المؤرخين الذين ذهبوا إلى أن التلاقي مع بولونيا كان السبب الوحيد لكل ما هو خاطىء في أوروبا الغربية: «هل كانت دولة روسيا القديمة في زمن أولغيردس ولوبارتاس وسكايريفيلوس وسفيدرغيلوس أفضل فعلاً منها أيام سيجسموندوس في القرنين السادس عشر والسابع عشر؟ لقد مضى الزمن الذي كنا فيه أحاديي النظرة وغير عادلين بالنسبة إلى بولونيا ويتابع «فلنعترف على الأقل بالطبيعة النفعية لتأثيرها في روسيا القديمة، ولو حتى فيما يتعلق بالتنوير فلنأخذ مستوى الثقافة الفكرية في تلك الأقسام من العالم الروسي الذي تلاقى مع بولونيا، ولنقارنه بمستوى الثقافة الموجود في القسم الآخر من روسيا الأم الذي ظل مستقلاً في شكل دولة موسكوفية. ألم يأت التنوير من روسيا الصغرى إلى موسكو في القرن السابع عشر، ألم يهيىء هذا التنوير السبيل لثقافتنا اللاحقة؟ ألم يترعرع في ظل تأثير بولونيا التي نمت في روسيا الصغرى؟

إن البولونيين، في رأي تشيرنيشيفسكي، غير ملومين حتى على بلنة روسيا الغربية إن الطبقة العليا في روسيا الغربية لها الحق في اتخاذ الوسائل للدفاع عن معتقدها ولغتها وانقاذ شعبها من الاذلال. وبالمناسبة من يرضى لنفسه العبودية؟.وإذا كانت

* السوفريمينيك ١٨٦٠ نيسان، الكتب الجديدة ص ٤٤٣ وما يليها.

الارستقراطية الروسية الغربية، على الرغم من ذلك، قد أصبحت متباينة كلياً، فان عليها أن لا تلقي اللوم على الآخرين ذاك ما يلاحظه مؤلفنا

قبل نشر **المؤلفات الكاملة** لتشيرنيشيفسكي كنا نظن أن هذه المراجعة كتبها تشيرنيشيفسكي ولكنها لم تكن منشورة ضمن **المؤلفات الكاملة**. ولذلك لا بد من الافتراض أننا كنا مخطئين إننا نعتقد أن أفكار كاتب المراجعة قريبة جداً إلى أفكار تشيرنيشيفسكي في ذلك الوقت: وإلا فإنها ما كانت لتنشر في **السوفريمينيك**

أخيراً، إن القسم الأول من رواية **المقدمة** يصور الموقف الصدوق لفولغن من سوكولوفسكي (سيراكوفسكي؟) إن فولغن يحب تكريس سوكولوفسكي المطلق لمعتقداته، وبعده عن الصغائر، ورباطة جأشه، إلى جانب الغيرة الدافقة للمحرض الحقيقي إن فولغن يدعوه **الرجل الحقيقي**، ويعتقد أن ليبراليبا يمكن أن يتعلمرا الكثير منه كل هذا مفيد، ولكن أيضاً لا يفسر موقف تشيرنيشيفسكي العملي من القضية البولونية

في ذلك الوقت كان تشيرنيسيفسكي يبلغ الرابعة والثلاثين. كان في أوج قواه العقلية، ومن يعرف إلى أي ذرا كان سيصل في تطوره. إلا أنه ما عاش كثيراً في حرية كان القائد المعترف به في الحرب المتطرف، والرائد الكبير للمادية والاشتراكية لقد اعتبر «رأس فتنة الشباب الثوري، وليم على كل إضراباتهم وانفجاراتهم. وكما يحدث دائماً في مثل هذه الحالات، ضخمت الشائعة الأمر وعرت إلى تشيرنيسيفسكي مقاصد وأعمالاً غريبة عنه إنه نفسه يصف في **مقدمة المقدمة** الشائعة التعاطفية اللبرالية التي انتشرت في بطرسبرج فيما يتعلق بفولغن (أي به نفسه) والعلاقات المرعومة مع حلقة لندن للمنفيين الروس وكما هي العادة لم تقف الأمور عند حد الشائعة فقط لقد انشغلت صحافة «الحماية منذ أمد طويل في الاتهامات الأدبية لتشيرنيشيفسكي وقد اتهمت **السوفريمينيك** لمدة طويلة وعندئذٍ جاء دور الاتهامات غير الأدبية أيضاً قال متهم تشيرنيشيفسكي: «إن مدير القسم الثالث لمستشارية جلالته تلقى رسالة مجهولة

★ لقد قدر فولغن في سوكولوفسكي كتابه «**الحاكمة العادلة**» الذي نشره في ١٨٤٨ عندما كان الوحيد من بين رفاقه في السلاح في اقليم فلهيبيا الذي لم يفقد رأسه والذي قدر بهدوء امكانيات الانتفاضة المسلحة وكل هذا لا يثبت شيئاً

تنبه الحكومة ضد تشيرنيشيفسكي «أنه رأس الفتنة والاشتراكي المتطرف وقد أعلن هو نفسه أنه بريء، وقيل إنه محرض خطير، ويطالب الناس بالخلاص من هذا الرجل، وكل أصدقاء تشيرنيشيفسكي السابقين وكل الناس المتنورين يرون أن ميوله لا تقتصر على الكلمات فقط بل تتعدى ذلك إلى الأفعال، وقد انفضوا عنه. ويكتب صاحب الرسالة: «ما لم تبعدوا تشيرنيشيفسكي فإن المشاكل والدماء ستظل قائمة، إنهم عصابة من المشاغبين المتهورين والناس الطائشين.. ربما يقضى عليهم تدريجياً هناك لجان من هؤلاء الاشتراكيين في فورونيش وساراتوف وتامبوف وأمكنة أخرى، وفي كل مكان يحرضون الشباب اطردوا تشيرنيشيفسكي أينما ترغبون، ولكن أسرعوا واحبطوا قدرته على العمل. خلصونا من تشيرنيشيفسكي من أجل السلم العام

لقد اعتقل تشيرنيشيفسكي في ٧ تموز ١٨٦٢ ولن نصف مجرى قضيته: لقد وصفها بالتفصيل السيد ليمك* حكم المجلس الأعلى بالتجريد المدني على تشيرنيشيفسكي مشفوعاً بأربع عشرة سنة من الأشغال الشاقة في المناجم، ثم النفي إلى سيبريا مدى الحياة. وتبلغ مجلس الدولة حكم المجلس الأعلى، فوافق عليه بالكامل. إلا أن الامبراطور اسكندر الثاني خفض حكم الأشغال الشاقة إلى النصف

وبنهاية ١٨٦٤ كان تشيرنيشيفسكي في كادايا في منطقة ترانس بيكال، حيث سمح لروجته أولغا سوكراتوفنا أن تزوره لثلاثة أيام مع صغيرهما ميخائيل. بعد ثلاث سنوات في كادايا نقل إلى الكساندروفسكي زافود في نيرشينسك، وفي نهاية حكم الأشغال الشاقة أرسل إلى فيليويسك التي تبعد ٤٥٠ فرست من ياكوتسك ولم يرجع نيكولاي غافريلوفتش إلى روسيا حتى ١٨٨٣، عندما سمح له أن يستقر في استراخان. لقد عاش هناك حوالي ست سنوات وأخيراً، في تموز ١٨٨٩ نقل بأمر من السلطات إلى مسقط رأسه ساراتوف

يقول كورولنكو في ذكرياته عن تشيرنيشيفسكي «قدم لي البولونيون الذين التقيتهم وعاشوا في إقليم ياكوتسك ملاحظة هامة أحدهم أخبرني أن جميع هؤلاء الذين عادوا بعد البيانات الرسمية إلى أوطانهم، وعاشوا عدة سنوات في مناخ ياكوتسكي البارد،

* أنظر المقالة التي أشير إليها من قبل «قضية تشيرنيشيفسكي» صحيفة بيلوي ١٩٠٦ اعداد آذار ونيسان وأيار.

ماتوا بسرعة غير متوقعة. لذلك فإن هؤلاء القادرين مادياً حاولوا التخفيف من حدة الانتقال بالإقامة سنة أو سنتين أو ثلاث سنوات في الأجزاء الشمالية لسيبريا وجنوب شرق روسيا الأوروبية.

« وسواء كانت هذه الملاحظة حقيقية، أم كان الموت حادثاً عرضياً، فإنها كانت حقيقية في حالة تشيرنيشيفسكي لقد وصل من ياكوتسك الباردة إلى استراخان الحارة سليماً معافى وقد رآه أخي هناك كأنما يرى فيه لوحة. وانتقل من استراخان إلى ساراتوف كما رأيناه مقوس الظهر، شاحباً، مصاباً بمرض في الدم أودى بحياته »*

توفي في السنة ذاتها ١٨٨٩، ليلة ١٦ تشرين أول في الساعة الثانية عشرة والدقيقة السابعة والثلاثين. وحسب كلمات السيد فيودوروف، الذي كان سكرتيره في سنيه الأخيرة: « لم يدفن إلا بعد أربعة أيام من موته بحضور جمهور ضخم، وبعد جنازة في كنيسة القديس سرجيوس، في مقبرة القيامة، حيث دفن أبوه الذي توفي في خريف ١٨٦١ وفي يوم الجنازة، وما بعد، وضعت كمية من الأكاليل على القبر، من بينها إكليل، أو بالأحرى اكليلان معاً نصبا بشكل خاص - من الطلبة الروس والبولونيين في جامعة فرسوفيا ومؤسسة البيطرة »**

لقد عمل تشيرنيشيفسكي بلا كلل سواء أثناء سجنه في القلعة أو في سيبريا ففي القلعة كتب روايته المشهورة **ما العمل**؟ وما كتبه في سيبريا يملأ مجلداً ضخماً يبلغ ٧٥٧ صفحة*** والعمل الشاق الذي عمله بعد عودته من سيبريا يمكن أن نعرفه، في جملة ما نعرف، من ذكريات السيد فيودوروف. يقول: « عمل تشيرنيشيفسكي بجهد كبير، وخاصة في السنوات الثلاث الأخيرة قبل وفاته. يومه يسير على النحو التالي: يكون جاهزاً في الساعة السابعة، فيشرب الشاي، وفي الوقت نفسه إما أن يختبر ما طالع أو أن ينظر في أصل الترجمة، ومن الساعة الثامنة حتى الواحدة يترجم ويملي على « آلته الكاتبة كما سماني مازحاً لشدة سرعتي في كتابة إملائه. ونتناول الغداء جميعاً في الواحدة، هو وزوجته وأنا ونظراً لألمه القديم - إسهال في المعدة، فإنه كان يتناول أثناء الغداء طعاماً قليلاً جداً يشركه بقليل من الحليب والسميد وبعد الغداء، الذي

* كورولنكو « **هؤلاء الذين ذهبوا** » بطرسبرج ١٩٠٨ ص ٧٥

** فيودوروف « **تشيرنيشيفسكي** » ص ص ٦٧ - ٦٨

*** أنظر المؤلفات الكاملة المجلد ١٠ جزء

لا يسغرق أكثر من ٣٠ إلى ٤٠ دقيقة، يقرأ الصحف، ومن الثالثة حتى السادسة، أي حتى شاي المساء، يسمر العمل. وإذا لم سعب الآلة الكاتبة أي أنا و« الآله المملية أي هو، فإن العمل يسمر حتى ما بعد منتصف الليل وغالباً ما يحدث هذا قبل إنجاز ترجمة كل مجلد من تاريخ فيبر »*

بين ١٨٨٥ و١٨٨٩ قام سيرنيسيفسكي بترجمة أحد عشر مجلداً من كتاب فبر « تاريخ العالم » ووضع ملاحظ هامة على بعض تلك المجلدات وسوف نعرج عليها بطريقنا، وكذلك سنتناول المقالتين اللتين كتبهما ونشرهما أثناء تلك الفترة نشر إحداها في **روسكي فيدوموستي** (١٨٨٥) والأخرى في **روسكايا ميسل** (١٨٨٨)[٨٨] وسوف نقول الآن بضع كلمات عن قصصه الخيالية

أثناء بحث قضيته، كتب تشيرنيسيفسكي محاولاً دحض حجج متهميه الذي استشهدوا بصحف صودرت معه:

« منذ زمن طويل وأنا أعد نفسي أن أكون كاتباً قصصياً خيالياً ولكني أعتقد أن الناس الذين على شاكلتي لن يعملوا في القصة الخيالية في سنوات الصبا فالنجاح لا يحقق لهم مبكراً ولم يكن بسبب الحاجة المالية، الناجمة عن وقف ساطي الصحفي نتيجة اعتقالي، أنني لم أنشر رواية وأنا في الخامسة والثلاثين. لقد انتظر روسو حتى سن متقدمة وكذلك غودوين[٨٩] إن الرواية تتوجه عادة إلى جمهور كبير، إنها أعظم الأعمال جدية، وأكثرها ملاءمة للسن المتقدمة إن بساطة الشكل يجب أن يعوض عنها بجدية الأفكار التي تقدم للجماهير وهكذا أعددت المواد لفترة الشيخوخة في حياتي »**

لاحظنا من قبل أن شخصاً في وضع سيرنيسيفسكي في ذلك الوقت، له كل الحق في ألاّ يكون صريحاً، وبالتالي فإن من المطلوب الحذر الكبير في استخدام شهادته كمادة لتاريخ حياته ولكن حقيقة أنه كان يعد نفسه منذ مدة طويلة ليصبح كاتب قصة، يمكن أن نصدق، وعلى الأخص أنه وضع نصب عينيه مثال ليسنغ الذي اتخذ من نشاطه الأدبي مثالاً له والواقع أن مؤلفنا لم يتعاط القصة إلا في وقت متأخر من

---

* ستودوروف تشيرنيسيفسكي ص ص ٥٨ - ٥٩

** لمك « قصة سيرنيسيفسكي ١٩٠ ص ١٠٥

عمره ولكن حالما تعاطاها وطد نفسه لها بكل اهتمامه إن الجزء الأول من المجلد العاشر من مؤلفاته، الذي أشرنا إليه من قبل يتألف أساساً من قصة خيالية، وإن كان يتضمن الشعر مثلاً والقصة هي «ترسمة إلى خادمة السموات التي ظهرت في روسكايا ميسل في العدد ٧ عام ١٨٨٥ وفي رسالة إلى بيبين (غير مؤرخة ولكن فيها ملاحظة بخط بيبين اسلمتها في تموز ١٨٧٠ ») كتب سيرنيشفسكي حول موضوع مؤلفاته في القصص الخيالي التي كتبها بـ كمية كبيرة إن لدي موهبة إن لدي الكثير منها »* وهذه الملاحظة الأخيرة تعزى ولا شك إلى عادة سيرنيشفسكي في الهزء من نفسه ولكن حتى في المنفى لم يكن يهدر وقته سدى فكتب أعمالاً في القصة الخيالية لم يكن يعتبر نفسه قادراً عليها وقد اعتبر هذه المؤلفات ذات ميزات معينة. ولكنه رجا فوق كل هذا أن يكون لها تأثير كبير في القراء باستثناء رواية المقدمة الممتعة لأنها من طبيعة الذكريات وقد ألبست شكلاً وظيفياً لا بد من الموافقة على أن قصصه السيرية لم تكن ناجحة ولم تجد قراء كثيرين والعقلانية - تلك السمة المميزة لـ المتنور التي كانت تلبس مؤلفنا حتى منذ طفولته تصل حدها الأقصى هنا ليس فقط في أنها تنزع الشخصيات من كل رموز الحياة الواقعية بل حتى في لغتهم. التي هي واحدة لدى الجميع وثقيلة جداً بسبب ميلهم الجارف للتحليل المفصل وشرحهم المسهب للمخاطب عن كل أفعالهم وكل حركة من حركات نفوسهم إنهم لا يعيشون. بل يغرقون في شرح السبب الكامن وراء رغبتهم في المعيشة بمثل هذه الطريقة. وليس بطريقة أخرى وإذا كان سيرنيشفسكي، انطلاقاً من أعماله الروائية السيرية قد وضع نصب عينيه هدف الدعاية. فإن هذا الهدف لن يتحقق على وجه التأكيد**

إن رواية **ما العمل؟** التي كتبت في القلعة كانت ذات أهمية مختلفة لقد تهيأ لها نجاح كبير وكان لها تأثير ضخم وكبير على القراء الشباب لجيلي الستينات والثمانينات التحهليين والمحليين اعتادوا أن يهزوا أكتافهم احتقاراً لهذا العمل الشهير بسبب عمههم الميزة الفنية مفقودة منه نهائياً إلا أن حكمهم حتى في هذا الميدان ليس

---

* المؤلفات المجلد جزء ص ٢٨

** لن نكرر هنا أن تلك المحاكمة لم تمتد المقدمة

صحيحاً تماماً فشخصية ماريا الكسفنا رورالسكايا أم فيراباڤلوفنا مرسومة بدقة وفوق ذلك فإن الرواية بشكل عام تشمل على قسم كبير من الملاحظة الحادة والمرح والشعور العميق، أو بالأحرى الحماسة التي تجذب القارىء وتجعله يتتبع مصير الشخصيات الرئيسية باهتمام شديد، على الرغم من الضعف المؤكد للقدرات الفنية لدى الكاتب إن من السهل جداً إصدار حكم ازدراء على رواية **ما العمل؟** بمقارنتها مثلاً **آنا كارنينا** إلا أن الناقد الذي يقارن عملين غير متكافئين أدبياً هو ناقد رديء إن من الأنسب أن نقارن رواية **ما العمل؟** بهذه الرواية الفلسفية أو تلك من روايات فولتير وإذا فسرناها على هذا الأساس، رأينا كم أخطأ هؤلاء التحليليون والمتحللون في أحكامهم فيها

ما سر النجاح المنقطع النظير لرواية **ما العمل؟** إنها المسؤولية العامة نفسها التي تسبب نجاح المؤلفات الأدبية، وهي حقيقة أن هذه الرواية تقدم جواباً – حياً مفهوماً – عن أسئلة يهتم بها عامة القراء اهتماماً شديداً إن الأفكار التي جاءت بها ليست بجد ذاتها جديدة فجميعها أخذها تشيرنيسيفسكي من الأدب الأوروبي الغربي فجورج صاند دافعت قبل ذلك برمان عن الحرية والعلاقات المعقولة في حب الرجل والمرأة* فمن حيث الواجبات الأخلاقية التي تضعها على الحب، لا تختلف لوكريسيا فلورياني عن فيرا بافلوفنا لوبوخنوفا – كيرسانوفا أما رواية **جاك**، فمن الممكن أن ننسخ منها عدداً كبيراً من مقاطعها لنبين أن الأفكار والتبريرات التي قدمتها جورج صاند لحب الحرية، قدمها البطل الغيري في رواية ما **العمل؟** كلها تقريباً** ولم تكن جورج صاند

---

* فلنلاحظ بالمناسبة أن روايه غوته «التبادلات المزدوجة تمثل أيضاً دفاعاً عن هذه العلاقات وقد فهم ذلك بعض مؤرخي الأدب الألماني في حين لا يجرؤون على الحط من مكانة كاتب مرموق. فإنهم في الوقت نفسه لا يجرؤون على موافقته لأن فضيلتهم القدرة عالياً ما تم عن معالطات الألماني العظيم

** في ٢٦ ١٨٥٣ سجل تشيرنيسفسكي في مذكراته الملاحظة التالية مع خطيبته هل تفكرين أنني من الممكن أن أخدعك؟ أنا لا أفكر في ذلك، ولا أتوقع ذلك. إلا أنني اهتممت بهذا أيضاً فماذا أنت فاعلة؟ لقد أخبرتها برواية جورج صاند **جاك**. هل ستطلقين النار على نفسك؟ أنا لا أعتقد أنك تفعلين وأخبرتها أنني سأشرح لها جورج صاند (لم تقرأ الرواية أو لم تتذكر أفكارها على الاطلاق) (**المؤلفات الجلة** جزء ٢ المقطع ٣ ص ٧٨) ولم نعتبر أن من النافل أن نرى مقطعاً آخر من ملاحظات تشيرنيسفسكي مع خطيبته «ولكن ماذا يمكن أن تسببه هذه العلاقات؟ قالت يوم أول أمس سيكون لنا قسمان منفصلان من

الوحيدة التي دافعت عن الحرية في العلاقات التي من هذا النوع فمن المعروف تماماً أن ممن دافع عن هذه العلاقات روبرت أوين وفورييه، اللذين كان لهما تأثير واسع على نظرة سيرنسفسكي* وقوبلت هذه الأفكار منذ الأربعينات بتعاطف حار في بلادنا وقد دعا بيلنسكي في مقالاته بحرارة إلى الحرية والتعقل في علاقات الحب وسوف يتذكر القارىء طبعاً كم كان مريراً توبيخ « فيساريون الطائش » لتاتيانا بوشكين. لأنها وهي تحب أونيجين لم تتبع هوى قلبها الذي في حين محنته إلى « آخر ظلت تعيش مع زوجها الهرم الذي لا تحبه إن معظم أبناء « الأربعينات في موقفهم من المرأة التزموا المبادىء ذاتها التي التزم بها لوبوخوف وكيرسانوف وكانت هذه المبادىء قبل ظهور رواية **ما العمل؟** تقتصر على النخبة « المختارة إذ لم تفهمها جماهير القراء أبداً حتى هرزن تردد في شرحها وتوضيحها تماماً في روايته **من الملوم؟**، ويعالج دروجينين المسألة بحسم أكثر في قصته **بولينكاساكس**** إلا أن قصته باهتة جداً، وشخصياتها المنتمية إلى الطبقة العليا - الضباط والشخصيات البارزة - لم تتوجه إلى الرازنوشنتنسي الذين شكلوا الجناح اليساري من القراء، بعد سقوط حكم نيقولا بظهور **ما العمل؟** تغير كل شيء، واتضح وتحدد لم يكن ثمة مجال للشك الناس المفكرون واجهوا الخيار اما الاسترشاد في الحب بمبادىء لوبوخوف وكيرسانوف، أو الخضوع لقدسية الزواج واللجوء إلى الطريقة القديمة المجربة في مغامرات الحب السري، بعد ظهور العواطف الجديدة، أو قمع كل عاطفة في القلب نظراً لأنه مرتبط بشريك الزواج الذي لا يحبه ولا بد من أن يتم الاختيار بوعي وقد عالج سيربيسيفسكي الموضوع بطريقة ظهر فيها أن ما كان طبيعياً في التعقل في الحب بدا مستحيلاً لقد امتدت سطرة العقل إلى الحب، ونسي الرأي العام نظرة واعية من

لست وعليك الا تدخل علي بلا استئذان وسوف أرتب الأشياء لتكون هكذا أكثر حدية مما تفكر هي إنها لا تقصد شيئاً من قولها إلا أنها لا تريدني عنها ننما أفهم أنا من ذلك أن على كل زوج أن يحترم جداً زوجته فيما يتعلق بالعلاقات الزوجية (المرجع السابق ص ٨٢) وتدور هذه الحادثة ذاتها بصورة أدبية بين فيرا بافلوفنا ولوبوخوف في ايه ما العمل؟

* يبدو من الضروري نتذكر دفاع الحار في هذا الميدان أما فورييه فاننا نقتبس هنا كلماته العميقة ليست العلاقات في الحب سوى علاقات وقتية وأشكال متقلبة وليست مادة ثابتة لا تتغير المؤلفات الكاملة لشارل فورييه المجلد ص

** السوفريمينيك ١٨٤٧ رقم ١٢.

العلاقات بين الرجل والمرأة. وكان هذا هاماً بشكل خاص في بلادنا في السيتيات إن الاصلاحات التي عرفتها روسيا قلبت رأساً على عقب كلاً من علاقاتنا الاجتماعية وعلاقاتنا العائلية. لقد وصل خيط من نور إلى أعماق الظلمة الداكنة لقد اضطر الروس أن يختبروا أنفسهم، وان ينظروا إلى علاقتهم بأقربائهم وبالمجتمع والعائلة نظرة واعية. إن عنصراً جديداً طفق يلعب دوراً كبيراً في العلاقات العائلية، في الحب والصداقة المعتقدات التي لم تكن إلا لدى حفنة صغيرة من المثاليين إن الاختلافات في المعتقد أدت إلى تمزقات غير متوقعة إن المرأة التي تقدم بالزواج » إلى رجل ما، تكتشف أن « مالكها المحترم كان تجهيلياً، مرتشياً، متملقاً أمام رؤسائه. والرجل الذي يمتع « امتلاك الزوجة الجميلة لرجل آخر والذي تأثر بمجرى الأفكار الجديدة، يتحقق أن ما كان يسحره ليس « الناس الجدد أو « النظرات » الجديدة، بل الثياب الجديدة والرقصات وأيضاً لقب زوجها ودخله إن كل الشروح والنصائح تذهب عبثاً، فالمرأة الجميلة تنقلب إلى شرسة حقيقية حالما يحاول زوجها اعلان أنه « في الخدمة بكل سرور إلا أنه « خنوع يبير الغثيان كيف يتصرف المرء؟ ماذا يعمل؟ لقد أظهرت الرواية الشهيرة كيف يجب أن يتصرف وماذا يعمل. وبتأثيرها بدأ الناس الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملكية شرعية للآخرين يكررون كلام مؤلفها: يا للقذارة يا للقذارة لذاك الذي يجرؤ على املاك الآخر وانبعث فيهم وعي الكرامة الانسانية وأصبحوا بعد عواصف روحية وعائلية مريرة مستقلين يقيمون حياتهم حسب معتقداتهم ويتقدمون نحو هدف انساني معقول وبالنظر في هذا وحده يمكن القول إن اسم تشيرنيشيفسكي يسمو إلى التاريخ وسيظل عزيزاً على قلوب الناس، الذين سيتذكرونه بفخر عندما لا يبقى وجود لأولئك الذين يعرفون شخصياً « المتنور الروسي العظيم ».

لقد اتهم التجهيليون تشيرنيشيفسكي بالكرازة لـ « الانعتاق من الجسد في روايته. ولا شيء أكثر سخفاً ونفاقاً من هذه التهمة خذ أي رواية عن حياة الطبقة الراقية، في كل الأقطار وكل الشعوب – وسوف ترى أن تشيرنيسيفسكي لم يكن بحاجة إلى كرازة الانعتاق من الجسد، التي هي حقيقة قديمة على العكس إن روايته تكرر الانعتاق من الروح الانسانية، من الفكر الانساني. ولا أحد تأثر بهذا الاتجاه للرواية لديه أي رغبة في مغامرات نسائية كانت حياة الناس الأكابر فارغة لولاها. هؤلاء

الذين يكنون احتراماً منافقاً للأخلاق السائدة أيها السادة إن التجهيليين يفهمون تماماً الطبيعة الأخلاقية الصارمة لكتاب تشيرنيشيفسكي، وقد انزعجوا منه بسبب صرامته الأخلاقية بالضبط إنهم يسعرون أن أناساً من أمثال أبطال رواية **ما العمل؟** سوف ينظرون إليهم على أنهم ماجنون، ولا بد أن يشعروا تجاههم بالاحتقار العميق.

كما هو معروف، ان نشر الأفكار العظيمة للحق والعلم والفن في روسيا هو الهدف الرئيسي، ويمكن القول إنه الأوحد، الكامن وراء تأليف رواية **ما العمل؟** ومن الخطأ اعتبار هذه الرواية كرارة للعلاقات المعقولة في الحب فقط إن حب فيرابافلوفنا للوبوخوف وكيرسانوف هو اللوحة التي ارتسمت عليها أفكار المؤلف الهامة الأخرى. لقد ارسمت في أحلام فيرابافلوفنا المثل الاشتراكية للمؤلف بألوان زاهية. إن صورة المجتمع الاشتراكي الذي رسمه أخذ نموذجه كلياً من فورييه. إن تشيرنيشيفسكي لم يقدم للقارىء أي شيء جديد إنه يقدم إليه فقط النتائج التي دعا إليها الفكر الأوروبي الغربي منذ أمد طويل. ولا بد من الاشارة هنا إلى أن أفكار فورييه كانت معروفة في روسيا حتى في الأربعينات لقد اتهم «البتراشيفسكي وجرّم الفوريية. إلا أن سيرنيسيفسكي نشر أفكار فورييه بصورة لم يسبق لها مثيل. لقد أدخلها في الجمهور بسكل واسع وفيما بعد حتى المعجبون بتشيرنيسيفسكي سوف يهزون أكتافهم في الحديث عن أحلام فيرابافلوفنا إن مساريع الفالانسيرية التي حلمت بها بدت مألوفة لدى بعضهم لقد قيل إن الكاتب الشهير تحدث إلى القارىء عن شيء، أقرب إلى قلوبنا وبصورة عملية حتى الذي يدعون أنهم اشتراكيون برروا ذلك يجب أن نعترف أننا نعبر أن هذا أمر مختلف تماماً ففي أحلام فيرا بافلوفنا نرى سمات نظرات سيرنيسيفسكي الاشتراكية التي، لسوء الحظ، لم يولها الاشتراكيون الروس اهتماماً كاملاً ما يجذبنا في تلك الأحلام هو تأكد سيرنيشيفسكي الكامل من حقيقة أن النظام الاشتراكي يجب أن يقوم على انتشار تطبيق القوى التكنية التي تطورت في الفترة البرجوارية، في الانتاج في أحلام فيرا بافلوفنا تنخرط جيوش ضخمة من العمال في الانتاج، ينتقلون من آسيا الوسطى إلى روسيا، ومن بلاد الأقاليم الحارة إلى بلاد الأقاليم النباردة بالطبع تم كل هذا الفهم بمعونة فورييه أيضاً، ولكن من الواضح، حتى من التاريخ اللاحق لما يسمى الاشتراكية الروسية، أن جمهور القراء الروس لم يكن واعياً لهذا. لقد دهب ثوريونا بعيداً في أفكارهم عن المجتمع الاشتراكي، بحيث فهموه

على شكل اتحاد كومونات فلاحية تحرث حقولها بالمحراث القديم ذاته الي يستخدم لحرث التربة في زمن باسيل الأعمى ومن الواضح أن مثل هذه « الاشتراكية لا يمكن اعتبارها اشتراكية إن انعتاق البروليتاريا لا يتم من خلال انعتاق الانسان من « سلطة الأرض » والطبيعة بشكل عام وهذا الانعتاق خلق جيوش العمل والتطبيق الواسع للقوى الانتاجية الحديثة في الانتاج الذي تحدث عنه سيرنيسيفسكي في أحلام فيرا بافلوفنا، والذي تناسيناها نهائياً لرغبتنا في أن نكون « عمليين

برز تشيرنيسيفسكي عند ولادة النمط الجديد لـ « الناس الجدد في بلادنا ورسم هذا النمط في شخصية راخميوف وقد رحّب مؤلفنا بظهور هذا النمط الجديد، ولم يستطع أن يحرم نفسه من لذة رسم سيرته وإن كانت بشكل غامض وبيناً في الوقت ذاته، كيف أن كثيراً من التجارب والآلام ستظر الثوري الروسي الذي يجب أن تكون حياته حياة نضال متفانٍ وتضحية ذاتية كبرى وهكذا يقدم سيرنيسفسكي في راخميوف الزاهد الحقيقي إن راخميوف يعذب نفسه عمداً إنه « لا يعرف الرحمة تجاه نفسه أبداً كما تقول صاحبة العربة حتى أنه يقرر أن يختبر فيما إذا كان قادراً على تحمل آلام قضاء الليل مضطجعاً بطوله على فراش من لباد ثبت فيه المسامير إن كثيرين، بمن فيهم بيساريف، اعتبروا هذا محض شذوذ إننا نقر أن بعض مظاهر شخصية راخميوف قد رسمت بشكل مغاير إلا أن الشخصية ككل تبقى قريبة جداً من الحياة إن كل اشتراكيينا النازين في الستينات والسبعينات تقريباً يتصفون بروح راخميوف

نود أن نقول في نهاية مقدمتنا أن أهمية تشيرنيسيفسكي في الأدب الروسي لا بد من أن تقدر أما إساءة فهمه في بلادنا حتى من قبل أولئك الذين يحسنون الظن به فيمكن أن تظهر من ذكريات كورولنكو عنه هذا الكاتب والمؤلف العظيم يصوره كنوع من « الاقتصادي العقلي الذي يؤمن « بسلطة العقل المنظم لكونت* وإذا كانت كلمتا !العقل المنظم تعني شيئاً فإنها تعني أن سيرنيسيفسكي نظر إلى الظواهر الاجتماعية من موقف مثالي كان كونت نفسه ينظر منه بيد أن من ينظر إلى الظواهر الاجتماعية من موقف مثالي لا يمكنه أن يدعو نفسه اقتصادياً لسبب بسيط هو أن هذا

* كورولنكو « أولئك الذين ذهبوا ص ٧٨

الاسم يطبق، وإن لم يكن انطباقاً كاملاً، على أولئك الذين إذ يؤمنون بسلطة العقل المنظم، يؤمنون بالسلطة التنظيمية للاقتصاد إن «اقتصادياً يؤمن بسلطة العقل المنظم أشبه بالدارويني الذي يؤمن بنظرية التكوين التي قدمها موسى إلا أن هذا ليس الشيء الهام هنا إن ما هو أكثر أهمية هو حقيقة أن كورولنكو يعارض الآراء السوسيولوجية لـ «ذاتيبا بـ «اقتصادية تشيرنيسيفسكي «إننا أيضاً لم نجمد حين توقفنا عن أن نكون اقتصاديين عقليين فبدلاً من الأنماط الاقتصادية الصرفة، فتح لنا الاتجاه الأدبي الذي يمثله تشيرنيسيفسكي بصورة رئيسية، بعداً حقيقياً من قوانين السمة البيولوجية ونظائرها، بينما تلعب المصالح الاقتصادية دوراً ثانوياً »*

«لم نجمد فعلاً إن «بعداً من قوانين السمة البيولوجية ونظائرها كشفه ميخائيلوفسكي، كان خطوة كبيرة إلى الوراء بالقياس إلى آراء تشيرنيسيفسكي الاجتماعية** كان ميخائيلوفسكي تلميذاً للافروف الذي تتطابق آراؤه في مجرى التطور الاجتماعي مع برونوبوير كما بينا في كتابنا **تطور النظرة الأحادية في التاريخ**(٩٠) لذلك على من يرغب فهم العلاقة بين النظرة العالمية لتشيرنيسيفسكي ونظرة «داتيبا أن يحاول أولاً فهم العلاقة بين فلسفة فيورباخ التي تبناها سيرنيسيفسكي، وآراء برونوبوير وهذا أمر بسيط وواضح إن فيورباخ يسمو برونوبوير كثيراً

في الكلمة التي وضعناها في رأس مقالتنا عن سيرنيسيفسكي، التي كتبت يوم كانت أنباء وفاته لا تزال ماثلة في الذهن، والتي أعيد النظر فيها في الطبعة الحالية إعادة كاملة اقتبسنا الكلمات التالية من رسالة المؤلف إلى زوجته: «حياتي وحياتك ستمضيان إلى التاريخ، وسوف تمر مئات السنين وإسمانا يظلان عزيزين على الناس، الذين سيذكرونهما بإجلال بينما لن تبقى أسماء أولئك الذين عاشوا معنا كتبت هذه الرسالة في ٥ تشرين أول ١٨٦٢ أي عندما كان المؤلف سجيناً وقد اقتبسها مهموه فيما بعد

---

* المرجع السابق ص ص ٧٩-

** لا عجب كان موقف سيرنيسفسكي من تلك القوانين ونظائرها سلبياً تماماً طبقاً للسيد كورولنكو ذاته.

كدليل على غروره. وقد اعترض أنهم أخذوا هذه الأسطر في رسالته على محمل الجد، في حين أنها لم تكتب على أنها جادة*

ونحن من جانبنا ندع جانباً مسألة ما إذا كان غروره تشمله أي فقرة من قانون العقوبات وإنا لعلى يقين أن أسطر رسالة تشيرنيشيفسكي التي اقتبساها دلت على نكتة بسيطة من كاتبها إلا أننا على يقين أنها الآن تحمل معنى آخر جدياً تماماً إن حياة تشيرنيشيفسكي تنتمي حقاً إلى التاريخ، ولن يتوقف اسمه عن أن يذكره بإجلال أولئك الذين اهتموا بمصير الأدب الروسي، والذين هم أهل لأن يقدروا الثقافة والموهبة والمعرفة والشجاعة والغيرية.

---

* ليمك بيلوي ١٩٠٦ ص ١٠٣

دلێر رەگلە

الجزء الأول

آراء تشيرنيشيفسكي الفلسفية والتاريخية والأدبية

القسم الأول

آراء تشيرنيشيفسكي الفلسفية

الفصل الأول

تشيرنيشيفسكي وفيورباخ

في الطبعة الأولى من هذا الكتاب، عبرنا في المقالة الأولى التي تعالج، من جملة ما تعالج، الآراء الفلسفية لتشيرنيشيفسكي، والتي كتبت في أواخر ١٨٨٩، عن اعتقادنا أن مؤلفنا كان في آرائه الفلسفية تابعاً لفيورباخ. ومن الطبيعي أن هذا الاعتقاد بني أساساً على مقارنة آراء فيورباخ بآراء تشيرنيشيفسكي التي تعتمد على الفلسفة مباشرة. كان في مقدورنا أن نستند على الشهادة البينة للمؤلف. وانسجاماً مع ظروف الرقابة في تلك الأيام، فضل تشيرنيشيفسكي دائماً الإشارة إلى هذا الموضوع على شكل سوانح، ولكن سوانحه كانت واضحة كضوء النهار بالنسبة لمن يفهم القضية. وهكذا، مثلاً، في النزاع مع دودشكين (في مقالة «جواهر النقاش») يقول تشيرنيشيفسكي أنه يناصر مذهباً فلسفياً هو «آخر حلقة في سلسلة الأنظمة الفلسفية» و«انبثق من نظام هيغل، كما انبثق هذا الأخير من شيلنج». فليس من الصعب أن نحزر أن تلك الكلمات تلميح إلى فيورباخ. لكن تشيرنيشيفسكي لم يكن يثق بالذكاء الخاطف لخصومه لذلك جعل تلميحه أكثر شفافية. يسأل: «ولكن ربما لا تزال القضية غير واضحة لك، ومن المحتمل أنك ترغب أن تعرف من يكون هذا المعلم الذي أتحدث عنه؟ وحتى أسعفك في تقصيك، سوف أخبرك أنه ليس روسياً ولا فرنسياً أو انكليزياً، ليس بوخنر ولا ماكس شتيرنر ولا برونوبوير ولا موليخوت ولا فوغت. من هو إذن؟

لقد بدأت تحزر سوف تدعي «أنه شوبهور بعد مطالعتك مقالات لافروف. إن الرجل هو الذي تحرره حقاً هذه الأسطر لا تدع شكاً في أن فيورباخ هو الذي يعتبره تشيرنيشيفسكي معلمه في الفلسفة

في إحدى مقالاتنا المكرسة لـ «مصير نقدنا قلنا إن أطروحة سيرنيسيفسكي الشهيرة «العلاقة الجمالية بين الفن والواقع هي محاولة مفيدة والأولى من نوعها لإقامة علم جمال على أساس الفلسفة المادية لفيورباخ* ومن الصعب لمن له فكرة عن فلسفة فيورباخ ألا يوافق على هذا أيضاً ولكن في بلادنا ثمة أولاً بعض الناس المتطرفين، وثانياً لم يولوا أهمية لبرهاننا الذي قدمناه عن القرابة بين آراء سيرنيسيفسكي الفلسفية والآراء الفلسفية لمؤلف **جوهر المسيحية**، هذا البرهان لم يكن قائماً وقتذاك على قطعة واحدة من الدليل المباشر من تشيرنيشيفسكي نفسه واليوم لدينا هذا الدليل فنسرع إلى لفت انتباه القارىء إليه

في مقدمة الطبعة الثالثة من «العلاقة الجمالية بين الفن والواقع»** المشار إليها أعلاه يقول تشيرنيشيفسكي

«يرى مؤلـف هذه الأطروحة التي أكتب مقدمة طبعتها الثالثة (أي هو نفسه - بليخانوف) أن من المناسب استخدام مكتبة ضخمة وانفاق القليل من الدراهم لشراء الكتب في ١٨٤٦ وحتى ذاك كان قد قرأ الكتب التي اسطاع الحصول عليها فقط من المدن الاقليمية حيث توجد مكتبات لا بأس بها كان مطلعاً على المؤلفات الروسية في نظام هيغل، التي كانت قاصرة تماماً وعندما سحت له الفرصة قراءة هيغل بلغته الأصلية طفق يقرأ تلك الأطروحات لقد أحب هيغل في لغته الأصل أقل بكثير مما توقعه من المؤلفات الروسية. وكان سبب هذا أن أتباع هيغل الروس شرحوه من موقف الجناح اليساري للمدرسة الهيغلية هيغل في الأصل يسه فلاسفة القرن السابع عشر، حتى المدرسيين أكثر من هيغل الذين ظهروا في الشروحات الروسية لنظامه

---

* كانت هذه المقالة مخصصة لصحيفة **نوفوي سلوفو** «ولكن بسبب ظروف فوق ارادة المحررين لم ينشر سوى نصفها وظهرت كاملة في ١٩٠٥ في مجموعتي «**عشرون عاماً**» ونشرت في الطبعات اللاحقة[٩١]

** يقول ناشر مؤلفات والد تشيرنيشيفسكي «لم تتخلص هذه المقدمة من تدخل الرقيب. إذ كانت الكتابة عن فيورباخ غير مسموح بها ولذلك تقرر ألا تنشر في الطبعة الثالثة من العلاقة الجمالية». المقدمة مؤرخة في ١٨٨٨.

قراءته معبة لأنه لم يكن يفيد في تكوين طريقة علمية في التفكير وفي ذلك الزمن كان الشاب الذي يريد أن يسكل مثل هذه الطريقة من التفكير لنفسه يقرأ أحد الكتب الرئيسية لفيورباخ إنه يصبح تابعاً لذاك المفكر ، وما لم تبعده المشاغل الدنيوية عن الدراسات العلمية ، فإنه يقرأ ويقرأ بكل حماسة مؤلفات فيورباخ

هذا المقطع الذي يؤلف النظرة النهجية لتشيرنيسيفسكي يبين لنا كم هي هامة الفلسفة الألمانية عامة ، وفلسفة فيورباخ خاصة ، في تاريخ تطور نظرته العالمية والأسطر التي سبع مباشرة هذا المقطع تكشف عن تأثير فيورباخ في الآراء الجمالية لمؤلفنا

يتابع تشيرنيسيفسكي محدثاً بلسان الغائب عن نفسه:

« منذ حوالي ست سنوات تعرف على فيورباخ ، ودفعته الضرورة المادية إلى كتابة أطروحة علمية. وبدا له أنه قادر على تطبيق الأفكار الاساسية لفيورباخ في حل مسائل معينة في عدة فروع من المعرفة ، لم تدخل في مجال أبحاث معلمه.

« موضوع الأطروحة التي كان يكتبها هو شيء يعالج الأدب. وحدث أنه كابد هذا الظرف بعرض مفاهيم عن الفن ، والشعر خاصة ، بدت له أنها مستنتجة من أفكار فيورباخ وهكذا فان الكراس الذي أكتب له هذه المقدمة هو محاولة لتطبيق أفكار فيورباخ في حل القضايا الأساسية في علم الجمال

« إن المؤلف لم يصرح أنه جاء بجديد من عنده إنه رغب فقط في شرح أفكار فيورباخ مطبقة على علم الجمال »*

ويمكن للقارىء أن يرى أننا شرحنا موقف تشيرنيسيفسكي من فيورباخ بصورة صحيحة. ولكن ما هي نظرة فيورباخ نفسه؟ لقد أشرنا إليه من قبل على أنه مادي. وقد اعتبره مادياً أيضاً في بلادنا أولئك الناس الذين حاربوا تشيرنيشيفسكي لدعايته لآراء فيورباخ الفلسفية إلا أن الرأي المنتشر اليوم في الأدب الفلسفي هو أن فيورباخ لم يكن مادياً « حقيقياً هذا الرأي المبي على بعض « الأقوال المأثورة ومقاطع من فيورباخ نفسه ، كان قد عبر عنه أيضاً لانج في كتابه المشهور تاريخ المادية[٩٢] وهدا ليس صحيحاً كما سوف نرى الآن

---

* المؤلفات المجلد ١٠ جرء ٢ ص ١٩٢

يقول فيورباخ في كتابه «الأسس»* «**الفلسفة الجديدة [أي فلسفته بليخانوف] تجعل الانسان، والطبيعة كأساس للانسان، الموضوع الوحيد الأشمل والأعلى للفلسفة - وبالتالي تجعل الأنتروبولوجيا، بما فيها الفلسفة، علماً شمولياً**».

يرى لانج في كلمات فيورباخ هذه سمة تنبع من الفلسفة الهيغلية فينحي فيورباخ عن الماديين بالمعنى الحقيقي للكلمة. إنه يلاحظ أن «طبيعة الانسان بالنسبة إلى الماديين هي حالة خاصة فقط في سلسلة عمليات الحياة المادية». إن المادي الحقيقي، في رأي لانج، يميل قليلاً كما فعل فيورباخ - إلى وصف المزايا المقدسة للطبيعة الانسانية** ولكن ماذا تعني هذه المزايا عند فيورباخ؟ إنه هو نفسه يقول إن «انتروبولوجيه» تعني فقط أن الانسان يظن الله ذاك الذي يشكل جوهره الخاص»*** وحسب ذلك فإن «الطبيعة المقدسة» لمزايا الطبيعة الانسانية تفقد كل معنى روحي: كل ما يبقى هو سوء استخدام معين للمصطلح غير المرغوب، في اهتمامات التطور الخاص للمفاهيم الفلسفية، ولكنه لا يغير المضمون الحقيقي لتعاليم فيورباخ في أدنى دقائقه. لم يرفض فيورباخ أبداً أن الطبيعة البشرية «هي فقط حالة خاصة في سلسلة العمليات المادية هذه الفرضية تكمن في أساس كل فلسفته. وإذا كان يعتبر من الضروري أن يتخذ الطبيعة البشرية منطلقاً له، فان هذا ما يفسره قوله: في هذا النزاع [بين الماديين والروحيين] مسألة الرأس البشري. فحالما نجد المادة التي يتألف منها الدماغ، فسوف نجد كل المادة الأخرى، كل المادة بشكل عام»**** تبين هذه الأسطر كم كان فهم فيورباخ ضعيفاً من قبل أولئك الذين رفضوا اعتبار تعاليمه مادية وسموها باسم «**الانسانية**»، التي لا تعني شيئاً على الاطلاق والحقيقة أن فيورباخ نفسه غالباً ما رفض اعتبار نفسه مادياً يقول «المادية لا تناسب أبداً الاسم الذي يقود إلى مفاهيم مغلوطة، ويمكن أن تكون مبررة طالما أن مادية الفكر تعارض لا مادية الفكر أما بالنسبة إليها فلا يوجد غير حياة عضوية فقط، عمل عضوي، تفكير عضوي. لذلك فان **العضوية** هي التعبير الصحيح، لأن الروحي المتشدد يرفض

---

* «أسس فلسفة المستقبل

** الترجمة الروسة بقلم ستراخوف المجلد ٢ ص ٨٢

*** مؤلفات فيورباخ المجلد ٦ ص ٢٤٩

**** المؤلفات المجلد العاشر ص ١٢٩ حول الروحانية والمادية فيما يتعلق بحريه الإرادة

أن يتطلب التفكير عضواً، بينما النظرة الطبيعية ترى أنه لا نشاط من غير عضو »* ومن الأقوال السائرة ذاتها التي أخذنا منها هذه الأسطر يرى فيورباخ أنه يسير مع الماديين إلى نقطة معينة فقط، وأن المادية هي أساس الجوهر الانساني والمعرفة الاسانية، ولكن ليس المعرفة ذاتها، كما يعتقد بعض الماديين أمثال موليخوت ولكن هنا يجب أن نلاحظ أن مصطلح « عضوية » الذي اقترحه فيورباخ يعبر بالضبط عن النظرة الفلسفية ذاتها التي تدل عليها كلمة « مادية ». إن الطبيعيين « بالمعنى الضيق للكلمة » لا يتفقون مع فيورباخ لأنهم، برأيه، يرجعون كل شيء إلى الدماغ، و« الدماغ ليس أكثر من تجريد فيزيولوجي، إنه عضو التفكير طالما أنه يرتبط بالانسان رأساً وبدناً »** ولكن هل رفض الطبيعي أن يكف الدماغ عن التفكير عندما ينفصل عن الرأس والبدن؟ لا إن فيورباخ، في هذه الحالة، لم يكن منصفاً مع الطبيعيين*** ولا نكران أنه في شخص الطبيعيين أمثال موليخوت وبوخنر وفوغت عانت المادية من قصر النظر واقترفت أخطاء نظرية خطيرة. بيد أن من الخطأ أن يعزو إلى المادية عامة العيوب التي التصقت باحدى مدارسها إن فيورباخ نفسه فهم هذا جيداً واعتبره في كتابه « حول المادية والروحانية فيما يتعلق بحرية الارادة » جانباً ضعيفاً في مادية المدرسة الفرنسية المادية، وعارضه بالمادية الألمانية التي تحظى بعطفه. والواقع أن الانتقادات التي قدمها هنا عن مادية المدرسة الفرنسية لا يسحق نهائياً لهذه الأخيرة ويمكن أن يتوازى مع تبرير الماديين الألمان أمثال بوخنر أو فوغت. إلا أن هذا تفصيل، توضحه حقيقة أن فيورباخ الذي نشأ وترعرع في الفلسفة الألمانية، كان قليل الاطلاع على المادية الفرنسية. ولا يمنع هذا التفصيل فيورباخ من تبني نظرة مادية خالصة في « أنتروبولوجيته » ويكتب في المرجع الذي أشرنا إليه أعلاه « حول المادية والروحانية » بروح المادية الفرنسية كما تجلت في مؤلفات لامتري وديدرو**

---

* « الأقوال السائره ص.ص ٣٠٧ ٣٠٨

** المؤلفات المجلد الثاني ص ٣٦٢

*** إن فكرة كيف نطرح هذه المسألة في العلوم الطبيعية الحديثة نجدها في الكتاب الصغير ولكنه ممتع الذي ألفه فيلكس لادانتيك « الحتمية البيولوجية والشخصية الواعية بحث في النظرية الكيميائية للظواهر

**** للمزيد من التفصيل أنظر مقالتنا في مجموعة « عشرون عاماً (نظرية سيبيسكي الجمالية) وكراسنا « القضايا الأساسية في الماركسية ص.ص ٢٥ (٩٣).

الفصل الثاني

« المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة »

الواقع أن تشيرنيشيفسكي فهم فيورباخ بالمعنى المادي فمقالته الفلسفية الشهيرة التي ظهرت في عددي **السوفريمينيك** ٤-٥ لعام ١٨٦٠ لا تدع مجالاً للشك - حول هذه المسألة إنه يشرح معنى عنوان مقالته « **المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة** » على النحو التالي: « يجب أن ينظر إلى الانسان على أنه كائن مفرد ذو طبيعة واحدة فقط، ذلك أن حياة الانسان يجب ألا تقطع إلى نصفين، كل نصف بطبيعة مختلفة، ذلك أن أي مظهر لنشاط الانسان يجب أن ينظر إليه على أنه نشاط عضويته الكاملة، من رأسه حتى أخمص قدميه، أو أنه الوظيفة الخاصة لعضو خاص من العضوية الانسانية التي نحن بصددها، ذلك أن العضوية يجب أن ينظر إليها في علاقتها الطبيعية مع كل العضوية

إن تشيرنيشيفسكي، في شرحه المبدأ الانتروبولوجي بكلمات فيورباخ نفسه تقريباً، يلاحظ أن معظم المفكرين المشتغلين في العلوم الأخلاقية ما يزالون يتابعون العمل حسب الطريقة الخيالية القديمة من التقسيم غير الطبيعي للانسان إلى نصفين، كل نصف ينشأ من طبيعة مختلفة ولكن بما أن معظم العلماء لم يتحققوا بعد من أهمية المبدأ الانتروبولوجي، فان عملهم لا يحظى بأي أهمية جدية. « إن تخليهم عن المبدأ الانتروبولوجي انترع منهم كل مرية. إن الاستثناءات الوحيدة هي مؤلفات قلة قليلة من المفكرين القدامى الذين اتبعوا المبدأ الانتروبولوجي، مع أنهم لم يستخدموا بعد المصطلح لابراز مفاهيمهم عن الانسان من هؤلاء، مثلاً، ارسطو وسبينوزا

إن الذين يمسكون بالنظرة المبتذلة لجوهر المذهب المادي مدفوعون إلى أن يجدوا هذه الملاحظة التي لاحظها مؤلفنا عن أرسطو وسبينوزا، بسبب بعض الأفكار الغريبة.

والذكريات الخاطئة ففي مفهومه الخيالي عن نظامي هذين المبدعين العظيمين حقا في ميدان الفكر الانساني يعتقد أنه، باتباعه المبدأ الانتروبولوجي المشروح أعلاه، وربيهما الذي مسح معطيات جديدة من المعرفة الايجابية (ص ٢٧١)

هذه الملاحظة الوقورة عن المفاهيم الخيالية المزعومة لتشيرنيشيفسكي تشهد فقط على أن السيد فوليسكي لم يفهم شيئاً على الاطلاق من الآراء الفلسفية لتشيرنيسيفسكي

لقد عرفنا أن الأخير تبنى نظرة فيورباخ فكيف يرى فيورباخ سبينوزا بتعاطف كبير، ولكن في « الأسس »، المكتوب في ١٨٤٣ عبر عن الفكرة الصحيحة بأن مذهب سبينوزا في وحدة الوجود ليس أكثر من مادية لاهوتية، أي رفض للاهوت الذي يستمر في تبـني الموقف اللاهوتي هذا الخلط بين المادية واللاهوت هو، في رأي فيورباخ، ما شكل تناقض سبينوزا، الذي لم يمنعه من إثبات « صحة التعبير الفلسفي للاتجاه المادي في العصر الحديث - على الأقل في زمنه ». ولذلك أطلق فيورباخ على سبينوزا اسم موسى الماديين والمفكرين الحديثين الأحرار*

بعد هذا من المفهوم لماذا اعتبر تشيرنيسيفسكي سبينوزا واحداً من المفكرين السابقين القلائل الذين تبنوا المبدأ الانتروبولوجي، مع أنهم لم يستخدموا بعد هذا المصطلح في وصف آرائهم الفلسفية! فبعمله هذا كان يقتدي بمعلمه الذي كان مصيباً في اعتبار سبينوزا موسى المادية الحديثة أما بالنسبة إلى ارسطو فقد كان تشيرنيشيفسكي مخطئاً في اعتبار فلسفته قريبة من تعاليم فيورباخ كان أرسطو أقرب إلى المثاليين منه إلى الماديين، ولكن هنا أيضاً يجب ألا ننسى أن من بين تلاميذ أرسطو من شرح نظامه شرحاً قريباً من المادية** ومن هؤلاء أرسطو كسينوس وديسيرخوس وعلى الأخص ستراتو لقد اعتبر تشيرنيسيفسكي شرحهم لفلسفة أرسطو صحيحاً ولذلك ذهب إلى أن معلمهم يعتنق المبدأ الانتروبولوجي ونكرر إن هذا الرأي لا يمكن اعباره صحيحاً، إلا أنـه لا بـد للمرء من حيارة كل غباء فولنسكي الفلسفي حتى يعتقد أن تشيرنيشيفسكي لا يعرف شيئاً من الفلسفة**

---

* المؤلفات -٢٩١ وللمريد عن هدا انظر القصايا الأساسة في المارمسة ص ص ٩-١٣ (٩٤)

** أنظر في هدا فلسفة اليونان عبر تطورها وأيصا « مدخل إلى تاريخ الفلسفة

*** حقيقة أن سيرنيشيفسكي في ستينات القرن الماضي لم يكن وحده يقلل من أهميه العصر المثالى في

وهكذا، على أساس فلسفة تشيرنيشيفسكي تقوم فكرة وحدة العضوية الإنسانية. لقد كان تشيرنيشيفسكي خصماً لدوداً لكل أنواع الثنائية. فالفلسفة عنده، أي فلسفة فيورباخ التي شرحها ودافع عنها ترى في العضوية الإنسانية ما تراه فيها العلوم الطبيعية. يقول: « تثبت هذه العلوم أنه لا وجود للثنائية في الإنسان، وتضيف الفلسفة أن الإنسان إذا حاز طبيعة أخرى، بالإضافة إلى طبيعته الحقيقية، فإن هذه الطبيعة الأخرى لا بد من أن تفصح عن نفسها بطريقة ما، وطالما أنها لا تفصح عن نفسها، وطالما أن كل شيء يبرز ويظهر في أصول الإنسان ناجم من طبيعته الحقيقية، فإنه لا يمكن أن يملك طبيعة أخرى ولكن وحدة الطبيعة الإنسانية لا تمنع وجود نمطين مختلفين من الظواهر في العضوية الإنسانية: الظواهر التي نسميها النظام المادي، والظواهر التي نسميها النظام الأخلاقي ولقد واجه تشيرنيشيفسكي سؤالاً ما العلاقة التي تربط بين هذين النظامين الواحد بالآخر؟ ألا يوجد تناقض في وحدة الطبيعة الإنسانية؟ يجيب تشيرنيشيفسكي إنه لا يوجد: « فلا أساس لمثل هذه الفرضية، إذ لا يوجد شيء يمتلك صفة واحدة. على العكس، إن كل شيء يظهر فيه ما لا يعد ولا يحصى من الظواهر التي نضعها في أنواع مختلفة، مسمين كل نوع صفة، بحيث أن لكل شيء صفات عديدة لأنواع مختلفة ». هنا أيضاً تطابق تام بين آرائه الفلسفية وآراء فيورباخ فحسب تعاليم الأخير نعرف أن الكائن هو المبتدأ، وأن الفكر صيغة (أي خبر) هذا المبتدأ، ذلك أن الكائن المجرد الذي استخدمه المثاليون ليس ذلك الذي يفكر، بل إنه الكائن الحقيقي، الجسد. ولكن ما العضوية الإنسانية؟ يقول سيرنيسيفسكي: « إنها مجمع كيميائي معقد جداً تتخلله عملية كيميائية معقدة جداً نسميها الحياة بعض أجزاء هذه العملية ما يزال غير معروف. ولكن لا ينتج عن هدا حسب كلمات تشيرنيشيفسكي: « أننا لم نتعلم الكثير عن تلك الأجراء، ولم نستقص ما هو في حالة قصور حالياً إن معرفة بعض مظاهر العملية الحيوية تمكننا من وضع استناجات سلبية فيما يتعلق بتلك المظاهر التي لم تدرس إلا قليلاً هذه الاستنتاجات السلبية ذات أهمية كبرى في العلوم عند تشيرنيشيفسكي، ولكنها هامة خاصة في العلوم

فلسفه أرسطو يبينها كتاب بليز الهام « المادية والروحانية في سلسلة « تصنيف الفلسفة المعاصرة مع مقدمة بقلم لبرى (أنظر ص ص ٤٨-٥٤) وقد نشر هذا الكتاب في ١٨٦٥.

الأخلاقية والميتافيزياء، لأنها تقضي على الكثير من الأخطاء الضارة وحتى نشرح هذه الفكرة الهامة، سوف ندعو تشيرنيشيسكي إلى الكلام: «قيل إن العلوم الطبيعية لم تصل إلى مثل هذه الدرجة من التطور بحيث تقدم شرحاً مقنعاً لكل الظواهر الهامة للطبيعة. وهذا صحيح تماماً، ولكن أعداء الاتجاه العلمي في الفلسفة يستنتجون من تلك الحقيقة استنتاجاً غير منطقي نهائياً عندما يقولون أن الفجوات التي نجدها في التفسير العلمي لظواهر الطبيعة تبرر الاحتفاظ ببقايا معينة من النظرة العالمية الخيالية. والحقيقة أن تلك النتائج التي حققها تحليل الأجراء والظواهر التي فسرها العلم برهان كاف على سمة العناصر والقوى والقوانين التي تعمل في الأجراء والظواهر الأخرى، التي لم تفسر بعد تماماً فإذا كان ثمة شيء في الأجراء والظواهر عير المفسرة تختلف عما وجد في الأجراء المفسرة، فإن الأجراء المفسرة عندئذٍ لن تحمل السمة التي حملتها الآن

هذه المناقشة موجهة مباشرة ضد الثنائية. ولا عبرة لضآلة دراسات ما يسمى الظواهر النفسية، إذ يمكن القول على وجه التأكيد أن المفكرين الذين عروها إلى مادة خاصة كانوا مخطئين. ولا وجود لمثل هذه المادة إن الظواهر النفسية ليست أكثر من نتيجة نشاط العضوية الإنسانية هذه هي الفرضية التي تتخلل كل مقالة تشيرنيشيفسكي

ولا بد، على أي حال، من التحفظ التالي هنا ثمة مقطع في مقالة تشيرنيشيفسكي يمكن أن يقدم - وبالفعل قدم - أسساً لسوء الفهم. والمقطع هو التالي: «إننا نعرف ما التغذية. ومن معرفتنا للتغذية يمكن أن نعرف ما الإحساس: فالتغذية والإحساس مترابطان جداً، حيث أن سمة أحدهما تقرر سمة الآخر يمكن بعد قراءة هذين السطرين أن يعتقد المرء أن تشيرنيشيفسكي يشارك بالرأي هؤلاء الماديين الذاتيين الذين يرعمون أن الفكر، وبالتالي الإحساس أيضاً ليسا أكثر من حركة المادة إلا أنه، مثل فيورباخ، كان أبعد ما يكون عن هذا النوع من المادية. إن نظرته المادية عبر عنها بكلمات فيورباخ إنها بالنسبة إلي روحية محضة وعمل لا مادي ولا حسي هو في حد ذاته عمل مادي وحسي»* وحتى لا يشك القارىء في نيتنا لوصف آراء

* المؤلفات جرء ٢ ص ٣٥٠.

تشيرنيشيفسكي التي لم يبـها، سوف نقتبس الكلمات التالية من تشيرنيشيفسكي نفسه:
« إن الإحساس بطبيعته يفترض مسبقاً بالضرورة وجود عنصرين من التفكير، يغرق كل منها في الآخر أولاً هناك الموضوع الخارجي الذي يخلق الإحساس ثانياً الكائن الواعي للإحساس » فلننظر بعناية في هذه الكلمات إن الكائن الواعي لهذا الإحساس هو الكائن المادي، هو عضوية تمارس الفعل والموضوع الخارجي على ذاتها هذا الفعل يتألف من هذا الجزء أو ذاك من العضوية أو كائن آخر يقوم بالحركة. هذه الحركة لأجزاء معينة من العضوية تبعث إحساساً، ولكنها غير متوحدة مع الإحساس: إن **المظهر الموضوعي** فقط للظاهرة التي من **المظهر الذاتي أي الكائن الذي ظهرت منه هذه الحركة**، هو الذي يبدو إحساساً عند تشيرنيشيفسكي، كما عند فيورباخ يتداخل هذان المظهران للظاهرة، الذاتي والموضوعي تداخلاً شديداً، ولكنهما لا يندمجان الواحد في الآخر على العكس إن تشيرنيشيفسكي سوف يعترض مثل فيورباخ على هذا التوحيد، لأنه يرى فيه تكراراً لا واعياً لإحدى الأخطاء الأساسية المحاولة الفاشلة لحل التناقض بين الذاتي والموضوعي بحذف أحد العنصرين*

فيما بعد سوف نرى أن خصوم تشيرنيشيفسكي الذين هاجموه لمقالته « المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة فشلوا في فهم رأيه في العلاقة بين الذاتي والموضوعي ولكن علينا أن نلاحظ أن تشيرنيشيفسكي لا يثبت رفض سمة الوضعيين، ليختبر مسألة العلاقة المتبادلة بين المادة والروح وهكذا يرفض، مثلاً، تسمية ميل « كممثل للفلسفة الحديثة لأن ميل لم يدرس هذه المسألة لقد أحجم عامداً عن أن يدلي بأي رأي في هذه الموضوعات كما لو أنه اعتبرها خلف حدود البحث الدقيق » إن الكلمات الأخيرة تبين، في رأي تشيرنيشيفسكي، أن موضوعات من هذا النوع تدخل ضمن نطاق البحث.

ولكن لنسر أبعد. إننا نعرف أن تشيرنيسيفسكي اعتبر العضوية الإنسانية « مجمعاً كيميائياً معقداً جداً تتخلله عملية كيميائية معقدة جداً نسميها الحياة إن تعقيد هذه العملية من الشدة بحيث أن فرع الكيمياء الذي يدرسها تفرد بعلم خاص سمي

---

* المرجع السابق القضايا الأساسية في الماركسة[٩٥]

الفيزيولوجيا ولكن هذه الحقيقة لا تضعف أبداً فكرة أن الإنسان ليس سوى جرء من الطبيعة فقط يقول سيرنيسيفسكي « إن علاقة الفيزيولوجيا بالكيمياء يمكن أن تقارن بعلاقة التاريخ الروسي بالتاريخ العالمي بالطبع التاريخ الروسي جرء من التاريخ العالمي، ولكن موضوع هذا الجرء يهمنا بشكل خاص، ولذلك عومل كأنه علم خاص في المؤسسات الثقافية عولج تاريخ روسيا كموضوع خاص بعيد عن التاريخ العالمي وفي الامتحانات ينال الطلاب درجات عنها، ولكن يجب ألا ننسى أن هذا التقسيم السطحي وضع فقط من أجل القناعة العملية لا على أساس أي فرق نظري بين سمة هذا الفرع من العلوم والأجراء الأخرى من العلوم إن تاريخ روسيا يتضح فقط في علاقته مع لتاريخ العالمي، إنه يتفسر به، ويمثل نوعاً من القوى والظواهر ذاتها كما في التاريخ العالمي وبالطريقة ذاتها ليست الفيزيولوجيا سوى نوع من الكيمياء وليس موضوعها سوى نوع من الموضوعات التي تعالجها الكيمياء ولا بد أن نضيف إلى هذا أن الفيزيولوجيا لا تحصر نفسها بدراسة العملية الحيوية التي تظهر في العضوية الإنسانية إن فيزيولوجيا العضوية الإنسانية ليست سوى قسم من أحد أقسام فيزيولوجيا الحيوان ليس ثمة فرق أساسي بين الإنسان والحيوان من حيث العمليات المادية للعضوية، أو حتى من حيث ما يسمى العمليات الروحية. « إن التحليل العلمي الفعلي يكشف عن الاعتقاد الخاطىء للتصريحات العارية لاستنتاج أن الحيوانات عامة تنقصها الصفات الرفيعة المختلفة مثل بعض القدرة على التقدم وغالباً ما يقال: إن الحيوان يبقى طوال حياته كما ولد إنه لا يتعلم شيئاً ولا يحقق أي تقدم في التطور العقلي. إن هذا الرأي تدحضه الحقائق التي يعرفها الجميع فالدببة تتعلم الرقص وتنفذ كل أنواع الحيل، والكلاب تتعلم الإمساك والنقل والرقص، والفيلة تتعلم حتى السير على الحبل، وحتى الأسماك تتعلم التجمع على صوت الجرس - كل هذا يتم بتدريب الحيوانات، التي لن تكون قادرة على هذا لولا التمرين، فالتمرين يمنحها صفات لا تتحقق من دونه. إن الحيوانات لا يعلمها الإنسان فقط بل تتعلم من بعضها فالمعروف أن الطيور الكواسر تعلم صغارها الطيران ولا نرى من الضروري توسيع هذه النقطة كثيراً هنا، إلا أننا نضيف هنا فقط أن تشيريسيفسكي في هذه المقالة عبر عن عدة أفكار في هذا الصدد، يمكن أن نجدها في كتاب سيظهر فيما بعد هو كتاب داروين **سلالة الإنسان**.

إذا كانت عضوية الإنسان لا تختلف جوهرياً عن عضوية الحيوان، فإن الأخيرة

بدورها لا تختلف عن عضوية النبات يقول تشيرنيشيفسكي: « إن عضوية الحيوان في أرقى أشكالها تتطور تطوراً تختلف كثيراً عن النبات، إلا أن القارىء يعرف أن الحيوانات والطيور مرتبطة بمملكة الخضار بالعديد من الأشكال الانتقالية، فمن الممكن أن تتقصى كل مراحل الحياة الحيوانية من الحياة النباتية. هناك نباتات وحيوانات قلما يختلف الواحد عن الآخر، بحيث من العسير أن تقول في أي مملكة يصف: الحيوانية أم النباتية كل الحيوانات في المرحلة الأولى من وجودها تشبه النباتات في مرحلتها الأولى من النمو ويلاحظ تشيرنيشيفسكي أن كلاً من الحيوانات والنباتات تكون « الخلية جنينا، وبعد أن ينشأ من الصعب تمييز الجنين الحيواني من الجنين النباتي. ويتابع « وهكذا نرى أن جميع العضويات الحيوانية تبدأ من الشيء ذاته الذي تبدأ منه النباتات، وفيما بعد فقط تكتسب العضويات الحيوانية أشكالاً مختلفة عن الأشكال النباتية كل الاختلاف، وتظهر فيها صفات من الدرجة العالية تكون ضعيفة جداً في النباتات بحيث لا يمكن كشفها إلا باستخدام الأدوات العلمية فمثلاً شجرة فيها جنين القدرة على التحرك، يتحرك نسغها داخلها كما في الحيوانات، وتمتد جذورها وأطرافها في كل اتجاه هذه القدرة على التحرك تؤثر فقط في أجرائها، فالعضوية النباتية ككل لا تغير حركتها، ولكن البوليب لا يفعل ذلك، فقدرته على التحرك لا تزيد عن قدرة الأشجار إلا أن هناك نباتات لا تغير حركتها: من بينها أنواع مختلفة من فصيلة الميموزا (الست المستحية)

لن نقول إن الأفكار التي عبر عنها تشيرنيشيفسكي هنا كلها جديدة في وقتها فيمكن العثور عليها عند هيغل، وعلى الأخص بعض الفلاسفة الطبيعيين من مدرسة شلنج إن تشيرنيشيفسكي اطلع على الفلسفة الألمانية المثالية، فلا عجب إذا عرف هذه الأفكار إلا أنها تحت قلمه باتت متحررة من كل الأخلاط الميتافيزيائية، بحيث شابها اللون المادي للعلوم الطبيعية، ذلك أن المسألة تطرح فيما إذا كان تشيرنيشيفسكي كان قد اطلع في ذلك الوقت على النظريات الحيوانية للامارك وجيوفري سان هيلير إننا لا نجد مؤشراً مباشراً لهذا في مؤلفاته، ولكن ليس من المصادفة أنه، في تحدي « نظرية الطبيعة النفعية للصراع من أجل الحياة » بعد عودته من سيبريا، وقع « تحولي قديم »، وليس من المصادفة أنه رجع إلى لامارك باعتباره بيولوجياً لامعاً والأغلب أنه في

الستينات كان مطلعاً بسكل جيد على النظرية البيولوجية للتحولية في مؤلفات بعض اللاحقين لدارون.

سوف نختم عرضنا لآراء تشيرنيشيفسكي في المسألة بالتذكير أن الحياة العضوية لفكره عامة لم تكن سوى عملية كيميائية معقدة جداً وهذا ما يحدد موقفه من النزعة الحيوية لا وجود لقوة حياة خاصة العمليات الكيميائية التي تعمل في العضوية تختلف فقط في تعقيدها عن العمليات الكيميائية التي تعمل فيما يسمى بالطبيعة العضوية يلاحظ تشيرنيشيفسكي «ليس منذ زمن بعيد ظهر أن ما يسمى المواد العضوية (مثلاً حمض الأسيك) ظهرت فقط في الأجسام العضوية والمعروف الآن انه في ظروف معينة تظهر أيضاً خارج الأجسام العضوية، بحيث أن الفرق بين مجمع العناصر العضوي والمجمع غير العضوي لا أهمية له. إن ما يسمى المركبات العضوية تظهر وتوجد بالتطابق مع القوانين ذاتها، وكلها سبثق من المواد اللاعضوية فالخشب، مثلاً، يختلف عن الحمض غير العضوي من حيث أن هذا الحمض ليس مركباً معقداً، بينما الحسب مجموعة من عدة مركبات معقدة إنه الفرق بين ٢ و ٢٠٠ - فرق كمي لا أكثر

كتب تشيرنيسيفسكي قليلاً عن القضايا الفلسفية مع أنه يعرف الفلسفة أفضل بكثير من الأغلبية العظمى لكتابنا الرواد في أواخر السيتات والسبعينات والثمانينات كميخائليوفسكي، على سبيل المثال لقد اهتم بالفلسفة بصورة رئيسية لأنها القاعدة النظرية لبعض المتطلبات العملية وهذا هو السبب في أنه حتى في مقالته «المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة لم يغض الطرف عن هذه المتطلبات، فتحدث عنها المرة بعد الأخرى وهذا أيضاً هو السبب في أنه يكرس أكبر اهتمامه لمسائل النظرية الفلسفية التي لها مساس مباشر بمهات الحياة العملية وهذه هي المسألة، مثلاً، في الأساس الفلسفي للأخلاق، وفوق ذلك، للارادة

يجادل سيرنيسيفسكي أن النتيجة الأولى لادخال «علم الأخلاق في مجال العلوم المنضبطة كانت تنحية بعض الآراء القديمة في الأفعال البشرية يقول: «من المعروف، مثلاً، أن كل ظواهر العالم الأخلاقي تنجم الواحدة من الأخرى، ومن الظروف الخارجية انسجاماً مع قانون السببيه، وعلى هذا الأساس فان كل الافتراضات أن من الممكن أن تكون ثمة ظواهر لا تنشأ من الظواهر السابقة ومن الظروف الخارجية، يعتبر خاطئة، ولهذا فان علم النفس المعاصر لا يوافق، مثلاً، على الافتراضات التالية:

« إن المرء يقترف عملاً سيئاً لأنه يريد أن يقترف عملاً سيئاً ، في حالة ، وفي حالة أخرى يقوم بعمل خير لأنه يريد أن يقوم بعمل خير يقال إن الفعل السيء أو الفعل الخير ، تكمن وراءه واقعة مادية أو أخلاقية أو مجموعة من الوقائع وان « الارادة » ليست سوى انطباع ذاتي يصاحبه في أذهاننا ظهور الأفكار أو الأفعال من الأفكار أو الأعمال السابقة ، أو الوقائع الخارجية وباختصار إن تشيرنيشيفسكي باعتباره الانسان نتاجاً غير طوعي لبيئته ، تبنى موقفاً أكثر انسانية حتى من المظاهر السيئة للشخصية الانسانية التي يرى فيها المثاليون مجرد شر يسوجب العقاب القاسي إن كل شيء في رأي تشيرنيسيفسكي يعتمد على العادات والظروف الاجتماعية ، ولكن بما أن العادات الاجتماعية تشكلت تحت الظروف ، فان هذه الأخيرة هي التي تقرر الأفعال الانسانية ، في التحليل الأخير كتب « إذا لمت شخصاً فحاول أولاً أن ترى فيما إذا كان هو المذنب فيما تتهمه ، أم ظروف وعادات المجتمع فتمعن جيداً فربما كان ما يكمن هنا ليس ذنبه أبداً ، ولكن سوء طالعه إن « الحماة اعبروا مىل هذه التصريحات دفاعاً عن التحلل الأخلاقي وبالطبع إنهم بعملهم هذا يكشفون فقط عن عدم فهمهم للقضية في الحقيقة كان تشيرنيسيفسكي هنا مجرد عارض ومطور لآراء معلمه فيورباخ ، التي لا تفعل شيئاً مع الفجور إن حكم هذا الأخير من النمط التالي معروفة جيداً إن الذي يفكر في قصر يختلف عمن يفكر في كوخ ، والسقف المنخفض يبدو أنه يضغط على الدماغ إننا قوم مختلفون في الخارج عما نحن في غرفة ، فالأماكن الضيقة تقلص القلب والرأس ، بينما الأماكن المفتوحة تشرح القلب والرأس حيث لا مجال لاظهار الموهبة لا توجد موهبة ، وحيث لا مجال لنشاط لا يظهر نشاط ، أو على الأقل نشاط حقيقي « أو إذا أردت أن تحسن حالة الناس ، فاجعلهم سعداء ولكن ليس كل واحد يعرف أن هذه الأقوال السائرة ، أن نظرية من هذا النوع في القرن التاسع عشر هي نوع من التكرار ، وتطبيق قسم منها لتغيير ظروف مبادىء ماديي القرن الثامن عشر وقد أشار ماركس منذ أوائل الاربعينات إلى الصلة الوثقى بين المذاهب المادية من جهة ، والمذاهب الاشتراكية من جهة أخرى كتب « إذا كان الانسان غير حر بالمعنى المادي ، أي أنه حر ليس من خلال القدرة السلبية لتجنب هذا أو ذاك ، بل من خلال القدر الايجابية على توكيد فرديته الحقيقية ، فيجب ألا يكون العقاب على الجريمة واقعاً على الفرد ، بل يجب تحطيم المصادر الاجتماعية المعادية ، وكل

انسان يجب أن يمنح مجالاً اجتماعياً لاظهار كيانه بسكل حي فإذا كانت البيئة تصنع الانسان، فلا بد من جعل بيئته انسانية

إن رأي تشيرنيشيفسكي في الشخصية الانسانية على أنها نتاج الظروف تطور ليس تحت تأثير فيورباخ وحده، بل أيضاً تحت تأثير الاشتراكيين الاوروبيين الغربيين المعاصرين، وخاصة روبرت أوين، الذي، كما نعرف، كتب دراسة كاملة عن تكوين الشخصية الانسانية (**نظرة جديدة في المجتمع، أو مقالات حول مبدأ تكوين الشخصية الإنسانية**) والذي في كل نشاطه العملي انطلق من الإعتقاد القائل « إن الأعمال السيئة ليست خطأ الناس، بل سوء طالعهم

ولكن إذا كانت الشخصية الانسانية نتاج الظروف، فمن السهل أن نرى كيف أن المرء يجيب عما إذا كان الانسان خيراً أم شريراً بالطبيعة إنه ليس خيراً ولا شريراً في ذاته، بل يصبح خيراً أو شريراً بالنظر إلى الظروف. يقول تشيرنيشيفسكي «لذلك يمكن أن نعتقد أن ايفان طيب، بينما بيوتر شرير، ولكن تلك الأفكار تطبق على الناس الأفراد فقط، وليس على الانسان بسكل عام، بالطريقة نفسها التي نطبق فيها على الأفراد وليس على الانسان بسكل عام مفهوم عادة نشر الخشب أو صهر الحديد الخ ايفان نجار ولكن لا نستطيع أن نقول إن الانسان عامة نجار أو غير نجار وبيوتر قادر على صهر الحديد، ولكننا لا نستطيع القول إن الانسان بشكل عام حداد أو غير حداد حقيقة أن ايفان أصبح نجاراً وأصبح بيوتر حداداً تبين فقط أنه تحت ظروف معينة، كما في حياة ايفان، يصبح الانسان نجاراً وتحت ظروف أخرى، كما في حياة بيوتر يصبح الانسان حداداً وبالطريقة نفسها، وتحت ظروف معينة يصبح الانسان خيراً أو شريراً

ومن هنا طبعاً لا يبقى سوى طريق قصير يؤدي إلى النتائج العملية في الاتجاه الذي أشار إليه ماركس. وكمثال على ذلك يأخذ تشيرنيشيفسكي سؤالاً هو كيف يمكن أن يصبح الناس أخياراً بحيث يصبح الأشرار نادرين جداً في العالم، ويجيب على النحو التالي «يخبرنا علم النفس أن أعظم مصدر من الوفرة لابراز الصفات الشريرة أعجز من أن يلبي المتطلبات، ذلك أن الانسان يقترف عمل الشر، أي يؤذي الآخرين، عندما يكون مضطراً لأن ينترع منهم شيئاً حتى لا يبقى محروماً مما يحتاج فإذا نظم المجتمع بحيث أن متطلبات الطعام مؤمنة، فسوف تزول على الأقل تسعة

أعشار الشر في المجتمع الحالي وقد علمنا أن هذا مستحيل بسبب نقص الفنون التكنيكية، ولكن حتى لو كانت هذه الحجة حقيقية في يوم ما، فانها فقدت كل أهميتها في الحالة الراهنة للكيمياء والميكانيك «إن الأرض في كل قطر من المنطقة المعتدلة تقدم من الغذاء أكثر من الحاجة إلى المدد الوفير من الغذاء لسكان يربون عشر مرات أو عشرين مرة عن السكان الحاليين لتلك الأقطار وتشيرنيشيفسكي لا يرى من الممكن تحليل لماذا المجتمع الانساني حتى الآن لم يهتم بتلبية مثل هذا المطلب الضروري، مطلب الغذاء، ولكن يعتقد أن ملاحظاته كافية لشرح «الوضع الحالي لعلم الأخلاق وهي كافية فعلاً لأن تقدم للقارىء فكرة عن موقف مؤلفنا*

وإذ كتبت مقالة «المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة» بفضل الاطلاع على الكتاب الروس بلغة ايروبية، إلا أنها جريئة وحيوية في مضمونها، فقد تركت انطباعاً قوياً جداً على كل من تعاطف مع اتجاه تشيربيشيفسكي، وربما تركت انطباعاً أقوى على أولئك الذين عارضوه. فلا عجب إذا أثارت جدلاً حامياً

---

* هنا، كما في كل مكان، يرى تشيرنيشيفسكي مخلصاً لفيورباخ بالنسبة للقراء الذين لم يطلعوا على المفكر الألماني، سيكون من المفيد اقتباس المقطع التالي من المقدمة التي كتبها فيورباخ لطبعة من طبعات مؤلفاته، المجلد الأول الذي ظهر في ١٨٤٦

«إن الشر لا مكان له في القلب أو الرأس، إن مكانه في معدة البشرية إني أشعر أن الأفكار الآثمة تندلق من معدتي هذا ما قالته امرأة مجرمة وهذه المجرمة هي رمز للمجتمع الإنساني بعضهم يوفر لهم كل ما تشتهيه شراهتهم وآخرون لا يملكون ما يوفرون أبسط الضرورات لمعدهم من هنا تدفقت كل الشرور والآلام، حتى أمراض رأس البشرية وقلبها .

الفصل الثالث

الجدال مع يوركيفتش وآخرين

من بين أبرز المعادين لآراء تشيرنيشيفسكي لا بد أن نشير إلى يوركيفتش، الأستاذ في أكاديمية كييف اللاهوتية، الذي هاجمه في مقالة طويلة «من العلم إلى الروح الانسانية نشرت في العدد الرابع من **محاضر أكاديمية كييف اللاهوتية** عام ١٨٦٠ وقد أثارت هذه المقالة في حينها حماسة كاتكوف في **روسكي فستنيك**، وحتى لافروف، الذي بدلاً من طريقة تفكير تشيرنيشيفسكي المتماسكة، وجد في حجج يوركيفيتش ما يقنعه هذه الحملة الفلسفية لاستاذ الاكاديمية اللاهوتية المبجل أطراها فولسكي في كتابه الذي أشرنا إليه من قبل **النقاد الروس**. لقد اقتنع السيد فولنسكي أن تشيرنيشيفسكي قد تحطم تماماً على يد يوركيفيتش وبما أن فولنسكي بشير كل المتحذلقين الفلسفيين، الذين كثروا الآن في أدبنا كل الستروفيين والتروبتسيكيين والايفانوفيين واللونشارسكيين والبازاروفيين واليوشكيفتشيين والبرمانيين والفالنتوفيين والفيلوزوفوفيين وهلمجرا - قاد هجوماً على المادية تحت شعارات مثالية مبرقشة فسوف ندرس بالتفصيل ما بدا مقنعاً للسد فولنسكي في مجادلات لاهوتي كييف

أولاً ابتهج السيد فولنسكي لفكرة يوركيفيتش بأن هناك صدعاً بين وقائع التجربة الداخلية والتجربة الخارجية، وأن أي محاولة للحكم على موضوع من وجهة نظر أخرى سوف يبنذها العلم. وقد تجاوز تشيريشيفسكي هذا، لذلك اقترف سلسلة كبيرة من الأخطاء فعنده أن الفلسفة ترى في العضوية الانسانية ما تراه العلوم الطبيعية فيها وسأل يوركيفيش بهذا الصدد ما الحاجة عندئذٍ للفلسفة «التي ترى ما رأته العلوم الأخرى من قبل؟ ويضيف فولنسكيُ من جانبه بكل ارتياح «هذه

أول غلطة يرتكبها مؤلف « المبدأ الانتروبولوجي في عرف التفسير الجلي والبسيط ليوركيفيتش »

أما أن تفسير يوركيفيتش كان بسيطاً فلا شك في ذلك ولكنه يبدو اليوم جلياً فقط بالنسبة لمن لم يطلع على المسألة

لقد تبنى تشيرنيشيفسكي نظرة فيورباخ ومسألة علاقة الفلسفة بالعلوم الطبيعية اعتبرها فيورباخ كالتالي لقد رأى أن على الفلسفة أن تفسح الطريق أمام العلوم الطبيعية، من الضروري للعلماء الطبيعيين أنفسهم أن يتقنوا استنتاجات الفلسفة التي تؤدي إلى نفيها. وبكلمة أخرى، من الضروري أن يكف العلماء الطبيعيون عن أن يكونوا اختصاصيين ضيقّين. ولكن ما يزال الطريق طويلاً للوصول إلى هذا إن الأغلبية العظمى للعلماء الطبيعيين لا تتخطى في تفكيرها حدود علمها الخاصة وتتبنى أفكاراً اجتماعية وفلسفيته عتيقة. ولعلاج هذا التقصير لا بد من أن تندمج الفلسفة بالعلوم الطبيعية وبهذا المعنى قال فيورباخ إنه يسير مع العلماء الطبيعيين إلى نقطة محددة فقط وقد عبر عن هذا الرأي بدقة بقوله إن العلماء الطبيعيين في أيامه كانوا أعجز من أن يتخطوا نقطة محددة. ولكن مهما يكن من أمر فقد تبنى هذا الرأي ويتضمن الرد على سؤال يوركيفيتش. بالطبع كان تشيرنيشيفسكي مطلعاً تماماً على هذا الرأي ولإثبات ذلك سوف اقتبس المقطع التالي بقلمه: « هؤلاء الطبيعيون الذين يتخيلون أنهم بناة نظريات شاملة ظلوا حقاً تلامذة، وتلامذة أغبياء في الأغلب، للمفكرين القدامى الذين أبدعوا الأنظمة الميتافيزيائية، والأغلب أنهم تلامذة لأولئك المفكرين الذين تبعثرت مذاهبهم، جزئياً على يد شلنج وعامة على يد هيغل. وعندما يكف الطبيعيون عن التحدث عن مثل هذا وعن الهراء الميتافيزيكي فسوف يصبحون قادرين على العمل، وسوف يعملون، على أساس العلوم الطبيعية، في اقامة نظام من المفاهيم يكون أكثر دقة وكمالاً من تلك التي عرضها فيورباخ ولكن العرض الذي قدمه فيورباخ للمفاهيم العلمية للقضايا الأساسية في دراسة الانسان يظل العرض الأعظم ».
أخذنا هذا المقطع من مقدمة الطبعة الثالثة لـ « العلاقة الجمالية بين الفن والواقع الذي كتب ولم يشر وقد كتبت المقدمة في ١٨٨٨ إلا أن المقطع الذي اقتبسناه يرتبط بالنظرة التي عبر عنها فيورباخ في ١٨٤٥ والتي عرفها تشيرنيشينسكي بالطبع

عندما كتب مقالة « المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة ونكرر إن هذه النظرة تتضمن رداً على السؤال من حيث ضرورة الفلسفة التي ترى ما رأته العلوم الطبيعية ربما كان هذا الرد غير معروف من قبل يوركيفيتش، الذي كان شخصاً متخلفاً، بلا معرفة عامة، إن صح التعبير ولكن كيف يمكن ألا يكون معروفاً للسيد فولنسكي الذي يطمح لدور مفكر من آخر طراز؟ المشكلة هي أن مفكرينا من آخر طراز لا معرفة لديهم اطلاقاً بالمفكرين المتقدمين فعلاً، الذين « يتقدونهم إنهم يرشدون القارىء، إلا أنهم يسيرون خلفه، مسخين الأطباق الفلسفية القديمة. وهناك الكثير من أمثال هؤلاء الناس أيام فيورباخ في ألمانيا إن فيورباخ يسميهم المجترين ولسوء الحظ أن لدينا الكثير من « المجترين هذه الأيام، فأدبنا يكتظ بهم. وهذا يسر بشيرهم السيد فولنسكي: إلا أن هؤلاء الذين لا ينخرطون في اجترار الطعام الفلسفي يثيرون التقزز

ثانياً: إن السيد فولنسكي يتبع يوركيفيتش في الكشف أن « تشيرنيشيفسكي لخص مسألة وحدة الطبيعة البشرية تلخيصاً سيئاً والنقطة هنا هي كالتالي: يوركيفيتش يعرو لتشيرنيشيفسكي فكرة عدم وجود فرق بين جميع الظواهر المادية والنفسية، ويبحث كيف أن الأحاسيس تنشأ من حركة العصب هذا هو الهراء القديم الذي يقـذف على الماديين، والذي ينتج منه أن الناس الذين يريدون « انتقاد الماديين لا يعرفون حتى ألفباء المادية. إن تشيرنيشيفسكي لم يقل في أي مكان من مقالته أنه لا فرق أبداً بين ما يسمى الظواهر المادية من جهة، والظواهر النفسية من جهة ثانية. على العكس إنه يقبل نوعياً وجود هذا الفرق، إلا أنه يعتقد أنه لا مبرر لأن نعرو الظواهر الماديـة إلى العامل غير المادي بشكل خاص. لقد سبق واطلعنا على ملاحظته عن النتيجة بأن هناك الكثير من الصفات المختلفة في كل شيء وسوف تناقش الآن ذلك بمزيد من التفصيل. يقول تشيرنيشيفسكي: « نقول عن شجرة تنمو وتحترق، إنها ذات صفتين: قوة النمو وعنصر الاشتعال. ما وجه الشبه بين هاتين الصفتين؟ انهما مختلفتـان كل الاختلاف، وليس ثمة مفهوم يمكن أن تنضوي تحته هاتان الصفتان، ما عدا المفهوم العام – الصفة؛ وليس ثمة مفهوم يمكن أن تنضوي تحته إحدى سلسلتي الظواهر المتطابقـة مع الصفتين، ما عدا مفهوم – الظاهرة أو ان الجليد، مثلاً، قاس

ومتلألىء، فما الشيء المشترك بين القساوة والتلألؤ؟ إن المسافة المنطقية من إحدى الصفتين إلى الأخرى شاسعة لا تقاس، أو الأفضل أن نقول إنه لا توجد مسافة منطقية بينهما، لا قصيرة ولا طويلة، إذ ليس ثمة علاقة منطقية بينهما ومن هنا نرى أن تجميع الصفات المتغايرة تماماً في شيء واحد هو القانون العام للأشياء والشيء نفسه مع الصفة التي سميناها القدرة على الاحساس والتفكير إن مسافتها من الصفات المادية للعضوية الحية شاسعة لا تقاس ولكن هذا لا يمنع من كونها صفة للعضوية ذاتها وتملك، في الوقت ذاته، التمدد والقدرة على الحركة. إن هؤلاء الذين يعتقدون أنه طالما أن الاحساس والتفكير لا يشبهان الحركة والامتداد أبداً فانهما يعزوان إلى مادة أخرى (الروح) مختلفة عن تلك (المادة) التي يعرى إليها الامتداد والحركة، يقترفون خطيئة مميتة ضد المنطق. تلك هي فكرة تشيرنيشيفسكي، وإذا كان لدى السيد فولنسكي « الصفة الضرورية للفهم، فسوف يرى للتو كم هي متهافتة ومحزنة حجة يوركيفيتش، القوة المزعومة التي تشوه عن عمد أو عن غير عمد آراء المعتنق الروسي للمبدأ الانتروبولوجي ولكن حقيقة القضية أن السيد فولنسكي لا يمتلك « الصفات » الضرورية لفهم تشيرنيشيفسكي، تماماً مثل محبي الحكمة « الجترين » في أيامنا، الذين يتميزون بالسذاجة، ولكنهم اقتنعوا تماماً أن الآراء الفلسفية لتشيرنيشيفسكي قد أصبحت منذ زمن طويلة « قديمة » فلم يمتلكوها ولن يمتلكوها

حتى بريستلي لاحظ في **بحوثه** أن الفكرة القائلة إن اهترازات الدماغ متوحدة مع الإدراك سوف تلحق الأذى بالمذهب المادي « من السهل أن نشكل فكرة عن وجود اهترازات بدون أي إدراكات تصاحبها ولكن من المفترض أن الدماغ، إلى جانب **قوته الاهتزازية**، يضيف إليها **قوة إدراكية أو شعورية** من النمط ذاته، ولا وجود لسبب في أننا نعرف لماذا يمكن لهذه القوة ألا تنقل إليه »* هذا الموقف هو بالضبط ما يتبناه الماديون البارزون في العصر الحديث، بمن فيهم طبعاً فيورباخ وتشيرنيشيفسكي: إن خصوم المادية - المثاليين المتماسكين أو المتناقضين، الواعين أو غير الواعين مضطرون في نقدهم لهذا المذهب، أن يقنعونا قبل كل شيء أنهم يعرفون عنه أكثر مما يعرف بريستلي، وأن يبينوا لنا الأسس التي تمنعهم من الإقرار، مع

---

* **بحوث** تتعلق بالمادة والروح بقلم جوزيف بريسلي المجلد الأول، الطبعة الثانية، ص ١٢١.

بريستلي، ان الدماغ، إلى جانب اتصافه بالقدرة على الاهتزاز، يمكن أيضاً أن يكون قادراً على الإدراك لا شك أنهم يملكون هذه الأسس. إلا أن هذه الأسس ترقى إلى حدّ التحيز الروحي بأن المادة ميتة في ذاتها ما لم تحيها الروح، وليست فقط عاجرة عن الإدراك، بل عاجرة حتى عن الحركة. الرجوع إلى هذه الأسس، في النقاش مع الماديين، يعني تسليماً واضحاً بالمبدأ، أي النقاش من الفرضية نفسها التي يجب إثباتها إن خصوم المادية أنفسهم يشعرون بهذا، على نحو غامض. ولذلك فهم حريصون تماماً على ألا يظهروا الأسس التي تعوقهم عن الإقرار بالقدرة على الإدراك كصفة من صفات المادة، ويفضلون رفض ما لم يقله أي مادي، على الأقل في العصر الحديث، أي أن الإدراك هو كالحركة تماماً* إننا ندع ذلك للقارىء حتى يحكم على هذا النوع من النقد، النقد الذي انتشر كثيراً في بلادنا، أكثر من أي مكان آخر، وهو أكثر الآن منه من قبل.

وهكذا فإن تشيرنيشيفسكي لم يوحد الإدراك والحركة، بل يعتبر قدرة المادة على الادراك هي ذاتها قدرتها على الحركة. تنشأ المسألة الآن من: ما طبيعة الظروف التي تصبح تحتها المادة، التي تملك القدرة على الإدراك **مدركة حقاً** يجيب تشيرنيشيفسكي أن تلك الشروط لم تدرس إلا قليلاً حتى الآن، ولكن يمكن أن نعزو إليها الآن طبيعة مادية بصورة مؤكدة تماماً إن القدرة على الإدراك تتجلى في العضويات فقط، وقد عرفنا من قبل، في رأي تشيرنيشيفسكي، أن حياة العضوية هي أولاً عملية كيميائية معينة. وهذا، في رأيه، يفسر حقيقة أن العضوية تظهر هذه القدرة التي لا نجدها في المادة غير العضوية.

هذه مسألة على غاية من الأهمية، وتدعو القارىء أن يوليها كامل اهتمامه. يكتب تشيرنيشيفسكي: .خلال العملية الكيميائية تكشف الأجسام عن صفات لم تكن ظاهرة عندما كانت في حالة مركب غير متحرك. فمثلاً الخشب في حد ذاته لا يحترق، والفتيل والصوان أيضاً لا يحترقان بحد ذاتها فإذا حميت ذرة من الفولاذ حتى الإحمرار، عن طريق الاحتكاك بالصوان النازل على الفتيل، فإن الحرارة ترتفع في

---

* انىا نسلم أن من بين الماديين القدامى - ديمقريطس وابيقور مثلاً - من كان بحاجة إلى وضوح في هذه النقطة، مع أن هذا أبعد من أن يبرهن عليه: لا بد من أن نتذكر أن آراء هؤلاء المفكرين لم تنبعث بكليتها.

جزء من الفتيل، وتخلق الظروف الضرورية لبدء العملية التي تسمى الاشتعال في هذه الذرة من الفتيل. إن هذه الأخيرة التي وقعت تحت عملية كيميائية، سوف تبدأ تحترق، ولم تكن كذلك خلال العملية الكيميائية. فإذا لامسناها مع الخشب أثناء هذه العملية، فسوف يندفع الأخير إلى عملية الاشتعال وأثناء هذه العملية سوف يشتعل الخشب أيضاً، فيشع ضوءاً ويكشف عن صفات أخرى لم تظهر من قبل أن تبدأ العملية. خذ مثلاً عملية التخمر المادة في وعاء التخمير، والخميرة في الكأس ضع الخميرة في الوعاء، وسوف تحدث عملية كيميائية تسمى التخمر، حيث تشرئب فقاعات المادة ورغوتها تجيش في وعاء التخمير».

حجج تشيرنيشيفسكي هذه هي من الماديين الفرنسيين والإنكليز في القرن الثامن عشر، الذين افترضوا أن القدرة على الإدراك والتفكير هي نتيجة حالة معينة للجسم العضوي* ولكن هذا الرأي عند تشيرنيشيفسكي لا ينطوي على أي استثناء إن تشيرنيشيفسكي يفهم تماماً أنه لا فرق كبير بين «عملية كيميائية من جهة، و«حالة المركب العاجز عن الحركة» من جهة أخرى. ونظراً لأهمية هذا الموضوع البالغة، نجد أنفسنا مضطرين ثانية إلى أن نقتبس مقطعاً طويلاً من مقالة «المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة».

يوافق تشيرنيشيفسكي: «أن من المعقول أننا عندما نتكلم عن الفرق في حالة جسم أثناء عملية كيميائية وحالته عندما لا يكون في تلك العملية، لا نقصد إلا التمييز النوعي بين المجرى القوي السريع للعملية ومجراها الضعيف البطيء ويمكن القول إن كل جسم يخضع باستمرار لعملية كيميائية. إن جذع الخشب حتى إن لم يوضع في النار أو يحترق في فرن، بل يستلقي بهدوء، وهو لا يخضع ظاهرياً للتغيرات في جدار البيت، سوف يصل في زمن ما إلى النهاية نفسها التي يؤدي إليها الاحتراق: سوف يصاب بالتلف تدريجياً، ولا شيء سوف يبقى منه، سوى الرماد (غبار الخشب التالف الذي لا يبقى منه شيء سوى ذرات الرماد الصغيرة). ولكن إذا تمت هذه العملية - مثلاً في

---

* مثلا اقترب هولباخ من هذه الفكرة، وقد عبر عنها بريستلي، يقول الأخير «فكرتي الآن هي أن الشعور والفكر ليسا بالضرورة نتيجة عضوية الدماغ، عندما تمنح للنظام قوى الحياة فقط. فقرة ١٣ من البحوث: «حول العلاقة بين الاحساس والعضوية»

حالة تلف جذع الخشب في جدار البيت - ببطء وبضعف شديدين فإن الصفات الكامنة في جسم ما تخضع لعملية وتظهر تحت الميكروسكوب، إذ أنها لا تدرك أبداً في الظروف العادية. فمثلاً التلف البطيء لقطعة خشب في جدار منزل ينتج الحرارة، إلا أن كمية تلك الحرارة الناجمة عن الاحتراق لن تتمركز في بضع ساعات، وفي هذه الحالة يتم الإشعاع، إن صح التعبير، في عدة عقود، بحيث أن وجود هذه الحرارة يعتبر تافهاً للأغراض العملية. والشيء ذاته يشبه قليلاً من الخمرة في بركة كبيرة من الماء، فلو ألقينا فيها نقطة واحدة من الخمرة: فإن البركة تشتمل، من الوجهة العلمية، على خليط من الماء والخمرة، ولكن من حيث الأمور العملية يفترض أن ليس في البركة سوى الماء

هذا المقطع الرائع يبيح للمرء أن يظن أن تشيرنيشيفسكي في هذا الميدان أيضاً لا يرى فرقاً بين المادة العضوية من جهة، والمادة غير العضوية من جهة أخرى. وحتى نكون متأكدين فإن عضوية الحيوان (وبشكل خاص الحيوان الذي في قمة الشجرة الحيوانية، أي الإنسان) تبين لنا في هذا الميدان الخصائص الغريبة عن المادة غير العضوية. ولكن مع ذلك فإن عملية احتراق قطعة الخشب يصحبها عدد من الظواهر التي لا تلاحظ أثناء عملية التلف البطيء على أي حال لا يوجد فرق جوهري بين هاتين العمليتين. على العكس إنها عملية واحدة، مع فارق واحد فقط هو أن إحداها سريعة جداً والأخرى بطيئة جداً ولذلك في حالة الخصائص التي تنتمي إلى جسم خاضع لهذه العملية تتبدى بقوة هائلة، بينما في الحالة الأخرى لا تظهر إلا «تحت الميكروسكوب، إذ أنها لا تدرك أبداً في الظروف العادية». أما فيما يتعلق بمسألة الظواهر النفسية فإن هذا يعني أن المادة في الشكل غير العضوي لا يمكنها تجنب القدرة الأساسية لـ «الإحساس»، الذي يقدم ثماراً «روحية» غنية جداً في الحيوانات العليا ولكن هذه القدرة في المادة غير العضوية توجد في حدود ضيقة جداً ولذلك فهي إجمالاً لا يدركها الباحث، وبإمكاننا، من غير المخاطرة في خطأ التقدير، أن نساويها باللاشيء ويجب ألا ننسى أن هذه القدرة عامة متأصلة في المادة وبالتالي ليس ثمة أسس تخصها كشيء عجائبي حيث تتجلى بقوة، كما يمكن أن نراها مثلاً بين الحيوانات العليا عامة، وفي الإنسان بشكل بارز لقد اقترب تشيرنيشيفسكي في التعبير عن هذه الفكرة - مع الحذر الضروري في ظروف صحافتنا تلك الأيام - من الماديين

أمثال لامتري وديدرو اللذين بدورهما تبنيا وجهة نظر السبينوزية، بعد تخليصها من عبوديتها اللاهوتية غير الضرورية.

يعتقد السيد فولنسكي أن يوركيفيتش عبر عن فكرة غاية في الذكاء في قوله إن تغير حركة الهواء إلى صوت واهتزاز الأثير على شكل ضوء لا بد أن تفترض مسبقاً كائناً مدركاً يستطيع تحويل الحركات الكمية إلى صفتي الصوت والضوء ولكن تشيرنيشيفسكي نفسه أيضاً يعرف هذا جيداً، لقد افترض فقط أن هذا الكائن المدرك كان مادة منظمة بطريقة معينة، فلا السيد فولنسكي ولا يوركيفيتش، اللذين يطريهما، قدما برهاناً ملموساً واحداً ضد هذه الفرضية.

أكد يوركيفيتش أيضاً أن الفروقات الكمية تحولت إلى فروقات نوعية ليس في الشيء ذاته، بل في علاقته بموضوع الحس وهذه غلطة منطقية كبيرة. فحتى يتغير الشيء في علاقته إلى موضوع حس يجب أن يخضع لتغير أولي في ذاته. فإذا لم يكن للجليد خصائص البخار ذاتها، فذلك لأن العلاقات المتبادلة لذرات الماء في الحالة السابقة تختلف كلياً عما هي في الحالة الأخيرة.

ثالثاً، يعتقد السيد فولنسكي أن يوركيفيتش كان مصيباً في لومه تشيرنيشيفسكي لنسيانه السمة الرئيسية التي تميز الإنسان من بقية الحيوانات، أي أن الإنسان يتجلى «باعتباره روحاً **شخصية**». ونرى من الضروري، في هذا الصدد، أن نناقش السيد فولنسكي، ونحيل القارىء إلى كتب من أمثال كتاب دارون **سلالة الإنسان** أو كتاب **رومانس** المكرس لدراسة التطور الفعلي في الإنسان والحيوانات. ولا يحتاج المرء إلا لمقارنة نتائج دارون ورومانس مع نتائج تشيرنيشيفسكي ليرى مدى التزام المدافع عن «المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة» بنظرة العلوم الطبيعية.

إننا نعرف مدى اشمئزاز تشيرنيشيفسكي من حجج يوركيفيتش. إنه لم يحلل هذه الحجج - وما كان في إمكانه أن يفعل ذلك في ظروف المراقبة - إلا أنه أعلن ببساطة أنها بالية، ليس فيها أي شيء مقنع

كتب في «جواهر النقاش «إنني أنا نفسي تلميذ نفسي، فمن تجربتي الخاصة أعرف مركز الناس الذين يحصلون على ثقافتهم مثلما فعل يوركيفيتش. لقد رأيت أناساً في المركز نفسه الذي يحتله. ولذلك صعب عليّ أن أهزأ منه، فذلك يعني الهزء من

العجز عن اقتناء كتب محتشمة، والهزء من شخص تنقصه نقصاً كاملاً القوة على تطوير نفسه، والهزء من وضع محصور من جميع الجهات

«أنا لا أعرف عمر السيد يوركيفيتش، فإذا لم يكن شاباً، فقد تأخرنا كثيراً في القلق عليه أما إذا كان ما يزال شاباً، فإني أقدم إليه بكل سرور مجموعة صغيرة من الكتب التي في حوزتي

وما يزال فولنسكي يرى هذا الرد غير مقنع أبداً إنه يعتقد أن تشيرنيشيفسكي رد بهذه الطريقة بسبب عجزه عن تفنيد يوركيفيتش ومن الواضح أن بعض الصحفيين في بداية الستينات برروا ذلك بالطريقة ذاتها فمثلاً بعد أن أحصى دوديشكين حجج يوركيفيتش التي لا تدحض حجة حجة، كتب في **أوتشيستفيني زابسكي** مقدماً نفسه لتشيرنيشيفسكي:

«القضية التي تبدو واضحة لا تهم أحداً سواك، ليس الفلسفة ولا الفيزيولوجيا عامة، بل جهلك بتلك العلوم. لماذا تجر السمك الأحمر الصغير للفلسفة المعهدية؟ لماذا تخلط أشياء مختلفة كلياً وتقول إنك تعرف كل ذلك منذ أن كنت في المعهد، حتى أنك تدعي حفظها ظهر قلب؟

ورد تشيرنيشيفسكي على هذا بأن افتقار دودشكين في معرفة دفاتر المعهد منعه من أن يفهم ماذا كان الموضوع ويتابع «إذا جهدت في النظر في هذه الدفاتر، فسوف ترى أن كل العيوب التي يكتشفها السيد يوركيفيتش فيَّ، اكتشفته هذه الدفاتر في ارسطو وبيكون وغاسندي ولوك الخ الخ في كل الفلاسفة الذين لم يكونوا مثاليين. وبالتالي فإن كل الانتقادات المطبقة علي مطلقاً ككاتب فرد، تطبق بالأحرى على النظرية التي اعتبرها مفيدة بحيث بسطتها للجماهير فإذا كنت في شك فألق نظرة على **المعجم الفلسفي**، الذي نشره السيد س.غ، والذي يتخذ السمت نفسه كالسيد يوركيفيتش، وسوف ترى أن الشيء نفسه قيل هناك حول كل من هو غير مثالي: إنه لا يعرف علم النفس، لا اطلاع له على العلوم الطبيعية، إنه يرفض التجربة الداخلية، إن الوقائع تسيطر عليه، إنه يخلط الميتافيزياء بالعلوم الطبيعية، إنه يحط من قيمة الإنسان الخ الخ فقل لي إذن، لماذا يجب عليّ أن أهتم فعلاً بمؤلف المقالة المشهورة والناس الذين يطرونه، عندما أرى أنهم يكررون ضدي شخصياً الأشياء التي كررت منذ الزمن السحيق عن كل مؤلف من المدرسة التي انتمى إليها؟ سوف أعلل ذلك:

إما أنهم لا يعرفون ، أو أنهم يدعون أنهم لا يعرفون أن تلك الانتقادات ليست ضدي ، بل ضد كل المدرسة ، وبالتالي فإنّهم إما أناس لا يعرفون عن تاريخ الفلسفة إلا قليلاً ، أو أنهم يعملون طبقاً لتكتيك يعرفون طبيعته النفاقية . ومهما كان الأمر فإن أمثال هؤلاء الخصوم لا يستحقون خصومة جدية » . وهذا صحيح تماماً

كان تشيرنيشيفسكي محقاً تماماً عندما كتب في المقالة ذاتها أن النظرية التي اعتبرها صحيحة كانت آخر حلقة في سلسلة الأنظمة الفلسفية وأنها انبثقت من النظرية الهيغلية مثلما انبثقت النظرية الهيغلية من النظرية الشلنجية . لقد قال بافتخار أنه اعتبر نظريته الفلسفية ليس فقط الأحدث ، بل أيضاً الأكثر كمالاً وصحة .

لا بد من أن يكون المرء السيد فولنسكي أو واحداً من الأتباع « المجترين » الكثيرين حتى يعتبر حجج يوركيفيتش غير ممكنة التفنيد والواقع أن تلك الحجج لم تهز - ناهيك عن أنها لم تفند أبداً - الفرضيات الأساسية لتشيرنيشيفسكي - فيورباخ ولكن لا بد من معرفة أن بعض الاستنتاجات التي قام بها تشيرنيشيفسكي من الفرضيات الرئيسية لفلسفته المادية لم تشرح شرحاً كافياً ، ولذلك كانت أحادية الجانب ، ولأنها أحادية الجانب لم تكن صحيحة كل الصحة . هكذا كانت استنتاجاته فيما يتعلق بالمذهب الأخلاقي

الفصل الرابع
المذهب الأخلاقي

« إن اختباراً دقيقاً للدوافع التي تحرك أفعال الناس تبين أن كل الأفعال ، الطيب منها والرديء ، الرفيع والوضيع ، البطولي والجبان ، يدفعها سبب واحد : إن الإنسان يفعل ما يسره . إنه يسترشد بمصلحته الذاتية ، التي تجعله يحجم عن المربح الصغير أو المتعة القليلة في سبيل المربح الأكبر والسرور الأكثر وتأييداً لهذه الفكرة يقتبس تشيرنيشيفسكي عدة أمثلة . عندما تندب امرأة موت زوجها الودود ، فإن فكرتها عن نفسها تشكل أساس مصيبتها : « ماذا أفعل من غيرك؟ إن الحياة مستحيلة من دونك » ... الخ . والشيء ذاته نجده في مصيبة أم فقدت طفلها « لقد فقدت بفقدك كل آمالي ، وانتهت بك كل مسرة » . الخ هنا أيضاً ، حسبما يذهب تشيرنيشيفسكي ، يبدو الأساس الأناني للشعور واضحاً والحالات التي تسمى تضحية ذاتية أشد صعوبة بقليل . فسكان ساغونتوم أقدموا على الانتحار خوفاً من الاستسلام لهانيبال[٩٧] إن هذا عمل بطولي ، ولكن هذا العمل البطولي لا يتناقض مع المصلحة الخاصة الأنانية : « إن لم يجهزوا على حياتهم فإن القرطاجيين سوف يجهزون عليها ، ولكن الأخيرين لا بد من أن يخضعوهم أولاً لعملية تعذيب بربرية ، وقد دفعهم الحس العام إلى تفضيل الموت السريع على الموت البطيء المؤلم » . أو لنأخذ لوكريسيا التي طعنت نفسها بعد أن اغتصبها تاركينوس سكتوس يعتقد تشيرنيشيفسكي أنها أيضاً تسترشد بمصلحتها الخاصة . « يمكن أن يكون زوجها قد قدم لها كلمات التعزية والتحبب ولكن مثل هذه الكلمات هي محض هراء ، تدل على نبل قائلها ، إلا أنها لا تمنع نتائج الحادث المحتومة من أن تتحقق . يمكن أن يكون كولاتيبوس قد قال لزوجته : « أنت في نظري صافية كالحب مثلما كنت من قبل » وطبقاً للمفاهيم السائدة في ذلك الوقت ، وحالياً إلى حد ما

مع شيء من التغيير، لم يستطع أن يبرهن على كلماته بالأفعال، إنه فقد، شاء أم أبى، احترامه وحبه لزوجته. ربما حاول أن يخفي هذا الفقدان باللطف المبالغ فيه تجاهها، ولكن مثل هذا اللطف أكثر عدوانية من الهجر وأمرّ من الضرب والشتم. لوكريسيا كانت محقة في أن التفكير بالانتحار أفضل من الحياة في وضع أدنى من وضعها السابق، وفي حياة أقل من الحياة التي اعتادتها إن الرجل الكريم يفضل الجوع عن أن يلمس طعاماً ملوثاً. والشخص المحترم يفضل الموت على المذلة »*

في تقديم تشيرنيشيفسكي هذه البراهين يضع تحفظاً إنه لا يحاول أبداً أن يقلل من الإطراء الذي استحقه أهل ساغانتوم ولوكريسيا إنه يناقش فقط أن عملهم البطولي لم يكن عملاً عاقلاً ومناقشة ذلك، في رأيه، لا تعني التقليل من البطولة والنبل. هذا صحيح، فعندما انتقده أناس أمثال بوركيفيتش لعدم تقديره هذه المشاعر، أظهروا عجزهم عن فهم آراء مؤلفنا إن مذهب تشيرنيشيفسكي في الأخلاق لم يقلل من البطولة والنبل، بل على العكس لقد عززهما بالإشارة إلى أن الطريق الذي اختاره البطل هو الطريق الذي يتصف بالمصلحة الذاتية. إلا أن هذا لا يزيل الغلطة المنطقية التي لازمت آراء تشيرنيشيفسكي. والحقيقة أن تشيرنيشيفسكي بتقديمه مثالي أهل ساكونتوم ولوكريسيا أراد إقناعنا أن الأعمال النبيلة ليست أعمالاً متهورة. ونحن لا نشك في هذا أبداً ولكننا نعتقد أن عملاً قائماً على المصلحة الذاتية، شيء، وعمل نتائجه لا تعود إلا على القائم به كنتائج العمل الذي قام فقط على المصلحة الذاتية شيء آخر تماماً إننا نسلم أن من الأفضل للوكريسيا أن تبقي على حياتها، ولكننا نشك كثيراً في أنها حاسبت نفسها وتروت قبل أن تنتحر ولكن مثل هذه الحسابات تحتاج إلى ضبط نفس، ولم تستطع لوكريسيا أن تضبط نفسها أليس من الأصح أن نفترض أنها في تضحيتها الذاتية، لعب العقل دوراً أقل مما لعبه الشعور الذي تطور تحت تأثير العلاقات، وعادات ذلك الزمن وأفكاره؟ إن المشاعر والعادات الإنسانية تنسجم عادة مع العلاقات الاجتماعية - وبالطبع العائلية - إلى درجة أن الأفعال المرتكبة تحت تأثيرها يمكن أن تبدو أحياناً أنها ثمرة حسابات دقيقة، في حين أنها في الحقيقة ليست نتيجة الحسابات اطلاقاً وهذا صحيح إلى درجة أن تشيرنيشيفسكي نفسه يؤكده في

---

* المؤلفات، ٤، ص ص ٢٣٠ - ٢٣١

تأملاته الخاصة: فهو يقول، كما رأينا، إن الشخص المحترم يفضل الموت على المذلة. وهذا أيضاً صحيح ولكن على المرء ألا يساوي العادة بالمصلحة الذاتية، وألا يقول إن المرء الذي يعمل تحت قوة عادة مرموقة «يسترشد بالمصلحة الذاتية التي لا تعود عليه إلا بالربح القليل أو المتعة الأقل، للحصول على ربح أكثر ومتعة أكثر». وبشكل عام نلاحظ أن رأي تشيرنيشيفسكي في الأنانية المعقولة هو محاولة، تجسدت في كل «مراحل التنوير بحثاً عن دعم للأخلاق في العقل، وتفسير للشخصية والسلوك الفرديين على شكل حساب دقيق. مناقشات تشيرنيشيفسكي في هذا الخصوص تشبه حبتي بسلة في جراب بالقياس إلى مناقشات هلفتيوس وأولئك الذين يشاركونه هذه الفكرة. إنها تذكرنا كثيراً بمناقشات سقراط، الممثل النموذجي لعصر التنوير في اليونان القديمة، الذي بين، في مناقشته للصداقة، أن **المصلحة** هي التي تجمع الأصدقاء، فالصديق وقت الضيق. إن تفسير هذه التطرفات في النزعة العقلية هو أن المتنورين كانوا أعجز من أن يتبنوا نظرة تطورية*

إننا نعرف أن الإنسان، حسب نظرية تشيرنيشيفسكي ليس خيراً ولا شريراً بطبيعته ولكنه يصبح خيراً أو شريراً حسب الظروف** فإذا سلمنا أن الإنسان يعتمد على الحسابات الدقيقة في سلوكه، فإن علينا أن نصوغ رأي تشيرنيشيفسكي في الطبيعة الإنسانية بشكل مختلف: لا بد أن نقول إن الإنسان بطبيعته ليس خيراً ولا شريراً، وإنما حساباته تعتمد على الظروف إلا أن هذه الصيغة من الصعب أن ترضي مؤلفنا

ولكن ما الخير وما الشر حسب نظريته؟ نجد جواب هذا السؤال في المقالة ذاتها «المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة وهي مقالة اعلامية كما يرى القارىء «إن

---

* للمريد حول هذا أنظر كتابنا «مدخل إلى تاريخ المادية هولباخ وهلفيتوس وكارل ماركس» شتوتغارت ١٨٩٦ (٩٨)

** لا أهمية كبرى لكون مؤلفنا عبر عن رأي مختلف في الطبيعة البشرية فحسب ذلك الرأي «الانسان كائن مدفوع بطبيعته إلى احترام الحقيقة والخير ومحبتها وإلى كراهية كل ما هو شرير إنه كائن قادر على خرق قوانين الخير والحقيقة فقط من خلال الجهل والخطأ، أو تحت تأثير ظروف أقوى من شخصيته وعقله، ولكنه كائن لا يستطيع تفضيل الشر على الخير بارادته الخاصة» (أنظر مقالة عن كتاب شلدرن **مناظر محلية في السوفريمينيك** ١٨٥٧ العدد ٦) وهذا قريب من سقراط أكثر من قربه إلى مذهب التطور المعاصر.

الأفراد يعتبرون أعمال الآخرين خيراً إذا كانت مفيدة لهم، والمجتمع يرى الخير فيما هو خير للمجتمع، أو للأغلبية العظمى من أبنائه وأخيراً ان الناس، بغض النظر عن الوطن أو الطبقة يرون الخير فيما هو مفيد للبشرية جمعاء وقد يحدث أن مصالح أمم أو طبقات مختلفة تتضارب مصالح الواحدة بالأخرى أو تتضارب مع المصلحة الانسانية عامة وقد يحدث أيضاً أن تتضارب مصالح أمة أو طبقة مع مصالح الأمة كلها فكيف يقرر المرء هذه المسألة فيما إذا كانت خيراً أم شراً؟ من السهل أن نقرر هذه المسألة في النظرية: إن مصالح البشرية ككل أعلى من مصالح الأمة الواحدة، والمصلحة العامة للأمة أعلى من مصالح الطبقة الواحدة، ومصالح الطبقة الكبيرة أعلى من مصالح الطبقة الصغيرة ولكن ما الذي يحدث عملياً؟ إن الناس عملياً يصفون العمل المفيد لهم بأنه خير ويصفون العمل الضار بهم بأنه شر، وقلما تساءلوا عن العلاقة التي تربطه بالمصالح الكبرى ككل إلا أن تشيرنيسفسكي مقتنع أن الناس، طبقات أو أمماً الذين يفضلون مصالحهم الخاصة على المصالح العامة، يعانون، في التحليل الأخير من هذا الغلط النظري يقول «في هذه الحالات، عندما تدوس الأمة الواحدة، حرصاً على مصالحها الخاصة، على مصالح البشرية، أو عندما تدوس الطبقة الواحدة على مصالح الأمة. فان النتيجة دائماً هي الضرر ليس على الجانب الذي ديست مصالحه، بل أيضاً على الجانب الرابح إن الأمة التي تستعبد البشرية دائماً تدمر نفسها والطبقة التي تضحي بمصالح الأمة كلها من أجل مصلحتها الخاصة لن تكون عاقبتها إلا سيئة ليس في نيتنا أن نحلل هنا الأمثلة التاريخية والاقتصادية التي يحاول بها تدعيم فرضيته سوف نتناول هذا الموضوع فيما بعد، عندما نناقش الأفكار التاريخية لتشيرنيسفسكي إنما حالياً سوف نحصر أنفسنا في ملاحظة أنه لا أهمية فيما إذا كانت فرضيته صحيحة أم خاطئة، فما يقوله عن علاقة مصالح الجزء بمصالح الكل يمكننا ولا شك من صياغة مسألة الأنانية بشكل أصح مما صاغه في مقالته فلنفترض إذن، أننا ندرس مجتمعاً لم ينقسم إلى طبقات إن أعمال الأفراد في هذا المجتمع المتطابقة مع المصالح العامة تعتبر خيراً وتلك التي تعارض المصالح العامة تعتبر شراً وهكذا على أساس محاكمات الخير والشر يكمن ما يمكن أن نسميه أنانية المجموع **الأنانية العامة**. ولكن أنانية المجموع لا تتضمن غيرية الأفراد، **الغيرية الفردية**. على العكس، إنها مصدرها فالمجتمع يكافح حتى يرى أبناءه بطريقة يضعون مصلحته

العامة قبل مصلحتهم الخاصة، وكلما لبت الأفعال الفردية مطلب المجمع، ارداد التضحية الذاتية والنزعة الغيرية والأخلاقية في الفرد وكلما غدت الأفعال الفردية ضد هذا المطلب، ارداد أثرة الذات والأنانية هده هي القاعدة التي يطبقها الناس دائماً - وبوعي تقريباً - في حكمهم على عمل ما أو سخص ما بأنه غيري أو أناني إن الفرق الوحيد الممكن هنا هو أن مصلحة المجموع تقدم في حالة معينة على مصالح الأفراد

ولكن عندما يطبق المجتمع قاعدته القائمة على مصالح المجموع للحكم على أعمال الأفراد، يريد عملاً مفيداً له بمرضه الحاجة الداخلية للفرد الدي يقوم به، ولا يفرضه تفكير الفرد بربحه الخاص وطالما أن الفرد الدي يخدم مصالح المجموع يسترشد بربحه الشخصي، فانه يفصح عن فطنة تقريباً عن بصيرة ولكنه لا يفصح عن غيرية إن تربية شخص ليكون أخلاقياً تعني أن الأفعال المفيدة للمجتمع تغدو مطلباً غريزياً له («الواجب المطلق عند كانت) وكلما كان هدا الواجب أقوى، كان الشخص أخلاقياً أكثر إن الأبطال أناس لا يستطيعون منع نفسهم من اطاعة هذا المطلب حتى عندما يكون تحقيقه معارضاً لمصالحهم الأساسية، وحتى عندما يهددهم بالموت إن هدا ما فات «المتنورين بمن فيهم سيرنسفسكي ويمكن أن نضيف إن كانت الدي ذهب إلى أن لا علاقة للدوافع الأخلاقية بالمصلحة كان مخطئاً تماماً مثل «المتنورين لقد فشل أيضاً في هذه الحالة في سي نظرة في التطور وفي استخراج **الغيرية الفردية** من **الأنانية العامة**.

المهم أن تشيرنيسفسكي، الدي أعتقد أن الانسان دائماً يسترشد باعتبارات مكسبية، فكر أخيراً بما نقوله اليوم. ولكنه صاغ فكرته صياغة رديئة نسحة الغلط في فروضه المنطقية، كما أشرنا من قبل ولنلق نظرة على رواية **ما العمل؟** لنرى كيف وصف لوبوخوف وكيرسانوف نفسهما ونرى فيرا بافلوفنا التي خطبت كيرسانوف سأله فيما إذا كان يحب لوبوخوف حباً جمّاً وبهدا الصدد تدور المحادثة التالية بينهما

أنا؟ أنا لا أحب أحداً سوى نفسي، يا فيرا بافلوفنا

إذن أنت لا تحبه؟

«عشنا معاً بلا خصام، وهدا يكفي

«وهو ألم يحبك؟

« لم ألحظ شيئاً ولكن لنسأله أتحسي يا ديمري؟

« أنا لم أشعر بأي كراهية خاصة نحوك »*

إن كيرسانوف لم يحب « أحداً سوى نفسه ولوبوخوف يكتفي بحقيقة أنه لا يسعر « بأي كراهية نحو صديقه الحميم فكما برى هم أنانيون حتى العظم وهكدا ظلوا « أنانيين في كل أحاديثهم وتصريحاتهم ولوبوخوف يتخلى عن شهادته الأكاديمية في سبيل أن يىروج فيرا بافلوفنا وينقذها من سلطة أبويها فيقنع نفسه أنه لا يقوم بتضحية: « لا نية لي في التضحية بأي شيء فحتى الآن أنا لست عبثاً حتى أضحي وآمل ألا أضحي أنا أفعل الأفضل بالنسبة إلي أنا لست شخصا يقدم التضحيات، إنه مفهوم خاطىء، فالتضحية بلادة وخواء أنت تفعل ما هو أفضل لك ولكن حاول أن تفسر ذلك إن ذلك مفهوم في النظرية، ولكن عندما نواجه الحقيقة فان الشخص يقول أنت المحسن اليّ »**

إنك تفعل ما هو الأفضل لك من يسع هده القاعدة؟ كل إنسان لكن كل شخص « ذات وبالنسبة إلى كل شخص فان كل فكرة عن هدا العمل أو ذاك لا ينفصل عن وعيه لـ ذات »ـه هده الواقعة المؤكدة شرحها تشيرنيسيفسكي لصالح نظريته في الأنانية المعقولة - مثلما شرحها « المتنورون في كل الأقطار، وإذ أقنع نفسه أن من الأنسب له أن يترك الشهادة الأكاديمية ويىروج فيرا بافلوفنا، يختتم لوبوخوف تأمله في هده النقطة بالتصريح الوقور التالي: فعلاً ان « الذات تتصدر دائماً - لقد بدأت بنفسي وانتهيت بنفسي فما ابتدأت به: « تضحية - يا للخداع، كما لو أنني تخليت عن شهرتي الأكاديمية وكرسي التدريس يا للتفاهة ولكن لا مانع، فسوف أعمل الشيء ذاته، وأحصل على الكرسي ذاته وأخدم العلم ذاته إن من الجميل للمرء النظري أن يرى كيف تلعب الأنانية في أفكاره عملياً »***

---

* المؤلفات المجلد ٩ مقطع ٢ ص ٩٢

** المرجع السابق ص ٨٥

*** المرجع السابق ص ٨٦ وبطريقة مشابهة تقول فيرا بافلوفنا شارحة لخياطاتها عرضها إقامة مشغل تعاوني هدا بسبب أني لست ميالة إلى المال. فكما نعرف أن الناس أصحاب أهواء مختلفة. وليس لدى كل واحد ميول للمال بعضهم للرقص وآخرون للشباب. والكثير منهم لتدمير أنفسهم. ولا يندهش أحد أن منهم أعز عليهم من المال ولكن ميلي هو ما أنا عازمة على تنفيذه معكن (المرجع السابق ص ١١٧) في حالتها أيضاً ظهر القضية المطروحة وضعت بحيث أنها تضع نفسها دائماً في الصدارة

ظهرت غلطة تشيرنيسيفسكي المنطقية هنا بشكل بارز ويبدو من حقيقة أن وعي الشخص لذاته لا يتركه فريسة أفكاره عن أعماله. أن كل أعماله أنانية إذا كانت الذات المعنية ترى سعادتها في سعادة الآخرين، وإذا كانت ذات «هوى نحو هذه السعادة فان الذات تسمى غيرية لا أنانية وبحثاً عن تعمية الفرق العميق بين الأنانية والغيرية على أساس أن الأفعال الغيرية يصحبها لدى الناس أيضاً وعي

ذاتهم يعمد إلى تقديم سويش منطقي بدلاً من توفير الوضوح الكامل. وإذ ساوى بين الغيرية والأنانية، فانه يجد نفسه مضطراً إلى البحث عن قاعدة أخرى لتمييز هذه الأفعال التي تسمى عادة **أنانية** من تلك التي تسمى **غيرية**. فماذا وجد؟

في **ملاحظات حول الصحف** (كانون الثاني ١٨٥٧) يقول محدداً الفرق بين بيسورين ورودين «أحدهما أناني لا يفكر إلا بمتعته الشخصية، والآخر متحمس ينسى نفسه كلياً فتجرفه المصالح العامة، أحدهما يعيش على هواه، والآخر يعمل وفق أفكاره انهما نقيضان يقف أحدهما ضد الثاني»* صحيح تماماً ولكن بسبب هذه التناقضات بالضبط من الخطأ القول إن الناس أنانيون وأنهم يختلفون الواحد عن الآخر فقط في درجة رغبتهم في الكسب فليس من أجل الكسب عاش رودين أفكاره، وكذلك بيسورين لم يعش ميوله من أجل الكسب

مثال آخر بعد زواج لوبوخوف لم تر فيرا بافلوفنا أبويها طيلة ستة أشهر كاملة، بعدها زارتهما، وإليكم وصف مؤلفنا للانطباع الذي حملته فيرا من الزيارة «لستة أشهر تنفست فيرا الصعداء فمنت بعيداً عن الجو الخانق الذي اعتادته من الكلمات الماكرة، التي كانت كل كلمة تنم عن مصلحة ذاتية محسوبة، ومن سماع الأفكار الآثمة، والخطط الدنيئة، وقد ترك القبو انطباعاً مرعباً فيها القذارة والابتذال والسخرية من كل نوع كل هذا صدمها الآن بقوة

من أين لي القوة حتى أعيش في مثل هذه الظروف الآثمة؟ كيف أستطيع أن أتنفس في هذا القبو؟ وأنا لم أعش هنا فقط بل مكثت بصحة جيدة إنه لعجب يفوق كل تفكير **كيف تأتى لي أن أعيش وأترعرع هناك وأحب الخير؟ إنه شيء**

---

* المؤلفات المجلد ٣ ص ٦٦.

لا يصدق. عسير علي الفهم، هكدا فكرت فيرا بافلوفنا حالما عادت إلى البيت وشعرت كما لو أنها اسىراحت بعد اختناق »*

قبل كل شيء عاشت فيرا بافلوفنا في « جو من الكلمات الماكرة، التي كانت كل كلمة تنطق عن مصلحة ذاتية محسوبة والآن تجد من الصعب أن تتنفس في هذا الجو فلماذا من الصعب إذا كان الناس عامة لا يسترشدون إلا بالمصلحة الذاتية؟ تجد صعوبة لأن المصلحة الذاتية التي يسترشد بها أناس أمثال والديها شيء سيء، مصلحة ذاتية « محسوبة غريبة كل الغرابة عن « حب الخير وهكدا نجد أنه بعد إرجاع كل شيء إلى المصلحة الذاتية، اضطر تشيرنسيفسكي إلى التمييز بين المصلحة الذاتية المحسوبة الغريبة عن حب الخير والمصلحة الذاتية غير المحسوبة المليئة بحب الخير** وباختصار عاد إلى التمييز القديم بين الأنانية والغيرية والشيء نفسه حدث معه كما حدث من قبل مع هولباخ والمتنورين الآخرين في القرن الثامن عشر الذين ارجعوا أيضاً كل شيء إلى المصلحة الذاتية، ووجدوا أنفسهم أيضاً مضطرين بحكم المنطق إلى التمييز بين المصلحة الذاتية المحسوبة وغير المحسوبة

في المقالة المشار إليها أعلاه التي كتبها سيريبيسيفسكي عن مشاهد محلية نجد الفكرة الصحيحة التالية العادات والمبادىء التي تحكم في المجتمع تنشأ وتستمر عقب وقائع مستقلة عن إرادة الشخص الذي يتبعها يجب النظر إليها من وجهة نظر تاريخية »*** ولكن إذا كانت العادات والمبادىء التي تحكم مجتمعاً تنشأ مستقلة عن ارادة أبنائه، وإذا كان من الضروري النظر إليها تاريخياً، وليس من وجهة نظر عقلية، فان العادات والمبادىء التي تقرر أفعال الأفراد يجب أيضاً أن ينظر إليها بالطريقة ذاتها، إنها تنشأ بدورها أيضاً مستقلة عن الارادة، وبالتالي عن المصلحة الذاتية للفرد والفرد بالتالي يطيعها على الرغم من حقيقة أنها ضد مصالحه الشخصية

---

* المرجع السابق ص ١٠٨

** في مقطع آخر من الرواية نفسها يظهر سروراً عظيماً بالناس الذين اعتادوا شرح كلمة مصلحة بالمعنى الضيق للمصلحة الذاتية العامة (المؤلفات المجلد ٩ ص ١٦٩) وهكدا ظهر الآن انه بالاضافة إلى المصلحة الذاتية العامة هناك نوع غير عام كيف يختلف عن النوع العام؟ إن الناس الذين يسترشدون به يضعون مصالح وغيرهم بالحسبان (المرجع المذكور)

*** المؤلفات مجلد ٣ ص ٢١٤.

هذا في الواقع ما يريد تشيرنيسيفسكي أن يقوله، عندما يجعل أبطاله يؤكدون لنا أنهم لا يحبون أحداً غير أنفسهم هذا التأكد من أبطاله سوف تناقضه حطبة لوبوخوف المتخيلة - التي حدثته عنها فيرا بافلوفنا عندما كان يرقص معها في عيد ميلادها التي سمت نفسها حب الشعب »* ولكن ليس ثمة ناقض هنا فتشيرنيسيفسكي يعني ببساطة أن الوجود الأخلاقي لأبطاله مشوب بحب الشعب، من حيث أن الأفعال التي فرضها هذا الحب هي مطلب ملح لـ «ذات» هم والرغبة في عمل غير ذاتي ميزة للوبوخوف وكيرسانوف، ذلك أنهم بافساح المجال له، لا يقومون بمعاناة صراع داخلي، بل يتبعون ببساطة غريزتهم الخاصة في الخير، من حيث أنهم يصورون أنفسهم للشعب أنهم لا يفكرون إلا في أنفسهم »**

إن غلطتهم المنطقية سببها حقيقة أنهم في أفعالهم كانوا تحت تأثيراً الشعور لا المنطق وفي حالتهم يمكن القول إن هذه الغلطة حتمية ولكن في تقدير شخصياتهم نحن مضطرون أن نكرر غلطتهم المنطقية علنا أن نفهم أن هؤلاء الناس ليسوا في الحقيقة أنانيين وأن هؤلاء الذين يفكرون أنهم أنانيون يخلطون بين المفاهيم من غير ادراك أنه لا يوجد قانون خاص للأخلاق

إن العملية الناشئة عن الغيرية الفردية النامية على أساس الانانية العامة هي عملية ديالكتيكية، والتي أخذت من ملاحظة المتنورين وبما أن الناس يسعون أولاً إلى أهداف عملية، فان «المتنورين لا يبدون إلا اهتماماً قليلاً بديالكتيك الظواهر والمفاهيم عامة وسوف نرى هذا في مثال من مؤلفنا والآن سوف نقول. فيما يخص مذهبه في الأخلاق. مهما كانت الغلطة المنطقية في هذا المذهب. فانه كان أبعد من أن يولد الانانية العملية لقد كان هذا مفهوماً من قبل أناس أمثال يوركفيتش يوم ظهرت مقالة «المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة وليس مفهوماً اليوم من قبل أناس أمثال السيد فولنسكي، بسير محبي الحكمة المحترين وباظهار عدم فهمهم له. إنما

---

* ص ٧٠ [حلم فيرا الأول]

** إن كيرسانوف في تأمله في علاقته بفيرا بافلوفنا يبرر لنفسه قائلاً عملت ضد ضعفي الانسانية، فسوف أفقد امكانية السلام، إمكانية الرضا عن نفسي إلى الأبد سوف تسمم حياتي كلها (مرجع السابق ص ١٥١) إن كيرسانوف ينسى فقط أن يضيف أنه في امتلاكه هذه الصفة ... بعد بحاجة للحنو ... حساب الكسب. فمثل هذه «الطبيعة لا تحتاج إلى الحث لتجهد عمل الخير »

يدللون على فقرهم الثقافي الخاص لقد كان كل الحق مع تشيرنيشيفسكي في احتقاره لهم وقد توسع في استخدام هذا الحق إن كل صفحات روايته **ما العمل؟** تسخر من هؤلاء الناس. ويمكن أن نطلق عليها أنها صفحات رائعة من دون أي مبالغة ونرغب في تقديم واحدة منها

إذ يصف سيربيسيفسكي العلاقة بين لوبوخوف وفيرا بافلوفنا في فترة ما قبل زواجه منها يدعي انه ساخط على قساوته ويقول انه ليس فقط من المستحيل ان يغفر له، بل من الخطأ حتى محاولة القيام بهذا. ويبراءى لبعض الناس انه كان في دفاعه رجل علم ويهتم بالعلوم الطبيعية، التي تدفع الانسان، كما نعرف، إلى المادية، وقد اعترض تشيرنيسيفسكي على هذا ساخراً بأن كل العلوم تقود إلى المادية، ولكن ليس كل العلماء ماديين ويستنتج «ولذلك يظل لوبوحوف آثماً إن الناس الرحومين، الذين لا يحاولون أن يغفروا له، يستطيعون أن يقولوا في اعتذاره الخالي نهائياً من السمات الحميدة انه قرر عن قصد وباصرار التخلي عن كل مكسب وفخر من أجل العمل لصالح الآخرين، واجداً أن متعة هذا العمل أفضل مكسب له. فقد حدب على الفتاة، التي كانت من الجمال بحيث وقع في حبها، بنظرة أصفى من تلك التي ينظر بها بعض الاخوة إلى أخواتهم. ولكن على الرغم من اعتذارد عن ماديه، لا بد من القول إنه ليس ثمة شخص واحد يخلو من المزايا الطيبة، وأن الماديين، مهما كانوا هم ماديون على الرغم من ذلك، وهذا نجد ذاته برهان مقنع أنهم أناس منحطون ولا أخلاقيون أولئك الذين يجب ألا يعتذر عنهم. لأن الاعتذار عنهم يسيء إلى المادية وهكذا يمكن للمرء أن يعتذر عن لوبوخوف من غير أن يبرئه ويجب ألا يبرأ لأن محبي الأفكار الرفيعة ورواد الطموحات النبيلة. الذين يتهمون الماديين بأنهم أناس منحطون ولا أخلاقيون. قد نصحوا أخيراً أنفسهم، فكراً وشخصية، في نظر كل الناس المحترمين، ماديين وغير ماديين. أن الدفاع عن أي شخص ضد تأنيباتهم بات نافلاً وأن الاهتمام بكلماتهم لم يعد مناسباً »*

* المؤلفات المجلد التاسع ص ٦٣.

الفصل الخامس

تشيرنيشيفسكي والديالكتيك

يقول سيرنيسيفسكي في كتابه عن ليسغ

« إذا كان هناك من تهيأ بطبيعة ذهنه للفلسفة فهو ليسغ ومع ذلك قلما كتب كلمة عن الفلسفة نفسها ، ولم يكرس صفحة واحدة لها في كتبه . وفي رسائله يتحدث عنها فقط بما يهم مندلسون ملزماً نفسه بما هو ضروري لمندلسون . فهل هو فعلاً في عداده بطبيعته ، لا يهتم بالفلسفة إلا قليلاً؟ العكس تماماً لقد بين لنا ماذا يشغل أفكاره عندما كان يحفر على كوخ غليم الريفي قصيدته الكلاسيكية (الواحد والجميع)، بينما كان يحدث غليم عن نتاجه « أغاني الغريبادير وقصيدته « هالادات »* القضية هي أن الوقت لم يحن بعد للفلسفة الخالصة أن تصبح مركز الحياة الثقافية الألمانية - فالترم ليسغ الصمت في الفلسفة : فعقول معاصريه كانت مهيأة للاستجابة للشعر ، ولكنها لم تكن بعد مهيأة للفلسفة وهكذا كتب المسرحيات وناقش الشعر »**

هذه الكلمات تنطبق كلها تقريباً على تشيرنيشيفسكي نفسه والحقيقة لم يستطع في قدرته على معرفة كنه المسائل الفلسفية أن ينافس بيلنسكي الرائع*** وعلى أي حال كان ، « بطبيعة ذهنه ذا صفات كثيرة تؤهله للدراسة المستمرة للفلسفة ، وكان سيحقق أكثر مما أراد لافروف - مثلاً - أن يحققه بما لا يقاس لقد أحب الفلسفة جداً إنه هو

---

* أغاني الغريبادير و« هالادات أو ذلك الكتاب الأحمر

** المؤلفات المجلد الثالث ص ٧٥٥

*** تشيرنشفسكي نفسه كتب ان بيلنسكي لا بد أنه رائع في المعرفة (المؤلفات المجلد الثاني ص ١٢٢).

الذي قال إن الإنسان الذي يملك روحاً فلسفية، الذي يصبح مهتماً بالفلسفة، سوف يجد من العسير أن يشتت نفسه فيبتعد عن المسائل الكبرى في الفلسفة إلى مسائل تافهة نسبياً في العلوم الإفرادية. ولكن قسره لنفسه على دراسة هذا « الأناني الذي يتحدث عن « المصلحة الذاتية لم يكن يسترشد بذوقه الشخصي، مثله مثل ليسغ، بل بمتطلبات التطور الاجتماعي إن مجتمع زمنه كان قليل الاهتمام بالفلسفة كثير الاهتمام بالأدب وهذا هو السبب في أنه كرس مؤلفاته الأولى للمسائل الأدبية بشكل رئيسي، مستخدماً استنتاجاته الفلسفية لتوضيح مسائل من هذا النوع وهكذا ظهر العلاقة الجمالية بين الفن والواقع وأخيراً ظهرت على المسرح المسائل الاقتصادية وأيضاً المسائل السياسية، وخاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية لقد انتقل تشيربيسيفسكي إلى هذه المسائل التي شغلت معظم وقته أكثر من المسائل الأدبية. وهكذا لم تسح له فرصة حقيقية ليكرس وقته للفلسفة. فقط مقالته « المبدأ الانتروبولوجي تذكرنا باهتمامه بها في ذلك الوقت ولكن في مقالة أخرى يجد المرء أيضاً مقاطع تبين أن اهتمامه بالفلسفة لم يمت وأنه يعرف الموضوع جيداً وبهذا الصدد فإن كتابنا « التقدميين من المرحلة التالية، مثل ميخائيلوفسكي واتباعه « الذاتيين » لا يمكنهم أن يتحملوا حتى المقارنة البعيدة معه*

يمكن لميخائيلوفسكي وأتباعه « الذاتيين » أن يهزوا أكتافهم ازدراء بـ « ميتافيزياء هيغل التي لا يعرفون عنها أدنى فكرة. ولكن تشيرنيشيفسكي يعرف هيغل وله رأي واضح جداً في فلسفته. ويصف فيما يلي موقفه من هيغل ومعلمه فيورباخ (أي معلم تشيرنيشيفسكي):

« إننا عادة نرى متابعي التأليف العلمي ينقلبون ضد أسلافهم الذين اسخدم عملهم كنقطة انطلاق لمؤلفات هؤلاء المتابعين. وهكذا نظر أرسطو نظر عداء

---

* الاهتمام بالفلسفة، بقدر ما كان قوياً في الثلاثينات والأربعينات كان غير ذي أهمية في العقود الأربعة التالية وما يجول في فكر تشيرنيشيفسكي حول هذا الانحطاط يمكن أن نلمسه من مقطع مقالة له «لقد نسي أدبنا ونقدنا كل المجادلات الفلسفية. وليس بنا رغبة في أن نقدر هنا ما الذي جناه الأدب والنقد من هذا النسيان الظاهر أنهما لم يكسبا شيئاً وخسرا أشياء كثيرة» (المؤلفات المجلد ٢ ص ١٨٣) وقد عاد الاهتمام بالمسائل الفلسفية من جديد هنا ولكن تعطشنا السابق الطويل للفلسفة أدى في الحقيقة إلى أننا رحبنا بكل فكرة فلسفية مهجورة ترحيبنا بالاكتشاف الفلسفي الهام.

لأفلاطون، وقلل سقراط من شأن السفسطائيين، وهو الذي تابع عملهم. ويمكن أن نجد الكثـير من الأمثلة في العصر الحديث ولكن أحياناً نجد حالات يدرك فيها مدعو الأنظمة الجديدة بوضوح الصلة بين آرائهم والأفكار التي عبر عنها أسلافهم، ويسمون أنفسهم بكل تواضع تلامذة لهؤلاء الأخيرين وعندما يعرضون قصور مفهومات أسلافهم، يقولون بكل وضوح كم ساعدتهم هذه المفهومات في تطوير أفكارهم الخاصة. هكذا كان - مثلاً - موقف سبينوزا من ديكارت. ولا بد من القول لصالح مؤسسي العلم الحديث إنهم ينظرون إلى أسلافهم نظرة إجلال ومحبة، مقرين بعبقريتهم ونبل مذاهبهم، التي منها كانت أجنة آرائهم. والسيد تشيرنيشيفسكي يعي هذا ويحذو حذو الناس الذين طبق أفكارهم على القضايا الجمالية »*

بعد كل الذي قلناه من قبل لم تعد ثمة حاجة إلى أن نكرر أن مؤلفنا في إشارته إلى منشىء العلم الحالي، يقصد فيورباخ، الذي اقتدى به ليس فقط في احترامه العميق لهيغل، بل أيضاً في موقفه النقدي من نظام هذا الأخير

وما يقوله عن هيغل في **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي** ليس صحيحاً دائماً، إلا أنه دائماً ذكي وممتع إننا نجد المقطع التالي الذي يذكرنا، مثلاً، بتعليقات انجلز على الطبيعة المزدوجة لفلسفة هيغل. كانت مبادىء هيغل قوية ومنتشرة جداً، واستنتاجاته كانت ضيقة وضعيفة وعلى الرغم من كل هذه العبقرية الضخمة، فإن المفكر الكبير كان يملك من القوة ما يكفي للتعبير عن الأفكار العامة، ولكن لا يكفي للإلتزام بتلك المبادىء لخلق الاستنتاجات المنطقية الضرورية منها ولم يكن هيغل وحده عاجزاً عن استخلاص الاستنتاجات من مبادئه، بل إن المبادىء نفسها لم تكن واضحة بالنسبة إليه، لقد كانت غامضة عليه إن الجيل التالي للمفكرين حقق خطوة إلى الأمام، والمبادىء التي كانت غامضة وأحادية الجانب ومجردة كما عبر عنها هيغل، بدت في كمالها ووضوحها فلا مكان للتردد، وانتهت الثنائية، والنتائج الخاطئة التي أدخلها ناقض هيغل إلى العلم بفرضيات أساسية مبطورة انتهت، وانسجم المضمون مع الحقائق الأساسية »**

---

* أخذ هذا المقطع من المقالة النقدية التي خصصها تشيرنيشفسكي لأطروحته العلاقة الجمالية في العدد الخامس من **السوفريمينيك** ١٨٥٥ (المؤلفات المجلد جزء ٢ ص ١٧٥)

** المؤلفات. المجلد ٢ ص ص ١٨٤ - ١٨٥ أنظر الفصل الأول من كراس انجلز **لودفيغ فيورباخ** الذي

إن المرء لا يستطيع إلا أن يحيي وضوح أفكار مؤلفنا هنا ولكن عندما يبدأ في وصف طريقة هيغل الديالكتيكية، فإننا، لسوء الحظ، نظل غير مقتنعين وإليكم ما قاله في هذا

«إن جوهر طريقته هو أن المفكر يجب ألا ينساق مع أي استنتاج إيجابي، بل يجب أن يبحث ما إذا كان الموضوع الذي يفكر فيه يضمن صفات وقوى متعارضة مع تلك التي قدمها الموضوع له في النظرة الأولى. وهكذا فإن المفكر مضطر إلى أن يختبر الموضوع من جميع الجوانب، فتبدو الحقيقة له كنتيجة التصارع بين كل الآراء المتناقضة وبالتدريج، نتيجة هذه الطريقة، فإن المفاهيم الأحادية الجانب السابقة حول موضوع ما يحل محلها بحث كامل من جميع الجوانب، ويتم الحصول على مفهوم حي من جميع الصفات الحقيقية للموضوع إن تفسير الواقع بات الواجب الدائم للفكر الفلسفي ونتيجة ذلك أولي الاهتمام الأكبر إلى الواقع الذي كانوا من قبل يتجاهلونه، ويشوهونه حتى يتطابق مع الميول الشخصية الأحادية الجانب. وهكذا ظهر من التفسيرات الاعتسافية السابقة بحث واع دؤوب عن الحقيقة. إن كل شيء في الحقيقة يعمد على الظروف، على شرطي المكان والزمان، ولذلك وجد هيغل أن الأحكام العامة السابقة التي تميز الخير من الشر من غير اختبار للظروف والأسباب التي أدت إلى بروز ظاهرة معينة، أن تلك الأقوال المأثورة العامة المجردة لم تعد مقنعة إن كل موضوع، كل ظاهرة لها أهميتها الخاصة، ولا بد من أن يحكم عليها وفقاً للظروف، وفقاً للبيئة التي توجد فيها وهذه القاعدة تعبر عنها الصيغة القائلة: «ليس ثمة حقيقة مجردة، الحقيقة ملموسة، أي الحكم المحدد يمكن أن يلفظ فقط حول واقعة محددة، بعد اختبار كل الظروف التي تقوم عليها»*

ترحماه إلى الروسة وشره السد لموفسش

* المؤلفات المجلد ٢ ص في ملاحظة أسفل الصفحة التي اقتبساها يشرح تشيريشيفسكي فكرته كالتالي مثلاً هل المطر مفيد أم صار؟ إن هدا مسألة مجردة لا يمكن تقديم جواب محدد عنها فأحياناً يكون المطر مفيداً وان كان في حالات نادرة صاراً ولا بد للمرء من أن يتحرى: بعد بدر الحبوب أمطرت مدة حمس ساعات فهل يمد المطر المحصول؟ الجواب هنا هو فقط كان المطر مفيداً حداً وهو جواب واصح ملموس ولكن في ذلك الصف بالدات وعندما حان الحصاد أمطرت وابلا مدة أسبوع فهل كان المطر مفداً للمحصول؟ والجواب الواصح والصحيح هو لا كان صاراً. وعلى هدا المنحى تحدد فلسفة هيغل جميع المسائل

معظم هذا صحيح إن الطريقة الديالكتيكية لا ترضى حقاً لـ « الأقوال المأثورة العامة المجردة على الأساس الذي حكم فيه الناس على الظواهر - وللأسف لا يزال معظمهم يفعل من غير دراسة الظروف والأسباب التي أوجدتها وتشيرنيشيفسكي بالطبع مصيب في اعتبار هذا فائدة كبرى تقدمها الطريقة الديالكتيكية. ولكن لأنه بالضبط مصيب في هذه الحالة. لا بد من الإقرار أنه كان مخطئاً في رؤية الموقف المتنبه للواقع، الذي يضطر المفكر إلى دراسة الموضوع من كل الجوانب، على أنه السمة المميزة الرئيسية للطريقة الديالكتيكية. إن الموقف المتنبه للواقع هو بالطبع شرط ضروري للتفكير الصحيح ولكن الطريقة الديالكتيكية تتسم أولاً وقبل كل شيء بحقيقة أنها تنظر إلى القوى التي تحدد تطور الظاهرة في الظاهرة نفسها، وليس في رغبات أو عدم رغبات الباحث إن المزايا الرئيسية للطريقة الديالكتيكية تصل إلى هذا، بما في ذلك أنها لا تترك مكاناً «للأقوال المأثورة المجردة العامة القائمة على النزعة الذاتية للكاتب إن الطريقة الديالكتيكية مادية بطبيعتها، وتحت تأثيرها نجد أحياناً بعض الباحثين ذوي النظرة المثالية ماديين في براهينهم. وأعظم مثال عن هذا هو هيغل نفسه، الذي في فلسفة التاريخ كثيراً ما يهجر منطلق المثالية ويصبح مادياً اقتصادياً*، كما يقول بعض من أساء فهم مصطلح ماركس. ولكن حتى نفهم الطبيعة المادية للطريقة الديالكتيكية، لا بد أن يحقق المرء أن قوتها تكمن في الانتباه أن مجرى الأفكار يقرره مجرى الأشياء ولذلك فإن المنطق الذاتي للمفكر يجب أن يتبع المنطق الموضوعي للظاهرة في البحث وقد شعر بيلنسكي بهذا عندما كتب مقالته عن الذكرى السنوية لبروديو وعندما «عجز عن تطوير فكرة النفي أي عجز عن

« هل الحرب مدمرة أم مفيدة؟ »، ولا يمكن الجواب عن هذا السؤال بشكل محدد، فلا بد أن يعرف المرء نوع الحرب، وكل شيء يقوم على شرطي الزمان والمكان فبالنسبة إلى الشعوب المتوحشة لا يلمسون أذى الحرب. بل يلمسون فائدتها الشعوب المتحضرة يرون الحرب ضارة أكثر منها مفيدة ولكن حرب ١٨١٢(...) مثلاً حرب تحرير الشعب الروسي ومعركة الماراثون كانت أعظم حادث مفيد في تاريخ البشرية. وهذا معنى المسلمة ليس ثمة حقيقة مجردة، الحقيقة ملموسة. فالمفهوم عن الشيء يكون ملموساً عندما يمثل كل الصفات والمزايا النوعية والظروف والبيئة التي يوجد فيها الموضوع وليس مجرداً من هذه الظروف وسماتها النوعية (كان يمثل مفكراً مجرداً فيكون الحكم خالياً من الحياة الحقيقية)

* للمزيد حول هذا أنظر مقالتي عن فلسفة هيغل في التاريخ نشرت في كتاب نقد نقادنا(1).

العثور على مبرر لهذه الفكرة في المجرى الموضوعي للتطور الاجتماعي أدان بحدة المشاحنات الذاتية المنفصلة عن الواقع ولأن بيلنسكي كان « عاجزاً عن تطوير فكرة النفي استرشد في نقده للعلاقات الاجتماعية بنزعاته الذاتية - **وهذا مشروع** بالطبع ويستحق أعظم تقدير، ولكن لا يمنع من أن يكون ذاتياً ولهذا كان مضطراً إلى تجاوز السمة الرئيسية للطريقة الديالكتيكية التي سبقت الإشارة إليها الانتباه إلى ربط مجرى الأفكار بمجرى الأشياء وجرى تجاوزها أيضاً، وللسبب ذاته كما سوف نوضح فيما بعد، من قبل تشيرنيشيفسكي، الذي في شرحه هذه الطريقة يرجعها إلى قانون - كما وصفه كانت - يجبر المفكر على اختبار الموضوع من كل الجوانب ولكن الانتباه إلى ضرورة اختبار الموضوع من كل الجوانب لا يعادل الانتباه إلى حقيقة أن مجرى هذا الاختبار يحدده كلياً منطق تطور الموضوع نفسه والباحث الذي ينتبه إلى هذه الحقيقة الثانية يمكن بسهولة أن يظل مثالياً ولو اتخذ موقفاً مسبقاً من الموضوع ودرس كل جوانبه سوف نرى فيما بعد أن تشيرنيشيفسكي، الذي كان في الفلسفة مادياً حاسماً، ظل في آرائه التاريخية والاجتماعية مثالياً لقد وجه انتباهه في الفلسفة بشكل رئيسي إلى العلاقة بين الذات والموضوع وقد حل هذه المسألة بطريقة مادية ولكنه نسبياً استفاد قليلاً في مسألة تبني الطريقة من قبل الباحث الذي يتخذ موقفاً مادياً من العلاقة بين الذات والموضوع ولذلك عندما يُقر بأهمية الطريقة الديالكتيكية، كان أبعد من أن يفهم ميزتها الرئيسية، وبالتالي لم يستطع إخضاعها للمراجعة التي قام بها ماركس وانجلز كان تشيرنيشيفسكي مادياً، ولكن المرء في آرائه التاريخية لا يجد سوى جنين الديالكتيك المادي - إلا أنه قابل للحياة حقاً ولن يدهشنا هذا إذا نحن تذكرنا أن فلسفة معلمه فيورباخ عانت أيضاً من العيب نفسه. ماركس وانجلز فقط، اللذان انفصلا عن مدرسة فيورباخ وقتها، أفلحا في معالجة هذا العيب وخلقا المادية الحديثة **المذهب الديالكتيكي الأولي**.

إلا أننا نكرر إن آراء تشيرنيشيفسكي التاريخية تشتمل على جنين الديالكتيك المادي القابل للحياة والأسطر البليغة التالية من مقالة « نقد الميول الفلسفية المناوئة لحيازة الأرض الكومونية »، تحمل شاهداً على هذا « تغير الأشكال باستمرار، والرفض المستمر لشكل تولد من مضمون ما أومن كفاح ما، نتيجة تقوية ذلك الكفاح، للتطور الأعلى لذاك المضمون - من يفهم هذا القانون العظيم الشامل المستمر، من يتعلم تطبيقه

على الظواهر - أنى له أن يشارك الآخرين الذين يخشون من اتخاذه. وإذ يكرر بعد الشاعر

أخذت نصيبي من العدم، وأرى
العالم كله الآن يسمي إليّ.

فإنه لا يأسف على شيء فات أوانه ويقول: فليأت ما يأتي، سيكون مرح في شارعنا »*

وفي مقالته عن كتاب ارسطو **الشعر** يضع تشيرنيشيفسكي الملاحظة التالية بعد أن أظهر نفاذ عقل ارسطو واستيعابه: « ولكن على الرغم من عبقريته غالباً ما ينحرف إلى التفاهة بسبب كفاحه المستمر للعثور على تفسير فلسفي عميق ليس للظواهر الرئيسية، بل أيضاً لكل تفصيلاتها هذا الكفاح الذي عبرت عنه مسلمة فيلسوف حديث، منافس لآرسطو كل ما هو واقعي عقلي، وكل ما هو عقلي واقعي غالباً ما أجبر المفكرين معاً على إضفاء أهمية عظيمة على الوقائع الصغيرة فقط لأن هده الوقائع تناسب نظامهما تماماً »** ليس الفيلسوف الحديث، المنافس لأرسطو سوى هيغل. وهكذا نرى أن فرضية هيغل الشهيرة أن كل ما هو واقعي عقلي، وكل ما هو عقلي واقعي اعتبرها تشيرنيسيفسكي نتيجة « التفاهة فقد سعى المفكر الألماني العظيم إلى العثور على تفسير عميق حتى للتفصيلات التي لا أهمية لها وهذا أعظم عرض تبين فيه أن تشيرنيسيفسكي أكثر فهماً لهيغل من بيلنسكي، الذي اعتقد أن مذهب هيغل حول عقلنة كل ما هو واقعي كان الأساس الممكن للعلم الاجتماعي

ويظهر تشيرنيسيفسكي ديالكتيكاً بارعاً في مقالة « نقد الميول الفلسفية ولكن ديالكتيكه هنا أيضاً ليس مادياً كاملاً ولأنه غير مادي كامل، لأن تشيرنيشيفسكي يؤمن أن من الممكن دراسة مسألة الحيازة الكوميونية للأرض*** من وجهة نظر التطور عامة، بغض النظر عن شرطي الزمان والمكان - فسر القراء مقالته على أنها دفاع عن الحيازة الكوميونية **الروسية** للأرض، التي يبدو أن مؤلفنا كان عندئذٍ (نهاية ١٨٥٨) قد انتهى منها نهائياً ولكننا سناقش المزيد من ذلك فيما بعد

---

* المؤلفات المجلد ٤ ص ص ٣٣٢ - ٣٣٣

** المؤلفات المجلد ص ٣٨

*** الحيازة الكوميونية للأرض هي ملكية جماعية تشبه مشاعية الأرض قديماً ولكنها أرقى منها وقد استخدمنا كلمة « كوميونية » باعتبارها مصطلحاً عمم وانتشر، بدلا من « جماعية أو « مشاعية (المترجم).

الفصل السادس
نظرية المعرفة

قلنا من قبل إن المسائل العملية المختلفة أبعدت تشيرنيشيفسكي عن دراسة الفلسفة وفي المنفى لم يعد قادراً على تكريس وقته لما يسمى القضايا الجارية هنا وهب نفسه للنظرية، طالما أنه لم يكن قادراً على تذليل العقبات في وضعه، وطالما أن قواه لم تنصرف بعد إلى القصة. إن المقالات التي ألحقها بعدة مجلدات من ترجمته كتاب فيبر **تاريخ العالم** تبين أنه في سيبريا درس التاريخ كثيراً وأيضاً درس ما يسمى حياة البشرية قبل التاريخ ولكن لدينا دليل مباشر أيضاً أنه تابع دراسة الفلسفة وتابع الآراء الفلسفية المتداولة بين العلماء المعاصرين وهذا الدليل هو أولاً مقالة « سمة المعرفة الانسانية المنشورة ١٨٨٥ في العددين ٦٣ و٦٤ من **روسكي فيدوموستي** ثانياً المقدمة التي أطلعنا عليها من قبل والتي كتبها لمخطوطته « العلاقة الجمالية بين الفن والواقع التي لم تنشر طبعتها الثالثة.

يبدأ تشيرنيشيفسكي أولى المقالات بالقول إنه لسخافة ذلك الرأي « النقدي الذي وفقاً له نعرف فقط ادراكاتنا عن الأشياء، وليس الأشياء نفسها، وبالتالي لا نعرف إذا كانت إدراكاتنا عنها تتطابق مع الأشياء ذاتها إنه ليثبت أن هذا الرأي لا بد أن يقود إلى نفي واقع العضوية الانسانية. إن لدينا إدراكاً محدداً عن الذراع، لذلك لا بد من الافتراض أن شيئاً ما يوجد ويدفع إلينا بهذا الادراك. ولكن هل هذا الشيء يتطابق مع إدراكنا عنه؟ من المستحيل الاجابة عن هذا السؤال اجابة مؤكدة فإذا كان الأمر هكذا فان الشيء الذي ندركه كذراع هو فعلاً ذراع، وفي تلك الحالة فاننا نملك ذراعين فعلاً فان لم يكن الأمر هكذا، فاننا لا نملك ذراعين: « وبدلاً من

الذراعين نملك مجموعة من شيء ما أو آخر لا تشبه الذراعين، مجموعة من أشياء غير معروفة لديبا، ولكننا لا نملك ذراعين. ونحن لا نعرف شيئاً مؤكداً عن تلك المجموعات ما عدا وجود اثنتين منها فنحن نعرف على وجه التأكيد أن ثمة اثنتين لأن كل واحد من مفهوميا - كل واحد مفهوم منفصل لذراع منفصلة - لا بد له من أساس منفصل ولهذا فوجود مجموعتين من شيء ما لا يترك مجالاً للشك إذن مسألة ما إذا كان لنا ذراعان أم لا لا تمكن الاجابة عنها كل ما نعرفه هو أننا إذا كان لنا ذراعان فاننا فعلاً لنا ذراعان، ولكن إن لم يكن لنا ذراعان، فان عدد مجموعات الشيء الذي نملكه بدلاً من الذراعين ليس أي عدد بل هو العدد اثنان

يسمى تشيرنيسيفسكي نظرية المعرفة التي إذا تطورت منطقياً أدت إلى نفي واقع العضوية البشرية بالنزعة الوهمية إنه يدعوها شكلاً جديداً من سكولائية العصور الوسطى ويقول إنها تروي القصة الخيالية ذاتها التي رواها السكولائيون يوماً ما ويشرح من الناحية المنطقية نشأة هذه النظرية - ولا شك بروح فيورباخ تماماً - بأنها اعتمدت بدلاً من الانسان، أي العضوية المادية، كائناً مجرداً، «نفساً لا نعرف عنها شيئاً سوى أن لها مفهوماً يشكل مضمون حياتنا العقلية فإذا كنا لا نعرف عن هذا الكائن المجرد سوى أنه ذو مفهوم، فمن الواضح إذن أننا لا نعرف فيما إذا كان يملك عضوية حقيقية بحياة واقعية خاصة به أم لا ولكن المدافعين عن نظرية المعرفة هذه يهربون من القول: اننا لا نملك عضوية ولذلك فانهم يحصرون أنفسهم في تعريف غامض ليس فيه سوى امكانية الشك المنطقي بوجود العضوية الانسانية، هذه الامكانية تظهر من خلال الضباب السكولائي إن الأمر يصل إلى حد مكر الاسدلالات السكولائية، إلى حد السفسطة، إلى حد تقديم مفاهيم مختلفة في تعريف واحد. يلاحظ تشيرنيشيفسكي في عرضه المختصر لنظرية النزعة الوهمية كالتالي

«عندما نحلل ادراكاتنا للأشياء التي تبدو لنا موجودة خارج أذهاننا، نجد أن كل واحد من هذه الادراكات يتضمن ادراكاً للمكان والزمان والمادة وعندما نحلل ادراكنا للمكان نجد أنه يناقض نفسه ونجد الشيء ذاته عندما نحلل ادراكاتنا للزمان والمادة، فكل منها يتناقض مع نفسه لا شيء يمكن أن يتناقض مع نفسه لذلك لا شيء يمكن أن يتطابق مع ادراكاتنا للأشياء الخارجية ذلك أن ما ندركه من العالم الخارجي هو هلوسة ولا شيء ينطبق على هذا الشبح يكون موجوداً، أو يمكن أن يوجد خارج

عقولنا إننا نعتقد أننا نملك عضوية، اننا لمخطئون، كما سنرى الآن. إن ادراكنا لوجود عضويتنا هلوسة، لا يوجد، ولا يمكن أن يوجد حقاً

ولكن إن كان الأمر هكذا إذا كانت نظرية المعرفة هذه قصة تافهة عن الحياة العقلية غير الواقعية لكائن غير موجود، فان المسألة توضع على أساس السؤال التالي: لماذا يبجه الكثير من الطبيعيين باتجاه هذه النظرية في العصر الحالي. إن هذا يفسره تأثير الجهابذة الاختصاصيين في الفلسفة عليهم. «معظم المثقفين عامة يميلون إلى اعتبار حلول القضايا التي تعلن أنها حقيقة أغلبية العلماء الذين تعود إليهم هذه القضايا، أقرب ما تكون إلى الحقيقة العلمية والعلماء الطبيعيون مثل بقية المثقفين أيضاً يجدون من الصعب مقاومة تأثير الأنظمة الفلسفية السائدة بين الاختصاصيين في الفلسفة».

وأغلبية الاختصاصيين في الفلسفة يأخذون بالنزعة الوهمية. ولا يرغب تشيرنيشيفسكي في لومهم على هذا إن سمة الفلسفة التي تسود في زمن معين تقررها السمة العامة للحياة الثقافية والأخلاقية للأمم المتقدمة باختصار، الاختصاصيون في الفلسفة يتأثرون بدورهم بالبيئة المحيطة بهم. هنا يمكن أن يسأل المرء لماذا تتطور الحياة الثقافية للأمم المتقدمة حالياً بصورة تنتشر بينهم القصة السخيفة للوهمية تحت قناع الفلسفة؟ إن تشيرنيشيفسكي لم يقدم جواباً عن هذه المسألة في مقالته. ولكن بما أنها مسألة مهمة، وحتى نجد ولو جواباً ممكناً لها عند مؤلفنا يساعدنا على تحديد النظرة العالمية الأخيرة، فسوف نعود إلى مقالة «المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة».

إن تشيرنيشيفسكي في بداية مقالته إذ يحلل فكرة جول سيمون أن النظريات السياسية تنشأ تحت تأثير الصراع الاجتماعي، يقول إنه لا شيء يدهش في هذا، إذ ليست النظريات السياسية فقط، بل حتى الأنظمة الفلسفية تنشأ تحت تأثير العلاقات الاجتماعية، وكل فيلسوف يمثل أحد الأحزاب السياسية الذي يكافح للسيطرة على المجتمع في عصره. ولا يعتبر مؤلفنا أن من الضروري الاشارة إلى المفكرين الذين قدموا دراسة خاصة للفلسفة السياسية لأن انضمامهم للأحزاب السياسية واضح. لقد كان هوبز من أنصار الحكم المطلق وكان لوك من الويغ وكان ملتون جمهورياً ومونتسكيو ليبرالبا بعد التجربة الانكليزية. إنه يرجع إلى هؤلاء الفلاسفة خاصة ويعتقد أنهم خاضعون للتأثير ذاته. «انتمى كانت للحزب الذي أراد تتويج الحرية في ألمانيا بطريقة ثورية، ولكنه نفر من الطرق الارهابية. وكان شلنج ممثلاً للحزب الذي ارعبته الثورة فبحث

عن الهدوء في مؤسسات العصور الوسطى، وأراد أن يعيد إلى ألمانيا الدولة الاقطاعية التي كان قد دمرها نابليون الأول والوطنيون البروسيون الذين كان فيخته الناطق بلسانهم. وكان هيغل ليبراليا معدلاً كان محافظاً مطرفاً في استنتاجاته، لكنه تسى المبادىء الثورية للنضال ضد الرجعية المتطرفة على أمل الحؤولة دون تطور الروح الثورية، التي خدمته كسلاح للاطاحة بما كان قديماً وبالياً واشارسا ليست أن هؤلاء الناس يؤمنون بعقائد كأفراد، فليس لذلك أهمية، بل إن أنظمهم الفلسفية كانت متشربة بروح تلك الأحزاب السياسية التي انتمى إليها أصحاب تلك الأنظمة. والقول إن الحالة اليوم غيرها في الماضي، والقول انه الآن فقط بات لدينا فلاسفة طفقوا يبنون فلسفتهم تحت تأثير العقائد السياسية ليس سوى قول ساذج جداً »*

فلندع جانباً وصف الفلاسفة الأفراد الذي نجده هنا، إن شيئاً واحداً يمكن أن يضاف إلى ما قاله تشيرنيشيفسكي هنا النضال السياسي نفسه الذي حدد اتجاه الفكر الفلسفي، يعمل ليس بسبب بعض المبادىء المجردة، بل تحت التأثير المباشر لحاجات تلك القطاعات من المجتمع التي تنتمي إليها الأحراب السياسية وطموحاتها إلا أن تشيرنيشيفسكي نفسه لم يجادل في هذا أبداً وفيما بعد، في وصفنا لآرائه التاريخية، سوف نرى أنه كان قادراً - أحياناً على الأقل - أن يرى بوضوح المركز الطبقي للمفكر في تطور فكره وعلى ضوء هذا لنا الحق أن نفترض أنه جمع الوضع الحالي للفلسفة مع الوضع الطبقي للناس الدين قاموا بدراسه دراسة خاصة باختصار، إن تشيرنيشيفسكي أقام رابطة سببية بيں الانتشار الكبير «للوهمية الفلسفية في العصر الحاضر وانحطاط الطبقة الاجتماعية التي منها هؤلاء الايديولوجيون الذين هم، في قسمهم الأكبر، فلاسفة عصرنا وإذا كان الأمر هكذا، فيظهر أن مؤلفنا استوعب ارتباط الفكر الفلسفي بالحياة الاجتماعية أكثر من «نقاد ماركس المعاصرين، الذين

---

* المؤلفات مجلد ٦ ص ١٨٠ في مقاله «سأة نطريه الطسعه النمعه للصراع من أجل الحياة التي سوف ساقشها فما بعد، يقيم سيرنيسفسكي صله بين نطور النظريات الطبيعيه ونطور العلاقات والطموحات الاجتماعيه وفي السوات الأخيره من القرن الثامن عسر والسنوات الأولى من القرن التاسع عسر نرك معظم الطبيعيين نظرية امكانية تحول الأنواع «متماسين مع روح العصر التي سعت إلى ارساء تقلىد الحصم الرئيسي لنظريه التحول دلك الوقت، كوفير كان في العلم الطبيعي ممثلا لتيار في الفكر سعى نابليون إلى جعله سائداً فى الحياة الثقافيه، وقد ساد خلال مرحلة الاصلاح (المؤلفات المجلد ١٠ جزء ٢ ص ٢٣ و٢١).

عجزوا عن رؤية أن أيديولوجيا البروليتاريا لا يمكن أن تندمج في كل عضوي مع المذاهب الفلسفية المستعارة من أيديولوجيا البرجوازية المنحطة. فعلاً إن هؤلاء النقاد ينتمون إلى « الوهميين »

أما كم كان فهم تشيرنيشيفسكي رائعاً للحالة الراهنة المحزنة للفكر الفلسفي، فيمكن أن يظهر من مقدمته للطبعة الثالثة لـ « العلاقة الجمالية فبعد أن عبر عن أسفه لحقيقة أن أغلبية الطبيعيين اليوم يكررون « نظرية « كانت الميتافيزيائية عن ذاتية معرفتنا » يضيف:

« عندما يكف الطبيعيون عن هذا الهراء الميتافيزيائي، فسوف يصبحون قادرين على العمل، وسيتمكنون، على أساس العلم الطبيعي، من إقامة نظام من المفاهيم يكون أدق وأكمل من تلك التي عرضها فيورباخ إلا أن عرض المفاهيم العلمية لما يسمى القضايا الأساسية للبحث الإنساني الذي قام به فيورباخ يظل الآن هو الأكمل »*

ولكن متى يكف الطبيعيون عن الهراء الفلسفي؟ لا شك أنهم يكفون فقط عندما يكون ثمة تغير في العلاقات الاجتماعية تحت التأثير الذي تخشاه « الطبقات المثقفة » خوفاً من المادية باعتبارها حقيقة فلسفية لا تنسجم مع مصالحها الاجتماعية وقد تأكد تشيرنيشيفسكي أن هذا لن يكون عاجلاً وهذا هو سبب تفضيله كلمة « الآن » للإشارة إلى نظرة فيورباخ وقد كان مصيباً تماماً في هذا الصدد: ففيورباخ بالمقارنة مع الماضيين والأفيناريوسيين والكليفورديين والرغسونيين ما يزال ممثلاً لأعظم وأعمق نظرية فلسفية معاصرة - أي النظرية التي تتفق مع الحالة القائمة للعلم الطبيعي الحقيقة إن فلسفة فيورباخ خضعت لإعادة صياغة مفيدة على يد ماركس وانجلز إنها في هذا الصدد، وفي بعض نواحيها « مرحلة مخلوفة » في التطور الفلسفي إلا أن هذه الناحية من القضية ظلت غير معروفة من قبل مؤلفنا واللوم في هذا لا يقع بالطبع عليه، ولكن على الظروف التي عاشها في النصف الثاني من حياته.

فلنعد إلى مقالة « سمة المعرفة الإنسانية ». فيها يسأل تشيرنيشيفسكي: « ولكن ما هذا النظام الذي يحول معرفتنا للطبيعة إلى سراب بمعونة سرابات القياسات السكولائية؟ هل أنصار الوهمية يعتبرونه حقاً نظاماً من الفكر الجاد؟ » ويجيب عن

---

* المؤلفات المجلد ١٠ جزء ٢ مقطع ص ١٩٦

هذا أن هناك بالطبع بعض الشاذين بين الوهميين الذي اعتنقوا نظامهم الفلسفي جدياً بيد أنهم أنفسهم في أغلب الحالات لا يولون أهمية جدية له. إن موقفهم من نظامهم الفلسفي الخاص يمكن أن تدل عنه الكلمات التالية: «الحقيقة الفلسفية هي حقيقة فلسفية وليست أي شيء آخر فمن وجهة النظر الدنيوية ليست حقيقة، وكذلك من وجهة النظر العلمية. أي أنهم أحبوا الانخراط في الوهم. وهم يعرفون أنهم انخرطوا في الوهم »*

هذا مناسب جمالياً إن الممثلين الجادين لـ «الوهمية» ينظرون إلى آرائهم الفلسفية بهذه الطريقة. ولكن هناك «شاذين» يأخذون تلك الآراء مأخذ الجد، أكثر مما ظن تشيرنيشيفسكي من يقول إن بوغدانوفيينا والفالنتيين واليوشكيفيتشيين والبرمانيين و«توتي فروتي»** ليسوا جادين فيما يتخيلون أنهم أعظم حقيقة فلسفية تقدمية في عصرنا؟ إننا نعتقد أنهم يؤمنون بما يقولون. ألا كم يوجد منهم في روسيا، وليس في روسيا وحدها نعم. يوجد الكثير من الشاذين في العالم أكثر حتى مما اعتقد تشيرنيشيفسكي الذي بالغ، كما نعرف في دور المصلحة الذاتية في السلوك البشري.

فيما يخص «الوهميين» يصوغ تشيرنيشيفسكي رأيه الخاص في سمة المعرفة الإنسانية: «معرفتنا هي معرفة إنسانية. إن قوى الإنسان المعرفية محدودة، مثل بقية قواه وبهذا المعنى للكلمة فإن سمة معرفتنا تحددها سمة قوانا المعرفية. فإذا كانت أعضاء حسنا أشد إدراكاً، وإذا كان ذهننا أشد قوة، فسوف نعرف أكثر مما نعرف الآن. إن اتساع المعرفة مصحوب عامة بتغير في مخزوننا السابق من المعرفة. إن تاريخ العلم يخبرنا أن معرفتنا الغزيرة السابقة قد تغيرت لأننا نعرف الآن أكثر من قبل »***

ولكن على الرغم من أن معرفتنا الغريرة السابقة تغيرت، فإن سمتها الجوهرية تظل من غير أن تتغير بحيث تبدو كأنها معرفة فعْلية. وكمثال على ذلك يتخذ تشيرنيشيفسكي من الماء مثالاً

إننا الآن بفضل الترمومتر نعرف حرارة غليان الماء بالضبط ودرجة تجمده. إن

---

* المرجع السابق مقطع ٤ ص

** كل الأنواع

*** المرجع السابق ص ص ١٠ - ١١.

الناس لم يعرفوا هذا من قبل. لقد اتسعت معرفتنا بالماء ولكن بأي معنى تغيرت؟ فقط بمعنى أنها أصبحت أكثر تحديداً من قبل، لأن الناس من قبل يعرفون فقط أن الماء يغلي عندما يصبح حاراً جداً، ويتجمد عندما يصبح بارداً جداً وكشفت الكيمياء لنا فيما بعد أن الماء مركب من الأوكسجين والهيدروجين. لم يكن هذا معروفاً من قبل. ولكن الماء لم يكف عن كونه ماء لأننا تعلمنا تركيبه الكيميائي. إن كل معرفة الناس عن الماء قبل اكتشاف تركيبه الكيميائي تبقى حقيقية بعد ذلك الاكتشاف أيضاً يقول تشيرنيشيفسكي «إن التغير الوحيد الذي أحدثته المعرفة الجديدة في المعرفة القديمة هو أنها أضافت تعريف الماء

إن الخطأ من طبيعة الكائنات الإنسانية ولذلك كل ما - في الأمور اليومية، كما في العلم - لا بد من أن ينتبه ويحذر حتى يتجنب اقتراف الأخطاء الحذر ضروري. ولكن تشيرنيشيفسكي يلح أنه لا بد من حد للحذر أيضاً يقول: «العقل يختبر كل شيء ولكن كل مثقف يمتلك معرفة مرموقة اختبرها عقله من قبل وليس مستعداً أن يخضعها لأي شك بينما يبقى هو ذا عقل منطقي »*

سوف ننهي عرضنا لهذه المقالة بالإشارة إلى الملاحظة التالية التي وضعها مؤلفنا في هذا المقطع: «إن السكولائيين ديالكتيكيون بشكل عام »** هذه الملاحظة تميز مفكراً العصر الديالكتيكي في آرائه التاريخية، كما قلنا، لم يتطور تطوراً كافياً ويمكن للمرء أن يعتقد أنه في رأي تشيرنيشيفسكي - عكس كل شيء قيل عن الطريقة الديالكتيكية في كتابه **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي** - وصل الديالكتيك إلى درجة المفاهيم المنطقية. ولكن إذا كان السكولائيون بمعنى ما - أي بمعنى تحليل المفاهيم - ديالكتيكيين، فيجب ألا ننسى أن هذه الديالكتيكية كانت «خادمة الكهوت وبسبب ذلك بالضبط يجب ألا نحكم على الفرضيات الرئيسية على الأساس الذي أبرز عملياتها المنطقية إن وضعها التابع قلبها إلى سفسطة، ولكن من حيث الأساس - كما لاحظ هيغل مصيباً وكما يبدو أن تشيرنيشيفسكي نفسه قد فكر عندما كان يكتب

---

* المرجع السابق ص ١٥

** المرجع السابق ص ٩

مقالات حول مرحلة غوغول - لا شيء يجمعهم مع السفسطة، لأنها أظهرت قصوراً في التحديدات العقلية المجردة بسبب الجانب الأحادي الذي استقرت عليه كل السفسطائية* سوف نرى باختصار كيف أن أحكاماً غير مناسبة من تشيرنيشيفسكي قد تأثرت بموقفه الحريص القاصر من طبيعة الديالكتيك.

★ أنظر هيغل [ووفق ذلك فإن الديالكتيك لا يختلط مع السفسطة قط، التي يكمن جوهرها في حقيقة أنها تقدم تعريفات مجردة أحادية الجانب بشكل منعزل. معتمدة على ما تتطلبه من التعريفات في لحظة معينة تحددها مصالح الفرد ووضعه الخاص   الديالكتيك يختلف أساساً عن مثل هذه الأعمال. لأنه يرمي إلى اختبار الأشياء في حد ذاتها (أي حسب طبيعتها الخاصة - بليخانوف) في المجرى الذي انكشف فيه الصيغة المحدودة للتعريفات العقلية الأحادية الجانب

الفصل السابع
الطبيعة النفعية للصراع من أجل الحياة

كما أشرنا من قبل، كتب تشيرنيشيفسكي إثر عودته من المنفى، من جملة ما كتب، مقالات حول مسألة التحولية. مقالته الموقعة باسم «تحولي قديم» وعنوانها «**نشأة نظرية الطبيعة النفعية للصراع من أجل الحياة (مقدمة إلى أطروحات معينة حول علم النبات والحيوان وعلوم الحياة الإنسانية)**» لم تحمل مباشرة على ما سماه فلسفة خاصة أي على «نظرية حل معظم مسائل العلم العامة، التي تسمى عادة مسائل الميتافيزياء مثل مسائل العلاقة بين الروح والمادة وحرية الإرادة الإنسانية وخلو الروح الخ»* وقد خصصها المؤلف لنقد نظرية دارون، ويمكن أن ندعو اختصاصيين في البيولوجيا للحكم على جدوى هذا النقد ولكن مقالة تعالج ما يمكن أن نسميه فلسفة البيولوجيا مضطرة إلى أن تتضمن مفاهيم فلسفية عامة ذات فائدة كبيرة لأكثر من البيولوجيين وحدهم. مثل هذه المفاهيم توجد في مقالة تشيرنيشيفسكي، ولذلك نرى من الضروري أن ندرسها في هذا الفصل.

يسمي تشيرنيشيفسكي نظرية دارون نظرية الطبيعة النفعية للصراع من أجل الحياة، وقد شن عليها نقداً متطرفاً هذا الموقف السلبي الحاد نفسه يمكن أن نشعر به منذ بداية المقالة يعلن تشيرنيشيفسكي أن النظرية المطروحة ذات «فكرة رائعة منطقياً» تعبر أساسها وهي: من الأذى يولد الخير وبما أن الفكرة سخيفة تماماً في رأي تشيرنيشيفسكي، فإن الاستنتاجات المنبثقة منها سخيفة هي الأخرى يقول مؤلفنا «إن نظرية الطبيعة النفعيّة للصراع من أجل الحياة تناقض كل الوقائع في كل فرع من

---

* المؤلفات المجلد ١ ص ١٩٣. الملاحظة

فروع العلم التي تطبق فيه، وساقض على الأخص كل وقائع فروع علمي النبات والحيوان على الأخص، اللذين منهما انطلقت وانتشرت إلى بقية علوم الحياة

إنها تناقض معنى كل الكدح اليومي الإنساني المعقول، وتناقض بشكل صارخ معنى كل حقائق الزراعة، بدءاً من اندفاع المتوحشين إلى حماية الحيوانات الآهلة من الجوع والكوارث الأخرى، ومحاولاتهم الأولى في تمهيد التربة لفلاحتها بالعصي الحادة »*

إذ يقيم تشيرنيشيفسكي مناقشاته حول بعض كلمات من دارون، يعتقد أن نظرية الصراع من أجل الحياة مستعارة من العالم الطبيعي الانكليزي مالتوس، الذي كتب مؤلفه المشهور **مقالة في مبدأ السكان** ليرضي الطبقات العليا في المجتمع الانكليزي. ولم يفهم دارون كتاب مالتوس تماماً فمالتوس يحاول في كتابه إثبات ان كوارث الناس هي نتيجة لتكاثرهم الضخم. ولكن لم يحدث أن مالتوس وصف الكوارث الناجمة من التكاثر الضخم بأنها نافعة. لقد اعتبرها كوارث ولا شيء آخر وفي تطبيق دارون لفكرة مالتوس في البيولوجيا افترض أن الكوارث التي سببها الصراع المتبادل من أجل الحياة بين العضويات الحية تصبح بركة لها، أي مصدر تقدم لأنه يحسن من عضويتها، لقد اعتنق دارون طريقة في التفكير تعتبر الكوارث بركة كبيرة أو على الأقل مصادر بركة يقول تشيرنيشيفسكي «مثل هذه الطريقة في تفسير الأشياء تدعى الطريقة التفاؤلية وباستخدام هذه الطريقة من التفكير، من غير قبول طريقة أخرى، اقتنع دارون أن مالتوس فكر مثله في الكوارث، وأنه اعتبرها بركة أو مصدراً للبركات. إن الكوارث التي يتحدث عنها مالتوس - الجوع، المرض، الحروب من أجل الغذاء بسبب الجوع، الجرائم المقترفة لاسكات الجوع، الموت جوعاً - ليست كما هو واضح بركات في حد ذاتها لأولئك الذين عانوها، وطالما أنها ليست بركات ينتج من ذلك، عند دارون، أنه لا بد أن تعتبر مصادر للبركات وهكذا يظهر أن الكوارث التي يحدث عنها مالتوس يفترض دارون أنها تؤدي إلى نتائج جيدة، ولا بد أن يعتبر التكاثر الضخم الذي هو السبب الأساسي لتلك الكوارث سبباً أساسياً لكل ما هو خير في تاريخ الكائنات العضوية، مصدر تلاؤم العضوية، القوة التي نتجت من العضويات

---

* المؤلفات المجلد ١٠ جزء ٢ [مقطع ٤ ص ١٦]

وحيدة الخلية مثل الفلورا كالوردة والليمونة والبلوطة، ومثل الفونا كالسنونو والبجعة والنسر والأسد والفيل والغوريلا وعلى أساس هذا التفسير المقنع لفكرة استعارها من مالتوس تشكلت في خيال داروِن الطبيعة النفعية للصراع من أجل الحياة »* لقد اقترف داروِن خطأً علمياً فادحاً في افتراضه ان الطبيعة تعمل مثل مزارع يحتفظ بالحيوانات ذوات الصفات التي يطلبها فيها ويقتل تلك التي لا تتوفر فيها تلك الصفات والحقيقة أن المزارع لا يسلك كالطبيعة أبداً « ففي حين يقطع رأس الأبقار التي يقتلها، فانه لا يقطع رأس الأبقار التي يحتفظ بها ». ولكن ماذا نرى في الطبيعة؟ « الشكل الأكثر شيوعاً في الانتخاب الطبيعي هو انقراض الكائنات الزائدة عن كمية الطعام، فهل تموت الكائنات التي تعاني من الجوع في هذه الحالة؟ لا أبداً هل يسلك المزارع مثل هذا مع قطيعه؟ هل سيتحسن قطيعه، إذا هو انقص التكاثر بجعل كل الحيوانات تموت جوعاً؟ إن الحيوانات التي ظلت والتي عاشت ضعيفة سوف يزيد القطيع من ضعفها »**

إن تشيرنيشيفسكي يسمي نظرية داروِن في الصراع من أجل الحياة نظرية الجنرال الاسباني توركيمادا، ويقول: عندما يعذب أولاد جهلة قساة فأرة فانهم لا يعتقدون أنهم يعملون خيراً للفئران، ولكن داروِن يعلمهم أن يفكروا على النحو التالي: « انظروا إن الفئران تهرب من الأولاد، وبفضل هذا تتطور سرعتها وترشق حركتها وتتطور عضلاتها وقوة تنفسها، وتتحسن كل عضويتها نعم إن الأولاد الأشقياء والقطط والصقور والبوم تستفيد من الفئران. هل هذه هي الحالة؟ »*** يقول تشيرنيشيفسكي بأنها ليست هي الحالة أبداً فعضوية الفئران تضعف نتيجة الركض الشديد، تماماً كما تضعف عندما تحاول الفئران تجنب أعدائها عن طريق الاختباء في حجورها هذا التدني في العضوية الذي يزداد جيلاً بعد جيل يؤدي إلى الانقراض. وبما أن الانقراض اثم لا مراء فيه فان الانتخاب الطبيعي اثم أيضاً وليس بركة. وكلما ازداد تغير العضوية عن طريق الانتخاب الطبيعي، ازداد انقراضها ولو أن هذا الانتخاب كان سائداً في تاريخ الكائنات العضوية، لما كان ثمة تحسين في العضوية، وبما أن ثمة

---

* المرجع السابق ص ٤٣

** المرجع السابق ص ٣٥

*** المرجع السابق ص ص ٤٣ - ٤٤

تحسيناً فان من الواضح أنه كانت ثمة قوة أو مجموعة قوى عارضت أو عدلت عملية الانتخاب الطبيعي بعض تلك القوى اكتشفها التحوليون الذين سبقوا داروں ومع الزمن سوف يتم اكتشاف الكثير ولكن تشيرنيشيفسكي، بغض النظر عن الاكتشافات التي تحققت أو تتحقق في هذا المضمار لم يشك أن القوى التي تحسن من بنية الكائن العضوي لا بد أن تكون قوى «ترقي وظائف العضوية، وإذا كان هذا الكائن ذا قدرة على الاحساس فانها تخلق فيه حساً للكائن الجسدي والأخلاقي مليئاً بالحياة والبهجة»* هذه هي النتيجة النهائية لمؤلفنا إن داروں في رأيه كان رائعاً كـ «مسجل» للتحولية وليس كنظري لها ومن بين من يفخر بهم كنظريين للتحولية لامارك، الذي يقول عن كتابه **فلسفة علم الحيوان** أنه كتاب رائع** ومن بين أشد الانتقادات التي يوجهها تشيرنيشيفسكي إلى داروں هي أن داروں لم يتعرف على مذاهب التحوليين الذين سبقوه، أي على لامارك نفسه***

اننا مضطرون هنا، أولاً وقبل كل شيء، ان نقوم بتصحيح واقعي إن داروں يطري مؤلفات لامارك اطراء عالياً في الملاحظة التاريخية، التي تسبق مقدمة كتابه في أصل الأنواع هنا أيضاً يتحدث عن آخرين سبقوه وليس لدينا النسخة الأولى من هذا الكتاب، لذلك لا نستطيع التأكيد فيما إذا كانت الملاحظة إياها في هذه الطبعة. ولكن الأرجح أنها لم تكن وأنّ غيابها يفسر نقد داروں أنه تجاهل مؤلفات التحوليين الأولين. ولكن في رأينا أن غياب هذه الملاحظة من الطبعة الأولى لا يثبت أن داروں قبل نشر هذه الطبعة، أي قبل كانون الأول ١٨٥٩ كان مطلعاً على مؤلفات لامارك أو على الأقل على حفنة التحوليين السابقين. والحقيقة أن داروں في ملاحظته يرجع إلى «التاريخ الرائع لجيوفري سان هيلير (التاريخ الطبيعي العام) المؤرخ ١٨٥٩ ولكنه لا يقول انه كان الوحيد الذي تعلم مه أفكار لامارك: يقول فقط انه استعار معلومات مه عن التاريخ الذي تضمه كتاب لامارك الأول وهذا بالطبع يعني فقط انـه استعار معلومات مه عن التاريخ الذي تضمه كتاب لامارك الأول وهذا لا يعني

* المرجع السابق ص ٤٦

** المرجع السابق ص ٢٢

*** المرجع السابق ص ٤١.

الشيء نفسه فالمرء يمكن أن يعرف أفكار كاتب جيداً، من غير أن يكون منتبهاً متى نشرت طبعته الأولى ولكن لنفرض أن دارون بعمله في كتابه ظل جاهلاً أسلافه جهلاً تاماً وهذا بالطبع ليس شيئاً جيداً، إلا أن المرء يجب أن يكون منصفاً فكتاب كثيرون مذنبون في هذا وهكذا مثلاً، فيورباخ نفسه، الذي يقدره تشيرنيشيفسكي تقديراً عالياً، كان ذا معرفة هزيلة بتاريخ المادية، أي بالمذهب الذي اعتنقه بعد انفصاله عن مثالية هيغل المطلقة: لقد سخر من «فطيرة لامتري بالكمأة في كتابه الذي كانت آراؤه المادية فيه أقرب ما تكون إلى المادية الفرنسية ومع ذلك فان من الصعب أن يتهم تشيرنيشيفسكي معلمه المحبوب بالسطحية على هذا الأساس وهو محق، إذ لا أهمية لمثل هذه الفجوات في معرفة الناس الذين يدرسون مسائل نظرية كبيرة، فوجودها لا ينفي امكانية الموقف الجاد من الموضوع وقد كان هذا موقف فيورباخ بالضبط، والموقف نفسه ينطبق على دارون، الذي لم يكن تشيرنيشيفسكي منصفاً معه

يصوغ تشيرنيشيفسكي مسألة أهمية الانتخاب الطبيعي في تاريخ تطور الأنواع الحيوانية والنباتية بصورة مختلفة عن دارون ولم يخطر لدارون أن يتساءل ما إذا كانت الحقيقة العلمية التي لا جدال فيها عن الصراع من أجل الحياة بين العضويات الحية يجب أن تعتبر «شراً» أم لا ولم يول سوى تفكير قليل فيما إذا كانت نتائج هذا الصراع يجب أن تعتبر «بركة» أم لا المسألة بالنسبة إليه كانت فيما إذا كان الانتخاب الطبيعي يدفع أو يعوق تلاؤم الحيوانات مع شروط وجودهم. والجواب الممكن الوحيد عن هذا السؤال صيغ بصورة ايجابية: نعم، الانتخاب الطبيعي لا بد من أن يحقق مثل هذا التلاؤم. إن مقال تشيرنيشيفسكي عن الفأرة غير مقنع إطلاقاً بالطبع هناك حالات عندما لا تكون الشروط الطبيعية المعنية ملائمة لوجود بعض الأنواع، ممكنة تماماً، بل حتمية وعندئذٍ ما يسميه تشيرنيشيفسكي انحطاطاً، والأصح أن نسميه انقراضاً، يبدأ في هذه الأنواع لم يرفض دارون امكانية، أو حتمية مثل هذه الحالات. ومع ذلك عندما تكون الشروط الطبيعية غير مناسبة تماماً لتؤدي إلى انقراض نوع بكامله، بل هناك أفراد تتحملها، وأفراد أقل تتلاءم معها، فان من الواضح أن الأكثر تلاؤماً معها هو الذي يعيش. هل هذه العملية من الملاءمة هي عملية تحسين الأنواع المعنية، أي هل عضوية الأفراد المنتمية إلى النوع تصبح أكثر تعقيداً؟ لا يقول دارون لا «لا» ولا «نعم» فبالنسبة إليه كل شيء هنا يعتمد على الظروف.

فالعملية التي بواسطتها تتلاءم الطفيليات مع شروط حياتها هي في الأغلب العملية التي « تنحط فيها عضويتها ، أي تصبح بسيطة. وهكذا كانت شروط الحياة على الأرض ملائمة لظهور الأنواع بعضوية تتزايد في « التحسن ». ولكن هذه الحقيقة التي لا جدال فيها لا تغير المضمون الاساسي لنظرية دارون. انها ستبقى هي ذاتها وان كانت شروط الحياة - قل مثلاً في حالة تزايد البرودة على كوكبنا - غير ملائمة للعضويات المعقدة ولا شيء آخر إن مفهوم « العضوية الأفضل تلاؤماً مع البيئة لم يوحده دارون مع مفهوم « العضوية الأشد تعقيداً

لا أحد يجادل اليوم في أن دارون بالغ في دور الانتخاب الطبيعي في تطور الأنواع ولكن مؤلفنا في انتقاده للبيولوجي الانكليزي بسط صورة هذا الدور أكثر من دارون نفسه. يقول تشيرنيشيفسكي أن أكثر الأشكال شيوعاً في الانتخاب الطبيعي هو انقراض العضويات الزائدة عن كمية الطعام. ولكن دارون لم يفكر في هذا قال: « إن كمية الطعام لكل نوع تقدم بالطبع حداً معيناً لهذا النوع المتزايد ، ولكن غالباً ما يكون الأمر غير الحصول على الطعام ، بل استخدام الحيوانات الأخرى كفرائس ، وهذا يحدد متوسط أعداد نوع من الأنواع »* لو أن تشيرنيشيفسكي انتبه لكلمات دارون هذه ، لنظر إلى أهمية الانتخاب الطبيعي نظرة مختلفة. ولكن لنفرض أن عدداً من أفراد نوع معين تعرض لهجوم مستمر من قبل وحوش ضارية ، هنا يبدأ بالظهور أفراد يكون لونهم غير ملحوظ تماماً من قبل العدو تلك الأفراد تتوفر لها فرصة أكبر للافلات من مفترسيها سوف تعيش بينما الأفراد التي لونها يلاحظه العدو سوف تموت. إن الوراثة سوف تنقل الصفة المناسبة إلى ذرية الأفراد الأحياء ، وبهذه الطريقة سوف يحل زمن يكون فيه لكل أفراد النوع إياه اللون الذي كان وراء حياتها هذه الحالة لا تشبه مثال تشيرنيشيفسكي عن الفارة: هنا الانتخاب لا « يقطع رؤوس كل أفراد النوع ، ويخصص دارون مكاناً كبيراً في نظريته لحالات مشابهة للحالة التي عرضناها فلنأخذ مثالاً آخر يقول والاس إن كثيراً من الحشرات في جريرة ماديرا فقدت نهائياً أو شبه نهائي أجنحتها ، في حين حشرات من النوع ذاته في القارة الأوروبية ما تزال تملك أجنحة متطورة تماماً يفسر والاس هذه الظاهرة بحقيقة أن جريرة

---

* أصل الأنواع ترجمة بابيبر ص ٧٤ [بليخانوف يقتبس من الأصل الفرنسي]

ماديرا ، مثل بقية جزر المحيط في المنطقة الحارة ، تواجه عادة أعاصير مفاجئة ، ونتيجة ذلك فإن الحشرات ذوات الأجنحة ، التي تستخدم بالطبع أجنحتها للطيران ، تتعرض لخطر الأعاصير التي تدفع بها إلى البحر يقول والاس: « وهكذا فإن ذوات الأجنحة القصيرة أو التي اقتصدت في استخدام أجنحتها ، عاشت بمرور السنوات وبالتالي نتج نوع بري عديم الأجنحة ، أو أن أجنحته غير تامة »* هنا أيضاً لم يقطع الانتخاب الطبيعي « رؤوس كل أفراد النوع المذكور ، وهنا أيضاً دفعهم الانتخاب إلى التلاؤم مع شروط الحياة الطبيعية ويمكن أن يقتبس المرء حشداً كبيراً من الأمثلة . وإذ وجه تشيرنيشيفسكي اهتمامه لها ، قلما حاول الدفاع عن فكرته أن نظرية دارون في الصراع من أجل الحياة « تتناقض مع كل حقائق فروع علمي النبات والحيوان ، التي منها أخذت وانتشرت في علوم الحياة الإنسانية

صحيح تماماً أن « نظرية الصراع من أجل الحياة التي انتشرت في كل علوم الحياة الإنسانية لم تكن مفيدة لتلك العلوم . ويمكن أن يعتقد المرء أن غضب تشيرنيشيفسكي الواضح من دارون ، الذي ظهر من جملة ما ظهر في ملاحظته أن نظرية دارون جديرة بالجنرال توركيمادا ، يفسره قبل كل شيء التأثير الضار لما يسمى الداروينية على تطور العلوم الاجتماعية[١٠٢] ولكن يجب ألا يكون دارون مسؤولاً عن أخطاء الداروينيين . إن نظريته في الصراع من أجل الحياة لا يمكن استخدامها أبداً لتبرير « حرب الواحد ضد الجميع » التي روج لها بعض السوسيولوجيين الداروينيين . لقد آمن دارون أن تطور الغرائز الاجتماعية كان « مفيداً للغاية » لحياة النوع في صراعه من أجل الحياة طبق نظريته هذه على العلاقات الاجتماعية ، وسوف ترى شيئاً مخالفاً تماماً للفردية المتطرفة التي هي نتيجة منطقية محتومة لمذاهب السوسيولوجيين الداروينيين . بالطبع لم يكن دارون يفهم إلا القليل عن المسائل الاجتماعية . وهذا يوضح ، كما لاحظ انجلز في نزاعه مع دوهرنغ** ، حقيقة أنه وافق على تعاليم مالتوس في السكان من دون أدنى نقد ولكن ثقافته العظيمة أنقذته من التطرف الذي استسلم له أتباعه والحقيقة أن دارون يمكن أن يحسبه المرء رجلاً مانشسترياً عادياً ، في مناقشة المجتمعات الإنسانية ،

* الداروينية نقلد المريد روسل والاس ، باريس ١٨٩١ ص ص ١٣٨ – ١٣٩

** الهردوهرنغ نقلب العلم ، الطبقة الخامسة ص

يقول: «لا بد من أن تكون هناك منافسة لكل الناس، ويجب ألا تمنع القوانين أو العادات القادر من النجاح وتأخير أضخم عدد من السلالة »* وكل شيء يشير أنه لم يغرق في المانشسترية، التي يبدو أنه يعتبرها نظرية اجتماعية تقدمية وقد كان هذا غلطة، ولكن هذه الغلطة لا تؤثر شيئاً في الطريقة التي استخدمها دارون في دراسة ظواهر الحياة العضوية. ومن الخطأ لأولئك الذين يؤيدون الحرب الاجتماعية «الواحد ضد الجميع أن يقتبسوا هذه الكلمات في المنافسة. هناك منافسة ومنافسة. إن اتباع سان سيمون أيدوا أيضاً المنافسة، ولكن كانت فقط المنافسة التي أرادوا من ورائها تغييراً في العلاقات الخاصة

لا نعتبر من الضروري تحليل رأي تشيرنيشيفسكي في نظرية دارون أكثر من ذلك وبعد الذي قلناه في هذا الرأي، يكفي أن نلفت نظر القارىء إلى الموقف الساخر الذي اتخذه تشيرنيشيفسكي من تفاؤلية دارون إنه يلصق بدارون عقيدة أن كل شر سيؤدي حتماً إلى خير ويقدم ضد هذه الثقاؤلية فكرته الخاصة أن الضرر هو دائماً ضرر ولا يمكن أن يكون نافعاً وسوف نعارض هذه الفكرة عندما نتناول آراء تشيرنيشيفسكي التاريخية. عندها سوف نعالج مطولاً، من جملة الأشياء الأخرى، محاولة حل مسألة الدرجة التي تنسجم معها أطروحة هيغل المفضلة عند تشيرنيشيفسكي، كما رأينا من قبل، وهي أنه **لا توجد حقيقة مجردة، الحقيقة دائماً ملموسة، وكل شيء يعتمد على شرطي الزمان والمكان**. وسوف نقول حالياً إن تشيرنيشيفسكي نفسه لم يسر دائماً حسب الصيغة: «الضرر دائماً ضرر، والخير دائماً خير». ففي الحلم الثاني لفيرا بافلوفنا يجعل أمها، ماريا الكسدروفنا، تقول: «اصغي إلى ما سأخبرك به يابنتي يا فيرا إنك مثقفة، مثقفة بقدر ما سرقت من مال. إنك تفكرين بالخير، ولكن إن لم أكن أنـا شريرة لما كنت أنت خيرة أترين؟ »** وينجم من ذلك أن الشر أيضاً يقدم أحياناً نتائج خيرة. وفي هذه الحالة يوافق تشيرنيشيفسكي مع ماريا الكسندروفنا وتكرر ماريا في متابعتها لتفسيرها مع ابنتها: «إنك ترين أنها [تقصد نفسها بالضمير

---

* المؤلفـات المختارة، الجزء ٢ ترجمها إلى الروسية ستشيوف، بطرسبرج ١٨٩٩ ص ٤٢٠ [بليخانوف يقتبس من الترجمة الروسية لكتاب دارون «سلالة الانسان والانتخاب في مجال الجنس» ونحن نقتبس من الطبقة الانكليزية الأصلية، لندن، جون موري ٣٨٨٧ ص ٦١٨]

** المؤلفات المجلد ٩ ص ١١٣.

الغائب - بليخانوف] ذات أفكار شريرة، ولكن من هذه الأفكار سيأتي الخير إلى شخص ما إنها خير لك، أليس كذلك؟ ولكنها ليست كذلك مع أناس شريرين آخرين »** إن تشيرنيشيفسكي هنا يتكلم عن ذاته بلسان ماريا الكسندروفنا فإذا كان ما يقوله صواباً وهو كذلك - ينتج هنا أيضاً أن الشر ليس له دائماً نتائج شريرة وهذا يناقض الفرضية المجردة التي انتقد بها داروں ونظن أن من التكرار القول إن داروں نفسه لم يربط مسألة الانتخاب الطبيعي ببراهين عن الخير والشر وخيراً فعل.

ولكن مهما كانت أخطاء تشيرنيشيفسكي في هذه الحالة، ومهما كانت عيوب طريقته ككل، فقد كان واحداً من أعظم المفكرين الذي ظهروا في أدبنا إن الجانب الضعيف من آرائه الفلسفية كان التفسير القاصر للعنصر الديالكتيكي، الذي كان أيضاً جانباً ضعيفاً في نظام معلمه فيورباخ لم يكن تشيرنيشيفسكي مطلعاً على فلسفة ماركس وانجلز التي انبثقت من فلسفة فيورباخ وما دامت فلسفة ماركس وانجلز خطوة عظيمة إلى الأمام بالمقارنة مع نظام فيورباخ، فإن من الممكن القول أن مؤلفنا كان، لسوء الحظ، غير مطلع على آخر تطورات الفكر الفلسفي ولكن تلك التطورات لم تكن معروفة إلا عند قلة حتى في الغرب. وإذا لم يقارن المرء آراء تشيرنيشيفسكي بآراء ماركس وانجلز، إذا اكتفى بمعارضتها بآراء لافروف مثلاً وآخرين من معاصريه التقدميين، فلا بد من التسليم أن تشيرنيشفسكي كان في طليعتهم، وأنه عندما انسحب من المسرح بدأت مرحلة من الانحطاط في أدبنا ولسوء الحظ ليس في الفلسفة وحدها وأحد مظاهر هذا الانحطاط ظهور الذاتية الشهيرة لنيكولاي ميخائيلوفسكي، الذي يضعه الكثير من الناس في مصاف تشيرنيشيفسكي حتى يومنا هذا والحقيقة أن ميخائيلوفسكي - في الفلسفة خاصة - كان قزماً بالمقارنة مع مؤلف مقالة « المبدأ الانتروبولوجي

لقد اشتهر تشيرنيشيفسكي في بلادنا كصحفي ومؤرخ أدبي، أي كمؤلف **مقالات حول مرحلة غوغول** ومقالات عن ليسنغ، ولكنه لم يعرف كفيلسوف وهذا تفسره أولاً حقيقة أنه كتب القليل في الفلسفة، وثانياً طريقته في شرح أفكاره لقد كتب ببساطة

---

* المرجع السابق ص ١١٤.

ووضوح بحيث أن قرّاءه رفضوا السذاجة، ولهذا السبب بالضبط، اعتبار ما شرحه في مقالة « المبدأ الانتروبولوجي » على أنه فلسفة. نيس هذا افتراضاً، بل حقيقة، مع أنها حقيقة مضحكة: مثل هؤلاء القراء وجدوا في ذلك العصر وإليكم الإثبات عندما ظهر تحليل أنطونوفيتش لفلسفة لافروف في العدد الرابع من السوفريمينيك لعام ١٨٦١ علقت أوتيشيستفيني زابسكي بسخرية: « لا حاجة إلى مجهود عقلي حتى نفهم كل شيء يقوله انطونوفيش إن وضوح هذه المقالة أدهش الجميع وباقتباس الصحيفة التي كانت تناقشه هذه الملاحظة كتب تشيرنيشيفسكي من جانبه: « لقد سمعت أن الفلسفة موضوع محير حاولت قراءة مقالات فلسفية مثل مؤلفات السيد لافروف، ولم تفهم شيئاً على الإطلاق وكان السيد لافروف في رأيك فيلسوفاً جيداً وهكذا ابتكر عقلك قياساً كالتالي: « أنا لا أفهم الفلسفة، وبالتالي فإن ما أستطيع فهمه ليس فلسفة »*
وبفضل هذا القياس لم تعتبر فلسفة حتى صفحات تشيرنيشيفسكي التي تعالج الفلسفة مباشرة: إنها تعرض الأمور بوضوح ولا حاجة أن نضيف أن لا نهاية لـ « القراء الأذكياء »[١٠٣] في بلادنا الذين يحكمون على المقالات الفلسفية على أساس القياس الذي أشار إليه تشيرنيشيفسكي هذا يذكرنا بطرفة عن رجل كان يعاني من وجع الأضراس وفي العاصمة انترع الضرس النخرة بمهارة وسرعة طبيب الأسنان سأل المريض: كم سأدفع؟ أجاب طبيب الأسنان: « ستدفع روبلاً دهش الرجل وقال: « إن طبيبنا المحلي ظل يحاول قلع الضرس النخرة ساعة بكاملها، ومع ذلك أخذ ربع روبل، وأنت اقتلعتها بسهولة وسرعة وتطلب روبلاً؟ لقد جادل تشيرنيشيفسكي القراء البسطاء عبثاً « مهما كان الموضوع الذي يناقشه شخص طريقة تفكيره غامضة [الإشارة هنا إلى لافروف - بليخانوف] فإن كلامه سيكون غامضاً محيراً ولكن الفلسفة بحد ذاتها ليست علماً غير مفهوم كلياً إن القراء الساذجين لم يؤمنوا بهذا وما يزالون لا يؤمنون وإذا سألت، حتى هذه الأيام، « مثقفاً روسياً وسطاً فيما إذا كان لافروف وفلاديمير سولوفيوف فيلسوفين، فسوف تسمع حالاً بالطبع كانا وإذا أخبرت مثل هذا المثقف أن تشيرنيسيفسكي كان أيضاً فيلسوفاً وأكثر عمقاً من لافروف وسولوفيوف، لأدهشه كثيراً إن فلسفة تشيرنيشيفسكي لم تكن غامضة جداً

---

* المؤلفات المجلد ٨ ص ص ٢٦٦ - ٢٦٧

القسم الثاني

آراء تشيرنيشيفسكي التاريخية

الفصل الأول

التاريخ والعلم الطبيعي

من المفيد في دراسة آراء تشيرنيسيفسكي التاريخية أن نرى قبل كل شيء كيف نظر إلى حالة الأبحاث التاريخية في زمنه المقطع التالي من مقالته عن غرانوفسكي يقدم مؤشراً جيداً لهذا

كلما تعمقنا أكثر في دراسة المؤلفات التي كتبت حتى الآن في التاريخ، تحققنا أكثر أننا لا نملك سوى فكرة عما يجب أن يكون عليه هذا العلم، ولا يمكن أن نرى إلا بسق النفس المحاولات الأولى الوحيدة الجانب التي وضعت هذه الفكرة في حيز التطبيق ولن نأتي على الأسباب الكامنة وراء تخلف التطبيق عن النظرية في هذه الحالة إن ذلك يبعدنا كثيراً عن الموضوع، سنقول فقط أن الصعوبة تكمن من جهة في طبيعة المادة التاريخية النادرة وغير العملية لعناصر الحياة التي جرى تجاهلها ومن جهة أخرى، ربما تكون العقبة الهامة هي الطبيعة الضيقة والمجردة للنظرة العامة في الحياة الانسانية إن الانتروبولوجيا وحدها أكدت تفوقها على علم النفس المجرد والأحادي الجانب »*

لاحظ أن تشيرنيشيفسكي هنا أيضاً يجهد في تبني وجهة نظر الانتروبولوجيا لقد عرفنا من قبل أن فلسفة فيورباخ وتشيرنيشيفسكي، التي أعلنت المبدأ « الانتروبولوجي ترى الأشياء ذاتها في الانسان مثلما تراها العلوم الطبيعية فيه يريد

---

* المؤلفات المجلد ٢ ص ٤١٠.

تشيرنيشيفسكي من التاريخ أن يظر بدوره إلى الانسان من وجهة نظر العلوم الطبيعية. يقول. «إذ نولي الأهمية الفائقة للجانب الطبيعي في الحياة الاسانية، الذي يجب أن يتوفر في التاريخ، فان من المعروف أن تأثير العلوم الطبيعية في التاريخ يجب أن يصبح مع الزمن لا حد لقوته. قليلون جداً المؤرخون الذين يشعرون بهذا حالياً وغرانوفسكي واحد منهم وحتى يشرح تشيرنيشيفسكي نظرته في طريقة بحث الظواهر التاريخية يشير إلى غيزو الذي يرى أنه متفوق على كل مؤرخي زماننا وتعاني محاضرات غيزو في تاريخ الحضارة[١٠٤] من تخلف وهو أنها، بغض النظر عن التاريخ السياسي، تركزت فقط على الحياة الثقافية للأمة، وليس على كليتها وليس في هذه المحاضرات أي اشارة إلى الناحية المادية للحياة إن غيزو يرغب في كتابة تاريخ الحياة الداخلية للانسان وعلاقاته مع الآخرين إنه يسى علاقة الانسان بالطبيعة يقول تشيرنيشيفسكي «ولكن سلالات الحياة البشرية تقبع في الطبيعة، والحياة بأسرها تحددها من حيث الأساسِ العلاقات مع الطبيعة»*

بدا تشيرنيشيفسكي هنا مخطئاً في نقده غيزو إن محاضرات غيزو في تاريخ الحضارة، التي يشير إليها تشيرنيشيفسكي، تولي حقاً اهتماماً ضيلاً جداً بالظاهرة المادية لحياة الأمم، ولكن لو انتقل تشيرنيشيفسكي إلى مؤلفات أخرى للمؤرخ نفسه مثل كتابه «**مقالات في تاريخ فرانسا**» لكان رأى أن غيزو لم يهمل المظهر المادي لحياة الأمم، بل العكس تماماً، عزا إليه تأثيراً حاسماً، قال غيزو حتى نفهم المؤسسات السياسية، علينا أن ندرس مختلف الطبقات القائمة في المجتمع وعلاقاتها المتبادلة وحتى نفهم تلك الطبقات الاجتماعية المختلفة علينا أن نعرف طبيعة الملكية العقارية وعلاقاتها»** ودراسة طبيعة الملكية العقارية وعلاقاتها لا تعني تجاهل المظهر المادي للحياة الاجتماعية. ولكن هنا لا بد لنا من تحفظ اصطلاحي

إن تعبير «المظهر المادي للحياة اسخدمه تشيرنيسيفسكي بمعى مختلف عما نستخدمه نحن في حديثنا عن آراء غيزو التاريخية إن النظام الرراعي الذي يوجد في

---

* المرجع السابق الملاحظة

** مقالات الطبعة الثانية، باريس ص ص ٧٥ - ولمزيد من التفصيل حول هذا أنظر الفصل الثاني من كتابي تطور النظرة الواحدية في التاريخ[١٠٥]

قطر معين لا يحدد فقط علاقة الناس مع الطبيعة، بل علاقاتهم المتبادلة الخاصة داخل المجتمع وبينما يفهم تشيرنيشيفسكي بالمظهر المادي للحياة العلاقات القائمة بين الانسان والطبيعة إن هذا فرق أساسي جداً وكبير جداً ولكن سوف نرى باختصار أن المجادلات اللاحقة للمؤلف المتعلقة بهذا الموضوع تخلصت من هذا الفرق نهائياً تقريباً

لماذا يولي تشيرنيشيفسكي أهمية عظيمة لمسألة العلاقة بين الانسان والطبيعة؟ إنه يفسر هذا باقتباس طويل من حطاب غرانوفسكي في المجلس الأعلى وأهمية التاريخ الشامل، الذي ألقي في اجتماع رسمي لجامعة موسكو في ١٢ كانون الثاني ١٨٥٢ وبما أن هذا الاقتباس عظيم الأهمية لوصف رأي تشيرنيشيفسكي المفيد لنا هنا، فسوف نعيده، جزئياً على الأقل.

قال غرانوفسكي: «الأبحاث الجغرافية التي أشرنا إليها قلما ارتبطت عضوياً مع العرض الذي يلحقها إن المؤرخ بتقديمه لكتابه بعرض موجز للقطر ومسحاته، ينكب بوعي واضح على موضوعات عادية أخرى، معتقداً أنه حقق تماماً المتطلبات الحديثة للعلم. كما لو أن عمل الطبيعة في الانسان ليس مستمراً، ولا يتغير مع كل خطوة كبرى يتخذها في طريق الثقافة إننا ما نزال بعيدين عن معرفة كل الخيوط السرية التي تربط أمة بالأرض التي ترعرعت عليها والتي منها لم تأخذ فقط وسائل وجودها المادي، بل أخذت قسماً كبيراً من الصفات الأخلاقية إن توريع منتجات الطبيعة على سطح البسيطة يرتبط جداً مع مصير المجتمعات المدنية إن رراعة واحدة أحياناً تكون شرطاً لحياة أمة إن تاريخ ايرلاندا كان سيختلف ولا شك لو أن البطاطا لم تكن الغذاء الرئيسي للسكان والشيء ذاته يمكن أن يقال عن حيوانات معينة للأقطار الأخرى »*

هناك في آخر الخطاب شاهد هام من مقالة الأكاديمي بير حول تأثير الطبيعة الخارجية للعلاقات الاجتماعية في الشعوب وحول تاريخ البشرية إن عنوان هده المقالة يبين أن بير رغب في دراسة العلاقة بين الانسان والطبيعة قبل كل شيء من منطلق تأثير الشروط الطبيعية في العلاقات الاجتماعية هذا التأثير موجود في ذهن غرانوفسكي نفسه عندما يشير إلى أن كل تاريخ الأقطار يعتمد على الحيوان والنبات

---

* هذا المقطع موجود في ص ٣٤ من المجلد الأول لمؤلفات غرانوفسكي طبعة ١٨٦٦.

(الفونا والفلورا) فعلاً إنه يبحث عن الخيوط السرية « التي تربط أمة بالأرض وتحدد نزعاتها الأخلاقية

هنا يمكن أن يعتقد المرء أن غرانوفسكي يعترف بالتأثير المباشر للطبيعة على العلاقات المتبادلة بين الناس في المجتمع إنه لا يرفض في احدى الصفحات الأولى، كاستنتاج في العلم الطبيعي، أن يقر « العجز التاريخي لكل الأنواع التي لم تتهيأ للأشكال النبيلة للحياة المدنية »* إلا أن تشيرنيشيفسكي الذي كان فيما بعد، كما سوف نرى، خصماً عنيداً لنظرية العرق، لم يمل إلى هذه النظرية أدنى ميل حتى عندما كتب مقالته عن غرانوفسكي أي في ١٨٥٦** والأرجح أن خطاب غرانوفسكي موجه إليه ليس لأنه مستعد للاعتراف بالعجز التاريخي لنوع إنساني معين، بل لالحاحه على اعتماد العلاقات الاجتماعية للأمم على الشروط الطبيعية لوجودها وإذا كان الأمر هكذا، فان فكرة تشيرنيشيفسكي حول تأثير الطبيعة على الانسان قريبة إلى رأينا في الموضوع ذاته: فالشروط الطبيعية تؤثر في الناس وتحدد علاقاتهم المتبادلة في المجتمع هذا الرأي صاغه ببراعة ماركس منذ عدة سنوات قبل أن يلقي غرانوفسكي خطابه عن الدولة وأهمية التاريخ الشامل في جامعة موسكو كتب ماركس في كراسته « **العمل المأجور ورأس المال** »: « في الانتاج يدخل الناس في علاقة ليس فقط مع الطبيعة. انهم ينتجون فقط بالتعاون بطريقة ما، ويتبادلون نشاطاتهم. وحتى ينتجوا يدخلون في علاقات محددة وارتباطات الواحد مع الآخر، وداخل هذه الارتباطات والعلاقات الاجتماعية تظهر علاقتهم بالطبيعة، يظهر انتاجهم »*** إن العلاقات المتبادلة بين الناس في عملية الانتاج تحددها حالة القوى المنتجة، التي تعتمد بدورها على الشروط الطبيعية لحياة أمة من الأمم أي على البيئة الجغرافية التي تعيش فيها تلك هي النتيجة التي وصل إليها العلم في دراسة مسألة تأثير الطبيعة على « الانسان الاجتماعي »

---

* المرجع السابق ص ٣٣

** قبل عام، في ملاحظة بيبلوغرافية عن مؤلف كالاشيف [ارشيف المعلومات التاريخية - التشريعية] أشار إلى خطأ جميع التونوسيين والعاليين والانكليز والتشيك والبلغار (المؤلفات مجلد ١ ص ٤٢٨) هنا ليس سوى رمي حجر على الموقف السلبي من كل نظرية العرق

*** أنظر « العمل المأجور ورأس المال كارل ماركس ص [هنا يقتبس بليخانوف عن الترجمة الروسية لكتاب ماركس](٦)

هذه النتيجة لم تكن واضحة تماماً لغرانوفسكي وتشيريشيفسكي ، يوم بدأ يطبق المدأ « الانتروبولوجي على التاريخ ، لم يكن يفهم هذه النقطة ولا شك في مجالات هامة ولكن التطور المنطقي لرأي غرانوفسكي وتشيرنيشيفسكي كان لا بد من أن يقود إلى استنتاج ماركس المشار إليه أعلاه وبما أن غيزو كان أقرب إلى هذا الاستنتاج ، مع أنه لم يصل إليه تماماً ، فان تشيرنيشيفسكي كان مخطئاً في اتهامه انه أهمل المظهر المادي للحياة إلا أن الشيء الأهم بالنسبة إلينا هنا ليس ما إذا كان تشيرنيشيفسكي مصيباً أم مخطئاً في رأيه بغيزو ، بل في أن رأيه المصيب أو المخطىء بغيزو يجسد آراءه التاريخية وهذا هو السبب في أننا سنعود كرة أخرى إلى دراسة هذا الرأي إلا أننا الآن نلح مرة أخرى على حقيقة أنه باسم مبدئه « الانتروبولوجي طالب مؤلفنا ، في بداية نشاطه الأدبي ، المؤرخين بتوجيه اهتمام كبير إلى « المظهر المادي لحياة الأمم إن مسألة التطور اللاحق لآرائه التاريخية تكمن في كيف هو نفسه رأى هذا المظهر

الفصل الثاني

المادية في آراء تشيرنيشيفسكي التاريخية

في عام ١٨٥٥ وفي مقالة طويلة في العددين الثالث والرابع لمجموعة ليونتييف بروبيلي المشهورة جداً في عصرها، كتب تشيرنيشيفسكي متحدياً رأي كوتورغا الذي اعتبر الزراعة الطريقة الأولية لحياة البشرية:

« تبين أساطير الشعوب أنها قبل اتخاذ الزراعة، وقبل الاستقرار كانت بدواً رحلاً تعمل في الصيد وتربية الماشية فإذا حصرنا أنفسنا في الأساطير اليونانية وتلك التي تختص بأتيكا، فاننا سوف نشير إلى اسطورة سيريس وتربتوليموس الـتي علمته الزراعة فيتضح، حسب ما يذكر عن اليونان، أن الناس الذين عاشوا أساساً في حالة من الفقر والبدائية، كانوا عبارة عن صيادي وحوش. ولم يعموا بالاستقرار والحياة الزراعية إلا مؤخراً مـثل هذه الاساطير، الشائعة لدى كل الشعوب، سأت جميعها من القطاع الاوروبي للقبائل الهندو - أوروبية، حسب دراسات غريم التي تعتبر صحيحة تماماً في استنتاجاتها العامة. والشيء نفسه أثبتته الوقائع المسجلة في الآثار التاريخية إننا لا نعرف شعباً واحداً وصل مرحلة الزراعة، ثم تدنى إلى حالة الوحشية التي لا تعرف الزراعـة، على العكس، ففي الكثير من الشعوب الأوروبية سجل التاريخ الحقيقي حياتها منذ بداية انتشار طريقة الزراعة »* إن الرحالة الأوروبيين في افريقيا غالباً ما يصادفون قبائل زنجية طردت من مكانها القديم الذي كانت مستقرة فيه، إلى بيئة جغرافية جديدة لا تلائم الزراعة كثيراً فيهجرون الطريقة الزراعية في الحياة ويصبحون رعاة أو صيادين وهكذا فان تشيرنيشيفسكي مخطىء في افتراضه أنه حالما

* المؤلفات المجلد ١ ص ٣٨٩.

تحل مرحلة الرراعة لا يمكن أن يتراجع الشعب إلى مرحلة أدنى إلا أنه مصيب تماماً عندما يقول إن من المستحيل اعتبار الرراعة الخطوة الأولى في تاريخ تطور القوى المنتجة كما أنه مصيب أيضاً في اعتقاده أن التطور الاقتصادي لمجتمع ما هو سبب تطور مؤسساته القانونية يقول: « في حالة الشعوب التي تربي الأغنام، والتي تنتقل باستمرار من مكان إلى مكان لا تكون الملكية الخاصة للأرض كافية، ولذلك ليست ضرورية في حالتهم هذه الكوميونه (القبيلة، العشيرة، البطن، الفخذ، الفرع) تحرس حدود أرضها، باستخدامها جميع أفرادها ولا يملك الأفراد ملكية مفصلة الأمر مختلف تماماً في الزراعة التي تجعل الملكية الخاصة ضرورية ولذلك فان ارتباط الأرض بقانون القبيلة، وفيما بعد قانون الدولة، ينجم من حالة البداوة »* لدينا هنا مثال رائع للتأثير الحاسم للمظهر المادي لحياة الشعوب على المظاهر الأخرى لهذه الحياة. ولكن ربما لاحظنا أن تشيرنيشيفسكي يتحدث هنا فقط عن الارتباط بين « الاقتصاد و« السياسة بالطبع هذا صحيح وحالما يشرح هذا الارتباط فان السمات الرئيسية لما يسمى البنية الاجتماعية يمكن أن تُفْهم. وحالما تُفهم البنية الاجتماعية لكونها نتيجة التطور الاقتصادي للمجتمع، فان من السهل فهم أيضاً تأثير « الاقتصاد في أفكار الشعب ومشاعره: فقد تم الاعتراف منذ بداية القرن التاسع عشر على أن أفكار الناس ومشاعرهم تعتمد على بيئتهم الاجتماعية، أي على العلاقات الاجتماعية لقد رأينا من قبل أن تشيرنيشيفسكي كان قادراً على تفسير تطور الفكر الفلسفي عن طريق مجرى الصراع السياسي، أي أيضاً عن طريق تطور البيئة الاجتماعية إننا نعرف أيضاً من مقالته « المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة أن أي مجتمع ما أو أي جزء عضوي من ذلك المجتمع يعتبر مفيداً والفائدة تعود على ذلك المجمع أو ذلك القسم إن تشيرنيشيفسكي طبق فقط هذه النظرة على تاريخ التطور الأيديولوجي للبشرية ليرى بوضوح كيف ن هذا التطور مشروط بتصادم المصالح الانسانية في المجتمع، أي « اقتصاد » هذا المجتمع وقد رأى تشيرنيشيفسكي هذا بوضوح، على الأقل في بعض الحالات وإليكم ما يكتبه، على سبيل المثال، في مقالة بيبليوغرافية طويلة عن مقالة روشير **مبادىء الاقتصاد القومي** المنشورة في العدد الرابع من **السوفريمينيك** ١٨٦١ :

---

* المرجع السابق ص ٣٨٩ وأنظر أيضاً ص ٤٢٨ من المجلد نفسه.

«أي مجموعة من الناس رغبت في اختيارها، فان طريقتهم في التفكير تحددها أفكارها عن مصالحها (سيان كانت صحيحة أو غير صحيحة كما سبق وقلنا) لنبدأ بتصيف الناس حسب القومية معظم الفرنسيين يعتقدون أن انكلترا هي «الالبيون الغادر» الذي سحقه نابليون الأول من أجل الازدهار الفرنسي ومعظم الفرنسيين يعتقدون أن الراين جبهة طبيعية وضرورية لفرانسا ويؤمنون أيضاً أن الحاق السافوي ونيس شيء رائع ويعتقد الانكليزي أن نابليون الأول أراد سحق انكلترا، التي لم ترتكب خطأ، وان النضال ضده شنته انكلترا بمفردها من أجل انعتاقها ومعظم الألمان يعتبرون المطالبة الفرنسية بجبهة الراين غير عادلة. ومعظم الايطاليين يعتبرون انتراع السافوي ونيس من ايطاليا أمراً غير عادل. فلماذا هذا الخلاف في الآراء؟ انه ببساطة من الطبيعة التصارعية لمصالح الأمم (قد تكون متخيلة أو وهمية، إلا أنها تعتبر واقعية بنظر الأمة المعنية) أو لنأخذ تصيف الناس حسب حالتهم الاقتصادية. إن منتجي القمح في كل قطر يعتقدون أن على الأقطار الأخرى أن تسمح باستيراد القمح من قطرهم من غير ضريبة، إلا أنهم يعتبرون استيراد القمح إلى قطرهم محظوراً إن كل منتجي البضائع المصنعة في كل قطر يعتقدون أن القمح الأجنبي يجب أن يسمح باستيراده إلى قطرهم معفياً من الضرائب. إن مصدر هذا التناقض هو المصلحة الذاتية نفسها فحسب مصلحة منتجي القمح يجب أن تكون الكلفة أكبر وحسب مصلحة منتجي البضائع المصنعة يجب أن تكون الكلفة أقل. وزيادة الأمثلة هنا لا جدوى منها - إن بامكان أي واحد أن يجد آلاف الأمثلة، بل عشرات الآلاف بنفسه»*

إذا كان كل شخص دائماً يعتبر الخير فيما يفيد المجموعة البشرية التي ينتمي إليها فائدة عملية بصورة مطلقة، فان «القانون النفسي ذاته يجب أيضاً أن يستخدم في رأي تشيرنيشيفسكي لتفسير تغير مدارس الاقتصاد السياسي. إن كتاب مدرسة آدم سميث اعتبروا أشكال الحياة الاقتصادية التي فرضت تفوق الطبقة الوسطى هي الخير الفعلي الجدير بالاستمرار الأبدي. «كتاب هذه المدرسة عبّروا عن طموحات الطبقة التجارية بالمعنى الواسع للكلمة: أصحاب البنوك وتجار الجملة وأصحاب المصانع وكل

* المؤلفات المجلد ٨ ص ١٣٧.

الصناعيين عامة. إن الأشكال الحالية للتنظيم الاقتصادي مفيد للطبقة التجارية، وأكثر فائدة لها من كل الأشكال الأخرى، وهذا هو السبب في أن المدرسة التي تمثلها وجدت أن هذه الأشكال كانت الأفضل في النظرية؛ ومن الطبيعي أنه بسبب هذا الاتجاه السائد ظهر الكثير من الكتاب الذين عبروا عن الفكرة العامة بقوة أشد، وادعوا أن تلك الأشكال أبدية ومطلقة »*

عندما بدأ الناس الذين يمثلون الجماهير يفكرون بمسائل الاقتصاد السياسي ظهرت في مجال هذا العلم مدرسة اقتصادية أخرى سُمّيتْ لسبب مجهول كما يلاحظ تشيرنيشيفسكي - المدرسة الطوباوية. وبظهور هذه المدرسة رأى الاقتصاديون الذين يمثلون مصالح الطبقة الوسطى أنفسهم في مركز المحافظين. وعندما تحدوا المؤسسات الوسطوية التي تضاربت مع مصالح الطبقة الوسطى**، لجؤوا إلى العقل. ولكن اليوم يلجأ ممثلو الجماهير بدورهم إلى العقل، متهمين ممثلي الطبقة الوسطى بالتناقض. يقول تشيرنيشيفسكي: «كان العقل سلاحاً رائعاً في يد مدرسة آدم سميث ضد المؤسسات الوسطوية، ولكن هذا السلاح لا يمكن استخدامه في النضال ضد الخصوم الجدد، لأنه انتقل الى أيدي هؤلاء الأخيرين الذين دحروا أتباع مدرسة آدم سميث، الذي أصبح غير مجـد لهم »*** ولقد كفَّ بالتالي ممثلو الطبقة الوسطى المتعلمون عن العودة إلى العقل وطفقوا يعودون إلى التاريخ وهكذا ظهرت المدرسة التاريخية في الاقتصاد السياسي، وكان ولهلم روشير واحداً من مؤسسيها

يعتقد تشيرنيشيفسكي أن هذا التفسير لتاريخ الاقتصاد أكثر صحة من التفسير المألوف المعتمد على كمية المعرفة لهذه المدرسة أو تلك. إنه يلاحظ بازدراء أن هذا التفسير الأخير يشبه الطريقة المستخدمة لتقدير درجات امتحان الطلاب: الطالب ذو معرفة جيدة في هذا الموضوع وقليل المعرفة في ذاك. يتساءل تشيرنيشيفسكي إذا كان من الممكن للمعرفة الهزيلة بالتاريخ أن تمنع الاقتصاديين من معرفة أن هناك أشكالاً أخرى من الحياة الاقتصادية مختلفة عن الأشكال القائمة، ألا يحرم هذا هؤلاء الناس

---

* المرجع السابق ص ١٣٨

** شيرنيشيفسكي دائماً يستخدم كلمة Estate ويعني بها Classes

*** المرجع السابق ص ١٣٩.

من امكانية الشعور بالحاجة إلى أشكال جديدة أكثر كمالاً امكانية الاقرار أن هذه الأشكال القائمة ليست مطلقة؟ »* فالقضية ليست قضية معلومات، بل مشاعر المفكر المعني، أو مشاعر المجموعة التي يمثلها إن فورييه لا يملك معرفة بالتاريخ أفضل من ساي، ولكنه وصل إلى نتائج مختلفة تماماً يستنتج تشيرنيسيفسكي «لا فإذا كان شخص يحب الوضع القائم فانه لا يفكر في تغييره، وإذا كان يمقته فانه يعمل على تغييره بغض النظر ما إذا كان ذا معرفة تاريخية أو أنها تنقصه نهائياً »**

إن هذا واضح تماماً ليس الوعي هو الذي يحدد الكائن، بل الكائن هو الذي يحدد الوعي هذه الفرضية التي تشكل أساس فلسفة فيورباخ، طبقها تشيرنيشيفسكي في تفسير تاريخ الاقتصاد، والنظرية الاقتصادية وحتى الفلسفة يرى تشيرنيسيفسكي أن الكائن الاجتماعي يشتمل على عناصر متصارعة متبادلة، ويرى أيضاً كيف أن صراع هذه العناصر الاجتماعية المتضاربة تقدم وتحدد الصراع المتبادل بين الأفكار النظرية ولكن هذا ليس كل شيء إنه لا يرى فقط أن تطور أي علم يحدده تطور الطبقة المسجمة مع الظواهر الاجتماعية إنه يدرك أن الصراع الطبقي المتبادل لا بد من أن يترك أثراً عميقاً في مجمل التاريخ الداخلي للمجتمع وإليكم البرهان على هذا

في كتابه **موجز الاقتصاد السياسي**، بعد أن شرح قوانين « التوزيع الثلاثي للسلع الذي يوجد في الأقطار الحديثة المتقدمة، وقدم خلاصة موجزة أخيرة من تفسيراته، يعبر عن الرأي المتطرف الهام التالي في الدوافع الداخلية للتاريخ الأوروبي الحديث «لقد رأينا أن الريع يعارض ومصالح الربح وأجور العمال معاً **إن الطبقة الوسطى وعامة الناس تحالفوا دائماً ضد الطبقة التي كانت تتلقى الريع** لقد رأينا أن مصلحة الربح تعارض ومصلحة أجور العمال وحالما تتحالف طبقة الرأسماليين وطبقة العمال، ستتم السيادة لهم على الطبقة التي تتلقى الريع، إن تاريخ البلاد يشتمل في مضمونه الرئيسي على صراع بين الطبقة الوسطى والشعب »*

هنا تتطابق آراء مؤلفنا مع آراء ماركس وانجلز وليس هذا عجيباً إن

---

* المرجع السابق ص ١٣٨

** المرجع السابق ص ١٣٨

*** التشديد من قبلنا المؤلفات المجلد ٧ ص ٤١٥

تشيرنيشيفسكي يمر بالمدرسة ذاتها التي مر فيها ماركس وانجلز انتقل من هيغل إلى فيورباخ إلا أن ماركس وانجلز أخضعا فلسفة فيورباخ لصياغة جذرية، في حين ظل تشيرنيسيفسكي خلال حياته كلها تابعاً لهذه الفلسفة على الشكل الذي وضعه فيورباخ نفسه وإلى فيورباخ ينسب التعبير المشهور «الرجل ما يأكله الذي أثار لغطاً وسخطاً في زمنه لقد اقتبسا من قبل بعض فرضيات فيورباخ الأخرى فيما يتعلق بتأثير طريقة حياة الشخص في طريقة تفكيره كل هذه الفرضيات مادية إلا أن هذه الفرضيات ظلت عند فيورباخ غير مطورة حتى في مذهبه في الدين وقد طبق تشيرنيشيفسكي آراء فيورباخ على علم الجمال فحقق بذلك - كما سوف نرى فيما بعد - نتائج بارزة بمعنى ما ولكن نتائجه أيضاً لم تكن مقنعة تماماً لأن الفكرة الصحيحة فعلاً عن التطور الجمالي للبشرية لا بد من أن تضمن قبل كل شيء فهماً للمفهوم العام للتاريخ وفيما يتعلق بهذا المفهوم العام للتاريخ، نجح سيرنيسيفسكي في اتخاذ خطوات صحيحة جداً، وإن كانت قليلة، باتجاه فهمه ويمكن أن يأتي المرء بأمثلة عن هذه الخطوات التي كثيراً ما اقتبسا من كتاباته عنها تبين هذه الاقتباسات أن تشيرنيشيفسكي نجح في استخدام أفكار معلمه المادية استخداماً بارعاً إلا أن أفكار معلمه المادية كانت تعاني من التجريد في تعاليمها عن العلاقات الاجتماعية ونجم عن هذا الجانب الضعيف في أفكار فيورباخ أن الآراء التاريخية لتلميذه الروسي لم تكن متماسكة منطقياً إن العيب الرئيسي في هذه الآراء التاريخية أن المادية في كل نقطة منها تخلي الطريق للمثالية، والعكس بالعكس، إلا أن النصر النهائي يميل الى المثالية

إننا نعلم تماماً كيف يفسر سيرنيسيفسكي التاريخ والحالات التي يبقى مخلصاً لفلسفته المادية. دعنا الآن نعرف كيف يفسره عندما يتبنى وجهة نظر مثالية

الفصل الثالث

المثالية في آراء تشيرنيشيفسكي التاريخية

إليكم ما نقرأ في مقالته عن كتاب بوتكين المشهور «رسائل عن اسبانيا (السوفريمينيك، ١٨٥٧ العدد ٢):

«إن انقسام الناس إلى طوائف عدائية يعتبر من أكبر العقبات أمام تحسين مستقبلها، ففي اسبانيا ليس ثمة انقسام تدميري، ولا عداء مستحكم بين الطبقات، فكل طبقة مسعدة للتضحية بأعظم المنجزات التاريخية إذا كانت تؤذي طبقة أخرى، الأمة كلها في اسبانيا تشعر بنفسها كأنها كل واحد وهذه السمة غير مألوفة بين شعوب أوروبا الغربية، وتستوجب اهتماماً كبيراً، ويمكن اعتبارها بحد ذاتها حرصاً على المستقبل السعيد للبلاد»*

ليست هذه هفوة قلم، إذ يقول تشيرنيشيفسكي بعد عدة صفحات من المقالة ذاتها «إن للشعب الاسباني ميزة يتفوق بها على الأمم المتحضرة، وهي ذات أهمية كبرى: إن الطبقات الاسبانية لا تنقسم على نفسها انقساماً عدائياً، ولا تفرقها المصالح المتضاربة، إنها لا تؤلف طوائف متعادية مع بعضها، كما هي الحالة في كثير من الأقطار الأوروبية الأخرى، على العكس إن كل الطبقات في اسبانيا تكافح معاً من أجل هدف عام»**

وفي المقالة نفسها يقول تشيرنيشيفسكي حرفياً «الجهل أساس كل شر في

* المؤلفات، المجلد ٣ ص ٣٨

** المرجع السابق ص ٤٤.

اسبانيا »* وكل آماله من أجل تطور اسبانيا في المستقبل معلقة على التنوير في هذه البلاد

إن أي « مسور في القرن الثامن عشر، وأي اشتراكي طوباوي مستعد أن يتبنى هذه الآراء، تماماً كما أن أي ماركسي يمكن أن يتبنى الأفكار التي اقتبسناها من قبل حول اعتماد الأفكار الاجتماعية اعتماداً سببياً على الحياة الاجتماعية.

إن الاشتراكيين، ومتنوري القرن الثامن عشر إلى حد ما، لم يغمضوا أعينهم عن واقع الصراع الطبقي في المجتمع المتمدن وما أغمض تشيرنيشيفسكي عينيه. ولكن الاشتراكيين الطوباويين عندما لاحظوا واقع الصراع الطبقي لم يروا من الممكن الاعتماد عليه لتنفيذ برنامجهم على العكس، فقد آمنوا أن الصراع الطبقي سيكون عقبة في سفيد برنامجهم، وأن هذا البرنامج يمكن أن ينفذ بسرعة أكبر وسهولة أكثر عن طريق التعاون الأخوي بين جميع الطبقات الاجتماعية لذلك دعوا كل الطبقات إلى الاتحاد باسم الاصلاح الاجتماعي في المستقبل** إن تشيرنيشيفسكي، كما نرى في ملاحظاته عن العلاقة المتبادلة بين الطبقات في اسبانيا يقترب كثيراً من وجهة نظر الاشتراكيين الطوباويين

قدم ماركس وانجلر في البيان وصفاً وافياً لهذه النظرة: « الأنظمة التي تدعى اشتراكية وشيوعية أمثال أنظمة سان سيمون وفورييه وأوين وآخرين ظهرت إلى الوجود في الفترة المبكرة غير المتطورة، التي سبق وصفها، بين البروليتاريا والبرجوازية إن مؤسسي هذه الأنظمة يرون فعلاً الصراعات الطبقية، وأيضاً فعل العناصر المتفسخة في الشكل السائد للمجتمع إلا أن البروليتاريا تقدم لهم مشهداً لطبقة من دون أي مبادرة تاريخية أو أي حركة سياسية مستقلة

---

* المرجع السابق ص ٤٥

** يقول بورغين في كتابه الممتع فورييه. مساهمة في دراسة الاشتراكية الفرنسية. إن نظام فورييه يتضمن نظرية الصراع الطبقي (ص ٥٩٦) إلا أن بورغين يخلط بين الاعتراف بواقع الصراع الطبقي والموقف من هذا الواقع الإشتراكيين الطوباويين رأوا الصراع الاجتماعي، ولكنهم لم يروا أن (التناقض يدفع إلى الأمام) كما قال هيغل إنهم لم يفهموا أن الصراع الطبقي هو العامل الذي بواسطته يتم كل تقدم في العلاقات الداخلية للمجتمع المنقسم طبقياً بلانكي وحده فهم الأهمية التاريخية للصراع الطبقي ولكن اشتراكية بلانكي في هذا الصدد هي انتقال إلى الاشتراكية العلمية

ولأن الاشتراكيين الطوباويين لم يروا في البروليتاريا أي مبادرة تاريخية، أعلنوا أنهم لكل الطبقات في عصرهم بلا تمييز ولأنهم أعلنوا أنهم لكل طبقات المجتمع، لم يسيروا في خلقهم لخططهم العملية إلى ما يفرق هذه الطبقة، بل إلى ما يوحدها ولكن بما أن المجتمع الحديث قائم على الصراع بين الطبقات، فإن من الطبيعي أن المجهود الرئيسي للدعاة الطوباويين تركز على مرايا نظام اجتماعي مستقبلي، يزول فيه الصراع الطبقي، ويفسح المجال أمام تضامن شامل وحتى يفهم المرء مرايا هذا النظام الاجتماعي المستقبلي، لا يحتاج إلا أن يتأمل في القوانين الاجتماعية التي اكتشفها مصلح اجتماعي معين لقد آمن الاشتراكيون الطوباويون، كما تقول القطعة المقتبسة السابقة من البيان، أنه حالما يفهم الناس نظامهم لا يعجزون عن « أن يروا فيه الخطة المثلى لأعظم ما يكون عليه المجتمع ولكن، في حالة الاشتراكيين الطوباويين، إذا كان كل تاريخ المستقبل للمجتمع يساوي ما خلقوه وما نفذوه عملياً من خطط إصلاحية، فإنهم حتماً رأوا هذا التاريخ في ضوء مثالي قال المتنورون الفرنسيون في القرن الثامن عشر إن العقل يحكم العالم ولقد كرر الاشتراكيون الطوباويون هذه الفرضية وهكذا مثلاً، حتى لويس بلان الذي فرح المرحوم ميخائيلوفسكي في اعتباره « مادياً اقتصادياً كتب في كراسه « تاريخ عشر سنوات »: يكمن التاريخ الفعلي لعصرنا في تاريخ أفكاره إن الماكرين الدبلوماسيين، ومكائد البلاط، والمناقشات الصاخبة وحرب الشارع كل هذا لا يشكل شيئاً أكثر من إثارة المجتمعات حياتهم ليست هنا إنها في التطور الخفي للطموحات العامة، إنها تكمن في العمل الهادىء للمذاهب التي تعد للثورات ولأن هناك سبباً عميقاً وراء كل هده الأحداث، فإنها عندما تحدث تبدو كأنما حدثت بمحص الصدفة »* وفي مقطع آخر يؤكد لنا أن التاريخ صنعته الكتب (L'histoire est faite par des livres). إذن لا عجب أن الاشتراكيين الطوباويين اتخذوا موقفاً مثالياً من مستقبل المجتمع المعاصر كانوا مقتنعين أن مصير ذلك المجتمع تقرره « آراء أفراده، أي الموقف الذي اتخذوه بالنظر إلى خطة إعادة التنظيم الاجتماعي التي قدمها مصلح معين. إنهم لم يسألوا أنفسهم لماذا كانت الأفكار السائدة في مجتمع معين هي تلك الأفكار وليس غيرها من الأفكار الأخرى وهذا هو سبب عدم رغبتهم

---

* تاريخ عشر سنوات باريس ١٨٤٤ ص ٨٩

في شرح تلك العناصر للتفسير المادي للتاريخ التي كانت مذاهبهم ممتلئة بها والواقع أنهم كانوا ميالين إلى النظر إلى تاريخ البشرية الماضي أيضاً من وجهة نظر مثالية ولهذا السبب فإننا في تصريحاتهم عن ذلك التاريخ كثيراً ما نصادف تناقضات واضحة لا شك فيها وقائع سرح بشكل واضح من وجهة نظر مادية كلياً، نجدهم يعودون فجأة إلى تفسيرها تفسيراً مثالياً، ومن جهة أخرى، سروح مثالية في كل حين وأخرى تتسم باندفاعات مادية هذا النقص في الثبات، هذا الانتقال المتكرر من المادية إلى المثالية ومن المثالية إلى المادية، انتقال يدركه القارىء ولا يدركه المؤلف، اتضحا أيضاً في العروض التاريخية لتشيرنيسيفسكي، الذي في هذا المجال يحتفي كثيراً بالطوباويين الكبار في الغرب إنه في نهاية التحليل يميل مثلهم إلى المثالية

ويمكن أن نرى هذا جلياً من مقالته الهامة «حول أسباب سقوط روما (تقليد مونتسكيو) المنشورة في **السوفريمينيك** في ١٨٦١ (العدد ٥) يهاجم فيها الرأي الشائع أن الامبراطورية الرومانية في الغرب سقطت بسبب عجرها المتأصل عن التطور أكثر، بينما قدم البرابرة الذين وضعوا نهاية لوجودها، بذوراً جديدة للتقدم يعجب سيرنيسيفسكي قائلاً: فلنفكر، ماذا يكون التقدم، وماذا يكون البربري التقدم قائم على تطور ثقافي، يكمن مظهره الأساسي بالضبط في النجاحات وانتشار المعرفة الرياضيات تتطور، وهذا يؤدي إلى تطور الميكانيك التطبيقي، وتطور الميكانيك التطبيقي يؤدي إلى تحسين عام في الاختراعات والحرف الخ المعرفة التاريخية تتقدم، وهذا ينقص من عدد الأفكار الخاطئة التي تمنع الناس من تنظيم حياتهم الاجتماعية التي أصبحت نتيجة هذا التقدم أفضل تنظيماً من قبل أخيراً العمل الثقافي كله يطور قوى الانسان الفكرية، وكلما ازداد الناس الذين تعلموا القراءة، الذين اكتسبوا عادة وحب مطالعة الكتب في بلد ما ازداد عدد الناس الذين يتمكنون من الأشياء الجارية مهما كانت وهذا يعني أن جميع ميادين الحياة في البلاد تتحسن وبالتالي فان القوة الرئيسية وراء التقدم تم تعلمها ومجرات التقدم انقسمت بحسب كمية المعرفة وانتشارها إذن هذا هو التقدم إنه نتيجة المعرفة ولكن ماذا يكون البربري؟ إنه انسان لا يزال يقبع في أعماق الجهالة، إنه انسان في منتصف الطريق بين الوحش الضاري والكائن البشري بأصول الفكر المتطور . ما فائدته للمجتمع إذا

كانت المؤسسات، الجيدة أم الرديئة، إلا أنها مؤسسات انسانية، قد حل محلها عادات الحيوانات؟ »*

لا إشارة هنا للعلاقات الاجتماعية الداخلية في روما، التي مهدت لضعفها، والتي ذكرها حتى غيزو في المقالة الأولى من **مقالات حول تاريخ فرانسا**، ولا للحياة الكوميونية التي هي سبب قوة البرابرة الجرمان في ذلك الوقت الذي سقطت فيه الامبراطورية الرومانية في الغرب لقد نسي تشيرنيشيفسكي حتى الكلمات الشهيرة لبليني التي يقتبسها هو نفسه في مكان آخر الاقطاعات كانت عطالة ايطاليا وفي مصطلحه «صيغة التقدم الذي انتشر في بلادنا فيما بعد، لا مكان للعلاقات الداخلية لتلك البلاد كل شيء أرجع إلى التطور الثقافي ويذهب تشيرنيشيفسكي مؤكداً ان التقدم قائم على التطور الثقافي وأن «مظهره الاساسي يكمن بالضبط في النجاحات وتطور المعرفة ولم يخطر له أن «النجاحات وتطور المعرفة يمكن أن تقوم على العلاقات الاجتماعية التي توجه في بعض الحالات تلك النجاحات وذاك التطور، وقد تعوقها في حالات أخرى إنه يصور العلاقات الاجتماعية كأنها نتيجة فقط لانتشار آراء معينة أننا نقرأ هذا «المعرفة التاريخية تتقدم، هذا يقلل عدد الأفكار الخاطئة التي تمنع الناس من تنظيم حياتهم الاجتماعية، التي بذلك تصبح أفضل تنظيماً من قبل
إن هذا لا يشبه ما قاله مؤلفنا في مقالته عن كتاب روشير فمما قاله هناك إن من المستحيل، والحقيقة من المضحك أن تحكم على الأساتذة حكمك على التلامذة قائلاً إن استاذاً ما لم يطلع على علم معين ولذلك آراؤه خاطئة ونجم مما قاله هناك إن القضية ليست المعرفة التي يمتلكها أستاذ ما وإنما هي مصالح الفئة التي يمثلها باختصار نجم مما قاله هناك إن الآراء الاجتماعية تحددها المصالح الاجتماعية، والفكر الاجتماعي تحدده الحياة الاجتماعية الآن يبدو أنه يتخذ الطريق الآخر يبدو الآن أن الحياة الاجتماعية يحددها الفكر الاجتماعي وأن النظام الاجتماعي إذا كان له بعض العيوب فالمجتمع سببها مثل التلميذ الذي يرتكب أخطاء كثيرة بسبب دراسته القليلة إن من الصعب التفكير بتناقض أشد من هذا

---

* المؤلفات المجلد ٨ ص ١٥٨.

ومن المهم الاشارة إلى أن مقالته « حول سقوط روما ظهرت في العدد الخامس من **السوفريمينيك**، بينما ظهرت مقالته حول كتاب روشير في العدد الرابع ولا يمكن القول هنا إن تشيريسيفسكي يحمل آراء مختلفة في أزمان مختلفة حول مسألة تهمنا هنا لا إنه يحمل أفكاراً مختلفة في الزمن الواحد نفسه، وهذا ما يسمه أنه انسان لم ينجح بعد في ارجاع الآراء التاريخية إلى مبدأ واحد ولذلك جمع في الوقت نفسه المثالية إلى المادية في مناقشاته عن مجرى التاريخ

يناقش تشيرنيسيفسكي فيما بعد « قيل إن المجتمع وجد الأشكال الوطيدة مما يعني أنه كانت في المجتمع قوة تقدم، كانت حاجة إلى التقدم »* ويمكن الاعتراض على هذا بالطبع يمكن أن يعترض على هذا أولئك الذين لا يشاطرون تشيرنيشيفسكي آراءه المثالية - ان الحاجة إلى التقدم شيء، وبروز قوة في المجتمع قادرة على تلبية هذه الحاجة شيء آخر تماماً يجب ألا يخلط المرء بين مفهومين مختلفين في المضمون: أحدهما سلبي تماماً (« الحاجة إلى التقدم تشير فقط إلى الطبيعة المتقلصة للأشكال القائمة) والآخر ايجابي، لأن بروز قوة تقدم في المجتمع قادرة على خلق التغير الضروري في أشكال الحياة الجمعية يفترض مسوى معيناً من التطور الثقافي والأخلاقي والسياسي للطبقة أو الطبقات التي تأثرت بالنواحي غير الملائمة لتلك الأشكال إذا كان هذان المفهومان شيئاً واحداً، فان التقدم البشري يكون قضية بسيطة للغاية، ولن نواجه في التاريخ المشهد المؤسف للمجتمعات التي انهارت تحت ثقل أشكال الحياة الكوميونية، التي بسبب ضررها المؤكد لا يمكن أن تنتهي لعدم وجود قوة حيوية بين الناس قادرة على تحقيق ذلك ومن نافلة القول أننا لا نتكلم هنا عن الأشكال الضارة بكل طبقات المجتمع المقصود مثل تلك الأشكال تنهي نفسها ولكن الأغلب أن أشكالاً أخرى، غير ملائمة للأغلبية وملائمة جداً للأقلية المترفة، ذات ضرر خاص للنجاحات في المجتمع لا يمكن لهذه الأشكال أن تنتهي إلا إذا كانت الأغلبية المضطهدة تملك ولو قدراً ضئيلاً من امكانية القيام بعمل سياسي مستقل. ولا تملك هذه الامكانية دائماً إن هذه الامكانية ليست صفة متأصلة بالأغلبية المضطهدة إنها نفسها صيغة **اقتصاد**

---

* المرجع السابق ص ١٦٠.

مجتمع معين ويبدو أنه لا شيء أكثر فائدة لبروليتاريي روما من تأييد قوانين كراشي العسكرية ولكنهم لم يؤيدوها، ولا يسطيعون أن يفعلوا ذلك لأن الوضع الاجتماعي الذي دفعهم إليه التطور الاقتصادي لروما ليس فقط لا يمي من تطورهم السياسي فقط، بل العكس تماماً، يخفض مسواه أما بالنسة إلى الطبقات العليا، فان من العبث أولاً أن نتوقع مىها عملاً سياساً مافياً لمصالحها الاقتصادية، وثانياً لقد فسدت هي نفسها بتأثير مظهر آخر لمجرى التطور الاقتصادي خلقته البروليتاريا الرومانية، وفي الوقت نفسه حولها إلى غوغاء مطفلة ومعطشة للدماء وأخيراً وصلت الأمور هذا الحد لأن الرومان، غراة العالم، لم يعودوا صالحين للخدمة العسكرية، وقد انترع مىهم الأقاليم البرابرة الذي قضوا على وجود الامبراطورية التي كانت نصف ميتة* وهكذا على العكس من شروح تشيرنيسيفسكي، ليس ثمة شيء أسقط روما بالمصادفة، إذ كانت نهاية طبيعية للحركة التاريخية الاجتماعية التي ابتدأت منذ أمد طويل.

إلا أن تشيرنيسيفسكي يبىى رأياً مغايراً في مسألة القوى التي بواسطتها يمكن تلبية الحاجة الاجتماعية للتقدم مثل هذه القوى، في رأيه، موجودة دائماً عىد الطلب

وجودها مؤمن لأي مجتمع، **أولاً عن طريق قوانين الفيزيولوجيا** «إن عضوية الشخص الفرد تعيش خارج حياتها، ولكن كل شخص حديث الولادة تظهر عضوية جديدة بقوى جديدة، ومع تغير كل جيل تتجدد قوى الأمة لا تناقض الفيزيولوجيا من فضلك ولا تقل هناك أمم تتألف من أناس بلا رؤوس أو بلا بطون، أو مقصورة على الشيوخ، أو محصورة بالشباب لأن كلاً من هذه الجمل الأربع مساوية في السخافة فيا للرغبة في إظهار المرء نفسه بمظهر أحمق أو كاذب»**

---

* إن ادوارد ماير محق تماماً في قوله: «فقط عندما كانت الامبراطورية مفككة من الداخل نهائياً، قام البرابرة، الدين دعتهم بفسها ووضعت السيف بيدهم، بانتراع الأقاليم الغربية البعيدة عىها أنظر أيضاً ص ص ٥٢-٥٣ حول المسألة ذاتها أنظر الكتاب الصغير ولكنه المفيد، الذي وضعه ستلريتان **تناقص سكان الامبراطورية الرومانية وغزوات الجرمان** » لوران ١٩٠٨ وأنظر أيضاً كتاب روشير وفي الروسية ناقش مسألة سقوط الدولة الرومانية بتروفيشسكي في كتابه **مقالات حول تاريخ المجتمع الوسيط والدولة** الطبقة الثانية، موسكو، ٩٠ ص ص ١-١٨٩

** المؤلفات المجلد ٨ ص ١٥٩.

ثانياً يناقش تشيرنيشيفسكي موضوعه بالاعتماد على الاعتبار المنطقي التالي إنه يسأل بأي قوة خلقت أشكال الحياة الجمعية التي تقف في طريق التقدم ويجيب عن هذا السؤال بثقة بقوة المجتمع ويستنتج من هذا أنه ما دامت كمية القوة في المجتمع لا تتناقص، فان المجتمع لا يستطيع أن يصبح بلا قوة في حين كان يملك قوة من قبل: «هل من الصعب التدمير أكثر من البناء؟ تذكر انك تقول: البناؤون الذين أشادوا منزلاً لا قوة لهم على تدميره والنجار الذي يصنع طاولة أو الحداد الذي يصنع مرساة لا قوة له على تدميرها»*

ولكن ليس كل القوى الموجودة في مجتمع معين تفعل في الاتجاه نفسه إن التاريخ يبين أن «البنائين» و«النجارين» الخ الذين يحاولون تغيير «البيوت و«الطاولات» وهلمجرا، عليهم أن يتغلبوا على مقاومة تلك المجموعات الاجتماعية التي لها مصلحة في «البيوت و«الطاولات بحسب مظهرها السابق. وفي حالات أخرى، أي عندما كان تشيرنيشيفسكي فعلاً ذا نظرة مادية كان يعرف هذه الحقيقة تماماً ويستخدمها بمهارة. ولكن «تقليد مونتسكيو عاد به إلى وجهة نظر القرن الثامن عشر، وطفق يعقلن مثل مثالي أصيل

النتيجة الأخيرة لتشيرنيشيفسكي هي أن العالم القديم دمرته موجة الاضطرابات التي دفعت كل البدو من الراين إلى الآمور «لم يكن أكثر من تدمير البلاد عن طريق الطوفان لم تكن ثمة حاجة داخلية للموت على العكس، كانت الحياة طيبة والتقدم لا يتوقف إن تدمير الامبراطورية الرومانية كان كارثة جغرافية مثل تدمير هيركولايوم وبومبي، مثل البلاد التي دمرتها مياه طوفان ريدر زي»**

غالباً ما اعتبرت مقالة تشيرنيشيفسكي «حول أسباب سقوط روما معادية لهرزن الذي بعد فشل ثورة ١٨٤٨، ١٨٤٩ تحرر من وهم أوروبا الغربية ونظر إلى روسيا وكوميونها الفلاحي من أجل تنفيذ الاشتراكية يقول فيبريسكي في كتابه الحديث عن هرزن إن المرء في مقالة تشيرنيشيفسكي لا يعجز عن رؤية أن هرزن هو الخصم المتخيل

---

* المرجع السابق ص

** المرجع السابق ص ص ١٦٧ - ١٦٨

الـذي لا يعرف المؤلف ما إذا كان يسميه أحمق أو كاذباً* إلا أن السيد فيتريسكي لم يكن دقيقـاً تمامـاً في وصفـه حيلـة تشيرنيشيفسكي النقاشيـة. ولم يقـل هذا الأخير أن العدو المتخيل إما أحمق أو كاذب إنه يـصحه فقط ألا يقبل فرضيات معينة لا يقبلها إلا أحمق أو كاذب بالطبع هذه أيضاً سخرية لاذعة، إلا أن هذه السخرية لا تملك طبيعة الاهانة الشخصية، التي يدخلها السيد فيتريسكي في حسابه إن افـتراض أن تشيرنيشيفسكي يخاصم هرزن في مقالته يبدو بحد ذاته راجحاً** والواقع أن تشيرنيشيفسكي في مقالته ينتقد مبـهياً فرادة روسيا ويبتهج بذلك، حتى يظن المرء أنه كان يهاجم أنصار السلافية ولكنه يقدم تحفظاً في هذا الصدد يضطرنا إلى رفض هذه الفكرة. التحفظ هو التالي: «إننا لا نتحدث هنا عن أنصار السلافية بالطبع انصار السلافية يملكون عيوناً مصممة بطريقة أنها مهما رأت في بلادنا من تفاهة، فان تفاهتنا رائعة ومناسبة تماماً لانعاش أوروبا المحتضرة إننا لا نتحدث عن أولئك الناس: إنهم قلة في العدد، ولا اشارة إليهم في المناقشة، إننا لا نتحدث عن الشاذين، بل عن أناس يفكرون وفق الحس الانساني العادي »*** لهذا من الواضح أن تشيرنيشيفسكي لم يكن لديه مثل هذا الرأي الهريل في عدوه المتخيل كما عراه إليه السيد فيتريسكي إلا أن هذا ليس مهماً النقطة الهامة هنا، إذا استعرنا تعبير تشيرنيشيفسكي هو أن «عدوه المتخيل لا يرى أي شيء في روسيا، ما عدا حيازة الأرض الكوميونية، يمكن أن تكون مفيدة إذا ما انتشرت ما إلى البلدان المتقدمة، وبواسطتها يمكن أنعاشها هذا يمكن المرء من القول بكل ثقة إن مقالة تشيرنيشيفسكي كانت ترمي إلى معاداة رأي هرزن المعروف حول موقف روسيا من «العالم القديم إن تشيرنيشيفسكي يرفض باصرار هذا الرأي: لا شيء يمكن أن تتعلمه أوروبا مما

---

* أنظر كتاب فيتريسكي هرزن بطرسبرج ١٩٠٨ ص ٣٥٥

** أخذ هرزن مقالة «حول سقوط روما على أنها تعنيه، كما فعل أوغاريف الذي كتب عنها في إحدى رسائله: «من الخجل بيع المسيح، أي الحقيقة والقضية، فهذا لا يسمح به هذا ما يسميه المسيحيون جريمة ضد الروح (أنظر مقالة ليمك «قضية تشيرنيشيفسكي بيلوي ١٩٠٦ عدد ٣) بالطبع لا يمكن أن يوافق المرء على هذا أبداً إن الاعتراض على نزعة هرزن نصف السلافية ونزعة أوغاريف لا يعني خطيئة نحو الروح

*** المؤلفات مجلد ٨ ص ٧٣.

« لأنها تفهم أكثر مما نفعل، ما تحتاجه الأنظمة الجديدة، وكيف تقيمها ووسائل تقديمها وهكذا لا نملك شيئاً على الاطلاق ننعشها به »*

هذا صحيح تماماً، كما كان صحيحاً أننا لا نملك أساساً للتباهي بتفردنا الذي يسبب إلى التخلف إن محاربة تشيرنيشيفسكي مثل هذا التباهي، بغض النظر عمن بدر منه، سوف يكون دائماً مفخرة له لقد شكل هرزن رأيه عن موقف روسيا من « العالم القديم تحت التأثير الكبير لأنصار السلافية، وقد كان هذا الرأي خاطئاً ولكن يمكن أن يصل المرء إلى رأي خاطىء تقريباً وإن اسخدم طريقة صحيحة، كما يمكن أيضاً أن ينتج الرأي الصحيح عن استخدام طريقة خاطئة إلى حد ما ولذلك يحق للمرء أن يسأل عن ارتباط طريقة هرزن التي أدت إلى رأيه الخاطىء بطريقة تشيرنيسيفسكي التي أدت إلى رفض كامل لذلك الرأي وإلى سخرية منه

قدمنا من قبل نصف الجواب عن هذا السؤال: لقد رأينا في مناقشته أسباب سقوط روما أنه يعتنق **طريقة مثالية محضة**. وبما أننا اعتبرنا هذه الطريقة خاطئة في جوهرها، فاننا يمكن أن نقول أن تشيرنيشيفسكي وإن كان مصيباً في موقفه السلبي الحاد من رأي هرزن نصف السلافي عن المصير الذي ينتظر أوروبا الغربية، فان هذه النتيجة الصحيحة لم يصل إليها اعتماداً على الطريقة الخاطئة ولكن في تلك الحالة ماذا نقول عن هرزن؟

إن تسلسل فكرته هو التالي الشعوب الغربية تعيش في شروط اقتصادية معينة، والشعب الروسي يعيش في شروط مختلفة تماماً الملكية البرجوازية الصغيرة تسود في الغرب، ويميل الشعب الروسي إلى الملكية الكوميونية لذلك فان الشعوب الغربية مشربة بروح البرجوازية الصغيرة المعادية للاشتراكية عداء مستحكماً، بينما الشعب الروسي معاد جداً للبرجوازية الصغيرة في العالم، ونتيجة هذا ربما كان أقدر الشعوب على تحقيق النموذج الاشتراكي

في هذه الحجة يقترف هرزن كثيراً جداً من الأخطاء في الوقائع، وكثيراً جداً من الأخطاء في المنطق وهذا هو السبب في أنها قادته إلى نتائج خاطئة. ولكن بغض

---

* المرجع السابق

النظر عن خطأ النتائج التي وصل إليها هرزن، فان المرء مضطر أن يعترف أنها قامت إلى حد ما على الفكرة الحقيقية، وإن لم تكن مدروسة كفاية، بأن **الكائن يحدد الوعي**. ومع أن هرزن التزم بهذه الفكرة **الصحيحة** تماماً نكرر أنها أبعد من أن تكون واضحة له، وأبعد من أن تكون مدروسة - فانه كان أقرب من تشيرنيشيفسكي إلى التفسير المادي للتاريخ الذي يستطيع وحده أن يكشف لنا الدوافع الحقيقية للتطور الاجتماعي*

* كتب هرزن أن مصير العرب يعتمد على ما إذا كان الشعب ناجحاً أم لا في صراعه مع الطبقات العليا فإذا اندحر الشعب، فإن صيناً جديدة [انكلترا نيكولاييف] وبلاد فارس جديدة [فرانسا بيخانوف] سوف تكونان محتومتين (كولوكول رقم ٤٠ ورقم ٤١ ١٥ نيسان ١٨٥٩ مقالة ميل وكتابه «في الحرية» هنا من الضروري اللجوء إلى **الاقتصاد الاجتماعي** وهذا ما لا يفعله تشيرنيشيفسكي في هذه الحالة.

الفصل الرابع

مجرى التطور الاجتماعي

رأينا أن المقصود بمقالة «حول أسباب سقوط روما مساوأة الافتخار شبه السلافي حول فرادة روسيا ولا بد من أن نلاحظ الآن أن المقصود منها مساوأة شيء آخر أيضاً ففيها كان تشيرنيشيفسكي يهاجم أيضاً ما اعتبره تفاؤلية واهية ومؤذية في نظريات المؤرخين الغربيين من مدرسة غيزو ولا بد أن نذكر القارىء أن السبب الشكلي لظهور المقالة إياها كان نشر ترجمة ستاسيو ليفيتش الروسية للجزء الأول من كتاب غيزو **تاريخ الحضارة في فرانسا منذ سقوط الامبراطورية الرومانية**.. الخ وفي تحدي رأي هرزن يظهر تشيرنيشيفسكي خصماً عنيداً للتفاؤلية التاريخية وإذ عبّر عن العقيدة الثابتة التي دمرت الامبراطورية الرومانية بأنها كارثة جغرافية مثل تلك التي دمرت هيركولانيوم وبومبي يقول:

« حالات مشابهة دمار الأشياء والقضايا بقوى تدميرية خارجية، بغض النظر عن أهمية القضية أو أن الشيء في أوج حياته، نواجهها يومياً في الحياة الخاصة ونواجهها مرات لا تعد في التاريخ، هذا التدمير لم يتخذ في التاريخ المعروف مثل هذه الضخامة في تدمير كل العالم القديم المتحضر ولكن لا أحد يتحدث عن معقولية تلك الكوارث وفوائدها حصان يرفس انساناً في معبد فيموت ما المعقولية هنا، وما الأسباب الداخلية للموت؟ دمرت لشبونة بهزة أرضية فهل مزايا أو عيوب الحضارة البرتغالية مسؤولة عن هذا؟ تهب ريح السموم فتنطمر قافلة في رمال الصحراء لا نناقش ان الجمال والخيول كانت سيئة، وأن الناس أغبياء والتجارة هزيلة »*

---

* المؤلفات المجلد ٨ ص ١٦٨.

في تفاؤلية غيزو عارض تشيرنيشيفسكي الاتجاه الذي ذهب إلى أن الغزاة دائماً على حق وأن المغزيين دائماً مذنبون ويسمي هذا الاتجاه بالاتجاه المبتذل ويقول عملياً يجري ما يلي دائماً الغزاة يكونون أحياناً على حق، وأحياناً يكونون على باطل. ويطبق أبيات شلر في قصيدة «احتفال النصر على التاريخ:

لا تذهب الهدايا حيث المزايا
ويكون الحظ حيث لا يكون الكسب
انظر باتروكليس مجندلاً مدفوناً
بينما ترسيتس يعود

إن البرابرة الألمان الذين دمروا الامبراطورية الرومانية في الغرب اعتبرهم تشيرنيشيفسكي من طبيعة ترسيتس، على الأقل حتى يهجروا عاداتهم البربرية إنه يصف النظام الاجتماعي الذي قام بعد انهيار الدولة الرومانية كالتالي: «في غزو الأقاليم الرومانية كل عضو من قبيلة الغزاة ينهب ويسرق ويقتل من يريد، من السكان المغزيين أو من رفاقه، حتى يقتله أحدهم، أما القائد فإنه يقطع رؤوس جميع من يقع في يديه»* من هذا السلب الذي استمر عدة قرون، ظهرت الإقطاعية. ولكن النظام الإقطاعي لم يكن تقدمياً بالمقارنة مع الحياة الإجتماعية التي كانت في الامبراطورية الرومانية هناك درجة معينة من القانونية في روما، ولكن الإقطاعية كانت سرقة تصاعدت إلى نظام، إلى صراع ضار يخضع لبعض القواعد حتى الإقطاعية كانت طبعاً خطوة إلى الأمام بالمقارنة مع القرنين السادس عشر والسابع عشر ولكن في رأي تشيرنيشيفسكي كانت خطوة إلى الأمام فقط بمعنى أن اللصوص الإيطاليين القدامى الذين وافقوا على فدية كانوا أفضل من اللصوص السابقين الذين يقتلون بلا فدية. وعندما أخلت الإقطاعية الطريق للبيروقراطية، التي لم تكن موجودة حتى القرن السابع عشر، كان ما توطد في أوروبا الجديدة هو الشكل نفسه الذي كان سائداً في روما في القرن الثالث

ويستنتج تشيرنيشيفسكي «وهكذا نتحدث الآن عن التأثير المفيد لغزو الأقاليم

---

* المرجع المذكور ص ١٦٩.

الرومانية على يد البرابرة إن الطبيعة المفيدة لهذا الحادث كانت ببساطة أن القطاعات التقدمية في العصر البشري زجت في جحيم عميق من الوحشية، فلم يجحوا في الخلاص من وضعهم السابق إلا بعد أربعة عشر قرناً من الجهود المضيـة »* تبين هذه الأسطر أن دوراً هاماً للغاية في آراء مؤلفنا التاريخية يعرى **للصدفة**. ويمكن أن يقول المرء إن كل اتجاه التاريخ الأوروبي الغربي خلال الأربعة عشر قرناً التي تلت سقوط الامبراطورية الرومانية حدده في رأيه صدفة كبيرة، أو كما يضع الأمر في مقطع آخر، كارثة جغرافية: غرو البرابرة إن تعبير كارثة جغرافية تذكرنا بكوفير الذي فسر مصير حيوان العالم ونباته بالكوارث الجغرافية لقد عرفنا من قبل أن تشيرنيشيفسكي رفض نظرية كوفير والترم بنظرة التحولية. وهكذا توضع المسألة على شكل كيف تقوم التحولية في هذه الآراء التاريخية إلى جانب تعاليمه عن الصدف والكوارث التي حددت المصير التاريخي للشعوب عدة قرون

في طرح هذه المسألة لا نرغب أن نقترح أن التحولية لا تتلاءم مع مفهوم الكوارث فإذا كان المرء يقصد بالكوارث **انقطاعات في التطور التدريجي** أو ما يسمى القفرات في الطبيعة أو التاريخ - فلا عذر له أن ينسى أن هيغل في كتابه **المنطق** برهن على حتمية « الكوارث في أي نظرية منطقية للتطور لقد عبرنا عن رأينا في هذا الموضوع في عدة مناسبات في مؤلفات أخرى ولا نرى من الضروري أن نرجع إليه هنا ولكن إذا كانت « الكوارث محتومة منطقياً في أي نظرية تطور في أي درجة منطقية، فإن هذه الحقيقة المسلم بها لا تحدد المدى الذي توليه أي نظرية في اعتبار « الكوارث منطقية. وفي التساؤل كيف يمكن أن تقوم تحولية تشيرنيشيفسكي الى جانب تعاليمه في « الكوارث نود أن نوضح ما إذا كان قادراً أن يرى « الكوارث أحد عناصر التطور وهذه مسألة من أهم المسائل التي تطرح للنقاش في أي نظرية اجتماعية أو تاريخية

إن الجواب عن هذا السؤال يجب أن نبحث عنه في ملاحظة تشيرنيشيفسكي الببلوغرافية على مؤلفات غيزو الأخرى، التي تعالج أيضاً تاريخ الحضارة، ولكن في كل أوروبا وليس فقط في فرنسا ظهرت الترجمة الروسية لهذا الكتاب في ١٨٦١ وفي

---

* المرجع المذكور ص ١٧١

العدد التاسع من السوفريمينيك لتلك السنة كتب تشيرنيشيفسكي مراجعته فيه

في هذه الملاحظة وصف غيزو بأنه أستاذ جاد قام بدراسة عميقة للموضوعات التي يناقشها وإذا كانت لديه أفكار خاطئة فإن تشيرنيشيفسكي يرى أن هذه الأفكار جديرة بالدراسة الدقيقة. إن السمة الرئيسية والميزة الرئيسية لمؤلفات غيزو التاريخية هي حقيقة أن مؤلفها يبعد كمية من الأحداث الفردية من خطته ويركز كل اهتمامه على وصف الروح العامة للأحداث والمؤسسات والأفكار في كل عصر والعيب الرئيسي لتلك المؤلفات في رأي تشيرنيشيفسكي، كما عرفنا، هو التفاؤلية المفرطة في تطور الأحداث التاريخية* إن تفاؤلية غيزو المفرطة قامت على فكرة في التقدم أحادية الجانب. فمهما كانت أوروبا الغربية في القرن الثالث عشر، فإن وضعها وقتذاك كان أفضل من وضعها في القرن العاشر والشيء نفسه يمكن أن يقال عن القرن السابع عشر وضع أوروبا كان وقتذاك أفضل من وضعها قبل ٤٠٠ سنة وأخيراً الوقت الحاضر، مهما كان، لا يزال أفضل من القرن السابع عشر إن مصير البشرية الأوروبية بطيء إلا أنه في تحسن أكيد وهذا لا مراء فيه. ولكن من هذه الحقيقة المسلم بها يرسم التفاؤليّون أمثال غيزو نتائج خاطئة

يكمن سبب البطء في تقدم حياة البشرية الأوروبية حسب رأي تشيرنيشيفسكي « في طبيعة الأمم الأوروبية ذاتها التي - مثل بقية الأمم - في نضالاتها لا تحتاج للتنوير والحقيقة وجميع الأشياء الراقية الأخرى »**.وإحدى السمات الجيدة في الطبيعة الإنسانية هي القدرة الموروثة والرغبة في العمل. إن تلك السمات الجيدة للطبيعة الإنسانية هي ما يفسر التحسن التدريجي في مصير البشرية. « الجماهير تعمل، وحرف الانتاج تتكامل تدريجياً لقد منحوا حب المعرفة، أو على الأقل حب الاطلاع فيتطور التنوير تدريجياً، وبفضل تطور الزراعة والصناعة والمعرفة المجردة تصبح العادات والتقاليد أكثر رقياً، وفيما بعد تتحسن المؤسسات أيضاً، كل هذا له سبب واحد الكفاح الداخلي للجماهير لتحسين حياتها المادية والأخلاقية »***

---

* المؤلفات المجلد ٦ ص ٣٤٧

** المرجع السابق ص ٣٤٨.

*** المرجع المذكور.

لكن هذا الكفاح الداخلي للجماهير لتحسين حياتها التي تجري في شروط غير ملائمة دائماً يقول تشيرنيشيفسكي: بتأثير الأشكال هذه الشروط، حسب رأي مؤلفنا «انبثقت من مصادر مختلفة تماماً وتدعمها وسائل مختلفة». ويتخذ تشيرنيشيفسكي الإقطاعية مثالاً على ذلك: «ما علاقة الإقطاعية بالصاعة وحب المعرفة؟ لقد انبثقت من الغرو، هدفها ملكية عمل الآخرين، وقد استخدمت في ذلك القوة، وليس للإقطاعيين طموحات ثقافية، إنهم يستسلمون للكسل في غير زمن الحرب والمباريات والمشاغل المشابهة»* ولذلك لا يمكن القول إن الاقطاعية كانت مفيدة للعمل في أي ميدان وإذا حقق العمل أي نتيجة فقد تم ذلك على الرغم من الإقطاعية، وليس عن طريقها والشيء نفسه يجب أن يقال عن مسجزات المعرفة فإذا كان ثمة مثل هذه المنجرات فإنها تحققت ليس بسبب الإقطاعية، بل على الرغم مىها هذا يفسر لنا بطء التقدم، هذا يفسر لنا حقيقة أن الحضارة تظل غير مكتملة حتى يوما هذا يقول تشيرنيشيفسكي: «لم نجد الحضارة دعماً في شيء سوى طبيعة الإنسان، والناس الذين انتج عملهم وحبهم للمعرفة الحضارة كانوا في وضع مختلف للغاية، بحيث أن نشاطهم كان ضعيفاً جداً وتعرض للعقبات التي دمرت معظم هذا القليل الذي كان يمكن إنتاجه وما إن تحقق بعض النجاح في مدن إيطاليا العليا، حتى قضت عليه قبائل الجرمان، ونتيجة صراع الأباطرة مع الباباوات كانت إخضاع مدن لومباردي وتوسكاني لحكم المرترقة، وحالما طفق العلم والصاعة يردهران في فرانسا الجنوبية حتى وجه البابا الطاهر الثالث قبائل فرنسا الشمالية إلى تلك المناطق المردهرة، داعياً إلى تدمير الالبيجنسيين (طوائف مسيحية تخالف قليلاً العقيدة البابوية - المترجم) والقصة ذاتها كانت، بطريقة أو بأخرى تتكرر في كل أوروبا الغربية»**

مع أن التقدم لم يكن صيغة أسباب تعرى إلى الطبيعة البشرية، وعلى الرغم من الأشكال التي تحت تأثيرها يجب أن تحقق طموحاتها، مال المؤرخون إلى التفاؤلية وعروا التقدم إلى تلك الأشكال، مكرراً الخطأ المنطقي التي عبرت عنه صيغة: Post hoc crgo Prepter hoc*** قالوا «التقدم يتم تحت هذا الشكل، ولذلك انتجه

---

* المرجع المدكور

** المرجع المدكور

*** [بعده، لدلك مں أجله]

هذا الشكل ». يلاحظ تشيرنيشيفسكي أن المرء وفقاً لهذا المنطق يجب أن يعتبر الشتاء سبباً للحرارة في المساكن على الرغم من تأثير الجو الخارجي البارد ويرى أن غيزو قد اقترف هذه الخطيئة ضد المنطق أكثر من غيره: عنده أن كل واقعة هامة تظهر كأنها تقدم حافز*

ومن غير أن نمس الأسباب التي يفسر بها تشيرنيشيفسكي تفاؤلية غيزو، سوف نحاول تحليل براهينه الخاصة.

قبل كل شيء، سوف نشير إلى أن أساس كل براهينه في هذا الميدان تكمن فكرة معاكسة لتلك التي نجدها في مقالة « المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة هناك قال أن الإنسان بطبيعته لا خير ولا شرير، إنما يصبح خيراً أو شريراً حسب الظروف الآن يبدو أن الطبيعة الإنسانية تنزع « إلى التنوير وإلى الحقيقة وإلى كل ما هو خير وأنها تحقق باستمرار هذا المنزع على الرغم من الظروف التي لا تتناسب معها. ما تلك الظروف؟ إن أفعال الناس الذين يقتلون أقرباءهم، يسرقونهم ويفسدون كدهم المجدي بكل طريقة من طرق العنف ولكن إذا فسرت أفعال من هذا النوع بالطبيعة الإنسانية، فإن وصف الطبيعة الإنسانية الذي قدمه تشيرنيشيفسكي هنا ناقص: لا بد أن يقال عندئذٍ أن في الطبيعة الإنسانية يكمن نروع ليس فقط لكل ما هو خير، ولكن أيضاً لكل ما هو شرير. وإذا كان لدينا إضافة إلى وصف الطبيعة البشرية، فإننا نواجه حتماً السؤال. لماذا نروعات الخير المغروزة في الطبيعة البشرية تسود في بعض الحالات، بينما تسود نروعات الشر في حالات أخرى؟ إذا قلنا - كما يقول مؤلف مقالة « المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة - أن كل شيء هنا اعتمد على الظروف، فإن هذا سيكون صحيحاً ولكن عندئذٍ يُواجهنا السؤال وهو ما نوع الظروف التي سمحت لمظاهر العناصر الشريرة في الطبيعة البشرية أن تؤدي مثلاً إلى ظهور الإقطاعية إن براهين تشيرنيسيفسكي لا تضمن جواباً عن هذا السؤال، إلا أنها تتضمن ملاحظات تقدم لنا أساساً للاعتقاد أنه من الصعب أن يوافق على أن يعرو للطبيعة البشرية مثل هذه الأفعال الشريرة كالذبح والغرو واستغلال عمل الآخرين إنه يعتقد، كما رأينا، أن أشكال الحياة تحت التأثير غير المناسب، التي منها « يسحج التقدم « يبقى

---

* المرجع السابق ص ٣٤٩.

من مصادر مختلفة من أين تأتي هذه المصادر؟ إن هذا يظل مجهولاً ولكن لا أهمية من أين يستنتجها مؤلفنا، فمن الواضح أنه يستطيع أن يرفض استنتاجها من الطبيعة البسرية فقط بالتخلي عن وجهة النظر التي دافع عنها في مقالة «المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة

فلنتابع إن الأشكال التي في ظلها يتم التقدم ليست دائماً ملائمة له. حسناً ما هي تلك الأشياء؟ يشير تشيرنيشيفسكي إلى الإقطاعية ولكن الإقطاعية جهاز معقد كامل من العلاقات الاجتماعية. فما مظهر تلك العلاقات الذي يضعه تشيرنيشيفسكي في ذهنه؟ إنه يضع الحروب والسرقة والغزو فلندرس هدا المظهر أيضاً من العلاقات الإقطاعية.

الحرب تقرر النظام الاجتماعي إلى حد ما بالطبع، لكن الحرب قبل أن تقرره هي نفسها يقررها هذا النظام. ولهذا السبب - ولهذا السبب فقط - فإنها ذات سمة تختلف حسب مراحل التطور الاجتماعي المختلف: فالحرب بين المتوحشين أنفسهم تختلف عن حرب قبائل البرابرة، وحرب القبائل البربرية تختلف عن حرب الأمم المتقدمة ونتائج الغزو تختلف أيضاً حسب المراحل المختلفة من التطور الاجتماعي عندما غرا النورمانديون انكلترا أدى الغزو إلى نتائج معينة، وعندما غرا الألمان الألراس واللورين أدى هذا إلى نتائج مختلفة إن النتائج الاجتماعية تعتمد دائماً على العلاقات الاجتماعية السائدة بين الغزاة من جهة، والمغربين من جهة أخرى أما بالنسبة إلى الإقطاعية نفسها، إذا ما نظرنا إليها من المظهر الذي يخدمنا هنا، فلا بد أن نتذكر أن ظهور طبقة اجتماعية مع الإكراه على تقديم الخدمة العسكرية يفترض مسبقاً عملية طويلة من التطور الاجتماعي الذي يميز بتغير في الملكية، وخاصة ملكية الأرض، وفي العلاقات، وكذلك بتغير في تقسيم العمل الاجتماعي* وقد تمت هذه العملية على أساس اقتصادي معين نسيه مؤلفنا، لسبب غريب، نسياناً كلياً يقول إن أبناء العصور الوسطى عملوا مدفوعين بمنازعتهم إلى الخير، وأن عملهم أعاقته تلك «الأشكال كالإقطاعية ولكن لنفرض أنه لم يكن ثمة إقطاعية أو أي «أشكال» أخرى مثلها غير ملائمة للعمل

---

* أنظر مؤلف بتروشفسكي المشار اليه أعلاه مقالات حول تاريخ المجتمع الوسيط والدولة ص ص ٢٣٤ - ٢٥٦ و٢٩٠ - ٣٠٩.

فما الذي تكونه المجموعة البشرية عندئذٍ؟ ما « الأشكال » التي سوف تتطور تحت تأثير النزوع إلى العمل الذي لا يعوقه عائق؟ لا شك أن تشيرنيشيفسكي سوف يجيب أن هذا الشكل أو ذاك من الحياة الكوميونية سوف ينتعش في هذه الحالة. ولكن ما حدود الكوميونات التي تتطور في ظرف ملائمة؟ أليس ثمة أساس لافتراض أن الاحتكاك سوف ينشأ بين الكوميونات؟ فإذا وجد هذا الأساس، ألسنا على حق في أن نعتقد أن هذا الاحتكاك سوف يؤدي إلى حروب، إلى اضطهاد القوي للضعيف، وكل الظواهر التي يفسر بها تشيرنيشيفسكي التطور البطيء للحضارة؟

إن تشيرنيشيفسكي في مبالغته بدور القوة في التاريخ الوسيط للمجتمعات الأوروبية، كان يتبع مثال أساتذته اشتراكيي المرحلة الطوباوية الذين اتبعوا بدورهم مثال المؤرخين الفرنسيين في زمن الإصلاح

لقد عول هؤلاء المؤرخون على دور الصراع الطبقي في تطور المجتمع الأوروبي قال غيزو إن كل تاريخ فرانسا صنعه صراع الطبقات* إن المؤرخين الفرنسيين في الفترة المعنية اعتبروا أيضاً الثورة الفرنسية الكبرى نتيجة صراع « الطبقة الثالثة ضد الارستقراطية الكنسية والعلمانية وبما أنهم كانوا أيديولوجيي البرجوازية، فإن من الطبيعي إن كل عواطفهم سوف تكون إلى جانب « الطبقة الثالثة ومهما مال غيزو إلى التفاؤلية، مثلاً، فإن تفاؤليته وصلت إلى الاعتقاد أن كل تاريخ أوروبا من زمن سقوط الامبراطورية الرومانية في الغرب هيأ المجال بطريقة أو بأخرى لانتصار « الطبقة الثالثة » أو كما قال غيزو بدقة أكثر - الطبقات الوسطى وبما أن هؤلاء الأساتذة اعتبروا هذا التاريخ عملية منطقية، فإنهم رأوا فيها عملية تعد لانتصار البرجوازية. ويكفي أن نتذكر أوغسطين تييري في كتابه **تاريخ الطبقة الثالثة****، الرائع في زمنه. وإذ تبنى أوغسطين تييري والمؤرخون الفرنسيون المشهورون لأيامه وجهة نظر الطبقات الوسطى فإنهم لا يشعرون بعطف على الإقطاعية. ومع أنهم كانوا مهيأين لقبول منطق ظهورها التاريخي، فإنهم درسوها بقلة اهتمام وفسروها بالغزو أولاً وقبل كل شيء بعضهم، كغيزو مثلاً، قبلوا واقعة الغزو وتوسعوا في شرح نتائجه

---

* المهم أن تشيرنيشيفسكي لم يول اهتماماً لهذه الناحية من أفكار غيزو.

** مقالات حول تاريخ الطبقة الثالثة

المفيدة التي، كما سبق وأشرنا هيأت للنصر النهائي تقريباً للطبقة الوسطى آخرون، كأوغسطين تييري مثلاً، أظهروا حقداً كبيراً على واقعة الغزو ولكن مهما يكن فإنهم جميعاً فسروا ظهور الإقطاعية بالغزو، على غير النظام البرجوازي الذي فسروا تطوره بأسباب اقتصادية قبل كل شيء ومن وجهة نظر الاقتصاد الحديث، الذي اكتشف الأسباب الاقتصادية لظهور الإقطاعية، لا بد من اعتبار هذه السمة المميزة لأفكار المؤرخين الفرنسيين لعصر الإصلاح، الجانب الضعيف في أفكارهم ولكن الاشتراكيين الطوباويين اتخذوا موقفاً مختلفاً من القضية فهم، على العكس اعتبروا الجانب الضعيف في أفكار المؤرخين الفرنسيين جانبهم القوي الذي زودهم ببراهين جديدة ضد النظام الاجتماعي القائم الملكية، التي كانت نتيجة الغزو، فقدت مظهرها المقدس الذي حاول المحافظون إضفاءه عليها ولذلك كان الاشتراكيون الطوباويون لا يميلون أبداً إلى معالجة العيب المزعوم في آراء المؤرخين وما كان تشيرنيسيفسكي كذلك، كما رأينا إنه مثل كل الاشتراكيين الطوباويين أولى أهمية مبالغاً فيها للغزو إنه لم ير إلى أي مدى لم يتطابق رأيه في «الأشكال كالإقطاعية مثلاً مع ما جاء من أهمية التاريخ في خطاب غرانوفسكي، الذي يقدره عالياً وسوف يتذكر القارىء أن المصير التاريخي للأمم وحتى حياتها الاجتماعية وصفت في هذا الخطاب على أنها ترتبط ارتباطاً سببياً بخصائص البيئة الجغرافية وقد لاحظنا من قبل أن تشيرنشيفسكي نفسه وافق على تأثير هذه البيئة بمعنى أنها ساعد أو تعوق تطور المجتمع **الاقتصادي**، باعتباره القاعدة الأساسية في بنائه

الفصل الخامس

تشيرنيشيفسكي وماركس

أشرنا أكثر من مرة أن تشيرنيشيفسكي، مثل ماركس، انتقل إلى مدرسة فيورباخ كما قلنا أيضاً أنه بينما تابع تشيرنيشيفسكي الالتزام بآراء فيورباخ، فطبقها على بعض فروع المعرفة كعلم الجمال مثلاً، أخضع ماركس وانجلز تلك الآراء لصياغة جذرية، وعلى الأخص تلك الناحية التي تتعلق بالتاريخ ومن المفيد أن نقارن النتائج التي حققها ماركس وانجلز في تفسيرهما التاريخ مع الاستنتاجات التي وصل إليها مؤلفنا في الحقل نفسه ومواد هذه المقارنة تمدنا بها مراجعة ماركس الطويلة والهامة جداً لكتاب غيزو **لماذا نجحت الثورة الانكليزية؟ محاضرات عن تاريخ ثورة انكلترا** باريس ١٨٥٠، التي ظهرت أولاً في صحيفة ماركس **الصحيفة الرينانية الجديدة**[١٠٩]، وأعاد نشرها مهرنغ في المجلد الثالث من **التراث الأدبي لماركس وانجلز ولاسال**.

إن النقد الرئيسي الذي وجهه ماركس في هذه المراجعة هو أن غيزو يطبق جملاً عامة مستخدمة في مناقشات البرلمان الفرنسي لتفسير التاريخ الانكليزي، متجاهلاً التطور الاقتصادي للبلاد ومجرى الصراع الطبقي، الذي يقرره هذا الأخير، داخل المجتمع الانكليزي وإذ يتحدث غيزو عن تأثير المذاهب الدينية في مجرى الثورة الانكليزية، ينسى أن تلك المذاهب كانت ذات صلة سببية بتطور المجتمع المدني ولقد صور طرد آل ستيوارت من انكلترا من غير أن يربطه حتى بأدنى الأسباب الاقتصادية، مثل مخاوف الأرستقراطية العقارية على الأراضي التي أخذتها نتيجة تحول الطبقات الكنسية إلى علمانية، والتي ستؤخذ منها طبعاً إذا انتصرت الكاثوليكية التي حظيت بدعم آل ستيوارت الخ* ليس ثمة كلمة واحدة في مراجعة ماركس

* التراث الأدبي لماركس وانجلز ولاسال شتوتغارت ١٩٠٢ ص ٤١٢-٤١٣.

هذه عن الطبيعة البشرية، عن العلاقة التي تربطها بالأشكال المعينة للحياة الاجتماعية:
إن ماركس في الزمن الذي ظهرت فيه المراجعة التزم بثبات بالمبدأ الذي عبر عنه فيما بعد في **رأس المال**، وهذا المبدأ هو أن الإنسان عندما يعمل في العالم الخارجي في عملية الانتاج، يغير طبيعته الخاصة[111] باختصار بحلول ١٨٥٠، عندما كتب ماركس هذه المراجعة، كان يتحدث كمادي عن غيزو، بينما لا يحدى تشيرنيشيفسكي، في ملاحظاته التي كتبها بعد ذلك بعشر سنوات، براهين المؤرخين الفرنسيين، بغير الآراء المثالية.

وبالمناسبة لا بد أن نلاحظ أن ماركس لم يكن على صواب تماماً في موقفه من غيزو إن الأخير لم يكن أبداً جاهلاً بأسس التفسير المادي للأحداث التاريخية، كما يمكن أن يعتقد المرء على أساس مراجعة ماركس كان انجلز أصح رأياً فيما يتعلق بالمؤرخين الفرنسيين في مرحلة الإصلاح ولكن حتى موقف ماركس الصارم المتطرف من غيزو في المراجعة إياها كان ببساطة نتيجة الإثارة لدى رؤية عناصر المثالية التي شغلت حيزاً كبيراً من آراء المؤرخ الفرنسي لقد أثار غيزو تشيرنيشيفسكي أيضاً، ولكن تشيرنيشيفسكي أثير لا لأن غيزو ظل مثالياً في التحليل الأخير بل لأن تعليله لم يكن دائماً مشرباً بنموذج من المثالية التزم به اشتراكيو المرحلة الطوباوية، والذي بفضله لم **يفسروا** التاريخ، بل انتقدوا أو استحسنوا هذه الظاهرة التاريخية أو تلك

وفي وصف تشيرنيشيفسكي للطريقة الديالكتيكية، قال إن كل شيء في الحقيقة يعتمد على شرطي المكان والزمان، ولذلك فإن الفرضيات المجردة العامة التي بواسطتها يحكم الناس على الخير والشر غير مقنعة منذ القديم (أي قبل هيغل) وفي انتقاده أفكار غيزو يحكم على الأحداث التاريخية من زاوية تلك الفرضيات المجردة ولكن النقطة هي: قلما نظر إلى التاريخ من وجهة نظر ديالكتيكية

لم يرفض ماركس وانجلز أبداً الأهمية التاريخية لتطور الأفكار عامة، ولتطور المفاهيم العلمية خاصة. إنهما تمسكا بثبات بأن الوعي لا يحدد الكائن، بل الكائن يحدد الوعي، وأنه ليس تاريخ الأيديولوجيات هو الذي يفسر تاريخ المجتمع، بل تاريخ المجتمع هو الذي يفسر تاريخ الأيديولوجيات وكذلك رأى تشيرنيشيفسكي هذا الأمر بوضوح كامل في كثير من الحالات ولكنه عندما جمع آراءه التاريخية المتفرقة في كل واحد، بدا كأنه نسي تماماً أفكاره المادية وجعل تطور الكائن يعتمد على تطور الوعي

وأهم المقاطع في هذا الصدد نجدها في مراجعة كتاب بوفيسكي التطور التدريجي للمذاهب الفلسفية القديمة فيما يتعلق بتطور الديانات الوثنية (السوفريمينيك ١٨٦٠ العدد ٦ وأعيد نشرها في المؤلفات الكاملة)

في هذه المراجعة يشبه تشيرنيشفسكي تاريخ البشرية بالحملات العسكرية في الحملات العسكرية هناك عادة متخلفون تزداد أعدادهم كلما اندفع الجيش والقيادة العامة إلى الأمام أكثر فأكثر وعندما يكون التقدم أسرع يحدث أحياناً أن كتلة ضخمة من الجنود تترك بعيداً إلى الوراء إن المتخلفين لا يساهمون في المعارك، بل يعوقون رفاقهم في الجبهة الذين يحملون كل عبء الصراع ولكن عندما ينتهي صراعهم بالانتصار ويستسلم العدو، ويخلد المنتصرون إلى الراحة، يسلم المتخلفون الصفوف المتقدمة، ويتجمع الجيش في النهاية تحت ألويتهم. كما كان في بداية الحملة والشيء نفسه نلاحظه في التقدم الفكري للبشرية أيضاً إن كل الأمم تتقدم:اعتنق قدامى اليونان ذات مرة المفاهيم ذاتها التي يعتنقها اليوم الهوسوت ثم بدأت أمم تتقدم، وأمم تتأخر إن اليونان الذين وصفهم هوميروس كانوا متقدمين كثيراً على التروغلوديين والليستروغيين وفيما بعد ظهر المتخلفون والمتقدمون بين اليونان أيضاً وهكذا مثلاً في زمن صولون كان الاسبرطيون متخلفين عن الاثينيين عندئذٍ دب الشقاق بين الاثينيين أنفسهم يقول تشيرنيشفكي كانت حكمة صولون معروفة لدى كل أثيني. بينما كان سقراط يعتبر مفكراً حراً لدى معظم أبناء جلدته »* اننا نجد الشيء ذاته في التاريخ المتأخر في البدء كل جماهير الناس القاطنة في أقاليم الامبراطورية الرومانية السابقة في الغرب يحملون الرأي ذاته عن الأشياء « في القرن السابع أو الثامن. صار الباباوات متخلفين عن أقل الفلاحين الفرنسيين أو الايرلنديين ثقافة، فقط في أنهم يتذكرون النصوص والصلوات الدينية، ولكن ليس في أنهم يفسرونها بشكل مختلف وبعد فترة تغير الأمر فالاختلاف في الشروط المادية بين الطبقات خلق اختلافاً في الحياة الفكرية »** ومكنت ثروة الكنيسة رجال الدين من أن يصبحوا مثقفين، مما جعل الموهوبين يتصدون لاعادة النظر في المفاهيم القديمة وفي الوقت نفسه تقدم التعليم وتطور المضمون

---

* المؤلفات المجلد ٦ ص ٢٦٥

** المرجع السابق ص ٢٦٦ .

الذي كان معروفا فقط للاختصاصي، لذلك لم يفهمه الجماهير هذه الساحات في التعليم أقيمت على المصادر المادية تحت امرة الاكليروس والطبقة الوسطى، وساهم المواطنون أيضاً في انتاج الشعر الجديد. الذي لم تفهمه عامة الشعب المتعلقة بالاغاني الشعبية والفولكلور القديم في المدينة تشكلت الجمعيات النقابية لمحترفي الشعر وأساتذة الشعر إلا أن هذا التغير سهلت له ثروة البارونات الاقطاعيين الذين كان لهم في بلاطهم شعراء وتروبادوريون * ولكن في العصور الوسطى كانت الفجوة بين الناس المتقدمين والجماهير أقل منها في العصر الحديث، عندما بدأ العلم يتطور بسرعة مذهلة، بينما ظلت الأغلبية العظمى من السكان في حالة من الجهالة تشبه إلى حد ما حالة القرن التاسع أو العاشر وتطور الشعر بين الطبقات المثقفة بسرعة مماثلة، بينما ظلت الجماهير لا تملك سوى نفايات مشوهة من الشعر الشعبي للعصور الوسطى ونشأ وضع مماثل بين المثقفين ويقتبس تشيرنشفسكي مثالاً من شكسبير يقول نرى أن بضعة شعراء انكليز من القرن الماضي فهموا شكسبير وقلة من عامة المثقفين كانت قادرة على تذوقه. بينما استمر الباقي إلى زمن طويل يمسكون بالخطابة المنفخة أو الترمت البارد اللذين يرجعان إلى درجة مدنية في التطور الشعري عن واقعية شكسبير وظهر ولا يزال الشيء نفسه اليوم في كل مكان. وفي كل فروع الحياة الثقافية »**

إن التخلف وراء الركب كان دائماً من حظ الأغلبية واستمر حتى اليوم ولكن لا ينتج من هذا أنه سيكون هكذا دائماً إن الحكمة التي اكتسبت بسطة ومفهومة لكل شخص. إن الموافقة عليها أسهل من اكتشافها وسوف يوافق عليها الجماهير عندما يعرفونها

يلخص تشيرنشفسكي رأيه في مجرى التطور الفكري للبشرية كما يلي في البدء نشأ الناس المتطورون ثقافياً من صفوف الجماهير ونتيجة تقدمهم خلفوا الجماهير وراءهم أكثر فأكثر ولكن لدى الوصول إلى درجات عليا من التطور تحقق الحياة الفكرية للمتقدمين شخصية تصبح أكثر فأكثر مفهومة لعامة الناس. بحيث تتطابق كثيراً مع متطلبات الجماهير البسيطة وفي علاقتها بالحياة الفكرية لعامة الناس يكمن

---

* المرجع ذ نه والصفحة ذا

** المرجع السابق ص ٢٦٧.

النصف الثاني للحياة الفكرية التاريخية في الارتداد إلى تلك الوحدة من الحياة الشعبية التي كانت قائمة في البداية، والتي دمرت أثناء النصف الأول للحركة »*

طبقاً لتشيرنيشيفسكي فان الحقيقة التي تكتسب تتطابق مع متطلبات الجماهير فما هذه الحقيقة؟ من الواضح أنها ليست حقيقة الرياضيات والعلوم الطبيعية إن حقيقة الرياضيات والعلوم الطبيعية لا تحمل علاقة مباشرة بمصالح الجماهير حتى لو حملت فان معرفة معينة وخاصة إلى حد ما لا بد من فهمها ويلمح تشيريشيفسكي إلى حقيقة تأخذ بعين الاعتبار علاقات الناس المتبادلة في المجتمع إنه يؤمن أن هذه الحقيقة اكتشفها معلموه الأوروبيون الغربيون فورباخ والممثلون الكبار للاشتراكية الطوباوية: روبرت أوين وفورييه وآخرون ولذلك يفترض أن النصف الثاني من الحياة الفكرية للبشرية ابتدأ أو على وشك أن يبتدىء ذلك النصف الأعلى في المجرى الذي تنكشف فيه الحقيقة أخيراً وتنتشر بين الجماهير، سيتجه اقتراب الجماهير في مفاهيمها من أكثر الناس رقياً إن امكانية حدق الجماهير للحقيقة المكتشفة أخيراً مضمونة، أولاً بالبساطة، ثانياً بتطابقها مع مصالح الجماهير إن المصلحة الذاتية نفسها التي يسترشد بها الناس في علاقاتهم ستجعل الجماهير ليس حادقة للحقيقة فقط، بل مجسدة لها في حياتها الاجتماعية هكذا كان تشيريشيفسكي يرى المجرى القادم للتطور الاجتماعي الوعي يحدد الكائن، لذلك لا حاجة إلى دراسة نوع الكائن الاجتماعي الذي يمكن أن يساعد الجماهير على حدق الحقيقة الاجتماعية، وإلى أي مدى هذه الحقيقة من البساطة بحيث أن أي انسان ممكن من مبادىء الحساب سوف يفهمها هذه النظرة في المجرى القادم للتطور الاجتماعي متعارضة كلياً مع ما يمكن أن نجده عند مؤسسي الاشتراكية العلمية عندما قدم ماركس وانجلز «تكهنهما المشهور، لجأ إلى التناقضات الداخلية للمجتمع الرأسمالي. وأظهرا أن حتمية تطور تلك التناقضات في الرأسمالية سوف يدفع الأغلبية العظمى للمتحين إلى تبني مثل عليا اجتماعية جديدة هنا اعتبر مجرى تطور الوعي نتيجة لازمة لمجرى معين من تطور الكائن إن تشيرنيشيفسكي لا يحلل التناقضات الداخلية في الكائن الاجتماعي لقد عمد إلى ملاحظة حقيقة أن شكل » هذا الكائن هو حالياً غير ملائم للجمهور السكاني الضخم

---

* المرجع السابق ص ٢٦٨.

في كل مكان. وفي رأيه ان هده الحقيقة كافية للتأكيد أن الجماهير سوف تفهم الحقيقة الاجتماعية إن الساطة الشديدة للغاية في هده الحقيقة تجعلها مفهومة من قبل عامة الناس الدين يعشون في ظل أعظم علاقات الاساح تبايناً لقد رأى تشيرنيشيفسكي التطور القادم لتطور الكائن على أنه سيجة بسيطة لانجار معين من الوعي نظر ماركس وانجلر إلى المسألة من وجهة نظر المادية وبظر تشيرنيشيفسكي إلى المسألة من وجهة نظر مثالية إن الآراء التاريخية لماركس وانجلر كانت مخلصة للروح المادية للفلسفة الفيورباخية وكانت آراء تشيرنشيفسكي مناقضة تماماً لهده الروح. هنا يجب أن نتذكر طبعاً أن الآراء التاريخية لمعلم تشيرنيشفسكي لم تكن هي نفسها مخلصة لفرضيات فلسفته الرئيسية، كما أظهر انجلر دلك في كراسه **لودفيغ فيورباخ**

إن الطبيعة المتقدمة جداً لمفهوم تشيرنيشيفسكي عن التقدم تتصح فيما يقوله عن شكسبير فالحقيقة أن بضعة مثقفين انكليز في القرن الثامن عشر كانوا قادرين على تذوق الميزة العظمى لمؤلفات المسرحي الرائع، وأن معظم الانكليز نظروا إليه بشيء من الازدراء ولكن تعليل هدا ليس نقص المعرفة عند الأغلبية الحقيقة أنه حيثما حطّ القسم الأعظم ممن تسمى عامة المثقفين، من قيمة شكسبير، فإن «العامة المدنية التي تمتعت بمعرفة أدبية أقل طبعاً من الناس المثقفين في أيامها شعرت بعاطف كبير معه. وقد عبرت عن ذلك بعنف يكمن تفسير هده الحقيقة في سمات معينة لعلم النفس الطبقي في المجتمع الانكليزي في القرنين الثامن عشر والسابع عشر منذ عصر الاصلاح سعت الارستقراطيه الانكليزية إلى تمثل أذواق النبالة الفرنسية الرائعة، التي كانت بعيدة جداً عن جلافة شكسبير وأحياناً واقعية عامية مبتذلة ولكن بسبب هده الواقعية أحبه «عامة الناس وكما يمكن أن نرى كان تاريخ رأي الانكليز بشكسبير أشد تعقيداً مما أعتقد تشيرنشيفسكي. الدي نسي ثانية كلماته الرائعة أن تاريخ الأفكار يجب ألا ينظر إليه من دراسة الفكرة ذلك أن الناس يعرفون شيئاً واحداً ولكنهم لا يعرفون الآخر الخ

المراجعة التي وصفت أعلاه تبين لنا أيضاً أن مؤلفنا في براهينه التاريخية انطلق من وجهة نظر المثالية إلى وجهة نظر المادية. والعكس بالعكس إن تفسير التاريخ الدي تتضمنه مشوب بروح المثالية ولكن عندما يدرس تشيرنيشفسكي الظواهر التاريخية المفردة التي تحدد مجريات الحياة الثقافيه للبشريه ينصرف عادة

كما يقول «الاختلاف في الشروط للطبقات خلق اختلافاً في حياتها الفكرية». إن مجرات ثقافة العصور الوسطى قامت حسب رأيه. على مصادر مادية تحت إشراف الاكليروس والطبقة الوسطى والبارونات الاقطاعيين. ولذلك ينتج أن تطور الفكر لم يكن أبداً السبب الأعمق للحركة التاريخية على العكس، إنه هو نفسه تقرره الحركة الاقتصادية للمجتمع إن أي امرىء يمكنه أن يرى أن أفكاراً مادية من هذا النوع تناقض مثالية تشيرنيشيفسكي التاريخية تناقضاً صارخاً

عرفنا أن تشيرنيشيفسكي اعتبر الاقطاعية أحد «الأشكال» التي بظهورها ووجودها أعاقت تطور الأمم. هذه الفكرة المثالية عن الاقطاعية تتناقض مع فكرته المادية التي أشرنا إليها تواً، أن الاقطاعية كانت «شكلاً أدى إلى تراكم المعرفة، وبالتالي إلى تقدم البشرية وحتى يزيل هذا التناقض عليه أن يلتزم بالتماسك إما بالمادية أو بالمثالية ولكن هذا التماسك مستحيل لأنه يعتبر ممثلاً للمرحلة التحولية في تطور التفسير العلمي للتاريخ المرحلة التي كانت فيها المادية تتحدى المثالية في هذا المضمار، ولكنها كانت أبعد ما تكون عن الانتصار، وكانت المثالية لا تزال لها الكلمة الأخيرة

يمكن أن نتذكر، كما لاحظنا أن مراجعات تشيرنيشيفسكي التي درسناها ظهرت بعد صياغة الآراء التاريخية لماركس وانجلز في نظرية منسجمة إننا لن ننسى هذا ولكننا نعتقد أن هذه القضية لا يمكن أن تحل بالرجوع فقط إلى التسلسل التاريخي إن الكتابات الرئيسية للاساس أيضاً لم تظهر بعد اتخاذ الآراء التاريخية لماركس وانجلز شكلاً منسجماً وبالتالي مضموناً ايديولوجياً إنها تنتمي هي الأخرى إلى مرحلة الانتقال من المثالية التاريخية إلى المادية التاريخية إن المسألة ليست متى ظهر هذا الكتاب أو ذاك، بل ماذا كان مضمونه

إذا كان تقدم المعرفة في المراحل التاريخية السابقة يعتمد على سمة العلاقات الاقتصادية في الانتقال إلى مرحلتنا الحالية، فان تشيرنيشيفسكي لا بد أن يكون سأل نفسه ما السمات الاقتصادية التي أدت إلى اكتشاف الحقيقة الاجتماعية وضمنت التحقيق القادم هذه الحقيقة؟ ولكن حتى يسأل نفسه ذلك السؤال، عليه أن يبتعد كلياً عن المثالية وأن يتبنى بحزم التفسير المادي للتاريخ ولن نكرر أن تشيرنيشيفسكي كان

ما يزال أبعد من أن يتخلى عن المثالية، وأن مفهومه عن الاتجاه المقبل للتطور الاجتماعي كان مثالياً كلياً إننا فقط نسأل القارىء أن يلاحظ أن مثالية تشيرنيشيفسكي التاريخية أجبرته في نظراته إلى المستقبل أن يجعل المكانة الأولى للناس « التقدميين » - للمثقفين، كما سميناهم - الذين كانوا سيبشرون الحقيقة الاجتماعية المكتشفة بين الجماهير إن الجماهير تقوم بدور الجنود المتخلفين في جيش متقدم بالطبع، لا يوجد مادي جاد يؤكد أن « الرجل الوسط في الشارع »، لأنه رجل عادي، أي « واحد من الجماهير » يعرف، مثل « المثقف الوسط بالطبع إنه يعرف أقل ولكن القضية ليست قضية معرفة « رجل الشارع، بل أفعاله إن أفعال الناس لا تحددها دائماً معرفتهم، كما أنها لا تتحدد فقط بالمعرفة، بل أيضاً، وبشكل رئيسي بالمركز الذي تجعله المعرفة التي يملكونها واضحاً ومفهوماً ان على المرء هنا أن يتذكر ثانية الفرضية المادية بشكل عام، والتفسير المادي للتاريخ بشكل خاص: الوعي لا يحدد الكائن، بل الكائن يحدد الوعي إن « وعي » رجل من « الانتلجنسيا متطور أكثر من وعي رجل من « الجماهير ». ولكن « كينونة رجل من الجماهير تقدم له طريقة محددة من العمل أكثر مما يقدمه المركز الاجتماعي للمثقف وهذا هو السبب في أن النظرة المادية في التاريخ تسمح للمرء ضمن حد معين، بل محدود جداً أن يتحدث عن تخلف الانسان من « الجماهير بالمقارنة مع الانسان من « الانتلجسيا وبهذا المعنى فان « رجل الشارع سوف يتخلف وراء « المثقف »، ولكن بمعنى آخر إنه ولا شك يسبقه ولأن هذا هكذا بالضبط فان نصير التفسير المادي للتاريخ، إذ لا يكرر أبداً الهجومات السخيفة على الانتلجنسيا القادمة من معسكر الرجعية والتجارة، فانه لا يوافق أبداً على اعطائها الدور الحاسم في التاريخ، هذا الدور الذي منحه لها المثاليّون. إن ثمة أنواعاً شتى من الارستقراطية. إن المثالية التاريخية مخطئة في « ارستقراطية المعرفة

العيب الذي في الآراء التاريخية لتشيرنيشيفسكي نجم عن الفهم القاصر لمادية فيورباخ، ثم أصبح فيما بعد أساس المذهب الذاتي، الذي لا يربطه رابط مع المادية، والمتعارض معها ليس في ميدان التاريخ فقط، بل أيضاً في ميدان الفلسفة إن الذاتيين يسمون أنفسهم بافتخار أنهم متابعون لأعظم تقاليد السيتات في الواقع تابعوا فقط النواحي الضعيفة للنظرة العالمية الخاصة بهذه الفترة إن النواحي القوية للنظرة

العالمية لتلك الفترة ذاتها قدمت الأساس لأفكار خصوم « الذاتية » الماديين. وعلى هذا الأساس ليس من الصعب الجواب عن سؤال من كان في الحقيقة أكثر موالاة لأعظم تقاليد الستينات.

إذ نتحدث عن « الذاتيين » لا نستطيع إلا أن نتذكر مناقشاتهم المسهبة حول « دور الفرد في التاريخ ». فهل كان « الذاتيون » محقين في التأكيد أن تلك المناقشات كررت وطورت آراء « متنورينا » العظام؟ نعم ولا إن النظرة المثالية في التاريخ، كما رأينا، تعزو دوراً مبالغاً فيه جداً لـ « الأفراد المتقدمين ». وبما أن تشيرنيشيفسكي التزم بهذه المثالية، فان رأيه في دور الفرد في التاريخ كان قريباً جداً من الرأي « الذاتي ». ولكنا عرفنا من قبل أن نظرته العالمية تضمنت أيضاً جنين التفسير المادي للتاريخ. وبما أن الأمر هكذا، فان رأي تشيرنيشيفسكي في الموضوع الذي يهمنا هنا بعيد جداً عن الرأي « الذاتي ».

في خطاب غرانوفسكي حول الحالة الراهنة وأهمية التاريخ الشامل، الذي امتدحه تشيرنيشيفسكي بلا تحفظ، اقتبست الكلمات التالية من الجامعي بير «إن مجرى التاريخ العالمي تقرره الشروط المادية الخارجية. إن تأثير الأفراد تافه بالمقارنة بها. إنهم دائماً تقريباً ينفذون ما جرى تحضيره من قبل، ولا بد من ان يتحقق مهما كان الأمر إن الالحاف على اقامة شيء جديد كل الجدة وغير محضر من قبل يظل فاشلاً ولا ينجم عنه شيء سوى الدمار »* ولا يقول غرانوفسكي شيئاً عكس هذا الرأي. وكذلك تشيرنيشيفسكي في مقالته عن غرانوفسكي ولكن كيف التقى هذا الرأي برأي أنصار التفسير المادي للتاريخ؟ إنه ملمح منه، وهو الخطوة الأولى من التفكير العلمي في الاتجاه الذي تقدم منه ماركس وانجلز بنجاح. « الأفراد » ينفذون دائماً ما جرى تحضيره من قبل فعلاً هنا بير على حق. ولكنه يرتكب خطيئة كبرى عندما يقارن تأثير الأفراد بتأثير الشروط المادية الخارجية. إن تأثير الشروط قلما كان مباشراً إن الشروط المادية غالباً ما تؤثر في التاريخ بشكل غير مباشر، فقط من خلال العلاقات الاجتماعية التي تنتجها لذلك يجب أن يقارن تأثير الأفراد لا بتأثير الظروف المادية الخارجية، بل بتأثير العلاقات الاجتماعية. على أي حال، إن هذه المقارنة، طرائقياً

---

* غرانوفسكي المؤلفات ص ص ٣٤ - ٣٥

تجري في مخاطرة عدم الدقة، لأن العلاقات الاجتماعية هي علاقات بين الناس وليس بين كينونات ميتافيزيائية، التي يمكن أن تأخذ الناس بعين الاعتبار إلا أنها معارضة لهم. الواقع أن التاريخ من صنع الناس، إلا أنهم يصنعونه بطريقة وليس بأخرى، لس لأنهم يريدون بوعي أن يصنعونه كذلك، بل لأن أفعالهم تقررها شروط مستقلة عن ارادتهم. ولا بد أن يشير المرء، من بين هذه الشروط، إلى الشروط المادية الخارجية، إلا أن المكانة العليا يجب أن تخصص لعلاقات الانتاج التي تنشأ على أساس من القوى الانتاجية المحددة، التي تعتمد بدورها على البيئة الجغرافية، إلى درجة بعيدة أما بير فانه يخلط بشكل واضح بين كل هذا فهو يتحدث، مثلاً، عن تأثير الطبيعة الخارجية في العلاقات الاجتماعية للأمم على حدة. إلا أن ما كان صحيحاً من بين تلك الأوهام الواضحة تطور فقط في المادية التاريخية لماركس وانجلز

يصوغ تشيرنيشيفسكي في كتابه عن ليسنغ رأيه في دور الأفراد في التاريخ كما يلي:

«مجرى الأحداث العالمية الكبرى محتوم ولا يمكن عكسه مثل تيار نهر كبير لا صخرة ولا هوة يمكن أن ترجعه خلفاً، ناهيك عن السدود المبنية صناعياً لا توجد قوة يمكن أن تحول الراين أو الفولغا عن طريق سد، فالنهر الجبار يحطم على الشاطىء بهجمة واحدة كل الأكوام والبقايا التي يمكن أن تضعها يد مجنون لإعاقة تدفقه، والنتيجة الوحيدة لمثل هذه السياسة الغبية هي أن الشاطىء، الذي سيتشرب النهر فيزهر مرجاً أخضر، يتمرق ويتغير شكله لفترة نتيجة غضب الأمواج الهاجمة - إلا أن النهر يتابع مسيره، فيملأ الطوفان الهوات وينفجر في قمم الجبال ويصل المحيط في النهاية. إن وقوع أحداث عالمية عظيمة لا يعتمد على ارادة انسان أو فرد إن الاحداث تقع وفقاً لقانون صارم مثل قانون الجاذبية أو النمو العضوي وسواء وقع الحادث العالمي بسرعة أو بطء، بهذه الطريقة أو تلك - فان هذا يعتمد على الظروف التي لا يمكن التنبؤ بها وتقريرها مقدماً إن أهم تلك الظروف ظهور الأفراد الأقوياء الذين بحكم طبيعة نشاطهم يدعمون هذه الطبيعة أو تلك في الاتجاه المحتوم للأحداث، فيسهلون أو يعوقون مجراها، ويدخلون النظام في الاثارة الفوضوية للقوى التي دفعت الجماهير إلى التحرك»

هذه الأفكار تحتاج إلى اضافة ملاحظتين فقط

أولاً ظهور الأفراد الأقوياء هو أيضاً ليس حادثاً عارضاً لقد لوحظ منذ زمن طويل أن الأفراد الأقوياء يظهرون في التاريخ عادة في الزمن الذي تشتد فيه الحاجة إليهم فما سبب هذا؟ إنه ببساطة أن الأفراد الأقوياء من هذا النوع لا يمكن أن يجدوا تطبيقاً لقدراتهم في كل أنماط النظام الاجتماعي فمثلاً لا أحد يجادل في حقيقة أن الشخصية القوية لنابليون تركت تأثيراً عميقاً جداً في مرحلة معينة من التاريخ إلا أن شروطاً تاريخية خاصة كانت ضرورية حتى تأخذ قوة نابليون كامل مجالها ولو استمر الحكم القديم ثلاثين سنة أخرى، لما عرفنا ما ستكون عليه حياة نابليون قيل إنه قبل الثورة بسنوات قليلة أراد الذهاب إلى روسيا للخدمة في الجيش الروسي من الواضح أن السيرورة التي كانت تنتظره هناك لا يمكن أبداً أن تدفع به إلى حكم العالم ومارشالات نابليون؟ في ١٧٨٩ كان ني ومورات وسولت ضباط صف ولو لم تأخذ الثورة مجراها لما رأوا رتب الضباط على أكتافهم. وفي العام ذاته عندما انفجرت الثورة كان أوغيرو معلماً بسيطاً للمبارزة وكان لانيس صباغاً وكان غوفيون سانت كير ممثلاً وكان مورمونت عامل مطبعة وكان جونو طالباً في القانون جميع هؤلاء كانوا ذوي موهبة عسكرية. إلا أن النظام القديم لم يسمح لهذه الموهبة أن تتطور، والحقيقة أنه في حكم لويس الخامس عشر شخص واحد فقط وصل رتبة «ليوتنانت جنرال» وهو من أصل غير نبيل، وفي ظل لويس السادس عشر كانت التربية العسكرية أشد صعوبة بالنسبة إلى من لا يتحدرون من أصل نبيل* لهذا ينتج أن العلاقات الاجتماعية القائمة في زمن ما في أمة ما هي التي تقرر فيما إذا كان الطريق واضحاً في ميدان معين لفئة من الأفراد الأقوياء وبما أن أي شكل من العلاقات الاجتماعية هو شيء منطقي تماماً، فإن من الواضح أن ظهور الأفراد الأقوياء في مسرح التاريخ له منطقه الخاص

ثانياً صحيح أنه حالما يظهر الفرد القوي في المسرح التاريخي فإنه يسهل بنشاطه مجرى الأحداث ولكن من الواضح أيضاً هنا أن درجة التسهيل تعتمد على سمات البيئة الاجتماعية التي يعمل فيها الفرد القوي.

بهذين التحفظين يكون رأي تشيرنيشيفسكي مقبولاً لدى أنصار التفسير المادي الحديث للتاريخ ولا يحتاج المرء إلى حدة ذكاء حتى يرى كم يبعد هذا الرأي عن

---

* للمزيد في هذا أنظر مقالتي حول مسألة دور الفرد في التاريخ في ندوة عشرين عاماً(١١٢).

تعاليم السوسيولوجيين الذاتيين. إن هؤلاء السادة يفرحون لاتهام مبدأ ماركس بالتنكر لتراث الستينات ولكن لو قارن المرء نواحهم بما يقوله تشيرنيسيفسكي حول دور الفرد في المقطع الذي اقتبساه من قبل، لاتضح أن ذلك النواح لا يمكن أن يساوى في التبرير - أو بالأحرى نقص التبرير المنطقي عند تشيرنيشيفسكي - طالما أنه موجه إلى الماركسيين. هنا، كما في كل مجال، الماركسيون وحدهم ظلوا أعظم الأوفياء لمتنوري الستينات العظام.

الفصل السادس

مؤلفات تشيرنيشيفسكي التاريخية الأخيرة

كما أشرنا من قبل، لدى عودة تشيرنيشيفسكي من سيبريا اشتغل، من جملة ما اشتغل، في ترجمة التاريخ الألماني لفيبر، وألحق ببعض مجلدات ترجمته ملحقات ذات أهمية كبرى في وصف آرائه التاريخية. سوف ندرس بعضاً منها

كل هذه الملحقات مكرسة لعرض «المفاهيم العلمية لبعض مسائل التاريخ العالمي ولأسباب واضحة جداً فإن الملحق ذا الأهمية الكبيرة لم يدرس العناصر التي تدفع التقدم في رأي تشيرنيشيفسكي

يعني التقدم في رأي تشيرنيشيفسكي تحسين المفاهيم والعادات البشرية لذلك فإن مسألة الأسباب التي تخلق التقدم بالنسبة إليه هي نفسها مسألة خلق التحسين إياه

يقول تشيرنيشيفسكي أن كل المزايا التي تتفوق بها الحياة الإنسانية على حياة الحيوان ما هي إلا نتيجة التفوق الفكري ولذلك فإنه يرى في تطور الإنسان الثقافي القوة الأساسية التي تدفع الحياة الإنسانية بالطبع يمكن للقوة الفكرية، بل من المؤكد غالباً أن تقدم نتائج ضارة، إلا أنها تقدمها، على حد قول تشيرنيشيفسكي، تحت تأثير القوى والظروف التي تشوه طبيعتها المتأصلة. يقول: «يميل التطور الفكري في حد ذاته الى تحسين مفاهيم الإنسان عن واجباته تجاه الآخرين، لجعله أكثر خيراً، ولتطوير مفهومه عن العدالة والشرف»*

هذا، كما نرى، هو الرأي ذاته الذي عبر عنه تشيرنيشيفسكي مبكراً في ملاحظاته حول كتب غيزو ولا حاجة للإشارة إلى أن الرأي الذي يكون التطور الفكري بموجبه القوة الدافعة الرئيسية للتقدم هو رأي مثالي

---

* المؤلفات المجلد ١٠ جزء ٢ مقطع ٤ ص ١٧٠

وإذ يتحصن تشيرنيشيفسكي في موقفه المثالي، فإنه يناقش بمنطق أكثر في هذا المنحى، أنه ما دام كل تغير في حياة الأمة هو مجموع التغيرات التي تمت في حيوات الأفراد الذين يؤلفون الأمة، وبدراسة الظروف التي تدفع أو تعوق تحسين الحياة الفكرية والأخلاقية للأمة، علينا أن نتحقق مما حسنته أو شوهته الظروف من السمات الفكرية والأخلاقية للفرد

الاقتصاد السياسي الذي كان أول العلوم الاجتماعية تعاملاً مع المفاهيم الدقيقة لشروط التقدم، أقام مبدأ لا يتغير وهو أن الأفعال الطوعية للإنسان تؤدي إلى نتائج خيرة، بينما كل شيء يفعله الإنسان تحت تأثير القسر الخارجي يكون شريراً وبتطبيق هذه الحقيقة على مسألة ما الذي يقرر نجاح العمل الإنساني المادي، نصل إلى نتيجة هي أن «كل أشكال العمل القسري غير منتجة، وأن الإزدهار المادي لا يعمم به إلا مجتمع لا يزال الناس فيه يحرثون الأرض، ويخيطون الثياب ويقيمون البيوت، وكل واحد مقتنع أن العمل الذي يعمل فيه مفيد له »*

وبتطبيق المبدأ ذاته على مسألة اكتساب الثروة الفكرية والأخلاقية وصيانتها، نصل إلى نتيجة هي أن «لا يمكن لقسر خارجي أن يبقي الإنسان في مستوى فكري وأخلاقي عالٍ إذا كان هو نفسه غير راغب أن يبقى هناك »**

تلك النتائج، التي يدعمها تشيرنيشيفسكي بعدد من البراهين التربوية، ليست فقط ذات أهمية نظرية في نظره فقط، بل ذات أهمية عملية إن الأمم المثقفة تعتبر البدائيين المتوحشين أطفالاً لا بد من تربيتهم بالقوة على هدف نبيل. إن الطبقة المثقفة في الأمم المتمدنة تنظر إلى الجماهير الجاهلة في بلادها بالطريقة ذاتها ويعترض تشيرنيشيفسكي على هذا الرأي بشدة يقول إنه حتى أفج المتوحشين ليسوا أطفالاً، بل هم بالغون، تماماً مثلنا ولكن حتى إذا افترضنا أن هذه المقارنة الخاطئة للمتوحشين وغير المثقفين بالأطفال كانت على حق، فإنه لا يحق لنا أن نلجأ إلى القسر في تثقيف المتوحشين أو «العامة لأن القسر، كما نعرف، لا يؤدي إلى أي خير يقول مؤلفنا «إذا رغبنا نحن مثقفي الأمة في نفع جماهير أبناء جلدتنا الذين تمكنت فيهم عادات

---

* المرجع السابق ص ١٧١

** المرجع السابق. ص ١٧١ .

سيئة وضارة بهم، فواجبنا هو إكسابهم عادات خيرة والكفاح من أجل جعلهم يتمثلون تلك العادات المفيدة ولا جدوى من اللجوء إلى القسر إن العلماء الذين يريدون من حكومة قطر متمدن اتخاذ إجراءات عنيفة من أجل تغيير حياة الأمة هم أقل أسارة من حكام الدولة التركية »*

هنا سنقوم بمقارنة لا بد منها فالقوانين العامة للأممية الأولى التي كتبها ماركس أعلن التصريح المشهور أن «تحرير الطبقة العاملة يجب أن يتم على يد العمال أنفسهم هذه هي، إذا شئت، الفكرة ذاتها التي يدافع عنها تشيرنيشيفسكي هنا ولكن ماركس في صياغة هذه الفكرة اتجه مباشرة إلى البروليتاريا، في حين يضع تشيرنيشيفسكي في ذهنه المثقفين الذين يرغبون في تحسين نصيب الطبقة العاملة هذا الفرق الجذري ينسجم مع السمة المشار إليها سابقاً عن آراء تشيرنيشيفسكي التاريخية، التي فيها رأى أن المثقفين هم القسم الفعال الحقيقي في التاريخ، بينما جماهير «العامة ذكرته بالمتخلفين في الجيش لقد قلنا من قبل أن هذه السمة ذات رابط سببي مع الطبيعة المثالية لآراء مؤلفنا التاريخية

قادته مسألة القسر منطقياً إلى مسألة «الأحوال التي يبرر فيها العقل والعلم الغزو »** يقول تشيرنيشيفسكي أن كل تلك الحالات تدخل في مفهوم الدفاع الذاتي إن الأمة القوية دائماً في مركز تنظم فيه علاقتها مع الأمة الأضعف بطريقة تعيش معها بسلام ولكن هذا ينطبق على الشعوب المستقرة إن تشيرنيشيفسكي يتخذ موقفاً مختلفاً من البدو فبعض البدو مسالمون، وغزوهم يعتبر خطأ إلا أن كثيراً من البدو يعملون على نهب جيرانهم فغزوهم يبرره العقل والعلم إذن المسألة تقوم فيما إذا كان الغزاة المتمدنون يملكون الحق في إجبار البدو على تغيير عاداتهم يجيب تشيرنيشيفسكي أن من الضروري وضع حد للنهب المشكلة هي أن الغزاة المتمدنين غالباً ما يفكرون فقط في منفعتهم وليس في منفعة المغزيين وهذا هو السبب في أنهم يلجؤون إلى القسر في الدرجة الأولى، ولو كانوا يفكرون في منفعة المغزيين، لعرفوا أن النتائج الطيبة لا تجنى فقط من القسر، بل من اللطف والتخلي عن القسر

---

* المرجع السابق ص ١٧٥

** المرجع السابق ص ١٧٦.

هناك الكثير من الوقائع التاريخية أن القسر هذب عادات المتوحشين فما رأينا في ذلك؟ يجيب تشيرنيشيفسكي: «إن المؤرخ المطلع على قوانين الطبيعة البشرية لا يشك أبداً أن كل القصص من هذه الشاكلة مجرد خرافة مهمته أن يفسر كيف نشأت وأن يجد مصدر الأخطاء، أو الدوافع التي أدت إلى ظهورها»*

إن متنوري القرن الثامن عشر، مثل اشتراكيي القرن التاسع عشر الطوباويين، لجؤوا إلى الطبيعة البشرية في مجادلاتهم التاريخية. إلا أن اللجوء إلى الطبيعة البشرية، وإن كان مفيداً أحياناً، لا يفيد التاريخ مثلما يفيده العلم. فان كانت الطبيعة البشرية لا تتغير، فانها لا تفسر أي شيء في التاريخ، وهو عملية في حالة تغير مستمر وإذا كانت الطبيعة البشرية تتغير تحت تأثير التغيرات التاريخية، فان من الواضح أن الأولى لا تفسر الأخيرة، أي الطبيعة البشرية لا تفسر التاريخ هذه الاعتبارات العامة يمكن تطبيقها أيضاً على مناقشات تشيرنيشيفسكي التي لخصناها أعلاه يقول إن كل قسر يقود إلى نتائج وخيمة ولكن أي أمة لا تقترف قسراً؟ لقد اعتاد أنصار السلافية أن يقولوا إن الدولة الروسية تختلف عن الدول الأوروبية في أنها أقيمت على الرضا وليس على الغزو على أي حال لم ير تشيرنيشيفسكي في هذه النظرية سوى محض خيال ليس من أمة رفضت استخدام القوة في عدة حالات في حين وعدت أن تكون مفيدة للأمة المعنية ومع ذلك فإن المصير التاريخي للأمم ليس واحداً أبداً فكيف نفسر هذا الفرق؟ إن المسألة نفسها يمكن أن تطرح في مجال التطور الداخلي لكل مجتمع ليس من أمة لم يلعب القسر دوراً في تطورها الداخلي ومع ذلك فان التطور الداخلي يختلف من أمة إلى أمة ومن الواضح أنه لا يكفي أن ننظر إلى القسر لتفسير هذا أخيراً إن الاحتمال الفعلي لاساءة استخدام القوة أوجدته الظروف التي يمكن أن يفسرها القسر لقد قلنا من قبل أنه في المراحل المختلفة للتطور التاريخي اكتسب فن الحرب سمة مختلفة تقررها، في التحليل الأخير، العلاقات الاقتصادية للمجتمع إن تشيرنيسيفسكي نفسه يعبر عن مثل هذه الآراء أيضاً فمثلاً في ملاحق المجلد التاسع لفيبر، تحت عنوان «**حول التفاوت في السمة القومية بين الشعوب**» يشير إلى الوقائع التي حسب رأيه غيرت تركيب الجيش الروماني، وبذلك قللت من قوته، فمهدت

---

* المرجع السابق ص ١٧٨.

لسقوط الامبراطورية الرومانية وعنده أن الحدود الرومانية امتدت فازداد انقسام الناس إلى طبقتين: أغلبية السكان أقلعت عن الخدمة العسكرية، لأن الحملات العسكرية منعتهم من ممارسة الحياة البيتية، والأقلية هجرت الحياة البيتية كلياً وأصبحوا جنوداً محترفين. وقد أحدث هذا تغيرات عميقة في الصورة السياسية لروما، أضعفت قدرتها على المقاومة الخ إن القوة العسكرية هنا تعتمد اعتماداً وثيقاً على الشروط الاقتصادية المحددة ويؤكد تشيرنيشيفسكي هذا الاعتماد «منذ أن اعتقد المؤرخون بضرورة دراسة الاقتصاد السياسي والتحدث عن انقسام العمل، طفقوا يفسرون ذلك في كتبهم اعتماداً على المرحلة الأخيرة للجمهورية الرومانية، وعلى الامبراطورية الرومانية بما سببته القوى الاقتصادية من تحويل الجيش من جيش جنود مدنيين إلى جيش جنودٍ محترفين، والجيش الأخير استبدل الجنود الايطاليين بمواطنين من أقاليم أدنى حضارة وبرابرة أجانب وبالتالي من الضروري التخلي عن الفكرة الخيالية عن انحطاط الرومان والقول فقط إن القسم الأعظم من الجنود الذين خاضوا الحروب بلا توقف في الحدود القصية وعاشوا هناك في مخيمات حصينة كانوا من غير الايطاليين. وهكذا فان سقوط الامبراطورية الرومانية وغزو البرابرة لروما تفسر حقيقة واحدة هي التغير الذي أحدثته غارات الرومان الكثيرة في تركيب جيشهم»*

وبعد أن فسر تشيرنيشيفسكي الفكرة التي عبر عنها هنا، رفض الأفكار المثالية التي ندت عنه في مقالة - أطلعنا الآن عليها تتناول أسباب سقوط روما ولكن الحقيقة أنه عبر عن مثل هذه الأفكار بشكل عابر ولم يتوسع فيها وفي التعبير عنها لا يرى من الضروري أبداً رفض المثالية التاريخية، ولا يرجع هذا إلى التنبؤ عن المثالية كنظرية فلسفية إن موقف تشيرنيشيفسكي من هذه النظرية كان بشكل عام سلبياً للغاية فبينما يعرض الفكرة المثالية عن مجرى التطور التاريخي، يتابع اعتبار نفسه مادياً صلباً إنه مخطىء، إلا أن أساس خطئه يكمن في عيب رئيسي من عيوب نظام فيورباخ لقد عبر ماركس عنه بشكل مناسب «إن فيورباخ يريد الأشياء الحسية مميزة فعلاً من الأشياء الذهنية، ولكنه لم يدرك الفعالية الانسانية نفسها على أنها فعالية **موضوعية**. لذلك فانه في **جوهر المسيحية** يعتبر الموقف النظري على أنه الموقف

---

* المؤلفات المجلد ١٠ جزء ٢ مقطع ٤ ص ١٤٣

الانساني الحقيقي »* إن تشيرنيشيفسكي يركز اهتمامه، مثل معلمه، حصراً في الفعالية « النظرية للبشرية، ويصبح 'لتطور الفكري بالنسبة إليه، ونتيجة ذلك، السبب الأساسي للحركة التاريخية. وبقراءة برهانه على الطبيعة الضارة للقسر، يمكن أن يعتقد المرء أحياناً أنه يريد ببساطة أن يقدم للبشرية نصيحة طيبة وبالطبع لا نفور من مثل هذه النصيحة. ولكن ما يقوله عن القسر ذو أهمية نظرية عظيمة أيضاً بالنسبة إليه. وقد عرفنا من قبل أن الطبيعة البشرية عنده كانت المثال الرئيسي الذي لجأ إليه في تفسيره التاريخ

إن الطبيعة الانسانية، مثل أي شيء آخر، يمكن أن ترى من وجهات نظر مختلفة إن تشيرنيشيفسكي يتخذ وجهة مادية منها ولكن عندما حاول أن يطبق تفسيره المادي للطبيعة الانسانية على تفسير التاريخ وصل، في معظم الحالات، إلى نتائج مثالية من غير أن يتحقق منها وبالمناسبة فان الشيء ذاته حدث من قبل للناس الذين الترموا بالمادية التي سسميها مادية ما قبل الماركسية. إن مثاليي القرن الثامن عشر كانوا أيضاً مثاليين في التاريخ

يطلق تشيرنيشيفسكي في تعليله التاريخي من الفكرة المادية أن الانسان حيوان تخضع عضويته لقوانين معينة من الفيزيولوجيا إن الفيزيولوجيا تخبرنا أن الوظيفة الطبيعية لحياة الحيوان تتطلب إشباعاً طبيعياً لمتطلبات عضويته: « أنها تفرق بدقة بين الوظيفة الخاصة للعضوية وانحرافاتها، بين الشهية ونتيجتها، الاستهلاك الدائم للطعام بكمية تتطابق مع حاجات العضوية، انها تضع في مكانة وقائع الحياة التي تفيد العضوية، الجوع ونتائجه - في مصاف الوقائع الضارة بالعضوية »** والتفريق نفسه بين الوظيفة الخاصة وانحراف العضوية طبَّقَهُ على التاريخ إنه يدين القسر باعتباره أحد العوامل التي تعوق الوظيفة الخاصة للعضوية الانسانية ولكن كيف يمكن للوظيفة الخاصة أو تحسن العضوية الاسانية، أن تفسر حقيقة التقدم الاساني؟ إنه كما يلي.

« تبين الفيزيولوجيا أنه إدا تحسب العضوية الانسانية ولم تتخلف بالمقارنة مع حالتها المنشئية، فان وظيفة حياة البشرية سسمل على عاصر ملائمة لتحسين العضوية

---

* أنطر أطروحاته عن فيورباخ الي كتبت في ربيع ١٨٤٥[١١٤]

** المرجع المدكور ص ٢١٧.

أكثر من عناصر التخلف وبهذا الرجحان للظروف المناسبة للعضوية على تلك الضارة تفسر الفيزيولوجيا تقدم الانسان من حالته البدائية إلى تطور عالٍ جداً سبباً في قواه العقلية، عندما كان يصنع الصوان للحصول على أدوات. ولا شك خلال هذا التقدم عانى الناس كثيراً من الجوع ومن الظواهر الضارة للطبيعة الخارجية، من الحشرات السامة والأفاعي والوحوش الضارية، وأفعالهم الخاصة اللاعقلية والعلاقات السيئة المتبادلة. ولكن مهما كان عظيماً مجموع تلك الظروف، فانها أقل من مجموع الوقائع المفيدة للعضوية الانسانية ولولا ذلك لما تقدمت عضوية الانسان، بل لتخلفت، وانحدر إلى درجة الحيوانية، العضوية المتدنية »*

يبين هذا المقطع بجلاء كيف طبق تشيرنيشيفسكي البراهين الفيزيولوجية في تفسير وقائع التقدم البشري ولكن تلك البراهين في هذا المقطع طبقت فقط على المرحلة التي يمكن أن نطلق عليها مرحلة ما قبل التاريخ أو بتعبير أدق مرحلة ما قبل الثقافة بالمعنى المحدد للكلمة أي المرحلة التي انتهت باكتساب الانسان القدرة على صنع الأدوات الحجرية هنا أيضاً يتابع تشيرنيشيفسكي تبنيه موقفاً مادياً، مع أن ماديته هنا ذات طابع ميتافيزيائي والحقيقة أنه باعتماده على قوانين الفيزيولوجيا يكرر الفكرة التي واجهتنا من قبل - عندما درسنا مقالته عن نظرية داروين - وهي الفكرة القائلة ان الضار يبقى دائماً ضاراً ولا يمكن أن يفيد** تلك الآراء بضعفها النظري الذي كشفناه من قبل، وثيقة الصلة بالمثالية التاريخية، ولكن السمة المتأصلة لهذه المثالية تنتج تلك الآراء بشكل غير مباشر، وخاصة من الناحية الطرائقية وحتى يعرف المرء كيف يتحول تشيرنيشيفسكي من موقفه الفيزيولوجي إلى المثالية التاريخية، لا بد من أن يضع بعين الاعتبار فكرته أن « الوظيفة الخاصة » للعضوية البشرية أدت إلى تطور الدماغ، الذي زاد القوى العقلية للانسان فسرّع بذلك نقدم معرفته يقول داروين: « ما كان للانسان أن يحقق مركزه المهيمن الآن في العالم من غير استخدام يديه اللتين قامتا بالعمل بشكل مطيع لارادته »*** وقد عبر هلفتيوس عن الفكرة ذاتها وكذلك نجدها

* المرجع السابق ص ٢٢٤

** المرجع السابق ص ٢١٧ وما يليها

*** سلالة الاساں و الخ باريس ١٨٨١ ص ٥ [يقتبس بليخانوف مں الترجمة الفرسية لكتاب داروں =

عند تشيرنيشيفسكي ولكن في حالته لا بد من افتراض سمة نوعية يلاحظ « قيل إن القدرة على التقاط الحجر أو الهراوة واسخدامها ضد عدو يهدد أمن الناس جعل في امكانهم تحسين شروط حياتهم المادية، ونتيجة هذا التحسين تحقق تطور كبير في القدرات العقلية »* إن القدرة على التقاط سلاح معين يزيد من أمن الانسان، ويجعل في إمكانه تأمين احتياجاته المادية بشكل أفضل وبذلك يضمن تطور **عضو التفكير** - الدماغ والحقيقة أن دماغ الانسان، بفضل خصائص نوعية معينة في تاريخ اسلافه، تطور إلى درجة لم تصل إليها المخلوقات الأخرى المشابهة للانسان. ولكن تلك الخصائص النوعية تظل غير معروفة بالضبط من المحتمل تماماً عند تشيربيشيفسكي أن أسلاف الانسان بفضل ظرف محظوظ حققوا أمناً كبيراً ضد أعدائهم أكبر من المخلوقات الأخرى المشابهة لهم أو التي تماثلهم ولكن بواسطة بعض الوسائل، والفضل لتأثير بعض الظروف المواتية لحياتهم، حقق أسلاف الانسان درجة عليا من التطور الفكري بحيث أصبحوا بشراً فقط من هذه المرحلة يبتدىء تاريخ حياتهم الذي يطرح أسئلة ليست ذات طبيعة فيزيولوجية عامة بل تتعلق نوعياً بالحياة الانسانية »** وقد حلت هذه الأسئلة في تاريخ البشرية عن طريق تطور الفكر والمعرفة يقول تشيرنيشيفسكي « انها ذهينة متفوقة تلك التي تفسر كل التقدم اللاحق للحياة الانسانية »*** هنا يمكن أن نرى بوضوح ملحوظ كيف يصبح تشيرنيشيفسكي، الذي يريد الالترام بوجهة نظر مادية في مناقشة **العضوية الانسانية**، مثالياً على الفور حالما يعلق الأمر بتاريخ **البشرية**.

مناقشاته تسير كالتالي. إنه يبدأ من أطروحة فيورباخ أن الانسان هو ما يأكله وعندما تتغذى العضوية الانسانية، عندما تؤمن الشروط الخارجية وظيفتها الخاصة، فان قوة الدماغ تزيد، وبريادة قوة الدماغ تنمو مقدرة الانسان على التطور العقلي

سلالة الانسان والانتخاب في مجال الجنس إلا أننا نقتبس عن الطبعه الأصلية ١٨٨٧ ص ٥١ لندن، منشورات جون موري]

* المؤلفات المجلد جزء ٢ مقطع ٤ ص ١٨٣

** المرجع السابق ص ١٨٢

*** المرجع السابق ص ص ١٨٢ - ١٨٣

وادراك المفاهيم الصحيحة وهذه المقدرة هي محرك التقدم التاريخي وهكذا يبقى تشيرنيشيفسكي مادياً طالما أنه لا يربح مجال قضايا «الطبيعة الفيزيولوجية العامة وحالما يواجه قضايا «تتعلق بالحياة الانسانية تفتح ماديته الفيزيولوجية الباب على المثالية التاريخية. إن مثال تشيرنيشيفسكي يبين، ربما أكثر من أي مقال آخر، كيف استخدم استخداماً قليلاً للمادية في الشكل الذي استخدمه فيورباخ في تفسير التطور التاريخي

قلنا من قبل في مناسبات عديدة أن الطبيعة المثالية لآراء تشيرنيشيفسكي المثالية لم تمنعه أبداً من تقديم تفسير مادي للظواهر التاريخية المنفردة ولن نكرر هذا هنا، لأننا لا نشعر بالحاجة إلى وضع تحفظ هو طبيعي لأذهاننا إن أي امرىء يرغب في النظر في كتب مؤلفنا بحثاً عن التفسير المادي للأحداث التاريخية المنفردة، لا بد من أن ينتبه إلى الخطأ الذي يرتكب عادة بسهولة، نتيجة التشابه الخارجي بين فقرات تشيرنيشيفسكي المثالية وفقرات التفسير المادي للتاريخ

والحقيقة أن تشيرنيشيفسكي بإيلائه أهمية كبرى للمصلحة الذاتية، يفسر الأحداث التاريخية أيضاً بلغة الحساب الواعي للمصلحة في الحالات التي يجب أن يرجع بتفسيرها إلى قوى التطور الاقتصادي، التي لا تخضع للسيطرة الانسانية يمكن لتفسيرات تشيرنيشيفسكي هذه للوهلة الأولى أن توحي أحياناً أنه يتبنى في نظرياته التاريخية وجهة نظر المادية الحديثة ولكن الامعان العميق للقضية يكشف العكس تماماً إن أي امرىء يرى في النشاط التاريخي للانسان تأثير الحساب الواعي، فانه ما يزال مثالياً خالصاً، وما يزال أبعد من أن يفهم قوة «الاقتصاد وأهميته إن تأثيره في الحقيقة يمتد إلى أفعال وعادات اجتماعية لمختلف الطبقات الاجتماعية حيث ليس ثمة أي مسألة من الحساب الواعي إن معظم العوامل المؤثرة في التطور الاقتصادي لا تزال خلف سيطرة الحساب الواعي كل العلاقات الاجتماعية، وكل العادات الأخلاقية وكل الميول العقلية تتشكل تحت تأثير التطور فهي التي تقرر كل أنماط المصلحة الذاتية وكل مظاهر الأنانية البسرية إن المرء، بالتالي، لا يستطيع أن يتحدث عن الحساب الواعي للمنفعة على انه أساس التطور الاجتماعي مثل هذا الرأي في التاريخ يتناقض مع معالم المادية الحديثة إنه يكشف عن السمة

الرئيسية للمثالية التاريخية الاعتقاد ان « الفكر يحكم العالم »*

لقد التزم تشيرنيشيفسكي بهذا الرأي طيلة حياته. وهذا هو السبب في أننا صنفناه بين ممثلي المثالية التاريخية. وأي امرىء مطلع على كتاباته لن يكابر في قبول أن ثمة كتاباً قلة في تاريخ الأدب العالمي استنكر تشيرنيشيفسكي مثاليتهم التاريخية. ولكن من المهم أن المثالية التاريخية عند تشيرنيشيفسكي، الذي رفض تفاؤلية غيزو، اشتملت بدورها على تأثير أصلي من التفاؤلية. وهذا يتضح أكثر من مناقشاته حول الدور التاريخي للقسر

القسر، كما نعرف، أشد ضرراً للقبائل والشعوب التي يستخدم ضدها إلا أنه لا يؤذيها وحدها إنه ضار أيضاً في الناس الذين يستخدمونه يبين التاريخ، في رأي تشيرنيشيفسكي، أن تلك الأمم التي فكرت أن تستفيد من ضرر البشر كانت على خطأ في حساباتها « الشعوب المعتدية انتهت دائماً إلى الدمار والعبودية »**

يمكن أن نسأل فيما إذا كان ثمة أمل كبير في أن الانكليز، مثلاً، الذين استقروا في أستراليا بعد أن قضوا على السكان السود الأصليين قضاء مبرماً تقريباً، « سوف ينتهون إلى الدمار والعبودية ». إننا نرى أن الانكليز حتى الوقت الحالي لا يواجهون تهديداً بالدمار والعبودية. فإذا كانوا سيعانون مصير الشعوب المدمرة والمستعبدة، فان من الصعب ان يكون لحظهم العاثر أي علاقة مع الأفعال المجحفة التي اقترفوها هم أنفسهم مع سكان استراليا الأصليين. وواضح أنه لا ضرورة أن نتطرق إلى ذلك هنا ويتبين من تشيرنيشيفسكي أن الاثم في التاريخ ينال العقاب الذي يستحق الحقيقة أن الوقائع التاريخية المعروفة لدينا لا تسوغ هذا الرأي، الذي قد يكون مقنعاً ولكنه بالتأكيد ساذج إن السؤال الوحيد المهم لنا هو كيف اعتنق مؤلفنا هذا ويمكن أن نجيب عن ذلك بالرجوع إلى المرحلة التي عاشها تشيرنيشيفسكي كانت مرحلة صعود اجتماعي، مرحلة ذات حاجة طبيعية لمثل هذه الآراء الدعم الايمان بالاندحار الحتمي للاثم

في مؤلفات تشيرنيسيفسكي بعد عودته من سيبريا يمكن أن يلاحظ المرء تعليقات

---

* كل مطلع على أوين سوف يعرف أنه هو أيضاً يولي أهميه مبالغاً فيها لحساب المنفعة

** المؤلفات المجلد ٦ ص ٢٣٣.

مشوبة بروح **التفسير المادي** للتاريخ. وسيجد القارىء الكثير من هذه التعليقات، مثلاً، في ملحق المجلد السابع من كتاب فيبر **(حول الاجناس)** والمجلد الثامن **(تصنيف الناس حسب لغاتهم)** وأخيراً وبسكل خاص في ملحق المجلد التاسع **(حول التفاوت في السمة القومية بين الشعوب)** الذي اقتبسا آنفاً منه

القسم الثالث

آراء تشيرنيشيفسكي الأدبية

الفصل الأول

أهمية الأدب والفن

إن التقدم الفكري للبشرية، في رأي تشيرنيشيفسكي هو الدافع الأساسي للتقدم التاريخي والأدب هو تعبير عن الحياة الفكرية للأمم. لذلك يمكن أن يتوقع المرء من تشيرنيشيفسكي أن يعزو للأدب الدور الرئيسي في تاريخ الحضارة إلا أنه لم يفعل ذلك. إنه لم يعط الدور الرئيسي في الحضارة للأدب بل للعلم. وفيما يخص الأخير يقول: «إنه بعمله الهادىء البطيء يخلق كل شيء، فالمعرفة التي يقدمها تقيم الأساس لكل المفاهيم، ومن ثم لكل نشاط البشرية، يقدم الاتجاه لكل نروعات البشرية ويقوى قدراتها»* وليس الأمر هكذا مع الأدب إن دوره في العملية التاريخية ليس بلا أهمية، ولكنه دائماً دور ثانوي.

يقول تشيرنيشيفسكي: «وهكذا مثلاً في العالم القديم لا نجد مرحلة واحدة تحقق فيها التقدم التاريخي تحت تأثير الأدب فعلى الرغم من انجراف اليونان إلى الشعر فإن مجرى حياتهم لم تكن مشروطة بالتأثيرات الأدبية، بل بالنزوعات الديبية والقبلية والعسكرية وبالتالي بالقضايا السياسية والاقتصادية والأدب، مثل الفن. كان الريبة المثلى، إلا أنه زينة فقط، وليس دافعاً رئيسياً، لس القوة المحركة الأولى لحياتهم ولقد تطورت الحياة الرومانية في الصراع العسكري والسياسي وفي العلاقات التشريعية التي ظهرت، لأن الأدب اليوناني كان هواية رفيعة من النشاط السياسي ففي العصر الرائع

---

* أنظر كتابه «ليسنغ، عصره، حياته، وعمله المؤلفات المجلد ٣ ص ٥٨٥.

لإيطاليا، عندما ظهر فيها دانتي واريوسو وتاسو، لم يكن الأدب العنصر الأساسي في الحياة، بل صراع الأحراب السياسية والعلاقات الاقتصادية: هذه المصالح، وليس تأثير دانتي، قررت مصير بلاده أثناء حياته وبعدها وفي انكلترا، التي تتباهى بأعظم شاعر في العالم المسيحي، وبكتاب من الطبقة الأولى ربما أكثر مما يجده المرء في أدب بقية الأقطار الأوروبية مجتمعة - في انكلترا مصير الأمة لم يعتمد أبداً على الأدب، بل قررته العلاقات الدينية والسياسية والاقتصادية، والمناقشات البرلمانية والمجادلات الصحفية: أن الأدب مارس فقط تأثيراً ثانوياً على التطور التاريخي لهذا القطر وهذا هو وضع الأدب دائماً تقريباً لدى معظم الشعوب التاريخية »*

إن تشيرنيسيفسكي يعرف حالات قليلة جداً تعتبر استثناء بالنسبة إلى القاعدة العامة ومن تلك الحالات القليلة واحدة من أهم الحالات نجدها في الأدب الألماني في النصف الثاني من القرن الثامن عشر والسنوات الأولى من القرن التاسع عشر « من بداية نشاط ليسغ حتى وفاة شلر لخمسين سنة، وتطور أمة من أعظم الأمم الأوروبية قررت الحركة الأدبية مستقبل الأقطار من البطليق حتى الأبيض المتوسط، ومن الراين إلى الأودر إن دور كل الأحداث والقوى الاجتماعية في تطورها الوطني لا يعتبر هاماً بالمقارنة مع تأثير الأدب لا شيء، في ذلك الوقت قام بتأثير مفيد في مصير الأمة الألمانية مثل الأدب على العكس، كل العلاقات والشروط الأخرى التي يعتمد عليها الحياة لم تساعد في تطور القطر الأدب وحده قاد الأمة متغلباً على عقبات لا تحصى »**

وتشيرنيشيفسكي يولي الأهمية الاستثنائية ذاتها لدور الأدب الروسي منذ مرحلة غوغول كان الأدب الروسي قبل غوغول ما يزال فيما يمكن أن يدعوه المرء مراحل تحضيرية لتطوره: كل مرحلة سابقة كانت هامة له، ليس بسبب ميزة الظواهر الأدبية، بقدر ما لأنها مهدت للمرحلة التالية. وحتى نشرح فكرته هذه، يكفي أن نبين كيف نظر إلى علاقة مرحلة بوشكين في أدبنا بمرحلة غوغول. لقد نظر إلى بوشكين تماماً مثلما

* المرجع السابق ص ٥٨٦

** المرجع السابق ص ص ٥٨٦ - ٥٨٧

نظر إليه بيلنسكي في المرحلة الأخيرة من نشاطه. لقد قدر شعر بوشكين تقديراً عالياً، ولكنه اعتبره شعر **شكل**. إكمال الشكل كان المهمة التاريخية التي كانت من نصيب مرحلة بوشكين في أدبنا وعندما حلت هذه المهمة، بدأت مرحلة جديدة في أدبنا تتسم بأنها أولت الاعتبار الرئيسي إلى **المضمون** وليس الشكل كما في السابق. ولقد اقترنت هذه الفترة باسم غوغول وخلال مرحلة غوغول بدأ أدبنا يصبح ما يجب أن يكون أي يعبر عن الوعي القومي وتابع تطوره في الاتجاه نفسه، عندما ظهرت بتأثير غوغول المدرسة الطبيعية في بلادنا لقد قدر تشيرنيشيفسكي هذا الاتجاه الجديد في أدبنا تقديراً عالياً في كتابه **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي** يقدم التحفظ التالي:

« حتى لا نفسح المجال أمام سوء فهم ما قمنا به من إطراء الجديد وتفضيله على القديم، نقول هنا أن المرحلة الحالية من الأدب الروسي أيضاً، على الرغم من كل مزاياها الجوهرية، ذات أهمية أساسية في معظمها، لأنها إعداد للتطور القادم لأدبنا إن اعتقادنا بمستقبل أفضل كبير بحيث نقول بلا تردد حتى عن غوغول. سوف يكون لدينا كتاب يصبحون متفوقين عليه مثلما كان هو بالنسبة إلى أسلافه المسألة هي كيف يأتي هذا الزمن كم سيكون رائعاً لو أتيح لجيلنا أن يرى هذا المستقبل الأفضل »*

إن تشيرنيشيفسكي باعتقاده أن الأدب يجب أن يكون تعبيراً عن الوعي الاجتماعي، يعلن الفكرة التي قدمت إلينا من ألمانيا ولعبت دوراً عظيماً في نقدنا الأدبي منذ زمن نادردين وبيلنسكي إلا أنها عنده تميزت على الفور بطبيعة عقلية وسمت كل مراحل « التنوير في الواقع لا وجود لأدب لا يستخدم كتعبير عن وعي المجتمع، أو عن وعي قطاع من المجتمع الذي انحدر منه وحتى في المراحل التي حققت فيها نظرية الفن للفن سيادة، وحتى عندما يدير الفنانون ظهورهم لكل شيء يحمل أقل علاقة مع المصالح الاجتماعية، فإن الأدب لا يعدو أن يكون تعبيراً عن الأذواق والآراء وطموحات الطبقة الحاكمة في ذلك المجتمع الحقيقة أن النظرية السابقة تحقق السطرة فيه فتثبت أن الطبقة الحاكمة أو على الأقل أن قطاعاً منها وهو ذاك الذي يسمي إلنه

* المؤلفات المجلد ٢ ص ١٧٢ الملاحظه.

الفنانون أنفسهم، لم تعد تبالي كلياً بالمسائل الاجتماعية الكبرى. ولكن هذه اللامبالاة أيضاً هي نمط من المزاج الاجتماعي (أو الطبقي أو الفئوي) أي الوعي وبهذا المعنى لا شك أن أدبنا من مرحلة بوشكين أو حتى من مرحلة كارامزين عبر عن وعينا الاجتماعي ولكن عند تشيرنيسيفسكي يبدأ الأدب يعبر عن الوعي الاجتماعي من مرحلة غوغول فقط فعنده أن فنانينا منذئذٍ فقط توقفوا عن اعتبار أنفسهم محصورين بشكل أعمالهم وطفقوا يولون اهتماماً بالمضمون يبدو هذا غير صحيح، إذ لا أحد يمكن أن يقول إن بوشكين كان غير مبالٍ بالمضمون في كتابه **يفجيني أو نيجين** مثلاً ولكن بين **يفجيني أو نيجين** من جهة و**المفتش** أو **النفوس الميتة** من جهة أخرى فرقاً كبيراً **في موقف الفنان من الظواهر التي يقدمها** إن بوشكين لم ينفر من تحسين شخصياته بضحالتها وضيق ذهنها وأنانيتها الخ كنموذج للمجتمع الراقي، بل إن **أونيجين** لم تتضمن حتى بارقة من الرفض العام للحياة الاجتماعية التي صورها، والتي يجدها المرء، وإن من دون علم المؤلف، في مؤلفات غوغول المشار إليها أعلاه هذا العنصر من رفض النظام الاجتماعي القديم هو ما يدعوه تشيرنيشيفسكي مصدر الوعي الاجتماعي فإذا توقع في المستقبل، كما سبق ورأينا، ظهور كتاب يتفوقون على غوغول كما تفوق غوغول على أسلافه، فإن هذا عنده مساوٍ للاعتقاد أن فنانينا مع الزمن سوف يتفوقون على مؤلف **النفوس الميتة** في وعي موقفهم السلبي من العادات الاجتماعية والعائلية البالية إن الواجب الرئيسي للناقد الأدبي في رأيه نشر هذا الوعي بين الفنانين. وكلما انتشر هذا الوعي بين الفنانين الروس، يزداد أدبنا نضجاً نظراً للدور الذي يلعبه، حسب رأي تشيرنيسيفسكي، في المرحلة الانتقالية لذلك الزمن.

عزا بيساريف إلى تشيرنيسيفسكي نية تدمير علم الجمال لقد كان مخطئاً ويمكن أن نرى مدى بعد تشيرنيسيفسكي عن هذه النية من المقطع التالي من مقالته عن كتاب أرسطو **الشعر** المنشورة في ١٨٥٤ في الترجمة الروسية التي قام بها أورديسكي (**أوتيشستفيني زابسكي** ١٨٥٤ العدد ٩) «علم الجمال علم بلا حياة إننا لا نقول أن ليس ثمة علوم أكثر حياة منه، ولكن من الأفضل أن نفكر في تلك العلوم لا إننا نحتذ العلوم الأخرى التي هي أقل فائدة إن علم الجمال علم عقيم في الرد على ذلك نتساءل أما نزال نتذكر ليسنغ وغوته وشلر، أو ألم يفقدوا الحق في أن نذكرهم طالما أننا

تعرفنا على ثاكري؟ هل نقر بمزايا الشعر الألماني في النصف الأخير من القرن السابق؟ »*

في سؤاله نقاد علم الجمال بشكل ساخر. فيما إذا كنا نقر بمزايا الشعر الألماني في النصف الأخير من القرن الثامن عشر، يذكرنا أن ثمة مراحل يلعب فيها الأدب دوراً اجتماعياً عظيماً إلا أن الأدب الألماني في المرحلة المذكورة لم يكن غير مبال بالمسائل الجمالية على العكس. لقد عالج الكثير من القضايا الجمالية، ولهذا السبب وحده كان قادراً على القيام بالدور الملقى عليه بنجاح ويجب ألا ننسى أن تشيرنيشيفسكي اعتبر ليسنغ أرقى شخصية في الأدب الألماني لهذه الفترة: كل الكتاب الألمان التاليين حتى شلر، وحتى غوته في ذروة نشاطه، لم يكونوا سوى تلامذة لليسغ »** وقد كان ليسغ نظرياً في الأدب والفن، والميدان الذي بذل فيه معظم نشاطه كان علم الجمال

يقول تشيرنيسيفسكي أنه إذا كان الشعر والأدب والفن موضوعات عظيمة الأهمية فإن المسائل العامة لنظرية الأدب أيضاً يجب أن تكون في غاية الأهمية ويضيف « نعتقد باختصار أن كل النزاع حول علم الجمال قائم على سوء فهم، على مفهوم خاطىء بطبيعة علم الجمال والعلم النظري عامة »***

يسأل تشيرنيسيفسكي القارىء « من، في رأيك، يفوق الآخر بوشكين أم غوغول؟ » وفي رأيه أن الجواب يعتمد على مفهوم المرء عن جوهر الفن وأهميته لقد وضعت تلك المفاهيم من قبل بسكل صحيح في مؤلفات أرسطو وأفلاطون وهذا هو السبب في أن تشيرنيسيفسكي يعتبر من الضروري أن يعرف القارىء النظريات الجمالية لذيـك المفكرين وباعتبار ان صاحبنا خصم عنيد للمثالية الفلسفية فانه بالطبع لا يستطيع أن يعاطف مع فلسفة أفلاطون عامة ولكن هذا لم يمنعه من التعاطف بحرارة مع نظرة المثالي اليوناني الكبير إلى الفن

يقول تشيرنيسيفسكي « نظر في العلم والفن نظره إلى أي شيء آخر، ليس من وجهة نظر علمية أو فنية، بل من وجهة نظر اجتماعية وأخلاقية إن الانسان لم يخلق

---

* المؤلفات المجلد ص ص ٢٨ - ٢٩

** المؤلفات المجلد ٣ ص ٥٨٩

*** المؤلفات مجلد ١ ص ٢٨.

من أجل الفن أو العلم (كما فكر على هذا النحو مفكرون كبار أمثال أرسطو) إن العلم والفن يجب أن يكونا لمنفعة البشرية »*

وجهة النظر هذه يجب حسب رأي مؤلفنا، أن تقود أفلاطون إلى رأي سلبي في الفن الذي كان في زمنه تسلية وترفاً، ولكنه ليس تسلية لأناس لا عمل لديهم سوى الاعجاب بالرسوم والتماثيل الشهوانية والمنافسة بالشعر الشهواني إن مسألة الفن عند أفلاطون تقررها حقيقة أن الفن لم يكن أكثر من تسلية ولكن عندما رآه أفلاطون تسلية بسيطة لم يقدح به وإثباتاً لذلك يرجع تشيرنيشيفسكي إلى «أعظم الشعراء الجديين» وهو شلر الذي لم يكن معادياً للفن طبعاً في رأي شلر كان كانت محقاً تماماً في تسمية الفن لعباً، لأن الانسان هو انسان تماماً عندما يلعب.

يعتبر تشيرنيشيفسكي مناقشة أفلاطون ضد الفن عنيفة للغاية، ولكنه يجد فيها كثيراً من الحقائق. يلاحظ: «من الواضح أن نبين أن الكثير من نقده الصارم ما يزال صحيحاً حتى أيامنا فيما يتعلق بالفن الحديث»** ومن الصعب أن يضيف المرء أن هذه الحقيقة توضح تعاطفه القوي مع نقد أفلاطون الصارم.

انتقد أفلاطون الفن لأنه عديم الفائدة للانسان وكذلك فعل مؤلفنا ففي رأيه ان فكرة وجوب بقاء الفن غير مفيدة، وجوب بقائه لذاته، غريبة مثل فكرة «الثروة من أجل الثروة» و«العلم من أجل العلم الخ «إن كل نشاط بشري لا بد أن يخدم البشرية إن لم يكن عملاً عديم الفائدة إن الثروة توجد حتى يستفيد منها الانسان، والعلم ضروري حتى يرشد الانسان، والفن أيضاً يجب أن يقدم ما هو مفيد وليس متعة لا طائل منها»***

فما الفائدة التي يقدمها الفن للانسان؟

يقال عادة إن المتعة الجمالية ترقق قلب الانسان وسمو بروحه ويعتبر تشيرنيشيفسكي هذه الفكرة صحيحة، إلا أنه لا يستنتج منها أي أهمية كبرى للفن بالطبع يوافق ان الانسان عندما يترك قاعة الفن أو المسرح يسعر أنه أرق وأفضل،

---

* المرجع السابق ص ٣١

** المرجع السابق ص ٣٢

*** المرجع السابق ص ٣٣.

على الأقل ما دامت لا تزال فيه الانطباعات الجمالية، ولكنه يذكرنا أن الانسان الذي ساول وجبة طيبة يكون أكثر رقة من الجائع وهكذا لا فرق في هذا المجال بين تأثير الفن وتأثير اشباع المتطلبات الجسدية يقول تشيرنيشيفسكي: «إن التأثير المجدي للفن كفن (بغض النظر عن مضمون عمل معين) يكمن حصراً في حقيقة أن الفن شيء ممتع، وجميع الأعمال الممتعة الأخرى والعلاقات والموضوعات التي تؤدي إلى المراج الطيب»، يتمتع بالسمة المفيدة ذاتها الرجل المعافى أقل أنانية وأكثر حباً للخير من الرجل السقيم، الذي تراه دائماً نرقاً غاضباً والبيت الجميل يدفع الانسان إلى حب الخير أكثر من البيت الرطب المعتم الكئيب والرجل الذي لا تشويش في ذهنه (أي ليس في وضع مرعج) أكثر دماثة من رجل بذهن مشوش الخ * إن الدراسة العميقة للقضية تبين أن الفائدة التي يمنحها الفن، كمصدر من مصادر المتعة، وإن كانت لا جدال فيها، تعتبر تافهة بالقياس إلى تلك التي تقدمها العلاقات والظروف الأخرى الملائمة ولكن الأهمية الكبرى للفن لا تكمن في هذا إنها تكمن في حقيقة أن الفن ينشر كمية كبرى من المعلومات بين جماهير الناس الذين لا يحصلون إلا على أقل فائدة منه، وبذلك يطلعهم على المفاهيم التي قدمها العلم. إن تشيرنيشيفسكي في قوله هذا يضع في ذهنه الشعر، الذي يسميه أعظم الفنون جدية، لأن الفنون الأخرى في رأيه لا تقدم إلا القليل في هذا الميدان ولا شك أن قلة من كتاب القصة يضعون أمامهم هدف نشر المعرفة بين القراء وبما أنهم، بفضل ثقافتهم، يتفوقون على أغلبية القراء، فان القراء يعلمون الكثير من مؤلفاتهم إن تشيرنيشيفسكي مقتنع أنه حتى أضعف الكتب في القصة توصل معرفة كبيرة إلى أولئك الذين يقرؤونها إن الشعر «بامتاعه جمهور القراء يريد من تطورهم الفكري وهذا هو السبب في أنه يحظى بأهمية كبرى في نظر المفكرين وهذا هو السبب في أنه يحظى - على عكس ما يذهب أفلاطون، بهذه الأهمية حتى عندما لا يكون كذلك

وهكذا لا يسعى تشيرنيشفسكي مطلقاً إلى تدمير علم الجمال على العكس، إنه ينصب نفسه ليشرح للفنانين الأهمية العظمى للفن، أي، انه ينشر المفاهيم التي توصل إليها العلم وبكلمة أخرى إن مؤلفنا لم يدمر علم الجمال، بل يخضع نظريته لمعاودة

---

* المرجع السابق ص ٣٣.

جذرية وبعد الذي سمعناه منه عن رأي أفلاطون في الفن، ليس صعباً أن نفهم لماذا رأى من الضروري والمفيد العودة إلى « معلميه الكبار في قضية المناقشة الجمالية أفلاطون وارسطو لتقرير من يفضل الآخر بوشكين أم غوغول. ولن يدهشنا المقطع التالي: « إذا كان جوهر الفن يكمن فعلاً في ما هو مثالي، كما يقال اليوم، وإذا كان هدفه « خلق الاحساس الرفيع بالجميل »، إذن لا يوجد شاعر في الأدب الروسي يساوي مؤلف **بولتافا** و**بوريس غودونوف** و**الفارس البرونزي** و**الضيف الحجري** وكل تلك القصائد الرائعة الأخرى فإذا كان ثمة شيء آخر إلى جانب ذلك يتطلبه الفن، إذن هنا يقطع تشيرنيشيفسكي جملته بسؤال مذهل باسم القارىء الذي يحتار إلى المفاهيم الجمالية القديمة: « ولكن أي شيء آخر يمكن أن يشكل جوهر الفن وأهميته؟ »* إننا نعرف أن ما يشكلها في رأي تشيرنيشيفسكي ويمكن أن نكمل بأنفسنا الجملة التي قطعت: إذا لم يكن غرض الفن سوى خلق الاحساس الرفيع بالجميل، فان **المفتش** و**النفوس الميتة** أفضل من الضيف الحجري وبولتافا، وغوغول أفضل من بوشكين، والكتاب الذين يتفوقون على غوغول في وعي موقفهم من الحياة سوف يكونون حتى أفضل من غوغول وفيما يتعلق بهذا الرأي كتب السيد سكابيشيفسكي في كتابه: **تاريخ الأدب الروسي الحديث**:

هذا التوحد بين الفن والعلم واعطاء الفن دوراً مساعداً في توضيح البحث العلمي والفلسفي والصحافي كان الخطيئة المميتة التي كان لها نتائج جدية قبل كل شيء إنه ينترع من النقد الدور الذي هو طبيعي جداً فيه كحكم على الأعمال الفنية والذي لعبه النقد بنجاح رائع أيام بيلنسكي إلا أن نظرية وحدة العلم والفن عندئذٍ والدور المساعد للأخير بالنسبة إلى السابق التي تمثلتها العقول الفتية وغير الناضجة، كان لا بد أن تؤدي بالتدريج إلى الرفض الكلي للفن الذي رأيناه لدى صحفيي **روسكوي سلوفو**(١١٥) برئاسة بيساريف »**

وبعد أن عزا سكابيسيفسكي إلى تشيرنيسيفسكي « **نظرية وحدة العلم والفن** »

---

* المرجع السابق ص ٢٩

** المرجع السابق ص ص ٦٥ - ٦٦.

يتساءل بحيرة: «في تلك الحالة ما الدور الذي يلعبه الخيال الخلاق؟ »* ولا بد أن يوافق المرء أنه «في تلك الحالة لا مكانة فعلاً للخيال الخلاق إلا أن تلك الحالة اخترعها السيد سكابيشيفسكي نفسه إن سيرنيسيفسكي لم يوحد أبداً الفن والعلم. إنه كشخص مطلع على علم جمال هيغل، مثل بيلنسكي، يفهم تماماً أن العالم يشرح فكرته بمساعدة الفرضيات المنطقية، بينما الفنان يجسدها في صور أي يسعين «الخيال الخلاق وما كان للسيد سكابيسيفسكي أن يرتكب غلطته لو كان أكثر اطلاعاً على المصادر التي استقى منها بيلنسكي وتشيرنيسيفسكي آراءهما الجمالية

لنأخذ مثالاً رواية **ما العمل؟** تكرس أكثر من نصف صفحاتها للدعاية للأفكار ذاتها التي شرحتها مقالة «المبدأ الانتروبولوجي في الفلسفة ولكن تلك الأفكار تجسدت في الرواية على شكل صور، بينما في المقالة نوقشت عن طريق الاطروحات المنطقية. لذلك من الواضح أن سيرنيسيفسكي عندما عمل في الرواية اضطر إلى العودة إلى خياله الخلاق ونحن نعلم أن تشيرنيسيفسكي، في رأي الكثيرين، لم يفصح إلا عن القليل من القوة الخلاقة في روايته، بيد أن هذه مسألة أخرى تماماً لا تهمنا هنا، أخذها معظم القراء بمنتهى السطحية: لقد قال تشيرنيسيفسكي نفسه أنه لا يملك موهبة فنية، وقد صدق الناس عنه ذلك إن روايته ليست في الواقع بلا ميزة فنية، وإن كانت قليلة، إن فيها الكثير من الدعابة والملاحظه الدقيقة، وأخيراً إنها مشوبة بالعاطفة المتحمسة للحقيقة التي تجعل قراءتها ممتعة حتى هذه الايام إن المرء يحتاج إلى كثير من التحيز، المنتشر جداً في بلادنا الآن، القائم على نظريات جمالية خاطئة، حتى يسخر من هذه الرواية، كما يفعل الكثيرون اليوم. حتى القراء التقدميون ونكرر أن هذه مسألة أخرى تماماً فلا شك أن سيرنيسيفسكي يعتمد في روايته على قوته الخلاقة، وفي مقالته على منطقه وهذا كاف ليبين لنا مدى خطأ السيد سكابيشيفسكي

دعنا نأخذ مثالاً آخر في كتاب **موت ايفان ايليتش** وكتاب **السيد والعامل** أراد تولستوي ولا شك أن يشرح الأفكار التي توصل إليها في تأملاته في معنى الحياة ولكنه في شرح تلك الأفكار مثل تشيرنيسفسكي في روايته. يستعين بخياله الخلاق

---

* المرجع السابق ص ٦٥.

وليس بهذه إلحجة النظرية أو تلك. ولكن ماذا عن ذلك؟ من يستطيع القول إن تولستوي لم يطلق العنان لقوته الخلاقة في ذينك الكتابين؟ من يرفض أن يضعهما بين أعظم كتب الفن؟ إن السيد سكابيشيفسكي يرى الوحدة حيث لا يوجد أدنى أثر منها

إن فكرة السيد سكابيشيفسكي أن خطأ تشيرنيشيفسكي المزعوم الذي انترع من النقد الدور الذي لعبه أيام بيلنسكي هي فكرة غير مقنعة أيضاً لغموضها الشديد كان بيلنسكي مثلاً « قاضي المؤلفات الفنية إلا أن نظرية تشيرنبشيفسكي الجمالية لا تستثني أبداً الحكم عليها صحيح أن النقاد المؤمنين بها تناسوا مسألة الميزة الجمالية للمؤلفات التي كانوا يحللونها وركزوا اهتمامهم الرئيسي على الأفكار في تلك المؤلفات وصحيح أيضاً عند بيساريف، مثلاً، أن نظرية تشيرنيشيفسكي الجمالية اكتسبت شكلاً كاريكاتوريا ولكن هذا تفسره الشروط الاجتماعية لذلك الزمن، التي لم يكن تشيرنيشيفسكي مسؤولاً عنها بالطبع إن نظريته الجمالية، **بحد ذاتها**، لم تبعد المتعة في الميزة الجمالية للأعمال الفنية ويكفي هذا ليبين كيف أن نقد سكابيشيفسكي لم يكن صحيحاً

إحدى السمات المميزة الرئيسية لنظرية تشيرنيشيفسكي الجمالية هي فكرة أن « الجميل » لا يقضي على مضمون الفن. إنه يطور هذه الفكرة بالتفصيل في أطروحته « العلاقة الجمالية بين الفن والواقع ويرجع إليها مرات عديدة في « **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي** ».

يقول: « في كل عمل بشري جميع جهود الطبيعة البشرية تشارك فيه، مع أن واحداً منها فقط يمكن أن يسفيد أولاً من هذا العمل. لدلك فإن الفن أيضاً لا ينتجه الكفاح المجرر للجمال (فكرة الجميل) بل العمل المشترك لكل القوى والقدرات في الكائن الإنساني الحي وبما أن الحاجة إلى الحقيقة والحب وتحسين الحياة، مثلاً، أقوى في الحياة الإنسانية من الكفاح من أجل الجمال، فإن الفن لا يفيد دائماً في التعبير عن تلك الحاجات (وليس فقط في فكرة الجميل) بل منتجاتها (منتجات الحياة الإنسانية، وهذا يجب ألا ينسى) تنشأ دائماً تحت التأثير السائد للحاجة إلى الحقيقة (النظرية والعملية) والحب وتحسين الحياة، بحيث أن الكفاح من أجل الجمال، انسجاماً مع

القانون الطبيعي للنشاط الإنساني، هو خادم تلك الحاجات والحاجات الضرورية الأخرى للطبيعة الإنسانية هكذا تنتج كل الإبداعات الفنية المشهورة بميزتها إن الكفاحات المنفصلة عن الحياة الواقعية هي كفاحات واهية، لذلك حتى لو الكفاح من أجل الجمال سعى مع الزمن في أن يعمل بطريقة مجردة (باستخدام علاقته مع الكفاحات الأخرى للطبيعة البشرية) فإنه لا يمكن أن ينتج أي شيء مشهور حتى في الميدان الفني إن التاريخ لا يعرف أعمالاً في الفن أنتجتها فقط فكرة الجميل. وحتى لو كان الأمر كذلك فإن مثل هذه الأعمال تعجز عن جذب اهتمام المعاصرين وينساها التاريخ باعتبارها أعمالاً ضعيفة جداً، حتى في ميدان الفن »*

فكرة تشيرنيشيفسكي هذه صحيحة أيضاً، مع أنها تعاني من كونها مجردة إلى حد ما إن التاريخ في الحقيقة لا يعرف أعمالاً في الفن لا تعبر إلا عن فكرة الجميل. هذا أيضاً يدحض فكرة أن مرحلة بوشكين في أدبنا تتسم بكفاح الشعر من أجل الشكل وحده فقط ولكن النقطة ليست هنا إن مهمة علم الجمال العلمي لا تنحصر بملاحظة حقيقة أن الفن يعبر دائماً **ليس فقط** عن « فكرة الجميل، بل أيضاً عن الكفاحات الإنسانية الأخرى (عن الحقيقة والحب الخ) مهمته أولاً الكشف عن **كيف تعبر الكفاحات الأخرى للإنسان في مفهومه عن الجميل** وكيف أنها نفسها تتغير في عملية التطور الاجتماعي، كذلك تتغير « الفكرة عن الجميل. وهكذا، مثلاً، فكرة الجميل في العصور الوسطى المتجسدة في المادونا تكونت نفسها تحت تأثير المثل التي سادت بين الكهنوت والتي لعبت، كما نعرف، دوراً هاماً جداً في المجتمع في ذلك الوقت في عصر النهضة تكتسب فكرة الجميل المتجسدة في الصورة ذاتها سمة مختلفة كلياً، لأنها عندئذٍ تعبر عن كفاحات فئة اجتماعية جديدة بمثل مختلفة تماماً إن هذا معروف شائع الآن ولا شك أن تشيرنيشيفسكي وضع هذه الحقيقة في الذهن عندما حصر الجمال بـ« **الحياة** » في أطروحته كتب « الجميل هو ذلك الكائن الذي نرى فيه الحياة كما يجب أن تكون حسب مفهوماتنا »** ولكن إذا كان هذا صحيحاً - وهو صحيح تماماً فماذا يعني؟ أيعني أن الفن، من جهة، يجسد فكرتنا عن الجميل، ومن جهة أخرى،

* المؤلفات المجلد ٢ ص ص ٢١٣ - ٢١٤

** المؤلفات المجلد ١٠ جزء ص ٨٨

كما يزعم تشيرنيشيفسكي، يعبر عن كفاحاتنا من أجل الحقيقة والخير وتحسين الحياة... الخ؟ لا بل الأغلب هو العكس. إن مفهومنا عن الجميل مشوب بتلك الكفاحات ويعبر عنها بحد ذاته. وهذا هو السبب في أن المرء يجب أن يوزع ما هو في الحقيقة نوع من الكل العضوي على عناصر متفرقة. لكن تشيرنيشيفسكي يفتت أحياناً، بسبب السمة العقلية لكل «المتنورين» ذلك الكل العضوي إلى عناصر متفرقة* وبعمله هذا يقترف غلطة نظرية هذه الغلطة النظرية جعلت نقده يبدو أحادي الجانب. فإذا كان العمل الفني يعبر عن كفاحات أخلاقية وعملية معينة مثل فكرة الجميل - ولذلك، واستقلالاً عنها - فإن للناقد الحق أن يركز اهتمامه الرئيسي على تلك الكفاحات، طارحاً جانباً مسألة مدى ما منحت من تعبير فني في الأعمال التي عبرت عنها وعندما يعمل النقد بهذه الطريقة، لا بد أنه يكتسب سمة **أخلاقية**. في بلادنا افترض~هذا بيساريف، مع آخرين ومن سخرية القدر أن السيد سكابيشيفسكي اقترف الجرم ذاته ويحدث هذا عادة للنقد في مراحل «التنوير التي تتسم بسيطرة العقلانية ولا بد أن يقول المرء في دفاعه أنه خلال المراحل تلك لا تسم العقلانية النقاد فقط بل تسم الفنانين أيضاً*

ذلك أن ثمة عقلانية كبيرة في أحكام تشيرنيشيفسكي على الأعمال الفنية في غير هذه المسألة وعندما نقرأ اطراءه لانتقادات أفلاطون للفن، نرى أمامنا «متنوراً من عصر خاص، يميل بشكل طبيعي إلى التعاطف مع الموقف في الفن الذي يجده عند ممثلي كل عصور «التنوير الأخرى*** الواقع أن تشيرنيشيفسكي في تقديره للفن اليوناني

---

* الفرضية السابعة عشرة في أطروحته «العلاقة الجمالية بين الفن والواقع هي. «اعادة إنتاج الحياة هي السمة العامة للفن وتؤلف جوهره إن للمؤلفات في الفن غرضاً آخر وهو شرح الحياة انها أيضاً ذات غرض آخر وهو لفظ الحكم على ظواهر الحياة» (المؤلفات المجلد جزء ٢٢ مقطع ١ ص ١٦٤) إلا أن المسألة هي كيف نلفظ هذا الحكم وما شكل التفسير الذي نقدمه: على شكل صور فنية أم في شكل فرضيات مجردة لا أهمية اذا كانت هذه الفرضية الصحيحة المجردة أو تلك لا ترتبط بميدان الفن لقد شرح لنا ذلك بيلنسكي في أدبنا

** قال داود في نفسه أنا لا أرغب ولا أشعر بالعجائب، أستطيع الانطلاق فقط من الحقيقة الواقعية (أنظر مجموعة عشرين عاماً ص ١٤٥ وما يليها) وهذا ما يميز المتنور الفرنسي في القرن الثامن عشر كما كان داود

*** إن حقيقة أن أفلاطون،، تلميذ سقراط،، أظهر نفسه أنه «مسور نموذجي في آرائه عن الفن يمكن أن تبرر وإن بصعوبة.

أيام أفلاطون لم يكن منصفاً فمع أن الفن اليوناني في القرن الرابع لا يعبر عن المثال الأعلى المدني الذي ألهم بوليكتيتوس وفيدياس، فإن تشيرنيشيفسكي تخطى المسألة بقوله إن فناني ذلك الزمن لم ينتجوا شيئاً إلا الصور والأشعار والتماثيل الشهوانية.

ولا يمكن أن نوافق تشيرنيشيفسكي عندما يرفض فكرة كانت التي تبناها شلر بأن الفن لعب إن **مفهوم «اللعب»** عند تشيرنيشيفسكي يساوي مفهوم التسلية البسيطة. ولكن القضية ليست هكذا تماماً إن اللعب يصبح في الحقيقة تسلية بسيطة في شروط معينة وحسب. ليس الإنسان وحده «يلعب»، الحيوانات أيضاً «تلعب كان سبنسر محقاً تماماً في قوله، مثلاً، إن لعب الوحوش الضارية يتألف من ذريعة الصيد والقتال هذا يعني، في حالة الوحوش، أن مضمون لعبها يحدده النشاط الذي يمكنها من الوجود والشيء نفسه نراه في حالة الأطفال وكما يلاحظ سبنسر تماماً، ليست ألعاب الأطفال أكثر من تطبيقات نظرية لشتى أنماط النشاط البالغ وهذا واضح خاصة في ألعاب صغار المتوحشين. باختصار **إن اللعب طفل العمل**، كما عبر عن ذلك فوندت في كتابه **الأخلاق*** ولأنه طفل العمل فإنه ليس أبداً تسلية بسيطة إنه يصبح هكذا فقط في حالة الطبقات أو الفئات الاجتماعية التي تعيش بلا عمل والتي **هي كسولة** حتى في «**نشاطها**». على أي حال حتى في تلك الحالات إن اللعب طفل طبيعي للعمل إلى حد ما، لأن الوجود في مجتمع الطبقة أو الفئة الغارقة في الكسل غير ممكن إلا في علاقات إنتاج معينة.

إذا كانت السمة الأساسية للفن، كما يقول تشيرنيسيفسكي، هي إعادة إنتاج الحياة، فلا بد من الاعتراف بقرابة الفن للعب الذي يعيد إنتاج الحياة ليس في حالة الإنسان، بل أيضاً في حالة الحيوانات إن إعادة إنتاج الحياة في اللعب أو الفن على جانب كبير من الأهمية وبإعادة الناس إنتاج حياتهم في إبداعات الفن يثقفون أنفسهم لحياة اجتماعية ينسجمون معها إن الطبقات الاجتماعية المختلفة ذات حاجات مختلفة، تعش حياة مختلفة، لذلك فإن الأذواق الجمالية مختلفة أيضاً إن الطبقات الغارقة في الكسل تعبر عن فراغ حياتها في أعمالها الفنية أيضاً إن فنها في الحقيقة ليس أكثر من سلية

---

* أنظر مقالتنا «المزيد عن فن الشعوب البدائية في مجموعة نقد نقادنا ص ص ٣٨٠ - ٣٩٩[١٢٦].

بسيطة، ولكنه تسلية بسيطة لا لأنه إعادة انتاج الحياة التي تشبه اللعب تماماً، بل لأنه إعادة انتاج حياة فارغة. إن النقطة الأساسية ليست اللعب بل مضمون اللعب.

إن فكرة الفن لعب، تدعمها فكرة أن اللعب «طفل العمل» تلقي ضوءاً ساطعاً على جوهر الفن وتاريخه. إنها تجعل من الممكن لأول مرة أن ننظر إليهما نظرة مادية إننا نعرف أن تشيرنيشيفسكي، منذ بداية نشاطه الأدبي قام بمحاولة ناجحة جداً في هذا الاتجاه، عندما طبق فلسفة فيورباخ المادية على علم الجمال وقد كرسنا عملاً خاصاً لوصف هذه المحاولة* لذلك نقتصر على القول هنا إن تلك المحاولات، مع أنها ناجحة، كانت، تماماً مثل آراء تشيرنيشيفسكي في التاريخ، مصابة بالعيب الرئيسي لفلسفة فيورباخ الشرح القاصر للمظهر التاريخي، أو بكلمة أدق، للمظهر الديالكتيكي وبسبب أن هذا المظهر بالضبط لم يشرح في الفلسفة التي تمثلها تشيرنيشيفسكي فإنه أغفل الأهمية الكبرى للعب بالنسبة للتفسير المادي للفن.

ولكننا نجد في جماليات تشيرنيشيفسكي، كما في آرائه التاريخية، كثيراً من بذور الفهم الصحيح التام للموضوع انظر، مثلاً، كيف يفسر قيام مفهوم الجمال على الشروط الحياتية لمختلف الطبقات الاجتماعية وسوف نقتبس المقطع المختص بذلك كله من أطروحته الرائعة، بكل ما في الكلمة من معنى

«تعني «الحياة الطيبة» «الحياة كما يجب عند العامة ما يكفي أن تأكل وأن تعيش في بيت جيد وتتمتع بما يكفي من النوم. ولكن مفهوم الفلاحين عن الحياة في الوقت نفسه يتضمن دائماً مفهوم العمل: فمن المستحيل أن تعيش بلا عمل، والحياة تغدو من دونه قاتمة ونتيجة حياة الكفاية، المصحوبة بالعمل الشاق غير المضني، فإن الفتاة الريفية [أو الشاب الريفي - بليخانوف] ستتمتع ببشرة نضرة وخدود وردية - وهذا أهم شيء في الحساء حسب مفاهيم العامة العمل الشاق، الذي يؤدي إلى بنية قوية، يجعل الفتاة الريفية إذا ما تغذت جيداً، ممتلئة - وهذه ميزة أساسية في حساء القرية: والريفيون ينظرون إلى جمال المدينة «الرقيق» على أنه «عادي»، ويشمئزون من الفتاة التي على هذه الشاكلة لأنهم اعتادوا أن ينظروا إلى «الهزال أنه نتيجة المرض أو «السوداوية العمل لا يسمح للإنسان أن يصبح سميناً فإذا كانت الريفية

---

* أنظر مقالة «نظرية تشيرنيشيفسكي الجمالية في مجموعة عشرون عاماً(١١٧).

سمية اعتبر ذلك نوعاً من المرض، ويقولون عنها «مترهلة» ويعتبرون «السمنة عيباً لا يمكن أن يكون لفتاة القرية يدان وقدمان صغيرتان لأنها تقوم بأعمال شاقة - وسمات الجمال هذه لم تجر الإشارة إليها في أغانينا باختصار في وصف الجمال الأنثوي في أغانينا الشعبية لن تجد سمة واحدة للحسناء لا تعبر عن الصحة الممتلئة والبنية القوية، وهما دائماً نتيجة حياة الكفاية والعمل الشاق المستمر ولكنه غير المضني أما حسناء المدينة فمختلفة كل الاختلاف. فأسلافها لعدة أجيال عاشوا من غير عمل جسدي. وفي حياة الكسل لا يصل الأطراف إلا قليل من الدم. ومع كل جيل جديد تزداد عضلات الذراعين والساقين ضعفاً، وتصبح العظام رقيقة. ونتيجة كل هذا هو يدان وقدمان صغيرتان - وهذه ظواهر نوع واحد من حياة الطبقات العليا في المدينة

نتيجة الحياة بلا عمل جسدي. فإذا كان لسيدة المدينة قدمان أو يدان كبيرتان، اعتبر ذلك عيباً، أو دلالة أنها لا تنحدر من عائلة كريمة عريقة. وللسبب نفسه يجب أن تكون حسناء المدينة صغيرة الأذنين. والشقيقة، كما هو معروف، مرض مستحب، ليس بلا سبب مقنع فنتيجة الكسل يظل كل الدم في الأعضاء الوسطى ولا يجري إلى الدماغ حتى بدون ذلك نجد أن الجهاز العصبي يتوتر نتيجة الضعف العام للبنية. والنتائج المحتومة لذلك هو وجع الرأس الدائم ومختلف أنواع الاضطرابات العصبية. ولكن حتى المرض مستحب عندما يكون نتيجة طريقة الحياة التي نحب والحقيقة أن الصحة الجيدة لا يمكن أن تفقد قيمتها بالنسبة إلى الرجل، فحتى في حياة الكفاية والرفاهية تتردى الصحة السيئة ولذلك فإن الخدود المتوردة ونضارة الصحة الجيدة لا تزال تجذب أبناء المدن أيضاً، إلا أن الهزال والضعف والكسل والتراخي أيضاً تمتلك قيمة جمالية في نظرهم طالما أنها تبدو نتيجة حياة الكسل والرفاهية والوجنات الشاحبة والتراخي والهزال لها أهمية أخرى عند أبناء المدن: فالفلاحون يسعون وراء الراحة والهدوء، أما أبناء المجتمع المثقف، الذين لا يعانون من الحاجة المادية أو الإعياء الجسدي، بل يعانون من السأم الناجم عن الكسل وفقدان الاهتمامات المادية، فإنهم يبحثون عن الإثارة والانفعالات القوية التي تضفي التنوع والبهجة والجاذبية على حياة المجتمع الباهتة القاتمة. فكيف لا يسحر المرء تراخي الحسناء وشحوبها عندما يكونان دلالة على أنها تعيش «حياة مليئة بالملذات؟»*

---

* المؤلفات المجلد ١٠ جزء ٢ مقطع ص ص ٨٩ - ٩٠

إن مفاهيم الناس عن الجمال عبرت عنها الأعمال الفنية إن المفاهيم عن الجمال في الطبقات الاجتماعية هي، كما رأينا، مفاهيم مختلفة، بل متضاربة. إن الطبقة الحاكمة في زمن ما في المجتمع، تحكم أيضاً في الأدب والفنون. إنها تدخل آراءها ومفاهيمها في الأدب والفنون ولكن في مجتمع متطور تحكم طبقات مختلفة في أزمنة مختلفة. وفوق ذلك فإن لكل طبقة تاريخاً خاصاً إنها تتطور وتحقق الازدهار والسيادة ثم أخيراً تنحدر وتسقط وتتغير، بموجب ذلك، آراؤها الأدبية ومفاهيمها الجمالية. لذلك نواجه في التاريخ مفاهيم جمالية مختلفة: الأفكار والمفاهيم السائدة في مرحلة معينة تصبح بالية في مرحلة أخرى وأكد تشيرنيسيفسكي أن مفاهيم الناس الجمالية تقررها في النهاية حياتهم الاقتصادية. ويدل هذا على حدة ذهنه. وحتى يقدم لنظريته الجمالية أساساً مادياً وطيداً، كان عليه أن يدرس دراسة تفصيلية الرابطة السببية التي اكتشفها بين علم الجمال والاقتصاد. ويتحرى هذه الرابطة على الأقل من خلال المراحل الرئيسية لتطور البشرية التاريخي وبعمله هذا حقق ثورة في نظرية علم الجمال. ولكن، أولاً، كانت الطريقة التي استخدمها في بحثه ليست مشروحة كفاية في مثل هذه المهمة النظرية ثانياً لم يكن باعتباره «متنوراً مهتماً بالنظرية في حد ذاتها مثل اهتمامه باستنتاجاتها التي اتجهت إلى الممارسة اليومية. لذلك بعد أن نظر نظرة متفحصة نفاذة في مسألة علاقة الوعي بالكائن في ميدان علم الجمال، انتقل مباشرة من هذه المسألة النظرية ليقدم إلى قارئه بعض النصائح العملية الملموسة. يقول:

« نحب اللون المتوهج الحيوي
الذي يدل على قوة الشباب
ولكننا نفضل عليه
الشحوب الحرين

« ولكن بينما حب الجمال الشاحب المريض يدل على ذوق فاسد مصطنع، فإن الرجل المثقف حقاً يرى أن الحياة الحقيقية هي حياة القلب والفكر إنها تترك أثرها في تعبير الوجه، وبشكل أوضح في العينين. ولذلك فإن تعبير الوجه، الذي قلما أشارت إليه الأغاني الشعبية، يكتسب أهمية ضخمة في مفهوم الجمال الذي يسود بين الناس المثقفين، ويحدث أن شخصاً يبدو لنا جميلاً فقط لأنه يملك عينين جميلتين معبرتين »*.

* المرجع السابق ص ٩٠.

هذا أيضاً صحيح ولكن هذا التصريح الصحيح لا يأخذ بعين الاعتبار علم الجمال **كما هو** بالاعتماد على الوضع الاقتصادي للطبقات المختلفة، بقدر ما هو علم جمال بما **يجب أن يكون** عند « الناس المثقفين ». إن اعتبار ما **يجب أن يكون** يسيطر في أطروحة تشيرنيشيفسكي على الاهتمام النظري في: لماذا **ما هو كائن** يختلف أحياناً عما **يجب أن يكون**. وهذا يفسر الحقيقة القريبة أن المرء يجد في أطروحة هذا المادي ملاحظات مادية عن تاريخ الفن، مثلاً، أقل بكثير مما يجد في كتاب « **علم الجمال** » لهيغل المثالي المطلق*

ولكن لنعد إلى مقالته عن كتاب أرسطو **الشعر**. إنها تشكل إضافة إلى دراسة تشيرنيشيفسكي عن « العلاقة الجمالية بين الفن والواقع ». في رأيه أن أرسطو أقل سمواً في دراسته للفن من أفلاطون، فمفاهيمه عن أهمية الموسيقى والشعر ليست مهذبة مثل مفاهيم أفلاطون، بل إنها حتى تافهة كما بينا أعلاه عندما ناقشنا موقف تشيرنيشيفسكي من ديالكتيك هيغل. إن مؤلفنا لا يوافق أرسطو عندما يفسر الأخير نشأة الفن بمحاولة الإنسان التقليد لكنه يستحسن كثيراً رأي أرسطو في العلاقة بين الشعر والفلسفة. يقول: « في رأي أرسطو ،الشعر الذي يصور حياة الإنسان من وجهة نظر عامة، فلا يقدم التفاصيل التافهة الطارئة، بل يقدم ما هو جوهري مميز في الحياة، هو الذي يملك ميزة فلسفية. ويعتقد أنه في هذا الصدد يتفوق على التاريخ الذي يصور بلا تمييز ما هو مهم وما هو تافه، ما هو جوهري مميز وما هو تافه لا أهمية له إن الشعر يتفوق أيضاً على التاريخ لأنه يقدم كل شيء في علاقته الداخلية، بينما يقدم التاريخ كل شيء من دون أي علاقة داخلية، إنه يُرتِّب في نظام تاريخي الحقائق المختلفة التي لا رابط مشترك بين الواحدة والأخرى »**

إن ليسنغ، كما نعرف، استحسن رأي أرسطو هذا وللسبب ذاته: قدم الإمكانية النظرية بأن فرض على الشعر المطلب العزيز على « المتنورين » وهو أنه يجب عليه أن « يفسر الحياة أو - بتعبير أدق - أن يصدر « حكماً على الحياة والواقع أن رأي

---

* أنظر ملاحظات هيغل في تاريخ الرسم الهولندي، التي يوافق عليها كل مادي ديالكتيكي حديث فكتابه « علم الجمال يضمن كثيراً من الملاحظات هنا وهناك

** المؤلفات المجلد ١ ص ص ٣٦ - ٣٧.

أرسطو يمكن تفسيره بالمعنى النظري الصرف الذي عزاه إليه هيغل في كتابه « **علم الجمال** » والذي نجده في تأملات بيلنسكي عن الموضوع إلا أن تشيرنيشيفسكي ، مثل ليسنغ ، يشرحه بطريقة عملية محببة لـ « المتنورين »*

وباعتبار تشيرنيشيفسكي « متنوراً » اهتم بالاستنتاجات العملية ، ولذلك لم يتجه الى القيام بدراسة عميقة للأساس النظري لمثل تلك الاستنتاجات ، فإنه لم يكن منصفاً من حيث التاريخ حيال النظريات الجمالية التي يرفضها

ومثل ليسنغ لم يحب تشيرنيشيفسكي « النظريين من المدرسة الكلاسيكية الزائفة » لأسباب واضحة تماماً والتي شرحها ، فيما يتعلق بليسنغ ، مهرنغ في كتابه الشهير **اسطورة ليسنغ** - إلا أن دراستها سوف تبعدنا كثيراً هنا إنه يتهم هؤلاء النظريين بجرائم لم يقترفوها حقاً ، واستطاع أن يراها بسهولة بتوجيه اهتمامه إلى الناحية التاريخية لمسائل علم الجمال التي شغلته. وإليكم هنا المثال الساطع التالي. إن الفنون الجميلة في رأي أفلاطون وأرسطو تسمى فنون المحاكاة imitative ويرى تشيرنيشيفسكي بهذا الصدد أن من الضروري التشديد أن « المحاكاة » التي يتحدث عنها هذان الفيلسوفان لا تشترك إلا قليلاً مع « **محاكاة الطبيعة** » التي تعتبرها المدرسة الكلاسيكية الزائفة جوهر الفن. يقول: « ألا ينظر أفلاطون ، وعلى الأخص أرسطو ، معلم كل الباتويين والبوالويين والهوراسيين ، إلى الفن على أنه محاكاة **للطبيعة**، المصطلح الذي اعتدنا استخدامه عندما نتكلم عن نظرية المحاكاة؟ لا فلا أفلاطون ولا أرسطو نظر إلى الطبيعة ، ولا إلى الحياة **الإنسانية** على أنها المضمون الحقيقي للفن ، وللشعر بشكل خاص. فإليهم ينسب شرف التفكير بالمضمون الرئيسي للفن الذي لم يعبر عنه منذ أيامهم سوى ليسنغ وحده ، والذي لم يستطع جميع اتباعهما أن يفهموه. فليس في كتاب أرسطو **الشعر** كلمة واحدة عن الطبيعة: إنه يتحدث عن الناس ، عن أفعالهم ، عما يحدث لهم كالأشياء التي يحاكيها الشعر إن كلمة « **طبيعة** » أخذت في كتاب الشعر فقط على أنها ذروة الترهل والشعر الوصفي الكاذب والشعر التعليمي الذي

---

* من الأجدى هنا أن نتذكر التحفظ التالي لتشيرنيشيفسكي على التاريخ « ولكن رأي أرسطو في التاريخ يحتاج إلى تفسير يمكن تطبيقه فقط على ذلك الشكل من التاريخ الذي كان معروفاً في أيامه - انه ليس تاريخاً بمعنى الكلمة ، وإنما كتابات مرتبة زمنياً » (المؤلفات ، المجلد الأول ص ٣٧).

لا يفصل عنه - وهما النوعان اللذان أبعدهما أرسطو عن الشعر إن محاكاة الطبيعة أمر غريب عن الشعر الحقيقي، الذي موضوعه الرئيسي هو الإنسان «تأتي الطبيعة أولاً في مجال الرسم فقط، ومصطلح «محاكاة **الطبيعة**» سمع أول ما سمع من شفتي الرسام»*

ويقتبس تشيرنيشيفسكي من بليني متابعاً تفسير الظروف التي أول ما ظهر مسها هذا المصطلح: عندما سأل ليسيبوس الرسام ايوبومبوس أي الفنانين الكبار يجب أن يقلد المرء، أجاب الأخير أن الطبيعة يجب أن تقلد وليس الفنانين. يستنتج مؤلفنا من هذه الكلمات أن الواقع الحي بشكل عام، وليس الطبيعة بالمعنى الضيق للكلمة، يجب أن يؤخذ نموذجاً للفنان. ولكن الحقيقة هي أن كلمتي «محاكاة الطبيعة شرحتا بالمعنى نفسه من قبل «نظريي المدرسة الكلاسيكية الزائفة» أيضاً وإثباتاً لهذا سوف نقتبس من بوالو الـذي يشير إليه تشيرنيشيفسكي كواحد من الكتاب الذين ساسوا الإنسان في الكتاب الثالث من **فن الشعر** يقدم بوالو النصيحة التالية للكتاب:

أنتم إذن يا من تضعون الأكاليل المضحكة
عليكم أن تدرسوا الطبيعة بكل عناية
أما الذي يعرف الإنسان، فبالفن المطلع
يدرك أسرار القلب الخبيئة
إنه هو الذي يلاحظ، وهو الذي يستطيع أن يرسم
الأحمق الحسود، المتزلف الأحمق
إن الذكي الفطن أو الحمار المغامر
أو كلب البحر المضحك أو هديبراس -
يمكن بسلام أن ينغمسوا في تلك المسرات النبيلة
وأن يمثلوا ويتكلموا على المسرح
اجهدوا أن تكونوا طبيعيين في كل ما تكتبون
وارسموا بألوان تدخل المسرة على النظر
إن الطبيعة غنية بالأشكال المتنوعة

---

* المؤلفات، المجلد ١ ص ص ٣٨ - ٣٩

التي نجدها تختلف في كل عقل
إن نظرة، لمسة، تكشف الكثير للحكيم
ولكن ما كل إنسان بذي عينين بصيرتين.

من الواضح تماماً أن بوالو يقصد بـ «الطبيعة» هنا الإنسان. ويتضح هذا تماماً من المقطع التالي:

يجب أن تخضع أعمالكم لقواعد العقل
وأن تكون انفعالاتكم ضمن حدود الطبيعة
انظروا كيف تجنب تيرنس الخطأ
إن أباً حريصاً يعنف ابنه الحبيب
لكنه يجد ابنه الذي لم تحركه نصيحة
ينسى تلك الأوامر ويلاحق عشيقته
إننا لسنا أمام صورة متقنة الرسم
إنه ابن حقيقي وأب حقيقي وعشيقة حقيقية*

وعندما قال بوالو أن الانسان لا يمكن أن يهرب من الطبيعة، قصد أن الطبيعة الانسانية يجب أن تصور باخلاص قدر الامكان. ويتخذ بوالو تيرنس مثالاً، إلا أن تيرنس أجدر بالمحاكاة في رأيه، باعتباره فناناً أعاد انتاج الطبيعة الانسانية بصورة رائعة: الأب، الابن، العشيقة.. الخ إن القرن السابع عشر لم يفضل تصوير الطبيعة على الحياة الانسانية. لقد اهتم بالأخيرة، بالحياة الانسانية. لقد استغرقت الحياة الانسانية كل اهتمامه، حتى ميدان الرسم في هذا القرن أبعد الطبيعة إلى الخلف واهتمام رسام الريف في فرانسا لم ينتقل من الانسان إلى الطبيعة إلا في نهاية ١٨٢٠ وهذا التغير لا يعني في الحقيقة أن الفنانين أخذوا يهتمون بالطبيعة أكثر من الانسان، بل إنهم اهتموا بالميادين الأخرى لحياة الانسان الروحية، التي لم يكونوا يهتمون بها من قبل إلا قليلاً** ولكننا نكرر أن تلك التفصيلات التاريخية كانت بالنسبة إلى

* [هذا المقطع الشعري، مع المقطع الذي سبقه مأخوذان من ترجمة البرت كوك لكتاب فن الشعر، والأطروحات الشعرية لهوراس والفيدا وبوالو، بوسطن، الولايات المتحدة الأميركية ١٨٩٢ ص ص ٢٠٥ - ٢٠٧ - ٢٠٨]

** أنظر مقالات حول ريف فرانسا في مجموعة تاريخ ريف فرانسا باريس ١٩٠٨ ومحاضرات رورنتال =

تشيرنيشيفسكي باعتباره « متنوراً »، لا تحظى بأهمية خاصة إن الشيء الهام بالنسبة إليه كان الاستنتاج - الذي يحظى بأهمية عملية في نظره - أن « من الصحيح أن نسمي الفن اعادة انتاج الواقع (إذا ما استخدمنا المصطلح الحديث لكلمة « محاكاة التي لا تحمل معنى الكلمة اليونانية Mimesis) من أن نعتقد أن الفن يحقق في أعماله فكرتنا عن الجمال الكامل، الذي لا يوجد في الواقع »* وبتطوير هذه الفكرة يناقش تشيرنيشيفسكي أن من الخطأ الاعتقاد أننا بالاعتراف بأن اعادة انتاج الحياة هو المبدأ الأعلى للفن نجبر الفن على تقديم نسخ فجة ومبتذلة عن الواقع، وعلى نبذ كل مثالية. إن تشيرنيشيفسكي يعترف بالمثالية، ويقدم تعريفه الخاص لهذا المفهوم. فالمثالية التي تتكون في تجسيد الموضوعات والشخصيات المرسومة مساوية للتفاخر والنفاق: « المثالية الوحيدة التي نحتاجها هي استثناء التفصيلات من الأعمال الشعرية، ولا أهمية لنوعها، التي تكون ضرورية من أجل الحصول على صورة كاملة وهذا صحيح بالطبع

ولندع جانباً، كما سبق وحللنا في مكان آخر، الآراء الجمالية الأخرى التي قدمها تشيرنيشيفسكي عن كتاب أرسطو الشعر والتي كررها في اطروحته،. سوف ندرس نقطة أخرى فقط. يشير تشيرنيشيفسكي أن ارسطو اعتبر كتاب التراجيديا أفضل من هومر واعتقد أن قصائد الأخير كانت أقل فنية في الشكل من تراجيديات سوفوكليس ويوربيدس. ويوافق مؤلفنا كلياً على رأي الفيلسوف اليوناني، ويعتبر من جانبه أن من الضروري اكمال هذا الرأي بملاحظة واحدة: يرى أن تراجيديات سوفوكليس ويوربيدس أكثر فنية بما لا يقاس من قصائد هومر ليس في الشكل فقط، بل في الموضوع أيضاً ويتساءل فيما إذا لم يحن الوقت لاحتذاء مثال ارسطو فننظر إلى شكسبير من دون تزلف كاذب انه يعتقد أن من الطبيعي بالنسبة إلى ليسغ أن يضع هذا المسرحي الانكليزي العظيم فوق كل الشعراء الذين وجدوا على سطح الأرض، ولكن اليوم، عندما لم تعد ثمة حاجة إلى الاعتراض على تقليد الكتاب الكلاسيكيين الفرنسيين

= « الريف أيام الرومانسية » ومقالة سونير « جان فرانسوا ميل » وأنظر أيضاً كتاب فرومنتان: « أساتذة الماضي » باريس ١٨٩٦ ص ٢٧١ وما يليها

* المؤلفات المجلد ١ ص ٣٩.

وعندما صار لدينا ليسنغ وغوته وشلر وبايرون فان من الضروري اتخاذ موقف نقدي من شكسبير «أما اعتقد غوته أن **هاملت** بحاجة إلى اعادة نظر؟ وربما لم يفصح شلر عن ذوق مماثل في اعادة النظر في مسرحية راسين **فيدر** ومسرحية شكسبير **مكبث**. إننا حياديّون تجاه الماضي البعيد، لماذا - إذن - نتردد طويلاً في الاعتراف بالماضي القريب على أنه قمة تطور الشعر وانه أعلى من الماضي السابق؟ ألا ينسجم تطوره مع تطور الثقافة والحياة؟ »*

من البديهي أن المرء يستطيع ويجب أن يتبنى موقفاً نقدياً من شكسبير، كما يمكن ويجب أن يتبنى الموقف ذاته من غوته وتولستوي، مثلاً، أو هيغل وسبينوزا ولكن إذا كان المرء يستطيع أن يضع ليسنغ أو شلر أو بايرون فوق شكسبير فتلك مسألة أخرى. لسنا قادرين على دراستها هنا، ولكن سنسمح لأنفسنا أن نقول إن شكسبير مسرحياً متفوق على الكتاب الذين أشار إليهم تشيرنيشيفسكي إن الحيادية طبعاً ضرورية في كل المحاكمات الأدبية، ولكن لا تضطرنا إلى قبول فكرة أن نجاحات الشعر تنسجم دائماً مع نجاحات الحياة والثقافة. هذه أبعد من أن تكون القضية الأساسية. إن راسين وكورنيل كمسرحيين يتفوقان على فولتير، ومع ذلك فان الثقافة الفرنسية والحياة الفرنسية في القرن الثامن عشر كانتا متخلفتين عن الثقافة الفرنسية والحياة الفرنسية في القرن السابق. أو - فلنأخذ مثالاً يكون مقنعاً لتشيرنيشيفسكي كخصم عنيد للمدرسة الكلاسيكية الفرنسية - أليس من الواضح أن المسرح الانكليزي في عصر شكسبير كان أفضل بما لا يقاس مما كان في القرن الثامن عشر؟ ومع ذلك حققت الثقافة الانكليزية والحياة الانكليزية تقدماً في المرحلة الفاصلة بين هاتين المرحلتين. إن «المتنورين في كل الأقطار أشد ميلاً إلى الاعتقاد أن نجاحات التنوير (الثقافة) مترافقة مع نجاحات كل المجالات الأخرى في حياة الأمم الفكرية والاجتماعية. ليست هذه هي القضية. الحقيقة أن التطور التاريخي للبشرية عبارة عن عملية لا تفترض فيها النجاحات في ميدان من الميادين نجاحات متناسبة في كل الميادين الأخرى، بل قد تؤدي أحياناً إلى تخلف، أو إلى انحطاط بعضها وهكذا، مثلاً، تطور الحياة الاقتصادية الضخم في أوروبا الغربية، الذي حدد العلاقة المتبادلة بين طبقة المنتجين

---

* المرجع السابق ص ٤٣.

وطبقة مالكي الثروة الاجتماعية، أدى في النصف الثاني للقرن التاسع عشر إلى انحطاط روحي للبرجوازية، ولكل الفنون والعلوم التي تجلت فيها المفاهيم الأخلاقية والطموحات الاجتماعية لهذه الطبقة. كانت البرجوازية في فرانسا في نهاية القرن الثامن عشر لا تزال طبقة مفعمة بالطاقة الفكرية والأخلاقية، ولكن هذه الحقيقة لم تمنع الشعر الذي أبدعته في ذلك الوقت من التخلف قياساً بما كان عليه من قبل عندما كانت الحياة الاجتماعية أقل تطوراً إن الشعر، بشكل عام، لا يسير مع العقلانية، والعقلانية نتيجة محتومة لنجاحات الثقافة. إلا أن مثل هذا النوع من الاعتبارات كان غريباً عن تشيرنيشيفسكي كمتنور نموذجي

الفصل الثاني

بيلنسكي وتشيرنيشيفسكي وبيساريف

قلنا في مكان ما أنه إذا كان بيلنسكي أباً « لمتنورينا »، فان تشيرنيشيفسكي ممثلهم الأكبر* وحتى نوضح هذا علينا أولاً أن نذكر القارىء بأي معنى نعتبر بيلنسكي أباً « لمتنوريا

أثناء مرحلة « مصالحته مع الواقع » الشهيرة، تصدى لمهمة فهمه على أنه نتاج مجرى محدد للتطور التاريخي. لقد اعتقد آنئذٍ بالرأي القائل أن المثال الأعلى الذي لا يبرره مجرى تطور « الواقع » أي ينفصل عن الواقع، هو نوع مس النزوة الذاتية لا تستحق أي اهتمام. « مصالحته مع الواقع » تعني فقط احتقاره لمثل هذا المثال الأعلى. وبالتالي بعد ادانته لمقالته حول معركة بورودينو باعتبارها غير جديرة بكاتب شريف، تابع الاحتفاظ بايمانه بروح الفلسفة الهيغلية، ولم يكن غاضباً من الفرضيات الأساسية في هذه المقالة، بل من استنتاجاتها كتب « الفكرة التي حاولت تطويرها في المقالة عن كتاب غلينكا « مقالات عن معركة بورودينو » صحيحة من حيث الأساس ». ولكنه اعتقد الآن أنه لم يحسن استخدام هذا الأساس الصحيح « كان علي أيضاً أن أطور فكرة النفي كحق تاريخي، وهو الحق الأول المقدس الذي من دونه تتحول البشرية إلى مستنقع آسن منتن ». إن هيغل، فيما ظل مخلصاً لديالكتيكه، اعترف « الحق التاريخي للنفي ويتضح هذا من محاضراته في تاريخ الفلسفة. حيث يتحدث عن النافين أمثال سقراط باستحسان حماسي ولكن النفي عند هيغل - أيضاً مع أنه لم يخن طريقتـه الديالكتيكية لأي «واقع محدد هو انتاج المنطقي لتطور الأخير

---

* عشرون عاماً. الطبعة الثالثة ص ٢٦٠

الديالكتيكي ، أي تطور التناقضات الداخلية المتأصلة في هذا الواقع وحتى نبرهن على صحة « فكرة النفي في روسيا ، من الضروري أن نكتشف ونبين الطريقة التي فيها يؤلف التطور التاريخي للعلاقات الاجتماعية « الواقع الروسي المحدد الذي سوف يؤدي منطقه الداخلي الخاص مع الزمن إلى نفي « الواقع المطروح ، أي استبداله بواقع جديد يتطابق إلى حد ما مع المثل العليا للشخصيات المتقدمة. إن التخلف المرعب لحياتنا الاجتماعية في ذلك الوقت جعل من المستحيل على بيلنسكي أن يحل هذه المهمة النظرية الهامة للغاية. وبما أنه لم يستطع ، بدستوره الأخلاقي ، أن يعيش بسلام مع « الواقع » ، وبما أن مصالحته له لم تكن سوى هدنة ، فقد كان مضطراً أن يحاول إثبات صحة فكرته عن « النفي ». بطريقة أخرى غير ديالكتيكية أبداً لقد سعى لأن يستنتج من المفهوم المجرد للشخصية الانسانية التي اعتقد أن من الضروري تحريرها « من القيود الغبية للواقع غير المعقول ، من رأي الغوغاء ، من تقاليد الأزمنة البربرية ». وفي سعيه إلى دعم هذا المفهوم المجرد ، انقلب من ديالكتيكي إلى « متنور ».

كما نرى في كل مرحلة « تنوير » نطلع عليها ، نجد المتنورين في نقدهم علاقات عصرهم انطلقوا عادة من هذا المفهوم المجرد أو ذاك.

من وجهة النظر الاجتماعية السياسية أدى هذا الاتجاه الجديد في تفكير بيلنسكي - سعيه لتدعيم مفهومه المجرد عن الشخصية - إلى دفعه إلى الاشتراكية الطوباوية، ومن وجهة النظر الأدبية إلى ترميم شلر ، الذي أعلنه الآن على انه المدافع النبيل عن البشرية. ولكنه لم يمر في مدرسة هيغل عبثاً: لقد احتفظ بكراهية أبدية لـ « المثالية المجهضة التي تقف على خشبات الصقالة وتحرك سيفاً خشبياً مثل ممثل مرسوم ». وبينما كان بيلنسكي في شبابه ، في المرحلة المبكرة لاعجابه بشلر ، شديد الاعجاب بمسرحية اللصوص، لم يكن الآن سوى الاحتقار للكتاب الذين يحتذون مثال مارلينسكي « الذي يتصدى لرسم كارل مور بعباءة سيركازية ، أو لير وتشارل هارولد بلباس الخدم الموحد وفي بداية ١٨٤٤ في مقالة « الأدب الروسي في عام ١٨٤٣ » يلاحظ بقناعة أن « الموهوبين الآن صغاراً وكباراً ، وغير الموهوبين العاديين أو فاقدي الموهبة كلياً جميعهم يسعون إلى تصوير أناس واقعيين لا خياليين ، ولكن ما دام الناس

الواقعيون يعيشون على الأرض وفي المجتمع، وليس في الهواء، ولا في الغيوم حيث تعيش الأشباح، فان على كتاب عصرنا بشكل طبيعي أن يصوروا المجتمع تصويرهم للناس إن المجتمع أيضاً واقع حقيقي وليس واقعاً متخيلاً، لذلك فان جوهره ليس فقط تسريحات شعر وموضة ألبسة، بل أيضاً عادات وتقاليد ومفاهيم وعلاقات الخ »* وفي السوات التالية من حياته انتقل بيلنسكي، الذي اتجه تطوره الفكري بالاتجاه ذاته للفكر الفلسفي الأوروبي الغربي، **من هيغل إلى فيورباخ**. وهذا واضح تماماً في مقالته « **نظرة في الأدب الروسي عام ١٨٤٦)** حيث يشرح بعض الفرضيات الأساسية في فلسفة فيورباخ ويقول في المقالة نفسها منسجماً مع معتقداته الفلسفية الجديدة: « إذا سئلنا ما الذي يميز الأدب الروسي المعاصر، أجبنا صلته الكبيرة بالحياة، بالواقع، وانتقاله التدريجي إلى النضج والرجولة »** وفي مراجعة أدبية في السنة التالية، كتبها قبيل وفاته تماماً يحدد حالة أدبنا ومهماته كالتالي:

« كان أدبنا ثمرة التفكير الواعي، ظهر مبتكراً، وبدأ مقلداً ومع ذلك لم يقف هنا، بل خطا باستمرار نحو الشخصية الوطنية الأصيلة، خطا من الأدب الخطابي إلى الأدب **الطبيعي**. وهذا الكفاح، المتصف بنجاحات مستمرة، هو ما يؤلف معنى تاريخ أدبنا وروحه ونقول، من دون أي تردد، انه لا يوجد كاتب روسي نجح فيه هذا الكفاح مثل غوغول. وهذا يمكن أن يحدث فقط من خلال الفن المتصل بالواقع والبعيد عن كل مثل خيالية. ولهذا من الضروري أن نركز اهتمامنا على الحشد والجماهير، لتصوير الناس العاديين، وليس على الاستثناءات البهيجة للقاعدة العامة، التي تغوي الشعراء بالمثل والتي تحمل سمة غريبة. وهذه هي خدمة غوغول العظيمة.. فبعمله هذا غير الآراء في الفن نهائياً إن التعريف القديم للشعر على أنه « طبيعة مزخرفة » يمكن تطبيقه على مؤلفات جميع الشعراء الروس، ولكن من المستحيل تطبيقه على مؤلفات غوغول. إنها تتطلب تفسيراً مختلفاً للفن - الفن باعتباره إعادة انتاج الواقع بكل حقيقته. هنا قضية **الأنماط**، وهنا قضية **المثل** لا تفهم على أنها زخرفة (أي

---

* بيلنسكي، المؤلفات، موسكو ١٨٨٠ الجزء ٨ ص ٦٣

** المرجع السابق ص ص ٩ - ١٠.

تزييف)، بل على أنها علاقات الواحدة بالأخرى التي يضع المؤلف فيها الأنماط التي ابتكرها، تمشياً مع الفكرة التي يرغب تطويرها في كتابه »*

وافق تشيرنيشيفسكي بلا تحفظ على كل ما قاله بيلنسكي في هذا المقطع، وأفكار بيلنسكي تلك قدمت الأساس لآرائه حول المهات العامة للأدب الروسي ووضعه في مختلف مراحل تطوره إن مؤلف **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي** كان مؤهلاً لأن يعتبر نفسه متابعاً **قضية بيلنسكي**. وعندما أكد تورغنيف و« أبناء الأربعينات المثقفون أن تعاليم تشيرنيشيفسكي وأولئك الذين يشاركونه آراءه كانت خيانة لوصايا نقد بيلنسكي، تناسوا حقيقة أن هذا « الفيساريون المتهور في المرحلة الأخيرة من حياته عبر عن نفسه بروح تلك التعاليم. كان رأيهم مخطئاً كل الخطأ كانوا مصيبين بمعنى أن تشيرنيشيفسكي وأولئك الذين يشاركونه آراءه استخلص استنتاجات من أفكار بيلنسكي « المتنورة » التي مع كل صحتها المنطقية لا تنتمي إلى بيلنسكي الذي أبقى خلال حياته على قسم كبير مما أسماه بيساريف أخيراً « قشرة الهيغلية

ما حقيقة « الواقع الذي يتحدث عنه بيلنسكي في المقاطع التي اقتبسناها من مراجعاته السنوية للأدب الروسي؟ هل هذا المفهوم عن الواقع ينطبق على مفهوم « الواقع الذي تمت « المصالحة » معه؟

إذ يراقب بيلنسكي بإرتياح أن صحفنا تتحدث عن الواقع أكثر من أي شيء آخر، فيلاحظ: « ان مفهوم الواقع هو مفهوم جديد كل الجدة »** يقتبس تشيرنيشيفسكي هذه الملاحظة في الفصل السابع من **مقالات حول مرحلة غوغول**، ويجدها صحيحة كل الصحة. يقول إن مفهوم الواقع « كان محدداً، ودخل العلم حديثاً، أي منذ أن شرح المفكرون المحدثون التلميحات الغامضة في الفلسفة الأصولية (الترانسدنتالية) التي لا تقر بالحقيقة إلا بالتحقق الحسي »*** ويرى من الضروري بحث هذا الرأي في الواقع، وهو رأي جديد بسيط، لكنه مثمر، بشيء من التفصيل.

يقول: « كانت أزمان تعتبر فيها الأحلام والخيال أفضل بكثير من تلك التي تمثلها

---

* بيلنسكي، المؤلفات، المرجع السابق ص ص ٣٤٤ - ٣٤٥

** المرجع السابق ص ٣٣

*** تشيرنيشيفسكي، المؤلفات، المجلد ٢ ص ٥٠

الحياة، ونظروا إلى قوة الخيال على أنها لا تحد إلا أن المفكرين المحدثين درسوا هذه المسألة بعناية شديدة ووصلوا إلى نتائج كانت النقيض المباشر للآراء السابقة التي دلت أنها لا تصمد للنقد إن قوة خيالنا محدودة للغاية، وابداعاته ضعيفة وشاحبة بالمقارنة مع الواقع إن أعظم خيال فياض تسحقه فكرة تلك الملايين من الأميال التي تفصل الأرض عن الشمس، من سرعة الضوء والكهرباء، وأعظم الأشكال المثالية لدى رفائيل تصور الناس الحقيقيين، وأعظم الابداعات الميتولوجية والخرافات الشعبية كانت أشد شبهاً بالحيوانات المحيطة بنا منها بالحيوانات الضخمة التي اكتشفها علماء الطبيعة لقد أثبت التاريخ والدراسة العميقة للحياة الحديثة أن الناس الواقعيين، الذين ليسوا أبداً انذالاً ولا ملائكة بررة، يقترفون جرائم أشد فظاعة ويقومون بمآثر أشد نبلاً من أي شيء يبتكره الشعراء إن على الخيال أن يرضخ للواقع، وفوق ذلك انه مضطر إلى التحقق أن ابداعاته الخيالية ليست سوى نسخ من ظواهر الواقع »*

هذا هو الشيء ذاته الذي يقوله في أطروحته ويستمر في التفسير أن ظواهر الواقع مسوغة جداً إنها تتضمن ما يلائم مطلبات الانسان وما يتنافر معها

من قبل عندما ازدرى الناس الواقع اعتقدوا ان من السهل جداً اعادة تشكيله حسب أحلامهم الخيالية. عندئذٍ رأوا أن الأمر ليس كذلك إن الانسان ضعيف جداً كل قوته تعتمد على معرفة الحياة الحقيقية، وعلى قدرته على استخدام قوانين الطبيعة لصالحه الخاص وبعمل الانسان انسجاماً مع تلك القوانين ومع سمات طبيعته الخاصة، استطاع تدريجياً ان يغير الواقع، ويسخره لمساعيه. وإلا فانه لا يحقق شيئاً ومع ذلك فليس كل مساعي الانسان تتطابق مع قوانين الطبيعة. بعضها يخرق تلك القوانين والانسان في الحقيقة لا يحتاج أن يحقق هذه المساعي انها لن تجلب له سوى القلق والمعاناة. فكل شيء يخالف قوانين الطبيعة، بشكل عام، والطبيعة الانسانية، بشكل خاص، مؤذٍ ومؤلم للانسان. ولذلك لا يقوم الناس الواعون بمساع تتنافى وتلك القوانين. هذه المساعي نجدها لدى الناس الذين يستسلمون للأوهام الكسولة « إن المتعة الدائمة لا يوفرها للانسان إلا الواقع وحده، والرغبات القائمة على الواقع وحدها هي الرغبات

---

* المرجع السابق ص ٢٠٥ .

الهامة، ولا يمكن توقع النجاح إلا من الآمال التي يثيرها الواقع، ومن تلك الأفعال التي تدعمها القوى والظروف التي يقدمها الواقع »*

هكذا كان المفهوم الجديد عن « الواقع كان فيورباخ في ذهن تشيرنيشيفسكي عندما قال إن المفهوم الجديد تشكل على يد المفكرين المحدثين من التلميحات الغامضة في الفلسفة الأصولية (الترانسندنتالية) وقد شرح مفهوم فيورباخ عن الواقع بصورة صحيحة تماماً لقد قال فيورباخ إن الحسي أو الواقع متوحد مع الحقيقة، أي أن ﯨضوع في معناه الحقيقي لا يقدمه إلا الاحساس وقد افترضت الفلسفة التأملية أن مفهومات الأشياء القائمة فقط على التجربة الحسية لا تتطابق مع الطبيعة الواقعية للأشياء ويجب أن نتحقق من صحتها بمساعدة التفكير، أي ليس التفكير القائم على التجربة الحسية لقد رفض فيورباخ بشدة هذا الرأي المثالي وأكد ان مفهومات الاشياء القائمة على تجربتنا الحسية تتطابق كل المطابقة مع طبيعة تلك الموضوعات إن المشكلة فقط هي أن خيالنا غالباً ما يشوه تلك المفهومات التي تتناقض مع تجربتنا الحسية إن على الفلسفة أن تطرد من مفاهيمنا العنصر الوهمي الذي يشوهها، يجب أن نجعلها تتطابق مع التجربة الحسية يجب أن تعيد البشرية إلى التأمل في الأشياء الواقعية التي لم يشوهها الوهم، مثل تلك التي سادت في اليونان القديمة وحالما تصل البشرية إلى هذا التأمل، ترجع إلى نفسها، لأن الناس الذين يسسلمون لتلفيقات الخيال يمكن أن يكونوا أنفسهم كائنات خيالية لا كائنات واقعية ان جوهر الانسان في كلام فيورباخ هو الحسية، أي الواقع، وليس الخيال أو التجريد، إن مهمة الفلسفة والعلم بسكل عام اقامة الواقع في مكانة المناسب ولكن ان كان الأمر كذلك، يسح أن مهمات علم الجمال كفرع من العلم هي أيضاً اقامة الواقع في مكانه المناسب ومحاربة العنصر الخيالي في أفكار الانسان وعلى هذه النتيجة من فلسفة فيورباخ أقام سيرنيسيفسكي آراءه الجمالية، إنها تؤلف الفكرة الرئيسية لأطروحته ولا شك أن بيلنسكي كانت في ذهنه النتيجة ذاتها عندما، في احدى مراجعاته السوية الأخيرة في الأدب، وصف مفهوم « الواقع أنه مفهوم جديد

لا بد أن يكون المرء عادلاً مع بيلنسكي وتشيرنيشيفسكي إن النتيجة التي

---

* المرجع السابق ص ٢٠٦.

استخلصاها من فيورباخ كانت صحيحة كل الصحة. ولكن ما علاقتها بـ « التلميحات الغامضة للفلسفة الأصولية »؟

« العقلي » عند هيغل اعترف به فقط على أنه « واقعي أما عند فيورباخ فـ « الواقعي هو « العقلي » للوهلة الأولى يبدو أن كلاً من المفكرين يقول الشيء ذاته، ولكن عندئذٍ من الغريب ألا يرى تشيرنيشيفسكي سوى تلميح غامض في فكرة هيغل التي يجدها واضحة تماماً عندما يقابلها مع فكرة فيورباخ إلا أن القضية هي التالي:

« العقل » عند هيغل ليس سوى قانون التطور الموضوعي إن هيغل ينظر إلى هذا القانون من خلال موشور المثالية غالباً ما يشوه هذا الموشور العلاقة الفعلية للظواهر فيقلبها رأساً على عقب، حسب تعبير ماركس، ولهذا رأى هيغل أساس عقلانية الصراعات الذاتية هو تطابق تلك الصراعات مع المجرى المنطقي لتطور المجتمع الموضوعي وهنا تكمن القوة العظيمة لفلسفته، التي أحس بها بيلنسكي بصورة متمايزة عندما انتقل من « المثال المجرد إلى « الواقع العقلي عندما طالب فيورباخ الباحث اتخاذ موقف ثابت من الإحساس المتحرر من الاختلاقات الخيالية، إنما كان يترجم فكرة هيغل العميقة والصحيحة إلى اللغة المادية وعندما ترجم فيورباخ فكرة هيغل العميقة هذه إلى اللغة المادية شرحها ماركس فيما بعد، وغدت أساس التفسير المادي للتاريخ إن ترجمة فكرة هيغل هذه، عند فيورباخ وأتباعه المباشرين، بمن فيهم بيلنسكي وتشيرنيشيفسكي، إلى اللغة المادية كانت مختصرة جداً، فلم تكن هذه الفكرة واضحة عندهم. وأصبح شكلها غير الواضح، على الرغم من جوهرها المادي، مصدر موقف مثالي من الظواهر وقد جرى ذلك لأن الطلب الذي طلبه فيورباخ من الباحثين كان ذا طبيعة مزدوجة: أولاً أمرهم بتبني موقف ثابت من الواقع، ثانياً من أجل هذا الموقف الثابت شدد النصيحة بأن يحاربوا الاختلاقات الخيالية. فلنفرض باحثاً بسبب ظروف معينة مكاناً وزماناً ركز اهتمامه بصورة رئيسية على محاربة الاختلاقات الخيالية، فأنت ليس أمامك نظري يحاول العثور على أساس مادي للظواهر، بل أمامك « متنور يشن حرباً على الأفكار البالية باسم عقله الذاتي إن الظروف المكانية والرمانية اللازمة لهذا توفرت في روسيا منذ أن اضطر بيلنسكي، بعد فشله في توضيح فكرته عن النفي، أن يقنع بالنضال ضد الواقع باسم الحقوق

المجردة للفرد، وعندما كانت نظرة تشيرنيشيفسكي تتطور لذلك فإن بيلنسكي في المرحلة الأخيرة من نشاطه الأدبي، وتشيرنيشيفسكي من بدايته، أشاعا وإلى درجة كبيرة الآراء الأدبية المشوبة بالسمة المثالية لـ « المتنورين وبهذا المعنى كان بيلنسكي مصيباً تماماً عندما سمى « مفهومه عن الواقع مفهوماً جديداً في مراجعة أدبية أشرنا إليها أعلاه. بالفعل كان مفهوماً جديداً بالمقارنة مع فهم بيلنسكي الذاتي للواقع عندما كتب مقالته عن معركة بورودينو عندئذٍ فهم من هذه الكلمة المجموع العام للعلاقات الاجتماعية الموجودة في روسيا، وشعر أنه مضطر إلى أن يولي اهتماماً لتلك العلاقات لسبب بسيط هو أنه لم يكن قادراً أن يكتشف التناقضات الداخلية المتأصلة فيها ولكن بالنسبة إلى بيلنسكي الآن، ومن بعده تشيرنيشيفسكي أيضاً، فإن مفهوم الواقع لا يتطابق مع مفهوم المجموع العام كما هو قائم: لقد سمعنا من قبل من تشيرنيشيفسكي أن ما هو قائم إنما هو نتاج الخيال المتوجه خطأ إلى الواقع ولا صلة له به. وهكذا في هذه الحالة، طالما أنهما « متنوران فإن الاهتمام بالواقع يعني أولاً الاهتمام بما قائم ويجب أن يقوم عندما يحرر الناس أنفسهم من الاختلاقات الخيالية ويشرعون يطيعون قوانين طبيعتهم الخاصة. وعلى الرغم من هذا، إذا ألح كل من بيلنسكي وتشيرنيشيفسكي على أن تقدم الرواية صورة دقيقة لما هو قائم، فإنهما يفعلان ذلك لاعتقادهما أن الرواية إذا كانت أشد دقة في تصوير العلاقات المتبادلة بين الناس، فإن الناس سرعان ما سوف يرون أن تلك العادات غير عادية وسرعان ما يتمكنون من تحسينها حسب متطلبات طبيعتهم الخاصة، أي إذا أردنا دقة أكثر حسب تعاليم العقل الذاتي لـ « المتنورين ». ولذلك لا عجب أن كلاً من تشيرنيشيفسكي وبيلنسكي اعتبرا أن المهمة الأولى للنقد الأدبي هي أن يشرح للناس ما هو غير طبيعي في علاقاتهم المتبادلة التي صورتها الرواية. وفي مكان آخر في وصفنا لآراء بيلنسكي في مرحلته الأخيرة من نشاطه الأدبي شددنا على أنه في الحقيقة أصبح « متنوراً » فقط عندما تخلى عن النظرة الديالكتيكية، التي لم تتوقف عن ملاحقته حتى آخر عمره وأشرنا في المكان ذاته كيف قدم بيلنسكي أحياناً، بصورة ناجحة تفسيراً ديالكتيكياً للظواهر الأدبية* ونلفت الانتباه إلى هذا ثانية هنا لأننا لا نرغب في تفسير أحادي الجانب لما قلناه عن

---

* أنظر مقالتنا « آراء بيلنسكي الأدبية في مجموعة عشرون عاماً

بيلنسكي. نكرر كان بيلنسكي ذا نزعة ديالكتيكية قوية جداً، أقوى حتى من فيورباخ، وحتى في المرحلة الأخيرة من نشاطه لم يعلل أبداً كـ «متنور ولكن عندما أوغل في نظرة «المتنور عبر بموهبته المعتادة عن الآراء التي طورها نقدنا في الستينات، أي تشيرنيشيفسكي وروبروليوبوف بشكل رئيسي وهذا هو السبب في أننا سميناه أبا «المتنورين».

إن كل ما أبقاه بيلنسكي، الذي أعلن نفسه «مسوراً بوصفه وتطويره مفهومه «**الجديد**» عن الواقع، لتشيرنيشيفسكي هو السير أبعد في الاتجاه ذاته. وحتى نبين كيف التزم تشيرنيشيفسكي بهذا الاتجاه وكيف كان مخلصاً لوصية سلفه العظيم «التنويرية سوف نقتبس رأيه بشلر الذي نأخذه من ملاحظته البيبليوغرافية على مؤلفات شلر التي ترجمها شعراء روس (**السوفريمينيك** ١٨٥٧ العدد ١)

يقول هناك: «شعره لن يموت أبداً – هذا ليس روبرت ساوتي ولا هربل. إن الذين يتباهون لكونهم إيجابيين، في حين أنهم في الحقيقة غلاظ القلوب، لمعرفتهم بالحياة، في حين أنهم لا يعرفون سوى أحابيل قليلة، ويتحدثون عن شلر كأنه مثالي أو حالم، أو حتى يجرؤون على القول إنه عاطفي أكثر منه موهوباً كل هذا يمكن أن يكون صحيحاً إذا كان الأمر يتعلق ببعض الشعراء الذين يعتبرون في بلادنا منتمين إلى الاتجاه ذاته الذي يمثله شلر ولكن ليس فيما يتعلق بشلر نفسه. إنه هو نفسه يصف طبيعة شعره في **رسائل في التربية الجمالية للإنسان**، باسطاً أفكاره عن الأهمية الأساسية للشعر عامة وقد كتب هذا الكتاب في ١٧٩٥، في مرحلة الحروب الفرنسية، عن الحصيلة التي لا تعتمد فقط على الاستقلال السياسي أو إخضاع المانيا، بل أيضاً على حل المسائل المتعلقة بالحياة الداخلية للشعوب الألمانية. وقد سعى شلر فيه أن يبين أن الطريق إلى حل المسائل الاجتماعية كان من خلال النشاط الجمالي ففي رأيه أن الولادة الثانية الأخلاقية للإنسان كانت ضرورية حتى تغير العلاقات القائمة نحو الأفضل: فتنظيمها يمكن أن يتم فقط عندما يصبح القلب الإنساني نبيلاً إن النشاط الجمالي كان الوسيلة لتلك الولادة الثانية. إنه يمنح الحياة الفكرية مراجاً نبيلاً إن المبادىء الصارمة للنبل الروحي تخيف الناس عندما يشرحها العلم الدقيق إن الفن يغرس في الإنسان بصورة لا شعورية مفاهيم القيمة التي يرفضها عندما تبدو له في غير لباس شعري إن الشعر

بمثله يقدم الواقع الأفضل: بغرس الدوافع النبيلة في الشباب، يهيئهم لنشاط عملي نبيل.

« هذا هو في الحقيقة شعر شلر إنه ليس عاطفية، أو مسرحية خيالية: إن العواطف في هذا الشعر هي تعاطفه مع كل ما هو نبيل وقوي في الإنسان»*

إن الشعر هو وسيلة للولادة الأخلاقية الثانية للناس. واللباس الشعري ضروري حتى نغرس في الناس مفاهيم القيمة التي لن يستطيعوا تقديرها إذا هم رأوها في غير لباسها الشعري. هذه هي فكرة تشيرنيشيفسكي الرئيسية. إنه يقدر شلر من هذه الناحية. إن شلر عزيز عليه كإنسان يسعى من أجل التربية الأخلاقية للناس عن طريق الأعمال الفنية. إن أهم الكلمات في المقطع الذي اقتبسناه هي « إن الشعر يقدم بمثله الواقع الأفضل ». هنا عبر عن المفهوم الجديد للواقع الذي يميز المتنورين بوضوح خاص. إن واقعاً أفضل يخلقه المثال الأعلى. هذا الرأي متعارض كل التعارض مع الرأي القائل إن المثل العليا تؤثر في الواقع فقط عندما تعبر عن الاتجاهات الموضوعية لتطوره. الشعر يغرس الدوافع النبيلة في الشباب، ولذلك يهيئهم للنشاط النبيل. والنقد بدوره يساعد الشعر أن يفعل هذا وبذلك يتحول أحياناً إلى ما يسمى في بلادنا النقد الصحفي.

كل واحد يعرف أن نقد الستينات، نقد دوبروليوبوف، مثلاً، تطور عادة عن طريق الصحافة. ولذلك في حديثنا عن تشيرنيشيفسكي لن نقدم البراهين لهذه الفكرة كتوضيحات لها في ١٨٥٨ ظهرت مقالة تشيرنيشيفسكي « الروسي على موعد. تأملات في رواية تورجنيف آسيا » في قسم المراجعة في أثينايوم العدد ٣ هذه المقالة مثال من جملة الأمثلة الساطعة عن النقد الصحفي قيل القليل جداً، أولم يقل شيء في المقالة عن الرواية نفسها، التي سماها تشيرنيشيفسكي « القصة الوحيدة الجديدة الجيدة ». إن المؤلف فقط يلفت الانتباه إلى المشهد الذي يقدم فيه بطل القصة بيانه عن حبه لآسيا، ومع هذا المشهد يغرق في « التأملات ». إن القارىء سوف يتذكر بالطبع أن بطل تورجنيف في الوقت الحرج ينقلب جباناً ويتراجع عن كلمته. هذه الحالة هي التي دفعت تشيرنيشيفسكي إلى « التأمل ».يلاحظ أنالحيرة والجبن من السمات المميزة ليس

---

* المؤلفات، المجلد ٣، ص ٥.

لهذا البطل، بل لمعظم أبطال مؤلفاتنا الأدبية الكبرى. إنه يذكر رودين وبلتوف ومعلم ساشانكراسوف(١١٨)، ويرى فيهم السمات ذاتها ولا يلوم مؤلفي الروايات على هذا طالما أنهم كانوا يسجلون ما يواجهونه في الحياة الواقعية. ليس ثمة رجولة في الشعب الروسي، ولذلك لم تمتلكها شخصيات الروايات والشعب الروسي لا يمتلك رجولة لأنه لا يساهم في الحياة العامة «عندما نسير في المجتمع نرى حولنا أناساً في لباس موحد وفي لباس الصباح أو المساء المدني، طولهم خمسة أو ستة أقدام، وأحياناً أكثر، إنهم يطلقون أو يحلقون الشعر عن وجناتهم وشفتهم العليا وعن ذقونهم، ويتراءى لنا أننا ننظر إلى رجال. هذه خطيئة كبيرة، وهم بصري، هلوسة ولا شيء أكثر إن الطفل الذكر يكبر مِن غير أن يعرف عادة المشاركة الكافية في الشؤون المدنية، من غير أن يعرف مشاعر المواطن، ويصبح كهلاً، ثم كائناً كبيراً من النوع المذكر، ولكنه لا يصبح رجلاً في أي مرحلة، ولا رجلاً بشخصية نبيلة»* إن غياب الرجولة النبيلة بين الناس المثقفين تصيب المرء أكثر منها بين الجاهلين، لأن الرجل المثقف يحب أن يتحدث عن أمور هامة إنه يتحدث بحماسة وفصاحة فقط إلى أن تصبح القضية قضية انتقال من الأقوال الى الأفعال. «وطالما أنه ليس ثمة مسألة عمل، بل مسألة حاجة إلى ملء ساعات الفراغ، أو الفكر الفارغ، أو القلب الخاوي بالحديث والأحلام، فالبطل زرب اللسان، ولكن حالما تتعلق القضية بالتعبير عن مشاعره بدقة وبساطة فإنه، ومعظم الأبطال، يشعر بالتردد ويرتبط لسانه. قلة، وهم الأشجع، يستجمعون قواهم ويتلعثمون فيعبرون بغموض عن فكرة غامضة من أفكارهم. ولكن حاول أن تقف على رغائبهم جهارة وقل لهم: «أنت تريد كذا وكذا ونحن مسروورون لذلك، ابدأ واعمل شيئاً ما وسوف تلقى دعمنا إن قدمت هذه الملاحظة فإن النصف الأول من الأبطال الشجعان يغمى عليهم، والنصف الآخر منهم يشرعون يلومونك لفظاظتك لأنك وضعتهم في وضع محير، إنهم يقولون إنهم لم يتوقعوا مثل هذه المقترحات منك وإنهم مرتبكون تماماً وأنهم لا يستطيعون تركيز تفكيرهم لأن من غير الممكن أن يفعلوا ذلك في اللحظة المطلوبة، وأنهم أناس شرفاء، وليس فقط شرفاء بل لطفاء، ولا يريدون أن يسببوا أي إزعاج وأن من غير الممكن فعلاً أن يرعجوا أحداً حول كل ما قيل فقط لأنهم ليس أمامهم

---

* المؤلفات، المجلد ١، ص ص ٩٧ - ٩٨.

ما يفعلونه، ومن الأفضل عدم التصدي لشيء على الإطلاق لأن كل شيء يصمس إزعاجاً، ولا خير يمكن أن يأتي مه الآن، لأنهم، كما قيل سابقاً، لم يتوقوا ذلك لحظة ولم يشاركوا فيه، وهلمجرا »*

يمكن القول إن الصورة رسمت بيد معلم. إن المعلم لم يكن ناقداً أدبياً بل كان صحفياً و« التأملات » التالية لمؤلفنا عن قصة تورجنيف هي لصحفي. إن الحدث الذي صوره تورجنيف يجعله يتذكر أن كل شيء يعتمد كلياً على الظروف وأن ما نراه جرماً شخصياً هو في الحقيقة حظه العاثر، الذي يتطلب مساعدة في القضاء على الظروف التي سببته. « والمطلوب ليس عقاب الفرد، بل تغيير شروط الحياة لكل الطبقة ». إن بطل قصة آسيا ليس فقط غير أحمق، بل مثقف عارك ورأى الكثير في الحياة. فاذا كان يتصرف بغباورة، فان هذا يرجع إلى ظرفين، الأول يشترط الثاني: « لم يكن معتاداً أن يفهم أي شيء عظيم وهام، لأن حياته كانت تافهة وقاسية جداً هذا أولاً أما الثاني فهو أنه يخضع ويتراجع بضعف أمام أي شيء يتطلب حسماً جريئاً ومخاطرة نبيلة، أيضاً عودته الحياة الخوف من كل شيء »** حتى نغير الشخصية الانسانية من الضروري أن نغير الشروط التي تكونت الشخصية تحت تأثيرها هذه الفكرة الصحيحة التي شغلت حيزاً هاماً من تعاليم المتنورين الفرنسيين في القرن الثامن عشر، والاشتراكيين الطوباويين في القرن التاسع عشر تستدعي السؤال التالي: ماذا ستكون طبيعة وأصل الأسباب التي تغير إلى الأفضل الظروف التي تحدد الطبيعة الانسانية؟ يجيب ماركس عن هذا السؤال بالاشارة الى التطور الاقتصادي للمجتمع، وباجابته هذه أحدث ثورة في العلوم الاجتماعية. إن تشيرنيشيفسكي، مثل الاشتراكيين الطوباويين، الذي لم يطرح على نفسه هذا السؤال، يقترب مه كثيراً في مقالة « الروسي على موعد ». والحقيقة، إذا كانت الأغلبية العظمى من « الانسانيين و« المثقفين عدنا يحبون فعلاً بطل قصة تورجنيف، إذا كانوا جميعاً يتصرفون بغباء وتردد، لأنهم غير قادرين على العمل المثقف الحاسم، فان من الحمق وقصر النظر معاً أن ندعوهم الى هذا العمل. فإذا اهتم الانسان بهم، فلا بد من أن تتغير إلى الأفضل الظروف التي

---

* المرجع السابق ص ص ٩٠-٩١

** المرجع السابق ص ٩٧.

عليها تقوم شخصيتهم. ويشعر تشيرنيشيفسكي نفسه بهذا، ولكنه لا يقر إنه لا يمكن أن يكون الأمر غير ذلك. يقول: «سوف نظل غير راغبين في أن نقول لأنفسنا: في الوقت الحاضر يعجزون عن فهم وضعهم، لا يستطيعون أن يعملوا بشكل واع وكريم أولادهم وأحفادهم فقط، إذا ما تربوا في مفاهيم وعادات مختلفة، سيكونون قادرين أن يتصرفوا كمواطنين وواعين كرماء لا فنحن لا نزال نفترض أنهم قادرون على فهم ما يحدث لهم وحولهم. »*

ماذا يعني هذا؟ لماذا لا يريد تشيرنيشيفسكي أن يعترف بنتيجة هذا الطرح النظري الصحيح الذي لا يجادل فيه؟ هذا أيضاً يعتمد على «الظروف»، أي على مجموعة «الظروف» التي تسم السنوات التي تلت على الفور الغاء القنانة في بلادنا

رأى تشيرنيشيفسكي في بطل آسيا ممثلاً نموذجياً للقطاع المثقف من نبلائنا إنه لا يملك، والحقيقة لا يستطيع أن يملك، ميلاً طبقياً لصالح النبلاء يقول ملمحاً إلى افتقاده نشأته النبيلة: «لم يكن لنا شرف أن نكون من أنسبائه، فكان بين عائلتينا عـداء قائم، لأن عائلته تحتقر كل ما هو عزيز علينا »** ولكنه يوافق على أن لديه ميولاً ثقافية لصالح النبلاء، يعتقد - ويلاحظ «أنه حلم فارغ ولكنه لا يقاوم» - أن النبيل الذي صورته قصة تورجنيف قام بخدمات لمجتمعنا، ذلك أنه ممثل« التنوير ولذلك ما يزال تشيرنيشيفسكي يريد من «بطلنا ومستشاريه أن يكونوا ممتازين وان يقدم لهم بعض النصائح إن تغيراً جذرياً في وضعهم التاريخي قد تهيأ، أما الباقي فيعتمد على ارادتهم. يقول تشيرنيشيفسكي مقدماً نفسه لهؤلاء «المحترمين»: «سعادتكم أو عدم سعادتكم تعتمد على ما إذا كنتم قادرين على استخدام مركزكم الذي أنتم فيه الآن »*** أما بالنسبة إلى مطالب العصر فإنهم في رأيه يلحون في تقديم تنازلات للفلاحين. ويحذر تشيرنيشيفسكي السادة «المحترمين» باقتباس من الانجيل: «صالح عدوك سريعاً ما دمت معه في الطريق، وإلا فان الخصم يسلمك إلى القاضي ويسلمك

---

* المرجع السابق ص ص

** المرجع السابق ص

*** المرجع السابق ص ١٠١.

القاضي إلى الشرطي فتلقى في السجن. الحق أقول لك إنك لن تخرج من هناك حتى تدفع آخر فلس » (متى - الاصحاح ٥ الآتيان ٢٥و٢٦)*

من الواضح أن كل نتيجة نظرية تتعلق بقدرة الطبقة الاجتماعية المعينة أو القطاع الاجتماعي في القيام بفعل عملي محدد تتطلب دائماً درجة معينة من الصحة التي تؤكدها التجربة، وبالتالي يمكن اعتبار الحقيقة شيئاً مسبقاً فقط ضمن حدود واسعة تقريباً وهكذا مثلاً من الممكن أن نتنبأ بتأكيد مطلق أنه حتى القطاع المثقف من النبلاء يرفضون التضحية بمصالحهم من أجل الفلاحين. مثل هذا التنبؤ لا يتطلب اثباتاً عملياً ولكن عندما كان من الضروري أن نقرر إلى أي مدى كان النبلاء المثقفون قادرين على تقديم التنازلات للفلاحين على حساب مصالحهم الخاصة، لا أحد يمكنه القول بتأكيد جازم: لن يسيروا في ذلك الاتجاه أبعد من الحد كذا أو كذا هنا من الممكن دائماً الافتراض أنه تحت ظروف معينة سوف يتقدم النبيل المثقف أكثر قليلاً، بعد أن يتوصل إلى فهم صحيح نوعاً ما للمصالح الخاصة. ولأنه عملي، كما كان تشيرنيشيفسكي في هذه الحالة، لم يكن باستطاعته إلا أن يحاول اقناع طبقة النبلاء أن تنازلات معينة للفلاحين المحررين لا بد منها من أجل مصالحها الخاصة. وهكذا فإن ما يبدو تناقضاً في مقالته - المطالبة باتخاذ خطوة حكيمة حازمة، من قبل من يملكون الحكمة والحزم، مقبولة هنا وقد فسرت على أنها نتيجة ضرورية للظروف - ليس تناقضاً أبداً مثل هذه التناقضات الموهومة يمكن أن نجدها أيضاً في الممارسة العملية للناس الذي يتبنون موقفاً ثابتاً من التفسير المادي للتاريخ ولا بد، على أي حال، من تقديم تحفظ ضروري هنا فعندما يطبق المادي نتائجه الضرورية في الممارسة بشيء من الحذر، فانه يستطيع أن يضمن أن نتائجه تتضمن عنصراً معيناً من التأكيد المسلم به وهذا لأنه عندما يقول: « كل شيء يعتمد على الظروف »، يعرف من أي جانب يتوقع المرء ظهور ظروف جديدة تغير ارادة البشر في الاتجاه الذي يتمناه، يعرف تماماً أنها، في التحليل الأخير، متوقعة في جانب « الاقتصار وأنه كلما كان تحليله للحياة الاجتماعية الاقتصادية صحيحاً، ازدادت الثقة بتنبئه عن التطور القادم للمجتمع ان الأمر ليس كذلك مع المثالي، الذي يقتنع أن « الأفكار تحكم العالم إذا كانت

---

* المرجع السابق ص ١٠٢ .

« الأفكار » السبب الاساسي للحركة الاجتماعية، فان الظروف التي يقوم عليها تطور المجتمع، مرتبطة بشكل رئيسي بالنشاط الواعي للناس، بينما أي تأثير عملي على هذا النشاط يقوم على قدرة الناس على التفكير منطقياً وامتلاك الحقائق التي اكتشفتها الفلسفة أو العلم. إلا أن هذه القدرة نفسها تعتمد على الظروف. وهكذا فان المثالي الذي يعترف بالحقيقة المادية وهي أن شخصية الانسان وكذلك آراؤه تعتمد على الظروف، يجد نفسه في حلقة مفرغة: الآراء تعتمد على الظروف، والظروف تعتمد على الآراء إن ايمان « المتنور » بالنظرية لم يكسر هذه الحلقة المفرغة. إن حل التناقض عملياً كان عادة باللجوء إلى كل الناس المفكرين، بغض النظر عن الظروف التي يعيش في ظلها هؤلاء الناس وما نقوله الآن يبدو غير ضروري ولهذا السبب فهو استطراد إلا ان هذا الاستطراد ضروري. إن فهم طبيعة النقد الصحفي في الستينات سوف يساعدنا

بما أن آمال « المتنور متعلقة بالارادة الطيبة والفكرية للمثقفين، أي بالنتيجة « المتنورين أنفسهم فان من الواضح أن النقاد الراغبين في تأييد هؤلاء الناس سيطلبون من الرواية قبل كل شيء وصفاً دقيقاً للحياة الاجتماعية، بعجرها وبجرها، بظواهرها « الايجابية » و« السلبية ». فقط الصورة الدقيقة لكل نواحي الحياة يمكنها أن تمد « المتنور » بالمعطيات الفعلية التي تلزمه لاصدار حكمه على تلك الحياة. ولكن هذا ليس كل شيء اننا نعرف أن نقد الستينات طالب الرواية بموقف يقظ من الحالات « السلبية » أكثر من الحالات « الايجابية » للحياة. وعزز طلبه بحجة أن الظواهر « السلبية » تنوف على الظواهر « الايجابية » في حياتنا الاجتماعية. هذه الحجة صحيحة في حد ذاتها ومع ذلك لا تفسر أي شيء على الاطلاق. إن الظواهر « السلبية » تنوف على الظواهر « الايجابية » في بلادنا في السبعينات كما في الستينات، ومع ذلك فان النارودنيك لم يكونوا مرتاحين لتصوير الحالات السلبية في حياتنا الاجتماعية، واعتقدوا أن على الفنانين أن يصوروا الحالات الايجابية أيضاً ان هذا ينطبق على الأقل على الفنانين الذين رموا إلى تصوير حياة الناس، على من يزعمون أنهم الأدباء الخلص للنارودنيك. إن كثيراً من قراء السبعينات فضلوا زلاتوفرانسكي على أوسبنسكي لأن زلاتوفراتسكي ببساطة، حسب زعمهم، فسح حيزاً كبيراً في مؤلفات لما اعتبره النارودنيك الظواهر السارة في الحياة الفلاحية (تصوير الفطرة

الكوميونية لدى الفلاحين)، بينما أولى اوسبنسكي اهتمامه للظواهر المحزنة (تصوير الفردية النامية في الفلاحين). ولذلك فان كلا من القراء والنقاد «التقدميين» في السبعينات كانوا، كما سوف نرى من المثال الذي نضربه، غير عادلين مع روائينا في العقد السابق الذي اهتم بحياة الشعب. لقد اعتقدوا أن هذه الرواية ليس فقط لم تأبه بالشعب، بل احتقرته أيضاً ولم يكن الأمر هكذا ثمة سوء فهم واضح هنا إلا أن سوء الفهم هذا بارز جداً، فلا بد من أن نكشف سببه النفسي

إذا كان نارودنيك السبعينات طالبوا الرواية أن تصور الظواهر السارة في حياة الفلاح، فإن هذا، الذي يمكن القول إنه مستعار من الكتاب المقدس، كان ينبوع الحكمة المادية. لقد تحقق النارودنيك من قبل - بشكل غامض ولكنهم على أي حال تحققوا، أو على الأقل طفقوا يتحققون - أن العالم يحكم فقط بالأفكار التي تعبر عن المجرى الموضوعي لتطور هذا العالم. إن هذا هو ما يفسر اهتمام النارودنيك الشديد بالظواهر «السارة في حياة الفلاح لقد تمنوا أن يجدوا في تلك الظواهر ضمانة موضوعية لانتصار مثلهم في المستقبل. وهذا هو سبب اكفهرارهم من أوزبنسكي، الذي بين لهم أن هذه الضمانة الموضوعية لا يمكن تحقيقها كما اعتقدوا إلا أن «متنور السيتيات لم يبحث عن أي ضمانات موضوعية لانتصار مثاله: فقوة الحقيقة عنده والصحة المطلقة لـ «الرأي هما الضمانة الأكيدة لهذا الانتصار وكلما كشفت الرواية في عصره بلا رحمة عيوب الحياة وطبيعة البشر، كان ذلك أفضل، لأن في ذلك مؤشرات لما يجب أن يصححه، هو «المتنور هذه السمة للسيكولوجيا «التنويرية» انعكست في النقد أيضاً

في ١٨٦١ نشر مجلد من قصص أوسبسكي التي راجعها تشيرنيشيفسكي في مقالة «أليس هذا بداية تغير؟ في عدد تشرين الثاني من السة ذاتها في **السوفريمنييك**. لقد أثنى على قصص أوسسكي لأنها لم «تزخرف العادات والمفاهيم الشعبية». فعنده أن تورجنيف وغريغوروفتش كانا مخطئين في زخرفة حياة الشعب في قصصهما قارن بين موقف هذين الكاتبين من الشعب بموقف غوغول من أكاكي أكاكيفيتش[١١٩] إن غوغول لم يسر إلى عيوب بطله، لأنه يعتبر تلك العيوب لا يمكن إصلاحها بمجموعها «كان أكاكي أكاكيفيتش معتوهاً بليداً إلا أن أخبار الحقيقة كلها عن أكاكي

أكاكيفيتش تفاهة. إنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً لنفسه فلنوكل ذلك إلى الآخرين. ولكن إذا أخبرنا الآخرين بكل شيء عنه، فان عواطفهم ستضعف إذ يعرفون عيوبه. فلنلزم الصمت عن هذه العيوب »* وقد اتخذ كل من تورجنيف وغريغوروفيتش واتباعهما الموقف ذاته من الشعب لقد ظهر الشعب في كتاباتهم في شكل أكاكي أكاكيفيتش الذي يمكن أن يشقق عليه الانسان، من غير ملامة انهم يتحدثون عن حظه العاثر فقط: « انظر خنوعه وذله، صموت يتحمل الاهانات والآلام! انظر كيف يرفض كل ما هو للانسان، يا لها من رغائب متواضعة، ومصادر شحيحة كافية لارضاء هذا الكائن المسحوق، الذي يبدو لنا بمثل هذا الوقار، المستعد للتباهي بامتنان كبير لنا من أجل أقل مساعدة نقدمها، من أجل أقل اهتمام، من أجل كلمة واحدة تخرج من شفاهنا اقرأ قصصاً عن حياة الفلاحين كتبها غريغوروفيتش وتورجنيف وكل مقلديها - جميعهم خرجوا من معطف أكاكي اكاكيفيتش »** إن كل هذا نبيل جداً ولكنه لا يفيد الشعب إنه يفيدنا فقط، نحن الذين نفرح بمعرفة ما هو خير فينا لقد رحب تشيرنيشيفسكي في شخص أوسبنسكي بظهور طبقة جديدة من الروس المثقفين الذين اختلف موقفهم من الشعب عن الموقف العاطفي للطبقة العليا وقد استبشر تشيرنيشفسكي خيراً عمياً من هذه الطبقة المثقفة، بشكل عام، ومن الأدب الذي يمكن أن تخلقه بشكل خاص. هذا الأدب نظر إلى الفلاح بوقار كما يفعل الناس من مرتبة أخرى. إن تشيرنيشيفسكي يحاول أن يقنع قراءة أن هذا ما يجب أن يكون يقول: « فلننس من ينتمي إلى الطبقة العليا، لننس التاجر أو البرجوازي الصغير، فلننس الفلاح، فلننظر إلى أي انسان على أنه من الشعب البسيط، ولنحاكم كل واحد وفقاً للسيكولوجيا الانسانية، فلا نسمح لأنفسنا أن نخفي الحقيقة عن أنفسنا من أجل طبقة الفلاحين »***

يوافق تشيرنيشيفسكي أن أوسبسكي « قدم الروسي العامي على أنه غبي يرى من الصعب أن يدخل في رأسه فكرتين في وقت واحد ويتساءل: « هل يفوقنا الفلاح

---

* المؤلفات المجلد ٨ ص ٣٤٢

** المرجع السابق ص ٣٤٢

*** المرجع السابق ص ٣٤٥.

سرعة فهم؟ إن كل واحد يقول الشيء ذاته عن الفلاح الألماني أو الفلاح الفرنسي والفلاح الانكليزي فربما كانا أقل مستوى. لقد تميز الفلاحون الفرنسيون بسمعة عريضة لبلادتهم المرعبة. واشتهر الفلاحون الايطاليون بعدم مبالاتهم بالقضية الايطالية »*

ولكن لا حاجة إلى الحديث عن الفلاحين: لانهم، حسب ما يقوله تشيرنيشيفسكي « من الطبيعي أن يلعب الفلاحون دوراً متوحشاً في التاريخ لأنهم لم يخرجوا « حتى الآن من المرحلة التاريخية التي ظهرت فيها قصائد هومر، الأغاني الدنيية وأغاني البطولة »[١٢٠]** إن أغلبية الناس من كل الطبقات وكل الأقطار يعيشون برتابة وتظهر بلادتهم حالما يخرجون من دائرة أفكارهم المعتادة: « بعد كل مناقشة أسأل أياً من المتناقشين فيما إذا كان خصومه تفوهوا بأشياء ذكية، وفيما إذا كانوا سريعي الفهم ويتلقون أفكاره. سوف يخبرك شخص من آلاف الأشخاص أن أفكاره قوبلت بأفكار ذكية. أما بقية الأشخاص فهناك شيئان: اما أن الأشخاص الذي كان الشخص المعني يناقشهم أغبياء حقاً، أو أنه نفسه كان غبياً وهذه المعضلة تشمل الألف من غير استثناء ولو واحداً »***

هنا نجد الفكرة ذاتها من أن الجماهير تتخلف عن جيش الميدان، التي سبق وشرحناها بالتفصيل في مقطع سابق. إن المشاركة الحقيقية في الحركة لا يقوم بها إلا الأقلية المفكرة أي الانتلجسيا، حسب التعبير الحديث الضرورية لمعرفة جميع عيوب الجماهير، ولإزالة هذه العيوب مع الزمن. لقد كان تشيرنيسيفسكي مخطئاً في اعتقاده أنه لا غبار على هدا الموقف من الجماهير ولا عجرفة فيه ولكنه بالتأكيد يضمن عنصراً قوياً جداً من العجرفة، لا بد من أن يكون موجوداً عند كل الذين يعتنقون وجهة النظر المثالية.

من المهم أن واحداً من أعظم نقاد العقد التالي، السيد سكابيسيفسكي، الذي اقتبسنا منه من قبل، لا يتفق وتشيرنيسيفسكي في تقدير قصص أوسبنسكي إنه يرى

* المرجع السابق ٣٥٦

** المرجع السابق ص ٣٥٦ وانا نقدم هذه الكلمات للفت انتباه التنويري ايفانوف رازوميك، الذي يعتبر سيرنيسيفسكي واحداً من النارودنيه الروسه

*** المرجع السابق ص ٣٥٦.

أن القصص تصور الناس بصورة بسعة. يقول: «الانسحاق والبلادة وغياب أي شبه انساني في أبطال أوسبسكي شيء مذهل عدما يقرأ المرء مساهده. إن المرء يرى الناس إياهم لا شيء يسوقهم في حياتهم سوى الجلافة والحسية الوحشية، إنهم لا عمل لهم سوى كسب الكوبيك أو إنفاقه في خمارة، وحتى في هذا المسوى من الطموحات فإنهم يقومون بكل ما هو غبي في كل خطوة »*

تعليق سكابيسيفسكي صحيح تماماً، مثل الكثير من تعليقاته الأخرى. أن مؤلفات أوسبسكي لا تخلو من المبالغة. هذا صحيح، ولكن فكرة الفلاحين التي عراها إليه سكابيسيفسكي بعيدة جداً عن هذا المنحى وسوف نسأله، مثلاً، فيما إذا كانت والدة الفلاح التي صورها أوسبسكي في قصته **العجوز** غبية حقاً وفظة وتشبه الحيوانات** سوف نسأله إذا كانت المرأة في قصة **كاترينا** حقاً بسعة*** إنه لمن العجب أن سكابيسيفسكي لم يلاحظ المشاهد الرائعة في القصة الطويلة **ساشا****** إن أوسبسكي لا يحتل مكانة في أدبنا مثل تيبيرز وأوستاد (حسبما يقول أننكوف) في تاريخ الرسم الهولندي أولاً لم يكن مساوياً لهما في الموهبة، ثانياً إن له موقفاً من الواقع الذي صوره إنه ممثل نموذجي لعصر السيبات، أخذ على عاتقه تصوير حياة الناس إنه حقاً لم يقصد السخر من الفلاح الروسي في مؤلفاته. ذلك أنه شعر بعاطفة قوية نحوه على طريقته الخاصة، ويمكن معرفة ذلك بسهولة إذا كلف المرء نفسه عناء قراءة مؤلفاته بعناية إلا أنه يتعامل مع الناس بطريقته الخاصة أي كـ « مسور أي كإنسان لا يسعر بالحاجة إلى جعل التخلف شيئاً مثالياً فإذا رأى سمات بسعة في شخصية الفلاح، نقلها إلى لوحته من دون تردد، عارياً إياها إلى « الظروف التي طالما يتحدث عنها سيرنيسيفسكي يقول في كتابه **ملاحظات عن مزارع ريفي**: « ذلك أن الفلاح، الذي تربى في القنانة، لا يستطيع فجأة أن يصبح حراً بالمعنى الحقيقي للكلمة، وحالما تلاشى ضباب القنانة، رأينا فلاحنا عديم الشخصية. الفلاح فقير كالنابو - وسوف يحتاج

---

* سكابيسيفسكي المرجع المذكور ٢٢٧

** أوسبسكي، المؤلفات، موسكو، ١٨٨١ المجلد الأول

*** المرجع السابق المجلد ٢

**** المرجع السابق المجلد ١ ص ص ٤١٧ ٥١٢

إلى وقت طويل جداً حتى يتعافى من انحطاط القنانة. ولكن كيف يعافى؟ إن البدء من نقطة الانطلاق عمل مخادع جداً إن التعبير عن هذه الفكرة لا يعي إطلاقاً السخرية من الناس ولكن هذه الفكرة لا يمكن أن يقبلها النارودنيكي - ولا « الذاتي الذي تشرب بكل غرور النارودنيك - المقتنع جداً أن الفلاح ابدأ ليس من « نقطة البداية بل من الكوميون الذي كان الدافع الأوحد الذي أخذت الانتلجنسيا التي يحبها الناس جداً سطلق مىه من أجل التطوير السريع في اتجاه المثال الاشتراكي لقد عبر أوسبسكي عن نفسه بسكل مؤكد فقد كتب مثلاً « لا شيء نتوقعه من فلاحي اليوم الدين كانوا لأمد غير بعيد ضحايا القنانة. إنهم لن يىهضوا إن الدواء لا يسفي الضمور، لأن المرض ناجم عن تلف عضوي... »** إن من الصعب على « أبناء السبعينات الموافقة على هدا وهذا بالضبط ما فسح المجال للنقاد في تلك المرحلة من اتخاذ موقف معاد لأوسبسكي

سوف يتساءل القارىء ولكن هل من السهل على تشيرنيشيفسكي أن يوافق على رأي أوسبسكي الميئوس منه في « فلاحي اليوم »، طالما أن تشيرنيشيفسكي رأى أن بالإمكان في ذلك الرمان قيام حركة عريضة من الناس الذين لم يرتاحوا لظروف إلغاء العبودية. ونرد على ذلك بأنه ليس من السهل عليه إذا اعتبر نفسه مضطراً لقبول أوسبسكي بلا قيد ولا شرط لقد اعتبر مقالات أوسبنسكي مصيبة تماماً، ولكنه لم يبن عليها نتيجة يائسة. قال: « إن الرتابة تسود مجرى الحياة العادية، وبين الشعب البسيط، كما بين الطبقات الأخرى، الرتابة سيئة ومضرة ضررها في الطبقات الأخرى إن ميزة السيد أوسبسكي هي أن لديه الشجاعة أن يرسم لنا من غير تمويه أو رخرفة، الأفكار والأعمال والمشاعر والعادات الرتيبة للناس البسطاء الصورة ليست جذابة أبداً في كل خطوة ثمة عبث وقذارة وصغار وغباء

« ولكن لا تتسرع في استخلاص النتائج من هذا بحسب صحة آمالك أو عدم صحتها، إذا رغبت في تلطيف نصيب الناس، أو نصيب شكوكك، إذا كنت مهتماً جداً بغباء الناس وعجزهم خذ الشخص الأكثر شيوعاً الضعيف الإرادة الضحل

---

* المؤلفات المجلد ٢ ص

** المرجع السابق مجلد ٢ ص ٢٠٢

الباهت: لا أهمية للحياة الوضيعة التي يعيشها، فهي مختلفة الظلال بين فترة وأخرى، فهناك فترات من الجهود الفعالة والقرارات الشجاعة. ويواجهنا الشيء ذاته في تاريخ كل أمة »*

الظروف، التي كل شيء في النهاية يقوم عليها، يمكن أن تقوم بانقلاب بحيث أن الجماهير اللامبالية سوف تصبح قادرة على الجهود الضخم والقرار الجريء وبانتظار اللحظة التي تقوم فيها الظروف بهذا الانقلاب، لا بد من أن يدرس المرء بعناية الجماهير المتخلفة إن المبادرة باتخاذ القرارات الجريئة لا تأتي من جماهير العامة، إلا أن على المرء أن يعرف شخصية الناس الذين يؤلفون تلك الجماهير « حتى يعرف بأي طريقة يمكن تحريضهم »** وكلما قدمت الرواية شخصية الجماهير بدقة، فإنها تسهل مهمة أولئك الذين سوف، في ظل ظروف مناسبة، يتخذون المبادرة في خلق القرارات الكبرى.

سوف نطلب من القارىء الآن أن يتذكر أن تشيرنيشيفسكي في إحدى فرضيات أطروحته يضيف بعد أن يؤكد على أن تصوير الحياة هو السمة الرئيسية للفن: « للأعمال الفنية عادة أهمية أخرى - إنها تفسر الحياة، وغالباً ما تقدم رأياً في ظواهر الحياة إن ما اقتبسناه هو فقط من مقالة واحدة هي « أليس هذا بداية تغير؟ يبين بوضوح إلى أي مدى اتجه النقد الأدبي في شخص تشيرنيشيفسكي إلى قيمة تصوير الحياة على أنها المادة التي تفسر الحياة وتحكم عليها (الرأي في ظواهر الحياة) إن اتجاه تشيرنيشيفسكي نفسه يتجلى بشكل محدد في كل مقالاته الأدبية الأخرى وإليكم ما يقوله، على سبيل المثال، في مراجعة مجموعة شعرية لبليشييف (السوفريمينيك ١٨٦١ العدد ٣)[١٢١]

إنه يتذكر بانزعاج الزمن الذي عامل فيه النقاد بليشييف بازدراء بل بحقد يقول: « إنه يبدو مرعباً مخيفاً الآن. لا شك أن العواطف والأفكار النبيلة التي تبدو في كل صفحة من كراسة بليشييف لم تكن معروفة في الشعر الروسي ذلك العصر فقوبلت بالازدراء فمتى يمكن قبول هذا؟ حسب رأيه لا يملك بليشييف موهبة

* تشيرنيشيفسكي المؤلفات المجلد ٨ ص ٣٥٧

** المرجع السابق ص ٣٤٦.

شعرية كبيرة، وطموحاته وآماله غامضة. إلا أنه يمتلك صدقاً كبيراً، وحتى يعبر عن آماله بالدقة المطلوبة، فإنه لا يستطيع ذلك لأسباب خارجة عن إرادته. أخيراً، لا أحد مما بات من العلو والرفعة في تطوره بحيث يعتبر الدفاع الصادق، وإن كان بشكل عام، عن الجانب النير في الطبيعة الإنسانية عديم الفائدة ويستنتج مؤلفنا « ثمة الكثير من الأفكار العادية تماماً، وكذلك من المشاعر الإنسانية التي سبقت الإشارة إليها باستمرار بحيث أنها لم تنس. وهذا ضروري في كل مكان، ناهيك عن مجتمعنا المتخلف إن ـعراء ذوي اتجاه نبيل صاف من أمثال بليشييف سوف يكونون دائماً مفيدين للتربية الاجتماعية، وسوف يجدون دائماً طريقهم إلى القلوب الفتية إن من الصعب أن نجد تطبيقاً شعرياً أفضل مما لدى بليشييف »*

يجب على الشعر أن يثقف الناس من أجل مستقبل أفضل، يجب أن يثير فيهم القدرة والإيمان بقواهم الخاصة. هكذا كان رأي تشيرنيشيفسكي ولذلك لا عجب إذا كان، كما يقول هو نفسه، قد أعاد مرات ومرات بمتعة خاصة في كراس بليشييف الترنيمة الرائعة التي تبدأ بالأبيات المشهورة:

إلى الأمام، أيها الأصدقاء، إلى المآثر النبيلة
بلا خوف تقدموا، وارفعوا رؤوسكم عالياً
إن فجر التحرير الأسمى
رأيته في السماء

مثل هذا الشعر لا يفشل في إثارة « المتنورين فحبهم له، كما نعرف، أثار سخرية أولئك الذين اعتبروا أنفسهم ذواقين في الأعمال الفنية يبدو أننا ندخل ثانية عصر ازدراء المشاعر التي عبرت عنها، من جملة ما عبرت، ترنيمة بليشييف

إننا لا نعتبر من النافل أن نقول بضع كلمات فيما يتعلق بالاتهامات التي أعلنها أنصار الفن الخالص ضد الاتجاهات « التنويرية » في نقدنا الأدبي لقد زعم أنصار الفن الخالص - ولا غضاضة أن نكرر ذلك اليوم - أن « متنوريا » تنكروا للمتع الروحية للإنسان وهذا كما قلنا في مكان آخر افتراء تافه بكل بساطة. لقد اعتقد

---

* المرجع السابق ص ١٢١.

« المتنورون » أن الفن بترقيته وإشاعته الأفكار العقلية في المجتمع، سيكون في الدرجة الأولى مفيداً للبشرية من الناحية الفكرية. أما الفائدة المادية فكانت نتيجة بسيطة للتطور الفكري: فكما نعرف ليس من السهل على سمك الزنجور أن يبتلع سمك الشبوط عندما لا يكون الشبوط « مترنحاً وحتى يسرع المتنورون زمن انعاش الشبوط كانوا مستعدين لتقديم أي تضحية ذاتية، مع أنهم اتهموا بتقييمهم « أواني المطبخ » فقط هذا الافتراء التافه لا يمكن أن يصدر إلا عن أناس يشعرون بخوف غامض أن ما في أوعية مطابخهم لن يكون طيب المذاق وسوف يهجر عندما ينتعش وعي الشبوط ضد استغلال الزنجور هكذا كان في أيام تشيرنيشيفسكي، وهكذا هو في أيامنا إن الناس الذين يسخرون من الموضوعات المدنيّة في الشعر اليوم هم عادة - ولا نقول دائماً، فهناك استثناءات - الذين يفصلون أشد الدوافع الاستغلالية ابتذالاً في زي « إنساني فائق »

وفي قولنا هذا، لا نرغب صدقاً أن نرفض أن المبادىء التي يخضع لها النقد الأدبي في الستينات والتي شرحها تشيرنيشيفسكي يمكن أن تؤدي، إذا ما طبقت بشدة، إلى نتائج أحادية الجانب لقد وصل نقد الستينات إلى هذه النتائج في شخص بيساريف. ولكن أولاً يجب ألا تلقى المسؤولية على تشيرنيشيفسكي من أجل بيساريف، ثانياً حتى بيساريف كان مبرأ من الهراء الذي نسبه إليه خصومه « الجماليون »

قال بيساريف مستنتجاً من المقالة الأولى من مقالتيه، وهي بعنوان بوشكين وبيلنسكي في حين لا نوافق بيلنسكي في تقديره الحقائق المنفردة ملاحظين فيه بلادة غبية وتحللاً شديداً من المسؤولية، فإننا لا نزال أقرب بكثير من خصومنا إلى أفكاره الأساسية »*

وكرر في بداية المقالة الثانية: « إن نقد بيلنسكي ونقد دوبروليوبوف ونقد روسكوي سلوفو يمثل تطوراً للفكرة ذاتها التي طفقت تنظف نفسها سنة بعد سنة من كل الشوائب الغريبة »**

ما الذي يعنيه بـ « الأفكار الأساسية لبيلنسكي و« الشوائب الغريبة »؟ حتى

---

* بيساريف المؤلفات المجلد ٥ ص ٦٣

** المرجع السابق ص ٦٦.

نجيب عن هذا من الضروري تقديم قطعة من المعلومات التاريخية.

قال بيلنسكي في مقالته عن درزافين: «إن مهمة علم الجمال الحقيقي ليس تقرير ما يجب أن يكون عليه الفن، بل تحديد ماهية الفن. وبكلمات أخرى: يجب ألا يناقش علم الجمال الفن كشيء معطى سلفاً، كنوع من المثال الأعلى الذي لا يمكن تحقيقه إلا انسجاماً مع نظريته لا يجب أن يدرس الفن كموضوع وجد قبلها برمن طويل، وأن يدرس الوجود الذي سبب وجوده الخاص كانت هذه الفكرة رائعة حقاً، وجديرة تماماً بشخص تربى في الديالكتيك الهيغلي. على أي حال فإن الفكرة شيء وتحقيقها شيء آخر تماماً وحتى نحل المهمة التي ألقاها بيلنسكي على علم الجمال لا بد من تحليل الصلة بين الفن والحياة الاجتماعية وتفسير الأخيرة من وجهة نظر علمية، أي مادية. إن هيغل نفسه لم يستطع القيام بهذا فبعد أن ألقى بيلنسكي القبعة الهيغلية بسخرية، طفق يبتعد في أحكامه الأدبية عن القاعدة الذهبية التي عبر عنها في مقالته عن درزافين، فبدأ يناقش ما يجب أن يكون عليه الفن أكثر مما يناقش ماهية الفن. باختصار بدأ يتحدث كـ «متنور أحياناً وبهذا الصدد كان تشيرنيشيفسكي أروع متابع لقضيته كان تشيرنيشيفسكي باعتباره «متنوراً» مهتماً جداً بنظرية الفن أكثر من النتائج العملية التي يمكن أن تؤخذ من هذه النظرية. إلا أن فلسفة فيورباخ، في رأيه، جعلت من الممكن مصالحة الممارسة مع النظرية، ووضع اعتبارات ما يجب أن يكون عليه الفن على أساس ثابت من النظرية التي أفصحت عن جوهرها الحقيقي إن المهمة العملية لعلم الجمال هي ترميم الواقع هذه الفرضية التي شرحها تشيرنيشيفسكي بمساعدة الفلسفة الفيورباخية، قادته في كل تقديراته النقدية. هذه الفرضية في حد ذاتها، أي إذا تجاهل المرء المهمة النظرية الخالصة التي كان بيلنسكي قد ألقاها على علم الجمال - لا تتضمن شيئاً خاطئاً على الإطلاق ولكن حالما يوافق الإنسان على هذه الفرضية، يمكن أن يسأل نفسه من غير خطأ منطقي هل هذا علم جمال، أي العلم الخاص بالجمال الضروري لترميم الواقع؟ ألا يمكن تحقيق الهدف ذاته بالاعتماد على العلوم الأخرى، مثلاً؟ وهل علم الجمال ممكن كعلم؟

تلك هي الأسئلة التي كرس بيساريف نفسه لها وكما نعرف إنه لم يحلها لصالح علم الجمال لقد أعلن أن وجود علم الجمال كعلم كان مستحيلاً، وأن تشيرنيشيفسكي إذا كان

قد كرس أطروحته لعلم الجمال فإنما فعل ذلك «ليدمره نهائياً، وليوقظ مرة وإلى الأبد أولئك الناس الذين أخذوا بالفلسطينية المفلسفة والطفيلية»*

وقدم بيساريف ضد إمكانية إقامة علم الجمال كعلم الحجة التالية التي اعتبرها مسلماً بها «إن الستاتيكا، أو علم الجمال، له الحق أن يوجد فقط إذا كان للجمال أهمية مستقلة بغض النظر عن التنوع الذي لا نهاية له في الأذواق الشخصية إذا كان الجميل ليس فقط ذاك الذي يسرنا، وإذا كانت، بالتالي، المفاهيم المختلفة للجمال متساوية في الشرعية، فإن الستاتيكا يتحلل إلى رماد إن كل شخص يطور ستاتيكه الخاص وبالتالي فإن الستاتيكا العام الذي يرجع الأذواق الشخصية إلى وحدة قسرية يصبح مستحيلاً إن مؤلف «العلاقة الجمالية» يقود قراءه إلى التسليم بهذه النتيجة مع أنه لا يقول ذلك صراحة»** هذه الحجة تذكرنا حقاً بما يفيدنا في الحياة، فإذا الإنسان اعتبر الجميل ما يرى فيه الحياة كما يفهما، فإن النتيجة تكون في أن مفاهيم الجميل المعتمدة في التحليل الأخير على الأذواق الشخصية فقط، وهو تنوع لا نهاية له يجعل من المستحيل دراستها من وجهة نظر علمية، أي من وجهة نظر تطورها المنطقي، تبدو مشروعة تماماً بالنسبة إلى المثالي إن بيساريف الذي كان يجادل في هذا المثال كأنه مثالي خالص، تغاضى عن حقيقة أن تشيرنيشيفسكي وضع نصب عينيه هدف تطبيق الفلسفة المادية الفيورباخية على علم الجمال وبالنسبة إلى المادي، طالما أنه يبقى مادياً بلا تنازلات للمثالية في آرائه، فإن «الفكر» ليس السبب الأعمق للتغيرات الجارية في الحياة الاجتماعية. التغير والتنوع في «الأفكار تفرضها تغيرات معينة جارية في الحياة إن هذا يجعل من الممكن دراسة تطور الأفكار من وجهة نظر المنطق أيضاً وبسبب تنوع الأفكار الإنسانية عامة، فإن من الخطأ القول أن كل شخص له نظرته العالمية الخاصة وآراؤه المميزة في كل الظواهر الاجتماعية إن للناس من طبقة معينة في أي زمن - ضمن حدود خاصة - النظرة العالمية ذاتها، وأيضاً ضمن حدود خاصة لهم الرأي نفسه في الظواهر الاجتماعية وحتى في الطبقة الواحدة في مرحلة معينة ليس ثمة

---

* بيساريف، المؤلفات ١٨٩٤ بطرسبرج المجلد ٤ ص ٤٩٩ [المقصود بالفلسطينية تلك النزعة المنسوبة إلى قدماء الفلسطينيين الذين كانوا لا يبالون بالثقافة، ولا يرون جدوى منها اطلاقاً المترجم]

** المرجع السابق الصفحة ذاتها

تماثل في الأفكار ، فإذا وجد المرء في هذه الطبقة فروقات في النظرة العالمية أو النضال بين النظرة القديمة والنظرة الجديدة فإن هذا ولا شك ليس غريباً في التاريخ ، ولا يمنعنا من الإقرار بتطور الأفكار من وجهة نظر العلم ، أي المنطق ، أي الضرورة إن وعي الناس يقرره وجودهم ، وأفكارهم تحددها علاقاتهم الاجتماعية إن تشيرنيشيفسكي بإقراره ، كنصير للفلسفة المادية ، بالارتباط السببي بين الوعي والكائن ، يناقش في أطروحته أن فكرة « الحياة الخيرة » ، فكرة الحياة كما يجب أن تكون ، التي تشكل أساس مفهوم الجميل ، تتغير وفقاً لموقف الطبقة في المجتمع إنه بذلك ليس فقط لا يدمر علم الجمال كعلم ، بل العكس تماماً يضعه على أسس مادية بشكل عام ، على الأقل حيث يجب أن يبحث المرء عن حل للمهمة التي طرحها بيلنسكي على عاتق الناس المستفيدين من نظرية علم الجمال . والحقيقة أن تشيرنيشيفسكي لخص حل هذه المهمة بطريقة عامة ولم يعد إليها ثانية في نقده الأدبي ، لانشغاله بالنضال ضد « الأحلام الخيالية باسم « الواقع » . كان في نقده الأدبي « متنوراً حتى العظم أو كما قال بيساريف أشاع بصورة شعبية المبادىء السلبية ، بعودته إلى « المتنورين » الفرنسيين في القرن الثامن عشر هنا أيضاً ، كما في مناقشاته التاريخية ، تخلى عن المادية لصالح النظرة المثالية . إن بيساريف ، الذي دافع وطور آراءه ، رآه « متنوراً فقط ، أي مثالياً فقط ولذا لم يستطع أن يرى في أطروحته أي شيء سوى تدمير علم الجمال . إنه لم يشك ، ولا يستطيع أن يشك أن رأي تشيرنيشيفسكي في العلاقة الجمالية بين الفن والواقع اشتمل على مظهر مادي ، يدعم إمكانية جعل علم الجمال علماً لو أن كل امرىء بين هذا له ، لوجب أن يقول ، بازدراء ، إن تشيرنيشيفسكي في هذه الحالة لم يتحرر بعد من قوقعة الهيغلية ، تماماً كما لم يتحرر بيلنسكي أيضاً في زمنه*.

لا شك أن بيساريف طور آراء كل من تشيرنيشيفسكي وبيلنسكي ، ولكنه طور منها الناحية التي كانت أعظم إدانة للمثالية ولنأخذ هذا المثال:

عرفنا من قبل أن تشيرنيشيفسكي في آرائه عن حياة المجتمع تبنى موقف الطبيعة البشرية ولكن بما أن الطبيعة البشرية لا تفسر شيئاً من الظواهر الاجتماعية ، فقد اضطر تشيرنيشيفسكي ، الذي تبنى موقفاً مادياً من الطبيعة البشرية ، إلى الانتقال الى

---

* أنظر مقاله يوسكين وبيلسكي المؤلفات المجلد ٥ ص ص ٧٨ - ٧٩ .

حلبة المثالية وإلى المجادلة حسب المبدأ القائل « إن الفكر يحكم العالم ». وعندما جادل حسب هذا المبدأ المثالي، فقد تذكر أن وعي الإنسان اجتماعياً يحدد وجوده، ورأى من الضروري الإلحاح على أن جميع الناس متشابهون في طبيعتهم. ففي مقالته عن مؤلفات أوسبنسكي يقتبس مشهداً فيه يجعل أوسبنسكي الخادمة اليوناجيرا سيموفنا تتبادل مع الموظف سيميون بتروفيتش المكالمة التالية:

- « حسناً هل ذلك في داخل الناس يا سيمون بتروفيتش؟

أشياء مختلفة. إن ذلك يعتمد على ما يأكلون: فرجل يأكل الدريس يكون الدريس في جوفه. يقال كان ثمة إسكافي وجدوا في داخله عندما فتحوه نعلاً من الجلد ونثرات خشب محروق.

- يا له من شيء مرعب. أخبرني ناشدتك الله. هل المدنيون والعسكريون يوجد في داخلهم الشيء ذاته؟

- حسناً من هذه الناحية يا اليونا جيراسيموفنا سوف أفيدك تقريراً كاملاً لا بد من القول إن الشيء ليس واحداً وجلس الموظف إلى جانب الفتاة وشرع يفسر »*

إن تشيرنيشيفسكي من ناحيته يناقش في المقالة ذاتها « إن الناس تملك في داخلها أشياء واحدة »، ويدعو قراءه، كما رأينا، أن ينسوا من ينتمي إلى الطبقة العليا، ومن هو تاجر ومن هو فلاح، وأن يحكموا على كل واحد حسب السيكولوجيا الإنسانية

إن بيساريف يتمسك بهذه الدعوة ولكنه يستخلص منها النتيجة التالية:

« بدلاً من الكرازة بصوت صارخ في البرية عن قضايا الروح الشعبية والحياة المدنية، التي يلزم الصمت تجاهها الأدب الصرف ذو اللياقة العالية، فإن نقدنا يفعل خيراً إذ يولي اهتماماً أكثر قليلاً للقضايا المشتركة بين البشر، وقضايا الأخلاق الشخصية والعلاقات اليومية. إن إيضاح تلك القضايا شوشته وجعلته غامضاً تلك الغثاثات القديمة، التي لا تضير شيئاً إزاحتها جانباً، بحيث أن كل إنسان يمكن أن يبحث عن ملكوت الرب وعن البشر الطيبين بعينين غير مغرضتين »**

هذه « بيساريفية » خالصة، السمة المميزة التي تفيدها « الأخلاق الشخصية أكثر

* المؤلفات المجلد ٨ ص ٣٤٦

** بيساريف، المؤلفات، المجلد ١ ص ٣٤٧

من « الحياة المدنية   لقد اعتبرت البيساريفية أحياناً تياراً فكرياً لا علاقة له باتجاه تشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف   وهذا خطأ فادح* إنها في الحقيقة ليست أكثر من سلسلة من التصحيح الكامل، مع أن نتائج متطرفة من فرضيات غير صحيحة قدمها تشيرنيشيفسكي عندما خانته ماديته غير الكافية - أو إذا رغبت، عندما خان ماديته - وتبني موقفاً مثالياً من غير أن يتحقق مه. لقد كان بيساريف ذا موهبة أدبية وفيرة. أما بالنسبة إلى المتعة التي يحصل عليها القارىء غير المنحاز من روعة مقالات بيساريف الأدبية، فلا بد من التسليم أن « البيساريفية   كانت نوعاً من تدني مثالية « متنورينا حتى العبث

ويمكن أن نرى ذلك في موقفه من مسألة كيف يختلف الشاعر عن المفكر

قال بيلنسكي: « كل عمل شعري ثمرة فكرة قوية تهيمن على الشاعر   فإذا افترضنا أن هذه الفكرة هي فقط نتيجة نشاط ىكره، فإننا لا ندمر الفن فقط، بل ندمر إمكانية الفن. والحق من لا يستطيع أن يغدو شاعراً من خلال الحاجة أو الفائدة أو الميل، إذا كان كل ما يفعله هو أن يفكر في فكرة ويعصرها في شكل فكري؟ لا هذا ليس للشعراء بالسليقة ولا للأثر الشعري اللازم. إن أثر إنسان ليس شاعراً بالسليقة - وإن كان بناؤه للفكرة عميقاً أو حتى جليلاً - هو أثر تافه كاذب مصنع قبيح لا روح فيه ولن يقنع أحداً، سوى خيبة الأمل في الفكرة التي عبر عنها، مهما كانت تلك الفكرة صادقة. ومع ذلك فهذا ما تفهمه الجماهير من الفن، وهذا ما يتطلبه الشعراء

---

* كالعادة إں تسجيل الآراء الخاطئة في تاريخ فكرنا يرجع إلى مؤرخ أدبنا الروسي الحديث سكرابيشيفسكي إىه يقدم « البيساريفية » على أنها نرعة حسية قريبة الشبه بحسية القرں الثامں عشر   « كما حدث تماماً في فرنسا في مرحلة الوصاية حيث تبختر مخنثو فرساي والمراكيز والفيزكونتات بأفكارهم الجديدة فيقرؤون بشغف فولتير والموسوعيين ويجدون في كتبهم تبريراً كاملاً لسلوكهم الطائش الذي أدى بهم إلى دمار كامل، ثم إلى المقصلة - فاننا نرى شيئاً مماثلا في بلادنا في الستينات، مع فارق هو أن فولتير حل محله فيورباخ وبوخىر، وحل محل الموسوعيين بوكل ولويس وفوغب وموليشوت، وهلمجرا   وبالطريقة نفسها بالضبط أعلن عدة أبىاء من الارستقراطية أنفسهم ليكونوا أناساً جدداً وليعبروا عن الجديد في مقتطفات مں مؤلفيں مناسبيں وليرفضوا رفضاً شديداً « السلطات   وليحتقروا عادات الطبقة العليا واحتشاماتها، وليغرقوا ڧى الملذات والأهواء   (ص ٨٨) ومں نافلة القول إں الناقد الأصيل السابق لأوتشيستفيني زابسكي لم تكں لديه أدنى فكرة عں مدى قرابة فلسفة تشيرنيشيفسكي المادية من « حسية القرن الثامن عشر » ولكن لا حاجة الى مناقشته. إىما نلفت النظر إلى غلطته فقط لنبيں كيف يجب أن يكتب تاريخ أدبنا.

فكر في وقت فراغك في فكرة جميلة، ثم ضعها في الخيال المجنح مثل جوهرة في الذهب. وهذا كل شيء

هذه الحجة ليست سوى نسخة جديدة من موضوعه الرئيسي الذي يقول بشكل صحيح أن الفنان يفكر في صور وليس في قياسات. إن بيساريف الذي يؤمن أنه لم يقم إلا بتطوير أفكار بيلنسكي الأساسية، يرى في هذا التمييز بين الشاعر والمفكر فقط «غنى كبيراً ينسب إلى الصوفية الجمالية التي ترسم حداً فاصلاً بين الشعراء والناس العاديين»* إنه يجد أن بيلنسكي أفسدته الصوفية الجمالية التي حتى دوبروليوبوف - في اعتقاده - لم يبج منها ولكنه يعتقد أن لمسة واحدة من النقد الواعي كافية لطرد هذا «التشويش الصوفي وينتج من تبريره أن أي شخص مفكر يجهد لحيازة البراعة التكتيكية، يمكنه أن يصبح شاعراً، كما يمكن أن يصبح ناقداً أو «بارعاً في الأدب الصرف عامة». إنه يقول هذا فعلاً: «أي إنسان تتم له أفكار نيرة، ويستطيع الاحتفاظ بهذه الأفكار وإيضاحها في رأسه، أي انسان يصبح عن طريق الممارسة حاذقاً للأدب الصرف - أي إنسان يمكنه، إذا رغب، أن يصبح شاعراً، أي يبدع المؤلفات التي يتأثر بها القراء بالضبط مثل المؤلفات التي يبدعها شعراء مجازون حقيقيون»** لكن الأمر ليس كذلك، أي ليس كل إنسان مثقف يمكن أن يغدو شاعراً، وهذا واضح بحد ذاته لا يحتاج إلى اثبات. ولكن لماذا بيساريف - في تعبيره عن هذه الفكرة الخاطئة - يعتقد أنه إنما يطور «الفكرة الأساسية» عند بيلنسكي؟ لأن بيلنسكي نفسه نظر إلى الفن أحياناً من وجهة النظر المجردة لـ «المتنور لقد قال، مثلاً: «إن شكسبير ينقل كل شيء من خلال الشعر، ولكن ما ينقله لا ينتمي أبداً إلى الشعر وحده هذا القول أعطى المبررات للاعتقاد أن هناك نوعاً من المجال الخاص بالشعر حصراً، ويمكن أن يتعارض مع المجالات الأخرى التي لا تنتمي إلى الشعر بل يمكن أن تنقل «من خلال الشعر هذا بالضبط ما فكر فيه بيساريف، عندما أكد لقرائه أن أي شخص مثقف يمكن أن يغدو شاعراً من الواضح أنه عنى أنه وإن لم يكن كل شخص مثقف يمكن أن يغدو حاذقاً في مجال الشعر، فإن هذا لا يهم

---

* بيساريف المؤلفات المجلد ٥ ص ٧٥

** بيساريف المؤلفات المجلد ٥ ص ٧٨

لأنه إذ أصبح حاذقاً في الأدب الخالص، قادر على أن « ينقل من خلال الشعر » الشيء الكثير فإن لم يظهر بفعله هذا أي طاقة كبيرة في مجال الشعر، فإن الناس الذين يمكن أن يلوموه على هذا هم الجهلاء الذين تربوا على المفاهيم الجمالية القديمة أو هم « أنصاف - الجماليين » أمثال بيلنسكي الذي لم يحطم بعد « قوقعة الهيغلية وبمناقشة بيساريف هذه الفكرة وتطويرها بموهبته وحماسته المعتادة، أوضح أسس التفكير الذي كان مخلصاً فيها لنقد بيلنسكي والحقيقة أننا نكرر هنا أنه كان مخلصاً فقط للجوانب الضعيفة من هذا النقد، لتلك الجوانب من عيوبه التي كانت نتيجة الدراسة الناقصة لبعض أطروحاته. وهكذا فإن الخطيئة المنطقية التي ارتكبها بيلنسكي في تحليله لنظرية الفن الخالص فسحت المجال لظهور ما رآه بيساريف كقول فصل في مبدأ النفي

لو لم يتخل بيلنسكي عن نظريته الخاصة في أوج المناقشة، لو تذكر أن مضمون الشعر هو نفسه مضمون الفلسفة، وأن الفرق الوحيد بين الشاعر والمفكر هو أن أحدهما يفكر في صور والآخر يفكر بالقياس، لرأى مسألة « الفن الخالص » بصورة مختلفة تماماً لقال أن ليس ثمة مجال خاص للشعر، وأن النظرية هي دائماً انعكاس للحياة الاجتماعية، وان الشعر الذي يرغب أن يبقى « خالصاً » لا يعكس إلا نزعة اللا مبالاة في الطبقة الاجتماعية التي أبدعته. ولو تقدم أكثر وحاول أن يجد سبب هذه اللامبالاة، لرأى أنه في مراحل تاريخية مختلفة نجم عن أسباب متنوعة جداً، بل حتى متعارضة مباشرة، ولكنها كلها تضرب بجذورها في العلاقات الاجتماعية، ولا شيء يمكن أن تؤثر به على جوهر الفن، أو « قوانينه » وتكنيكه وحتى يوضح بيلنسكي كل هذا كان عليه أن يطبق الديالكتيك المادي باستمرار في دراسة التطور الجمالي للبشرية. ولكن في الشروط التي تحققت في روسيا في ذلك الزمن ما كان بوسعه أن يقوم بذلك، على الرغم من عبقريته. ولذلك لا نجد سوى عناصر من النظرة المادية في الفن ضمن كتاباته وإذ لم يستطع أن يطور العنصر المادي في نزاعه مع أنصار الفن الخالص، فانه استخدم طوعاً أو كرهاً سلاحاً طالما وجد في ترسانة « المتنورين ». ولكن الحجج الوحيدة التي وجدها في ترسانتهم كانت حججاً مثالية. وتلك الحجج المثالية، التي كانت مثلبتها الكبرى تجريديتها، هي التي شكلت أساس حجج بيساريف التي إذا ما أخذت في خلاصتها المنطقية، « دمرت علم الجمال. لقد قلنا أعلاه أن على المرء ألا يحمل المسؤولية لتشيرنيشيفسكي تجاه بيساريف ونكرر هذا الآن فيما يتعلق ببيلنسكي يجب

ألا يلام على التعديلات التي أدخلها بيساريف على آرائه الأدبية. إلا أننا سنسير أكثر ونقول إن بيساريف نفسه لا يلام إذا أوغل أحياناً إلى حد العبث (نقول «أحياناً» لأنه لم «يحطم دائماً علم الجمال) إن اللوم في هذا يقع على تناقض النظرة المثالية في الفن، التي أدت بها إلى «التشويش الصوفي» لنظريي «الفن الخالص أو إلى نتائج «المتنورين المدمرة تقريباً لعلم الجمال ونقول كلمة أخرى وهي أن بيساريف بسبب تمسكه ببعض الفرضيات المثالية بالضبط من «متنورينا» في الستينات حتى درجة العبث، كان أباً للطريقة «الذاتية» السيئة السمعة. في مقالة «عملية الحياة التي كتبها فيما يتعلق بكتاب كارل فوغت «**الموجز الفيزيولوجي**» **قال**:

«إن العلوم الطبيعية ليست كالتاريخ، ليست أبداً مثله، مع أن بوكل يسعى إلى ايجاد مخرج مشترك في التاريخ المسألة مسألة آراء، مسألة الشخصية الانسانية للكاتب نفسه؛ في العلوم الطبيعية المسألة مسألة حقائق. التاريخ هو تفسير الحدث من موقف شخصي من المؤلف، إن بامكان أي حزب سياسي يمكن أن يكون له تاريخه الخاص عن العالم، وهو له بالفعل، مع أن التواريخ ليست مسجلة، مثلما لكل مدرسة فلسفية معجم ألفاظها الخاص التاريخ هو التبرير النظري لبعض المعتقدات العملية التي تشكلت عبر الحياة والتي لها أهميتها الايجابية في المستقبل، وسيبقى هكذا إلا أن هذا لا يمكن أن يقال عن العلوم الطبيعية بالطبع، فالطبيعة لا تأبه بما تفكر فيه، فان كنت على خطأ فسوف يصدمك أو يسحقك، مثل عجلة آلة ضخمة جداً اقتربت منها كثيراً عندما كانت تعمل بأقصى سرعتها*

استبدل كلمة «تاريخ بكلمة «سوسيولوجيا في هذا المقطع فتحصل على استبدال نظري للطريقة «الذاتية السيئة السمعة وبمقابلة التاريخ بالعلوم الطبيعية كرر بيساريف الخطيئة النظرية التي قادته إلى «تدمير علم الجمال لقد تغاضى عن حقيقة أن الوعي يحدده الكائن وانه ان كان التاريخ سيبقى تبريراً نظرياً لمعتقدات عملية معينة، فان المعتقدات العملية لا تظهر من الهواء، بل مشروطة بعلاقات اجتماعية معينة، بالتطور الذي هو طبيعي مثل تطور أنواع الحيوان والنبات هذه الخطيئة النظرية قدمت الأساس لكل الحكمة السوسيولوجية لذاتيينا بقيادة

---

* بيساريف المؤلفات المجلد ١ ص ٣١١

ميخائيلوفسكي إن السيد سكابيشيفسكي، كعادته، لا يلاحظ هذا، ولذلك في حين أدان مآثر بيساريف «التدميرية» في ميدان علم الجمال، رحب بحماسة بالاكتشافات «الذاتية» لميخائيلوفسكي يقول: مقالاته عن سبسر وداروين والسوسيولوجيا عامة ليست فقط ذات أهمية صحفية، بل هي مساهمة كبيرة في العلم، واذا كانت ستترجم إلى اللغة الأجنبية فسرعان ما ستعود على كاتبها بشهرة أوروبية»*

إن بعض مقالات ميخائيلوفسكي السوسيولوجية ترجمت الآن إلى الفرنسية، والى الألمانية إن لم نكن مخطئين. والمعروف أنها لم تأت إليه بشهرة أوروبية ولكن من الممكن أن تحظى بالتقريظ من هذا الفكر الأوروبي أو ذاك الذي «يرجع إلى كانت كرها بالماركسية. وعلى العكس من رأي آخر مؤرخينا في الأدب، فانه لا تملق في هذا التقريظ ولكن الجدير بالملاحظة هو سخرية التاريخ التي تجعل السلاح النظري للرجعية خارج نطاق الخطيئة النظرية البريئة في الطوباوية التقدمية تقريباً

والخلاصة أننا نعتبر من الضروري ابراز التحفظ الهام التالي

إذا كان «أبناء الستينات نظروا إلى الرواية بعيني «المتنورين أي طالبوها «آراء في ظواهر الحياة»، فان هذا لا يعني أنه ينقصهم الشعور الفني ولا يمكن أن يقال هذا، على الأقل، عن ممثليهم البارزين الرائعين أمثال تشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف وبيساريف في مؤلفات كل واحد مبهم - وبالضبط حيث يوغلون في عقلانيتهم - يمكن أن يجد الانسان برهانا لا جدال فيه عن ذوقهم الأدبي المصفى فلنجعل من بيساريف مثالاً في المقالة التي أقام فيها العقلانية مثل أعمدة هرقل، يقدم التعليق التالي: «الشراع رواية دون كل نقد بحسب مصطلح الميزة الأدبية، انها ناجحة جداً بينما رواية الكونت تولستوي الطفولة والصبا والشباب كرواية حسة في ذكائها ودقتها في التحليل البسيكولوجي، تقرأ بفتور وتمر من غير أن يهتم بها المرء»** هذا التعليق على عمل تولسوي، أي لرجل غير مهتم بالمسائل الاجتماعية والشخصية لأبناء «الستينات تبين أن بيساريف كان ناقداً «جمالياً بارعاً ونجد عناصر مشابهة حتى في تلك المقالات التي سعى فيها جاهداً أن يفضح ريف بوسكين. حتى هنا من الواضح

---

* المرجع السابق ص

** بيساريف، المؤلفات، المجلد ٢ ص

أن بيساريف في حين يعارض بقوة الآراء «الفلسطيبية عند «بوشكيسا الصغير المدلل» كان مسبهاً تماماً إلى اكتمال الشكل في مؤلفاته.

القول إن نقد دوبروليبوف «الصحفي كان حساساً للغاية بالمزايا الفنية للمؤلفات التي جرى تحليلها، قد تم الاعتراف به الآن حتى، إن لم نكن مخطئين، من قبل الناس الذين لا يكنون إلا القليل من الحب لأبناء «الستينات ولكن في حين ينصف هؤلاء دوبروليوبوف، لا يجدون أدنى أثر من الاحساس الفني في مقالات تشيرنيشيفسكي النقدية وليس فقط الناس الذين لا يكنون إلا القليل من الحب لأبناء «الستينات فحتى السيد سكابيشيفسكي، الذي كان بنقده المتأصل لأوتيشيستفيني زابسكي ميالاً إلى اعتبار نفسه كاتباً مكرساً كلياً لما سمي هنا اسمى وصايا الستيات، فيعلق على نقد تشيرنيشيفسكي على النحو التالي:

«أما بالنسبة الى تشيرنيشيفسكي، فقد كان أول من قدم مثالاً لنموذج النقد الصحفي الذي احتذي من نظريته. والحقيقةأن مقالاته النقدية أدنى بكثير من مقالات دوبروليوبوف. وفوق كل شيء، فان المرء يجد فيها غيابا لما ينقص أطروحته أيضاً، أي الشعور الجمالي، وبالتالي الشعور النقدي، وقد أدى هذا العيب إلى سلسلة من الأخطاء الفاضحة وهكذا مثلا كان تشيرنيشيفسكي يحتقر ويعادي مسرحية أوستروفسكي الفقر ليس جريمة من موقف العداء المتحيز فحسب، ومع ذلك رحب بحماسة بشر قصص نيكولاي أوسبسكي، ورأى فيها نهاية تصوير الشعب تصويراً مثالياً، وبداية موقف واقعي منه، غير ملاحظ مدى سطحية وخشونة كاريكاتور نيكولاي أوسبسكي»*

قلنا إن كاريكاتور نيكولاي أوسبنسكي لم يكن شيئاً كما يعتقد السيد ستابيشيفسكي وسوف نقول الآن ان المراجعة الاحتقارية التي قام بها تشيرنيشيفسكي لمسرحية أوستروفسكي الفقر ليس جريمة لم تمنعه من أن يسب لأوستروفسكي «موهبة رائعة» (هذه الكلمات هي كلماته الحقيقية) ويمتدح ملهاته المفلس وإذا كان العداء المتحيز يمكن أن نسمعه في مراجعته لمسرحية الفقر ليس جريمة، فلا بد من أن نتذكر أن تشيرنيشيفسكي في هذه الحالة كان يهاجم شيئاً آخر لا علاقة له بالعاطفة. لقد كان

---

* المرجع السابق ص ٦٦.

يسخر من النقاد الذين يضعون **الفقر ليس جريمة فوق هملث وعطيل**. ألا تدعو هذه المبالغة التافهة إلى السخرية؟ كان يتكلم مهكماً عن القطاع الذي يميل إلى **النزعة** السلافية الذي رأى في ليوبيم تورتسوف تعبيراً رائعاً عن « الروح الروسية واعتقد أنه بخلق هذا النمط يكون أوستروفسكي قد قال شيئاً جديداً الحق أن تشيرنيسيفسكي بالغ في القول إن **الفقر ليس جريمة** تنتمي إلى النمط ذاته الذي تنتمي إليه مسرحية **الطحان** لابليسيموف وكانت ببساطة مجموعة من الأغاني والعادات الشعبية* ولكنه كان محقاً تماماً عندما قال إن مسرحية أوستروفسكي اياها زخرفت ما كان يجب ألا يزخرف** إن النقاد لا بد أن يعترفوا بذلك الآن وبالمقابل لا بد من أن يقروا اليوم أيضاً أن تشيرنيشيفسكي قدر الأهمية الفنية الكبيرة لمؤلفات تولستوي بعدل وبدقة مساهية ولكن هدا ليس كل شيء ولا نبالغ إذا قلنا إن تشيريسيفسكي يحدد السمة المميزة لموهبة تولستوي الفنية وفي ملاحظة بيبلوغرافية على رواية تولستوي **الطفولة والصبا وقصص الحرب** نجد الأسطر التالية:

« تركز اهتمام الكونت تولستوي بصورة أساسية على الطريقة التي تتطور فيها مشاعره وأفكاره من مشاعر وأفكار أخرى، لقد استفاد من ملاحظة كيف يقلب شعور ما نشأ مباشرة من وضع أو انطباع معين، تحت تأثير الذكريات وتجميع الخيال، إلى مساعر أخرى، فتعود مرة إلى نقطة الانغلاق وتنفصل وتتجول ثانية وثانية وتتغير خلال سلسلة من الذكريات، كيف أن فكرة نشأت من شعور أولي تقود إلى أفكار أخرى، فتحمل بعيداً بعيداً وتصهر أحلام اليقظة بالأحاسيس الواقعية، وأحلام المستقبل مع أفكار الحاضر إن التحلل السيكولوجي يمكن أن يتخذ اتجاهات مختلفة. فشاعر يهتم برسم الشخصيات، وآخر بتأثير العلاقات الاجتماعية في المشاغل اليومية على الشخصيات، وثالث يهتم بالصلة بين المشاعر والأفعال، ورابع يهتم في تحليل العواطف، وفي حالة الكونت تولستوي فإن العملية النفسة الفعلية، أشكالها وقوانيها، وديالكتيك الروح، تضفي عليها اصطلاحاً محدداً »***

---

* المؤلفات المجلد ص ١٢٩

** المرجع السابق ص ١٣٠

*** المؤلفات. ، ص ٦٣٩.

هذه ملاحظة نقدية ذكية جداً لـم يضعها مؤلفنا عرضاً، بل طورها بتفصيل مقصود يقول تشيرنيشيفسكي إن ناحية التحليل النفسي المعية تطورت لدى ليرمنتوف أكثر من بقية الشعراء الآخرين، ولكنها ما تزال تلعب عنده دوراً تابعاً جداً ومن النادر أن تظهر ومن النادر أيضاً أن توجد بين الكتاب الأجانب الكبار الذين، في معظمهم لا يقدمون لنا بديالكتيك الأفكار والمشاعر، وليس بتحول شعور إلى آخر، وبتحول فكرة إلى فكرة أخرى، وإنما يقدمونه فقط بارتباطين اثنين لهذه العملية المنطقية. فقط من البداية حتى النهاية ويلاحظ تشيرنيشيفسكي بذكاء أيضاً « إن هذا يتم بسبب أن معظم الشعراء مع العنصر الدرامي في موهبتهم اهتموا بشكل رئيسي بنتائج تجلي الحياة الداخلية، وتصادماتها، تصادمات بين الناس في الأفعال، وليس في العملية الصوفية التي عن طريقها ينتج الشعور أو الفكرة، حتى في المونولوجات التي يجب عادة أن تستخدم كتعبير عن هذه العملية، فما جرى التعبير عنه هو صراع المشاعر، وضجة هذا الصراع صرفت اهتمامنا عن القوانين والتحولات التي حلت تجمعات الأفكار - أننا نأخذ بعين الاعتبار تصارعها وليس شكل نشأتها - محل المونولوجات، فإذا كانت لا تشمل تحليلاً بسيطاً للشعور الثابت، فالأغلب أن تختلف عن المحاورات في المظهر فقط « إن هملت في تأملاته الشهيرة ينقسم إلى اثنين، ويناقش ذاته، فمونولوجاته في الواقع تشبه النمط ذاته في محاورات فاوست مع مفيستوفيلس أو تشبه النزاع بين المركيز بوسا مع دون كارلوس »* إن تولستوي لم يحصر نفسه في تصوير نتائج العملية النفسية للمساعر الجاهزة، إنه، كما قيل من قبل، اهتم بالمسألة ذاتها، إنه حاذق ولا شك في تصويره وهنا تكمن، في رأي تشيرنيشيفسكي أصالة موهبة تولستوي يقول تشيرنيشيفسكي إن تولستوي يكتب أكثر مما يترك انطباع قارىء في الآخر، بنوعيات دقيقة، بعمق في الأفكار بحيوية مشاهد الحياة اليومية الخ، ولكن بالنسبة إلى الخبير العلامة يتضح دائماً أن القوة الحقيقية وطاقة موهبته إنما تكمنان بالضبط في الصفة المشار إليها

وهذا صحيح تماماً ومن الجدير بالانتباه أنه حيث نظر تولسوي كما يظهر واضحاً في سيرة حياته بقلم بيساريف التي نشرت حديثاً إلى تشيرنيسيفسكي ومن

---

* المؤلفات، ، ص ٦٤٢.

يقاسمونه آراءه بامتعاض وسوء فهم، كان تشيرنيشيفسكي من جانبه قادراً ليس فقط على تقدير موهبة تولستوي، بل على كشف مريته الرائعة. وهذه خدمة كبرى للأدب. وفي اعتقادنا أن تشيرنيشيفسكي ألح بالعقلانية ذاتها التي تميّز مراحل «التنوير» والتي إليها يعرى نقد السيات حيث لم يول الاهتمام الكافي بالناحية الجمالية للمؤلفات التي يدرسها على أي حال مهما كانت آراء وطموحات «أبناء الستينات غريبة عن تولسوي، فإنه لم يسج من تأثير عصره ففيه أيضاً تطورت العقلانية بشكل متطرف جداً، ولكنها اتخذت في حالته اتجاهاً مختلفاً فبدلاً من تحليل العلاقات بين الناس فإن تولستوي، الذي كان في الواقع غير مبالٍ بهذه العلاقات، ومهتماً فقط بنفسه، حلل حياته النفسية الخاصة، فطور بذلك القدرة التي هي في الحقيقة السمة المميزة الرئيسية لموهبته الفنية

وبتابع تشيرنيشيفسكي الدفاع عن تولستوي ضد الاتهامات القائلة إنه لا توجد مساهد من الحياة الاجتماعية في **الطفولة والصبا** إنه يلاحظ ساخراً أن قسماً كبيراً يغيب في تلك المؤلفات مثل مشاهد المعارك والذكريات التاريخية ووصف المشاهد الريفية الإيطالية الخ فيلاحظ مصيباً «إن المؤلف يرغب في أن يحولنا إلى حياة الطفولة، فهل يفهم الطفل المسائل الاجتماعية أو أن له أدنى فكرة عن الحياة في المجتمع؟ هذا العنصر كله غريب عن حياة الطفل مثلما هو غريب عن الحياة العسكرية، ولا بد من خرق مبادىء الفن إذا كان لا بد من تصوير الحياة الاجتماعية في الطفولة، كما لو صورت أحداث عسكرية أو تاريخية في الرواية وإننا حريصون مثل أي إنسان آخر على تصوير الحياة الاجتماعية في الروايات، ولكن يجب أن نفهم أنه ليس كل فكرة شعرية سمح بإقحام المسائل الاجتماعية في الأثر الأدبي، ويجب ألا ننسى أن القانون الأول للفن هو وحدة الأثر وليس أي شيء آخر لا المسائل الاجتماعية ولا المشاهد الحربية ولا بطرس الأكبر ولا فاوست ولا انديانا ولا رودين، بل طفل بمشاعره وأفكاره»*

يكرر تشيرنيسيفسكي أن تولسوي ذو موهبة حقيقية، وفي هذا الصدد يسير إلى نوع المؤلفات الي يعتبرها فنية إن آثار تولسوي هي آثار فنية، وهذا يعني أنه «في

---

* المؤلفات. . ص ص ٦٤٥ -

كل منها استطاع تجسيد الفكرة التي يريد تجسيدها في الأثر الأدبي. إنه لا يقول نافلاً، لأن هذا سيكون منافياً لمبادىء الفن، إنه لم يشوه مؤلفاته بإضافة مشاهد وشخصيات غريبة عن فكرة الكتاب. وهذا ما يؤلف متطلباً رئيسياً من متطلبات الفن »*

كل هذا يبين أن نقد الستينات في شخص تشيرنيشيفسكي، وإن تميز عامة بأرجحية العقلانية، كان أبعد ما يكون عن أحادية الجانب التافهة التي وصمه بها أعداؤه، والتي لم يأنف سكابيشيفسكي البليد من تمويهها** إننا مقتنعون أن تشيرنيشيفسكي، الذي توقع الكثير من النتاج في المستقبل من تولستوي، لن يكتب عن الحرب والسلم تلك الصفحات ذات النظرة الأحادية الجانب - أحادية الجانب حتى درجة الكوميديا - التي كتبها قلم سكابيشيفسكي يمكن أن يقول بعض القراء أن هذا بديهي بالنظر إلى « المسافة التي تفصل تشيرنيشيفسكي عن سكابيشيفسكي إننا لن نناقش ذلك ولن نعارضه هناك فعلاً « مسافة شاسعة » بينهما[١٢٢] ومع ذلك تجرأ السيد سكابيشيفسكي واعتقد أنه قادر على نقد تشيرنيشيفسكي.

---

* المرجع السابق ص ٦٤٧

** لا بد أن نلاحظ فوق ذلك أن تشيرنيشيفسكي تحدى الكونت تولستوي في آرائه الاجتماعية بشدة، بل حتى بسخرية أنظر مراجعته لـ « ياسا يا بوليانا » المؤلفات المجلد ٩ ص ١١٧ وما يليها.

تشيرنيشيفسكي في سيبريا[١٢٣]

[١٩١٣]

تشيرنيشيفسكي في سيبريا مراسلات مع الأصدقاء

القسم الأول (١٨٦٥-١٨٧٥) القسم الثاني (١٨٧٦-١٨٧٧) مقالة بقلم ي. لياتسكي ملاحظات

بقلم م. ن. تشيرنيشيفسكي

بطرسبرج ١٩١٢ الناشرون «أغني»

أمامي مجلدان من رسائل ن. غ تشيرنيشيفسكي الى أقربائه - أغلبها الى زوجته وأولاده - من سيبريا وترجع هذه الرسائل في المجلدين حتى ١٨٧٧، وهي «وثائق إنسانية نفيسة بكل معنى الكلمة. إن يتعاطفون مع نشاط تشيرنيشيفسكي الأدبي، الذي قطعه اعتقاله ونفيه، يعتبرونه دائماً شخصية بارزة ليس فقط ثقافياً، بل من الناحية الأخلاقية أيضاً وقد مالوا الى جعله مثالياً وجعله مثالياً شيء مبرر في هذه الحالات ولكن في هذا خطورة. فالتعرف الوثيق بالشخص الممثلن يؤدي أحياناً الى خيبة أمل. ولكن في هذه الحالة لا شك في مثول هذا الخطر إن رسائل سيرنيشيفسكي من سيبريا تبين أن من الصعب مثلنته حتى الدرجة المناسبة وكلما تعرف عامة القراء الروس على تلك الرسائل، ازداد احترامهم لهذا الرجل المخلص النبيل إنها بحاجة الى المزيد من القراءة ولكن «في تلك الأيام» لم يكن هذا متوفراً بسهولة

يبيح القانون للمرأة التي حكم على زوجها بالأشغال الشاقة أن تتبعه. ولقد شغف سيرنيشيفسكي بروجته كثيراً فكان انفصاله عنها مصدراً لعذاب عظيم. ولكنه كان خائفاً أن الحياة في تلك المناطق النائية الضارة بالصحة سكون قاسية عليها وهكذا بعد وصوله الى سيبريا، شرع يفكر ماذا يفعل ليس فقط حتى لا تتبعه زوجته، بل حتى

تسلو عنه بأسرع ما يمكن في رسالة الى بيبين من فيلويسك في ٨ آذار ١٨٧٥ يقدم بهذا الصدد تصريحاً هاماً

« منذ سنوات خلت ، أثناء لقائنا في سيبريا الشرقية ، رجوت أولغا سوكراتوفنا أن تتزوج أحد النبلاء ، وهم كثر ، ممن لا يجرؤ أحد منهم بالطبع على هذا الشيء ، ولكن كل واحد منهم يعتقد أنه أسعد إنسان على الأرض اذا سمع منها ما سألتها أن تقوله لأحدهم[١٢٤]

« لا أستطيع اقناعها – وتماهلت عدة أشهر وقطعت الكتابة إليها لم أكتب مدة سنة بكاملها. إنها لا تستطيع أن تحتمل. فماذا كان علي أن أفعل؟ – وجدت نفسي مضطراً أن أبدأ بمراسلتها من جديد (القسم الأول ص ١٤٠)

في استئناف تشير نيشيفسكي المراسلة مع زوجته ، لم يتخل عن خطته ، بل أرجأ تنفيذها فقط لقد ظلت مهمته مع زوجته كما كانت من قبل. كتب إلى بيبين: « القضية كلها هي أنها يجب ألا تتألم من أجلي عندئذ تكون الحياة طيبة ، طيبة من أجل الصحة (ص ١٤١) أي صحتها هي وفي ١٨٧٥ حاول تنفيذ هذه المهمة باصطناع خصام مع بيبين. وقد تخاصمت أولغا سوكراتوفنا تشير نيشيفسكيا ، التي كانت ضيقة الصدر ، مع أسرة بيبين الذي أبدى اهتماماً كبيراً بها وبابنيها بعد نفي تشيرنيشيفسكي. لا بد وأن تخبر زوجها بأمر تلك الخصومات مع آل بيبين. فتشبث بالخصومات بقصد استخدامها لجعل أولغا سوكراتوفنا لا تتألم من أجله فادعى أنه يميل الى جانبها نهائياً وأمر ألا يذهب ابنه اسكندر الى آل بيبين ، الذين عاش في بيتهم. عندئذٍ ولكن لنترك تشير نيشيفسكي نفسه يروي القصة:

« البقية كانت كالتالي:

« عندما انصرم وقت كافٍ أي شهر أو شهران كان علي أن أكتب الى ابني ساشا بهذه الطريقة:

« ألم تقطع علاقاتك معهم؟ » – وأنا أعلم أن هذا مستحيل ، ليس أخلاقياً فقط ، بل مادياً أيضاً ، فبغض النظر عن شعور ساشا واحساسه العام ، فان أولغا سوكراتوفنا لن تسمح له إن ساشا لا يستطيع أن يُنفذ الأوامر التي طالبته بها ، كما أن أولغا لا تستطيع أن تسمح له – وفي نيسان أو أيار ، عندما مر وقت كاف ، توفر لدي السبب أن أكتب الى ساشا على النحو التالي:

« وهكذا عصيت ، أليس كذلك؟ إذن لست بابني ، وهذا أشد فجاجة من كل ما كتب إليك.

كان هذا القسم الثاني ، أما الثالث والأهم عندي فهو ما كتبته أولغا سوكراتوفنا

« عندما تصبح رجلاً سيئاً الى هذه الدرجة ، أعتبرك غير موجود في نظري ونظر أبنائي كان لا بد أن تكتب هكذا مثل ٢ + ٢ = ٤

« لقد كان هذا أعظم مهدىء لضميري إن لي ضميراً أنا لا أريد الأذى لأولئك الذين يعرون علي » (القسم الأول ص ص ١٣٩-١٤٠)

وكما يمكن أن يتوقع المرء فان هذه القطعة الغريبة من الميكيافيلية لم تؤثر في مارغبه تشير نيشيفسكي وقد كتب إليه بيبين محاولاً الدفاع عن نفسه ضد اتهامات أولغا سوكراتوفنا وقد أثرت فيه هذه الرسالة بمضمونها ولهجتها الوقورة وقد رد تشيرنيشيفسكي على النحو التالي:

« عزيزتي ساشا

« أرجوك أنت وأختيك وسيريوشا أن تسامحوني لازعاجي لكم بلا مبرر

« اني أوافق على كل كلمة في رسالتك. كل حججك صحيحة تماماً ولكني أعلم أن هذا لم يكن هكذا عندما كتبت إليك الملاحظات المهينة أنا أعلم ماذا كنت أكتب. هل تفهمين الآن؟ لقد أردت ببساطة أن أزيل من مشاعرك ما يسبب لك الألم من أجلي.

« آسف أنني لم أنجح (قسم ١ ص ١٣٩)

أما ضآلة ما خدعته مخاصمات أولغا سوكراتوفنا مع آل بيبين فيمكن أن تظهر من المقطع التالي:

« أيها الصديق العريز ، إنها ضيقة الصدر بطبيعتها لكنها نفسها قادرة أن تنتقد تلك الانفجارات - رسائلها التّي فلما تضمنت « مخاصماتها » معك - تقول في بعض مقاطع رسائلها « لقد كتبت هذا في لحظة انفعال هكذا بدالي الأمر وقتئذٍ ، لكنك تعرف شخصيتي ، وعليّ ألا أفقد طبعي   أيها الصديو العرير لقد كرست نفسي لها كلياً ولكن هذا لا يمنعني بالطبع من أن أعثر على مشاعرها الجدية تجاهك ، وتعليقاتها الجدية عن العلاقة بينك وبينها مصيبة إن مشاعرها تجاهك مؤثرة ، وملاحظاتها عن العلاقة معك بالضبط مثل ملاحظاتك » (قسم ١ ص ص ١٥٤-١٥٥).

واد لاحظ تشيرنيشيفسكي أن محاولته زرع الخصام مع بيبن قد فشلت، فانه لم يعرف كيف يعالج الازعاج الذي سببه له والأسطر التالية الموجهة الى بيبين مؤثرة حقاً وبصورة عميقة:

« رسالتك ملأى بنبل الروح أود تقبيل يدك لذلك، إن ذلك غير لائق، ولكني لم أشعر بحرج من أن أفعل ذلك مع بعض الناس عندما كنت صغيراً (قسم ١ ص ١٤٧)

هو تلك الأسطر المؤثرة تكررت تقريباً كلمة بكلمة في رسالته الى بيبين في ٢٨ آذار من السة ذاتها

« رسالتك أيها الصديق العرير رسالة نبيلة للغاية. لقد كتبت إليك في ردي الأول عليها أني أود تقبيل يدك من أجلها إن ذلك شيء كثير بالطبع فانس أنني فعلت هذا في أفكاري » (قسم ١ ص ١٥٩)

تلك المقاطع القليلة تمكننا من الحكم على تشيرنيشيفسكي ماذا كان يسبه في مشاعره مع أقرب المقربين اليه.

مهما فكر المرء في جدوى محاولاته لجعلهم لا يفقدون كل شفقة نحوه، فان شيئاً واحداً مؤكداً يبقى هو إن تشيرنيشيفسكي، أعظم ممثل لأبناء الستينات التقدميين، المتهم بالترويج للأنانية، يظهر لنا في رسائله رجلاً نبيلاً عظيماً، ويفصح عن أنقى المشاعر الغيرية إن هذا يثبت أيضاً مدى ضآلة فهم أبناء السيينات من قبل أولئك الذين لا يشاركونهم آراءهم.

ليست الغيرية وحدها التي يمكن أن يجدها المرء في رسائل تشير نيشيفسكي من سيبريا هناك نغمة قوية مس الرواقية فيها فمثلا يصف وضعه في المنفى كالتالي:

« كما هي عادتي الرائعة، فأنا في صحة تامة أعيش جيداً معي الكثير من المال وكل ما هو ضروري، فلا أحتاج سيئاً أرجوك أنت والأطفال. لا ترسلوا أي شيء » (قسم ٢ ص ٧١)

لقد كرر هذا في كل رسائله الى روجته تقريباً بقراءة تعليقاته على وضعه، يظن المرء أنه في نهاية أعماله الشاقة يرسلونه الى مكان، إن لم يكن مريحاً، فهو محتمل. وتعليقاته على هدا المكان لا تتغير إلا عندما يحاول أن يثني روجته عن المجيء إليه

يكتب إليها في رسالة ١٧ أيار ١٨٧٢ « نعم يا فرحي. الرحلة الى هنا طويلة

وشاقة جداً ، فالسير يستغرق عاماً والعربة لا تصل الى هنا الا بعد مخاطر مخيفة ، وسوف يأخر العربة كثيراً أيضاً من أواسط نيسان حتى نهاية السنة - ثمانية أشهر ونصف الشهر تستغرق الرحلة من أنكروتسك حتى ياكوتسك وهذا عمل شاق وخطير ، انه أكثر صعوبة من السفر حول أفريقيا الداخلية . في تلك الأشهر من المستحيل السفر الى هنا من اكروستك لأن الناس غير معتادين على طريقة حياة ياكوتسك . البرية ، لا طعام ولا مساعدة إن وقع حادث على الطريق ، ومسافة كبيرة جداً حتى محطة البريد يضاف الى ذلك خيام الياكوت المرعبة بدلا من محطات البريد إن تلك الخيام أسوأ كثيراً من الاسطبلات (قسم ١ ص ص ٣٨-٣٩).

هكذا كانت الرحلة الى فيليويسك . وماذا يقول تشير نيشيفسكي عن الحياة في فيليويسك؟ بعد أن وصف الوضع المادي الزري لسكانها تابع

« لقد اعتدت على الفقر حقاً ولكن لا أستطيع أن أبقى غير مبال بمنظر أولئك الناس ، إن فقرهم يثير حتى النفس المتحجرة . لقد أقلعت عن السير في المدينة ، حتى لا أقابل أولئك البؤساء ، فأتجنب الطرق الطويلة التي يتجولون فيها على تخوم الغابة (قسم ص ٣٩)

ورغبة منه في تقديم فكرة عن طقس فيليويسك يقتبس المحاورة التالية في رسالته

هل يوجد هنا قتلة؟ « لا السكان هادئون ولكن الانتحار كثير

« لماذا ؟ « من الديدان الشريطية ، فكل واحد هنا فيه ديدان شريطية ، وهي تجعل المرء كئيباً بحيث يشنق نفسه (قسم ١ ص ٤١)

ويعلن مؤلفنا الآن أن « طقس بطرسبرج مثالي للصحة اذا قورن بالطقس هنا وفي نهاية الرسالة يوضح فكرته الرئيسية المقصودة:

أكتب كل هذا إليك يا فرحي حتى تفهمي جدية معاملتي لك . لا تأتي ، أرجوك لا تأتي انتظري حتى أنقل إلى مكان آخر حيث يكون أكثر احتمالاً لأن تعيشي أيضاً إن المرء بقراءة هذه الرسالة يتذكر فوراً الكلمات التي يقولها الحاكم للأميرة تروبتسكايا في قصيدة نكراسوف « النساء الروس »:

الطقس هناك قاتل
أنا مضطر أن أدفع هذا الموطن إلىك

فلا تسافري أبعد من هذا
آه، هل تستطيعين العيش في مكان
عندما يتنفس شخص فيه لا يخرج بخار
بل مسحوق من جليد
ينجدل من فتحتي أنفه؟
حيث يسود الزمهرير وتعم العتمة باستمرار
وفي تعاويذ حارة مقتضبة
المستنقعات التي لا تجف تماماً
تنفث الروائح الكريهة؟
نعم. إنها بقعة مخيفة. فحتى
وحوش الغاب تفر هاربة
عندما يهبط على الأرض كلها ويكفنها
ليل بهيم أعمى *

لقد علل تشيرنيشيفسكي نفسه بأمل أنه سيحول سريعاً إلى مكان تستطيع أولغا أن تحيا فيه من غير حرمان كبير، وحيث يتفرغ هو إلى التأليف الأدبي، بيد أن هذا الأمل لم يتحقق. بقي في فيليوسيك حتى ١٨٨٣ عندما سمح له أن يعود إلى روسيا الأوروبيـة ويعيش في استراخان. ولكن هذا كان لبضع سوات قبل وفاته. ولم تطل فترة تعلقه بالأمل فأيقن أنه عبث: إنه يعرف أعداءه جيداً وإذا كان قد ألحف في الحديث في رسائله إلى أولغا عن المكان المناسب فليس إلا ليزيد من يقينها

لم تتركه عادة العمل حتى في فيليويسك. قرأ وكتب الكثير هناك، ولكنه قنط من

---

* في رسائله إلى زوجته أكد المنفي الرواقي على أن الطقس المرعب في فيليويس لم يكن شيئاً بالنسبة إليه. ولكن في إحدى رسائله إلى بيبين يتحدث عن حقيقة حالته الصحية اعترف بالروماتيزم القاسي وفقر الدم والاسقربوط والدرق (قسم ١ ص ١٥٦-١٥٧) ويجب أن نضيف أن من المستحيل توقع معالجة طبية في فيليويس. وحتى المعالجة الطبية لم تكن شيئاً في طقس فيليويس المرعب. وقد عرف تشيرنيشيفسكي ذلك وفي رسالة إلى ابنه اسكندر ١٤ آب ١٨٧٧ يقول: «ليس من طبيب يساعدك على الروماتيزم الذي يبليني به الطقس» (قسم ٢ ص ١٩٢) ونجد في الرسالة ذاتها تحفظاً هاماً «ولكن لا تعتقد أني ضعيف للغاية، أنا ضعيف، ولكن لست في الحقيقة ضعيفاً جداً» (قسم ٢ ص ١٩٣)

إمكانية طبع مؤلفاته فأتلف ما ألّف إن مصير الكاتب الروسي عامة لم يكن مصيراً يحسد عليه. ففي تاريخ أدبنا ثمة القليل جداً من الأعلام الشهيرة التي لم تتعرض لها السلطات «التواقة ولكن في كل تاريخ أدبنا ليس ثمة مصير تراجيدي أكثر من مصير ن.غ.تشيرنيشيفسكي فمن الصعب أن نتخيل الآلام المريرة التي تحملها هذا البروميثوس الأدبي بكبرياء عبر مرحلة طويلة من جراء تعذيب البوليس.

تتضمن رسائل تشيرنيشيفسكي من سيبريا مواد غنية تلقي ضوءاً على هذه النظرية العالمية. وبعد قراءتها عدة مرات بعناية، أستطيع القول أنها أمدتني ببرهان جديد على دقة وصف هذه النظرة العالمية في كتابي **تشيرنيشيفسكي**. وإليكم مثالاً جيداً

في الكتاب المشار إليه بينت أنه تابع مخلص لفيورباخ ومع أنه كان من الصعب أن سك في مثل هذه الصورة، فإني مسرور في اقتباس هذا المقطع من رسالة تشيرنيشيفسكي في ١١ نيسان ١٨٧٧ إلى أبنائه:

.إذا أردتم فكرة عما هي الطبيعة الإنسانية في رأيي، فإن بالإمكان أن نعثر على ذلك من مفكر واحد في قرننا لديه أفكار صحيحة تماماً عن الأشياء إنه لودفيغ فورباخ لقد مضت خمسون سنة وأنا أعيد قراءته. وقبل ذلك لم تكن لدي الفرصة الكافية للإكثار من قراءته. وبالطبع نسيت الآن كل ما تعلمته منه ولكني غيبت في صباي كل صفحاته عن ظهر قلب. وبقدر ما أستطيع أن أستعيده بذاكرتي الباهتة، فإني لا أزال من أتباعه

هل بات قديماً؟- سيغدو قديماً عندما يظهر مفكر من مستواه عندما ظهر بات سبيوزا قديماً ولكن مرّ قرن ونصف القرن قبل أن يظهر سبينوزا الوريث الناجح

«لوك وهيوم وكانت وهولباخ وفيختة وهيغل. لم يصل واحد منهم إلى قوة تفكير سبيوزا، ناهيك عن «صغار السمك المرخرف اليوم» أمثال دارون وميل وهربرت سبسر ومن دونهم من الحمقى مثل أوغست كونت. قبل ظهور فيورباخ كان المرء يتعلم الأشياء من سبينوزا الذي لم يتقادم في بداية هذا القرن، فكان المعلم الوحيد الموثوق هذا هو وضع فيورباخ الآن: لا أهمية فيما إذا كان جيداً أم غير جيد، إنه أفضل بكثير من أي شخص آخر (قسم ٢ ص١٢٦)

هذا المقطع جدير بالاهتمام في عدة مجالات. وفوق كل شيء فإن مقارنة فيورباخ مع سبيوزا مفيد وهام تاريخياً لقد رأى تشيرنيشفسكي في سبينوزا السلف الفلسفي

لفيورباخ وهذا رأي صحيح تماماً ولكن هذا الرأي الصحيح الآن سوف يدهش الناس المهميين بتاريخ الفلسفة. فتحت تأثير الرجعية المثالية التي تسود في الوقت الحاضر يكون غير صحيح كما هو صحيح تجاه فيورباخ. فلا عجب والحالة هذه إذا لم تفهم العلاقة بين المفكرين.

وكذلك الأمر في موقف تشيرنيشيفسكي من أوغست كونت. فحالياً ثمة اتجاه في الأدب الفلسفي الألماني لتقديم آراء فيورباخ الفلسفية على أنها نموذج من الوضعية* ولكن هناك فروقات ضخمة بين وضعية كونت و« انتروبولوجية » فيورباخ المادية. إن فيورباخ لم يرفض إمكانية معرفة العالم بينما كونت، حتى وإن لم يرفض ذلك كلياً، ضيق هذه الفكرة كثيراً وهذا هو السبب في أن تشيرنيشيفسكي الذي ظل حتى نهاية حياته تلميذاً موالياً لفيورباخ، كان له رأي سلبي جداً بكتاب كونت **محاضرات في الفلسفة الوضعية** السيىء السمعة.

يقول في رسالة إلى أبنائه مؤرخة في ٢٧ نيسان ١٨٧٦ « أساساً إنه انحطاط متأخر لكتاب كانت **نقد العقل الخالص**. إن كتاب كانت تفسره حالة العلم في ألمانيا في ذلك الوقت إنها لمساومة محتومة بين الفكر العلمي وشروط الحياة غير العلمية. وهكذا لا ملامة على كانت لابتكاره العبث (أي إنه لم يبتكره بل وجده في هيوم الذي أراد بصورة ساخرة رفضه عن طريق إعادة الصياغة)! عليه أن يتعلم شيئاً ما عما كان كريهاً وهكذا قرر « ما هو الحقيقي وما هو الرائف؟ إننا لا نعرف ولا نستطيع أن نعرف إننا نعرف فقط موقفنا من شيء غير معروف ولكن في فرانسا في أواسط القرن الحالي ليس هذا التنازل السخيف أكثر من عبث نافل. ومع ذلك يكرر أوغست كونت بحماسة: « مجهول، مجهول أما المفكرون الذين لا يرغبون في البحث عن الحقيقة وإعلانها، فإن هذا القرار أشد إقناعاً هنا يكمن مفتاح نجاح نظام أوغست كونت » (قسم ٢ ص ص ٢٧-٢٨)

وجدير أن نلاحظ أن تشيرنيشيفسكي يصنف « ميل » الذي ترجم له اقتصاده السياسي وعلق عليه، من بين « صغار السمك المزخرف اليوم ». وفي الرسالة يشمل أيضاً دارون وهربرت سبسر وفي رسائل أخرى يعترف بالمعرفة العلمية الضخمة

---

* أنظر مثلاً فريدريك جودي تاريخ **الأخلاق والفلسفة**، الطبعة الثالثة. « الوضعية الألمانية ».

لدارون وبفكره الرائع. فإذا سمي دارون من جملة « السمك الصغير » هنا ، فإن ذلك أحد التعبيرات القوية المبالغ فيها التي غالباً ما نجدها في رسائل تشيرنيشيفسكي ، والتي حذر أبناءه منها على أي حال لا جدال أن كاتبنا العظيم كان متحاملاً جداً ضد دارون. وقد ناقشنا هذا في كتابنا ن.غ.تشيرنيشيفسكي. وسأناقش ذلك باختصار هنا كان تشيرنيشيفسكي مخطئاً في موقفه من دارون. ولكن حتى نفهم أصل نظرته الخاطئة من نظرية دارون، من الضروري أن نذكر الاستخدام المضحك للعلماء الطبيعيين في أبحاثهم عن الحياة الاجتماعية لنظرية دارون في النضال من أجل الحياة إن احتقاره العادل لأخطاء تلاميذ دارون جعله غير عادل فيما يتعلق بعلمهم.

إني موقن أن القارىء لاحظ أن تشيرنيشيفسكي وضع اسم هولباخ بعد أسماء لوك وهيوم وكانت وفيخته وهيغل. وهذا ما يميزه كمادي إنه كتابع متحمس لفيورباخ لا يستطيع أن ينفي أولئك الذين اعتبرهم أسلاف معلمه والواقع أن هولباخ نفسه لم يكن فيلسوفاً لامعاً إنه بالطبع لا يستطيع أن يضعه في مستوى هيغل ولكن تشيرنيشيفسكي في حديثه عن هولباخ كان يضع في ذهنه مؤلف الكتاب المشهور نظام الطبيعة. لقد كتبت هذا الكتاب حلقة كاملة من ماديي العصر الماديين، بمن فيهم من مصابيح الهداية مثل ديدرو[١٣٥] وبالطبع إن الأهواء المثالية لمؤرخي الفلسفة المعاصرين يمكن أن تفسر حقيقة أن أولئك السادة يتحدثون عن نظام الطبيعة فقط، شافعين تعليقاتهم عليه بالازدراء لقد كان تشيريشيفسكي واعياً تماماً لـ « الدوافع الأساسية الكامنة وراء هذا الإزدراء الشديد

كان تشيرنيشيفسكي في مراجعته عن الطبيعة مادياً متماسكاً وظل كذلك يقول كنت منذ الصبا الباكر التزم بشدة الاتجاه العلمي الذي كان أبرز ممثليه ليوسيبوس وديمقريطس. الخ (قسم ٢ ص٢٦). لقد رأى فيورباخ أعظم ممثل للاتجاه العلمي أي الاتجاه المادي في تاريخ الفكر الإنساني. وفي رسالة إلى ابنه مؤرخة في ٢١ تموز ١٨٧٦ يصف تشيرنيشيفسكي آراءه العامة حول الطبيعة في كلمات موجزة كالتالي:

« كل ما يوجد يسمى مادة. وتداخل أجزاء المادة هو مظهر لصفات تلك الأجزاء المختلفة من المادة. ونعبر عن الحقيقة الواقعية لوجود تلك الصفات بكلمات المادة تمتلك قوة الفعل » أو بشكل أكثر دقة: « تمارس تأثيراً وعندما نحدد طريقة فعل الصفات نقول إننا نجد « قوانين الطبيعة وكل مصطلح هنا يمكن النزاع حوله إلا أن

الأهمية الفعلية للنزاعات هي شيء آخر مختلف عن الشك الجدي بالنسبة إلى الوقائع التي تعبر عنها مجموعة الكلمات التي وضع فيها هذا المصطلح إنها سكولائية فارغة. إنها مجرد عرض قواعدي ولغوي للمعرفة والموهبة، والخدع القياسية، فإن لم يكن هكذا فإن كلمات أولئك الذين يتخاصمون حوله تلك المصطلحات وتركيبات المصطلحات (أو مصطلحات مماثلة) تجرفهم ليس رغبة علمية بل رغبة دنيوية، إنها بصراحة رغبة أنانية والنزاع حول المصطلحات مع أولئك الذين يدافعون عن تلك المصطلحات وتركيباتها، ليس أكثر من سذاجة لا يمكنها أن تفهم أن النزاع إما أنه حديث كسول أو يجب تحويله من تلك المصطلحات وتركيباتها إلى تحليل الدوافع الحقيقية وراء الهجومات على تلك المصطلحات من قبل أعدائها (قسم ٢ ص ص ٤٥-٢٦)

هذا التعليق على الدوافع الحقيقية التي تسمح بظهور الهجومات على المصطلحات المادية و« تركيباتها » (أي على المفاهيم التي تشير إليها) ليس مصيباً فقط، وإنما ينم عن تفكير عميق ومعبر عنه بشكل رائع إن أيديولوجي الطبقة الحاكمة مجهرون في الحقيقة ضد المادية المعاصرة، انصياعاً لـ « الدوافع الحقيقية »: إنهم يعتبرون المثالية السلاح الروحي الأوحد في الصراع ضد النوازع « التدميرية » للبروليتاريا الحديثة ولا شك أن أي مفكر يرغب في فهم نشأة الرجعية المثالية المعاصرة في الفلسفة عليه أن يبدأ بتحليل « الدوافع الحقيقية » التي تثير البرجوازيين (والمتأثرين بالبرجوازيين) ومحبي الحكمة في كل البلاد، لأن يديروا ظهورهم للمادية وإشارة إلى ضرورة مثل هذا التحليل تبنى تشيرنيشيفسكي وجهة نظر التفسير المادي للتاريخ ولكن وإن كان مادياً متماسكاً في تفسيره الطبيعة، ظل تشيرنيشيفسكي مثالياً في رأيه في التاريخ إن رسائله من سيبريا سوف تقنع حتى ستكلوف بذلك ليس من المدهش أن تلميذ فيورباخ المخلص تبنى وجهة نظر مثالية في التاريخ: إن فيورباخ تبنى هذا وكذلك فعل جميع أتباع فيورباخ الألمان. هذا الرأي يميز كل المرحلة السابقة على الماركسية في تاريخ المادية. تبين أنه أرسلت لائحة من الكتب إلى تشيرنيشيفسكي في سيبريا عام ١٨٧٢ ونجد من بينها كتاب ماركس **رأس المال** (انظر القسم الأول ص١٨٢) ولكن في الرسائل التي بعثها تشيرنيشيفسكي من سيبريا والتي نشرت حتى الآن لا يوجد ما يشير إلى أي أثر تركه كتاب ماركس الشهير فيه. طريقته في تحليل مجرى التطور التاريخي

تبين أنه مهما كان هذا الأثر قوياً، فإنه لم يزحزح مثاليته أدنى زحرحة. فيمكنني على أساس رسائل تشيرنيشيفسكي أن أكرر بكل ثقة النتيجة التي وصلت إليها على أساس مؤلفاته، في كتابي عنه: إن تفكير تشيرنيشيفسكي تطور في السبيل ذاته الذي أدى بالتفكير الغربي إلى الماركسية، ولكن الشروط غير الملائمة في الحياة الاجتماعية الروسية منعت فكر كاتبنا العظيم من الوصول إلى نهاية هذا السبيل وظل في مرحلة ما قبل الأخيرة، أي في فلسفة فيورباخ

لزمن طويل والقراء الروس من المعسكر اليساري يولون أهمية كبيرة لمؤلفات تشيرنيشيفسكي السياسة الاقتصادية، مولين أهمية أقل، أو بالأحرى لا يولون شيئاً لآرائه الفلسفية. وقد أشرت في كتابي عنه أن تشيرنيشيفسكي في آرائه الفلسفية أهم بكثير منه في نظرياته السياسية الاقتصادية. وحقيقة هذا التصريح أكدتها لي بصورة غير متوقعة رسائل تشيرنيشيفسكي من سيبريا ويتضح منها أن تشيرنيشيفسكي نفسه، وإن بقي ثابتاً في اعتقاده بصحة آرائه الفلسفية، بدأ يتحول خلال إقامته في سيبريا إلى ناقد لكتابه الرئيسي في السياسة والاقتصاد: تعليقاته على كتاب ميل. يقول في رسالة إلى أبنائه في ٢١ نيسان ١٨٧٧ «ثمة أشياء غريبة في التعليقات ويشير إلى واحد من تلك الأشياء وهي فكرته أن الفارسي في أساس قوانين علم الأصوات يقع في منتصف الطريق بين الألماني الرفيع والألماني الوضيع وقد جره، في رأيه، إلى اقتراف هذه الخطيئة ليبسر، الذي وافق بسرعة على برهانه (قسم ٢ ص١٤٠) ولكن خطيئة تشيرنيشيفسكي هذه أقل أهمية عندي من أخطائه الأخرى التي تتعلق مباشرة بالأخطاء السياسية الاقتصادية وإليكم هنا ما يقوله هو نفسه عن هذا الخطيئة:

«أستطيع أن أتذكر خطيئة أخرى شنيعة في تلك التعليقات على ميل. فثمة حسابات عن نتيجة التحسينات الزراعية في محصول الحبوب فهناك جداول عن الحسابات كلها حسبت باللوغاريتم. ولكن عليّ اللعنة إن جدول النتائج اسخلص باستخدام الميزان الذي كنت رفضته بينما استخدمت في الجدول الرئيسي ميزاناً آخر وهكذا أنت أمام ما يشبه:

٢ × ٢ = ٥

٢ × ٣ = $\frac{١}{٢}$ ٧

٢ × ٤ $\frac{٢}{٩}$ ٩

« لم أكتشف أنا هذه الخطيئة الشنيعة بل أحد معارفي الذي تحلى بالصبر فراجع كل جداولي باللوغاريتم. وقد ذهل لغفلتي هذه » (قسم ٢ ص ص ١٤٠-١٤١)

وقد أشرت إلى هذه الخطيئة في كتابي عن تشيرنيشيفسكي (انظر ص٥٠٨ وما يليها) وإني أستميح القارىء عذراً إن أنا سمحت لنفسي أن ألفت انتباهه إليها إن تطوري الفكري تأثر كثيراً بتشيرنيشيفسكي، وتحليل آرائه كان شيئاً هاماً في حياتي الأدبية، ولا أستطيع أن أبقى غير مبالٍ بمسألة مدى نجاح هذا التحليل. وفي رأي قطاعات معينة كان تحليلاً غير ناجح، بل قيل إنه تحليل مجاز وإني لمسرور جداً أن الحقيقة لم تكن في جانب نقادي الصارمين*

في رسائل تشيرنيشيفسكي في ١٥ حزيران ١٨٧٧ إلى ابنه الاسكندر أعلمه أنه تلقى كتاب بيبين حياة بيلنسكي وكتاب كوستوماروف التاريخ الروسي في البيوغرافيا وكتاب فاسيلشيكوف الملكية والزراعة، ويضيف:

« إني ممتن لك خاصة للثالث منهم، لأنك بإرساله عانيت الكثير من المشقة في اختيار كتاب على مراجي وهو كذلك. ولكنه مراج - واعذرني لخشونة تعليقي قديم جداً، وقد تخليت عنه منذ زمن طويل. لم تعد هذه الموضوعات يهمني تبين لي أنها تافهة. الشيء الهام ليس تلك الخصوصيات، بل السمة العامة للعادات ففي حالة المتوحشين، مهما حاول المرء أن ينظم هذه الناحية أو تلك من حياتهم، فإن حياتهم عامة سيئة. وفي حالة الناس الذين يرغبون العيش ككائنات بشرية، وليس كوحوش ضارية، فإن أي خطيئة مفردة في تنظيم حياتهم تعالج من دون ضجة تثار حول علاجها وهكذا كل شيء يرجع إلى مسائل ذات طبيعة أخلاقية وليس إلى طبيعة مادية. لا تعتقد أنني لا أمتدح كتاب الأمير فاسيلشيكوف إنه رائع ومؤلفه رجل كريم النفس ولكن موضوع الكتاب لا يهمني » (قسم ٢ ص ص ١٨١-١٨٢)

من الصعب أن نجد تعبيراً أشد حيوية عن المثالية التاريخية من تلك الكلمات

---

* أحد النقاد الصارمين وأظنه المرحوم أنطونوف. إن لم أكن مخطئاً سخط من اشارتي للأخطاء الحسابية في ملاحظات تشيرنيشيفسكي النقدية على نظرية مالتوس لقد ظن أن هذه الاشارة نجمت عن نقص فاضح في المقدمة الحسابية وإني على ثقة لو أن الناقد الشديد البأس أتيحت له فرصة قراءة المقطع المشار إليه من القسم الثاني من رسائل تشيرنيشيفسكي من سيبريا لكان لطيفاً وغير رأيه.

كل شيء يرجع إلى طبيعة أخلاقية وليس إلى طبيعة مادية. والواقع أن تطور الإنسان الأخلاقي يعتمد اعتماداً سببياً على تطوره المادي، أي على التطور الاقتصادي وهذا يتناسب كثيراً مع فلسفة فيورباخ، التي ليس الفكر بحسبها هو الذي يحدد الكائن، بل الكائن هو الذي يحدد الفكر* ولكن ليس هذا هو المقصود هنا فلا حاجة إلى تكرار أن تشيرنيشيفسكي في رأيه بمجرى التطور الإنساني لم يكن مخلصاً لفلسفة فيورباخ، تماماً كما كان فيورباخ غير مخلص لفلسفته نفسه. إن المقطع الذي اقتبساه أعلاه عظيم الأهمية لأن المرارة تتفجر منه بشدة. «ففي حالة المتوحشين، مهما حاول المرء أن ينظم هذه الناحية أو تلك من حياتهم، فإن حياتهم عامة سيئة تشير هذه الملاحظة بصورة واضحة إلى روسيا، وتبين أنه اتخذ رأياً متشائماً في حياتنا الاجتماعية في ذلك الوقت. بيد أني أعتقد أن ذلك كان، ولا شك، نتيجة مزاج عابر فقط فآراؤه التاريخية عامة اتسمت بالتفاؤلية السليمة في ذلك الوقت أيضاً في رسالة ١١ نيسان ١٨٧٧ جاء أن للشر قوة كبيرة في حياة المجتمع ويتساءل: «ولكن كيف يؤثر ذلك في نظرتنا العالمية؟ رويداً رويداً يخلع عقل الناس عنهم نير ضعفهم وشرورهم، ورويداً رويداً تحسن قوة العقل أحوال الناس حتى عندما كانوا لا يزالون أنصاف قردة. وهكذا لنا الحق ولو قليلاً أن ننظر إلى الناس الآن على أنهم أعقل وأفضل من الغوريلا والأورانج أوتان. إننا نتعلم بالتدريج وبالتدريج نتعلم كيف نكون اخياراً ونعيش بصورة عقلانية أهي عملية بطيئة؟ نعم. إلا أننا مخلوقات جد ضعيفة أسلافنا هم الذين قدموا لنا ثمار العمل التي نتمتع بها الآن وأخلافنا سيعرون إلينا الشيء نفسه، سيقولون عنا كانوا مخلوقات ضعيفة لكنهم لم يعملوا لمصلحتهم الخاصة أو لمصلحتنا عن عبث (قسم ٢ ص١٣١)

إن رجال البوليس لم يفلحوا في أن ينترعوا من قلب بروميثوس الأدب الروسي إيمانه العظيم بمستقبل أفضل للبشرية لقد احتفظ تشيرنيسيفسكي بهذا الإيمان طيلة حياته

إن تقدير تشيرنيسيفسكي لنفسه ككاتب في رسائله في ١١ نيسان ١٨٧٧ مهم للغاية أيضاً يكتب موجهاً الكلام لأبنائه:

---

* إن فيورباخ، إذ لا يقبل بهذه الفرضية العامة، تحول في الأعوام الأخيرة من حياته إلى الفكرة القائلة إن أخلاقية الناس تعتمد جداً على وضعهم المادي إن تشيرنيشيفسكي نفسه غالباً ما كرر هذه الفكرة في مؤلفاته.

« لا شك تعلمون إنـا من حيث الأسلوب كاتب سيء للغاية. وقلما تجدون واحداً بالمئة سيئاً مثلي إنما ميزة حياتي الأدبية تكمن في شيء آخر، إنها في حقيقة أنني مفكر قوي (قسم ٢ ص١٢٣)

ليس ثمة أي حاجة أن نبين هنا أن تشيرنيشيفسكي لم يكن سيىء الأسلوب كما يصور نفسه: فأسلوبه في العرض لا يخلو من سحر، ليس فيه روعة، إلا أن فيه الكثير من الوضوح والبساطة غير العادية .ولكن لا شك أنه كمفكر أقوى منه كأسلوبي فيما يتعلق بنشاطه كمفكر، فإنه يذكرنا بموسوعيي القرن الثامن عشر البارزين. إن هدف نشاطه الرئيسي يكمن في تنوير الرأي العام وحتى ينور الرأي العام عليه أولاً أن يسق آراءه في نظام مرتب تقريباً إن كل قطعة من المعلومات التي حصل عليها تشيرنيشيفسكي كانت ثمينة بالنسبة إليه بقدر ما تساعده في إشادة نظرته العالمية الخاصة إن في حوزتـه، مثل الموسوعيين الفرنسيين البارزين كمية كبيرة من المعرفة ولكنه لم يحاول أن يصبح اختصاصياً يقول في الرسالة ذاتها « كانت اللاتينية وحدها التي درسها دراسة الشباب أو الأطفال: الاهتمام بكل تفاصيل فرع المعرفة، من غير تمييز بين ما هو هام وما هو غير هام. أما البقية فقد درستها في سن البلوغ، بذهن مستقل: التمييز بين الوقائع الجديرة بالاهتمام والوقائع غير الجديرة بالاهتمام لذلك، في كل فرع من فروع المعرفة الذي درسته، لم أرغب في حشو رأسي بالكثير من الوقائع التي يسعرضها الاختصاصيون: إنها وقائع فارغة لا معنى لها (قسم ٢ ص١٢٤) ربما يذكر القارىء أن راخميوف في رواية **ما العمل؟** عمل بالنظام ذاته لهذا النظام نواحيه الضعيفة ولكن قوته تكمن في حقيقة أنه يقضي على أحادية الجانب في الأفكار التي يمميز بها الاختصاصيون. وقد أشار تشيزنيسيفسكي محقاً إلى أن أحادية الجانب هذه سادت في كل من العلوم الاجتماعية والطبيعية. يكتب: « العلوم الطبيعية جديرة بكل احترام ولكنها هي الأخرى عرضة لأن تكون أداة للأحاديث الغبية البليدة ويحدث هذا لها بسبة كبيرة لأن الأغلبية العظمى من الطبيعيين، مثل بقية العلماء، هم اختصاصيون ينقصهم الثقافة الأكاديمية العامة، ولذلك عندما يشعرون بالتفلسف فإنهم يخبطون خبط عشواء على الطريقة القديمة، وكلهم تقريباً مأخوذ بالتفلسف (رسالة في ١٥ أيلول ١٨٧٦ القسم ٢ ص٥٧) وكمثال على ذلك يتخذ تشيرنيسيفسكي عادة طريقة غير محظوظة يطبق فيها الماديون فكرة الصراع من أجل

الحياة على مبدأ التطور الاجتماعي وهناك مثال آخر استخدمه هو ما سمي بقانون بير، الذي يقول إن درجة كمال العضوية هي تناسب تفاضلها (على هذا النسق يسوق سيرنيشيفسكي القانون) والتفكير على هذا النحو في رأي مؤلفنا هو تطبيق الأفكار السياسية الاقتصادية على البيولوجيا بصورة عشوائية إنه يعتقد أن التفاضل ليس هو الذي يجب أن يستخدم كقاعدة لكمال العضوية:

« فإن كانت عضوية ذات جهاز عصبي، فإن المستوى الرئيسي لتحديد درجة كمال العضوية هو درجة تطور جهازها العصبي ولكن هل من السهل تحديد درجة تطور الجهاز العصبي بالطرق التشريحية والمورفولوجية عامة؟ لا في معظم إنه عمل خارج نطاقنا ولكن وظائف الجهاز العصبي تلاحظ بسهولة، وجوهر ميزة الجهاز العصبي في أي حيوان يكمن في تلك الوظائف فهل عضوية الفيل أو الجواد أشد تمايزاً من عضوية النعجة أو البقرة؟ لا أظن ذلك. ولكن الحصان أذكى من النعجة، فالحصان أكمل من حيث العضوية. هذه هي القاعدة العامة إن درجة قدرة بقية العضوية على مواجهة متطلبات الجهاز العصبي هي القاعدة الثانوية فمن سلالتين من الخيل بنسبة ذكاء متساوية، النسل الأكمل هو النسل ذو العضلات الأقوى التي لا تعرف الكلل. وثمة قواعد ثانوية أخرى، ليس العضلات فقط، فهناك القدرة المعدية لهضم الطعام، وقدرة أعضاء الحركة على تحريك العضوية (في حالة الخيل تقاس قدرة التحريك بقوة الحوافر) ودرجة صحة العضوية عامة (والظن أن هذه هي قدرة ثبات الدم في تركيبه الطبيعي) الخ الخ ولكن هذا كله هو قواعد فيزيولوجية لا قواعد مورفولوجية يسملها قانون بير، ومتصلة فعلاً بالقواعد الفيزيولوجية، ولكنها ليست ذات أهمية مباشرة إلا للرسامين وهواة التأمل الفني الآخرين (قسم ٢ ص٥٨)

ولكن تشيرنيشيفسكي يقدم تحفظاً بأن المستوى المقدم لتحديد درجة تكامل عضوية ما لا يمكن تطبيقه على علم النبات ومن الواضح أن سبب هذا هو أن النبات لا يملك جهاراً عصبياً إلا أن قسماً كبيراً من مملكة الحيوان لا تملك أيضاً هذا الجهاز ولذلك فإنه يمكن أن يطبق فقط في علم الحيوان مع تحفظ كبير إلا أن دراسة هذه المسألة تجعلنا ننحرف عن الموضوع الرئيسي إنني أود فقط أن أبين أن المستوى الذي طبقه تشيرنيسيفسكي لتحديد درجة تكامل عضوية ما لا تنحصر أهميته فقط في البيولوجيا، حسب رأيه وهذا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بآرائه التاريخية إن التقدم يتم عن طريق

تحسين الأفكار والعادات الإنسانية. هذا التحسين يعتمد على نمو القدرة التفكيرية. ونمو القدرة التفكيرية يحدده عضو التفكير، أي الدماغ (انظر تشيرنيشيفسكي، المؤلفات الكاملة المجلد ١٠ قسم ٢ المقطع ٤ ص ص١٨٢-١٨٣). وهكذا فإن المستوى المشار إليه يوحد التطور التاريخي للعنصر البشري مع تطوره الحيواني. وثمة مبرر للاعتقاد أن مؤلفنا كان مستاء من تدني اهتمام علماء الحيوان بهذا المستوى، لذلك قيمه كما يقيمه المؤرخ

إن الاستياء من أحادية الجانب في الأفكار السائدة بين علماء الطبيعة يقابله أيضاً عند تشيرنيشيفسكي رفض «الأفكار العامة القديمة» التي امتلأت بها، حسب رأيه، كتب التاريخ يكتب في رسالته في ١٧ آذار ١٨٧٦ «يوجد الكثير منها بحيث أنك لو أحصيت لكنت كمن يحصي النجوم في درب التبانة، أو حبات الرمل في شاطىء البحر ولكن السمة العامة لها كلها، قديمها وجديدها، هي أنها تناقض قواعد الشرف والطيبة. الطيبة والعقلانية مصطلحان متساويان مبدئياً إنهما الصفة ذاتها للوقائع ذاتها منظوراً إليها من زوايا مختلفة، فما هي عليه العقلانية من زاوية نظرية، هي ما عليه الطيبة من زاوية عملية والعكس بالعكس: فما هو طيب هو بالضرورة عقلي هذه هي القاعدة الأساسية لفروع المعرفة المرتبطة بالحياة الإنسانية، لذلك فإنها الحقيقة الأساسية للتاريخ الشامل. إنّه القانون الأساسي لطبيعة الكائنات المفكرة. وإذا كان ثمة كائنات مفكرة في أي كوكب آخر فإنه أيضاً قانون حتمي لحياتها، مثلما قوانين أرضنا في الميكانيك والكيمياء محتومة بالنسبة لحركة الأجسام، ومثل تجمع العناصر في ذلك الكوكب أيضاً إن أساس الوقائع التاريخية في كل زمان ولدى كل الشعوب هو الشرف والوعي» (القسم ٢ ص١٩).

فإذا كنا، بعد تمثل هذه «الحقيقة الأساسية لكل فروع المعرفة المتعلقة بالحياة الإنسانية نحاول أن نقيم عليها طريقة في دراسة الظواهر الاجتماعية، فسوف نصاب بالفشل الذريع إن مهمة الدراسة العلمية هي اكتشاف الأسباب التي أدت الى تقدم محدد في التطور ومن هذه الراوية فإن الطيبة والعقلانية اللتين نلاحظهما في حياة الناس الاجتماعية هما نتائج قدمتها أسباب لا يمكن تقييمها بالاعتماد على الطيبة والعقلانية. ولكن تشيرنيشيفسكي نظر إلى الظواهر الاجتماعية من زاوية عملية لم يكن مهتماً بما كان وإن اهتم بهذا باعتباره شخصاً مثقفاً جداً بقدر ما اهتم بما

يكون. إنه يقول في المقطع الأخير من كتابه **موجز الاقتصاد السياسي** هذا القول «لم يخصص موجزنا ليشتمل على ذلك الجزء من النظرية الذي يعتبر في رأينا أهم ما في العلم. هذا هو رأي المصلح العملي، رأي العمل المباشر ومن زاوية العمل المباشر حازت ملاحظات تشيرنيشيفسكي عن الطيبة والعقلانية في حياة المجتمع أهمية بالغة. وكقاعدة عملية يسترشد بها رجل العمل المتقدم اجتماعياً، تتطابق فكرة تشيرنيشيفسكي كلمة كلمة تقريباً مع ما جاءت به الأممية في خطابها التدشيني إلى بروليتاريا العالم. وفيما يتعلق بالسياسة العالمية جاء في البيان أنه حان الوقت لإعلان «القوانين البسيطة في الأخلاق والعدالة كمقاييس لا بد أن تحدد العلاقات المتبادلة ليس فقط بين الأفراد، بل أيضاً بين كل الأمم»[١٣٦]

وإن ما يميز تشيرنيشيفسكي هو موقفه من نكراسوف. ففي رسالة ١٤ آب ١٨٧٧ قال مخاطباً بيبين:

«من الطبيعي أنني قرأت قصائد نكراسوف في **أوتشيستيفيني زابسكي** التي تقول إنه ينتظر الموت، ضعيفاً متألماً من المرض الوبيل. ورأيت أن هذا لم يكن زخرفة لجعل الأفكار أكثر شاعرية، بل إنه الحقيقة الواقعية ومع ذلك وددت لو أنني احتفظت بأمل إقناع نفسي إنه سيتعافى لقد اعتقدت أنه كان عجر السن، وكان هذا سابقاً لأوانه بالنسبة إليه، وربما كان بإمكان أطبائه أن يعالجوه كنت شديد الحزن إذ قرأت أن موته كان محتوماً ووشيكاً عندما كتبت رسالتك الثانية؛ فإن تسلمت رسالتي ونكراسوف لا يزال حياً فقل له إني أحبه جماً كشخص وأشعر بالامتنان له للطفه معي، وأقبله مقتنعاً أن شهرته خالدة، وحب روسيا له، وهو أنبل وألمع من جميع الشعراء الروس، حب أبدي.

«بكيته كان في الحقيقة رجلاً في غاية النبل نفساً وغاية العظمة فكراً ويقف كشاعر فوق كل الشعراء الروس (قسم ٢ ص ٢٠٠)

وحمل بيبين تلك الكلمات من تشيرنيشيفسكي إلى الشاعر المحتضر نكراسوف، وأكبر الرجلان هذا الإنسان الذي تحمل الكثير بسبب الاتهامات الكاذبة أما رأيه في أن نكراسوف أعظم شاعر روسي، فقد شاركته فيه كل الانتلجنسيا في ذلك الزمن. وعندما قال دستويفسكي في خطاب على قبر نكراسوف أنه «يأتي مباشرة بعد بوشكين وليرمنتوف» انطلقت الصيحات: «إنه فوقهم جميعاً إنه فوقهم من مجموعة من

الشباب الثوري في المقبرة وقد كان كاتب هذه الأسطر بين أولئك الدين صاحوا

والخلاصة لا بد من كلمة أو كلمتين حول هذه القضية. كان ثمة كثير من اللغط هنا حول المرحوم تولستوي الذي أبرزوه على أنه « معلم الحياة الذي لا يصاهى ولكن يكفي أن نقارن بين رسائل تشيرنيشيفسكي من سيبريا ورسائل تولستوي التي اطلع عليها عامة القراء لنتحقق عددها من مِن الكاتبين يجب علينا أن نتعلم منه الحياة.

٢ - مؤلفات عن
ف.غ بيلنسكي

بيلنسكي والواقع العقلي(١٢٧)

[١٨٩٧]

لوسيفور: أليس هذا سعيك من أجل المعرفة؟

كين: بلى، لكونها طريقاً إلى السعادة

بايرون «كين»

في ذلك الزمن كنا نبحث في الفلسفة عن كل شيء ما عدا الفكر المحض

تورجنيف

١

يقول فولنسكي «المسألة الأساسية لتأثير هيغل في النظرة العالمية لبيلنسكي طرحها معظم النقاد الروس، ولكن لم يدرسها أي منهم بعمق عن طريق مقارنة بعض آراء بيلنسكي بمصدرها الأولي، ولم ينظر أي منهم في المضمون الأصلي الفعلي لآرائه الجمالية باهتمام خاص، ولا أخضعها لتمحيص حيادي على أساس قاعدة نظرية معينة»*

كل هذا ليس مدهشاً نظراً لحقيقة أننا قبل ظهور فولنسكي لم يكن لدينا فلسفة «واقعية ولا نقد «واقعي فإن عرفنا شيئاً فإنما نعرفه بطريقة بليدة مشوشة. ولكن الآن بفضل فولنسكي سوف نثري ذخيرتنا البائسة في المعرفة، ونضعها تحت الطلب إن فولنسكي مرشد موثوق فلننظر مثلاً كيف سوف يحل «المسألة الأساسية لتأثير هيغل في النظرة العالمية لبيلنسكي

«نمافكر بيلنسكي وتطور تحت تأثير حلقة ستانكيفتش من جهة وإعادة تشكيل الانطباعات التي تركتها فيه مقالات نادزدين تشكيلاً مستقلاً من جهة أخرى، فوصل

---

* فولنسكي «النقاد الروس» ص ٣٨

ذروته وقد انتهت مرحلة شيلنج بالنسبة إلى بيلنسكي في ١٨٣٧ فاحتلت فلسفة هيغل التي وصلت إليه من المحادثات مع أصدقائه، ومن خلال مقالات في الصحف والترجمات، المحور المركزي في نشاطه الأدبي والفكري. وهنا يظهر بوضوح عجز بيلنسكي على استخلاص النتائج المنطقية المستغلة فيما يتعلق بالمسائل السياسية والمدنية من النظريات الفلسفية المعقدة. إن التفكير المنظم لم يتأت لبيلنسكي بسهولة. لقد تأثر كثيراً بتعاليم هيغل، ولكن لم تكن لديه القدرة على استيعاب تلك التعاليم في كل أجزائها ونتائجها لقد سهل هيغل خياله، ولكنه لم يحرض إبداعه الفكري. وحتى نقوم بدراسة كاملة للفرضيات الأساسية للمثالية كان لا بد من التحلي بالصبر كان لا بد من توقيف طيران الخيال والمشاعر لحظة، حتى نمنحها أجنحة جديدة فيما بعد بيد أن بيلنسكي لم يكن قادراً على البحث بهدوء عن الحقيقة - فكل هيغليّته، وما أشبهها بحماسته لشلنج على الشكل الذي عرضه نادزدين، كانت مليئة بالأخطاء والأحلام الغريبة ذات الطبيعة التصالحية والمحافظة »*

وهكذا يدهش السيد فولنسكي لمصالحة بيلنسكي الوقتية مع الواقع ولا يستطيع تفسيراً إلا بالقول إن بيلنسكي لم يفهم هيغل تماماً والحق نقول إن هذا التفسير ليس جديداً إنه موجود أيضاً في كتاب هرزن **أيامي الغابرة وأفكاري**، وفي ذكريات تورجنيف، وحتى في رسالة من ستانكيفيتش إلى نيفيرو، التي كتبت مباشرة عقب ظهور المقالات الشهيرة عن بورودينو ومينزل. أما السيد فولنسكي فليس له سوى الملاحظات الخبيثة عن جهل بيلنسكي والسوانح الذكية في تفوق **فولنسكي**، « بروميثوس عصرنا تفوقاً فكرياً لا يجارى.

للوهلة الأولى يبدو التفسير الذي قدمه السيد فولنسكي - وله عدة أوجه - مقنعاً تماماً قال هيغل «كل ما هو واقعي عقلي» وعلى هذا الأساس أسرع بيلنسكي وأعلن، بشيء من القدسية والمهابة، أن كل الواقع الروسي البشع في ذلك الزمن عقلي، وطفق يهاجم بعنف كل أولئك الذين لم يقتنعوا معه. والمقالات التي عبر فيها عن تلك الآراء التصالحية كانت مقالات « فخرية » كما قال عنها وقتها غرونوفسكي الليبرالي المحتشم المتواضع ولكن الملامة في ذلك ليست على هيغل: فمبدؤه ذو الطبيعة العقلية

* فولسكي النقاد الروس ص ٩٠.

لكل ما هو واقعي له معنى خاص جداً لم يفهمه بيلنسكي الذي لم يكن يعرف الألمانية ولم يتحل بالقدرة على « الفكر المحض ». وفيما بعد، خصوصاً تحت تأثير انتقاله إلى بطرسبرج شعر كم كان مخطئاً، وبات واعياً للصفات الحقيقية لواقعنا ولعن أخطاءه الميتة. هل هناك أبسط من هذا؟ إن المشكلة الوحيدة هي أن هذا التفسير المبسط لا يفسر شيئاً أبداً

ومن غير الغوص في دراسة كل وجوهه، سوف نلاحظ أن آباء أرضنا الأم « التقدميين » الحاليين (أي سوسيولوجيينا المحترمين) نظروا إلى المقالات عن بورودينو ومينزل بالطريقة نفسها مثلما يجب أن ينظر الأب في التوراة إلى « أخطاء الطيش » من ابنه المبذر بعد أن يسامح بشهامة الناقد اللامع لأخطائه « الميتافيزيائية » يتحول إليها « التقدميون » باشمئزاز متبعين المثل القائل: « ما فات مات ». ولكن هذا لم يمنعهم من التلميح، بمناسبة وبغير مناسبة، إلى حقيقة أنهم هم « التقدميون » الذين يعرفون كل الحقائق الفلسفية والسوسيولوجية من المهد تقريباً، ويفهمون مدى عمق تلك الأخطاء ومدى هوة « السقوط » الذي قاد إليه انجراف بيلنسكي غير المناسب وغير الحكيم، وإن كان لحسن الحظ موقتاً، إلى « الميتافيزياء ويذكّرون أيضاً الكتاب الشباب، كورونات[١٢٨] الأدب غير المحترمين، الذين يجرؤون على الشك في صحة تعاليم « المتقدمين » الجليلة ويهرعون إلى المصادر الأجنبية بهدف الحصول على فهم أفضل للمسائل المتعلقة بالبشرية المتحضرة الحديثة، بهذا « السقوط ». فيخبرون أولئك الكتاب الشباب: كونوا حريصين، وليكن هذا درساً لكم..

ويكون أحياناً أن الكتاب الشباب يخافون من هذا الدرس فينقلبون من كورونات غير محترمة إلى كورونات محترمة، ويقدمون تحية الوداع الساخرة لـ « القبعات الفلسفية » الأجنبية ولـ « التقدم » الأجنبي بحسب « صيغ التقدم » المدجنة محلياً وهكذا فإن مثال بيلنسكي يستخدم لتعضيد سلطة « سوسيولوجيينا المحترمين ».

إن بيلنسكي لدى أحد هؤلاء السوسيولوجيين، وهو السيد ميخائيلوفسكي، ظل شهيد الحقيقة طيلة حياته. لقد امتلك موهبة بارزة كناقد أدبي. « وسوف تمر سنوات عديدة ويأتي ويذهب نقاد كثيرون، إلا أن بعض آراء بيلنسكي الجمالية سوف تبقى صامدة. ومع ذلك ففي هذا الميدان وحده وجد بيلنسكي مصدراً دائماً تقريباً لتسلية نفسه. وحالما تصبح الظاهرة الجمالية مختلطة بعناصر فلسفية وأخلاقية - سياسية، فإن

شعوره بالحقيقة يجعله يتدنى إلى حد ما، بينما تعطشه بقي هو نفسه، وهذا ما جعله شهيد الحقيقة التي يظهرها في رسائله »*

إذا كان شعور بيلنسكي بالحقيقة جعله يتدنى في كل مرة تختلط فيها الظاهرة الجمالية بعناصر فلسفية وأخلاقية – سياسية، فمن البديهي أن مرحلة حماسته للفلسفة الهيغلية تنطبق تماماً على هذه القاعدة العامة. إن كل هذه المرحلة لا تثير في السيد ميخائيلوفسكي شيئاً سوى الحدب العاطفي على « شهيد الحقيقة »، وربما أيضاً حس الاشمئزاز من « الميتافيزياء ». ويرافق حدبه العاطفي احترام كبير. إلا أن الاحترام هو فقط لحكمة بيلنسكي، أما بالنسبة إلى الأفكار الفلسفية و« الأخلاقية – السياسية » التي عبر عنها في هذا الزمن، فإن السيد ميخائيلوفسكي يعتبرها لا شيء، يعتبرها عبثاً

هذا الرأي عن تصالح بيلنسكي الموقت مع الواقع هو من حيث الأساس رأي فولنسكي الذي اقتبسناه من قبل. إن الفرق الوحيد هو أن المصالحة، في رأي ميخائيلوفسكي، « كانت بسبب هيغل » بينما في رأي فولنسكي، استعارها من ستانكيفيتش وهرزن وغرانوفسكي وتورجنيف وآخرين، ولا علاقة لهيغل بهذه المصالحة. ولكن الاثنين – السيد فولنسكي والسيد ميخائيلوفسكي – مقتنعان تماماً أن الآراء التصالحية لبيلنسكي خطيئة فظيعة.

ولكن مهما كان رأي هذين الإنسانين الرفيعين، أحدهما علامة في السوسيولوجيا والآخر في الفلسفة، رسمياً، فإننا نغامر بعدم الموافقة معهما إننا نؤمن أن بيلنسكي خلال المرحلة التصالحية من تطوره، وبالضبط في الميدان « الأخلاقي – السياسي »، عبر عن الكثير من الأفكار التي ليست فقط جديرة بكائن مفكر (كما قال ذلك بايرون في مكان ما) بل إنها جديرة حتى هذه الأيام باهتمام كل أولئك الذين يرغبون في العثور على رأي صحيح في تقدير الواقع المحيط بنا وحتى نقيم الدليل على صحة هذا الرأي النظري، علينا أن نبدأ بالموضة الشائعة.

٢

في رسالة فولتير عام ١٧٦٤ إلى المركيز شوفلين، تنبأ بانهيار النظام الاجتماعي القديم في فرانسا قال: « سوف تكون ضجة كبيرة » وأضاف « إن الشباب محظوظون:

---

* أنظر مقالة « برودون وبيلنسكي » التي زين بها بافلنكوف طبعته لمؤلفات بيلنسكي.

سوف يعاينون أشياء رائعة ». لقد صحت نبوءة فولتير من أن « الضجة » كانت فعلاً ضجة رائعة، ولكن يمكن القول بثقة أنها لم تكن حسب ما يرغب الكثير من الناس الذين عاشوا ليروها ولينتموا إلى الاتجاه ذاته الذي ينتمي إليه زعيم فيرني. إن الزعيم لم يتعاطف مع « الغوغاء »، وكانت الغوغاء نفسها، في قسمها الأكبر، هي التي أحدثت الضجة في نهاية القرن الماضي. والواقع إن سلوك الغوغاء لفترة كان منسجماً تماماً مع آراء « الناس المحترمين ».. أي البرجوازية الليبرالية والمثقفة. ولكن الغوغاء رويداً رويداً وصلت إلى درجة باتت غير محترمة، فتجرأت وطرحت أن « الناس المحترمين » يئسوا، وبدؤوا بعد أن شعروا أن الغوغاء غير المتنورة والبائسة تهاجمهم، يشكون جدياً بقوة ذلك العقل الذي عمل بهديه فولتير والموسوعيون، والذي وضع في دفة الأحداث ممثلي الغوغاء الخاصين وزعمائها، أي البرجوازيين المتنورين. ومن ١٧٩٣ بدأ جميع أولئك الذين شعروا أنهم نبذوا من مراكزهم وحاصرهم انتصار الغوغاء المرعب وغير المتوقع، يفقدون الإيمان بقوة العقل. إن الأحداث التي أعقبت ذلك من حروب وانقلابات دائمة، حيث هيمنت القوة العسكرية فيها المرة بعد الأخرى على ما رآه المتنورون جمعاً أنه حق لا نزاع فيه، استطاعت، أن تزيد فقط خيبة الأمل التي ابتدأت: لقد طفقوا يسخرون من متطلبات العقل. وهكذا نرى أنه في نهاية القرن الثامن عشر كان الإيمان بالعقل في أدنى جزر فعلاً، مع أنه خلال مرحلتي القنصلية والإدارية استمر الأيديولوجيون بقوة العادة في تمجيد الفعل والحقيقة، فإنهم فعلوا ذلك الآن من غير الحماسة السابقة، فكان تأثيرهم تافهاً، ولم يلتفتوا إلى العامة التي، مثل بونتيوس بيلات تساءلت الآن بابتسامة شك: « ما هي الحقيقة؟ » وتقول مدام دي ستايل المشهورة جيداً بين الانتلجنسيا الفرنسية في ذلك العصر، إن الأغلبية المرعوبة من مجرى الأحداث، التي فقدت كل رغبة في الكمال الذاتي و« التي خضعت لسلطة الصدفة، كفت عن أن تؤمن في قوة القدرات الإنسانية »*

---

* تقول في مقدمة كتابها « الأدب وعلاقته بالمؤسسات الاجتماعية »: « إن معاصري الثورة... فقدوا كل اهتمام في البحث عن الحقيقة. وهكذا فان كثيراً من الأحداث قررتها القوة، وإن كثيراً من الجرائم غفرها النجاح، كما أن كثيراً من الفضائل سحقها سوء الاستخدام، وكما أن القوة تسبب الحظ العاثر، كذلك العواطف النبيلة تصبح عرضة للسخرية، وهكذا نجد الكثير من الحسابات الحزبية فلسفياً - كل هذا يضعف أمل أولئك الذين أوغلوا في عبادة العقل ».

هذا التحرر من وهم سلطة العقل، لا يحصر أبداً في فرانسا، وكان بايرون أحد المعبرين عن ذلك. فمانفريد يسمي الفلسفة:

من بين كل تفاهاتنا
الكلمة المبرقشة الوحيدة التي تستغبي الأذن
خارجة من رطانة معلم المدرسة.

إن الأحداث الاجتماعية السياسية في عصر بايرون بدت له بلا معنى وتسلية قاسية من « **نيمسيس** »، معادية للإنسان، أي من **الصدفة** ذاتها ولكن كبرياءه تتمرد في الوقت ذاته ضد حكم هذه القوة العمياء إن المضمون العاطفي لمانفريد، كما يذهب بيلنسكي، هو بالضبط تمرد الروح الإنسانية على « القدر الأعمى، كفاحها للتغلب على قوى الظلام في الطبيعة والتاريخ إن مانفريد يحل جزئياً هذه المهمة عن طريق السحر ولكن من البديهي أنها تحل بهذه الطريقة فقط في عالم الخيال.

إن فكر الطبقة الثالثة، أي بتعبير أدق، الحس العام للبرجوازية التي كانت تكافح للتحرر من ربقة الحكم القديم، لم تستطع الصمود أمام الاختبار التاريخي القاسي الذي كان من نصيبها، لقد أثبتت افلاسها، وأصبحت البرجوازية ذاتها غير موهومة بذلك. ولكن في حين أن أفراداً متفرقين، وإن كانوا كثيرين، اقتنعوا بزوال الوهم هذا، بل استعرضوه، فإن هذا كان مستحيلاً تماماً بالنسة إلى الطبقة ككل، بالنسبة إلى كل الطبقة الثالثة السابقة في وضعها التاريخي في ذلك الوقت. إن التغير السريع الضخم العاصف للأحداث السياسية جعل الشخصيات الاجتماعية في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر تشك في سلطة العقل. إن التقدم اللاحق لتلك الأحداث منح دفعات جديدة لتطور الفكر الاجتماعي، وقدم محاولات جديدة للمفكرين لاكتشاف الدوافع الخفية للظواهر الاجتماعية.

خلال فترة الإصلاح في فرانسا تجددت المنافسة القديمة والتي ترجع إلى قرون بين البرجوازية والارستقراطية (دينياً ودنيوياً) بقوة جديدة وفي شروط اجتماعية سياسية جديدة. وكان من الضروري في هذا النضال لكل جانب أن يكون قادراً على التنبؤ بالأحداث، على الأقل إلى درجة معينة ومع أن أغلبية المكافحين، كما هي العادة، وضعوا ثقتهم في هذا الميدان فقط في « حسهم العام » واندفعوا بقوة جديدة في ذلك

الوقت، ظهر في بداية العشرينات الكثير من الناس الموهوبين الذين كافحوا لمهاجمة قوة الصدفة العمياء عن طريق التنبؤ العلمي. هذا الكفاح فسح المجال للحديث عن الحاجة إلى خلق العلوم الاجتماعية، كما قدم الكثير من الباحثين الرائعين في حقل التاريخ إلا أن الدراسة العلمية للظواهر هي المادة التي يدرسها العقل. وهكذا فإن مجرى التطور الاجتماعي بعث الإيمان في العقل، وإن واجه العقل بمهمات جديدة، لم تكن معروفة، أو على الأقل لم تكن معروفة إلا قليلاً «لفلاسفة» القرن الثامن عشر

كان عقل ذلك القرن هو عقل «المتنورين». إن المهمة التاريخية للمتنورين كانت تقييم العلاقات الاجتماعية والمؤسسات والمفاهيم الموروثة تاريخياً، من زاوية الأفكار الجديدة التي ولدتها المتطلبات والعلاقات الاجتماعية الجديدة. وما كان يجب عمله في ذلك الوقت، هو فصل الغنم عن الماعز، فصل «الحقيقة» عن «الخطأ»، بأسرع وأدق ما يمكن. وفوق ذلك لم يكن من المهم أبداً أن نعرف من أين انبثق «الخطأ» وكيف نشأ وتطور في التاريخ، إن المهم كان إثبات ما هو «خطأ فقط.

إن أي شيء تعارض مع الأفكار الجديدة اعتبر خطأ، تماماً كما أن كل شيء كان مسجماً معها أُعترف به على أنه الحقيقة، بل الحقيقة المطلقة الأبدية.

إن البشرية المتمدنة جربت مراحل عديدة من التنوير ولكل مرحلة مزاياها الخاصة بالطبع، ولكنها كلها تتميز بسمة متأصلة: الصراع الواسع ضد المفاهيم القديمة باسم الأفكار الجديدة التي اعتبرت حقائق أبدية مستقلة عن أي شروط تاريخية «عارضة إن عقل المتنور ليس أكثر من الحس العام للمبتكر الذي يغمض عينيه عن المجرى التاريخي للتطور الإنساني ويعلن أن طبيعته هي الطبيعة البشرية بشكل عام، وأن فلسفته هي الفلسفة الوحيدة لكل الأزمان ولكل الشعوب.

إن هذا الحس العام المجرد هو الذي أسقطته الضجة في نهاية القرن الثامن عشر لقد أظهرت الضجة أن البشرية في حركتها التاريخية تخضع للعملية التي لا يمكن فهمها ولكنها لا تقاوم، وهي عملية القوى المستترة التي تدمر بلا رحمة قوة «العقل» (أي الحس العام المجرد) حين تتصدى لتلك القوى.

إن دراسة تلك القوى المستترة التي ظهرت أولاً على شكل قوى «صدفة عمياء أصبحت الآن الهدف الواعي لكل الباحثين والمفكرين المهتمين بما يسمى العلوم

الآخلاقية والسياسية* إن القرن الثامن عشر تخلى عن التاريخ أما الآن فكل واحد يحسب له حساباً ولكن حتى ندرس ظاهرة ما دراسة تاريخية يعني أن ندرسها في تطورها لقد سادت نظرية التطور تدريجياً في الفلسفة والعلوم الاجتماعية للقرن التاسع عشر

إننا نعرف أن نظرية التطور أنتجت عملياً ثمرة غنية في الفلسفة الألمانية، أي في فلسفة البلاد التي كانت من الدول الأوروبية القائدة في مجال النظرية فقط (في شخص مفكريها) فكانت بذلك قادرة، من غير أن تنصرف عن النضال العملي، على أن تمتص بهدوء كل إنجازات الفكر العلمي وأن تدرس بعناية أسباب ونتائج الحركات الاجتماعية التي تمت في «الغرب (كما يقول الألمان في ذلك الزمان). إن الأحداث التي تمت في فرانسا في نهاية القرن الثامن عشر لاقت استحساناً كبيراً بين الناس التقدميين في ألمانيا حتى ١٧٩٣ السنة التي أرعبت الأغلبية العظمى لأولئك الناس وجعلتهم يشكون في سلطة العقل، كما كانت الحالة مع البرجوازية الفرنسية المتنورة. إلا أن الفلسفة الألمانية، التي كانت في ذلك الوقت مزدهرة بصورة رائعة، سرعان ما كشفت الطريقة لمهاجمة قوة الصدفة العمياء كتب شيلنج في كتابه نظام المثالية الأصولية (الترانسندنتالية) التي ظهرت تماماً في بداية القرن التاسع عشر في (١٨٠٠) هذا يعني أن الحرية لا يمكن أن تكون إلا نتيجة الضرورة أي القانون المهيمن على التطور التاريخي ولهذا ينتج من ذلك أن دراسة مجرى هذا التطور الخاضع لقانون يجب أن تكون الواجب الأسمى لجميع أصدقاء الحرية الحقيقيين. إن القرن التاسع عشر غني بالاكتشافات العظيمة المتنوعة. ومن أعظمها ذلك الرأي القائل إن الحرية نتيجة الضرورة.

ما ابتدأه شيلنج أكمله هيغل الذي بنظامه وصلت الفلسفة الألمانية المثالية كمالها المجيد بالنسبة إلى هيغل كان التاريخ العالمي تقدماً في وعي الحرية، ولكنه تقدم يجب أن نفهمه ضمن ضرورته. وبالنسبة للناس الذين يعتنقون هذا الرأي «ليس تاريخ البشرية نزوة وحشية لأفعال غير واعية من العنف كلها يدينها نضج الفكر الفلسفي،

---

* لقد عبر عن ذلك بوضوح سان سيمون يقول: «حتى الآن لم يكن علم الانسان سوى علم تخمين. إن الهدف الذي وضعته نصب عيني في هذه الأطروحة هو وضع ختم علم الملاحظة».

والتي سرعان ما تنسى، بل هو عملية تطور الإنسان نفسه صارت المهمة الآن أمام الفكر أن يتبع المسيرة التدريجية لهذه العملية من خلال طرقه الملتوية، وليس تحري القانون الداخلي الذي يجري عبر جميع ظواهره العرضية (انجلر)[١٢٩]

اكتشاف القوانين التي بتأثيرها تحقق التطور التاريخي للبشرية هو تحقيق إمكانية ممارسة تأثير واع على عملية هذا التطور والانتقال من دمية بيد «الصدفة إلى سيد لها وهكذا فتحت المثالية الألمانية للمفكرين إمكانات واسعة جداً أخلت سلطة الصدفة الطريق لانتصار العقل، وباتت الضرورة الأساس الثابت للحرية. ومن السهل أن نتصور مدى الفرحة التي قابل بها تلك الإمكانات أولئك الذين اضطهدهم التحرر العقيم من الوهم والذين ربطتهم بقلوبهم المعذبة مصلحة في الحياة الاجتماعية، و«رغبة في الاكتمال الذاتي لقد أعادت فلسفة هيغل إيمانهم بقوة القدرات الإنسانية، وأعادتهم إلى النشاط الفكري، وآمنوا في سورة حماستهم الجديدة أنه لا بد من تقديم إجابات عن كل الأسئلة الكبرى في المعرفة والحياة، وحل جميع التناقضات وبدء عصر جديد من الحياة الواعية للبشرية. ولقد جرى الإيمان بحماسة بكل ما كان جديداً في ألمانيا في ذلك الوقت، ولكن ليس في ألمانيا وحدها، حسبما نعلم.

٣

قال هيغل ملخصاً محاضراته في تاريخ الفلسفة: «إن الفلسفة الأخيرة هي نتيجة كل الفلسفات السابقة، لم يهدر شيء، لقد تمت المحافظة على كل المبادىء لقد مر زمن طويل قبل أن تظهر فلسفتنا المعاصرة. إن ما نلاحظه سريعاً في ذاكرتنا، يتم بصورة بطيئة في الواقع على أي حال لم تعد الروح العالمية واقفة إنها تتحرك إلى الأمام باستمرار، لأن طبيعتها تتشكل في هذه الحركة الأمامية إنها تبدو أحياناً أنها تقف وقد فقدت كل كفاحها الأبدي للوعي الذاتي ولكنها تبدو فقط أنها تفعل هذا ففي الحقيقة أنه في تلك الفترة التي تبدو فيها واقفة يتم في داخلها عمل داخلي عميق لا يمكن إدراكه حتى تظهر نتائجه، حتى تتناثر الآراء المهجورة أدراج الرياح، وحتى تتحرك الروح نفسها، مجددة صباها، إلى الأمام بخطا جبارة. قال هاملت مخاطباً شبح أبيه: أيها الخلد العجوز ألا تستطيع أن تعمل في الأرض بسرعة؟ والشيء نفسه يمكن أن يقال عن الروح العالمية: إنها تعمل بسرعة.

إن مؤلف **أيامي الغابرة وأفكاري** يسمي فلسفة هيغل جبر التقدم[١٣٠] إن صحة هذا التعليق نابعة من آراء المفكر العظيم الذي اقتبسنا منه. إن الفلسفة المثالية التي تدعي بحماسة أن طبيعة الروح العالمية المكونة من الحركة الدائبة إلى الأمام، لا يمكن أن تكون فلسفة الركود إلا أن هيغل عبر عن نفسه بصورة حاسمة. وكمثال على ذلك سوف نأخذ مقطعاً من محاضراته في تاريخ الفلسفة يتحدث فيه عن محاكمة سقراط

إن انتشار آراء سقراط، في اعتقاد هيغل، كان نذيراً بانهيار شامل لكل بنية الحياة الأثينية ولذلك لا يلام الأثينيون إذا حكموا عليه بالموت، شاعرين أن المفكر الذي يحاكمون كان العدو الفاني للنظام الاجتماعي العزيز على نفوسهم. لكن هذا لا يكفي: لا بد من القول بصراحة أنهم **كانوا مضطرين** للدفاع عن هذا النظام الاجتماعي ولكن لا بد من التسليم أن سقراط كان محقاً من جانبه. لقد كان ممثلاً واعياً لمبدأ **جديد أسمى**، كان بطلاً معه كل الحق لأن الروح كانت بجانبه. «مثل هذا كان الوضع في التاريخ العالمي للأبطال الذين إذ يخلقون بنشاطهم عالماً جديداً، يدخلون في صراع مع النظام القديم ويدمرونه: إنهم خارقو القوانين القائمة. لذلك هلكوا، ولكنهم هلكوا كأفراد، إن عقابهم لم يدمر المبدأ الذي مثلوه إن المبدأ ينتصر بعد ذلك،. وإن كان بشكل مختلف

إن الحركة التاريخية غالباً ما تقدم لنا مشهدين من التصادم العدائي لمبدأين من الحق الحق الأول هو الحق المقدس للنظام الاجتماعي القائم والعلاقة الأخلاقية الوطيدة، والثاني هو الحق المقدس للوعي الذاتي، حرية العلم والحرية الذاتية إن تصادمهما التراجيدي بكل معنى الكلمة، يبيد الناس من غير ذنب: كل جانب محق بطريقته الخاصة.

هذا ما قاله هيغل. وبإمكان القارىء أن يرى أن فلسفته كانت في جوهرها جبراً حقيقياً للتقدم، وإن لم يكن هذا مفهوماً من قبل التقدميين في عصره دائماً لقد تشوش بعضهم بمصطلحاته التي لم تكن مفهومة للشخص غير المتخصص. إن الأطروحة الشهيرة كل ما هو واقعي عقلي وكل ما هو عقلي واقعي اتخذها بعضهم لتكون تعبيراً فلسفياً عن النزعة المحافظة المتشددة. إن هذا، بشكل عام، خطأ فحسب مطنى هيغل لا يمكن أن يكون كل شيء موجود واقعياً الواقع أعلى من الوجود

الواقع واقعياً وجوداً ليس وجود الصدفة («die Wirklichkeit steht als die Existenz») **هو الضرورة**: « الواقع يتجلى كضرورة ». ولكن سبق لنا أن رأينا، حسب اعتقاد هيغل، أن الضرورة ليست ما وجد سابقاً فقط: فالروح العالمية بعملها الدؤوب الذي يشبه عمل الخلد تبلي ما هو موجود وتحيله إلى شكل بسيط خال من المضمون الواقعي وتجعل الضرورة ظهور الجديد يتصارع صراعاً عميقاً مع القديم

إن طبيعة الروح العالمية تتشكل في الصراع الأبدي إلى الأمام. ولذلك أيضاً في الحياة الاجتماعية الحركة الأمامية المستمرة فقط، الحركة الدائمة فقط، الانهيار الآجل أو العاجل لكل ما هو قديم ملفوظ، هو الضرورة وهو العقلي في نهاية التحليل. إن التصادم هو الذي قدمته كل فلسفة هيغل على أنه النظام **الديالكتيكي**.

إلا أن فلسفة هيغل لم تكن فقط نظاماً ديالكتيكياً، لقد أعلنت نفسها أنها **نظام الحقيقة المطلقة**. فإذا كانت الحقيقة المطلقة **قد وجدت من قبل**، فإن هدف الروح العالمية - الوعي الذاتي - **قد تحقق**، وحركتها الأمامية باتت لا معنى لها وهكذا فإن نشدان امتلاك الحقيقة المطلقة وضع هيغل في خلاف مع ديالكتيكه الخاص وجعله معادياً للمزيد من تطور الفلسفة. ولكن لا يزال هذا ليس كل شيء لقد جعله ذلك محافظاً في مجال الحياة الاجتماعية أيضاً فحسب تعاليمه كل فلسفة هي التعبير الأكمل لعصرها فإذا وجدت الحقيقة المطلقة، فإن معنى هذا أنه في عصر يتطابق مع النظام الاجتماعي « المطلق »، أي النظام الذي هو التعبير الموضوعي للحقيقة المطلقة الموجودة في النظرية. وبما أن الحقيقة المطلقة لا يمكن أن تصبح خارج التاريخ إذ تنقلب إلى خطأ، فإن من الواضح أن كل الكفاح لتغيير النظام الذي يعبر عنها إن هو إلا تدنيس فظيع، تمرد فاضح ضد الروح العالمية. بالطبع حتى في هذا النظام « المطلق » من الممكن خلق تحسينات فردية تقضي على النقائص من مخلفات الماضي. ولكن بشكل عام يجب أن يبقى هذا النظام أبدياً لا يتزحزح مثل الحقيقة المطلقة التي يعبر عنها موضوعياً، أبدية لا تتزحزح

إن هيغل، كمفكر عميق وذهن وقاد في النصف الأول من القرن التاسع عشر، كان ابن عصره وابن وطنه. وبما أن مركز ألمانيا الاجتماعي كان أميل إلى الدراسة النظرية لمجرى الأحداث العالمية، فقد كان غير ميال أبداً إلى التطبيق العملي للنتائج التي توصلت إليها النظرية. في الميدان العملي ظل النظريون الألمان الجريئون أعظم

فلسطيبيين مساليس (ماوئيس للثقافة المترجم) ثمة أيضاً كمية كبيرة من النزعة الفلسطيبية عىد رجال عظام مثل غوته وهيغل. إن هيغل في شبابه تعاطف كثيراً مع الثورة الفرنسية، ولكن حبه للحرية بات يضعف مع الأيام، ورغبته في العيش بسلام مع النظام القائم باتت أقوى، بحيث أن ثورة تموز ١٨٣٠ تركت فيه انطباعاً مؤلماً وقد انتقد أحد الهيغليين «اليساريين وهو ارنولد روج الشهير، فلسفة معلمه لأنها دائماً تحصر نفسها في **تأمل** الظاهرات، من دون الكفاح أبداً لتجاوزه إلى **الفعل**، ولأنها في حين تعلن أن الحرية هي الهدف الأكبر للحركة التاريخية، تتعايش في الواقع مع أشد الأنظمة بطشاً ولا بد من التسليم بأن تلك الانتقادات صحيحة، ذلك أن فلسفة هيغل اشتملت فعلاً على العيوب المشار إليها تلك العيوب، التي كانت تدعي، من جملة ما تدعي، أنها تمتلك الحقيقة المطلقة، يمكن العثور عليها في محاضراته في تاريخ الفلسفة، التي تضمنت الأفكار التي لخصناها أعلاه وهكذا يحاول هيغل أن يثبت أن المجتمع الحديث كمعارض للمجتمع القديم يمكن أن ينحصر نشاطه الفلسفي في «العالم الداخلي عالم الأفكار، لأن «العالم الخارجي (العلاقات الاجتماعية) قد وصلت الآن إلى شيء من النظام العقلي، قد «استقر و«تصالح مع ذاته ولكن المظهر الأكثر محافظة في آراء هيغل نجده في كتابه **فلسفة الحق**. إن كل من يقرأ هذا الكتاب بعناية سوف يؤخذ بالعمق الرائع للكثير من الأفكار الموجودة فيه ولكنه سوف يرى في الوقت نفسه أن هيغل هنا يحاول أكثر من أي مكان آخر أن يجعل فلسفته مطابقة مع النزعة المحافظة البروسية وأبرز ما فيه تلك المقدمة التي يقدم فيها تعاليمه عن الواقع المعقول بمعنى يختلف كل الاختلاف عن تلك التي قدمها في **المنطق**

إن يوجد إنما يوجد بحكم الضرورة وحتى نفهم ضرورة ظاهرة ما، علينا أن نكتشف عقلانيتها إن عملية الوعي العلمي تتألف في حقيقة أن الروح تكافح من أجل الوعي الذاتي، وعي ذاتها، وعي عقلها، في ما هو موجود وعلى الفلسفة أن تفهم ما هو موجود ولا بد لعلم القانون، بشكل خاص، من أن يفهم عقلانية الدولة إن هيغل أبعد ما يكون عن أي قصد في «**تركيب الدولة كما يجب أن تكون** مثل هذه التركيبات تافهة: فالعالم كما يجب أن يكون لا وجود له، أو بالأحرى يوجد فقط في رأي شخصي معين، والرأي الشخصي «عنصر هش ذلك أنه يستسلم بسهولة للتعسف الشخصي ويتغير تحت تأثير الغرور والأهواء إن الذي فهم الواقع واكتشف العقل

المسور في داخله لا يتمرد ضده، بل يصبح متصالحاً معه* مبتهجاً به إنه لا يدين حريته الذاتية، بل تتبدى ليس في التنافر مع ما هو موجود بل في الإنسجام معه. بصورة عامة التنافر مع ما هو موجود، عدم الانسجام بين العقل الواعي والعقل المتجسد في الواقع هو نتيجة فهم غير كامل لهذا الواقع، نتيجة الأخطاء في التفكير المجرد الإنسان كائن مفكر، وفي التفكير تكمن حريته، حقه، أساس كل أخلاقيته ولكن هناك أناساً في نظرهم أن الفكر الذي لا يتفق مع أي شيء اعترف به عموماً هو الفكر الحر فقط مع هؤلاء الناس ينقلب حق التفكير المقدس والنبيل إلى نقص في الحق. أولئك الناس مستعدون لأن يضحوا بكل شيء من أجل استبداد حكمهم الشخصي. إنهم يعتبرون قانوناً ما يضع أمراً معيناً على شخص ما على أنه مجرد إشارة باردة ميتة، مجرد قيد على المعتقد الذاتي إنهم يتحدثون بكبرياء عن موقفهم السلبي من الواقع، حيث يفصح هذا الموقف عن ضعف في التفكير، وعن عجزهم الكلي عن التضحية بنزوتهم الخاصة من أجل الصالح العام. لقد قيل منذ زمن بعيد أن نصف المعرفة تضعف الإيمان بالله، والمعرفة الحقيقية تزيد الإيمان به. والشيء نفسه يمكن أن يقال عن موقف الناس من الواقع المحيط به: نصف المعرفة تحضهم ضده، والمعرفة الحقيقية تصالحهم معه هذا ما يعلله هيغل هنا**

صحيح تماماً أن علم القانون يجب ألا يأخذ «الدولة كما يجب أن تكون إن مهمه أن يفهم ما هو كائن وما كان، أن يفسر التطور التاريخي لمؤسسات الدولة لقد كان هيغل محقاً تماماً في مهاجمته أولئك الليبراليين السطحيين (يجب أن نقول الداتيين في هده الأيام) الذين يعجزون عن ربط «مثلهم» بتطور الواقع المحيط بهم، ويظلون إلى الأبد في مجال الأحلام الذاتية ولكن ليست الليبرالية فقط هي التي يهاجمها هيغل إنه يعترض على كل الكفاح التقدمي الذي لا ينطلق من المجالات الرسمية وفوق ذلك إنه هنا يعتبر كل ما هو موجود ضرورة، وبالتالي فهو «معقول لسبب بسيط، هو أنه موجود فقط إن التمرد على ما هو موجود هو تمرد على العقل كل هذا مدعوم

---

* نطلب من القارىء ان يلاحظ أن تعبير «مصالحة الواقع استخدمه هيغل نفسه

** من المهم أن نقارن هذا الرأي المنسوب إلى أعظم المثاليين الألمان برأي عبر عنه معاصرة الفرنسي العظيم سان سيمون: «ليس الفيلسوف ذاك الذي يلاحظ فقط، انه يمثل من الدرجة الأولى في العالم الأخلاقي، لأن آراءه هي التي سوف تحكم المجتمع البشري

بالحجج التي أخذت من المناقشات المشار إليها أعلاه حول مصير سقراط وحول الحق المقدس للوعي الذاتي والحرية الذاتية لقد انقلب هيغل من مفكر يتأمل بدقة الحركة التاريخية للبشرية ويصل إلى نتيجة هي أن الحركة إلى الأمام تؤلف طبيعة الروح العالمية، إلى محافظ ربي مستثار، مستعد أن يطلب النجدة لدى أدنى محاولة جديدة لـ «الخلد القوي الأبدي الذي يقوض بناء المفاهيم والمؤسسات القديمة

ينتج عن ذلك أن تعاليم هيغل عن عقلانية كل ما هو واقعي قد أساء الكثير فهمها، واللوم في ذلك يقع على هيغل نفسه أولاً، لأنه قدم تفسيراً غيرديالكتيكي غريباً جداً وأعلن أن النظام الاجتماعي البروسي في ذلك الوقت يجسد العقل. وهذا هو السبب في أنه يبدو غريباً أن فلسفة هيغل لم تفقد تأثيرها في المفكرين لذلك الزمن. ولكن مهما كان ذلك غريباً فان الحقيقة تظل: لم يبدأ التمرد ضد النتائج المحافظة التي استخلصها هيغل من فلسفته - التي في أساسها تقدمية تماماً - إلا مؤخراً جداً، فبظهور فلسفة الحق لم يكن سوى قلة قليلة جداً من الليبراليين ضد هيغل، وكل الناس الجادين الشباب النشيطين تبعوه بحماسة، على الرغم من تناقضاته ومن دون ملاحظتها إن هذا يفسره، بالطبع، تخلف الحياة الاجتماعية في ألمانيا في ذلك الرمان ولكن في القرن السابق، في عصر ليسغ، كانت هذه الحياة أكثر تخلفاً، ومع أن المفاهيم الفلسفية السائدة في ذلك الوقت لم تكن تشبه مفاهيم هيغل، فلو قدر لهيغل أن يظهر في ذلك الوقت لما اتبعه أحد على الأرجح. لماذا؟ لأنه «يكفي اليوم شره» ولأن البشرية المفكرة واجهت في القرن التاسع عشر فقط المهمة الكبرى التي وعدت فلسفة هيغل بتقديم جواب عنها الدراسة العلمية للواقع، التفسير العلمي للتطور التاريخي للبشرية في المجالات الاجتماعية والسياسية والفكرية باعتباره ضرورة وعملية يحكمها قانون. لقد سبق وقلنا أن مثل هذا الفهم للتاريخ فقط يمكن أن يقضي على الرأي المتشائم القائل بمملكة الصدفة العمياء لذلك حيث تم العمل الخفي «للروح العالمية» حتى بدرجة خفيفة، حيث «الخلد» كان يمهد الأرض لحركات اجتماعية جديدة، فان العقول الفتية تسرع إلى دراسة الفلسفة الهيغلية. وكلما ازدادت مطالب الفكر النظري جدية في الرؤوس الفتية، كانت الرغبة في التضحية الذاتية باسم المصلحة العامة أقوى في قلوب الشباب، وازدادوا انجرافاً نحو الهيغلية. إن التمرد ضد النتائج المحافظة التي رسمها هيغل،

والتي بدأت مؤخراً كان مبرراً تماماً ولكن يجب ألا ننسى أن هذا التمرد كان مبرراً بالمعنى الفلسفي فقط إذ يقع على عاتق ديالكتيك هيغل، أي بشكل رئيسي على تفسير ما هو تاريخي على أنّه عملية خاضعة لقانون، وعلى فهم الحرية على أنها **نتيجة** الضرورة.

٤

يمكننا الآن أن نعود إلى بيلنسكي.

انطلاقاً من تاريخ تطوره الفكري، دعنا نلاحظ أولاً أنه في شبابه الباكر تمرد بقوة على الواقع الروسي في تلك الأيام إننا نعرف أن التراجيديا التي كتبها عندما كان في الجامعة والتي سببت له مشكلة كبيرة كانت احتجاجاً جريئاً ضد القنانة، وإن لم تكن قوية من الناحية الفنية. لقد كان بيلنسكي إلى جانب الاقنان بكليته

يتساءل أحد أبطاله: « بالتأكيد لم يولد هؤلاء الناس فقط للقيام بخدمة نزوات أناس أمثالهم، فمن أعطى هذا الحق المشؤوم لبعض الناس لاستعباد كائنات اخرى مماثلة لهم، لتنتزع منهم كنزهم المقدس الحرية؟ من سمح لهم أن ينتزعوا حقوق الطبيعة وحقوق البشرية؟ إن السيد الرحوم، والد جميع الناس سألني هل يدك الحكيمة أنتجت للعالم تلك الأفاعي، تلك التماسيح، تلك النمور التي تتغذى بعظام ولحوم مثيلاتها وتشرب الدماء والدموع مثل الماء »[١٣١]

هذا التقريع على حماسته سيكون مشرفاً لكارل مور نفسه والحقيقة أن بيلنسكي كان متأثراً كثيراً بمؤلفات شلر الأولى: **اللصوص وكابال والحب وفيسكو** وكما قال نفسه، فان هذه المسرحيات خلقت فيه « عداءً ضارياً ضد النظام الاجتماعي باسم المثال المجرد للمجتمع المنفصل عن شروط التطور التاريخية والجغرافية، والمبني في الهواء

ولم تكن مؤلفات شلر المشار إليها هي وحدها التي أثرت فيه قال: «لقد دفعني دون كارلوس إلى البطولة المجردة التي بدونها أحتقر كل شيء والتي بها، على الرغم من نشوتي غير الطبيعية، كنت واعياً أنها غير هامة نهائياً لقد دفعتني عذراء أورليانز إلى البطولة المجردة نفسها، إلى التعميم الخاوي نفسه، من غير أي تحديد فردي إننا ناشد القارىء أن يلاحظ هذا التعليق الهام بقلم ناقد شهير بحق نفسه حماسة الشباب « **المثال المجرد للمجتمع** » مرحلة هامة جداً في تاريخ تطوره الثقافي، التي لم تلفت الانتباه إليها حتى هذه الأيام. وهكذا لا أحد، في حدود معرفتنا، أكد على حقيقة أن هذا الفتى الموهوب الغيور كان مفعماً « البطولة المجردة »، وكان في الوقت نفسه

« واعياً لعدم أهميتها نهائياً ». هذا الوعي مؤلم للغاية. انه، من جهة، يثير شكوكاً مؤلمة بالنسبة إلى حقيقة المثال المجرد، ويحاول، من جهة أخرى، أن يجد الأساس الحسي لنزوعاته الاجتماعية. إن الوعي المؤلم لكون البطولة المجردة « غير هامة نهائياً كان سمة يختص بها بيلنسكي وحده في ذلك الزمن. وقبل هذا بقليل كانت نزوعات الانتلجنسيا التقدمية في العشرينات قد سحقت، وساد الأسى واليأس بين المفكرين* لقد قيل إن نادزدين مارس تأثيراً قوياً على تكوين آراء بيلنسكي، على الأقل خلال المرحلة الأولى من تطوره. ولكن هل كان ثمة أي شيء خاص متطابق مع آراء نادزدين نفسه؟ كانت الحياة الروسية بالنسبة إليه: « غابة كثيفة من الأسماء الباهتة المتدافعة في فراغ العماء الذي لا حياة فيه »، لقد كان يشك فيما إذا كنا قد عشنا عبر آلاف السنين من الوجود الروسي. إن حياتنا الثقافية تبدأ فقط مع بطرس، وحتى الآن « كل شيء أوروبي يأتي (إلينا) مرتداً، عبر آلاف القفرات والانكسارات ولذلك لا يصل إلينا إلا الأصداء الضعيفة الخافتة

« حتى الآن كان أدبنا مهمة أوروبية، فهو مكتوب بأيدٍ روسية، ولكن بطريقة غير روسية، لقد أريقت عصارة الروح الروسية الفتية بغية الحصول على ثمار أجنبية غربية »**

هذا ما أعلنه شادييف وفي مقالة بيلنسكي الأولى الشهيرة « أحلام أدبية » عبر عما يبدو رأياً متفائلاً في مستقبلنا، إن لم يكن في ماضينا وحاضرنا وبعد أن يلاحظ أن ما نحتاجه ليس الأدب، الذي سوف يظهر في الوقت المناسب، بل التنوير، فيعجب قائلاً:.

« ولن يركد هذا التنوير بفضل العناية الواعية لحكومتنا العاقلة. إن الشعب الروسي ذكي فطن غيور تجاه كل ما هو رائع وجيد، عندما تشير يد راعيه القيصر إلى الهدف، عندما يدعو صوته القوي الشعب إلى ذلك الهدف.

---

* أنظر في هدا هرزن **حول التطور** الخ باريس ١٨٥١ صص ٩٧-٩٨

** لم تتوفر مقالات نادزدين بين أيدينا، فقد اضطررنا إلى الاقتباس من كتاب السيد بيبين (**بيلنسكي، حياته ومراسلاته**) المجلد ص ٩٥ ولا حاجة أن نضيف هنا أننا أخذنا معظم المعلومات فيما يتعلق بتطور بيلنسكي الثقافي من هدا الكتاب كل ما في الأمر أننا رتبنا المعلومات ترتيباً مغايراً.

بحسب رأيه يجب فقط على مؤسسة من طبقة المعلمين الروس، أن تقوم بمعجزات حقيقية في مجال التنوير بالاضافة إلى أن النبلاء قد اقتنعوا أخيراً بضرورة تقديم ثقافة جيدة للأطفال، وسرعان ما تشكلت « طبقتنا التجارية، الطبقة العليا في هذا المجال ». وباختصار إن عمل التنوير هو خلق تقدم حقيقي هنا: « إن البذور الآن ناضجة للمستقبل ».

كل هذا بالطبع كُتب بوعي: فعندما كتب بيلنسكي مقالته أراد أن يؤمن، وقد آمن، في سورة حماسته، أن التنوير سرعان ما ينتشر في روسيا ولكن في حالات هدوئه، عندما بردت حرارة حماسته، لم يستطع أن يرى أن الأسس التي بنى عليها إيمانه بحركة تنوير سريعة، كانت مزعزعة جداً وهل يمكن لنجاحات التنوير - مهما كان « سريعاً » - أن ترضي رجلاً « معادياً للنظام الاجتماعي » باسم المثال و« البطولة المجردة مثل هذا الرجل يحتاج إلى إمكانات من نوع آخر باختصار إن اللهجة المغتبطة في « الأحلام الادبية » كانت ثمرة انفجار وقتي، ولم تكن تشتمل كآبة مؤلفها الناجمة من الشعور المؤلم بأنها غير هامة نهائياً، وبأن التناقض بين المثال المجرد من جهة، والواقع الروسي الملموس من جهة أخرى لا يمكن حله.

في تموز ١٨٣٦ ذهب بيلنسكي إلى قرية ب...خ في مقاطعة تفير، وهناك عن طريق أحد مضيفيه، « الفيلسوف الهاوي » أو « الصديق الفلسفي » م.ب، اطلع لأول مرة، على حد علمنا إن لم نكن مخطئين، على فلسفة فيخته. يقول « لقد استوعبت الرأي الفيختي باندفاع، وبتعصب »، إن هذا يمكن فهمه. إن الحياة في نظره، كما قلنا، تنقسم إلى قسمين: الحياة المثالية والحياة الواقعية، وقد أقنعه فيخته أن « الحياة المثالية هي الحياة الحقيقية الايجابية الملموسة، وما يسمى الحياة الواقعية ليس سوى النفي والوهم واللاشيء والفراغ ». وهكذا فان التناقض المؤلم بين المثال المجرد والواقع الملموس هو الحل الفلسفي المنشود المطلوب حله: وقد جرى حله عن طريق حذف الجانب السلبي من جانبي التضاد

بعد أن أعلن بيلنسكي ان **الواقع كان وهماً**، كان قادراً أن يحاربه بقوة باسم المثال، الذي تحول الآن إلى أن يكون الواقع الوحيد الجديد بهذا الاسم. كان بيلنسكي في هذه المرحلة « الفختية » متعاطفاً جداً مع الفلسفة الفرنسية. يقول السيد بيبين: « لقد علمنا شيئاً عن حياة بيلنسكي في تلك الفترة عندما كان في صحبة رفيعة

المستوى، لم يعلم عنها شيئاً، وكان في تماس مع الأحداث الفرنسية في نهاية القرن الماضي، فقد عبر عن رأي أربك المضيف بحدته القاسية »* وفيما بعد، في رسالة إلى صديق تذكر بيلنسكي فأضاف:

«لست آسفاً لاستخدامي هذه الجملة أبداً، ولا أشعر بالارباك عندما اتذكرها لقد عبرت بها واعياً، وبكل طبيعتي المتهورة عن حالتي الروحية في ذلك الوقت نعم لقد اعتقدت ذلك يومها وبتلك الجملة عبرت بوعي عن الحالة النفسية التي كان علي أن أمر بها **بالضرورة**».

الآن، يبدو أن بيلنسكي استراح من الشكوك التي آلمته. والحقيقة أنه تألم الآن أكثر من ذي قبل.

أولاً بدأ يشك في مقدرته في التفكير الفلسفي «لقد علمني وجود هذه الحياة الملموسة أن أتحقق أنني كنت عاجزاً عن تحقيقها لنفسي، وتعلمت من الفردوس أنني حتى أضمنه لنفسي يكفي السير نحو بواباته، وليس التمتع به، ولكن فقط يكفي فكرة عن انسجامه وعبيره لأحصل على الحياة الممكنة لي».

ثانياً إن نفي الواقع لم يكن ليعفيه من **شكوكه النظرية** القديمة طويلاً لقد أعلن أن الحياة الواقعية وهم وتفاهة وفراغ ولكن ثمة أوهاماً وأوهاماً كان الواقع الفرنسي، حسب نظرة بيلنسكي الجديدة، وهماً كغيره، أي كالحياة الروسية. لكن الحياة الاجتماعية الفرنسية اشتملت على ظواهر تعاطف بحرارة معها، كما سبق وعرفنا، ولم يكن شيء من هذا في روسيا فلماذا كانت «الأوهام» الفرنسية غير أوهامنا؟

لم تقدم «الفختية جواباً عن هذا السؤال، الذي لم يكن حقاً سوى تعديل بسيط للسؤال القديم المؤلم وهو لماذا يتناقض الواقع الحسي مع المثال المجرد، وكيف يمكن حل هذا التناقض. إن تحويل ذلك الواقع المعلن إلى وهم لم يقدم أي خدمة تذكر، وبالتالي فان الرأي الفلسفي الجديد نفسه بدا مشكوكاً فيه، إن لم يكن «**وهماً**»: فكان من الأفضل لبيلنسكي كما وعد أن يقدم اجابات مقنعة عن الأسئلة التي ترهقه.

أخيراً في احدى – رسائله (٢٠ حزيران ١٨٣٨) عبر بيلنسكي عن اعتقاده أنه «**كره الفكر**» كتب: «نعم اكرهه باعتباره مجرداً ولكن هل يمكن أن يجوزه المرء من

---

* بيلنسكي المجلد ١ ص ١٧٥.

غير أن يكون مجرداً، هل يجب أن يفكر المرء دائماً فقط في لحظة الالهام، ولا يفكر في أي شيء بقية الوقت؟ إني ادرك سخافة مثل هذا الافتراض، ولكن طبيعتي مجافية للفكر». هذه الأسطر المثيرة تسم أكثر من غيرها موقف بيلنسكي من الفلسفة. إنه لا يقبل بـ «التجريدات». الشيء الوحيد الذي يمكن أن يريحه كان نظاماً نابعاً من الحياة الاجتماعية وتفسره تلك الحياة الاجتماعية ذاتها، يفسر بدوره الحياة ويجعلها ممكنة لتمارس تأثيراً واسعاً ومثمراً فيه. هنا يكمن كرهه للفكر إنه بالطبع لا يكره التفكير الفلسفي بصورة عامة، ولكنه يكره نوعاً من التفكير يسلم بـ «التأمل» الفلسفي ويدير ظهره للحياة. يقول تورجنيف: «كنا نُبحث في الفلسفة آنئذٍ عن كل شيء سوى الفكر المحض». وهذا صحيح تماماً، خاصة بالنسبة إلى بيلنسكي. كان يبحث في الفلسفة عن طريق السعادة، كما قال ذلك كين بطل بايرون، وليس بالطبع عن السعادة الشخصية، بل عن سعادة جيرانه، عن خير بلاده. وعلى هذا الأساس تصور الكثيرون أنه فعلاً لا يملك أي «موهبة فلسفية»، وحتى أناس ليسوا في مجال الفكر الفلسفي أهلاً لأن يحلوا سير حذائه، طفقوا يحطون منه بنظرة استحسان متدنية. إن أولئك السادة نسوا أو انهم لم يعرفوا أنه أثناء عصر بيلنسكي كانت كل أوروبا المفكرة تبحث في الفلسفة عن طريق السعادة الاجتماعية. وهذا هو السبب في أن الفلسفة كانت على أهمية ضخمة فى تلك الأيام والآن طريق السعادة تلك لم تشر إليه الفلسفة، فلم تعد أهميتها تساوي سئاً وبامكان عساق الفكر المحض أن يعملوا ما يحلو لهم اننا نتمنى لهم النجاح من كل قلوبنا ولكن هذا لا يمنعنا من أن نعتنق رأياً آخر مخالفاً عن «الموهبة الفلسفية لبيلنسكي إننا نؤمن أنه كان ذا إحساس كبير بالحقيقة النظرية، إلا أنه، لسوء الحظ لم يطور ليشكل ثقافة فلسفية منظومة، ولكنه قدم إليه بدقة أعظم المهمات في العلوم الاجتماعية في ذلك العصر قال أحد أعظم المثقفين الروس في ذلك الوقت وهو الأمير أودويفسكي كان بيلنسكي واحداً من أرقى الأنظمة الفلسفية التي واجهتها في حياتي ونحن بدورنا نعتقد أن بيلنسكي كان واحداً من أرقى الأنظمة الفلسفية التي صادفها ميدان الأدب في بلادنا

ولكن الاسئلة الملعونة، إن جار القول، لم تمنح بيلنسكي سلاماً طيلة «المرحلة الفختية إنها الأسئلة ذاتها التي طالب الشاعر الألماني بجواب عنها في قصيدته الرائعة:

لماذا يحي الرجل المستقم، نازفاً
تحت ثقل الصليب المرهو
بيما يمتطيء الشرير
صهوة جواده بكل صلف وخيلاء؟
أين يكمن الخطأ؟ ألا يعي هذا
أن ربنا ليس جباراً؟
أم تراه هو الذي يقوم بالاعتداء؟
إن تفكيراً كهذا يبدو تفكيراً ضارياً نافلاً*

إن العلوم الاجتماعية الحديثة قد حلت تلك المسائل حلاً نهائياً لقد أقرت أنه ليس كل شيء على الأرض يمكن الوصول به إلى « قوة الحقيقة كما شرحت لماذا ما تزال « الحقيقة » لا تعني إلا القليل في علاقاتنا الاجتماعية (وعلى الأخص العلاقات الطبقية الداخلية). فمن وجهة نظر العلوم الاجتماعية الحديثة تبدو المسائل التي آلمت وأقلقت بيلنسكي بسيطة ساذجة.

لكنها كانت كل شيء في أيامه سوى أنها ساذجة، فقد شغلت أذهان المفكرين في زمانه. لقد انطلقوا من السؤال الأساسي وهو لماذا تبرهن الصدفة أنها أقوى من العقل. ومن السهل أن نفهم أن بيلنسكي يمكن أن يرضى فقط بفلسفة تقدم اجابات دقيقة و« بسيطة عن تلك الأسئلة.

لماذا تستطيع القوة المادية الغاشمة أن تسخر من أعظم الكفاحات الانسانية النبيلة؟ لماذا بعض الناس يثرون وآخرون يهلكون، فيسقطون في أيدي الغزاة العتاة؟ ألأن الغزاة هم دائماً أعلى وأفضل من المغزيين؟ من الصعب قبول ذلك. قد يحدث أن الغزاة يكونون أكثر جنوداً من المغزيين. ولكن في تلك الحالة ما الذي يبرر انتصار القوة؟ وما أهمية « المثل » التي لا تترك مملكتها فوق النجوم، فتهجر حياتنا الواقعية الكئيبة باعتبارها ضحية كل صنوف الرعب؟ وسواء سميت تلك المثل مجردة وسميت الواقع ملموساً، أو العكس، أعلنت أن الواقع مجرد وأن المثل واقعية، فأنت مضطر في الحالين أن تطرح تلك الأسئلة، إلا إذا امتلكت « الموهبة الفلسفية » لفاغنر[١٣٢]،

---

* مقتبس من قصائد هايني لندن ١٨٧٨ ص ٥١٤

أي إلا إذا حرت «التفكير المحض»، أو أنك تنتمي إلى «**المتفسخين** القادرين الذين يتعون أنفسهم «**صيغ التقدم**» المخريه التي لا تحل شيئاً ولا تؤذي أحداً لم يكن بيلنسكي لا متفسخاً ولا فاغنر وبالطبع هذه فضيلته، إلا أنه دفع ثمناً باهظاً لقاء هذه الفضيلة إن «المرحلة الفختية سماها نفسه مرحلة **انحطاط**. ومن الواضح أنه كان يحاول الخلاص من هذا الوضع المؤلم. وبالمقابل كان هذا الكفاح سيقود إلى تحطيم فلسفة فيخته.

ولسوء الحظ فان تاريخ هذا التحطيم، نظراً لعدم توفر المعطيات الكافية، لم يدرس دراسة وافية. اننا نعرف أنه في منتصف عام ١٨٣٧ تأثر بيلنسكي تأثراً كبيراً بهيغل، مع أنه لم يمنح من الوقت إلا للتعرف على بعض أقسام نظام هيغل. كما نعرف أيضاً أنه في هذا الوقت بات متصالحاً مع الواقع الذي كان معادياً له من قبل. وهناك رسالة في ٧ آب ١٨٣٧ كتبها من بياتيغورسك إلى صديق شاب تلقي ضوءاً على مراجه في تلك المرحلة إنه ينصحه بحرارة أن يدرس الفلسفة «في الفلسفة فقط سوف تجد اجابات عن أسئلة روحك، إنها وحدها تمنحك السلام وتهب روحك الانسجام وتعطيك السعادة التي لا يحلم بها العامة، والتي لا يمكن للحياة الخارجية لا أن تمنحك ولا أن تسلب منك. لن تكون في العالم، العالم كله سيكون فيك.. وفوق ذلك، دع السياسة واخش كل أنواع التأثير السياسي في طريقة تفكيرك». ولا معنى للسياسة في روسيا على الاطلاق، لأنه بالنسبة إلى روسيا «المصير الذي أعد لها مختلف عن المصير الذي أعد لفرانسا حيث الاتجاه السياسي للعلوم والفنون وشخصية المواطنين له معناه الخاص، له حقيقته وجانبه الجيد إن كل آمال روسيا تكمن في التنوير وفي الكمال الذاتي الأخلاقي لمواطنيها» إذا كان كل فرد من الأفراد الذين يصنعون روسيا يصل إلى الكمال عن طريق الحب، فسوف تصبح روسيا أسعد قطر في العالم من غير أي سياسة إن هذا ليس رأياً هيغلياً اطلاقاً، ولكننا قلنا من قبل أن اطلاع بيلنسكي على هيعل في تلك الأيام لم يكن كاملاً أبداً من المهم بالنسبة إلينا أن بيلنسكي توصل إلى مصالحة مع **الواقع الروسي** عن طريق تفسير **تطوره التاريخي**، وان كان تفسيراً سطحياً جداً وغير صحيح لماذا تختلف حياتنا الاجتماعية عن الحياة الاجتماعية في فرانسا؟ لأن المصير التاريخي لروسيا يختلف عن المصير التاريخي لفرانسا إن مثل هذا الجواب يجعل المقارنة بين روسيا وفرانسا مستحيلاً إن هذه المقارنة حتى منذ فترة

قصيرة دفعت بيلنسكي إلى استنتاجات مؤلمة يائسة وفي الوقت نفسه مثل هذا الجواب يجعل من الممكن ليس المصالحة مع حياتنا الاجتماعية الروسية فقط، بل مع الحياة الاجتماعية الفرنسية - مثلاً مع أحداث نهاية القرن الثامن عشر، التي شعر بيلسكي تجاهها مدد أمد قصير بتعاطف حماسي كل شيء جيد إذا كان في مكانه الملائم وقد رأينا انه يبرر « الاتجاه السياسي لفرانسا وفي حماسته للحقيقة « المطلقة في الفلسفة الألمانية لا يولي أدنى اهتمام لهذا الاتجاه ليس لدى الفرسيين « حقائق أبدية، بل حقائق يومية، أي حقائق جديدة لكل يوم. إنهم يريدون أن يستجوا كل شيء ليس من القوانين الأبدية للفكر الانساني، بل من التجربة، من التاريخ   إن هذا يغضب بيلنسكي إلى درجة انه يرمي الفرنسي « إلى الشيطان   الذي لم يقدم لنا تأثيره شيئاً سوى الأذى، ويعلن أن ألمانيا، على حد قول بيلنسكي، ستكون أورشليم البشرية الحديثة، التي تتطلع إليها أعين الشباب الروس المفكرين بأمل وثقة.

إن كل من يعتبر بيلنسكي **محافظاً** « متصالحاً » مع الواقع الروسي سيكون مخطئاً فحتى ذلك الوقت كان لا يزال بعيداً جداً عن روح المحافظة. إنه يعجب ببطرس الأكبر لأنه حطم بصورة حاسمة النظام القائم في أيامه. « إن قياصرة جميع الشعوب طوروا شعوبهم بالاعتماد على الماضي، على التقاليد، أما بطرس فقد مزق ماضي روسيا وحطم تقاليدها   لا بد من الموافقة على أن مثل هذا الكلام غريب جداً إذا خرج من فم محافظ وبالطريقة ذاتها لم يكن ميالاً إلى جعل الحياة الروسية في أيامه مثالية، فيرى أنها تشتمل على الكثير من النقائص، ولكنه يفسر تلك النقائص بشباب روسيا: « روسيا لا تزال طفلة بحاجة إلى ممرضة في صدرها قلب خفوق حباً على من تعول، وفي يدها قضيب للعقاب على السلبيات ». إنه يصالح نفسه الآن حتى مع القنانة، ولكن لفترة فقط، لأنه يرى الشعب الروسي لم ينضج بعد نضجاً كافياً للحرية ولنأخذ بكلماته: « إن الحكومة تحررهم بالتدريج » وهذه الحقيقة تسره أيضاً مثل حقيقة أن نبلاءنا، بسبب غياب البكورة في بلادنا، « يموتون من غير ثورات ولا انتفاضات داخلية » إن المحافظين يتخذون موقفاً مختلفاً كلياً من الأشياء، وإذا كان أي منهم قد قرأ رسالة بيلنسكي التي اقتبسناها، سوف يجدون أنها مليئة بـ « الأفكار التافهة » على الرغم من موقفه السلبي من السياسة وسيكون هذا صحيحاً

من وجهة نظر « محافظة ». لقد صالح بيلنسكي نفسه ليس مع الواقع، إنما مع المصير الحزين لمثاله المجرد.

فقط منذ فترة قصيرة كابد لمعرفة أن هذا المثال لن يجد تطبيقاً له في الحياة. الآن يرفضه، مقتنعاً أنه أعجز من أن يؤدي إلى أي شيء سوى « البطولة المجردة »، العداء العقيم للواقع ولكن هذا لا يعني أن بيلنسكي أدار ظهره للتقدم. بالتأكيد لا إنه يعني فقط أنه يقترح الآن أن يخدمه بشكل يختلف عن قبل. يقول: « يجب أن نقلد تلاميذ المسيح الذين لم يتآمروا ولم يؤسسوا جمعيات سياسية علنية أو سرية في نشر تعاليم معلمهم المقدس، بل لم يتنكروا له أمام الأباطرة والقضاة ولم يخافوا النار ولا السيف فلا تتدخل في القضايا التي لا تعنيك، بل كن مخلصاً لقضيتك، وقضيتك هي حب الحقيقة... لتسقط السياسة وعاش العلم ».

٥

الموقف السلبي من « السياسة » لم يحل سؤال لماذا ينتصر الشر على الخير، والقوة على القانون والزيف على الحقيقة. وبما أن هذا السؤال ظل بلا حل، فقد كانت الحصيلة الأخلاقية من « المصالحة » لا تزال ضئيلة، طالما أن بيلنسكي تضنيه الشكوك كما من قبل. ولكنه مقتنع الآن أن نظام هيغل سوف يسعفه في التخلص منها إلى الأبد والمزيد من اطلاعه على هذا النظام كان بمساعدة « الفيلسوف الهاوي » ذاته الذي شرح له تعاليم فيخته. أما مدى تأثير فلسفة هيغل في بيلنسكي، وبالضبط الحاجة الروحية التي لبتها له، فيمكن أن يظهر من المقطع التالي في رسالته إلى ستانكيفيتش:

« جئت إلى موسكو من القوقاز، وكذلك وصل (ب) « الفيلسوف الهاوي » وعشنا معاً وفي الصيف غاص في فلسفة هيغل في الدين والقانون. إن عالماً جديداً انفتح لنا القوة حق والحق قوة لا أنا لا أستطيع أن أخبرك عما اعتراني عندما سمعت تلك الكلمات. كان تحرراً لقد فهمت فكرة سقوط الممالك، وشرعية الغاصبين. لقد فهمت أنه ليس ثمة قوة مادية غاشمة، ولا سيطرة الحربة والسيف، ولا التعسف ولا الصدفة - ووصايتي على الجنس البشري انتهت، وبدت أهمية الوطن الأم لي بشكل جديد قبل هذا حمل إلي كاتكيف، بكل ما يستطيع، واستوعبت ذلك بكل ما أستطيع، بعض نتائج علم الجمال يا إلهي ما هذا العالم الجديد البراق اللامحدود... لقد

أصبحت كلمة « واقع مساوية لديّ لكلمة « الله وإنك لمخطىء إن نصحتني أن أحدق كثيراً في السماء الزرقاء – صورة اللانهاية – حتى أتجنب التعثر في واقع المطبخ يا صديقي مبارك من يسطيع أن يرى في صورة السماء الزرقاء رمز اللانهاية، ولكن السماء مغطاة عادة بغيوم رمادية، فمبارك أكثر من يستطيع أن يضيء حتى المطبخ بفكرة اللانهاية

لقد ظهرت الآن المصالحة الحقيقية لبيلسكي مع الواقع إن انساناً يكافح لينير حتى المطبخ بفكرة اللانهاية لا يرغب بالطبع ، بغير كل شيء في الحياة حوله إنه سيمتع بالوعي وتأمل عقلانيته، وكلما تعبد العقل. ،زداد غضباً لأي انتقاد للواقع ومن السهل أن نرى أن طبيعة بيلنسكي العاطفية حرفته بعيداً جداً في هذا الميدان ومن الصعب الآن حتى أن تصدق أنه سر بتأمل الواقع المحيط به، مثلما يسر الفنان في تأمل عمل عظيم في الفن. قال: « تلك هي طبيعتي، فروحي تتشرب الحب والعداء والمعرفة وكل فكرة وكل شعور بتأثر كبير، **الأسف والمشقة**، ولكن حالما أتشربها، تصبح مصهورة في أعمق أعماقي وهكذا في بوتقة روحي تطورت أهمية الكلمة العظيمة **الواقع** بصورة مستقلة لقد بحثت عن الواقع الذي احتقرته من قبل، وشعرت بغبطة عندما تحققت من عقلانيته عندما أرى أنه لا شيء يمكن أن يلغى فيه، ولا شيء فيه يمكن أن يساء استعماله أو يرفض. **الواقع** نهضت وقمت إلى النوم وأنا أكرر هذه الكلمة، ليلاً ونهاراً والواقع يحيط بي، أشعر به في كل مكان وفي كل شيء، حتى في نفسي، في هذا التغير **الجديد** الذي بات أكثر إدراكاً كل يوم ».

هذه الغبطة « المقدسة » بالواقع العقلي تذكر المرء بغبطة الاتصال بالطبيعة من قبل أناس قادرين على التمتع في الوقت نفسه بجمالها وبوعي اتحادهم الوثيق بها إن شخصاً يحب الطبيعة مثل هذا الحب الفلسفي والشعري في الوقت نفسه يتتبع بشغف كل تجليات حياتها بهذه الطريقة بالضبط ينظر بيلنسكي الآن إلى كل شيء محيط به، وبالحب ذاته. يقول: « نعم الواقع يقود المرء إلى الواقع. وإذ أنظر إلى كل امرىء ليس حسب نظرية جاهزة مسبقاً، بل حسب وقائع يقدمها هو نفسه، أبدأ بتوطيد علاقة خاصة معه، ولذلك كل واحد يسر معي وأسر معه. لقد صرت أجد متعة في التحدث عن المصالح العامة مع أناس ما اعتقدت أن لي شيئاً مشتركاً معهم ». وإذ حصل على مركز في مؤسسة مسح الأراضي فقد سر بنشاطه المتواضع المفيد كمعلم. « بفضول نهم

درست تلك الوسائل، التي تبدو خارجياً فجة عادية مملة، والتي تخلق هذه الفائدة غير الهامة إذا لم يتابع المرء تطورها الزمني، والتي لا تدرك للوهلة الأولى، ولكنها جزيلة النتائج للمجتمع. طالما لدي قوة، سأفعل كل ما في وسعي لوضع ما في يدي على مذبح الصالح العام ».

لا أثر « للبطولة المجردة » هنا وإذ التفكير السابق أضنى بيلنسكي، يبدو أنه فقد حتى الاهتمام النظري بالمسائل الاجتماعية الكبرى. يبدو أنه قانع بالوعي الغريزي لعقلانية الحياة المحيطة به. يقول: « معرفة الواقع تتكون في نوع من الغريزة، من الحصافة، وبالتالي تكون كل خطوة يتخذها الشخص صحيحة وكل موقف ملائماً، وكل العلاقات مع الآخرين صحيحة... ومن الطبيعي أن من يضيف إلى هذا النفاذ الغريزي نفاذاً واعياً من خلال التفكير، سوف يمتلك الواقع مضاعفاً، إلا أن الشيء الرئيسي هو أن نعرفه بطريقة أو بأخرى ».

في المرحلة السابقة من تطور بيلنسكي حاول، كما رأينا، أن يحل التناقض الذي عذبه بين المثال المجرد والواقع الملموس بالتخلص من أحد مظهري هذا التضاد، فأعلن أن الواقع الذي يتعارض مع المثال ما هو سوى وهم. الآن يفعل العكس تماماً: إنه يحذف إحدى مظهري التضاد، أي يعلن أن أي مثال يتناقض مع الواقع ما هو سوى وهم. هذا الحل الجديد غير صحيح نظرياً مثل الحل الأول: في كلا الحالين ليس ثمة أساس لحذف أحد مظهري التضاد. على أي حال إن المرحلة الجديدة في تطور بيلنسكي الفلسفي خطوة كبيرة إلى الأمام بالمقارنة مع المرحلة السابقة.

وحتى نلمس أهميتها لا بد من النظر في مقالة معركة بورودينو[١٣٣]

تكمن الفائدة الرئيسية في هذه المقالة في النضال مع الرأي العقلاني في الحياة الاجتماعية، وفي توضيح علاقة الأفراد بالمجتمع ككل. يبدو الرأي العقلاني له الآن، وهو رأي اكتسبه بيلنسكي في مرحلته الفختية، غبياً جداً ليس جديراً إلا بالثرثارين الفرنسيين والكهان الليبراليين. « منذ العصور المعروفة في التاريخ حتى يومنا هذا تشكل شعب وتكون بالاتفاق الواعي المتبادل لعدد معين من الناس الذين عبروا عن رغبتهم في أن يكونوا جزءاً منه، أو انسجاماً مع فكرة أي شخص كان، مهما كان رائعاً ». لنأخذ نشأة الملكية. يمكن أن يقول الثرثار الليبرالي أنها ظهرت نتيجة فساد الناس الذين أقروا، نتيجة اقتناعهم بعجزهم عن حكم أنفسهم، بالحاجة المريرة

لإخضاع أنفسهم لإرادة شخص مفرد، اختاروه بأنفسهم وأولوه سلطة مطلقة. «حسب النظرة السطحية للمفكرين التجريديين الذين لا تشمل الأفكار والظواهر بنظرهم، في داخلها على سببها الخاص وضرورتها الخاصة، بل تنشأ مثل الفطور بعد المطر، ليس فقط من غير تربة ولا جذور، بل في الهواء، حسب نظرتهم لا شيء أسهل وأبسط من هذا التفسير، أما بالنسبة إلى أولئك الذين تصل رؤياهم الروحية أعماق الأشياء وجوهرها الداخلي، فلا شيء أسخف من هذا وأشد إثارة للسخرية. إن كل شيء لا يمتلك سبباً في داخله ويأتي من «خارج» غريب، وليس من «الداخل» ذاته، يحتاج إلى العقلانية، وبالتالي إلى القداسة إن قوانين الدولة الأساسية مقدسة لأنها الأفكار الأساسية ليس لأناس معينين، بل لكل الناس، ولأنها أيضاً بعد أن انقلبت الى ظواهر أصبحت واقعة، فتطورت ديالكتيكياً في حركة تاريخية، بحيث أن تغيراتها هي عناصر من فكرتها الخاصة ولهذا السبب فإن القوانين الأساسية ليست قانوناً اخترعه الإنسان بل ظهرت قبل زمنه، إن صح القول، ولم يفعل الإنسان سوى أن صنعها وأقرها

هنا نجد بعض الغموض في استخدام المصطلحات الفلسفية وهكذا مثلاً من المقطع المقتبس سابقاً يظهر أن الفيلسوف، في رأي بيلنسكي، يستطيع أن يرى الجوهر الداخلي للأشياء ولكن ما هذا الجوهر الداخلي؟ في اعتقادنا أن غوته كان مصيباً عندما قال:

لا شيء داخل ولا شيء خارج

ما هو في الداخل هو مع ذلك في الخارج

ولكن لن نقف عند هذه التفصيلات يجب أن نذكر القارىء بالسمة العامة لآراء بيلنسكي في ذلك الزمن

ما هو حسب رأيه الجديد دور الأفراد في العملية الديالكتيكية للتطور الاجتماعي؟

يقول بيلنسكي «الانسان خاص عرضي في شخصيته، ولكنه عام وضرورة في روحه التي تعبر عنها شخصيته ومن هنا كانت ثنائية وضعه وكفاحه: صراعه بين نفسه وذاك الذي خارج نفسه الذي هو غير نفسه... وحتى يكون شخصاً حقيقياً، وليس وهماً، عليه أن يكون تعبيراً خاصاً عن العام أو ظاهرة محددة في اللامحدود ونتيجة هذا عليه أن يدين فرديته الذاتية، ويعترف أنها كذب ووهم، ويجب أن يذعن للعام والشامل،

معترفاً بذلك وحده على أنه الحقيقة والواقع ولكن بما أن هذا الشامل أو العام لا يوجد فيه، بل في العالم الموضوعي، فان عليه أن يصبح مرتبطاً ومندمجاً فيه، حتى يصبح، بعد ان يتمثل العالم الموضوعي في امتلاكه الذاتي الخاص، فرداً ذاتياً مرة أخرى، إلا أنه الآن فرد حقيقي، لا يعبر عن خصوصية الصدفة، بل عن العام، الشامل - باختصار يصبح روحاً متجسدة».

وحتى لا يكون الانسان وهماً، عليه أن يصبح تعبيراً خاصاً عن العام. إن النظرة العالمية التقدمية تتفق مع هذا الرأي في الفرد وعندما هاجم سقراط المفاهيم البالية عند الأثينيين، استخدم «العام، الشامل»، فكانت تعاليمه الفلسفية التعبير المثالي لخطوة جديدة اتخذتها أثينا في تطورها التاريخي. ولهذا السبب كان سقراط بطلاً، كما دعاه هيغل. وهكذا فان النزاع بين الفرد والواقع المحيط به مبرر عندما ينفي الفرد، باعتباره تعبيراً خاصاً عن العام، الواقع القائم عن طريق التمهيد للأساس التاريخي لواقع جديد، لواقع مستقبلي. ولكن بيلنسكي لا يعلل هكذا إنه يدافع عن «الاستسلام» لما هو قائم. وفي كل من مقالة عن بوروديو ومقالة عن مينزل[١٣٤] يهاجم «الناس العظام الصغار» الذين ليس التاريخ عندهم سوى قصة متقطعة، مليئة بالفوضى والنزاعات المتصارعة بين الظروف. وحسب تعبيره، ليس هذا الرأي في التاريخ سوى النتاج الحزين للحس العام. والحس العام يستوعب دائماً مظهراً واحداً من الموضوع فقط،، بينما يدرس العقل الموضوع من كل الجوانب،، وان ظهرت متناقضة فيما بينها «والعقل بالتالي لا يخلق الواقع، بل يصبح واعياً له، متخذاً هذا الواقع على أنه بديهية وهي أن كل ما هو موجود ضروري وشرعي وعقلي».

يقول بيلنسكي في مقالة أخرى: «الواقع هو الايجابي في الحياة. الوهم هو نفي هذه الحياة». وإن كان الأمر هكذا، فان من الممكن فهم هجومه على «الناس العظام الصغار» الذين ينفون الواقع، فالناس الذين ينفون الواقع مجرد أوهام. ومن السهل أيضاً أن نرى أن بيلنسكي هوى إلى النزعة التفاؤلية المتطرفة. فإذا كان كل نفي للواقع وهماً، فان الواقع لا لوم عليه. ومن المفيد أن نتابع كيف يحاول بيلنسكي أن يثبت بالأمثلة التاريخية أن «أقدار الفانين» ليست متروكة للصدفة العمياء «أشعل عمر النار في مكتبة الاسكندرية: اللعنة على عمرُ دمر إلى الأبد تنوير العالم

القديم. ولكن مهلاً أيها السادة اللطفاء قبل أن تلعنوا عمر التنوير شيء رائع، انه محيط وعمر جفف هذا المحيط، ولكن لا بد أن يوجد تحت الأرض ينبوع خفي سري من ماء الحياة، لن يتأخر في الانفجار في جدول براق، ثم ينقلب إلى محيط »... هذه بالطبع حجة غريبة جداً: من حيث الواقعة لن يستطيع « العمريون » أن يفلحوا في تجفيف كل منابع التنوير، ولا ينتج من ذلك أن نشاطهم غير مؤذٍ وأننا يجب أن « نتمهل قبل أن نلعنهم ». إن بيلنسكي في تفاؤليته ساذج جداً أحياناً. ولكننا رأينا أن تلك التفاؤلية انطلقت بشكل محتوم تماماً من رأيه الجديد في الواقع. ويدين هذا الرأي الجديد بنشأته ليس إلى حقيقة أن بيلنسكي لا يفهم هيغل تماماً، بل على العكس انه تمثل روح الفلسفة الهيغلية التي عبر عنها هيغل في مقدمة فلسفة الحق.

لقد شرحنا بالتفصيل الآراء التي عبر عنها هيغل في هذه المقدمة. فليقارنها القارىء مع الآراء « التصالحية » لبيلنسكي، وسيدهش لاتفاقها الكامل. إن الفرق الوحيد هو أن « الفيساريون المتهور » يصبح أكثر انفعالاً من المفكر الألماني الهادىء، ولذلك يصل إلى تطرفات لا يصل إليها هيغل نفسه. يقول بيلنسكي أن « فولتير كان مثل الشيطان متحرراً بارادة عليا من القيود العنيدة التي كبل بها وشد إلى مسكن ناري في الظلمة الأبدية، فاستخدم فترة الحرية القصيرة ليدمر البشرية ». لم يقل هيغل شيئاً من هذا القبيل، ولن يقول. ويمكن أن يقتبس المرء كثيراً من الأمثلة على هذا النحو، لكن كل ذلك ليس سوى تفصيلات لا تؤثر في جوهر القضية، أي أن بيلنسكي كان في تعبيره عن آرائه مؤمناً كل الايمان بروح « الفلسفة المطلقة » التي جاء بها هيغل. وإذا ظهرت تلك الآراء التصالحية « غريبة » على السيد فولنسكي، فان هذا يبين أنه ضعيف الاطلاع على مؤلفات « الرجل الذي استوعب الأبدية »، أي هيغل. حقاً إن السيد فولنسكي في هذه الحالة إنما يكرر ما قاله قبله ستانكيفيتش وهرزن وتورجنيف... الخ، ولكنه وعد أن يدرس مسألة تأثير هيغل في النظرة العالمية لبيلنسكي « بكل عمق » وعن طريق « مقارنة بعض آراء بيلنسكي بمصدرها الأولي ». لماذا ضيق على نفسه في تكرار أخطاء الآخرين؟ ربما لأنه هو نفسه فقير المعرفة بـ « المصدر الأولي »*

* السيد أ ستانكيفيتش في كتابه « ت-ن غرانوفسكي ومراسلاته » موسكو ١٨٩٧ »، يعبر مثل السيد فولنسكي عن الرأي القائل إن آراء بيلنسكيَ التصالحية كانت استنتاجات خاطئة من فلسفة هيغل (المجلد ١ ص ص ١٠٧ - ١٠٨)، فهل تنبه السيد ستانكيفيتش إلى أن هيغل نفسه هو الذي قام « باستنتاجات خاطئة »؟.

لقد تمثل بيلنسكي أكثر من أصدقائه، مثلاً أكثر من م - ب ومن ن - ستانكيفيتش، الروح المحافظة في فلسفة هيغل تلك التي ادعت أنها **الحقيقة المطلقة**. ولقد شعر بذنك هو نفسه، وهذا هو السبب في أنه اعترض على التحذيرات الودية الرامية إلى تهدئة حماسته «التصالحية»: وبعد كل هذا التزم أصدقاؤه بوجهة النظر ذاتها التي تدعي الحقيقة المطلقة التي كان بيلنسكي الآن يكرز لها بعد هيغل، ومن وجهة النظر هذه كانت كل التنازلات لـ «الثرثارين الليبراليين» مجرد تناقض محزن*

بالطبع يمكن القول إن هيغل حين تصالح مع الواقع البروسي في ذلك الزمن الذي ظهر فيه كتابه **فلسفة الحق**، لا ينجم عن هذا أنه سيكون متصالحاً مع الواقع الروسي. هذا صحيح. ولكن هناك نفياً ونفياً فهيغل أعلن عن الواقع الروسي أنه نصف أسيوي، لقد اعتقد عامة أن العالم السلافي هو شيء وسط بين أوروبا وآسيا ولكن الواقع الآسيوي «عقل متجسد»، ومن الصعب على هيغل، هيغل معلن «**الحقيقة المطلقة**» وليس هيغل **الديالكتيكي**، أن يستحسن تمرد عقل محدود لبعض الأفراد ضد الواقع.

٦

لندرس الآن آراء بيلنسكي التصالحية من ناحية أخرى.

لقد أثارته النظريات الاجتماعية لـ «الثرثارين الليبراليين» بسمتها السطحية غير العلمية. لقد تصور «الثرثارون» أن العلاقات الاجتماعية يمكن أن تتغير وفقاً لأهواء الناس، بينما حياة المجتمع وتطوره «مشروطان بقوانين ثابتة نابعة من جوهره الحقيقي». إن «الثرثارين» يرون التعسف والصدفة حيث تكون عملية الضرورة آخذة مجراها إن الظواهر الاجتماعية تتطور ديالكتيكياً من ذاتها وفقاً لضرورتها الداخلية. إن كل شيء لا يتضمن سبباً داخل نفسه، بل يأتي من «خارج» غريب، تنقصه سمة العقلانية، وما هو غير عقلي ليس سوى وهم. تلك هي آراء بيلنسكي التي عارض بها الرأي العقلاني في الحياة الاجتماعية الموروث من القرن الماضي وإنها لأكثر

---

* في احدى رسائل غرانوفسكي يقول إن باكونين كان أول من انتقد مقالات بيلنسكي «حول بورودنيو»... الخ. ولسوء الحظ ليس واضحاً من الرسالة على أي أساس أقيم هذا الانتقاد. على أي حال لا يمكن أن يكون قائماً على فهم المظهر التقدمي في فلسفة هيغل الذي وصل إليه م. ب. فيما بعد.

عمقاً وجدية من الرأي العقلاني الذي لا يترك مجالاً لتفسير الظواهر الاجتماعية تفسيراً علمياً، ولا بد من أن يكون المرء سوسيولوجياً روسياً وقوراً حتى لا يرى شيئاً في آراء بيلنسكي التصالحية سوى «هراء فلسفي وبالطريقة نفسها فقط أمكن لـ «سوسيولوجي روسي موقر فيما يتعلق بآراء بيلنسكي التي لخصناها أعلاه حول حياة المجتمع الانساني وتطوره أن يقدم اكتشافاً ملحوظاً هو أن ناقدنا الرائع انخدع «شعوره بالحقيقة في كل مرة تتداخل الظاهرة الجمالية مع العناصر السياسية الأخلاقية الفلسفية فإذا كان المرء يفهم من الشعور بالحقيقة شعوراً بالحقيقة النظرية، وفي مسائل من هذا النوع الشعور الأخير هو الأنسب، فلا بد من أن نعرف أن بيلنسكي برهن عن شعور قوي بالحقيقة عندما أسرع بغبطة إلى دراسة وكرارة الرأي القائل إن التاريخ ضرورة ولذلك هو عملية تحكمها القوانين وفي هذه الحالة حقق الفكر الاجتماعي الروسي في شخص بيلنسكي لأول مرة، وبشجاعة فائقة، المهمة الكبرى التي جذبت، كما رأينا أعظم عقول القرن التاسع عشر

لماذا وضع الطبقة العاملة سيء؟ لأن النظام الاقتصادي الحالي في أوروبا بدأ يتطور في الوقت الذي لم يوجد فيه بعد العلم الذي يعالج هذا الصنف من الظواهر هكذا يعلل السيد ميخائيلوسكي لقد اعترف بيلنسكي في هذه المجادلة بالرأي العقلاني في الحياة الاجتماعية، الذي يكرهه. ويساويه بالتعليل السطحي للكهان الليبراليين كتب: الواقع باعتباره عقلاً مجسداً يسبق الوعي دائماً، لأنه قبل أن يصبح واقعاً واعياً لا بد من شيء حتى يصبح به واعياً هذا هو السبب في أن العلوم الاجتماعية، أو التعاليم عن الطبيعة، ظهرت طويلاً بعد الطبيعة ذاتها، وظهرت القواعد طويلاً بعد اللغة والتاريخ بعد الحياة التي مارسها الناس وعلى الأسس ذاتها لا بد أن يقول ان العلم الذي «يعالج نظاماً اجتماعياً معيناً يمكن أن يظهر فقط بعد أن يكون ذاك النظام قد تطور، إلا أن تفسير هذه السمة أو تلك ايجابية كانت أم سلبية من هذا النظام بظهورها المتأخر فهو واضح وضوح نسبة وجود الأمراض المعدية إلى حقيقة أنه خلال خلق العالم لم يكن ثمة أطباء ستعير الطبيعة منهم المفاهيم الصحيحة عن علم الصحة ومن نافلة القول إن بيلنسكي مصيب من منطلق العلم الموضوعي الحالي ولذلك يبدو أن شعور بيلنسكي بالحقيقة النظرية في نهاية العشرينات كان أقوى من شعور السيد ميخائيلوفسكي وبقية السوسيولوجيين الموقرين الآن ولا يمكن القول إن

هذه النتيجة مريحة لأصدقاء تقدم بلادنا، إلا أن الحقيقة يجب أن تعلو على كل شيء، ولا يمكن اخفاؤها

فلنأخذ مثالاً آخر كتب النارودنيك كمية كبيرة هنا عن الكوميون. وغالباً ما يقترفون الأخطاء في الحديث عن تاريخه ووضعه الحالي. ولكن لنفترض في هذه الحالة أنهم لم يقترفوا أي خطيئة، ولنسأل فقط: ألم يخطئوا عندما ألحوا أن علينا «دعم» الكوميون بكل قوانا؟ فبأي شيء يسترشدون في هذا؟ يسترشدون بالاعتقاد أن الكوميون الحديث قادر على التحول إلى شكل اقتصاد راق. ولكن ما العلاقات الاجتماعية التي توجد داخل الكوميون؟ هل يمكن لتطورها أن يؤدي إلى تحويل الكوميون المعاصر مع إعادة توزيعه إلى شكل أعلى للمجتمع؟ لا فتطورها على العكس سوف يؤدي إلى انتصار الفردية الاقتصادية. إن النارودنيك أنفسهم، أو على الأقل معظمهم، وافقوا على هذا في الكثير من المناسبات. ولكن في تلك الحالة ماذا يأملون؟ كانوا يأملون أن التأثير الداخلي على الكوميون من الانتلجنسيا والحكومة سوف يقهر المنطق الداخلي لتطوره. وقد كان بيلنسكي يحتقر تلك الآمال. وقد تحرى فيها آثار الرأي العقلاني في الحياة الاجتماعية. كان قد أعلن أنها وهمية ومجردة، لأن كل شيء لا يتضمن سبباً في ذاته ويأتي من «خارج» غريب، ليس من «الداخل» هو وهم. وهذا أيضاً صحيح تماماً ومرة أخرى يضطر المرء أن يستنتج، ليس اطراء لبلادنا، أن بيلنسكي كان في نهاية الثلاثينات أقرب إلى الفهم العلمي للظواهر الاجتماعية أكثر من أنصار النظام القديم في أيامنا*

إن قوانين الدولة الأساسية «ليست قانوناً اخترعه إنسان، بل ظهر قبل زمن، وقد صنعه الإنسان تصنيعاً». فهل هذا صحيح أم لا؟ إن مناقشات بيلنسكي لهذا الموضوع كانت غامضة بسبب ميله إلى المحافظة في تلك الأيام، وبسبب تعبيره عن أفكاره بفخامة غامضة. على أي حال ليس من الصعب أن نجد فيها ظاهرة صحية تماماً

---

* لا بد أن نلاحظ الآن أنه فقط بضعة نارودنيك ما زالوا يحلمون بتحويل الكوميون إلى شكل أعلى للمجتمع معظم هؤلاء الناس، بعد أن تخلوا عن كل أفكار «تافهة»، «يعتبرون أنفسهم» الآن مهتمين فقط بترفيه الفلاح الذي بين يديه سيصبح الكوميون أداة فظيعة لاستغلال البروليتاريا الريفية. ولا بد من القول إن هذا النوع من الاهتمام ليس سوى «وهم» ولا علاقة البتة له مع «المثال المجرد».

ولا شك، من زاوية العلوم الاجتماعية اليوم، أنه ليس فقط قوانين الدولة الأساسية، بل أيضاً المؤسسات الشرعية عامة، هي تعبير عن العلاقات الواقعية التي يدخلها الناس ليس بشكل اعتسافي، بل بحكم الضرورة. وبهذا المعنى تكون جميع المؤسسات الشرعية «مصنعة من قبل الإنسان. وطالما أن في كلمات بيلنسكي هذا المعنى، فإنها يجب أن تؤخذ على أنها صحيحة تماماً إن معتنقي «المثال المجرد» الذين آمنوا أن المقاييس الشرعية خلقت وفقاً لأهواء الناس وأن الناس بذلك يمكن أن يصنعوا خليطاً انتقائياً يستخلصونه من مؤسساتهم الشرعية، يجب أن يتذكروا هذا*

ونكرر إن الفكر الاجتماعي لأول مرة في شخص ناقدنا الروسي العظيم قد حقق المهمة الكبرى التي طرحها القرن التاسع عشر على جميع المفكرين في أوروبا شعر بيلنسكي بعد أن فهم الأهمية الضخمة لهذه المهمة، أنه يقف على أرض ثابتة، واغتبط بالمجال الهائل الذي انفتح أمامه، فنظر إلى الواقع حوله بنظرة أبيقوري لفترة، كما رأينا، مشاركاً في غبطة المعرفة الفلسفية. فكيف كان غاضباً - وآن الأوان للاعتراف بذلك - من أولئك «الناس العظام الصغار» الذين منعوه بثرثرتهم النظرية الخاطئة من الانغماس بهدوء ومتعة في كنز الحقيقة المكتشف اكتشافاً غير متوقع؟ كيف استطاع أن يهاجم معتنقي «المثال المجرد» ويكيل لهم السخرية، في حين يعرف من تجربته الخاصة كل التفاهة العملية لهذا المثال، في حين ما يزال يتذكر جيداً الوعي المؤلم بأنه «لا أهمية له مطلقاً»، الوعي الذي صاحبه باستمرار فرح كبير خلقه هذا المثال؟ كيف استطاع أن يزدري الناس الذين وإن رغبوا في سعادة جيرانهم، رأوا من خلال نظرتهم الضيقة الخاصة أن الفلسفة التي يقول بيلنسكي إنها وحدها التي تجلب السعادة للجنس البشري ما هي إلا فلسفة مؤذية؟

لكن هذا المزاج كان قصير الأجل، فقد تحولت المصالحة مع الواقع إلى أن تكون مصالحة متقلقلة. عندما غادر في تشرين أول ١٨٣٩ إلى بطرسبرج آخذاً معه مقالة لم تنشر بعد وهي **مقالات حول معركة بورودينو**، كان أبعد عن الرأي الواضح المتفائل

---

* وهكذا مثلا كثير من الناس في بلادنا اعتقدوا أن روسيا تستطيع بسهولة أن «تدعم الكوميون» من جهة وأن تهيء القاعدة لهذا الدعم من جهة أخرى، أي قاعدة الحيازة الآسيوية للأرض، مؤسسات معينة من النظام الاجتماعي الأوروبي العربي.

فيما حوله الذي شكله أثناء المرحلة المبكرة من حماسته لفلسفة هيغل. يقول: « بالنسبة إليّ لا يوجد أحد، لأنني أنا نفسي مت ». وبالفعل فإن هذا المزاج الجديد المتشائم كان مشروطاً إلى حد كبير بالحاجة إلى السعادة الشخصية، ولكن الذي يعرف شخصية بيلنسكي يستطيع القول مؤكداً أنه لم يلحظ هذه الحاجة، لأن فلسفة هيغل قدمت له جزءاً مما وعدت. يقول في رسالة طويلة إلى بوتكين كتبت بين ١٦ كانون أول ١٨٣٩ وبداية شباط ١٨٤٠ « إنه لمضحك ومزعج حب روميو لجولييت، إنه شيء عام، ومع ذلك فإن حب القارىء أو حاجته إلى الحب شيء خاص ووهم. إن الحياة موجودة في الكتب، أمّا في الحياة فلا يوجد شيء لاحظوا تلك الكلمات. إنها تبين أنه حتى في ذلك الوقت كان قلقاً فيما يتعلق بالنتائج « **المطلقة** » لهيغل. وبالفعل، إذا كانت مهمة المفكر محصورة **بمعرفة** الواقع حوله، إذا كانت كل محاولة له في وضع « خلاق » تجاهه « وهماً » مكتوباً له الفشل، فلا يبقى أمامه سوى « **الحياة في الكتب** ». إن المفكر مضطر أن يتصالح مع ما هو كائن. ولكن « **ما هو كائن** » ليس حياً، « ما هو كائن » يصبح متحجراً، غادرته نسمة الحياة. وما هو في **صيرورة** هو الحي، الذي تنتجه عملية التطور فما الحياة إن لم تكن تطوراً؟ وفي عملية التطور يكون النفي عنصراً ضرورياً أما بالنسبة إلى الرجل الذي لا يفسح مكاناً كافياً لهذا العنصر الضروري فإن الحياة تنقلب إلى « **لا شيء** »، لأنه في مصالحته مع « ما هو كائن » لا يتعامل مع الحياة، بل مع من كان حياً مرة، ولكنه كف الآن عن الحياة. إن فلسفة هيغل « المطلقة » التي أعلنت أن الواقع في زمنها لا يخضع للنفي، أعلنت بعملها هذا أن الحياة لا يمكن أن تكون إلا في الكتب، ولا حياة خارج الكتب. لقد علمت حقاً أن على الفرد ألا يضع أهواءه الشخصية، بل حتى مصالحه الأساسية فوق مصالح « **الطبقات** ». ولكن مصالح الطبقات، التي استهوت هذه الفلسفة، ما كانت سوى مصالح الركود. لقد شعر بيلنسكي غريزياً بهذا على نحو مبكر أكثر مما شعر به فكرياً لقد انتظر من الفلسفة أن تشير إلى طريق السعادة البشرية. إن المسألة العامة في انتصار الصدفة على الفكر البشري غالباً ما تبدت له على شكل مسألة خاصة وهي **لماذا تنتصر القوة على الحق**؟ كيف أجاب هيغل على هذا؟ لقد رأينا كيف: « لا توجد سيطرة للقوة المادية العمياء، لا سيطرة للحربة والسيف، الحق قوة والقوة حق ». فإذا نحينا جانباً الشكل المغالط لهذا الجواب (الذي لا ينسب إلى هيغل بل إلى بيلنسكي) علينا أن نقبل أنه يخفي حقيقة عميقة،

تستطيع وحدها أن تقدم الأساس لآمال أنصار الحركة التقدمية. هذا غريب ولكنه حقيقي وإليكم هذا المثال: صرخ المدافعون عن النظام القديم في فرانسا في وجه سينير « إن حقوقنا الإقطاعية قائمة على الغزو ». اعترض قائلاً: « وماذا في ذلك، سوف نصبح بدورنا غزاة ». يعبر هذا الجواب المتكبر عن وعيه حقيقة أن الطبقة الثالثة كانت قد نضجت للحكم بما فيه الكفاية. وعندما أصبحت الطبقة « غازياً » فعلاً لم يكن حكمها حكم القوة المادية فقط: قوتها كانت حقها أيضاً، وكان حقها قائماً على الحاجات التاريخية لتطور فرانسا الاجتماعي إن كل ما لا يتطابق مع حاجات المجتمع، لا حق وراءه، ولكن كل ما وراءه حق ستتوفر له القوة أيضاً، إن عاجلاً أو آجلاً فهل هناك ما يفرح أنصار التقدم أكثر من هذا اليقين؟ ولا شك أن رأي هيغل في العلاقة بين الحق والقوة، إذا فهم جيداً، هو الذي أوحى بهذا اليقين. ولكن حتى نفهمه جيداً، لا بد من النظر في كل من التاريخ والواقع المعاصر من زاوية **التطور الديالكتيكي**، وليس من زاوية « الحقيقة المطلقة »، التي تجمد كل تطور من وجهة نظر الحقيقة المطلقة تحول حق الحركة التاريخية إلى حق مقدس للأرستقراطية البروسية لتستثمر الفلاحين، وقد خضع جميع المضطهدين لاضطهاد أبدي لسبب بسيط هو أن « الحقيقة المطلقة » عندما ظهرت في عالم الوعي وجدتهم ضعافاً، لذلك هم بلا حقوق. إن هذا قليل جداً، كما يقول الفرنسيون [C'était un peu Fort]، وقد لاحظ بيلنسكي هذا حالما بدأ يدرس تفاصيل نظرته العالمية الجديدة. ويتضح من مراسلاته أن ما اصطلح في أدبنا على أنه خصام مع هيغل كان بسبب عجز فلسفة هيغل « المطلقة » عن الإجابة عن الأسئلة الاجتماعية والتاريخية التي أمضته. « إني أخبرك: طوّر كل كنوز روحك من أجل أن تبتهج روحك، وابكِ حتى تعزي نفسك، واحزن حتى تفرح، وكافح حتى تكتمل، واصعد الى أعلى درجة في سلم التطور، فإذا سقطت فإلى الشيطان، فهذه طينتك.

أشكرك بلطف يا ايغور فيودوروفيتش، وإني أقدم التحية لقبعتك الفلسفية، ولكني مع كل احترام لفلسطينيتك الفلسفية [ابتذالك للثقافة] لي الشرف أن أعلمك أنني ولو حاولت الصعود حتى آخر درجات التطور، أسألك أن تحاسبني عن كل جرائم ظروف الحياة والتاريخ، عن كل جرائم الصدفة والوهم ومحكمة التفتيش وفيليب الثاني وهلمجرا، وإلا فإني سأرمي بنفسي من آخر درجة. أنا لا أريد السعادة ولو مجاناً، إن لم يكن فكري مشغولاً بكل اخوتي بالدم... يقولون إن عدم الانسجام هو

جزء من الانسجام: ربما، فهذا مفيد وممتع لعشاق الموسيقى، ولكنه ليس مفيداً وممتعاً لأولئك الذين كان من نصيبهم التعبير عن فكرة عدم الانسجام عن طريق مصيرهم

ماذا تعني المحاسبة عن جرائم الصدفة والخرافة ومحكمة التفتيش. الخ؟ حسب رأي السيد فولنسكي لا تعني شيئاً البتة. يقول: «بالنسبة إلى أسئلة بيلنسكي التي وضعت بشكل تقرير رسمي وامتلأت بالاستفهام الخبيث ذي الطبيعة المساومة، ويمكن أن يوقف هيغل خصمه بابتسامة متواضعة قائلاً: «التطور يتطلب تضحية بالنسبة إلى الإنسان، المأثرة الأليمة لنكران الذات، والاعتبار الكبير لرفاهية الناس، ومن دونها لا رفاهية لفرد، ولكن فلسفة المثالية لا تقدس تضحيات الصدفة، ولا تتصالح مع الخرافات، مع محكمة التفتيش. هناك أداة فعالة في عملية التطور الديالكتيكية وهي - **النفي**، الذي يخرج الناس من المخابىء التفتيشية تحت الأرض إلى الهواء الطلق، إلى الحرية. الصدفة شاذة، والعقلي وحده يحمل طابع العدالة المقدسة والحكمة»*

تتضمن هذه الأسطر البليغة خليطاً عجيباً من الأفكار المتمثلة تمثلاً سيئاً، التي تسم موهبه فولنسكي الفلسفية. فأولاً هيغل لم يخبر بيلنسكي أي شيء عن التضحيات ونكران الذات التي يتطلبها فكر الفرد ومتطلبات التطور الأخلاقي. لم يتأكد أن بيلنسكي كان لا يتحدث عن تلك التضحيات أبداً وهكذا فان المثالي الألماني أضاع فرصة نفيسة لتلفيق جملة بليغة انسجاماً مع خطابية السيد فولنسكي، ولكنه سرعان ما يقترب من المسألة. والمسألة هي ما إذا كانت النتائج «**المطلقة**» التي وصل إليها هيغل والمصالحة مع الواقع التي دافع عنها في مقدمة **فلسفة الحق** لم تتناقض مع عنصر النفي، لم تجعل هذه «**الأداة الفعالة**» عدماً بالفعل. لقد رأينا من قبل أنها تتناقض، ذلك أن هذا التناقض وجد فعلاً وانه انطلق من التناقض الأساسي الذي يسم كل فلسفة هيغل عامة، أي التناقض بين الطبيعة **الديالكتيكية** لهذه الفلسفة وادعائها لقب **الحقيقة المطلقة**. إن من الواضح أن السيد فولنسكي لا يشك أبداً أن هذا التناقض موجود إن هذا لا يقلل شيئاً من «موهبته الفلسفية». ومع ذلك فان بيلنسكي، الذي

---

* النقاد الروس ص ١٠٢.

تنازل ونظر إليه، كان قد شعر في نهاية الثلاثينات أن هذا التناقض موجود. يقول في الرسالة ذاتها «لقد شككت لمدة طويلة أن فلسفة هيغل هي فقط عنصر واحد، وان كان هاماً، ولكن الطبيعة المطلقة لنتائجها ليست جيدة*، أفضل الموت على الموافقة عليها». إن روسيّاً «شك» في هذه الأشياء وفي نهاية الثلاثينات، لا بد أنه يمتلك «نظاماً فلسفياً». وتلك «الأنظمة الفلسفية» التي لم تفهمه حتى اليوم هي أنظمة رديئة إنها لا تحتفظ بابتسامة «متواضعة» بل بابتسامة مزدرية حقاً.

لا شك أن بيلنسكي لا يلقي على هيغل المسؤولية في أعمال محكمة التفتيش وطغيان فيليب الثاني.. الخ. وعندما يسأله أن يحاسبه عن كل جرائم الحركة التاريخية للبشرية، يتهمه بخيانة فلسفته الخاصة. وهذا الاتهام له أساس. فعند هيغل الحرية هي هدف التطور التاريخي والضرورة هي الوسيلة التي تؤدي إلى هذا الهدف. إن الفيلسوف الذي يرى التاريخ من هذه الزاوية الشامخة لا يمكن بالطبع أن يتهم بشيء حدث من غير ارادته وتدخله. إلا أن المرء يمكن أن يطلب منه اشارة إلى الوسائل التي ينتصر العقل بواسطتها على الصدفة. تلك الوسائل يمكن أن تقدمها عملية التطور فقط. وبإعلان نفسه أنه مالك الحقيقة المطلقة، وبمصالحته مع ما هو موجود، أدار هيغل ظهره لكل تطور واعتبره سبب تلك الضرورة، وهذا ما عانت منه البشرية في زمنه. إن هذا يعادل اعلانه أنه أفلس فلسفياً وهذا الافلاس هو ما أحنق بيلنسكي. لقد اهتز لحقيقة أنه باتباع هيغل يمكن أن يرى في بروسيا «الدولة الأكثر كمالاً».

الدولة الأكثر كمالاً هذه قامت (بأساليب قديمة جداً) على استغلال الأغلبية لصالح الأقلية. وفي تمرد بيلنسكي على فلسفة هيغل «المطلقة» تأكد من هذا تماماً وانتقل نهائياً إلى جانب المضطهدين. ولكنه لم ير في المضطهدين منتجين يعيشون في علاقات انتاجية اجتماعية، بل رأى فيهم أفراداً من البشر المضطهدين بشكل عام. وهذا هو السبب في أنه يحتج باسم الفرد. يقول: «لقد آن الأوان لأن يتحرر الفرد، الذي عانى الكثير، من قيود الواقع غير العقلي، ومن رأي الغوغاء وتقاليد العصور البربرية». وعلى هذا الأساس لا يتوانى بعضهم عن ادراجه في طبيعة الفرد الليبرالي. إلا أن هذا خطأ محض. فبيلنسكي نفسه يفسر مزاجه بدقة في ذلك الوقت. يقول «كان ثمة

---

* يقول السيد بيبين: «في الأصل تعبير قوي هنا».

تطور في داخلي، حب جارف لحرية الفرد واستقلاله، وهذا ممكن فقط في مجتمع قائم على الحقيقة والبسالة... لقد أصبح الفرد نقطة أخشى أن يسهو عنها ذهني. لقد بدأت أحب البشرية مثل مارات: حتى اجعل أصغر جزء منها سعيداً، على أن أدمر الباقي بالسيف والنار » لا شك أن هذا ليس فردية ليبرالية. وليس للتصريح التالي لبيلنسكي أي شيء مشترك معها: «لقد وصلت الآن إلى موقع جديد، إلى فكرة **الاشتراكية**، التي أصبحت بالنسبة إلي فوق كل الأفكار ألفباء الايمان والمعرفة... (بالنسبة إلي) استوعبت التاريخ والدين والفلسفة. ولذلك أفسر بها حياتي وحياتك وحياة كل الذين صادفتهم في طريق الحياة » (في رسالة إلى بوتكين في ٨ أيلول ١٨٤١).

يسرع السيد بيبين ليؤكد لنا أن اشتراكية بيلنسكي كانت من حيث الأساس غير ضارة. وفي هذه الحالة يكون عمل الاستاذ الحصيف عبثاً: من لا يعرف أن الاشتراكية في تلك الأيام لم تشتمل على شيء أبداً من الخطر العملي بالنسبة إلى النظام الاجتماعي في ذلك العصر؟ إلا أن حماسة بيلنسكي للاشتراكية، وإن لم تتضمن شيئاً مخيفاً، حدث هام جداً في حياته الثقافية. ولذلك يجب ألا يترك هذا الحدث بلا توضيح بل يجب أن تسلط عيه الأضواء الساطعة.

٧

لماذا تخلى بيلنسكي عن الفلسفة المثالية «المطلقة» بسرعة وحسم واعتنق الاشتراكية الطوباوية؟ حتى نفسر هذا الانتقال علينا أن نلقي نظرة أخرى على موقف ناقدنا من هيغل.

عندما شجب بيلنسكي مقالته عن بورودينو باعتبارها بليدة وليست جديرة بكاتب شريف، تابع واعتبر ان مرحلة انتقاله من القوقازِ، أي **مرحلة حماسته المعادية لفلسفة هيغل**، بداية حياته الروحية. لقد بدت له هذه المرحلة «**أعظم زمن**، **على الأقل أعظم زمن بارز**» في حياته. واعتبر مقالة «عن بورودينو» غبية فقط في نتائجها، وليس في أطروحاتها الأساسية. يقول «فكرة معركة بورودينو صحيحة من حيث الأساس». ولم يستطع استخدام هذه الفكرة الصحيحة قط. «ولكن كان علي أيضاً تطوير فكرة النفي باعتبارها حقاً تاريخياً، الحق التاريخي الأول الذي بدونه ينقلب تاريخ البشرية إلى مستنقع آسن نتن». لا شك أن القارىء لم ينس المقاطع التي

اقتبسناها أعلاه من محاضرات هيغل في تاريخ الفلسفة. تلك المقاطع توضح أن هيغل طالما أنه مخلص لديالكتيكه، فانه يعترف تماماً بالحق التاريخي للنفي لقد اعتقد بيلنسكي أنه برفضه نتائج هيغل «المطلقة» إنما يرفض فلسفته ككل والحقيقة أنه كان ينتقل فقط من هيغل، معلن «الحقيقة المطلقة» إلى هيغل الديالكتيكي وعلى الرغم من تهكمه على قبعة هيغل الفلسفية ظل هيغلياً خالصاً إن مقالته الأولى عن بطرس الأكبر متشربة بروح فلسفة هيغل. إن الروح ذاتها تسود المقالة الثانية، وان حاول بيلنسكي هنا أن يتبنى موقفاً مختلفاً في مناقشته تأثير البيئة الجغرافية على السمات الروحية للشعوب، إلا أن هذه الحجج غير المقنعة لم تغير أدنى شيء من السمة العامة لنظرته العالمية في ذلك الوقت، فبقيت مثالية كلياً* وكل أولئك الذين شاركوه آراءه في ذلك الوقت هم مثاليون. ويبدو أن هذا لم يتأكد تماماً لكاتب سيرته. يقول السيد بيبين أنه في مقالة هرزن رسائل في دراسة الطبيعة (نشرت في أونيشيتفيني زابسكي في ١٨٤٣): «صيغت مهمات الفلسفة والعلوم الطبيعية بالطريقة التي صاغها بها أعظم المفكرين في الوقت الحالي»** هذه خطيئة كبرى. فمن الواضح أن الملاحظة التالية من كاتب الرسائل قد ضللته: «لقد وضع هيغل التفكير في الذروة، بحيث يستحيل التقدم خطوة من غير التخلي عن المثالية نهائياً إلا أن هذه المقالة لا تحول دون أن يبقى هرزن مثالياً من الدرجة الأولى في كل من آرائه عن الطبيعة (وهو هنا هيغلي تماماً) وفلسفته التاريخية. لقد ظن أن «المرء في المادية لا يستطيع أن يتجاوز هوبز». ولقد أطلق اسم الماديين في التاريخ على أولئك الذين «يبدو لهم التاريخ العالمي مسألة ابتكار شخصي واتفاقات تصادفية غريبة»*** وحتى منتصف ١٨٤٤ يعلن هرزن في كل مكان من اليوميات أنه مثالي. في تموز تلك السنة فقط يتحدث بحماسة عن مقالة جوردان المادية في مجلة فيغاند الفصلية[١٣٥] ولكن حتى هذه الملاحظة لا تشير أبداً إلى أي تغير في آرائه.

---

* بالمناسبة إن المقالة التي كتبت فيا يتعلق بخطاب البروفسور نيكيتيسكو عن النقد (بطرسبرج ١٨٤٢) أشد تمايزاً

** بيلنسكي.. الخ مجلد ١ ص ٢٢٨

*** من المفيد أن نقارن هذا مع الانتقادات التي يوجهها اليوم من كل صوب الماديون «الاقتصاديون».

يلاحظ السيد بيبين أيضاً أن « الاهتمام الفلسفي الأخير » لبيلنسكي كان موقف كونت وليتري « باعتباره النفي الحاسم للميتافيزياء ». وإنه لمؤسف جداً أن السيد بيبين لم ينشر الرسالة كاملة التي انتهى فيها بيلنسكي، حسب رأي بيبين، إلى الوضعية. وحسب مقطع اقتبسه السيد بيبين فان رأي ناقدنا في كونت غير ايجابي، ويوافق عليه السيد بيبين نفسه: يقول بيلنسكي: « إن كونت شخص رائع، ولكن لا جدال أنه كان مؤسس فلسفة جديدة، وهذا يحتاج إلى عبقرية لم يكن منها أي أثر في كونت ». وهذا هو السبب في أننا لا نعتقد أن بيلنسكي مال إلى الوضعية، ولم ينتزعه الموت إلى القبر قبل نضجه. وإذا كان لا بد من الحدس، فاننا نبيح لأنفسنا القول إن بيلنسكي تحول مع الأيام إلى نصير متحمس للمادية الديالكتيكية، التي حلت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر محل الفلسفة المثالية التي لقيت حتفها: إن التطور التاريخي للفكر الفلسفي الذي جذبه اتخذ هذا الاتجاه، فليس من الصدفة أن يقرأ **الحوليات الألمانية الفرنسية** التي حرر فيها مؤسسا المادية الديالكتيكية. فاذا لم يكن لديه اعتراض على آرائهما في ١٨٤٥، فلماذا إذن اعترض مؤخراً عندما غدت هذه الآراء وطيدة الأسس؟

يجب أن نضع النقطة الثانية هنا: إن افتراضنا يدعمه التبني المنطقي للأفكار الفلسفية. ولكن يمكن أن يعارض المرء هذا بأن الأمر ليس صعباً على بيلنسكي، الذي كان بعيداً جداً عن مراكز الحياة الثقافية الأوروبية، وغارقاً في العمل الضاغط دائماً، لا يتابع أضخم عقول أوروبا إن الشخص الرائع يتطلب لتطوره تأثيراً للبيئة المحيطة به: وهذه البيئة في بلادنا كانت متخلفة جداً في كل الميادين. وهذا هو السبب في أن من الممكن أن بيلنسكي لم يفلح حتى نهاية أيامه في الوصول إلى نظرة عالمية محددة سعى إليها جاهداً وباستمرار ومن الممكن أن التخلف الاجتماعي الذي بدأ في النصف الثاني من الخمسينات جعله قائداً لمتنورينا في ذلك العصر. وكما سوف نرى في المقالة التالية، تضمنت آراؤه في السنوات الأخيرة من حياته الكثير من العناصر التي كان من السهل أن تتحول إلى رأي تنويري مناسب تماماً لروسيا في ذلك العصر

على أي حال يكفينا فرضيات. فلنرجع إلى الوقائع.

طوربيلنسكي فكرة النفي. وبمتابعة السيد بيبين لمؤلف **مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي**[١٣٦]، يعتقد أن هرزن قدم له مساعدة كبيرة في مسألة هذا

التطور بالطبع هو مصيب في شعوره أن الأحاديث والمناقشات مع رجل مثقف ثقافة واسعة مثل هرزن لا يمكن أن تؤثر في آراء بيلنسكي ولكننا نعتقد أن اللقاءات مع هرزن وان حرضت كثيراً نشاط بيلنسكي الثقافي، قدمت له القليل في دفع تطور النظرة الديالكتيكية في الظواهر الاجتماعية. لقد عانى هرزن مشقة في فهم الديالكتيك. ونحن نعرف أنه حتى آخر أيامه اعتبر كتاب برودون **التناقضات الاقتصادية** أنجع تطبيق للطريقة الديالكتيكية في دراسة الاقتصاد الاجتماعي. ورأى أن فلسفة هيغل المفهومة جيداً لا يمكن أن تكون فلسفة ركود (ولا عبرة لما قاله هيغل نفسه). ولكن إذا كان هناك من فشل في فهم كلام هيغل عن الطبيعة العقلية للواقع، فانه هرزن الرائع ولكنه السطحي. يقول في **أيامي السالفة وأفكاري**: «إن الجملة الفلسفية التي أحدثت أعظم ضرر والتي حاول على أساسها المحافظون الألمان أن يصالحوا الفلسفة مع الحياة السياسية في ألمانيا «كل ما هو واقعي عقلي»، كانت بصورة أخرى مبدأ **العقل الكافي** ومطابقة المنطق مع الوقائع». إلا أن هيغل لم يكن يتقبل مثل هذا التعميم على أنه «مبدأ العقل الكافي». واعترف فلاسفة القرن الثامن عشر أيضاً بهذا المبدأ، وإن كانوا بعيدين عن رأي هيغل في التاريخ من حيث أنه عملية يحكمها القانون. وكانت القضية قضية اين وكيف تبحث نظرية معينة في المجتمع عن العلل الكافية للظواهر الاجتماعية. لماذا سقط النظام القديم في فرانسا؟ هل لأن ميرابو كان خطيباً مفوهاً؟ أو لأن المحافظين الفرنسيين في ذلك الوقت تنقصهم الموهبة؟ أو لأن الأسرة المالكة لم تفلح في الفرار؟ إن «المبدأ» المشار إليه من قبل هرزن يتضمن حقيقة أن ثمة عقلاً لسقوط الحكم القديم، ولكن لا يقدم أي مؤشرات إلى طريقة دراسة هذا التعليل. هذا العيب المؤسف هو ما سعت فلسفة هيغل إلى علاجه. ولكن بدراسة التطور التاريخي للبشرية على أنه عملية يحكمها قانون كان يسعى إلى الخلاص من موقفه من **الصدفة*** وقد فهم هيغل **الضرورة** أيضاً بمعنى مختلف تماماً فلو قلنا، على

---

* قال هيغل إن كل ما هو محدود يشتمل على عنصر من الصدفة، ولكن حسب معنى فلسفته لا نجد **الصدفة** إلا في تقاطع عدة عمليات من الضرورة. لذلك فان مفهوم الصدفة الذي يوافق عليه لا يمنع أبداً التفسير العلمي للظواهر فحتى نفهم **صدفة** معينة، علينا أن نكون قادرين على العثور على تفسير مقنع على **الأقل** لعمليتين من الضرورة.

سبيل المثال، أن النظام القديم في فرانسا سقط نتيجة صدفة فشل محاولة الأسرة المالكة في الهرب، لوافقنا أنه طالما فشلت هذه المحاوله فإن سقوط النظام القديم ضرورة. إن الفهم بهذه الطريقة المبتذلة السطحية يجعل الضرورة الجانب المعاكس للصدفة. إن لها أهمية مختلفة عند هيغل، فعدما يقول ان ظاهرة اجتماعية معينة هي ضرورة، يعني هذا أنها تهيأت عن طريق التطور الداخلي في البلاد المعينة لكن هذا ليس كل شيء فطبقاً لمعنى فلسفته نرى أي ظاهرة في عملية تطورها تخلق من ذاتها القوى التي تنفيها فيما بعد وتطبيق هذا على الحياة الاجتماعية يعني أن أي نظام اجتماعي معين يخلق من نفسه عناصر نفيه التي تدمره وتجعل محله نظاماً آخر فان فهمت عملية نشأة تلك العناصر، فقد فهمت أيضاً عملية تهاوي النظام القديم عندما قال بيلنسكي إنه « سيطور فكرة النفي » قصد أن عليه أن يلاحظ الحتمية التاريخية لظهور العناصر المؤشرة في أي نظام اجتماعي كان يقترف خطيئة كبرى عندما تجاهل هذا الجانب الهام من المهمة. ولكن « مبدأ العقل الكافي » الذي اقترحه هرزن لم يكن « كافياً » لعلاج هذا العيب المنطقي بهذا المعنى كان بيلنسكي يخضع لقواه الخاصة.

ان تطوير فكرة النفي يعني قبول حق « المثال » الذي ضحى به بيلنسكي من أجل الواقع في وهج حماسته لهيغل. ولكن المثال الذي كان صحيحاً حسب موقف بيلنسكي الجديد لم يستطع أن يكون « مثالاً مجرداً ». فبما أن النفي التاريخي للواقع هو نتيجة تطوره الخاص، فان المثال الوحيد الذي يمكن الاعتراف به على أنه حقيقة هو ذاك الذي يستند إلى هذا التطور هذا المثال لن يكون « منفصلاً عن الشروط التاريخية والجغرافية للتطور ولا يمكن أن يقول المرء عنه إنه « قائم في الهواء ». إنه يعبر بالأفكار والصور عن نتائج عملية التطور التي تجري في الواقع. وهو ملموس طالما أن هذا الواقع المتطور ملموس.

ينتج من هذا أن بيلنسكي ضحى في المرحلة الأولى من تطوره بالواقع من أجل المثال، وفي الثانية ضحى بالمثال من أجل الواقع، أما في الثالث فقد سعى إلى مصالحة المثال مع الواقع عن طريق فكرة التطور التي سوف تمنح المثال أساساً ثابتاً وتغيره من مثال « مجرد » إلى مثال ملموس.

كانت هذه مهمة بيلنسكي الآن. كانت مهمة عظيمة. وطالما أن الناس لا يستطيعون أن يحلوا مثل هذه المهمات، فانهم لا يستطيعون التأثير في تطورهم الخاص

وتطور المجتمع بشكل واع، ولذلك يظلون لعبة بيد الصدفة. ولكن حتى يتصدى المرء لهذه المهمة، من الضروري أن يخاصم المثال المجرد، بعد أن يدرك ويشعر تماماً بعجزه الكامل. وبكلمة أخرى: عليه أن يمارس لحظة المصالحة مع الواقع وهذا هو السبب أن هذه اللحظة تكون لصالحه. وهذا هو السبب في أنه بالتالي اعتبرها بداية حياته الروحية.

ولكن أن يضع المرء أمامه مهمة معينة شيء، وأن يحلها شيء آخر تماماً وعندما نشبت النزاعات بين الشباب المنتمين إلى حلقة ستانكيفيتش - بيلنسكي حول مسألة صعبة، وصلوا إلى نتيجة، بعد محاولتها عبثاً وهي ان «هيغل فقط يستطيع أن يحلها ويستطيع بيلنسكي الآن أن يقول الشيء ذاته، عندما طبق الطريقة الديالكتيكية في تفسير تطور روسيا التاريخي ولكن هيغل أيضاً لن يجوز ثقته. لقد وضعت المثالية الديالكتيكية مهمة عظيمة أمام العلوم الاجتماعية في القرن التاسع عشر: دراسة التطور الاجتماعي باعتباره عملية محكومة بقانون، إلا أنها لم تحل هذه المهمة، مع أنها خطت خطوة كبيرة جداً في طريق هذا الحل.

حتى ندرس موضوعاً علينا أن نفسر تطوره أولاً عن طريق القوى التي يفرزها هو من ذاته. وهذا ما يقول هيغل. لقد أشار في فلسفته في التاريخ إلى القوى المحركة للتطور التاريخي بشكل دقيق في **حالات متفرقة**. ولكن مثاليته **عامة** حرفته عن الطريق الحقيقي للبحث فإذا كان التطور المنطقي لـ «الفكرة» هو أساس كل شيء آخر، بما في ذلك التطور التاريخي، فان التاريخي لا تفسره، في نهاية التحليل الصفات المنطقية لـ «الفكرة» ولا التطور الديالكتيكي للعلاقات الاجتماعية. وقد لجأ هيغل إلى تلك الصفات في كل مرة واجه بها هذه المسألة التاريخية أو تلك. ومعنى هذا أنه بالمجردات يفسر الظواهر الملموسة. إن خطيئة المثالية هي أنها تعزو للمجردات القوة الخلاقة المحركة. وهذا هو السبب في أن المثاليين يعتمدون على التعاليم المنطقية الاعتباطية بدلاً من دراسة السبب الحقيقي للأحداث. إن النظرية العلمية الصحيحة في التطور التاريخي للبشرية لا يمكن أن تظهر ما لم تحل المادية الديالكتيكية محل المثالية الديالكتيكية. لم يعمر بيلنسكي حتى يرى هذا العصر الجديد وفعلاً في زمنه جمعت مواد مختلفة بكمية كبيرة من أجل خلق نظرة حقيقية في التاريخ لقد اقتبس عدد نيسان من صحيفة **نوفوي سلوفو** لعام ١٨٩٧ عدة تصريحات لبوتكين بصدد دور

المصالح الاقتصادية في التطور التاريخي للبشرية. ولا عجب إذا تبنى بوتكين مثل تلك الآراء فقبل أن يتخصص بفلسفة هيغل كان سان سيمونياً وسان سيمون يفسر كل التاريخ الأوروبي بصراع المصالح الاقتصادية* وقد تمكن بوتكين فيما بعد أن يقتبس كثيراً بهذا الصدد من اشتراكيين طوباويين آخرين، من فيكتور كونسيدران مثلاً**، وحتى من لويس بلان (من كتابه تاريخ عشرة أعوام). وأخيراً حصل على كمية كبيرة من المؤرخين الفرنسيين أمثال غيزو ومينيه وتوكيفيل. إن من الصعب أن نتخيل أن بوتكين لم يطلع على الكتاب الشهير الديمقراطية في أميركا الذي ظهر مجلده الأول في ١٨٣٦ في هذا الكتاب اتخذ ارتباط التطور الاجتماعي بالعلاقات الاقتصادية (أو لنكن أكثر دقة ولنقل علاقات الملكية) على أنه حقيقة مسلم بها فحسب رأي توكيفيل تعتبر علاقات الملكية «السبب الأول للقوانين والعادات والأفكار التي تقرر سلوك الأمم». حتى ما لم تخلقه تلك العلاقات، يتغير وفقاً لها لذلك حتى نفهم التشريع والعادات عند شعب ما، علينا أن ندرس علاقات الملكية السائدة في ذلك الشعب*** وقد خصص توكيفيل المجلدين الثاني والثالث لدراسة تأثير علاقات الملكية القائمة في الولايات المتحدة في متطلبات الأميركيين وعاداتهم الفكرية والجمالية. واستطاع بوتكين بالتالي أن يصل من دون أدنى صعوبة إلى نتيجة ان تطور الشعب الروحي يقرره مجرى التطور الاجتماعي. وقد كان بيلنسكي مطلعاً على هذا المعتقد وقد ظهر ذلك على سبيل المثال، في رأيه في الأهمية التاريخية لشعر بوشكين**** إلا أنه لم يخدمه كمرشد في تطور المثال الملموس.

---

* أنظر بنوع خاص Catéchisme Politique des industriels حيث شرح هذا الرأي بصورة واضحة فيما يتعلق بالتاريخ الفرنسي أنظر أيضاً رسالته إلى محرر صحيفة فرنسا العامة في ١٢ أيار ١٨١٨ حيث يقول سان سيمون: «القانون الذي يقيم الملكية هو أهم شيء يستخدم كأساس للصراع الاجتماعي»

** أنظر بنوع خاص المصائر الاجتماعية.

*** المجلد ١ ص ٧٤ طبعة ١٨٣٦

**** بالطبع ليس فقط في هذا الرأي. في مقالة «بطرسبرج وموسكو» يقارن بيلنسكي بين هاتين المدينتين محاولا تحديد الفكرة التي تمثلها كل منهما: «بطرسبرج تمثل فكرة وموسكو تمثل فكرة أخرى» وان هذه نظرية مثالية سادت النظرة العالمية لمفكرينا في ذلك الوقت. ولكن في مناقشة بيلنسكي المثالية يدهش المرء من الفكرة التالية: «ولكن موسكو في العهد السابق تحولت تدريجياً إلى مدينة تجارية صناعية إنها تنسج البضائع القطنية لكل روسيا، فأجزاؤها القصيّة وأطرافها ونواحيها غطتها المصانع، صغيرها وكبيرها ولا تستطيع بطرسبرج أن

النقطة الأساسية هي أن كلا من سان سيمون وكونسيدران واشتراكيين طوباويين ومؤرخين آخرين ممن رأوا في علاقات الملكية أهم قاعدة للصرح الاجتماعي وتطور تلك العلاقات هو السبب الرئيسي في التطور الاجتماعي، كانوا مثاليين. لقد فهموا الأهمية الاجتماعية للاقتصاد في العملية التي تعتمد عليها البنية الاقتصادية لأي مجتمع، ولكنهم لم يعرفوا السبب الأساسي ونجم عن ذلك عندهم أن هذا السبب هو صدفة موفقة أو غير موفقة من جهه (مثلاً الإقامة في أرض جغرافية ملائمة، أو الغزو... الخ) وهو الطبيعة الإنسانية من جهة أخرى. وهذا هو السبب في أنهم جميعاً - دفاعاً عن مؤسساتهم الاجتماعية أو خطط تلك المؤسسات - لجؤوا بصورة رئيسية إلى الطبيعة البشرية. ولكن اللجوء إلى الطبيعة البشرية يعني تبني نظرية المثال المجرد، وليس نظرية التطور الديالكتيكي للعلاقات الاجتماعية قبل ظهور النظرية التاريخية لمؤلف رأس المال كان جميع النشيطين احتماعياً، الذين لم يكونوا غير مبالين بالنظرية، من أقصى اليسار إلى أقصى اليمين طوباويين إلى حد ما لذلك يمكن أن نفهم أن بيلنسكي أيضاً، في نهاية هدنته مع الواقع، كان عليه أن يتبنى النظرية الطوباوية، على الرغم من كفاحه الواعي فيى سبيل المثال الملموس. كان هذا الكفاح قادراً فقط أن يترك ميسمه على بعص الآراء والأفكار والأحكام المتفرقة التي جاء بها

٨

يقول كافلين في ذكرياته: «في موسكو، أثناء محادثة مع غرانوفسكي كنت حاضراً استمع فقال بيلنسكي معبراً عن فكرة أنصار السلافية: يجب أن تكون روسيا قادرة على حل المسألة الاجتماعية ووضع حد لعداء الرأسمال والملكية مع العمل، بصورة أفضل مں أوروبا»*

سافسها في هذا المضمار لأن موقع موسكو في وسط روسيا خولها أن تكون مركزاً للصناعة الوطنية. ولن تكون الأعظم في هذا المجال عندما تربطها السكك الحديدية ببطرسبرج، وستمتد السكك مثل شرايين القلب منها إلى ياروسلاف وقاران وفورونيش وخاركوف وكييف وأوديسا » إنه هنا يعرض علينا حقيقة أن تغيراً يطرأ على الدور الاقتصادي لموسكو سيؤدي حتماً إلى تغيير «الفكرة» التي تمثلها أيضاً هذا مثال بسيط عن تدخل المادية في نظريه العالمية التي ظلت مثالية بصورة نهائية

* يبين المرجع السابق مجلد ٢ ص٠٩ هذه المحادثة ظهرت، كما يرى كافلين، بعد عدة سنوات من الزمن الذي يصفه، وهو ١٨٤٣.

إنها والحق يقال فكرة خالصة من أفكار أنصار السلافية، تمسك بها فيما بعد النارودنيك والذاتيون. إن العدو اللدود لأنصار السلافية يمكن أن يبرز نتيجة حماسته للاشتراكية الطوباوية.

من وجهة النظر المجردة هذه سوف يبدو التطور اللاحق للعلاقات الاجتماعية، ليس مرتبطاً بمنطقها الداخلي، بقدر ما هو مرتبط بالصفات الشخصية للناس الدين كانوا مصطهدين بطريقة أو بأخرى من قبل العلاقات وكان على الديالكتيك أن يخلي الطريق أمام اليوتوبيا

وقد نظر بيلنسكي أيضاً إلى مصير روسيا من وجهة نظر صفات «الفرد الروسي في مقالة «**نظرة في الأدب الروسي في ١٨٤٦** يقول: «نعم لدينا حياة قومية، ونحن مدعوون أن نبلغ العالم رسالتنا، فكرتنا فما هذه الرسالة؟ إنه لم يرغب في التأمل والحدس حول هذه النقطة «خاشياً النتائج التي ليس لها سوى أهمية ذاتية» (هذا الموقف من الذاتية ظل - كما نرى - مثلما كان عندما كتب مقالة عن الذكرى السنوية لبورودينو)

إلا أنه يعتقد أن الجوانب المتعددة التي بها يفهم الروسي القوميات الأجنبية تمكن الإنسان من أن يتقدم ببعض الافتراضات فيما يتعلق بالرسالة الثقافية في المستقبل. يقول: «إننا لا نقول أن من المسلم به أن الشعب الروسي مقدر له أن يعبر بقوميته عن المضمون الأغنى المتعدد الجوانب وهنا يكمن سبب قدرته الملحوظة في استيعاب وتمثل كل ما هو غريب عنه، ولكننا نعتقد أن فكرة كهذه باعتبارها افتراضاً طرح من دون أي دعاية ذاتية وتعصب، ليس من دون أي أساس وفي رسالة إلى بوتكين في ٨ ١٨٤٧ يعبر بغموض وبالطريقة ذاتها

«ما تزال الحياة الروسية جنينا، ولكن كم من الاتساع والقوة في طبعه هذا الجنين، وكم هو جائر ومرعب له أن يكون ضيق التفكير أحادي الجانب إنه يخشاها ويكرههما قبل أي شيء آخر - وهو في رأيي محق في أن يقبل ن لا يكون فيه شيء من أن يستعبده الجانب الأحادي أما فيما يتعلق بالتأكيد أننا مطوقون لأننا لا نملك شيئاً نقوم به - فكلما فكرت في هذا تحققت واعتقدت أنه كذب ولا تعتقدوا أنني متعصب في هذه المسألة. لا لقد توصلت إلى حلها (بالنسبة إلى نفسي) عبر طريق مؤلم من الشك والنفي

مثل هذا «الحل» فتح الباب واسعاً أمام النظرة المناصرة للسلافية في المسألة الاجتماعية في روسيا إننا نعرف على أي أساس أقيمت هذه النظرة: على فكرة خاطئة تماماً في التطور التاريخي للكوميون الروسي. ومن المقطع التالي في **يوميات** هرزن يمكن أن نرى ماذا كانت هذه النظرة تمثل بالنسبة إلى تقدمي ذلك العصر «**إن المونتنيغريين هم نموذج للتطور الأعلى للكوميون السلافي**». ولكن الكوميون المونتينغري هو كوميون **قبلي**، لا يشبه أبداً كوميون القرية الذي أوجدته الدولة لحماية مصالح الخزانة بعد أن انحطت الحياة القبلية في بلادنا بزمن طويل. إن كوميون قريتنا لا يمكن أن يكون «تطوراً» في اتجاه الكوميون المونتيغري* إلا أن أنصار الغرب في ذلك الوقت عندنا تبنوا النظرة في «الكوميون» بصورة مجردة مثل أنصار السلافية. فما إن اعتقدوا أن مستقبلاً عظيماً ينتظره، وتلك قضية إيمان بسيط حتى نسوا بنتيجة الحاجة الأخلاقية الضاغطة الانطباعات المؤلمة التي تلقوها من الواقع المحيط بهم، وإن في الأوهام. يقول هرزن مباشرة في **يومياته**: «قدم شادابيف مرة ملاحظة رائعة وهي أن واحداً من أعظم شخصيات** النظرة المسيحية صعّد الأمل إلى درجة الفضيلة ووضعه مع الإيمان والعفة. إنني أوافقه تماماً هذا الجانب من الأمل في البلوى، الأمل الوطيد في ما يبدو وضعاً ميئوساً منه يجب أن نتحقق منه بأنفسنا». لماذا يشعر أناس أمثال هرزن أنهم في وضع ميئوس منه؟ لأنهم لم يفلحوا في أن يقيموا لأنفسهم **مثالاً ملموساً**، أي مثالاً اقترحه التطور التاريخي للواقع الذي كرهوه، وبما أنهم لم يقيموا مثالاً، فقد عانوا الوعي المؤلم ذاته الذي شعر به بيلنسكي أثناء مرحلة حماسته للمثال **المجرد**: لقد شعروا بالعجز الكلي. يتألم هرزن: «إننا خارج حاجات الشعب». وما كان ليقول هذا لو أنه رأى أن «فكرة النفي التي تسمه كانت نتيجة التطور الداخلي لحياة الشعب. عندئذٍ لا يمكن أن يشعر أنه خارج حاجات الشعب. ومثل هرزن تماماً يعجب بيلنسكي: «إننا نساك تعساء في سكيثيا الجديدة، إننا أناس بلا وطن - لا، أسوأ من أن نكون بلا وطن، إننا أناس وطنهم وهم، **فهل من عجب**

---

* أنظر حول الكوميون المونتيغري كتاب بوبوفيتش الهام جداً الحق والعدالة **في** المونتينيغرو ١٨٧٧

** كلمة شخصية هنا تبدو في غير محلها ألا يمكن أن تكون غلطة مطبعية؟ على أي حال المعنى واضح تماماً.

أننا نحن أنفسنا أوهام، أن صداقتنا وحبنا وطموحاتنا وفعاليتنا أوهام أيضاً؟ » ونظراً لهذا المزاج فإن الميل الموقت إلى الأوهام السلافية يمكن فهمه حتى في شخص ذي فكر مطقي قوي مثل بيلنسكي

قلنا « الميل الموقت ». إن كل شيء يبين أن حالة بيلنسكي لم تكن فقط موقته، بل أيضاً قصيرة جداً، على غير حالة هرزن. لقد كان هرزن محقاً في قوله عن نفسه أنه « لا يستطيع النظر إلى الحياة في العصر القادم ». وما يسميه الألمان jenseits (أي الجانب الآخر) لم يكن له سوى تأثير قليل عليه. إنه يحتاج إلى أساس وطيد من الواقع من قبل في مقالة « نظرة في الأدب الروسي في ١٨٤٦ التي اقتبسنا منها آنفاً فرضيات تتعلق بمستقبل الحضارة الروسية، يلاحظ منتقداً هجومات أنصار السلافية على اصلاحات بطرس: « مثل هذه الأحداث في حياة الشعب أعظم من أن تعتبر أحداثاً عن طريق الصدفة، وحياة الشعب ليست حرفة بسيطة يمكن لأي انسان أن يوجهها كما يرغب بحركة خفيفة من الجذاف وبدلاً من التفكير في المستحيل والهزء من التدخل المتباهي في المصائر التاريخية، من الأفضل الاعتراف بالواقع الذي لا يقاوم ولا يتغير لما هو موجود والعمل على أساسه استرشاداً بالعقل والحس العام وليس بخيالات من نمط مانيلوف »[١٣٧] وفي مقطع آخر، بعد أن يوافق على أن الإصلاحات المعنية ذات تأثير غير مناسب نوعاً ما في الشخصية الشعبية الروسية، يضع التحفظ الهام التالي: « علينا ألا نمتنع عن الإقرار بصحة هذه الواقعة أو تلك، علينا أن ندرس أسبابها، على أمل العثور في قلب الشر على طريقة الخلاص منه ». ووسيلة الكفاح ضد النتائج غير المناسبة للإصلاحات البطرسية يجب البحث عنها في الإصلاحات نفسها، في العناصر الجديدة التي دفعها إلى الحياة الروسية. هذه نظرة ديالكتيكية حقاً في المسألة، وطالما كان بيلنسكي يعتنقها في نزاعه مع أنصار السلافية، فإن أفكاره كانت خالية من العنصر الطوباوي، كانت **ملموسة**. إنه نفسه يشعر بهذا، طالما يكيل الضربات لعدوه القديم الملح - **المثال المجرد**. يقول: « إن الطريقة غير المشروطة، أو المطلقة للتعليل هي الأسهل، ولكنها الأقل ثقة، إنها تدعى الآن الطريقة المجردة ». إن السبب الرئيسي لكل أخطاء أنصار السلافية عنده هو حقيقة « أنهم يقاومون الزمن، فيأخذون عملية التطور بنتيجتها، ويريدون رؤية الثمرة قبل البرعم وإذ يجدون الأوراق ذاوية يعلنون أن الثمرة فاسدة ويقترحون نقل زراعة غابة ضخمة ممتدة على مساحات واسعة، إلى

مكان آخر تزرع فيه بطريقة مختلفة. وفي اعتقادهم أن هذا ليس سهلاً، ولكنه ممكن».
يتضمن هذا المقطع نظرة جادة عميقة في الحياة الاجتماعية بحيث نلفت إليه نظر أنصار السلافية الحاليين، أي النارودنيك والذاتيين، السيد ن.. وبقية «أعداء الرأسمالية». إن من يتمثل هذا الرأي لا يحاول، كالسيد ن...، أن يفرض على المجتمع المهمة السيئة التي ليس أنها لا تحل فقط، بل أنها غير مفهومة، ولا يعتقد، كالسيد ميخائيلوفسكي، أن أتباع «**خطوات بطرس**» يعني اليوتوبيا، باختصار لن يحسب حساباً للمصالحة مع «المثال المجرد».

في ١٥ شباط ١٨٤٨ قبل ثلاثة أشهر من موته، أملى بيلنسكي، وكان مريضاً للغاية، رسالة إلى اننكوف في باريس تتضمن بعض الآراء الهامة، إلا أنها لم تلفت نظر المفكرين الروس إلا حالياً

يقول: «عندما قلت إنك محافظ في مناقشاتي معك حول البرجوازية كنت غبياً وكنت أنت رجلاً مثقفاً* إن كل مستقبل فرانسا هو بين أيدي البرجوازية، وكل التقدم يعتمد عليها وحدها، ولا يمكن للشعب إلا أن يقوم بدور مساعد سلبي في ذلك الوقت. وعندما قلت بحضور صديقي المتدين** أن روسيا تحتاج إلى بطرس الكبير الآن، هاجم هذه الفكرة كأنها زندقة، قائلاً إن الشعب يجب أن يعمل أي شيء ولكن بنفسه. يا للسذاجة، يا للتفكير الأركادي.. وقد ناقشني صديقي المتدين أن روسيا تكون أفضل من غير البرجوازية. ولكن من الواضح الآن أن العملية الداخلية للتطور الحضاري في روسيا سوف تبدأ فقط عندما تتحول طبقة النبلاء الروسية إلى برجوازية. فيا لغرابة ما كنت. عندما كانت في رأسي فكرة تافهة صوفية نادراً ما كان الناس العقلاء يقرعونه بالبرهان: أحتاج أن التقي بالصوفيين والأتقياء والرؤيويين المشغولين بالفكرة ذاتها، وعندئذٍ فقط أتخلى عن معتقدي. لقد قدم لي صديقي المتدين وكذلك أنصار السلافية خدمة جلى. لا تدهش لترتيب الأشياء: إن أعظم أنصار السلافية ينظر إلى الشعب نظرة صديقي المتدين، إنهم أخذوا تلك المفاهيم عن الاشتراكيين».

كانت هذه احدى نتائج رحلة بيلنسكي إلى الخارج ففي ذلك الوقت كان نبض

* يلاحظ السيد. ببين «ثمة تعبيرات أقوى في الأصل
** حسب السيد بيبين «هذا اللقب كان بيلنسكي يطلقه على أحد أصدقائه الباريسيين[١٣٨]».

الحياة الاجتماعية يخفق بقوة في باريس، والاشتراكيون من شتى المدارس مارسوا تأثيراً كبيراً، وإن مضعضعاً، على النظرة العالمية للانتلجسيا الفرنسية. في ذلك الوقت كثير من الروس المهتمين بالمسألة الاجتماعية كانوا يعيشون هناك، كما نرى ذلك من ذكريات أسكوف وإذ أثارت أبناء حلدتنا البيئة الاجتماعية المحيطة بهم، فقد غرقوا في الأوهام المتعلقة بموضوع دور روسيا في حل المسألة الاجتماعية بشكل أقوى مما لو كانوا في وطنهم. إن بيلنسكي وقد واجه آراء مبطرفة من هذا النوع تحرى فوراً، بفضل شعوره القوي البارز بالحقيقة النظرية، جانبها الضعيف: تجريدها الكلي، غياب أي علاقة واعية معقولة لمجرى التطور التاريخي لروسيا إن الحاجة الملحة لربط الأفكار بالحياة، للحصول من الديالكتيك على تفسير لواقعنا، لا بد من أن يتحدث عنها ثانية الهيغلي القديم وهكذا يجعل مصير روسيا يعتمد على تطورها الاقتصادي: العملية الداخلية للتطور الحضاري في روسيا سوف تبدأ فقط بتحول طبقة النبلاء الروسية إلى برجوازية إن الشروط التاريخية لمثل هذا التغير ليست واضحة له. وقد ذهب إلى أن روسيا تحتاج إلى بطرس جديد إنه لم ير العواقب الاقتصادية لاصلاحات بطرس الأول كافية تماماً لتطور الرأسمالية في بلادنا ولم ير العلاقة التاريخية بين البرجوازية و« الشعب في أوروبا الغربية. إنه يرى الشعب يلعب « دوراً مساعداً سلبياً ». هذه خطيئة بالطبع ولكن الاشتراكيين الطوباويين في الواقع أناطوا بالشعب مثل هذا الدور السلبي، الفرق الوحيد هو أن الشعب، حسب رأيهم، يلعب « دوراً مساعداً سلبياً ليس في عملية التطور للنظام الاقتصادي القائم، بل في قضية الاصلاح الاجتماعي، التي تكون المبادرة فيها بيد الانتلجنسيا المفكرة، أي أبناء البرجوازية ذاتها إن موقف بيلنسكي من الاشتراكيين كان موقف ازدراء، إنه يستصغرهم على ما يبدو مثل الأتقياء والصوفيين. وهو محق إلى حد ما: فآراؤهم تشتمل في الحقيقة على الكثير من الأوهام والأفكار غير العلمية، وقد كانت خطيئهم الكبرى، مثل خطيئة أنصار السلافية (طبقاً لملاحظة بيلنسكي المشار إليها أعلاه) أنهم نظروا إلى الشر على أنه شر فقط من غير ملاحظة الجانب الآخر الذي يغير الأسس الفعلية للمجتمع تغييراً جذرياً* ويحاول بيلنسكي أن يصحح هذه الخطيئة بادانة الشعب لدوره السلبي،

* لقد اتخذ بيلنسكي موقفاً سلبياً تجاه الاشتراكيين حتى قبل رحلته إلى الخارج إنه يشبه ليتري لأنه لا ينتمي إليهم (رسالة إلى بوتكين ٢٩ كانون أول ١٨٤٧).

ولكنه يرى هٰذه الخطيئة واضحة من واقع أنه يطري أهمية البرجوازية أي الرأسمالية. فالرأسمالية في نظره تمثل فكرة التطور، التي لا تجد لها مكاناً مناسباً في مبادىء الاشتراكيين.

هذا الموقف من الطوباويين يذكر المرء بموقف بيلنسكي المزدري من «الناس العظام الصغار» الذين وبخهم بعنف في مرحلة مزاجه التصالحي لقد أغضبه «الناس العظام الصغار لأنهم، بالنظر إلى الحياة الاجتماعية نظرة عقلانية، لم يعترفوا قط بوجود ديالكتيك داخلي يسم هذه الحياة. إلا أن بيلنسكي كان أقل قسوة تجاه الطوباويين، مع أنه يدعوهم صوفيين. إنه يتأكد أنهم يهتدون بعصبياتهم ليس في الخيال أو العبث، بل في الرغبة في الصالح العام، حيث بدا له «الناس العظام الصغار» لأنهم، بالنظر إلى الحياة الاجتماعية نظرة عقلانية، لم يعترفوا قط بوجود ديالكتيك داخلي يسم هذه الحياة. إلا أن بيلنسكي كان أقل قسوة تجاه الطوباويين، مع أنه يدعوهم صوفيين. إنه يتأكد أنهم يهتدون بعصبياتهم ليس في الخيال أو العبث، بل في الرغبة في الصالح العام، حيث بدا له «الناس العظام الصغار» ثرثارين عابثين. إلا أن انزعاجه من الطوباويين نشأ للسبب ذاته الذي جعله يكره «الناس العظام الصغار»: **الطبيعة المجردة لمثالهم**.

لقد سمى تورجنيف بيلنسكي **شخصية مركزية**. وسوف ندعوه أيضاً كذلك، وإن بمعنى مختلف. ففي اعتقادنا ان بيلنسكي شخصية مركزية في المجرى العام لتطور الفكر الاجتماعي الروسي. لقد وضع نصب عينيه، وآخرون كذلك، مهمة عظيمة، من دون حلها لن نعرف أبداً أي طريق يقود البشرية إلى السعادة وانتصار العقل على قوى الضرورة العمياء، وسوف نتذكر إلى الأبد في المجال العقيم لأحلام من «نمط مانيلوف»، في مجال المثال «المكتشف من الشروط الجغرافية والتاريخية، المبني في الهواء». إن الحل الصحيح لهذه المهمة يتخذ كقاعدة لتقييم التطور التالي لمفاهيمنا الاجتماعية. لقد قال عن أولئك الذين يشاركونه الرأي: «جيلنا جيل بني اسرائيل الذي تاه في البرية ولم يكتب له أن يرى أرضى الميعاد، وكل قادتنا موسى لا يشوع».

وقد كان هو فعلاً موسانا الذي، وان لم ينقذ نفسه وأمثاله من النير المصري عن طريق المثال المجرد، حاول أن يفعل ذلك بكل قوته. وهذه خدمة كبرى لا تقدر وهذا هو السبب في أن الوقت قد حان لدراسة تاريخ تطوره الفكري ونشاطه الأدبي

من زاوية الأفكار الملموسة لعصرنا وكلما درسنا هذا التاريخ باهتمام، أصبحنا مقتنعين أكثر أن بيلنسكي كان أعظم منظمة فلسفية ظهرت في أدبنا

ربما وقع علينا اللوم لأننا لم نقارب آراء بيلنسكي الأدبية ولكن تلك الآراء كانت دائماً وثيقة الصلة بنظرته العالمية الفلسفية ككل، وكان من الضروري أن نطلع أولاً على أهم نواحي نظرته العالمية هذه. وإذ اطلعنا عليها الآن، فيمكننا الانطلاق في دراسة المبادىء الكبرى لنشاط بيلنسكي النقدي. وسوف نقوم بذلك في المقالة التالية[١٣٩]، التي سوف نقارن فيها تلك المبادىء بالنظريات الأدبية السائدة في هذه البلاد خلال مرحلة التنوير وبعد توضيح آراء متنورينا، سوف نفهم بسهولة دور وأهمية مخدرينا، أي أولئك «السوسيولوجيين» من شتى القناعات الذين ظهروا

«صيغ التقدم» المجردة في زمن توقف فيه، لأسباب متنوعة، النشاط الأدبي لمعظم المتنورين. ونأمل في هذه المقالة أن نحل بصورة نهائية السؤال القديم، ولكن الهام، وهو لماذا يبدو الصغار كباراً، بينما ينسحب العظام من المسرح.

ف. غ. بيلنسكي[١٤٠]

(خطاب ألقي في ربيع ١٨٩٨ في الذكرى الخمسين لوفاة بيلنسكي أمام المجتمعين الروس في جنيف وزوريخ وبيرنَ)

سوف أعالج في هذا الخطاب ما قدمه ڤيساريون غريغوريفيتش ببلنسكي في تاريخ تطور روسيا الثقافي. أولاً سوف أنتهز هذه المناسبة في استعادة ذكريات هذا الرجل الرائع.

كتب مرة يصف نفسه أن العنصر السائد في طبيعته كان مراجه الانفعالي

وأضاف: «مزاجي الانفعالي هو مصدر كل آلامي ومباهجي، وربما أن القدر قد رفضني أرى من المستحيل أن أقترف إثماً بحق نفسي فأفتر تجاه القليل الذي سمح لي به. بالنسبة إليّ حتى صداقاتي مع الآخرين ذات انفعالات، وقد عرفت كيف أبرز غيرتي في تلك الانفعالات».

طبيعي أن هذه السمة الأساسية لشخصية بيلنسكي تتجلى في تعاطفاته وكراهياته العامة. ويمكن أن نلمحها في مقالاته، على الرغم من حقيقة أن اليد المنقبة للرقيب شطبت منها كل ألوانها العاطفية، إنها تنفجر كأعصار عنيف في شخطه في رسالته الشهيرة إلى غوغول[١٤١]، إنها تضفي سحراً لا يقاوم على كل مراسلاته، وأخيراً إنها عنصر حاسم في موقفه من خصومه. كان دائماً مجادلاً انفعالياً

كتب في مقالته الأولى الشهيرة «أحلام أدبية»: «تظهر المجادلات أحياناً على شكل هجوم في روسيا، وعلى الأخص في الصحافة. وهذا طبيعي جداً فهل يستطيع أولئك الذين يختلفون في الحياة الفكرية أن يتوقعوا فهم كيف يفضل المرء الحقيقة على الطرق اللائقة، ويخضع للحقد والاضطهاد من أجلها؟ إنهم لن يفهموا أي بهجة تكمن في أن تخبر أحد الأدعياء بدون رسميات أنه مضحك ومحزن في ادعاءاته الطفولية، وأن

تشرح له أن أهميته كشخصية أدبية لا ترجع إلى ذاته، بل إلى بعض الصحفيين المتشدقين. أو أن تخبر المحك القديم أن هيبته تأتت إما من خلال ذكرياته القديمة أو من خلال عاداته العتيقة أو أن تثبت لأستاذ متأدب قصير النظر، أنه تهاوى خلف العصر، وأن عليه أن يبدأ ثانية بألف باء الأدب، أن تخبر أحد التافهين الله أعلم من أين هو، أحد ثعالب فيدوك القديمة [إشارة إلى بولغارين ج - ب]، أحد تجار الأدب أن شخصه إهانة لكل من الأسلوب الأدبي الذي يكتب فيه، ولأولئك الناس الطيبين الذين يستغلهم، أنه يجدف على قدسية الحقيقة وقدسية المعرفة، وتدفعه كمنبوذ وتمرق قناعه حتى وإن كان قناع البارون [إشارة إلى سنكوفسكي، «بارون برامبوس»- ج ب] وتظهره للعالم بكل عريه. أخبرك أن في كل هذا بهجة لا تقدر وعذوبة لا حد لها

في ١٨٤٢ أي عندما تخطى بيلنسكي سن الشباب، كتب في إحدى رسائله إلى بوتكين، فشكره على أخبار أنصار السلافية بالكلمات التالية:

«أشكرك على أخبار أنصار السلافية. أنا مسرور، إن لم أكن مخطئاً في مشاعري الخاصة، لحقد هؤلاء السادة، فقد تلقفته مثل شراب الآلهة، كما يتهم بوتكين (صديقي) أي شيء طيب. مسرور لانتقامهم.. سأظل غاضباً منهم أخيفهم وأغويهم. إنها معركة التفاهات، لكنها على الأقل معركة، حرب ضد الضفادع، لكنها على الأقل ليست سلماً مع الخراف».

وفي رسالة أخرى كتبت تقريباً في الوقت نفسه:

«أشعر تماماً أنني خلقت للمناوشات بطبعي وأن فراغي وحياتي وسعادتي والهواء الذي أتنفس والطعام الذي أتناول هي **المناقشات**».

والشيء نفسه - ربما أكثر حدة - شعر به كل من أصدقائه العديدين وأعدائه الذين لا يعدون. وهذا ما يقوله باناييف في ذكرياته عنه:

«حتى نشكل انطباعاً كاملاً عن السيد ب، حتى نراه في كامل مجده، علينا أن ندفع المحادثة نحو تلك القضايا الاجتماعية التي تهمه جداً، وأن نغريه بالتناقض، وحالما يقف أمام ما يهمه، تنتصب قامته فجأة، وتتدفق كلماته كالتيار، ويهتز جسده بطاقة داخلية، وأحياناً يفث بشدة وتتقلص كل عضلات وجهه.. سوف يهاجم خصمه بقوة رجل يمتلك سلطة، فيلعب به كما يلعب بقشة ويسخر منه ويجعله يبدو غبياً، وطيلة

الوقت يمطره بفكره بطاقة مذهلة ». وفي لحظات ينقلب هذا الرجل الخجول إلى رجل لا تعرفه ».

قرأنا الشيء نفسه تقريباً في كتاب هرزن **أيامي الغابرة وأفكاري**: « في هذا الرجل الوديع، هذا الجسد الهزيل تكمن طبيعة جبارة لمجالد نعم كان محارباً قوياً لا يستطيع أن يكرز أو يعلم، إنه بحاجة إلى مجادلة. تكلم بصورة سيئة حيث لا اعتراض ولا إثارة، ولكنه عندما شعر بالإهانة، عندما مست المسألة معتقداته، بدأت عضلات وجهه وصوته يتهدج، وعندئذٍ عليك أن تراه: لقد قفز على خصمه مثل الفهد، قطعه إرباً، جعله مضحكاً ومتألماً، وبالمناسبة فإنه يطور فكرته بقوة فظيعة، بشاعرية ملحوظة. وغالباً ما تنتهي المجادلة بالدم الذي يسيل من حنجرة الرجل المريض الشاحب اللاهث، عيناه تثبتتا على الشخص الذي كان يتكلم، فيرفع منديلاً إلى فمه بيد مرتجفة ويتوقف متألماً بعمق يسحقه ضعفه الجسدي. ألا كم أحببته وأشفقت عليه في تلك اللحظات ».

ومن نافلة القول إن خصوم بيلنسكي، أي أولئك الذين جعلهم يبدون أغبياء مضحكين باللعب بهم مثل قطع من القش، اعتبروا هذا الانفعال في شخصيته شيئاً سيئاً جداً لقد سموه البلدغ الأدبي [البلدغ كلب كبير الرأس عدواني النزعة - المترجم] واتهموه بكراهيته كل ما هو روسي: تذكروا الأبيات المشهورة التي أفصح بها بيلنسكي عن نفسه بالكلمات التالية:

لا، إن استغلالك غير جدير بالتقريظ
أنت تتجنب روسيا وأنت تفضحها
لقد لسع كارامزين بشدة
ولومونوسوف ليس شاعراً[١٤٢]

ولكني آمل أيها السيدات والسادة ألا تعجبوا إذا قلت إن هذا « البلدغ »، هذا المجادل العنيف الملهم، كان رجلاً عاطفياً جداً إن بطل مسرحية « ديمتري كالينين » التي كتبها في شبابه يناجي نفسه:

« لا تستطيع أن تتصور المشاعر التي عانيتها دائماً عندما نظرت إلى شخص تعيس. فإن أنا سمعت قصة تكشف الظلم والاضطهاد، تكشف ظلم القوي للضعيف، تكشف سوء استخدام السلطة، تندلع نار الجحيم في صدري ».

إن كالينين هنا يعبر عما في صدر بيلنسكي نفسه في كل المناسبات. وبما أنني ابتدأت الموضوع فأنا لا أستطيع أن أقاوم إغراء قراءة مقطع من رسالته في ٨ أيلول ١٨٤١ إلى بوتكين صديقه:

« هل يريحني أن النخبة تعيش بسعادة إذا كانت الأغلبية لا تعرف أن هذا الشيء موجود؟ فلتلق تلك السعادة في الجحيم إذا أنا لم أتقاسمها مع إخوتي الأصغرين. إن قلبي يخفق بجنون لدى رؤية الغوغاء وممثليها فإذا أنا أعطيت لمستعطية قطعة نقدية أهرب منها كما لو أنني اقترفت إساءة، ومحاولاً أن أتجنب صوت وقع أقدامي. إنهم يسمون تلك حياة، التستر بالأسمال والجلوس على قارعة الطريق، بتعبير غبي على الوجه، لجمع بضعة قروش في اليوم لإنفاقها فقط على الشراب في الخمارة مساء - والناس ترى ذلك وتنظر إلى الناحية الأخرى... ويسمون ذلك مجتمعاً قائماً على العقل، مظهراً من مظاهر الواقع.. أرى كل هذا فأتساءل هل للكائن البشري الحقيقي الحق في أن يهرع إلى النسيان في الفن أو المعرفة؟ ».

تلك هي السمة التي تطورت عند التقدميين الروس في الستينات، وباتت السبب الأساسي لموقفهم السلبي من الفن الذي أساء فهمه وفسره تفسيراً خاطئاً المحافظون الروس في تلك الأيام والمنحلون الروس في أيامنا كانت قضية الفن عند تقدميي الستينات قضية أخلاقية في الدرجة الأولى، لقد طرحوا على أنفسهم ما إذا كان لنا الحق في التمتع بالفن عندما تكون الأغلبية حولنا محرومة ليس فقط من تلك المتعة، بل أيضاً من وسائل اشباع ليس معظم حاجاتهم الضرورية فقط، بل أشد هذه الحاجات ضرورة. إلا أنهم اتهموا باللاأخلاقية والمشاعر الفظة وضيق التفكير، بل اتهموا حتى باللامبالاة بمصالح أولئك الفقراء جداً الذين من أجلهم أدانوا التمتع بالفن والأشياء الجميلة الأخرى في الحياة.

إن المقطع السابق الذي اقتبسته من رسالة بيلنسكي إلى بوتكين برهان ساطع على أن كل تلك الاتهامات عارية عن الصحة.

على أي حال، الشيء الهام هنا بالنسبة إليّ ليس أن تلك الاتهامات لا أساس لها، بل الشيء الهام هو أن بيلنسكي أثناء المرحلة الأخيرة من حياته رأى الفن بالطريقة ذاتها التي نجدها عند تشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف والتقدميين الآخرين في الستينات وما بعد إن الحركة الاجتماعية في تلك السنوات، المشابهة للعقد التالي أيضاً، كانت في

أبرز مظهرها حركة قطاع من المجتمع الذي انحصر في الرازوشنتسي تلك هي الخلفية التي جاء منها بيلنسكي كان واحداً من الأوائل ومن دون شك كان أعظم شارح أدبي حيوي في الرازوشنتسي الثقافي. لقد عرض القضايا ذاتها التي عرضت مؤخراً، كانت تعذبه الآلام ذاتها التي قدر لهم أن يعانوها، وباعتباره ممثلاً رائعاً للرازوشنتسي، أشار من قبل بشكل عام إلى الطريق الذي يقود ذلك القسم من الرازوشنتسي الذي كان قادراً على التطور إلى نشاط اجتماعي مثمر وهنا تكمن الأهمية الاجتماعية الكبرى لنشاط بيلنسكي الأدبي*

في مقالة «قلب كبير»، التي نشرنا الفصول الأولى منها في روسكوي بوغاتستفو[١٤٣]، عدد آذار، والتي سوف استشهد بها ثانية، يشير السيد فنغيروف إلى المرحوم فاسيلي بوتكين أنه مصدر الاثارة الفكرية لبيلنسكي. إن هذا اللقب صحيح إلى حد ما ولكن من المهم أن نكتشف فيما إذا كان موقف بوتكين من الفن معروفاً،

---

* وهذا ما يفسر الاحترام الحماسي الذي تكنه له الرازوشنتسي التقدمية في الستينات والسبعينات وسأقدم مثالين عن هذا الموقف في مقالات حول مرحلة غوغول في الأدب الروسي يعبر تشيرنيشفسكي في تقدير كتاب بيلنسكي بالكلمات التالية عن نفسه: «اذا كان لدى كل واحد منا موضوعات عزيرة على القلب، بحيث أن شخصاً يحاول أن يضفي برودة وهدوءاً على نفسه، يحاول أن يسحب التعبيرات التي فيها يظهر حبه الجارف، يعرف أن كلامه، حين يراعي البرودة بكل ما يستطيع سوف يكون ملتهباً جداً، فاذا كان لكل واحد منا موضوعات كهذه عزيزة على القلب، فإن نقد مرحلة غوغول [أي كتابات بيلنسكي - ج.ب] يحتل أحد الأمكنة الأولى بينها ولهذا السبب نتحدث عن نقد مرحلة غوغول ببرودة قدر المستطاع ثمة درجة من الاحترام والتعاطف، حيث كل تقريظ مرفوض كأنه سيء لا يعبر تماماً عن مشاعر المرء

المثال الآخر أكثر أهمية في ١٨٥٦ نفي كيمبوف، الذي كان وقتها ما يزال يدرس في أكاديمية الطب الجراحي، كإجراء إداري، أولاً إلى مولوعدا، ثم إلى شنكورسك وقد كابد بالطبع صعوبات مادية وروحية والأصدقاء الذين راسلوه حاولوا جهدهم للابقاء على معنوياته عالية. في نيسان ١٨٥٩ كتب أحدهم، وربما فيدلين، يدعوه إلى متابعة الكتابة التي مارسها تذكر بيلنسكي، اقرأ اقرأ التهم الكتب الكثير من الكتب طبع الآن وأكثرها جيد. أسألك أيضاً تذكر بيلنسكي أود أن أرسل إليك شيئاً ما، ولكن سأخبرك الحقيقة. لا ليس ثمة وقت نضيعه في إخبار الحقيقة - حالما أحصل على روبل فضي أعدك أن أرسل إليك القسم الأول من مؤلفات بيلنسكي (انظر مقالة نيميودوف «الكسندر إيفانوفيتش ليميوف» الموجودة في المجلد الأول من المؤلفات الكاملة كليميوف التي نشرها سولداسكوف) هكذا كانت عظيمة أهمية بيلنسكي بالنسبة إلى الرازنوشنسي في تلك الأيام.

وان كان فإلى أي مدى نجد ذلك في موقف بيلنسكي من الفن* إني أشك كثيراً أن من الممكن اثبات ذلك، في أي حال من المؤكد أنه لا أحد من أنصار الغرب في الأربعينات أظهر هذه السمة في نظرته إلى الحد الذي تطورت فيه عند بيلنسكي. وفي هذا الميدان كان أقرب إلى المتنورين الروس في الستينات أكثر منه إلى معاصريه.

ولكن ليس فقط في هذا الميدان. يكتب السيد فنفيروف في مقالته «قلب كبير» التي اقتبسنا منها من قبل:

«إن العظماء ليسوا أولئك الذين يكونون عظماء في أنفسهم فقط، بل أولئك الذين يعكسون عظمة عصر. إن أهمية بيلنسكي ستكون ثانوية لو أنه عكس فقط ستانكيفيتش، وفقط بوتكين، وفقط باكونين وفقط غرانوفسكي وفقط هرزن. ولكنه إذا عكس في الوقت نفسه، مع احترامنا لمعظمهم، ستانكيفيتش وبوتكين وباكونين وغرانوفسكي وهرزن، فمعنى ذلك أنه كان النقطة المحورية لعصر عظيم، كان تعبيراً عن أروع لحظة في الثقافة الروسية، التي أنتجت مجرة من الكتاب العظام الذين جعلوا روسيا تعادل أعظم القوى الأدبية للانسانية».

إن هذا صحيح وغير صحيح. إنه صحيح من حيث أن بيلنسكي «**عكس**» ستانكيفيتش وبوتكين وباكونين وغرانوفسكي وهرزن، وكثيراً من التقدميين في عصره، أي بكلمة أخرى، صحيح تماماً أنه عكس ما هو عام معهم جميعاً إذا أخذوا معاً، ومع كل واحد على حدة. إلا أن هذا لم يمنعه من «**عكس**» نفسه أولاً وقبل كل شيء باعتباره فرداً خاصاً، بكل سماته الفردية. وفي مناقشة الدور الذي لعبه بيلنسكي في تاريخ تطور الفكر الروسي فيمكن، بل يجب، أن يسأل المرء نفسه: **أليس لسماته الفردية، لصفاته الشخصية أهمية في التاريخ عامة؟** اننا بوضع السؤال بهذه الطريقة نحدد تماماً الدور الذي لعبه رجل عظيم في التاريخ.

إذن فلندرس تلك الصفات الشخصية.

إن بيلنسكي بطريقة تفكيره يساري متطرف من أنصار الغرب في الأربعينات. وليس عبثاً أن هرزن في يومياته سماه متعصباً، رجلاً متطرفاً. وكمحارب انفعالي،

---

* أتحدث بالطبع عن الأربعينات، لا عن المرحلة التي كان فيها بوتكين صديقاً لفيت، وأطلق الرقيب لملاحقة أولئك الذين كتبوا لسوفريمينيك.

ك « يهودي » في كرهه « الفلسطينيين »، لم يستطع مثلاً أن يسامح هرزن - صديقه الحميم - لعلاقاته بأنصار السلافية في موسكو وعندما طفق هرزن يجادل بيلنسكي، وجد الأخير تفسيراته « تفوح تواضعاً وحذراً، وهما بداية الانحطاط والتدني* ». ومدح كثيراً صديقاً آخر من أصدقائه هو غرانوفسكي، مضيفاً أنه اقترف خطيئة واحدة فقط تواضعه. وقد كانت صدمة غرانوفسكي من جراء « تطرفات » بيلنسكي أكثر من هرزن.

يقول كافلين في مذكراته: « صداقة عظيمة ربطت بيلنسكي وغرانوفسكي، ولكني لا أعتقد أنهما ارتبطا بأي عواطف مباشرة، أو انهما يمكن أن يرتبطا كان كل واحد من طبيعة عكس طبيعة الآخر كان غرانوفسكي يتحدث عن بيلنسكي باحترام وحب عظيمين، ولكنه كان يضيف أنه ينجرف إلى التطرفات. فإذا كانت هاتان الطبيعتان لم تتحدا بظروف خارجية، إلا أنهما اشتركتا في نبل الأهداف، والخلو من العيوب الشخصية وثقل الأفكار والمعرفة والأدب من الأعلى إلى الأدنى، ثم انفصل بيلنسكي وغرانوفسكي مثلما انفصل فيما بعد غرانوفسكي وهرزن »**

وقد عرفنا من كتاب بيبين **بيلنسكي، حياته ومراسلاته** أن غرانوفسكي وبيلنسكي غالباً ما تناقشا عن الثورة الفرنسية وان غرانوفسكي لم يوافق على رأي بيلنسكي في « ر » أي في روبسبير. إن هذا معقول تماماً، ويثبت رأي كافيلين في أن الرجلين سوف ينفصل الواحد عن الآخر بسبب الظروف الاجتماعية المختلفة.

إن السيد فينغيروف، وليس وحده فقط، ود تلطيف الكثير من « التطرفات » في شخصية بيلنسكي، وعلى الأخص في أفكاره ليجعله (Salonfähig) [أي مزيناً المترجم] على حد قول الألمان. إننا نعرف مثلاً أن بيلنسكي عندما اقتحم إلى حد ما فلسفة هيغل، التي كانت تعني الكثير له من قبل، تجاوزها إلى **الاشتراكية**.

كتب إلى بوتكين: « انت تعرف طبيعتي، دائماً أصل الحدود المتطرفة... لقد وصلت الآن حداً متطرفاً، وهو فكرة **الاشتراكية**، التي أصبحت بالنسبة إلى فكرة فوق كل الأفكار إنها ألفباء الايمان والمعرفة... لقد شملت بالنسبة إلى التاريخ

---

* أنظر بيبين **بيلنسكي حياته ومراسلاته** المجلد ٢ ص ١٨٠

** المرجع السابق مجلد ٢ ص ٢٣٠.

والدين والفلسفة. لذلك أفسر بها الآن حياتي وحياتك وحياة كل من قابلتهم في مسيرة حياتي ».

من الواضح أن هذه الظروف هي التي كانت في ذهن السيد فينغيروف عندما قال:

« أفضل طريقة لوصف نظرة حلقة بيلنسكي وهرزن أن نسميهم « اشتراكيين »، بيد أني أخجل من هذا اللقب الذي داخله فيما بعد توجه عدواني. إني الآن، على العكس، أريد أن أبين أن « الاشتراكية » مؤخراً، بمعناها العدواني، كانت غريبة بالنسبة إلى أبناء الأربعينات. إن بيلنسكي يسمي نفسه « اشتراكياً » في احدى رسائله، بمعنى الانسان الذي يهتم أولاً بالمسائل « الاجتماعية ». لذلك أبيح لنفسي الحرية في أن أسمي أنصار الغرب في الأربعينات ليس « اشتراكيين »، بل اسميهم ذوي « اتجاه اجتماعي »، وعندها يشمل المصطلح هرزن وبيلنسكي وكتاباً كانوا محبي سلم مثل غريغوروفيتش وتورجنيف ودوستويفسكي وسالتيكوف ونكراسوف وهلمجرا ».

من الواضح أن لدى السيد فينغيروف فكرة غير صحيحة عن شخصية بيلنسكي، لأن بيلنسكي كما سبق ورأينا كان دائماً « عدوانياً » في تعصباته.

كتب: « شرعت أحب البشرية مثل مارات، فحتى أجعل أصغر جزء منها سعيداً لا بد من تدمير الباقي بالنار والحديد ».

فاذا جمعنا هذا الحب الماراتي للبشرية مع اندفاعه لروبسبير المشار إليه سابقاً، فسوف توافقون أيها السيدات والسادة أن اشتراكية بيلنسكي تضمنت عناصر عدوانية متطرفة.

ولكن الروسكوي بوغاتسفي لا تريد أن توافق على هذا وتبذل جهدها في شخص فينغيروف أن تنحي العناصر الجريئة من صورة كاتبنا العظيم. ويلجأ السيد فينغيروف إلى شهادة شدرين وفي ذهنه هذا الهدف.

كتب شدرين مرة:

« لقد غمرنا الايمان بالبشرية من فرانسا سان سيمون وكابيه وفوريه ولويس بلان، وبشكل خاص من جورج صاند، فمن هناك بزغ ايماننا أن العصر الذهبي أمامنا لا خلفنا ».

وهذا ما يقوله فينغيروف عن الموضوع.

«ليست الوقائع فقط ذات قيمة في هذه الشهادة التاريخية الهامة، بل النغمة العامة. ومع أنه يبدو كأنما يتحدث عن النظريات السياسية والاقتصادية، فقد كانت، في الحقيقة «ذكرياته المحببة هي التي أثارت في الرجل العنيد نظرياته، فهو لا يتحدث عن «الصراع الطبقي» بل عن البشرية. ليس عن الاقتصاد السياسي، بل عن الإيمان، ولم يقبل هذا الإيمان بطريقة جافة منطقية، لأن الوقائع والأشخاص مسلم بها » الخ.

وهكذا نحن لا نعالج الصراع الطبقي بل البشرية. ليس الاقتصاد السياسي، بل الايمان. فلننح جانباً مسألة موقف شدرين الخاص من «الاقتصاد السياسي»، باعتبارها مسألة مفككة هنا ولكن من المفيد أن ندرس ما إذا كان «الصراع الطبقي» لم يلعب حقاً دوراً في اشتراكية بيلنسكي.

هذه المسألة ستجد الجواب الوافي لدى قراءة مقالته عن رواية أسرار باريس* من تأليف أوجين سو. ففي هذه المقالة يأسف بيلنسكي أن عمال باريس شهروا السلاح في تموز ١٨٣٠، طالما أن الصراع بين البرجوازيين والملكيين ليس من مهمتهم:

«إن الشعب بغيريته العمياء البائسة لا يدخر وسعاً في الحرب لتدمير القوانين التي لا تجعله سعيداً إلا أن المصالح السياسية لا تهمه كأنها صحة امبراطور الصين».

عندئذٍ يتصدى بيلنسكي لمفهوم البرجوازية عن المساواة:

البروليتاري الفرنسي «في نظر القانون متساوٍ مع أغنى مالك ورأسمالي، انهما كلاهما يتحاكمان في محكمة واحدة، فاذا كان هناك جرم كانت العقوبة واحدة، لكن المشكلة هي أن هذه المساواة لا تجعل حياة البروليتاري سهلة. إن العامل الدائم الأبدي للمالك والرأسمالي، وهو البروليتاري، في أيديهما دائماً، انه عبدهما الدائم، لأنهما هما اللذان يقدمان له العمل ويحددان مكافأته. والمدفوع دائماً لا يكفي العامل المسكين لشراء خبزه اليومي وثيابه وأسمال عائلته بينما يستولي المالك الغني على ٩٩٪ من الناتج لنفسه،... فيا للمساواة».

وأخيراً يهاجم بيلنسكي بشدة قسوة البرجوازية وجشعها ويشير إلى آلام شعب باريس.

«لقد تجاوز الحظ العاثر لشعب باريس كل حد حتى المحاربين الشجعان في الخيال.

لكن شرارات الطيبة لم تكن قد أخمدت في باريس، كانت تتوقد تحت الرماد منتظرة الريح المواتية لتتحول إلى لهيب مندلع إن الشعب طفل ولكن الطفل ينمو واعداً بالرجولة، بالقوة والعقل... لا يزال ضعيفاً ولكنه وحده يحمل في داخله نار حياة الأمة وحماسة معتقداتها التي نبذتها الطبقة الراقية الخ.

إني أسألكم أيها السيدات والسادة أي شكل «للإيمان بالبشرية» نجده هنا إنه يتطابق تماماً مع **الإيمان بالشعب**، وهو مفهوم يتطابق بدوره مع مفهوم **الطبقة العاملة**. إن مصالح العمال، وحتى أخلاقيتهم تتعارض مع مصالح البرجوازيين وأخلاقيتهم. أليس هذا موقفاً من الصراع الطبقي؟ أليس «**ضيق نظر**» بأن يتهم الاشتراكيون اليوم من قبل أولئك الذين يعجزون عن استيعاب المفاهيم المحددة، ويعتبرون تلك الآراء الاجتماعية التي **ليست واضحة، وفي الحقيقة ليست شيئاً**، بأنها «**سعة نظر**»؟

أسرع وأبدي تحفظاً ليس بين اشتراكيي اليوم من يتفق وبيلنسكي أن مسألة الحقوق السياسية قليلة الارتباط بمصالح الشعب كصحة امبراطور الصين. هذا خطأ. فبدون حقوق سياسية لا يمكن أن يكون هناك تطور واسع لحركة الطبقة العاملة، وهذا هو السبب في أن العمال حيث لا توجد حقوق سياسية يكافحون بكل طاقتهم لتحقيقها وهذا هو السبب أن الخطوة الأولى الكبيرة التي يتخذها العمال في بلدنا روسيا، يجب أن تكون للحصول على الحرية السياسية. إن بيلنسكي لم يفهم العلاقة بين المصالح الاقتصادية للطبقة العاملة وحقوقها السياسية. كان هذا المظهر الضعيف في آرائه الاشتراكية، **وفي كل اشتراكية تلك المرحلة، التي صارت تسمى الآن الاشتراكية الطوباوية**. إلا أن هذا لم يمنعه من تبني موقف الصراع الطبقي، أو كما يقول السيد فينغيروف، **الاقتصاد السياسي**، جاعلاً إيمانه بالبشرية إيماناً **بالطبقة العاملة**. ولا ضرورة لكل تلك الجهود التي تحاول أن تجعله Salonfähig [مزيناً - المترجم].

وبما أننا طرحنا مسألة الصراع الطبقي، فإنني لن أتركها من دون أن أحاول تقويض بعض الأفكار التي ضربت بجذورها ليس فقط في أذهان الفلسطينيين الفرنسيين والألمان، بل لسوء الحظ في أذهان الكثير من الروس الذين يعتبرون أنفسهم «**تقدميين**». يقول بعض الناس: «لماذا ندافع عن مصالح الطبقة العاملة؟ إن هذا

ضيق نظر علينا أن نحمي مصالح البشرية كلها ». لكن التحدث بتلك الطريقة ليس أكثر من لعب بالكلمات. إنني أرغب في طرح هذه المسألة على أولئك الذين يلعبون هذه اللعبة كما لو أنها لعبة جدية فعلاً: « ماذا تقصدون بكلمة بشرية؟ » إذا كنتم تقصدون البشرية العاملة، أولئك الذين يعملون بأنفسهم ولا يعيشون على حساب الآخرين، فمصالحهم، بصورة عامة، تتطابق مع مصالح الطبقة العاملة. أما إذا كنتم تقصدون أولئك الذين لا يستطيعون أن يعيشوا إلا إذا استغلوا عمل الآخرين، مثل الطفيلي الذي لا يستطيع العيش إلا بامتصاص عصير الآخرين،عندئذٍ فإني أشك أن الناس الذين يكافحون من أجل الخير والحقيقة يتبنون مصالح تلك الإنسانية المزعومة. إن الثورة الفرنسية في القرن الماضي كانت حادثاً عظيم الأهمية للعالم المتحضر كله، **وإن كانت صراعاً بين الطبقات** - صراعاً بين الطبقة الثالثة من جهة والنبلاء والأكليروس من جهة أخرى. ولكن ماذا كانت الطبقة الثالثة؟ كانت « كل الأمة ما عدا أصحاب الامتيازات » كما أجاب الثوريون الفرنسيون في ذلك الوقت. كان هذا وصفاً صحيحاً، وأنتم توافقون، أيها السيدات والسادة، أن هؤلاء الثوريين في دفاعهم عن مصالح كل الأمة عدا أصحاب الامتيازات، لم يكونوا « ضيقي النظر ». ولكن الاشتراكيين اليوم يمكن أن يقدموا الجواب ذاته. فما مصالح الطبقة العاملة؟ إنها مصالح كل أولئك الذين لا يعيشون على استغلال عمل الآخرين. إنها أيضاً مصالح كل الأمة، أو بالأحرى **كل الأمم** ما عدا أصحاب الامتيازات، ما عدا المستثمرين. إن مصالح المستثمرين سلبية كمياً، فإذا طرحناها من المصالح العامة للشعب يعني إضافة شيء إيجابي على المصالح الأخيرة. فبإعلاننا الحرب على الحرب إنما نعمل ونكافح من أجل السلم، وإعلان الحرب على الاستغلال الاقتصادي ندافع عن مصالح الطبقة العاملة، **ندافع عن مصالح البشرية كلها**. ومن المؤسف أن السيد فينغيروف لم يع هذه الحقيقة، التي تجلت بوضوح نتيجة الحركة الاجتماعية في عصرنا

ولكن لنعد إلى بيلنسكي.

يروي هرزن في **أيامي الغابرة وأفكاري** أن سكوبيليف، حاكم قلعة القديسين بطرس وبولس، عندما قابل الناقد الشهير في باحة نيفسكي قال له مازحاً: متى سوف نراك؟ لقد أعددت لك حجرة دافئة تنتظرك، سأبقيها خصيصاً لك ». هذه النكتة الصغيرة من قبل حاكم السجن تدل بشدة على رأي « الدوائر الحاكمة » في بيلنسكي.

لقد اعتبروه رجلاً خطيراً جداً لقد سمعتم بالطبع بالموضوع الذي صار خالداً في لوحة نوموف **بيلنسكي قبل موته**. وإليكم ما حدث. في شباط ١٨٤٨ دعا دوبلت - رئيس القسم الثالث للتحقيقات - بيلنسكي إلى زيارته للإفضاء بذات نفسه. إلا أن الأخير كان مريضاً جداً ولا يستطيع أن يغادر البيت. فترك بسلام فترة، ولكن في ٢٧ آذار حضر الشرطي إلى منزله حاملاً دعوة جديدة. ظهور هذا الشرطي هو ما صوره نوموف. وإليكم ما يرويه أصدقاء بيلنسكي عن انطباعاتهم عن الزيارة.

« سألني بيلنسكي، وكان لا يستطيع النهوض من مقعده، بصوت مبهور الأنفاس وبضعف واضطراب... أن أجد أستاذه السابق بوبوف [الذي كان يخدم وقتها في القسم الثالث - ج - ب] وأن استخبره عما يريده. وعندما جئت إلى بوبوف أخبرته بمرض بيلنسكي الخطير الذي أقعده، وسألته عما يريدون منه. تذكر بوبوف طفولة بيلنسكي بحنان، وعبر عن حزنه لمرضه، وطلب مني إعلام الرجل المريض أنه استدعي ليس من أجل قضية خاصة أو اتهام شخصي، بل باعتباره واحداً من أعظم رجالات الأدب الروسي - ببساطة إنه مطلوب حتى يتعرف عليه رئيس القسم (حيث يعمل بوبوف) الذي كان بحكم مركزه مطلعاً على الأدب الروسي ».

في يوم جنازة بيلنسكي اجتمع عدة أصدقاء ممن صاحبوا جثمانه إلى مقبرة فولكوف، كما يروي باناييف في مذكراته، مع « ثلاثة أو أربعة غرباء ظهروا فجأة. مكثوا في المقبرة حتى نهاية الجنازة وراقبوا كل الإجراءات مراقبة دقيقة، حتى وإن يكن أحياناً ليس ثمة ما يراقبون ». وعندما خطرت فكرة تنظيم يانصيب لبيع مكتبة بيلنسكي في بال أصدقائه - لصالح عائلته التي تركت بلا وسائل عيش - وعندما عرض أحدهم الموضوع على بوبوف المشار إليه، هذا ما حدث:

« عندما سمع بوبوف بموت بيلنسكي، عبر عن أسفه لهذا الموت المبكر لناقد بارز، ولكن حالما أخبر باليانصيب تغير وجهه كلياً ورفض بلهجة استفزازية. كانت كلماته توحي أن اسم بيلنسكي يساوي اسم أحد المجرمين ضد الدولة... ».

لم يقترف بيلنسكي أي جريمة حتى من وجهة نظر قانوننا، الذي يعلن عن أعمال إجرامية ليست مسموحة في الغرب فقط، بل تعتبر أعمالاً طبيعية عادية. على أي حال باعتبار بيلنسكي مجرماً ضد الدولة بث القسم الثالث أبرز مخبريه. والحقيقة كان لا بد من اعتبار بيلنسكي مجرماً. فأنتم تذكرون أيها السيدات والسادة، الحب « الماراتي »

الذي كان يكنه فيساريون غريغوريفيتش للبشرية، تذكرون انفعاله من أجل روبسبير. والآن سوف أضيف أنه لعصبيته ووعيه لم يستطع أن يخفي معتقداته. وسوف أقتبس من مذكرات هرزن مناسبتين بارزتين في هذا الصدد:

« في أحد الأيام جلس إلى الغداء مع كاتب من الكتاب أثناء أسبوع عيد الفصح، فقدم له طعاماً صيامياً فسأله: هل أنت ورع هكذا منذ مدة طويلة؟ فأجاب الكاتب: « إننا نتناول طعاماً صيامياً من أجل الناس الآخرين ». فكرر وهو ينهض من مقعده « من أجل الناس الآخرين. أين أناسك الآخرون؟ سوف أخبرهم أنهم خدعوا لأن أي خطيئة مفضوحة أفضل وأكثر إنسانية من هذا الازدراء لهؤلاء الضعفاء غير المثقفين، من هذا النفاق الذي يحمل الجهل. أتعتقد أنكم أناس أحرار؟ أنتم مثل كل القياصرة والبابوات والمستعمرين. أنا لا أتناول طعاماً صيامياً لأغراض وعظية، أنا ليس لدي أناس ».

وإليكم المناسبة الثانية:

في اجتماع مسائي في منزل الكاتب نفسه الذي أكل طعاماً صيامياً من أجل « أناس آخرين » أحد السادة الأساتذة من جامعة بطرسبرج الذي، كما يقول هرزن، قد أفسد مواهبه بملاحقة الفلسفة والفيلولوجيا، تحدث مطولاً عن موضوع الاعتدال والدقة(١٤٤) وتناول « الرسالة الفلسفية » الشهيرة لشاداييف مدعياً أن مؤلفها ليس جديراً بالاحترام. هرزن، الذي كان موجوداً في الاجتماع، والذي كان يعرف شاداييف شخصياً لم يوافق السيد الأستاذ مبيناً له مدى الظلامة التي نطق بها بحق رجل عبر عن رأيه بشجاعة وكابد من أجل ذلك. إلا أن السيد الأستاذ أجاب أنه يفضل ضرورة الأخذ بـ « أسس » أخرى بعين الاعتبار. واستمر النزاع.

يكتب هرزن: « قاطعني بيلنسكي بحدة وسار إليّ بوجه أبيض شاحب، انتزعني من كتفي وقال « هكذا عليهم أن يتحدثوا - أولئك التحريون والرقباء حسب الفكر الذي يوضع لهم ».. واستمر في حديثه. تكلم باندفاع مرعب موجهاً كلمات حارقة بإشارات كاوية قاتلة. « يا للحساسية: يضربون الناس بالعصي، وعلينا ألا نشعر بالإهانة، ينفونهم إلى سيبريا وليس في هذا إهانة، لقد تألم شادابيف لشرف الشعب، وعليك ألا تتفوه بكلمة، الحديث وقاحة، وعلى النقص ألا يتكلم. يجب على المرء أن

يفكر، لماذا في الأقطار المتقدمة، الحساسية متقدمة أكثر من كوستروما وكالوغا والناس لا يهانون حتى بالكلمات ».

قال السيد الأستاذ بمجاملة فريدة: « في البلدان المتنورة هناك سجون للمجانين لمن يهينون ما يقدسه الشعب كله.. وهذا عدل أيضاً ».

« انتصب بيلنسكي بكامل قامته وكان يرتجف، كان عظيماً في تلك اللحظة، ضم ذراعيه إلى صدره المريض ناظراً إلى السيد الأستاذ بثبات وأجاب بصوت متهدج:

« وفي الأقطار الأكثر تقدماً توجد المقصلة لإعدام أولئك الذين يرونه عدلاً أيضاً ».

« وإذ قال هذا ارتمى في كرسيه منهكاً ولزم الصمت. وعند كلمة « مقصلة » أصبح المضيف شاحباً، وبدا الانزعاج على الضيوف، وكان ثمة فترة صمت. لقد سحق السيد الأستاذ.. ».

« الفيساريون المتهور » هكذا كان. ضعوا أنفسكم أيها السيدات والسادة مكان دوبيلت وقولوا فيما إذا لم يكن مضطراً « بحكم واجبات مركزه وقسمه » الى اعتبار بيلنسكي مجرماً ضد الدولة؟

على أي حال نحن لا نعمل في القسم الثالث، ولم نؤد يمين الولاء لنكون شرطيين مخلصين لجلالته، ونسمح لأنفسنا أن ننظر الى المسألة من جانب آخر فطريقة التفكير « الاجرامية » لـ « فيساريون المتهور » هي واحدة من الصفات الكثيرة التي استقطبت حبنا واحترامنا. ومن الأسباب الأخرى التي جعلتنا نحب بيلنسكي هي حقيقة انه في نظر دوبيلت كان مجرماً، ولا يستطيع أن يكون غير ذلك. ان الموت وحده فقط أنقذ بيلنسكي من التعرف على القسم الثالث. واذ نتخيل المسرات المريبة لمثل تلك المعرفة، يمكن أن نكرر مع نكراسوف بشعور قوي.

أما بالنسبة لظل آلامك الطويلة فأنا أصلي
فيا معلمي ويا ناصحي، اسمح لي أن أرفع
الى اسمك هذا الثناء المتواضع جداً

والآن سوف انتقل الى القسم الثاني من محاضرتي. أحب الآن، وقد ذكرتكم بالطريقة التي تصرف بها بيلنسكي، أن أذكركم كيف فكر، وان أتحدث عن شغله الشاغل من خلال حياته الواعية.

واقتبس مرة أخرى من نكراسوف مخاطباً بيلنسكي:

حين كان كل شيء في روسيا راكداً
هاجعاً يدب ذليلاً
ضج عقلك بالأفكار، وأنت رسمت
الدروب الجديدة، مكافحاً بتصميم

أليس الشاعر محقاً في حديثه عن «الدروب الجديدة» التي اكتشفها بيلنسكي؟

وحتى أولئك الذين يقدرون بيلنسكي «لقلبه الكبير» يعون أن بيلنسكي هو الذي قاد النقد الأدبي الروسي في درب جديدة. ان ما فعله للنقد الأدبي يكفي بحد ذاته لتبرير ادعائنا ان نكراسوف لم يبالغ أبداً في كلماته. الا أن ذهن بيلنسكي المكين كافح لاكتشاف دروب جديدة ليس في ميدان النقد الأدبي وحده. لقد عمل بيلنسكي أيضاً في الميدانين الاجتماعي والسياسي. إن محاولته في شق درب جديدة في هذا المجال تلفت انتباهنا أكثر من نقده الأدبي.

هذه المحاولة كانت مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بحماسة بيلنسكي لفلسفة هيغل، وسوضح معناها من هذه الناحية.

حتى نفهم هذا المعنى علينا أولا أن يكون لدينا مفهوم ما عن العصر الذي قضى فيه بيلنسكي شبابه. لقد كان في الخامسة عشرة من عمره عندما قامت انتفاضة الديسمبريين. ولقد نوقشت هذه الانتفاضة في كل روسيا، ويمكن أن يتوقع المرء أنها تركت تأثيراً عميقاً في هذا الفتى الناري الموهوب الناضج قبل أوانه. وبعد ١٤ ديسمبر كان ثمة مد رجعي وكان قوياً جداً من قبل في نهاية حكم الاسكندر الأول.

قال هرزن: «إن المستوى الأخلاقي للمجتمع قد انحط، وتوقف كل تطور، وامحى من الحياة كل ما تبقى فقد كان فارغاً هزيلاً ضعيفاً، ان حثالة جيل الاسكندر احتلت الآن المراكز المرموقة».

ليس من الصعب أن نتخيل الحالة الأخلاقية لأولئك الناس الذين حافظوا على أعظم تقاليد المرحلة السابقة، وقد وجدوا أنفسهم فجأة بلا حول ولا طول في صراعهم من أجل مثلهم العليا

كتب هرزن في مكان آخر «كانت مرعبة تلك السنوات التي أعقبت سنة ١٨٢٥

مباشرة. عشر سنوات كان يحتاجها الرجال حتى يتعافوا من الاستعباد والاضطهاد »* ».

فما كانت تجربة الفتى بيلنسكي أثناء هذا العقد الصعب؟ وإن لم تكن لدينا سوى وقائع قليلة نقيم عليها جواباً مفصلا عن هذا السؤال، فان لدينا شهادة بيلنسكي الخاصة، النفيسة نفاسة أي شيء قاله عن نفسه هذا الرجل الشريف الذي لا يساوم. فحسبما يقول إنه كان في شبابه مفعماً بالكفاح البطولي والكراهية العميقة للنظام الاجتماعي القائم، ومع ذلك، في الوقت نفسه، كان يعي وعياً مؤلماً عدم أهمية ذلك نهائياً. ثمة سبيلان أمام هذا أولا اللامبالاة النهائية والتخلي عن كفاحه النبيل من أجل المثل، أو ثانياً البحث في الأدب السياسي والعلم والفلسفة لتفسير الحاضر المعقد والإشارة الى مستقبل أفضل. فانتقل بيلنسكي وأصدقاؤه الى الفلسفة.

كانت السيادة المطلقة في جارتنا ألمانيا، في تلك الفترة لفلسفة هيغل المثالية. وعندما اطلع بيلنسكي على هذه الفلسفة ملكته كلياً وتركت انطباعاً عميقاً في كل التطور القادم لفكره.

لماذا كان لها كل هذا التأثير عليه؟

للسبب ذاته وهو أنها سيطرت على العقول الفتية الديناميكية في ألمانيا والى حد ما في أوروبا الغربية، أثناء تلك الفترة. لأن الفلسفة الهيغلية جمعت كل منجزات الفكر الفلسفي السابق، وسلطت الأضواء من أجل تطور فكري وأخلاقي للعالم المتمدن. قد يبدو هذا مبالغة، فاسرع وأشير الى شتراوس وبرونوبوير وفيورباخ ولا سال وانجلز وماركس. فهؤلاء الرجال ذوو عقول مشهود لها، وبعضهم عباقرة: لقد ساهموا جميعاً في التطور الفكري لعصرنا، وليس واحد منهم ينكر أنه مدين لهيغل لطريقته القوية في البحث ولعدد من أفكاره المبتكرة. وانصح بقراءة كتاب انجلز عن فيورباخ، الذي ظهر بالألمانية في الثامنينات ونشر بالروسية في جنيف حتى نفهم كم كان أولئك الرجال الذين مروا بمدرسة هيغل عباقرة، الا أنهم انفصلوا عن نظرته معتبرينه مفكراً عظيماً[١٤٥]

من الطبيعي ألا استخلص هنا كل صفات النظرة الهيغلية ولا حتى أهم هذه

---

* تطور الأفكار الثورية في روسيا باريس ١٨٥١ ص ٩٧

الصفات فالوقت لا يسمح لنا بهذا لكني آمل أن أكون قادراً على إبراز أهم مظهر لها على الأقل سوف أحاول.

في تاريخ التطور الفكري للبشرية، كما في تاريخ أي نمط من التطور، أي مرحلة تالية وثيقة الارتباط جداً بالمرحلة السابقة، ومع ذلك فان كل مرحلة لاحقة لا تختلف فقط عن المرحلة السابقة، بل في عدة مجالات تتناقض معها هذه قاعدة عامة يجب أن نذكرها عندما ندرس أي عملية تطور وهذه القاعدة العامة مبررة تماماً في دراسة الاتجاه السائد في الفكر الفلسفي في النصف الأول من القرن التاسع عشر بالمقارنة مع الاتجاه السائد في النصف الثاني للقرن السابق.

باستثناءات قليلة ونادرة كان ينقص فلسفة القرن الثامن عشر أي مفهوم عن التطور أيضاً هذا الفرق الجذري نجده في نظرة فلاسفة القرن الثامن عشر الى الطبيعة ،وإلى تاريخ البشرية أيضاً إن العملية التاريخية هي عملية تطور ولذلك يبدو أن التاريخ يمكن أن يدرس فقط من نظرة تطورية. على أي حال نظر فلاسفة القرن السابق الى التاريخ نظرة مختلفة، ولا يزال حتى اليوم يشارك بعض الناس في آراء القرن الثامنن عشر.

إن الدافع للحركة التاريخية في رأي فلاسفة القرن الثامن عشر هو تطور وانتشار المعرفة والتنوير وبالطبع لا يحلم أحد في مناهضة الحقيقة النسبية في هذا الرأي. فلا يزال الاشتراكيون الديمقراطيون الألمان حتى اليوم ينشدون في مرسيليزهم: •

العدو الذي نكرهه بعمق
الذي يحيط بنا كئيباً معتماً
هو تلك الجهالة العمياء للجماهير
إلا أن نصلة الروح سوف تجهز عليها

في الممارسة العملية، كل شخصية اجتماعية تعرف دائماً حاجة الجماهير الى التطور. ولكن في الدراسة النظرية بهذه المسألة يمكن - وفي الواقع يجب - أن نسأل أنفسنا: أليس تراكم المعرفة وانتشار التنوير مشروطين بعوامل أعمق؟ بكلمة أخرى في دراسة هذه المسألة نظرياً يمكن، ويجب، أن نسأل أنفسنا فيما اذا تراكم المعرفة وانتشار التنوير يجب أن ينظر إليهما على أنهما عملية تطور خاضعة لقوانين معروفة يمكن اكتشافها وتحديدها كما تدرس وتحدد القوانين الطبيعية. فاذا كان هذا ممكناً، فان التطور

الفكري للبشرية يمكن أن يكون موضوع البحث العلمي، وإن كان هذا غير ممكن، فعندها لا نستطيع الحديث عن دراسة هذا التطور دراسة علمية، **لأنه لا يمكن أن يكون ثمة علم إذا لم تتطابق الظواهر مع نموذج من القوانين.**

في التعليل الشكلي لا بد أن يوافق أي فيلسوف في القرن التاسع عشر أن ظواهر تطور الناس الفكري لها أسبابها مثل أي ظواهر أخرى، ولذلك يمكن دراستها في تطابقها مع القوانين. بعض هؤلاء الفلاسفة، هيلفتيوس على سبيل المثال، قام بمحاولات هامة في دراسة من هذا النوع إلا أن الأغلبية العظمى استمرت في رؤية التطور الفكري للبشرية على أنه السبب الأخير للحركة التاريخية، وهكذا يمكن القول إن تحليلهم العلمي لهذه الحركة توقف حيث يجب أن يبدأ وهذا هو السبب في أن متنوري القرن الثامن عشر لم تكن لديهم **فلسفة علمية في التاريخ.**

وقد جرى تجاهل هذا الظرف مثلا خلال المرحلة التي نشرت فيها الانسيكلوبيديا إن المهمة التاريخية الرئيسية أمام متنوري القرن الثامن عشر كانت الصراع الفكري مع الآراء البالية الموروثة من العصر الذي انتعشت فيه الملكية المطلقة والحكم المطلق للارستقراطية والكهنوت. من الطبيعي والمفيد أيضاً أن نرى في هذا الصراع الفكري **حركة الأفكار** على أنها السبب الوحيد والأعمق **لحركة الأشياء** في المجتمع الإنساني. ولكن الثورة الكبرى اندلعت عندئذٍ، وتعاقبت الأحداث الواحد تلو الآخر بسرعة مذهلة، بقوة غير خاضعة للظواهر الطبيعية. ولقد تغير المزاج العام بشكل سريع وحاسم وغير متوقع، وتطور الحياة الاجتماعية والفكرية ليس فقط أنه لم يحقق آمال النبوءات، بل كان سخرية صارخة منها لقد بات واضحاً للكثيرين أنه ليست حركة الأفكار هي التي تحدد حركة الأشياء بل العكس تماماً لقد حاول فلاسفة الاصلاح اكتشاف نموذج لقوانين التطور الفكري للبشرية،* ودرس المؤرخون أفكار الناس باعتبارها نتاجاً لعلاقاتهم الاجتماعية، وكل هؤلاء الذين درسوا الحياة الاجتماعية درسوها بمنظار **التطور.**

---

* في هذا الوقت بالذات حاول سان سيمون أن يضع قانونه للمراحل الثلاث (التيولوجية والميتافيزيقية والوضعية)، القانون الذي عري - بدون سبب وجيه - إلى أوغست كونت ويمكن اعتبار هذا «القانون» اليوم واحداً من أعظم الأمثلة على الظروف الأولية لتقنين طبيعة التطور التاريخي في ذلك الوقت.

انعكس هذا التحول في النظام الفلسفي لهيغل. لقد درس هيغل الظواهر بمنظار التطور، وكان ذلك هو المظهر الرئيسي لفلسفته، وبسبب هذا حققت فلسفته تأثيراً كبيراً على مجرى التطور الفكري للقرن التاسع عشر.

إن مذهب التطور يدرس الظواهر في طبيعتها الانتقالية. إنه يبين أسباب ظهورها ويكشف عن الأسباب التي تحدد اختفاءها فمثلاً إن الثوري القديم الذي يدرس بهذا المنحى عودة آل بوربون إلى فرانسا، على سبيل المثال، حيث تلقى حكمهم ضربة مميتة بتنحية لويس السادس عشر وموته، سوف يستريح للاعتقاد أن الرجعية التي حلت محل القوة الثورية القوية في فرانسا ليست سوى ظاهرة عابرة، وسوف تستمر استمرار الظروف الطارئة التي أنتجتها وحالما يكتشف الثوري تلك الأسباب، يستطيع أن يقدر زوالها، أي يقدر انتصار التقدميين مرة أخرى. إن دراسة الظواهر بمنظار تطورها، وهي خير طريقة للعلم، سوف تقنع بالتأييد الأخلاقي وتشجيع كل المجددين التقدميين، الذين تكون قوتهم دائماً محدودة في البداية. لقد كان هرزن مصيباً تماماً عندما قال إن فلسفة هيغل كانت الجبر الحقيقي للثورة[١٤٦]

ولكن جبر الثورة هذا، السلاح القوي للفكر الثوري، كان أشد تعقيداً من السلاح البسيط للنفي الذي نشأ في القرن السابق، والذي كان تأثيره على العقول الفتية في تلك الآونة أكثر تعقيداً ويمكن تلخيص فكر القرن الثامن عشر بالصيغة التالية: نعم هي نعم ولا هي لا وكل ما سوى ذلك من عمل الشيطان. لقد سمحت هذه الصيغة بموقف واحد من الظاهرة المحددة: إما الادانة التامة أو القبول التام. فمثلاً يمكن أن يجيب فيلسوف القرن الثامن عشر عن سؤال ما إذا كانت سيادة الاكليروس مضرة أم مفيدة بالقول: إنها مضرة جداً أما الأسباب التاريخية لهذه السيادة فلا تقع في حقل رؤياه. ومن جهة أخرى رأى سان سيمون الاكليروس من وجهة نظر التطور التاريخي الطبقي. وفي حين يرفض عدالة سيادة الاكليروس في زمنه، أظهر خدماته التاريخية (وهنا يختلف مع فلاسفة القرن الثامن عشر) وبالغ في أهمية تلك الخدمات. وهو ظرف ترك بدوره انطباعاً محدداً في أفكاره الخاصة وفي أفكاره تلاميذه.

أعيد: إن مبادىء النفي في قرننا أشد تعقيداً من تلك التي في القرن السابق. إن أبناء القرن التاسع عشر في نفيهم أكثر ثقافة من معاصري ديدرو وفولتير إن الكاتب والثوري الألماني المرموق أرنولد روج يخبرنا كيف استمع إلى محاضرة في الدين أيام

دراسته المبكرة - لم أعد أتذكر الآن من كان الأستاذ كان الأستاذ حراً جداً في معالجة الموضوع يقول روج «لكن هذا ما جعلني منزعجاً، ليس لأنني كنت متديناً في ذلك الوقت، بل لأن النفي السطحي، الذي هو نموذجي في القرن التاسع عشر، لم يقنعني »* إن روج، الذي أصبح فيما بعد ثورياً، كان في الوقت نفسه تلميذاً متحمساً لفلسفة هيغل.

علي أن أضيف أن هيغل نفسه - لأسباب لو ناقشناها لابعدنا عن ميداننا كثيراً - فسر جبره للثورة بالمعنى المحافظ مستخدماً أطروحته الشهيرة «كل ما هو واقعي عقلي» لادانة الاتجاهات المعارضة في زمنه.

هذا المظهر الحيوي لفلسفة هيغل الذي ناقشت تأثيره على بيلنسكي كيف يفعل؟

لقد عرفنا من قبل أنه، على الرغم من شبابه، شعر بأن لنفيه أساساً سطحياً غير كافٍ، وأنه كان - حسب تعبيره الخاص - واعياً عدم «**أهميته**» على الرغم من حماسته لبطولته «**المجردة**». رجل أسس نفيه بثبات، ولا يشعر بأهميته، حتى انه يعرف أن مثاله سوف يتحقق فقط في المستقبل البعيد. إن دراسة الفلسفة الهيغلية بنظرتها التاريخية لجميع الظواهر كانت مضطرة أن تؤدي ببيلنسكي إلى وعي صافٍ لما شعر به من ألم في قلبه من قبل: لقد اقتنع كلياً بالحاجة إلى أساس لنفيه. ونظراً لأنه ذو طبيعة اندفاعية عاطفية فقد صار متطرفاً، فحالما رفض نفيه السابق أدان كل نفي بشكل عام. وبكلمة أخرى انتقل من نافٍ مندفع إلى محافظ مندفع. وهذا المزاج الجديد أذكته ذكريات الألم الأخلاقي الذي عاناه في مرحلة بطولته المجردة كما عبر عنها الآن: الميل إلى المحافظة الأخلاقية دلته أن الرجوع إلى نفيه السابق يعني أيضاً العودة إلى عذابه الأخلاقي. وهكذا أصبح بيلنسكي شارحاً متحمساً لأطروحته «كل ما هو واقعي عقلي» موحداً بين **الواقعي** و **ما هو موجود**.

جادل هرزن مرة بيلنسكي في آرائه الجديدة، معتقداً أنه يصدمه في انذاره: «أمتأكد أنت من وجهة نظرك أنك تستطيع أن تبين أن هذه الاوتوقراطية المرعبة التي تعيش في ظلها هي عقلية ويجب أن توجد»؟

---

* اقتبست من الذاكرة ولكني ضمنت المعنى

أجاب بيلنسكي بكل جرأة: « من دون أدنى شك ».

لو فهم هرزن العملية النفسية التي تجري في ذهن مجادلة، لتنبأ بجواب بيلنسكي الثابت. ففي حماسته لفلسفة هيغل، كان بيلنسكي مضطراً أن يبدأ بتبرير الأوتوقراطية والعبودية والمدلات الأخرى، لسبب وجيه هو أن تلك المذلات آلمته خلال المرحلة السابقة لتطوره الثقافي.

فهل أحتاج للقول، أيها السيدات والسادة أن حماسته للمحافظة كانت قصيرة الأجل؟ إن هذا معروف تماماً، يكفي أن نتذكر فقط المقطع الشهير من رسالة بيلنسكي إلى بوتكين الذي يتحدث فيه عن عودته إلى النفي بلهجة ساخرة:

« أشكرك بامتنان يا ايغورفيودوريتش [لقب ساخر لهيغل في حلقة بيلنسكي - ج.ب] لقد ودعت قبعتك الفلسفية، ولكن مع كل احترامي لابتذالاتك الفلسفية، لي الشرف أن أعلمك أنني حتى لو قررت التسلق إلى أعلى درجات التطور، أسألك أن تعد لي كل ضحايا ظروف الحياة والتاريخ، كل ضحايا الصدفة والخرافة ومحكمة التفتيش وفيليب الثاني وهلمجرا، وإلا فاني سألقي بنفسي على رأسي من آخر درجة »*

إن المرحلة الأخيرة في تطور بيلنسكي، المرحلة التي أصبح فيها ثورياً حازماً، ابتدأت حين انفصل عن هيغل. وقد أشرت من قبل إلى بعض المعالم النموذجية لهذه المرحلة من تطوره. وسأشير إلى ما تبقى.

اعتدنا الاعتقاد أن بيلنسكي « إذ ودع فلسفة هيغل » تخلى نهائياً عن الجانب المحافظ فيها، وفهم الآن الأهمية العميقة للفلسفة الهيغلية، أي « جبر الثورة ». وبانتقاده بحدة مقالته عن الذكرى السنوية لبورودينو قال (وهذا ما ينساه عادة الكتاب الشرعيون « التقدميون » اليوم):

« بالطبع الفكرة التي حاولت تطويرها عن كتاب غلينكا حول معركة بورودينو صحيحة من حيث الأساس، إلا أن علي أن أطور أيضاً فكرة النفي كحق تاريخي،

---

* بيبين المرجع السابق المجلد ٢ ص ١٠٥

الحق المقدس الأول الذي لولاه لانقلب تاريخ البشرية إلى مستنقع آسن راكد - فان لم أكتب هذا فان شرفي يمنعني أن أكتب شيئاً على الاطلاق ».

إن فكرة هذه المقالة كانت صحيحة اذن. ولكن ماذا كانت هذه الفكرة؟ إنها الفكرة ذاتها لكل الفلسفة الهيغلية. الفكرة القائلة **إن التطور يخضع لقوانين معينة**. ولكن كيف يمكن لفكرة النفي أن تتطور من هذه النظرة وتطبق على العلاقات الاجتماعية الروسية؟ لقد تبين أن النظام الاجتماعي والسياسي الذي اضطهد بيلنسكي وأولئك الذين يشاركونه نظرته لا يمكن أن يستمر الى الأبد، فهو ذو أهمية وقتية انتقالية فقط، وإن الحركة التاريخية التالية ستمسحه ولا شك من على وجه البلاد الروسية، تماماً كما أنهت النظام الاقطاعي. ولانجاز هذا يعني توضيح الفلسفة الشاملة المنظمة للتاريخ الروسي. وكان هذا مستحيلاً من دون مساعدة الفكر الأوروبي الغربي، لأن الحياة الروسية كانت لا تزال متخلفة. إلا أن الفكر الأوروبي الغربي نفسه كان عندئذٍ في الأربعينات - في مرحلة انتقالية. إن مثالية هيغل المطلقة فشلت في اكتشاف الأسباب العميقة للحركة التاريخية، إنها اقتصرت على تقديم ملاحظات وملامح منفردة عن تلك الأسباب* وان كانت رائعة. وبدون فهم تلك الأسباب تماماً، لا يستطيع بيلنسكي أن يفهم معنى الحركة التاريخية، ولذلك لا يستطيع أن يقيم توقعاته للمستقبل على أساس واقعي وطيد والحق أن مثالية هيغل في الفترة التي تناقشها، كانت تفسح الطريق أمام مادية فيورباخ، إلا أنه هذه المادية لم تكن كافية لتفسير العملية الاجتماعية والتاريخية. وبهذا الصدد كان فيورباخ أحياناً مثالياً أكثر من هيغل. لذلك لم يستطع بيلنسكي أن يعتمد على مادية فيورباخ في تطوير فكرته عن النفي بشكل منظم. لقد كره « الواقع » الروسي المعاصر من أعماق قلبه، إلا أنه لم يستطع أن يعرف كيف يتأتى تدميره، وقد عانى الكثير من جهالته، إلا أنه لم يفقد إيمانه بمستقبل أفضل.

كتب الى بوتكين « آه يا صديقي،، من غير مجتمع لا صداقة ولا حب ولا اهتمامات روحية إنما فقط ومضات من هذا - ومضات غير واقعية ومؤلمة ومعذبة ومهتزة. إن

---

* أود أن أشير على أولئك المهمين بهذه القضية بالعودة إلى مقالتي « في الذكرى الستين لوفاة هيغل في النيوريت عدد تشرين الثاني ١٨٩١ (١٤٧).

كل حياتنا وعلاقاتنا تستخدم كمثال رائع لهذه الحقيقة المرة... إن البشرية تربة مجردة لتطور الروح الفردية، واننا جميعاً ننمو على هذه التربة المجردة، نحن الاناكارسيون العاثرو الحظ في سكيثيا الجديدة. وهذا هو السبب أننا نتثاءب ونتكيء على بعضنا، نمسك بأي شيء من دون أن نتعكز على أي شيء، ونحاول كل شيء من دون رضا وقناعة »*

وفي رسالة أخرى يقول:

« لا نشاط بلا هدف، ولا هدف بلا مصالح، ولا حياة من دون نشاط. إن مصدر المصالح والأهداف والنشاط هو مادة الحياة الاجتماعية. هل هذا واضح ومنطقي وحقيقي؟ إننا شعب بلا وطن، إننا شعب وطنه وهم، فهل من العجب أننا نحن أنفسنا أوهام، وأن صداقتنا وحبنا وطموحاتنا ونشاطنا هي أوهام أيضاً؟ »**

أسألكم أيها السيدات والسادة، أن تعيروا انتباهكم إلى هذه الصفة في نفسية بيلنسكي: إنها بناءة جداً لأنها تقدم لنا مادة قيمة لحل مسائل مثل تلك التي ناقشها الشعب بحرارة في روسيا لسنة خلت أو لسنتين(١٤٨) بتوديع بيلنسكي لقبعة هيغل الفلسفية انتقل إلى نفي « الواقع » الروسي. ولكنه لم ينجح في تقديم أساس نظري لنفيه، في « **تطوير فكرة النفي** »، أي العثور على قوى في حياتنا الاجتماعية يمكن بتطويرها أن تؤدي إلى القضاء على الشوائب القائمة. وهذا هو السبب في أنه طور وعياً مؤلماً بـ « **اللاأساس** ». لقد بدت روسيا « **وهماً** » له بمعنى أنه لم ير عناصر صحية فيها قادرة على التطوير الصحي. وبسبب أنه علل تعليلاً واضحاً ومر بمدرسة جيدة ليخدع نفسه ويهدهد لنفسه حتى ينام على أبحاثه الخيالية في موضوع **دور الفرد في التاريخ**، فصرح بإلحاحه المعهود بـ « **نحن** » - أي شعب النفي - « **أوهام** ». وبالتالي لم يكن له إلا أن يأسف أن التطور الفكري جعله من المستحيل أن يرفض النفي.

« الواقع أيقظنا وفتح عيوننا، ولكن لأي غرض؟ أليس من الأحسن لو أغمضناها إلى الأبد، وروينا غليل الرغبات القلقة في القلب إلى الحياة بالنوم في أحضان اللامبالاة...

---

* بيبين م ٢ ص ١١٤ - ١١٥

** بيبين م ٢ ص ١٢٢ - ١٢٣.

الربيع الثالث – الربيع البارد للنسيان
هو ما يخفف حمى القلب بلطف*[149]

لم يكن هذا المزاج وقفاً على بيلنسكي وحده: كل أتباعه من المفكرين، حتى أعظم خصومه، أي، أعظم المثقفين وأنصار السلافية الحساسين، عانوا منه. إننا نجده واضحاً في **يوميات هرزن**:

يتساءل هرزن يائساً: «ترى هل يدرك الشعب على مر العصور ويقدر مأساة وجودنا وفظاعته؟ هل يفهمون لماذا نحن كسالى، لماذا نبحث عن كل أنواع التسلية، لماذا نسكر الخ؟ لماذا لا ننسى أحزاننا في لحظات الغبطة؟ آه فلتتوقف الأحزان فلا نذكرها إلا أمام القبور التي سوف نضطجع فيها، لأننا اكتسبنا حزنها هل هناك بلاد لها مثل هذا العصر؟ لا ولا حتى روما في قرونها الأخيرة... إن لروما ذكرياتها المقدسة، لها ماضيها، وأخيراً يمكن لكل من يخجل من ظروف بلاده أن يجد العزاء في حضن دين فتي لا يزال شاعرياً طاهراً إننا نموت من فراغ الماضي وفوضاه كما من المستقبل – من غياب المصالح العامة... »**

ولكنه عندئذ كتب:

«قرأت اليوم في **أوتشيستفيني زابسكي** مقالة عن **النفوس الميتة**. وقد اشتملت بعض المقتطفات... أعدت قراءة وصف المشاهد الروسية (الصيف والشتاء في الدروب) فغمرني شعور من الحزن لا حد له، فرأيت السهوب الروسية حية أمامي فانتصبت في وجهي المسألة المعاصرة ثانية، فانهمرت دموعي بكل ألم. نومنا طويل وعميق. لكن لماذا نستيقظ؟ أليس من الأفضل أن نبقى نياماً مثل أي شيء حولنا؟ ».

وإذ لا يرى بيلنسكي أي عنصر صحي يهيىء للتطور (وبالتالي للنفي) في الواقع، فقد أصبح أشد مرارة حتى ضد أولئك الذين كان وضعهم يثير شجنه، والذين كان مستعداً أن يريق آخر قطرة من دمه في سبيلهم: **إني أتحدث عن الفلاحين والشعب الروسي عامة**. وبعد موت كولتسوف كتب في رسالة إلى بوتكين:

---

* بيبين م ٢ ص ١٢٤

** هذا الجانب العاثر الحظ من تاريخ تطور الانتلجنسيا عندنا جدير بدراسة أوثق من قبل أولئك الذين تحذلقوا حول دور الفرد في التاريخ، ناسين أن هذا الدور تحدده في التحليل النهائي «مادة الحياة الاجتماعية».

« لقد أثر فيّ موت كولتسوف كثيراً فما العمل؟ تلك الأشياء أثرت بصورة مختلفة، إني كالجندي في حرارة المعركة: إذا سقط صديق أو أخ، لا أشعر بأي شيء، كأن كل شيء عادي. وهذا هو السبب في أن مثل هذه الخسارة تؤثر فيّ أكثر حالما تتوفر فرصة الاعتياد عليها أكثر من البداية. ليس ثمة ما يقال عن والد كولتسوف: مثل هذا النوع من الأحداث يمكن أن يحرض الكتاب النشيطين ويشحنهم نقمة شديدة في مكان آخر، وليس هنا فهل نلوم الأب لأنه موجيك؟ وهل بدر عنه عمل فوق العادة؟ أنا لا أستطيع أن أشعر بأي عداء تجاه الذئب والدب والكلب المسعور، حتى لو أن أحدها مزق إرباً عملاً فنياً أو عملاً لعبقري، ولا أستطيع أن أشعر بالعداء لقاطرة تدهس رجلاً وهذا هو السبب في أن المسيح صلّى من أجل من صلبوه قائلاً: « إنهم لا يعرفون ماذا يفعلون ». أنا لا أستطيع أن أصلي للذئاب والدببة والكلاب المسعورة أو للتجار والموجيك الروس، أو للقضاة ورجال البوليس الروسي، حتى ولا أشعر بالحقد تجاه أي منهم »*

إنه العجز النفسي عن احترام شعب بسبب تخلفه الأسيوي، مع حب جارف للشعب نفسه وعجز عن المشاركة الشعورية لأن الآلام كانت ولا شك سمة تراجيدية شارك فيها أنصار الغرب من الروس في ذلك الوقت. لقد تركت ميسمها على ما يمكن أن نسميه السياسات العملية، وأثرت كثيراً في تطور أفكار الجيل التالي. إن هذا يحتاج إلى تحليل على حدة، وسوف أتحدث هنا فقط عما حدد المجرى اللاحق لتطور بيلنسكي الفكري.

نعرف أنه عندما عاد إلى نفي الواقع جذبته الاشتراكية، وقد انجرف بعاطفته وراءها ولكن هذه الحماسة الجارفة لم تستمر إلا بضع سنوات فقط. في نهاية الأربعينات اعتبر الاشتراكية شيئاً عابراً بل « انفصل عنها ». وفي رسالة إلى بوتكين مؤرخة في ٦ شباط ١٨٤٧ قرظ ليتري لأنه « لا ينتمي لا إلى الأوغاد في صحيفة المناقشات ولا في مراجعة العوالم العشرة** ولا إلى الاشتراكيين » الذين قال أنهم

---

* بيبين م ٢ ص ١٥٧

** أي المدافعون السخفاء عن النظام البرجوازي القائم.

ولدوا من خيالات عبقرية روسو. وتتضمن هذه الرسالة ذاتها تقييماً مهماً للويس بلان:

«صدفة قرأت مقطعاً من المجلد الأول لكتاب لويس بلان **تاريخ الثورة في غازيت دي فرانس**. إنه يقدم رأيه بفولتير. بحق جميع القديسين إنه شيفيريوف آخر فكل ما يقوله لويس بلان في نقد فولتير صحيح، إلا أن الشيء الغبي هو أنه لا يحاكمه، بل يدينه كما لو كان رجلاً من عصرنا، محرراً في **صحيفة المناقشات**. إن لويس بلان مؤرخ أحداث جارية، ولكن يبدو أنه لم يتناول التاريخ الماضي...

وفي رسالة إلى انِنكوف (١٥ شباط ١٨٤٨) يوضح رأيه أكثر في لويس بلان:

«أقرأ الآن روايات فولتير وفي كل دقيقة أبصق في وجه ذاك المعتوه، ذلك الجحش، ذلك الوحش لويس بلان.. »*

لاحظوا أيها السيدات والسادة حقيقة أن بيلنسكي عندما كتب مقالته عن رواية أوجين سو أسرار باريس التي أشرنا إليها من قبل، تبنى نظرة لويس بلان، الذي كان يكن له احتراماً كبيراً جداً في ذلك الوقت. الآن يرى لويس بلان كأنه شيفيريوف آخر بسبب رأي هذا الأخير في فولتير لماذا هذا؟ ألم يعرف بيلنسكي أن تقديره صحيح «**في حد ذاته**»؟ صحيح ولكن **ينقصه المنظور التاريخي**. إن عقب آخيل في الاشتراكية أثناء هذه المرحلة كان عجزها عن تشييد نفسها على النظرة التاريخية، ولهذا بالضبط سميت **الاشتراكية الطوباوية**. وببقاء بيلنسكي هيغلياً حتى آخر أيامه لم يستطع أن يلاحظ غير هذا العيب في اشتراكية ذلك الزمن، وهذا ما يفسر هجومه على الاشتراكيين الذي كتبه حوالي نهاية حياته. إن نزاعه مع الاشتراكية الطوباوية التي تبنت نظرة النفي **المجرد** للنظام القائم، بات أقوى، بازدياد وعيه بصورة مؤلمة للحاجة إلى العثور على أساس **واقعي وملموس** لنفيه **الواقع**، أو بتعرفه على أولئك الروس القلائل الذي قدموا اتجاه النفي كأنه «**أوهام**». وبما أن الاشتراكية الطوباوية لم تمده بمادة يقيم عليها فكرته في النفي «انفصل» عن الاشتراكية وبدأ يدرس جاداً الدور التاريخي للبرجوازية. إن رسالته إلى اننكوف المؤرخة في ١٥ شباط ١٨٤٨ التي سبقت الإشارة إليها تتضمن المقطع الهام التالي:

---

* أيضاً بسبب موقف لويس بلان السلبي من فولتير في كتابه «تاريخ الثورة الفرنسية».

« صديقي المتدين* ، وأنصار السلافية عندنا ساعدوني في التخلي عن إيماني الصوفي بالشعب. أين ومتى استطاع الناس تحرير أنفسهم؟ كل شيء يصنع دائماً من قبل الأفراد. وعندما سميتك محافظاً في مناقشاتي معك حول البرجوازية، كنت حماراً مضاعفاً، وكنت أنت مثقفاً. إن مستقبل فرانسا كلها بيد البرجوازية والتقدم كله يعتمد عليها وحدها، ولا يستطيع الشعب أن يلعب سوى دور مساعد سلبي. وعندما قلت في حضرة صديقي المتدين أن روسيا تحتاج الآن إلى بطرس أكبر هاجم فكرتي كأني زنديق، قائلاً إن الشعب يجب أن يفعل كل شيء لنفسه. يا للسذاجة، يا للتفكير الأركادي، لماذا لا نفترض أن الذئاب التي تعيش في الغابات الروسية سوف تتحد في دولة حسنة التنظيم وتقيم أولاً ملكية مطلقة، ثم ملكية دستورية، وأخيراً جمهورية؟ لقد ظل بيوس التاسع سنتين حتى أثبت أي رجل عظيم لبلاده. وقد ناقشني صديقي المتدين أيضاً أن روسيا تكون أفضل بكثير من غير البرجوازية. ولكن يبدو الآن أن العملية الداخلية في التطور الحضاري لروسيا سوف تبدأ فقط عندما تتحول طبقة النبلاء الروس إلى برجوازية. وبولونيا أكبر دليل كيف تكون الدولة قوية إذا لم يكن لديها برجوازية. فأي شخص غريب أنا وعندما حشوت رأسي ببعض السخافات الصوفية صدعه الناس العقلاء بإثباتات: إن عليّ أن ألتقي بالصوفيين والورعين والرؤيويين الذين سيطرت عليهم الفكرة ذاتها وعندئذٍ فقط اقتنعت. لقد قدم لي صديقي المتدين وأنصار السلافية عندنا خدمة جلى. فلا تعجب لترتيب الأمور: إن أفضل أنصار السلافية يعتبر الشعب مثل صديقي المتدين، لقد تشربوا هذه المفاهيم من الاشتراكيين واقتبسوا شواهد من جورج صاند ولويس بلان في مقالاتهم. ولكن يكفي هذا عن الموضوع »**

ربما كانت مسألة طويلة جداً ولكني لا أستطيع تجاوزها لأن كل من يريد أن يفهم آراء بيلنسكي الاجتماعية والسياسية في سنيه الأخيرة لا بد له أن يطلع اطلاعاً مكيناً على المقطع السابق. إنه يلفت النظر في أدبنا، ولكنه يتيح مجالاً لسوء فهم مسلٍ. لقد قرر السيد مياكوتين أنه إذا اعتقد بيلنسكي أن كل شيء يتحقق من خلال الأفراد،

---

* نحن لا نعرف الى من يشير بيلنسكي، ولكن ربما كان باكونين.

** « انكوف وأصدقاؤه » ص ٦١٠ - ٦١٢

فان نظرته تتطابق تماماً مع الذاتيين في أيامنا إنها لسذاجة كبيرة. فمن الأفراد الذين أرادهم بيلنسكي لروسيا؟ قال: «روسيا تحتاج الآن إلى بطرس أكبر». وبكلمة أخرى: روسيا تحتاج إلى قيصر مشبع بالحقد على «واقعنا». تلك هي أهم سمة لآراء بيلنسكي في المرحلة التي ندرسها انه لم ير أي عنصر من عناصر التقدم في الشعب، وبما أنه لم يأمل أبداً بأي معارضة يمكن أن تظهر من الشعب ضد واقعنا الحزين، تحول ببصره إلى العرش القيصري. كان قيصر هذه المرحلة، نيقولا الأول، بليداً سيء الطباع، معادياً لكل تقدم في الشعب. فلا أمل فيه. بيد أن بطرس الأكبر لم يكن لا بليداً ولا معادياً للتقدم، لقد أيقظ روسيا الموسكوفية من سباتها الطويل. ولذلك نأمل أن يظهر بطرس أكبر جديد قال بيلنسكي أكثر من مرة في سنواته الأخيرة أن تطور روسيا يتم **من الأعلى، لا من الأسفل**، أي ان **التقدم مبادرة من الحكومة لا من الشعب*** كما عبر عن هذه الفكرة في رسالة إلى اننكوف. وقد كان لهذا الرأي تأثير كبير على التطور اللاحق للفكر التقدمي الروسي إن **الرازوشنتسي** الثوريين قاموا في الستينات والسبعينات بنضال ثوري ضد الحكومة غير آبهين أن مثلهم سوف تتحقق «**من الأعلى**»، لقد استطاعوا أن يكونوا ثوريين، وأن يظلوا ثوريين لاعتقادهم الثابت أن النظام القائم سوف يدمر «**من الأسفل**»، أي بثورة شعبية، وهذا هو السبب في أنهم سرعان ما تشبثوا بمثلنة أنصار السلافية للشعب الروسي عامة، ولبعض مظاهر حياة الشعب الاقتصادية والقانونية خاصة** أما أن رأي بيلنسكي لا يتفق و«السوسيولوجيا الذاتية» فيتجلى من نشأته. فمتى اشتق ناقدنا هذا الرأي؟ لقد توصل إليه نتيجة البحث لاقامة فكرته في النفي على أسس **واقعية** (ملموسة)، وإذ

---

* أنظر مقالته «بطرسبرج وموسكو المنشورة في مجموعة فيزيولوجيا بطرسبرج (١٨٤٥).

** **الأولبشينا** (الكوميون) على سبيل المثال كتب النصير السلافي الشهيد سامارين في **الموسلفيتانين**[١٥٠] (١٨٤٧) (تحت اسم مستعار هو أم. ك): إن المبدأ الكوميوني هو أساس كل التاريخ الروسي ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، إن كل ما نراه من بذور وبراعم على السطح، ينمو من أعماقه الخصيبه» تلك هي الفكرة الرئيسيه للنارودنية الروسية. ووصل سامارين إلى القول إن العالم الغربي اليوم ينشد المبدأ **الكوميوني** (وفي ذهنه الحركة الاشتراكية)، وهذا **يتفق «مع جوهرنا»** (التشديد مني) لأنه «لتبرير هده الصيغة قدمنا حياتنا الشعبيه وأن هذه النقطة هي نقطة التماس بين تاريخنا وتاريخ الغرب ذلك هو مضمون مناقشات النارودنيك ضد بعض «المدافعين عن الرأسمالية» حتى الآن

لم يجد أي بارقة تقدم في الشعب اضطر مرغماً إلى القول إن تقدمنا لا يأتي من الأسفل، بل من الأعلى وعزّى نفسه بأن نيقولا الأول قد يفعل شيئاً ما للقضاء على الشر الأكبر في روسيا في هذه الفترة وهو القنانة. وعندما انتشرت الشائعات في نهاية ١٨٤٧ بأن نيقولا يستعد للقضاء على القنانة، سرعان ما تشبث بيلنسكي بهذه الشائعة واعلم بها أصدقاءه في الخارج. وفي الوقت نفسه كان يخشى أن يخيف التقدميون الروس الحكومة بعدائهم المكشوف لها واعتبر بيلنسكي أولئك الناس مسيئين من حيث أنهم « يثيرون الحكومة ويحركون شكوكها، ومستعدون أن يروا التمرد حيث لا تمرد، ويثيرون مقاييس صارمة ومميتة بالنسبة للأدب والتنوير ». وبسبب هذا كان يتعاطف مع شينشينكو الذي كان وقتها منفياً إلى القوقاز كجندي[١٥١]. قد يبدو هذا الرأي غريباً من بيلنسكي، مؤلف أشهر رسالة إلى غوغول. ولكن كل من يفهم نشأة هذا الرأي يعرف أن بيلنسكي توصل إليه نتيجة سعيه لربط النفي بميزان القوى الاجتماعية القائمة في روسيا في ذلك الوقت، وليس نتيجة النظرة « الذاتية » في التاريخ. ولكن عندئذٍ كان على بطرس الأكبر، في رأي بيلنسكي أن يتبعه في نشاطه وفرضه القوانين في الواقع الاقتصادي قبل كل شيء: « فالعملية الداخلية للتقدم الحضاري في روسيا سوف تبدأ فقط عندما تتحول طبقة النبلاء الروسية إلى برجوازية ». فان كان هذا الرأي نزعة ذاتية، فليس من العسير أن نفهم لماذا يخاف الذاتيون الروس عندنا اليوم من الرأسمالية. والسيد مياكوتين شرح لنا هذا الأمر الهام بنفسه.

ولكن لنتابع: قال بيلنسكي إن أنصار السلافية يرون الشعب تماماً كما يراه الاشتراكيون. وهذا صحيح تماماً - إن تذكرنا أنه يتحدث عن الاشتراكيين الطوباويين. إن الرأي السلافي في الناس لا مكان فيه لعنصر التطور. وفوق ذلك فقد تدفق الحديث من اكساكوف عن الثبات المفيد للشعب الروسي. هذا الثبات المفيد خلق أيضاً استجابة عاطفية بين أصحابه المفكرين في مرحلة مبكرة. ولعنصر التطور أيضاً تأثير ضئيل جداً على الآراء الاشتراكية في ذلك الوقت. لقد اعتبر الاشتراكيون وجود الرأسمالية وتطورها شراً - بكل بساطة - من دون ملاحظة ناحيتها الثورية. وفي مثلنة الشعب لم يمثلوا القدرة على التطور فيه المرتبطة بوضعه الاجتماعي والاقتصادي، بل مثلنوا السمة العامة للشعب في اللحظة الراهنة، السمة التي لا يمكن إلا أن يكون فيها صفات غير مرغوبة موروثة من الماضي. وحالما كشف بيلنسكي عن

عقب أخيل في الاشتراكية الطوباوية واتخذ موقفاً ضدها، تابع بحدته المشهورة الاشارة الى الجوانب الضعيفة في سمة الشعب. فقد رأى البرجوازية ممثلة للحركة التاريخية، ويمكن القول، إذا ترجمنا هذا الرأي بلغة اليوم، إن بيلنسكي فهم الدور التاريخي للرأسمالية في أوروبا الغربية أكثر مما فهمه الاشتراكيون الخياليون، وتنبأ بأهميتها الضخمة في القضاء على « طريقة الحياة البطريركية » البالية في روسيا. وبالفعل، حالما تحقق من دور الرأسمالية وأهميتها، انتقل مباشرة إلى الطرف الآخر ورفض ليس فقط قدرة العبد الروسي، بل أيضاً قدرة البروليتاري الفرنسي على القيام بنشاط تاريخي مستقل. كان هذا غلطة خطيرة. ولكنها لم تكن هامة بالمقارنة مع الحقيقة التي اشتملت عليها الآراء الجديدة لبيلنسكي.

وحالما رفض بيلنسكي الاشتراكية الطوباوية، طفقت أفكاره تتحرك في الاتجاه الذي كان قد اتخذه الفكر الثوري الغربي من قبل.

كانت فلسفة فيورباخ قد حلت محل فلسفة هيغل. وفلسفة فيورباخ مهدت الطريق لاشتراكية ماركس وانجلز العلمية الثورية. هذه الاشتراكية قدمت جواباً عن جميع المطالب النظرية لبيلنسكي فقد أقامت مفهوم النفي على عملية التطور التاريخي في الحياة الاجتماعية في المجتمعات المتمدنة المعاصرة، وأسندت هذا المفهوم - المؤسس بشكل ثابت لأول مرة إلى صفوف البروليتاريا الأممية. أصبحت هذه الحركة البروليتارية، كما قال انجلز، وارثة الفلسفة الكلاسيكية الألمانية[١٥٢] ونتيجة ذلك كف « الشعب » عن أن يكون كتلة نافلة محزنة وعاجزة. وبتأثير الدعاية الاشتراكية، صارت البروليتاريا أعظم عنصر حيوي مفكر في المجتمعات الحديثة. ولكن انبعاث الشعب لا يجري فقط في أوروبا الغربية. إن يقظة الوعي الطبقي وتطوره يجريان أمام عيوننا في الطبقة العاملة الروسية أيضاً هذه الظاهرة، التي من الصعب تقدير أهميتها، تخلق فرصاً جديدة للنجاح لكل من يكره النظام القائم حقاً، ومستعد للكفاح ضده. إن فكرة النفي أقيمت الآن في روسيا على عملية التطور الاجتماعي. فبلادنا ليست وهماً أبداً، ولا أولئك الناس الذين يكافحون من أجل مستقبل أفضل أو هام. إن المنحل الكئيب فقط يمكن أن يسأل نفسه الآن: «لماذا استيقظنا؟»[١٥٣] إلا أن المنحلين لا يسألون أنفسهم مثل هذه الأسئلة.

ولو ظل بيلنسكي حياً حتى اليوم، لكان في سلم مع نفسه. انه لن يدعو نفسه **أناكارسيس اليونان الجديدة**[١٥٤] كان سيرحب بيقظة البروليتاريا الروسية، كان سيحسد أولئك الناس المحظوظين الذين سيعيشون ليروا انتصار البروليتاريا

آن الأوان أن أنتهي، وان لم أتحدث عن نشاط بيلنسكي كناقد أدبي. ويحق لي ألا أتكلم عن هذا لأن دوره وأهميته عولجا في أدبنا الرسمي* أود فقط أن أشير إلى الموضوع الرئيسي، الموضوع المقدس في كل نشاطه الفكري ابتداء من المرحلة التي ألقى عنه فيها نير «**البطولة المجردة**» حتى آخر أيام حياته التعيسة؛ هذا الموضوع الرئيسي لنشاطه الفكري هو **نفي المثال الطوباوي المجرد، والكفاح من أجل تطوير فكرة النفي، استناداً الى التطور المقنّن للحياة الاجتماعية ذاتها**. لا أحد درس بيلنسكي من هذه الناحية، مع أنه من المهم جداً لنا في الوقت الراهن أكثر من غيرنا لأنه لم ينته حتى الآن في بلادنا صراع الناس الذين يسعون لوضع نفيهم على أساس ملموس ضد ممثلي **المثل المجردة** والمدافعين عنها، دونكيشوتيي عصرنا

---

* سوف أحاول تلخيص ذلك باختصار هنا، فمسورونا في الستينات - تشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف وآخرون - اعتبروا بيلنسكي مرشدهم في النقد الأدبي. كانوا محقين، وقد قلت من قبل أن بيلنسكي كان سلفهم من عدة وجوه. إلا أن نشاطه الأدبي استحوذ على إعجابهم كلياً، أي كفاحه لتحرير الحقائق والمناقشات الأدبية من ربقة الأذواق والعواطف الشخصية، وليحل النقد على أساس **موضوعي علمي**. وقد عبر عن هذا الكفاح في مقالته في الذكرى السنوية لبورودينو. كتب: «نعتقد ونؤمن تماماً أن زمن الآهات والتأوهات وعلامات التعجب والأسطر المنقطة تعبيراً عن فكرة عميقة حيث لا توجد أفكار قد ولى وانتهى من أدبنا، ذلك أنه قد انتهى الزمن الذي كانت فيه الحقائق الكبرى تسرد في أبهة دكتاتورية، ولكن من دون أي أساس، أو تدعم من دون رأي شخصي، وبمفاهيم اعتسافية لكاتب مزيف.. الرأي يعتمد على الاعتقاد الموفق من فرد موفق ليس هاماً في حد ذاته، ولا يهم أحداً، بينما يعتمد الفكر على ذاته، على تطوره الداخلي الخاص حسب قوانين المنطق». هنا يبين بيلنسكي أنه تجذر تماماً بالمثالية الهيغلية. ولكن فيما بعد، مثلاً في مقالاته عن بوشكين، تخلى عن المثالية - على الأقل في بعض المقاطع، وقدر شاعرنا العظيم باعتباره **ممثلاً لأعظم وأعلى قسم من نبلائنا**. هذا النقد لا يشبه نقد الستينات، ولا شيء مشترك بينه وبين النقد «الذاتي» في أيامنا إنه جنين النقد العلمي القائم على التفسير المادي للتاريخ. ومن نافلة القول إن تاريخ آراء بيلنسكي الأدبية وثيق الصلة بالتاريخ العام لآرائه الفلسفية. وليس هنا مكان شرح هذه الصلة[١٥٥].

فيساريون غريغوريفيتش بيلنسكي

(١٨١١ - ١٨٤٨)[١٥٦]

[١٩٠٩]

١

لم تكن حياة فيساريون غريغوريفيتش بيلنسكي غنية بالأحداث الخارجية. كان في نشأته «رازنو شينتسياً» حقيقياً خدم أبوه كطبيب أولاً في اسطول البلطيق وأخيراً في مسقط رأسه شمبار. ولد بيلنسكي عام ١٨١١ (لم يجر التثبت بعد فيما إذا كان ميلاده في شباط أو أيار) في سفيبورغ حيث أقامت الوحدة التي كان يخدم فيها أبوه. قضى طفولته ومراهقته في شمبار وبنزا ولم تتركا في نفسه سوى انطباعات براقة قليلة. كان أبوه سكيراً وأمه بليدة سليطة. مادياً كانت أسرته دائماً في ظروف عسر. إلا أن والد بيلنسكي لم يخل من المزايا لقد تلقى ثقافة أفضل بكثير من الضباط الذين حوله وغالباً ما كان يصطدم معهم. ويعتقد قريبه د.ب. ايفانوف، أن قصص والده عن خداع البيروقراطيين قد أثرت في فيساريون الصغير تأثيراً عميقاً وبغض النظر عن مباهج الحياة المدنية، فان بيلنسكي استطاع أيضاً أن يلاحظ الجوانب المظلمة في حياة الطبقة العليا ويمكن أن نقول مؤكدين أن أهوال القنانة تركت في نفسه أثراً عميقاً درس أولاً في المدرسة الابتدائية في شمبار ثم من صيف ١٨٢٥ في ثانوية بنزا ثم في جامعة موسكو، التي دخلها في خريف ١٨٢٩ إن نظام التعليم: الابتدائي والثانوي والجامعي لم يكن مرضياً في ذلك الوقت، بحيث أن بيلنسكي في معرفته الواسعة، في كل ميادين الأدب، لم يكن مديناً لأحد سوى نفسه، وبعض اللقاءات الموفقة مع بعض الأشخاص في حياته. كتب عنه بوبوف المعلم السابق في ثانوية بنزا: «لم يتعلم في الثانوية

من الصفوف بقدر ما تعلم من الكتب والمحادثات والشيء نفسه في الجامعة كل معرفته تكونت من الصحف الروسية، منذ العشرينات فما بعد، ومن الكتب الروسية وما كان لا يجده في الصحف والكتب كان يجده في محادثات أصدقائه. وبالفعل فان للمثقف ستانكيفيتش في موسكو تأثيراً كبيراً على رفاقه. وأعتقد أنه كان أكثر فائدة لبيلنسكي من الجامعة. وعندما أصبح كاتباً كان دائماً محاطاً بحلقة صغيرة من الذين لم يكونوا أدباء كباراً، ولكنهم حصلوا معلومات حية هامة وعصرية. هؤلاء، ومعظمهم شباب، كانوا متعطشين للمعرفة، للخير والرفعة. أغلبهم يعرف لغات أجنبية ويقرأ في كل من الكتب والصحف الأجنبية والروسية... في هذه المدرسة حقق بيلنسكي تقدماً كبيراً

وتتطابق ملاحظات الأمير أودوييفسكي مع هذا تطابقاً تاماً يقول: « لم يكن ثمة مكان في روسيا يذهب إليه بيلنسكي من أجل تثقيفه، فالروتين المزعج لجامعاتنا لم يكن ليرضي ذهنه المنطقي الوقاد، وفلسطينية أساتذتنا (أي النزعة المناوئة للثقافة - المترجم) لم تثر فيه سوى الاحتقار، والاضطهادات السخيفة - وأسبابها مجهولة - جعلته حاقداً وذلك الحقد اختلط بتطوره الفلسفي ودفع قياساته الجريئة إلى حد التطرف ».

فلندع جانباً القياسات « الحاقدة »، ولنضف أن بيلنسكي لم يتسن له التمتع « الروتين المزعج لجامعاتنا »: ففي أيلول ١٨٣٢ طرد من الجامعة لـ « نقص الكفاءة ». والسبب الحقيقي لهذا الطرد كان تراجيديته **ديمتري كاليفين**، التي تسأل فيها إحدى الشخصيات « أبا البشر » سؤالاً وقحاً عن « الأفاعي والتماسيح والنمور التي تعيش على لحم وعظم جيرانها » (الاشارة هنا إلى القنانة). وعلى الفور فتح أساتذة الجامعة الذين في هيئة الرقابة عيونهم، إن صح القول، على المؤلف الشاب. وقد سلمت هذه التراجيديا للرقابة في ١٨٣١، وفي أواسط ١٨٣٢ كان قد تم الطرد: « الذي عزي إلى هفواتي ونقص في كفاءتي شكلياً، ولكن فعلياً يعزى إلى مرض مزمن وحقارة سيد بدين لقد كانت أزمنة صعبة ومعقدة: إن مثل تلك الأحداث ليست نادرة أبداً ».

كان على بيلنسكي طيلة حياته أن يغالب البؤس. وقد دمر البؤس صحته أخيراً، وجعله طيلة عمره هزيلاً، وأودى به إلى القبر مبكراً كما سخر منه أسوأ سخرية بدفعه إلى الكفاح المرير من أجل الحياة، ولذلك سرق منه فرصة سد الثغرات في ثقافته وقد أحرج هذا موقفه بالنظر إلى أعضاء الحلقة الذين أشار إليهم بوبوف من

قبل، وكان له تأثير حاسم على تطوره الفكري. هذه الحلقة، حلقة ستانكيفيتش الشهيرة، التي لعب فيها دوراً هاماً بعد رحيل هذا الأخير إلى الخارج في خريف ١٨٣٧ م.أ باكونين، تكونت من أناس أحرار متمكنين منذ الطفولة من اللغات الأجنبية. اضطر بيلنسكي، الذي كان يقرأ بالفرنسية، ولكنه لا يعرف لا الانكليزية ولا الألمانية، إلى شغل مركز غير ملائم تجاه أصدقائه، وخاصة تجاه رجل يستخدمها للدخول إلى المصادر الفلسفية والأدبية الأجنبية. ونظن أن مؤرخي أدبنا لم يضعوا في الحسبان مدى فوائد هذا المركز اننا يمكن أن نقدر ذلك بصورة مختصرة بالاشارة إلى أن بيلنسكي احتل مركز التلمذة لأناس كانوا أقل منه ثقافة بكثير

هذه الملاحظة معروفة على الأقل لباكونين الذي شرح، بعد ستانكيفيتش، فلسفة هيغل لبيلنسكي، ومعروفة إلى حد بعيد لكاتكوف الذي ساعد ناقدنا في دراسة علم الجمال الهيغلي. أما بالنسبة إلى السيد ستانكيفيتش فلا نحتاج إلى الجرأة للقول إن بيلنسكي كان متفوقاً عليه ثقافياً يبدو أن بيلنسكي نفسه مال إلى توقيره. إلا أن هذا لا يعني شيئاً على الاطلاق. إن بيلنسكي لم يفهم نفسه، ولكن بعده عن حب الذات دفعه إلى مثلنة أصدقائه والمبالغة في فضائلهم* لا شك أن ستانكيفيتش كان ذا ثقافة بارزة، ولكنه لا يحق له أن يعامل بيلنسكي بسخرية، كما كان الأمر مع تورجنيف. هذا الموقف الساخر، وتورجنيف ينظر إليه نظرة صداقة، يمكن أن يفهم أنه استهجان مغلف بقناع الصداقة، لتلك « التطرفات » التي وسمت كل أصدقاء بيلنسكي، بمن فيهم هرزن. إن ستانكيفيتش هو الذي لقبه « الفيساريون المتهور ». ومن الأنسب أن نتذكر هنا كلمات هيغل: لا شيء عظيم يتحقق من غير عاطفة. ولأن بيلنسكي ذو طبيعة « متهورة »، كان أنفذ نظرة في المسائل الصعبة لتلك الأيام من ستانكيفيتش.

ولا أهمية أن بيلنسكي ربما كان الرازنوشنتسي الوحيد في حلقته. وانها لحقيقة معروفة أن الرازنو شيتسيين فيما بعد، في الستينات والسبعينات عالجوا « المسائل الصعبة بتفصيل أقل من ممثلي النبلاء المثقفين. كان بيلنسكي السابق للشخصيات الأدبية القادمة

---

* هكذا تحدث في رسالة إلى بوتكين نصف مازح: « لا تنس أنني و « ك » متنافسان رسميان. واستطيع بطبيعتي أن أرى أن الرب يعرف ماذا في منافستي، وان لا شيء في نُفسي » إنها مزحة تتضمن حقيقة ناصعة.

المتهورة - تشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف وأتباعهما وليس بلا سبب، بل لسبب وجيه أن أبناء الستينات نظروا إلى بيلنسكي نظرة احترام كبير.

بعد طرد بيلنسكي من الجامعة، وبعد مرحلة من مكابدة البؤس الشديد، اهتدى إلى وظيفة أدبية دائمة لدى نادزدين. عمل أولاً في الترجمات، ولكن في أيلول ١٨٣٤ قدم باكورته في صحيفة مولفا كناقد أدبي، وهي مقالته «أحلام أدبية» (مرثاة نثرية). ومنذئذٍ لم يتوقف عن الكتابة، أولاً لنادزدين، أي في مولفا وفي التلسكوب[١٥٧] (١٨٣٤ - ١٨٣٦) ثم في موسكافسكي نابليداتيل[١٥٨] (١٨٣٨ - ١٨٣٩) واوتيشيتسفيني زابسكي (١٨٣٩ - ١٨٤٦) وأخيراً في السوفريمنيك (١٨٤٦-١٨٤٨). كان نشاطه الأدبي ينقطع أحياناً (١٨٣٦-١٨٣٨) «لأسباب خارج ارادته» - تعزي إلى حظر التلسكوب في خريف ١٨٣٦*

وفي صيف ١٨٤٣ صادق بيلنسكي سيدة كان معلمة في احدى مؤسسات موسكو، أصبحت زوجته في السنة ذاتها ان طبيعة علاقته مع زوجته لم توضح أبداً ويقول بيبين في هذا باختصار: «اندفع في هذه العلاقة بكل حماسته التي كانت صفته المميزة: امتلأ آمالاً، ووحدته سوف تنتهي، الوحدة التي أربكته وسط نشاط خارجي صعب، لقد توقع أن تحدث زوجته فيه منعطفاً جديداً

«لقد بدأت حياة منزلية جديدة عليه، مليئة باهتماماتها ومشكلاتها التي أقلقته شخصياً وتابع العمل باندفاع أكثر من ذي قبل».

أما مظهر بيلنسكي فقد وصفه تورجنيف كالتالي: «كان رجلاً ذا قامة متوسطة ليس انيقاً حتى أنه للوهلة الأولى يبدو أخرق، نحيفاً، أجوف الصدر برأس منحن. واحدى ترقوتيه بارزة أكثر من الأخرى. إن أي شخص، طبيباً كان أو عادياً، يذهل

---

* فلنضف أن بيلنسكي نشر قصيدة في صحيفة ليستوكو ١٨٣١، وكتب في ١٨٣٩ مسرحية في خمسة فصول بعنوان العم في الخمسين أو مرض غريب ونشر عدة مقالات في الملحق الأدبي لصحيفة روسكي انفاليد في السنة ذاتها، ومقالة (عن كانتمير) في ليتراتورنايا غازيتا (الأعداد ٦-٧-٨) في ١٨٤٥ وفي السنة نفسها كتب مقالة «موسكو وبطرسبرج» للجزء الأول من فيزيولوجيا بطرسبرج وهي مجموعة مقالات، وفي ١٨٤٦ ظهرت مقالته «أفكار وملاحظات عن الأدب الروسي» في صحيفة بيتر برغسكي سبورنيك. وفي الوقت نفسه أيضاً كتب مقالة عن كولتسوف نشرت في مجموعة الأخير الشعرية، وكراسة بعنوان نيكولاي الكسيفيتش بوليفوي.

مباشرة لأعراض السل فيه... بالاضافة (وهذا في أواخر حياته) إلى أنه يسعل باستمرار كان وجهه صغيراً شاحباً محمر اللون، ولم يكن أنفه مستقيماً، بل كان مسطحاً إلى حد ما، وفمه منعقفاً وخاصة حين يفتحه، وأسنانه صغيرة متراصة، ويتدلى شعره الأشقر الكثيف خصلاً على جبينه الأبيض الرائع، وإن كان منخفضاً أنا لم أر أبداً أكثر جمالاً من عيني بيلنسكي. عينان زرقاوان ببريق ذهبي عميق في بؤبؤيهما، بجفون نصف مغمضتين غالباً، ولكنهما يتسعان ويلتمعان لحظة الحماسة، وتبدوان وديعتين لطيفتين وقت المرح. كان صوت بيلنسكي ضعيفاً، وأجش قليلاً، لكنه عذب، يتحدث بنبرات وايحاءات خاصة عندما يثار (شعر السيد نكراسوف). ضحكته، كالطفل من قلبه لا عائق أمامها يحب المشي جيئة وذهوباً في الغرفة مع نقرات على علبة النشوق مع تبغ روسي في أصابع يديه الصغيرتين. أولئك الذين لم يروه إلا مسرعاً في الشارع بمشيته المضطربة قريباً من الأبنية بقبعته السميكة، ومعطف قديم من فرو الراكون، وينتعل حذاءين طويلين، متلفتاً حواليه بحدة محتشمة لا تصدر إلا عن العصبيين، لن يشكلوا فكرة صحيحة عنه.... كان بيلنسكي في الشارع بين الغرباء يضطرب بسرعة ويشعر بالضياع. ويرتدي عادة في البيت معطفاً من القطن والصوف، وكان بشكل عام أنيقاً جداً ».

ويمكن أن نضيف هنا، حسب رأي تورجنيف، أن صورته المطبوعة لا تقدم فكرة دقيقة عن مظهره.

٢

حياة بيلنسكي الفقيرة بالأحداث الخارجية، اتسمت ببعض العواصف الحقيقية في المجال الفكري. إن أهمية تلك العواصف لا تتضح للكثير من المعجبين به. إن هؤلاء أخذوا وما زالوا مأخوذين بتلك المرحلة من التطور الفكري عند بيلنسكي، التي رأى فيها من الضروري أن يتصالح مع الواقع الروسي المعاصر. يقع اللوم في هذه الفترة على عاتق هيغل. وغالباً ما توصف بكلمات أمثال: « غلط » و« خطأ » و« سوء فهم » الخ. والحقيقة أن هذه الفترة تثبت تماماً القدرة الهائلة لفكر بيلنسكي وصحة كلمات الأمير أودويفسكي: « كان بيلنسكي واحداً من أرقى المنظومات الفلسفية التي واجهتها في حياتي ».

وحتى نتحقق من هذا، علينا أولاً أن نفهم تماماً الأهمية التاريخية لفلسفة هيغل، أهمية الدراسة التي شكلت مرحلة هامة في الحياة الفكرية لبيلنسكي.

اعتقد المتنورون الفرنسيون في القرن الثامن عشر اعتقاداً وطيداً بقوة العقل ولم يكونوا أقل اعتقاداً أن «الفكر يحكم العالم» أي أن مجرى تطور الأفكار يحدد مجرى التطور الاجتماعي إن الأحداث الجسام لأواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر أجهزت على الإيمان بقوة «العقل» وتوصل معظم الناس المدركين إلى قناعة أن مجرى تطور الأفكار لا يحدد مجرى التطور الاجتماعي، بل العكس، إن الأول يتحدد بالثاني. هذا ما يسم بداية المرحلة الجديدة في تاريخ العلوم الاجتماعية، ومن الأصح القول إنه ظهر لأول مرة إمكانية إقامة الدليل على هذه العلوم. إن مرحلة الإصلاح تتسم بمحاولات دؤوبة لاكتشاف التطابق مع القوانين في مجرى التطور التاريخي عامة والتطور الفكري للبشرية خاصة (ونتذكر هنا «قانون المراحل الثلاث» الشهير لسان سيمون - أوغست كونت). إن أبرز المؤرخين لتلك المرحلة اعتبروا آراء الشعب نتاجاً لعلاقاتهم الاجتماعية، وجميع دارسي الحياة الاجتماعية والأدب، الواحد بعد الآخر، تبنوا نظرة تطورية. ويمكن أن نلاحظ هذه العملية ليس في فرانسا وحدها فقط، حيث دفعت إلى ذلك الأحداث التاريخية التي أشرنا إليها من قبل، بل أيضاً في ألمانيا، حيث روقبت تلك الأحداث عن كثب وجرت المشاركة فيها إلى حد ما إن الفلسفة المثالية الألمانية كما تمثلت بشلنج وهيغل كانت تطورية إلى آخر حد

ولا بد أن نلاحظ أن مبدأ التطور، وعلى الأخص في فلسفة هيغل، قد اكتسب سمة ديالكتيكية. إن الديالكتيك هو أيضاً مبدأ في التطور، ولكنه غريب دائماً عن أحادية الجانب في مذهب التطور المبتذل الذي ساد، بعد سقوط نظرية الكارثة لكوفير، بين طبيعيي القرن التاسع عشر، ومن هؤلاء انتقل إلى دارسي القضايا الاجتماعية. لقد اتخذ هيغل موقفاً ثابتاً ضد الأطروحة الشهيرة: «الطبيعة لا تقاس بالطفرات». قال إن الناس الذين يؤيدون هذه الأطروحة لا يرون سوى إحدى لحظات عملية التطور والواقع إن التغيّرات الكمية، المتراكمة تدريجياً تصبح بالتدريج تغيرات كيفية وهكذا تتم التحولات عبر قفزات. إننا نعرف أن ما يسمى الآن نظرية التطور الشبيه بالطفرة منتشرة جداً في البيولوجيا وذهب هيغل إلى أن

هذا يثبت أحد المبادىء الأساسية لديالكتيكه، وهو مصيب فيما ذهب.

ولا نستطيع هنا أن نناقش هذا الموضوع مفصلاً. يكفي أن نلاحظ أن المبدأ الهيغلي، أي المبدأ الديالكتيكي في التطور، له طريقه في استخدام منظور معين ليس فقط في «الطفرات» (التغيرات في النوعية) بل أيضاً في عملية التغير التدريجي (التغيرات في الكمية) الذي يهيىء لها ونظراً لهذا فإن المرء لا يستطيع إلا أن يعترف أن هرزن كان مصيباً عندما سمى فلسفة هيغل جبر الثورة. قال هيغل إن «الروح العالمية» لا تتوقف. «إنها تسير قدماً طالما أن السير قدماً من طبيعتها». ولذلك نرى أتباع هيغل لم يجدوا أسباباً منطقية للاستسلام لخيْبة الأمل في سلطة العقل التي أشرنا إليها من قبل. على العكس تبدو فلسفة هيغل وكأنها خلقت لغرض خاص وهو تخفيف عبء خيبة الأمل عن المفكرين. وهذا هو السبب في أنها مارست تأثيراً هائلاً في الشباب الألمان في تلك الأيام، وليس الألمان وحدهم.

على أي حال، أولئك الذين ينطلقون من فلسفة هيغل في سعيهم لم يستطيعوا الركون في نضالهم ضد الآراء البالية إلى مبدأ مجرد، كمبدأ العدالة الأبدية... الخ، على سبيل المثال. لا إن هذا الركون ليس جديراً إلا بـ «الميتافيزيائيين». إن التقدمي المتمثل روح فلسفة هيغل الديالكتيكية، عليه أن يجعل ميوله «الذاتية» تعبيراً فقط عن «العمل الداخلي العميق» الذي تحققه في المجتمع حركة «الروح العالمية». وما لم يدعمه هذا العمل، غدت ميوله الذاتية عسفاً و«وهماً» وحكم عليها بالفشل منذ البداية.

من الخطأ الاعتقاد أن كلمات هيغل الشهيرة «كل ما هو عقلي واقعي وكل ما هو واقعي عقلي» تعبير عن روح المحافظة. كان ثمة سوء فهم سببه عدم الاطلاع على مصطلحات هيغل. فليس عند هيغل أن كل ما هو موجود واقعي. قال: «الواقع أسمى من الوجود». فوجود الصدفة ليس وجوداً واقعياً الواقعي هو الضروري فقط. وفي التحليل الأخير ليس سوى الحركة الأبدية الأمامية لـ «الروح العالمية» هي الضرورية. إن عمل «الروح العالمية» «الشبيه بالخلد» يقضي على النظام القائم ويحيله إلى شكل خاوٍ من أي مضمون «واقعي»، ويؤدي بالضرورة إلى ظهور نظام جديد يدفع بمعركة ضارية مع النظام القديم.

لم يفهم تلامذة هيغل جيداً الطبيعة الديالكتيكية لفلسفته. فوق ذلك فإنه هو نفسه كان مثل رجل عجوز غير مخلص للديالكتيك في موقفه من المسائل الاجتماعية - السياسية. إن فلسفته لم تكن فقط نظاماً ديالكتيكياً إنها طمحت أن تكون **نظاماً للحقيقة المطلقة**، وهذا ما شكل **العنصر المحافظ** في فلسفة هيغل. فحسب مذهبه كل فلسفة انعكاس مثالي لعصرها فإذا عثر مفكر على الحقيقة المطلقة، فمعنى ذلك أنه عاش في زمن تطابق معه النظام الاجتماعي «**المطلق**» أي التام. وبما أن الحقيقة المطلقة لا يمكن أن تصبح بالية، وبما أن النظام الاجتماعي التام لا يمكن أن ينقلب إلى نظام غير تام، ينتج من ذلك أن التمرد ضد هذا النظام هو تمرد ضد «الروح العالمية». بالطبع حتى النظام «المطلق» يمكن أن يخضع لبعض التحسينات في جزئياته، أما ككل فيجب أن يبقى وطيداً باعتباره يعبر عن الحقيقة «المطلقة».

لقد تعاطف هيغل في شبابه مع الثورة الفرنسية الكبرى، ولكن بمرور السنين ضعف حبه للحرية بالتدريج بينما ازداد ميله إلى العيش بسلام مع النظام القائم للأشياء وقد ظهر هذا الميل بقوة في كتابه **فلسفة الحق**. في هذا الكتاب أفكار جديرة بعبقري، ولكن في الوقت نفسه يدهش المرء لجهود المؤلف الواضحة لمصالحة فلسفته مع النزعة المحافظة البروسية. ونشير بوجه خاص إلى مقدمة هذا الكتاب التي نجد فيها الأطروحة الشهيرة «**كل ما هو عقلي واقعي، وكل ما هو واقعي عقلي**» وقد ظهرت بتفسير مختلف تماماً عن ذاك الذي في كتابه **المنطق**. وحسب هذه المقدمة فإن الإنسان الذي يفهم الواقع ويكتشف السبب الكامن فيه لا يتمرد عليه، بل يتصالح معه ويبتهج فيه. مثل هذا الشخص لا يتخلى عن حريته الذاتية، بل إن حريته الذاتية لا تتبدى في تنافر مع ما هو قائم، بل تنسجم معه. التنافر بشكل عام مع ما هو قائم، وعدم الاتفاق بين العقل المدرك والعقل المتجسد في واقع، سببه فقط الفهم الناقص لذاك الواقع، سببه أخطاء الفكر المجرد. إن نصف المعرفة تجعل الناس ضد الواقع الذي حولهم، بينما المعرفة الأصلية تجعلهم يتصالحون معه. هكذا يعلل هيغل في المقدمة المشار إليها أعلاه. ونطلب من القارىء أن يلاحظ أن تعبير «**المصالحة مع الواقع**» استخدمه هنا هيغل ذاته.

٣

يبين هذا مدى خطأ أصدقاء بيلنسكي أمثال غرانوفسكي وستانكيفيتش في إلحاحهم على أنه توصل إلى المصالحة مع الواقع نتيجة سوء فهم هيغل. كانت في الواقع حالة من سوء الفهم، ولكن اللوم لا يقع فيها على بيلنسكي بل على هيغل نفسه - هيغل الذي أعلن الأهمية « المطلقة » لفلسفته متناسياً الفكرة الأساسية لديالكتيكه: كل شيء يتدفق، كل شيء يتغير. وكم كان من الأفضل لو أن بيلنسكي تمكن من الألمانية وكان لديه متسع من الوقت لدراسة فلسفة هيغل دراسة منظمة، لكان فهم طبيعتها الأصلية، أي طبيعتها الديالكتيكية بوقت أسرع وصعوبة أقل. كان من الأفضل - وهذا في رأينا لامراء فيه - لو أن باكونين، الذي لم يتمتع بذهن ديالكتيكي، حال بتأثيره دون فهم بيلنسكي أن هيغل لم يكن مخلصاً لفلسفته بإعلانها حقيقة مطلقة. ولا بد من أن نتذكر أن « مصالحة » بيلنسكي مع الواقع لا تتناقض أبداً مع هيغل كما تجلى في كتابه فلسفة الحق. وقد نسي هذا أولئك الذين يهزون أكتافهم ساخرين وهم يتحدثون عن « خطأ » بيلنسكي: كان خطأ ارتكبه بيلنسكي مقتدياً بهيغل.

ومع ذلك كيف يمكن ارتكاب هذا الخطأ، حتى باتباع هيغل من قبل بيلنسكي الشاب، الذي كانت انطباعاته عن « واقعنا » الروسي القائمة على تجاربه في الطفولة والشباب غير واضحة؟ للإجابة عن هذا السؤال لا بد من معرفة مزاج بيلنسكي مباشرة في المرحلة التي سبقت إعجابه بهيغل. إنه نفسه قال فيما بعد أن مؤلفات شلر الأولى اللصوص وفيسكو وكابال والحب شحنته « عداء ضارياً تجاه النظام الاجتماعي باسم المثال المجرد للمجتمع، المنفصل عن الشروط الجغرافية والتاريخية للتطور، والمبني في الهواء » وقد أثر فيه كتاب دون كارلوس في الاتجاه نفسه. قال: « إن دون كارلوس دفعني إلى البطولة المجردة، التي بدونها أحتقر كل شيء والذي فيه، على الرغم من فرحي الكبير، عرفت أنها غير هامة نهائياً اعتراف بيلنسكي هذا ذو أهمية كبيرة في تاريخ تطوره الفكري. وما هو هام في الحقيقة أن الموقف الذي اتسم به، مصحوباً بعجزه، لا يمكن أن يكون صفة شخصية لبيلنسكي الشاب: بالتأكيد ليس وحده الذي تحقق بـ « عدم الأهمية نهائياً ». إن كل المفكرين الروس الذين لم يميلوا إلى الاغتباط بالنظام القائم للأشياء لا بد أنهم تحققوا من أنهم كانوا عاجزين عجزاً مطلقاً. كانت

مرحلة شباب بيلنسكي قاسية جداً يقول هرزن عن تلك المرحلة: «إن المستوى الأخلاقي للمجتمع انحط. وتوقف كل تطور، ونحي من الحياة كل ما هو تقدمي فعال. والبقية كانت خائفة ضعيفة ضائعة، كانت ضئيلة فارغة، وحثالة الجيل الاسكندري احتلت الآن أسمى المراكز فنرى أن المزاج العام في ذلك الزمان كان أن الرجل الميال إلى الأفكار التحررية لا بد أن يتحقق من عجزه، وأن يعي «عدم أهميته نهائياً ولا يحتاج المرء إلى القول كم هو مؤلم مثل هذا الشعور وقد بدا لفترة أن بيلنسكي قادر على قهر هذا الشعور، وعلى وضع إطار تفاؤلي لفكره. وبتعبيره في مقالته «أحلام أدبية» عن فكرة أن روسيا تحتاج إلى التنوير وليس إلى الأدب، اعتقد أن حكومتنا كانت تسعى بكل نواياها إلى هذا الاتجاه. وإذا عرفنا بيلنسكي هكذا، أمكننا التأكد أنه كان حكيماً فيما يقول. ومن السهل أن نفهم أن إيمانه بالنوايا التنويرية للحكومة المعاصرة لا يمكن أن يظل مستمراً، فقد أخلى الطريق لتشاؤمية أعمق. إنه لم يفشل في رؤية أن كل يوم جديد يأتيه بوقائع جديدة بينت له هشاشة إيمانه. إلى جانب ذلك لا يمكن لمنجزات التنوير أن ترضي شاباً مليئاً بـ «البطولة المجردة». إن شاباً كهذا يطمح إلى الكثير من المنظورات «البطولية» وهذه كانت مفقودة من الحياة الاجتماعية الروسية. وهذا هو السبب أن التفاؤلية العابرة لبيلنسكي كان لا بد أن يحل محلها المزاج الذي وصفناه سابقاً الذي كان فيه واعياً «عدم الأهمية نهائياً». وما إن تحرر من هذا المزاج حتى وجد أمامه سبيلاً خارج ذلك الوضع. وقد استمر بيلنسكي في البحث عنه بلا كلل.

وجده حيناً بمساعدة باكونين في فلسفة فيخته. قال فيما بعد «لقد استوعبت الرأي الفيختي بهمة، وبتعصب». هذه خاصة بارزة وفي الوقت نفسه أمر طبيعي تماماً لقد قال بيلنسكي نفسه إن الحياة في نظره منقسمة دائماً إلى مثال وواقع وباستيعابه فلسفة فيخته فكر بعلاج هذه الثنائية. أقنع نفسه أن «الحياة المثالية هي الحياة الواقعية... وسمى الحياة الواقعية سلباً، نفياً، وهماً، عدماً، فراغاً».

وباتخاذه مثل هذا الموقف أصبح بيلنسكي أشد عداء لـ «الحياة الواقعية» باسم المثال. في كل هذه المرحلة التي سندعوها المرحلة الأولى من تطوره الفلسفي، الفصل الأول من مسرحيته الفكرية، تبنى موقفاً متعاطفاً جداً وعلنياً من الثورة الفرنسية.

ولكن المسألة هي هل يمكن أن تستقر هذه الطمأنينة إذا كان قد حصل عليها خلال واقع جاهل؟ بالطبع لا

أعلن أن الحياة الواقعية «وهم». ولكن يبدو حتى الأوهام لا يشبه أحدها الآخر فحتى الواقع الفرنسي في زمن بيلنسكي اختلف اختلافاً قوياً عن الواقع الروسي، وهكذا بالنسبة إلى الماضي فالثورة التي كان متعاطفاً معها كثيراً، أصبحت الآن حقيقة «الحياة الواقعية» لفرانسا كان على بيلنسكي فقط أن يسأل نفسه «لماذا لم يعرف تاريخ روسيا مثل هذه الوقائع؟» حتى يفهم بشكل أعم وأعمق سؤال: لماذا «الحياة الواقعية» لبلاد ما، أو في عصر ما، لا تشبه الحياة الواقعية لبلاد أخرى، أو في عصر آخر؟ لا يمكن حل هذه المسألة بالتجاهل «الفختي» لـ «الحياة الواقعية». إن الجواب الوحيد متوفر لدى أولئك الذين فهموا قوانين تطور «الحياة الواقعية»، أي أولئك الذين سوف يحلون المهمة التي حاول حلها العلم الاجتماعي في القرن التاسع عشر، كما سبق ورأينا

في رسالة ترجع إلى المرحلة التالية من تطور بيلنسكي جاء: «أكره الفكر باعتباره تجريداً ولكن هل يمكن الحصول عليه من دون تجريد؟ إني أعرف سخافة هذا الافتراض، إلا أن طبيعتي معادية للتفكير». ومن نافلة القول انه يفتري على نفسه بالقول إن طبيعته معادية للتفكير ويظهر هذا في الكثير من رسائله والكثير من الصفحات الرائعة التي شرح فيها نظرية الأدب. ولكن لا شك أن بيلنسكي لا يستطيع أن يقف عند المعالجة الاعتسافية للمفاهيم المجردة، لقد حاول دائماً أن يختبر صحة اتجاه أفكاره عن طريق الاتجاه الموضوعي للأشياء كانت هذه الصفة في بنيته الفكرية (وبالمناسبة فإن هذه الصفة كانت سبب إنجاز هذه الكمية في النقد الأدبي) هي التي لا بد أن تفسد بسرعة الغبطة التي شعر بها عندما أدار ظهره لـ «الواقع» باسم «المثال». فيما بعد سمى مرحلته الفختية مرحلة التفتت. لقد استخدم هذه الكلمة ليشخص الحالة المتفتتة التي شعر بها في الميدان السديمي لـ «المثال» المنفصل عن «الواقع». هذا التفتت أدى به إلى مخاصمة فلسفة فيخته.

ونظراً لنقص المعطيات يظل تاريخ هذا الخصام غامضاً إلى حد ما ولا شك أن بيلنسكي كان في النصف الثاني من ١٨٣٧ تحت تأثير هيغل موطداً السلم مع «الواقع» الذي كان من قبل «معادياً» له. وفي رسالة في ٧ آب ١٨٣٧ ينصح صديقاً له بدراسة

الفلسفة ويضيف: « في الفلسفة فقط سوف تجد الاجابات عن أسئلة نفسك، انها وحدها التي سوف تمنح نفسك السلام والانسجام وتهبك سعادة لا تحلم بها العامة والتي لا يمكن أن تمنحك اياها أو تسلبها منك الحياة الخارجية ». إلا أن نظام فيخته كان أيضاً فلسفة. لماذا لم يمنح إذن نفس بيلنسكي « السلام والانسجام »؟ ولماذا وجدهما في نظام هيغل؟ إن هذا يفسره لنا مقطع آخر من الرسالة التي يحذر فيها بيلنسكي صديقه « باستمرار » من الحماسة للسياسة التي، كما يقول، لا معنى لها اطلاقاً في روسيا يقول « لأن لروسيا مصيراً مختلفاً عن فرنسا، حيث، الاتجاه السياسي للعلوم والفنون والمواطنين ذو معنى خاص، واقع خاص، جانب خاص ». يكشف هذا المقطع إلى حد ما الطريق الذي عاكسه بيلنسكي من احتقار « الواقع » باسم « المثال » إلى « المصالحة » مع هذا « الواقع ». المسألة كانت، كما رأينا، أن « المثال » أثار في بيلنسكي حماسة حارة لبعض صفحات التاريخ الواقعي لفرانسا، ولا بد أن هذه الحماسة اضطرته إلى الموازاة بين تاريخ فرنسا، من جهة، وتاريخ روسيا من جهة أخرى. وهذه الموازاة فرضت نتيجة محزنة جداً على المفكر الروسي، الذي يهمل السياسة إن لم نقل يرفضها نهائياً، السياسة التي لا معنى لها في روسيا وبما أن هذا الرفض يلقى التأييد القوي من هيغل المرحلة الثانية، هيغل الذي كتب مقدمة **فلسفة الحق**، فان بيلنسكي تمسك بهيغل بكل قوة نفسه المندفعة*

رأينا بيلنسكي في « مرحلة الفختية » يعذبه تحققه من أن مثاله المجرد لا يجد تطبيقاً له على الاطلاق. وفي حماسته لهيغل أدار ظهره لـ « المثال » الذي لن يؤدي إلا إلى « عداء » لا جدوى منه تجاه « الواقع ». قال: « احشر أنفك في الأشياء التي لا تهمك، ولكن كن مخلصاً لقضيتك، وقضيتك هي حب الحقيقة... لتسقط السياسة، وعاش العلم ».

فما الأسئلة التي يتوقع « الفيساريون المتهور » أن يجيب عنها العلم الذي من أجله هجر السياسة؟ إن هذا يتضح من الأسطر التالية من رسالته إلى ستانكيفيتش:

---

* الرأي الذي ظهر في أدبنا حديثا أن « مصالحة » بيلنسكي مع « الواقع » تفسر « السمات النوعية لتاريخه الشخصي ». ولكن السمة الرئيسية لـ « التاريخ الشخصي لبيلنسكي » هو أن مطالبه النظرية لا يمكن أن تلبيها فلسفة هيغل في ذلك الوقت وكل السمات الأخرى سخرت فقط لدعم تلك المطالب العميقة.

« جئت إلى موسكو من القوقاز ، وجاءها باكونين أيضاً في الصيف درس فلسفة هيغل في الدين والقانون. فانفتح أمامنا عالم جديد القوة حق والحق قوة - أنا لا أستطيع أن أنقل إليك أي شعور اعتراني لدى سماع هذه الكلمات - إنه التحرر فهمت فكرة سقوط أعمالك وشرعية الغزاة. لقد فهمت أنه ليس ثمة قوة مادية عمياء، لا سيطرة للحربة والسيف، لا اعتساف ولا صدفة وانتهت وصايتي على الجنس البشري، وظهرت أهمية بلادي الأم بشكل جديد

إن الأسئلة التي توقع بيلنسكي من العلم أن يجيب عنها كانت الأسئلة نفسها التي توقع من قبل أن تحلها « السياسة ». ليس ثمة « تجريد » فيها إنها أسئلة ملموسة من التطور الاجتماعي: ماذا يفسر « سقوط الممالك »؟ هل الغزاة شرعيون؟ ما أساس سيطرة الحربة والسيف؟ وأخيراً - أهم هذه الأسئلة وأعمقها - هل تاريخ البشرية حقاً هو سيادة الصدفة فقط؟ إن السياسة الراديكادلية المعاصرة، والاشتراكية المعاصرة فقط يمكن أن يقدما اجابات مجردة عن تلك الأسئلة الملموسة: إنها أدانتا بعض الأحداث التاريخية التي لا تتعاطفان معها (مثلاً غزو شعب لآخر)، إلا أنهما لا تفسرانها ولم تكن الاشتراكية في ذلك الوقت قد تخلصت من المرحلة الطوباوية. أما فلسفة هيغل فعلى العكس، قدمت فقط اجابات ملموسة عن أسئلة تاريخية ملموسة. وفي تقديم هذه الاجابات اعتمدت على دراسة التاريخ ففي التاريخ لا تتناقض دائماً القوة مع الحق. هناك الجواب الشهير الذي قدمه سايز للمدافعين عن النظام القديم الذين أكدوا أن حقوق النبلاء الفرنسيين قائمة على الغزوات: « ماذا في ذلك؟ اننا بدورنا أيضاً سنصبح غزاة »، والطبقة الثالثة « غزت » فعلاً مركزها الجديد في المجتمع. كل من لا يعميه التعصب الارستقراطي سوف يوافق على أن « **قوة** » هذه الطبقة يدعمها « **الحق** »، ولا ينكر ذلك. وهكذا فان التعارض المبتذل بين الحق والقوة لا يمكن الدفاع عنه، طالما أنه يتخذ معنى خاصاً فقط في شروط اجتماعية معينة هي بدورها يفسرها مجرى التطور التاريخي. هذه الفكرة التي عبر عنها بيلنسكي بقوله « القوة حق والحق قوة » بدت له كأنها تحمل إليه انكشافاً ولكن لها في الحقيقة أهمية نظرية ضخمة، وحازت بنظره إلى جانب ذلك قيمة أخلاقية كبيرة: لقد عزته فرفعت الاحساس بالواقع الروسي البشع. وهذا هو السبب في أنه انجرف معها، جاعلاً منها أساس مقالته الشهيرة عن معركة بورودينو (اوتيشيستفيني زابسكي ١٨٣٩ الكتاب »).

الباعث على هذه المقالة هو النضال ضد النظرة المجردة في التاريخ التي تكون الحركة التاريخية بموجبها مشروطة بأفكار الناس. يقول بيلنسكي: «منذ التاريخ المعروف حتى يومنا لا يوجد ولم يوجد شعب تكون وتأسس نتيجة اتفاق واع متبادل العدد من الناس الذين عبروا عن رغبتهم في أن يكونوا جزءاً منه، أو وفقاً لفكرة أي شخص، مهما كان عظيماً». ومن المفيد أن بيلنسكي يتخذ مثالاً له مسألة نشأة الملكية. ففي رأيه يفسر الثرثارون البرجوازيون نشأتها بفساد الناس الذين تأكدوا أنهم عاجزون عن حكم أنفسهم، فخضعوا لإرادة فرد منحوه السلطة. يبدو له هذا التفسير تافهاً يقول: «كل شيء ليس له سبب من داخل ذاته، بل يأتي من «الخارج» الغريب، لا من «الداخل» نفسه، تنقصه العقلانية وبالتالي القدسية. إن قوانين الدولة الأساسية مقدسة لأنها الأفكار الأساسية التي ليست لأناس خاصين بل لكل الناس، وأيضاً لأنها بعد أن انقلبت إلى ظواهر، بعد أن أصبحت حقيقة تطورت ديالكتيكياً في حركة تاريخية، بحيث أن تغيراتها هي عناصر فكرتها الخاصة. ولهذا السبب فان القوانين الأساسية ليست قانوناً ابتكره انسان، بل ظهرت «قبل الزمن» ان صح التعبير، أما الانسان فقد صنعها واعترف بها فقط».

وعلى الرغم من بعض التخلف في استخدام المصطلحات الفلسفية، فإن هذا المقطع يسترعي اهتماماً أعظم. لقد كان بيلنسكي يبحث عن قاعدة لعقلانية الظواهر الاجتماعية. فأين وجدها؟ في الضرورة الداخلية: فقط تلك الظاهرة التي «سببها في ذاتها» أنها العقلانية. وبعكس ذلك فإن كل الظواهر التي ظهرت بسبب «خارجي» غريب عنها، هي ظواهر غير عقلانية، أي ظواهر لم ينتجها المنطق الداخلي للتطور الاجتماعي السابق. فقط تلك المؤسسات الاجتماعية التي «تتطور داخلياً في حركتها التاريخية» هي «عقلانية» ولذلك هي «مقدسة». ويمكن مناهضة هذا بأن «الخارج» الغريب عن الظاهرة المعنية له سبب كاف خاص به ولذلك لا بد من الاعتراف به رابطاً في عملية ضرورة أخرى. إن ما يسمى **المصادفات** التي يلمح إليها بيلنسكي بوضوح هنا إنما تقع في نقطة تداخل عمليتين ضروريتين أو أكثر. ولنأخذ مثالاً إن ظهور الأسبان في البيرو لا بد من أن يعد عرضياً من وجهة نظر منطق التطور الداخلي لدولة الانكيين، ولكن سببه كان اندفاع الأوروبيين وراء اكتشاف أراضٍ جديدة، وذلك الاندفاع يعتبر عرضياً من وجهة نظر التطور الداخلي للمجتمع

الأوروبي. إن هذا البرهان يكمل فكرة بيلنسكي أو لا ينفيها على الأقل. وقد بين تعبيراً عن هذه الفكرة أنه قادر على معالجة أصعب المهمات وأخطرها في السوسيولوجيا وكل خطوة خطاها العلم الاجتماعي إلى الأمام تثبت صحة تلك الفكرة.

ولنتابع. بالطبع ليس صحيحاً أن «القوانين» الاجتماعية الأساسية ظهرت «قبل الزمن، إن صح التعبير. إن هذا لا يؤكده إلا معتنق المثالية المطلقة التي فيها تسبق الأشكال المنطقية للحياة الحياة نفسها. إلا أن هذه مسألة أخرى، لا تخضع هنا لأي اعتبار، أما بالنسبة إلى بيلنسكي فقد عبر هنا أيضاً عن أطروحة صحيحة كل الصحة بالمعنى السوسيولوجي. وبترجمتها إلى اللغة الحديثة تعني أن المؤسسات الاجتماعية لم تظهر لأن أحداً أراد أن يقيم هذه المؤسسات وليس تلك، بل لأنها تلبي حاجات اجتماعية معينة ظهرت في عملية التطور التاريخي، وقررتها الحركة الحرّة التي تجبر «الإنسان الاجتماعي» على إقامة تلك المؤسسات. وحتى نفهم هذه الحقيقة يعني أن نتخلى عن الطوباوية إلى الأبد.

يقال عن زمن «مصالحته» مع الواقع إن بيلنسكي ضحى بالفردي من أجل «العام». وسوف نرى فوراً أنه كان مستعداً أن يلوم نفسه. إلا أن هذا اللوم قائم على سوء الفهم.

يقول بيلنسكي في المقالة ذاتها: «الإنسان خاص وعرضي في شخصيته، وضروري في روحه التي تعبر عنها شخصيته. ومن هنا كانت ثنائية وضعه وكفاحه: نضاله ضد «نفسه» وما هو خارج «نفسه»، الذي هو «غير نفسه»... وحتى يكون شخصاً حقيقياً، وليس وهماً، عليه أن يكون تعبيراً خاصاً عن العام، أو تجلي المحدود في اللامحدود. وعليه نتيجة هذا أن يدين شخصيته الذاتية، معترفاً أنها زيف ووهم، وأن يذعن لما هو عام شامل، معترفاً أنه الحقيقة والواقع. ولكن بما أن هذا العام أو الشامل لا يوجد فيه، بل في العالم الموضوعي، فعليه أن يرتبط ويندمج فيه، حتى يتمثل فيما بعد العالم الموضوعي في امتلاكه الذاتي، حتى يصبح فرداً ذاتياً، ولكنه الآن فرد حقيقي لا يعبر عن خصوصية الصدفة، بل عن العام الشامل - باختصار ليصبح روحاً متجسدة».

بيلنسكي «يضحي» فقط بالفرد الذي «خصوصيته» و«صدفته» تصارعان ضد «الشامل أو العام». ولكن من الخطأ الاعتقاد أن مثل هذا التناقض في رأيه محتوم.

يمكن أن يكون الفرد تعبيراً خاصاً عن العام، أي يمكن أن يعبر في كفاحه عن الأهداف العظيمة في عصره. يدعو بيلنسكي مثل هذا الفرد «شخصاً واقعياً» أو «الروح المتجسدة». ولم تكن لديه أدنى رغبة في «التضحية» بهذا الفرد. بالعكس فعواطفه الحارة كانت بجانبه.

فعلاً إن «الشخص الواقعي» أو «الروح المتجسدة» عليها أن «تذعن» في رأي بيلنسكي في ذلك العصر، في الواقع المحيط به، معترفاً أنها التعبير الضروري عن «الشامل أو العام». وفي مقالته «نقد مينزل وغوته» يكتب: «العقل لا يخلق الواقع، بل يصبح واعياً به، ولذلك اتخذ كبدهيه تقول إن كل ما هو كائن ضروري وشرعي وعقلي. إنها لا تقول إن شعباً ما عظيم بينما كل الشعوب الأخرى التي لا تشبهه وضيعة، وأن حقبة ما في تاريخ شعب أو تاريخ إنسان عظيمة بينما أخرى سيئة، كل الشعوب وكل الأحقاب متساوية في العظمة والأهمية لأنها تعبيرات عن الفكرة المجردة التي تتطور ديالكتيكياً فيها ولذلك فإن قيام الممالك والشعوب وسقوطها ليس عرضاً بل ضرورة لازبة، وحتى مرحلة الفساد الروماني ليست موضوعاً للإدانة، إنها موضوع للبحث». تظهر هنا خطيئتان واضحتان فيما يتعلق بديالكتيك هيغل. أولاً ليس كل ما هو موجود هو ضروري أي واقعي. فنحن عرفنا من قبل أن «الواقعي» عند هيغل أسمى من الموجود فقط. ثانياً في جعل «الفساد الروماني» موضوع بحث توجب على التلميذ المخلص لهيغل أن «يذعن» له. على العكس كان عليه أن يدينه لأنه بالضبط نتاج تفكك القديم، الواقع المحتضر. هاتان الخطيئتان تسمان مزاج بيلنسكي وطريقة تفكيره في ذلك الوقت. على أي حال بعد ما قيل أعلاه حول الطبيعة الثنائية للفلسفة الهيغلية لا يحتاج المرء أن يكرر بيلنسكي اقترف هذه الأخطاء بسبب عدم فهمه هيغل، بل بسبب التمثل الصحيح جداً لتلك الناحية من فلسفته التي عبر عنها في مقدمة كتابه **فلسفة الحق**.

وبعدما «أذعن» بيلنسكي للواقع، يقف فترة على أرض ثابتة ويجرب الإحساس الذي تركه طويلاً من الطمأنينة الأخلاقية. يقول إن الواقع يقوده إلى الواقع وأن كل فرد الآن مسرور منه، وهو مسرور من كل فرد. نحن نعلم أنه حصل على مركز في مؤسسة مساحة الأرض وابتهج بالنشاط العملي الذي انكشف أمامه. إلا أن هذا المزاج الرائق لم يستمر طويلاً ففي تشرين الأول ١٨٣٩، أي تماماً قبل نشر مقالته عن

معركة بورودينو، اعترف بيلنسكي نفسه أنه عانى من اضطراب أخلاقي حاد يقول: « بالنسبة إليّ لم يوجد أحد لأنني أنا نفسي ميت ». هذا « التفكك » الجديد كان سببه بصورة جزئية حقيقة أن من الصعب عليه أن يعيد المثال القديم الذي كان « مجرداً إلا أنه عاشق حرية. وقد وصف باناييف وهرزن في مذكراتهما المحادثات الدرامية المثيرة بين بيلنسكي وأصدقائه بعد « مصالحته مع الواقع والحياة التي لم تكن على ما يرام لعبت أيضاً دوراً في حالة الكآبة هذه. على أي حال بإمكان بيلنسكي تحمل كل هذا بشكل كاف، لو أن فلسفة هيغل، كما تمثلها في ذلك الوقت، قادرة أن تحل القضايا التي ضايقته. إلا أن القضية الكبرى كانت أن تلك الفلسفة لم تستطع أن تحلها وفي رسالة إلى بوتكين الذي كان قد انتهى في شباط ١٨٤٠ يقول بيلنسكي: إنه مضحك ومزعج، حب روميو وجولييت شيء عام، ومع ذلك فإن حب القارىء أو حاجته إلى الحب شيءَ خاص ووهمي الحياة في الكتب، ولا شيء في الحياة.

« لا شيء في الحياة »- لماذا؟ متى قال هيغل ذلك؟ أبداً فإذا كانت مهمة المفكر معرفة « الواقع » وتأمله، فلن يبقى له سوى « الحياة في الكتب ». إن الاستنتاجات المطلقة لهيغل لم تقنع بيلنسكي، وعدم قناعته بها دفعه إلى « التفكك الذي أمل أن يتخلص منه بـ « الإذعان » للواقع.

تمنى بيلنسكي أن تبين له الفلسفة الطريق إلى السعادة البشرية. وأكدت فلسفة هيغل (نكرر ونرجو أن نتذكر هذا كما تمثلها بيلنسكي في ذلك الوقت) أن الهدف « المطلق » للحركة التاريخية قد تحقق وأن مناقشة السعادة الإنسانية بعد ذلك حديث لا مبرر له. أذعن بيلنسكي في ساعة يأس لهذا التأكيد أيضاً، ولكن كان ضد طبيعته ذلك الاستمرار طويلاً من دون احتجاج وتوضح مراسلاته أنه من هذه الجهة بالذات تخلى عن « قبعة إيغور فيودوروفيتش الفلسفية ». وفي رسالة إلى بوتكين في ١٣ حزيران ١٨٤٠ يقول إنه يتفق « مع الفرنسيّين » الذين مدحهم حتى رفعهم إلى أعلى عليين، كما نعرف، في المرحلة الفختية، والذي وقف ضدهم أثناء شهر عسله مع حماسته الهيغلية. يقول: « أهميتهم كبيرة جداً في التاريخ العالمي إنهم لا يركضون وراء المطلق والمحسوس، بل يعيشون ويعملون في ميدان اختصاصهم ». وجنباً إلى جنب مع هذه المصالحة مع الفرنسيين، يظهر منه كره للواقع الروسي، الذي كان من قبل عزيزاً على قلب بيلنسكي. ونقرأ في المقالة ذاتها: « حي للمواطن، للروس أصبح كئيباً: لم

يعد محبة لا حدود لها، بل شعور من الألم. إن كل شيء جوهري في شعبنا رائع، ولكن التحديد يختلف فكل شيء قذر شرير وضيع فكيف «يذعن» المرء لهذا النوع من الواقع؟ وهكذا لم يذعن بيلنسكي له أبداً وفي رسالة في ٤ تشرين الأول ١٨٤٠* يقول: «اللعنة على رغبتي الآثمة في مصالحة الواقع الآثم. عاش شلر المدافع النبيل عن البشرية، ونجمة الخلاص، ومعتق المجتمع من العصبيات الدموية للتقاليد عاش العقل ولتسقط الجهالة، كما قال بوشكين العظيم. إن الفرد الإنساني الآن أسمى في نظري من التاريخ والمجتمع والبشرية. تلكم هي فكرة القرن وعقله. يا إلهي إني أخاف من التفكير بمزاجي السابق - لا بد أن أكون محموماً أو معتوهاً - إني أشبه بالناقه الآن».

رسائل بيلنسكي خلال مرحلة مخاصمته الجديدة والأخيرة للواقع تركت بلهجتها الانفعالية العاطفية انطباعاً قوياً بحيث أن القراء، تحت تأثيرها فقدوا القدرة على رواية النواحي النظرية للقضية. وهكذا ما يزال كثير منهم مقتنعين أن بيلنسكي بعد «أن ألقى قبعة ايغورفيودوروفيتش الفلسفية» تخلى عن فلسفة هيغل كلياً ولكن هذا ليس صحيحاً اطلاقاً

من قبل عقب تمرده على «القبعة» عندما كان يدين مقالاته عن بورودينو ومينزل، تابع بيلنسكي اعتبار مرحلة حماسته لهيغل على أنها بداية حياته الروحية. إنه يسمي ذلك الزمن «أعظم زمن هام» في حياته. وفوق ذلك إنه لم يقم بإدانة مقالته عن معركة بورودينو بلا قيد ولا شرط. يقول: «الفكرة التي حاولت أن أطورها في المقالة عن كتاب غلينكو مقالات عن معركة بورودينو صحيحة من حيث الأساس». ولكنه الآن يعترف أنه فشل في استخدام هذه الفكرة الصحيحة من حيث الأساس: «لقد طورت أيضاً فكرة النفي باعتبارها حقاً تاريخياً أولاً وحقاً مقدساً من دونه تنقلب البشرية إلى مستنقع آسن راكد». وحتى يطور فكرة النفي كان عليه أن يكتشف بأي طريقة يؤدي الواقع من خلال تطوره إلى نفي نفسه. ومهما كان بيلنسكي عظيماً فإنه لا يستطيع أن يكتشفها لسبب بسيط وهو أنه لا يملك المعطيات الأساسية لذلك: إنها لم

---

* إلى بوتكين ثانية. إننا ننبه القارىء أن جميع الرسائل المقتبسة هنا من غير تسمية المرسل إليه كتبها بيلنسكي إلى بوتكين الذي كان واحداً من أصدقائه في موسكو.

تكن قد توفرت بعد في الواقع الروسي الذي لم يكن متطوراً في ذلك الوقت. في الغرب أيضاً كانت أفضل العقول التقدمية (التي مثلها الجناح اليساري للهيغلية، وفيما بعد ماركس وانجلز) قد بدأت فقط برسم الطريق الذي سيؤدي إلى فهم عملية التطور الداخلية للمجتمع الحديث. وهذا هو السبب في أن بيلنسكي، وقد تمرد على «القبعة»، طفق «يطور فكرة النفي» ليس من خلال التحليل الديالكتيكي للواقع، بل من خلال اللجوء إلى المفهوم المجرد للفرد الإنساني. كتب، وهذه المرة في إحدى رسائله، لأن الرقابة لم تكن تسمح بظهور ذلك في المقالات: «آن الأوان للفرد الإنساني، البائس بما فيه الكفاية، أن يتحرر من القيود المرهقة للواقع غير العقلي، من فكرة الغوغاء وتقاليد العصور البربرية». وكما هي العادة انجرف وراء الفكرة الجديدة التي استولت عليه. يكتب: «الفرد الإنساني أصبح النقطة التي أخاف أن تأخذ بلبي. لقد بدأت أحب البشرية مثل مارات: فأجعل أصغر أجزائها سعيداً، وأعتقد أنني سأدمر الباقي بالحديد والنار». وتحت تأثير هذا الحب للبشرية الذي بالطبع لم يتركه ولكنه اتخذ شكلاً جديداً، سرعان ما أصبح «الفيساريون المتهور» اشتراكياً وفي رسالة في ٨ أيلول ١٨٤١ نقرأ: «وصلت إلى رأي متطرف جديد: فكرة **الاشتراكية**، التي أصبحت بالنسبة إليّ فوق كل الأفكار ألفباء الإيمان والمعرفة... إنها (بالنسبة إليّ) استوعبت التاريخ والدين والفلسفة. ولذلك أفسر بها حياتي الجديدة وحياتك وحياة كل أولئك الذين صادفتهم في مسيرة حياتي..».

ربما اعتقد المرء أن هذه الفكرة الجديدة يمكن أن تقدم لبيلنسكي الطمأنينة الأخلاقية التي طالما تشوق إليها يا للأسف، في الرسالة ذاتها نسمع هذه النغمات القاتمة: «ليس ثمة نشاط من غير هدف، ولا هدف من دون مصلحة، ولا حياة من دون نشاط. إن مصدر المصالح والأهداف والنشاط هو جوهر الحياة الاجتماعية... إننا شعب بلا وطن - لا بل أسوأ من كوننا بلا وطن، إننا شعب وطنه وهم، فهل نعجب إذا كنا نحن أوهاماً؟».

من أين جاءت هذه النفحات القاتمة؟ لقد كان بيلنسكي مقتنعاً بالفكرة المجردة للاشتراكية. وليس عبثاً أنه كره التجريد وقد تلقى درساً رائعاً من المنطق الهيغلي. إنه لا يستطيع أن ينسى أن «جوهر الحياة الاجتماعية» يستخدم على أنه مصدر المصالح والأهداف والنشاط. فماذا يقصد بـ «جوهر الحياة الاجتماعية»؟ لا شيء سوى مجموع

العلاقات الاجتماعية. وعندما يقول أن هذا «الجوهر» يسمح بتجلي طموحات الإنسان ونشاطه، بمعنى أنه لا يعتبر سوى **هذه** النزوعات **فقط**، **وهذه** النشاطات **فقط** المتجذرة في المجرى الموضوعي للتطور الاجتماعي على أنها جادة ومثمرة. إن «جوهر» الحياة الروسية كان معادياً للطموحات التقدمية والنشاط التقدمي. ولذلك أصبح أنصار التقدم الروسي «أوهاماً»

إننا تعرفنا على كلمة «وهم» تماماً من قبل. لقد سمعناها من بيلنسكي في زمن حماسته لفيخته. لقد استخدم هذه الكلمة عندئذٍ ليشير إلى الواقع وفي المرحلة الثانية من تطوره، أي عندما «أذعن» للواقع أعلن أن المثال الذي يتناقض مع هذا الواقع هو وهم. وفي الفصل الثالث من مسرحيته تمرد ثانية على الواقع، إلا أن الذين نفوا الواقع باسم المثال لا يزالون يظهرون له على أنهم أوهام. إن الفرق الوحيد هو أنه من قبل، عندما كان تحت تأثير «القبعة» المشهورة، كره تلك «الأوهام»، بينما الآن، عندما ألقى القبعة، يتعاطف معها بشدة ويعتبر نفسه واحداً منها وهذا يعني أن تمرده على الواقع لم «يصالحه» تماماً مع المثال. فما القضية هنا؟

يعترف بيلنسكي بالعدالة الأخلاقية للمثال، إلا أنه غير قادر على ربطها بـ«جوهر» الواقع الروسي. ولذلك يثبت مثاله مرة أخرى أنه مجرد، وبالتالي عاجز يقول بيلنسكي في المقالة ذاتها: «الواقع أيقظنا وفتح أعيننا، ولكن لأي غرض؟ الأفضل لو أنه أغمضها إلى الأبد وأطفأ الرغبات القلقة في القلب الطماعة للحياة بالنوم التافه...

وإذا لا يرى عنصراً موضوعياً في روسيا المعاصرة قادراً في تطورها على نفي «الواقع الآثم»، طفق بيلنسكي يشعر بحقد حتى على الشعب الذي بالطبع تعاطف معه بكل جوارحه. وفي رسالة إلى بوتكين، بمناسبة موت كولتسوف، الذي طالما كابد الكثير من طغيان أبيه، يتساءل بيلنسكي: «هل يلام الأب لأنه موجيك؟ وهل قدم شيئاً فوق العادة؟ أنا لا أصلي للذئاب والدببة أو الكلاب المسعورة أو التجار أو الموجيك الروس أو للقضاة ورجال البوليس الروس، ولكني لا أشعر بالحقد الشخصي على أي منهم»*

---

* مثل هذه المغامرات ضد «الموجيك» أدت إلى ظهور رأي في أدبنا هو أن بيلنسكي في الأربعينات انتمى إلى الاتجاه المعادي للديمقراطية في حلقة أنصار الغرب (أو على أي حال اتجاه لا يهتم ببؤس الشعب) بينما

نرى أيضاً بيلنسكي في حالة من « التفكك » التي ما فتئت تضنيه منذ مطلع حياته الواعية. ويحاول أن يحمي نفسه من هذه الأمراض، فيعزي نفسه بأمل التطور الكبير في « الشخصية الروسية » في المستقبل. كتب في رسالة إلى بوتكين في آذار ١٨٤٧ « إن الشخصية الروسية لا تزال جنيناً، ولكن كم من السعة والقوة في طبيعة هذا الجنين، كم هـو اعتسافي ومرعب ذلك الجانب الأحادي والعقل الضيق فيها ولا تعتقد أني متعصب في هذه المسألة. لا لقد وصلت إلى هذا الحل (لنفسي) عبر طريق مؤلم طويل من الشك والنفي ». كان هذا الحل بالنسبة إليه ضمانة لمستقبل كل الشعب الروسي. في مقالته « نظرة في الأدب الروسي في ١٨٤٦ » يقول: « إننا لا نستطيع التأكيد أن الشعب الروسي مقدر له أن يستوعب ويتمثل كل ما هو غريب عنه، بل نجرؤ على التفكير أن هذه الفكرة كفرضية مطروحة بلا تعصب ولا دعاية ذاتية، ليست بلا أساس... ».

٥

كان ذلك الطريق من تعظيم الظنون والنبوءات هو ذاته الذي سار فيه أنصار السلافية والنارودنيك. يقول كافيلين أنه حضر مرة محادثة عبر فيها بيلنسكي عن فكرة سلافية وهي أن روسيا ستكون قادرة على حل التضاد التاريخي بين العمل ورأس المال أفضل من الغرب. وقد فسحت المجال لهذه الأحلام، الاشتراكية الطوباوية التي أصبح بيلنسكي ميالاً إليها بعد تخليه عن « القبعة » الهيغلية. وقد كان بيلنسكي، بسبب طبيعة ذهنه الديالكتيكية متحمساً لها كثيراً في مقالة « نظرة في الأدب الروسي في ١٨٤٦ » المشار إليها أعلاه، يدافع عن إصلاحات بطرس الأكبر، ضد هجمات أنصار السلافية، ويلاحظ: « مثل تلك الأحداث في حياة الشعب أكبر من أن تكون بفعل الصدفة، وحياة الشعب ليست زورقاً خفيفاً يمكن لأي إنسان أن يوجهه وقتما يشاء بضربة خفيفة من المجداف. وبدلاً من التفكير في المستحيل والسخرية من الذات

غرانوفسكي وهرزن مثّلا اتجاه « أصدقاء الشعب » في هذه الحلقة. (أنظر مقالة فيترينسكي (ت ن غرانوفسكي - أنصار الغرب وأنصار السلافية في ١٨٤٤ - ١٨٤٥). بينما نميل نحن، على العكس، إلى الاعتقاد أن بيلنسكي، لكونه متطرفاً في كل مواقفه، شعر بتعاطف عميق نحو المضطهدين أكثر من الأعضاء الآخرين في حلقة أنصار الغرب.

والتدخل المتفاصح في المصائر التاريخية، من الأفضل الاعتراف بالواقع الذي لا يقاوم لما هو موجود والعمل على أساسه، استرشاداً بالعقل والحس العام وليس بأوهام من نمط مانيلوف». وفي مقطع آخر، إذ يرى بوضوح النواحي السلبية للإصلاحات البطرسية، يضع هذا التحفظ: «ولكن علينا ألا نتوقف عن الاعتراف بصحة هذه الواقعة أو تلك، بل علينا أن ندرس أسبابها، على أمل العثور في الإثم نفسه على وسائل الخلاص منه». إنه يلح أن الوسائل لمكافحة النتائج السيئة للإصلاحات البطرسية يجب أن نبحث عنها في الإصلاحات نفسها، أي، في العناصر الجديدة التي دفعتها إلى الحياة الروسية. تلك هي النظرة الصحيحة للمسألة، وتعبيراً عنها يرتفع بيلنسكي ثانية إلى الذروة النظرية نفسها التي وصل إليها في معالجة القضية، في مقالة عن معركة بورودينو، بتفسير الواقع عبر مجرى التطور التاريخي الذي أوجده. وبينما ظل عند هذا المستوى، رأى بوضوح تام مدى تهافت «المثال المجرد» وعيوب الطريقة المجردة في التفكير قال: «الطريقة غير المشروطة أو الطريقة المطلقة في التعليل هي الأسهل، ولكن لا يمكن الاعتماد عليها، إنها تسمى الآن الطريقة المجردة». إن خطيئة أنصار السلافية، الذين كان يحاربهم بضراوة في ذلك الوقت، كانت في نظره **خطيئة طرائقية** أولاً وقبل كل شيء: «إنهم يجرون أمام الزمن، ويحكمون على عملية التطور بنتائجها، يريدون رؤية الثمار قبل البراعم، وإذ يجدون الأوراق بلا مذاق يعلنون أن الثمرة فاسدة ويقترحون نقل زراعة غابة بكاملها ممتدة على مساحات واسعة إلى مكان آخر وحراثتها بطريقة مختلفة. وفي رأيهم أن هذا ليس سهلاً ولكنه ممكن». هذه الملاحظة النقدية تمكننا من تشكيل مفهوم عن موقف بيلنسكي من النارودنيك، الذين كرروا عن قصد الخطيئة الطرائقية لأنصار السلافية.

لا شك أنه في نهاية حياته اتخذ موقفاً سلبياً تماماً من الاشتراكيين الطوباويين، الذي قال عنهم وقتها إنهم ولدوا من أوهام عبقرية روسو. ولويس بلان، الذي قدره تقديراً كبيراً جداً في وقت ما، يقارنه الآن بشيفيريوف* ولا بد من أن نلاحظ أن رأي

---

* بسبب موقفه السلبي تجاه فولتير وفيما يتعلق بهذا الموقف يعبر بيلنسكي في رسالته إلى أننكوف في ١٥ شباط ١٨٤٨ عن ذاته بحيوية قوية! «انني أقرأ الآن روايات فولتير، وفي كل دقيقة أبصق في وجه ذاك الغبي، ذلك الجحش، ذلك الوحش لويس بلان».

لويس بلان بفولتير كان في نظر بيلنسكي صحيحاً بحد ذاته، ولكنه مشوه لحقيقة أنه يفتقد المنظور التاريخي. وبيلنسكي الآن يركز كل جهده على شرح المنظور التاريخي الذي سيمكنه من تقديم أساس ثابت لآماله في المستقبل. ويتضح هذا من رسالته إلى آننكوف في ١٥ شباط ١٨٤٨ هذه الرسالة هامة في تاريخ تطوره الفكري الذي نعتقد أن من الضروري أن نقتبس أطول مقطع منها:

يقول بيلنسكي: «كنت أقرأ اعتراف روسو، وأشعر الآن، بعد الحكم على هذا الكتاب، وأيضاً بسبب الزخرفة الدينية للحمير، بالاشمئزاز الجارف لهذا الجنتلمان... ولكن يا للانسان النبيل فولتير هذا يا للتعاطف الحار مع أي شيء انساني معقول، مع مأزق الشعب البسيط. كم قدم من أجل الانسانية. صحيح أنه يسمي أحياناً الشعب الغوغاء الآثمة، ولكن ذلك بسبب جهالة الناس وخرافاتهم ووحشيتهم وتعطشهم للدماء، وحبهم للتعذيب والاعدامات. وبالمناسبة أقول لك إن صديقي المتدين وأنصار السلافية ساعدوني على ترك ايماني الصوفي بالشعب. اين ومتى حرر الناس أنفسهم؟ كل شيء كان يتم تحقيقه عبر الأفراد. وعندما دعوتك محافظاً في مجادلاتي معك عن البرجوازية، كنت حماراً مضاعفاً، وكنت أنت مثقفاً. إن كل مستقبل فرانسا في أيدي البرجوازية؛ وكل التقدم يعتمد عليها وحدها ويمكن للشعب أن يلعب دوراً مساعداً سلبياً أحياناً وعندما قلت في حضرة صديقي المتدين أن روسيا تحتاج بطرس أكبر الآن، هاجم هذه الفكرة كأنها زندقة، قائلاً إن على الشعب أن يفعل كل شيء بنفسه. يا للسذاجة؛ يا للتفكير الأركادي... لماذا لا نفترض أن الذئاب التي تعيش في الغابات الروسية سوف تتحد في دولة حسنة التنظيم، فتوطد أولاً ملكية مطلقة، ثم ملكية دستورية؛ تصبح أخيراً جمهورية؟ لقد استغرق بيوس التاسع سنتين فقط ليبين أي رجل عظيم هو لبلاده. وقد ناقشني صديقي المتدين أن روسيا سوف تكون أفضل كثيراً بمن دون البرجوازية. ولكن من الواضح الآن أن العملية الداخلية للتطور الداخلي في روسيا سوف تبدأ فقط عندما تتحول طبقة النبلاء إلى برجوازية. وبولونيا هي أعظم برهان كيف تعمل دولة قوية من دون أن تكون فيها برجوازية».

يبدو أن بيلنسكي يتابع التمسك بالنظرة المجردة للفرد الانساني. وذلك ما تثبته الكلمات التالية: «كل شيء يتم تحقيقه عبر الأفراد»، واعتقاده أن روسيا بحاجة إلى

بطرس أكبر ولكن ما الذي رمى إليه بالضبط؟ **فقط ليقدم دفعاً للتطور الاقتصادي في روسيا. وتلك هي** السمة الهامة في نظرية بيلنسكي الجديدة. **إن مستقبل التطور في روسيا الآن، كما يؤمن، يعتمد على تطورها الاقتصادي**: إن التطور الحضاري في روسيا يتطلب انتقالاً من النبلاء إلى البرجوازية. ويمكن أن نرى الآن أن النتائج الاقتصادية لاصلاحات بطرس التاريخية كانت كافية لتطوير روسيا في الطريق الرأسمالي. ولكن لا نظن أن سلاطة بيلنسكي هي من أجل ذلك، اننا نعتقد أنه حدد تماماً حل المصير المستقبلي لروسيا بصورة صحيحة باعتبارها قطراً زراعياً*

ولكن لم يكن صحيحاً أن الشعب، أي البروليتاريا محكوم عليها أن تبقى أبداً أداة سلبية بيد البرجوازية. لم تكن هذه النظرة صحيحة فيما يتعلق بأوروبا الغربية، ولم تكن صحيحة فيما يتعلق بروسيا أيضاً إن حتمية تطور الرأسمالية في هذه البلاد لا تحكم على الطبقة العاملة بالسلبية: فلأول مرة سنحت لها فرصة - وفرصة كبيرة جداً للقيام بنشاط تاريخي مستقل. وهنا ليست خطيئة بيلنسكي كبيرة كما يمكن أن تبدو للوهلة الأولى. يجب أن ننظر إليها أيضاً بالتطور التاريخي حقاً، إن الاشتراكيين الطوباويين الذين يقارنهم بيلنسكي الآن بأنصار السلافية أسندوا لـ «الشعب» دوراً سلبياً جداً في تعاليمهم النظرية: فآمالهم أيضاً تعلقت بالطبقات العليا فقط. الاشتراكية العلمية وحدها حددت بدقة الدور الذي يلعبه «الشعب» في التطور التقدمي للمجتمع الحديث. ولم يعش بيلنسكي ليرى اليوم الذي تظهر فيه الاشتراكية العلمية نظرية متماسكة. ولكنه حالما اهتم بالنشاط الأدبي دفعه ذهنه الوقاد إلى مهمات نظرية للحل الصحيح الذي التقى فيه مع الاشتراكية العلمية. وهذا هو بالضبط السبب في أنه لم يستطع التعايش بسلام طويلاً مع «المثال المجرد». قال: «كل قادتنا هم موسى ويشوع». إنه نفسه يدعى موسى لأنه يحاول أن يقود نفسه وأشياعه الأيديولوجيين من برية «المثال المجرد».

---

* كتب هرزن في يومياته في ١٧ أيار ١٨٤٤ أن بيلنسكي نظر إلى العالم السلافي بيأس من دون أن يفهمه. وعلينا الآن أن نقول أن بيلنسكي أصح من هرزن، فقد حدد الظروف الضرورية للمزيد من التطور في روسيا خاصة ولدى السلافيين عامة.

٦

فلنلاحظ أولاً وقبل كل شيء، انطلاقاً من آراء بيلنسكي الأدبية، أن الفلسفة الألمانية أثرت فيها تأثيراً حاسماً مثلما أثرت في آرائه الاجتماعية. إن مؤرخي أدبنا الذين وجدوا أن حماسة بيلنسكي لهيغل كان لها تأثير ضار على تطور مفاهيمه الجمالية، كانوا على خطأ كبير. والحقيقة أن أقوى نقاط تلك المفاهيم كانت متجذرة كلياً في الفلسفة الألمانية، وبشكل خاص في نظام هيغل الفلسفي.

إن تأثير الفلسفة الألمانية في تطور نقدنا الأدبي بدأ يظهر حتى قبل ظهور بيلنسكي على المسرح. وهكذا فان سابقه المباشر في حقل النقد، نادزدين، يعتبر بحق رائد الأفكار الجمالية لشلنج في أدبنا حتى قبل نادزدين كان ثمة كتاب في بلادنا تحققوا أن على المرء أن ينظر بالضبط في الفلسفة الألمانية للاسترشاد في شرح الرأي الصحيح عن الوضع ومهمات الأدب الروسي. وقد قال فينيفيتينوف، المتوفي في آذار ١٨٢٧، في ملاحظة «بعض الأفكار عن خطة الصحيفة»: «وهكذا فالفلسفة وتطبيقها على كل العصور في الفن والعلوم - وهي الموضوعات التي تسترعي اهتمامنا الخاص، الموضوعات التي كانت أهم لروسيا بسبب أنها لا تزال بحاجة إلى أساس ثابت للفنون الجميلة ويمكن أن تجد هذا الأساس، هذه الضمانة لأصالتها، وبالتالي لحريتها الأخلاقية في الأدب، في الفلسفة وحدها، التي تضطرها إلى تطوير قواها وتكوين نظام من التفكير». والملاحظة نفسها تفسر لماذا انجذب المفكرون في ذلك الوقت إلى الفلسفة الألمانية. لقد واجه فينيفيتينوف مسألتين: «ما القوى التي تحرك روسيا نحو غاية التنوير؟ أي مستوى وصلت بالمقارنة مع الشعوب الأخرى في هذا الحقل المشترك؟». ولم يجب الأدب الروسي عن تلك الأسئلة لم يشر أحد من «جمهور كتابنا السعيد الحظ»، حسب تعبير فينيفيتينوف، حتى إلى أهميتها ولم تتناول بالطبع الفلسفة الألمانية تلك الأسئلة، باعتبارها أسئلة خاصة بروسيا، ولكنها قدمت طريقة من المأمول أن تؤدي إلى حلها والتزاماً بنظرة التطور اعتبرت أدب أي شعب تعبيراً عن «روحه» التي تؤلف بدورها مرحلة من تطور المطلق. ولذلك حتى نكون رأياً صحيحاً في الأدب لشعب ما يعني أن نصل إلى فهم «روحه» أي، دوره التاريخي. ويمكن للمرء أن يرى أن الآراء الأدبية لأولئك الذين تمثلوا الفلسفة الألمانية كانت وثيقة الصلة بآرائهم التاريخية

الفلسفية، والصحفية أيضاً فلا عجب إذن أن بيلنسكي الذي، كما رأينا، امتلك بصيرة العبقري السوسيولوجي، أثبت أنه أعمق مفكر بين نقادنا

إن تأثير الفلسفة الألمانية ملحوظ من قبل في مقالته الأولى «أحلام أدبية، المكتوبة قبل أن يصبح متحمساً لهيغل بكثير يقول: «كل شعب يهفو إلى قانون صارم للعناية الالهية، لا بد أن يعبر من خلال حياته عن جانب معين من حياة البشرية، فان لم يكن الأمر كذلك فان ذلك الشعب لا يعيش بل يتكاثر، ولا يخدم وجوده أي شيء». وبالتالي فان أدب أي شعب (إذا كان يستحق اسم أدب) يتألف في رأي بيلنسكي من «مجموعة الأعمال الأدبية التي هي ثمرة الوحي الحر والجهود الملموسة (بدون تنظيم مسبق) لأناس خلقوا للفن ولا حياة لهم خارجه، لأناس يعبرون وينتجون في ابداعاتهم روح الشعب التي تجعلهم يولدون ويكبرون، أناس يعيشون حياة الشعب ويتنفسون روحه، معبرين في مؤلفاتهم الخلاقة عن الحياة الداخلية في نبضها وأعمق أعماقها». إن الأدب الروسي ليس بعد تعبيراً عن الحياة الداخلية للشعب الروسي. ثمة عدد معين من الكتاب الموهوبين وعدد معين من المؤلفات. إن الاستثناءات مهما كانت رائعة تثبت القاعدة العامة. لقد كان أدبنا تقليداً للآداب الغربية. وهذا هو السبب في أن بيلنسكي يقول «يكرره بغبطة وفرح»، ذلك لأننا بلا أدب. انه يرى من واجبه الأخلاقي الالحاح على هذا يقول: «الفاقة النبيلة أفضل من الثروة الخيالية. سوف يأتي وقت عندما يغمر التنوير كل روسيا، وسوف يتخذ الخلق الثقافي للناس شكلاً أوضح، وسوف يضع فنانونا وكتابنا طابع الروح الروسية على كل أعمالهم. ولكن ما نحتاجه اليوم هو الدراسة، والدراسة، والمزيد من الدراسة».

متى يكون لدينا أدب؟ سوف يظهر عندما يكون لدينا مجتمع فيه يتم التعبير عن «الشعب الروسي الجبار». ليس هذا مجرد برنامج أدبي، إنه أيضاً برنامج لتطور اجتماعي منشود. ولذلك من الواضح أن بيلنسكي يربط بصورة واعية حل مسألة أدبنا بمسألة مجرى تطورنا الاجتماعي منذ أيام بطرس الأكبر وهكذا يحاول بيلنسكي أن يجد أساساً تاريخياً فلسفياً أو، كما يمكن أن نقول الآن، أساساً سوسيولوجياً لأحكامه الأدبية.

إن اتخذ الأدب تعبيراً عن حياة الشعب، فان المطلب الأول الذي تضعه أمامه الأزمة هو الصدق. من هذا يتضح كم كان ملائماً تأثير الفلسفة الألمانية في تطور نقدنا.

لقد هيأت الفلسفة الألمانية النقاد لتقدير صحيح للواقعية التي ازدهرت ازدهاراً غنياً في أدبنا بظهور غوغول. إن الغبطة التي حيا بها بيلنسكي غوغول معروفة جداً في مقالته المشهورة «حول الرواية الروسية وروايات غوغول» التي ظهرت في ١٨٣٥ في التلسكوب، يبرز بيلنسكي سمات تلك الروايات: «الصدق المطلق للحياة (في روايات غوغول) وثيق الصلة ببساطة التخيل. إنه لا يطري الحياة ولا ينقصها حقها، انه يبين كل ما هو انساني وجميل فيها، ولكن في الوقت نفسه لا يخفي في النهاية قبحها. وفي كلتا الحالتين هو صادق مع الحياة إلى أقصى درجة. إنه يقدم صورة حقيقية للحياة، مشابهة بارزة لها، من التعبير عن أعماقها الأصيلة، حتى النمش في الوجه». إلا أن الحياة تختلف اختلافاً كبيراً في تجلياتها والمرء لا يستطيع أن يطالب كل الفنانين أن يتخذوا موقفاً واحداً منها: ففنان يفسر الحياة من جهة، وآخر يفسرها من جهة أخرى. يقول بيلنسكي: «إذا كان هان الايسلندي ممكناً في الطبيعة، فأنا لا أفهم فعلاً لماذا هو أسوأ من كارل مور أو حتى المركيز بوزا لقد أحببت كارل مور كرجل، وأعجبت ببوزا كبطل، وكرهت هان الايسلندي كوحش، ولكنهم جميعاً متساوون في الجمال عندي كابداعات التخيل، كظواهر خاصة للحياة عامة». في هذه الأسطر المأخوذة أيضاً من «أحلام أدبية»، من المفيد أن نلاحظ موقف بيلنسكي من شلر: إنه «يحب» بطله كارل مور و«يعجب» بالمركيز بوزا. فهل اعتبر إذن اللصوص ودون كارلوس تصويراً حقيقياً للحياة؟ لا أبداً. إنه يعددهم كما يعدد «معظم مسرحيات شلر»، من بين المؤلفات «التي موضوعها الحياة الحقيقية، ولكن التي فيها يعاد خلق هذه الحياة، أو تحويلها اما نتيجة لبروز فكرة أو موهبة احادية الجانب، ان كانت قوية، أو من تدفق العاطفة التي تمنع المؤلف من اتخاذ نظرة عميقة وأساسية من الحياة واستيعابها كما هي، في كل شموليتها». وبعد عدة أسطر يلاحظ بيلنسكي ان كارل مور على الرغم من أنه يتحدث كثيراً لا أثر للفظية في كلماته: «المسألة هي أن الشخصية هنا ليست هي التي تتكلم بل المؤلف، وأنه لا وجود لحقيقة الحياة في كل هذا الكتاب، ومع ذلك هناك صدق شعور، ليس ثمة واقع ولا دراما، بل عالم من الشعر، المراكز كاذبة والأوضاع غير طبيعية، إلا أن الشعور صادق والفكرة عميقة». هذا المقطع هام جداً إن نظرة بيلنسكي في السمات الجمالية لمسرحيات شلر ظلت كما هي حتى آخر حياة الناقد. فان كان موقفه من شلر نفسه قد تغير جذرياً، فان هذا تفسره تغيرات آراء بيلنسكي

الصحافية وليس الجمالية. وسوف نرى كيف أن هذا التغير أثر في نشاطه النقدي، وسوف نذكر القارىء الآن أننا في المقالات التي اقتبسناها هنا لا نزال نعالج بيلنسكي الذي، بغض النظر عن أنه تصالح مع الواقع حوله، يئس منه وأدخل في هذا الموقف السلبي تلك الفترة من حياته عندما أعلن، وقد انساق مع فلسفة فيخته، أن المثال واقع والواقع وهم. وما هو بارز في هذا الميدان هو خلاصة مقالته «لا شيء عن لا شيء أو تقرير محرر التلسكوب عن الشهور الستة الأخيرة (لعام ١٨٣٥) في الأدب الروسي». نقرأ فيها: «الأدب هو الوعي الذاتي للشعب، وحيث يكون هذا الوي الذاتي مفقوداً، فان الأدب إما ثمرة غير ناضجة أو وسيلة ارتزاق، وهي تجارة طبقة معينة من الناس. فاذا كان ثمة أعمال مصفاة جميلة في هذا النوع من الأدب، فانها استثناء وليست ظواهر ايجابية، وليس ثمة قاعدة للاستثناءات... ».

من منطلق انسان يعزو أهمية كبيرة للمثال، فان الواقع الذي لا يقود في تطوره الشعب إلى الوعي الذاتي لا يمكن أن يكون جديراً بالاحترام. بالنسبة إلى هذا الرجل، من الطبيعي أن يعلن، في عادات فكرية معينة، أن هذا الواقع وهم. ولكن إعلانه أن الواقع المرير وهم لا يعني وضع حد له. فما الطريق الذي يقود الشعب إلى الوعي الذاتي؟ اننا نعلم أن بيلنسكي في تلك المرحلة آمن أن التنوير هو الطريق. ونعلم أيضاً أنه في «أحلام أدبية» عبر عن اعتقاده أن الحكومة الروسية كانت مشغولة جداً بالتنوير. ولكنه بالتأكيد لا يستطيع التفكير أن لمن يخدمون المثال، الحق أن يؤمنوا في التنوير بمؤسسات الحكومة. لا بل يجب على هؤلاء الرجال، بدورهم، أن يعملوا لصالح التنوير إن النقاد الأدبيين خاصة يمكنهم أن يقدموا الكثير في هذه الحالة. في اعتقاد بيلنسكي في ذلك الوقت أن على النقد الأدبي في هذه البلاد أن يتابع أولاً هدف التنوير. كتب في مقالة «في النقد والآراء الأدبية في موسكوفسكي نابليداتيل» (١٨٣٦) سوف تستفيد هذه البلاد من الشكل الأعلى والأسمى للنقد: إنه ضروري، ولكن في هذه البلاد يجب أن يكون مسهباً يعيد ذاته كلامياً وتفسيرياً. يجب أن يكون هدفه ليس نجاح العلم بقدر نجاح الثقافة. ويجب أن يكون نقدنا حكم المجتمع، يجب أن يعبر عن الحقائق النبيلة بلغة بسيطة. يجب أن يكون ألمانياً في مبادئه فرنسياً في عرضه. النظرية الألمانية والطريقة الفرنسية في العرض وحدهما وسيلة الاستيعاب العميق والسهل لكل انسان».

ومثل المتنورين الفرنسيين في القرن الثامن عشر اعتنق بيلنسكي الرأي القائل « الفكر يحكم العالم ». وحماسته لمثالية فيخته الذاتية كانت مناسبة للتعبير الأدبي الحي عن النظرة الذاتية في التاريخ. وقد أجبرت الظروف الخارجية التي رافقت فترة حماسته هذه إلى قطع نشاطه الأدبي. في تشرين الأول ١٨٣٦ عطلت التلسكوب التي ظهرت في تلك السنة مع مولفا، لنشرها « الرسالة الفلسفية » الأولى المشهورة لشادايف، فتوفرت لبيلنسكي فرصة رائعة لاختبار أسس آماله فيما يتعلق بنوايا الحكومة تجاه التنوير. ربما كان في ذلك الوقت أنه وأمثاله ممن يعملون للمثال شعروا شعوراً قوياً أنهم « غير هامين على الاطلاق ». وقد أزم من صعوبة هذا الوضع حقيقة أن اغلاق التلسكوب انتزع منه كل وسائل الرزق. إلا أن بؤسه وإن مدقعاً، لم يوقف عمل فكره. وكما قلنا سابقاً، ابتدأت حماسته لهيغل في ١٨٣٧، وعندما عمل ثانية في ربيع ١٨٣٨ كناقد أدبي في هيئة تحرير موسكوفسكي نابليداتيل، التي سيطر عليها أصدقاؤه – وإن لفترة قصيرة – تكلم كرجل أدار ظهره بصورة يائسة للمثال المجرد، وتصالح مع الواقع.

وفي مقالة نقدية كتبت بمناسبة الطبعة الثانية لمؤلفات فونفيزين والطبعة الخامسة لمؤلفات زاغوسكين، يحدد بيلنسكي، محتذياً روتشير، أهداف النقد الفلسفي في الأعمال الفنية. يقول: « إن العمل الفني تعبير عضوي عن فكرة ملموسة في شكل ملموس. إن الفكرة الملموسة هي حقيقة وفكرة مطلقة وكاملة، تغطي كل جوانبها، مساوية لذاتها تماماً، ومعبرة عن ذاتها تماماً – إنها فقط فكرة ملموسة لأنها يمكن أن تتجسد في شكل فني. إن على الفكرة في عمل فني أن تندمج حسياً في الشكل، أي تحقق وحدة معه، فتفقد ذاتها وتختفي فيه متخللة في الكل ». وانسجاماً مع هذا فان على النقد الفلسفي للعمل الفني أن يحدد أولاً الفكرة المتجسدة فيه. ثم عليه أن يتأكد أن الفكرة التي ألهمت الفنان متخللة كل أجزاء عمله، قد تم تحليلها وفي الأعمال الفنية الفذة لا يوجد شيء نافل، فكل أجزائه تشكل كلاً واحداً لا يتجزأ، حتى تلك التي لا تتصل مع الفكرة الأساسية، تستخدم للتعبير عنه تعبيراً كاملاً. ويشير بيلنسكي توضيحاً لذلك إلى « عطيل » حيث « تعبر الشخصية الرئيسية عن فكرة الغيرة، بينما كل الشخصيات الأخرى تنهمك في اهتمامات وعواطف مختلفة تماماً، وعلى الرغم من هذا، فان الفكرة

الرئيسية للمسرحية هي فكرة الغيرة، وجميع الشخصيات في المسرحية، وكل شخصية لها أهميتها الخاصة، استخدمت للتعبير عن الفكرة الرئيسية».

إن من الممكن تحقيق فهم كامل لعمل فني فقط عن طريق النقد الفلسفي، الذي من واجبه أن يجد مظاهر العام والمطلق في الخاص والمحدود. ولكن يجب على النقد التاريخي أيضاً أن يكون قادراً على تحديد الأهمية التاريخية لعمل معين في الفن. هناك الكثير من الأعمال الفنية التي لا تتمتع بقيمة فنية كبيرة، بل تتمتع بأهمية كبرى من حيث أنها مادة لتاريخ الفن. إن بيلنسكي ينظر إلى الكثير من ظواهر الأدب الروسي من موقف تاريخي. فكانتيمير وسماروكوف وخيراسكوف وبوغدانوفيتش ونونفيرزين وكابنيست وآخرون ذوو أهمية، في نظر بيلنسكي، باعتبارهم «عناصر في تطور الرأي العام» في روسيا.

وللنقد الفرنسي أيضاً ميزته النسبية من هذه الزاوية. إن بيلنسكي ينتقده لتجاهله قوانين الفن الرفيع، وابتعاده عن المزايا الفنية لعمل فني، بينما يركز اهتمامه على اكتشاف «العنصر الحضاري والسياسي» فيه. كما أن بيلنسكي لم يقتنع بحقيقة أن النقد الفيخقي اهتم كثيراً بشخصية الكاتب والظروف الخارجية لحياته. وحسب كلماته، حتى نفهم تراجيديات اسخيلوس أوسوفوكليس لا نحتاج إلى معرفة كل ما حصل خلال حياة هذين الكاتبين في اليونان. إن النقد الفرنسي لا يفسر أي شيء في الأعمال الفنية، ولكن قيمته تكون عندما لا يكون للأعمال أهمية فنية بل أهمية تاريخية: وهكذا هي أعمال فولتير مثلاً.

٧

ملاحظات بيلنسكي عن النقد الفرنسي تتضمن الكثير مما هو صحيح، والأكثر مما هو خطأ. إن نقده ضد النقد الفرنسي هو تطبيق على سان بيف، مثلاً، الذي في أحكامه الأدبية يشدد التأكيد كثيراً على تفاصيل حياة الكتاب من غير أن يولي أي اهتمام خاص للسمة العامة للبيئة التاريخية التي عاشوها وتحركوا فيها. إلا أن بيلنسكي

في أحكامه الأدبية يشدد التأكيد كثيراً على تفاصيل حياة الكتاب من غير أن يولي اهتمام خاص إلى السمة العامة للبيئة التاريخية التي عاشوها وتحركوا فيها. إلا أن بيلنسكي
كان مخطئاً كلياً في القول إن المرء حتى يفهم التراجيديا اليونانية لا يحتاج أن يعرف

تاريخ اليونان، بل دور الشعب اليوناني في الحياة المطلقة للبشرية هو كل ما تجب معرفته. كشفت خطيئته هذه عن الجانب الضعيف في المثالية الألمانية، الذي فسر الحركة التاريخية للبشرية بقوانين تطور « الفكرة » واعتبر التاريخ منطقاً تطبيقياً على أي حال، المثالية المطلقة كما مثلها هيغل لم تتجاهل دائماً الأسباب الملموسة للتطور الداخلي للمجتمعات البشرية. وكان بيلنسكي أثناء هذه الفترة من حياته أكثر إثماً من هيغل في إساءة استخدام التعليمات المنطقية السابقة والتخلي عن الوقائع. ويمكن فهم هذا تماماً. فقد عرفنا من قبل أنه وقتئذٍ كان لا يتعامل مع هيغل الديالكتيكي، بل مع هيغل رسول الحقيقة المطلقة. في تلك الفترة نظر إلى الأدب من زاوية هذه الحقيقة. يقول في تحليله لكتاب بوليفوي « **مقالات في الأدب الروسي** »: « مهمة النقد الأصيل أن يكتشف في ابداعات الشاعر ما هو عام لا ما هو خاص، ما هو انساني لا ما هو شخصي ما هو أبدي لا ما هو وقتي ما هو ضروري لا ما هو عرضي، وان يحدد على أساس ما هو عام، أي الفكرة، القيمة، الفضيلة، مكانة الشاعر وأهميته ». ولكن إن لم يهتن النقد بالوقتي فانه قد يتجاهل التاريخ بشكل عام. هنا أيضاً يقطع بيلنسكي شوطاً أكثر من معلمه هيغل. كتب عن فولتير: إن فولتير في قوته الشيطانية، تحت تأثير ألوان من الفكر المحدود، تمرد ضد العقل الأبدي، غاضباً من عجزه في محاولة لأن يستوعب بفكره ما لا يمكن استيعابه إلا بالعقل، الذي هو في الوقت نفسه حب وغبطة ورؤيا ». ليس من غير المناسب أن نقارن مع هذا، المقطع التالي الذي قدمه هيغل إلى الحركة الفرنسية التحررية في القرن الثامن عشر، الحركة التي لعب فيها فولتير، على حد علمنا، دوراً بارزاً قال هيغل: « كان اشراقاً رائعاً كل المفكرين حيوا بحماسة المرحلة الجديدة القادمة. إن مزاجاً محتفياً ساد في ذلك العصر واكتسحت الحماسة كل العالم، كما لو أن المصالحة قد تمت مع الألوهية لأول مرة ». إن هذا يختلف كل الاختلاف عما يقوله بيلنسكي. إلا أن هذا كتبه هيغل الديالكتيكي وليس هيغل رسول الحقيقة المطلقة. هيغل رسول الحقيقة المطلقة لم يكن أبداً يميل إلى « أن يوافق بحماسة على الأحداث الثورية القادمة. وقد اتبع ناقدنا في ذلك الزمن من « مصالحته مع الوقت » هيغل، وليس غيره.

سبق أن قلنا إن بيلنسكي بعد أن رمى « قبعة » هيغل الفلسفية، ظل لمخلصاً

للفلسفة الهيغلية، على العكس مما هو معروف في حياته. إن الفارق الوحيد هو أنه من قبل اتساق مع النتائج «المطلقة» لهيغل، بينما بدأ الآن يطبق طريقة الديالكتيكية. إن هذا واضح خصوصاً في تطور آرائه الأدبية: لقد تغيرت كلياً بمعنى أنها أصبحت ممتزجة بعنصر الديالكتيك.

إليكم هذا المثال. بعد أن تصالح بيلنسكي مع الواقع، اعتقد أن النقد الأدبي يجب أن يكشف «العام» و«الضروري» اللذين يشتمل عليهما العمل الفني. في مقالته: «نظرة في الأدب الروسي في ١٨٤٧» أي في نهاية نشاطه، كتب: «يجب على الشاعر أن يعبر ليس عن الخاص والعرضي بل عن العام والضروري». ولا يعجز المرء أن يرى أن هذه النظرة هي نفسها، إلا أن عنصر الديالكتيك قد تخللها مما أحدث تغيرات كبيرة هنا إن بيلنسكي لا يعارض الآن «العام» بـ «الوقتي» ولا يوحد بين «الوقتي» و«العرضي». إنه الآن يفترض أن «العام» يتطور في مجرى الزمن مسنداً إلى الظاهرة العارضة معناها التاريخي ومضمونها الأساسي. إن «الوقتي» «ضروري» بالضبط لأن تطور «العام» ضروري. فقط ما لا أهمية له في مجرى هذا التطور هو «العرضي». هذه نظرة بيلنسكي الآن. إن المتابعة الدقيقة لمؤلفاته المكتوبة عقب تمرده على «القبعة الفلسفية» تبين بوضوح أن هذا التغير في الآراء الفلسفية الأساسية، أي إدخال العنصر الديالكتيكي فيها، أهم التغيرات في آرائه الأدبية.

بعد أن تخلى بيلنسكي عن الموقف «المطلق» تبنى رأياً مختلفاً في التطور التاريخي للفن. وقد كتب من قبل في مقالته الرائعة عن ديرزافين في ١٨٤٣ «ليس ثمة أفكار تظل أفكاراً، كل فكرة تتحقق كواقعة - كموضوع أو كفعل. إن تحقق الفكرة في واقعة يخضع لقوانين صارمة، أهمها التعاقب والتدرج. لا شيء يظهر فجأة، ولا شيء يولد جاهزاً، كل ما له فكرة كبداية يتطور لحظة لحظة ويتحرك ديالكتيكياً من المرحلة الدنيا إلى المرحلة العليا ونلاحظ هذا القانون الصارم في الطبيعة، في الإنسان، في البشرية. إن الطبيعة لم تظهر فجأة جاهزة، إن لها أيام خلقها أو لحظات خلقها... والقانون نفسه يصدق على الفن أيضاً». وبما أن مضمون الفن هو الفكرة الأبدية ذاتها التي تحدد، عبر تطورها الديالكتيكي، كل الحركة التاريخية للبشرية، فإن من الواضح أن تطور الفن وثيق الصلة بمجمل تطور الحياة الاجتماعية. إن شاعراً كبيراً هو كبير فقط لأنه عضو في مجتمعه وناطق بلسان عصره. يقول بيلنسكي: «حتى

يحل المرء لغز الشعر الغامض لشاعر ضخم مثل بايرون لا بد من أن يحل سر المرحلة التي يعبر عنها، وحتى يقوم بذلك عليه أن يسلط ضوء الفلسفة على الولادة التاريخية للأحداث التي اجتازتها البشرية في طريقها إلى مصيرها العظيم - لتكون تجسيداً للعقل الأبدي، وعليه أن يحدد فلسفياً خطوط العرض والطول للنقطة التي يلتقي فيها الشاعر مع البشرية في طريق الحركة التاريخية. وبدون هذا، كل مراجع الأحداث وأي تحليل للأخلاق والسلوك، لعلاقات المجتمع مع الشاعر، وعلاقات الشاعر مع المجتمع، وعلاقاته مع نفسه لن تفسر شيئاً إطلاقاً».

وفوق ذلك فإن بيلنسكي الآن مستعد أن يضع في الحسبان تأثير البيئة الجغرافية (بالمعنى الحرفي للكلمة)، مع أن هذه الناحية أهملت ولم تكتشف في مؤلفاته.

في فترة حماسته للمثال المجرد «أحب» بيلنسكي، كما نعرف، أبطال شلر و«إذعاناً» للواقع كتب أن المؤلفات الأولى لشلر، أي بالضبط تلك التي «أحب» بيلنسكي شخصياتها من قبل، لم تكن أخلاقية بالنظر إلى الحقيقة المطلقة والأخلاق العليا. في تلك المؤلفات «أراد شلر أن يؤكد الحقائق الأبدية ومعتقداته الشخصية المحدودة، التي أقلع عنها هو نفسه. وبما أنه طرح مهمة وهدفاً خارج الفن في تلك المؤلفات، فإنها لم تغد سوى أنغال ووحوش، سوى ظواهر غير هامة أبداً في ميدان الفن». إن بيلنسكي بعد تمرده على هيغل يدعو شلر الحامي النبيل عن البشرية، نجمة التحرر الوضاءة.. الخ. ويبدو من المستحيل تغيير الكثير في موقف المرء تغييراً جذرياً تجاه كاتب من الكتاب. ولكن هكذا يبدو فقط.

لماذا يطري بيلنسكي شلر مرة ثانية الآن؟ لأنه انساق مع فكرة «الفرد»، الذي في اعتقاده «أعلى من التاريخ والمجتمع والبشرية». إنه لا يمنع الآن الفرد المفكر من التمرد على الواقع، بل على العكس، إنه مغتبط بمعارضته «الأهواء الدموية للتقاليد». وفي الوقت نفسه هناك تغير في أحكامه على الكتاب الذين يقدمون تعبيراً شعرياً عن طموحات الفرد المناوىء للأهواء الاجتماعية. هذا هو كل سر تغير موقفه من شلر. لم يعد يدعو مسرحياته غير أخلاقية، إنه يمدحها الآن مديحاً عالياً، ولكنه يمدحها من زاوية خاصة جداً إنه يسمي مسرحيات شلر الإبداعات الكبرى للقرن، مضيفاً على الفور أنها يجب ألا تخلط مع الدراما الواقعية للعالم الجديد. ويعني ذلك أنها رديئة كمسرحيات جيدة كمؤلفات غنائية. وهذا هو السبب في أن بيلنسكي يلاحظ: «على

المرء أن يكون شاعراً غنائياً كبيراً جداً حتى يقدر أن يسير بحرية منتعلا جرمة دراما شلر إن الموهوب فقط الذي ينتعل جزمتها لا بد أن يسقط في الوحل. وهذا هو السبب في أن مقلدي شلر متخمون مبتذلون لا يحتملون ».

وبكلمة أخرى إن بيلنسكي في مسرحيات شلر أيضاً ظل نفسه، فقط موقفه تجاه العنصر الذاتي الأصيل في هذه الدراما تغير وفي فترة « مصالحته » مع الواقع قلل من دور الذات في تأمل العقل الموضوعي لذاك الواقع، فكل ما هو خارج حدود هذا الدور التأملي أدانه باعتباره خطيئة « الرأي » الذاتي غير الناضج وفي فترة تمرده ضد الواقع لم يستطع إلا أن يتعاطف مع أولئك « الأفراد » الذين، مثله، تمردوا على الروتين. وفي المرحلة الثالثة من حياته تعاطف مع ما كان دانه في مرحلته الثانية، وبالتالي استلهمه في الأولى. تلك التغيرات لا تؤثر في أحكامه الأدبية أبداً، وعندما تؤثر، فإنها تعمق أحكامه. ونتذكر ونحن نقول هذا المرحلة الثانية بشكل خاص من تطوره. هنا، مثلاً، أهم مقطع من مقالته عن كتاب **مقالات في معركة بورودينو**: « إننا نعتقد ونؤمن حقاً أن زمن الآهات والتأوهات وإشارات التعجب والنقاط المتتالية تعبيراً عن فكرة عميقة حيث لا فكرة قد ولى في أدبنا، لقد ولى العصر الذي كانت الحقائق الكبرى فيه تقدم بمباهاة دكتاتورية، لكن من غير أي أساس أو دعم خارج الرأي الشخصي والمفاهيم الاعتسافية للمفكرين المزيفين... المسألة ليست مسألة ماذا يبدو، بل مسألة ماذا يكون في الواقع الفعلي، ذلك أن المسألة لا يحلها الرأي بل الفكر. إن الرأي يستند إلى اعتقاد تصادفي في فرد تصادفي ليس في حد ذاته شيئاً هاماً ولا فائدة منه لأي أحد، والفكر يعتمد على ذاته، على تطوره الداخلي الخاص وفقاً لقوانين المنطق ».

حتى نعارض ما هو واقع فعلاً بما يتراءى فقط يعني أن نرفض أحكاماً صدرت باسم المفاهيم المجردة، وأن نحاول أن نقيم الأحكام على تحليل الواقع الموضوعي. ومن نافلة القول أن بيلنسكي كناقد أدبي جنى الكثير من محاولته هذه، من غير أن يفقد أي شيء

عبر أحد مؤرخي أدبنا عن فكرة تقول إن بيلنسكي في فترة « مصالحته » مع الواقع رفض كل « شعر غنائي ذاتي ». لكن كل الشعر الغنائي ذاتي. ومع ذلك لم يرفض بيلنسكي الشعر الغنائي لغوته وكولتسوف.

فلنحاول بكلمات قليلة أن نصوغ الدستور الجمالي لناقدنا

القانون الأول في هذا الدستور هو أن على الشاعر أن يبرز الأشياء لا أن يبرهن عليها، وأن يفكر في صور، وليس في استدلالات منطقية. ويأتي هذا القانون من تعريف الشعر أنه تأمل مباشر للحقيقة أو التفكير في صور

ولكن إذا كانت الحقيقة هي موضوع الشعر، فإن الصدق هو الشرط الأول للعمل الفني الإبداعي، والجمال يكمن في الحقيقة والبساطة على الشاعر أن يصور الحياة كما هي، من غير زيادة ولا نقصان. ذاك هو القانون الثاني في دستور بيلنسكي الجمالي

حسب معنى القانون الثالث، فإن الفكرة القائمة على أساس عمل فني يجب أن تكون ملموسة محيطة بكل الموضوع لا تقتصر على ناحية واحدة.

إلا أن القانون الرابع يشير إلى أنه يجب أن يتطابق شكل العمل الفني مع فكرته، والفكرة مع الشكل.

أخيراً يجب أن تتطابق وحدة الشكل مع وحدة الفكر وذلك يعني أن كل أجزاء العمل ''الفني يجب أن تشكل كلاً منسجماً وهذا هو القانون الخامس والقانون الأساسي والأخير في دستور بيلنسكي الجمالي، إن لم نكن مخطئين.

من الصعب أن نضع أي اعتراضات على جوهر هذا الدستور فلا بد أن يوافق المرء على أن العمل الفني يجب أن يتطابق مع فكرته أو أن الشاعر يفكر في صور، وليس باستدلالات وقياسات. إلا أن هذا الدستور لم يمنع بيلنسكي من إدانة التراجيديا «الكلاسيكية» الفرنسية، وقد كانت الإدانة خطأ كتب من قبل في مقالته عن مؤلفات ديرزافين (١٨٤٣): «إن مهمة علم الجمال الحقيقي ليس تقرير **ما يجب أن يكون عليه الفن، بل أن يحدد ما هو عليه الفن.** وبكلمة أخرى: يجب على علم الجمال ألا يناقش الفن كشيء مفروض سلفاً، كنوع من المثال الذي لا يتحقق إلا طبقاً لنظريته؛ لا، عليه أن يدرس الفن كموضوع وجد قبله بكثير، والذي يدين له بوجوده». هذا صحيح تماماً لكن بيلنسكي في وضعه دستوره الجمالي لم يضع في ذهنه القاعدة الذهبية التي عبر عنها في المقطع المقتبس أعلاه. لقد تخلصت أحكامه الأدبية أحياناً من القبلية (Priority) التي اتضحت في رأيه بالفن أنه مثال يمكن فقط أن يتحقق

وفق نظرية معينة. وحتى نفهم نشأة هذا العيب لا بد أن نتذكر أن بيلنسكي في تفسيره دستوره التزم بنظرة علم الجمال المثالي الألماني الذي عانى، مثله مثل الفلسفة المثالية الألمانية، من القبلية على الرغم من مزاياه الكثيرة. وعندما ينظر مفكر إلى التاريخ عامة، وتاريخ الفن خاصة، كمنطق تطبيقي من الطبيعي بالنسبة إليه أن يغري أحياناً ببناء فرضيات قبلية لا تبرير لها إلا أنها استدلالات من الوقائع وكان بيلنسكي أحياناً، مثل هيغل، يستسلم لمثل هذا الإغراء

ولا بد أن نضيف إلى هذا أن الكتاب الألمان في علم الجمال، لأسباب لا مجال لذكرها هنا، منذ عصر ليسنغ، شنوا نضالاً حازماً ضد الكلاسيكية الفرنسية، وكان هذا النضال سبب أحادية الجانب في نظرتهم إلى الأدب الكلاسيكي الفرنسي. هذه الأحادية الجانب أثرت جزئياً في بيلنسكي الذي تشكلت آراؤه الأدبية تحت تأثير علم الجمال الفلسفي الألماني السائد

بيد أن هذه ليست سوى تفاصيل. بشكل عام لا بد من أن نعترف أن بيلنسكي انطلاقاً من دستوره، كان قادراً أن يقدم للأدب الروسي خدمة جلى برفسه جانباً - حسب تعبير بيبين - القذارات الرومانسية القديمة وتمهيد السبيل أمام تآزرواقعية مدرسة غوغول. ولا بد أن نضيف إلى كل هذا أن بيلنسكي نفسه لم يفسر دستوره الجمالي هذا بالطريقة ذاتها دائماً

إليكم هذا المثال. إن فكرة العمل الفني لا بد أن تشمل الموضوع من كل الجوانب. فماذا يعني هذا؟ يعني بيلنسكي بهذا في فترته «التصالحية» أن العمل الشعري يجب أن يصور «الطبيعة العقلية» للواقع الذي يعيش فيه الشاعر ولكن إذا كان العمل الفني يفترض أن الواقع ليس عقلياً تماماً، فان ذلك يبين أن جانباً واحداً من الموضوع يصوره فقط. هذا التفسير للقانون الجمالي المشار هنا ضيق وغير صحيح. إن فكرة الغيرة لا تغطي كل العلاقات بين الرجل والمرأة في المجتمع المتمدن. ولكن فكرة ملموسة تشمل علاقة معينة بين الرجال والنساء من جميع الجوانب أمر مستحيل: إن الحياة معقدة جداً لهذا السبب. لقد تأكد بيلنسكي أنه عندما تخلى عن نظرته المطلقة، بدأ يعجب، مثلاً، بجورج صاند التي كانت مؤلفاتها تبدو له من قبل أحادية الجانب.

كان لا بد أن تنعكس التغيرات في آراء بيلنسكي الاجتماعي بقوة في مفهومه عن

دور الفن في الحياة الاجتماعية. فقد ألح بيلنسكي في المرحلة الثانية أن الفن نهاية في حد ذاته. وفي المرحلة الأخيرة (وفي هذا الصدد فان مرحلته الأخيرة قريبة من مرحلته الأولى، لا تختلف عنها إلا بالمزيد من تلوين الفكرة ذاتها) يتصدى لما يسمى نظرية الفن للفن، ذاهباً إلى أن فكرة الفن المنفصل عن الحياة هي فكرة مجردة وغامضة، ولا تصدر إلا عمن كانوا غرباء عن النشاط الاجتماعي الحي. ومع ذلك لا يزال يكرر إن الفن هو الفن أولاً وقبل كل شيء، أي «اعادة انتاج الواقع، نسخة عن العالم، اعادة خلقه» والفارق الوحيد هو أنه في مرحلته الثانية نظر إلى واجب الفنان من زاوية مطلقة، والآن ينظر إليه من زاوية الديالكتيك مدركاً ان اعادة انتاج الفنان للواقع يؤثر فيه نفسه. يقول: «إن شخصية شكسبير ملموسة في مؤلفاته، وإن بدا أنه غير مبال بالعالم الذي يصفه باعتباره قدراً ينقذ أو يدمر شخصياته. ويمكن للمرء في روايات ولترسكوت أن يحس بالمؤلف كرجل مشهور لموهبته أكثر منه واعياً واسع الفهم للحياة، من جماعة التوري، محافظاً وارستقراطياً في معتقداته وعاداته. إن شخصية الشاعر ليست شيئاً مطلقاً تقف بعيداً عن التأثيرات الخارجية.. إن روح الشعب في ذلك العصر لا يمكن أن تؤثر فيه أقل مما تؤثر في بقية الناس». من قبل أحب بيلنسكي فكرة قصيدة بوشكين الشهيرة «الغوغاء»، بينما الآن غاضب منها يقول في مقالته الخامسة عن بوشكين: «ذاك الذي ليس شاعراً إلا لنفسه، أو عن نفسه، وينظر إلى الغوغاء بتعالٍ يغامر في أن يكون القارىء الوحيد لمؤلفاته». كما أن بيلنسكي لم يحب فكرة قصيدة بوشكين «الشاعر» الآن. على الشاعر أن يكون نقياً ليس فقط عندما يدعوه أبولو إلى التضحية المقدسة، بل يكون نقياً في كل الأوقات، طيلة حياته. أما الموقف السلبي من نظرية الفن للفن فهو أقوى حلقة من الحلقات التي تربط نقد بيلنسكي بنقد الستينات والسبعينات. وهذا ما سننظر فيه الآن بالتفصيل.

لم يكن بيلنسكي محقاً دائماً في موقفه من بوشكين. اعتقد أن بوشكين استخدم كلمة «غوغاء» للاشارة إلى الجماهير. ولكن هل صحيح ذلك؟ إن مقالات بيلنسكي ورسائله تتضمن هجومات على الغوغاء والرعاع. فهل يمكن أن يتهمه المرء بناء على هذا أنه معادٍ للشعب؟ في قصيدة بوشكين «رد على مؤلف مجهول» يقول:

مضحك من يدعي التعاطف مع المجتمع الراقي.
الغوغاء غير المبالية تنظر إلى الشاعر

كما لو كان مشعوذاً جوالاً

« المجتمع الراقي » ليس « الشعب »، ليس مجموع الفقراء « الذين يعيشون من كدح أيديهم ».

« إن فكرة قصيدة « الشاعر » أسيء فهمها حتى من قبل بيلنسكي. إن بوشكين هنا لا يقدم شهادة للشعراء أنهم أوغادٌ أنذالٌ ما لم يدعهم أبولو باعتبارهم ضحيته. يقول فقط أنه حتى الرجل الذي لحقته الوضاعة قادر على الانبعاث بتأثير الالهام. وقد عبر عن هذه الفكرة في قصيدته « ليال مصرية »، وهي فكرة مصيبة وعميقة.

إن مجادلات بيلنسكي، بصورة عامة، ضد أنصار الشعر الصرف ليست مقنعة. وقد كانت مجادلاته تشوشه أحياناً فما سبب أخطاء ذلك المفكر اللامع؟

في تمرده على هيغل تبنى نظرة الفرد الانساني، إلا أن مفهوم الفرد هو مفهوم مجرد. إننا نعرف أن بيلنسكي عانى صعوبة في التنفس في جو التجريد، وحاول حتى نهاية أيامه أن يكوّن نظرة عالمية ملموسة. كان هذا الاتجاه مفيداً لكل من أفكاره الاجتماعية والأدبية. ولكنه كان دائماً مخلصاً لهذا الاتجاه، لا يقتنع بـ « الواقع الروسي الآثم »* فيدفعه أحياناً إلى مجادلات لا تقوم إلا على مفاهيم مجردة. كانت تلك المجادلات

---

* يلاحظ هذا خاصة في مقالته « نظرة في الأدب الروسي في ١٨٤٦ » حيث يعرض بعض العقائد الأساسية في فلسفة فيورباخ. وهكذا يكتب مثلا: « إنك تكن احتراماً كبيراً بالطبع للفكر في الانسان؟ - يا للعجب، إذن كف عن اظهار الحيرة أمام هذه الكتلة من الدماغ حيث تجري جميع الوظائف الفكرية التي تنشرها أعصاب النخاع الشوكي في كل العضوية، الأعصاب التي هي أعضاء الأحاسيس والمشاعر والمليئة بسوائل رقيقة بحيث تتأبى على المراقبة المادية والتأمل. وإلا فإنك سوف تحتار في الانسان عن طريق نتائج مفصولة عن أسبابها أو ما هو أسوأ، وذلك بأن تلفق أسباباً لا تعرفها الطبيعة وتقتنع أنت بها. إن السيكولوجيا التي لا تقوم على الفيزيولوجيا لا يمكن الدفاع عنها مثل الفيزيولوجيا التي لا تهتم بوجود علم التشريح. إن العلم الحديث لا يقبل لنفسه بالاثنين: فهو يسعى من خلال التحليل الكيميائي إلى كشف المعمل الخفي للطبيعة، وعبر ملاحظة الجنين يجري تقصي العملية الجسدية للتطور الأخلاقي ». وكتب فيما بعد « الفكر بلا جسد، بلا علم فراسة، الفكر الذي لا يؤثر في الدم ولا يتأثر به هو حلم منطقي، تجريد ميت. إن الفكر هو الرجل في الجسد، أو بالأحرى الرجل من خلال الجسد، وبكلمة إنه الفرد ». ولا يستطيع أحد أن يخطىء هنا الأطروحات الأساسية لفلسفة فيورباخ، وان اتضح أن المادية الجديدة، نظام المفاهيم، لم يكن قد تمثلها بيلنسكي تماماً ولذلك يعبر بصورة غير دقيقة، في مراجعة أدبية في العام التالي كتب قبيل وفاته بمدة طويلة يعبر بيلنسكي في حديثه عن أهداف أدبنا، عن الآراء التي تبين تأثير فيورباخ فيه. ولكن الموت منع هذا التأثير الجديد من أن يتعزز تماماً. أما الذي تمثل آراء فيورباخ تماماً في أدبنا فهو المعجب ببيلنسكي: ن. غ. تشيرنيشيفسكي.

دائماً ذات طبيعة نبيلة من حيث الأخلاق إلا أنها غير مقنعة نظرياً إن أحكام بيلنسكي على بوشكين المشار إليها أعلاه تعود إلى هذا النوع، فبوشكين شاعر من النوع الذي لا يفهم إلا إذا تخلى المرء عن النظرة المجردة.

إلا أنها، في نهاية التحليل، كانت أخطاء متفرقة وحسب. لكن عامة، حتى المقالات عن بوشكين (حتى المشهور منها بشكل خاص) تبين كم نجح في المرحلة الأخيرة من حياته في حل المهمة التي ألقاها على النقد الأدبي من قبل في مقالة في الذكرى السنوية لبورودينو: أن نسترشد ليس بما يتراءى بل بما هو كائن في الواقع، ليس بالرأي بل بالفكر

ولكن عندما بدأ يقترب من حل هذه المهمة بدا أن المهمة نفسها كانت تختلف عما بدت له من قبل. فمن قبل اعتقد أن الفكر يقوم على نفسه وتطوره الداخلي الخاص وفقاً لقوانين «المنطق». ولقد احتفظ بهذا الاعتقاد، المستعار من هيغل، طويلاً بعد تمرده على الواقع ولكن حوالي نهاية حياته تخلى عن مثالية هيغل كلياً وتحول نحو مادية فيورباخ وحسب المبدأ المادي فان الوعي لا يتطور من داخل ذاته: تطوره مشروط بالكائن. والحق أن فيورباخ لم يكن يطبق هذه الفرضية على تفسير التاريخ عامة أو تاريخ الأيديولوجيات خاصة. ولكن هذه الثغرة في مادية فيورباخ سدها هيغل نفسه فيما يتعلق بالفن، ففي كتابه علم الجمال، على الرغم من تفضيله المثالي للأحكام القبلية لجأ إلى التفسيرات المادية الخالصة لتطور الفن بتطور العلاقات الاجتماعية. وإلى جانب ذلك كان بيلنسكي نفسه قادراً أن يرسم استنتاجات من الفرضيات التي أوجدتها تلك التفسيرات. وكما لاحظنا أعلاه، افترض في مرحلته الأخيرة علاقة سببية بين تطور الفن و«الطبيعة العامة للعصر»، أي طبيعة الحركة الاجتماعية في مرحلة معينة. بالطبع عبر عن ذاته هنا بشكل غامض، وغموضه اشارة إلى فقدانه وضوح الآراء المطروحة. إلا أن فقدان الوضوح تفسره حقيقة أن تلك الآراء لم تكن مدروسة كفاية، وفي ذلك الوقت لم يكن لها أن تكون مدروسة. والهام هو حقيقة ان ذهن بيلنسكي هنا كان أيضاً قادراً على تحديد الاتجاه الضروري، وحتى هذا الرأي غير المدروس دراسة كافية كان بيلنسكي أحياناً يطبقه في مقالاته النقدية بشكل حاذق حقاً.

٩

مقالاته عن بوشكين نفسها عرضت، من بين الأشياء الأخرى، النقاط الضعيفة المشار إليها أعلاه. وحسب تعبير بيلنسكي، فان بوشكين انتمى إلى مدرسة الفن التي كانت ليس فقط من الماضي في أوروبا، بل حتى في روسيا لقد سبق التاريخ بوشكين منتزعاً قسماً كبيراً من أعماله ذات الفائدة الحيوية التي أثارتها القضية الملحة للعصر. إن بيلنسكي اعتبر بوشكين شاعر طبقة النبلاء قال: «في كل مكان تراه رجلاً مؤمناً، جسداً وروحاً، بالمبدأ الأساسي الذي يؤلف جوهر الطبقة التي يرسمها، باختصار، في كل مكان ترى المالك العقاري الروسي... يهاجم كل شيء في هذه الطبقة لا ينسجم مع الانسانية، إلا أن مبدأ الطبقة بالنسبة إليه هو حقيقة مطلقة... وهذا هو السبب في وجود الكثير من الحب حتى في هجائه، والنفي نفسه يبدو أشبه بالاعجاب والاستحسان... وهذا هو السبب في أن كثيراً من أمثال أونيجين بات مهجوراً اليوم... ومن دون هذا لما كانت اونيجين قصيدة كاملة عن الحياة الروسية، واقعة محددة لنفي فكرة تطورت بسرعة في ذلك المجتمع نفسه».

إن بيلنسكي بتفسيره شعر بوشكين عن طريق الوضع الاجتماعي في روسيا والمركز التاريخي الذي تحتله الطبقة التي ينتمي إليها شاعرنا العظيم، تجاوز النقد التقدمي للستينات والسبعينات، تجاوز العقبة الرئيسية التي كانت تنظر إلى الظواهر الأدبية من زاوية صحفية وليس من زاوية أيديولوجية. إن مقالات بيلنسكي المكتوبة في السنوات الأخيرة من نشاطه تتضمن برنامجاً كاملاً لم ينفذه بعد نقدنا الأدبي، ولن ينفذه إلا عندما يكون قادراً على تبني موقف سوسيولوجي. وهذا ما يبين القوة الكبيرة لفكره.

من المناسب أن نلاحظ هنا ظرفاً طالما تجاهله مؤرخو أدبنا يدافع بيلنسكي في السنوات الأخيرة من حياته عن «اهتمام الفن بالواقع، بعيداً عن كل المثل». (مراجعة في الأدب لعام ١٨٤٧) ومع هذا فمن المعروف تماماً أنه كان في ذلك الوقت يشن معركة صارمة ضد الواقع الروسي (تكفي هنا الإشارة إلى رسالته الشهيرة إلى غوغول). ويفسر هذا التناقض الظاهري بحقيقة، وبهذه الحقيقة فقط، وهي أنه في مقالاته النقدية يتبنى الآن ليس المفهوم الهيغلي عن الواقع بل المفهوم الفيورباخي. هذا المفهوم يختلف عن

مفهوم هيغل للموضوع ذاته: فالواقع عند فيورباخ هو الذي يؤلف جوهر الموضوع الذي لم يشوهه الخيال. ويرحب بيلنسكي بظهور «المدرسة الطبيعية» لأنها، حسب كلماته، لم تكن خطابية بل طبيعية. وبعد بيلنسكي دافع تشيرنيشيفسكي عن هذا المفهوم للواقع

لن نناقش هنا مسرحية بيلنسكي العم ذو الخمسين عاماً شيء واحد يمكن أن نقوله فيها: إنها تبين أن بيلنسكي في حين يعزو قدرة العبقري إلى «التفكير في قياسات منطقية»، فإنه كان هو ضعيفاً في «التفكير في صور». وما هو أقل أهمية قصيدة لمؤلفنا في شبابه وعنوانها «أسطورة روسية» نشرت في لستوك في ٢٧ أيار ١٨٣١ إن بيلنسكي نفسه تناول محاولاته الشعرية بتهكم شديد.

والخلاصة أن بيلنسكي باشر النقد الأدبي بينما كان متأثراً جداً بالفلسفة الألمانية. وفي فترة «مصالحته» مع الواقع، التي تمت تحت تأثير الفلسفة ذاتها، تصدى لمهمة العثور على أسس موضوعية لنقد المؤلفات الفنيّة وإقامة ارتباط بين تلك الأسس والتطور المنطقي للفكرة المطلقة. لقد وجد تلك الأسس الموضوعية في قوانين معينة للفنون الجميلة قدمناها من قبل تحت اسم الدستور الجمالي لبيلنسكي. وهناك الكثير من مواده صحيح، وهناك غير الصحيح (أو بالأحرى أحادي الجانب) تفسره نظرته إلى المثالية التي احتذى مثالها في الفلسفة من معلمه هيغل. وفي السنوات الأخيرة من حياته تخلى عن المثالية، واقترب من مادية فيورباخ، واعتبر تطور الطبقات الاجتماعية والعلاقات الطبقية، وليس تطور الفكرة المطلقة، على أنها النموذج الأخير للنقد. إن نقد بيلنسكي انحرف عن هذا الاتجاه المنتج والجديد، واندمج في الاتجاه الذي فيه تطور الفكر الفلسفي لألمانيا التقدمية المعاصرة، فقط في تلك المناسبات التي تخلى فيها عن نظرة الفلسفة الديالكتيكية، واعتنق دور الداعية للأفكار المجردة لـ «التنوير». إن الانحرافات المحتومة في ظروف عصره، جعلته أبا «المتنورين» الروس - وهم النقاد الروس التقدميون في الستينات والسبعينات.

ولا بد أن نضيف أن مادية فيورباخ، بغض النظر عن تدخلها بتلك الانحرافات، دفعتها إلى درجة بعيدة: إن فيورباخ المادي في آرائه التاريخية والاجتماعية وهو يشبه تماماً الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر، ظل مثالياً. وكان هذا السبب في أن متنوراً بارزاً في الستينات عندنا، وهو تشيرنيشيفسكي، الذي اعتنق بشدة مادية

فيورباخ، لم يكف في الوقت نفسه عن النظر إلى الحياة الاجتماعية من زاوية مثالية.

الفصول الثلاثة الأولى من مسرحية بيلنسكي الفكرية يمكن أن نطلق عليها الأسماء التالية: ١)الفكرة المجردة والفلسفة الفختية. ٢) المصالحة مع «الواقع تحت تأثير النتائج «المطلقة» لفلسفة هيغل. ٣) التمرد على «الواقع» والانتقال جزئياً إلى نظرة مجردة في «الفرد» وجزئياً إلى نظرة ملموسة في ديالكتيك هيغل.

ابتدأ الفصل الرابع لهذه الدراما بقطيعة كاملة مع المثالية والتحول إلى الموقف المادي لفيورباخ. إلا أن يد الموت أسدلت الستار بعد المشاهد الإفتتاحية لهذا الفصل.

قال بيلنسكي عن نفسه أنه لم يولد ناقداً أدبياً، بل ولد مؤلفاً سياسياً وفي الواقع ولد فيلسوفاً وسوسيولوجيا امتلك كل الصفات الضرورية ليصبح ناقداً رائعاً وصحفياً لامعاً وتبدو موهبته كمؤلف في رسالته الشهيرة إلى غوغول. ونفترض أنها معروفة للقارىء ولذلك لن نقتبس منها، وبدلاً من ذلك سوف نستشهد ببضعة أسطر من مقالته التي نشرت في السوفريمينيك في ١٨٤٧، عن كتاب ظهر فخلق سبباً لبيلنسكي أن يكتب رسالته إلى غوغول[١٥٩] يلخص بيلنسكي هذه المقالة فيقول: لقد استخلصنا هذا الاستدلال من الكتاب - الويل للرجل الذي جعلته طبيعته فناناً، الويل له إن لم يرض بطريقه واندفع عبر طريق غريب عنه. إن سقوطاً محتوماً ينتظره في هذا الطريق الجديد، إلا أنه ليس من الممكن دائماً أن ينتظره سقوط بعد عودته إلى الطريق السابق».

تلك الأسطر تذكر بأطروحته التي تشكل قسماً من دستوره الجمالي وهو أن الفنان لا يفكر في القياسات المنطقية بل في صور، أطروحة يؤخذ منها أن من الممكن لفنان عبقري أن يكون مفكراً هزيلاً جداً

بعد أن كابد بيلنسكي من السل في السنوات الأخيرة من حياته، توفي في بطرسبرج في ٢٦ أيار ١٨٤٨ بين الخامسة والسادسة صباحاً

قلة من الأصدقاء توافدوا على جنازته في المقبرة (الجميع الآن يعرفون أنه دفن في مقبرة فولكوف). إلا أن ثلاثة أو أربعة غرباء - حسبما يقول باناييف - انضموا إلى هؤلاء الأصدقاء فظهروا فجأة من مكان ما مكثوا في المقبرة حتى نهاية التشييع وراقبوا كل شيء يجري أمامهم باهتمام كبير

إن ظهور أولئك «الغرباء يصبح مفهوماً إذا تذكرنا أن الموت وحده أنقذ

بيلنسكي من التعرف على دوبيلت، رئيس «القسم الثالث في ذلك الوقت. وقد شاهدتم لوحة نوموف **بيلنسكي قبيل وفاته**. إنها تصور حادثاً حقيقياً وقع في ٢٧ آذار، عندما زار شقة الناقد المحتضر دركي أتاه بدعوة من دوبيلت.

عندما عزم أصدقاء بيلنسكي على تنظيم يانصيب لبيع مكتبته لمساعدة أرملته وابنته، اللتين تركتا بلا معيل، منعوا من «القسم» المذكور آنفاً

وبما أن بيلنسكي عصبي جداً مناوىء للطغيان، لم يخف آراءه لا في العصر الذي تصالح فيه مع« الواقع » الروسي، ولا عندما تمرد عليه. ولنستشهد هنا بحادثتين تعودان إلى مرحلة «مصالحته» رواهما باناييف. عندما قرأ بيلنسكي مخطوطة مقالته عن الذكرى السنوية لبورودينو على باناييف أطرى المقالة ولكنه لفت انتباهه إلى ما يمكن أن تتركه من انطباع في القارىء قاطعه بيلنسكي: «اعرف ذلك... لا تكمل، سيدعونني متملقاً نذلاً، سيقولون أنني أعمل للسلطان.. دعهم، أنا لا أخشى التعبير عن معتقداتي بصراحة ومباشرة، مهما ظن بي الناس الظنون.. «أقسم أنني لا أشرى مقابل أي شيء من السهل أن أموت جوعاً (وهنا ابتسم بسخرية مريرة) من أن أمرغ كرامتي الإنسانية، من أن أذل نفسي أمام أي إنسان أو أن أبيعها ».

والحادثة التالية رواها هرزن وتعود إلى المرحلة الأخيرة من حياة بيلنسكي

وقعت الحادثة في حفلة أقيمت في منزل رجل من رجال الأدب. كانت «الرسالة الفلسفية لشاداييف موضع مناقشة. فانبرى أحد السادة يقول إن شادابيف نال ما استحق. فناقشه هرزن الذي كان يحضر تلك الحفلة. إلا أن المناقشة كانت فاترة إلى أن تدخل بيلنسكي متخذاً جانب شادابيف بطريقة حادة وحاسمة. وقد كانت نهاية المناقشة رائعة جداً

قال الجنتلمان برضا عدائي: «في قرون التنوير ثمة سجون للمجانين الذين يهينون ما يكرمه الشعب بأسره. وهذا عدل أيضاً فوقف بيلنسكي بقامته، كان يرتجف، كان عظيماً في تلك اللحظة، فطوى ذراعيه على صدره المريض ونظر محدقاً في الجنتلمان، وأجاب بصوت أجش - وهناك أيضاً في القرون المتنورة مقصلة لإعدام أولئك الذين يجدون ذلك عدلاً أيضاً ما إن قال هذا حتى رمى نفسه في المقعد منهكاً صامتاً وانقلب الضيف عند كلمة «مقصلة» شاحباً، وتململ الضيوف، وكانت فترة صمت. كان الجنتلمان قد هزم..

هكذا كان « الفيساريون المتهور

كتب دوبروليوبوف في العدد الرابع من **السوفريمينيك** ١٨٥٩ « مهما حدث للأدب الروسي ومهما برعم فسوف يظل بيلنسكي مفخرته ومجده وزينته. إن تأثيره سيظل في كل ما هو جميل ونبيل يظهر في هذه البلاد، فكل شخصية من شخصياتنا الأدبية لا تزال تعترف أنها مدينة بجزء كبير من تطورها، مباشرة أو غير مباشرة، لبيلنسكي...في الحلقات الأدبية قلما عثر المرء على خمسة أو ستة أفراد قذرين يجرؤون على لفظ اسمه بلا احترام. في كل أرجاء روسيا هناك رجال تحمسوا لهذا العبقري، وبالطبع أولئك هم أفضل من في روسيا

تبين لنا تلك الأسطر موقف معظم كتابنا التقدميين في الستينات من بيلنسكي. ولكنا لا نجرؤ على القول إنهم قدروا أهمية بيلنسكي كلهم تقديراً صحيحاً تلك الأسطر ينقصها شيء ما إن تشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف بمذهبهما الأيديولوجي لم يكونا في المركز الذي يتم فيه تقدير دور بيلنسكي تقديراً كاملاً في تاريخ فكرنا الاجتماعي، على الرغم من حماستهما له. لقد عوقهما عن ذلك تخلف العلاقات الاجتماعية المعاصرة في روسيا فقط عندما حقق تطور تلك العلاقات تقدماً ملحوظاً، وعندما تحولت الحياة نفسها إلى حياة ملموسة، أي، إلى الأساس الاقتصادي للتعارض الكبير بين أنصار السلافية وأنصار الغرب حول الطريق التاريخي الذي على بلادنا أن تتبعه - عندها فقط بات بالإمكان تقديم تقييم شامل نهائي عن النشاط الأدبي لبيلنسكي. عندها فقط بات من الواضح أن بيلنسكي لم يكن رجلاً نبيلاً من أعلى طراز، وناقداً كبيراً للأعمال الفنية، وصحفياً حساساً جداً فحسب، بل أظهر أيضاً بصيرة مدهشة في صياغة أهم قضايا تطورنا الاجتماعي وأعمقها، إن لم يكن في حلها وعندما بات هذا واضحاً، فإن الواضح أنه لا يكفي القول أن تأثير بيلنسكي «لا يزال في كل ما هو جميل ونبيل يظهر في بلادنا » بل لا بد أن نضيف أنه **حتى يومنا هذا كل خطوة إلى الأمام يحققها فكرنا الاجتماعي هي مساهمة جديدة لحل مسائل التطور الاجتماعي الأساسية التي اكتشفها بيلنسكي ببصيرته السوسيولوجية الرائعة، ولكن التي لم يحلها بسبب تخلف** « **الواقع** » **الروسي المعاصر** ولو أدرج دوبروليوف هذه الإضافة الضرورية لكان تقييمه لنشاط بيلنسكي الأدبي كاملاً شاملاً.

حول بيلنسكي*[160]
[١٩١٠]

«لا يهتم بالفكر من ليس مفكراً بطبيعته»

بيلنسكي

١

ما نزال لا نعرف الكفاية عن تاريخ التطور الفكري للشخصيات البارزة في أدبنا وحياتنا الاجتماعية. ونعرف أقل شيء عن مجرى التطور الفكري لـ «أبناء الاربعيات»، الرجال الذين كثرت الكتابة عنهم والنقاش حولهم. لماذا ذلك؟ أعتقد أن الأسباب هي إلى درجة بعيدة كالتالي.

كان «أبناء الأربعينات» مشغولين جداً بالفلسفة الألمانية المثالية. هذه الفلسفة تركت تأثيراً عميقاً في كل نظراتهم العالمية، ولذلك لا بد من دراستها لكل من يرغب في فهم كيف تشكلت الآراء الفلسفية والأدبية، وحتى الاجتماعية لأبناء الأربعينات. ولكن هذا هو بالضبط ما أهمله الدارسون الروس في العقود الثلاثة الأخيرة من القرن الماضي، وانها لحقيقة معروفة أن الفلسفة الألمانية المثالية منذ الأربعينات لا تلائم هذه البلاد بينما لم يفشل أي دارس أن يلاحظ حقيقة أن «أبناء الأربعينات» كانوا متحمسين لفيخته وشيلنج وبخاصة هيغل، وقد لوحظت هذه الحماسة لـ «الميتافيزياء» واعتبرت ضعفاً عومل طبعاً بتساهل، ولكنه لا بدل على أي شيء كان انطباعاً من

* كتبت هذه المقالة استعداداً للذكرى المئوية لبيلنسكي، إلا أن فيغيروف أثبت أن بيلنسكي ولد في ١٨١١ وليس في ١٨١٠ ولذلك سوف يرجأ الاحتفال إلى السنة القادمة، ولا أدري أيضاً إذا كان هذا يتم. على أي حال اعتقد أن المسائل المطروحة في هذه المقالة هامة بغض النظر عن الذكرى المئوية.

الأيام الغابرة عندما أغوت الأبالسة النساك الورعين. الانسان ضعيف والعفريت قوي. والناسك أحياناً يستسلم للاغواء، ولكنه لن يكون ورعاً إن لم تسعفه طبيعته الأخلاقية النبيلة وقت الشدة. وفي النهاية كان الشيطان ينقلب مدحوراً ويرجع الناسك إلى طريق الفضيلة القويم. والشيء نفسه حدث لأبناء الأربعينات إن شيطان الحب الألماني للتأمل يتلبسهم بقوة أحياناً، إلا أنهم، أو معظمهم، انتهوا، وفي هذا مفخرتهم، إلى التمرد ضد الروح الشيطانية للمثالية والتحول المظفر إلى الايمان «الواقعي كانت هذه سمة لبداية المرحلة في حياتهم الفكرية التي استرعت اهتماماً كبيراً وتعاطفاً حاراً، والمرحلة السابقة، مرحلة الاغواء الشيطاني، تستخدم بشكل رئيسي لتثقيف الشباب حول موضوع عدم الانجراف مع الميتافيزياء، ولنأخذ بيلنسكي على سبيل المثال. من لم يطلع على قصته التثقيفية كيف أجبره هيغل على التصالح مع الواقع؟ ألم يفرح كل التقدميين في السبعينات والثمانينات والتسعينات بالنهاية العظيمة للقصة الحزينــة: الوداع الساخر لـ «الفيساريون المتهور لـ «قبعة ايغور فيودوريتش الفلسفية». إن الأعداء الحقودين لهيغل كانوا مقتنعين أن بيلنسكي بعد أن ودع «القبعة» توديعاً ساخراً، سوف يتخطى تأثير ذاك المثالي الألماني العظيم. أولئك الذين يلحفون عـلى أن السخرية من «القبعة» لم تشر إلى نهاية ذلك التأثير بل لم تشر إلى أن بيلنسكي وصل إلى فهم مختلف للفلسفة الهيغلية من خلال استيعاب أفضل لنواحيها الديالكتيكية، اعتبروا ميالين إلى السخافة والتناقضات التغالطية الضارة.

الآن تغيرت الظروف بمعنى أنه لا أحد يتجاهل الآن، أو على أي حال لا يجرؤ صراحة أن يتجاهل الفلسفة الألمانية. ولكن في الوقت الحاضر لم يولَ سوى اهتمام قليل لمراحل تطور الفكر الفلسفي الألماني الذي رافقته اسماء شيلنج وهيغل وفيورباخ لذلك لا نزال حتى الآن بحاجة إلى شروط مسبقة ضرورية لفهم التطور الفكري لبيلنسكي وهرزن وبقية انصار الغرب في الأربعينات»، وليس أنصار الغرب وحدهم فقط، فهماً صحيحاً حتى نفهم النزعة السلافية الروسية جيداً، لا بد أيضاً من أن نطلع جيداً على تعاليم شيلنج وهيغل وفيورباخ، التي نسيت الآن في هذه البلاد

كتاب بيبين المشهور بيلنسكي، حياته ومراسلاته لا يرال بالطبع دراسة محترمه جـداً. وتصنيفاً على أساس مراسلات بيلنسكي، يشتمل على مادة قيمة وفريدة في

بيوغرافيا الناقد العظيم. ولكن من الصعب أن يقول المرء أن بيبين تغلب على مهمته فيما يتعلق بتطور بيلنسكي الفلسفي

يقول: « من الصعب تقسيم تطور الرجل داخلياً إلى مراحل محددة، ومن الصعب الاشارة إليها في البيوغرافيا الحالية أيضاً، لأنها وإن كانت تمثل أمرجة غير متشابهة أبداً ضمن حياة قصيرة نسبياً، انبثقت الواحدة من الأخرى تدريجياً، وفيها رواسب عابرة من الماضي، فلا يمكن للمرء إلا أن يشير إلى النقاط البارزة الـتي وصل إليها مراجه هذا أو ذاك. وبهذا المعنى العام فان التطور الكامل لشخصية بيلنسكي ونشاطه يمكن الافتراض أنه بدأ في الزمن (أواخر ١٨٤٢ وبداية ١٨٤٣) الذي حرر فيه نفسه من الرومانسية المثالية وعندما بدأت آراؤه يسودها موقف نقدي تجاه الواقع، نظرة تاريخية اجتماعية. كان هذا زمن النضج، وهو زمن قصير جداً ولكنه غني في نتائجه.. » (فصل ٨).

الواقع أن مواقف بيلنسكي انبثقت الواحد من الآخر تدريجياً، مع رواسب عابرة من الماضي. ولكن ما يستنتج من تلك الكلمات غامض جداً أولاً « موقف نقدي تجاه الواقع ليس فيه نظرة عالية. إن النظرة المثالية العالية تناقض مباشرة النظرة المادية، ومع ذلك فان اتخاذ موقف نقدي تجاه الواقع يمكن أن يظهر من الجانب المثالي أو الجانب المادي. ثانياً « النظرة التاريخية الاجتماعية لا تحدد نظرة عالية فيمكن أن يتخذها مادي أو مثالي. ثالثاً المرحلة القصيرة من نهاية ١٨٤٢ حتى وفاة بيلنسكي (٢٦ أيار ١٨٤٨) لا يمكن اعتبارها منتظمة بالنظر إلى « الموقف الفلسفي. ففي بداية تلك المرحلة يتابع بيلنسكي انجذابه إلى المثالية الهيغلية، بينما في نهايتها استقر على أرض فلسفة فيورباخ هذا الانتقال من المثالية إلى المادية لم يدرس إلا قليلاً، ولكن كما سوف نرى أن من دون فهم هـذا الانتقال يستحيل استيعاب حتى الآراء الأدبية المحضة لبيلنسكي. فلنحاول توضيح هذا الانتقال قدر الامكان كما تسمح بذلك المعطيات القليلة النادرة عن الموضوع

٢

المعطيات نادرة حقاً، على أي حال أنها أندر بالقياس إلى المرحلة السابقة، مرحلة « المصالحة » مع الواقع والتمرد عليه. والحقيقة أن معظم المعطيات، القيمة لتاريخ

التطور الفكري لبيلنسكي موجودة بالطبع في رسائله إلى أصدقائه: سيف ديموكليس الرقابة يتأرجح دائماً فوق مقالاته*

ولكن كما يشير بيبين فان الرسائل التي يمكن أن تقدم مادة لبحثنا من ٢٤ أيار ١٨٤٣ حتى بداية ١٨٤٦ نادرة جداً وعلينا الرجوع إلى هذه الرسائل، مع علمنا المسبق أننا لن نجد كل ما قاله مؤلفنا في الوقت المناسب.

لقد ظهرت سنة ١٨٤٢ مقالة، مفيدة جداً لأهدافنا، عن الكتاب الرائع لباراتينسكي. لقد كتبت هذه المقالة بعد أن ودع بيلنسكي «قبعة ايغور الفلسفية» بزمن طويل. ومع ذلك نواجه فيها رأياً في الفلسفة أنها «علم تطور التفكير في الأفكار قبل الدنيوية وغير المثبتة»**وهذا رأي هيغلي خالص لا مراء فيه. وبعد أن عبّر بيلنسكي عن هذا الرأي يتحدث مباشرة عن تطور تلك الأفكار قبل الدنيوية - وهي الجذور الحقيقية الخفية لكل ما هو موجود، لكل ما يولد ويموت ومن ثم يحيا إلى الأبد، على الرغم من كل شيء هذه هي الهيغلية في أنقى صورها ماذا يعني هذا؟ يبدو أن بيلنسكي بعد أن قال الوداع لـ «قبعة» هيغل الفلسفية كان يمسك بها على أنها مستودع كل أنواع الحكمة الفلسفية. ويمكن أن يقول المرء (وقد قال هذا بيبين) أننا نعالج هنا «التردد» العابر، «البقايا الموقتة للماضي». ولكن لا وجود لذلك. ان «الترددات و«البقايا تدل أنها استغرقت وقتاً أكثر مما يبدو للحظة الأولى. وهكذا في مقالته عن مؤلفات ديرزافين المكتوبة في سنة ١٨٤٣ نجد النظرة الهيغلية الخالصة في الأفكار باعتبارها «نقطة الانطلاق» لأي تطور، وفي المقالة نفسها يوافق ناقدنا (مع بعض التحفظات) على ما ذهب إليه «القضاة المتأملون» في «الرائع» الذين يؤمنون أن «موضوع الفن ليس عابراً نسبياً، بل أبدي غير

---

* في رسالة إلى بوتكين في ٦ شباط ١٨٤٣ يقول: «عدم كتابة شيء وعن لا شيء يصبح مستحيلا أكثر فأكثر من يوم إلى يوم. يمكنك أن تثرثر عن الفن ما استطعت، ولكنك تنفق الوقت والجهد اذا أردت أن تتحدث عن أشياء جادة، أي، عن الأخلاق والأخلاقية. إن صفحة كاملة بترت من مقالتي في العدد الأول من صحيفة أ-ز- وهي أفضل ما فيه، وهذه المقالة كانت نفيسة بالنسبة إليّ، لأنها كانت بسيطة في فكرتها وأسلوبها» المقالة هي «الأدب الروسي في ١٨٤٢».

** مؤلفات بيلنسكي - الطبعة الرابعة جزء ٦ ص ٣٠٢

مشروط »* وهذه أيضاً هيغلية تتضح تماماً في مناقشة بيلنسكي لمجرى تطور الفن في الدول الشرقية القديمة وفي اليونان القديمة فما أسباب هذا التكرار الملحف لـ « القبعة نفسها التي كما سبق وأكدنا، قدر ميت منذ ١٨٤٠** ؟

نجد الجواب في الرسالة نفسها (إلى بوتكين في ١ آذار ١٨٤١) حيث فيها أعلن انفصاله الشهير عن « القبعة الفلسفية يقول بيلنسكي فيها: « لقد ساورني الشك طويلاً في أن فلسفة هيغل هي عنصر فقط، وإن كان الأهم، إلا أن الطبيعة المطلقة لنتائجها غير صحيحة*** تلك الأسطر كتبها بيلنسكي ربطاً مع مقتطف أرسله إليه بوتكين من صحيفة أرنولد روج واكتيرميير **هاليش جاهربوشر**(١٦١)، الناطقة بلسان **الهيغليين اليساريين**. يقول بيلنسكي أن المقتطف المشار إليه أبهجه كثيراً « حتى أنه أنعشني وقواني للحظة ». « أشكرك من أجله شكراً جزيلاً هكذا يضيف وهذا ما يبين أن بيلنسكي في اللحظة التي رمى فيها قبعة هيغل الفلسفية، تاطف كثيراً مع الجناح اليساري للمدرسة الهيغلية. ولا بد أن يلاحظ ذلك أكثر مما في بقية المعطيات. وما هو أهم من كل المعطيات الأخرى هو موقف بيلنسكي من الأساس النظري لمقالته « في الذكرى السنوية لمعركة بورودينو » التي أحدثت جلبة ورضا: « بالطبع الفكرة التي حاولت تطويرها في مقالة عن كتاب غلينكو **مقالات عن معركة بورودينو** صحيحة من حيث الأساس، بيد أن عليّ أيضاً تطوير فكرة النفي تبين هذه الكلمات لماذا كانت الطبيعة المطلقة لنتائج هيغل تغضبه الآن: لقد جعلت « فكرة النفي » مستحيلة. إن الهيغليين اليساريين كسبوا عطف بيلنسكي الحار لأنهم رفضوا النتائج المطلقة للفلسفة الهيغلية وطفقوا يطورون « فكرة النفي ». بيد أن هذه الفكرة، وهي أبعد من أن تكون غريبة عن الفلسفة الهيغلية، تشكل روح الطريقة الديالكتيكية المشهورة لهيغل. لقد شرح هيغل نفسه بفصاحة بالغة أهمية الديالكتيك كأداة قوية لـ « النفي » (انظر مثلاً الجزء الأول المخصّص للمنطق من **الانسيكلوبيديا**).

---

* المؤلفات جزء ٧ ص ص ٦٠ - ٦٣

** « اللعنة على رغبتي الجامحة للمصالحة مع الواقع الآثم! وعاش شلر العظيم الحامي النبيل عن البشرية، النجمة المشرقة للتحرر »... الخ (في رسالة إلى بوتكين ٤ تشرين الأول ١٨٤٠)

*** بيبين **بيلنسكي، حياته ومراسلاته** الفصل ٧ يرى المؤلف في ملاحظة أن لديه « تعبيراً ألطف من تعبير بيلنسكي فيما يتعلق بالطبيعة المطلقة لنتائج الفلسفة الهيغلية ».

وبالتالي فإن بيلنسكي في تمرده على « القبعة » باسم « فكرة النفي لم يكف أبداً عن كونه هيغلياً: فقط عارض جانباً واحداً من فلسفة هيغل بجانب آخر وبما أن الجانب الديالكتيكي لهذه الفلسفة أهم من ذلك الذي يتضمن النتائج المطلقة، نستنتج أن بيلنسكي أصبح هيغلياً حقيقياً في ذلك الوقت بالضبط، وفي ذلك الوقت فقط، عندما تخاصم مع « القبعة الفلسفية لايغور فيودوريتش ». هذه النتيجة المحتومة، كما ترون، هي التناقض الحاد لأهم مفهوم شائع في مجرى التطور الفكري لمؤلفنا

٣

حتى نثبت ما قيل سوف نستشهد بالواقعة التالية. لقد أعجب بيلنسكي كثيراً بمقالة بوتكين « الأدب الألماني في ١٨٤٣ » ولكن في بداية المقالة يشخص بوتكين النظام الفلسفي لهيغل كما يلي:

« كان نظامه في خطوطه الرئيسية قد انتهى قبل ١٨١٠، وتكونت نظرة هيغل في العصور الحديثة في ١٨٢٠ إن آراءه الساسية، ومفهومه عن الدولة، حيث اتخذ انكلترا مثالاً، تحمل أثراً واضحاً من عصر عودة الملكية. وهذا ما يفسر لماذا بدت الأحداث التالية في أوروبا غامضة له. إلا أن دقة ذهن هيغل الخارقة وقوته اتضحتا بالضبط في حقيقة أن نظامه تشكل بصورة مستقلة عن آرائه الشخصية، بحيث أن أعظم نقد للنتائج التي حققها تختبر على أساس طريقته الخاصة. وفي تلك النتائج يرى المرء تأثير الآراء الشخصية. فلسفته في الدين وفلسفته في القانون تشكلتا بصورة مختلفة، فكان عليه تطويرهما من حيث الفكر المحض، من دون أن يدخل فيهما العناصر الإيجابية التي تقبع في أساس الحضارة المعاصرة، ومن هنا اشتملت فلسفته في الدين وفلسفته في القانون على التناقضات والنتائج الخاطئة. إن المبادىء فيهما مستقلة دائماً، وحرة-وحقيقية، بينما النتائج والاستدلالات كليلة. وفي هذا بالضبط يكمن سبب انقسام المدرسة إلى جناحين: يميني ويساري. فقسم من تلاميذه تمسك بالمبادىء ورفض النتائج إن لم تكن منبثقة من المبادىء، كما أدخلوا في طريقته الديالكتيكية كل المسائل الحيوية للعصر سميت هذه المدرسة بالمدرسة اليسارية. وتمسكت المدرسة اليمينية بالنتائج وحدها، من دون أن يزعجوا أنفسهم بالمبادىء »*

---

* هذه المقالة الهامة لبوتكين موجودة في المجلد الثاني لمؤلفاته (بطرسبرج ١٨٩١)، والمقطع هنا مأخوذ من الصفحتين ٢٥٧ - ٢٥٨.

إن بوتكين يتعاطف مع «المدرسة اليسارية لأنها بالضبط «أدخلت» إلى الديالكتيك الهيغلي كل المسائل الحيوية للعصر هذا التعبير غير صحيح بالطبع على المرء أن يقول إن الهيغليين اليساريين **استخدموا الطريقة الديالكتيكية لهيغل** من أجل حل تلك المسائل. إلا أن التعبير لا يهم، بل الفكرة، والفكرة هنا هي نفسها الفكرة التي نجدها عند بيلنسكي: إن إنجاز «المدرسة اليسارية» هي أنها تمردت على النتائج المطلقة عند هيغل (ودعت «القبعة الفلسفية») ونقلت المظهر الديالكتيكي في نظامه إلى المقدمة، أي بدأت تطور «فكرة النفي

أيضاً سوف أضيف هنا أن بيلنسكي صنع هذا مع باكونين، مع الذي كان على خلاف معه مدة طويلة، لدى سماعه أن الأخير انضم إلى الهيغليين اليساريين. لقد اعتقد أن المبدأ الذي اعتنقه باكونين في ذلك الوقت قمين أن «يقوده إلى انبعاث عام (رسالة بتاريخ ٧ تشرين الثاني ١٨٤٢)

٤

مرة أخرى: لم يكن التمرد على «القبعة» تمرداً على هيغل. إنه يسم فقط تحول ناقدنا من المدرسة «اليمينية» إلى المدرسة «اليسارية إلى تمثله للطبيعة الديالكتيكية لنظام هيغل ورفضه نتائجه المطلقة. وهذا يبدو واضحاً في مقالاته التي اقتبست منها أعلاه لتدعيم حقيقة أن بيلنسكي ظل حتى بعد أن رمى «القبعة» نصيراً للمثالية الهيغلية.

في هذه المقالة عن مؤلفات بارتينسكي يناقش بيلنسكي أن الفن من غير فكرة مثل الرجل من غير روح – مثل الجثة وجميع الشعراء، حتى العظام منهم، يجب أن يكونوا مفكرين في الوقت نفسه. ويستخلص «العلم، العلم الحي العصري أصبح الآن مربي الفن ومن دونه يغدو الوحي هزيلاً والموهبة عاجزة »*

في مرحلة حماسه للنتائج المطلقة لفلسفة هيغل كان تعليل ناقدنا مختلفاً ففي ذلك الزمن هاجم سلر وقرظ غوته، والآن (والواقع قبل الآن بقليل وبالتحديد في كانون الثاني ١٨٤١) كتب إلى بوتكين: «سأعترف بخطيئة: لا أستطيع التفكير في شلر من غير أن أستجمع أنفاسي، وبدأت أشعر بنوع من الكره تجاه غوته، أقسم أنني

---

* المؤلفات جزء ٦ ص ص ٣٠٤ و٣٢٤

لا أستطيع إعداد نفسي لمهاجمة مينزل، مع أن هذا الجنتلمان لا يزال في نظري غبياً شلر الآن عزيز على بيلنسكي لأن مؤلفاته عبرت عن فكرة النفي

في مقالة عن مؤلفات ديرزافين برزت نظرة بيلنسكي الديالكتيكية الجديدة في هذا المقطع بشكل حيوي:

«لا شيء يظهر فجأة ولا شيء يولد جاهزاً، كل شيء له نقطة بداية يتطور لحظة لحظة ويتحرك ديالكتيكياً من المرحلة الأدنى إلى المرحلة الأعلى. نلاحظ هذا القانون الصارم في الطبيعة والإنسان والبشرية. إن الطبيعة لا تظهر فجأة، جاهزة، فلها أيام خلقها، أو لحظات خلقها إن مملكة المعادن تنطلق من المملكة النباتية، والنباتية من الحيوانية. إن نصلة العشب تمرّ خلال مراحل عديدة من التطور بحيث أن الساق والورقة والبرعم والبذور ليست سوى مراحل في حياة النبات، كل مرحلة تأتي في تعاقب دقيق. والإنسان يمر عبر مراحل جسدية من الطفولة والمراهقة والشباب والنضج والشيخوخة، وهناك مراحل أخلاقية تتاطبق مع هذه المراحل، تكون في أعماق وعيه وشخصيته. والقانون نفسه يطبق على المجتمعات وعلى البشرية»*

ينتج من ذلك أيضاً أن الفن خاضع لقانون التطور الديالكتيكي ويعترف بيلنسكي بهذا «القانون نفسه يصح على الفن أيضاً فإن كان الأمر هكذا، فإن بيلنسكي لا يستطيع أن يوافق الآن «الحكام التأمليين في الرائع الذين أرادوا أن ينظروا إلى الفن على أنه عالم منفصل كل الإنفصال، قائم بصورة مستقلة في ميادين أخرى من الوعي والتاريخ. والحقيقة لا يزال يعترف، كما رأينا من قبل، أن موضوع الفن ليس عابراً ولا نسبياً، بل أبدي غير مشروط. ومع أنه آمن الآن أن الفن لا يحط من نفسه عندما يخضع للمؤثرات التاريخية. لقد قال إن الأبدي يعبر عنه في الزمن، وغير المشروط محدود بالشكل الذي يظهر فيه، والمطلق يصبح سهل التناول للتأمل في المحدود وبعد أن وصل إلى هذه النَتيجة، أي الديالكتيك وهو جوهر فلسفة هيغل، رأى أن النظرة المطلقة لا يمكن مصالحتها مع النظرة في الفن باعتباره ظاهرة تخضع لقانون التطور، مثل كل ما هو موجود.

---

* المؤلفات جزء ٧ ص ٦٠.

يقول «إذا كان علم الجمال لا يتخذ أساساً له سوى الأفكار وتطورها الديالكتيكي، تاركاً جانباً المعتقدات والتاريخ، ينتج عن ذلك أن أعمال الفن اليوناني هي أعمال جميلة بينما أعمال الفن الهندي والفن المصري لا علاقة لها بالابداع، إنما هي منتجات الجهالة والبدائية، وأن الهندسة الغوطية ليست سوى تجسيد لذوق سيء، وان الأدب الفرنسي رائع بينما الأدب الألماني غث، أو العكس بالعكس، اعتماداً على نقطة انطلاق علم الجمال»*

إن بعض التفسيرات لا بد منها هنا في عرض بيلنسكي يبدو أنه حتى علم الجمال الملتزم بالنظرة المطلقة عليه أن يعالج التطور الديالكتيكي للأفكار ولذلك يمكن للقارىء أن يسأل: ماذا إذن عن استحالة مصالحة المطلق والنظرات الديالكتيكية؟ لكن انقطة هي أن علم الجمال الذي اقترحه بيلنسكي هنا سوف يعالج التطور الديالكتيكي للأفكار خارج اطاري الزمان والمكان، أي في مملكة التفكير المجرد بصورة مطلقة. وهذا التطور، إذ لا شيء يستطيع عمله مع التطور الفعلي للأفكار في عملية التطور التاريخي للبشرية، سوف يؤدي إلى نتائج مطلقة، أي في هذه الحالة الخاصة، إلى قواعد جمالية مطلقة. لقد أعلن بيلنسكي نفسه هذه القواعد في فترة حماسته لـ «القبعة» المطلقة. وفوق ذلك يمكن للمرء حتى أن يقول أنه كان حتى آخر حياته متأثراً إلى حد ما بهذه القواعد. على أي حال، عندما لم يكن دائماً يلح على تطبيق الطريقة الديالكتيكية التي تمثلها على بعض أحكامه الأدبية، كان يصوغ بدقة كاملة المهمة التي تواجه علم الجمال الذي يتخلى عن النظرة المطلقة ويتبنى النظرة الديالكتيكية.

كتب: «مهمة علم الجمال الحقيقي ليس أن يقرر ما يجب أن يكون عليه الفن، بل أن يحدد ما هو الفن. باختصار: يجب على علم الجمال ألا يناقش الفن على أنه شيء مفروض مسبقاً، كنوع من المثال الذي يمكن تحققه فقط وفقاً لنظريته، ليس عليه أن يدرس الفن كموضوع وجد قبله. بزمن طويل، فهو يدين بوجوده الخاص لوجود الفن»**

---

* المرجع السابق ص ٦٤

** المرجع السابق الصفحة ذاتها.

هذه ولا شك فكرة صحيحة. لقد عبر عنها فيما بعد هيبوليت تين، تقريباً بالكلمات نفسها، في كتابه **فلسفة الفن**. وهذه هي كلماته:

«إن الطريقة الجديدة التي حاولت أن أتبعها والتي طفقت تظهر الآن في كل العلوم الأخلاقية، تقوم على النظر إلى جميع المنتجات البشرية والمنتجات الفنية بشكل خاص، على أنها وقائع وظواهر، سمات بارزة يجب اظهارها، وأسباب لا بد من تقصيها - ولا شيء أكثر وهكذا فان العلم لا يشرح الادانات ولا التجاوزات، إنه يشير فقط ويفسر إنه لا يقول لك: «احتقر الفن الهولندي - إنه فظ جداً،، واعجب بالفن الايطالي فقط». وبطريقة مماثلة لا يقول لك «احتقر الفن الغوطي - إنه مريض، واعجب بالفن الاغريقي. إنه يمنح كل فرد الحرية الكاملة في اتباع ميوله الخاصة في تفضيل ما يناسب مزاجه، ودراسة ما يتطابق مع تطور روحه. أما بالنسبة إلى علم الجمال نفسه، فيجب أن يعامل بتعاطف جميع أشكال الفن والمدارس الفنية، حتى تلك التي تبدو معارضة: إنه يعتبرها تجليات مختلفة للروح الانسانية»*

يجب أن تبدو هذه الفكرة ضرورية طالما بقينا في الميدان العلمي الخالص: فعلم الجمال كعلم لا يقيم أي أسس نظرية تبيح لنا القول إن الفن اليوناني يثير اعجابنا وان الفن الغوطي يستدعي إدانتنا، أو العكس بالعكس. إن القضية تقدم نفسها في ضوء مختلف تماماً، بالطبع حالما نترك ميدان علم الجمال. إن الأعمال الفنية هي وقائع وظواهر انتجتها العلاقات الاجتماعية للبشر ومع تغير العلاقات الاجتماعية فان الأذواق الجمالية، وبالتالي أعمال الفنانين تتغير أيضاً إن انساناً ما في أي مرحلة اجتماعية معينة سوف يميل دائماً إلى تفضيل الأعمال الفنية التي تعبر عن تلك المرحلة. ففي مجتمع منقسم إلى طبقات تختلف أذواق مرحلة معينة اعتماداً لى مركز الطبقات التي تكونه. وبما أن أي ناقد فني هو نفسه نتاج بيئته الاجتماعية، فان أحكامه الجمالية ستحددها دائماً خصائص البيئة. ولذلك لن يكون قادراً على تجنب تفضيل مدرسة في الأدب أو الفن على مدرسة أخرى، تعاكس السابقة. كل هذا صحيح، لكنه لا يعارض لا بيلنسكي ولا تين. على العكس إنه يبين أنهما كانا على حق تماماً في رفض القواعد الفنية المطلقة. إن علم الجمال العلمي يصبح مستحيلاً إذا اعترفنا بهذه القواعد

---

* بليخانوف هنا يقتبس من الترجمة الروسية لكتاب هيبوليت تين **فلسفة الفن** بطرسبرج ١٩٠٤ ص ١١.

٥

علي أن أكرر ما قلت إذا أردت مناقشة الآراء الأدبية لبيلنسكي هنا* لذلك سوف اقتصر على موضوع لم اتطرق إليه في مقالاتي السابقة - وهو موضوع موقف بيلنسكي من الشعر الشعبي.

حتى للذين يتعاطفون مع ناقدنا العظيم لم يفهموا هذا الموقف حق فهمه. ومنهم بيبين الذي يقول إن نقص آراء بيلنسكي سرعان ما بدا واضحاً في عدة مجالات عقب وفاته. أولاً وقبل كل شيء يؤكد الباحث المحترم أن بيلنسكي تخلى عن كل ما هو قديم، عن الأدب والشعر الشعبي قبل المرحلة البطرسية، وقلما أشار إلا نادراً جداً إلى مرحلة ما قبل البطرسية في كلمات بيبين: «لم يكن الماضي الشعبي قبل البطرسية سوى مرحلة بدائية غير واعية، لم تعد مفيدة لنا طالما أن مرحلة من التنوير الحقيقي قد ابتدأت وأدباً جديداً قد ظهر، فالشعر الشعبي كان ثرثرة طفولية بالقياس إلى الوعي الفني لأدب فني خاص»**

كل هذا صحيح، ومع ذلك غير صحيح بالفعل إن الماضي الشعبي قبل البطرسية في نظر بيلنسكي كان مرحلة غير واعية، أو إذا أردنا الدقة، خلال تلك المرحلة كانت تلتمع أضواء خافتة من الوعي بصورة نادرة، حسب رأي بيلنسكي. وبالفعل أيضاً أن بيلنسكي اعتبر الشعر الشعبي ثرثرة طفولية بالقياس إلى الوعي الفني للأدب «الفني». ولكن من الصعب حقاً قبول أن بيلنسكي تطرق عرضاً إلى الشعر الشعبي. فهل يرى القارىء أن سلسلة المقالات التي نشرها في صحيفة أوتيشيستفيني زابسكي في ١٨٤١ وكرسها بالضبط للشعر الشعبي جاءت عرضاً؟ هذه السلسلة تستغرق ٢٤٧ ص في المجلد الخامس من مؤلفات بيلنسكي.

نرى أن هذه السلسلة من المقالات «العرضية» أكثر من طويلة. وقد زاد بيلنسكي على النص الأصلي فيما بعد اضافات بهدف اعادة نشرها في التاريخ النقدي للأدب الروسي الذي خطط له. وهذا ما يبين أن اهتمامه بالشعر الشعبي لم يتلاش حتى فيما بعد

---

* لقد أخذوا بعين الاعتبار مقالاتي: «بيلنسكي» (في تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر) و«المراجعات الأدبية عند بيلنسكي» في مجموعتي «عشرون عاماً». واني أشير على القارىء بتلك المؤلفات(١٦٢)

** تاريخ الأدب الروسي المجلد ١ ص ٢٠

بالطبع لا يستطيع المرء أن يجادل حول حقيقة أن ناقدنا تطرف في ردة فعله ضد الحماسة الرومانسية للشعر الشعبي ولكن لا بد أن نتذكر أنه لم يكن له أي رأي ضد كل الشعر الشعبي، فقد قدّر الشعر الشعبي اليوناني تقديراً عالياً لقد عامل شعر الشعب الروسي بازدراء تقريباً، ولكن هناك سبباً يلفت النظر ويحمل شهادة تدل على القوة الكبيرة لفكر بيلنسكي وعمق دراساته الفكرية.

إن هذا يستحق أن ننظر فيه تفصيلا فبيبين يتابع: «ثانياً لأن الفائدة الجمالية التي قدمها الأدب لم يستطع بيلنسكي أن يرى أهميتها التاريخية الثقافية الكبرى»*

هذا أيضاً غير صحيح فبيلنسكي يشخص نوعياً، دارساً الأغاني الشعبية الروسية، أن الشعر الشعبي «أفضل من التاريخ نفسه في اظهار الحياة الداخلية للشعب، في كونه مقياس الشعور المدني... ومرآة روح الشعب»**

وهذا هو الطرف النقيض لما يقوله بيبين. فما القضية هنا؟

القضية هي أن رأي بيلنسكي لم يكن محصوراً بـ «الفائدة الفنية» للأدب الشعبي، بل حاول على العكس أن يتعمق حتى **مضمونه**. وقد بدا له ذلك المضمون فقيراً جداً، ليس فقط عند الشعب الروسي، بل عند الشعوب السلافية. وحسب رأيه فان الشعر الطبيعي لكل تلك الشعوب غني بالشعور والتعبير» ولكنه فقير في المضمون. ينقصه عنصر «العام»*** وهذا هو السبب في أن رأيه كان التقليل من هذا الشعر جداً وهذا ما يمكن فهمه.

ولكن كيف فسر فقر مضمون الشعر الشعبي السلافي؟ في طرحنا هذه المسألة سوف نتطرق إلى أهم ناحية من نواحي النظرة العالمية عند بيلنسكي

لقد ذهب إلى أن مضمون الشعر الشعبي يحدد مضمون الحياة عند الشعب. فحيثما يكون المضمون فقيراً في الشعر الشعبي تكون حياة الشعب فقيرة. فإذا كانت أنشودة

---

* تاريخ الأدب الروسي مجلد ص ٢٠

** المؤلفات جزء ٥ ص ٦٤

*** المرجع السابق ص ٦٥

ضيف ايغور[١٦٣] لا تقارن بـ «الالياذة» أو حتى بقصائد القرون الوسطى في الغرب، فسبب هذا أن حياة الشعب الروسي في القرن الثاني عشر كانت أشد فقراً بما لا يقاس في المضمون من حياة اليونان القديمة أو حياة أوروبا الغربية في المراحل المطابقة لتطور الفن الشعبي الشفوي. وحتى يدعم بيلنسكي هذه الفكرة عقد مقارنة بين حياة أوروبا الغربية في القرون الوسطى والحياة الاجتماعية الروسية في القرن الثاني عشر.

يقول: «يا للإختلاف الكبير إن الإقطاعية تضمنت فكرة، فنظام الإقطاعات كان عرضياً، كان نتيجة لمفاهيم حق الوراثة البطريركية الطبيعية. فكانت الاقطاعية نتيجة نظام الغزو، شعب بكامله يغزو شعباً آخر، ويستقر في أرضه. وبما أن القوة الشخصية للغازي لم تأت من الولادة بل من الشجاعة والجدارة، فان الانسان المنتخب رئيساً للحشد يستولي على قطعة من الأرض التي تم غزوها ويوزع الباقي بين أعوانه. وقد أدى هذا إلى نتائج لا عد لها، لا يمكن من دون فهمها حتى تفسير تاريخ أوروبا المعاصر»*

المقارنة النظرية لا يمكن تفادي انتقادها. فلا أحد يمكن اعتبار نظام سياسي بكامله أنه حصيلة صدفة، حتى بيلنسكي نفسه يعتبر نظام الاقطاعات نتاج «مفاهيم حق الوراثة البطريركية الطبيعية». إن نظاماً تنتجه مفاهيم «طبيعة» شعب ما ليس نظاماً بالصدفة. إلا أن هذا أمر عابر، لأن الشيء الرئيسي هو أن مؤلفنا يعتقد أن من المستحيل تفسير «حتى تاريخ أوروبا المعاصر» من دون الأخذ بالحسبان الغزوات التي كانت نقطة الانطلاق في الاقطاعية الأوروبية.

لقد أدت الغزوات في المجتمع الأوروبي الغربي إلى ظهور طبقة «الزعماء» من جهة، وطبقة «الأتباع» المحاربين الأحرار، من جهة أخرى. وكلا الطبقتين سادت الشعب المدحور وحولته إلى عبيد، بكل معنى الكلمة. وهذا هو سبب الصراع الطبقي الذي لا يتوقف، والذي ترك تأثيراً عميقاً في كل الحياة الاجتماعية للغرب.

٦

يقول بيلنسكي: «إن حق الارستقراطية لم يكن سوى حق طبقة متكبرة فقط لعواطفها الرفيعة وطريقتها النبيلة في التفكير، ولاعتقادها - وليس من دون سبب -

* المرجع السابق صص ٨٣ ٨٤.

أنها تملك حق النظرة الدونية للغوغاء التي هيأتها طبيعتها للأغراض الوضيعة في الحياة.
إن ظهور المدن والطبقة الوسطى كان الخطوة الأولى نحو تغيير تلك العلاقات حتى قبل ذلك بدأ صراع بين الملوك واللوردات الاقطاعيين، صراع لبس صدفة بل حصيلة طبيعية لمجرى الأمور، صراع ضروري لتشكيل الدولة ككيان ساسي موحد وقد وجدت الملكية حليفاً طبيعياً في المدن، كما وجدت المدن حليفاً طبيعيا في الملكية، وقد وقف الفريقان معاً ضد الفرسان، حتى وقف الفرسان، الذين انحطوا في الأرستقراطية والبلاطات، مرة ثانية كحليف طبيعي للملكية، وظهر عدو أيضاً من نوع مختلف من الطبقة الوسطى والشعب »*

هذه « **الفكرة** » الخاصة أو بالأحرى - واقعة الغرو هذه والصراع الطبقي في المجتمع الأوروبي الغربي، أدت إلى اغناء مضمون الحياة الاجتماعية الأوروبية الغربية يقول بيلنسكي: « هذا الوضع أدى إلى الصراع [وقد رأيا أنه صراع طبقي - ج ب] الذي أنتجه تطور عقلي** ».

التطور العقلي للحياة الاجتماعية، بدوره، أدى إلى إغناء المضمون في الفن الشعبي الشفوي، وبشكل خاص في الشعر الشعبي

فماذا نرى في روسيا القديمة؟ هنا لا نجد، حسب تعبير بيلنسكي، ولو ظلاً مما حدث في العرب

كان نظام الإقطاعات هو نفسه نظام المالك العقاري: فالأب المالك العقاري يقسم الفلاحين بالتساوي بين أبنائه لم يكن ثمة غرو في روسيا، بحيث أن العنصر الواحد في الحياة الشعبية الذي لا يقابله أي عنصر آخر مناقض، يفقد امكانية تطوره... لم تكن ثمة أثر للصراع المميت بين الأمراء، لأن سببه لم يكن خلافات قبلية، ولا عناصر متنافرة، وإنما فقط خلافات شخصية إن الشعب لم يلعب أي دور هنا، ولم يساهم بأي نصيب إن شعب تشيرنيغوف حارب شعب كييف لا بسبب الحقد القبلي، بل بسبب أوامر الأمراء هذا النوع من الصراع صوره بوشكين ببراعة في قصه **دوبروفسكي**، كشجار بين فلاحي ترويكوروف وفلاحي دوبروفسكي. تشاجر اللوردات، وطفق

---

* المؤلفات ص ٨٥

** المرجع السابق جرء ٥ ص ٨٤

الخدم يتشاجرون، فيتلف كل فريق حقول الآخر، ويقتل قطيعه ويشعل النار في أكواخه

هذه الحجج لا يمكن قبولها من دون بعض التحفظات الكبيرة. أولا في المرحلة الاقطاعية المبكرة كان موقف السكان في شتى المقاطعات تجاه الأمراء مختلفاً عن الموقف الذي اتخذه أنصار «الملكية المعمدانيّة من مالكيهم العقاريين. إن شعب تشيرنيغوف وكييف.. الخ قلما أظهر رغبة في قتال الواحد الآخر بسبب أوامر الأمراء فقط إن المنافسة بين شتى أقاليم البلاد الروسية تفسرها أسباب أعمق. لا بد أن يعترف المرء هنا بـ «صراع العناصر المتنافرة». فلا شك، بالطبع، أن تنافر العناصر الذي نجم عن صراع الأقاليم الروسية المختلفة ليس له الأهمية التقدمية ذاتها كالتنافر الذي أوجده الصراع الطبقي في المجتمع الأوروبي الغربي. إن الصراع المتبادل للطبقات دائماً، أو في معظم الأحيان (أي ما عدا تلك الحالات التي لا يتم فيها بسبب ميزان القوى الاجتماعيه المتصارعة) يسهل تقدم العلاقات الاجتماعية إلى درجة أبعد من الصراع المتبادل بين الدول أو الأقاليم. وهكذا أن بيلنسكي ليس مخطئاً كل الخطأ ثانياً إذا أخذ الغزو بحد ذاته فانه لا يقرر النتائج الاجتماعية الناجمة عنه. في أقطار مختلفة وعصور مختلفة يؤدي إلى نتائج غير متشابهة أبداً إن كل شيء يعتمد على مستوى التطور الاقتصادي للغازين والمغزيين. وإلى جانب ذلك فان الاقطاعية قامت في أوروبا الغربية بعد غزو العالم الروماني الغالي من قبل القبائل الجرمانية بزمن طويل، بحيث من الخطأ الاقتصار في التفسير على الغزو وحده ولكن عندما تشكلت آراء بيلنسكي، فان هذه الفكرة لم تخطر إلا نادراً حتى للمختصين في التاريخ: فمن المعروف أي أهمية كبرى عزاها للغزوات أوغسطين تييري وميبيه وغيزو والمؤرخون الفرنسيون البارزون الآخرون. وأخيراً فإن الرأي الآن ينتشر في الأدب التاريخي والسوسيولوجي الروسي أن روسيا أيضاً لم تَنْجُ من عملية الإقطاعية. فإذا قبل هذا الرأي، فلا يكون ثمة أساس لمقارنة بيلنسكي روسيا بالغرب فعلى المرء ألا ينسى أن العملية المشار إليها أعلاه، في كل مكان تتوحد في جوهرها، تتم في أقطار مختلفة بدرجات متباينة من الشدة، وتحت شروط تاريخية مختلفة، وتؤدي إلى نتائج اقتصادية وسياسية غير متشابهة أبداً سأتخذ من مصر القديمة مثالا إن الاقطاعية وجدت هناك أيضاً إلا أن النتائج الاقتصادية والسياسية للاقطاعية المصرية كانت مختلفة تماماً عن

النتائج الاقتصادية والسياسية لاقطاعية أوروبا الغربية. ولهذا من المناسب أن نسأل أنفسنا سؤالا - أين، في الشرق أو الغرب، نجد نتائج اجتماعية لعملية الاقطاعية أكثر ملاءمة للتطور التقدمي للمجتمع، أو حسب أسلوب بيلنسكي، لـ «التطور العقلي» ليس ثمة شيء في هذه القضية. فالشرق، ومن ضمنه روسيا، كان متخلفاً جداً في هذا المجال عن الغرب ويبدو أن بيلنسكي لم يكن مخطئاً كما يتراءى للوهلة الأولى. كان رأيه من حيث جوهره صحيحاً تماماً كانت الشروط الملائمة في الغرب لـ «التطور العقلي» أكثر بكثير من شروطنا المحلية، ولهذا كان الفرق في مضمون الشعر الشعبي - غناه الكبير في شعوب الغرب وفقره الكبير في الشعب الروسي

٧

قال هيغل. «التناقض هو الدافع إلى الأمام» وقد طبق بيلنسكي فكرة هيغل العميقة هذه على قضية التطور الاجتماعي السياسي والأدبي مضفياً عليها صياغة مختلفة، فقد قال إن التطور العقلي كان نتيجة الصراع الذي سببه تنافر التركيب الاجتماعي وفي إلحاحه على هذا (ولنذكر القارىء هنا بعد انفصاله عن «القبعة») ظل تلميذاً مخلصاً لهيغل. ولكن أي هيغل؟ ليس هيغل الذي ذهب إلى أن فلسفته كانت نظاماً مطلقاً، ولكن هيغل الذي تكلم بفصاحة أثناء محاضراته عن القوة الخفية للديالكتيك الذي يلجأ إليه للحكم على كل ما هو قائم في الأرض ويلفظ حكم الاعدام على كل ما هو مطلق، كل ما فقد معناه التاريخي. وهذا هو السبب لماذا بيلنسكي في مقالته المعروفة عن مؤلفات باتيسكي، المقالة التي لا يزال فيها مثالياً خالصاً مؤمناً بوجود «أفكار قبل الديمومة وغير واقعية»، يعامل الواقع بصورة مختلفة تماماً عن معاملته عندما كتب مقالتيه. «في الذكرى السنوية لمعركة بورودينو» وعن «مينزل»*

يسأل: «الواقع؟ ولكن ما الواقع إن لم يكن تحقق القوانين الأبدية للعقل؟ إن أي واقع آخر ليس سوى كسوف موقت لضوء العقل، سوى عملية حيوية رهيبة - ويمكن أن يكون هناك كسوف أبدي للشمس، ألا تظهر الشمس أشد اشراقاً وسطوعاً بعد

---

* فيما يتعلق بفترة تطوره هذه انظر مقالتي المشار اليها أعلاه «بيلنسكي» أيضاً «بيلنسكي والواقع العقلي» في مجموعة عشرون عاماً[١٦٤]

الكسوفات؟ لا بد أن يكون المرء قادراً على التمييز بين الواقع العقلي، وهو وحده حقيقي، والواقع غير العقلي الذي هو وهم رائل »*

قال من قبل. كل ما هو واقعي عقلي. الآن يقول: فقط كل ما هو عقلي واقعي، والباقي وهم. من قبل كان مخلصاً لهيغل مبدع النظام المطلق، الآن مخلص لهيغل الديالكتيكي إن التأكد من حقيقة أن ما يوجد ليس واقعياً هو الحصيلة النظرية المبدئية لبيلنسكي التي ظهرت في انفصاله عن « القبعة ». إنه الآن مثالي كالسابق، إلا أن مثاليته الآن تتخللها أكثر فأكثر روح الديالكتيك. إن حقيقة أنه ظل مثالياً كانت سبب أخطائه النظرية الرئيسية في ذلك الوقت، بينما حقيقة أن مثاليته تخللتها روح الديالكتيك مكنته من القاء ضوء كبير على الشروط الاجتماعية التي تقرر التطور الروحي والاجتماعي للبشرية، وباختصار المثالية الديالكتيكية هي أساس كل من النقاط القوية والضعيفة في نظرة بيلنسكي العالمية آنذاك.

فلننظر أولا في النقاط القوية.

وجد السيد ستيكلوف في مؤلفات تشيرنيشيفسكي على أن الصراع الطبقي هو القوة الدافعة للتطور الاجتماعي في الغرب، واستنتج أن المؤلف الشهير لـ « **تعليقات على ميل** » كان قريباً من نظرة ماركس. وقد بينت أن هذه خطيئة كبرى، لأن الرأي نفسه في الأهمية التاريخية للصراع الطبقي كان يتصف به بوغودين الذي كان بعيداً جداً عن الاشتراكية العلمية** والآن أعود ثانية إلى مقالة المؤرخ الموسكوفي التي استشهدت بها في اعتراضاتي على ستيكلوف.

يمكن أن يتذكر القارىء أن المقالة سميت « الموازنة بين التاريخ الروسي وتاريخ الدول الأوروبية الغربية، بالعودة إلى البداية وقد ظهرت في العدد الأول من **الموسكفيتانين** لعام ١٨٤٥ وقد عبر السيد بوغودين في حديثه عن العرب عن رأي كان قريباً إلى الرأي الذي عبر عنه بيلنسكي قبله ببضع سنوات في مقالاته عن الشعر الشعبي الروسي. كتب.

---

* المؤلفات المجلد ٦ ص ٣١٠

** انظر مقالتي « مرة أخرى عن تشيرنيشيفسكي » التي نشرت في عدد نيسان من السوفريمينيك مير عام ١٩١٠.

« الغزو، التقسيم، الاقطاعية، المدن بطبقتها الوسطى، الحقد، الصراع، تحرر المدن - تلك هي المأساة الأولى في الثلاثية الأوروبية ».

« الأوتوقراطية، الارستقراطية، صراع الطبقة الوسطى، الثورة - تلك هي الثانية »

« القوانين، صراع الطبقات الدنيا   المستقبل في يد الله ».

وفي انتقال بوغودين إلى التاريخ الروسي كرر ما قاله بيلنسكي كلمة كلمة تقريباً

« نلاحظ لأول وهلة أنه في هذه البلاد، في بدايته [أي بداية التاريخ الروسي - ج. ب] لا توجد ولو واحدة [يقصد ظاهرة واحدة - ج. ب] جاءت في الشكل نفسه: ليس ثمة انقسام ولا اقطاعية ولا مدن مقدسة، ولا طبقة وسطى، ولا عبيد ولا حقد ولا كبرياء ولا نضال.. »*

إن مقالة ممثل القومية الرسمية سببت قلقاً في معسكر أنصار السلافية. وقد رد عليها كيريفسكي بمقالة عنوانها « حول التاريخ الروسي القديم »، نشرت في العدد الثالث من الموسكفيتانين في العام نفسه. إلا أن اعتراضات كيريفسكي على بوغودين لا تتطرق إلى الفكرة الرئيسية الأخيرة. إن كيريفسكي يوافق عليها تماماً يقول: « إنك تذهب إلى أن الفرق الرئيسي بين روسيا القديمة وأوروبا الغربية هو أن دول الغرب أنشئت على أساس الغزو، وهذه البلاد لا تعرفه - وهذه حقيقة لا جدال فيها »**. إنه ينتقد بوغودين فقط لموقفه المتناقض من هذه الفكرة الأساسية، وأيضاً لبعض مراجعه غير الموثوقة في حالة الثقافة وسمات الروح الشعبية الروسية في مرحلة الأمراء الأوائل. هذا الخلاف حول مسائل ثانوية لا أهمية له عندنا من المهم أن كيريفسكي (بالطبع مع أنصار السلافية الآخرين***) مثل بيلنسكي وبوغودين اعتبر غياب الغزو في هذه البلاد

---

* عندما قدمت اعتراضاتي على سيكوف، لم تكن لدي مقالة بوغودين واقتبست مقاطع منها من ملاحظات بارسوكوف. إنها الآن لدي. والأسطر المقتبسة هي من ص ص ٣-٤ من القسم العلمي في العدد الأول من الموسكنيانين لعام ١٨٤٥

** الموسكفيتانين ١٨٤٥ رقم ٣ ص ١٢ القسم العلمي.

*** كتب خوميوكوف في ١٨٤٥ « بداية أوروبا الغربية شيء وبدايتنا شيء آخر فهناك كل شيء ظهر على تربة رومانية يغرقها غرو الحشود الجرمانية، هناك كل شيء، ظهر من الغرو ومن الصراع الطويل، الضئيل ولكنه مستمر، بين المنتصر والمندحر   إلا أن روسيا شيء مختلف تماماً » (« رسالة الى بطرسبرج » الموسكفيتانين ١٨٤٥ رقم ٢ قسم الأدب ص ٧٧).

والصراع الطبقي المشروط به على أنه الفارق الرئيسي بين التاريخ الروسي والتاريخ الأوروبي العربي وهنا مغالطة تبدو لنا فبالنظر إلى المسألة الأساسية لمجرى تاريخنا بالمقارنة مع تاريخ الغرب، لم يختلف بيلنسكي في كل شيء مع خصومه، الذين هاجمهم من قبل في كل من مقالاته ورسائله* فأين تبدأ الخلافات اذن؟

قبل الاجابة عن هذا السؤال، اعتقد أن من المفيد أن نذكر القارىء بالمقارنة التالية بين **أوتشيستفيني زابسكي** (لسان حال بيلنسكي في ذلك الوقت) **وماياك** (لسان حال بوراشوف التجهيلي) التي قام بها كيريفسكي آخر هو ايفان

في مقالته «مراجعة في الوضع الراهن للأدب» يكتب هذا النصير السلافي اللطيف جداً بخبث مسور

«تحاول **أوتشيسنفيني زابسكي** أن تخمن وتتمثل نظرة إلى أشياء هي في رأيها تؤلف آخر تعبير عن التنوير الأوروبي، ولذلك عندما تغير طريقة تفكيرها، تظل مخلصة لشيء واحد هو التعبير عن أفكار آخر موضة، آخر عواطف في الأدب الغربي

«المایاك على العكس تلاحظ فقط ذلك الجانب من التنوير الغربي الذي يبدو لها مضراً أو غير أخلاقي، وحتى تجتنب أي تعاطف معها نقول إنها ترفض كل تنوير أوروبي برمته من غير الدخول في أي تحليل ريبي لذلك تقرظ الواحدة تذمه الأخرى، وترضى الواحدة بما يغضب الأخرى، حتى التعبيرات الواحدة في معجم صحيفة ما تقدر تقديراً عالياً مثل **الأوروبية**، **المرحلة الأخيرة للتطور**، **الحكمة الإنسانية**.. الخ تنتقد في صحيفة أخرى انتقاداً شديداً ولذلك يمكنك أن تعرف رأيها

---

* يكتب بيلنسكي أثناء تجواله في روسيا في رسالة من أوديسا الى أصدقائه الموسكوفيين «في كالوغا هرعت الى إ - أ [من الواضح أنه ايغور اكساكوف] شاب رائع نصير السلافيه - ولكن من الرقه كأنه لم يكن يوماً نصيراً للسلافية. بشكل عام انحرفت الى زندقة مخيفة، وبدأت أفكر أنه يمكن أن يوجد شباب مهذبون بين أنصار السلافية. التفكير في هذا يجعلني حزيناً، إلا أن الحقيقة فوق الجميع ولكن الزندقه لم تتجذر في قلبه وفي رسالة من سمفيروبول يعبر بيلنسكي بصورة حادة «بعد دخولنا السهوب القرويية رأينا ثلاثة أمم جديدة علينا الخراف القرويية، والجمال القرويية، والتتار القروييين لقد آمنت أنهم أنواع مختلفة ولكن من جنس واحد، أو قبائل مختلفة في أمة واحدة. انهم يشتركون كثيراً في ملامحهم. كانوا لا يتكلمون لغة واحدة، فان الواحد يفهم الآخر وكلهم يبدو نصير السلافية

من دون قراءتها. نعرفه من الصحيفة الأخرى فقط بعكس معاني الكلمات التي فيها » (موسكفينانين ١٨٤٥ العدد ٣ قسم النقد ص ٢١).

الخبث هنا أنه في كلمات كيريفسكي، أوتيشيسنفيني زابسكي، أي بيلنسكي، محاولة فقط لالتقاط الفكرة والتعبير عنها كما ظهرت في آخر تقليعة في الغرب. إن هذا لا يقدم جواباً كما يفهم أي واحد يعرف عمق تفكير بيلنسكي والى جانب ذلك فان المقارنة بين الصحيفة المشار إليها والماياك ذو أهمية جادة ولكن إذا نحن عارضا آراء بيلنسكي ليس بآراء الماياك، بل بآراء أصحاب الموسكفينانين، حتى في تلك الفترة التي كانت فيها تحت سيطرة أنصار السلافية الأرثوذكسيين، فاننا سوف نكرر ما قيل، مع بعض الاستثناءات، وبالضبط تلك التي جاءت في الشاهد المقتبس من مقالة كيريفيسكي

لقد مدح بيلنسكي ما ذمه أنصار السلافية، وسر بما غاظهم، حتى التعبيرات الموحدة التي في معجم بيلنسكي التي تشير إلى درجة كبيرة من الأهمية مثل: الأوروبية، المرحلة الأخيرة من التطور، الثنائية،تنافر العناصر، صراعها الخ أثارت نقداً شديداً لدى أنصار السلافية. ولذلك، من دون قراءة الموسكفيتانين، يمكن أن يعلم المرء آراءها من أوتيشيستفيني زابسكي شريطة تفسير كل الكلمات بالمعنى المعاكس. والحقيقة لا بد للمرء حتى يفعل ذلك من أن يكون مطلعاً اطلاعاً عميقاً على فلسفة « هيغل »

وكما أشرت من قبل، كان بيلنسكي الذي أعلن في ١٨٤١ أن الصراع الطبقي هو نقطة البداية في التطور العقلي، مخلصاً حقاً لروح هيغل الديالكتيكي، الذي كرر « التناقض هو الذي يدفع إلى الأمام » ولذلك فان تعبيرات من أمثال الصراع المتبادل للعناصر المتنافرة الخ منحت مكانة مشرفة في معجم ناقدنا، ولهذا السبب بالذات أثارت هذه التعبيرات نفسها نقداً بالغاً عندما استخدمها أنصار السلافية.

كل هذا على الرغم من موافقتهم الكاملة على حقيقة الغرو في الغرب وغياب الغرو في روسيا وقد وافق بيلنسكي أنصار السلافية أن الغرو هو نقطة بداية لكل تطور اجتماعي وروحي في أوروبا الغربية. ولكن في حين آمن أنصار السلافية أن مجرى التطور نوع من الخطيئة الكبيرة أو من سوء الحظ الكامل، اعبره بيلسكي عقلياً

ومصدراً للغنى الروحي. كما وافق أيضاً مع أنصار السلافية على أن روسيا لم تعرف الغرو ولكن في حين رأى أنصار السلافية في هذا نعمة كبرى من القدر، رأى فيه بيلنسكي سبباً لفقرنا الروحي وقد افترى عليه الناس باتهامه أنه قال إنه ينظر الى الشعب الروسي بازدراء لقد اعتقد أن المرء «لا يمكنه من الشعر الشعبي الروسي أن يثبت ما يدل على عظمة الشعب وروحه القوية وأن كل شعرنا الشعبي برهان على القوة اللانهائية للروح »* ولكنه لم ير في التاريخ الروسي ذلك الصراع الذي لم يوقف في الغرب ولو للحظة**، حسب تعبيره، واستخدم هذا ليفسر تخلف الروح القوية للشعب الروسي فغياب الأسباب الداخلية للتطور يدفع المرء إلى البحث عن الأسباب الخارجية. ومن هنا كان التعاطف الحار لمؤلفنا مع اصلاحات بطرس الأكبر فالروح الروسية «تيقظت من الخارج »*** وهذا أيضاً يفسر، حسب رأيه، «السبب في أن أعظم شاعر روسي قومي، بوشكين، صقل وحيه الشعري ليس في حضن الشعر الشعبي، بل بتربة الشعر الأوروبي، ولم تأت تدريباته من قصائد كيرشا دانيلوف عن قصص الجان **أنشودة ضيف ايغور**، أو من الأغاني الفولكلورية، بل من لومونوزوف ويرزافين وفونغيرين وبوغدانوفيتش وكريلوف وأزيروف وكارامزين وديمترييف وجوكوفسكي وباتيوشكوف - وهم كتاب النثر والشعر الذين كانوا مقلدين وليسوا كتاباً قوميين أبداً، باستثناء كريلوف وحده، الذي كانت قصصه قومية في سمتها لكنها لم تكن ظاهرة أصيلة، طالما أن كريلوف لم يجد نماذجها في الشعر الشعبي بل في مؤلفات لافونتين الفرنسي »****

التناقض يدفع إلى الأمام. وعندما يغيب من الحياة الداخلية، فان على المرء أن يستعير، طوعاً أو كرهاً، القوة المحركة للتقدم الاجتماعي من الخارج

٨

أثناء مناوشات بيلنسكي الوحشية مع أنصار السلافية كان ديالكتيكياً حتى أخمص

---

* المؤلفات جزء ٥ ص ٦٤

** المرجع السابق ص ٨٤

*** المرجع السابق ص ٦٤

**** المرجع السابق ص ٦٥.

قدميه، بينما في نظرتهم العالمية كان العصر الديالكتيكي غائباً كلياً عنهم. كان هيغل سيدعوهم ميتافيزيكيين من الدرجة الأولى.

خذ على سبيل المثال ا س خوميوكوف. في « رسالة إلى بطرسبرج » المقتبسة أعلاه قال واصفاً نتائج الغزوات في الغرب: كانت الحروب المستمرة تهدأ دائماً بمعاهدات سلم، وأدى هذا التأرجح الأبدي إلى حياة مشروطة، حياة العقد، أو الاتفاقية الخاضعة لقوانين الحساب المادي المنطقي، إن جاز القول. إن الصيغة الجبرية الدقيقة كانت في الحقيقة المثال الأعلى الذي كانت حياة الشعوب الأوروبية كلها تسعى في سبيلها من غير وعي إن دساتير أوروبا الغربية هي الصيغ التي عبّرت، حسب رأي أنصار السلافية، عن علاقة العناصر المتغايرة التي حاربت بعضها بلا توقف في المجتمع الأوروبي الغربي إن الصراع الذي أخضع الحياة كلها «لقوانين الحساب المادي المنطقي، إن جاز القول» ترك ميسمه أيضاً على التربية الروحية للانسان الغربي. إن حياة الغرب الروحية تتسم بسيادة العقلاني. الأمور تختلف عندنا ففي روسيا « لم يكن ثمة صراع ولا غزو ولا حرب أبدية ولا معاهدات دائمة، انها ليست نتاج ظرف، بل نتاج تطور حي عضوي. لقد نمت، ولم تبن »* ولذلك لا تحتاج روسيا إلى دستور (وهو عقد بين الملك والشعب) بل إلى اتحاد ودي بين القيصر و« الأرض ». وللسبب نفسه لا يكون الروسي الحقيقي عقلانياً جداً، وتفكيره يتسم باستقامة مفيدة يحسد عليها، بفضلها تسير المعرفة يداً بيد مع الايمان الذي يصوننا من كل أنواع الانتفاضات الاجتماعية. ويقول كيريفسكي الشيء نفسه: «ليس في شعوب أوروبا من ظهرت فيه الدولة من تطور الحياة القومية والوعي القومي، حيث تسود المفاهيم الدينية والاجتماعية، متجسدة في العلاقات اليومية، نامية ومجتمعة ومرتبطة في وحدة فكر عكست بصورة صحيحة الاستقامة المنسجمة للهيئة الاجتماعية. على العكس في أوروبا، فالحياة الاجتماعية لسبب تاريخي غريب نشأت في كل مكان بصورة عنيفة من الصراع الأخلاقي لقبيلتين متعاديتين، من اضطهاد الغزاة ومن مقاومة القهر، ومن تلك الظروف العرضية التي كانت حصيلة النزاعات بين القوى المتضادة »**

---

* موسكفيتانين ١٨٤٥ عدد ٢ القسم الأدبي ص ٧٧

** في مقالة « حول طبيعة التنوير في أوروبا وعلاقتها بحركة التنوير في روسيا » المؤلفات الكاملة. موسكو ١٨٦١ المجلد ٢ ص ٢٤٠.

على العكس، فروسيا لم تعرف الدولة التي ظهرت من العنف ولا الثقافة التي تتخللها العقلانية. إن الفكر الروسي، الذي يكمن في قاع الأسلوب الروسي في الحياة، سكل تحت رعاية آباء الكنيسة الأرثوذكسية. إن الأرض الضخمة لروسيا انتشرت فوقها منذ الزمن القديم الأعداد الضخمة للأديرة التي عملت كمصادر للتنوير يقول كيريفسكي: «ومنها انتشر ضوء الوعي والعلم بصورة واحدة ولا انفصام بينهما في المعنى لدى مختلف القبائل والامارات. إذ ليست المفاهيم الروحية للشعب فقط انطلقت من الأديرة، بل كل مفاهيم الأخلاق والحياة الاجتماعية والقانون تخضع لتأثيرها الثقافي ثم ترجع منها إلى الوعي الاجتماعي متخذة اتجاهاً واحداً عاماً وبما أن رجال الدين يتطوعون من كل الطبقات من دون أي أفضلية، من الطبقتين العليا والدنيا، فانهم بدورهم ينشرون المعرفة في كل الفئات والطبقات، يحملونها من المصادر الأصلية، من المركز الحقيقي للتنوير المعاصر، الذي كان عندئذ في القسطنطينية وسوريا والجبل المقدس»*

إن النزعة السلافية لخوميوكوف وكيريفسكي واكساكوف وآخرين، التي تختلف عن النزعة «السلافية» أيام الاسكندر الأول اختلافاً جوهرياً، كانت فلسفة التاريخ الروسي التي أوجدها أيديولوجيو طبقة ملاك الأراضي تحت التأثير الأقوى للصراع الطبقي في الغرب** إن تاريخ التطور الفكري لبيلنسكي هو تاريخ رازنوشنستي روسي عبقري ذي ميل بديهي إلى جانب الحركة الاجتماعية الكبرى التي عبر عنها الصراع الطبقي الدائم المتأصل في المجتمع الغربي. وقد انجرف بيلنسكي في هذا الاتجاه الذي أرعب أنصار السلافية. كتب كيريفسكي: «بعد أن نشأت الدول الأوروبية عن طريق العنف، كان عليها أن تتطور من خلال الانتفاضات *** ويتفق «الفيساريون المتهور في هذا مع كيريفسكي. ولكنه بعد أن ألقى «القبعة الفلسفية لايغور فيودوريتش» كان قادراً أن يقيم الأهمية الكبرى للانتفاضات الأوروبية للعالم كله. فليس بلا طائل أنه تفاهم مع باكونين بعد المقالة التي ذهب فيها إلى أن «عاطفة

---

* المرجع السابق ٢٥٩ ٢٦٠

** سوف يظهر هذا تفصيلاً في السوفريير في مقالة أعدها الآن «أنصار السلافية وأنصار الغرب .

*** المرجع ذاته ص ٢٤٩

التدمير هي عاطفة خلاقة   وليس بلا طائل أن محافظيا شعروا أنه « يقوض الأسس حتى عندما يتكلم عن مسائل أدبية صرفة. إن المحافظين غالباً ما يتمعون بصيرة رائعة

٩

فلنلق نظرة الآن على النواحي الضعيفة في نظرة بيلنسكي العَالمية في الفترة التي تناولها

عندما اتضحت النقاط القوية في هذه النظرة العالمية بامتزاجها بالروح الديالكتيكية، فان النقاط الضعيفة في النظرة تجذرت نظراً لأن ديالكتيك بيلنسكي كان مثالياً مثل هيغل.

على الرغم من أولئك النقاد والمؤرخين للأدب الذين اعتقدوا أن بيلنسكي فضل حتى نهاية عمره أن ينظر إلى الأدب ليس نظرة تاريخية، بل نظرة فنية، سوف أذكر القارىء مرة أخرى أن النظرة التاريخية في الشعر سيطرت عليه فعلا منذ أن تبنى الموقف الديالكتيكي ومن قبل في ١٨٤١ يقول: « إن لشعر أي شعب روابط وثيقة بتاريخه. والنفس الخفية للشعب موجودة في الشعر والتاريخ، بحيث أن تاريخه يمكن أن يفسر شعره، وأن شعره يمكن أن يفسر تاريخه » * وحتى لا ندع مجالا للشك حول أي نوع من التاريخ يعني، يضيف: « اننا نذكر هنا التاريخ الداخلي للشعب، الذي يفسر الأحداث الخارجية والصدفة في حياته » ** ولكن هذا التاريخ الداخلي نفسه بماذا يفسر؟ بالنظرة العالمية للشعب. يقول بيلنسكي: « إن مصدر التاريخ الداخلي للشعب يكمن في « نظرته العالمية في نظرته المباشرة للعالم وسر الوجود *** بالطبع هذه مثالية صرفة وبمناسبة أخرى، وتقريباً حوالي هذا الوقت بالذات، يعبر بيلنسكي عن نفسه حتى بصورة أوضح.

« الأدب وجدان الشعب. ففي الأدب، كما في مرآة، تنعكس روحه وحياته، في الأدب. كما في الحقيقة، يمكن أن يظهر مصير الشعب، والمكان الذي يشغله في الأسرة

* المؤلفات ج ٥ ص ٦٢

** المرجع ذاته

*** المرجع ذاته ص ٦٣.

الكبيرة للجنس البشري، والمرحلة في التطور التاريخي العالمي للروح الانسانية التي يعبر عنها من خلال وجوده. إن مصدر أدب الشعب لا يوجد في بعض المثيرات والدوافع الخارجية، بل في نظرته العالمية. فالنظرة العالمية لأي شعب هي جوهر روحه، تلك النظرة الأصيلة المتميزة للعالم التي بها يولد كتجلٍ مباشر للحقيقة، والتي هي قوته وحياته وأهميته - ذلك الموشور الواحد بألوان متعددة للطيف، الذي من خلاله يتأمل سر الوجود. إن النظرة العالمية هي مصدر الأدب وأساسه... وتعريف النظرة العالمية للشعب مهمة شاقة، وعمل جبار يحتاج إلى جهود أعظم العباقرة وممثلي المعرفة الفلسفية المعاصرة، وتنفيذ تلك المهمة يعني أن تعالج حياة الشعب المعني معالجة كاملة... »*

إن النظرة العالمية لأي شعب هي مصدر أدبه وأساسه، وهذا لا شك فيه. ولكن المسألة هي ما إذا كانت حياة الشعب مشروطة بنظرته العالمية أو، على العكس، أن النظرة العالمية تخلقها شروط الحياة. إن بيلنسكي يحل هذه المسألة الأساسية بالأسلوب المثالي. إنه يدعو النظرة العالمية للشعب «انكشافاً مباشراً للحقيقة». ولن يدهشنا هذا إذا وضع المرء في الحسبان أن كل الطبيعة (كل العالم، كل الحياة) في ١٨٤٢، لا تزال تبدو لمؤلفنا تحقيقاً للأفكار بلا لحم ولا دم** أما كيف تتطابق فكرة بيلنسكي المثالية عن «جوهر روح الشعب» مع تلك الحجج حول التاريخ الداخلي للمجتمع الأوروبي الغربي الذي أظهر لنا بوضوح أن الغنى الروحي للشعوب الأوروبية الغربية يحدده المضمون الغني لحياتها الاجتماعية (الصراع المعقول مشروط بواقع الغزو)؟ بالطبع لا أحد يستطيع أن يتفق مع الآخر والعودة إلى الصراع الطبقي كسمة مميزة للمجتمع الأوروبي الغربي هي مبدأ من مبادىء التفسير المادي للتاريخ الذي نجده في كل من مقالات بيلنسكي نفسه، وفي كثير من مؤلفات معلمه هيغل. ظل هذا المبدأ (ولا يستطيع إلا أن يظل في شروط ذلك الزمَن) لا يتطور لذلك فان نظرة بيلنسكي الواضحة والمتماسكة في التاريخ الداخلي للمجتمع الأوروبي الغربي رفدتها نظرة غامضة عن التطور الداخلي لروسيا

---

* المؤلفات الجزء ٤ ص ٤١٠

** تحليل مقاله بيكيننكو «خطاب عن النقد» المؤلفات الجزء ٦ ص ٢٠٣.

إن الصراع المتبادل بين الطبقات الاجتماعية استخدم كمصدر للغنى الروحي في تطور الغرب ولم يكن ثمة مثل هذا المصدر في روسيا، ولذلك عليها أن تلتفت إلى الغرب هكذا يعلل بيلنسكي على أي حال حتى لو تركنا جانباً حقيقة أن من الغريب جداً أن نفسر غياب هذا المصدر النفيس بالقول إن الشعب الروسي «ولد «تجل مباشر للحقيقة مختلف، فان من لم يرغب في «التجلي المباشر» الذي كان من نصيب شعوب الغرب، لا بد أن يضع في الحسبان ما يلي:

حتى تغني روسيا نفسها بالاستعارة من الغنى الروحي الغربي، عليها أن تحول تربتها الخاصة، وهي سبب النشأة والنمو وبما أن ذلك السبب هو الصراع المتبادل بين الطبقات الاجتماعية، فإن اصلاحات بطرس تبدو أنها قادرة على اغناء «جوهر روح شعبنا فقط إذا أدت إلى ظهور مثل تلك الشروط الاجتماعية في هذا القطر الذي يدخل «الصراع المعقول» المفيد وفي الوقت الحالي يرى تلامذة ماركس أهمية اصلاحات بطرس الأكبر في هذا المنحى بالذات. إنهم يؤمنون أنهم يسرعون في تفسخ العلاقات الاقتصادية القديمة ويوجهون تدريجياً تطورنا الاقتصادي في الاتجاه نفسه الذي كان اتخذه التطور الاقتصادي في الغرب. هل رأى بيلنسكي اصلاحات بطرس في هذا الضوء؟ لا أبداً والحقيقة أنه في نهاية حياته، عندما انفصل نهائياً عن مثالية هيغل، وهضم مادية فيورباخ أفصح عن فكرة أن من الأفضل لو تطورت البرجوازية في هذه البلاد، أي لو أن بيئتنا الاقتصادية أصبحت مشابهة للبنية الأوروبية الغربية. على أي حال لم يطور هذه الفكرة على النحو المطلوب في مؤلفاته. ومن الملاحظ أن الرجل نفسه (رجل عبقري بكل معنى الكلمة) الذي فهم في عام ١٨٤١ فهماً جيداً دور الصراع الطبقي في التاريخ الداخلي للمجتمع الأوروبي الغربي، استطاع في ١٨٤٧ (في رسالة إلى بوتكين في ٨ آذار) أن يربط أفكاره عن مستقبل الشعب الروسي بصفات الشخصية الروسية كتب بيلنسكي: «الشخصية الروسية لا تزال جنيناً، ولكن كم من السعة والقوة في طبيعة هذا الجنين. كم هو مسيء وكم هو مرعب بالنسبة لها كل أحادية جانب وكل ضيق عقلي. انها تكرهها وتخافها قبل أي شيء آخر - وفي رأيي أن نرضى بلا شيء أفضل من أن تستعبدها أحادية الجانب»* يقول بيبين أن حجج

* بيبين «بيلنسكي، حياته ومراسلاته» الفصل التاسع

بيلنسكي تلك مأخوذة من بعض أصدقائه كدليل فقط على ميله « إلى المثالية السلافية تقريباً إن **تقريباً** في غير مكانها هنا! فان يعلق المرء آماله على سمات الشخصية الروسية كأنه **بالضبط** يلجأ إلى صفات روح الشعب الروسي، التي غالباً ما لجأ إليها أنصار السلافية عن عمد إلا أن أنصار السلافية التزموا أيضاً بالمثالية التاريخية، كما آمنوا أيضاً بنظرة عالمية هي أن الشعب هو القوة المحركة الرئيسية لكل.. تاريخية، كدت أقول حركة، لو أن الحركة الوحيدة التي تحتل مكانة في الآراء التاريخية لأنصار السلافية لم تكن جامدة - مثل حبّة بازلاء

١٠

في هذه الحالة لا تقترب آراء بيلنسكي كثيراً من أنصار السلافية فقط، بل انها تقترب أيضاً من أفكار فونفيسين، مع أنه لم يشر في أي مقالة من مقالاته إلى تلك الناحية من أفكار مؤلف **القاصر** الذي أتذكره الآن.

في رسالة إلى بولغاكوف من مونتبلير في ٢٥ ك٢ (٥ شباط) ١٧٧٨ يكتب فونفيسين.

« لن أزعجك بوصف رحلتنا، سوف أقول فقط أنها أثبتت لي حقيقة المثل القائل: **دائماً يبدو العشب أشد اخضراراً في الضفة الأخرى**. والحقيقة أن الأذكياء نادرون في كل مكان. هنا طفقوا يعيشون قبل أن نبدأ، ولكننا على أي حال، في بداية عيشنا يمكن أن نقدم لأنفسنا الشكل الذي نرغب، ونتجنب كل الشرور والآثام التي تجذرت هنا اننا نبدأ وهم ينتهون. وأنا أعتقد أن الذي يولد هو أسعد من ذلك الذي يموت »*

وكما أعرف فان هذه هي « صيغ التقدم » السابقة القائمة على المثالية التاريخية والتي أرجعت إلى الاعتقاد المتفائل أن « نحن » يمكن أن نقدم لأنفسنا « شكلا ما إن « صيغة التقدم الذاتية التي قدمت فيما بعد مثل هذا الاحساس في روسيا هي ذاتها الصيغة نفسها، باستثناء الرموز الجبرية التي حلت محلها القيم الحسابية: الكوميون، الطريقة الشعبية في الانتاج الخ « الصيغة ذاتها، بعد اجراء التغيرات اللازمة، نجدها عند شادايف نظراً لأنه كان يستفيد من هذه الحسابات، وعند هررن

* المؤلفات، الرسائل الخ بطبعة يفريموف ص ص ٢٧٢ ٢٧٣.

وتشيرنيشيفسكي وفي كل سخة من هذه الصيغة الرئيسية «نحن» لا نقصد الجماهير الشعبية، بل ذلك القسم من السكان الذي يفترض أنه قائد الشعب. وهذا ما يقوله بيلنسكي، مثلا، عن الدور التاريخي لبطرس الأكبر: قبل بطرس الأكبر   كان الشعر الروسي، مثل الحياة الروسية تماماً، جسداً فقط، ولكنه جسد يبثق من الحياة العضوية، انه قوي معافى عظيم جبار قادر وجدير أن يكون دعاءً لروح عظيمة - ولكنه جسد لا يملك روحاً إنما يسظرها ويبحث عنها   وبطرس نفخ فيه الروح الحية

ويتوقف القلب عن الخفقان لدى التفكير بالمصير العظيم الذي ينتظر شعب بطرس» *   في «صيغة هرزن كان الشعب بطريقته الكوميونية في الحياة يلعب دور الجسد، وكانت طبقة النبلاء المثقفة، الدنيا والوسطى، التي كانت تتمسك بالمثال الاشتراكي، تلعب دور بطرس. أما بالنسبة إلى الذاتيين فقد حل الرازنوشنتسي محل النبلاء   الخ إن عقدة المسألة لا تكمن في هذه التغايرات بل في حقيقة أن في كل منها لا يعتبر الشعب القوة المحركة للتطور التاريخي، بل شيء ما مربب تجاه الشعب بحيث يختار هذا «الشكل» أو ذاك. وحتى نعود إلى بيلنسكي سوف أضيف أن هذه النظرة المثالية للمجرى الممكن للتطور الاجتماعي الروسي جعله يتناقض مع نفسه فانظر، على سبيل المثال، كيف يسخر من محاولات خلق أدب روسي صغير قومي «أما بالنسبة إلى الروس الصغار، فان من المضحك الافتراض أن شعرهم الشعبي، الذي يمكن أن يكون جميلا، يمكنه أن يُنتج شيئاً الآن: ليس فقط عاجزاً عن خلق أي شيء - هذا الشعر نفسه كف عن النمو في زمن بطرس الأكبر، يمكنه فقط أن يتقدم اذا كان القسم الأنبل والأعظم من السكان الأوكرانيين يتخلون عن الرقصة الرباعية الفرنسية ويرجعون إلى رقصة الغوباك والتريباك ويستبدلون المعطف الذيلي والفروك بالجوبان والسفيتكا، ويحلقون رأسهم ويتركون ضفيرة في وسطه، وباختصار ينتقلون من الحضارة والثقافة والاسانية (التي تحتاجها روسيا الصغرى من أجل وحدتها مع روسيا) إلى البربرية السابقة والجهالة» **

لم يكن بيلنسكي ميالا أبداً إلىّ النظر إلى الشعب من خلال نقاب الأهواء المهذبة

---

* المؤلفات القسم ٥ ص ١٥٩

** المرجع السابق ص ص ٦٥   ٦٦

ها يبدو كما لو أن القطاع النبيل الأعظم من السكان الروس الصغار كان طبقة نبيلة يرتدي المعطف الذيلي والفروك وترقص الرقصة الرباعية الفرنسية

كتب بيلنسكي بعد ست سنوات، متحدياً أنصار السلافية الذين لاموا أقليتنا المثقفة لخيانتها التقاليد الشعبية: «إن تقسيم الشعب إلى أغلبية وأقلية، والعداء المزعوم بينهما، يمكن أن يكون صحيحاً من وجهة نظر المنطق، إلا أنه زائف من وجهة نظر الحس العام. إن الأقلية تعبر دائماً عن الأكثرية بشكل صحيح أو غير صحيح. إنه من الغريب أن نعزو كل الصفات القبيحة إلى الأغلبية والصفات الجيدة للأقلية. إن الأمة الفرنسية سوف تبدو رائعة حقاً إذا حكم الناس عليها بالنبالة الفاسقة في أيام لويس الخامس عشر يبين هذا المثال أن الأقلية أقرب إلى التعبير عن الجوانب القبيحة من الجوانب الجيدة لشخصية الشعب القومية، لأنها تعيش حياة مصطنعة وتجعل نفسها معارضة للأغلبية كشيء منفصل غريب عنها ونحن نرى هذا أيضاً في فرنسا المعاصرة، في البرجوازية - الطبقة السائدة هناك الآن»*

إن تقسيم الشعب إلى أغلبية وأقلية متعادية ومضادة الواحدة مع الأخرى ليس أبداً زائفاً من وجهة نظر الحس العام: إنها الفرضية الضرورية لعملية الصراع الطبقي التي اعتاد بيلنسكي أن يفسر بها لنا عن جدارة التطور الروحي للغرب. ولماذا «تعبر» الأقلية دائماً عن الأغلبية؟ هل «عبر» الغزاة دائماً عن المغزيين؟ هل «عبرت» الارستقراطية عن الطبقة الثالثة؟ إن بيلنسكي نفسه يرى أنها لا تعبر ويلاحظ: إن الأمة الفرنسية تبدو رائعة حقاً لو أن الناس حكمت عليها بالنبالة الفاسقة أيام لويس الخامس عشر». ويلح أيضاً أن البرجوازية الفرنسية المعاصرة لا بد أن تعبر عن الجوانب القبيحة للشخصية القومية الفرنسية. ولكن ذلك يعني أن تقسيم الشعب كما سبق صحيح تماماً متى هذا التذبذب الذي لم يكن مألوفاً في حجج كاتبنا العظيم؟ إن بيلسكي يفشل في تنسيق رأيه في تطور الغرب مع رأيه في تطور روسيا وسبب هذا الفشل يرجع، كما قلت، إلى أن الرأيين غير مسجمين مع بعضهما فالأول يؤلف عنصراً هاماً في التفسير المادي للتاريخ، بينما الأخير يمترج كلياً بالمثالية**

---

* المرجع السابق الجرء صص ٤٤ ٤٥

** يقول بيلسكي متابعاً مجادلته مع أنصار السلافية. «لذلك فان مصدر كل تقدم لا يكمن في ثنائيه الشعب، بل في الطبيعة الإنسانية، كما أن الأخيرة تشمل على مصدر الانحرافات عن الحقيقة، عن الركود

١١

أريد من القارىء أن يولي اهتماماً للمقاطع التالية.

في ١٨٤٤ وبعد تحليل رواية أسرار باريس لأوجين سو التي ترجمها ستروويف، وصف بيلنسكي الحياة الداخلية لفرانسا في ذلك الزمن كالتالي:

لقد انحطت الارستقراطية. احتلت البرجوازية الصغيرة مكانها النابع من امبيازاتها، والبروليتاريا، التي ساعدت البرجوارية الصغيرة في صراعها مع الارستقراطية، أخرجت بعيداً عن الأشياء كلياً «إن الشغيل السرمدي للمالك الخاص والرأسمالي، البروليتاري وهو في أيديهما بشكل كامل، هو عبدهما تماماً، لأنهما هما اللذان يقدمان له الشغل ويحددان المكافأة عن ذلك الشغل بصورة اعتسافية»* إن البرجوازية المتخمة تصبح مسحلة أكثر فأكثر إلا أن شرارات الخير لم تتميز بعد في فرانسا، فمركزها ليس ميئوساً منه تماماً سوف ينقذها الشعب. «إن الثقافة تحقق تقدماً سريعاً في الشعب، الذي له شعراؤه الذين يبيبون له مستقبله، ويقاسمونه آلامه ولا يختلفون عنه لا في اللباس ولا في طريقة الحياة. لا يرال ضعيفاً ولكنه يحتفظ وحده بأجيج الحياة القومية والحماسة القوية للاعتقاد أنه بات متميزاً في الطبقات «المثقفة في المجتمع ولكنه حتى الآن له أصدقاؤه الأصلاء انهم أناس ربطوا آمالهم بمصيره ورفضوا طوعاً أي مساهمة في السلطة والسوق المالي. إن الكثير منهم في حين يتمتعون بشهرة أوروبية كرجال علم وأدب ويملكون كل الوسائل لأن يكونوا في مقدمة السوق التأسيسية، يعيشون ويعملون في بؤس طوعي نبيل. إن صوتهم الواعي القوي يخيف البائع والشاري وسماسرة الادارة، وهذا الصوت ارتفع دفاعاً عن الشعب الفقير المسحوق، إن أصواتاً لادارة الحكومة تصرخ صراخ البوق يوم القيامة»** ما أشير إليه هنا هو تماماً موقف «الشعب الفقير» من أصدقائه، الاشتراكيين المثاليين في ذلك

والسكون (المؤلفات الجرء ص ٤٦) يبدو الوضع معكوساً تماماً هنا يبدو من عرض بيلسكي أن أنصار السلافيه يلجؤون الى «الثنائية» أي الى الصراع المتبادل للعناصر المتباينة، كمصدر لكل تقدم، بينما يدير ظهره لهذا المصدر، ويلجأ الى الطبيعة الإنسانية وهذا كان حد ناقضه مع نفسه، التناقض الذي تجدر في النظرة المثالية للتاريخ

* المؤلفات جرء ٩ ص ١٤

** المرجع السابق جرء ٩ ص ١٦.

العصر فقد رفع الاشتراكيون صوتهم دفاعاً عن الشعب، والشعب نفسه كان «ضعيفاً». لكن بيلنسكي يقول إن الشعب ضعيف فقط في ذلك الوقت: «الشعب طفل، ولكن الطفل يمو ويقدم وعداً بأن يصبح رجلا كامل القوة والفكر»* وبكلمة أخرى إن فرنسا سيقذها الشعب الذي يتطور وعيه سريعاً تحت تأثير العلاقات الفرنسية الاجتماعية السياسية.

ولكن ماذا عن هذه البلاد؟ في مقالة «أفكار وملاحظات عن الأدب الروسي» التي ظهرت في **بيتربرغسكي سبورنيك** عام ١٨٤٦ درس مؤلفنا وضع روسيا بالتفصيل. وفي رأيه، علينا ألا نشكو من مصيرنا، طالما أن العلم تجذر في هذه البلاد، وان لم يأخذ مفعوله تماماً، كما تجذرت الثقافة بشكل عميق: «أوراقها صغيرة وقليلة وقليلة عدداً، وجذعها ليس طويلا ولا ثخيناً، ولكن جذورها عميقة بحيث لا تقتلعها عاصفة ولا اعصار ولا قوة»** وندين لنجاحنا في ثقافتنا إلى أدبنا بصورة رئيسية. إن دوره في روسيا ضخم جداً (وسأضيف تحفظاً خاصاً بي) وغير متوقع إلى حد ما إنه لم يوجد فقط أخلاق مجتمعنا، بل أقام علاقات داخلية بين الطبقات، وشكل نوعاً من الرأي العام، وخلق نوعاً من الطبقة الخاصة في المجتمع التي تختلف عن **الطبقة الوسطى** المألوفة بحيث أنها لا تتألف فقط من التجار والبرجوازية الصغيرة، بل من رجال من كل الطبقات جاؤوا ليرتبط واحدهم بالآخر من خلال الثقافة، التي تمركزت في هذه البلاد حصراً في حب الأدب فقط»***

في فرانسا، القوة المحركة للتقدم هي الصراع الطبقي، وفي هذه البلاد الأدب هو الذي يقود إلى التقارب الداخلي بين الطبقات. في فرنسا، الصراع الطبقي يقود الى تطور الوعي لدى الناس، وفي هذه البلاد يؤدي تأثير الأدب إلى ظهور طبقة خاصة تتألف من كل الطبقات. يقول بيلنسكي فيما بعد إن الفرق في الثقافة الأدبية تجلت في حياة هذه البلاد «وقسمت الناس الى أجيال تختلف في الفعل والفكر والعقيدة، أجيال

---

* المرجع السابق ص ١٥

** المرجع السابق الجزء ١٢ ص ٢٤٢

*** المرجع السابق ٢٤٣.

ماقشاتها وعلاقاتها الجدلية سطلق من مبادىء لا من مصالح مادية، وهي معالم الحياة الروحية التي تظهر وتتطور في المجتمع *

في الغرب صراع الطبقات، وفي روسيا صراع المبادىء في الغرب الاشتراكية، وفي روسيا احلال جيل محل جيل آخر سوف يرى القارىء أن هذين الرأيين متضاربان فيما بينهما

شعر بيلنسكي، لأنه رجل عبقري، أن ثمة شيئاً خطأ، أن من الواجب حل هذا التناقض. لقد قال: «الواضح الآن أن العملية الداخلية للتطور المدني في روسيا سوف سبدأ فقط عندما تتحول الطبقة النبيلة الروسية إلى طبقة ببرجوازية. وبولونيا خير برهان على مدى قوة الدولة التي لا تملك برجوازية محصنة بالحقوق». ولكن ما شعر به هذا الرجل العبقري، ظل لفترة طويلة كتاباً مغلقاً في وجه الديمقراطيين الروس. أولئك الناس (النارودنيك والذاتيون) ظلوا يكررون باستمرار «فليخلصنا الرب من الرأسمالية». وقد أثبتت الحياة صواب بيلنسكي. وقد أصبح الماركسيون الروس مفسري هذه الحقيقة.

سضيف بضع كلمات هنا في رأي بيلنسكي، مهما كان عظيماً ومفيداً دور التنوير والأدب في روسيا، فانهما لن يقررا مصيرهما وبطرس الأكبر شيء نادر وإلى جانب ذلك فان ممارسة حكم نيقولا لم تكن مناسبة لا للأدب ولا للتنوير فأين الحل؟ يا للحسرة. إن على المرء أن يبحث عنه في نوايا الحكومة الطيبة.

في بواكير ١٨٤٨ أي بعد أن كتب بيلنسكي رسالته الشهيرة الى غوغول، مفعماً بالاحتجاج الثوري المندفع، انتقد في رسالة الى صديق له يعيش في باريس انتقاداً حاداً أولئك الرجال الذين بعملهم الطائش «يستفزون الحكومة ويثيرون شكوكها بحيث ترى التمرد حيث لا تمرد، ويحرضون على اجراءات قاتلة للأدب والتنوير». إن القضية التي نوقشت هنا كانت قضية شمشنكو الشهيرة. ويلاحظ بيبين أن بيلنسكي كان قليل المعرفة بهذه القضية وهو كذلك ولا شك. ولكن الاتجاه العام لفكر بيلنسكي لا يزال كما هو: يجب على المرء ألا يستفز الحكومة وإلا فانها تتخذ اجراءات

---

* المرجع السابق ص ٢٤٥.

تقضي على التنوير والأدب. إلا أن حكومة نيقولا سرعان ما أثيرت وظلت هذه الفكرة غير محققة، بحيث أن الاجراءات لم تتوقف عن تهديد الأدب والتنوير لحظة. وبيلنسكي لا يفشل في التحقق من هذا، ولذلك لا يفشل في أن يرى أن آماله في مستقبل أفضل كانت قائمة على أساس متداع ولكنه لا يستطيع أن يجد أساساً أفضل من ذلك. لقد كان بهذا الصدد معجباً جداً بالمتنورين الفرنسيين العظام في القرن الثامن عشر الذين، انسجاماً مع آرائهم التاريخية، علقوا آمالهم أيضاً بشكل واسع على تعاظم الثقافة، ولكنهم لم يخفقوا في رؤية أن الثقافة تهددها باستمرار عقبات سببها الحكم المطلق في تلك الأيام. ولذلك حاولوا أيضاً ألا يثيروا هؤلاء الملوك، وعلى الأخص أولئك الذين كانوا بعيدين عنهم (بروسيا وروسيا) وادعوا التعاطف مع تعاليمهم. ايمانهم بالمقاصد الطيبة لهؤلاء الملوك البعيدين كان مهملا من حيث الأساس، ومع ذلك ضحكوا منهم معتقدين أن شيئاً خير من لا شيء وقد سبق أن بينت في كتابي **النظرة الأحادية في التاريخ** أن المثالية التاريخية في أكثر أنواعها انتشاراً (أي المثالية التاريخية الذاتية) فتحت لأنصارها آمالا ليست أبداً وضاءة وهامة كما اعتقد المدافعون عنها ومن دون أدنى مبالغة يمكن أن يقول المرء أن معتنقي المادية التاريخية فقط في مقدورهم أن يكونوا سياسيين متماسكين وواعين*

إن المتنور يعلق كل آماله على نجاح الثقافة المهددة باستمرار لاجراءات «عنيفة وقاتلة من قبل التجهيليين الذين في السلطة. فليس من المدهش أن كثيراً من المتنورين الذين نفذ صبرهم تخلوا فترة عن موقف المثالية التاريخية الذاتية ولجؤوا إلى المنطق الموضوعي للأشياء، محاولين العثور في حياة الناس على تلك العناصر التي يضمن وجودها انتصار العقل في المستقبل. في تاريخ فكرنا الاجتماعي لعب دور هذه العناصر بعض الأشكال القديمة لطريقة شعبنا في الحياة، وفي مقدمتها كوميون القرية. ويلاحظ التعاطف مع هذا الشكل بين أعضاء حلقة بتراشيفسكي[١٦٦] يقول خانيكوف: «يا أرض الأم أين بيتك الكوميونية، أين أنت يا حرية الشعب، نوفغورود أيها

---

* البروفسور بيزيليوف، الذي يلمح الى هذا، يعزو التفكك السياسي للمتنورين الفرنسيين العظام، بغباء وحطأ، الى قلة أخلاقهم، بينما هو في الحقيقة متجذر في مثاليتهم التاريخية (أنظر كتابيه. الاتجاهات الأدبية في عصر كاترين و ن.ا نوفيكوف)

المهيمن العظيم؟ »* وقد ذكرت القارىء من قبل بالدور العظيم الذي عزي للكوميون في آراء النارودنيك والذاتيين لدى ميخائيلوفسكي ولكن ربما لا يذكر كل شخص الآن أن ميخائيلوفسكي نفسه في عدة مناسبات بدأ يجادل الحكومة أن « المسألة الاجتماعية التي تحظى بأهمية ثورية في الغرب هي مسألة محافظة في هذه البلاد. كانت هذه ظاهرة للتفكك المحتوم والمألوف في الفكر السياسي القائم على المثالية التاريخية

١٢

يقول بيلنسكي في مقالته « نظرة في الأدب الروسي في ١٨٤٦ مناقشاً أنصار السلافية أن « علينا ألا نقف عند الاعتراف بصحة هذه الواقعة أو تلك، بل علينا أن ندرس الأسباب، على أمل العثور في الشر على وسائل الخلاص منه »** إن هذه نظرة ديالكتيكية خالصة، جديرة بتلميذ نجيب لهيغل العظيم. وفيما بعد يعبر عن الفكرة ذاتها بكلمات مختلفة.

ويساءل مشيراً إلى كثيرين من الروس الذين يذهبون إلى « الأوروبيين الكاملين » ولكنهم يرجعون غير عارفين ماذا هم، ولهذا السبب بالضبط يرغبون في أن يكونوا روسيين. « ماذا يعني كل هذا؟ هل أنصار السلافية على حق في أن اصلاحات بطرس الأكبر انتزعت منا هويتنا القومية وجعلتنا بين بين؟ هل هم على حق في قولهم إن علينا العودة الى البنية الاجتماعية وإلى أخلاق عصر غوستوميزل[١٦٧] الحكايات الخرافية أو القيصر الكسندروفيتش (الاختيار لم يحققه السادة أنصار السلافية أنفسهم)***؟ ومن نافلة القول إنه لا يفكر هكذا «لا. ذاك يعني شيئاً مختلفاً تماماً، أي أن روسيا قد أنهت وتغلبت على مرحلة الانتقال، ذلك أن الاصلاحات قد أنجزت مهمتها تماماً وحققت كل ما يمكن أن تحققه، وقد آن الأوان لروسيا أن تتطور من داخلها تطوراً أصيلا »****

---

* المحاكمات السياسية في زمن نيقولا الديسمبريون - الجمعيات السرية - محاكمات كولسكوف والأخوة كريسكي والأخوة ريمسكي. منشورات سابلين. موسكو ١٩٠٧ ص ٢٢

** المؤلفات الجزء ص ٢٥

*** المرجع السابق ص ص ٢٦ ٢٧

**** المرجع السابق ص ٢٧.

إن كلمة «أصيلا مستخدمة هنا استخداماً ديالكتيكياً بمعنى أن نتيجة أي ظاهرة (كما يذهب بيلنسكي في مكان آخر*) «يجب أن يبحث عنها في تلك الظاهرة نفسها أيضاً لا يوجد شيء يمكن لأحد أن يعترض عليه هنا ولكن ما الظاهرة التي كان يفكر فيها بيلنسكي؟ تطور روسيا هذا التطور لا بد أن ينطلق من ذاته، أي، بقواه الخاصة. هذا أيضاً صحيح ولكن المسألة هي ما القوى المحركة للتطور الاجتماعي؟ اننا نعرف أن أهم هذه القوى في الغرب، برأي بيلنسكي، هو الصراع الطبقي إنه يقرر تطور روح الشعوب الأوروبية الغربية. فالكائن يقرر الوعي وماذا عن روسيا؟ يكرر بيلنسكي هنا أن «روسيا يجب ألا تقارن بالدول القديمة لأوروبا، التي تطور تاريخها في اتجاه معارض كلياً»** فإذا افترضنا هذا صحيحاً، تظل ثمة قوة معينة تحرك تطور حياتنا الاجتماعية الى الأمام. إن هذه القوة حسب رأي بيلنسكي، هي القوميـة الروسية، أي روح الشعب الروسي*** وهذا يعارض تماماً ما هو ملاحظ في الغرب: فهناك الكائن يحدد الوعي، وهنا الوعي يحدد، أو على الأقل يجب أن يحدد الكائن بمرور الزمن. ولكننا عرفنا من قبل أن روح الشعب الروسي، حسب رأي بيلنسكي، تحتاج الى دافع خارجي لتتطور، وأن الدافع الخارجي لتطورها لا بد أن يأتي من الغرب. فأين الميكانيزما الناقلة التي تساعد الغرب على دفع روسيا الى الأمام؟ في الماضي كانت الحكومة هي التي تلعب دور تلك الميكانيزما (وعلى الأخص حكومة بطرس الأكبر)، والآن وفي المستقبل ستلعب هذا الدور حسب رأي بيلنسكي تلك الطبقة التي يدعوها «الطبقة الوسطى والتي ندعوها الآن الانتلجسيا

إن رأي الأنتلجنسيا كقوة محركة أساسية للتطور الاجتماعي هو رأي المتنورين، بسيط وصاف، يقوم على الأطروحة الأساسية للمثالية التاريخية. الفكر يحكم العالم. وليس لدي أي نية في انتقاد هذه الفكرة هنا، ولكني أرى من الضرورة تحليل في أي اتجاه تحت تأثيرها تغيرت طرائق بيلنسكي في التفكير

إن النظرة الديالكتيكية للصراع الطبقي باعتباره مصدراً غنياً للتطور الروحي

---

* المرجع السابق جزء ٩ ص ٢٥٣

** المرجع السابق جزء ص ٢٩

*** المرجع السابق ص ص ٣٠ ٣١

لأوروبا الغربية اسدعت، كشيء ملازم لها، بعض الأفكار الديالكتيكية بالسبة إلى الطريقة التي فيها سوف يحدد مجرى الصراع الطبقي الاتجاه القادم للفكر الأوروبي الغربي. وهذا ما حققته اشتراكية ماركس وانجلز العلمية. ولكن لا شك أنها كانت حصيلة طبيعية للنظرة المادية المشار إليها في الصراع الطبقي باعتبارها السبب الأعمق للحركة التاريخية للمجتمع الأوروبي الغربي بأكمله. ولكن كيف للمرء أن يصوغ المطلب الرئيسي الذي انطلق بصورة منطقية من نظرة بيلنسكي المثالية الذاتية في تطور روسيا؟

اذا كانت الانتلجنسيا (الطبقة الوسطى) هي القوة الدافعة الرئيسية لتطور روسيا الاجتماعي، فعلى المرء أن يتأكد بوضوح أن حامل التنوير، قبل كل شيء، متنور بأفضل طريقة ممكنة. وكلما كان تنوير الانتلجنسيا أفضل كانت مفاهيمها عن حياة الناس الاجتماعية والخاصة أصح. ولذلك فان المهمة الأولى للأدب يجب أن تكون توضيح المفاهيم الصحيحة داخل الانتلجنسيا هذا ما كافح بيلنسكي من أجله في السنوات الأخيرة من نشاطه الأدبي. وفي احدى مقالاتي السابقة دعوته أبا المتنورين الذين لعبوا دوراً بارزاً في الستينات. وكان كذلك بالفعل.

١٣

كتب بيلنسكي في ١٨٤١ «إن عصر الوعي مقبل على روسيا فعلى الرغم من برودتنا ولا مبالاتنا نحن الروس نلوم أنفسنا ليس بلا سبب، فالأمور العادية والمألوفة لا ترضينا اننا نفضل أن نصنع أحكاماً زائفة وخاطئة من أن نكرر فرضيات جاهزة قبلت على الثقة، أو بسبب الكسل والتفاهة»* فليس عبثاً أن بيلنسكي يتخذ من بوشكين موقفاً معيباً حين يوضح فكرته. إن الكثير من الناس، الشاكين بصحة الأحكام المتعلقة ببوشكين، بدؤوا يشكون في عظمته الشعرية. وفي رأي بيلنسكي هذه ظاهرة عظيمة: إنها تعبر عن الحاجة إلى فكر مستقل، الحاجة إلى الحقيقة التي هي قبل بوشكين وفوق بوشكين. إن أفلاطون صديقي ولكن الحقيقة صديق أعظم». ولا بد من أن يتذكر المرء هنا بيساريف في مقالته اللاهبة «بوشكين وبيلنسكي». انها لحقيقة

---

* المؤلفات الجزء ٤ ص ص ٣٧٣ - ٣٧٤

** المرجع السابق ٣٧٤.

معروفة أن الكثيرين ممن يعتبرون أنفسهم من المعجبين ببيلنسكي كانوا ناقمين جداً على بيساريف ويعتقد المرء أن بيلنسكي سيتحمل الكثير من الآلام لتخفيف حنقهم.

إنه لا يتفق أبداً مع الذين يرفضون عظمة بوشكين كشاعر، ولكنه ليس غاضباً مهم أبداً

« آراؤنا متعارضة تماماً مع آراء أولئك الناس، إلا أننا مستعدون، شريطة ألا يكون رأيهم حصيلة بعض الأسباب الخارجية المستهجنة، أن نجادلهم من أجل الحقيقة، وأنا على يقين أن الحقيقة سوف تظهر فقط من خلال تلك المناقشات ومن خلالها سوف تدخل الوعي العام - سوف تصبح معتقداً عاماً انا أبعد من أن نعتبر هؤلاء مشقين أو مخربين للحقيقة، الذين يهينون ذكرى الشاعر العظيم والشعور بالكبرياء القومية بل فوق ذلك، اننا نفهم أن بعض هؤلاء الذين يرفضون عبقرية بوشكين يمكن أن يكونوا جديرين بالاحترام أكثر آلاف المرات من الكثيرين المعجبين إعجاباً مطلقاً بمجد الشاعر العظيم الذين يكتفون فقط بتكرار أقوال الآخرين. إن ظهور مثل هؤلاء الرافضين لم يفصح عن لا مبالاة المجتمع تجاه الحقيقة، بل أفصح عن حب وليد له، طالما أن الاعتراف المطلق بشيء ما من غير نقاش، من غير اختبار للفكر، أو بالأحرى من غير شك ولا رفض، دلالة على لا مبالاة المجتمع بقضية الحقيقة. لا، إن ظهور أمثال هؤلاء الرافضين في مجتمع فتيّ دلالة على حياة معرفية وليدة »*

ويمكن للمرء أن يشكل انطباعاً أنه في ذلك الزمن تنبأ بيلنسكي بظهور بيساريف مع حلقته ضد بوشكين. وبذل قصارى جهده للعثور على بعض الظروف الملطفة لهذا الرعب الطفولي لتنويرنا

ولكن هذه الواقعة لا تزال أكثر أهمية. ففي رسالة إلى بوتكين في ٨ أيلول ١٨٤١ بينما يعزو مؤلفنا سمات فنية كثيرة لرواية كتبها كودريافتسيف**، يضيف أنه مع ذلك لا يحب الرواية. « بدأت أخاف من نفسي: إن نوعاً من العداء يولد في نفسي ضد الابداعات الموضوعية للفن ». ويطلق بيبين على هذا اسم « السمة البازاروفية[١٦٨]

---

* المرجع السابق ٣٧٤ ٣٧٥

** يعترض بيبين أن هذا هو مرجع رواية كودريا فتسيف « الوردة » نشرت في العدد التاسع من أوتشيستفيني زابسكي لعام ١٨٤١.

في الأربعينات ». ومن المفيد أن نلاحظ أن هذه السمة « البازاروفية »، أي السمة التي تميز المتنورين، ظهرت في آراء بيلنسكي عندما كانت متأثرة جداً بديالكتيك هيغل. وبما أنه ركز على الصراع الأدبي ضد « الواقع الروسي الآثم » غدت هذه السمة أكثر عمقاً وأكبر بروزاً ولا يمكن أن يكون غير ذلك. وبما أن اهتمام بيلنسكي تحول من النظرية إلى التطبيق، فان المسائل المتعلقة بالحياة الأوروبية الغربية حلت محلها في حقل رؤياه مسائل متعلقة « الواقع الروسي ». وقد رأينا من قبل أنه في تحليل الأخير، أن الواقع الروسي، لم يبق مخلصاً للطريقة الديالكتيكية (السبب يرجع إلى التخلف المرعب لعلاقاتنا الاجتماعية) واعتنق نظرة المثالية التاريخية الذاتية، أي نظرة المتنورين.

من لا يذكر مقالات دوبروليوبوف عن الأدب الروسي في النصف الثاني من القرن الثامن عشر وعلى الأخص هجاء تلك المرحلة؟ من لا يذكر التهم التي وجهها إلى الهجائين ولماذا؟ من السهل أن نرى أن تلك المقالات كتبت تحت التأثير القوي لبيلنسكي ويبدو أحياناً أن أفكاره أكثر تطوراً من أفكار أبي متنورينا واليكم مثالا

يقول بيلنسكي في مقالة « الأدب الروسي في ١٨٤٣ « كان الهجاء من قبل ينتشر بجرأة بين الناس في وضح النهار، ولا يزعج نفسه حتى بالبحث عن اسم مستعار، وإنما يعلن عن اسمه صراحة وبصورة مباشرة ولم يكن أحد يغضب منه، ولا أحد يلاحظ براقعه وملغزاته. لماذا؟ لأنه لا أحد يجد نفسه فيه، لأنه كان يهاجم الشرور بشكل عام، بحيث لا يحق لأي امرىء أن يشك أنه يطاله، لأنه كان إما كتاباً، أو مادة منشورة، أو تمرين طالب في الخطابة... »*

ويبين دوبروليوبوف في مقالته « الهجاء الروسي في عصر كاترين » أن الهجاء كان « اتهاماً، كان مناقشة من أجل المناقشة، كان ذكاء من أجل الذكاء وأنه كان « صرخة مدوية من شيء حقيقي، ليس كما ينطبع في عواطف الهجائين فقط، بل كما يرتسم في فكرهم أيضاً »**

---

* المؤلفات الجزء ٨ ص ٦٢

** دوبروليوبوف. المؤلفات. الطبعة الثانية. المجلد الأول ص ١٢١.

أليس صحيحاً أن كلا من المؤلفين طور الفكرة ذاتها، إلا أن أحدهما اكتفى بتقديم الحالة العامة بينما الآخر رسم في ذهنه مرحلة محددة؟

ويذهب بيلنسكي إلى أن الانسان الذي يعيش في مجتمع يعتمد عليه في كل من طريقة تفكيره وأعماله لقد فشل الهجاؤون الأوائل في فهم هذا، وذلك هو «السبب في أن هؤلاء الهجائين العظام عاملوا الانسان من غير أن ينتبهوا إلى ثقافته وموقفه من المجتمع، وأرهقوه في أوقات فراغهم بتلك الفزاعة التي خلقها خيالهم»* ولكن ماذا عن دوبروليوبوف؟ إنه يكتب:

«لا يمكن لمعظم الظواهر الاجتماعية أن تغيرها ارادة الأفراد، إن على الفرد أن يغير الشروط، أن يقدم مبادىء مختلفة للنشاط العام، وعندئذ فقط يمكنه أن يدين أولئك الذين لا يستفيدون من مزايا النظام الجديد إن هجائينا لن يفهموا هذا! من جهة، ومن جهة أخرى كانوا وإن فهموه غير قادرين على التعبير عنه ـ لقد هاجموا الجهالة والرشوة والنفاق وخرق القانون والعجرفة والظلم تجاه المرؤوسين، والتملق الوضيع تجاه الرؤساء الخ إلا أن تلك الادانات قلما تضمنت فكرة أن كل هذه الظواهر الخاصة لى تكن سوى نتائج محتومة لشذوذ النظام الاجتماعي ككل. لقد هوجم المرتشي كما لو أن كل شرور الرشوة تقوم على النية الشخصية لبعض الأفراد لاستغلال طالبي الوظيفة»**

هنا أيضاً يطبق دوبروليوبوف على عصر كاترين الفكرة العامة التي عبر عنها بيلنسكي فيما يتعلق بـ «الهجائين العظام» للأيام الخوالي العظيمة

حتى تشيرنيشيفسكي يبدو أحياناً أنه يطور فقط أفكار بيلنسكي ويطبقها على الحالات الجديدة. هنا نضرب مثالا لم يشر إليه مؤرخو أدبنا، على ما أعتقد يتساءل بيلنسكي في مناقشته «السادة المدافعين عن العرافة» الذين اتهموا بطرس الأكبر بأنه انترع من روسيا فرصة تحقيق الحضارة تدريجياً من خلال تطورها الداخلي:

هل تستطيع روسيا أن تبدأ من البداية، في حين أن النهاية ماثلة أمام عينيها؟ فهل، مثلا تبدأ فن القتال من النقطة التي بدأ منها في أوروبا في العصور الاقطاعية.

---

* المؤلفات جزء ٨ ص ٦٤

** دوبروليوبوف. المؤلفات. جزء ١ ص ص ١١٩ ١٢٠

في حين تطلق عليها النيران من البنادق والمورتر، وحشودها الفوضوية يمكن أن تدحرها صفوف منظمة مسلحة بالحراب تحت أمرة رجل واحد؟ يا لها من فكرة سخيفة ولكن اذا كان على روسيا أن تدرس الفن العسكري في الحالة التي وجدت فيها أوروبا في القرن السابع عشر، أليس عليها أيضاً أن تدرس الرياضيات والتحصين وعلم المدفعية والبحرية، وهكذا يمكن أن تنحي علم الهندسة الى أن تتقن الحساب والجبر تماماً وتتم دراستها بصورة كاملة من قبل جميع طبقات الشعب؟ »*

إن الحجج نفسها استخدمها تشيرنيشيفسكي (في مقالته «نقد الميول الفلسفية ضد الحيازة الكوميونية للأرض ») ليثبت فكرة أن الشعوب المتحضرة يمكن ويجب أن تمر بمراحل معينة في التطور الاقتصادي.

١٤

على أي حال، لا ألح على أن تشيرنيشيفسكي كرر بوعي حجج بيلنسكي في هذا الصدد، فالحقيقة أن تشيرنيشيفسكي في هذه المقالة طبق الطريقة الديالكتيكية لهيغل التي غالباً ما استخدمها بيلنسكي إن كليهما ينتميان إلى المدرسة الهيغلية، وان تركت في أفكار بيلنسكي تأثيراً أعمق مما تركته في أفكار تشيرنيشيفسكي ومن هيغل انطلق الاثنان نحو فيورباخ، وهنا يجب أن يلاحظ المرء العلاقة المتعاكسة: فتشيرنيشيفسكي مكث في مدرسة فيورباخ أطول بكثير من بيلنسكي فليس من المدهش أننا نجد في مؤلفات الأخير الأفكار التي طورها تشيرنيشيفسكي بالتفصيل. تلك الأفكار انحدرت من مصدر مشترك واحد ولذلك كانت متشابهة إلى حد كبير جداً، ومن الغريب أنه حتى بيبين لم يلاحظ تكاملها التام

وهنا مثال آخر إن بيلنسكي يفترض كـ «قانون عام» أنه «حيث تكون هناك حياة يكون هناك شعر »** واحدى الأطروحات الأساسية في كراسة تشيرنيشيفسكي «العلاقة الجمالية بين الفن والواقع هي فكرة أن «الجميل هو الحياة». ولكن، كما نعرف، انطلق في استاطيقه من فلسفة فيورباخ، بينما بيلنسكي بالكاد كان مطلعاً على فيورباخ حين صاغ قانونه العام. لقد استنتجه من استاطيقا هيغل، الذي يتضمن عموماً

* المؤلفات الجزء ٤ ص ٣٩٢،

** المرجع السابق جزء ٥ ص ٨٣

أجنة كثيرة جداً من الأفكار المادية في الفن. ومع ذلك فلا شك أن تشيرنيشيفسكي في تطويره الأطروحة السابقة له كل الحق في أن يصدق نفسه أنه قريب بالروح إلى « ناقد مرحلة غوغول   هذا الناقد كان بالفعل قريباً جداً إليه كما كان قريباً إلى جميع المتنورين في الستينات حين تخلى هو نفسه عن النظرة الديالكتيكية وتبنى نظرة المتنورين

مثال أخير في إحدى مقالات بيلنسكي الرائعة عن بوشكين، يحلل من جملة ما يحلل، رد تاتيانا الشهير على أونيجين. لقد دهش بهذه الكلمات:

أحبّك (لماذا علي أن أخدعك؟)
ولكني مرتبطة بآخر
وسأخلص له إلى الأبد

يقول: « الأسطر الأخيرة مدهشة: بالفعل « كل ما هو جيد ينتهي نهاية جيدة » هذا الرد يمكن اتخاذه كمثال لـ « الرفعة » الكلاسيكية إلى جانب رد ميديا « أنا وهو راتيو العجوز « دعه يمت ». هناك فعلا كبرياء حقيقية للفضيلة الأنثوية. « ولكني مرتبطة باخر بالضبط « **مرتبطة** » وليس « **ربطت نفسي** ». وسأخلص إلى الأبد - لمن وفي ماذا؟ اخلاص للعلاقات التي هي دنس للشعور والنقاء الأنثوي، لأن علاقات معينة، ما لم يطهرها الحب، هي علاقات غير أخلاقية.. ولكن بالنسبة إلينا كل هذا يجري معاً: الشعر والحياة، والحب والزواج الملائم، حياة القلب وتأدية الواجبات الخارجية التي تتحطم من الداخل في كل ساعة. فعلا انها امرأة تتصرف تصرفاً لا أخلاقياً برجلين في الوقت نفسه، تحب واحداً وتدمر آخر، وهذه حقيقة لا مراء فيها   الخ*

إن متنوري الستينات طوروا تلك الأفكار برغبة إن رواية **ما العمل**؟ كانت توضيحاً فنياً إلى حد ما لتلك الأفكار بالطبع تلك الأفكار يمكن أن تكون مستعارة من متنوري تلك المرحلة وليس من بيلنسكي وحده: لقد عبر عنها، بصراحة ووضوح، الأدب العربي، وعلى الأخص الفرنسي، في الأربعينات. ولكن هنا نرى التعاطف مع

---

* المؤلفات. جزء ٨، ص ٦٠١

الأفكار الواحدة كان لتدعيم تعاطف متنوري الستينات مع « ناقد مرحلة غوغول في الأدب الروسي

١٥

بيت في الفصل السابق أن بيلنسكي اعتنق في الوقت نفسه النظرة الديالكتيكية - فيما يتعلق بالتطور الاجتماعي لأوروبا الغربية، واعتنق أفكار المتنورين - فيما يتعلق بتطور روسيا كما أضفت الى أن هذا الوجود المتزامن للأفكار المتضاربة يفسره التطور الكبير الهائل للعلاقات الاجتماعية الغربية بالقياس الى العلاقات الروسية وعلينا الآن أن نتوسع بهذا التفسير

كلما ازداد بيلنسكي اقتراباً من نهاية اهتمامه الأدبي، كانت التغيرات في العلاقة المتبادلة بين النظرتين المشار إليهما أعلاه في نظرته العالمية كبيرة من قبل، في السنوات التي أعقبت مباشرة مقاطعته لـ « القبعة الفلسفية لايغور فيوردوريتش » كان بيلنسكي ديالكتيكياً أكثر منه متنوراً، بينما في سني حياته الأخيرة كان متنوراً أكثر منه ديالكتيكياً والى هذا الظرف بالذات أصبح أبا المتنورين

ولكن ما أسباب هذا الظرف، الغريب للوهلة الأولى؟

السبب أن بيلنسكي تخلى أخيراً عن المثالية وأصبح مادياً

وهذا يبدو غريباً أيضاً: هل المادية تبعد حقاً الديالكتيكية؟

الجواب نعم ولا فكل شيء يعتمد على نمط المادية الذي في ذهننا إن مادية ماركس وانجلز ممتزجة بعمق بالديالكتيكية، بينما العنصر الديالكتيكي في مادية المتنورين الفرنسيين في القرن الثامن عشر ملغى تماماً وهو أيضاً ضعيف في فلسفة فيورباخ المادية، ولكن ليس الى درجة ضعفة لدى المتنورين الفرنسيين، وهذه الفلسفة بالذات هي التي تبناها بيلنسكي عندما تخلى عن مثالية هيغل المطلقة.

لقد اقتبست من مقالة: « ف. غ بيلنسكي »[١٦٩] بعض المقاطع لأبين التطابق الكامل في بعض الآراء، والآراء الأساسية التي اعتنقها ناقدنا مع آراء فيورباخ سوف اتطرق الآن للمسألة ذاتها ولكن من جانب آخر

يدلي ب. ف أننكوف بهذه الشهادة: « يمكن للمرء أن يقول إن كتاب فيورباخ [من

الواضح أنه كتاب **جوهر المسيحية** - ج - ب] لم يترك تأثيراً كبيراً في أي مكان مثلما ترك في حلقة « أنصار الغرب ولم يقض في أي مكان وبصورة سريعة على بقايا النظرات القديمة التي سبقته مثلما قضى عليها هنا ولدى المؤلف نفسه نجد شهادة أخرى: « بالنسبة الى بيلنسكي كانت ترجمة لبعض فصول ومقاطع من كتاب فيورباخ قام بها صديق في بطرسبرج قد جعلته يتعلم عملية النقد مما أودى بكل أوثانه الصوفية والفلسفية القديمة يضيف المرء أن بيلنسكي كان مصعوقاً ومندهشاً أنه أصبح أصم تماماً أمامه وفقد القدرة على طرح أي مسائل تخصه - وهذا ما كان يميزه »* إن هذا هام للغاية. ولكن أولاً كيف يمكن أن ينسى المرء تماماً تاريخ ترجمة هذه المقاطع من فيورباخ وتقديمها لبيلنسكي بل في وقتها الدقيق، ثانياً كيف يفهم المرء أن بيلنسكي أصبح أصم أمام فلسفة فيورباخ « وفقد القدرة على طرح أي مسائل تخصه »؟ هذه الأصداء غريبة يمكن أن يقبل المرء أن بيلنسكي، الذي اعتنق بشدة المثالية من قبل، كان مذهولا بنقد فيورباخ المادي للتعاليم المثالية. إلا أن ذلك لم يستغرق سوى وقت قصير فقط فسرعان ما تمثل بيلنسكي فلسفة فيورباخ، وعندما تمثلها تلاشى صممه، إذا كان ثمة صمم، وأيضاً عجزه « على طرح أي مسائل تخصه » إذا كان هذا العجز موجوداً حقاً وبالضبط كما ناقش بيلنسكي من قبل مسائل الأدب انطلاقاً من مثالية هيغل الفلسفية، كذلك بدأ يناقشها انطلاقاً من مادية فيورباخ الفلسفية. هذا كل ماعنده ولكن ذلك يكفي لنفي « الصمم » و« العجز ولكن لنبحث الآن في الترتيب التاريخي حسب محاكمتنا نحن.

يقول بوتكين في رسالة في ١٠ - ٢٣ آذار ١٨٤٢ الى بيلنسكي: « إن نهاية العصور الوسطى وبداية العصور الحديثة هي في الحقيقة القرن الثامن عشر ففي فرانسا تم الغاء العصور في ميدان الحياة العامة، والغيت عند بايرون في الشعر، أما الآن فيتم إلغاؤها في ميدان الدين على يد شتراوس وفيورباخ وبرونوبوير وفي الرسالة نفسها يقدم بوتكين عرضاً تفصيلياً لنظرة فيورباخ الى الدين: « في الدين يشعر الإنسان أنه أشد ارتباطاً فخارج نفسه ليس حراً، ولكنه تابع لسلطة، وخاضع لقوة، تؤكد نفسها أنها ليست قوته الخاصة بل قوة فوق الطبيعة وفوق الإنسان من الواضح أنه منذ

---

* ذكريات أدبية. بطرسبرج ١٩٠٩ ص ٢٨٤

بواكير ١٨٤٢ اطلع بيلنسكي ليس فقط على فيورباخ، بل أيضاً على برونوبوير، ويلاحظ أن بوتكين، الذي كره مؤخراً التنويريين كرهاً شديداً، يعلل الأمور هنا كأنه هو نفسه متنور يكتب: «رجال جدد بأفكار جديدة عن الزواج والدين والدولة - أسس المجتمع الإنساني - يغدون كل يوم، وروح جديدة مثل الخلد تحفر عميقاً تحت الأرض من غير أن ترى - إنها كعامل مجم عجيب. القديم يتهاوى والعصور تتغير، والحياة الجديدة تنهض من بين الخرائب». وهناك، إلى جانب ذلك، في مؤلفات بيلنسكي التي تنتمي الى عام ١٨٤٣ تعبيرات وصفحات بكاملها تجعل المرء يفترض أنه منذ ذلك الوقت كان متأثراً كثيراً بفيورباخ

وهكذا، في المقالة نفسها عن درزافين التي فيها يتخذ الفكرة نقطة بداية للظاهرات، أي يعبر عن نفسه كهيغلي عريق، نجد فكرة مرفوضة عن المثاليين الذين في نظرتهم الأحادية الجانب «لا يرون العضوية بسبب الروح وعن الماديين الذين لا يقلون أحادية جانب عن المثاليين، والذين «لا يرون الروح بسبب كتلة الجسد»* إن مؤلفنا يؤكد بصورة مطلقة «كل من التجريبية والمثالية (المثالية المجردة) أحاديتا الجانب وتبعدان عن الحقيقة بقدر متساوٍ إن الحقيقة تقوم في المصالحة الحرة بين هذين الطرفين»** يمكن اعتبار هذه الأسطر مكتوبة تحت تأثير فيورباخ الذي، وان كان مادياً دون ريب، ودَّ أن يقدم فلسفته على أنها تركيب من المادية والمثالية مبعداً أحادية الجانب العالقة في كل منها*** أنا لا أحب أن أثبت شيئاً، لأن المقطع المقتبس هنا يتضمن تحفظاً مريباً حول المثالية «المجردة فاذا دحض بيلنسكي المثالية «المجردة فقط، ففي مقدوره أن يتابع ويعتنق نظرة هيغل، الذي لم يتعاطف هو الآخر مع المثالية «المجردة». ولكن في بواكير ١٨٤٤ في مقالة عن مؤلفات‌لحيازة) أوديفسكي يقول بيقين كامل أنه «حتى فلسفة هيغل الآن تنتمي في ألمانيا الى المذاهب التي تكمل حلقتها»**** ويكرر في العام التالي الملاحظة نفسها في مراجعة سريعة

---

* المؤلفات جرء ٧ ص ٦٧

** المرجع السابق ص ٦٨

*** انظر خصوصاً «الأمثال السائرة» في المجلد الثاني من كتاب ك غرون الشهير «لودفيغ فيورباخ مراسلات وسيرة حياة» ليبرغ ١٨٧٤

**** المؤلفات جرء ٩ ص ٦٣.

لكتاب تاتارينوف مدخل الى دراسة الفلسفة النظرية للمادة (بطرسبرج ١٨٤٤) هنا لا يقدم هذه الفكرة بوضوح كاف لأغراضنا انه هنا يناقش «الجناح اليساري في الهيغلية» الذي «ابتعد عن هيغل». وحتى لا يخدع القارىء يقدم هذا التحفظ «عندما نقول إن الجناح اليساري ابتعد عن المعلم، فلا يعني ذلك أنه يرفض انجازاته الكبرى في ميدان الفلسفة ويتهم تعاليمه بأنها فارغة وظاهرة عقيمة. لا، يعني فقط أنه يريد أن يسير أبعد وأنه، مع احترامه للفيلسوف الأكبر، يجعل سلطة الروح الإنسانية أعلى من سلطة هيغل»* فهل يعد بيلنسكي فيورباخ من بين الهيغليين اليساريين؟ إن كان يعده فالمسألة محلولة: تلك الأسطر تبين أن بيلنسكي في ذلك الوقت لم يكن مُعْتنقاً المثالية الهيغلية. إلا أن فيورباخ لم يعتبر نفسه هيغلياً، معلناً أن فلسفته في أساسها كانت معاكسة تماماً لأساس نظام هيغل. وفي الوقت نفسه كان الكثير من المثاليين داخل الجناح اليساري للمدرسة الهيغلية قَدْ رَنَا إليهم فكر بيلنسكي المتعاطف من دون تأثير مفرط إن مؤلفنا يعبر عن ذاته أكثر تحديداً في مقالة «المعنى العام لكلمة أدب فيكرر هنا الأطروحة المعروفة أن أدب أي شعب يعبر عن نظرته العالمية، ونظرته العالمية تقررها طبيعته، ومزاجه وشخصيته - وباختصار جوهره، فيلاحظ أن من المستحيل تفسير لماذا شعب معين له جوهر بينما آخر له جوهر مختلف يقول: «الحق أن تكوين جوهر الشعب يتأثر نوعاً ما بالظروف الجغرافية والمناخية والتاريخية، فمن الواضح أن السبب الأول والرئيسي لجوهر أي شعب، تماماً مثل أي إنسان، هو سبب فيزيولوجي، السر الذي لا ينكشف للطبيعة الخلاقة العفوية»** والقول إن السبب الرئيس لـ «جوهر كل من الإنسان الفرد والشعب بمجموعه هو سبب فيزيولوجي محض، هو التأكيد على شيء مادي يتعارض مباشرة مع النظرة القائلة إن الطبيعة ليست أكثر من تحقيق للفكرة. وقد عرفنا من قبل أن بيلنسكي عبر عن هذه الفكرة المثالية المحضة في أواخر ١٨٤٢ في تحليله كتاب نيكيتنكو «خطاب في النقد». وإني آسف لأن مؤلفات بيلنسكي التي بين يدي لا تشير حتى تقريبياً الى السنة التي كتبت فيها مقالة «المعنى العام لكلمة أدب» التي «لم تنشر». وأظن أنني لن أخطىء اذا

---

* المرجع السابق جزء ١٠ ص ١١

** المؤلفات جزء ١٢ ص ٤٢٧.

أرجعت تاريخها الى ١٨٤٢ ولكن يبدو أنها أكملت ونقحت فيما بعد، إذ أن بيلنسكي وضع اللمسات الأخيرة عليها قبل تحليله كتاب نيكيتنكو « خطاب في النقد هذا التحليل الذي يميز الانقلاب الموقت من فيورباخ الى هيغل ولكن ليس الأصح أن نفترض أنها كتبت بعد التحليل وأن تحول بيلنسكي من مثالية هيغل الى مادية فيورباخ حصل في مرحلة زمنية تفصل بين هذين العملين. على أي حال، في مقالته « نظرة في الأدب الروسي عام ١٨٤٦ يبين بيلنسكي أنه نصير مخلص لفيورباخ

١٦

نظراً لضيق المكان الذي لا يسمح بتناول تأثير فيورباخ على بيلنسكي بصورة مفصّلة، فسوف أكتفي بالمسألة التي لم تدرس إلا قليلاً وهو الاتجاه الذي فيه تغيرت نظرة بيلنسكي الى الواقع، المستعارة أصلاً من هيغل، تحت هذا التأثير

هناك قصة متداولة تقول إن هيغل الشرير حرض بيلنسكي الطيب على المصالحة مع الواقع، ولكن فيما بعد، بمعونة الله، بدأ « الفيساريون المتهور » يكره « القبعة الهيغلية، فتمرد على الواقع هذا صحيح من ناحية: فقد تمرد بيلنسكي على الواقع ولكن هناك تمردات وتمردات لقد تمرد بيلنسكي على الواقع بطريقة مختلفة تماماً عن الرومانسيين، الذين انتقدهم بعنف عندما كان بالضبط يصارع ضد الواقع

أدار الرومانسيون ظهورهم للواقع باسم المثال. وقد صنع بيلنسكي هذا الصنيع في مرحلته « الفختية » ولكنه عندما تمثل فلسفة هيغل (وقد اعتقد فيما بعد أن حياته الروحية قد ابتدأت في هذا الزمن بالضبط) راح يفكر أن إدارة الظهر للواقع يعني التحول الى فراغ ووهم. بدأ يطالب المفكر والفنان بموقف جاد من الواقع ومن غير توقف عند الزمن الذي كان فيه موقفه الجاد من الواقع مساوياً في نظره للمصالحة معه، سوف أبين أن مرحلة مصالحته كانت كلها خارج البحث

في مقالته « الأدب الروسي في ١٨٤٠ » يصف كوميديا **المفتش العام**[١٧٠] (لا حاجة أن نذكر القارىء أنه قدرها تقديراً عالياً جداً) أنها عمل « صادق مع الواقع بشكل فظيع وفي المقالة نفسها يصرح: « لكل شيء زمان: فنحن نعيش مرحلة الأوهام الذاتية ومباهج الطفولة والمراهقة، فما نحتاجه هو الواقع وليس الأحلام، فقطعة نقد نحاسية أثمن عندنا من ملايين الروبلات المحررة في الهواء - باختصار إن زمان الوعي

قد حان بالنسبة إلينا »* وبعد عام يكتب: « **الواقع** - ذلك هو شعار الكلمة الأخيرة للعالم الحديث، الواقع في الحقائق، في المعرفة، في معتقدات الشعور، في استنتاجات العقل - في كل شيء، وكل شيء واقع، هو أول وآخر كلمة في هذا القرن »** وبعد عام آخر يصف المرحلة الأخيرة من أدبنا هكذا « المرحلة الأخيرة من الأدب الروسي، مرحلة النثر » تختلف كل الاختلاف بنضجها الرجولي. هي ان شئت غير غنية بعدد المؤلفات، فكل شيء وسط أو عادي ظهر فيها إما أنه لم ينجح أبداً أو نجح نجاحاً موقتاً، وكل شيء تخطى المألوف يحمل طابع النضج وقوة الرجولة، ويبقى الى الأبد، وفي سياق انتصاره يحقق التأثير تدريجياً، إنه يترك طابعه على المجتمع والأدب إن الاقتراب أكثر من الحياة، من الواقع هو السبب المباشر للنضج الرجولي في المرحلة الأخيرة من أدبنا »*** وفي المقالة نفسها، وبعد ذلك مباشرة يطور نظرته في المثال من قبل عامل الكلمة لتعني شيئاً شبيهاً بهذا ان كنت لا تحب القصة فلا تصغ إليها ولكن لا تمنعني من الكذب. كلمة « المثال » الآن اتخذها على أنها لا تعني الكذب ولا المبالغة بل « حقيقة الواقع كما هو ». ولكن الفنان في تقديم الحقيقة كما هي لا يحصر نفسه فقط في نسخها بل يسلط عليها ضوءاً من المعنى العام. لذلك فان تقديم الحقيقة على يد فنان واقعي أصدق من تصويرها « وهكذا فان الإنسان في لوحة فنان عظيم يشبه نفسه أكثر من الصورة الفوتوغرافية، لأن الفنان العظيم ببعض الضربات الصارمة يكشف كل ما هو مخبوء داخل الإنسان، وربما كان هذا غامضاً عند الإنسان نفسه »****

إن ذاك الذي يريد محاربة الواقع ليس من الضروري أن يتخلى عنه وينتقل الى مملكة المثال، كما هي عادة الرومانسيين، بل عليه أن يدرس الواقع بعناية ليكون قادراً على الاعتماد عليه في صراعه ضده. وعندما يحارب الإنسان الطبيعة من أجل وجوده، لا يدير ظهره لها، بل يتقنها مستخدماً معرفته لقوانينها وكلما اتسعت هذه المعرفة، ازدادت سيطرته عليها هكذا يعلل بيلنسكي. وهذه نظرة هيغلية صرفة للواقع. ويمكن الافتراض أن بيلنسكي في موقفه من الواقع سيظل مخلصاً لهيغل حتى نهاية عمره

---

* المؤلفات جزء ٤ ص ٩٧

** المرجع السابق جزء ٦ ص ١٩٥

*** المرجع السابق جزء ٧ ص ٣٠

**** المؤلفات جزء ٧ ص ٣١

- مخلصاً لهيغل الديالكتيكي بالطبع وليس لهيغل الممثل الأكبر للاتجاه المطلق في الفلسفة ولكن الأمر ليس كذلك.

في مقالته «نظرة في الأدب الروسي عام ١٨٤٦ يقول: اصغ وانظر بعناية: ما الـذي تناقشه صحفنا عامة؟ الشخصية القومية، الواقع. ما الذي تهاجمه؟ الرومانسية والحلم والتجريد بعض تلك الموضوعات نوقشت من قبل أيضاً ولكن كان لها معنى مختلف إن مفهوم «الواقع جديد تماماً»*

إذا تذكر المرء أن حماسة بيلنسكي لهيغل بدأت في أو خر الثلاثينات، فانه لا يستطيع تفسير دعوته بأن مفهوم الواقع جديد كلياً: فهذا المفهوم بالنسبة اليه لم يكن بالتأكيد جديداً، وبما أنه لم يكف عن تطويره في مقالاته، فان من العسير أن يكون جديداً على القراء أيضاً في ١٨٤٧ ويمكن تفسير القضية، حسبما أعتقد، بحقيقة أن بيلنسكي في حديثه عن المفهوم الجديد تماماً للواقع لا يضع في ذهنه ذلك المفهوم الذي تبناه عندما اعتنق نظرة هيغل. «المفهوم الجديد تماماً للواقع هو في الحقيقة صفة للمفهوم الفيورباخي عن الواقع

كتب فيورباخ في عام ١٨٤٢ «الفلسفة هي دراسة **ما هو كائن**. التفكير بالأشياء وجوهرها والاقرار بها **كما هي** ذلك هو أعظم قانون وأعظم مهمة أمام الفلسفة **

اذا أنت طبقت قانون الفلسفة هذا على الأدب فستكون النتيجة هذه: أعظم مهمة للعمل الفني الخلاق هي رسم الظواهر **كما هي**، أي **الاقتراب من الواقع** قدر ما يستطيع

يتابع فيورباخ «فما **يبدو سطحياً** اذا وصف كما هو، أي على حقيقته، **يبدو عميقاً** اذا وصف على غير ما هو، أي **زائفاً وخاطئاً**» ***

ربما خيل إليك وأنت تقرأ هذا أنك تقرأ صفحة من الصفحات الرائعة التي يدافع فيها بيلنسكي عن المدرسة الطبيعية

---

* المرجع السابق جزء ص ٣٣

** المؤلفات جزء ٢ ص ٢٥٤

*** المرجع السابق. الصفحة نفسها

ولكن هذا ليس كل شيء إن فيورباخ، الذي لا يشبه المثاليين الذين نظروا الى أعضاء حسّنا نظرة شك، أكد أنه اذا كانت مفاهيمنا للأشياء، قائمة على مثل تلك المعطيات، فانها صحيحة كل الصحة، ولكن خيالنا يشوهها ففي رأي فيورباخ أن الناس يرون الأشياء أولاً ليس كما هي «بل» كما تتراءى لنا بعد مرورها بموشور الخيال» وبلاحظ فيورباخ أن البشرية بدأت حديثاً فقط تتحول الى التأمل **الحسي**، أي التأمل **الموضوعي غير المشوه** للحسي، أي الواقعي * إن مهمة الفلسفة والعلم بشكل عام لا تكمن في تجاهل الحسي أي الواقعي الموضوعي، بل في الاقتراب منه من خلال القضاء على العنصر الخيالي في مفاهيمنا وحتى نبين كم كانت نظرة بيلنسكي في مهمة الأدب قريبة من نظرة فيورباخ في مهمة الفلسفة، سأذكر القارىء برأي ناقدنا في روايات جورج ساند: **ايزيدور**، **طحان انغيبول**، **خطيئة المسيو أنطوان**. هذا الرأي نجده في المراجعة السنوية للأدب الروسي التي كتبها بيلنسكي في ذلك الوقت اعترف بيلنسكي لمؤلفة تلك الروايات بالعبقرية من دون أي تحفظ بيد أنه لم يقتنع بتلك الروايات إنها رائعة فقط في التفصيلات ولكنها ضعيفة بوجه عام، لقد فشلت «لأن المؤلفة أرادت أن تستبدل الواقع القائم باليوتوبيا، ولذلك جعلت الفن يرسم عالماً لا يقوم إلا في خيالها وهكذا رسمت الى جانب الشخصيات المحببة المألوفة شخصيات خيالية واشخاصاً موهومين، بحيث امترجت روايتها بقصص الجن واستظل الطبيعي بما هو غير طبيعي واختلط الشعر بالخطابة» **

وهكذا نرى أن مفهوم بيلنسكي الجديد عن الواقع هو مفهوم فيورباخ تماماً

١٧

ما يلي هو اعتراض جدي هنا لما قلته. ربما قلت إن علم الجمال عند هيغل لم يدع مكاناً للخطابة والخيال، فموضوع الشعر، في رأي هيغل، هو نفسه موضوع الفلسفة والواقع. وهكذا لا حاجة ببيلنسكي أن ينطلق من هيغل الى فيورباخ حتى يرى أن التصوير الصادق للواقع هو المهمة الوحيدة الجديرة بالفن.

---

* المرجع السابق ص ص ٣٣١ - ٣٣٢

** المؤلفات الجزء ١١ ص ص ٣٥٧ - ٣٥٨

هذا الاعتراض يبدو قائماً في أن بيلنسكي، كما بينت أعلاه، من البداية حتى نهاية « حياته الروحية » طالب الفنان بالحاح أن يبرز الواقع بصورة صحيحة. ومع ذلك فان هذا لا يثبت شيئاً، وسوف نرى الآن لماذا

إن بيلنسكي الذي دان بشدة كل تخيّل، لم يكن في السنوات الأخيرة من نشاطه الأدبي مقتنعاً بالتصوير الصادق للواقع - على أي حال ليس في الشعر لقد اعتقد أن هذا « الصدق هو المطلب الأول، المهمة الأولى للشعر » بحيث أن المرء يجب أن يحاسب موهبة المؤلف الشعرية انطلاقاً من درجة تحقيق هذا المطلب، وانجاز هذه المهمة. ولكن ينشأ مطلب آخر «لا بد أن تتضمن صور الشاعر فكرة، فالانطباع الذي تتركه يجب أن يؤثر في ذهن المرء، يجب أن يقدم توجيهاً معيناً لنظرته من نواحي الحياة »* هذا المطلب الثاني يتفق وطلب فيورباخ أن الفلسفة يجب أن تكافح ضد مفاهيم الأنسان الخيالية، باسم الواقع، باسم ما هو كائن ». إنها روح « التنوير تماماً هكذا فهمها تشيرنيشيفسكي. قال في مقالات عن مرحلة غوغول في الأدب الروسي إن المفهوم الجديد عن الواقع قد اتخذ شكله وشاع في العلوم حديثاً فقط، فقط « عندما كانت الأوهام الغامضة للفلسفة الأصولية (الترانسندنتالية) قد شرحها المفكرون المحدثون »** إن هذا يعني أن المفهوم الجديد لم يفسره أحد غير فيورباخ

إن مفهوم فيورباخ عن الواقع انبثق من مفهوم هيغل. ولكن مفهوم هيغل تغير في ناحيتين في مؤلفات فيورباخ

عندما يتحدث هيغل عن « عقلانية الظواهر، كان يضع في ذهنه الطبيعة المنظومة لتطورها ان الميزة الكبرى لفلسفته أنها درست كل الظواهر في عملية التطور، أي نظرت إليها من زاوية ديالكتيكية. لكن هيغل كان مثالياً واذ لاحظ الظواهر من خلال موشور مثالي، رآها نوعاً من المنطق التطبيقي: حركة الظاهرة مشروطة في نهاية التحليل بحركة الفكرة المطلقة. وقد هشم فيورباخ موشور هيغل المثالي، فقد لاحظ الظواهر من خلال عينين واعيتين لمفكر مادي. كانت تلك خطوة كبرى إلى الأمام. إلا أن فيورباخ في انهاكه في النضال ضد المثالية الهيغلية، لم يول سوى اهتمام

---

* المرجع السابق ص ٣٧٢

** مؤلفات تشير نيشيفسكي (نشرها م. ن تشير نيشيفسكي) المجلد ٢ ص ٢٠٥.

ضئيل جداً لطبيعتها الديالكتيكية. وبسبب هذا أصبحت فلسفته متشربة جداً بروح التنوير كان ذلك عائقاً إلا أن هذا العائق جذب إلى فلسفته أولئك الذين كانوا ميالين إلى نظرة المتنورين. وكان من بينهم بيلنسكي (جزئياً) وتشيرنيشيفسكي (كلياً).

إن الديالكتيكي ينظر إلى رغائب الناس ومشاربهم على أنها نتاج المجرى الديالكتيكي للتطور الاجتماعي. فاذا أقر باتجاهات معينة على أنها «واقعية» وليست «وهما»، فانه يعني أنها تعكس حقاً هذا المجرى من التطور، الذي يمنحها قوتها الخفية. وينظر المتنور إلى المسألة من زاوية مختلفة تماماً ففي رأيه أن الكائن ليس هو الذي يقرر الوعي، وليست العلاقات الموضوعية هي التي تشكل قاعدة الاتجاهات الذاتية، بل العكس صحيح: فالذات تلفظ حكمها على الظواهر الموضوعية من وجهة نظر عقلها الخاص. إن علم الجمال الديالكتيكي هو علم الجمال الذي ينظر إلى الفن عامة والشعر خاصة كمظهر من مظاهر عملية التطور الاجتماعي المتعددة الجوانب، أما علم جمال التنويري فيرى أن الفن يجب أن يصدر أحكامه على ظواهر الحياة. وقد كان بيلنسكي ديالكتيكياً عندما قال: إن مهمة علم الجمال الحقيقي ليس تقرير ما يجب أن يكون الفن، بل أن يحدد ما هو الفن»* وكان متنوراً عندما أضاف بعد أن قال إن الفن يجب أن يمثل الواقع بصدق، ان على الفن أن يوجه نظرة القارىء في نواح معينة من الواقع

بالنسبة إلى المتنور المستقيم لا يتسم تصوير الواقع بصدق إلا بأهمية ثانوية، تماماً مثل صحة التشخيص بالنسبة إلى الطبيب العام: فالطبيب العام يحتاج الى تشخيص صحيح ليكون قادراً على معالجة المريض، وصدق تصوير الواقع هام بالنسبة الى المتنور باعتباره يشخص له أين تكمن العوائق التي يجب القضاء عليها باسم العقل.

يقول بيلنسكي نفسه: «إن المصلحة الأرقى والأقدس للمجتمع هي رفاهيته التي تشمل الأعضاء جميعاً والطريق الى هذه الرفاهية هو الوعي، ويمكن للفن أن يساعد الوعي مساعـدة لا تقل عن العلم. فكل من العلم والفن متساويان في الضرورة هنا، فلا يمكن للفن أن يحل محل العلم ولا للعلم أن يحل محل الفن»**

---

* أنظر أعلاه.

** المؤلفات، جـ ١١، ص ٣٦٤.

هذا صحيح ولا شك: فالفن يسهل جداً الوعي الاجتماعي. ولكن من الواضح أن فكرة بيلنسكي الصحيحة هذه كان قدمها بمنظور فيه الكثير من أثر التنويرية. أدخل بيلنسكي هنا مقولة الضرورة، فلا يتبقى سوى خطوة لاعتبار الأدب أداة لنشر النظام المحدد للمفاهيم التنويرية في المجتمع. وقد تحققت هذه الخطوة، كما نعرف، على يد أبناء الستينات.

على العكس، ففي القول إن على «علم الجمال ألا يناقش الفن كشيء مفروض سلفاً، كنوع من المثال الذي يمكن أن يتحقق فقط وفقاً لنظريته» و«اعتبار الفن شيئاً قائماً قبلها بزمن طويل وتدين له بوجودها»*، في الأخذ بهذا، أي في تقديم العلم الجمالي «عليك أن تقضي على مقولة الضرورة» كان بيلنسكي يتبنى النظرة الديالكتيكية، وكان بعيداً عن النظرة التنويرية في الفن ونظرية الفن. إنه هنا يتكلم بلغة العلم لا لغة الصحافة.

أنا لا أناقش هنا أيها أفضل: كما أرفض أيضاً مقولة الضرورة. إن كل شيء يكون نافعاً اذا كان في زمانه ومكانه. ولكني أرى أن أحدهما لا يشبه الآخر ولا يمكن أن يختلطا إلا عندما لا يكون ثمة وضوح في المفاهيم. وأضيف: إذا كانت نظرة بيلنسكي في مهمات الفن، وهي نظرة تنويرية، قد انتشرت في هذه البلاد في الستينات، فان المهمة العلمية الكبرى التي وضعها أمام علم الجمال لم تحل بعد بكليتها، ولا يمكن أن تحل إلا في المستقبل البعيد.

١٨

يقول اننكوف في المقتبس السابق أن «البطانة الأخلاقية لكل أفكار بيلنسكي ومؤلفاته، كان تلك القوة التي جذبت إليه الأصدقاء والمعجبين الغيورين». ويعتقد أن خلاصة كرازة بيلنسكي الأخلاقية «التي استمرت طيلة حياته ستكون سيرة حياته الحقيقية»**

إن تقدير أصدقاء بيلنسكي والمعجبين الشباب به للبطانة الأخلاقية في كرازته ليس ممكناً وحسب، بل مرجح أيضاً إذا صدقنا آننكوف في هذه الحالة سنكون

* انظر أعلاه

** المذكرات الأدبية ص ٢١٦.

قادرين على فهم لماذا معظم الناس الذين كتبوا عنه في مذكراتهم، بمن فيهم أننكوف نفسه، أبدوا قليلا من الفهم الحقيقي لعمله الفكري الجبار الذي كان يدور في رأسه. ربما كان أن أصدقاء بيلنسكي والمعجبين الشباب أقدر على استيعاب كرازته الأخلاقية بصورة أساسية، إلا أن ذلك لا يعني أن سيرة الحياة الحقيقية يمكن ارجاعها إلى خلاصة كرازته الأخلاقية. لا، سوف نكون قادرين على فهم حياة بيلنسكي إذا تجشمنا استيعاب تلك المسائل النظرية الهامة التي خلبت دائماً هذا الرجل العبقري. ولسنا ميالين إلى فعل هذا

إلا أن ما يدهشنا أكثر هو حقيقة أنه حتى كرازة بيلنسكي الأخلاقية لم تكن مفهومة بصورة مرضية، كما يمكن أن نرى، من قبل أصدقائه والمعجبين الشباب. ويمكن أن نضرب مثالا على ذلك وهو أننكوف نفسه.

تصف مقالته «عقد مشهود» خلافاً في حلقة أنصار الغرب نشب في صيف ١٨٤٥ حول موضوع الموقف من الشعب. بعض أفراد الحلقة اتهموا بيلنسكي بأنه يتحدث عن الشعب باستخفاف، وأعلن غرانوفسكي: «فيما يتعلق بالموقف من القومية الروسية وفي الكثير من المسائل الأدبية والأخلاقية الأخرى تميل عواطفي الى أنصار السلافية أكثر من بيلنسكي واوتيشيستفيني زابسكي وأنصار الغرب»*

ولا يجد أننكوف كلمة واحدة دفاعاً عن بيلنسكي. إن عواطفه في هذه الناحية مع غرانوفسكي. ووصفه لهذا الخلاف يشمل أولئك الذين أرادوا توضيح آراء بيلنسكي وأنصار الغرب الآخرين. ويكرر السيد فيترينسكي هذا الوصف حرفياً تقريباً** ويفعل الآخرون الشيء نفسه.

وسأقول أكثر من ذلك، فحتى بيبين كانت لديه فكرة خاطئة (إلا أنها ليست حقاً من وصف أننكوف) عن موقف بيلنسكي من الشعب.

يقول بيلنسكي بحدته المعهودة في رسالة إلى بوتكين في ٩ كانون أول ١٨٤٢ «لا أستطيع أن أصلي من أجل الذئاب والدببة والكلاب المسعورة، أو من أجل

---

* المرجع السابق ص ٢٧٥

** غروسكي وعصره ص ص ٢٧٢ - ٢٧٣

التجار والموجيك الروس أو من أجل القضاة ورجال الشرطة الروس، ولكن أيضاً لا أشعر بالكره الشخصي تجاه أي منهم».

يحاول بيبين أن يجد أسباباً مخففة لبيلنسكي فيقول: «يتضح معنى هذه الكلمات من تطبيقها، ولكن لا بد أن نلاحظ، كسمة للعصر، أن كلمة «الشعب» ومفهوم «الشعب» لم يكونا مستخدمين كما في الوقت الحاضر، فقد أصبحا تعبيراً عن اتجاه كامل (يحاول حتى النفاق التجهيلي أن يستتر خلفه). وداخل حلقة بيلنسكي وأصدقائه لم يكن هذا المفهوم المجرد قد اتضح بعد

يبدو أن بيبين لا يرى أن كلمات بيلنسكي الحادة عن «الموجيك الروسي» موجهة فقط ضد سمات شخصية الشعب «التي خلفها يحاول أن يستتر حتى النفاق التجهيلي» والتي بسببها لا يقرع بيلنسكي الشعب بل مضطهديه. ولنتذكر رسالة أخرى لبيلنسكي نشرت في كتاب بيبين نفسه مؤرخة في ٨ أيلول ١٨٤٢ في هذه الرسالة يعلن بيلنسكي «لقد توصلت الآن الى فكرة جديدة هي فكرة **الاشتراكية** التي أصبحت بالنسبة إلي فوق كل الأفكار، أصبحت ألفباء الايمان والمعرفة...»

فلا الاشتراكية العلمية الحديثة ولا الاشتراكية الطوباوية للأربعينات يمكن أن تتهم، كما هو واضح، بموقف الاستخفاف بالشعب.

يقول «الفيساريون المتهور» في الرسالة نفسها: «أما الاشتراكية فانها شعاري... ماذا يجديني أن الجنرال يعيش، في حين أن الفرد يتألم؟ ماذا يجديني أن العبقري الذي على الأرض يعيش في السماء في حين تتمرغ الحشود في الطين؟ ماذا يجديني أن أفهم الفكرة، أن عالم الفكرة في الفن والدين والتاريخ مفتوح لي، في حين لا أستطيع أن أشارك في هذا أولئك الذين يجب أن يكونوا أخوتي في الإنسانية، أخوتي في المسيح، بل أولئك الغرباء الذين يعادونني بسبب جهالتهم؟ اذا منحت قطعة نقود لجندي فالأغلب أن أبكي، فان منحتها لمتسولة هربت منها كما لو اقترفت اثماً فظيعاً، محاولاً أن أتجنب سماع وقع خطاي. وإنهم ليسمون تلك حياة..» الخ.

ذلك هو الرجل الذي سعى بعضهم الى شحنه بحب الشعب. إن الجهود عابثة: ذلك أشبه بمن يحمل الفحم الى نيوكاسل.

هل تستطيع أيها القارىء أن تتخيل بيلنسكي مالك اقنان؟ أنا لا أستطيع

بصوره. إلا أن غرانوفسكي كانت له « ملكية معمدانية ». في رسالة الى ابن عمه في ٤ شباط ١٨٤٦، أي بعد الخلاف الذي وصفه أننكوف بعدة أشهر يقول إنه أراد أن يبيع مقاطعته ولكن فكره لا يطاوعه: « فربما أحتاجها إن وضعي الحالي جيد، ولكنه ليس ضماناً لي على الأقل، ومن حسن طالعي أن لي أعداء كثيرين... الخ ». إن المسألة ينظر إليها من وجهة نظر المالك وليس من وجهة نظر « الملكية »*

وأنصار السلافية لم تفتهم الفرصة في المحاضرة عن بيلنسكي في حبه للشعب، ولكنهم أيضاً كانوا يملكون عبيداً والحق أن بعضهم (مثلا كوشيليف) تذكر أن « القنانة خطيئة » ولكن هذا الرأي لم يلق القبول العام من حلقة أنصار السلافية. وكوشيليف نفسه كتب الى كيريفسكي في ٢٧ تشرين أول ١٨٥٢ « يا صديقي العزيز كيريفسكي لقد عجزت عن فهم كيف أنك أنت المسيحي لا تعذبك فكرة امتلاك الناس أقناناً فخلال اقامتي الأخيرة في موسكو كنت تهزأ مني معتبراً هذه الفكرة أنها ليست أكثر من وسواس التشبث بالفكرة الأحادية »**

وقد وحد خومياكوف بدوره أن القنانة خطيئة ومع ذلك تتضمن المفكرة اليومية لكوشليف هذه الملاحظة الهامة: « ١٧ آذار ١٨٥١ في الخميس والجمعة / ١٥ و١٦ امضينا أمسيتين، الأولى عند خومياكوف والثانية عند الأمير تشيركاسكي، والحديث الوحيد كان حول الغاء القنانة. والموضوع الرئيسي للخلاف. طالبت بحظر مطلق لبيع الناس وشرائهم فيما بيننا، وألح خومياكوف على البيع بقصد نقل الناس من المقاطعات التي تعاني من نقص الأراضي الزراعية الى تلك التي تتوفر فيها الأراضي الرراعية، وطالب الأمير تشيركاسكي بارسال الفلاحين كمجندين الى المقاطعات المؤجرة، أي لا يبيعهم ولا يربح منهم، بل يظل الفلاحون باسمه فقط، وقال تشيركاسكي أن هذه أفضل وسيلة »***

---

* نظراً لأن مراسلات غرانوفسكي ليست بين يدي، فقد اقتبست الرسالة هنا من كتاب فيترنيسكي عن غرانوفسكي ص ص ٢٧٧ - ٢٧٨

** سيرة حياة كوشيليف مجلد ٢ ص ٨٣.

*** المرجع السابق ص ٨٥.

الخطيئة هي الخطيئة طبعاً، ولكن ماذا يصنع المرء؟ سوف نذهب للاعتراف في الصوم الكبير

إنني أبعد من أن أقذف أبناء الأربعينات بالحجارة، فكيف أنصار الغرب في هذه الأيام، إلا أنني سوف أنهي مقالتي كما بدأتها: لا نزال نعرف القليل عن تاريخ التطور الفكري، وأضيف الآن والأخلاقي، للشخصيات البارزة في أدبنا وحياتنا الاجتماعية.

٣
مؤلفات عن
أ. إ. هرزن

أ.إ هرزن والقنانة[171]

[١٩١١]

١

في العدد ٩٤ من **الكولوكول**[172] (١٥ آذار ١٨٦١) استثاره أمله في ظهور اعلان إلغاء القنانـة، فعبر عن رغبته في أن يتذكره «أحد يوم البعث العظيم للشعب». إنه بالطبع يستحق الذكرى. إنه في مقدمة كتابنا الذين أعدوا الرأي العام الروسي لـ «الاصلاح الكبير». ولذلك فان من المناسب أن نذكره اليوم في الذكرى السنوية الخمسين لالغاء القنانة الاقطاعية.

تنقسم حياة هرزن الى قسمين. ولد في موسكو في ٢٥ آذار ١٨١٢ وعاش في روسيا حتى ١٨٤٧ أولاً كمواطن «حر» ثم كمنفي ومذنب تحت المراقبة. ولكن في ٣١ كانون الثاني ١٨٤٧ عبر الحدود الروسية في ثوراجي ولم يعد قط الى الوطن الأم. وسوف أوزع قصتي على قسمين حسب هذا التقسيم لحياته. سوف أبين في القسم الأول موقفه من القنانة عندما كان في روسيا وفي القسم الثاني سوف أتناول نضاله ضدها، النضال الذي استخدم فيه موهبته الأدبية العظيمة سلاحاً، معتمداً على حرية الصحافة الانكليزية، عندما كان في الخارج.

عندما كان هرزن في روسيا كانت الرقابة الشديدة جداً تعوق كثيراً نضال الكتاب الروسي التقدميين ضد القنانة. وحتى نصف هذه الناحية في تلك المرحلة، يكفي أن نتذكر المشهد الذي جرى في لجنة رقابة موسكو أثناء تلاوة تقرير الرقيب سنيغيريوف عن رواية غوغول **النفوس الميتة** في أواخر ١٨٤٢ ورئيس اللجنة، الذي كان أيضاً موظفاً مسؤولاً عن مقاطعة موسكو التربوية، وابن عم هرزن «د. ب. غولوخفاتسوف» الذي كثيراً ما أشار إليه هرزن في كتابه «**أيامي الغابرة وأفكاري**»، سرعان

ما أعلن لدى سماعه عنوان الكتاب: «لا ، لن أسمح بهذا النفس لا يمكن الا أن تكون خالدة فقط ، لا يمكن أن تكون ميتة ، إن المؤلف يشهر السلاح ضد الخلود »

وعندما فسر الشارح أن « النفوس الميتة » يجب أن تفهم أنها تعني الفلاحين الميتين الذين حذفوا من السجلات الرسمية ، استشاط الرئيس غيظاً وبعد أن أيدوه بالاجماع صرخ: « لا ، فحتى هذا غير مسموح به ، حتى اذا لم تتضمن المخطوطة شيئاً مهيناً سوى هذه الكلمات « الأشخاص المسجلون رسمياً فانه غير مسموح بها ان ذلك يعني معارضة « القنانة »

كانت القنانة أقل طرحاً من مسألة خلود النفس. وليس هذا مدهشاً ، فقد كانت القنانة في تلك الأيام إحدى الدعامات الأساسية للنظام الاجتماعي. فتحت هذه الظروف لا يستطيع الكتاب التقدميون إلا أن يعارضوا القنانة في الأعمال الروائية حين يصفون الجانب المظلم من الحياة الفلاحية المعاصرة. ولكن حتى في هذه الناحية كان المراقبون يقفون لهم بالمرصاد. ولذلك في مناقشة الزمن الذي عاشه هرزن في روسيا من الأنسب أن نركز ليس على نضاله ضد القنانة ، بل على العوامل التي دفعته الى هذا النضال.

كان هرزن ابناً غير شرعي لروسي عريق غني هو ايفان الكسندروفيتش ياكوفليف. ولكونه غير شرعي فقد تعرض لمضايقات في حياته ، تعتبر هامة في تلك الأيام. إن مناقشات من يكبرونه سناً عن « وضعه المزيف » دفعت الصبي الى التفكير النقدي. هذه المناقشات ، كما يقول هرزن رسخت فيه الاعتقاد أن صلته بأبيه كانت أقل من ابن شرعي. فهو يقر « أحببت هذا الاستقلال الذي ابتكرته لنفسي ». على أي حال أولى ياكوفليف اهتماماً كبيراً بمستقبل ابنه غير الشرعي ، وكان قادراً ، باتصالاته الواسعة ، ان يوفر له مركزاً يحسد عليه بين أولئك الذين تمتعوا بكل امتيازات القنانة. فما الذي جعل هرزن عدواً لهذا النظام؟ ما الذي قوى حب الحرية في نفس الصبي الحساس؟

إنه ينتمي الى جيل الشعب الروسي الذي أثرت فيه حادثة كان لها تأثير كبير في تاريخ التطور الداخلي لروسيا واقصد بالحادثة الانتفاضة الفاشلة في ١٤ ديسمبر (كانون الأول) ١٨٢٥ ويبين مقطع هام من **أيامي الغابرة وأفكاري** بوضوح شديد ما أثرت فيه أخبار الانتفاضة في بطرسبرج ونتائجها المباشرة.

« الحديث عن الانتفاضة والمحاكمة والرعب في موسكو أثر في كثيراً، لقد انفتح عالم جديد أمامي، عالم بات أكثر فأكثر نقطة التركيز في كياني الأخلاقي كله، ولا أعرف كيفَ حدث هذا، ولكن بفهمي القليل الغامض لما جرى، شعرت أنني لست الى جانب البارود والانتصارات والسجون والسلاسل. إن اعدام بيستيل ورفاقه أيقظ أخيراً هجعة الطفولة في نفسي »*

ممن استطاع الصبي الذي وعى أن يلقى التأييد في نزوعاته إلى حب الحرية؟ من استطاع الاجابة عن الأسئلة التي أيقظها فيه « البارود والانتصارات والسجون والسلاسل »؟ لقد جاءت الاجابات من معلميه - معلم « روسي » ومعلم « فرنسي ».

أولا التجأ الصبي إلى المعلم « الروسي إ ي. بروتوبوبوف. لقد تأثر الأخير باعترافات الصبي وبعد انتهاء الدرس هم الصبي بالمغادرة إلى بيته فقال له: « فلتكن مشيئة الرب أن تنضج وتتقوى فيك تلك العواطف ». وبعد ذلك كان يقدم إليه قصائد ممنوعة: **الأفكار** لريلييف **والخنجر وأنشودة للحرية** لبوشكين. ويلاحظ هرزن في **أيامي الغابرة وأفكاري**: « نسختها سراً (أما الآن فقد نشرتها علناً) »**

فيما بعد جاء دور المعلم الفرنسي: لقد عجز « الروسي » عن تفسير كل الأسئلة.

لقد اكتشف هرزن بطريق الصدفة تاريخ الثورة الفرنسية في الرف السفلي من مكتبة أبيه. وبما أنه بقلم ملكي منحاز جداً، فقد خلق حس عدم الثقة في القارىء الصغير، ولكنه خلق فيه، في الوقت نفسه، رغبة في مناقشة الأحداث البارزة في تلك الحقيقة الكبيرة مع بعض المفكرين المطلعين. في هذا الوقت بدا له معلمه « الفرنسي » أنه أفضل مفكر مطلع. وهكذا يروي هرزن محادثته معه:

« سألته في منتصف الدرس: لماذا اعدم لويس السادس عشر؟ نظر إليّ الرجل العجوز وهو يخفض حاجباً ويرفع آخر، نازعاً نظارتيه كأنه زائر، منتشلا منشفة زرقاء ضخمة مسح بها أنفه، فقال باهتمام كبير: « لأنه كان خائناً لوطنه ».

لاحظ هرزن بحق أن جواباً حاسماً كهذا جدير بكل الاهتمامات. ولقد اقتنع عاشق الحرية أخيراً أن الملك الفرنسي أعدم بحق.

---

* المؤلفات (طبعة جنيف) المجلد ٦ ص ٦٦

** أي الصحافة الروسية الحرة بلندن.

تعليق مضحك. اعتقد الارهابي العجوز أن هرزن، ولم يكن يحبه، لا يصلح لشيء طالما أنه لا يتعلم دروسه. لقد اعتاد أن يقول: «لن يظهر منك خير». ولكن بعد الحديث عن اعدام لويس السادس عشر انقلب غضبه إلى شفقة ومحبة. وفي نهاية الدروس لم يعد يبتسم كما كان دائماً، بل اتخذ مظهر الحبر وقال باختصار «اعتقد الآن أن لا خير فيك ولكن عواطفك النبيلة سوف تنقذك»*

٢

لماذا يتمرد الأشخاص الذين يتمتعون بامتياز خاص ضد هذا الامتياز؟ كيف تفسر هذه الظاهرة المؤكدة؟ أليس هذا دحضاً للنظرية المادية القائلة إن نزوعات أي طبقة اجتماعية (أو فئة) تحددها مصالحها؟

يقول ماركس وانجلز في بيانهما الشهير أنه عندما يصل الصراع الطبقي في شكله المحدد إلى ذروته فان عملية الانحلال تشمل كل الطبقة الحاكمة، فتكون النتيجة أن بعض العناصر يتركون طبقتهم وينضمون إلى الطبقة المضطهدة يحاربون من أجل تحريرها وحتى يثبت المؤلفان ذلك أشارا إلى حقيقة أنه في يومٍ ما تحول قطاع من طبقة النبلاء إلى البرجوازية، تماماً كما يتحول في أيامنا هذه بعض عناصر البرجوازية إلى البروليتاريا إنهما على حق. فاذا أخذنا بالحسبان الوقائع التاريخية المؤكدة التي أشارا إليها، فان الوضع يكون كالتالي:

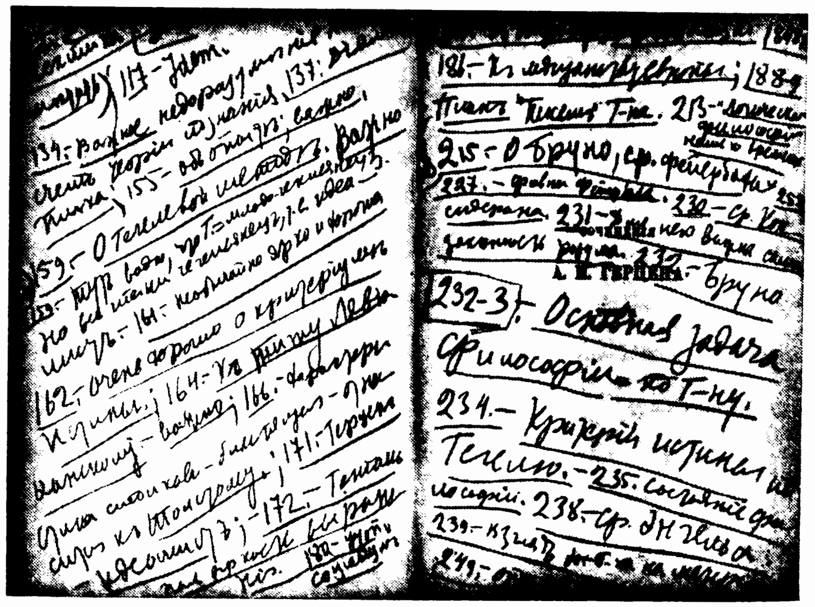
إن نزوعات الطبقات الاجتماعية المختلفة يحددها وضعهم أي مصالحهم. وبما أن الأوضاع الطبقية وبالتالي المصالح الطبقية تختلف من طبقة لأخرى، فان النزوعات التي تثيرها مختلفة أيضاً وعندما ينتقل رجل متم إلى الطبقة الحاكمة إلى الطبقة

---

* كان الكثير من المهاجرين الفرسيين في روسيا في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عسر وكان من بينهم أنصار للحكم القديم وثوريون، وكل فريق ترك تأثيراً في تطوير مناطقهم الروسية. وهكذا يقول كاتب سيرة كوشيليف أن أم الأخوة كيريسكي، أنصار السلافية المشهورين، كانت تلميذة للكونتيسة الفرنسيه المهاجرة دورير، التي كانت، حسب كلماته، أكثر ارستقراطية في عاداتها ومراجها ويلاحظ أن هذا النموذج كان ذا تأثير كبير على المواقف الفكرية والأخلاقية (سيرة كوليشيف المجلد١ الكتاب الثاني موسكو ١٨٨٩) وإ لنا الحق أن نؤمن أن هذه الحالة، من خلال أوفوتيا بتروفنا، لم تكن معدومة التأثير في المواقف الفكريه والأخلاقية لابنيها ايفان وبيوتر كيريفسكي اللذين كانا مشهورين بنزعتهما المحافظة. انظر أيضاً (ف لياسكوفسكي: الأخوة ليريفسكي، حياتهم ومؤلفاتهم، بطرسبرج ١٨٩٩).

المضطهدة فانه لا يثبت بذلك أنه تحرر من **كل التأثيرات الطبقية عامة**، بل حرر نفسه من تأثير طبقة واحدة وأصبح خاضعاً لتأثير طبقة أخرى. وهذا المثال لا يدحض المادية التاريخية، بل يحذر من تفسيرها تفسيراً أحادي الجانب.

أين يكمن هدف أي سيرة جادة لشخصية عامة تنتمي مولداً إلى المضطهدين وانتقلت الى المضطهدين؟ يكمن في الكشف عن الظروف التي انتزعته من تأثير المضطهدين ودفعته إلى المضطهدين. فمثلا أولى اهتماماً كبيراً لسيرة القس الارستقراطي سايس التي فسرت لي الطرق التي أثرت فيها الطبقة الثالثة عليه بحيث كتب أخيراً الكلمات المشهورة: «من هي الطبقة الثالثة؟ لا شيء ماذا سوف تكون؟ كل شيء ولشديد الأسف لم ينتبه مؤرخو السير لمثل هذه الأحوال.



تعليقات بليخانوف على الصفحة الداخلية من غلاف المجلد الثاني لمؤلفات هرزن (جنيف ١٨٧٦).

أما بالنسبة الى هرزن فاننا نعرف شيئاً عن المؤثرات التي خلقت فيه حب الحرية ونعرف أن قسماً من هذه التأثيرات لا بد أن يعزى إلى أساتذته. والآن سوف نأخذ بعين الاعتبار تأثير خدم المنزل فيه.

ذلك أن « الملكية المعمدانية » الروسية (هذا تعبيره الخاص) لم تفشل في التأثير قليلا أو كثيراً ومن جوانب متعددة في « الطبقة النبيلة » أمر ليس من العسير الاقرار به مسبقاً، وفوق ذلك يؤيد عدد كبير من الوقائع المعروفة على نطاق واسع من لم يعرف، مثلا، أن بوشكين تعلم لغته الروسية القومية من مربيته، وهي من الخدم، وقد بات اسمها مشهوراً الآن: أرينا روديونوفنا؟

مثال آخر إن مؤلف **حياة القيصر وروسلان**(١٧٣)، م. إ غلنكا **يقول** أنه كثيراً ما سمع في طفولته الأغاني الشعبية الروسية في بيت أبيه. يقول: « كنت معجباً جداً بتلك النغمات الحزينة اللطيفة التي لم أكن أفهمها تماماً، وربما كانت هذه الأغاني التي سمعتها طفلا السبب الأول في أنني عملت أخيراً في الموسيقى الشعبية الروسية بصورة رئيسية »*

وحتى نتجنب الاكثار من الأمثلة، سوف نحصر أنفسنا فقط بالرجوع إلى شهادة بارزة مقنعة لـ « ب. د. بوبوريكين ». ففي مقالة مخصصة لـ « المتنورين الخدم » التي ظهرت في المجلد الرابع ليوبيل نشر كتاب « **الاصلاح الكبير** » يقول:

« الآن، بعد خمسين عاماً من ممارستي الكتابة، متذكراً « المتنورين » الذين أفادوني، أشعر بالامتنان العميق نحوهم. فمن غيرهم علمني الكثير عن الحياة، سواء عن الحياة القديمة، أو عن الحياة عندما غدا فهمي أكثر وعياً؟ ما رأيته منهم، وما أخبروني به طيلة عقد بكامله، لغتهم وتجربتهم في الحياة، قدرتهم الهائلة على الملاحظة، وحبهم للطبيعة والحيوان، ونظرتهم إلى العالم، ومجموعة ابتكاراتهم وعقائدهم وقواعدهم وكل شعر الحياة اليومية، **حيث تختلط الحقيقة الواقعية بالخيال الشعبي هذه هي موهبتهم، وذاك هو تراثهم** »**

---

* المقتبس من م. م ايفانوف تاريخ التطور الموسيقي في روسيا بطرسبرج ١٩١٠ مجلد ص ص ٢٧٠ ٢٧١

** المرجع السابق ص ص ٨٤ ٨٥

اننا أمام مثال بارز للتأثير المتعدد الجوانب للخدم في سيدهم المستقبلي. والحقيقة لا شيء قيل هنا حول كيف أثر متنورو بوبوريكين «الخدم» في موقفه من امتيازات طبقة النبلاء ولكن بوبوريكين يتحدث عن هذا كثيراً «إن أولئك الرجال، متنوري الخدم، أنقذوا قلبي من قسوة الشعور الطبقي وكبريائه لأنهم كانوا جذابين فيما فعلوه ويفعلونه وما سوف يفعلونه وبما يتحدثون عنه»*

هرزن أيضاً تأثر بمتنوريه «الأرقاء» من حيث أنهم حطموا كبرياءه الطبقية. وإذ يدكر هرزن أولئك «المتنورين» يتحدى بصورة حاسمة كبرياء النبلاء ذلك أن خدم البيوت باستطاعتهم افساد أبناء السادة. يقول: «على العكس إن هذا التطور على التنشئة الخدمية زرع في نفسي حقداً دفيناً على كل أشكال العبودية والاستبداد. عندما كنت لا أزال طفلا، كانت فيرا أرتامونوفا إذا أرادت أن تؤذيني لسوء تصرفي قالت: «انتظر حتى تكبر، فسوف تصبح مثل السادة الآخرين». وتلك كانت اهانة كبيرة لي. إن بامكان تلك العجوز أن تهدىء روعها - فعلى أي حال أنا لم أصبح مثل هؤلاء السادة»**

إن النبوءة التي قدمتها مربية هرزن العجوز، والتي رواها هنا، هي نبوءة هامة. فخدم المنازل يعرفون من تجربتهم المريرة أن نفسية «ابن السادة» شيء ونفسية السيد الكبير شيء آخر تماما إن الانسان لا يولد سيداً، بل يصبح سيداً ويستلزم الأمر وقتاً طويلا لتعليمه كيف يحصر حقل رؤياه في مصالح المستغلين. فليس من السهل على طفل أن يتلقن هذا النوع من التعليم. إن «ابن السيد» هو ببساطة حيوان اجتماعي، كما يقول أرسطو. فهو قادر اذن على التعاطف مع كل جيرانه الذين ليسوا في مركزه الاجتماعي. وبالتدريج فقط، عندما لا يعود «طفلا» يتعلم أن يرى الخادم والسيد بنظرتين مختلفتين، وعندما يتعلم هذا، عندما تصبح الكبرياء الطبقية مغروزة في قلبه، عندئذ، حسب تعبير فيرا ارتامونوفنا، يصبح سيداً مثل السادة الآخرين تماماً ولكن في مراحل استثنائية، تلك التي لا تبتعد كثيراً عن موعد انهيار النظام الاجتماعي، نجد قطاعاً معيناً من المرشحين الشباب لدور المستثمر لا ينسجمون مع هذه القاعدة العامة.

---

* المرجع السابق ص ٨٥

** المؤلفات المجلد ٦ ص ٤٩.

هذا القطاع يتألف بالطبع من الأفراد الحساسين* ولقد انتمى إليهم هرزن، وهذا كان السبب في أن نبوءة مربيته، المستخلصة من التجربة المريرة، غير صحيحة.

٣

من الواضح أن ياكوفليف لم يكن ظالماً جداً في معاملته لخدمه. وهذا ما أفصح عنه هرزن في أيامي الغابرة وأفكاري، وما شهدت عليه م. ك ريشيل في مذكراتها لقد أخبرتنا أن ياكوفليف لم يكن طاغية على خدمه، فاذا أذنب أحد الخدم، خاطبهم معنّفاً ولكنه لا يشتمهم ولا يهينهم ولا ينزل فيهم عقاباً جسدياً**

لاحظ الطفل الحساس وكان في سن مبكرة، أن الخدم يعانون مشقة في عملهم. وقد تأثر عميقاً، مثلاً، لارسال الشباب الى الجيش.

« هذه المشاهد المرعبة أثرت فيّ بقوة... ولبى رجلان من البوليس دعوة صاحب الأرض، وأخذا الرجل خطفاً، كما لو كان بطريق الصدفة، من غير اعلامه، وغالباً ما يدعي رئيس الخدم أن مالك الأرض في الليل الفائت طلب من الرجل الحضور الى مركز البوليس، ويؤخذ الرجل بطريقة عنيفة على الرغم من الدموع، بينما تبكي النساء وتقدم له الهدايا، وأنا أيضاً قدمت له كل ما أملك أي عشرين كوبيكاً ودثاراً للعنق »***

ومن مذكرات هرزن الأخرى ما كتبه عن نظام أبيه في حلق لحية أحد رؤساء خدمه. كانت هذه « العقوبة الجسدية » شديدة الوقع على رئيس الخدم المسكين: « لقد انفجر في تنهدات وتوسل وهو جاث على ركبتيه أن يغرم بمئة روبل فوق دخله المعتاد، على أن يتجنب هذه القباحة »****

* إن صفة « حساس » هنا استخدمت للاشارة الى القدرة على التعاطف والشعور بآلام المحيطين به. هذه القدرة لم تظهر دائماً في كل الأفراد الموهوبين. وهكذا مثلا غونشاروف لم يكن يشعر بذلك تماماً وعلى أي حال، إن المرء إذا أمعن في مقالته عن « الخدم » لا يستطيع القول إنه كان يشعر بالتربية البيتية على يد الخدم بالوضوح الذي نجده في مذكرات هرزن.

** مقتطفات من مذكرات ريشيل ورسائل هرزن إليها، موسكو ١٩٠٩ ص ١٥ وانظر مؤلفات هرزن المجلد ٦ ص ٤١ ويقول هرزن مناقضاً ريشيل إن أباه لم يمارس العقاب الجسدي وكان هذا « غير عادي بحيث أن كل الخدم تحدثوا عنه بعد ذلك شهوراً، وفوق ذلك كان مخصصاً للإساءات البالغة »

*** المؤلفات مجلد ٦ ص ٤١

**** المرجع السابق ص ص ٤١ - ٤٢

لا بد أنه تأثر جداً بالقصة التي رويت في أيامي الغابرة وأفكاري عن الطاهي الذي كان « ملكية معمدانية » لعمه (ملكية السيناتور)، ولموت تولوشانوف، الطبيب الخادم.

دبر (السيناتور) أمر تدريب طاهية عند طاهي القيصر الفرنسي المشهور وبعد أن تعلم التجارة خدم في النادي الانكليزي وبات غنياً، ورغب في أن يشتري حريته. ورفض (السيناتور) أن يبيعه حريته، قائلاً إنه يمنحه الحرية عند وفاته (أي عند وفاة السيناتور) وقد أثر هذا في الفنان المسكين وجعله مهملاً في أعمال الطهو حتى بات سكيراً مدمناً ويكتب هرزن الذي أتيح له أن يشهد خاتمة الرجل عن كثب:

« عندئذٍ لمست كيف يتراكم الحقد والشر في الخدم العمال ضد أسيادهم: لقد تحدث وهو يصرف أسنانه، وصارت تعبيرات وجهه خطرة وخاصة أثناء الطهو لم يكن خائفاً من أن يتحدث بحضوري، كان يحبني، ويقول وهو يربت على كتفي بطريقة مألوفة: « ثمرة طيبة من شجرة فاسدة ». وبعد وفاة عمي أطلق أبي حريته فوراً، إلا أن ذلك كان متأخراً، كان يعني أنه تخلص منه فقط، لقد كان رجلاً ضائعاً »*

مصير الطبيب الخادم كان أكثر مأساوية. كان في خدمة (السيناتور) نفسه. ولقد تجشم السيد المشقات للحصول على اذن له بالاستماع الى المحاضرات في الأكاديمية الطبية الجراحية. يقول هرزن إن الطبيب الخادم بعد أن أنهى دراسته في الأكاديمية « مارس عمله بطريقة طائشة » إلا أنه يقول إن الرجل ذو قدرات وقد تعلم اللاتينية والألمانية. بعد ذلك تزوج تولوشانوف من ابنة ضابط، متستراً على وضعه كخادم. وعندما اتضحت الحقيقة المؤلمة فرت الزوجة منه مرعوبة مع رجل آخر فانتحر مسموماً وكان ذلك في ٣١ كانون الأول ١٨٢١ لقد سمع هرزن وهو في الحادية عشرة جئير تولوشانوف وصرخاته: « يا للألم، يا للألم انه اللهيب ». وقد طلب أحدهم من الرجل المحتضر أن يستدعي كاهنا، إلا أنه رفض قائلا إنه لا يؤمن بالحياة الأخرى. وقد توفي قبيل منتصف الليل: « الآن تدخل السنة الجديدة... سنة سعيدة للجميع

كل هذه التفصيلات المخيفة وصلت في دقتها الى الفتى هرزن. فليقص علينا كيف أثرت فيه هذه القصة المرعبة.

---

* المرجع السابق ص ٤٧.

« اندفعت في الصباح الى البناء الخارجي الصغير، الذي يستخدم كغرفة حمام، حيث نقل إليه جثمان تولوشانوف، كان الرجل ممدداً على الطاولة كما كان عند موته، في معطف قصير، بصدر عارٍ، وقد شوهت معالمه بشكل فظيع وعراها اللون الأسود. كان أول جثمان لميت شاهدته، فهرولت وأنا أكاد يُغشى علي. لم يصرف انتباهي شيء - لا اللعب ولا الصور التي قدمت لي في عيد رأس السنة الجديدة، فمعالم تولوشانوف السوداء لاحقتني في كل مكان، وفي مسمعي صوته: يا للألم يا للألم انه اللهيب »*

ويلاحظ هرزن بعد قصة موت تولوشانوف (في الخاتمة) أن تربية الخدم، « غرفة الخدم » على حد تعبير هرزن لم يكن لها تأثير ضار عليه، بل العكس فقد أذكت فيه، منذ الطفولة وما بعد، الكراهية الشديدة لكل عبودية واستبداد. والأمثلة التي قدمنا توضح، كما اعتقد، مصدر هذه الكراهية. لقد انزرعت بذورها في قلب الطفل الحساس على يد أناس عانوا الأمرين من العبودية والاستبداد، فخلقوا في نفسه تلك العواطف النبيلة، فكانت دافعاً فريداً لتطوره الأخلاقي فيما بعد.

لاحظوا أن هرزن لم يكن ميالاً الى الاغراق في المثالية فيما يتعلق بغرفة الخدم. يقول إن تدريب أبناء الخدم على « الخدمة » يعني تدريبهم على الكسل والاسترخاء والكذب وشرب الفودكا الرخيصة** وظل يدين للخدم بحقده على أي نوع من أنواع اضطهاد الإنسان للإنسان. فكيف ذلك؟ إن الجواب بسيط تماماً

فعندما تدرب « غرفة الخدم » إنساناً على شرب الفودكا، والكسل، فانها لا تدربه على المصالحة مع وضعه ولم يحدث هذا أبداً لا في طفولة هرزن ولا في مراهقته*** وهذا يعني أن الجواب الذي تقدمه « غرفة الخدم » على مسألة العلاقات بين الناس كان أكثر أخلاقية بما لا يقاس من ذلك الذي يمكن الحصول عليه في غرفة دراسة السيد أو غرفة جلوسه. إن البراعم الفتية فقط من الشجرة الفاسدة لا تنسى الجواب الذي

---

* المرجع السابق ص ص ٤٨ ٤٩

** المرجع السابق ص ٤٢

*** لم تكن الحالة هكذا دائماً فقد أفاد المسافرون أن العبيد في بعض أنحاء أفريقيا ينظرون الى أسيادهم نظرة دونية معتبرين أنهم أشرف منهم مركزاً وهذا ما يحدث دائماً مراحل التطور الاجتماعي التي تتطابق فيها العبودية، باعتبارها « منظمة عمل » مع حالة القوى المنتجة الاجتماعية. وفي زمن هرزن لم يكن هذا التطابق متوفراً في بلادنا.

تقدمه « غرفة الخدم ». أولئك فقط استطاعوا أن يصبحوا عاملين تقدميين في روسيا

وهكذا كان تاريخ أدبنا بعيداً عن النظر من زاوية **السيكولوجيا الاجتماعية** - والأخيرة بدورها، لم تدرس دراسة كافية من زاوية **العلاقات والتأثير المتبادل للطبقات الاجتماعية**. إلا أن الحقائق القليلة التي نعرفها عن الموضوع تثبت ما سبق أن قلته عن دور خدم « غرفة الخدم » في التطور الأخلاقي لممثلي الاتجاه « السلبي » في فكرنا الاجتماعي الذين انحدروا من طبقة النبلاء

فلنشر كمثال على ذلك الى ليرمنتوف. يقول السيد نسطور كوتلياريفسكي: « أمضى ليرمنتوف ثلاثين عاماً في البلاد - ليس طفولته فقط، بل أيضاً مراهقته. فاستطاع أن يلاحظ الحياة اليومية للفلاحين عن كثب، وقيل إنه كان على صلة مباشرة مع البسطاء »*

ألم تكن هذه الصلة المباشرة هي التي زرعت في نفسه البذور الأولى للمزاج « السلبي » الذي تطور فيما بعد - أو يمكن القول إنه **تطور تطوراً كاملاً** - بشكل أصيل في تلك النفس؟

أظن أن ذلك محتمل كل الاحتمال.

وكما لدى ليرمنتوف كذلك لدى هرزن** يقول هو نفسه أن حقده على العبودية والاستبداد، انغرس في نفسه عن طريق الخدم. فاذا كان الأمر كذلك فان صلاته مع الخدم جعلته لأول مرة قادراً على الاستجابة لنداء الحرية، فجعلته حساساً لهذه التأثيرات مثل حادثة ١٤ ديسمبر وأشعار ريلييف وبوشكين الممنوعة والمبادىء الارهابية للمعلم « الفرنسي »: لقد كان على صلة بمربيته فيرا ارتامونوف قبل أن يسمع بحادثة ١٤ ديسمبر أو الطبقات المستخدمة التي تحدث عنها المسيو بوشوت، وهو إرهابي من ميز إن حقده على العبودية والاستبداد يعني أن الخدم أثروا تأثيراً قوياً في تطوره السياسي اللاحق من دون أدنى شك.

---

* كتاب ليرمنتوف بقلم كوتلياريفسكي، بطرسبرج ١٩٠٩ ص ١٨

** يلاحظ فيتريبسكي أن هرزن بسبب ولادته غير الشرعية نظر اليه الخدم على أنه نصف سيد (انظر هرزن بطرسبرج ١٩٠٨ ص ٧). ومن المحتمل أن ظروف ولادته جعلته أوثق صلة مع الفلاحين.

٤

كتب هرزن في يومياته في ١٠ حزيران ١٨٤٢ «إن العزلة بين الوحوش تؤذيني». وهذا النوع من العزلة مؤذٍ لكل إنسان. إن حقده على العبودية والاستبداد الذي انزرعت بذوره في نفسه على يد الخدم، لا نعرف شكله الذي جعل هرزن يقرر الوقوف الى جانب طموحاته الى الحرية. ومثل ليرمنتوف لم يكن نافراً من طموحات الحرية في صباه، إلا أن مصيره الحزين كان، كما هو واضح، أحد أسباب عزلته النفسية، أقول مثل ليرمنتوف يمكن أن يكون قد عجز عن تجاوز الكبرياء، بل الازدراء العقيم لـ «القطيع العام».

حتى أجعل فكرتي واضحة، سوف أقتبس مثالاً من هرزن نفسه. فقد وطن نفسه، مأخوذاً بـ «ارهابية بوشوت» أن يثبت لأحد أترابه عدالة اعدام لويس السادس عشر. فاعترض صديقه: «هذا شيء رائع، لكنه كان معيناً من قبل الله، أليس كذلك». «نظرت إليه مشفقاً، وتوقفت عن التعاطي معه ولم أسأله أبداً أن يأخذني الى مكانهم ثانية»* إن هذا مفهوم تماماً فنتخيل لحظة أن جميع الأتراب الذين صمم هرزن أن يكاشفهم بآرائه صاروا مثل ذلك الصديق: ماذا يمكن أن يحدث؟ سوف ينظر إليهم جميعاً بشفقة، وسيكف عن التعامل معهم، ومع أنه لم يكف عن رؤيتهم، إلا أنه بالتأكيد لم يعد يكشف نفسه أمامهم. وبتعبير آخر سوف يبقى منعزلاً، أي مثلما بقي ليرمنتوف طيلة حياته. وليس هذا كل شيء سوف يترعرع، ونفسه تزدري أصدقاءه، ويعتاد على رؤية نفسه أنه الشخص المختار، وأن «القطيع» لا يقدره ولا يفهمه، تماماً مثلما رأى ليرمنتوف نفسه. وأيضاً هذا ليس كل شيء فطموحات الحرية في الشاب الحساس، وهذا ما لا نجده فيمن حوله، جعلته ينظر نظرة متشائمة الى المستقبل. من لا يذكر قصيدة ليرمنتوف الشهيرة «تأمل»؟

بألم دفين أزدري جيلنا
مستقبله موغل في الظلمة والخواء
واذ يعرف كثيراً، يضيع في الشك
ويسير نحو شيخوخته بتراخ

---

* المؤلفات المجلد ٦ ص ٩٠.

ولأننا أغنياء، منذ طفولتنا تقريباً
بكل أخطاء آبائنا ونظرتهم المتباطئة وفطنتهم
ولأن الحياة، مثل طريق املس بلا هدف، قد ضللتنا
فاننا مثل ضيوف يجلسون الى مأدبة غريبة.

وإذا كانت حياة هرزن وبيلنسكي وأبناء الأربعينات الآخرين لم تصبح طريقاً أملس بلا هدف، واذا كانوا تخلصوا من التشويش الليرمنتوفي، فان هذا تفسره المصادفات الميمونة التي انقذتهم من «العزلة بين الوحوش»** لقد انقذتهم العاطفة التي وجدوها في الحلقات التي انسجمت مع آرائهم. ولن أقف عند أهمية صداقة هرزن لأوغاريف في صباهما سوف أذكر هنا فقط القسم الذي أقسمه الصديقان الشابان أثناء نزهة في «هضاب الدوري».

«كانت الشمس تغيب، والقباب تلمع، والمدينة تمتد بلا حدود عند سفح الهضبة، وكان نسيم عليل يهب علينا، فوقفنا برهة والذراع بالذراع، وعندئذٍ عانقنا بعضنا على مرأى من موسكو وأقسمنا أن نضحي بأنفسنا في النضال من أجل ما أخترناه»*

قد يدفع هذا المشهد الرومانسي في مظهره بعض القراء الى الابتسام. ولكن المرء لو أخذ بالحسبان أن «هضاب الدوري» غدت أشبه بمكة بالنسبة الى الاثنين في ذلك

** لا شك الآن أن ليرمنتوف في صباه قد تطلع الى الحرية. يقول كوتلياريفسكي: «ثمة الكثير من الملاحظات والأشعار في مذكرات صباه يعالج فيها الأحداث السياسية المعاصرة. إن آراءه في تلك الأحداث لبرالية جداً، حتى جريئة جداً بالنسبة الى هذه الأيام. هناك المغامرة الجريئة ضد أراكتشييف «الطاغية» (بوفورور ١٨٣٠) والقصيدة الهجائية ضد الملوك (احتفال اسموديوس ١٨٣٠) والنبوءة الغامضة عن العام الأسود الذي ينتظر روسيا، الذي لا يقل عن تكرار تمرد بوغاتشيف[١٧٤] (نبوءة ١٨٣٠)... كل هذا قد يكون سطحياً وغير ناجح، ولكن من الواضح أن ليرمنتوف بدأ يفكر مبكراً من خلال تلك الأبيات، بحيث أن بعض قصائده المتأخرة، المشكوك أن تكون ذات اتجاهات ليبرالية، لم تكن كما نرى نتيجة التفكير المتقلب، بل نتيجة التفكير الواسع. أن دفاتر الشاعر الشاب تشتمل أيضاً على قصيدتين مكرستين لثورة تموز، وكل واحدة منها ملأى بالحماسة والروح الراديكالية، إلا أنها هزيلتان في تصميمها وهناك أيضاً قصيدة ذكية وجميلة جداً، يحيي فيها شاعراً منفياً من وطنه - ومن الواضح أن دافعه ليس حبه لعرائس الشعر» (المرجع السابق ص ص ٤٧-٤٨). كل هذا هام بما فيه الكفاية لكن الطموحات السياسية لدى ليرمنتوف ظلت من غير تطور، وبدا أخيراً أنها اندثرت نهائياً ومجرى شعره بشكل رئيسي هو تمرد فردي لشخصية مستقلة أنفة ضد البيئة الاجتماعية المنحطة.

* المؤلفات، المجلد ٦، ص ٩٣

المشهد حيث كانا يذهبان مرات عديدة في السنة، وحيدين دائماً، لبات واضحاً كم ترك من أثر فيهما

يقول هرزن: «لا شيء في العالم يصون المراهقة نقية نبيلة، ولا شيء يحفظها أيضاً مثل الاهتمام بالبشرية جمعاء»* إن الأمر على تلك الشاكلة ولا ريب. ولكن يمكن أن يضيف المرء أن لا شيء في العالم يمكن أن يصون اهتمام المراهق بالبشرية جمعاء مثل القدرة على مشاركتها

تشكلت في الجامعة حلقة حول هرزن وأوغاريف - إنها الحلقة المشهورة التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ تطور روسيا الفكري. لقد ضمت سازونوف وساتين وباسيك وكتشر وموسلوف ونوسكوف وسافيش الذي اشتهر فيما بعد كفلكي.

تحلق حول هرزن في الجامعة فتيان رائعون، حسب تعبيره هو، لقد اهتموا كثيراً بالعلوم وفي الوقت نفسه لم يغمضوا أعينهم عن حياة المجتمع حولهم. ويلاحظ هرزن أن هذا «التعاطف مع حياة المجتمع» حرك الأخلاق المدنية لهؤلاء الطلبة. «قلنا وأصدقاءنا كل ما عن لنا في قاعة المحاضرات، وتناقلت الأيدي القصائد الممنوعة، وكانت الكتب المخطورة تقرأ ويعلق عليها، ولكن، برغم كل ذلك أنا لا أذكر مثالاً واحداً لشخص تجسس على أصدقائه الطلاب، ولا حالة واحدة من الخيانة. هناك بعض الشباب أرادوا أن يكونوا منعزلين لا يختلطون مع أحد، ولكنهم كانوا حريصين على مجلسهم»**

حتى نفهم رأي هرزن في روسيا، الرأي الذي تشكل فيما بعد، وان كان وثيق الصلة بذكريات الصبا، فان من المفيد أن نلاحظ هنا المثال التالي.

إن الفروق الاجتماعية، في رأيه، لا تأثير لها على العلاقات المتبادلة بين الطلاب في ذلك العصر. والطالب الذي كان يتباهى بنبل محتده أو بثروته يرفضه رفاقه ويؤذونه. وقد كان معظمهم من طبقة النبلاء. وكان قسم الطب حيث الأكثرية للألمان والطلاب الفقراء، منعزلاً عن العالم الطلابي. يقول هرزن: «لقد تقوقع الألمان على أنفسهم وكانوا مشبعين بالروح الغربية الوضيعة. وكان الطلاب الفقراء يختلفون عنا تماماً، كنا نتحدث

---

* المرجع السابق ص ٩١

** المؤلفات، المجلد ٦ ص ٣٨.

لغة تختلف عنهم، فلأنهم تربوا تحت نير استبدادية الرهبان وغرقوا في الخطابة والكهوت، كانوا يحسدوننا لطرقنا السهلة الطليقة، بينما كنا نشعر بالضيق من وضاعتهم المسيحية »*

اذا نحينا الألمان جانباً، تذكرنا في الستينات الطلاب الذين جاؤوا من المدارس الداخلية الذين لا يعرفون « الوضاعة المسيحية »، فقد شكلوا طليعة الهيئة الطلابية. والطلاب الذين جاؤوا من **الرازنوشنتسي** تقدموا الطلاب الذين جاؤوا من طبقة النبلاء وجعلوا الأخيرين تحت تأثيرهم. وقد انعكس التغير في نسبة **الرازنوشنتسي** في تاريخ الأفكار الاجتماعية في روسيا وعندما ألح نارودنيك السبعينات أن الانتلجنسيا ستقوم بتنظيم أغلب العناصر المسؤولة من الفلاحين معتنقين واياهم مبدأ تحقيق « الأرض والحرية »، كانوا يعنون **المثقفين المتحدرين من الرازنوشنتسي**. وعندما قال هرزن، في بداية الخمسينات، أن الانتلجنسيا سوف تدفع الشعب الى النتائج (الاشتراكية) الأخيرة للفكر الأوروبي الغربي، كان يقصد **المثقفين المتحدرين** من النبلاء. وهكذا في كتابه **تطور الأفكار الثورية في روسيا** (باريس ١٨٥١ ص ٨٤) لا يصيب في قوله: « في بلادنا كان عمل الفكر الثوري ليس في الحكومة ولا في الشعب، بل في طبقة النبلاء الدنيا والوسطى ». ويقول الشيء نفسه بمناسبات أخرى.

سأتناول هذه الناحية من آرائه تفصيلاً فيما بعد، أما الآن فأرغب أن أشير فقط الى أي مدى يثبت تاريخ تطوره الفكري صحة الأطروحة المادية القائلة إن الفكر لا يحدد الكائن، بل الكائن يحدد الفكر

٥

كانت حلقة هرزن أوغاريف حلقة « سياسية »، متميزة من حلقة ستانكيفيتش التي لا تقل عنها شهرة، والتي كانت ذات اتجاه فلسفي(١٧٥) إن « الفلاسفة » ينظرون إلى « السياسيين » نظرة استخفاف معتقدين أن العمق ينقصهم** على أي حال لاحظ

---

* المرجع السابق ص ١٢٧

** يروي هرزن: « قبل المنفى لم يكن ثمة تواصل محبة بين حلقتنا وحلقة ستانكيفيتش، ما كانوا يحبون نوجهنا السياسي، كما كنا نكره اتجاههم التأملي. كانوا يعتبروننا ساخرين وفرنسيين، وكنا نعتبرهم عاطفيين وألمانيين. وكان غرانوفسكي أول رجل اعترف بالجانبيين، الرجل الذي مد يد الصداقة الى الطرفين، الذي =

هرزن أن « الفلاسفة و« السياسيين » وكل شباب الجامعة، رغم كل اهتمامهم بالقضايا النظرية، لم يغضوا الطرف عن قضايا الحياة العملية. وقد تعلمنا من اكساكوف، الذي كان عضواً في حلقة ستانكيفيتش، أن الحلقة قدمت نظرة عامة عن روسيا والحياة والأدب والعالم ». وان تلك النظرة (لاحظوا جيداً) كانت « سلبية بمعظمها »* فاذا كانت تلك هي الحالة مع « الفلاسفة » فلا بد أن تكون النظرة السلبية أكثر إنتشاراً بين السياسيين ».

كان « السياسيون » دعاة لا يكلون. يكتب هرزن: « حيث سنحت الفرصة للحديث أو الدعوة اندفعنا فكراً وروحاً إلى استغلالها لا نبخل بالوقت ولا العمل، بل نضحي من أجلها بمتعتنا

ما الذي دافعوا عنه؟ للاجابة عن هذا السؤال أفضل الاقتباس من هرزن مباشرة.

« من الصعب تحديد ما كنا ندافع عنه بالضبط. أيديولوجيتنا كانت غامضة: لقد دافعنا عن الثورة الفرنسية ثم عن السانسيمونية ثم عن الثورة، لقد دافعنا عن الدستور والجمهورية وقراءة الكتب الممنوعة وتمركز القوى داخل المجتمع الواحد ولكننا دافعنا قبل كل شيء عن الحقد على كل اضطهاد واستبداد ».

وبقراءة الشباب الروسي التقدمي لسان سيمون عرفوا، لأول مرة، الاشتراكية الأوروبية الغربية. يقول هرزن إن سان سيمون شكل أساس«معتقداته » (ولو نشدنا الدقة قلنا أساس معتقداتنا) « وظلت ثابتة من حيث أسسها وجوهرها »** هنا نرى أن هرزن على صواب أيضاً بالفعل ظل اشتراكياً حتى وفاته. ومن ينسى هذا لن يفهم العمل الصحفي لهرزن في زمن الغاء القنانة. لقد تمسك هرزن حتى آخر حياته بخطأ لم يكن يميز فقط تعاليم سان سيمون، بل يميز كل الاشتراكية الطوباوية. وأقصد عجز هذا النمط من الاشتراكية عن عمل أي شيء في العلاقة بين الكائن والوعي، بين

= من خلال حبه الكبير للطرفين، وبسبب طبيعته المتسامحة، محا كل سوء الفهم من بين الطرفين. (المؤلفات المجلد ٧ الطبعة الأجنبية ص ١٢٠).

* اكساكوف مذكرات من سنوات طالب (١٨٣٢ - ١٨٣٥) بطرسبرج ١٩١١ ص

** المؤلفات، المجلد ٧ ص ١٩٧

الاقتصاد والسياسة. وربما ظن القارىء أنني أقترف مغالطة إذا أضفت أن ضعف آراء هرزن الاشتراكي يفسر، إلى حد ما، اتساع تأثير الكولوكول في السنوات الأولى لقيامها لكن الأمر كان هكذا بالفعل. سوف أفسر هذا فيما بعد بصورة أكمل * إلا أنني الآن أكتفي بالاشارة إلى هذا

إن من أعظم الأفكار الرئيسية الجدية عند سان سيمون أطروحته «إن القانون الأساسي في كل قطر من الأقطار هو ذاك الذي يوطد الملكية ويتخذ الاجراءات لاحترامها» ** إذا فهمنا ذلك تماماً، فان هذه الفكرة الهامة تؤدي إلى نتيجة وهي أن العلاقات القانونية والنظام السياسي لأي قطر من الأقطار يحدده الاقتصاد. وتلك فكرة مادية محضة. إن سان سيمون لم يضع هذه الفكرة فقط بل جعلها أيضاً أساساً لكثير من مناقشاته فيما يتعلق بتطور الحضارة الأوروبية في العصور الحديثة. لقد ذهب إلى أن الانتاج هو هدف الاتحاد الاجتماعي، وبالتالي فان هذا الاتحاد سوف يكون على رأسه رجال يسيطرون على الانتاج. وحتى القرن الخامس عشر كانت الزراعة هي أهم فرع في الانتاج، وكان يسيطر عليها النبلاء وهذا هو السبب في أن النبلاء استولوا على السلطة السياسية. ولكن مع الزمن وبتطور الصناعة ظهرت طبقة اجتماعية جديدة واضطرت إلى تصفية الحساب مع النبلاء باعتبارهم قوة تاريخية - هذه الطبقة تتألف من الصاعيين بكل معنى الكلمة. اشتبكت الطبقة الجديدة مع النبلاء وبالتدريج احتلت كل مراكزهم في الاقتصاد تقريباً وفي بحثها عن حلفاء في هذا النضال، عقدت حلفاً مع الملكية، وهذا المثال يوضح كل التطور اللاحق للملكية الفرنسية حتى عصر لويس الرابع عشر، عندما تحولت الملكية عن الطبقة الصناعية وحالفت النبلاء لقد اعتقد سان سيمون أن هذه خطيئة سياسية كبرى، وحثّ آل بوربون على تصحيح غلطتهم بأسرع ما يمكن، أي فسخ التحالف مع الارستقراطية، الذي كان مضراً بهم وبكل فرنسا، والانحياز إلى جانب «الطبقة الصناعية».

---

* انظر أيضاً مقالتي «هرزن في المهجر» التي ظهرت في الرقم ١٣ من تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر، نشر أوفسيانيكو كوليكوفسكي، الناشرون مير ص ١٥٠

** لم يتوفر لي سان سيمون بالروسية فاقتبست من ب لويس، تاريخ الاشتراكية الفرنسية، باريس ١٩٠١ ص ٦٦.

لا حاجة إلى القول إن آل بوربون ظلوا صماً تجاه نصيحته. ولن أبعد عن الموضوع إذا أشرت إلى خطيئة نظرية لدى سان سيمون وكل الاشتراكيين الطوباويين الآخرين. والخطيئة أن سان سيمون في حديثه عن الماضي يعتبر السلطة السياسية (وبالتالي نشاط ممثليها في كل مرحلة معينة) نتيجة نجمت بالضرورة عن سبب، أي عن العلاقات الاقتصادية لزمن معين. إلا أنه عندما يعالج الحاضر والمستقبل فانه ينظر إلى السلطة ذاتها على أنها قوة اجتماعية مستقلة يمكن أن تصبح، حسب تصرفاتها وحكمتها، طليعة المصالح لأي طبقة اجتماعية. إنه مدين للمادية بهذا التعليل الفلسفي والتاريخي العميق، استعار معظمه من أوغسطين تييري وأوغست كونت، في حين أن المثالية مسؤولة عن برنامجه السياسي، الذي تغير أكثر من مرة في جزئياته، لكنه ظل دائماً ذا سمة طوباوية ساذجة.

بالنظر إلى كل هذا فان كلمات هرزن المقتبسة أعلاه وهي أن السانسيمونية شكلت أساس معتقداته و« ظلت ثابتة من حيث الأسس » هي بصورة خاصة كلمات مفيدة. وسوف نرى حالا أن هرزن في قدرته كصحافي كرر خطيئة سان سيمون والاشتراكيين الطوباويين الآخرين: لقد علق آماله العراض على الارادة الطيبة لممثلي السلطة السياسية، وقد نسي أن الحدود التي يمكن لأي إدارة أن تصل إليها إنما تقررها طبيعة العلاقات الاقتصادية التي تنبع منها تلك الحدود.

والحقيقة أنه كان أكثر استعداداً لاقتراف هذه الخطيئة من الاشتراكيين الطوباويين الأوروبيين الغربيين على أي حال ثمة عقبات أقل في آرائه النظرية لاقتراف ذلك.

إن المسألة هي كالتالي:

لم يكن سا سيمون وتلاميذه المشهورين الوحيدين في الأدب الأوروبي الغربي بالرأي القائل إن التطور الداخلي للمجتمع الأوروبي يقرره الصراع بين « الطبقة الصناعية » والارستقراطية. وخلال عصر عودة الملكية استوعب هذه النظرة جميع الاشتراكيين الفرنسيين البارزين، وكذلك الكتاب الروس فيما بعد. إلا أن الأخيرين عدلوها، أو اذا شئت قل أكملوها بتعديل أصيل. لقد قبلوا أن المجتمع الغربي الأوروبي يتسم بالصراع الطبقي فعلا، ولكن في الوقت نفسه اعتقدوا أن هذا الصراع لم يلعب دوراً في التطور الداخلي لروسيا هذه الفلسفة الثنائية والمتناقضة للتاريخ شرحها بوغودين

وأنصار السلافية، إلا أن أنصار الغرب، والحق يقال، رفضوها رفضاً باتاً لقد أخذ بيلنسكي، وكذلك هرزن. إن كلا من هذين الكاتبين اللامعين، اللذين ناقشا أنصار السلافية بحرارة وسخرا منهم بشدة، كانا مستعدين لأن يكررا بعد بوغودين أن روسيا ليست كالغرب وأن المجتمع الروسي لم يتشكل عبر صراع الطبقات وإنما (على أي حال، منذ عصر بطرس الأول) بقوة تحضير الحكومة* ويتضح لكل امرىء أن فلسفة التاريخ الروسي هذه جعلت هرزن يبالغ بالفرص المواتية للسلطة العليا لالغاء القنانة، مثلما بالغ في بقية الاصلاحات طبعاً

سوف تصعقنا آمال هرزن **الصحفي**، إذا لم نأخذ بالحسبان النقاط الضعيفة عند هرزن **النظري**. من الزاوية العملية كانت هامة جداً لهرزن وحلقته فكرة سان سيمون القائلة إن كل «المؤسسات الاجتماعية يجب أن تضع نصب عينيها هدفاً هو تحسين الطبقة الفقيرة الوفيرة أخلاقاً وفكراً وجسداً».

من الزاوية العملية كانت هامة جداً لهرزن وحلقته فكرة سان سيمون القائلة إن كل «المؤسسات الاجتماعية يجب أن تضع نصب عينيها هدفا هو تحسين الطبقة الفقيرة الوفيرة أخلاقاً وفكراً وجسداً

وفي حديث أوغاريف عن نظام سان سيمون رجع أخيراً إلى هذه الفكرة باعتبارها النتيجة العملية الأساسية لتعاليم الاشتراكي الفرنسي الشهير** إن كل من

---

* للمريد انظر مقالتي «بوغودين والصراع الطبقي» (سوفريمنيك مير ١٩١١ نيسان). لقد نظر أنصار العرب الى التطور التاريخي الروسي على أنه مختلف عن التطور الاجتماعي في الغرب. وغالباً ما يفسرون هدا الاختلاف بالاحتجاج بغياب الصراع الطبقي في روسيا، وقد تعاطفوا أخيراً مع فكرة كافلين عن الطبيعة العامة للتاريخ الروسي كنقيض للطبيعة الفردية للتاريخ الغربي. وقد سمى بيلنسكي هذه الفكرة ومضة عبقرية (بيلسكي، حياته ومراسلاته ١٨٧٦ مجلد ٢ ص ٢٤٨)

** انظر مقالة أوغاريف في **الكولوكول** (رقم ٢٢٣): «رسائل خاصة عن موضوعات عامة» الرسالة ٤ - في هده المقالة الهامة يشير أوغاريف الى الفكرة الرئيسية عند سان سيمون، وهي أن المستقبل من عمل الماضي، وسدد على أن هذه «الفكرة البسيطة. **لا تعجز عن أن تقود** [إشارة التأكيد مني - ج ب] الى الحاجة الى تجديد اجتماعي يجب أن تظهر فيه طبقة الطفيليين التي تملك الوسائل... وطبقة العمال التي لا تملك، فتندمج الاثنان في قوة انتاجية انسانية عامة. » ولا بد أن يوافق المرء على أن هذا الذي «**لا يعجز أن يقود**» ليس له قاعدة منطقية كافية. الاطروحة القائلة إن المستقبل من عمل الماضي يمكن تطبيقها على جميع مراحل التطور =

يعرف نشاط هرز وأوغاريف الأدبي سوف يوافق على أن هذه الفكرة لم تغب عن نظرهما

٦

على أي حال لن نستبق المستقبل. في ٢٠ تموز ١٨٣٤[١٧٦] اعتقل هرزن وفي نيسان من العام التالي أرسل إلى المنفى، وتلك كانت بداية هرزن في المنفى التي انتهت في آذار ١٨٤٠ وابتدأ منفاه الثاني في تموز ١٨٤١ عندما ذهب الى نوفغورود وأقام على ضفة فولخوف «تماماً مقابل المنحدر الذي رمى منه فولتيريو القرن الثاني عشر تمثال بيريون[١٧٧] العجيب في النهر»* فلننظر كيف عاش في مدينة اقليمية وما موقفه من القنانة.

قضى هرزن فترة نفيه الأولى في بيرم وفياتكا وفلاديمير على كليازما وأثناء اقامته في فلاديمير كان مشغولا طيلة وقته بقضايا خاصة هامة - علاقته بناتاليا الكسندروفنا زاخارينا، التي تزوجها في ١٠ أيار ١٨٣٨ وفي أوائل السنة نفسها (٥ كانون الثاني) كتب إليها في موسكو: «أنا الآن لك كليا لا أناس حقيقيين اهنا، وأنا لا أحتاج إليهم. لقد ودعت جميع أصدقائي. كما ودعت كل أحلامي عن المجد والعمل والنشاط. كل حياتي فيك. لقد بحثت عن العظمة فوجدتها فيك، وبحثت عن القدسية والمثالية - وقد وجدتها فيك. وهكذا فالوداع للعالم كله»** وبعد زواجها خف تضخم هذا

الاجتماعي، الا أن القرن التاسع عشر الذي شهد وحده فقط ظهور اتجاه لتنظيم العمال «في قوة إنتاجية عامة.. » هذه الأطروحة ترجع الى أوغاريف

* المؤلفات، المجلد ٧ ص ١٩٥ في حديث مع بتكندورف، رئيس الدرك وقتئذٍ، لاحظ هررن قبل منفاه الثاني «في ١٨٣٥ نفيت بسبب بعض الاحتفالات التي لم أكن حتى حاصراً فيها، والآن أعاقب لشائعة انتشرت في المدينة كلها يا له من مصير غريب» (المرجع السابق ص ١٧٩). مصير غريب حقاً أول مرة اعتقل هررن وأوغاريف بتهمة المشاركة في احتفالات كانت تغنى فيها الأناشيد المحظورة. وقد تطابقت الاحتفالات مع عيد ميلاد العجور باكوفليف، الذي احتفل به عنده في بيته كل من هررن وأوغاريف. ونفي هرزن في المرة الثانية لأنه كتب لأبيه عن شائعه انتشرت عن قتل حارس لأحد سكان بطرسبرج. بالطبع فتحت الرسالة وروقبت. وفي الاجابة عن سؤال كيف يمكن أن يعتقل هرزن وأوغاريف بسبب شيء لم يشاركا فيه يقول أسكوف: «ذلك تفسره الطبيعة الطويلة للمحاكمات السياسية وقدرتها على أن تضم إليها، من أجل التكميل، الميادين والأفكار المجاورة» (ذكريات أدبية بطرسبرج ١٩٠٩ ص ٧٣) إنها حقيقة عميقة ومرة.

** فيترينسكي، هرزن ص ٧٤

الموقف يكتب هرزن في **أيامي الغابرة وأفكاري**: «لم يكن صدرنا مغلقاً في وجه السعادة، بل العكس، كان مفتوحاً لكل المباهج - فوق ذلك لقد عشنا بكل طاقتنا وفي جميع الاتجاهات، وفكرنا وطالعنا، ووهبنا أنفسنا لكل الأشياء، وعندئذ ركزنا على حسا، فقارنا بين أفكارنا وأحلامنا، فدهشنا كيف ذهبت عواطفنا بعيداً، وكان ثمة سيء لطيف ومسجم في كل المنعطفات الصغيرة الرائعة وفي كل تشعبات عواطفنا وأفكارنا وأذواقنا وتعارضاتنا* ولكن هذا المقطع بحد ذاته يبين أن اهتمامه لا يزال متركـراً على عواطفه وعلاقاته الخاصة. وليس من الغريب أن وصف تلك العلاقات والعواطف يستغرق تقريباً كل فصول **أيامي الغابرة وأفكاري** التي تصف حياة هرزن في فلاديمير كليازما أما بالنسبة إلى بيرم، حيث أقام فترة قصيرة فقط، وفياتكا، فلم يكن فيهما مالكون عقاريون، لذلك لم تعرف التنانة فيهما إلا قليلا وأثناء مماه في تلك الأجزاء واجه هرزن هناك، بصورة رئيسية، مظاهر الاستبداد البيروقراطي. ولدينا وصف فظيع في **أيامي الغابرة وأفكاري** عن هذا الاستبداد الذي اضطهد بالطبع تلك الطبقة التي تعاني من نير سلطة المالكين العقاريين، أي الفلاحين. فلنذكر القارىء مثلا بوصفُ هرزن لـ «مشاغبي البطاطا» من الفلاحين الذين رفضوا زراعة بطاطا محفوظة بالصقيع في حقولهم (كما أمرتهم السلطات). ووصل الأمر إلى حد إطلاق النار، ففر الفلاحون إلى الغابات، فقنصهم القوزاق من الغابات قنص الوحوش الضارية ونقلوهم إلى كوزموديميانسكي للمحاكمة...

حسناً، لقد بدأت المحاكمة بالشكل الروسي التقليدي: جلد الفلاحون أثناء الاستجواب، وبالعقوبة هدد آخرون وأخذ المال من الآخرين، ونفي عدد ضخم إلى سيبيريا »**

ومما هو جدير بالملاحظة البيان المضحك الذي قدمه فديفليتكيلديف، مراقب البوليس و«المحمدي الورع» الذي حول فنلنديي روسيا الوثنيين إلى مسيحيين أرثوذكس بالقوة. وحسبما يقول هرزن تسلم التتري الرسولي صليب فلاديمير نظير خدماته التي أدت إلى اعتناق المسيحية بين أصدقائه المحمديين. ويضيف هرزن:

---

* المؤلفات، المجلد ٧ ص ص ٨٩ ٩٠

** المؤلفات، مجلد ٦ ص ٣٣١

« قرأت أخيراً بياناً عن هذا التحول المشهود لفنلدبي روسيا في صحيفة وزارة الداخلية. وقد أشارت المقالة إلى التعاون الغيور لديفليتكيلديف. ولسوء الحظ نسيت أن تضيف أن تلك الحماسة للكنيسة جعلته أشد صلابة في إيمانه بالاسلام »*

وبما أن هرزن المنفي محكوم عليه، بموجب حكم امبراطوري، أن يعمل في الخدمة المدنية، فان عليه، شاء أو أبى، أن يدرس عن كثب البيانات البيروقراطية فيما يتعلق برفاهية الشعب. يكتب أنه قبيل نهاية إقامته في فيانكا كان قسم املاك الدولة من الفساد بحيث أن لجنة التحقيق قد عينت تعييناً لإرسال مراقبين إلى مختلف الأقاليم. واضطر حالم فيانكا، كورنيلوف، أن يعين ضابطين لمساعدة هذا التقصي، وصادف أن كان هرزن واحداً منهما « الأشياء التي كان علي أن أقرأها هناك كانت أشياء حزينة ومضحكة وآثمة. لقد أدهشتني عناوين القضايا « قضية اختفاء بناء مجلس الفولوست (الفلاحين) ولا أحد يعرف أين، وقرض الفئران لمخطط المشروع » - « قضية فقدان اثنين وعشرين جدولا من جداول ضرائب الدولة » - أي حوالي خمسة عشر فرستاً من الأرض - « قضية اعادة تصنيف الصبي الفلاح فاسيلي في جدول الاناث »** وهذه القضية الأخيرة غلطة ارتكبها كاهن مخمور عمد فتاة وسجلها باسم صبي وسماها فاسيلي بدلا من فاسيليا فتقدم أبوها بطلب إلى السلطات المعنية لتفسير هذا الوضع المحير: فهل على الفتاة أن تدفع ضريبة التصويب وتتطوع كجندي. ولم يعرف هرزن كيف انتهت هذه القضية المحيرة، إلا أن توقع أن « الفتاة تركت تحت ضباب الشك في ذكورتها ». وقد ذكرته هذه القضية بكولونيل في زمن الامبراطور بولس سجل ميتاً وهو مريض. وبقرار امبراطوري حذف اسم المريض من القائمة، ولكن لسوء حظه تحسن وتعافى وتقدم بطلب لاعادته الى قائمةالأحياء. إلا أن قرار بولس كان « يرفض الطلب لأن حالة الضابط المذكور قد حددها من قبل القرار الامبراطوري ». ويرى هرزن أن هذه الحالة أهون من حالة فاسيلي - فاسيليا

ويصعب على المرء القول إن النتائج التي توصل اليها هرزن من مراقبته الحياة الاقليمية لم تكن من النوع المرضي جداً ولمزيد من الدقة، سوف أقتبس ملاحظته في

---

* المرجع السابق ص ٣٢٥

** المرجع السابق مجلد ٦ ص ٣٢٥

أيامي الغابرة وأفكاري فيما يتعلق بتحول الوثنيين الى المسيحية على يد محمدي. إنه يعتقد أن هذا التحول نموذجي لكل الاصلاحات التي تم على يد بيروقراطيتنا: « واجهة مبنى، مشهد مسرح، نكتة، أكذوبة، تقرير متباه، أحدهم يسرق، أحدهم يُجلد »*

بتعبير آخر، لقد ثبت أن مفهوم « القنانة » كان أوسع من أن « الفلاحين الأقنان » يرتبطون بالمالكين العقاريين ». كان هرزن بالطبع واعياً لهذا من قبل، ولكن ما كان يعلل من قبل بصورة مجردة بات الآن ملاحظاً بصورة مباشرة.

خدم هرزن أثناء منفاه الثاني كمستشار في الادارة الاقليمية وترأس قسمها الثاني. في هذه المهمة الرسمية تعرف على ثلاثة أنماط من القضايا: أشخاص تحت مراقبة البوليس، ومنشقين دينيين، واساءة للسلطة على يد مالكين عقاريين. وبما أنه هو نفسه تحت المراقبة فقد أشرف على قضيته الخاصة. « من الصعب أن أتصور شيئاً أكثر سخافة أو غباء من هذا، إني متأكد أن ثلاثة أرباع قرائي لن يصدقوه، ومع ذلك فانه حقيقة واقعية »** من السهل أن نرى أن هرزن تحت المراقبة لم يخلق المشاكل لهرزن الرسمي. أما المنشقون، فبعد أن نظر مستشارنا في أحوالهم تركهم وشأنهم، طالما أنه - حسب رأيه، من صالح المحكوم ألا تثار قضيته. ومن كل هذه القضايا كان متحمساً لأن يعالج قضايا الاساءة للسلطة على يد المالكين العقاريين.

« لقد دفنت جميع تواريخ شهداء الجرائم المرعبة في غرف الخدم، غرف الخادمات، في القرى وغرف التعذيب عند البوليس، إن ذكرى تلك الجرائم تختمر في النفس، وسوف تصل ذروتها عبر الأجيال - تصبح انتقاماً دموياً مريراً من السهل اندلاعه ولكن من الصعب وقفه »***

بذل هرزن كل ما في وسعه دفاعاً عن الخدم البؤساء لقد كان يتمتع مثلا بتكرار أنه استطاع أن يجر إلى المحاكمة سترغوفشيكوف، الضابط البحري المتقاعد، الذي اقترف من غير أن يعاقب « كل أنواع الفظائع » في مقاطعته فترة طويلة. وقد خسر

---

* المرجع السابق ص ٣٢٣

** المرجع السابق مجلد ٧ ص ١٩٩

*** المؤلفات المجلد ٧ ص ٢٠٨

الضابط القضية واستشاط غضباً وهدد بسحقه. ولكن بما أنه لم يعتد على المعارك البرية، كما يقول هرزن، فانه لم ينفذ تهديده.

ولكن هذه المتع لم تكن متكررة أو دائمة. إن الخدمة المدنية باتت لا تطاق أكثر فأكثر بالنسبة إلى المستشار المنفي في ادارة نوفغورود الاقليمية. وسبب ذلك لم يكن وضعه تحت المراقبة بقدر ما كان ارتباطه بالجهاز البيروقراطي، حيث شعر بالمسؤولية الأخلاقية تجاه ضميره لما يقترفه الجهاز من اثم بحق الشعب. أما النقطة التي جعلت الكيل يفيض فهي القضية التالية:

كان لموسين - بوشكين، وهو مالك عقاري في نوفغورود، فلاح مع زوجته أبعدهما إلى سيبيريا وكان لهذين الزوجين ابن في العاشرة من عمره قرر المالك العقاري أن يحتفظ به. وبعد أن وصل هرزن في أحد الأيام إلى الدائرة شاهد الفلاحة المبعدة: لقد جاءت تلتمس استرداد ابنها ركعت أمامه ضارعة وطلبت منه أن يتوسط لها وكانت تخبره بمشكلتها فدخل الحاكم وأعلمه هرزن بتوسلها إليه. إلا أن الحاكم أخطره أن القانون يجيز للمالك العقاري أن يحتفظ بالابن المتجاوز العاشرة إذا أبعد أبويه. إلا أن الأم المسكينة التي لم تستطع فهم هذا القانون غير الانساني، تابعت الضراعة والصراخ، وأمسكت بقدمي حاكم المقاطعة القاسي. نفذ صبره من جراء ذلك فصرخ دافعاً المرأة خارجاً «أيتها المرأة الغبية ألا تفهمين - أنا لا أستطيع أن أقدم إليك شيئاً، فدعيني وشأني». واندفع إلى دائرته.

«وانصرفت أيضاً لقد تحملت الكفاية... ألا تعدني تلك المرأة واحداً منهم؟ آن الأوان لوقف هذه الكوميديا

«هل أنت منزعج؟» سألني المستشار خولوبين، الذي نقل من سيبريا بسبب معصيته. أجبته: «إني مريض»، نهضت وانحنيت وانصرفت. وفي ذلك اليوم تقدمت بتقرير مرضي، ومنذ ذلك الوقت لم تجس قدمي مبنى الادارة الاقليمية»*

(٧)

في ٣ نيسان ١٨٤٢ تقدم هرزن بطلب اعفاء «بسبب المرض». تمت الموافقة على طلبه، ومنح مرتبة مستشار محكمة في الاعفاء، ولكن بنكنفورف في الوقت نفسه أشار

* المرجع السابق ص ٢١٣.

على الحاكم بأن من المحظور على هرزن مغادرة نوفغورود. ولم يسمح له بالسفر إلى موسكو إلا في تموز من تلك السنة، إلا أن اذن السفر إلى بطرسبرج ظل ممنوعاً

انتهت أوديسة النفي، وبات هرزن «حراً» مرة أخرى. كان متشوقاً إلى العمل. وحقل العمل الوحيد الذي كان مفتوحاً أمامه في روسيا ذلك الوقت هو الأدب. إن أوتيشيسيفيني زابسكي نشرت في ١٨٤٣ مقالاته المشهورة: «الهواية في العلم» تبعتها «رسائل في دراسة الطبيعة» ورواية «من الملوم؟» وقصة دكتور كروبوف، رسائل من شارع ماريغني» وقصة أخرى «اللص ماغبي» ناهيك عن المقالات الصغيرة والمجادلات الخفيفة مع صحيفة موسلفيتيانين. بعض هذه المؤلفات ظهر مطبوعاً عندما كان في الخارج، بينما مؤلفات أخرى (رسائل من شارع ماريغني) كتبت في أقسام أجنبية، إلا أنها جميعاً ترجع إلى فترة نشاطاته التي أعقبت قراره بعدم العودة إلى روسيا مطلقاً جميعها تقريباً مهمة لتاريخ تطور الفكر الاجتماعي الروسي* وللأسف لا أستطيع هنا إلا أن أتناول، وباختصار، ما يتعلق بقضية القنانة في ذلك الفكر

كما أشرت من قبل كانت هذه المسألة، في ظل الرقابة السائدة عندئذ، مسموحة جزئياً لكتاب القصة فقط. وهذا هو السبب في أنني سأعالج المؤلفات الروائية لهرزن فقط**

تأثر هرزن، ككاتب رواية، تأثراً قوياً بغوغول. ويلاحظ فيسيلوفسكي، وهو

---

* مما له أهمية خاصة في هذا التاريخ «رسائل تتعلق بدراسة الطبيعة» حيث يطور هرزن، مقتفياً هيغل، الأطروحة المشهورة وهي «أن تثبت» شيئاً يعني الكشف عن ضرورته، وأن «الفكرة عن شيء ما ليست الخاصية الحصرية للموضوع: إنه لم يفكر بها في الواقع، إنه يتحقق منها، إن لها وجوداً مسبقاً كسبب خفي في الكينونة المباشرة للشيء». فيما يتعلق بدور هذه الأطروحة في تطور أفكار هرزن الخاصة انظر مقالتي عن هرزن المشار اليها أعلاه ص ١٤١ من العدد نفسه تاريخ الأدب الروسي[١٧٨]

** لام بعضهم هرزن على غموض مقالاته الفلسفية. وقد دافع عن نفسه ساخراً ضد هذا اللوم فقال. «إن فيساريون غريغوريفيتش تعجبه حكاياتنا الخيالية أكثر من أطروحاتنا، وهو محق أيضاً فنحن في أطروحاتنا نحمي دائماً ضد الرقابة، وننحني أمام أي دركي من الصف الأدنى، بينما في حكاياتنا الخيالية نسير بكبريائنا مجاورين أياً كان، حاملين في جعبتنا لمن يهمه الأمر أن يدعنا بلا عائق وأن يقدم لنا الطعام والمسكن» (اسكوف. ذكريات أدبية ٢٨٨ - ٢٨٩) ولكن حق التخفي لم ينقذ الأطروحات دائماً من الرقابة. يكتب في رسالة الى كيريفسكي أنه خوفاً من الرقابة لا يعرض بجرأة آراءه الفلسفة في سبينورا «كان ذلك اليهودي سماً خالصاً بالفعل».

مصيب في ذلك تماماً، أن روايته من الملوم؟ في رسمها وتصويرها الساخر للناس وحياتهم اليومية قريبة الشبه «النفوس الميتة» وأيضاً «مشاهد ريفية»* لشدرين. ولكن في حين يرى غوغول القنانة نوعاً من قانون الطبيعة المحتوم، وحتى المفيد (انظر: صفحات مختارة من المراسلة مع الأصدقاء) يكره هرزن هذا النظام بكل جوارحه، هذا الفارق الجوهري في موقفهما من المنظمة التي كانت في ذلك الوقت أساس حياة المالكين العقاريين، يتضح بجلاء في عمل كلٍ من هذين الكاتبين. إن غوغول بسخريته المدعومة بعبقريته، يصور أبطاله سوباكيفيتش وكوروبوشكا وكازدريف ومانيلوف[١٧٩] أو، على أي حال، أحب أن يصور عيوبهم الداخلية وآثامهم على أن سببها الانفصال عن طريقة الحياة القائمة على القنانة. أما مؤلفات هرزن فتقدم صورة مختلفة. فهو وإن كان أضعف من غوغول بكثير من حيث الابداع الفني إلا أنه يكشف عن بصيرة أقوى. فاذا قرأت بعناية رواية من الملوم؟ سترى بوضوح أن عادات أسرة الجنرال نغروف وآراءها يجعلها المؤلف مضحكة لأنها بالضبط تنبع من طريقة الحياة في القنانة، إنك ترى بجلاء أن القنانة هي التي سممت برعم الحياة عند ليوبونكا و«حارس» الجنرال. إن هرزن يعرف أن الرقيب، العدو السليط المدقق، يراقب كل حرف من قلمه. لذلك يعبر بحذر ولكن سخطه المشوب بالحذر يجعل السخرية أروع وأشد قسوة. ولأذكر القارىء أولاً بمشاغل الجنرال نغروف التافهة. لقد استقر في الريف وكان سيادته «يوبخ وكيله ومراقب عماله كل يوم، ويصطاد الأرانب متجولاً في الحقول ببندقية. ونظراً لأنه لم يعتد تنفيذ أي واجبات مهما كانت، لم يستطع أن يفهم ماذا يجب أن يفعل، فيتسلى بالتفاهات، وكان راضياً بذلك. وقد كان المراقب والوكيل مسرورين من جانبهما لأنهما رزقا بمثل هذا المالك العقاري، وأنا لا أعلم شيئاً عن الفلاحين: كانوا صامتين. وبعد شهر أو شهرين ظهر محيا امرأة جميلة من نوافذ العزبة، العينان متورمتان من البكاء، هكذا بدتا، ثم تجلتا عينين زرقاوين جميلتين»**

هاتان العينان الزرقاوان الجميلتان هما عينا الابنة بيلكا بارباش، الخادمة. وحتى

* نيبيلوفسكي «هرزن كاتباً» موسكو ١٩٠٩ ص ٤٧

** المؤلفات المجلد ٣ ص ص ١٨ ١٩

ـكمل الصورة يبقى أن نضيف أنَّ تلك المشاغل المضنية سرعان ما تخلى عنها جنتلماننا التافه: « فقد أقنع نفسه أنه عالج جميع عيوب مقاطعته، والأهم من ذلك قناعته أنه وضع المقاطعة في بداية الطريق لتسير من دونه، وصمم أن يعود الى موسكو* ولكن حتى الآن ما تزال السخرية تطغى على السخط. إلا أن هذه الدوافع ليست نادرة في روايات غوغول أيضاً نفي قصة صوفيا نيمشينوفا، مربية الأطفال، التي أصبحت فيما بعد زوجة احدى الشخصيات الرئيسية في رواية من الملوم؟ فلاديمير بلتوف، تتنحى السخرية ليحل محلها السخط، الذي تجلى في رسالة صوفيا الى مضطهدها لقد كان هرزن بشكل عام مشغولاً بالمصائر التراجيدية لأولئك الذين ينتمون الى انتلجنسيا الخدم. وممن يمثل هذا النوع بطلة قصة اللص ماغي، وهي ممثلة موهوبة وقعت ضحية مغازلات الكونت شكالنسكي** وقد وجد بيلنسكي أن القصة ممزوجة بالطرفة، وان كتبت بأسلوب فاخر، وتترك انطباعاً عميقاً إلا أنها تروي موضوعاً حقيقياً، والمسألة المطروحة: ما الحكم الذي يجب اطلاقه على هذا النظام الذي يجعل من الممكن ظهور طرف كالتي رواها هرزن؟

إن صورة أشد قتامة للقنانة رسمت في قصة الواجب فوق الجميع، وقد أرسل هرزن الجزء الأول الى بطرسبرج من الخارج في أوائل ١٨٤٨ يقول إنه أراد أن يقدم البطل الرئيسي لهذه القصة، أناتولي ستوليجين، رجلاً ممتلئاً قوة وطاقة وقدرة يعيش حياة تافهة زائفة بسبب التناقض الدائم بين تطلعاته وواجباته. وعنوان القصة الواجب فوق الجميع يشير أيضاً الى غرض المؤلف (ظلت القصة ناقصة، لم تنته). إن خطة القصة كما اختصرها هرزن تبين أن الواجب، أي المتطلبات التي تسمم حياة البطل، لم تكن أكثر من مجموع المتطلبات التي يفرضها نظام القنانة - بالمعنى الواسع للكلمة - على أنصاره أصحاب الامتيازات. وهكذا توسع هذه القصة قضية القنانة الى أبعاد القضية السياسية. لم تسمح الرقابة بطباعتها وظهرت في الخارج في مجموعة قصص متقطعة (١٨٤٥). ويفسر هرزن قسوة الرقابة على القصة بحقيقة ان حملة قوية جداً شنت في ذلك الوقت على تراخي الرقابة:

---

* المرجع السابق ص ١٩

** ظهرت هذه القصة في عدد شباط من السوفريمنيك لعام ١٨٤٨، أي عندما كان هررن في الخارج.

« ففوق الرقابة المدنية أقيمت رقابة عسكرية تتألف من الجنرالات الكبار والجنرالات القوميسارية والمهندسين ورجال المدفعية ورؤساء الدوائر وضباط حاشية جلالتـه، ومساعدي المعسكر، وأمير تتري واثنين من الرهبان الأرثوذوكس برئاسة وزير البحرية »*

إن الوصف الذكي للجنة العليا للرقابة السيئة السمعة من الصعب أن يبرر على أنه تفسير لعدم ظهور قصة الواجب فوق الجميع. إن الرقابة العادية تكفي لخطرها. وفي تصنيف هرزن ككاتب قصة قدم ملاحظة حادة للغاية وهي « أنه يصف الجرائم التي لا يحاسب عليهـا القانون والتي يعتبرها الكثيرون أعمالاً أخلاقية معقولة »** ومن الطبيعي جداً أن قصة وصفت جريمة ظهرت قانونية تماماً ومبررة من وجهة نظر النظام السائد، لا بد أن تظهر مجرمة في نظر المدافعين عن النظام. إن قصة الواجب فوق الجميع كانت هجومية جداً في هذا الصدد، وهذا هو السبب أنها لم تنشر في روسيا

٨

في ٩ تشرين أول ١٨٤٨ أدخل هرزن هذه الأسطر في يومياته: « علينا نحن السلافيـين أن نظـل صامتـين - أو أن نتحدث خارج وطننا الأم، كما قال ميكيفتش »***

هذه اليومية ذاتها تتضمن مدخلاً مؤرخاً في كانون الثاني (٢٤-٢٥) من السنة التاليـة: « الرعب. إن غيمة مخيفة تتجمع فوق رؤوس الرجال الذين تركوا الجمهور يا لها من فكرة مرعبة. إن رجالاً أبرياء جداً بدون هدف عملي مباشر، لا ينتمون الى أي تنظيم، يمكن أن يدمروا، أن يسحقوا، أن يعدموا فقط بطريقتهم في التفكير... إن خصوم فكرة الاغتراب ينصحونني أن أذهب عندما يكون الذهاب مفيداً ».

من الواضح اذن ان فكرة الاغتراب، أي الهجرة الى الخارج، جاءت الى هرزن مبكراً في أواخر ١٨٤٣ لقد ظن لعدة سنوات أن « الاغتراب » احتمال غير مرغوب فيه. حتى عندما ذهب الى الخارج في كانون الثاني ١٨٤٧، لم تكن لديه نية في تحقيق

---

* المؤلفات المجلد ٤ ص ٦٩

** بيلنسكي، المؤلفات، الجزء ١١ موسكو ١٨٨٤ ص ٣٩٠

*** المؤلفات المجلد الأول ص ١٤٠

ذاك الاحتلال. إن الفصل الأول من كتابه الذي جرى الحديث عنه كثيراً من الشاطىء الآخر يحمل عنواناً مهماً: « الوداع »*

ويقول في تقديم نفسه لأصدقائه في روسيا: « إن انفصالنا سوف يطول جداً، وربما كان الى الأبد. أنا لا أريد العودة الآن، ولا أعرف اذا كان ذلك محتملاً فيما بعد ». وفيما بعد هذه أصبحت مستحيلاً. في طريق ١٨٥٠ أمرت الحكومة الروسية عن طريق قنصليتها في نيس بعودته مباشرة الى الوطن، من غير ما حاجة الى التأخير وإزاء هذه العجلة كان مقتنعاً أن عليه الا يعود الى وطنه. وهكذا أصبح مهاجراً لقد قال بعد ذلك إنه يفضل المنفى في سيبيريا على وضعه كمهاجر ولكن في سيبريا سوف تقبع الرقابة الروسية العامة فوق رأسه، بينما يتمتع في الخارج بحرية الكلام. وذلك ما يغير من تعقيد الأشياء بصورة أساسية.

في فصل من كتاب من الشاطىء الآخر الذي أشرت إليه من قبل كتب: « انني أقيم هنا ليس فقط لأنني لا أحب أن أوضع ثانية في آلة التعذيب على مفترق الحدود: إني أقيم هنا لأعمل. يمكن أن يعيش الإنسان أينما كان، وأنا هنا ليس لدي أي مهمة سوى مهمتنا أنني أكثر نفعاً هنا، هنا أنا كلامك الذي لا يراقب، أنا هنا جزؤك الحر، ممثلك عن طريق الصدقة ».

وهكذا عندما جوبه بالاختيار بين الصمت والكلام خارج الوطن اختار الكلام الحر

إذا أخذنا بالحسبان أن بيلنسكي كان في قبره وقتئذٍ فسوف نوافق أنه ليس من رجل أهلاً لأن يكون « اللسان الحر » للروس « التقدميين أكثر من هرزن. وكما نعرف أدى هرزن هذا الدور على أكمل وجه.

والآن سوف نرى كيف حارب القنانة عندما عاش في الخارج. وحتى نفهم نشاطاته تماماً من الأنسب أن نلخص رأيه في الشعب الروسي. وبعد كل ما قيل لا حاجة أن نبرهن ان عواطفه كانت مع الشعب. وهنا مقطع مقنع من يومياته (مؤرخة في ٩ تموز ١٨٤٤):

ما الذي ينقصهم [أي ينقص الشعب - ج - ب] حتى يفيقوا من خمولهم الذي يرثى

---

* هذا الفصل مؤرخ في آذار ١٨٤٩.

له؟ أن عيونهم تومضان فطنة، وبشكل عام من بين عشرة موجيك ثمانية ليسوا أغبياء، وخمسة أذكياء حصلوا على المعرفة، لقد افتري عليهم من الناحية الأخلاقية، فهم ماكرون مخادعون، إلا أن ذلك يحدث عندما يكونون ضدنا ولا يمكن أن يكونوا غير ذلك، فنحن نسرقهم على المكشوف وعلى أساس قانوني، فالقوى غير متكافئة... »*

إن الاقتباس هذا تكرار سطحي لما عرفه القارىء من قبل، إنه لا يكشف عن ناحية جديدة من نظرة مؤلفنا في الفلاحين. إن عاطفته مع الفلاح، إنه يؤمن بمزايا الفلاح الفكرية والأخلاقية، ولكنه يعتبره في حالة من الخمول الذي يرثى له. هذه الناحية من نظرة هرزن تفسر الكثير من نشاطه الأدبي اللاحق في الخارج. ولا بد أن نشير الى ذلك هنا إن أي أمرىء يفترض أن كلمات الاقتباس السابق تدل على موقف عابر وعرضي في نظرة هرزن يكون مخطئاً تماماً هذا الموقف ليس عابراً أو عرضياً في نيسان من تلك السنة في يومياته قصة التمرد الفلاحي في ضاحية من مقاطعة تامبوف، ويضيف: « كل الفلاحين في هذه الضاحية هم من المولوكان** ، فكانت الفتاة التي تغني المزامير تمشي في المقدمة. وهكذا كانت تلك الأصوات تسمع من الأديرة الصغيرة النائية للمنشقين، وسط الصمت العام للفلاحين***

إن الأصوات التي يتحدث عنها هرزن هنا، أي تمردات الفلاحين، لم تكن محصورة بحلقات منظمة. ولكن بسبب صمت صحافتنا، ظلت غير معروفة لتقدمي تلك الفترة. ومن الطبيعي ان الاضطرابات التي من هذا النوع، والتي يتحدث عنها هرزن في يومياته ليست أبداً دليلاً على قدرة الفلاحين على اتخاذ فعل اجتماعي وسياسي مستقل. وفيما بعد، أخطأ النارودنيك، « متمردو » السبعينات، خطأً كبيراً في تعليق كل آمالهم على مثل هذه الاضطرابات. إن الحياة « دحضتهم » في هذا المجال. على أي حال من المهم وصف أفكار هرزن وأصدقائه في الوقت الذي بدا فيه الفلاحون أكثر « صمتاً » مما كانوا في الواقع وبكلمة أخرى إن هرزن وأصدقاءه، مع كل تعاطفهم مع الشعب،

---

* المؤلفات، المجلد ص ٢١١

** المولوكان. طائفة دينية في روسيا تتمسك بأحكام الكتاب المقدس وتطلق على نفسها المسيحيين الروحيين (المترجم)

*** المرجع السابق ١٩٣

اعتبروهم (وعليهم أن يعتبروهم) عاجزين كلياً في الدفاع عن مصالحهم دفاعاً إيجابياً. إن كل ما بقي هو أن يعلق المرء آماله على المستقبل، وهذا بالضبط ما فعله هرزن.

من المفيد أن نلاحظ ان هرزن أحب رواية غوغول النفوس الميتة لأنها كانت، في رأيه، مريرة ولكنها لا تفقد الأمل بروسيا فغوغول، حسب رأيه، يرى قومية جريئة مفعمة بالحيوية حيث تخترق عيناه سجف الدخان الكثيف.

« إن عالم شيشيخوف حزين لأننا حزانى في الواقع، إن العزاء الوحيد هنا وهناك هو إيمان المرء بالمستقبل وتعليق آماله عليه. هذا الإيمان لا يمكن رفضه، إنه أكثر من أمل رومانسي ازرق، إن له أساساً واقعياً، إن الدورات الدموية سوف تعمل في الصدر الروسي. لقد نظرت من النافذة الى مجموعة الصيادين، وعلى الأخص في يوم عطلة عندما يقلعون بالدفوف والأغاني، في قارب يصرخون ويصفرون ويصيحون. إن الألماني لا يحلم بهذا النوع من القصف والمرح وعندئذٍ، عندما تأتي العاصفة يا للجرأة، يا للشجاعة، إنهم يندفعون الى المقدمة وليكن ما يكون. أيها الطفل أود أن أراك عندما تصبح شاباً، ولكني لن أعيش لأرى ذلك اليوم، سوف أباركك من القبر »*

هذا الإيمان بمستقبل الشعب الروسي لم يحمه دائماً من الحزن الذي يصل الى اليأس. إننا نقرأ في يومياته في يومية مؤرخة ٢١ نيسان ١٨٤٣

« وضعنا يائس لأنه زائف، لأن المنطق التاريخي يشير الى أننا خارج حاجات الشعب. وإن ورطتنا نوع من العذاب اليائس »**.

ولكن بشكل عام كان يتمسك بنظرة متفائلة في مستقبل روسيا*** وتلك النظرة يدعمها إيمان بمستقبل العالم الأوروبي الغربي. يكتب: « عندما يفكر المرء أن ٧٥ عاماً

---

* المرجع السابق المجلد ١ ص ١٨

** المرجع السابق ص ٩٨

*** هذا الايمان بالمستقبل كأنما هو أمر ملزم بالنسبة إليه. إنه يعلل قائلا: « لقد قدم شادايف ملاحظة رائعة جداً وهي أن احدى أعظم سمات النظرة العالمية المسيحية مفهومها عن الأمل [هنا لا بد أن تكون غلطة مطبعية فالكلمة هي (التعلق بالأمل) وليس (المفهوم عن الأمل) - ج - ب] والتعلق بالفضيلة - والى جانبها الإيمان والحب. وإني أوافق على ذلك تماماً هذا الأمل وسط الحظ العاثر، هذا الأمل الوطيد وسط الوضع اليائس هو بالضبط نصيبنا فالإيمان بمستقبل الشعب شرط لتحقيق ذلك المستقبل » (المجلد ١ ص ١٧٩)

قد مرت منذ أن كانت أوروبا تقبع في المذلة، التي استفاقت منها بصعوبة على صوت أجراس مؤسسي العالم الجديد، عندما ينظر المرء الى الحالة القائمة، البعيدة عن الكمال، والتي تتطور بحكم الضرورة، ترتجف نفسه أجلالاً واحتراماً للبشرية. إن الثورة الفرنسية عظيمة، كانت أول ثورة أخطرت العالم، وأدهشت الشعوب والملوك أن عالماً جديداً قد ولد وأن العالم القديم لا مستقبل له »*

سوف نرى الآن أنه أخذ ينظر بيأس الى أوروبا الغربية. كان إيمانه بروسيا وصل ذروته في تلك الأيام، ولكن حتى في تلك الأيام لم يفصح عن أمله بعمل. فلاحي مستقل. أما بالنسبة الى الفترة التي سبقت خروجه من روسيا، وهي ما حصرنا فيها اهتمامنا هنا، فقد عبر عن ضعف إيمانه بعمل مستقل للشعب في المقطع التالي من يومياته:

« لا بد من يقظة أحد الطرفين - الحكومة أو الشعب. ومن الصعب الاعتقاد أن أحدهما سوف يستيقظ... »

هذه الأسطر كتبت في ٢٤ كانون الأول ١٨٤٣، وفي ٢٤ آذار ١٨٤٤ يقول هرزن: « وهكذا ليس من الممكن الحديث عن الشعب إلا من خلال الكتاب المقدس ». فلنتذكر ذلك.

٩

شاهد هرزن وهو في الخارج الحركة الثورية ١٨٤٨-١٩٤٩، وقد أصابه اليأس من فشل هذه الحركة. إن ثمة نوعاً من عدم الدقة لا بد من تصحيحه.

في عدد ١ تموز ١٨٦٧ من **الكولوكول** يسأل هرزن باكونين: « أتتذكر حديثنا الطويل قبل ثورة شباط عندما أشرت، كمشرّح، الى الموت الوشيك لـ « عجوز » الغرب، وأنت أشرت بأمل الى تعاظم الحياة المبرعمة للأقلية السلافية. وبالفعل أنا لا أومن به أيضاً، **ولكني أو من بروسيا وحدها وببداياتها الاجتماعية** »

كما ترى فانه موقف هرزن مِن أوروبا الغربية، هرزن الحقيقي الذي استمد إيمانه بروسيا من إيمانه بقوة تقدم البشرية، ظهر إنساناً يائساً حتى « **قبل ثورة شباط** ». لذلك لا نستطيع أن نقول إنّ هرزن أصبح يائساً فقط تحت تأثير فشل الثورة. على العكس،

---

* اليوميات ٢٧ تموز ١٨٤٣ المؤلفات، المجلد ١ صص ١٣٠ ١٣١.

اذ من الأفضل أن نفترض أن فشلها لم يجعله يائساً وكان غير يائس الى حد ما قبلها*

مهما كان الأمر فلا شك أن ذهن هرزن عندما اتجه الى الإقامة في أوروبا الغربية لمدة طويلة، كان يائساً جداً منها وبما أن هذا اليأس حدد التطور اللاحق لآرائه، فمن الواجب أن نعالجه بالتفصيل.

إن هرزن في محادثاته مع باكونين «قبل ثورة شباط» «أشار الى الموت الوشيك لعجوز الغرب» كان ولا شك يكرر، مع بعض التحفظات، فكرة أنصار السلافية أن «الغرب» موجود في زمن مستعار وعندما أصبحت هذه الفكرة عقيدته الثابتة فيما بعد بسبب التجربة العاثرة لثورة شباط، استدعت الشكل الثاني.

إن دور أوروبا المعاصرة قد استنفد حتى النهاية. فمن ١٨٤٨ فما بعد تزايد انهيارها بصورة ثابتة. ولا يمكن انقاذ الغرب من الانهيار الا على يد العامل. ولكن «العامل يمكن أن يندحر، واذا اندحر فان انهيار أوروبا العجوز سوف يصبح محتوماً». أحياناً أخذ هرزن يفكر أن «العامل» قد تم دحره وأن انهيار أوروبا الغربية قد تأكدت حتميته، وأحياناً أخرى كان الأمل، على العكس، ينبعث فيه بقوة أن «قضية العامل في الغرب لم تضع تماماً»، وطفق يؤمن ثانية بامكانية تطورها التقدمي. وقد انبعث فيه هذا الأمل بظهور جمعية العمال الأممية. ولو قدر لهرزن أن يرى المزيد من نجاحات حركة الطبقة العاملة في أوروبا الغربية، لتخلى ولا شك عن نظرته القاتمة في الحالة الداخلية لأوروبا ولسوء الحظ فان موته المبكر (مات، كما نعرف، في ٢١ شباط ١٨٧٠) جعل ذلك مستحيلاً. لذلك فان أولئك المعاصرين الذين، حتى في أوروبا المعاصرة، لا يرون سوى «النزعة الابتذالية (الفلسطينية)» (فشلوا في رؤيـة الجيل بسبب حجر الخلد) يبدو أن الحق معهم بالرجوع إلى هرزن. ولكن الواقع أن موقف أولئك... المتشككين لا علاقة له بموقف هرزن. لقد اعتقد أن انتصار حركة الطبقة العاملة فقط يمكن أن ينقذ الغرب من سيطرة الابتذالية، بينما شكاكنا المعاصرون يعتقدون أن حركة الطبقة العاملة المعاصرة هي واحدة من أكثر المظاهر –

---

* انظر حول هذه النقطة مقالة «هرزن في المهجر» في العدد ١٣ من تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر.

ابتذالية. ومن الواضح انه لا علاقة بينهم وبين هرزن، ومن الواضح أنهم يستخدمون اسم هرزن عبثاً

ولكن لندعهم جانباً نرى أن هرزن في مناقشة المصائر المحتملة للغرب يعتمد على نظرة الصراع الطبقي: فاذا انتصرت الطبقة العاملة، فان أوروبا الغربية سوف تنهض مجدداً الى الحياة الجديدة، فإن لم تنتصر، فسوف تهوي في الانهيار الشامل. إن هذه المحاولة لتحديد مجرى التطور الداخلي لمجتمع ما من خلال تبني موقف الصراع الطبقي الجاري في داخله، تجعل تفسير هرزن يقترب من أنصار الاشتراكية العلمية الحديثة. إلا أن المرء يجب ألا يبالغ في هذا الاقتراب. فعلى مضض يعلق هرزن آماله في انتصار الاشتراكية في أوروبا الغربية على الصراع الطبقي. إن حل «المسألة الاجتماعية» من خلال الصراع الطبقي بداله أسوأ طريقة حل. إن الطبيعة الطوباوية لهذا النوع من الاشتراكية التي آمن بها صحفينا العظيم تجلت أكثر ما تجلت في كرهه للصراع الطبقي* إن أحداث ١٨٤٨-١٨٤٩ خيبت آماله لأنها كانت مظهراً للصراع الطبقي في المجتمع الأوروبي الغربي. وبما أن هذا الصراع كان الوسيلة المعتمدة تقريباً لحل القضية الكبرى للعلاقة بين العمل ورأس المال، فقد جعل فيه سخرية مريرة من السلطة للسبب نفسه الذي اعتبر فيه الاشتراكية الأوروبية الغربية الكلمة الواحدة. ففي رأيه، الحل الوحيد لـ «المسألة الاجتماعية» التي واجهت متطلبات العقل كان في مباشرة التحول الاجتماعي الملقى على عاتق المثلين المتنورين المستقيمين للطبقة الحاكمة. إن أصعب الدروس التي علمته إياها حياة أوروبا الغربية هو أن الممثلين المثقفين للطبقة الحاكمة في الغرب لا رغبة لديهم في مباشرة تحقيق المثل الاشتراكية (ولا يمكن أن تتوفر لديهم هذه الرغبة). وهذا هو السبب في أن ثقته في أن مصير المجتمع الأوروبي الغربي المعتمد على انتصار (أو اندحار) الطبقة العاملة يسير جنباً الى جنب مع رأي كئيب عن الحياة الأوروبية الغربية. وبعد أن وصل الى تلك الثقة، تحول الى يائس، أولاً لأنه، كما أشرنا، اعتبر الصراع الطبقي عامة أكثر الطرق

---

* سوف نشير فيما بعد الى أن هرزن شعر بضعف بعض جوانب الاشتراكية الطوباوية وأن هذا أثر في رأيه عن «عجوز» الغرب.

غير الملائمة لحل القضايا الاجتماعية، وثانياً لأنه اعتقد أن فرض انتصار البروليتاريا ضئيلة جداً*

يمكن للمرء أن يقول في هذا الصدد أيضاً إنه ظل سانسيمونيّاً والحقيقة أن صحيفة **العالم** السانسيمونية (في ذلك الوقت) كتبت في عدد ٢٩ تشرين الثاني ١٨٣١ «إن الطبقات الدنيا يمكن أن تنهض إذا مدت الطبقات العليا يدها لها فالمبادرة يجب أن تأتي من الطبقات الأخيرة». ولا بد أن هرزن فكر على هذا النحو، وكذلك جميع الاشتراكيين الطوباويين. ولذلك لا نستطيع أن نقول إنه كان قريباً في هذه الناحية من السانسيمونيين خاصة. إلا أن هذا لا يوهن صحة أن يأس هرزن من أوروبا الغربية سببه عزوف الطبقات العليا من المجتمع الأوروبي الغربي، عن القيام بمادرة التحول الاجتماعي.

كان هرزن شغوفاً جداً بمقارنة موقف الغرب الأوروبي من الاشتراكية بموقف الأمبراطورية الرومانية من المسيحية. لقد أنتجت روما المثل المسيحية ولكنها لم تستطع تحقيقها لقد حققتها شعوب أخرى. ولقد بدا لهرزن، وقد ظهر له المثال الاشتراكي، أن أوروبا الغربية لن تكون قادرة على ترجمته الى واقع وأن روسيا مدعوة الى القيام بهذه المهمة. إن من المناسب أن نلاحظ أن الاشتراكيين الفرنسيين في ذلك الوقت لاحظوا، بشكل عام، كثيراً من نقاط التشابه بين وضع المجتمع الأوروبي المعاصر وروما في عصر ظهور المسيحية** هرزن وحده فقط استخف بهذه المقارنة

---

* ها هي كلماته الخاصة: «بما أنها قضية حقوق سياسية، فان جميع المثقفين كانوا الى جانب الحركة، أما عندما طرحت القضية الاجتماعية، فقد ظهرت انشقاقات أخرى. بعضهم ظل مخلصاً للمسطق والحركة، ولكن قسماً من المثقفين ارتدوا ووجدوا أنفسهم - كعادتهم في المعارضة - الى جانب المحافظين. ان الناس، الذين أصبح المدافع عنهم ثورياً سابقاً، قد سقطوا ثانية في أيدي الكهنة أو، أسوأ من ذلك، ظلوا قانطين في عتمة الميادين الوضيعة للحياة. إن المدافعين عنهم الذين أخفوا تخلفهم الشديد، انحرفوا عنهم، رأيا العديد، من الأبنياء في القمة، وجماهير الشعب الغافية في الحضيض. كان المرء يخشى التقدم أماماً، ومن المستحيل التقهقر خلفاً، وقد انتهى بالماضي، إن على المرء أن يترقب رمه، وأن يكون طيباً مع الجميع، وأن يحتفظ بما يحتاج ولا يحتاج، ويدافع عن مكاسبه، وان ينبذ الجديد. في ظل الظروف، فإن استبداد الأمبراطورية، أي استبداد البوليس الأوبوقراطي، طبيعي أكثر من الملكية الدسورية (رسائل الى مسافر - الرسالة ٦ الكولوكول ٢٠٣)

** انظر كوسديران: **الاشتراكية قبل العالم القديم أو الحي قبل الميت**. باريس ١٨٤٨ ص ٢٥.

مفترضاً أن هذا ينطبق على المجتمع الروسي. ومن الجدير بالملاحظة أنه حتى لغة هرزن تختلف عن لغة الاشتراكيين الفرنسيين المعاصرين. فمثلاً جوابه على ميشيليت يحمل عنوان: « العالم القديم وروسيا ». وهذا يذكرنا بكتاب كونسيدران، الذي ظهر قبل بضع سنوات، والذي أشرت إليه من قبل: **الاشتراكية قبل العالم القديم أو الحي قبل الميت**. الفرق الوحيد هو أن كونسيدران قصد بالعالم القديم عالم المدافعين عن النظام الاجتماعي القديم بينما يستخدم هرزن المصطلح للدلالة على أوروبا الغربية كلها.

١٠

كلما اشتد هرزن يأساً من أوروبا الغربية، ازدادت الأهمية الأخلاقية لإيمانه بروسيا ظهر هذا الإيمان مبكراً، كما نعرف، عن طريق الإيمان بالقوى الثورية في الغرب. الإيمان بالغرب الآن اختفى، بينما إيمانه بروسيا بات أقوى. يبدو هذا الأمر كأنه مغالطة: كيف يمكن أن يصبح إيمانه بروسيا أقوى بعد ان تحطم الأساس الذي عليه أقيم هذا الإيمان؟ يمكن تفسير هذا اللغز بخصوصية أفكار هرزن الاشتراكية المشار اليها من قبل.

سبق أن قلت أن الطريقة الوحيدة في هذه الآراء العملية الأساسية لحل المسألة الاجتماعية التي واجهت متطلبات العقل تكمن في القيام بالتحول الاجتماعي على يد الممثلين المتنورين للطبقة الحاكمة. إن ممثلي هذه الطبقة في الغرب لم ترتفع الى مستوى المسؤولية أثناء ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩، بينما كانوا في روسيا مستعدين للقيام بذلك. وقد اقتبست من قبل مقطعاً من كراسة هرزن **تطور الأفكار الثورية في روسيا** حيث يقول أن عمل الفكر الثوري في بلادنا لم تقم به الحكومة ولم يقم به الشعب، بل قامت به طبقة النبلاء المتوسطة والدنيا. وقال هرزن الشيء نفسه في مناسبات أخرى أيضاً. وهكذا في خطابه في ٢٧ شباط ١٨٥٤[١٨٠] في لندن في اللقاء الدولي بمناسبة ذكرى ثورة شباط رسم معالم روسيا المعاصرة بهذه الكلمات: « سوف ترون هناك جنينين للحركة، أحدهما فوق، والآخر تحت. أحدهما سلبي مدمر - ينتشر في حلقات صغيرة ولكنه مستعد أن ينضم الى مؤامرة كبيرة فعّالة. والآخر إيجابي يحمل براعم تشكيل المستقبل - وهو في حالة خدر وسبات. أنني أقصد النبلاء الشباب وكوميون القرية، الذي هو أساس الخلية لكل النسيج الاجتماعي ومصدر حياة الدولة السلافية ».

إن المؤلف هنا، جنباً إلى جنب النبلاء الشباب «الايجابيين»، المستعدين، على ما يزعم، أن يأخذوا على عاتقهم حل المسألة التي تخلى عنها أبناء الطبقة الحاكمة في الأقطار الأوروبية الغربية، يشير إلى عامل اجتماعي آخر الذي هو في رأي هرزن، على الرغم من طبيعته السلبية، سمة رائعة جداً لروسيا - الملكية الكومونية للأرض. إن وجود الكوميون سوف يسهل كثيراً العمل الاصلاحي التقدمي للنبلاء الشباب الايجابيين. وهكذا سوف تحقق روسيا المثال الاشتراكي الذي طرحه الغرب في تطوره ولكنه يترجمه إلى واقع.

يبين لنا هذا التعليل كيف أن مؤلف كتاب من **الشاطىء الآخر** استطاع تقوية هذا الايمان بروسيا على الرغم من حقيقة أن ايمانه بأوروبا الغربية قد انهار. كما يساعدنا على فهم كل السمات المميزة الرئيسية لنشاطاته اللاحقة كصحفي.

بعد أن استقر في لندن أنشأ دار نشر - أول دار نشر روسية حرة(أي لا رقابة فيها) وبدأ يطالب بتحرير الفلاحين. لقد أصبح النضال ضد القنانة شغله الشاغل وهدفه الأعظم. ولكن إلى من يتوجه؟ إلى النبلاء أولا وقبل كل شيء. كتب يناشد هذه الطبقة في كراسه **عيد القديس جاورجيوس، عيد القديس جاورجيوس**:

«نحن عبيد لأننا أسياد. نحن خدم لأننا ملاك عقاريون... نحن أرقاء لأننا نتمسك باستعباد الآخرين الذين يساووننا ميلاداً ودماً ولغة. فلا حرية لنا طالما تحل علينا لعنة القنانة.. وفي عيد القديس جاورجيوس[١٨١] سوف تبزغ حياة جديدة على روسيا. إن انعتاقنا سوف يبدأ من عيد القديس جاورجيوس».

يبدو غريباً أن هرزن في مباشرة النضال للقضاء على القنانة ناشد الطبقة التي كانت أكثر استفادة من **المحافظة**. إنه لمن الطبيعي جداً أن يناشد الطبقة التي تعاني من القنانة أكثر من غيرها، أي أن يناشد الفلاحين. إلا أن هرزن كان متشدداً في طريقته. إن المرء لا يتوجه إلى الفلاحين إلا إذا قدر قدرتهم على العمل السياسي. وهرزن لم يقدر هذا على الاطلاق. ففي رأيه أن التطور الممكن لروسيا نحو الاشتراكية لا يلعب فيه الفلاحون سوى دور سلبي، بينما يلعب «النبلاء الشباب» دوراً إيجابياً كمباشرين للعمل. أما ما يتعلق بالتناقض المحتمل بين برنامج هرزن لتحرير الفلاحين ومصالح النبلاء كطبقة فقد حل ذلك التناقض بتعليق الأمل على ترفع القطاع التقدمي من هذه

الطبقة عن تلك المصالح ولم يكن هذا رأي هرزن فقط، بل إن صديقه أوغاريف وافق عليه موافقة كاملة.

في العدد؟ من بوليارنايا ازفسدا[١٨٢] (١٨٥٦) ظهرت مقالة هامة لأوغاريف (الذي كان يوقع وقتذاك بالحرفين «ر - ش »[١٨٣] بعنوان «المسائل الروسية»، يسأل فيها من جملة ما يسأل من تساعد الحكومة في قضية تحرير الأقنان، وكان الجواب هكذا

«إن الشعب لا يستطيع التعبير عن فكرة، هي في طبيعتهم أو شعورهم ولكنها غير واضحة في تفكيرهم

«النبلاء الكبار؟ انهم رجال يملكون خمسة أو عشرين أو ثلاثين أو مئة أو خمسة آلاف من الأقنان... ولكنهم رجال لا صلة لهم بالشعب واحتياجاته ولم يقوموا بأي تفكير وليس لهم من عمل سوى انفاق الأموال الطائلة الهابطة عليهم من السماء، ليغرقوا في نزوتهم الشرهة، لا إنهم مستشارون تعساء

«المالكون العقاريون الصغار؟ انهم رجال تنقصهم الثقافة، رجال يمصون دماء الفلاحين... فيا للمستشارين التعساء

«التجار؟ إنهم يشكلون طائفة تتمتع باحتكاريتها ويعتقدون أنهم العنكبوت وأن الآخرين فرائس، ولذلك فانهم يقيسون رفاهية الدولة بأرباحهم التي يجنونها بشق الطـرق. أيضاً هؤلاء مستشارون بائسون.

«الضباط؟ انهم أعضاء في منظمة ضخمة للسرقة الشاملة، حيث ينتزعون الكوبيكات والروبلات. فيا للمستشارين التعساء إلى جانب ذلك حاول أن تفتش في دوائرهم وسوف ترى إلى أي مدى وصل فساد البيروقراطية. فيا للمستشارين التعساء

«لم يبق سوى ذلك القطاع من الطبقة النبيلة الوسطى التي تلقت، من جهة، ثقافة عالية في المؤسسات الثقافية، واعتادت على التفكير، وعاشت من جهة أخرى في الوطن فتعرف الشعب واحتياجاته ولم تبع ضميرها في سبيل مركز رسمي. نعم الحكومة الفتية* يجب أن تتحول الى روس مثقفين، تختارهم - ليس لطول خدمتهم، بل لاستقلال خدمتهم، ليس لأهمية انتمائهم، بل لعدم أهمية انتمائهم»**

---

* أي حكومة الاسكندر الثاني

** اقتبست من الطبعة الثانية ص ص ٢٧٤ ٢٧٥

كل هذه الحجج توضح آراء أوغاريف وهرزن في ذلك الوقت. وحسب ما يذهبان فان تحرر الفلاحين هو الخطوة الأولى على طريق التطور الاشتراكي لروسيا لذلك حين يطالب أوغاريف وهرزن الحكومة والنبلاء بالغاء القنانة، يلحون على الفرادة الاقتصادية لروسيا

يكتب هرزن: «لا شيء يمكن أن نستعيره من البرجوازية الصغيرة في أوروبا اننا نحن برجوازية صغيرة، إننا موجيك »* هذه الفكرة - الأساسية للنارودنيك الروس شرحها هرزن في المقالة نفسها تفصيلا

«نحن فقراء في المدن أغنياء في القرى. إن كل الجهود المبذولة هنا لانتاج برجوارية المدينة بالمعنى الغربي لم تؤد إلا الى نتائج تافهة جداً إن أبناء المدن هم الضباط والتجار أقرب صلة بالفلاحين من الضباط. ومن الطبيعي أن يكون المالكون العقاريون من ساكني الريف أكثر من المدن. ولذلك فإن المدينة فقط تمثل الحكومة، تمثل الدولة الروسية، بينما القرية هي كل روسيا، هي روسيا الشعب.

إن سمتنا الأصيلة والنوعية هي القرية بادارتها الجماعية، بمجلس القرية، بالممثلين المنتخبين بملكيتها غير الفردية، بتقسيم الحقول حسب عدد نفوس البيت. إن كوميون قريتنا قد انتعش في حين أن المرحلة العسيرة لتطور الدولة تكون في انحطاط الكوميونات، والرزوح من وطأة نير مزدوج العجز عن مقاومة ضربات الملاك العقاريين، ونهب الموظفين »**

إن فكرة الفرادة الاقتصادية لروسيا التي تمكننا من تجاوز طريق «البرجوازية الصغيرة» للتطور الأوروبي الغربي، كانت بارزة في تفكير هرزن حيث شعر بضرورة التعبير عنها حتى في واحدة من رسائله العديدة للامبراطور الكسندر الثاني. إني أذكر الرسالة عن الكتاب المشهور للبارون كورف حول تنصيب الامبراطور نيقولا الأول. فبعد أن أشار إلى أننا تلقينا كهبات حرة تلك الحقائق والنتائج التي حققتها الشعوب الغربية من خلال الكفاح المدني والخسارات الفادحة، أضاف قائلا

---

* العدد ٢ من بوليارنايا ارفسدا ١٨٥٦ الطبعة الثانية مقالة موقعة بـ «١» ر بعنوان «الوداع الوداع» ص.ص. ٧-٨

** المرجع السابق ص ٨.

«لقد أفصحت أوروبا في سرير مرضها وأفشت سرها الأخير التي وصلت إليه بحزن وكآبة، فهي تشير الى أن الطريق الوحيد للانعتاق إنما هو تلك العناصر القوية الملتصقة بشخصية الشعب، وليس فقط بشخصية روسيا بطرس الأكبر، بل بكل روسيا الروسية. وهذا هو السبب في أننا نؤمن أن التطور سوف ينحو منحى مختلفاً هنا»*

١١

في رأي هرزن وأوغاريف إن الشرط الأول الضروري لاتخاذ روسيا طريقاً مختلفاً في التطور الاقتصادي، كان تحرير الفلاحين مع الأرض. وهذا الاجراء سوف يمنع ظهور البروليتاريا في روسيا وينقذها من كل الآلام والاضطرابات التي أعقبت ظهورها في الغرب.

«آه يا روسياي» هكذا يصرخ أوغاريف في مقالة «المسائل الروسية» التي أخذنا منها مقطعاً من قبل. «سأقدم الغالي والنفيس حتى أجنبك آلام التطور الغربي - من الدموية العقيمة وانتزاع الملكية والافقار والبروليتاريا والعدالة الشكلية والمحاكم الجائرة والاضطهاد وطغيان البرجوازية الصغيرة الوضيعة، والنفاق - بحيث تتطورين بسلام عبر اصلاح يانع أبدي».

يؤمن أوغاريف أن الفلاحين إذا تحرروا من دون الأرض سوف تلعب طبقة النبلاء دور البرجوازية الصغيرة الغربية بدلا من دور الطبقة المثقفة في الدولة» وعندئذ تصبح روسيا مسرحاً لاضطرابات «القسوة المرعبة»** وقد خيّم الخوف من مثل تلك الاضطرابات على ذهن أوغاريف وهرزن في المسائل الروسية. ففي العدد ٣ من **الكولوكول** (١ أيلول ١٨٥٧) كتب أوغاريف في مقالة بعنوان «أنظمة الحكومة»:

«يبدو أن الحكومة الحالية تحققت أنه لا وجود لعناصر الثورة الأوروبية في روسيا، فلا تخشى شيئاً في هذا الصدد، ولكن يجب أن تتحقق أن روسيا، وقد

* الكولوكول عدد ٤

** في حين يخشى هرزن وأوغاريف من أن تقوم الطبقة النبيلة الروسية بدور البرجوازية الصغيرة الغربية بدلاً من «دور الطبقة المثقفة في الدولة» وصل بيلنسكي قبيل وفاته الى اعتقاد معاكس، في رسالة الى اننكوف مؤرخة في ١٥ شباط ١٨٤٨ فكتب: «من الواضح الآن أن العملية الداخلية للتطور في روسيا لن تبدأ إلا عندما تتحول الطبقة النبيلة الروسية الى طبقة برجوازية...

أرهقتها ادارة الدولة التي تقوم على العنف البوليسي، تتطلب نهضة، أن تتحقق أنه ما لم تقم الحكومة بهذه النهضة فانها ستواجه نوعاً مختلفاً من الثورة، لبس من النوع الأوروبي اطلاقاً، ولكنها ثورة وحشية معادية للثقافة، أن تتحقق أن الثورة الفلاحية في روسيا هي الأكثر احتمالا لأن الجيش سيكون معها، أن تتحقق أنه لا يوجد وطن آخر فيه الجيش، على الرغم من طول مراسه، صديق للشعب كما في روسيا

يجب ألا نعتقد أن **الكولوكول**، في شخص أوغاريف، رسمت الثورة الفلاحية المحتملة في روسيا على أنها ثورة وحشية ومعادية للثقافة بهدف تخويف الحكومة. كان فعلا لا ينوي تخويفها على أي حال يمكن للمرء، بناء على طريقة هرزن وأوغاريف في التفكير آنئذ، أن يعتقد أن هذه الرغبة تجلت في المقالة المشار إليها أعلاه فقط في المبالغة في احتمال قيام ثورة فلاحية (« الثورة الفلاحية في روسيا هي الأكثر احتمالا لأن... الخ ») في حين أن وصف هذه الثورة انها ظاهرة وحشية لا يمكن السيطرة عليها تتطابق كلياً مع معتقد هيئة تحرير **الكولوكول**.

لقد رأينا أعلاه أن هرزن لم يكن اطلاقاً مؤيداً للصراع الطبقي من حيث المبدأ لقد شدد على أن البرجوازية الصغيرة في الغرب لا يمكن إلا أن تدحرها ثورة عمال فقط، إلا أن هذا الاعتقاد لم يعبر إلا عن يأسه من أوروبا الغربية. لقد آمن إلى جانب ذلك بالغرب أيضاً، بأن ثورة العمال لا يمكن أن تكون محتومة إلا نتيجة تخلف الجماهير إن المقطع التالي من مقالة هرزن « خلاف جديد حول موضوع قديم » لا يدع مجالا للشك في هذا الصدد:

« أنا لا أرى أن مسألة مستقبل أوروبا قد حلت نهائياً، فقد درست بكل عمق واحترام للحقيقة وبميل لصالح الغرب أكثر من صالح غيره، لقد درسته عشر سنوات ليس في النظريات والكتب بل في النوادي والساحات، في قلب كل الحياة السياسية والاجتماعية، ولا بد من القول إني لم أجد حلا سريعاً ولا مناسباً واذا أخذنا بالحسبان، من جهة، فان التطور المحموم الأحادي الجانب للصناعة، وتركيز الثروة، الروحية والمادية، في أيدي الأقلية من الطبقة الوسطى، وحقيقة أن الأخيرة سيطرت على الكنيسة والحكومة والآلات والمدارس، وأن الجيش يطيعها والحاكم تحكم لصالحها، واذا أخذنا بالحسبان، من جهة أخرى، تخلف الجماهير وعدم نضج الحزب الثوري

وتردده، فانني لا أستطيع أن أتصور انهياراً سريعاً للبرجوارية الصغيرة وتجديد بنية الدولة القديمة من دون قتال دام مرعب »*

ولكن مهما كان يأس هرزن من أوروبا الغربية فانه لم يفشل في رؤية أن الشعب الروسي بجماهيره كان أقل تقدماً، مثلا، من الفرنسيين والألمان. ولذلك فان انفجاراً في قلب الشعب الروسي لا بد أن يبدو له «حلا مناسباً أقل من الانتفاضة في قطر أوروبي بكثير إن نارودنيك السبعيات نظروا إلى هذه القضية في ضوء مختلف تماماً إنهم لم يخشوا أبداً الصراع الطبقي في الغرب، والثورة الفلاحية التي حاولوا تمهيد الطريق لها بكل قوتهم لم تظهر لهم على أنها حركة شعبية «وحشية» «معادية للثقافة». هنا يختلفون اختلافاً كبيراً عن هرزن وأوغاريف ومع ذلك فان هذه نقطة صغيرة، وإن كانت هامة جداً من الناحية التكتيكية. أما بالنسبة إلى الآراء النظرية الأساسية - أي لفكرة فرادة روسيا الاقتصادية وطريق التطور التي تبحث عنه فان النارودنيك استعاروا هذا كله من هرزن وأوغاريف، وإن كانوا غير واعين بذلك تماماً. ولذلك نرى أننا محقون في القول إن هرزن وأوغاريف ظهرا في مؤلفاتها الأولى المنشورة في «المطبعة الحرة في لندن» على أنهما أبوان لحركة النارودنيك الروسية. وبمقدرة أبوي الحركة النارودنيكية الروسية باشرا حملتهما الصحفية ضد القنانة.

كان أدب «الاشتراكية الروسية» كله في السبعينات والثمانينات منساقاً مع الأفكار النظرية التي دافع عنها هرزن وأوغاريف وجمعياتها قبل تحرير الفلاحين** ويمكن أن نرى مدى ذلك من المثال التالي.

---

* المؤلفات المجلد ص ٢٨٥

** إن الأدب الاشتراكي في الستينات يمكن ان ينظر إليه على أنه لم يخضع لتأثير تشير نيشيفسكي، الذي لم يتفق في نقاط كثيرة مع هرزن. والمعروف أنه دخل في مشاحنات مع هيئة تحرير الكولوكول حول قضية العلاقة بين روسيا والغرب. انظر مقالته «أسباب سقوط روما». وقد آمن هرزن بدوره أن تشير نيشيفسكي مدافع عن «الاشتراكية الأوروبية الصرفة» التي هي بنظره ملحق بالاشتراكية الروسية قال إن محيط تشير نيشيفسكي كان «ان المدينة والجامعة، وهو محيط شديد الوطأة لا يعرف الاستقرار، تألف حصراً من أعضاء في الحركة الثقافية والبروليتاريا والانتلجنسيا». بينا رأى هرزن كروسي نموذجي «أن ذلك النوع من الاشتراكية الناجم عن الأرض والعادات الفلاحية، عن القسمة الفعلية للأرض وإعادة قسمها، عن الملكية الكومونية للأرض، وعن الإدارة الجماعية، التي تكافح مع المشاريع العمالية، من أجل عدالة اقتصادية تكافح الاشتراكية عامة من =

من المعروف أن « سوسيولوجيينا الذين ترعرعوا في الوطن في السبعينات حاولوا جهدهم أن يستخلصوا « الصيغ للتقدم ولكن كل النتائج التي توصلوا اليها كانت بمشاركة حلقة هرزن وأوغاريف وفي مقالة بعنوان: « مكانة روسيا في المعرض العالمي » كتب سازونوف رداً على سؤال « ما الذي يؤلف التنوير البشري حقاً

« إن تطور الفرد ضمن علاقات متزايدة التنوع والتعقيد إنما تكون مع أفراد آخرين ومع العالم كله. وكلما كانت تلك العلاقات مفهومة ومستوعبة وصحيحة، هذبت ونقت المشاعر الفردية وحققت الحرية الحقيقية، أي التنفيذ الواعي الغيور لقوانين الطبيعة المحتومة »*

تذكر « صيغ التقدم » للفقيد ميخائيلوفسكي[١٨٤] وقارنها بما يقوله سازونوف هنا، وسوف ترى أن الفارق الوحيد هو الاسم، فأحدهم يسميها تقدماً بينما الآخر يسميها تنويراً وليس « تقدم » ميخائيلوفسكي في مضمونه سوى نسخة أخرى من « تنوير سازونوف. وأود أن ألفت انتباه المتبصر السيد ايفانوف رازومنيك إلى هذه النقطة. إن سازونوف وجد أن « الحركة الحاضرة في انسانية أوروبا الغربية » تتبع طريقاً يسير في اتجاه معارض لطريق التنوير الأصلي. وقد كانت روسيا في زعمه أقرب إلى الطريق الأخير فاذا سادت خلف أوروبا صناعياً « فلأن الصناعة هي في المرحلة البرجوازية الآن، ولا توجد في روسيا برجوازية » وهذه أيضاً حجة نارودنيكية صرفة.**

إن أنصار الغرب (ومنهم تورغنيف) انتقدوا هرزن لحقيقة أن رأيه في روسيا قربه كثيراً من أنصار السلافية. وأضاف « إن تلك الانتقادات في حد ذاتها دليل على أن كفاحك ضد أنصار السلافية في موسكو لم ينته، وذلك محزن ». وبعد موت الامبراطور نيقولا فقد الصراع ضد أنصار السلافية كل أهميته ومعناه. يرفض هرزن بشدة بعض الأهداف العملية لأنصار السلافية: « إنهم يستمتعون بغرفة التعذيب،

= أجلها، ويحددها العلم (الكولوكول رقم ٢٣٣ - ٢٣٤). ولا حاجة أن نضيف إن هرزن اعتبر نفسه وأوغاريف ممثلين لهذه الاشتراكية.

* بوليارنايا أزفسدا العدد ٢ الطبعة الثانية ص ٢٢٨

** يختلف سازونوف في بعض النقاط عن هرزن. ولكنهما، كما نرى، متفقان في النظرة الى العلاقة بين روسيا والغرب.

والأنوف المصلومة والكفارة والتوبة وصومعة سولوفسكي ». ولكنه يقول « أنا لا أرفض أن السلاف يعون فعلاً الروح الحية في الشعب ». ووجد أن الحجج المألوفة التي يقدمها أنصار الغرب ضد أنصار السلافية قد فقدت قوتها أيضاً إنك لن تستطيع زحزحة أنصار السلافية عن مراكزهم باستخدام الغرب كنموذج « حين يبين أي عدد من صحيفة المرض الخطير الذي يدمر أوروبا إن أنصار الغرب يحبون الأفكار الأوروبية. وهرزن أيضاً يحبها على أنها « أفكار التاريخ كله » و« من دونها سوف نسقط في الخمول الآسيوي أو البلادة الافريقية ». هذه الأفكار وحدها تساعد روسيا على امتلاك الارث التاريخي المقدم إليها ويخاطب هرزن أنصار الغرب: « ولكنكم لا تريدون أن تعرفوا أن الحياة في أوروبا اليوم لا تتطابق مع أفكارها انكم تخافون منها، فالأفكار التي لا تطبق في الداخل تبدو لكم أنها لا تطبق في أي مكان آخر ». إن هرزن لا يشمله هذا الخوف. وفي تحليل طريقة الشعب الروسي في الحياة يرى أن الكوميون ضمانة لتحقيق الأفكار الاجتماعية التي ظهرت في الغرب* إنه يتفق مع أنصار السلافية فقط في رأيه في الغرب وأهمية الكوميون الروسي ولكنه في هذه النواحي يقترب من الجانب السلافي منذ بضع سنوات قبل خصامه مع أنصار الغرب الذي لخصناه أعلاه.

« لعام خلا**، على سفينة تجارية أقلعت من نابلس إلى ليفورنو التقيت روسياً يقرأ في الطبعة الجديدة لمؤلفات خومياكوف. وعندما أخذ النوم يطوف به سألته أن يعيرني الكتاب أقرأ شيئاً منه. وبعد أن ترجمت لغة الاسفار إلى لغتنا اليومية ونظرت على ضوء هذه الأيام فيما كان يراه خومياكوف على ضوء ثريا الكنيسة، رأيت بوضوح أننا في عدة نقاط نفهم المسألة الغربية بالطريقة ذاتها، على الرغم من الفوارق في التفسيرات والنتائج »***

وعندما كان أوغاريف يعمل في بوليارنايا أزفسدا، وعلى الأخص في الكولوكول،

---

* انظر مقالة « خلاف آخر حول موضوع قديم ». هذه المقالة المؤرخة في ٣ شباط ١٨٥٣ أعيد نشرها في مؤلفات هرزن من طبعة جيبف المجلد ص ص ٢٥١ - ٢٩٧

** كتب هرزن هذا في تشرين الأول ١٨٦٤

*** الكولوكول رقم ١٩١ « رسائل الى خصم ».

حول بعض النقاط الخاصة في « الاشتراكية الروسية » اقترب من أنصار السلافية أكثر من هرزن يقول:

« في حين لا أوافق أبداً على أي دين وبالتالي على أرثوذكسية معدلة [أي أرثوذكسية أنصار السلافية ج ب] فانني، أو بالأحرى اننا ندعوهم بصدق وصراحة أنبياء التطور المدني الروسي »*

ويجد أوغاريف شيئاً من بقايا السلافية لدى الديسمبريين. ويشير إلى قصيدة أوديفسكي « القضية السلافية ». والقصيدة تتغنى ربما بالسلافية، إلا أنها لا تشير إلى أنصار السلافية**

وبعد عدة سنوات أطلق اكساكوف على الحركة النارودنيكية « السلافية المفككة ». وباعتبار هرزن وأوغاريف أبوي الحركة النارودنيكية فان اكساكوف يوافق على أن يشمل تقييمه تعاليمها. ولا بد من التسليم أنه كان محقاً تماماً

١٢

لم تلق منشورات هرزن في الخارج أول الأمر أي عطف في روسيا*** ويمكن الافتراض أن بعض المالكين العقاريين فهموا أنه في ظل العلاقات القائمة في منتصف القرن التاسع عشر لم تعد القنانة شرطاً ضرورياً للرفاه المادي للنبلاء وقد دعم هذا، من بين الأشياء الأخرى، شهادة هامة من بيروفسكي، وزير الداخلية.

في مذكرته حول الغاء القنانة المرفوعة إلى الامبراطور نيقولا في ١٨٤٥ قال بيروفسكي أن المسألة الفلاحية أصبحت « موضوعاً عاماً للمناقشة الصريحة بين الطبقات

---

* انظر مقالته المتمة « المنتجع القوقازي » في العدد ٦ من بوليارانيا ازفدا ١٨٦١ ص ٣٥٣

** تقول القصيدة أنه:

في الأسرة السلافية تكون الفتاة الكبرى

هي الأطول والأكمل أيضاً

وأنها تسرع الى الحقول مع أخواتها الصغريات، ويتحلقن ويشبكن أيديهن معاً وبالطبع أن الأخت الكبرى هي روسيا إلا أنها في الحقيقة صرخة لتأييد أنصار السلافية. وأضيف أننا نجد لدى هرزن ما يلي: « إن مؤلفات أنصار السلافية هيأت المواد للفهم - فلهم فضل الريادة وشرفها » (من مقالة في الكولولول رقم ١٠٧).

*** « علينا الصمت في بداية ١٨٥٤ » هكذا يقول في مقالة « الى شعبنا » في العدد الأول من بوليارنيا ازفدا ص ٢٣٠

المثقفة* وحسب قول الوزير نفسه فإن تلك الطبقات لم تبد أي خوف من فكرة إلغاء القنانة.

يقول «لقد غير الزمن والعلاقات الجديدة بصورة كاملة نظرة المالكين العقاريين المثقفين في القنانة: لقد خافوا بالطبع من نتائج الانعتاق، **عارفين الطبيعة التي لا يمكن التحكم بها في الناس الذين غيروا من وضعهم المعتاد الى حد ما أو تخطوا الحدود المسموحة**، إلا أن المالكين لم يكونوا خائفين من فقدان ملكيتهم إذا سلموا بالحرية. إن المالكين العقاريين أنفسهم بدؤوا يحققون أن الفلاحين عبء عليهم وأن من الأفضل تغيير تلك العلاقات غير المناسبة»** ويلاحظ بيروفسكي بدقة أن المالكين العقاريين توصلوا الى هذا الاستنتاج بسبب تعاظم كلفة الأرض والتجارب الناجحة في استخدام المزارع المأجور في ساراتوف وتامبوف وبنزاوفورويتش وبعض المحافظات الأخرى. إنه يلاحظ أن القسم الأعظم من طبقة النبلاء وإن لم يكونوا خائفين من فقدان الملكية بالغاء القنانة، يخافون «**نتائج الانتفاضة التي تخيف أي رجل حساس يعرف الشعب ومفاهيمه وميوله**»***:

ومهما كان موقف النبلاء فان من الصعب أن نتوقع منهم الاستجابة لنداء مهاجر تدخل مؤلفاته إلى روسيا كمحظورات (هذا يوم كانت تدخل). إن شهادة بيروفسكي ترجع الى عام ١٨٤٥، وفي الوقت الذي ظهرت فيه مشورات هرزن في الخارج، كان موقف النبلاء أشد محافظة. وخشية الصراع الطبقي العيف في الغرب، الذي ظهر في ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩ فان «مجتمعنا يريد شيئاً واحداً فقط - السلم والهدوء حتى كيريفسكي كتب إلى بوغودين في نيسان ١٨٤٨ أننا «يمكن أن نفرض مطلبين على الحكومة: الأول ألا تدفع بنا إلى الحرب العقيمة، والثاني ألا تفسد الناس بالشائعات الرائفة عن الحرب وألا تقدم أي تشريع جديد قبل أن تهدأ الأمور في الغرب»****

ذلك هو الزمن الذي كان فيه المجتمع، كما يقول الرقيب نيكيتنكو، يغرق بسرعة في البربرية. وهذا الانحطاط في الأخلاق العامة لم يسلم منه حتى أقرب أصدقاء هرزن

* سيميسكي «المسألة الفلاحيه في روسيا الح المجلد ٢ صص ١٣٥ ١٣٦

** المرجع السابق ص ١٣٨

*** المرجع السابق الصفحه ذاتها

**** كيريفسكي، المؤلفات، موسكو ١٩١١ مجلد ٢ ص ٢٤٩

إليه إنهم لم يستحسنوا خططه للنشر في الخارج ففي خريف ١٨٥٣ حضر إلى لندن صديقه القديم الممثل المشهور شيبكين. حاول أن يتحدث مع المنفي ليقنعه بترك النشاط السري، كما نقول اليوم. قال لهرزن: «ما الفائدة من منشوراتك؟ سوف تدمر قسماً من الناس وتدمر أصدقاءك. سأجثو على ركبتي المتعبتين أرجوك أن تكف ما دام الوقت لا يزال يسمح بذلك رفض هرزن أن يترك نشاطه السري، إلا أنه كان عليه أن ينتظر وقتاً طويلا ليتلقى اسجابة عاطفية من وطنه لم تكن إلا بسبب حرب القرم. إن موت نيقولا الأول وسقوط سيباسيبول أثار الرأي العام وقدما آمالا جديدة انبعثت في صدر هررن. ففي ذلك الوقت بدأ يصدر **البوليارنايا أزفدا**، **والكولوكول** فيا بعد

في العدد الأول من **يوليارنايا ازفدا** نشر هرزن رسالة مفتوحة إلى القيصر الجديد، ضمّنها برنامجاً كاملا للاصلاحات.

كتب: «سيدي اسمح بحرية الكلام للروس. إن عقلنا منكمش وأفكارنا تسمم صدرنا بسبب الضيق، فهي تضج من مضايقات الرقابة. اسمح لنا بحرية الكلام، فان لدينا رسالة !لعالم ولشعبنا

«امنح الأرض للفلاحين. إنها تخصهم على أي حال. انقذ روسيا من طابع القنانة، ارفع السياط السوداء عن قفا اخوتنا، هذه الدلائل المرعبة على احتقار الانسان.

« اسرع، انقذ الفلاح من عنت المستقبل، انقذه من الدم الذي سوف يريقه...

« إني خجل من أننا نعمل للرضا بالقليل، إننا نريد العدالة التي تراها أنت ضئيلة مثلما يراها أي فرد آخر

« حالياً نحن نرضى بهذا

بعد ما قبل أعلاه من الواضح تماماً لماذا تحرير الفلاحين مع الأرض كان النقطة الأساسية في برنامج هرزن. كان هذا المطلب أبرز ما يميز آراء صحفينا **«الاجتماعية»**، أما بالنسبة إلى ندائه إلى الامبراطور الجديد فلا يقل بروزاً عن طريقة تفكيره **السياسية**.

في تناولي لسني دراسة هرزن وحماسته لسان سيمون، لاحظت أنه كرر أخيراً في عمله الصحفي خطيئة سان سيمون في عدم فهمه بوضوح العلاقة السببية بين «الاقتصاد» و«السياسة». وقد أضفتُ هناك أن هذه الخطيئة لم تكن بارزة عند

سان سيمون، بل عند جميع الاشتراكيين الطوباويين. وقد آن الأوان أن نضيف إلى ذلك حقيقة أنها سمة أيضاً عند برودون، الذي أثر كثيراً في هرزن أثناء السنوات الأولى من حياته في الخارج.

إن الصحفي الروسي الكبير يمدح برودون: «السياسة، بحسب الليبرالية القديمة والجمهورية الدستورية، قد انتهت بالنسبة إليه، كشيء عفا عليه الدهر وانتهى تقريباً إنه غير مبالٍ بمسائل السياسة، إنه مستعد أن يقدم تنازلات، باعتباره لا يولي أدنى أهمية للأشكال، التي لا تجدي مثيلاً في رأيه».

وكذلك هرزن في قمة نشاطه الصحفي رأى السياسة أيضاً شيئاً منتهياً عفا عليه الدهر وهذا ما يفسر نداءه إلى الحكومة. لقد قدم تنازلات «ضخمة» لأن الأشكال السياسية كانت في رأيه لا تجدي نفعاً إلا قليلاً

هذا هو التفسير الوحيد لحقيقة أن العدد نفسه - على سبيل المثال - من بوليارنايا أزفسدا حمل رسالة هرزن إلى الامبراطور الاسكندر الثاني، واشتمل على مقالة أ-تالاندير «لا اشتراكية بلا جمهورية». ان هرزن، الذي كان يعرف فعلاً نفسه أنه اشتراكي غير قابل للاصلاح، شارك تالاندير رأيه في النظرية، إلا أنه لم يشعر بأنه مضطر للاسترشاد بالممارسة العملية عندما أصبحت ممكنة في ذلك الوقت لروسيا حتى تخطو، في رأيه، خطواتها الأولى في الاشتراكية. يمكن أن يبدو هذا غريباً، إذا لم نعرف أنه، مثل برودون، كان «غير مبالٍ» بالمسائل السياسية، ومستعداً أن يقدم تنازلات، «لأنه لا يولي أدنى أهمية للأشكال التي لم تكن، في رأيه تجدي نفعاً

١٣

هذه أيضاً خطيئة. «السياسة» ليست أبداً شيئاً ثانوياً إن أي نظام سياسي ينبثق من علاقات طبقيـة محددة يمكن ارجاعها الى علاقات ملكية. إن طبيعة العلاقات الطبقية القائمة في زمن معين وفي بلد معين أنها تحدد طبيعة النظام بدورها تحدد ما يمكن القيام به في طريق التحول الاجتماعي إن المرء لا يتوقع من نظام سياسي تشكل وتوطد تاريخياً أن يعبر عن مصالح النبلاء وينفذ الاصلاحات ولا يكون مسجماً مع المصالح الأساسية لهذه الطبقة. إلا أن هيئة تحرير الكولوكول إنما اقترحوا ذلك فقط على النظام الروسي آنئذٍ وهكذا اسعدوا لمرحلة طويلة من خيبات الأمل

المريرة. جاءت خيبات الأمل سريعاً، ولكن في الوقت المحدد - وهذه حقيقة هامة جداً كانت خطيئة هرزن مفيدة له من حيث أنها وسعت مجال تأثيره.

في آب ١٨٥٧ كتب كافلين، الذي لم يعرف أن العدد الأول من **الكولوكول** قد ظهر في ١ حزيران من السنة ذاتها، الى هرزن ينصحه أن يبدأ النشر بهيئة جريئة. وأضاف: «ولكن الهيئة يجب أن تكون هيئة معتدلة، بحيث تأخذ في الحسبان كل المصالح وتعبر عن كل الآراء ومهما بدا مجتمعنا غريباً عليك فانه قلما يشغل نفسه بالمسألة السياسية، لكنه ينهمك كثيراً في المسائل الإدارية والاجتماعية والاكليريكية. إن الفوضى والعبث والتنافر قد شملت أقساماً كثيرة جداً من حكومة البلاد، فلا مجال أن تقدم لهم المواعظ التعليمية». كان المجتمع الروسي قليل الاهتمام بـ «المسألة السياسية» بسبب تخلفه السياسي، وقد نظر هرزن إلى المسألة على أنها مسألة تافهة لأنه اتخذ موقف برودون منها

إن أسباباً كثيرة أدت الى نتائج موحدة: فقد وضعت **الكولوكول** في المقدمة المسائل «الادارية والاجتماعية» التي كانت تهم جداً القراء الروس في ذلك الوقت. وقد ظهر فيما بعد أن هرزن الاشتراكي غير القابل للاصلاح لا يستطيع أن يحل تلك المسائل بالطريقة التي كانت أغلبية أنصاره يريدونه أن يحلها بها وعندئذٍ أدار أولئك المعجبون ظهورهم **للكولوكول**. ولكنهم أول الأمر كانوا منساقين وراء السمة المعتدلة لبرنامج هرزن. يقول ١ م. انكوفسكي في مذكراته أنه خلال سنتين أو ثلاث سنوات غير النبلاء آراءهم كلياً تحت تأثير **الكولوكول**. ويمكن أن يعتقد المرء أن نبلاء تفير كفوا عن أن يكونوا نبلاء تحت تأثير **الكولوكول**. ولكن الحالة لم تكن بالطبع كذلك. فنحن نعرف أنه حتى الليبراليون المشهورون في تفير دافعوا بشدة عن مصالحهم الطبقية* ولكنهم في ذلك الوقت لم يلاحظوا أن رأي هرزن في المسائل «الإدارية

---

* وهكذا فان انكوفسكي نفسه في مذكراته حول مسألة الفلاحين التي طرحها الاسكندر الثاني في كانون الثاني ١٨٥٧ ألح «أن قيمة أي طبقة شعبية قائمة على القنانة لا تكمن في الأرض وحدها بل في الناس أيضاً، ويجب أن يعوض المالك العقاري عن الناس مثلما يعوض عن الأرض، وفي بعض المقاطعات لا قيمة لأرض بلا رجال يعملون فيها». وقد اعتقد انكوفسكي أن التعويض عن الأقنان يجب ألا يدفع من الأقنان أنفسهم فقط، بل من قبل «جميع طبقات الدولة». إن انكوفسكي كان أحد أعظم النبلاء اللبراليين في زمنه، وقد طبعت مذكراته بحماسة شديدة في كتاب بعنوان «انكوفسكي وتحرير الفلاحين» في موسكو. ١٨٩٤ ص ص ٥٨ - ٧١.

والاجتماعية يختلف تماما عن ارائهم، على الرغم من برنامجه المعدل كما ان هرزن لم يلاحظ ذلك أيضاً

عندما أعلن الاسكندر الثاني في خطابه[١٨٥] في موسكو أن تحرير الفلاحين من الأعلى أفضل من الانتظار حتى يبدؤوا يحررون أنفسهم من تحت، وعلق هرزن على تلك الكلمات (في العدد ٢ من الكولوكول ١ آب ١٨٥٧) تحت عنوان ثورة في روسيا

انبا الآن في عشية انتفاضة، انبا في قلبها لقد دفعت الضرورة والرأي العام الحكومة الى مرحلة جديدة من التطور والتغير والتقدم إن المجمع والحكومة تصدياً للمسائل التي فجأة حظيت بقبول شامل وباتت ملحة هذا الاختمار في الفكر، والرغبة الملحة في توفير حلول جديدة للأهداف الأساسية لحياة الدولة، واخضاع الأشكال التاريخية التي تتقدم فيها للتحليل، تشكل القاعدة الأساسية لكل انتفاضة جذرية

شارك هرزن في الاعتراض على أن الانتفاضة الاجتماعية الجذرية هي نتيجة الصراع بين القوى الاجتماعية، أي حالة في المجتمع لا يكون فيها دلائل واضحة في روسيا المعاصرة وكان جوابه على ذلك أن في روسيا أشياء تختلف عن الغرب منذ زمن سحيق، فالتجديدات تأتي من الأعلى لا من الأسفل. فالانتفاضة الجذرية الوحيدة التي جربتها كانت من صنع القيصر بطرس الأول ويتابع فيقول. اعتدنا منذ عام ١٧٨٩ على حقيقة أن جميع الانتفاضات تأتي عن طريق انفجارات وانقلابات بحيث كل عملية تتم عن طريق القوة، وكل خطوة الى الأمام تتخذ وسط القتال، حتى أننا الآن عندما يشار الى انتفاضة ننظر بشكل عفوي الى ساحات المدينة والمتاريس والدم وبلطة الجلاد ولا شك أن الانقلاب او القتال المكشوف هو أداة من أقوى أدوات الثورة، ولكن ليست أبداً الأداة الوحيدة وباسم هيئة تحرير الكولوكول يعلن هرزن أنه يفضل من صميم قلبه طريق التطور السلمي على طريق التطور الدموي للانسانية *

---

* قوله الانتفاضة أداة من أقوى الثورة يبدو متناقضاً مع ما قيل أعلاه عن موقفه من الصراع الطبقي ولكن أولاً « أداة من أقوى أدوات الثورة لا تعني » من أعظمها ثانيا ما أقلق هرزن في ثورة ١٨٤٨-١٨٤٩ لم تكن حقيقة أنها كانت ثورة عنيفة بل لأن هذه الثورة العنيفة كان مظهراً للصراع الطبقي الذي أدى الى انقسام بين « الطبقة المثقفة » من جهة، و« البروليتاريا من جهة أخرى إنه لم ير أي انقسام في ثورة ١٧٨٩ .

المرسوم المشهور الى ماريموف في ٢٠ تشرين الثاني ١٨٥٧ ماخوذ من لكولوكول (رقم ٧) من المقالة «تحرير الفلاحين التي تقول.

«نرغب في أن نسبع جميع تفصيلات القوانين الحكومية حتى العام الأخير ولكن لتفصيلات تريد قبل الأحداث الكبرى فتجري في وطننا الأم، بحيث أننا بدلاً من ملاحقة التفاصيل الصغيرة نبدأ عام ١٨٥٨ بتقديم تحية الى الاسكندر الثاني لاتخاده لخطوات الأولى لالغاء القنانة. إننا مقتنعون أنه لن يكون غير مبالٍ بهذه التحية الحارة من رجال لا يخافون منه، من رجال لا يتوقعون منه أو يسألونه شيئاً لأنفسهم، بهذه لتحية من رجال روس أحرار الى القيصر الذي قضى على القنانة. إننا سعداء لأننا نادرون أن نبدأ السنة الجديدة فليكن عصراً جديداً حقاً لروسيا

المقالة كتبها أوغاريف وليس هرزن، ولكن لا فرق هنا لأن هرزن يتبنى الأفكار ذاتها التي ظهرت في مقالته الشهيرة «في ثلاث سنوات المنشورة في العدد ٩ من لكولوكول في ١٥ شباط ١٨٥٨ في هذه المقالة يخاطب هرزن الاسكندر الثاني بهذه لكلمات. «لقد انتصرت أيها الجليلي. ومن السهل علينا أن نقول ذلك، طالما أن نضالنا ليس فيه عبث ولا مطلب شخصي إننا نحارب من أجل قضية، والشرف يكون لمن يربح القضية وتذهب المقالة الى القول أن الاسكندر الثاني منذ أن ظهر نفسه لشعب على أنه مدافع عن تحرير الفلاحين، فان اسمه يدخل في سجل التاريخ، ولن ينسى الأجيال القادمة هذه الخطوة كان الاسكندر الثاني في رأي هرزن وريثاً لنيقولا حتى ١٤ كانون الأول وينهي المقالة بالكلمات ذاتها التي ابتدأت بها «**لقد انتصرت أيها الجليلي**»

من الأنسب أن نذكر هنا قصية توقيع أوغاريف فحتى العدد رقم ٩ من لكولوكول وقع مقالاته بحرفي ر ش، ولكن في العدد رقم ٩ أعلن أنه شعر بالألم لاخفاء اسمه عن الاسكندر الثاني تحت اسم مستعار ولذلك قرر أن يوقع مقالاته باسمه الصريح الكامل* لقد تأثر كثيراً ولكن ليس كثيراً جداً

---

* كان ذلك في شباط ١٨٥٨ وفي نيسان ١٨٥٩ رد أوغاريف على دعوة الحكومة بالعودة الى روسيا برسالة الى الأمبراطور «سوف أعود الى روسيا عندما تحكمها ارادتك المتحررة لا طغيان المصلحة الذاتية والظالمون والمتملقون الذين يحجبون عنك الحقيقة والحياة الفعلية للشعب

لم يشارك الجميع بهذا الانفعال. ولكن يبدو أن كثيرين شاركوا فيه، وأحد الذين شاركوا كان الساخر ن. غ تشيرنيشيفسكي كتب هذا فيما يتعلق بالخطوات ذاتها في البرنامج الجديد

« إن الافعال الرائعة لعصر بطرس الأكبر والشخصية الضخمة لبطرس نفسه تحير خيالنا، إن العظمة الأساسية لمأثرته لا شك فيها نحن لا نعرف الأحداث الخارجية التي سوف نشهدها في المستقبل. إلا أن سبب الْغاء القنانة وحده يبارك عصر ألاسكندر بأسمى مجد البركة التي وعد بها صانعو السلام والتيجان المتواضعة للاسكندر الثاني مع فرصة كبيرة للبداية وتنفيذ تحرير موضوعاته »*

وكرر هرزن مخاطباً الاسكندر الثاني الكلمات المنسوبة لجوليان المرتد، بينما اتخذ تشيرنيشيفسكي كعنوان فرعي لمقالته كلمات صاحب المزامير «أحببت الحقيقة وكرهت البهتان ولذلك اختارك الرب

إن رد فعل تشير نيشيفسكي على نجاح الاصلاح الفلاحي سرعان ما تغير وفي نهاية ١٨٥٨ بدأت **كولوكول** هرزن تحدث الضجيج الذي كان يختلف كل الاختلاف عن المراج البهيج الذي وضعناه. إننا نقرأ في رسالة لرئيس التحرر في العدد ٢٥ (١ تشرين الأول ١٨٥٨): « من العقم أن تؤمن بالاسكندر الثاني فمهما كانت الصعوبة في اضطرارك على قبول خطيئة امرىء، لا بد من ألاّ يكون طفلا، فلا وقت لمثل هذه الأشياء وقد ارفق المحررون بهذه الرسالة ملاحظة يشكرون فيها كاتب الرسالة. على أي حال في العدد ٦٠ في ١ كانون الثاني ١٨٦٠ وافق هرزن أنه يدخل عقداً جديداً وهو أقل أملاً من ذلك العقد الذي كان عصر انبعاث » لروسيا، وتوجه بنداء عاجل الى الأمبراطور

« انتبه أيها السيد العام الجديد من العقد الجديد قد قرع ناقوسه، انه عقد ربما يحمل اسمك، ولكنك لا تستطيع بيد واحدة وباليد ذاتها أن توقع اسمك ساطعاً واضحاً في سجلات التاريخ كمحرر للفلاحين، وتوقع أيضاً قرارات تافهة ضد حرية

---

* تشيرنيشيفسكي، المؤلفـات، بطرسبرج ١٩٠٦ المجلد ٤ ص ٥٤ وعنوت المقالة «حول الظروف الجديدة لحياة البلاد »

الكلام وضد الشباب والفتيان لقد فسدت، لقد أفسدت نفسك بيدك: هذا قناع الاحتفال وأولئك هم المهرجون. مرهم أن يرفعوا الأقنعة فتعرف من هم أصدقاء روسيا ومن لا يهتم الا بمصلحته الخاصة. والأهم هو أن أصدقاء روسيا يمكن أن يكونوا فيما بعد أصدقاءك أيضاً مر أن تنزع الأقنعة.. الخ

في العدد رقم ٩٥ المؤرخ في ١ نسان من السة التالية في مقالة بعنوان « البيان ثمة نداء جديد متعاطف مع الاسكندر الثاني، يحيي فيه المؤلف « المحرر « إن تحرير الفلاحين ابتدأ باعلان البيان. إن ما ينتظر سيادتكم ليس الراحة ولا النصر، بل الكفاح الدؤوب، ولا الراحة ولا الحرية تنتظران الشعب، بل ان ما ينتظره هو تجربة جديدة جديدة مرعبة. الخطوة الثانية، هيا، هيا

في آب ١٨٦٢ يناقش هرزن محاولا تبرير نفسه من اللوم الذي وجه إليه أنه قد فقد كل ايمان بالانقلابات العنيفة، قائلا إن المرء في روسيا يمكن أن يتوقع أي شيء من سلطة الدولة.

« السلطة الامبراطورية في روسيا هي سلطة فقط، أي إنها مؤسسة قوية، ليس لها أي مضمون، ولا تحمل أي التزامات، فمن الممكن أن تصبح خاناً تترياً أو لجنة فرنسية لانقاذ الجمهورية. ألم يكن بوغاتشيف الامبراطور بطرس الثاني؟ »* بالنظر إلى تلك الاحتمالات غير المحدودة، فان القادة الشعبيين التقدميين في روسيا يجب أن يبذلوا كل جهد لحض الحكومة على السير في الطريق القويم. « ولكن حتى تصبح القيصرية سلطة للشعب، لا بد أن تفهم أن الموجة التي تقف ضدها وتريد أن تتخلص منها هي في الحقيقة موجة بحرية، فلا يمكن وقفها أو نفيها إلى سيبيريا، ذلك أن المد تحول وأن القيصرية عاجلا أم آجلا سوف تختار بين ذمة دولة الشعب والرسوب في قاع البحر قدموا الاثباتات على هذا، وأصرخوا بها في وجه القيصرية ليلا نهاراً فلتقل القيصرية كلمتها - وبعد أن تجيب سوف تعرفون ماذا تقولون للشعب وما الأهداف التي تضعونها أمامه ».

---

* في رسالة من « رسائل الى مسافر » (الكولوكول العدد ٢٠٣) يقول هرزن أن السلطة الأمبراطورية في روسيا هي شيء خارجي تماماً. وهذا شاهد كامل على الغموض في آرائه السياسية، هذا الغموض الذي أشرت اليه من قبل.

إن اعتقاد هرزن بالسلطة الفائقة في روسيا التي تملك امكانات عملية لا تحد، هو التفسير الوُحيد لنداءاته المتتابعة لها حتى حول قضايا لا علاقة لها بالمسائل الاجتماعية والسياسية* في أيار ١٨٦٥ (الكولوكول ١٩٧) نشر رسالة مفتوحة إلى الاسكندر الثاني بمناسبة وفاة ولي العهد نيقولا قال:

« ثمة لحظات في حياة الانسان مخيفة وقورة: وفي لحظات كهذه يستفيق المرء من رتابة الحياة اليومية، ويرتفع بنفسه إلى ذروة سامقة، نافضاً عنه الغبار - وكأنها تجديد الصبا فالمؤمن من خلال الصلاة وغير المؤمن من خلال التأمل. تلك اللحظات نادرة. فارث لحال من يدعها تمر من غير أن يلاحظها، ومن غير أن تترك فيه أثراً وأنت في لحظة من هذه اللحظات، أيها السيد تأملها، تحت ثقل الضربة، وبهذا الجرح الطري في صدرك، قف ثم فكر، وحيداً من دون مجلس شيوخ أو أعيان، من دون وزراء ولا رؤساء دوائر، فكر في الطريق الذي يجب أن تقطعه، أين كنت وأين أنت ذاهب الآن ». تلك النداءات صارت أكثر ندرة. إن الاصلاح الفلاحي لم يجر أبداً كما رغب

---

* فرضية هذا العلوم الاجتماعيه الحديثة لا تقر بالاحتمالات المشار اليها إلا أن خطيئة هرزن تكررت أخيراً كما في بداية الثمانينات على يد ميخائيلوفسكي ويمكن ملاحظة ذلك في مقالة ن. ي نيكولادزي « الحرية لتشير بيشيفسكي » المنشورة في أيلول ١٩٠٦ في عدد بيلوي. وعدما أخبر نيكولادزي ميخائيلوفسكي أنه دهش لأن الرجال الذين مثلهم ليس لهم مطالب سياسية (في الحالة الموصوفة في المقالة) أي لم يطالبوا « دستور »، فأجاب الأخير « ان نوجه الحرب أقل غلواً، وهو مقتنع أن الأشكال السياسية لن تنتج تضامناً لقوة أصدقاء الشعب، بل للبرجوارية وحدها، التي تؤدي الى نكوص وليس الى تقدم » (صص ٢٥٥-٢٥٦). فادا كان « الاشتراكيون الروس قد عللوا هكذا في الثمانينات فهل يدهشنا ما كتبه هرزن في أواخر الخمسينات؟ لا شك أنه لم يكن أول اشتراكي باشد السلطة العليا إن اشتراكيي المرحلة الطوباوية، الذي كانوا ضعفاء في السياسة، غير مهتمين بأجهزتهم السياسية، كانوا شغوفين جداً بهذه النداءات. وقد جئت من قبل بسان سيمون كمثال. ولو اسقطنا كل الشواهد لجئت بأعظم شاهد وهو كتاب برودون الثورة الاجتماعية التي حدثت في انقلاب الثاني من أيلول، الدي كتب مباشرة بعد انقلاب أيلول، فهو محاولة لتحريض حكومة نابليون الثالث للسير في طريق الثورة الاجتماعية والفضل لهرزن الدي لم يسقط فريسة الأوهام عن هذه الحكومة. ومع دلك يمكن أن يفترض المرء أن هذه المحاولة لم تحدث كبير تأثير في تكتيك صحفينا المظيم. لقد قال برودون إن الأمر سيان بالنسبه الى الاشتراكيين فيمن يقوم بالثورة الاجتماعية: سلالة لويس - نابليون أم حفيد لويس - فيليب أو أي شخص آخر (انظر الطبعة الخامسة من الكتاب المشار اليه ص‌ص ١٢-١٣). وقد وافق هرزن على هدا الطرح للقصيه، وان لم يكن من غير تحفظ.

محررو **الكولوكول**. وفي حزيران ١٨٦١ أعلنوا أنهم لا يشاركون أبداً في هذا المجرى غير الطبيعي من الأحداث. وفي الوقت نفسه بدأ أوغاريف يلح على أن اصلاح ١٩ سباط لم يحرر الفلاحين بل خلق قناة جديدة. وفي الوقت نفسه عبر محررو **الكولوكول** عن مطالبهم بشكل جديد أكثر جذرية وقد صاغوها بكلمتين صارتا سكرران فيما بعد «الأرض والحرية انهم لم يعودوا يتقدمون بهذا الشعار الى الحكومة، بل إلى تلك الفئة من الناس الذين سموا أخيراً في هذه البلاد الانتلجنسيا الثورية، أي بدقة أكثر، **الرازنوشنتسي** المثقفين.

بصورة عامة تعاظمت بسرعة آمال هرزن وأوغاريف **بالرازنوشنتسي** المثقفين بمدر ما تقلصت آمالهم بالحكومة والنبلاء وقبل أن نتحدث عن هذا، لا بد أن نساول بمزيد من التفصيل الرأي الذي تبناه محررو **الكولوكول** عن تحرير الفلاحين مع الأرض والتغيرات التي طرأت على هذا الرأي تحت ضغط الأحداث.

١٥

سيذكر القارىء أن هرزن في رسالته الأولى الى الأمبراطور الاسكندر الثاني بعد أن يناقش ضرورة تحرير الفلاحين مع الأرض يضيف على الفور «الأمر يرجع إليهم على أي حال». لكن ذلك لا يعني أنه طالب باقرار حقهم في امتلاك الأرض من دون تعويض على أصحابها على العكس، ففي ١٨٥٦ في عدد **بوليارنايا ازفسدا** وفي المقالة المقتسة أعلاه «مسائل روسية» تحدث أوغاريف عن **التعويض** عن أرض الفلاح «يمكن أن يفكر المرء بأن يكافىء المالكين العقاريين عن طريق عمليات مصرفية أو رسائل أخرى، ولكن يجب أن تجعل المثقفين الجدد يعملون في هذه القضية». كان ذلك نوعاً من الناس الذين يجب البحث عنهم، وقد اعتقد أنهم موجودون بين طبقة الجنتلمانات (وهم دون النبلاء - المترجم). في العدد ١٤ من **الكولوكول** كان الذي نشر مقالة «المزيد عن تحرير الفلاحين» حيث قال إن «من الممكن تحرير الفلاحين مع الأرض من خلال التعويض فقط، إن لم تتأذ مصالح المالكين العقاريين».

وباستخدام مؤلفات كيبين وتنغوبورسكي قدم قائمة حساب هي التالي:

مجموع الأرض التي يملكها الملاكون العقاريون . .	١٠٦,٢٢٨,٥٢٠	دسياتين (مقياس روسي المترجم)
كمية الأرض غير الصالحة للزراعة . .	٢٥,١٩٠,٢٧٠	دسياتين
مجموع الأرض الصالحة للزراعة	٨١,٠٣٨,٢٥٠	دسياتين
عدد الأقنان المرهونين بحساب المؤسسات	٥,٩٤٥,٥٣٣	
عدد الأقنان المتحررين من الرهن	٥,١٢٤,٥٢٨	
المجموع	١١,٠٧٠,٠٦١	
مجموع الأرض العائدة للمالكين العقاريين ويستخدمها الفلاحون وهي صالحة للزراعة ولكنها مبنية	٣٣,٠٠٠,٠٠٠	دسياتين
مجموع الأرض العائدة للمالكين العقاريين والتي يستخدمونها هم والصالحة للزراعة	٤٨,٥٣٨,٢٥٠	دسياتين
الأرض غير الصالحة للزراعة	٢٥,١٩٠,٢٧٠	دسياتين

على أساس هذه القائمة استنتج أوغاريف أن ٣٣,٠٠٠,٠٠٠ دسياتين مع أولئك الذين يقطنونها يجب أن يعوض عنها ويجب على مجلس الوصاية مراقبة العملية. وحسب الحساب الجاري فان على هذا المجلس أن يدفع ٧٠ روبلاً فضياً بالقن الواحد في المقاطعة كضمان، وهكذا تصبح جميع أراضي المقاطعة مرهونة. وحسب مشروع أوغاريف، فان مجلس الوصاية يجب أن يدفع (٧٠) روبلاً فضياً بالقن «آخذاً في الحساب كمية الأرض التي يملكها الفلاحون في الحالة الراهنة، أي التي يعيشون فيها ويزرعونها بأنفسهم» وإذ لا يملك المجلس نقوداً فسوف يقدم للمالكين العقاريين إيصالات تدفع من قبله وتأخذ من الفلاحين ٧٠ روبلاً فضياً على الرأس فيما يزيد عن ٣٧ سنة، ويضع ٥٪ ديناً و ١٪ رأسمال على كل سنة. وهكذا فان عملية التعويض الكاملة سوف تنتهي في ٣٧ سنة. واذ يدفع المجلس ٧٠ روبلاً لـ ١١,٠٠٠,٠٠٠ قناً فان عليه أن يقدم إيصالات للمالكين العقاريين بمبلغ ٧٧٠,٠٠٠,٠٠٠ روبلاً فضياً.

لا شك أن مشروع أوغاريف هذا الذي استحسنه هرزن أثار معارضة هامة في **الكولوكول**. ففي العدد ١٨ نجد مقالة بعنوان « اعتراض على مقالة **الكولوكول** ». وقد كتب المؤلف المجهول(١٨٧): « حتى أنت يابروتوس و**الكولوكول** أيضاً تطالب أن يدفع الموجيك تعويضاً عن حقوقه الانسانية وشريط من الأرض رواه بعرقه ودمه هو وأجداده حتى أنت يابروتوس. ولكن أخبرنا بحق الله كيف، لماذا، من أجل أي سبب يجب أن يتحمل الفلاح عبء التعويض مهما كان ضئيلا؟ »

يتصدى المؤلف المجهول لفكرة التعويض بالقول إن روسيا لم تتعرض لغزو ولذلك ليس فيها إقطاعية ولو قيض لبوغدين أن يقرأ هذا العدد من **الكولوكول**، فلا بد أن يدهش لمثل هذا التطبيق الأصيل لفلسفته في التاريخ الروسي.

اعتقد المؤلف المجهول، وهو مصيب، أن على المرء في زمن التحرير الآتي للفلاحين أن يجعل انتقالهم الى الحرية أسهل.

إلا أن الضرائب المحصلة منهم بسبب تحررهم ستعوق هذا الانتقال ويجب الاعتراض عليها لهذا السبب بالذات. إلا أنه لم يعتد نفسه بهذه الحجة. لقد أشار الى أن التعويض، حسب مشروع أوغاريف، يجب أن يقسم على ٣٧ سنة. يتساءل: « في أي وضع سوف يبقى الفلاح طيلة هذه السنوات؟ هل يبقى مرتبطاً بالأرض حتى يدفع كل التعويضات؟ باختصار هل يكون حراً خلال ٣٧ سنة؟ ».

ولقد تحدى المؤلف مشروع أوغاريف بمشروعه الخاص.

لقد أقيم على النحو التالي: ثلث أرض كل قرية، بما فيها الغابات، يجب أن تعزز لتكون حرة لكوميون القرية. هذا القسم يجب ألا يتجاوز ثلاثة دسياتينات للمنزل الواحد وقد أكد المؤلف أن مثل هذه القسمة قليلة جداً ولكنه عزى نفسه وعزى القارىء بحجة أن الحجم المحدود من الحصة له فائدة نسبية. « فأولا يحرم المالك العقاري من أصغر جزء من أرضه، ثانياً أنه وان كان يقدم للفلاحين طعامهم وخبزهم اليومي يدفعهم الى البحث عن المزيد من وسائل الحياة عن طريق الأرض المستأجرة من المالك العقاري » هذه الحجة غير المتوقعة تبين أن المؤلف في حين يدافع عن مصالح الفلاحين ينضم هو الآخر الى مصالح المالكين العقاريين.

في الرد على الاعتراض المقدم هنا، يعلن أوغاريف أولاً أنه وافق من حيث المبدأ

أنه يجب أن تعزز أرض حرة من الضرائب وهذا مشروع نبيل، ومن الصعب ألا نوافق عليه. إن الإشْكال الوحيد هو أنه غير عملي.

« إن أغلبية المالكين العقاريين ليس فقط لا توافق على الحصة الحرة من الأرض، انه من الصعب ان يوافقوا على التعويض: إنهم لا يحبون فقط ملكية الأرَض بعمق، بل يحبون ملكية الأقنان حباً متأصلاً فيهم. إن القسم الأصغر سوف يوافق مباشرة على التعويض، ولكن فقط بصفة أفراد ربما على الحصة الحرة من الأرض ».

على أي حال لم تكن لدى أوغاريف رغبة في الدفاع عن مشروعه الخاص طالما أنه متنبه لنقائصه. إن الشيء الوحيد الذي ألح عليه فيه « هو فكرة التعويض على الفلاحين والأرض من خلال اجراء مالي. لقد تجذر في روسيا، وعلى هذا الأساس يتعاظم مستقبل الكوميون الفلاحي »*

لم تكن حجج أوغاريف لتقنع المؤلف المجهول. ففي عددي **الكولوكول** ٤٠-٤١ نشر اعتراَضاً جديداً على أوغاريف هنا وافق على أن يدفع المالكون العقاريون ٣٠٠,٠٠٠,٠٠٠ روبلا فضياً كتعويض عن الأرض « من غير تردد »، كما أن لروسيا، حسب قوله، الكثير من الضرورات الأخرى غير المرضية** إن محرري **الكولوكول** وقفوا بثبات الى جانب فكرة التعويض. وفي ملحق العدد ٤٤ نشروا مشروعاً جديداً لتحرير الفلاحين العائدين للمالكين العقاريين.

يتألف من قسمين. القسم الأول أشار الى ما يجب عمله، والثاني كيف يجب عمله.

القسم الأول في حد ذاته لم يكن بارزاً لذلك يجب أن نعيده بكامله هنا

١) صيانة الحيازة الكومونية للأرض وكل التكوين الكوميوني في تحرير فلاحي المالكين العقاريين.

٢) تحرير فلاحي المالكين العقاريين مع الأرض على أساس أنهم كوميونات وليس أفراداً أو عائلات.

٣) تنفيذ التحرير كاملاً ودفعة واحدة من دون أي مرحلة انتقالية.

---

* **الكولوكول** رقم ٣٨ ٥ آذار ١٨٥٩

** لا بد أن نلاحظ أنه وافق من قبل على دفع ٣٠ أو ٤٠ مليون روبل فضة لمساعدة المالكين العقاريين الصغار.

٤) تسليم الكوميون الذي يملك الكمية ذاتها من الأرض التي كان يسخدمها حتى لحظة التحرر

٥) تنفيذ التحرير في الوقت نفسه في كل روسيا

٦) جعل التحرير كاملاً، أي يجب أن يسقط التحرير جميع العلاقات القسرية بين الفلاح والمالك العقاري وجعل الفلاحين المتحررين يتمعون بشروط فلاحي الدولة

٧) صيانة كل من مصالح المالكين العقارين والفلاحين في تحرير الأخيرين.

٨) لتأمين الشروط السابقة يجب أن ينفذ التحرير من خلال التعويض فقط.

٩) يجب أن يدفع التعويض عن الأرض والأقنان.

من بندين الى ستة بنود من هذا المشروع تتضمن مطالب أكثر شمولاً من كل المشاريع الضخمة التي قدمها ممثلو المالكين العقاريين والحكومة. وهكذا فان تنفيذ البند الرابع سوف يغير مظهر الـ «أوتريزكي»[١٨٨]، التي أصبحت فيما بعد سيئة السمعة، ولو نفذت الفقرة السادسة فان الفلاحين المحررين سوف يتجرعون الكأس المرة من «السخرة الموقتة»... الخ. إلا أن الفقرات التالية من هذا المشروع تبين ان مصنفيها يهتمون أيضاً بمصالح المالكين العقاريين. بعد الفقرة السابقة بقيت واحدة لضرورة صيانة مصالح المالك والفلاح في تحرير الأخير، وتعلن الفقرة التالية أن مصالح الجانبين لا يمكن الحفاظ عليها الا بالتعويض. وتضيف الفقرة التاسعة أن التعويض ليس فقط عن الأرض وحدها بل الأقنان أيضاً، أي حق حيازة الملكية المعمدانية كما قال هرزن. هذا المطلب الأخير الهام فسره المشروع كالتالي:

«وإلا فان مصالح المالكين العقاريين سوف تتضرر جداً إن الحاجة الى تحرير الأقنان تجلت في الاقطاعات ذات الأراضي القليلة، في الاقطاعات الصناعية، أو تلك التي فيها كثير من الخدم».

ويبدأ القسم الثاني من المشروع بتكرار المطالبة بضرورة امتلاك الفلاحين المحررين لكل الأرض التي كانت تحت استخدامهم الفعلي (كنقيض للأوتريزكي). إن كل الفقرات اللاحقة تتضمن إشارات الى أن فكرة التعويض هي أهم طريقة دقيقة للتنفيذ إن مؤلفي المشروع يقترحون أن على الحكومة ان تشكل لجاناً لتقرير الضرائب في المقاطعات والأقاليم والعاصمة (اللجنة المركزية لتقدير الضرائب). كل هذه اللجان يجب أن «تدار من قبل لجنة عليا تشكل في الوقت المناسب. ومن المهم في تركيب

لجان المقاطعة والأقاليم أن المؤلفين يرغبون في أن يكون نصف اللجنة من الحكومة، والنصف الآخر ينتخب من النبلاء ولكن ليس ثمة أي كلمة عن الفلاحين. واسم هذه اللجان (اللجان التقديرية) تبين مهمتها تقدير ضريبة الأرض العائدة للحصص الفلاحية. وبانتهاء هذه المهمة تمنح اللجنة العلياء المالكين العقاريين قسائم بالكمية التي يحددها التقدير الأدنى، وهو ما يستحقه المالكون العقاريون لرهن إقطاعاتهم وحتى يسترد الفلاحون المحررون القسائم عليهم أن يدفعوا ضريبة سنوية خاصة. ومن النافل تماماً الآن أن نتناول هذا القسم من المشروع بمزيد من التفصيل. اكتفي فقط بالإشارة (وارجو أن يلاحظ القارىء ذلك) الى فقرة أخرى (الفقرة ١٠) التي تقول إن العبء المفروض على الفلاحين المحررين كضريبة سنوية لاسترداد القسائم «يمكن التخفيف منه حالاً بزيادة الضرائب على فلاحي الدولة والنقابات[١٨٩] التعاونية والأراضي تبقى في حوزة المالكين العقاريين».

١٦

في نشر هذا المشروع قدمت **الكولوكول** له هذه الملاحظة:

«نؤمن أن من الممكن والضروري جداً أن نقدم بصورة مختصرة ما هو حقيقي وعملي ولا جدال فيه في الأدب حول هذه المسألة».

لم يبد شيء في المشروع حقيقياً ولا خلاف فيه بالنسبة إليهم. وفي العدد التالي من **الكولوكول** إذ يحاول أوغاريف أن يعبر عن **تعاطفه مع المشروع**، بشكل عام، يرى من الضروري أن يقدم تحفظاً فيه:

لقد ذهب الى أن اللجان المؤلفة من قسمين: قسم من المالكين العقاريين وقسم من الموظفين سوف تقف ولا شك الى جانب المالك العقاري. والحق أن أوغاريف نفسه اعتقد أن «الشعب أقلّ من أن يستطيع أن يعبر عن فكرة، هي في طبيعة حسه وغريزته أو مشاعره، وليس في الفكر الواضح (انظر أعلاه). ورأى بشكل عام انه ليس صحيحاً فكرة أن المهمة الملقاة على عاتق لجان تقدير الضرائب كانت أبعد من فهم الفلاحين. يقول «سوف يرى الفلاحون الأمر جيداً» وحتى يصحح المقطع المشار اليه في المشروع، قدم هذه المطالب:

١) أن يكون تعيين لجان التقدير علنياً

٢) يجب أن يكون الذين تعينهم الحكومة من ذوي الثقافة الجامعية.

٣) إن « اعتراضات الكوميونات لها قوة قانونية ويجب أن تظهر في الصحافة، وأن أعضاء اللجان يجب أن يتحملوا مسؤولية شخصية إذا تجاهلوا الاعتراضات والآراء المقدمة من الكوميونات ».

وحتى ندرس النقاط المطروحة في القرار النهائي بعد اصدار قانون التحرير، اقترح إنشاء محاكم قضائية، يمثل فيها الطرفان بالتساوي. إنه أيضاً طالب باجراءات جرائية ضد الاشخاص الذين يعرقلون « القضاة الذين ليسوا من النبلاء

وهكذا، فإن محرري **الكولوكول** وقفوا بثبات عند فكرة تعويض الدولة. وقد دهشوا لميوعة الحكومة تجاه هذه الفكرة قالوا « اننا لا نستطيع أن نفهم خوف الحكومة من التعويض الاجباري. فمم تخاف؟ »*

بعض مراسلي **الكولوكول** ذهبوا الى أن التعويض الإجباري للأرض الذي يجب أن يمنح للفلاحين المحررين لن يكون مفيداً إلا للمالكين العقاريين. وردت هيئة التحرير التي يمثلها أوغاريف أنه، اذا كان الأمر هكذا « فإنه يكون أفضل: لأن الموجيك غير فكره، سوف يقدم هذه الفوائد للمالك العقاري ليتحرر منه فقط »**

إن المؤلف ذاته الذي كان ضد التعويض الاجباري، اعترض أيضاً على الحيازة الكوميونية للأرض. وقال أوغاريف رداً عليه متحدياً في عدد **الكولوكول** المشار اليه أعلاه، من جملة ما قال، أنه نظر الى الكوميون على أنه واقع، وليس على أنه مثال، و« هذا الواقع قادر أن يتطور تطوراً أصيلاً ويصبح، إن لم يجر التدخل فيه، أفضل، [من الغرب – ج ب]، طالما أنه أكثر ملاءمة لتنظيمنا الاجتماعي السلمي، مقرين أنه من حق أي إنسان أن يستخدم الأرض » إلخ.

هذه الملاحظة، التي مرت عرضاً، تقدم مادة جديدة وقيمة جداً لتوضيح آراء أوغاريف السياسية في ذلك الوقت، وكذلك آراء هرزن الهامة جداً بالنسبة إلينا لقد قلت آنفاً إن هرزن رأى في الصراع الطبقي على أنه أسوأ وسيلة لحل المسألة الاجتماعية، ولذلك فضل، بوعي تام، الطريقة السلمية للتطور على الطريقة الثورية. هذه الفكرة، التي شارك فيها أوغاريف بشكل واضح، تخطر على ذهن من يتحدث

---

* الكولوكول العدد ٥١

** انظر العددين ٥٧ – ٥٨ من الكولوكول

عن موقف هرزن من الحكومة في ذلك الوقت من جهة، وثوريي ذلك العصر، من جهة ثانية. ونحن نعرف أن نداءات هرزن المسمرة للأمبراطور لم تكن ترضي جميع أنصار حركة التحرر تلك النداءات بدأت مع الرمن تسبب تذمراً في حلقات التقدميين تعاظم حتى أصبح عالياً في العدد ٦٤ من **الكولوكول** (١ آذار ١٨٦٠) ظهرت رسالة من الأقاليم موقعة من «روسي»[١٩٠] تفتقد بشدة هرزن، الذي كان، حسب رأي كاتب الرسالة، يشوشه صوت المالكين/العقاريين اللبراليين»، وطفق يتحدث بحماسة عن ظواهر لا يمكن الحديث عنها إلا بحقد وذكر الكاتب هرزن، فيما يتعلق بآماله المبالغ فيها، «أن ما يعطى بسهولة يؤخذ بسهولة». وبالنتيجة يعلن بصورة مطلقة: «لا إن وضعنا مخيف لا يطاق، ولا تنقذنا سوى الفأس، ولا شيء يساعدنا غير الفأس

لم يوافق محررو **الكولوكول** على ذلك وقال هرزن رداً على «الروسي إنهم لن يدعوا الشعب حتى يمسك بالفأس طالما هناك أدنى أمل في النتيجة السلمية. وشرح فكرته كالتالي.

كلما أمعنا في تأمل العالم الغربي، وتعمقنا بجدية في الظواهر المحيطة بنا **تعاظم تحولنا الى الانتفاضات الدموية». ففي رأيه أن مثل هذه الانتفاضات ضرورية أحياناً** كنتيجة محتومة لأخطاء محتومة. إنها أحياناً انتقام أو حقد قبلي. مثل هذه القوى الأساسية مفقودة في روسيا وبهذا الصدد «فان موقفنا لن يبرعرع

لو قارنا تصريحات هرزن هذه ببرنامجه الرراعي المعتدل، لسلمنا أن من الضروري، في رأيه «أن تأخذ الأحداث مجرى غير طبيعي حتى يضعف أمله بحل سلمي لأعظم المسائل الاجتماعية الروسية القائمة. ولا يستطيع المرء أن يتحقق أيضاً أن محافظيها بذلوا كل ما في وسعهم لاضعافه. فمثلاً بعد موت روستوفتسيف، الشخصية الرئيسية في قضية تحرر الفلاحين، عين مكانه بانين مالك الأقنان السيء السمعة. فما ردة فعل هرزن على خيبة الأمل هذه؟ لقد جاء رده في مقطع في **الكولوكول** ١٥ آذار ١٨٦٠*

«إن الأخبار التي لا تصدق عن تعيين بانين مكان روستوفتسيف قد ثبتت. إن قائد أشد الأحراب المتوحشة رجعية قد أصبح قائد قضية تحرير الفلاحين. ما تعلمناه من هذا كان حريباً جداً ولكن ذلك لم يكن كافياً للحرن، لقد كانت أوقاتاً مرحومة.

---

* ولقد ظهرت باطار مثل ورقة النعي، وكان هذا أخطاراً بموت بعض آمال هرزن.

هذا تحدٍ، هذه إهانة، هذه مواجهة مقصودة للرأي العام وتنازل لحزب المزارعين. إن نغمة الحكم قد تغيرت، ومعها يجب أن تتغير كل العلاقات. إذا كان أعضاء لجان التحرير يعملون مخلصين لقضيتهم، إذا كانوا يتذكرون أن ذلك سوف يكون في التاريخ وراءهم، إذا رغبوا أن يعتذروا عن الجرائم البيروقراطية والتمسك الصبياني بالتأديب، فإن عليهم أن يستقيلوا في الحال. وعلى الأقلية من طبقة النبلاء أن تقترب وتمسك بقضية تحرير الفلاحين. ليس ثمة غلطة، فشخصية بانين الطويلة قد تستخدم قضيباً وضعت عليهم قبعة حتى يهرب الناس، ولكن من العسير جداً إخفاء ملامح نيقولا الثاني»..

يعتقد المرء، بقراءة هذه الأسطر الغاضبة أن روسيا أيضاً لم تكن متحررة تماماً من «القوى الأساسية» القادرة على تصعيد الصراع بين الاتجاهات الاجتماعية المتناحرة. ويمكن للمرء أن يصل إلى النتيجة ذاتها بقراءة مقالة «تشريع الدولة للصوصية»* في العدد ٧٦ من **الكولوكول** الموجهة ضد المشروع، الذي ظهر عندئذٍ في ميادين معينة، القاضي بدفع الفلاحين تعويضاً عن الأرض التي صَارت بحوزتهم. وقراء **الكولوكول** وصلوا إلى هذه النتيجة حقاً إلا أن محرريها أبوا التخلي كلياً عن آمالهم السابقة وحيوا بحرارة كل خطوة حكومية تنسجم، حسب رأيهم، مع آمالهم. من هذه الزاوية كانت المقالة الإفتتاحية «البيان» في العدد ٩٥ من **الكولوكول** (١ نيسان ١٨٦١) ذات أهمية خاصة.

قال هرزن فيها «**الخطوة الأولى قد اتخذت**، ويقال إنها أصعب الخطوات: فلننتظر **الخطوة الثانية** - بأمل، ونود انتظارها بثقة، ولكن كل شيء يتم بصورة متفككة وبفتور وبشكل أخرق...

لقد فعل الإسكندر الثاني الكثير، والكثير جداً، فحتى الآن يرتفع اسمه أعلى من

---

* لقد رأينا، حسب المشروع المنشور في العدد ٤٤، في **الكولوكول** (قسم ٢ فقرة ١٠)، ان «عبء مدفوعات تعويض الأرض المفروض على الفلاحين المحررين يمكن «التخفيف منه» بزيادة الضرائب على فلاحي الدولة. لم يعترض محررو **الكولوكول** على ذلك أبداً ولذلك يستنتج المرء أن فكرة التعويض عن أرض فلاحي الدولة أثارت سخطهم لأن تنفيذها سوف يقضي على إمكانية نقل جزء من «عب» فلاحي أسياد الأرض ووضعه على كاهل فلاحي الدولة.

كل أسلافه. لقد حارب من أجل الحقوق الإنسانية وصيانتها ضد حشود ضارية من العابثين المتهنين، ودحرهم. ولن ينسى الشعب الروسي ولا التاريخ العالمي ذلك. إننا نحييه من أقصى منفانا باسم قلما استخدم مع الأوتوقراطية من دون بسمة مريرة، إننا نحييه باعتباره **محرراً**

« إلا أن الويل قد يصيبه إن توقف، إن أسبل ذراعه المتعبة ».

وفي العدد الثاني من **الكولوكول** كتب أوغاريف بدوره: « اليوم نقول للاسكندر الثاني من أعماق قلوبنا مبارك الآتي باسم الحرية. وعندئذٍ عندئذٍ سوف نرى ماذا يحدث ».

سرعان ما استخلص صحفيانا اللندنيان « ماذا سوف يحدث ». في العدد ١٠١ من **الكولوكول** في ١٥ حزيران ١٨٦١ (بالضبط بعد شهرين من مقالة أوغاريف التي اقتبسنا منها في نهاية الفصل السابق) ظهرت مقالة للمؤلف ذاته بعنوان « تحليل القناة الجديدة المعلنة في ١٩ شباط ١٨٦١ في **قانون الأقنان السابقين** ». هدف هذه المقالة أن تثبت: ١) إن القناة القديمة استبدلت بالقناة الجديدة ٢) إن القناة، بشكل عام، لم تلغ ٣) إن الشعب... قد خدع

كتب أوغاريف « تحرير الفلاحين ضرورية تاريخيةز إلا أن الحكومة لم ترتفع إلى مستوى الأهمية، ولم تصبح قائدة، وهذا الخط من التطور سوف يستمر بغض النظر عن الحكومة وعلى الرغم منها إن الحركة الحية قد تخلصت من القبضة، وعلى الحكومة ألا تلوم إلا نفسها

ولذلك من المفهوم تماماً في العدد اللاحق مباشرة من **الكولوكول** (١ تموز ١٨٦١) أن مسألة « ماذا يريد الشعب؟ » تتلقى جواباً يتردد كشعار ثوري: إنه بسيط جداً - إن الشعب يريد الأرض والحرية. وقد دارت المناقشة أن الأرض تعود إلى الشعب لأنهم (أي الشعب - المترجم) « منذ زمن سحيق ملكوا الأرض **حقاً**، وسقوها **بعرقهم ودمهم حقاً**، بينما استخدم الموظفون **الحبر والورق** لينقلوا الأرض إلى المالكين العقاريين. والدولة

إن فكرة التعويض لم ترفض هنا يقول المؤلف أنه وإن كان المالكون العقاريون قد ملكوا الأرض بصورة خاطئة طيلة ٣٠٠ سنة، « فإن الشعب لا يريد أن يطردهم ».

وعندئذٍ تقدم بمشروع جديد للتعويض يقترح فيه دفع مليار روبل فضي* للمالكين العقاريين في مدة تزيد عن ٣٧ سنة. إن المؤلف يؤمن بإمكانية قبول هذه الفكرة شريطة أن يحتفظ الشعب بكل الأرض المحروثة التي عليها يعيشون »... الخ.

هذه المقالة نوع من المحاولة الجديدة **للكولوكول** لإقناع طبقة النبلاء بالحاجة التي ارتآها هرزن وأوغاريف حلاً صحيحاً للقضية الفلاحية. إن المقالة في العدد ١١٥ بعنوان « ماذا يريد المالكون العقاريون؟ يجب أن ينظر إليها أيضاً على أنها محاولة. وكان جواب المحررين على سؤال « ماذا يريد الفلاحون؟ » هو « الأرض والحرية »، وكان جوابهم على سؤال « ماذا يحتاج مالكو الفلاحين السابقون؟ » أنهم بحاجة إلى الحس العام والنقد

« إنهم يحتاجون إلى حس عام لا أن يجادلوا الشعب ويحاربوه، وإلا فإن الشعب سوف يكيل لهم والحكومة سوف تقمعهم. إنهم يحتاجون إلى المال بحيث يمكنهم، بحسهم العام، أن يعيشوا وأن يعملوا بمساعدة خارجية. ولا يزال الوقت أمامهم حتى يفكروا في ذلك وإلا فإن الوقت فيما بعد يكون متأخراً

المقالة التي اقتبست منها الآن لم تكن موقعة، ولكن لا حجة لدي للافتراض أن هرزن لم يوافق على مضمونها وهذا هو السبب في أني رأيت فيها، **من جملة ما رأيت**، تعبيراً عن رأيه في الأمور الجارية في ذلك الوقت. وبناء على ذلك يمكن أن أقول إن الفكر الصحفي لكاتبنا الكبير تراجع في كانون الأول ١٨٦١ إلى النقطة التي انطلق منها في عمله الدعائي في الخارج.

ناشدت كراسته الأولى التي نشرتها صحافته الحرة طبقة النبلاء: **عيد القديس جاورجيوس**، عيد **القديس جاورجيوس**. كان ذلك في حكم نيقولا الأول، عندما لم يكن هرزن يأمل أبداً بالنية الطيبة للحكومة. فيما بعد، في حكم الاسكندر الثاني، بدأ يناشد الحكومة، وليس النبلاء، محاولاً أن يثبت للحكومة أنها يجب ألا تخاف من طبقة النبلاء وعندئذٍ حل زمن فقد فيه إيمانه بالحكومة. ولذلك اتجه ثانية إلى طبقة النبلاء، محاولاً أن يقنعها أنها لا تحتاج إلا للمال والحس العام. بالطبع من السهل على طبقة النبلاء أن توافق معه على قضية المال. من السهل على هذه الطبقة أن توافق على

* أشار المشروع السابق الى مبلغ قدره ٧٧٠ مليون فقط.

هذه القضية مع أي شخص في أي وقت. إن من الصعب جداً الوصول إلى اتفاق معها حول قضية الحس العام. وكلما شعر هرزن أن الحس العام لطبقة النبلاء كان مختلفاً عن الحس العام للكولوكول، ارتد إلى «السيد» وناشد **الرازنوشنتسي**.

في كراسته: **عيد القديس جاورجيوس، عيد القديس جاورجيوس** تحدث هرزن عن الحرية السياسية كما لو أن التاريخ سوف يدفع الثمن للنبلاء للتخلي عن القنانة («إننا عبيد لأننا أسياد... إن تحررنا سوف يبدأ في عيد القديس جاورجيوس:). ويطرح هرزن، متوجهاً إلى طبقة النبلاء في بداية الستينات، مسألة الحرية السياسية من جديد. ولكن - وذلك هو الهام جداً - لا ينظر إليها من وجهة نظر طبقة النبلاء، من وجهة نظر الشعب (كل الطبقات). إن افتتاحية العدد ١٠٢ التي تشير إلى أن الشعب بحاجة إلى الأرض والحرية وأنه يمكن أن ينال الأرض بدفع مليار روبل، تتقدم بمطلب آخر:

«إن الضرائب والقروض يجب أن يحددها ويوزعها الجماهير على أنفسهم عن طريق ممثلين منتخبين... إن الرجال الموثوقين-من قبل الجماهير سوف يقفون إلى جانب الجماهير ولن يسمحوا بجباية الأموال من الشعب بلا عدل».

يتضح من هذا ومن تصريحات أخرى **للكولوكول** أن «السياسة» ظلت شيئاً «ثانوياً» بالنسبة إلى هيئة التحرير ولم يكن هرزن وأوغاريف يهرعان إلى تحليل المسائل السياسية. فبعد صياغة المطلب المشار إليه أعلاه في تموز ١٨٦١ فيما يتعلق بـ «تحديد الضرائب والفروض» من قبل ممثلي الشعب المنتخبين، كانت **الكولوكول** قد طرحت قبل سنتين، **هل تستطيع روسيا إقامة حكومة نيابية ومن العناصر التي تتمثل فيها؟*** وقد أجاب العدد ١٦٦ عن هذين السؤالين (٢٠ حزيران ١٨٦٣).

قيل في العددين إن روسيا قادرة على إقامة حكومة نيابية: «**إن الأوتوقراطية لا تستطيع أن تصمد طويلاً**، وليس ثمة مخرج آخر غير الحكومة النيابية. فبالنسبة إلى روسيا، كما بالنسبة إلى البشرية كلها، لا يمكن أن يكون ثمة مخرج آخر إلا أن مصالح الطبقات في رأي الكاتب (وهو أيضاً أوغاريف) لا يمكن أن تمثل في هذه

---

* انظر مقالة أوغاريف «الدستور ومجلس ريمسكي الكنسي» (توضيح بعض القضايا) في العدد ١٦٤ في حزيران ١٨٦٣.

البلاد «فمي روسيا يمكن أن تمثل مصالحِ الفولوست والمدينة والقبيلة والإقليم والمقاطعة **من دون الرجوع إلى الطبقة** ». وانطلاقاً من هذا الاعتقاد، رأى المؤلف في العدد ١٦٤ من الصروري أن يعارض الدستور بمجلس زيمسكي الكنسي.

يتابع موضحاً القضية: «يمكن أن يقدم الدستور على أنه دستور طبقي يمكن أن يقدم على أنه قانون كامل تتوجب طاعته

على العكس من ذلك فإن «مجلس زيمسكي، باعتباره مؤتمراً للنواب المنتخبين للريمستفو، قائم بالضرورة على انتخابات لا علاقة لها بالطبقات، ولم يقم لتنفيذ القوانين باعتبارها أمراً بل لحل قضايا الأرض الروسية وفقاً لاحتياجات الزيمستفو، لتشريع حقوق الملكية والإدارة المنتخبة والمحاكم القانونية، للتوزيع **المحلي وتقرير شكل الحكومة** ».

وهكذا فإن مجلس زيمسكي الكنسي، حسب رأي هيئة التحرير في **الكولوكول هو** جمعية تأسيسية أقيمت ليس فقط من أجل شرح الدستور الروسي بل، من جملة الأشياء، «من أجل تشريع قوانين الملكية». ولكن هل نتوقع أن يجعل الحس العام والحاجة إلى المال طبقة النبلاء تدعم هذه المطالب؟ من الصعب. إن الحس العام للنبلاء كطبقة سوف يضفي على العبارة الغامضة «**تشريع حقوق الملكية**» المعنى الدقيق لتحدي حقوق الطبقة النبيلة في امتلاك الأرض عن طريق ممثلي الفلاحين في مجلس الريمسكي الكنسي المقترح ولكن لا معنى لهذا التحدي حتى بالنسبة إلى اللبرالي م.انكوفسكي. ذلك هو سبب تدني شعبية **الكولوكول** بشدة بين طبقة النبلاء (والحلقات القريبة منها أيديولوجياً). فسر هرزن في رسالة إلى تورغنيف سبب تدني شعبية **الكولوكول** بحقيقة أن أوغاريف أصبح الشخصية الرئيسية. ولكن ما خطب هذا الأخير؟ من نافلة القول إن موهبته الأدبية كانت متخلفة جداً عن موهبة هرزن. ومع ذلك فإن مقالاته لم تكن إلى هذه الدرجة من السوء من الناحية الأدبية بحيث تنفر القراء بأسلوبها السمج وهكذا لا بد من البحث عن تفسير آخر، وليس من العسير ذلك.

إن موهبة هرزن الخطابية الفائقة جعلته تهديدياً لا يجارى لذلك في كل مرة يكال فيها الاتهام للبيروقراطية (وإني واثق أن القارىء يعرف أن مثل هذه المناسبات كانت

كثيرة في تلك الأيام) أو لذلك القسم من طبقة النبلاء الذي وقف بوقاحة إلى جانب امتيازاتها القديمة، كان هرزن هو الذي يمسك بالقلم. ولو استبدلت (جرياً على التقليد الأدبي المتبع) كلمة « قلم بكلمة « سوط »، لقلت إن وظيفة هرزن في **الكولوكول**، بموهبته العظيمة، كانت لكيل السياط. وقد تأكد هو نفسه من **كيل سياط** موهبته. فليس عبثاً أنه في بداية عمله الدعائي خارجاً، تحدى جميع العاصر المتخاذلة في المجتمع الروسي للقتال. إنه يعرف تماماً أنهم سيلتاعون من كيل سياطه. ولكن نظراً لانشغاله بكيل السياط فإنه لم يفرغ إلا قليلاً لوضع موجز عام للنقاط الأساسية في برنامجه. إن آخرين، وبالطبع في مقدمتهم معاونه الحميم أوغاريف، طوروا تلك النقاط بصورة مفصلة. واسمع أحياناً ما يقال إن أوغاريف كان ذا نظرة أعمق من هرزن في المسائل الاجتماعية والسياسية لعصره. لكن لا فقد كان هرزن أكثر موهبة من أوغاريف في كل المجالات. وعندما أولى اهتمامه لبعض المسائل النظرية أو العملية عالجها بعمق وليس فقط بألمعية. إن كل شيء مهما بلغت درجة عمقه وجدته في النظرية الاجتماعية - السياسية التي ورثها النارودنيك عن هيئة تحرير **الكولوكول** كانت تعود إلى هرزن وليس إلى أوغاريف. إلا أن المعتقدات الفردية لهذه النظرية طورها أوغاريف أكثر من هرزن الذي كان مشغولاً، كما قلت آنفاً، بكيل السياط. وأدى هذا إلى وهم بصري مزدوج أولاً اعتقد بعض الأشخاص أن أوغاريف كاتب أعمق من هرزن، ثانياً أولئك الذين لم يستحسنوا أن يسندوا لهرزن الآراء الاجتماعية لمحرري **الكولوكول** التي لم تعجبهم، عزوها بشكل عام لأوغاريف، الذي شرحها بالتفصيل فقط. هذا ما فعله تورغنيف الذي يعزو إلى أوغاريف سبب تدني شعبية **الكولوكول**. ثمة قول مأثور للفرنسيين: إن أولاد الآخرين هم الذين يفسدون أولادنا

الحقيقة كان ثمة توزيع للعمل بين هرزن وأوغاريف في ذلك الوقت، وليس خلافاً في الرأي. ولذلك أفضل أن أشير (وسوف أفعل ذلك في المستقبل) إلى أوغاريف في العمل المنسوب لهرزن. ومثل تلك الإشارات ضرورية لتفسير آراء الأخير.

١٨

في العدد ١٣٤ من **الكولوكول** (٢٢ أيار ١٨٦٤) نقرأ في مقالة « إلى أين ومن أين؟ »: « فلنلغ ضباط البوليس ومحاكم الدولة، ولكن لندع حصة الأسد من الأرض

لطبقة النبلاء وسوف ينبثق حكم المالكين العقاريين ومحاكمهم، حتى إذا كان الفلاحون يملكون حصة من الأرض ومتحررين من السخرة».

هذا الاقتراب من المشكلة، الذي حصر المهمة الأساسية لمجلس الزيمسكي الكنسي القادم في انقاص حجم ملكية المالكين العقاريين، لا يمكن إلا أن يناشد أولئك النبلاء الذين تخلوا نهائياً عن نظرة قطاعهم (والأفضل أن نقول في هذه الحالة عن نظرة طبقتهم، أي طبقة المالكين العقاريين) وتبنوا نظرة الفلاحين. وقد شعر محررو الكولوكول بهذا، فأيدوا أيضاً بلا قيد ولا شرط الحل الجذري للمسألة الزراعية. وظهرت في العدد ١٣١ مقالة هامة هي «صوتوا للشعب (رسائل مالك عقاري). الرسالة الأولى إن مؤلف هذه المقالة ينتمي ولا شك إلى أولئك المالكين العقاريين الذين ضموا قواهم أخيراً إلى الرازنوشنتسي التقدميين. لقد دافع عن تحويل الأراضي التي يملكونها إلى الشعب، وجعل الأرض التي بقيت في حوزة المالكين العقاريين تحرث من قبل المشاريع الزراعية. وانتهت المقالة بالكلمات التالية: «أما بالنسبة إليّ فسوف أدفع عملي نحو الأمام لأثبت أي قوة عظيمة تكمن في المشروع الزراعي. وكلمتي الأخيرة هي: من أجل الشعب ومع الشعب».

هذه المقالة التي كتبها مالك عقاري نارودنيكي لاقت قبولاً حسناً من محرري الكولوكول ممثلين بأوغاريف، فمن جانبهم جعلوها توضح أنهم الآن يعلنون تلك التنازلات التي قدموها يوماً ما لطبقة النبلاء من أجل التطور السلمي. وعلل أوغاريف على النحو التالي:

«إذا دفع التعويض للمالكين العقاريين خارج ضرائب الزيمفستو لقاء تسليم الأرض للفلاحين، وإذا سلمت كل الأرض للفلاحين في المقاطعات العقارية، حيث لا يزرع المالك أي أرض، عندئذٍ يجب ألا تترك أي أرض في مقاطعات السخرة أيضاً. إنهم يتلقون تعويضاً، فماذا يريدون أكثر من ذلك؟ إذا أرادوا حصة في الأرض الجماعية، على أساس ضرائبي، مساواة مع الفلاحين، فليقيموا في الكوميون كفلاحين بسطاء مثل الباقين. وليملك الكوميون كل الأرض، وليبق المالك العقاري مشاركاً مثل أي انسان آخر في الكوميون. عندئذٍ فقط يصبح فلاحو المالكين العقاريين السابقين متساوين مع فلاحي الدولة، وستكون هناك طبقة فلاحين موحدة وأرض فلاحية موحدة».

يمكن أن يقول المرء، بلا مبالغة على الأقل، إن أوغاريف يعبر هنا عن فكرة

« إعادة التوزيع الأسود » التي عبر عنها أخيراً الأدب الثوري في بداية الثمانينات والتي كانت إلى حد ما فكرة الشعب ومن نافلة القول إن فكرة الشعب هذه (وبكلمة أكثر دقة: فكرة الفلاحين) لا تتوافق والحس العام السائد تقريباً في المالكين العقاريين مهما كان أمر قطاعهم الليبرالي المتنور لم يكن تورغنيف رجعياً أبداً، إلا أن البرنامج الجديد للكولوكول أثار سخطه العميق.

شرح في إحدى رسائله: « إن عدم اتفاقنا المبدئي مع هرزن وأوغاريف هو بالضبط أنهما يفترضان اتجاهات ثورية أو إصلاحية في الشعب، بينما يزوران ويمرغان في الوحل الطبقة المثقفة في روسيا، والحقيقة أنه العكس تماماً إن الثورة بالمعنى الأصلي للكلمة (ويمكن أن أضيف: بالمعنى الواسع للكلمة) توجد فقط في الأقلية من الطبقة المثقفة، وهذا كاف لانتصارها، شريطة ألا نقضي على أنفسنا »*

هنا تختلط الأخطاء بالحقيقة بطريقة تعليمية. إننا نعرف جيداً أن هرزن وأوغاريف لم يكونا قط ميالين إلى ازدراء النبلاء المثقفين، فكم بالأحرى تمريغهم في الوحل. فلنتذكر الخطاب الذي ألقاه هرزن في اللقاء الدولي ٢٧ شباط ١٨٥٤(١٩١) في ذكرى ثورة شباط. في هذا الخطاب يسمي الطبقة النبيلة الفتية أحد « جنيني » المستقبل للحركة الروسية. ولنتذكر أيضاً أن أوغاريف نصح الحكومة أن تدعو إلى مساعدتها في قضية تحرير الفلاحين، التي كانت قد ابتدأت في تلك الأيام، « ذلك القطاع من الطبقة النبيلة المتوسطة التي تلقت من جهة ثقافة في أرقى المؤسسات واعتادت على التفكير، وعاشت من جهة أخرى في البلاد وعرفت الشعب واحتياجاته ». لقد كان تورغنيف مخطئاً جداً في لصق تهمة ازدراء الطبقة المثقفة بهرزن وأوغاريف.

ولكنه كان محقاً تماماً في الوقت نفسه، من وجهة نظره. إن « الطبقة المثقفة » لا تعجز عن اكتشاف موقف الازدراء تجاهها في برنامج هرزن وأوغاريف الجديد. فما جوهر القضية؟

ربما يتذكر القارىء الكوميديا الفرنسية التي يقول فيها الأب وقد قرأ مسودة عقد زواج معد لابنته: « ولكن كل هذا يدور حول موتي ». وهذا ما قالته « الطبقة

---

* رسائل كافلين وتورغنيف الى هرزن (وآخرين - ج. ب).

المثقفة عندما اطلعت بذاتها على البرنامج الجديد **للكولوكول**: إنه في الحقيقة يدور حول موتها إن من يريد موت هذه الطبقة لا يكن لها أي احترام أيضاً ولقد فهم تورغنيف ذلك جيداً إن برنامج هرزن وأوغاريف الجديد يمكن أن يقبله فقط ممثلو الطبقة المثقفة المستعدين للتخلي عن جميع امتيازاتهم الطبقية. وتورغنيف المنتمي إلى القسم الأكثر تأثيراً والأكثر عدداً منها لم يكن راغباً في التخلي عن تلك الامتيازات. إن رجالاً أمثاله استحسنوا هرزن وأوغاريف طالما أنهما حصرا نفسهما في الهجوم على الطبقة النبيلة **كطبقة**، وكانت **القنانة** في ذلك الزمن امتيازاً من جملة امتيازاتها ولكنهم سرعان ما تشوشوا حالما رأوا هرزن وأوغاريف قد طفقا يهاجمان الامتياز **الطبقي** للنبلاء، أي حقهم في ملكية الأرض. إن الخلاف هنا محتوم، وليس سببه حقيقة أن أوغاريف قد ابتدأ يستولي على **الكولوكول**، بل حقيقة أنه، مثل هرزن تماماً، اشتراكي **لا يمكن إصلاحه** (إذا أخذنا «الاشتراكية» بمعناها الطوباوي) بينما الذين هللوا **للكولوكول** في السنوات الأولى لقيامها كانوا ليبراليين بصورة رئيسية.

ويجب أن نضيف إلى هذا حماسة هرزن وأوغاريف للحركة البولونية التي كانت تتعاظم عندئذٍ وحول هذه المسألة أيضاً، لا يعجز اللبراليون عن رفض «الاشتراكيين غير الصالحين». إن تدني شعبية **الكولوكول** آلم هرزن ولا شك. وأسباب ذلك لم تكن واضحة لديه.

في العدد ١٣٥ من الكولوكول (١ حزيران ١٨٦٢) نشر مقطعاً تحت العنوان الرئيسي (موسكو لا تؤيدنا) مع عبارة ساخرة «الوداع يا موسكو، يا مسقط رأسي» هنا يقول حقاً الوداع لموسكو. ولكن تركه يبين كم كان العنصر الطوباوي قوياً في اعتباره الطبقة النبيلة «جنيناً للاشتراكية الروسية.

يبدأ المقطع بمقتطف من رسالة تسلمها محررو **الكولوكول** من مراسلهم في موسكو كتب المراسل «**موسكو لا تتعاطف معكم**، على العكس، فجميعنا هنا، مهما كان الحزب الذي ننتمي إليه، رجال تاريخ ولا نستطيع هضم الرادبكالية. ولا تعتقدن أنني أتحدث عن حلقة واحدة. لا إنني أتحدث عن الجميع، باستثناء قطاع صغير من الفتيان الشباب إن حكمة معتقداتكم، وجدوى معظم المعلومات التي تقدمونها محترمة عندنا، ولا يجري الحديث عنكم هنا إلا بالاحترام. والحب، إلا أن التعاطف لا يتجاوز ذلك».

يجيب هرزن على هذا التقرير بسلسلة من السخريات المريرة التي تخاطب موسكو ولكن السخريات المريرة ليست إلا لتغطية خيبة أمله التي انفجرت في خطاب أليم مرير

كم جرى من تغير منذ الثلاثينات والأربعينات.. منذ تلك الأيام عندما بدأ بيلنسكي يمارس نشاطه الأدبي، وبدأ غرانوفسكي دورته...

«كل ما تطور وأصبح واضحاً فيما بعد، كل ما هو الآن مركز تجمع الآراء والشخصيات - كل هذا ولد في ليل موسكو البهيم، على ضوء شمعة طالب فقير، في غرفة في الطابق الثالث، وفي جدال ودي بين الفتيان والبالغين. خروجاً من ضباب الرغبات الغامض، خروجاً من الألم والأمل اللذين ظهرا، رويداً رويداً، مثل عيني ذئب، مثل نقطتين من ضوء، اتسع ضوءا القاطرة حجماً بنور ساطع، وألقيا شعاعيهما، الواحد على السكة وراء القاطرة، والآخر على السكة أمام القاطرة. لقد كانت موسكو بؤرة المبادرة الفكرية في ذلك الوقت، فطرحت كل المسائل الحيوية، وقد استنفدت كل المسرات، فكراً وقلباً، وكل الوجود من أجل حلها وقد تطور بيلنسكي وخومياكوف في موسكو في موسكو أصبحت كرسي غرانوفسكي منبر الاحتجاج الاجتماعي».

لا شك أن موسكو في بداية الستينات تغيرت جداً بالمقارنة مع الأيام التي كان فيها هرزن طالباً في جامعته أو عندما فتح معركة، في عودته من المنفى، مع خومياكوف على أمسيات بيلاغينا ولكن لم تكن ثمة مرحلة في حياة موسكو عندما رأى مجتمعها المزعوم قضايا الحياة الروسية من خلال عيون الحلقات الجامعية. وكان من الطبيعي تماماً أن هذا المجتمع في أوائل الستينات اختلف على أشد الكتاب التقدميين المعاصرين في تقييم الاصلاح الحالي والحركة البولونية. وشرح هذا الفرق بحقيقة أن طريقة المجتمع قد تغيرت يعني أن لدينا مفهوماً خاطئاً عن طريقته في الثلاثينات والأربعينات. إن أسطر هرزن المقتبسة أعلاه تثبت هذا المفهوم الخاطىء ويمكن أن يأخذ المرء انطباعاً مما قيل في تلك الأسطر أن موسكو النبلاء، موسكو الأيام القديمة، قد تخلت عن مصالحها الاقتصادية الأساسية وهي مستعدة ربما أن تتبع بيلنسكي، في حين أنها تغيرت في بداية الستينات بحيث أنها تذكرت تلك المصالح ولذلك رفضت أن تؤيد مطالب **الكولوكول**

الزراعية الجديدة. والحقيقة أن « موسكو » (بالطبع ليس موسكو وحدها) لم ترغب في تأييد تلك المطالب بسبب أن تحقيقها سوف يعني القضاء على الملكية الضخمة للأرض.

كان هرزن وأوغاريف يأملان أن الأقلية المثقفة للطبقة النبيلة سوف تأخذ على عاتقها القيام بالاصلاحات الضرورية لتطوير الكوميون الفلاحي في طريق اشتراكي لقد اعتقدا أنهم، نظراً لكونهم مثقفين، سوف يتجاوزون مصالحهم الطبقية والذي جرى في الواقع أن بضعة أفراد فقط كان في مقدورهم تجاوز تلك المصالح. أما بقية النبلاء فاما أنهم وقفوا إلى جانب امتيازاتهم **الطبقية**، أو في أحسن الأحوال تخلت العناصر الأكثر تقدمية منهم عن تلك الامتيازات ولكنهم لم يتخلوا عن المصالح الاقتصادية **كطبقة**، أي أن يضحوا بحقوقهم كمالكين عقاريين. إن هذا بالطبع متوقع. وسوف أقول أكثر من ذلك. فانطلاقاً من النظرية إلى الممارسة، أي من تقديم مخططهما من أجل التطور الاجتماعي القادم لروسيا إلى الدفاع عن تحرير الفلاحين مع الأرض، سرعان ما شعر هرزن وأوغاريف على الفور أنه في التوجه إلى طبقة النبلاء، يجب على المرء أن يحافظ على مصالح النبلاء كمالكين عقاريين مهما كان الأمر وهذا هو السبب في أنهما دافعا عن **التعويض** (وهو تعويض، كما رأينا، ليس مجرداً من الربح للطبقة النبيلة) عن الأراضي التي في حوزة الفلاحين ولكنهما في الوقت نفسه تابعا الايمان بالأقلية المثقفة من النبلاء وكلما اتضح ان طبقة النبلاء أعجز من أن تضحي بمصالحها من أجل حركة التحرير، ازداد انفضاض محرري **الكولوكول** عنها، وازدادوا نقداً لها للمفارقة بين سلوكها وتلك الآمال التي عليها علقوا مماثلة روسيا للغرب وحلمهم باشتراكية روسية مزدهرة. يبدو هذا متنافراً جداً ولكننا غالباً ما نواجه مثل هذه التناحرات في تاريخ الاشتراكية الطوباوية. إن الاشتراكيين الطوباويين عامة توقعوا وطالبوا الطبقات المالكة بأكثر مما تستطيع تقديمه، وبهذه الطريقة جروا على أنفسهم كثيراً من خيبات الأمل. تلك بالطبع نتيجة المثل العليا المفرطة وليس نتيجة ازدراء الطبقات المالكة.

١٩

كتب أوغاريف في أيار ١٨٦٢ « ذلك القسم من طبقة النبلاء الذي يقف إلى

جانب الشعب يجب أن يتحد مع بعضه متماسكاً، ومع الفلاحين » *

هنا لا يزال المؤلف يخاطب طبقة النبلاء ولكنه بعمله هذا يبدو أنه يستسلم للعادة القديمة المتأصلة. في اعلانه هذا يجب على طبقة النبلاء أن تتساوى مع الفلاحين الآخرين إذا أرادت أن يكون لها نصيبها في أرض الكوميون ** ، وبالطبع لا يؤمن أوغاريف أن هناك الكثير من المؤيدين بين النبلاء لمثل هذا البرنامج الزراعي. وقد رأت هيئة **الكولوكول** بوضوح أنه حتى عندئذٍ كانت الأغلبية العظمى من القراء ليست إلى جانبها في عدد ١ كانون الأول ١٨٦٤ رد هرزن على مسألة ما إذا كان له مؤيدون في روسيا كالتالي:

« **لا ليس كثيراً**، فكما نعرف عملياً أنه ما دام الضعيف والمتذبذب والجبان والرعديد قد انفضوا - بعضهم خوفاً وبعضهم غباءً ، فان الباقين غير معروفين طالما أنهم يلزمون الصمت تحت المراقبة الثلاثية البوليس العلني ، والبوليس السري ، والبوليس الأدبي ».

ولكنه ما كان يأبه بالعدد القليل من أنصاره - إنه مؤمن بقوة الفكرة. كتب:

« ما نحتاج إليه هو الايمان العظيم والتكريس العظيم **والحقيقة** الكبرى ، وبعدها يأتي العدد. إن هذا ليس تطويعاً ولا ضريبة على الرأس. كان المسيحيون قليلي العدد فنموا في الكهوف ، وفي مغاور الأرض شكلوا كوميونات من **مجانين مقدسين** لم يستطع غزوها لا البربرية الوحشية ولا الحضارة الباذخة ».

وبكلمات أخرى يمكن التعبير عن ذلك كما يلي: « وان كنا الآن قلة فإن جمعياتنا سوف تزداد فيما بعد ». والسؤال هو إلى أي محيط اجتماعي ، في رأي هيئة **الكولوكول**، يجب أن تتقدم جمعياتهم الكثيرة.

لقد كان الأمل بـ « النبلاء الشباب » كبيراً إلى حد بعيد الفلاحون في مخطط هرزن وأوغاريف كانوا موضوع التأثير التنويري للأقلية المثقفة. وما تبقى فهو نداء إلى **الرازنوشنتسي**.

---

* كولوكول ١٣٤

** هذا المقطع من مقالته التي اقتبسنا منها أعلاه.

في تشرين أول ١٨٦٤ يتحدث أوغاريف مطولاً عن الرازنوشنتسي في رسالته « إلى واحد من كثيرين ».

« إنهم ينتمون إما إلى الأقلية من النبلاء التي دانت طبقتها أو إلى الرازنوشنتسي الذين لم يدخلوا الخدمة المدنية أو ظلوا خداماً مدنيين على مضض. إنهم لا يستطيعون التقدم في أي طريق آخر إلا بالتجمع في مشروعات، ليس في النظرية بل في الحياة الواقعية، وبالبحث عن دعم ليس للمدن بل للشعب الذي منحهم [؟ - ج. ب] عنصر الريمستفو كأساس في كل مكان حيوي فعال ».

نرى هنا أن هيئة الكولوكول الآن لا تناشد فقط القطاع الصغير من النبلاء القادر على التخلي عن المصلحة الطبقية. إنها تلجأ إلى التعليل بأن البروليتاريا المعاصرة مستعدة لضم هذا القطاع من النبلاء إلى صفوفها ولكن إذا كان الممثلون النظريون للبروليتاريا الواعية المعاصرة يضطرون إلى احصاء تلك الطبقات أو الفئات التي يمكن أن ينضم أفرادها إلى جانب العمال، فسوف يضعون طبقة النبلاء في آخر القائمة، بينما عندما يتحدث أوغاريف عن العناصر المكونة للرازنوشنتسي، يشير أولاً إلى الأقلية النبيلة. وهذا ما يفسره إلى درجة بعيدة حقيقة أنه في روسيا في ذلك الوقت تخلى الكثير من النبلاء عن الموقف الطبقي أكثر من أي قطر رأسمالي حديث. وإلى جانب ذلك لا بد من أن يعترف المرء ثانية بالعادة القديمة المتأصلة في الذكريات القديمة العزيزة.

قلت في حديثي عن سني الدراسة عند هرزن ان الحلقات التقدمية في ذلك الوقت تألفت بصورة رئيسية من النبلاء الشباب. وجئت بشهادة منه على أن طلاب المعاهد كانوا من العناصر المتخلفة في الهيئة التعليمية. والحقيقة أن ذلك الزمن أنتج رازنوشنتسي من أمثال بيلنسكي. إلا أن بيلنسكي كان استثناء للقاعدة العامة. كان مظهره يشير إلى ما سيأتي بعده لا قبله. والملاحظ أنه في المرحلة الأولى من نشاطه الأدبي كان بيلنسكي قليل الثقة بالرازنوشنتسي. وفي مقالته الشهيرة « أحلام أدبية » يشير إليهم بهذه الكلمات:

« هذه الطبقات خيبت آمال بطرس الأكبر: فبعد أن سعوا وكدوا لتحصيل ثقافتهم، وجهوا ذكاءهم الروسي وحذاقتهم لأشياء سيئة، شارحين القوانين بحسب

رغبتهم، وتعلموا كيفية الانحناء وتقبيل أيدي السيدات ولا ينسون كيف يفذون بأيديهم النبيلة أعمالاً غير نبيلة »*

هذا التعصب ضد **الرازنوشنتسي** يرجع إلى دورهم السابق كممثلين للروتين الوظيفي في تاريخ تطور « الروح المدنية » الروسية. وقد لفظ هذا الدور في الستينات عندما ظهر ممثلو هذه الفئة التقدميون على رأس حركة التحرير ولكن حتى وقتئذٍ لم يلفظ دفعة واحدة، وهذا هو السبب في أن هيئة **الكولوكول**، حتى عندما يخاطبون **الرازنوشنتسي** يرون فيهم أولاً وقبل كل شيء نبلاء شباباً تخلوا عن طبقتهم « النبيلة ».

إن أوغاريف يعزو **للرازنوشنتسي** « دور القوة الفكرية، وبالتالي القوة المحركة في الدولة »** وهذا، كما ترى، هو الدور نفسه الذي عزاه هرزن من قبل « للنبلاء الشباب ». ففي رأيهم وقتئذٍ أن الطالب الفتى لا يزال يلعب دوراً هاماً ومن قبل، عندما كان هرزن يؤمن بالحكومة، نظر إلى الأيديولوجيين الشباب والمثقفين على أنهم أعظم القائمين بالاصلاحات من الأعلى. وقد قالت هيئة **الكولوكول** ذلك، من خلال أوغاريف، على غير وجه صواب. إلا أن ايمان هرزن وأوغاريف الآن في الحكومة قد تلاشى، فتوقعوا من الأيديولوجيين المثقفين أن يأخذوا زمام المبادرة. وهكذا فان الطلبة الشباب يمكن أن يلعبوا دوراً كبيراً في نظرهم. فلا عجب إذا كتب هرزن مقالة عن « الاضطراب » الطلابي في العدد ١١٠ من **الكولوكول** « المارد يستيقظ ». ومن المعقول جداً أن تكون نصيحته لـ « الاضطراب » هي التوجه إلى الشعب.

« مع الشعب، إلى الشعب. ذلك هو مكانكم وملاذكم من التعليم. وانظروا ذلك أنكم لن تصبحوا **موظفين صغاراً**، بل محاربين... من بين الشعب الروسي ».

وتنصح **الكولوكول** في الوقت نفسه (في العدد ١٠٥) بإنشاء مطابع سرية. باختصار نجد في **الكولوكول** آنئذٍ كل التعليمات العملية التي قدمتها الصحافة النارودنية (الثورية) في السبعينات للطلبة الشباب.

---

* المؤلفات، مجلد ١ طبعة بافلنكوف بطرسبرج ١٨٩٦ ص ٢٣

** الكولوكول العدد ١٩٠.

في آذار ١٨٦٣ بعد أن أعلنت **الكولوكول** عن ظهور جمعية الأرض والحرية[١٩٢] في روسيا، أضافت:

« الأرض والحرية. هاتان كلمتان عزيزتان علينا، وبهاتين الكلمتين خرجنا في الماضي في ليلة شاتية من حكم نيقولا، وبها دخلنا عتبة العصر الحالي. « الأرض والحرية » أساس كل مقالاتنا « الأرض والحرية » كلمتان كتبتا على رايتنا في الخارج وعلى كل نشرة ظهرت من صحافتنا في لندن » **وللكولوكول** الحق كل الحق في أن تكتب هذا في الحقيقة كان شعار « الأرض والحرية » أساس كل مقالاتها وبما أن الأمر هكذا يجب الإقرار أن هرزن وأوغاريف هما أبوا الحركة النارودنية الروسية. ومن جهة أخرى، ولهذا السبب قطعا الصلة مع العناصر الليبرالية في المجتمع الروسي التي هللت **للبوليارنايا أزفسدا والكولوكول**. وقد قلت من قبل أن هرزن، على الرغم من رأي تورغنيف، كان من النارودنيك مثلما كان أوغاريف واليوم لا يكتب، مثلاً، هذه الأسطر إلا من كان ذا نظرة سطحية عن هرزن: « الحقيقة أن أهمية أوغاريف المتعاظمة كقائد في **الكولوكول** (مع أن تصريحاته في روح الاشتراكية الكوميونية لم تصل إلى الشعب) أدهشت بعض مؤيدي **الكولوكول** »* إن هؤلاء المؤيدين دهشوا لسبب بسيط بات معروفاً الآن وهو أنهم، أي أن هؤلاء المؤيدين كافحوا لإلغاء القنانة وتقديم إصلاحات « إدارية » و« دينية » (فلنتذكر رسالة كافلين) بينما رأى هرزن في إلغاء القنانة كخطوة أولى فقط للاشتراكية.

وقيل إن باكونين، الذي ظهر في لندن في بداية ١٨٦٢، أسهم كثيراً في كثير من التغيرات في **الكولوكول**. وتلك من قبل في ١٨٦١ أصبحت ملاحظات نارودنية صارمة موضع اعتبار في مقالات **الكولوكول**. والحقيقة أن هرزن يقص أن باكونين عقب قدومه إلى لندن، بدأ على الفور بـ « **تثوير الكولوكول** »* ولكن ماذا يريد من هذا الاعلان؟

« لم تكن الدعاية **كافية**، لا بد من وجود ملحق، وعلى المرء أن يعمل بلا كلل على تنظيم مراكز ولجان، فليس كافياً أن يكون لديك رجال قريبون منك أو بعيدون

---

* انظر كتاب فيترنيسكي « هرزن » بطرسبرج ١٩٠٨ ص ٣٦٣

** التشديد له

عنك، إن على المرء أن يكون لديه أخوة يتمتعون بالمبادرة أو شبه المبادرة، أي منظمة اقليمية: منظمة سلافية، منظمة بولونية، إنّ «ب» وجدنا معتدلين، عاجزين عن استغلال الوضع في تلك اللحظة، غير قادرين على اتخاذ اجراءات حاسمة»*

يتضح من شهادة هرزن هذه، أولاً أن الخلاف بين باكونين وهيئة **الكولوكول** كان قضية تكتيك وليس قضية مبدأ، كما نقول في هذه الأيام. وتبين أيضاً أن باكونين هاجم كلاًّ من محرري **الكولوكول** على السواء ومن الممكن أن أوغاريف قدم تنازلات عملية أكثر من هرزن لباكونين، ويمكن أن تكون تنازلاته قد أحدثت تغيرات في سلوك هرزن أيضاً وأنا مستعد تماماً أن أقول أنه لا تنازلات قدمت لباكونين. ولكن مهما كانت الأخطاء الناجمة من التنازلات غير الضرورية، فإنها كانت محدودة في الميدان العملي ولا تؤثر على مجمل آراء هرزن النظرية. من المعروف أنه في ١٥ حزيران ١٨٦٢ بدأ ملحق **للكولوكول** يظهر تحت اسم **أوبشي فيشي**[١٩٣]، موجه إلى المنشقين. بعضهم اعتبر هذا «المشروع»، مثلاً، من التأثير الخطير لباكونين على محرري **الكولوكول**. يقول السيد فيترينسكي:

«ليس فقط فكرة أن المؤمنين القدامى يمكن أن يكونوا بحد ذاتهم قوة ثورية، هي فكرة خاطئة هنا، إن وضع المحررين كان خاطئاً أيضاً بإخفاء المعتقدات اللادينية للمحررين، يعتقدان أن وضع الناس المؤمنين بالكتاب المقدس وبالأسطورة يشبه تماماً ما فعله من قبل انجلسون في كتاب **رؤى كوندراشيوس**، فنظرا إليهم على أنهم يؤيدون معتقداتها، سياسياً واجتماعياً»**

والأمر كذلك حقاً: بالتحدث بلغة المؤمنين، وضع المحرران نفسيهما في وضع زائف. والحقيقة أيضاً أن المؤمنين القدامى لا يمكن أن يكونوا قوة ثورية. إلا أن **رؤى كوندراتيوس** لانجلسون ظهرت في وقت كان فيه هرزن يكثف نشاطاته النشرية، ولا باكونين ولا حتى أوغاريف كانا في لندن. إن نشر الرؤى لا بد أن يعزى لهرزن نفسه. ومن السهل جداً تفسير هذه الخطيئة، أولاً باشمئزازه من دور الرقيب، ثانياً (وربما كان الأهم) حاجته إلى الإيمان بقدرة الشعب على فهم اللغة السياسية الجادة. وفي

---

* مجموعة مقالات بوستوموث ص ٢٠٠

** كتاب فيترنيسكي «هرزن» ص ٣٦٤

تلخيص الفصل الثامن أرجو أن يتذكر القارىء الكلمات التي جاءت في يوميات هرزن في ٢٤ آذار ١٨٤٤ «وهكذا لا يمكن الحديث إلى الناس إلا من خلال الكتاب المقدس». يمكن أن يرى القارىء الآن أنه فعل خيراً في أن يتذكرها، وأن السيد فيترينسكي لم ينسها

٢٠

يقتبس السيد فيترينسكي، من جلة ما يقتبس المقطع التالي من رسالة هرزن إلى أوغاريف في ٢٠ نيسان ١٨٦٣

«نحن نمثل (وأنا جد مقتنع بذلك) الخميرة الفعالة للحركة الروسية، والحركة التي نقدمها متوحدة في كل قضاياها الداخلية. إني أومن بقوتنا، ولكن لا أومن بإمكان ولادة طفل في الشهر السادس من الحمل. وروسيا تبدو أنها في الشهر السادس. لقد تطرفت أكثر منكم، وما أسرع ما أعي أيضاً لا تقدموا لي قوة جاهزة، دعوني أشعر بالجنين الحي. بالطبع الجنين الحي هو في الظرف العام، في عبقرية الشعب، في اتجاه الأدب، في الإصلاحات.. الخ. ولكن أين تجدونه مستقلاً كما تجدونه في «الأرض والحرية»؟ أنا لا أرى ذلك... ألم يخطر لكم أنه بعد كل ما وقع منذ حرب القرم، أن ما تحتاجه روسيا هو أن تعود لأحاسيسها وأن تفعل ما تحتاجه براحة وعمق وبكرازة أصيلة؟ وأنتم قادرون على ذلك. يمكن أن تقدم الكرازة تحريضاً، لكنه ليس تحريضاً وهذا هو السبب في اعتراضي أحياناً على مقالاتكم التحريضية»*

إن السيد فيترينسكي لم يلاحظ أن هذا المقطع يدحض رأيه. ليس ثمة كلمة فيه حول الخلاف في المبدأ بين هرزن وأوغاريف إن هرزن يوافق على أنه أحياناً اعترض على مقالات أوغاريف ولكن منه تعلمنا أن موضوع المناقشة كان سؤال: أيهما ضروري أكثر في الوقت الحاضر: الدعاية أم التحريض؟ ولم تكن هناك مناقشة حول ما مضمون تلك الدعاية، لسبب بسيط هو أنه لا اتفاق، في ميدان الآراء الاجتماعية - السياسية بين هرزن وأوغاريف على الإطلاق. والدعاية لتلك الآراء الاجتماعية السياسية العامة (أي الرأي القائل إن تحرير الفلاحين مع الأرض هو الحلقة الأولى في سلسلة

---

* انظر فيترنيسكي «هرزن ص ص ٣٦٢ - ٣٦٣

الإجراءات الاشتراكية الضرورية لحركة صحيحة في روسيا) كان كافياً تماماً لتخويف المعجبين اللبراليين بهرزن.

يقول هرزن: «إن الحركة التي نقدمها متوحدة في كل المسائل الداخلية». تبين تلك الكلمات وحدها أنه ليس ثمة خلاف في المبدأ بينه وبين أوغاريف. ولكن إذا كان الإثنان عازمين على تقديم «حركة متوحدة» في موضوع معين، لا ينتج من ذلك أنهما متفقان تماماً حول مسألة السرعة التي تكون عليها الحركة التي أنتجاها من الممكن أن ثمة اختلافاً بينهما سببه ما يسمى عادة الطبع. فقد يكون أحدهما ميالاً إلى التعصب أكثر من الآخر، ويمكن لأحدهما أن يكون مفعماً إيماناً بينما الآخر يضعف الشك إيمانه. مثل هذه الأشياء تحدث في كل الأوقات، ونراها في القضية التي بين أيدينا قال هرزن إن روسيا في الشهر السادس من الحمل، بينما أوغاريف رأى حملها قريباً من الوضع ورأى أن العمل يجب أن يبدأ حالاً إنه في «رد على رد **فيليكورس**» يتنبأ حتى بزمن انفجار الشعب: ففي رأيه، بكل احتمال سيحدث في السنة السادسة»*

ويمكن القول بثقة أن ممثل هذا «الاحتمال» لم يكن يحظى بأي أهمية عند هرزن. على كل حال يجب ألا يبالغ المرء في الأمور هنا أيضاً إن أوغاريف، مع كل ميله إلى التعصب، لم يصل إلى حد الكرازة لـ «الصناعات» التي أصبحت فيما بعد، كما نعرف، أساس تكتيك باكونين الذي كان منجرفاً وراءها. ولمعرفة آراء أوغاريف التكتيكية سوف أقتبس مقالته «الخطايا والجنون» في العدد ١٧ من **أوبشي فيشي** (١ حزيران ١٨٦٣).

«لا نريد تفجيراً فوضوياً أو إراقة مجانية للدماء إننا نريد أن يتكاتف الشعب في صفوف متراصة، نريد أن ينهض الشعب للاجتماع في مجلس الزيمسكي لتوزيع الأرض على الناس وإقامة محاكم شعبية منتخبة وإنشاء إدارة في روسيا، لإعلان حرية الاعتقاد وتقوية النظام الاجتماعي الذي يحترم ضمير الإنسان وإرادته».

نظراً لكل هذه التحفظات لم يجد هرزن مشقة في الوصول إلى اتفاق مع أوغاريف على الرغم من خلافهما حول «شهر الوضع».

---

* بعد تحرير الفلاحين. ظهرت مقالة أوغاريف المقتبسة هنا في العدد ١٠٨ من **الكولوكول** ١ تشرين الثاني ١٨٦١.

وثمة ناحية أكثر أهمية في القضية أهملها السيد فيترينسكي إهمالاً كاملاً

كان هرزن وأوغاريف في يوم ما معجبين بفلسفة هيغل، وكل واحد يدين لها بالكثير فيما يتعلق بتطور نظرتها العالمية. ولكني لا أجانب الصواب إن قلت إن هرزن كان أوفر نجاحاً من أوغاريف في أن يكون تلميذاً للمثالي الألماني العظيم. والحق أنه لم يتمثل كَل شيء في مدرسة هيغل كما تمثله آخرون من أمثال فيورباخ وماركس وانجلز لقد أهمل الناحية الديالكتيكية في الفلسفة الهيغلية* إن كل شيء يدل أنه أولى الفلسفة الهيغلية اهتماماً أكثر من أوغاريف. وكان لهذا تأثير في موقفه من الاشتراكية المعاصرة. حتى يصل إلى إيمان وطيد بانتصار الاشتراكية المقبل، لا يكفي بالنسبة إليه أن يؤمن أن الاشتراكية كانت مثالاً رائعاً لأناس طيبين. لقد أراد الحصول على صورة واضحة عن مجرى التطور الاجتماعي الذي أدلى إلى ظهور هذا المثال الرائع، والذي يضمن تحقيقه. إنه هو نفسه لم يكن واعياً تماماً لهذه الضرورة النظرية** وجودها ترك أثراً عميقاً في كل اشتراكيته عامة واشتراكية أوروبا الغربية خاصة قبل ثورة شباط عادت مع باكونين حول الموت المحتمل لـ « الرجل العجوز » في الغرب، ولكن ريبيَّته كان سببها في هذه الحالة، من جملة أسباب أخرى، أن المثال الاشتراكي الأوروبي الغربي بدا له نظرية جذابة فقط، لا أساس جاد لها في منطق الحياة الاجتماعية*** فإن نظر، من جهة أخرى، إلى روسيا كبلاد مدعوة إلى تحقيق المثال الاشتراكي الأوروبي الغربي، فإن ذلك حدث فقط لأن الكوميون الروسي بدا له قادراً على أن يلعب دوراً تاريخياً في الأساس الموضوعي للاشتراكية، وهو أساس لا يوجد في الغرب، حسب رأيه.

« لا يمكن للكوميون الروسي أن يلعب دور أساس الاشتراكية (أو « الجنين » حسب تعبير هرزن) الا تحت ظروف اجتماعية سياسية معينة ضرورية لتطورها (كما فهمها مؤلفنا). إن غياب مثل هذه الظروف يهدد « الجنين ». وقد شعر هرزن بهذا، وذاك هو سبب دفاعه الشديد عن فكرة تحرير الفلاحين مع الأرض. وعندما اتخذ

---

* يصف فلسفة هيغل أنها « جبر الثورة ». وهذا وصف رائع. ولكنه أيضاً اعتبر برودون ديالكتيكياً رائعاً. وهذا يبين أن الجوهر الحقيقي لطريقة هيغل الديالكتيكية كان غير واضح له.

** لو أنه كان منتبهاً لذلك، لوضع أمام نفسه المهمة النظرية التي حلها ماركس فيما بعد.

*** للمزيد انظر مقالتي: « هرزن في المهجر ».

الاصلاح الفلاحي منحى سمته **الكولوكول** منحى غير طبيعي، تبين أن ظروف تطور الجنين قد أصبحت غير مواتية. وكانت تلك أسساً منطقية كافية تماماً للتساؤل فيما إذا كان «الجنين» سوف يحيا من جديد. ومن المعروف أنه منذ ظهور الماركسية في الأدب الروسي وهي تولي اهتماماً شديداً بهذا السؤال. ولكن ثمة أسساً للاعتقاد أن هرزن أيضاً سأل نفسه السؤال نفسه.

في خريف ١٨٦٣ كتب مؤلفنا في رسالة من نابلي: إذ يرى المرء أن غوغاء العاصمة ظلت حمقى في ظل غياب برجوازية قوية، فانه مضطر الى التفكير أن الشعب حسب القانون الصارم للانتخاب لا يحرز تقدماً إلا عن طريق المرحلة البرجوازية».

والفكرة نفسها خطرت لبيلنسكي من قبل في أوائل ١٨٤٨ ولكن هرزن الذي يزدري «البرجوازية الصغيرة» ازدراء عميقاً، لم يستطع حل هذه المسألة بالروح التفاؤلية لبيلنسكي. إن البراهين التشاؤمية التالية اضطرته ان يوافق على نتيجة أن الشعوب المتحضرة الحديثة سوف تمر عبر مرحلة برجوازية.

«يمكن أن تكون البرجوازية بشكل عام حداً للتطور التاريخي، يرجع إليه أولئك الذين تخطوا الآخرين، ويتقدم نحوه من كانوا يسيرون في الخلف، ففيه تستريح الشعوب من الانسحاق، من النمو القومي، من الأعمال البطولية وأحلام المراهقة، فيه يعيش الناس مستريحين».

هنا قدمت المرحلة البرجوازية من التطور ليس على أنها انتقال الى مرحلة أعلى جديدة (وهو المعنى الذي فهمه بيلنسكي) ولكن كمحطة في التطور، كحد لا يتصاعد على يد البشرية المتحضرة.

ليس من المدهش أن هرزن وجد من الصعب أن يؤمن بوجود مثل هذا الحد. ولكن دراساته في المنطق الهيغلي خلقت له منعطفاً هنا. فهم أن منطق الحياة الاجتماعية لا يبالي بما هو جميل أو قبيح بالنسبة الى الأيديولوجيين. يقول: «أليس لدينا نحن أيضاً أسف كهذا؟ ألا يحزن الكيميائيون لابتذال التكنولوجيا، أليس لدينا الكثير من المثل التي نرنو إليها؟ »*

---

* «من القارة» رسالة من نابلي، **الكولوكول** عدد ١٧٣

تعيد هذه الحجة حرفياً تقريباً الفكرة التي تؤلف أساس كتاب من الشاطىء الآخر. ليس هذا الكتاب بكامله سوى سلسلة طويلة من البراهين البارزة المثيرة للأطروحة القائلة إن نزوعنا الى المثال هو شيء والضرورة الموضوعية لتحققه شيء آخر تماماً

٢١

لاحظ أن الفرضيات النظرية التي يتعامل معها هرزن هنا ذات طبيعة عامة. إن المناقشة لا علاقة لها بأي قطر ولا حتى بأي جزء من العالم. لا، إن رؤية الحمقى النابوليين (نسبة الى نابولي – المترجم) «تضطر» هرزن الى افتراض «قانون صارم» من الانتخاب يمكن بحسبه أن تتقدم الشعوب نحو مرحلة أعلى من التطور «فقط من خلال المرحلة البرجوازية. ولا استثناءات من هذه القاعدة العامة أشير إليها في صياغة هذا القانون.

فان كان الأمر هكذا، إذا كان هذا القانون العام يوجد، فيجب أن تتلاءم روسيا معه. وفي تلك الحالة فان التناقض بين روسيا والغرب، الذي أقامه هرزن، وغير المنسجم بالنسبة إليه، يفقد كل معنى. إن مؤلفنا غير جريء كفاية حتى يوافق على هذه النتيجة. إنه يرفضها باختصار ولكن بتحفظ جدير بالاهتمام. إنه يمنح القانون شكلاً جديداً بقبوله احتمال أن كل أنهار التاريخ تضيع في مستنقع النزعة المعادية للثقافة. وهنا يضيف بصورة غير متوقعة: على أي حال هي أنهار غريبة. هذا التحفظ لا أساس له في تعليله السابق. وفوق ذلك إنه يناقض هذا التعليل. ولكنه ينقذ من الدمار الأمل، الذي طالما عبر عنه هرزن في مناسبات أخرى، في ألا تكون روسيا معادية للثقافة، ولذلك تبدو مقنعة له.

هذا التحفظ الطفيف، مع الأمل الذي أشرنا إليه هنا، أنقذ أيضاً برنامج **الكولوكول**. ومن دونه كان على هرزن أن يقدم مشروعاً مختلفاً تماماً، أو يصبح متشائماً كل التشاؤم. ولكن حقيقة أنه تجنب التشاؤمية بفضل تلك التحفظات، تقدم أساساً للاعتقاد أن رأيه في أن روسيا هي استثناء محظوظ للقاعدة التاريخية العامة، لم يكن دائماً خالصاً من شوائب الريبية. كان أوغاريف أوفر حظاً في هذا المجال: فمن الصعب القول أن لديه أدنى شك. إن عدد **الكولوكول** الذي سبق مباشرة العدد الذي نشر فيه هرزن رسالته من نابلي يتضمن قصيدة بارزة من أوغاريف «بهذا سوف تكسب».

انها تعبر عن إيمان المؤلف الذي لا يتزعزع بالمستقبل الوضاء للاشتراكية الروسية:

أومن بنهاية الألم
وبخلاصنا المشرق
وبالشعب مالك الأرض
وبالجيل اليانع.
وأنا أومن أنه قريباً
يكون مصير مختلف جداً قد تحقق
وأن يداً قوية ترفع عالياً
رايتنا: «الأرض والحرية»*

اذا كانت الأهمية التاريخية للكتاب تقررها قوة إيمانهم بأفكار معينة، فلا بد من أن يقول المرء إن لأوغاريف حقاً أكثر من هرزن لأن يسمى أبا للحركة النارودنية الروسية. لكن الحركة النارودنية لها نظريتها الخاصة، وهرزن قام أكثر من أوغاريف بشرح تلك النظرية.

أكرر إن أوغاريف تعامل بصورة رئيسية مع المسائل الفردية. وفي عمله بهذه القضايا شارك غالباً بطريقة بارزة في تلك الحلول التي توصل اليها نارودنيك السبعينات. وهذا واحد من الأمثلة الكثيرة البارزة. فكرة ضرورة العمل الدعائي بين المنشقين، التي حققها أوغاريف عن طريق أو بشي فيشي أصبحت مقبولة بصورة عامة بين الثوريين الروس بعد خمس عشرة سنة. إن أوغاريف الذي حاول أن يبرهن على ضرورة إلغاء ملكية الأرض بالرجوع إلى النبيّ دانيال**، يشارك في منحى الكسندر ميخائيلوف والنارودنيك الآخرين، الذين حاولوا بث آرائهم في المنشقين عن فيدوسييف بالرجوع الى «الأسفار المقدسة»***

---

* الكولوكول ١ تشرين الثاني ١٨٦٣

** انظر «رسالة الى جميع أعضاء المؤمنين القدامى والعقائد والأبناء الآخرين للكنيسة الوطيدة» في عدد أوبشي نيشي في ١٥ حزيران ١٨٦٢

*** في مقالاته «رسائل خاصة في مسائل عامة» يطور أوغاريف أطروحته القائلة إن «فكرة ملكية الشيء من قبل الناس» كانت غريبة عن الغرب في القرون الوسطى، ويقول إن رجال المدن في إيطاليا وصلوا الى «فكرة إرادة الشعب»(الكولوكول ٢١٦، الرسالة الثانية) هذه العبارة تجعل المرء يتذكر الحزب الروسي الذي =

من لم ينتبه الى وجود الكثير من المواجهات بين هرزن والثوريين الشباب الذين ذهبوا الى خارج الوطن في الستينات؟ إن نقدهم الرئيسي له كان تخلفه. أما كيف كان هذا النقد جائراً فيتضح من الحقيقة البسيطة وهي أن الشباب الذي تمردوا ضد هرزن عاشوا على أفكاره وتمثلوها (وهو شيء ملحوظ) أكثر وأكثر كلما تعاظمت راية « الاشتراكية الروسية ».

كان ثمة خلافات جوهرية حول قضايا التكتيك، إلا أن هذه تتعلق في الأغلب « شهر الوضع ». ومع أن هرزن فضل عن وعي الطريقة السلمية للتطور على الطريقة الثورية، فإنه لم يعترض على نشاط أطباء التوليد بأن وقت العمل قد حان فعلاً

إن الثوريين الشباب لم يحبذوا أيضاً استهجان هرزن لتكتيك الاغتيال أو الارهاب، كما سمي أخيراً إلا أن هذه نقطة بسيطة لا حاجة أن نناقشها هنا إن من الأنسب أن نلاحظ أن الثوريين الشباب، في تمردهم على هرزن، بالغوا في خطيئة تغلغلت في فلسفته عن التاريخ الروسي.

فحسب هذه الفلسفة، سيكون تطورنا باتجاه الاشتراكية نتيجة تفاعل بين « جنينين »: الكوميون الفلاحي وحلقات الشباب المثقفين (النبلاء، وفيما بعد الرازنوشنتسي). إن حلقات المثقفين مهيأة أن تلعب دوراً فعالاً إن المثقفين سيقضون على النعاس المصاب به « الجنين » الآخر، ويشحنونه بالقوة التي ستكون نقطة الانطلاق نحو مزيد من التطور. ولكن يبدو أنه حالما يوافق المرء على أن بداية « الجنين » الآخر (الكوميون) في طريق التطور التاريخي تعتمد على حلقات الشباب المثقف، فان من الطبيعي جداً أن يوافق على أن سرعة هذا التطور تعتمد عليها أيضاً: قال هرزن: « إن وجود الكوميون ضمانة لإمكانية تحقيق المثال الاشتراكي في روسيا. لذلك - اذهبوا الى الشعب للدعوة الى الاشتراكية ». إن الشباب الثوريين الذين تخاصموا معه ودعوه متخلفاً قالوا: « إن العبء المرهق على فلاح الكوميون يسبب له السخط، وهذا ضمانة لسرعة تحقيق طموحاتنا الثورية. لذلك - اذهبوا الى الشعب للدعوة الى

= اشتهر مؤخراً وهو نارودنيك فوليا[١٩٤] وأنا على يقين أن هذا الحزب لم يستعر اسمه تحت تأثير مقالات أوغاريف. ولكن يجدر أن نلاحظ أنه صاغ المفهوم السياسي الديمقراطي بحسب كلمات أوغاريف. إن حزب نارودنيك فوليا كان، كما يعرف القارىء تعديلا لحركة النارودنيك الروس.

التحريض الثوري ». لقد كان الشباب مخطئين، لأن سُخط فلاح الكوميون بسبب عبئه المرهق لا يجعله ثورياً ومع ذلك كان هرزن مخطئاً أيضاً، لأن كوميوننا لم يكن أبداً جنيناً للاشتراكية. من وجهة نظر منطقية كانت خطيئة الشباب مشابهة تماماً لتلك التي اقترفها هرزن في شرح فلسفة التاريخ الروسي. الأولى تكمل الثانية، أو تسبّبها

قلت إن أفكار هرزن تجذرت بين الثوريين الروس كحركة تحت راية « الاشتراكية الروسية » نمت وانتشرت وتقوت. لقد كانت السبعينات بالضبط فترة أوج ازدهار هذه الاشتراكية. وفي زمن نشر **الكولوكول** ضعف تأثير هرزن وأوغاريف بسبب تأثير تشيرنيشيفسكي عليهما لقد عرفنا من قبل إن محرري هذه الصحيفة اعتبرا هذا الأخير نصيراً للغرب، تنحصر اشتراكيته في المدن فقط. إن النجاح الملموس لدعاية تشيرنيشيفسكي لم تفشل في خلق فهم معين فيهما وإليكم كيف أفصح أوغاريف عن هذا الفهم:

« أخشى أن أواجه بين اشتراكيينا من يرغب في أن ينقل البروليتاريا المثقفة الصغيرة حصراً ووضعها في مركز الاتجاهات الاجتماعية، فيحولها الى نوع من الطبقة التي لا يمكن أن تتجمع من دون أساس مادي، وفي صراع مع كل اتجاهات الطبقات الصغيرة الأخرى التي توطدت بثبات. هذا في الوقت الذي يقوم في روسيا أساس تاريخي لنظام زراعي قائم على الملكية العامة للأرض، نظام يجب أن تنضم إليه البروليتاريا الحضارية المثقفة، الأقلية المثقفة »*

لاحظ أن أوغاريف يتحدث هنا حصراً عن « البروليتاريا المثقفة الحضارية ». وذلك ما كان يطلق على الانتلجنسيا في ذلك الوقت (ولمدة طويلة بعد ذلك). كان أوغاريف محقاً في إلحاحه أن « الأقلية المثقفة » يجب أن تتخلى عن الحدود الضيقة لحلقاتها وأن تندمج مع « الشعب ». وهو يعني بالشعب الفلاحين فقط. فلم يدر في ذهنه أنه حتى « الأقلية المثقفة » يمكن أن تتلاقى ويجب أن تتلاقى مع البروليتاريا الصناعية في المدن. وفي اعتقاده أن البروليتاريا الصناعية ليس لها مكان. إن نارودنيك السبعينات لا ينسون أن ثمة عمالا بالمعنى المحدد للكلمة في المدن. وفي اعتقادهم أن

---

* الرسالة الثالثة حول مسائل عامة. الكولوكول. عدد ٢٢٠

العمال المدنيين لم يكونوا أكثر من فلاحين أفسدتهم « حضارة الخمارات المنحطة ». هنا يرتكبون الخطيئة التي ارتكبها محررا **الكولوكول**.

على أي حال، لا بد من أن ننتهي. وبعد كل ما قيل آمل ألا يرفض القارىء النتائج التالية:

١) إن تعاطف هرزن مع محنة الشعب يرجع إلى التأثير الطويل للخدم المنزليين المنكودين.

٢) أراد هرزن تحرير الفلاحين ليكون خطوة أولى في طريق التطور الاشتراكي في روسيا

٣) في تحديد الطريق المفضل لهذا التطور عمل كأب للحركة النارودنية.

٤) كان هذا كافياً للعناصر اللبرالية في المجتمع الروسي، التي حيّت بحرارة ظهور بوليارنايا ازفسدا والكولوكول، أن تسحب تأييدها تدريجياً

٥) لم تكن ثمة فروق أساسية بين هرزن وأوغاريف في نظرتها إلى الاصلاح الفلاحي والاشتراكية الروسية.

٦) إن الثوريين الشباب الذين لم يؤيدوا هرزن، عاشوا الى حد بعيد ولمدة طويلة على أفكاره، وكلما تمت السيطرة لهم، تلونت الحركة باللون النارودني.

٧) في محاكماتهم **التكتيكية**، التي أدت بهم إلى الانفصال عن هرزن، اقترف الثوريون الشباب خطيئة **منطقية** مشابهة لتلك التي ارتكبها في نظرته الى روسيا كقطر يمكن أن يحقق المثال الاشتراكي بطريقة أصيلة، تختلف عن طريق التطور الاجتماعي الأوروبي الغربي.

آراء هرزن الفلسفية[195]

(بمناسبة الذكرى المئوية لميلاده)

[١٩١٢]

يعرف الجميع أن هرزن كان رجلاً على دراية كبيرة، وأن الفلسفة، من جملة الأشياء الأخرى، كانت تشكل جزءاً من اهتماماته الثقافية. ولكن طريقة تطور آرائه الفلسفية والاتجاه الرئيسي لهذا التطور لم يعرضا حتى الآن. واعتقد أن من الضروري القيام بذلك، وسآخذ على عاتقي هذه المهمة.

١

لم يدرس هرزن الفلسفة في شبابه: كانت السياسة تشده إليها وفي عودته إلى موسكو من منفاه الأول شعر بضرورة جمع كمية كبيرة من المعرفة الفلسفية. وفي ذلك الزمن، وهو زمن مشهود فيما يتعلق بالنظرية، دافع بيلنسكي ورفاقه المقربون عن المصالحة مع «الواقع الروسي» القائم على أساس فرضية «كل ما هو واقعي عقلي» * ولم يستطع هرزن، كسياسي، أن يقف ضد هذه النتيجة، واندلع، كما يقول في **أيامي الغابرة وأفكاري**، «صراع يائس بيننا». لكن مناقشاته السياسية لم تترك أثراً في خصومه الذين كانوا ذوي باع طويل في الفلسفة الهيغلية. وكان ذلك هو السبب في شعوره بضرورة تسليح نفسه بالفلسفة.

تابع قائلاً: «وفي حرارة هذا الصراع الداخلي شعرت بضرورة «الشرب من رأس

---

* حول أهمية تلك المرحلة من تطور آراء بيلنسكي انظر مقالتي «بلنسكي والواقع العقلي» في مجموعة «عشرون عاماً»[196]

النبع » وبدأت أهتم بهيغل. حتى اني اعتقدت أن الانسان لا يكون كاملاً ولا معاصراً ما لم يغص في فينومينولوجيا هيغل، وتناقضات الاقتصاد الاجتماعي لبرودون، ما لم يصهر في هذه البوتقة ».

لنلاحظ أن برودون هنا وضع في مستوى هيغل. إن هذا شيء بارز جداً في آراء هرزن الفلسفية. ولا مبالغة إذا قلنا إن هذه المقارنة تقيم الحد الذي لم يتخطه مؤلفنا الرائع الموهوب في فهم هيغل. وفوق ذلك لنا الحق ان نضيف انه إذا كان عليه أن يتخطاه، لم يكن له أن يتحمل التراجيديا الروحية المخيفة التي أظهرها في كل صفحة من كتابه المشهور من الشاطىء الآخر. إلا أن هذه التأكيدات قد تبدو غير أساسية للقارىء، فلا بد من الاهتمام بكل ما وحد هرزن مع هيغل، وكل ما استعاره منه.

فلننتقل إلى يومياته. هنا نجد أنفسنا أمام مقاطع مثل هذا المقطع: « قرأت فلسفة هيغل في الطبيعة » (الانسيكلوبيديا). مارد في كل شيء، والكثير لم يرسم أو لم يتتبع إلا قليلاً، بيد أن السعة والحجم ضخم [يجب أن يقال ضخمان – ج.ب]. يا للخطوة الكبيرة إلى الأمام للتحرر من القوى المجردة، في اقامة حدود دقيقة لمقولة الكمية التي استخدمت لسحق كل شيء على الأرض، ويا للانحياز للنوعية والدقة. إنه يحرر الانسان في تطوره من قيده المادي، من حياته المتعاقبة من خلال شكله للمفهوم (كلما كان تطوره أدنى، اشتد اعتماده على الطبيعة). الروح خالدة والمادة شكل خالد لكينونتها إنها شكل فقط يعبر عن الروح »*

أو هذا المقطع: « ليس أشد سخرية حتى الآن من الألمان وكل أنواع الشعوب من بعدهم، الذين اعتقدوا أن هيغل منطقي جاف وديالكتيكي مجدب من نمط ولف**، في حين أن أي أثر من كتاباته مفعم بالشاعرية القوية، وهو يلبس أشد الأفكار اغراقاً في التأمل صوراً محددة من الدقة المدهشة، يبرزها بعبقريته – غالباً ضد ارادته. يا لقوة تجريد الأشياء من لباسها عن طريق التفكير، يا للعين الحادة التي تخترق كل شيء وترى كل شيء أينما نظرت »***

---

* مؤلفات هرزن طبعه جنيف المجلد ١ ص ١٩٣

** الحقيقة أن ولف لم يكن ديالكتيكيا – أنه في أحسن الأحوال منطقي. المنطق بالمعنى العادي يتعلق بالديالكتيك مثلما تتعلق الرياضيات الدنيا بالرياضيات العليا.

*** المؤلفات مجلد ١ ص ص ٢٣٤ – ٢٣٥

يبين هذان المقطعان ان هرزن كان أبعد ما يكون عن اتخاذ موقف الازدراء من هيغل، هذا الموقف الذي اتخذه الكثير فيما بعد في روسيا هذاه الناحية تبدو واضحة لنا بما فيه الكفاية من الشاهد الذي أخذناه من أيامي الغابرة وأفكاري. وتبدو أهميتها عندما نمسك بناحية أخرى، وهي شرح هرزن للنظرية الأساسية في فلسفة هيغل: « الروح خالدة والمادة شكل خالد لكينونتها ». لم يوضح هرزن أبداً موقفه النقدي من هذه النظرية، ولم يخجل من أن ينتقد حتى هيغل*« المارد »عندما لا يتفق معه. ماذا يبين هذا؟ الحقيقة أن هرزن في نيسان ١٨٤٤ كان لا يزال يتبنى آراء المثالية الهيغلية أو بالأحرى لم يكن قد صاغ شكوكه حولها ونصل نحن أيضاً إلى هذه النتيجة عن طريق الأسطر التالية القريبة من الأسطر السابقة.

« بالنسبة إلى العلوم الطبيعية، قدم هيغل اطاراً ضخماً أكثر مما قدم انجازاً، إلا أن فضله على العلوم الطبيعية في حالتها الراهنة لا ينكر ولا قيمة فيما إذا وافق الأساتذة على ذلك أم لم يوافقوا فالتجاهل الطفيلي لا يعني شيئاً لقد طور هيغل بوضوح متطلبات العلوم الطبيعية وبين، بوضوح طبعاً، الاضطراب المحزن في الفيزياء والكيمياء من غير أن ينكر بالطبع نجاحاتها الخاصة. لقد قام بالمحاولة الأولى لفهم حياة الطبيعة في تطورها الديالكتيكي من المادة التي تجد تصميمها الذاتي كتابع، إلى التفرد كجسم معين، إلى الذاتية، من دون تدخل أي واسطة أخرى سوى الحركة المنطقية للمفهوم. وقد شاركه شلنج في ذلك، إلا أن شلنج لم يقنع بمتطلبات العلم**

حقيقة أن هيغل حاول شرح التطور الديالكتيكي لحياة الطبيعة من غير أن يلجأ إلى أي « واسطة » أخرى سوى الحركة المنطقية للمفهوم، هي أضعف نقطة في فلسفته الطبيعية، التي تفسر معظم المنزلقات الأخرى التي ارتكبها في هذا الميدان. وليس من الضرورة القصوى شرحها اليوم، لأنه حتى العلماء الطبيعيون المثاليون (وهم للأسف كثيرون الآن) يجدون من المستحيل تفسير العملية العالمية بالحركة المنطقية للمفهوم ولا ينظرون إلى هذا التفسير على أنه « تلبية لمتطلبات العلم » نهائياً. ولا يكتفي هرزن

---

* إن شرح نظرة هيغل في الطبيعة على أنها روح الكينونة في يوميات هرزن مؤرخة في ١٤ نيسان من السنة المذكورة.

** المؤلفات. مجلد ١. ص ١٩٤ في ١٩ نيسان ١٨٤٤

في أنه لا يشير إلى هذه الخطيئة الأساسية لدى هيغل - بل يذهب إلى أنها، على العكس، انجاز جهبذي عظيم. وقد حدث هذا لأنه هو نفسه ظل مثالياً، أي لأنه بالسبة إليه بدا أن الرجوع إلى تلك «الواسطة» كحركة منطقية للمفهوم هو تفسير مقنع للعملية التاريخية الطبيعية. والحقيقة أنه في ٢٠ حزيران[١٩٧] من السنة نفسها دوّن في مفكرته بعض الأسطر يبدو من مضمونها أنها معارضة شديدة لما قلت. إنهم يقدرون مقالة جورذان حول علاقة العلم العام بالفلسفة[١٩٨] ظهرت هذه المقالة في الويغاند الفصلية ويبدو أنها تركت تأثيراً كبيراً في هرزن. إنه يراها عظيمة ويعبر عن فكرتها الرئيسية بالكلمات التالية:

«النقد الذي انبثق من الدين، ويقف عند أساس فلسفي، يجب أن يتابع وينقلب ضد الفلسفة ذاتها إن النظرة الفلسفية هي النظرة اللاهوتية، التي تخضع الطبيعة للروح في كل شيء، التي تجعل الفكر أولاً، وتعجز مبدئياً عن القضاء على الطباق بين الفكر والكائن بتوحيدهما الروح والفكر هما نتيجان للمادة والتاريخ. وفي افتراض ان الفكر الخالص هو المصدر الأول، فان الفلسفة تسقط في المجردات فيستحيل عليها اللحاق بها، والمفهوم الحسي متأصل دائماً، ونشعر بالأسى والألم في ميدان التجريد - وسظـل دائماً نسقط في المجردات الأخرى. إن الفلسفة تريد أن تكون علماً آخر، عـلم التفكير»* ويتبع ذلك في المذكرات نص بالألمانية ذو أهمية كبيرة لذلك نترجمه هنا بالكامل:

«لذلك (أي لأن الفلسفة تريد أن تكون علم التفكير) تريد في الوقت نفسه أن تكون علماً للعالم باعتبار قوانين التفكير هي كقوانين العالم ذاتها وهذا يجب أن يوضع بنظام عكسي: الفكر ليس شيئاً سوى العالم، طالما أن العالم يعترف به، الفكر هو العالم الذي يصبح واحداً بجد ذاته في الانسان». وعندئذ يتابع هرزن بالروسية «وذلك هو السبب في أن المرء لا يستطيع أن يبدأ العلم بعلم التفكير ويستنتج الطبيعة منه. الفلسفة ليست علماً منفصلاً، يجب أن تكملها مجموعة العلوم المنفصلة الآن»**

---

* المؤلفات. مجلد ١ ص ص ٢٠٨ ٢٠٩

** مقالة وليم جوردان نشرت في المجلد الأول من مجلة فيغاند الفصلية. ظهر هذا المجلد في أيار ١٨٤٤ وقرأه هرزن في حزيران من السنة نفسها هذا يبين مدى صلة مؤلفنا بالأدب الفلسفي في ألمانيا.

إذا افترضنا أن هرزن يوافق جوردان كل الموافقة*، فإننا لا بد من الاعتراف أنـه انفصل عن المثالية: فنظرة جوردان عكس نظرة هيغل مباشرة**، ويمكن أن يعتبر المرء الروح والفكر على أنهما نتيجة المادة والتاريخ ويعتبر في الوقت نفسه المفهوم المنطقي على أنه «واسطة» في العملية العالمية. وإذ قدمنا هذا الافتراض، فسوف نقبل أيضاً أن انتقال هرزن من هاتين النظرتين إلى الأخرى الذي تم في المرحلة ما بين ١٤ نيسان و٢٠ حزيران من عـام ١٨٤٤، قد حصل مبكراً، فالموقف العاطفي وغير النقدي، المشار إليه آنفا لمؤلفنا من الأطروحة الأساسية لفلسفة هيغل الطبيعية المثالية سوف يظل غير مفهوم تماماً. بالطبع هذا الافتراض في حد ذاته لا يتضمن شيئاً مستحيلا: لماذا يجب ألا ينفصل هرزن عن المثالية المطلقة في ذلك الوقت بالذات، في ربيع ١٨٤٤؟ إلا أن ثمة وقائع غير متماسكة في هذا الافتراض.

الصفحة الأولى من مسودة آراء هرزن الفلسفية.

---

* المؤلفات، المجلد ١، ص ٢٠٩

** يعتنق ولهلم جوردان النظرة الفيورباخية. بعضهم يسميه آخر تلميذ مخلص للفلسفة (أنظر مقالة شميدت في «دوتش بيرجربش فور». ١٨٤٦ ص ٧١).

٢

أولاً في اليومية ذاتها بعد الفترة التي أشرنا إليها نجد برهاناً لانفصال هرزن عن المثالية انفصالاً كبيراً في ٩ آب من السنة ذاتها بعد أن يعرض تعاليم ليبنتز (حسب ملاحظة فيورباخ) يقرظ ليبنتز تقريظاً مفرطاً لشرحه «المفهوم»: «الموناد هو المفهوم بمعنى من المعاني»* ولكن أي مفهوم؟ إنه الذي نوقش في منطق هيغل.. ومن الواضح أن هذا المديح لا يصدر إلا عمن لم يتخط تأثير الهيغلية. واليكم ما هو أشد اقناعاً. ففي نهاية الشهر ذاته بعد أن يقرأ هرزن سيرة هيغل[١٩٩] بقلم روزنكرانز، يلتقط مقطعاً خاصة من العرض الأصلي لفلسفة هيغل الطبيعية ويتحدث عن الموضوع كما يلي:

«تلك المقالة عن الفلسفة الطبيعية تتضمن مقطعاً مشهوراً عن بنية العالم، إنه [أي هيغل - ج.ب] رأى تفككه نتيجة الماضي غير المشروط، الذي ظلت [أي منتوجات تفكك العالم - ج.ب] مشخصاته الصماء، إنها الآن تقف لا مبالية جنباً إلى جنب، وقد فقدت علاقتها، كما لو أصيبت بالشلل. هذه الفكرة هامة جداً، أيمكن أن نتوقع من هذا حل لماذا وكيف ظهرت المادة الأرضية كأجسام بسيطة، وما الذي اضطرها أن تتجمع في أشكال معينة من الصخر، أليست تجربة في الكوكب الحي كما يفعل النبات - تجربة في الحياة باعتبارها مظهراً شاملاً»** ومن نافلة القول إن مثل هذه القضايا لا تقوم إلا في عقل مفكر مثالي.

ثانياً ان كتاب رسائل في دراسة الطبيعة الذي رأى فيه مؤرخو أدبنا نوعاً من البيان «الواقعي» لهرزن، يثبت أن كاتبها متأثر جداً بالمثالية - بالمثالية الهيغلية بالضبط. بالطبع إنها تتضمن أسطراً، بل تتضمن مقاطع كاملة من المضمون «الواقعي» (ولنحتفظ بهذا المصطلح حالياً). فمثلاً: «أراد هيغل أن تكون الطبيعة والتاريخ منطقاً تطبيقياً وليس منطقاً كما هو الحال في العقلانية المجردة للطبيعة والتاريخ. ذلك هو السبب لماذا ظلت العلوم التجريبية صماء غير مبالية لا بانسيكلوبيديا

---

* المؤلفات المجلد ١ ص ٢٢٣

** المرجع السابق ص ٢٢٩

هيغل ولا بأطروحات شلنج »* هنا نحن أمام النقد ذاته الذي وجهه إلى هيغل المادي أنجلز مقطع آخر «لا شك أن هيغل رفع التفكير إلى مثل هذه الذرا التي لا يمكن القيام بخطوة بعدها إلا بترك المثالية وراءنا »** هذه ولا شك أصداء واقعية تماماً وليس أقل «واقعية» منها الأسطر التالية: «في المثالية دائماً شيء ما طائش لا يحتمل: فالانسان الذي يقنع نفسه أن الطبيعة قمامة، وأن كل الأشياء الآنية ليست جديرة باهتمامه يصبح متكبراً قاسياً أحادي النظرة ولا يستطيع الوصول إلى الحقيقة. كانت المثالية مقتنعة بصورة متعجرفة أن كل ما عليها أن تفعله هو أن تدخل بعض التعابير الازدرائية عن التجريبيّة، وعندها تسقط الأخيرة في الوحل، إن طبائع الميتافيزيكيين الممجدة مخطئة».. الخ*** كل من يقرأ هذا المقطع سيقول: «إن مؤلف **رسائل في دراسة الطبيعة** كان خصماً عنيداً للمثالية». لكن ذلك خطأ، أو كما يقول مؤلفنا، ليس الحقيقة **كاملة**. ولكن ذلك ليس بعيداً فما قيل في المقطع المقتبس آنفاً إنما كان **موجهاً ضد المثالية الذاتية**. ونحن نعرف من تاريخ الفلسفة أن المرء يمكن أن يهاجمها من دون أن يترك موقعه المثالي أبداً وهذا ما يبينه هيغل نفسه أو شلنج، اللذان رفضا مثالية فيخته الذاتية، ولكن أيضاً ضد فلسفة هيغل المثالية **المطلقة**. إلا أن هذه الملاحظة في **رسائل في دراسة الطبيعة** مصحوبة بالتحفظ الهام التالي: «إلا أن هذه الخطوة لا تتخذ، والتجريبية تنتظرها ببرود، ومع ذلك إن انتظرت طويلاً فسوف ترى أي حياة جديدة سوف تتخلل كل الميادين المجردة للمعرفة الانسانية»**** فأنت ترى: أن الخطوة التي يجب أن تريح تفكير العلماء الطبيعيين من حدود التجريبية **لم تتخذ بعد**، في رأي هرزن. وقد كان هذا الرأي خاطئاً: إن الفلسفة الغربية في شخص فيورباخ **قد غادرت أرض المثالية**. على أي حال سواء أكان ذلك صحيحاً أم خطأ، لا بد من تحديد المهمة النظرية لمؤلف **رسائل في دراسة الطبيعة**. إذا كانت الخطوة الضرورية للعلم لم تتخذ، كان لا بد لهرزن نفسه من أن يحاولها مضطراً، وعندئذٍ نطرح سؤال: هل نجح؟ إن أي مطلع على حال الفلسفة في

* المؤلفات، المجلد ٢ ص ٧٢ وإشارات التأكيد هي في الأصل.

** المرجع السابق ص ٧٢

*** المرجع السابق ص ٤١

**** المؤلفات مجلد ٢ ص ص ٧٢ - ٧٣

ذلك الوقت سوف يجيب بالنفي، إذا قرأ بعناية **رسائل في دراسة الطبيعة**.

على أي حال شق هرزن طريقة فيها ومن حين إلى حين يحدث أن تقع قدمه على أرض «واقعية»، إلا أنه في الأغلب كان يضعها على أرض مثالية يرى من الضروري التخلي عنها في التحليل الأخير، حتى تصريحاته الصحيحة تماماً ضد المثالية فيها معنى ضيق جداً الملاحظ أعلاه، هي هجومات نقدية ضد أنصار المثالية الذاتية. عندما يوجه هرزن إلى هيغل مهمة رؤية الطبيعة والتاريخ كمنطق تطبيقي، يبدو أن مؤلفنا يرى بوضوح أين تكمن الخطيئة الأساسية للمثالية المطلقة. إلا أن هذا الانطباع ينتفي عندما يواجه المرء مقاطع كالتالي مثلاً: «يجب أن تطور العملية العضوية تطوراً محتوماً جهاز الدوران والجهاز العصبي في الحيوان... الخ حسب المفهوم النوعي الموجود مسبقاً الآخذ في التحقق»* هذه الفكرة التي ترجعنا إلى «المفهوم» ليست خطوة أبعد من مثالية هيغل بل في صميمها ويجد المرء أفكاراً مماثلة لهذه في **رسائل في دراسة الطبيعة**. وفي كل مرة يحاول مؤلفها فيها انتقاد المادية يبدو مثالياً مخلصاً وإليكم بعض الأمثلة.

في انتقاد هرزن لمادية أبيقور يتحدث عن «العنصر السامي المتحكم في التنوع المادي»** إن حد النظرة المادية يكمن، حسب رأيه، في رفض وجود مثل هذا العنصر والاعتراف بوجوده يعني الرسوخ في التربة المثالية. وهكذا فان الماديين آثمون، في رأيه، في رفضهم النظرة المثالية في «التنوع المادي» أي العالم المادي. فلم يخطر له، وقد اعترف بوجود «عنصر يتحكم في التنوع المادي» أن المرء يمكن أن **ينظر إلى الطبيعة على أنها منطق تطبيقي**، مع بقائه مخلصاً تماماً لمعتقداته. أكثر من ذلك، إنه ينتقد الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر لعجزهم عن فهم وحدة الكائن والفكر يقول. «الكائن والفكر في كتاباتهم متباعدان أو يعمل كل واحد منهما بصورة خارجية. **إن الطبيعة بدون فكر هي جزء وليست الكل**، الفكر طبيعي كالاتساع، كدرجة من التطور كالآلية والكيماوية والبنية العضوية - ولكن من نوع أعلى فقط. لم يستطع الماديون أن يفهموا هذه الفكرة البسيطة، لقد اعتقدوا أن الطبيعة من دون

---

* المؤلفات. المرجع السابق. ٢٧٥

** المؤلفات مجلد ٢ ص ١٧١.

الانسان تامـة، منغلقة على ذاتها، وأن الانسان نوع دخيل »* هذا النقد غريب إذ يبدو أن على هرزن أن يقرأ كتاب هولباخ **نظام الطبيعة**، وعليه أن يتذكر الالحاح على فكرة وحدة الكائن والفكر المشروحة هناك. فلا هولباخ ولا أي عضو من الحلقة المادية الذين وردت آراؤهم في **نظام الطبيعة** قد فكروا في النظر إلى الانسان على أنه **دخيل** على الطبيعة أو رفض فكرة أن الطبيعة « من غير الفكر (أي بتعبير أدق، من غير ما يسمى الظواهر المادية عامة) ليست الكل بل هي جزء إن إحدى الحجج الرئيسية التي استخدمها الماديون الفرنسيون ضد الروحانيين كانت بالضبط أن « الروح » لا يمكن أن ينظر إليها على أنها عنصر مستقل مقابل للطبيعة وتتحكم فيها فالمادة في نظر الماديين لم تكن أبداً الجسد الميت الذي تحدث عنه ديكارت. لماذا يتهمهم هرزن بخطيئة لم يقترفوها؟ لا شك أن ثمة سوء فهم هنا ولكن كيف نشأ؟

٣

حتى نجيب عن هذا السؤال لا بد من أن نأخذ بعين الاعتبار كلمات المؤلف التالية: «وجدشلنج الصراع بين الآراء المختلفة عن الفعل والطبيعة في أعلى تعبيره وأشده عندما « اللاأنا » خضعت لهجومات فيخته من جهة، وسلطة العقل أعلنت على أنها موجودة في امتدادات محدودة من البرودة والفراغ، ومن جهة ثانية، رفض الفرنسيون أي شيء غير حسي وبحثوا، مثل علماء الفراسة، عن تفسير للفكر بمصطلح النتوءات والانخفاضات وليس عن الانخفاضات بمصطلح الفكر، فكان أول من عبر، وإن بصورة غير تامة، عن الوحدة العليا التي نتحدث عنها » (أي وحدة الكائن والفكر - ج.ب)**

من المفيد أن نقارن هذا مع الحجة التالية لهرزن: « أظهر الانسيكلوبيديون تطرفاً في الواقعية، فقد أظهروا موقفهم من الروح الانسانية كأنها حقيقة واقعية كاملة، كما فعل ذلك المثاليون من جانبهم، فكلا الطرفين محدودان بزمانها، ويجب فيا بعد التخلي عن مطالبها المحدودة وأن يتوحدوا في فهم واحد منسجم للحقيقة. تلك كانت المصالحة

---

* المرجع السابق ص ٢٨٢

** المؤلفات. المجلد ٢ صص ٢٨٤ - ٢٨٥

التي سعى وراءها شلنج واتباعه، ومن أجل هذه المصالحة أقام هيغل مؤسسته الواسعة والباقي سوف يكتمل مع الزمن ».

هذا أبرز ما يميز آراء هرزن الفلسفية في ذلك الوقت. لقد آمن أن مشكلة العلاقة بين الفكر والكائن، بين الذات والموضوع هي المشكلة الرئيسية في الفلسفة. إنه يقيم أي نظام فلسفي أولاً وقبل كل شيء قياساً على هذه المشكلة أي طريقة أخرى في العمل سوف تكون مستحيلة لمن كان تلميذاً لخصم أحادي عنيد لكل أشكال الثنائية كهيغل. في تعاليم هيغل، كما في تعاليم شلنج، نجد وحدة الفكر والكائن هي في الوقت نفسه أساس جميع الأبنية الفلسفية الأخرى وتاجها ولا بد من الاعتراف أن هذا ما يشكل ميزة كبرى لفلسفتهما على فلسفة كانت الثنائية، على سبيل المثال. ولكن كيف شرح الأحاديان شلنج وهيغل وحدة الفكر والكائن؟ من السهل أن نخمن أنهما شرحاها بالمعنى المثالي: وإلا فانهما ليسا مثاليين. إلا أن القضية بالضبط هي: كان شرحهما غير صحيح، كما بين فيورباخ من قبل.

حسب فيورباخ، أنهت الفلسفة المثالية، التي وجدت تعبيراً عنها في شلنج وهيغل، التناقض بين الكائن والفكر في الوقت الذي ظلت داخله، أي لم تنهه أبداً بشكل فعلي. وهذا يعني التالي: الفكر عند هيغل يعني الكائن طالما ثمة في التحليل الأخير لا شيء سوى الفكر، إن الطبيعة نفسها ليست سوى الروح في حالة كينونة: فحتى تخلق الفكرة المطلقة الطبيعة عارضتِ نفسها بنفسها فعند هيغل « الفكر هو المبتدأ والكائن هو الخبر »، كما يقول فيورباخ معبراً عن الفكرة ذاتها بلغة اليوم الفلسفية. ولكن إن كان ذلك صحيحاً، إذا كان الفكر **هو** الكائن في رأي هيغل، فلا فائدة من البحث عن وحدة الفكر والكائن: إنها أمام أيدينا. وهكذا نجد أن هيغل لم يحل التناقض بين الكائن والفكر، فقط أنهى أحد عناصره - الكائن، المادة، الطبيعة. وأضاف فيورباخ أنه إذا كانت الطبيعة عند هيغل قد خلقتها الفكرة بمعارضة ذاتها بذاتها، فليس هذا سوى ترجمة إلى لغة الفلسفة التأملية من التعاليم الدينية اللاهوتية حول خلق المادة على يد الجوهر الروحي للطبيعة - الله.

تلك كانت نظرة فيورباخ. ماذا عن هرزن؟ لقد اعتقد أن شيلنج « كان أول من عبر، وإن بصورة غير تامة، عن الوحدة العُليا » للكائن والفكر، وأن هيغل بنى « مؤسسة ضخمة » لتلك الوحدة. بالفعل كانت ثمة مظاهر لحل المشكلة على يد شيلنج

وهيغل، يبدو أنها لم تكن لترضيه، ولكنه لم يأبه بتلك المظاهر طالما أنه تطلع إلى نتيجة كبيرة: لقد ظن أن الزمن سوف يكمل ما لم يكمله الفيلسوفان الألمانيان العظيمان*. تلك هي الخطيئة الفلسفية الأساسية التي ارتكبها مؤلف **رسائل في دراسة الطبيعة**. قال هرزن هناك أنه حتى تتقدم بعد هيغل يعني أن تترك ميدان المثالية، وهذا صحيح تماماً ولكنّه نفسه عندما حاول القيام بهذه الخطوة، كانت نقطة انطلاقه الحل المثالي للتناقض بين الفكر والكائن كما اقترحه هيغل. ولذلك كان نقده للمثالية لا يزيد عن نقد المثالية الذاتية التي كانت أقل شأناً في تلك الأيام. ويتضح ذلك تماماً مما يقوله عن دور شيلنج: بظهور شيلنج على المسرح في ذروة المعركة بين فيخته من جهة والفرنسيين (يقصد الماديين الفرنسيين) من جهة أخرى، كان أول من عبر وإن لم يكن بصورة تامة، حسب رأي هرزن، عن وحدة الكائن والفكر فليس من المدهش والحالة هذه أن مؤلفنا ظل يرى المادية من خلال عيني المثاليين الألمان الكبار لقد طرأ **نظام الطبيعة**، ولكنه قرأه بعد أن شكل رأياً عن المادية ولذلك وجد أشياء في هذا الكتاب لم تكن فيه، ولم يول اهتماماً خاصاً بالأشياء التي كانت فيه.

من المهم أن هرزن عرف فيورباخ عندما كتب **رسائل في دراسة الطبيعة**. لقد عرفه أوغاريف بذلك المفكر عندما زار هرزن في منفاه في نوفغورود وجاء معه بذلك الكتاب الشهير **جوهر المسيحية**. وقد أثار هذا الكتاب عليه منفاه في نوفغورود. يقول: «بعد قراءة الصفحات الأولى من هذا الكتاب قفزت فرحاً أننا بلا وهم ولا حذلقة شعب أحرار ولسنا عبيداً في سفر الخروج، وليس علينا أن نلبس الحقيقة ثياب الأساطير»** إن هرزن قد انجرف مع فيورباخ، ولكن هذا لا يعني، كما رأينا، أنه تمثل رأيه السلبي في تعاليم هيغل عن وحدة الفكر والكائن. لذلك ظل قريباً إلى المثالية

---

* فيما بعد قليلا يقول هرزن: «فهم هيغل العلاقة الفعلية للكائن والفكر، ولكن حتى نفهم هذا لا يعني تقديم القديم بأسره... فلا أحد من الذين ولدوا في الأسر المصري دخل أرض الميعاد إن هيغل بعبقريته، بقوة فكره قمع العصر المصري، فظل عادة معه، إلا إن هذه العادة سحقت «شيلنج (المؤلفات. المجلد ٢ ص ٧٣) وهكذا العادة السيئة سوف تصحح مع الزمن. وبتعبير آخر، يعني هذا أن المثالية المطلقة حددت علاقة الفكر بالكائن بصورة صحيحة. ويعامل هرزن شيلنج بتعاطف أقل، ولكن يجب أن نتذكر أن شيلنج في تلك الأيام كان قد أعلن عن «فلسفة الوحي» الرجعية.

** المؤلفات مجلد ٧ ص ١٣٣.

أكثر من قربه إلى فيورباخ، أحياناً فقط، في بعض مقاطع من **اليوميات ورسائل في دراسة الطبيعة**، فقط عندما يقتبس المقالات التي تعلن أن الفكر والروح إنما هما نتيجتان للمادة والتاريخ، عندها يسمح للعقائد أن تنفجر من خلال تلك الآراء الفيورباخية. إلا أن تلك كانت استثناءات تثبت القاعدة العامة، القاعدة العامة التي تقول إن هرزن يتابع انتماءه إلى المثالية.

على أي حال لا بد من أن يقدم المرء هنا تحفظاً كبيراً إن جوهر نظرة فيورباخ المادية تجسد في الفكرة القائلة إن الكائن هو الذي يحدد الفكر وليس الفكر هو الذي يحدد الكائن (وهذا الجوهر يعيه الماركسيون تماماً). إن الكائن محدد بذاته إنه موجود بذاته. لذلك اعتقد فيورباخ، خلافاً لهيغل، إن الكائن هو الموضوع، بينما الفكر هو ما يعرى إلى الموضوع* إنها ليست كينونة مجردة أن الأفكار وليس «الأنا» ما تأخذه الفلسفة المثالية بعين الاعتبار إن جسدي هو الذي يفكر، إن جسدي هو «الأنا ولكن هذه «الأنا» ليست «الأنا» لذاتها فقط، لأن الشخص الآخر ليس «أنا بل «أنت». وهكذا يخطىء المثاليون في اتخاذ «الأنا نقطة انطلاق. يجب أن تكون نقطة الانطلاق «الأنا» و«الأنت» في الوقت نفسه. ويبدو هذا مغالطة: فيظهر أن فيورباخ يريد اتخاذ **النقطتين معاً** كنقطة انطلاق. ولكن يبدو الأمر هكذا الواقع أن فيورباخ يتخذ نقطة انطلاق أطروحة تقول إن «الأنا» **ليست فقط** المبتدأ **بل** الخبر **في الوقت نفسه** (المبتدأ لذاتها والخبر لشخص آخر) تلك هي التعاليم المادية في وحدة الفكر والكائن، المبتدأ والخبر، الروح والمادة. يقول فيورباخ: «إن ما هو نفسي، أو ما هو ذاتي، هو روحي محض، غير مادي وعمل غير حسي في حد ذاته، ولكنه موضوعياً هو عمل حسي ومادي».

أمعن في هذا وسوف توافق فيورباخ بالتأكيد فإذا وافقت معه سوف ترى بنفسك ضعف تلك الحجج المثالية التي قدمها هرزن في **رسائل في دراسة الطبيعة**. لقد ناقش أن المادية ترفض كل شيء «غير حسي». ولكنك سمعت بنفسك من فيورباخ أن اللاحسي هو فقط مظهر آخر لـ «الحسي» وأن القضاء على أحد عنصري التناقض بين الكائن والفكر يعني تجنب الحل، يعني ألا تحله. لقد ألقى هرزن اللائمة على غير أهلها

---

* في اللغة الفلسفية المعاصرة يقال. «الكائن هو المبدأ والفكر هو الخبر

وكان ذلك سوء فهم خطير أقام عليه نقده للمادية. وكان تعليله كالتالي: «من المؤكد أن التجربة تثير الوعي، ولكن من المؤكد أيضاً أن الوعي المثار ليس نتيجتها، ذلك أن التجربة هي شرط فقط، هي دافع، ولكن نوع الدافع لا يمكن مطلقاً أن يكون مسؤولاً عن النتائج لأنها ليست تحت سلطته، لأن الوعي ليس طاولة نظيفة بل هو نشاط محض، نشاط لا يتخلف عن الموضوع، بل على العكس إنه جوهره الحقيقي طالما أن الفكر والموضوع عامة ليسا شيئين مختلفين، بل إنهما مظهران لوحدة مفردة»*

هذه الكلمات الأخيرة الموجهة ضد الثنائية الفلسفية وليس ضد المادية هي كلمات رجل يؤمن **بالنظرة الواحدية**. ولكن فكرة أن التجربة تستخدم كدافع للوعي وأنها غير مسؤولة عن النتائج طالما أن الوعي نشاط محض وليس طاولة نظيفة، تكشف مرة أخرى الطبيعة المثالية للنظرة الواحدية التي اعتنقها هرزن عندما كتب **رسائل في دراسة الطبيعة**.

إذا لم تكن التجربة مسؤولة عن النتائج، فإن ذلك يعني أن الفكر الإنساني يضع القوانين للطبيعة، كما أعتقد كانت. ولكن فيورباخ رفض هذه النظرة أيضاً

لقد كتب هذه الكلمات الهامة: «إن كتاب الطبيعة ولا شك فوضى وحشية من الأحرف التي ألقيت شذر مذر، الواحد فوق الآخر، فوضى فيها ينتج الفكر أولاً العلاقة المتبادلة والنظام بالجمع الذاتي والاعتباطي للأحرف في جمل ذات معنى. لا، إن الفكر يأخذ الأشياء ويجمعها على أساس المعالم التي تمده بها الإدراكات الخارجية، فنحن نفصل ما فصل في الطبيعة، ونوصل ما وصل فيها، ونلحق شيئاً بآخر كأساس وتابع، كسبب ونتيجة، لأن تلك هي علاقتها الفعلية الحسية الواقعية الموضوعية المتبادلة»**

فقط هذه النظرة في علاقة الكائن بالفكر تقدم تفسيراً ذا معنى لتلك الأسطر في مقالة جوردان التي اقتبسها هرزن، والتي تؤكد أن «الروح والفكر هما نتيجتا المادة والتاريخ» وأن الفكر عامة لا شيء سوى «العالم بقدر ما يدرك ذاته» (انظر

---

* المؤلفات مجلد ٢ ص ٢٧٧

** المؤلفات. مجلد ٢ ص٣٢٢ - ٣٢٣ وقد لاحظ انجلز فيا بعد بحصافة بالغة أنه وإن كان ذهننا يشتمل بصورة اعتسافية على المنشأ في وحدة الثديات، فاننا لا نحصل على غدد ثدية(.. .

أعلاه)* فإن كان هرزن اعتبر الفكر نشاطاً محضاً يحدد « نتائج التجربة »، فإن عليه أن يعلن أن هذه الأسطر لا معنى لها

إن ملاحظة هرزن أن التجربة ليست هي التي « تنتج » الوعي، تساوي - إن لم أكن مخطئاً - الأطروحة القائلة إن الحركة، التي إليها ترجع التجربة، **لا تتحول إلى فكر** أو بتعبير آخر **أن الفكر ليس حركة المادة**. وليس ثمة ضرورة ملحة لمناقشة ذلك بعد كل ما قيل آنفاً بالطبع ليس الفكر فعلاً مادياً، وإن كان مظهراً آخر لمثل هذا الفعل. إن الذي لم يستوعب التعاليم المادية وحده الذي يمكنه أن يفسره **بتوحيد الفكر والحركة**. إن الماديين المتمكنين يرون هذا مساوياً **لتوحيد الفكر والكائن**، هذا التوحيد الذي يعزونه إلى المثالية. **فوحدة** الكائن والفكر التي يقصدونها ليست أبداً **الهوية الواحدة****

ويقدم هرزن بعض الحجج ضد المادية لا تتركز مباشرة في المشكلة المعنية. وسوف أتناول تلك الحجج فيما بعد. وسوف يوافق القارىء، حسبما اعتقد، أن تلك الحجج التي هي حجج غير متوقعة أحياناً، قائمة أيضاً على سوء فهم.

٤

ربما قيل، في نقد المادية، إن مؤلفنا لم يتذكر تعاليم فيورباخ كلها، بل مادية **العصور السابقة**، ما قبل المادية الفرنسية في القرن الثامن عشر، وما تشمله، وأن المؤرخين المعاصرين للفلسفة لا يقرون حتى بفيورباخ على أنه مادي. وسوف أرد على هذا بأن هرزن اعتقد أن حججه ضد مادية العصور السابقة لا يمكن دحضها بالنسبة لكل أنماط المادية بشكل عام وأن المواقف النظرية للمادية السابقة، في ميدان مناقشتنا، على الأقل من هوبز وما بعد، لا تختلف أساساً عن مواقف فيورباخ ومن الواضح اذن كيف ينظر المرء إلى الحجة القائلة إن فيورباخ لم يكن مادياً على الاطلاق. لقد أقيمت ليس

---

* يبدو أن جوردان التزم بحل فيورباخ للمسألة: قال أنه على افتراض أن الفكر أولي، فان الفلسفة لا تلغي الطباق بين الفكر والكائن.

** إن الرأي الذي استمده هرزن من هيغل، القائل إن الفكر « درجة من التطور مثل الميكانيكية والكيماوية والبنية العضوية » (انظر أعلاه) لا يمكن الدفاع عنه. إن الفكر ليس أبداً ظاهرة **عضوية** عليا: إنه وظيفة **العضوية** عند مستوى معين من التطور

على أساس ما كان بل على أساس ما يجب أن يكون لدى بعض أيديولوجي البرجوازية التي أصبحت محافظة جداً وكئيبة وزاهدة عن عصرها القديم. هؤلاء الأيديولوجيون يتبعون القاعدة المقنعة لهم، ولكنها مضحكة ومحزنة، ولا يعترف بها أي مفكر جدي كمادي، مهما كان تفكيره. منذ فترة، وفي نزاع كونراد شميدت معي في النيوزيت رفض حتى الاعتراف بهولباخ ولامتري وهلفيتوس كماديين(٢٠١) ولا بد من ملاحظة أن المرء يجب أن يعرف أين يتوقف حتى عندما يحاول لسبب ما أن يقدم نكتة.

وأقر أن من النافل أن أكرر هنا ما قلته في شتى المناسبات عن مادية فيورباخ، إلا أني سأذكر القارىء بالحقيقة التالية.

عندما ظهر كتاب موليشوت ليهردر ناهر ونغشمت*، لم يرحب به فيورباخ بحماسة وحسب، بل صرح أيضاً أنه حل معظم القضايا المعضلة في الفلسفة، وانه اشتمل على «مبادىء فلسفة المستقبل» الحقيقية** فهل عد موليشوت أيضاً خطأ بين الماديين؟

لا فائدة من الخوض في هذا العبث. لقد كان انجلز محقاً تماماً في قوله: «إن مجرى تطور فيورباخ أنه تطور من هيغلي... إلى مادي»***(٢٠٢) ولكن لكل تطور مراحله. وقد اعترف فيورباخ أن نظرته في كتابه جوهر المسيحية لم تكن نظرته الأخيرة، وكانت إلى حد ما بجريرة خطيئة المثالية**** وهرزن أيضاً تطور من الهيغلية إلى المادية، إلا أن رسائل في دراسة الطبيعة فيه نظرة مادية متماسكة أفضل من كتاب فيورباخ في جوهر المسيحية. ولو سئلت إلى أي مرحلة من مراحل تطور فيورباخ وصلت النظرة الفلسفية لهرزن في كتابه رسائل في دراسة الطبيعة لأجبت بكل ثقة: إنها وصلت إلى مرحلة مقالة فيورباخ «نقد المثالية» المخصصة لتحليل كتاب دورغوت «نقد المثالية والمادية...» المنشور ١٨٣٨ وبالمناسبة نقول إن فيورباخ في هذه المقالة

---

* برجم الى الروسية تحت عنوان «أصول التغذية» ولعب دوراً في تطورنا الثقافي.

** ذلك كان عنوان أحد الأعمال الفلسفية الأساسية لفيورباخ.

*** إن أنصار السلافية عندنا، أمثال خومياكوف اعتبروه أيضاً مادياً.

**** ربما بسبب هذا النقص يجد السيدة لوناتشارسكي أن من الممكن معارضة رأي الدين الوارد في هذا الكتاب مع رأي «انجلز وبليخانوف». إن السيدة لوناتشارسكي وبوغدانوف مستعدان للترحيب بأي هفوة من أي مفكر إذا كانت تلك الهفوة تقربه من المثالية.

يحدى الفكرة القائلة إن الفكر ليس سوى خير الكائن، أي الفكرة التي أصبحت فيما بعد أساس فلسفته. واعتقد أن مؤلف رسائل في دراسة الطبيعة سوف يعتبر البراهين التي يقدمها فيورباخ ضد تلك الفكرة في المقالة المشار إليها أعلاه، صحيحة تماماً*

بات واضحاً الآن كيف أن هرزن استحسن، كما رأينا، مثالية ليبنتز المتطرفة في حين كانت تحت تأثير دراسة فيورباخ: والحقيقة أن دراسات فيورباخ في تاريخ الفلسفة تعود إلى مرحلة ما قبل الماركسية في التطور النظري**

ولكن ثمة شيئاً جديراً بالاهتمام. فكما رأينا ان الحل الهيغلي للتناقض بين الفكر والكائن حسب رأي فيورباخ، ليس سوى نقل التعاليم اللاهوتية عن خلق الله للطبيعة إلى لغة الفلسفة. إن مؤلف رسائل في دراسة الطبيعة عارض بحزم هذه التعاليم. ومن المعروف أن صداقته مع غرانوفسكي قد فصلت بسبب أن الأخير كان مشمئزاً من الإنفصال عن هذه الأطروحة اللاهوتية العتيقة. وبينما عارض فيورباخ في مظهره اللاهوتي، وقف معه في (رسائل في دراسة الطبيعة) لأنه تزيا بالزي الفلسفي*** كانت هذه الظاهرة تناقضاً تحرر منه أبناء الستينات أمثال تشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف**** ويبدو أن هرزن أيضاً تحرر منه أخيراً ولكن بما أنه بدا في مؤلفاته الهامة مثل رسائل في دراسة الطبيعة، فمن الصعب ألا ينتبه إليه «أبناء الستينات» الذين كانوا متمرسين حقاً في الفلسفة. لقد كان تشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف متحمسين جداً لفيورباخ، لكن فيورباخ نفسه الذي تحمسوا له كان فيورباخ المرحلة المتأخرة من التطور، فيورباخ الذي كتب اصلاح الفلسفة ومبادىء

---

* المقالة التي ضد دورغوت موجودة في المجلد الثاني من مؤلفات فيورباخ الكاملة ص ١٣١ - ١٤٥ (طبعه ١٩٠٤). ولنتذكر هذا كل شيء. ولكن لم يكن الأمر هكذا اعتقد أن الفكرة التي رفضها في معارضة دورعوت، الموجودة في النص، وافق عليها تماماً مع الزمن. هذا كل ما في الأمر

** انظر موافقته على هذه النقطة في المؤلفات (مجلد ٢ ص ٤٠٦)

*** كثير من القراء والمعجبين الألمان بفيورباخ، الذين أعجبوا بكتابه جوهر المسيحية، ليس لديهم فكرة واضحه عن آرائه الفلسفية الأساسية. وقد ظهر هذا منذ بداية الأربعينات. أنظر المقالة المشار اليها أعلاه شميدت في دوتش برغربوش المجلد ٢ ص ٦٥ وليس من الصعب أن نلاحظ أن شميدت نفسه لا ينجو من هدا العيب.

**** أنظر في العلاقة بين تشيرنيشيفسكي وفيورباخ كتابي تشيرنيشيفسكي ومقالتي «النظرية الجمالية عند تشيرنيشيفسكي» في مجموعة «عشرين سة»

فلسفة المستقبل... الخ والمقدمة المشهورة للطبعة الأولى لمؤلفاته الكاملة نظراً لهذا فان «أبناء الستينات» يفترض أنهم فهموا فيورباخ وأخلصوا له أكثر من تقدمي الأربعينات* وربما كان هذا الغرض ظاهراً في قول دوبروليوبوف الساخر عن بيرسينيف[٢٠٣]: «ليس من الضروري أن تسمع ما يقوله عن فيورباخ». اذا كان هذا الافتراض (الذي كما يبدو سيظل افتراضاً) صحيحاً، فان «الجنتلمان الروسي الفائق» بيرسييف لن يشقى لنفسه، بل لجيل كامل.

فوق ذلك سوف أشير إلى مؤلفات هرزن الأخيرة التي حقق فيها انفصالا عن المثالية. أما الآن فأقسر نفسي على التكرار أن تأريخ هذا الانفصال بربيع ١٨٤٤ لا مبرر له: ففي تلك الفترة تبقى، كما عرفنا، الحل المثالي لقضية العلاقة بين الفكر والكائن.

لقد اعتدنا جميعاً أن نعتبر هرزن «واقعياً» - من غير أن ننسب إليه أي مضمون نظري محدد لمصطلح «الواقعية» - بحيث يبدو ما قلته هنا عن مثاليّته شيئاً غريباً على الكثيرين. بيد أن هذه المثالية حقيقة يجب ألا نكف من الحديث عنها والإشارة إليها لصالح تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي. وربما آلم بعض القراء ما سمعوه عن مثالية مؤلف **رسائل في دراسة الطبيعة**، وحتى أعزي هؤلاء القراء سوف أقص عليهم القصة التالية.

أثناء مقابلتي الأولى مع انجلز تحدثت معه، من جملة ما تحدثت، عن لاسال الذي يعرفه معرفة جيدة بالطبع وحتى يبرز انجلز آراء لاسال الفلسفية قال لي: تصور أنه آمن حتى يوم وفاته بالمقولات الهيغلية ذات الوجود القبلي». ويمكن للمرء أن يلمس ذلك بمجرد الاطلاع مثلاً على كتاب للاسال مثل **نظام حق الملكية**. إن لنظرة لاسال العالمية نقاط ضعفها لكن الحقيقة أن هرزن في **رسائل في دراسة الطبيعة** ينتقد المادية كشخص يؤمن - في الوقت على أي حال - بالمقولات الهيغلية القبلية. وسوف يتذكر القارىء بسهولة ما قاله مؤلفنا عن «المفهوم القبلي» وتحققه في العملية العضوية. وأبرز ما في هذا المجال طرحه لمحاولة هيغل تسيير العملية الديالكتيكية للطبيعة «من دون ادخال أي وساطة سوى الحركة المنطقية للمفهوم».

---

* حاكم المرء بمقتضى مقالات عن مرحلة غوغول في الأدب الروسي-يبدو أن الاستثناء الوحيد في هذه الحالة هو بيلسكي

٥

ظل الاعتقاد حتى الآن، أنه بينما كان بيلنسكي شديد الحرص على قبعة هيغل « الفلسفية » تجنب هرزن هذه الخطيئة في صباه، ولم يتخذ موقفاً إيجابياً تجاه « القبعة » لأنه التزم بالنظرة « الواقعية ». ونعرف الآن مدى خطأ هذا الاعتقاد لقد وضع هرزن « قبعة » هيغل الفلسفية مدة طويلة على رأسه، ومن السخف الندم على ذلك، فلم يكن ذلك مصيبة بل من حسن حظه. كان مؤلفنا العظيم سيظل « غير كامل وغير عصري » - حسب تعبيره - ما لم ينصهر في « بوتقة » المنطق الهيغلي. والشيء الوحيد الصحيح في النظرة المشتركة لمجرى تطوره الفكري أن الفلسفة الهيغلية لم تقده - على العكس من بيلنسكي - الى المصالحة مع الواقع الروسي. وينجم هذا الفرق من سببين. أولاً ظروف العصر، ثانياً حقيقة أن تكوين عقل هرزن يختلف عن عقل بيلسكي

بدأ هرزن، الذي كان في صباه من زمرة « السياسيين » يتعرف على الفلسفة الهيغلية بعد بيلنسكي ببضع سنوات. وكان ذلك أمراً مهماً في عصر تقدم فيه كل سنة جديدة كثيراً من الانتصارات الجديدة لجناح المدرسة الهيغلية اليساري، والكثير من الاندحارات لجناحها اليميني. تلك الانتصارات والاندحارات لم تبق مجهولة في روسيا، فهرزن نفسه يقدم وصفاً حياً كيف جرى اتباع الأدب الفلسفي الألماني في موسكو. « كل الكراريس الفلسفية غير الهامة التي ظهرت في برلين والمدن الأخرى، والتي أشير فيها الى هيغل كانت تدخل الى روسيا وتقرأ بشغف بحيث تصبح صفحاتها مغضنة ومتسخة وتأخذ تتساقط في عدة أيام »* ويضيف مازحاً أن كل كتب فردر ومارهينك وميشيليت وأوتو وفاتكي وشالر وروسيكرانز، وحتى ارنولد، روج نفسه بكى لدى سماعه بـ « المعارك الدموية والصراع الذي أثارته كتبه بين شارع ماروزيكا وموخوفايا، وكيف بيعت وقرئت »** ولم تكن كتب أوتو ومارهنيك وميشيليت هي التي بيعت وقرئت فقط، بل أيضاً كتب ممثلين للجناح اليساري. أحدهم، أرنولدروج، الذي أشار اليه هرزن نفسه، وإليه يجب أن نضيف الكثيرين. ويمكن أن يرى المرء من يوميات هرزن أنه كان على علم بالسخط الذي أثارته في حلقات الألمان التقدميين عقوبة

---

* المؤلفات المجلد ٧ ص ١٢١ ورأينا كيف وصلت إليه مجلة فيغاند الفصلية.

** المرجع السابق ص ١٢٢ إشارة التجديد موجودة في الأصل.

برونو بوير الذي أثارت أطروحته في ليسنشادوسندي* السلطات الألمانية بسبب بحثه اللاهوتي الجريء. ولم تبق الدوتش جاهبوشر[٢٠٤]، لسان حال الهيغليين، مجهولة لديه. وقد أشار إليها في المقطع التالي من يومياته: «وبذلك انتقلت الفلسفة الألمانية من قائمة المحاضرات الى الحياة، وبالتالي أثرت تأثيراً مباشراً في أحداث العالم. وتحققت خطوات كبيرة في التربية السياسية. وتخلص الألمان من الأشياء التي كانت تؤخذ عليهم عادة احدى المقالات انتهت بهذه الصرخة: علينا أن نقرر مرة والى الأبد إما المسيحية والملكية، أو الفلسفة والجمهورية. هنا انخرطت ألمانيا في التحرر السياسي».. الخ**

عندما يتلقى المرء مثل هذه الانطباعات من شراح ذلك النظام الفلسفي، يمكن أن يفهم هذا النظام على أنه مصالحة مع الواقع - إن الأمر على العكس***

إن تعليم هيغل كان نظاماً مستفيضاً للمثالية المطلقة. وادعت المثالية المطلقة أنها رؤيا فلسفية للحقيقة المطلقة. وبما أن هذه الحقيقة، حسب تعبير هيغل، قد اعترف بها الإنسان بعد أن تحققت في الحياة (بومة منيرفا لا تبدأ طيرانها إلا بعد حلول الليل) فان المفكر الذي يظن نفسه أنه مالك نظام الحقيقة المطلقة بأكمله لا بد له من أن يرى المؤسسات الاجتماعية والسياسية لعصره على أنها أقرب ما تكون الى الكمال. إن متطلبات «مطلق» هيغل جعلته يصل الى نتائج محافظة، وأولئك الذين تصالحوا مع تلك المتطلبات وافقوا على تلك النتائج أيضاً هذا ما فعله بيلنسكي لفترة. ولكن ثمة مظهراً آخر لتعليم هيغل - **المظهر الديالكتيكي**، إن النظرة الديالكتيكية للعالم التي عبرت عنها بصورة رائعة كلمات هيراكليت الغامض «كل شيء يتدفق، كل شيء يتغير» تنفي كل نزعة محافظة وتتصالح قبل كل شيء، مع التطور التقدمي للمجتمع،

---

* دبلوم محاضر.

** المؤلفات. مجلد صص ٣٠ - ٣١ كانت دورية أوبوفيغاند صوت الجناح اليساري في المدرسه الهيغلية.

*** إن المفكرين الألمان التقدميين في ذلك العصر كما يمثلهم الاشتراكيون الحقيقيون (أو الفلسميون) - جابهوا «عقلانية الواقع» بطريقة أصيلة. ففي كلمات هيغل «كل ما هو واقعي عقلي» تكملها كلمات «وكل ما هو عقلي واقعي». أما الاشتراكيون الألمان لاتجاه «الحقيقة» فقد قالوا طالما أن الطموحات عقلية، فلا بد من أن تصبح واقعية. وهكذا أدت تعاليم هيغل بهم الى المصالحة مع الطوباوية وليس مع الواقع ولا إشارة الى أن هرزن كان مطلعاً على هذه الاشتراكية قبل نزوحه خارجاً.

طالما أنها مخلصة لنفسها. إن نضال الهيغليين اليساريين ضد الجناح اليميني يبرز تمرد أولئك الذين قيموا بصورة أساسية المظهر الديالكتيكي لتعليم هيغل ضد أولئك الذين مالوا الى المطلقية الفلسفية. وقد تأكد هرزن من ذلك تماماً كتب: «كان انجاز هيغل الكبير أنه جسد العلم في طريقة بحيث أن المرء الذي يفهم طريقته ينسى شخصيته»*
في مقالته عن «البوذية في العلم» يسخر بصورة لاذعة من الشكليين الذين «يعجبون من اعترض الناس في حين كل شيء قد شرح وفهم، وحين أنجزت البشرية شكلاً مطلقاً** للكائن، وهذا ما تثبته حقيقة أن الفلسفة الحديثة هي فلسفة مطلقة، وان العلم يتطابق فقط مع المرحلة ولكنه يتطابق كنتيجة لها، أي التحقق في الكائن. بالنسبة إليهم هذا النوع من البرهان لا يدحض»*** وخوفاً من أن يشك القارىء بوجود هؤلاء الشكليين» يقدم هرزن بيرهوفر الهيغلي المنسي الآن الذي كتب كتاباً «مطلقاً» عن **الفكرة وتاريخ الفلسفة**. إنه لا يخفي اعجابه بمتنقي النظرة الديالكتيكية العالمية.

حسب رأيه هم أشد اخلاصاً الهيغل من هيغل نفسه، انهم «ينطلقون من مبادئه ويعارضون بجرأة تناقضه، وقد اقتنعوا أنهم يحاربون معه لا ضده****. إن هيغل نفسه يظهر في وصفه له فيلسوفاً فهم بعمق الطبيعة الثورية لمثاليته الديالكتيكية ولكنه كان خائفاً منها وفي اعتقاده أن الخوف من أن هيغل شعر بالسمة الثورية لفلسفته الخاصة يفسر الحقيقة المعروفة وهي أن هيغل كتب بأسلوب ثقيل.

«كان هيغل على الرغم من قوة عبقريته وعظمتها رجلاً أيضاً، كان في خوف مميت من أن يعبر عن نفسه ببساطة، تماماً كما كان خائفاً من أن يتابع مبادئه الى نتيجتها النهائية، كانت تنقصه بطولة الجرأة، بطولة التضحية الذاتية في الموافقة على الحقيقة في كل وجوهها، مهما كان الثمن. إن أعاظم الرجال توقفوا قبل النتيجة الواضحة لمبادئهم، بعضهم تقهقروا خائفين يخبئون أنفسهم تحت ستار الغموض، بدلاً من البحث بوضوح لكن هيغل رأى كثيراً مما هو مقبول لا بدَّ من التضحية به: وقد جد في سعيه

---

* المؤلفات. مجلد ٢ ص ٥٩

** التشديد في الأصل.

*** المؤلفات مجلد ١ ص ٣٧٣

**** المؤلفات. مجلد ٢ ص ١٥٩

لكنه من جهة أخرى لم يستطع التعبير عما كان قد صمم التعبير عنه »* ومن هنا جاء أسلوبه الثقيل.

ونظرة هيغل ذاتها نجدها في **أيامي الغابرة وأفكاري**. جاء في ذلك الكتاب: «أثناء تدريسه في برلين رفع هيغل عن عمد، ربما بسبب تقدمه في السن أو بسبب مركزه وتقديره، فلسفته عن المستوى الدنيوي واحتفظ بها في وسط لا تتميز فيه المصالح العابرة ولا العواطف، مثل الأبنية والقرى عندما ننظر إليها من المنطاد، إنه لم يرغب الخوض في تلك القضايا العملية التي كان من الصعب علاجها، والتي تستوجب رداً إيجابياً »**

نظرة هيغل هذه التي « رفعت عن عمد » فلسفته فوق المستوى الدنيوي لم تصمد أمام النقد. لقد ثبتت سمتها الخاطئة في التطور اللاحق للفكر التقدمي في الغرب. والواقع أنه ليس هيغل فقط بل الهيغليون اليساريون أيضاً عجزوا عن فهم المضمون الثوري لفلسفة هيغل عامة ونتائجها الممكنة. مثل هذا الفهم موجود في مؤلفات ماركس وانجلز اللذين مرا بمدرسة فيورباخ بعد هيغل، حيث أقاما الديالكتيك « **على قدميه** »، أي حولوه من ديالكتيك **مثالي**، كما بقي عند هيغل والهيغليين اليساريين، بمن فيهم برونو بوير، الى ديالكتيك **مادي**. ولكن الجدير بالملاحظة أن هرزن في هذه الحالة أيضاً كان قريباً جداً من الهيغليين اليساريين في ألمانيا. في كتاب برونوبوير الشهير: «**اطروحات عن هيغل في الالحاد ومناوأة المسيحية**، قدم المثالي الألماني العظيم على أنه رجل تحقق بجلاء من « النتائج » الثورية التي نجمت عن « مبادئه » وليس أقل جدارة بالملاحظة أن برونو بوير في تصور هيغل على أنه ثوري متطرف في ميدان الفكر، ظل هو نفسه مثالياً. وبسبب هذا دخل فيورباخ معه في مخاصمة في كتابه **اصلاح الفلسفة**.

٦

أشرت أعلاه أن « القبعة الفلسفية » لهيغل لم تكن مصيبة بالنسبة الى هرزن بل كانت من حسن حظه، لأنها قوت ذهنه. فاذا كان ثمة أي شك حول هذه النقطة، فان

---

* المؤلفات مجلد ١ ص ص ٣٤٩ - ٣٥٠

** المؤلفات. مجلد ٧ ص ص ١٢٤ - ١٢٥

في مقدوري أن استشهد ثانية « **رسائل في دراسة الطبيعة** ». لقد استخلصت الخطيئة النظرية الأساسية للمؤلف ويبدو أن هذه الخطيئة يمكن أن تعزى الى هيغل: لكن هرزن هو الذي عجز عن أن يفهم بوضوح التعلم المادي حول وحدة الفكر والكائن. لكن الأسباب تكمن في حقيقتها في المثالية، وليس في الشكل الخاص الذي صاغها به هيغل. وهكذا عندما أقول إن تأثير هيغل قوى ذهن هرزن، أقصد الجانب الديالكتيكي من فلسفته وليس الجانب المثالي. أما مدى تأثير هذا الجانب في هرزن فيظهر بوضوح لكل من يعيد قراءة **رسائل في دراسة الطبيعة** قراءة متمعنة. فالرسائل على الرغم من ضعفها الذي أشرنا إليه من قبل لا بد من الاقرار أنها أعظم انجاز نظري وأدبي لهرزن. تمعنوا مؤلفنا في هذه الرسائل سعى لتمهيد الطريق جمعاً للفلسفة مع العلوم الطبيعية في الوقت الذي كانت فيه الفلسفة متحدة مع الدين*، مثلاً كما سعى لتوحيدهما سامارين وكما سعى اليوم السيد بازاروف. فمن الواضح أنه حتى يجمع المرء الفلسفة الهيغلية مع الدين لا بد من أن يركز على الناحية « المطلقة » من الهيغلية، وأنه لجمع الفلسفة مع العلوم الطبيعية لا بد من التركيز على الديالكتيك. إن **رسائل في دراسة الطبيعة** تشتمل حقاً على صفحات رائعة تقدم النظرة الديالكتيكية في العملية العالمية. ومن المستحيل ان انتقص من قدر تلك الصفحات هنا - إنها عظيمة حقاً، ولكني لا أستطيع مقاومة الاغراء بنسخ بعض المقاطع المميزة.

يكتب هرزن في عرضه آراء هيراكليت: « الكائن يعيش من خلال الحركة من جهة، والحياة ليست سوى حركة مستمرة لا تتوقف، سوى نضال حاد أو بالأحرى سوى مصالحة فعالة للوجود مع اللاوجود، وكلما اشتد الصراع ضراوة اقتربا من بعضهما، وتطورت بهما الحياة الى الأعلى، وهذا الصراع أزلي أبدي - تداخل دائم لا يمكن فصل طرفيه »**

لا يجوز الافتراض أن هرزن يحصر نفسه في تكرار الفكرة العامة لفيلسوف أفسس « الغامض » وهي أن « كل شيء يتدفق، كل شيء يتغير ». لا إنه يعرف كيف

---

* في دفاع هرزن عن الجمع بين الفلسفة والعلوم الطبيعية قال تقريباً الشيء نفسه الذي قاله فيورباخ (انظر ما قاله فيورباخ في اصلاح الفلسفة. المؤلفات(مجلد ٢ ص ٢٤٤). إلا أن هذه الفكرة كانت مشوبة بالمثالية عند هرزن بينما هي مادية عند فيورباخ

** المؤلفات. مجلد ٢ ص ١١٤.

يستخدم هذه الفكرة العامة ويطبقها على الظواهر المختلفة للطبيعة. واليكم ملاحظاته عن العضوية:

إن العضوية الحيوانية تتمثل بصراع دائم ضد الموت الذي ينتصر في كل وقت، ولكن هذا الانتصار أيضاً لصالح الوجود، وليس لصالح اللاوجود. إن الأنسجة المتعددة العناصر التي يتركب منها الجسد الحي تتحلل دائماً الى عناصر ثنائية (أي عناصر غير عضوية، معدنية) وتتركب باستمرار كعناصر جديدة، فالجوع يتجدد بطلباته لأن المواد استهلكت، والتنفس يحتفظ بالحياة ويحرق العضوية، والعضوية تنتج باستمرار ما هو معد للحرق. فإذا لم يتغذ الحيوان فإن عقله ودمه سرعان ما يحترقان... وكلما تطورت الحياة، ووصلت مجالاً أعلى، اشتد الصراع الضاري بين الوجود واللاوجود، واقتربا جداً من بعضهما »*

وهذا مقطع آخر «إن معظم الناس (أقصد أولئك الذين يعتبرون أنفسهم متعلمين) فقدوا عادة الأفكار الجددة، أو أنهم لم يكتسبوا تلك العادة، التي تجعلهم يستخدمونها من غير إزعاج. إننا لا ندهش مثلاً لحقيقة أن الإنسان بالمعنى الفيزيولوجي، لا يتجزأ، فهو متكامل، بينما بالمعنى التشريحي مختلط ومركب من كثير من الأجزاء، بحيث أن جسدنا هو في الوقت نفسه أنفسنا وغيرنا، ولا أحد يدهش لعملية الانبثاق الجارية حولنا، هذا الكفاح الصامت بين الوجود واللاوجود، الدي لا يبقى شيء من دونه، ولا أحد يدهش لطبيعة التحول الدائمة حولنا. اذكر ما يراه الناس العاديون حولهم وما يشعرون به يومياً - إنهم لن يفهموك، ولن يعترفوا بمعلوماتهم القريبة من كلماتك »**

المقطع الأخير: «عملياً نحن ننظر الى الأشياء بطريقة هيراكليتيه [أي ديالكتيكية - ج. ب]، فقط في ألمجال الكوني للفكر نفشل في فهم ما نفعله. ألم يتبين للانسان منذ المدى السحيق أنه ليس الجمود الميت للشيء كما يوجد وليس هويته مع ذاته هو كل ما نعرفه عنه؟. في كل ما هو حي، مثلاً، هل نرى سوى عملية التحول الأبدية التي

---

* المرجع السابق ص ص ١١٤ - ١١٥

** المؤلفات. مجلد ٢ ص ١٣٧

تبدو حية من خلال التغير فقط؟ العظام اكثر الأعضاء صلابة في العضوية، ومع ذلك لا ننظر إليها على أنها حية »*

كل هذه المختارات يمكن أن تترك انطباعاً أنها لم تكتب للأربعينات، بل للنصف الثاني من السبعينات، وليس بقلم هرزن، بل بقلم انجلز** الى هذه الدرجة وصل التشابه في الأفكار بين الأول والثاني. يبين هذا التشابه الكبير أن فكر هرزن كان يعمل في اتجاه فكر انجلز، وبالتالي فكر ماركس. وليس عبثاً أن هرزن عبر في المدرسة الهيغلية كما فعل مؤسساً الاشتراكية العلمية في الوقت نفسه تقريباً. الفارق الوحيد، وهو فارق أساسي بالطبع، هو أن ديالكتيك هرزن ظل مثالياً بينما ديالكتيك ماركس وانجلز صار مادياً. لذلك لا أظن أني أجحفت بحق هرزن بعد الذي سبق وقلته أعلاه. وها هو برهان مقنع:

بعد أن شرح مؤلفنا، بحماسة، نظرة هيراكليت الديالكتيكية في الكون، رأى نفسه مضطراً للاشارة إلى نقطة ضعفها.

« إنه [هيراكليت - ج. ب] لم يفهم الكون أبداً على أنه عملية: لقد فهمه على أنه عملية عفوية. على أي حال لا شيء استبعد عن الحركة، فلا وحدة أقامتها الدوامة العابرة للحركة ولاظهرت في خاتمتها ولا بدايتها. إن بداية الحركة عند هيراكليت ضرورة قدرية مؤلمة تحتفظ بصفتها في تنوعها وتدفع نفسها خارجاً، لا أحد يعرف إلى أي نهاية تسير، كقوة لا مقاومة في وجهها، كحادث ولكن من دون حرية ولا هدف واع. إن هيراكليت. بشكل عام لم يقدم هدفاً للحركة، حركته ملموسة أكثر من الوجود الالياتيكي، لكنها مجردة، تصخب من أجل هدف، من أجل الثبات »***

كتبت هذه الملحوظة النقدية تحت تأثير هيغل، كما يمكن أن يرى المرء من قراءة صفحة عن هيراكليت في كتاب هيغل عن تاريخ الفلسفة. ولكن حقيقة أن هرزن وافق

---

* المرجع السابق ص ١١٧ في كانون الثاني ١٨٤٥ قرأ هرزن بحماسة تاريخ الكيمياء لدوماس ووضع هذه الملاحظة: « من غير كيمياء لا وجود للفيزيزلوجيا وبالتالي للعلوم الطبيعية. ويكون للعلوم الطبيعية قاعدة أساسية طالما أنها تتعامل مع المورفولوجيا وليس مع ذلك الذي يتغير فيها » (المؤلفات. مجلد ١ ص ٢٦٤)

** انظر مجادلة انجلز مع دهرنغ [انني دوهرنغ. فصل الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية][٢٠٥]

*** المؤلفات. مجلد ٢. ص ص١١٨ - ١١٩

هيغل في هذه الناحية، تكشف الطبيعة المثالية لنظرته في الديالكتيك: إن المثالي فقط يبيح لنفسه بأن يتكلم عن «هدف» لحركة العالم الأبدية.

أثرت فلسفة هيغل الديالكتيكية على الرغم من سمتها المثالية في هرزن فجعلته يعتقد أن من الضروري «تحرير» العلوم الطبيعية من «القوى المجردة». والعلوم الطبيعية لم تتحرر في الحقيقة من تلك القوى فيما بعد، عندما ظهرت نظرية تحويل الطاقة وأصبحت منتشرة*

كتاب انجلز «انتي دوهرنغ» يذكر المرء أيضاً برسائل في دراسة الطبيعة من حيث الالحاح على علماء الطبيعة أن من المفيد جداً لهم اعتناق النظرة الديالكتيكية في الطبيعة. يلاحظ انجلز «إلا أن علماء الطبيعة الذين تعلموا التفكير ديالكتيكياً هم قلة، والصراع بين نتائج الاكتشاف والطرق السلفية للتفكير يفسر التشويش الذي لا ينتهي والمهيمن الآن على العلم الطبيعي النظري، ويفسر يأس المعلمين والمتعلمين، المؤلفين والقراء على حد سواء»**

انجلز يكرر هنا، من دون أن نشك في ذلك طبعاً، الشكاوى التي تكررت في كل صفحة تقريباً من صفحات رسائل في دراسة الطبيعة.

إن علماء الطبيعة البارزين لم يبدوا أي اهتمام كبير نحو النظرة الديالكتيكية في الطبيعة، مع أن الاكتشافات الكيميائية للسنوات القليلة الماضية قدمت برهاناً رائعاً على أن كل شيء في الطبيعة يعمل بشكل ديالكتيكي، كما قال انجلز إن اللوم في ذلك يقع على المثالية المعاصرة التي تؤثر في علماء الطبيعة أيضاً ولا يمكن أن تقدم لهم سلاحاً ديالكتيكياً، كما فعلت مثالية هيغل.

---

* يقول هرزن: لا شك أن التفكير الرياضي تقدم أكثر من الفيزياء، تدل على ذلك نظرية اللامتناهيات وحدها» (المؤلفات. مجلد ٢ ص ٥٦). ويشرح في مناسبة أخرى هذا الرأي بالتفصيل. إنه يمتدح الرياضيات لأنها انفصلت عن هذا الذهن أو ذاك. «ما هو التفاضل؟ هو كمية لا متناهية لذلك هو إما كمية، محددة في حالة ما، أو غير كمية على الاطلاق، فتكون صفراً في هذه الحالة. لكن عند ليبنتز ونيوتن مفهوماً أوسع يعترف بالوجود واللاوجود، حركة بداية الانبثاق، حركة التحول من لا شيء الى شيء إن نتائج نظرية اللامتناهيات معروفة تماماً. وفوق ذلك لم تكن الرياضيات تخشى الكميات السلبية أو التي لا تقدر، أو المطلقة، أو الجذور الخيالية، ومن نافلة القول أن كل هذا ينهار أمام «هذا أو ذاك» من الفكر الضيق» (المؤلفات. المجلد الأول ص ص ٢٩٤ - ٢٩٥، الملاحظة). هذه نظرة ديالكتيكية خالصة في الرياضيات، مأخوذة من هيغل.

** انظر أنتي دوهرنغ فصل الفلسفة والاقتصاد السياسي والاشتراكية[٢٠٦]

لقد انتقد هرزن علماء الطبيعة «لعنادهم في عدم تحليل علاقة المعرفة بالموضوع، علاقة الفكر بالكائن». فهؤلاء العلماء «يخشون نظام المعرفة حتى أولئك المعادين للمادية كمذهب. إنهم يفضلون معاملة موضوعهم بطريقة تجريبية، فيتأملونه بشكل سلبي، مع أن هذا بالنسبة إلى الكائن البشري مستحيل مثلما أن من المستحيل للعضوية أن تتغذى ولا تتحول»* لقد أصاب، كما يقول المثل، كبد الحقيقة. فالعلماء الطبيعيون لم يكلفوا أنفسهم عناء تحليل علاقة الكائن بالفكر، بحيث أن المتفلسفين منهم يظهرون كأطفال في كل مرة يتناولون فيها هذا الموضوع الهام. وحتى يوضح المرء ذلك يرجع إلى أوزفالد، الذي قامت نظريته في الطاقة على النظرية المثالية الخالصة في المعرفة، وإلى ماخ الذي يعيد بعث بركلي، وإلى هيكل الذي يهاجم أحياناً بصورة مفاجئة وبلا تعليل المادية التي تعتبر المضمون الوحيد الأصيل لنظريته الواحدية. كل هؤلاء الطبيعيين، وقد اقترفوا خطيئة المثالية من دون وعي، اعتقدوا بسذاجة أن نظراتهم لا علاقة لها بها إن ذلك يمكن فهمه تماماً: فعندما يتجاهل دارس ما مسألة هامة في النظرية، فانه يتمثل، على الرغم من ارادته ومعرفته لنفسه، حلاً بالياً للمسألة. أما هرزن فقد التزم بحل صحيح للتناقض بين الفكر والكائن متبعاً هيغل. وهذا هو السبب في أن نقده للعلماء الطبيعيين، الصحيح تماماً من حيث جوهره، حظي بأهمية أنه اتهمهم بأنهم يفضلون التجريبية المتطرفة على المثالية المطلقة. إن هذا الاتهام، بهذه الصياغة، لا يبدو أنه مخيف جداً

٧

في ٢٦ تشرين أول ١٨٤٣ كتب هرزن مادة في يومياته بتأثير محادثته كيريفسكي: «التاريخ باعتباره حركة البشرية نحو التحرر ومعرفة الذات، نحو النشاط الواعي، لا يوجد من أجلهم، فنظرتهم في التاريخ تقارب الريبية والمادية من الجانب المعاكس. إن حياة البشرية كلها ظاهرة مرضية غير طبيعية. وثمة عاقبة مجنونة لها»**

في كتابه رسائل في دراسة الطبيعة يعادي النظرة القائلة إنه لا حاجة إلى دراسة تاريخ الفلسفة، لأنه خليط من المذاهب الفلسفية المتصارعة. يقول: «لكن الأمر ليس

---

* المؤلفات. مجلد ٢ ص ٤٠

** المؤلفات. مجلد ١ ص ص ١٤٠ ١٤١

كذلك. فالناس أصحاب العيون الكليلة الذين لا يستطيعون أن يروا المضمون الداخلي من خلال الشكل الخارجي للظاهرة، لا يستطيعون أن يروا الوحدة غير المنظورة خلف التنوع الظاهر، هؤلاء الناس، مهما قلت فيهم سوف يرون تاريخ العلم ركاماً من آراء مختلف الحكماء، كل واحد يجادل بطريقته الخاصة شتى الموضوعات الرفيعة، ودائماً حسب العادة السيئة يناقض استاذه ويتخاصم مع أسلافه: ذلك هو المذهب الذري، المادي في التاريخ، فمن وجهة النظر هذه، ليس تطور العلم فقط، بل تطور التاريخ العالمي كله يبدو كأنه اختراع شخصي ومصادفات غريبة - نظرة مناوئة للدين يعتنقها بعض الريبيين والجهلة »*

بالطبع سيدهش القارىء لسماع هذا النقد الموجه إلى انصار السلافية ذوي النظرة التاريخية القريبة جداً من النظرة المادية. مثل هذا النقد مستحيل في عصرنا الذي يمكن بمعنى ما أن يطلق عليه اسم عصر المادية التاريخية. لكن هرزن كان على جهل تام بهذه المادية التي لم تكن، بالاضافة إلى ذلك، مشروحة في مرحلة تطور مؤلفنا هذه. إن هرزن لن يوافق على أن واحداً من أهم منجزات عصره التاريخية كان تأسيس النظرة المادية في التاريخ. لقد ظن أن المرء « في المادية لا يستطيع أن يذهب أكثر مما ذهب هوبز - ما لم يعتنق الريبية »** إنه بالطبع لا يرى في لوياثان هوبز محاولة مرضية لشرح المجرى التاريخي للتطور الاجتماعي. ولا يستطيع الركون إلى آراء الماديين الفرنسيين في القرن الثامن عشر. لقد اعتاد هولباخ أن يقول إن المصير التاريخي لشعب ما قد يتحدد أحياناً لقرون على يد حركة معينة لذرة معينة في قمة طغيان ما. كان هذا النوع من المادية التاريخية قريباً جداً من الريبية التامة. إنه يساوي الاعتراف الكامل باستحالة التفسير العلمي للعملية التاريخية. لقد كان هرزن محقاً في قوله ان التاريخ العالمي كله من وجهة النظر هذه « يبدو قضية اختراع شخصي ومصادفات غريبة » أي إنه « ظاهرة مرضية غير طبيعية ». وقد أراد، كتلميذ لهيغل، أن يفهم

---

* المؤلفات. مجلد ٢ ص ٩١

** المؤلفات. مجلد ٢ ص ٢٩٢. وفرضية هذا أن تقديم هرزن لريبية هوبز كان اعادتها الى سخافة المادية. والحقيقة أنها خطوة الى الوراء، عودة من المادية الى المثالية. لقد انتعشت فلسفة هيوم جزئياً في مذهب ماخ - هذا إن كان يمكن للمرء أن يعزو أي مذهب فلسفي متماسك الى ماخ.

التاريخ بدقة على أنه «حركة البشرية نحو التحرر ومعرفة ذاتها، نحو النشاط الواعي». كتب: «تاريخ الفكر استمرار لتاريخ الطبيعة: فلا البشرية ولا الطبيعة يمكن أن تفهم بمعزل عن التطور التاريخي. إن الفرق بين التاريخين هو أن الطبيعة لا تتذكر أي شيء، ليس لها ماضٍ، بينما يحمل الانسان في ذاته كل ماضيه: وهذا هو السبب أن الانسان يرى نفسه ليس فقط فرداً بل يرى نفسه نوعاً أيضاً. إن التاريخ يربط الطبيعة بالمنطق: ومن دون التاريخ يسقطان»* هذا يعني أنه حاول رؤية التاريخ في ضوء الديالكتيك. ولكونه هيغلياً يسارياً، جعل الديالكتيك الرافعة الروحية للحركة الثورية. قال: «إن فلسفة هيغل جبر الثورة: إن لها تأثيراً تحررياً في الانسان، فألقت بعالم المسيحية إلى الحضيض، عالم الأساطير الذي استمر في الحياة»**

هذا طرح حيوي متطرف. وللأسف فان هذا التعبير الجيد والحيوي المتطرف لا يشتمل إلا على جزء من الحقيقة. إن فلسفة هيغل جبر الثورة لأن لها «تأثيراً تحررياً في الانسان». هكذا ولكن أي تحرر قصد هنا؟ التحرر الأيديولوجي للانسان. لذلك فلسفة هيغل جبر الثورة لأنها تساهم في تفسير الأفكار الثورية. ولكن من وجهة نظر هيغل، الذي يناقش هرزن طريقته هنا، ليست الأفكار القوى الدافعة الأساسية للحركة التاريخية: «إن بومة منيرفا لا تبدأ طيرانها إلا إذا جن الليل». لقد رأينا أعلاه، في حديثنا عن فلسفة هيغل الطبيعية، أن هرزن امتدح المثالي الألماني العظيم للجوئه إلى الحركة المنطقية للمفهوم باعتبارها «الوساطة» الوحيدة. ولم يكف هيغل أيضاً في فلسفة التاريخ عن اللجوء إلى الحركة المنطقية للمفهوم باعتبارها المثال الأعلى. إن السؤال هو فيما إذا كان هيغل استحسن هذا اللجوء في قضية تفسير العملية التاريخية. لا بد أن يكون النفي رداً على هذا السؤال. وأوافق أن المرء يجب عندما يقدم النفي رداً أن يضع تحفظاً، لكني مع ذلك لا أرى أي امكانية لتقديم رد إيجابي.

إن التحفظ الضروري هو التالي: التزاماً بنظرة هيغل في علاقة الفكر بالكائن، أي البقاء مثالياً بالنسبة للقضية الأساسية في أي فلسفة، لم يستطع هرزن التعبير عن

* المؤلفات. المجلد ٢ ص ٨٢.

** المؤلفات. المجلد ٧ ص ١٢٨

نفسه كمثالي « مطلق » في فلسفته عن التاريخ أيضاً وإليكم مثالاً واضحاً في كتابه **رسائل في دراسة الطبيعة** يحذر القارىء قائلاً: « بالنسبة للعملية المنطقية وارتباطها بالمعرفة الذاتية لا فرق بينها وبين العملية التاريخية من حيث الأساس. إننا نختار الأخيرة. إن الخطوة الدقيقة الواضحة للمنطق المتصالح مع ذاته هي أقل فيما يتعلق برغبتنا »* إنه بالعملية التاريخية للمعرفة الذاتية هنا يقصد التطور التاريخي للفلسفة. ويبدو بالنسبة إليه أنه لا فرق بين ربط العملية المنطقية بالمعرفة الذاتية، أي شرح المنطق، ووصف وتفسير الحركة التاريخية للفكر الفلسفي. إن هذا لا يدحض من وجهة نظر هيغل، الذي في رأيه أن تطور الفلسفة، كأي تطور آخر، يحدده بصورة حاسمة التطور المنطقي للفكرة المطلقة. وفي تعبير هرزن عن هذه الفكرة، التي لا تدحض من وجهة نظر هيغل، يبدو لنا أنه هيغلي أورثوذكسي، ملتزم بالمثالية المطلقة. ولكن عرفنا من قبل في مناسبة أخرى أنه عبر عن رفضه لنظرة هيغل في اعتبار الطبيعة والتاريخ منطقاً تطبيقياً وبالتالي أدرك هرزن أنه لا يمكن الدفاع عن هذه الأطروحة التي تبرر الاعتقاد أنها هي « ذاتها من حيث الأساس » الخ. والحقيقة أنه في محاضراته التاريخية قلما كان يلجأ إلى « الحركة المنطقية للمفهوم » باعتبارها « الوساطة » الأعمق، لأنها في معظمها تتضمن الرأي المنتشر أيضاً بين الهيغليين اليساريين في ألمانيا، وهو أن مجرى التاريخ يحدده مجرى التطور الأيديولوجي للبشرية. هذا الرأي هو ما جعل هرزن يفهم الديالكتيك على أنه جبر الثورة.

لقد كان الماديون الفرنسيون الذين دبت أفكارهم الرعب في قلب هرزن هم الأقرب إليه. إن محاضرات هولباخ عن الذرة المنجرفة القادرة على تقرير مجرى التاريخ البشري لحقبة طويلة كانت تطرفاً قلما وصل إليه الماديون الفرنسيون. إن كثيرين من هذا الاتجاه أكدوا « ان الفكر هو الذي يحكم العالم ». ذاك هو نوع المثالية التاريخية الذي انضم إليه الهيغليون اليساريون أخيراً، ومنهم هرزن. ولو قارنا هذا النوع بفلسفة التاريخ عند هيغل، لرأينا أنه ضحل جداً إن هيغل كرر كلمات أناكساغوراس: « العقل يحكم العالم ». ولكنه أضاف إن ثمة عقلاً في حركة الأجرام السماوية أيضاً، وإن كانت الأخيرة غير واعية به. إن مفهوم العقلانية كان بالنسبة إليه

---

* المؤلفات. المجلد ٢ ص ٨٣.

مساوياً للمطابقة مع القوانين. وعندما تحدث عن الحركة التاريخية للبشرية، تحقق تماماً أن تطور «الفكر» لا يؤلف أبداً سببها الأعمق. وقد ظهر هذا في مذهبه بالاشارة إلى الحركة المنطقية للمفهوم (إذا كررنا تعبيره حسبما استخدمه هرزن). بالطبع لا تفسر هذه الاشارة بحد ذاتها شيئاً: إنها فقط تذكر المرء بعدم كفاية التفسير بالعودة إلى «الفكر» في كتابه «فلسفة التاريخ» انطلق هيغل على النحو التالي: بعد أن أشار إلى حركة المفهوم - أو تطور الفكرة المطلقة - تحقق من أهمية هذه «الوساطة» المعنوية وانتقل بصورة غير متوقعة إلى العلاقات الاجتماعية الواقعية، باحثاً عن حل فيها للظاهرة التاريخية. وهكذا مثلاً فيما يتعلق بسقوط اليونان القديمة قدم كثيراً من الأفكار الرفيعة حول تطور روح العالم، ثم انتقل فجأة إلى الاقتصاد وأعلن أن لاسيديمون* سقطت بسبب تفاوت الملكية. وهكذا انتهى كتاب **تاريخ الفلسفة** على الرغم منه إلى نتائج مخالفة تماماً لما اعتاد أن يكررها في محاضراته الفلسفية العامة. لقد اعتاد أن يقول: إن المثالية تكشف عن أنها حقيقة المادية. ولكن يبدو في **تاريخ الفلسفة** أن الأمر على العكس وأن المادية حقيقة المثالية، أو إذا أردنا الدقة، أن المادية تفسر ما تبين أن المثالية ليست سوى «ثرثرة» تجاهه** وهكذا فان اللجوء إلى الاقتصاد أبرز عنصراً مادياً ليس في كتابه **تاريخ الفلسفة** بل أيضاً - وهذا ظاهر تماماً - في مؤلفه عن علم الجمال. إن العائق الرئيسي في الآراء التاريخية لأولئك الذين يشكلون الجناح اليساري من مدرسته، ومنهم هرزن، هو أنهم ركزوا اهتمامهم حصراً في «الفكر»، ولم يلاحظوا مدى جدوى خطيئة هيغل المادية هذه، وعاملوا التاريخ كمثاليين خلص. لا شك أن ذلك كان خطوة إلى الوراء في النظرية. إلا أن جميع الأنصار اليساريين لهيغل قد وقعوا فيها باستثناء ماركس وانجلز***. والحقيقة أن معظم الموهوبين منهم كانوا

---

* لاسيديمون هي اسبارطة القديمة [المترجم]

** انظر مقالتي «في الذكرى السنين لوفاة هيغل» في مجموعتي نقد نقادنا(٢٠٧)

*** أحد أبرز ممثلي ما يسمى الاشتراكية الفلسفية في المانيا، موسى هس، الذي كان متأثراً جداً بفيورباخ اتهم الأخير أنه يتبنى نظرة المادية المطلقة (انظر مقالته في الدوتش برغربوش ١٨٤٥ ص ٩٨). إن هذا مهم جداً ومعبر. فالاشتراكية الفلسفية تعتمد كدعم لها على فيورباخ المادي لكنها رفضت ماديته لأنها لم تجد فيها النصير النظري الفعال لطموحاتها الطوباوية في المادية. ولهذا السبب نبذت المادية في هذا القطر من قبل الذاتيين (ميخائيلوفسكي وآخرون، وقد نبذها حديثاً أيضاً الماضيان لونا تشارسكي وبوغدانوف). إن كل من رفض الماديه لهذا السبب وجد أن هذا السبب لم يترك مجالاً لأي نشاط فردي عفوي.

يحتفظون عميقاً « وعي نظري »، بوعي غامض تقريباً باستحالة تحقيق مثل هذه المصالحة. وسوف نرى كيف كان هرزن يتألم بسبب هذا الوعي. ولكن عنده أيضاً لم يصل الوعي إلى الوضوح الكامل، وكان ذلك هو العذاب النظري الأصلي العميق الذي كان عليه أن يتحمله.

٨

أما أن هرزن اعتبر تطور « الفكر » القوة المحركة الرئيسية للتطور فيمكن أن نجده في المقاطع الكثيرة من يومياته وكذلك في كتابه رسائل في دراسة الطبيعة ومقالتيه « الهواية في العلم » و« البوذية في العلم ». وفي مناسبات اخرى سوف آتي بمقاطع تبدو لي أشد اقناعاً

يقول هرزن هذا عن الشرق القديم: « الرجل الشرقي ليس لديه فكرة عن نبله: لذلك كان إما عبداً ممرغاً في الطين أو طاغية جموحاً »* ولا حاجة إلى القول إن هذا النقص العلمي في قوله « لذلك » لا يمكن ادراكه إلا من وجهة نظر مثالية.

لقد حاضر عن التيوتونيين [قدماء الألمان - المترجم] على هذه الشاكلة: « إن التيوتوني، منذ البداية ظهر بشخصية متحررة جداً من كل ما هو عفوي، من التربة، من الجيل، حتى من العائلة. الفرد - تلك هي الفكرة التي يقدمها للعالم وبعد أن أرهق المضمون المكثف لفكرته، خلف وراءه بيسان حقوق الانسان كتراث للمستقبل كما لو كان واجباً من واجباته... لدى التوتيونيين يمكن أن يرى المرء منذ الخطوة الأولى الفكرة التي سوف يقدمونها للعالم »**

أخيراً، هنا فكرة أخرى أشد وضوحاً لعبت دوراً هاماً في تاريخ الحركة الاجتماعية الروسية. فحسب تعبير هرزن « إن تاريخ البشرية هو مؤسسة تاريخ الطبيعة »***، بيد أن الفكرة « في الطبيعة توجد بصورة مجسدة لا واعية، خاضعة لقانون الضرورة والبواعث المجهولة التي لم يصل إليها الفهم الحر »**** بينما يبدأ الوعي في التاريخ،

* المؤلفات: المجلد ٢ ص ٩٦

** المؤلفات المجلد ١ ص ١٧٥

*** المرجع السابق ص ٣٨٠

**** المرجع السابق ص ٣٧٧

و« حيث يبدأ الوعي تبدأ الحرية الأخلاقية، فيعمل كل فرد مهمته **بطريقته الخاصة** تاركاً أثراً من شخصيته في الأحداث »*

في حين كانت فلسفة هيغل، كما قال هرزن، **جبر الثورة**، يمكن للفكرة الأخيرة هذه التي جاء بها هرزن فيما يتعلق بحرية الأفراد العاملين في التاريخ « **بطريقتهم الخاصة** » أن تسمى جبر المثالية التاريخية كما طبقها على الممارسة العملية، أي بكلمة أخرى، **جبر الطوباوية**. غير المصطلح هنا وسوف تحصل على الفكرة الاساسية لكتاب **رسائل تاريخية للافروف**، الذي ذهب أن التاريخ يصنعه أفراد مفكرون يصوغون الثقافة « **بطريقتهم الخاصة** ». إن الخطيئة النظرية في أساس هذه الصياغة الجبرية للطوباوية مألوفة لدينا بشكل مختلف. لقد حاول هرزن، كما يذكر القارىء، أن يثبت في رفضه النظرية المادية في المعرفة، أن الفكر هو النشاط الخالص، لذلك فان التجربة وإن حرضت الوعي، لا تقرر نتائج التحريض. وقد رفض فيورباخ هذا الرأي (الذي لم يكن هرزن أول من عبر عنه) بالاشارة أن ظواهر الطبيعة تتطابق مع قوانين مستقلة عن الفكر الانساني. ولكن يجب أن نضع الملاحظة نفسها فيما يتعلق بالتاريخ. فكما أن **كتاب الطبيعة** ليس فوضى ضاربة من الأحرف المرمية شذر مذر الواحد على الآخر، كذلك **كتاب الحياة الاجتماعية أيضاً** ليس فيه ما يشبه هذه الفوضى. وكما قسمنا ما يمكن قسمته في **الطبيعة** ووصلنا ما يمكن وصله فيها، كذلك في **الحياة الاجتماعية** لا يمكن اقامة روابط متبادلة بين الاحداث بصورة اعتسافية. وكما نلحق في دراسة **الطبيعة** شيئاً بآخر كسبب ونتيجة، لأن هذا هو التداخل الحقيقي الواقعي، كذلك نفعل عندما نتحدث عن الأسباب والنتائج في الظواهر الاجتماعية. فاذا كان الأمر كذلك فان كل فرد تاريخي معين « **يعمل مهمته بطريقته الخاصة** » طالما أن عمله الحر أخلاقياً قائم على مجرى التطور الاجتماعي الخاضع لقانون، ويعبر عنه. لقد امتدح هرزن هيغل لحقيقة أنه « يحرر الانسان في تطوره الكامل من محدوديته المادية » وبتعبير آخر، امتدحه لرأيه ان الانسان كلما كان تطوره ضئيلاً ازداد اعتماده على الطبيعة. ونجد هذا الامتداح في يومياته في ١٤ نيسان ١٨٤٤ وفي مقالة « البوذية والعلم » نجد اشارة إلى الفرد الذي « يؤدي مهمته » بحرية، وهي مؤرخة في ٢٣ آذار ١٨٤٣ أي انتهى منها قبل

* المرجع السابق ص ٣٨٠ والتشديد في الأصل.

اثني عشر شهراً من ذلك. ويحق لنا الاعتقاد أن المديح لا علاقة له بمقطع من المقالة المحللة هنا وربما قرظ هرزن في يومياته فكرة هيغل لأنها بالضبط بدت له تأكيداً جديداً لفكرته الخاصة عن علاقة التطابق الطبيعي مع القوانين بالحرية الأخلاقية. لكن معارضة التطابق مع القوانين بالحرية لم تكن في روح الفلسفة الهيغلية. قال هيغل: «الحرية تتكون من الرغبة بلا شيء سوى ذات المرء»* وذلك تعريف رائع، ولكنه لا يستثني التطابق مع القوانين في عملية ظهور الرغائب. على العكس إنه يفرض مسبقاً مثل هذه المطابقة، طالما لا تقوم رغبة بلا سبب. وفوق ذلك أظهر شلنج من قبل أنه من دون ضرورة (أي مطابقة مع القوانين) تستحيل الحرية** وأخيراً يبدو أن هيغل يتجاهل حقيقة أن مفهوم **المطابقة مع القوانين** لا يرتبط بمفهوم **مطابقة العملية التاريخية للقوانين**. إلا أنه اقترف هذه الخطيئة (أو بالأحرى علينا أن نقول: سمح لغموض الفكر أن يتسرب هنا) لأن المثالية التاريخية التي يعتنقها مع الجناح اليساري في المدرسة الهيغلية***، ركزت اهتمامها على تطور الفكرة أي على النشاط **الواعي** للانسان الاجتماعي، الذي قدم على أنه نشاط غير خاضع لقانون الضرورة. في هذا المجال ليس سوى التحليل العلمي يمكنه القضاء على هذا النوع من التجريد الذي ينتبه إليه الانسان على أنه سبب من غير أن ينتبه إلى أنه نتيجة****

يقول هرزن ملخصاً مقالته «البوذية في العلم». «من أطلال العالم القديم أعلن القديس أوغسطين الفكرة النبيلة عن مدينة الرب البناء الذي هو الهدف الأخير للبشرية، وأشار الى يوم السبت كيوم راحة. كان ذلك بداية دينية شِعْرية لفلسفة التاريخ، من الواضح أنها موجودة في المسيحية، إلا أنها لم تفهم على مدى طويل، فما تصرم قرن حتى بدأت البشرية تفكر، وتطلب أيضاً حساباً لحياتها، متنبئة أن تطورها ليس صدفة وان لحياتها معنى عميقاً شاملا وبهذا السؤال الراشد بينت أن ثقافتها لم

---

* مؤلفات هيغل المجلد ١٢ ص ٩٨

** ربما كانت هذه أروع فكرة لديه.

*** سبق أن أشَرْتُ أعلاه أنني في هذه الحالة لا أستثني ماركس وانجلز هنا فمن الخطأ أن أفعل ذلك باعتبار أن أفكارهما تخطت حدود الهيغلية وغالباً ما تصدى مؤسسا الاشتراكية العلمية لمعارضة الهيغليين اليساريين.

**** ليس عبثاً أن شيلنج في الكتاب المشار اليه أعلاه اعتبر **الوعي** ضرورة معارضة للحرية.

تكن مكتملة* وتصدى العلم للاجابة ولم يسرع للإجابة أكثر من إنسان شعر بالحاجة إلى ترك مقام العلم - وهذه هي العلاقة الثانية للبلوغ حتى يفتح العلم الأبواب بيديه لا بد من أن يقوم بمهمته كاملة، وطالما أن ثمة معرفة ذاتية فإن العالم الخارجي سوف يكون قوة مجابهة. سوف تترك البشرية معبد العلم ورأسها مرفوع كبرياء تحمل معها كل مالها - لتنفذ إرادة الرب بصورة خلاقة »**

كل هذا يتميز به هرزن في ذلك الوقت وهو قبول تام لروح المثالية التاريخية بالطبع لن أطرح هنا مسألة ما اذا كانت المسيحية قد تضمنت أي أصول لفلسفة التاريخ الدنيوي: إن هرزن بتأكيده على هذا إنما كان يظهر التقدير للاتجاهات الصوفية التي خضع لها أثناء منفاه الأول. لاحظوا المرحلة التي بدأت البشرية فيها حسب رأيه رشدها: القرن الثامن عشر، الذي يكرر عنه الاعتقاد الراسخ: « الفكر يحكم العالم ». إن العلم يشرح للبشرية الراشدة معنى قصة حياتها عندما يصبح كل شيء واضحاً في هذا المضمار فسوف يندحر الفعل المضاد « للارادة الخارجية، وسوف تبدأ البشرية باعتزاز ببناء مملكة الرب على الأرض ». هذه مثالية تاريخية في أشد أشكالها تطرفاً: إن تطور المجتمع اللاحق كله مؤقت توقيتاً يتطابق مع المعرفة التي تدك « دعائم » اللاوعي، فيقوم رجال العلم بشرح شكل تصميم « مدينة الرب ». ذاك هو رأي المتنورين الفرنسيين في القرن الثامن عشر، إلا أن طريقة تعبيرهم كانت تختلف قليلاً. فالدور الذي عزاه هرزن الى العلم كانت الفلسفة تلعبه في مذهبهم. ولا بد من أن نتذكر أن هرزن كان يعني بالعلم الفلسفة - بالتأكيد ليس الفلسفة التي حملت كل ما قبلها في القرن الثامن عشر، بل هي فلسفة على أي حال***

---

* أي ثقافة الانسانية. ومن قبل يقتبس هرزن هذا التعبير في مقالته من ليسنغ

** المؤلفات، المجلد ١ ص ٢٨٢ - ٢٨٣ إن مصطلح « المعرفة الذاتية » الذي استخدمه هرزن هنا يذكرنا بالتعبير المفضل عند المتنورين « الوعي الذاتي ويثبت مرة أخرى أن هرزن مطلع على كتاب برونو بوير. إن بوير اختلف عن فيورباخ من حيث أنه ظل مثالياً بينما بات فيورباخ من أنصار المادية. على أي حال ظل فيورباخ مثالياً في ميدان التاريخ

*** أود أن أضيف أنه طالما أن المثالية التاريخية الألمانية في الأربعينات تبنت هذه النظرة المثالية، يمكن الافتراض أن هرزن في فكرته المتعلقة ببناء « مدينة الرب » على يد العلم، لم يكن متأثراً بالمتنورين الفرنسيين في القرن الثامن عشر مثلما كان متأثراً بالاشتراكية الطوباوية الألمانية المعاصرة.

إن « الدعائم التي يجب أن يهاجم العلم هي مختلف الأهواء التي ورثتها البشرية من طفولتها ويفاعتها وكلما كانت تلك « الدعائم » قليلة هان بناء « مدينة الرب ». آمن متنورو القرن الثامن عشر أحياناً أن التحرر في فلسفتهم يجب أن يتم بأقل صعوبة في « الأفكار الجديدة » فقط التي انطلقت حديثاً في طريق الحضارة الأوروبية. ويوافق هرزن على ذلك. في يومياته (٢٩ تشرين الأول ١٨٤٤) يدين ادخال حق ارث الابن البكر في روسيا على أساس أنه يعني فقدان « تلك المزايا التي عمت أوروبا، المزايا التي كتب عنها بنتام الى الأمبراطور الكسندر الأول بمناسبة اعتلائه العرش قائلاً: إن من الأسهل عليه أكثر من أي ملك [آخر - ج. ب] أن يدخل القوانين المعقولة لأن الأهواء والرواسب الرومانية والإقطاعية لا تشكل أي عقبة لديه »*

هذا الرأي عن « المزايا » التي عمت أوروبا عبر عنها هرزن من قبل أيضاً: وقد دافع عنها شادابيف المتشائم وظلت بالتالي في روسيا حتى أيام ميخائيلوفسكي.

إن المثالية التاريخية بالغت جداً بدور الأفراد في التاريخ، وعلى الأخص الأفراد الذين ينتمون بسلطة سياسية. هذا الدور احتل في خيالهم أقساماً ضخمة عندما لا تمس مسألة « الأقطار الجديدة » « الرواسب والأهواء الرومانية والاقطاعية »، ولذلك اعتقد، كما رأينا، أن من الأسهل لعهودهم ممارسة تأثير واعٍ ويمكن أن نلاحظ هذا لدى هرزن أيضاً. في يومياته (٥ آذار ١٨٤٤) يقول: إن علم الأمراض وخصائص كاترين وبول والكسندر هي وحدها مفتاح فهم التاريخ الروسي في العصر الحديث** ». إن من الصعب الآن أن يقبل هذا المؤرخون الروس الذين لهم أدنى ميل للمادية التاريخية.

٩

كيف تبني البشرية الراشدة والمتنورة « مدينة الرب »؟ - يرفض مؤلفنا في مقالته أن يرد على هذا السؤال.

---

* المؤلفات. المجلد ١ ص ٢٧٦

** المؤلفات. المجلد ١ ص ١٨٠ هذه الفكرة أشد مثالية من فكرة غوغول (في محاضرته عن العصور الوسطى) القائلة « إن كل تاريخ العصور الوسطى إن هو إلا تاريخ البابا ». وبكلمة البابا يقصد غوغول كل المؤسسة البابوية وليس الفرد وحده.

يقول: « كيف هذا يتعلق بالمستقبل. إننا نستطيع أن نتنبأ بالمستقبل لأننا الفرضيات التي عليها يقوم قياسه، ولكن بطريقة عامة مجردة »* ولكن ليس في المقالة أي إشارات «عامة مجردة» لما «يتنبأ» به في المستقبل. «عندما يحين الوقت سوف يمزق ضوء الأحداث الغيوم أرباً ويزيح العقبات، وسوف يولد المستقبل مسلحاً كاملاً مثل بالاس» - هذا كل ما تجرأ هرزن على قوله. وهذا يمكن فهمه تماماً: في ذلك الوقت لم تكن الرقابة مهيمنة، كانت متهاونة. إنه يعبر عن نفسه في يومياته بصورة أكثر صراحة، ونستطيع أن نرى منها أن عاطفته كانت مع الاشتراكية. وبينما كان يدرس هيغل والهيغليين اليساريين بجد، لم يكن أقل جدية في اطلاعه على الأدب الاشتراكي. إن معرفته به سبقت معرفته للأدب الفلسفي: لقد كان تلميذاً نبيهاً لسان سيمون عندما كان لا يزال في الجامعة. وحتى الزمن الذي تعود إليه اليوميات (١٨٤٢-١٨٤٤) ركز كثيراً على قراءة مؤلفات الفوريين، وعلى الأخص كونسيدران ولويس بلان وبرودون. في شباط ١٨٤٣ صاغ الهدف العام للاصلاح الاجتماعي المقبل كالتالي: «التنظيم العام للملكية والرأسمال والحياة الجمعية، وتنظيم العمل والتعويض [ذلك يعني المكافأة عن العمل - ج. ب] وحقوق الملكية القائمة على مبادىء مختلفة. ليس الإلغاء المطلق للملكية الخاصة بل توظيف المجتمع الذي يمنح الدولة حق التوجه العام»** هذا برنامج من سان سيمون كما جاء في مؤلفات أنصار سان سيمون، إلا أن هرزن يلاحظ في المقطع نفسه أن «الفورية قدمت دراسة للاشتراكية أعمق من الاتجاه الآخر»*** وليس في هذا انحياز جارف حتى للفورية. وفي يومية أخرى من يومياته نقرأ أن «السانسيمونيين والفوريين عبروا من دون شك عن نبوءاتهم الكبرى إلا أن شيئاً ما كان ينقصهم»**** وقد أثارت الفورية نقده لـ «تسطحها القاتل» في حين أن السانسيمونية، حسب تعبيره حطم التلاميذ فيها الأستاذ. من الواضح أن هرزن في قوله هذا تذكر السلوك الغريب لانفانتين وأصدقائه الحميمين[208] إلا أن مهمتي هنا تنحصر في عرض الآراء الفلسفية لهرزن ونقدها وليس الآراء الاجتماعية. لذلك أحصر

---

* المرجع السابق ص ٣٨٣

** المؤلفات. مجلد ١ ص ٨٣.

*** المرجع السابق.

**** المرجع السابق ص ١٨٧ والتشديد موجود في الأصل.

نسي بملاحظة أن هرزن في الأربعينات كان لا يزال يعتنق نظرة الاشتراكية الطوباوية، وانطلق مباشرة الى تقييم تأثير هيغل على موقفه في النظرية الاشتراكية.

في رسائل في دراسة الطبيعة يعقد مقارنة غير متوقعة، ولكنها هامة في الوقت نفسه، بين الاشتراكيين المعاصرين والأفلاطونيين الجدد: «فعند الأفلاطونيين الجدد، كما عند الحالمين الاشتراكيين اليوم، نجد كل الكلمات الضخمة مثل المصالحة والتجديد... ولكنها تظل مبهمة مجردة... لقد كانت الأفلاطونية الجديدة مخصصة للباحثين، للقلة »* فلننظر في هذه المقارنة عن كثب، باحثين أولا عن المديح الذي تتضمنه.

الاشتراكيون (وقد سماهم الحالمين ليتجنب شكوك الرقيب) يعلنون الكلمات الكبرى مثل «التجديد» و«المصالحة». تكرر هذا المديح للاشتراكيين عدة مرات على لسان هرزن في مناسبات أخرى. يبيّن هذا أنه نظر الى مهمتهم أولا وقبل كل شيء، على أنها المصالحة، وكان محقاً في ذلك بمعنى أنهم أنفسهم تطلعوا الى هدفهم على ضوء ذلك. لقد تخوفوا تخوفاً مريعاً من الصراع الطبقي، وكانت برامجهم تقتضي مسبقاً إقامة السلم بين شتى طبقات المجتمع** وأحد أسباب انخداع هرزن الأخير بأوروبا الغربية كان حقيقة أنه، بدلاً من الحل السلمي للمسألة الاجتماعية انفجرت أحداث ١٨٤٨ - ١٨٤٩ في صراع دموي بين البروليتاريا والبرجوازية في فرنسا، أي في القطر المتقدم في ذلك الوقت (على الأقل في القارة الأوروبية)***، وليس هذا مدهشاً إذا صدر عن مؤرخ مثالي. واذا كان تشييد «مدينة الرب» قد تأخر بسبب أن العلم لم ينر بعد جميع «الدعائم» واذا كانت البشرية الراشدة تنتظر فقط نهاية هذا المشروع النظري قبل تدشين الاصلاحات الاجتماعية العملية، فمن الواضح أن المبادرة والقيادة العليا في هذه الحملة تعود الى تلك الطبقات او الشرائح الأكثر استنارة بنور العلم. إن الجماهير الشعبية، حتى جماهير أوروبا الغربية، ظهرت لهرزن عاجزة تماماً تقريباً عن استيعاب النتائج العلمية. ويلاحظ في يومياته: «لا يمكن مخاطبة الشعب إلا عن طريق

---

* المؤلفات. مجلد ٢ ص ١٨٠

** ثمة استثناءات ولكنها لا تسم كلها الاشتراكية الطوباوية في ذلك الوقت

*** لمزيد من التفصيل أنظر مقالتي «هرزن والقنانة» في عدد تشرين الثاني من السوفريمينيك مير في السنة الأخيرة

الكتب المقدسة »* لم يكن هذا مزاجاً عابراً بل كان عقيدة ثابتة. وعندما جاء باريس ١٨٤٧ وبات مقتنعاً أن البرجوازية الفرنسية، حتى كما مثلها المثقفون، لا تنوي القيام بالاصلاح الاجتماعي، طفق يفكر في ماذا يحدث لو أن البروليتاريا أخذت ذلك على عاتقها وها هي النتيجة التي توصل إليها حول هذه النقطة.

« إن أمل البرجوازية الوحيد هو جهل الجماهير الأمل عظيم، بيد أن الحقد والحسد والانتقام والعذاب المديد تثقف أكثر مما يعتقد الناس. ربما كان أن الناس لن تفهم لفترة طويلة كيف يتخلصون من مأزقهم، لكنهم يفهمون كيف يقذفون بالحقوق الجائرة - لا لاستخدامها بل لتحطيمها، لا ليصبحوا أغنياء بل ليدمروا الآخرين تدميراً ساحقاً »**

بتقديم هذا الرأي في سيكولوجيا الصراع الطبقي وحصيلته الممكنة لم يعد ثمة شيء للبحث عنه سوى المصالحة. ولكن هناك مصالحات ومصالحات. فالمصالحة لا تستثني بالضرورة الصراع الطبقي، على العكس فغالباً ما تقتضي الصراع الطبقي كشرط مسبق. ولا يعرف منطق هيغل، الذي أثر كثيراً في هرزن، طريقة أخرى للمصالحة (في وحدة عليا) بين عنصرين متضادين لمفهوم ما غير الصراع المرير إن لهيغل نفسه طريقة في النظر إلى الصراع الطبقي كتعبير عن « المبدأ الحي » الذي يسبب الاثارة الاجتماعية ويغذيها*** ويرفض الصراع الطبقي وأتباع الاشتراكيين الطوباويين الفرنسيين لم يكن هرزن مخلصاً للطريقة الديالكتيكية لمعلمه. من الطبيعي أنه لم يلاحظ هذا التفكك، ولكنه كان موجوداً وتجلى بشيء من الريبية في موقف هرزن من الاشتراكية والشعور بالقلق في أعماقه.

إن هرزن يؤمن بالاشتراكية. ولكن هرزن نفسه يكتب في يومياته مثلا اعترافاً مثل هذا « إنني أقرأ المجلد الرابع للويس بلان**** كم كان لويس فيليب وحكومته

---

* ٢٤ آذار ١٨٢٤ المؤلفات، مجلد ١، ص ١٨٧

** «رسائل من فرانسا وإيطاليا » المؤلفات، مجلد ٤، ص ١٩٢

*** أنظر ملاحظته العميقة عن الكفاح الداخلي في مدن القرون الوسطى من كتابه محاضرات في فلسفة التاريخ ص.ص. ٣٩٣ - ٣٩٤

**** أي المجلد الرابع من تاريخ السنوات العشر.

أنذالاً في شأن دوقة بيري... تاريخ هذه الأزمان، بشكل عام، لا يقدم إلا القراءة الحرية، فكل شيء محزن ومألوف... بالطبع الأفعال الجبارة والشخصيات الجبارة تتخلل كل العصور، إلا أنها استثناءات. مثل المكتبي والطابع بود خلال الأيام الأولى من ثورة تموز، وبعض المشاهد في تاريخ كلوتير دي سانت ميري، رود بائع الاعلان، والفارس الديمقراطي كاريل وبوناروتي الايطالي، وعجوز جمعية الكاربو ناري، صاحب الشخصية العظيمة والطبع المندفع مازيني و وكلها جهود عابثة. إن هذا يأتي بكل مخاوف الريبية » (٢١ كانون الأول ١٨٤٣)* ذاك هو بالضبط القلق الذي أشرت إليه أعلاه، وهو ينبع من المصدر الذي أشرت إليه: رجل ينخرط في مدرسة هيغل لا بد أن تكون له مآخذ صارمة على الفكرة الاشتراكية أكثر من أولئك الذين نواجههم في محاضرة هرزن المشار إليها أعلاه.

١٠

نقرأ في رسائل في دراسة الطبيعة: « إن مهمة العلم تصعيد كل شيء إلى فكرة. إن الفكرة تسعى لأن تفهم وتتمثل الموضوع الخارجي، ومنذ البداية الأولى تبدأ برفض ما يجعله خارجياً مختلفاً ومعارضاً للفكرة، أي ترفض الموضوع حالما يمكنها ملاحظته وتعميمه والتعامل معه على أساس أنه كوني: إنها تحاول أن تستوعبه أيضاً واستيعاب الموضوع يعني الكشف عن ضرورة مضمونه، يعني تبرير وجوده وتطوره »**

وفيما بعد جاء في الكتاب: « البرهان يكمن في الكشف عن ضرورة الموضوع ».

هنا أيضاً يبدو تعليل هرزن تعليلا مثالياً إلا أن مثاليته هنا ليست من نوع الذي عبر عنه في اعتقاده أن الفكر يحكم العالم. على العكس، اننا هنا أمام مثالية هيغل التي لا يمكن أن تنسجم مع ذلك الاعتقاد كما أشرنا من قبل. إن اثبات موضوع يعني الكشف عن ضرورته، فان « اثبات » الاشتراكية يعني فهمها كنتاج ضروري للتطور الاجتماعي. ولكن ماذا يعني فهمها كنتاج؟ هل يعني اظهار مطابقتها لطموحاتنا وعواطفنا وتعارضاتنا؟ لا فإن طموحاتنا وعواطفنا وتعارضاتنا يمكن اثبات أنها خاصة بحفنة من الأشخاص من غير أن تؤثر جدياً على مجرى الأحداث. لقدفهم هرزن ذلك

---

* المؤلفات الجلد١ ص ص ١٥٥ ١٥٦

** المؤلفات. الجلد ٢. ص ٧٧.

جيداً كتب مرة: « إن وضعنا ميئوس منه لأنه زائف، لأن منطق التاريخ يشير أننا خارج مرمى حاجات الشعب، وما نصيبنا سوى الألم اليائس » * وماذا لو أن منطق التاريخ يشير أن الاشتراكية أيضاً خارج مرمى حاجات شعوب الغرب؟ طبعاً عندئذ لن يكون نصيب اشتراكي أوروبا الغربية سوى الألم اليائس. وعندما وافق هرزن في يومياته أن الجهود الذاتية للثوريين والاشتراكيين في أوروبا الغربية بدت له عديمة الفائدة، كان ولا شك قريباً جداً من مثل هذه النظرة إلى الأمور ** إلا أن ثمة قليلا من الشك حول أن مثل هذه النظرة « تلقي بالمرء في مخاوف الريبية ». وحتى نتخلص من تلك المخاوف دفعة واحدة وإلى الأبد على المرء أن يعرض التماسك النظري لهذه النظرة. ولكن كيف يتم ذلك؟ ثمة طريقة واحدة، وقد أشرت إليها أعلاه. إن هرزن لا يستطيع أن يقنع نفسه أن الاشتراكية لا تكمن خارج مرمى حاجات شعوب الغرب إلا إذا بين الضرورة الموضوعية « للاصلاح » الاجتماعي. وكيف يتم ذلك؟ هنا أيضاً ليس سوى طريقة واحدة: التخلي عن نظرة المثالية التاريخية. والتزاماً بهذه الأخيرة أكد هرزن: « يمكننا أن نتنبأ بالمستقبل لأننا الفرضيات التي عليها يقوم قياسه ». ولو تخلى عن تلك النظرة لكان عليه أن يقول: « يمكننا أن نتنبأ بالمستقبل لأننا نرى فرضياته القائمة في الواقع الحالي ». وهكذا بالنسبة إليه كل شيء لا بد من ارجاعه إلى تحليل هذا الواقع سعيا وراء كشف تلك الفرضيات الموضوعية. إلا أن ذلك يقتضي تغيراً جذرياً في موقفه من برنامج الاصلاحات الاجتماعية القادم. لقد اعتقد كمثالي تاريخي أن من الممكن ابتكار خطة لمثل تلك الاصلاحات: « الادارة العامة للملكية والرأسمال والحياة الجمعية » الخ. وكانت آراؤه الذاتية في الحرية الفردية وحقوق الدولة... الخ هي قاعدة تقييم هذه الخطة. ولو أنه تخلى عن المثالية

---

* اليوميات، ٢١ نيسان ١٨٤٣ - المؤلفات. المجلد ١ ص ٩٨

** تفصيل هام: مع أن هرزن يرفض الصراع الطبقي لم يكن أبداً ضد الطريقة الثورية في العمل آنئذٍ. وقد نجم هذا من انتشار النظرة المثالية أن الحركات الثورية الكبرى لم تكن صراعاً متبادلاً بين طبقتين، بل كانت صراعاً ضد الطغيان، كانت صراع العدالة ضد الظلم، والحقيقة ضد الخطأ... الخ. لقد تعاطف هرزن حتى آخر حياته مع الثورة الفرنسية الكبرى. ولقد عجز عن فهم سمتها الطبيعية بوضوح، وان كشف ذلك المؤرخون الفرنسيون لعصر عودة الملكية - مثل أوغسطين تييري أحد الذين ناقش هرزن مؤلفاتهم في مقالته « قصص من عصور الأسر الفرنجية » في المجلد ٢ من مؤلفاته، طبعة جنيف.

التاريخية لبدا واضحاً النقص الكامل لهذه القاعدة. عليه عندئذ أن يحلل الظروف التاريخية لظهور نمط معين من الملكية وتلك الظواهر الاجتماعية التي تجعل هذا النمط بالتدريج يصبح « خارج مرمى حاجات الشعب » وعلى هرزن أيضاً أن يفعل الشيء نفسه فيما يتعلق بالنقاط الأخرى في برنامجه الاشتراكي. لقد قال هو ذلك - والحقيقة من دون التحقق من ذلك - عندما درس جبر التفكير. لقد كتب هذا «مما يجابه العقل أن الفكرة عن الموضوع ليست ملكية شخصية خاصة بالمفكر، إنه لا يؤمن بها في الواقع، لقد تحقق منها بنفسه، إنها توجد مسبقاً كعقل كامن في الوجود المباشر للموضوع »* وحالما يطلق المرء من « جبر » التفكير إلى حساب النظام الاجتماعي، يرى الظرف الضروري والكافي الذي يرضى به البرنامج الاشتراكي: فلا يبدو أنها « ملكية شخصية » لمصلح اجتماعي - سان سيمون أو فورييه أو بيير ليرو أو كابيه أو برودون - بل تجلى « العقل الكامن » المشتمل « في الوجود المباشر للموضوع »، في طبيعة العلاقات الاجتماعية واتجاه تطورها والحقيقة أن هرزن لو استطاع تحقيق هذا الشرط في برنامجه، لكان مؤسس الاشتراكية العلمية. ولكن الحقيقة أيضاً أن الطريقة الديالكتيكية يمكن تطبيقها بنجاح على القانون المتحكم في مجرى التطور الاجتماعي فقط بعد اخضاعها لتحول جذري، أي عندما أخلى الديالكتيك المثالي لهيغل الطريق أمام الديالكتيك المادي لماركس وانجلز

في الوقت نفسه، فان الرجال الذين تأثروا بالديالكتيك وزادوا من قوتهم الثقافية والذين لهم اهتمامات نظرية عميقة بصورة عامة، عليهم أن يواجهوا مشكلة ذات أهمية كبيرة، مشكلة لم يستطيعوا حلها لنقص المعطيات. إن ألم التراجيديا لم يكن لينتهي بسبب أن منشأها يكمن في ميدان النظرية: فان الأعظم بين « أبناء الأربعينات » يعرف كيف يربط بين أعظم القضايا عمقاً في النظرية مع الموضوعات الملحة في الحياة الاجتماعية.

إن أولئك الذين يهزون رؤوسهم لضعف بيلنسكي الموقت في « القبعة الفلسفية » لهيغل غالباً ما يعتقدون أن هرزن هزم « الجانب الشرير » في القبعة. هذا الاعتقاد

---

* المؤلفات. المجلد ٢ ص ٧٨

خاطىء كل الخطأ، فلا بد من التسليم أن هرزن نفسه ساعد على تشكيله جزئياً وإن من غير فطنة.

١١

يقول في **أيامي الغابرة وأفكاري**: «إن العبارة الفلسفية التي أوقعت أذى شديداً والتي على أساسها حاول المحافظون الألمان أن يصالحوا الفلسفة مع الحياة السياسية لألمانيا «كل ما هو واقعي عقلي» كانت المبدأ الذي عبر عنه بصورة مختلفة وهو مبدأ السبب الكافي ومطابقة المنطق للوقائع. إن عبارة هيغل التي لم تفهم بشكل صحيح، أصبحت النسخة الفلسفية المطابقة لقول بولس الجيروندي المسيحي: «لا سلطة إلا التي تأتي من الرب». ولكن إذا كانت كل السلطة تأتي من الرب والعقل يبرر النظام الاجتماعي القائم، فان النضال ضده إن وجد هو أمر مبرر. إن الشرح الشكلي لهاتين المقولتين ليس سوى محض ثرثرة»*

إن مؤلفنا الرائع يعبر هنا بصورة مهملة، حتى يخال المرء أنه يعترف في هذا التعبير خطيئة منطقية. ومن الأطروحة القائلة إن كل سلطة تأتي من الرب، لا ينتج فعلاً أن أي نضال ضد السلطة يأتي من الرب. والشيء نفسه صحيح فيما يتعلق بالنظام الاجتماعي. إن حجة هيغل يجب أن تفهم بالمعنى الواسع للكلمة وهو أنه طالما كل ما هو موجود عقلي فأن أي نضال ضد أي سلطة وأي نظام اجتماعي هو أيضاً عقلي. هذا هو الفهم الصحيح للعبارة. والحقيقة أساء فهم هيغل أولئك الذين تبنوا عقلانية كل ما هو موجود بناء على قوة مقولته «كل ما هو عقلي واقعي». إن مفهوم الواقع عند هيغل لا يشمل أبداً مفهوم الوجود. إلا أن هرزن لم يفهم ذلك بصورة صحيحة عندما سماه «مبدأ السبب الكافي المعبر عنه تعبيراً مختلفاً». هذا المبدأ ضعيف المضمون أكثر من الفرضية بكثير. إن كل ما هو موجود له سبب كاف، ولكن ليست كل الأسباب «كافية» بمعنى أن الظاهرة التي تدين بوجودها للعقل هي واقع. فالنظام القديم وجد في فرانسا حتى قيام الثورة، ومن نافلة القول أن ثمة سبباً كافياً لوجوده حتى نيسان ١٧٨٩ مثلاً. ولكنه في ذلك الوقت لم يعد واقعياً، بات «شبيهاً بالشبح» لأن نهايته اقتربت. ما كان واقعياً في ذلك الوقت هو الحركة الإجتماعية الموجهة ضده، باعتبارها

* المؤلفات. المجلد ٧ ص ١٢٦.

تعبر عن أعمق حاجة اجتماعية لفرانسا المعاصرة* وحسب تعبير هيغل فان أي نظام اجتماعي يولد بنفسه، في **عملية تطوره**، تلك القوى التي تدمره وتفسح المجال لظهور نظام جديد على أنقاضه. إن النفي الوحيد لذاك النظام الذي هو واقعي وبالتالي عقلي، هو النظام الذي يعتمد على تلك القوى، أو بكلمة أدق: تعبير واعٍ لعملها التاريخي غير الواعي. ولقد وعى بيلنسكي ذلك ببصيرته الرائعة عندما تعرف بنفسه على فلسفة هيغل. إن « مصالحته مع الواقع » لم يقصد بها إلا أنه أبعد أي نفي لا يقوم على القانون المتحكم بمجرى التطور الاجتماعي. كان رفضه لـ « المثال المجرد » بسبب عجزه فقط عن « تطوير فكرة النفي » أي العثور على أساس موضوعي له. لقد أظهر في هذا فهما لمذهب هيغل حول عقلانية كل ما هو واقعي أعمق من هرزن الذي ساوى هذا المذهب « مبدأ السبب الكافي ».

كما يحدث دائماً، تقود الخطيئة الى خطيئة أخرى. فقد وضع هرزن مؤلف « نظام التناقضات الاقتصادية » على صعيد واحد مع هيغل باعلانه فقط أن « العبارة الفلسفية » للمفكر الكبير هي صيغة جديدة لفكرة قديمة تقول إنه لا يوجد فعل بلا سبب. لقد بين ماركس في كتابه **بؤس الفلسفة** أن طريقة برودون لا تشترك في شيء مع طريقة هيغل. ولا حاجة أبداً تدعونا للرجوع الى هذا الموضوع، إلا أن ثمة شيئاً لا بد للقارىء من أن يضعه في ذهنه. لقد كان برودون في نقده للنظام الرأسمالي مثالياً من إلدرجة الأولى: فقد أرجع مهمة المصلح الاجتماعي الى الاحتفاظ بالنواحي الجيدة لأسلوب الانتاج القائم، ونَبْذ النواحي الرديئة. إنه لم يشك قط في أن مجرى التطور الاقتصادي ذو منطق داخلي خاص (« متأصل كما قال هيغل وكما يقول ماركس) يحدد كلا من النواحي الجيدة والرديئة في النظام الاجتماعي الذي خلقه، وذلك البرنامج للتجديد الاجتماعي ليس طوباوياً لو أنه انسجم في تحقيقه مع ذلك المنطق الموضوعي. إن برودون يكرر هنا الخطيئة التي ارتكبها جميع معتنقي المثالية التاريخية** ولكن هرزن كما نعرف ينتمي إليهم أيضاً وبما أنه ينتمي اليهم فانه فقد رؤية ضرورة الاعتماد

---

* وهذا هو السبب في أن هيغل تحدث عن الثورة الفرنسية الكبرى بحماسة أصيلة. أود أن أضيف أيضاً أن مبدأ السبب الكافي شيء والتطابق مع منطق الواقع شيء آخر تماماً

** المهم أنه دخل فلسفة هيغل عن طريق الطوباوي الألماني كارل غرون والطوباوي الروسي ميخائيل باكونين.

على المنطق الموضوعي للحركة التاريخية. وهذا هو السبب في أنه لم يلاحظ أن طريقة برودون لا تنسجم أبداً مع طريقة هيغل وأن هدا كان بالضبط سبب عدم ملاحظة الفرق الكبير بين «مبدأ السبب الكافي» ومذهب هيغل حول عقلانية كل ما هو واقعي.

ولنقل مرة أخرى: ينجم مما سبق أن هرزن في **أيامي الغابرة وأفكاري** أظهر فهماً لطريقة هيغل أقل مما أظهر بيلنسكي زمن مصالحته المريرة مع الواقع الروسي. إن هذه الواقعة تتغلب على أولئك الذين يعرفون «القبعة الفلسفية لايغورفيودوريتش» عن طريق الشائعة فقط، وتقدم لهم مناسبة طيبة للتفكير أن «القبعة» ليس لها تأثير ضار على هرزن. بيد أني أظلم مؤلف **رسائل في دراسة الطبيعة** إن لم أحاول تبيان أنه استحق ذلك المديح الى درجة أقل مما أعتقد. وآمل أن اؤدي هذه المهمة، إلا أن ثمة ناحية للمسألة كنت قد ألمحت إليها، والآن أتناولها بالتفصيل.

أشرت في بداية مقالتي أن مقارنة هرزن المتعثرة بين برودون وهيغل دلت على محدوديته في فهمه الفلسفة. لا بد أن نضيف هنا أنه قام مبكراً بمحاولة لتخطي تلك المحدودية، وأن هذه المحاولة الفلسفية، الناجحة بصورة عامة، تركت أثراً في آرائه الاجتماعية. واذا نظرنا بشكل صريح في النصف الأول للأربعينات، يُصبح هذا الأثر ملحوظاً تماماً حوالي نهاية ذلك العقد في مؤلفات كتبت تحت تأثير الحصيلة المدمرة لثورة شباط.

في مقالة هرزن النظرية البليغة «البوذية في العلم» يقتبس هرزن كلمات هيغل «العميقة جداً» «فهم ما هو موجود هو مهمة الفلسفة، لأن ما هو موجود هو العقل»* تعبر كلمات هيغل تلك الفكرة المألوفة لعقلانية كل ما هو واقعي. لكن هرزن هنا لا يوجد هذه الفكرة مع مبدأ السبب الكافي، كما فعل أخيراً في **أيامي الغابرة وأفكاري**. على العكس، إنه يشرحها هنا تبعاً للمعنى الصحيح للتنظيم الداخلي للعملية الداخلية، أي بالمعنى الذي فهمه بيلنسكي - في نهاية الثلاثينات. بالطبع ثمة فرق بين هرزن وبيلنسكي، أشرنا إليه أعلاه، وهو أنهما وصلا الى نتائج متعارضة تماماً من هذه الفكرة: أحدهما استنتج منها (لفترة على الأقل) الانتصار المحتوم للاتجاهات التقدمية،

---

* المؤلفات، المجلد ١ ص ٣٦٤.

بينما رفض الآخر تلك الاتجاهات (والحقيقة لفترة أيضاً) كذاتي صرف. لكني من قبل بينت للقارىء أنه في الزمن الذي بدأ فيه هرزن يدرس فلسفة هيغل كان من الأسهل عليه أن يفهمها وفق المعنى الديالكتيكي (وبالتالي التقدمي) من أن يفهمها وفق المعنى «المطلق» المحافظ والى جانب ذلك فان هرزن اضطره طبعه الى الاهتمام بالاستنتاجات العملية ليستخلص منها المذهب أكثر من الاهتمام بفروضه النظرية الأساسية. كان بيلنسكي ولا شك أكثر «تنظيماً فلسفياً من هرزن. وسوف أشير بالمناسبة أن «الفيساريون المتهور بسبب هذا بالضبط كان جموحاً في استنتاجاته العملية، حتى أن هرزن لم يتورع أن يدعوه خيالياً و«رجل التطرف». إن اهتماماً عميقاً بالنظرية ربما أن أهم من كل الظروف التي تضمن تماسك «الفكر العملي». ومهما كان الأمر فان الحقيقة ان هرزن أيضاً لم يوحد دائماً مذهب عقلانية ما هو واقعي مع مبدأ السبب الكافي. مال الى الموافقة على هذه الوحدة فقط عندما صارت مطالعاته الفلسفية ذكرى من الماضي، إذ حالت أحداث ١٨٤٨ و١٨٤٩ المذهلة بينه وبين هيغل، الأحداث التي شوّشت هدوء الفكر الذي تحتاجه الدراسات الفلسفية. ولكن ما دام مضطراً أن يعيش سنوات الرعب تلك كان ميالاً الى تذكر وصايا هيغل، وقد بدأ في مثل هذه المناسبات (التي هي سمة ملحوظة غير متوقعة دفعته أكثر الاقتراب من كاتب مقالة الذكرى السوية لبورودينو) يشك في الاشتراكية بأنها مثال لا أساس موضوعي له، أي رفض في هذه المناسبات المثال المجرد نفسه.

١٢

يظهر هذا بجلاء أكثر في فصل «قبل العاصفة» من كتاب «من الشاطىء الآخر». هذا الفصل مؤرخ في ٣١ كانون الأول ١٨٤٧ فلا يمكن والحالة هذه أن نفسره بخيبة الأمل التي سببتها الاحباطات الثورية. إنه في الحقيقة مشوب بخيبة أمل عميقة، ولكنها ليست تماماً من النوع التي يسهب كتاب سيرة هرزن في شرحه. إنها تحتاج الى شيء من الصعوبة حتى نقتنع بذلك.

المقالة على شكل محادثة بين روسيين كلاهما مهتم بالقضايا الجارية في تطور أوروبا الغربية، إلا أنهما يختلفان في موقفهما من حلول تلك القضايا التي تقدمها الاشتراكية الطوباوية المعاصرة، يقول أحد المتحاورين، معبراً عن مزاج الكاتب نفسه، من جملة

ما يقول: «ليس من سبب للاعتقاد أن العالم الجديد يبنى وفق مخططنا »*

بتعبير آخر إن القانون المتحكم في مجرى التطور التاريخي لا يضمن مطلقاً التحقق المقبل للمثال الاشتراكي فلنذكر الآن أطروحه المؤلف في رسائل في دراسة الطبيعة أن «البرهان يكمن في الكشف عن صرورة الموضوع ولنحكم بأنفسنا على موقف هرزن من من المثال الأعلى التقدمي لأوروبا الغربية في نهاية ١٨٤٧ ليس ثمة خلاف في الرأي هنا فان لم يكن من سبب للتفكير أن العالم الجديد سوف يبين وفق مخططنا، فان ذلك يعني أننا غير مقتنعين بضرورته الداخلية، ومن دون تلك القناعة لا ستطيع إقامة شيء والاشتراكية شيء من دون برهان، شيء ذاتي لا يقوم على المنطق الموضوعي للحياة الاجتماعية. ذلك هو فحوى فصل «قبل العاصفة» برمته، إنه يبين مدى خطأ التفسير العام لأثر العاصفة في هرزن. إن أحد المتناقشين، وهو لسان حال مؤلفنا، يكرر بالحاح: «حضارتنا هي ازدهار الحياة الحديثة، فمن يقدم على وقف التطور؟ ثم ما الذي يفعله هذا الاتجاه في تحقيق مثلنا، حيث نحتاج الى الزمن لتنفيذ البرنامج الذي وضعناه؟ »**

القول إن الاشتراكيـة لم «يبرهن عنها» باعتبارها المستقبل «الضروري»، باعتبارها حصيلة التطور الاجتماعي، وقبول أن الاشتراكيين «فكروا» بفكرتهم «في» الواقع ولم يكتشفوها فيه - كل هذا، بالنسبة لمن اطلع على الديالكتيك، يساوي الاعتراف بالعجز عن اثبات المثال الاشتراكي. والاعتراف بذلك العجز يقود حتماً إلى خيبة الأمل بالمثال الاشتراكي. إن الفصل المقتبس هنا من كتاب من الشاطىء الآخر برهان على خيبة الأمل هذه. إن هرزن، وهو المتحدث، بمقارنته موقف أصدقائه بموقف الشخصيات البارزة في الثورة الكبرى يضع الملاحظة التالية: «إن شهود كل ذلك هو الماضي، اننا لا نستطيع أن نقاسم أسلافنا آمالهم. واذ درسنا القضايا الثورية بعمق أكثر منهم، فاننا نطالب الآن بأشياء أكثر وأعظم، بينما ظلت مطالبهم لا تطبق عملياً كما كانت. فمن جهة يلاحظ المرء الانسجام المنطقي للفكرة ونجاحه، ومن جهة أخرى، يلاحظ عجزها في مواجهة العالم الأصم الأخرس العاجز عن استيعاب فكرة

---

* المؤلفات مجلد ٥ ص ٢٥ التشديد من قبلنا - ج ب

** المؤلفات المجلد ٥ ص ٢٦.

الانعتاق كما قدمت له - إما لأن الفكرة صيغت صياغة هزيلة، أو لأنها لا تحظى إلا بأهمية نظرية، كتبية، كالفلسفة الرومانية التي لم تتخط حلقة المثقفين الصغيرة »*

أما بالنسبة إلى السؤال الذي يطرحه المشارك الآخر «أيها على حق، الفكرة النظرية التي تطورت وتشكلت تاريخياً بصورة واعية أم واقع العالم المعاصر الذي يرفض تلك الفكرة؟ » فان هرزن يقدم بلسان المتحدث الآخر رداً متطرفاً «كلاهما على حق. إن كل هذا التشويش ينجم عن حقيقة أن الحياة تولّد ما لا يسجم مع ديالكتيك العقل المحض »**

يؤدي هذا إلى النقطة الأساسية في المشكلة. إن هرزن هنا يعني بديالكتيك العقل الخالص منطق الفكر الذاتي الذي في رأيه ليس سوى تناقض مستعص مع نواة الحياة الاجتماعية. ذاك هو مصدر التشويش كله. ولكن بأي معنى تكون الفكرة الذاتية على حق؟ من الواضح أنها تكون على حق إذا كانت نتائجها متطابقة مع فرضياتها، أي بمعنى الانسجام الشكلي. ليس ثمة مشكلة عن تطابقها مع القانون المتحكم بمجرى التطور الاجتماعي: إن هرزن يقول إنه توجد هوة بين نواة الحياة الاجتماعية والعقل الخالص، أي الفكرة الاشتراكية. وذلك يعني أن الفكرة الذاتية خاطئة من وجهة نظر ديالكتيك هيغل التي وردت في **رسائل في دراسة الطبيعة**. هذا الديالكتيك هو الذي فسح المجال لخيبة الأمل بالاشتراكية الأوروبية الغربية. في كتاب **رسائل من فرانسا وايطاليا** (الرسالة الرابعة مؤرخة في ١٥ أيلول ١٨٤٧) يصف هرزن موقف المدارس الاشتراكية المعاصرة كالتالي:

« محاولات لخلق نظام اقتصادي جديد قامت به المدرسة تلو الاخرى، وقد فشلت تلك المحاولات بمجرد اصطدامها بالجدار الحجري للعادات والميول والأساطير القديمة والخيالية. إن الاشتراكيين في حد ذاتهم تملؤهم الرغبة في الخير العام وهم مفعمون حباً وايماناً، مفعمون بالأخلاق والولاء، لكنهم لا يعرفون كيف يبنون جسراً بين الشمولية والحياة الواقعية، بين النية والتطبيق »***

---

* المرجع السابق ص ص ٢٩ ٣٠

** المرجع السابق ٣٠

*** المؤلفات. مجلد ٤ ص ١٨٩

كل هذا ببساطة مطلب معروف لـ « البرهان » على الاشتراكية بكشف ضرورتها الذاتية. هذا المطلب الذي ألقاه هرزن على عاتقه يبين بوضوح كيف أنه لا يمكن الدفاع عن توحيده التالي لمبدأ السبب الكافي مع مذهب عقلانية الواقع. وبما أن الفكر الاشتراكي وجد، فان من الواضح أن ليس ثمة سبب كاف لذلك (هذا ما أشار إليه مباشرة المشارك الآخر في الجدال « قبل العاصفة »). لكن المشكلة كانت أن هذا السبب الكافي لم يكن كافياً لبناء جسور « بين النيَّة والتطبيق، بين الشمولية والحياة ». لقد قيل أن الطبعة الأولى من رسائل من فرانسا وايطاليا أحدثت أثراً سيئاً في حلقات الروس التقدميين المعاصرين. بعض المؤرخين اللبراليين للفكر الاجتماعي الروسي فسروا هذا بحقيقة أن هرزن في تلك الرسائل هاجم الدستور البرجوازي الفرنسي... وبدا ذلك أمراً في غير مكانه بالنسبة لصحيفة تقدمية تصدر داخل الملكية المطلقة لروسيا. من الصعب أن يكون هذا التفسير مقنعاً. على أي حال، من المستحيل قبول ذلك. على المرء أن يتذكر أيضاً أن الحلقات التقدمية الروسية في ذلك الوقت اهتمت اهتماماً كبيراً بالاشتراكية الطوباوية، وأن خيبة أمل هرزن فيها لا بد من أن تفعل فعلها في الكثير من قرائه مثل النضج البطيء. كتب هرزن مثلاً: « إن الوضع القائم في فرانسا لا يرضي أحداً سوى البرجوازية المتأصلة، حتى وإن خاف أن يتطلع إلى أبعد من ذلك. وسبب عدم الرضى معروف للكثيرين، أما طريقة التصحيح ووسائله فغير معروفة لأحد - ولا حتى للاشتراكيين، الذين يلمع لهم المثال شحيحاً في المستقبل »* ليست هذه هي الرسالة التي يتوقعها منه أناس شغفوا بقراءة مؤلفات « بيوتر ذي الرأس الأحمر » (بييرليرو) وبقية الاشتراكيين.

ولكن يكفي هذا فالمثالي التاريخي الذي يعتقد أن الفكر يحكم العالم سيقول بالتالي إن الوعي يحدد الكائن، بينما الانسان الذي يؤكد أن « « اثبات » موضوع ما يعني الكشف عن ضرورته الموضوعية، وأن الفكر يكتشف في الواقع، وليس « التفكير » فيه، هو على العكس، يعني أن الكائن هو الذي يحدد الفكر نحن نعرف أن هرزن كان في الفلسفة النظرية راضياً عن الحل المثالي لمسألة العلاقة بين الفكر والكائن التي اقترحها شلنج وهيغل. ونعرف أيضاً أنه في فلسفة التاريخ اعتنق المثالية التاريخية،

* المؤلفات. مجلد ٤ ص ١٨٢.

مثل الهيغليين اليساريين الألمان. نرى الآن أن المثالية التاريخية أثبتت عجزها النهائي عن القيام بمهمة التأسيس العلمي للمثال الاشتراكي. وأن هرزن كان متنبهاً لهذا النقص. ولم يبق لي سوى أن أضيف القليل القليل.

١٣

أولاً، أحداث ١٨٤٨ و١٨٤٩ لم تسبب خيبة أمل هرزن بأوروبا الغربية بل ضاعفتها فقط بتقديم برهان لا يدحض، على حد تعبير هرزن، وهو أن الفكر الاشتراكي كان في تناقض مع نواة الحياة الاجتماعية. وهكذا أسيء فهم كتاب من الشاطىء الآخر سواء في روسيا أو الخارج، فكان صرخة رجل بات مقتنعاً اقتناعاً مطلقاً أن التناقض يستحيل حله.

ثانياً، المشكلة التي كافحها هرزن في هذه الحالة والتي حاول بيلنسكي قبله بكثير عن طريق مصالحته مع الواقع أن يحلها، لم تكف عن أن تظل متحدية التقدميين في روسيا حتى في السنوات الأخيرة. لقد انطرحت أمامهم مثل الغول كأنها تقول: «حلني أو أقضي على اشتراكيتك».

ثالثاً نظراً لانتباهه لعجز المثالية التاريخية عن شرح قضية العلاقة بين الفكر والكائن في تاريخ البشرية انتقل هرزن بصورة طبيعية، إن لم يكن بوعي كامل، إلى المادية التاريخية. إن اقتناعه أن روسيا الكوميونية سوف تحقق المثال الاشتراكي الذي شرحه الغرب الفردي كان محاولة أصيلة لحل القضية الفعلية التي، حسب رأيه، عجز الفكر الأوروبي الغربي عن حلها: لقد لعب الكوميون الروسي في نظريته نصف السلافية دور الجسر الذي بحث عنه بحماسة ليكون «بين الشمولية والحياة الواقعية، بين النية والتطبيق». إن لجوءه إلى الكوميون يساوي نصف اعترافه أن الفكر لا يقرر الكائن بل إن الكائن هو الذي يقرر الفكر إن هذا الاعتراف - النصف كان بارزاً جداً، وجاء من رجل وقف مرة على أرضية المثالية التاريخية، وكان يسم هرزن على أنه تلميذ سابق لهيغل. كان ظاهرة أخرى على التأثير الجدي لديالكتيك هيغل على أذهان التقدميين الروس في الأربعينات* وما دام نصف الاعتراف ظل كما كان

* نظريه هرزن نصف السلافية، مهما بلغ خطؤها كانت لا تزال فيما يتعلق بالنظرية أكثر عمقاً من النظرة المثالية المجردة لمجرى التقدم الإنساني التي اعتنقها هرزن مبكراً والتي انتعشت فيما بعد بصيغة لاخروف: «الفكر النقدي يعيد تشكيل الثقافة»

بصف اعتراف فانه لن يؤدي إلا إلى حل طوباوي للقضية المصيرية.

رابعاً، مقالات هيغل الأخيرة التي كانت سمتها الصحفية هي الأبرز، لم تتناول أبداً «القضايا الأولية» للفلسفة، التي كانت موضوع رسائل في دراسة الطبيعة وكذلك مقالتاه «الهواية في العلم» و«البوذية في العلم» إلى حد ما لذلك لم تتضمن إلا القليل من المعطيات للحكم على المجرى اللاحق لتطور آراء هرزن الفلسفية. ربما كان أبرز ما في هذا المجال المقالة الذكية «الأقوال المأثورة عن نظرية الطب النفسي للدكتور كروبوف، أكملها تيتوس لبفياتانسكي، المشرح والاستاذ المساعد ونشرت في العدد الثامن من بوليارنايا ازفسدا هذه النكتة الفلسفية هامة لأنها بالضبط كتبت بقلم «مشرح وأستاذ مساعد في التشريح»، أي بقلم طبيعي، وأنها وقد كتبت للطبيعي شيف لم يسر هذا الأخير ولا الطبيعي الآخر كارل فوغت، يمكن الافتراض أنها كتبت في ذلك الوقت، أي في النصف الثاني من الستينات، ولم يكن هرزن قانعاً بالجواب المثالي لهيغل وشيلنج لقضية العلاقة بين الفكر والكائن. لا بد أنه عرف في ذلك الوقت وشارك تماماً الرأي الذي تبناه فيورباخ حول هذه المسألة. ولكن «الأقوال المأثورة لتيتوس ليفياتاسكي تقود المرء إلى الافتراض أن هرزن فسّر هذا الرأي - الآن وفي ذلك الوقت على أي حال - بحسب المادية التي سماها ماركس العلمية الطبيعية بالمعنى الضيق للكلمة والجدير بالملاحظة أن الميل إلى هذا النوع من المادية ظهر لدى هرزن من قبل في فصل اشتمل عليه كتابه **من الشاطىء الآخر** (فصل «قبل العاصفة») المشار إليه أعلاه، أي الكتاب الذي عبر فيه بحزن عن خيبة أمله بالمثالية التاريخية. إن هذا المقطع بعيد الدلالة:

«كل مرحلة، كل جيل، كل نوع من الحياة كان له وما تزال مطالبه وأذواقه الخاصة، تتطور وسائل جديدة، وتتكامل قابليات على حساب الأخرى، وأخيراً يحسن الجوهر الحقيقي للدماغ ما الذي يدعوك إلى الابتسام؟ حقاً إن المخ يحسن. إنكم أيها المثاليون تعجبون أن كل الأشياء الطبيعية ضد مزاجكم، تماماً كما كان الفرسان يعجبون من أن الأوغاد أيضاً يريدون حقوقاً انسانية. عندما كان غوته في ايطاليا قارن جمجمة ثور قديم مع جماجم ثيران هذا العصر فوجد الأخيرة أنحف بينما وعاء النصف المخي الكبير أكثر اتساعاً، فمن الواضح أن ثور العصور القديمة أقوى من ثور هذه الأيام، إلا أن للأخير دماغاً متطوراً أفضل بسبب إذعانه السلمي للانسان.

لماذا إذن نحكم على الانسان أنه أقل تطوراً من الثور؟ وليس لهذا النمو الخاص بالنوع هدف، كما ترى، سوى التحكم بوجود أجيال لاحقة »*

إن تحسين المادة الدماغية هو أحد الشروط التي تسهل التقدم. إن هذا - بالطبع - اعتقاد مادي خالص. ولكن بأي طريقة يسهل المخ المتحسن عملية التقدم؟ لا بد وأنه يسهل في الناس ظهور الكثير من الآراء الصحيحة لعلاقاتهم المتبادلة وبالتالي كمال النظام الاجتماعي وهذا يؤدي مباشرة إلى تحسين ذلك « الفكر » الذي « يحكم العالم ». وبهذه الطريقة تتحول المادية مباشرة إلى مثاليّة. هنا يكمن الخطأ الأساسي للمادية « العلمية الطبيعية وهذا ما يفسر حقيقة أن الذين يعتنقون المثالية التاريخية غالباً ما يتصالحون بسهولة مع هذا النوع من المادية** عندما ترجع المادية « العلمية الطبيعية » الانسان الذي أصبح غير مقتنع بالتعليل المثالي إلى المثالية التاريخية، فان عليه أن يشعر أنه إنسان بائس***. ذاك هو الشعور الذي لا بد أن يكون قد عاناه هرزن زمن نشر « الأقوال المأثورة لتيتوس ليفياتانسكي ». إن في هذه النكتة الفلسفية كثيراً من المرارة. « إن سلطة التاريخ ومجده ليسا من العقل ولا من الصدفة. كما في الانشودة القديمة، بل من الجنون » هذا هو القول المأثور الأول للمشرح المتعلم والاستاذ المساعد

---

* المؤلفات. مجلد ٥ ص ص ٣٦ - ٣٧

** في كتابي تشير نيشيفسكي[٢٠٩] بينت أن متنورنا الشهير الذي كان ميالاً جداً الى المثالية التاريخيه أصبح في الوقت المناسب من الأنصار المتحمسين للمادية « العلمية الطبيعية » في تأملاته التاريخية. كما بينت أنه كان تلميذاً مخلصاً لفيورباخ. وأضيف هنا أن أنصار فيورباخ الألمان الذين هم أيضاً مثاليون في فلسفتهم التاريخية، لم يرفضوا المادية العلمية الطبيعية. يثبت كارل غرون، من جملة ما يثبت، في مقالة هامة بعنوان « فيورباخ والاشتراكية » أن الفلسفة يجب ألا تحل محل الدين بل تصبح بكليتها علمَ الممارسة العلمية، ومهمتها الأولى إعادة بناء العلاقات الاجتماعية إنه يخشى من أن يكون الشرح يوحي بالتخلي عن « الانتروبولوجيا والفيزيولوجيا ». لذلك يضع تحفظاً وهو أن هذين الغصنين الأخضرين في شجرة الفلسفة الميتة يجب أن يدخلا ضمن علم الممارسة الذي يصبح « علم التشريك، علم الوحدة » (التشديد بالأصل). لقد ماتت الاشتراكية العلمية أساساً في الاقتصاد. والمحاولات لاقامتها في الفيزيولوجيا تمت على يد الاشتراكية الطوباوية الروسية بمن فيهم ميخائيلوفسكي.

*** من المعروف أن فيورباخ نفسه في حين كان يشير الى محدودية المادية « العلمية الطبيعية »، كان أحياناً أخرى كأنما هو قانع بها. في مقالته عن كتاب موليشوت مذهب في التغذية المشار اليه أعلاه يقول « إن الانسان ما يأكل ». تلك هي مادية « علمية طبيعية » من الدرجة الأولى، لن يجد تيتوس ليفاتا نسكي أي خلاف مع هذا النوع من المادية.

« من يقيم المعابد ويشيد غابات الرخام والمرمر لمجد الرب؟ من يحقق الانتصارات التي تفخر بها الرجال مدى القرون؟ من يكلل بالغار عنق المحاربين ويلطخ بالدم أكوام الجثث المرمية؟ من ينتزع المحراث من أيدي الناس ويعطيهم السيف بدلاً منه، ومن حول فلاح الأرض إلى فلاح الموت، إلى قاتل بالمهنة، إلى منتصر ومهزوم، من دونها لم يكن ثمة لا أشور ولا بروسيا (الحذر التقليدي من الرقابة يمنعني من ذكر الوطن الأم)؟ من؟ إني أسأل... هل هو العقل؟ »* من الصير القول، حسب رأي تيتوس ليفياتانسكي إن السبب ليس في العقل بل في الجنون. إن المرء مضطر أن يتذكر ملاحظة هرزن المبكرة حول الآراء التاريخية لأنصار السلافية: « ثمة عاقبة مجنونة تترتب على ذلك ».

أحياناً كان هرزن يسمى « فولتير الروسي ». هذه التسمية صحيحة فقط من حيث أن هرزن كان ذكياً فطناً مثل فولتير. إن موقف هرزن من القضايا اللعينة لعصره يحمل تشابهاً ضئيلاً جداً من موقف بطريرك فرني من معظم القضايا الهامة في القرن الثامن عشر. إن الرجل الذي تأثر كثيراً بهيغل لا يمكن أن يرضى بطريقة تفكير فولتير. من الأصح أن نقول أنه في بعض مؤلفاته، أي « ملاحظات الدكتور كروبوف » و« الأقوال المأثورة لتيتوس ليفيانانسكي » يذكرنا هرزن كثيراً باراسموس، مؤلف تقريظ الحماقة. ولكن من الأسهل على اراسموس أن يضحك من التجوالات التاريخية للبشرية أكثر من هرزن: فليس من هدفه أن يشيد « مدينة الرب » على الأرض. كان هرزن المؤلف الذكي لـ « الأقوال المأثورة »، يضحك من خلال دموعه.

في زمن ما وبّخ هرزن أنصار السلافية « لريبيتهم وماديتهم »، لعجزهم عن رؤية التاريخ كـ « حركة البشرية نحو التحرر ». والآن يرفض، بلسان تيتوس ليفياتانسكي الناطق باسمه، رفضاً قاطعاً هذا الرأي في العملية التاريخية.

يريد الأستاذ المساعد في التشريح أن يرى الجنون الذي يحرس ويعزي الجنس البشري، يصاحبه في المستقبل حتى تأتي كارثة جيولوجية وتقضي على هذا الجنس. يقول: « دع مسيرته المظفرة تنطلق، كما من قبل، بهداية العقل مندفعاً إلى الأمام،

---

* المؤلفات. مجلد ١٠ ص ٤١٥.

مشعاً حياً، مختفياً حياً وراء الغيوم، يكتمل أو ينقص مثل القمر، محتفظاً بالمسافة نفسها عن العالم مهما كانت سرعته »*

يبدو ذلك شيئاً غريباً من أين حصل مشرحنا على « هداية العقل »؟ يعلمنا هرزن نفسه أن كارل فوغت برع بتقديم رد على ليفياتانسكي « متهماً إياه بالالحاد على أساس أنه يخبىء ربه في فانوس لا وجود له لقد كان فوغت مصيباً تماماً كان هرزن خائفاً على أي حال من أن نكتته قد تكون ثقيلة على القارىء بحيث لم يتجرأ على مباشرة المجادلة مع بيوس يا للحرن الكبير إن من المهم أن نعرف أن اعتراضاته كانت في الحقيقة مثل « الفانوس يحيل إلي أن « هداية العقل » التي تحتفظ دائماً عن العالم بالمسافة نفسها رمزت إلى تلك المثل المجردة التي انفصلت عن الواقع الأرضي بهوة لا جسر لها سوف يتذكر القارىء أن هرزن أشار إلى التناقض المستعصي بين هذا الواقع وتلك المثل في مقالته « قبل العاصفة » أي، في ١٨٤٧ (أنظر أعلاه). نرى الآن أنه ظل يؤرقه في ١٨٦٧ ، أي بعد عشرين سنة. إن الشك القاتل الذي سببه صاحبه تماماً كما يصاحب الحظ العاثر الرجل الطيب الشجاع في الأغنية الشعبية، منذ البداية حتى نهاية نشاطه الصحفي في البلاد الغربية الحرة. وقد ترك تأثيراً كبيراً في أعظم مؤلفاته. إن الكثير من البرجوازيين والمبتذلين الأحرار يحبون تلك المؤلفات بالضبط لأن فيها شيئاً من الريبية فيما يتعلق بالاشتراكيّة. ولكن سوف يأتي الزمن الذي يفهم فيه مؤرخو الاشتراكية حقيقة أهمية هذا الشك المؤلم. سوف يخصصون لمؤلفنا الرائع أبرز مكان بين كتاب النصف الأول في القرن التاسع عشر الذين تعاطفوا مع الاشتراكية بكل قلوبهم، ولكنهم تحققوا أكثر وأكثر من هشاشة الأسس الطوباوية، فقاموا بمحاولات لوضعها على أساس علمي، محاولات لم تثبت نجاحها لكنها كانت بارزة**

---

* المرجع السابق ص ص ٤١٥ ٤١٦

** المأساه النظرية لهرزن كانت أنه بعد أن تحقق من تعذر الدفاع عن المثالية التاريخية لم يستطع أن يصبح مادياً تاريخياً وهذا واضح تماماً وبناء على ذلك من المناسب الآن أن نشرح ما نفهم من مصطلحه « واقعية ». ان « الواقعيه » في كتابه « رسائل في دراسة الطبيعة » أشارت الى موضع بين المادية والمثالية، موضع غير محدد تحديداً كافياً ولكن كما أشير سابقاً، في هجوم هرزن على المثالية، ظلت أشياء في ذهنه من المثالية الذاتية. وظلت المثاليه المطلقه مرضيه له في حلها التناقض بين الفكر والكائن. وهذا ما عجز بعض الناس عن فهمه، أولئك الذين قرظوا هرزن لميله الى « الواقعية » وانتقدوا هيغل لـ « ميتافيزيائه »

ان التقدميين الروس في الأربعينات لم يستطيعوا أن يصبحوا مؤسسي الاشتراكية العلمية، ويمكن تفسير هذا بالتخلف الاقتصادي في روسيا ونقص معرفتهم بالاقتصاد الغربي. أما حقيقة أن هؤلاء التقدميين تحققوا من عدم كفاية الاشتراكية الطوباوية فدلالة على موهبتهم البارزة. ومن الأهمية بمكان هنا مدرسة هيغل التي كان من حسن حظهم أنهم تخرجوا فيها إن الكثير من الاشتراكيين الألمان استفادوا أيضاً من التأثير الايجابي لهيغل، ولكن ماركس وانجلز من بينهم فقط عرفوا كم يكون عظيماً لو تطورت الاشتراكية من الطوباوية إلى العلمية. إن جميع الهيغليين الآخرين (ومنهم الفيورباخيون) المهتمين بالاشتراكية كانوا راضين تماماً بأساسها الطوباوي. وهذا هو السبب في أن لنا الحق في الاعتقاد أن بيلنسكي وهرزن كانا أكثر موهبة من غرون وهس وسيمغ وشميدت والاشتراكيين الفلسفيين الآخرين في ألمانيا

لقد اعتاد فيخته أن يقول بأن فلسفة الانسان ليست أفضل من الانسان. هذه الكلمات تنطبق تماماً على هرزن. إن فلسفته كانت، في أحسن أحوالها، فلسفة رجل نشيط. ومن المهم أن نتتبع في يومياته الأثر الذي تركته فيه قراءاته لكبار الفلاسفة. إن تقديره لسماتهم النظرية لا يخلو دائماً من الخطأ، ومن التسرع أيضاً، ولكنه لم يخطىء أبـداً في ما يمكن أن نسميه الجوانب **الفعالة** من نظرياتهم (والتعليق عليها تعليقاً واسعاً). فلنأخذ مثلاً سبينوزا إنه يرجع إلى سبينوزا في يومياته لا ليكشف ماذا كان قرر أن يفهم بوضوح ذلك الجانب من السبينوزية الذي دفع فيورباخ إلى تسمية سبينوزا « موسى المفكرين الماديين المعاصرين ». إلا أن المرء يقرأ في هرزن، بكل متعة، تلك الأسطر عن مؤلف كتاب **الأخلاق**. « انني لا أريد الاشارة إلى مذهبه عامة، سوف أشير إلى نماذج من عبقريته دائماً تظهر في كتاباته كقوله: « الرجل الحر أقل الناس تفكيراً بالموت، وكلمته ليست تأملات في الموت بل في الحياة »* إن الباحثين الدينيين المعاصرين أمثال السيد ميريزخوفسكي، الذين يفكرون في الموت أكثر من الحياة، سيتعذر عليهم اعتبار فكرة سبينوزا هذه فكرة رائعة. إلا أن القضية كلها: أن لقب

* المؤلفات. المجلد ١ ص ص ١٣٦ - ١٣٧

رجل حر لا ينطبق على واحد منهم، وفيخته على حق في قوله: فلسفة الانسان ليست أفضل من الانسان.

بعد عدة سنوات في ١٨٦٤ نشر هرزن في **الكولوكول** سلسلة من المقالات تحت عنوان «رسائل الى خصم»، فيها ردود على انتقادات سامارين المنشورة والمنطوقة[٢١٠]. تلك الردود لن تسر أيضاً المفكرين المجترين من نمط ميريزخو فسكي، الذين يحبون اجترار الحجج اللاهوتية القديمة. كتب هرزن، من جملة ما كتب،: «تجد تناقضاً مثلاً في القول إن الإنسان الذي لا يؤمن بالحياة الآخرة لا بد أن يتشفع بحياة جاره الحالية. وأنا أعتقد أنه ليس سواه يمكنه أن يقدر الحياة الزائلة، سواء حياته أو حياة جاره، أنه يعرف أن لا شيء أفضل من حياته بالنسبة الى الإنسان الموجود، ويتعاطف مع كل الناس في صيانتهم الذاتية. إن الموت من وجهة نظر لاهوتية لا يبدو كارثة كبيرة، فالرجال المتدينون لا يحتاجون إلا لوصيّة «لا تقتل»، وإلا فانهم يخلصون الناس من الجسد الخاطىء، فالموت يجعل الانسان مديناً له لأنه يقربه من الحياة الأبدية. إن خطيئة القتل ليست في قتل الجسد، بل في الرفع المتعمد لحالة الخاطىء الى مستوى أعلى»*

أهمية هذا المقطع، الى جانب الكثير من المجالات، أن مضمونه قريب من محاضرة فيورباخ عن عدم التوافق بين «المثالية أو الروحية» والعمل من أجل الحرية السياسية. يقول فيورباخ: «الروماني قانع بحريته الروحية. أما الحرية السياسية بالنسبة الى الروحاني فإنها مادية في ميدان السياسة. والحرية المادية الجسدية تنتمي الى الحرية الواقعية... إن الروحاني يقنع بالحرية في فكره». الأرجح أن هرزن لم يقرأ حجة فيورباخ العملية هذه: لقد طبعها بعد وفاة المادي الألماني كارل غرون في تراثه الأدبي** إلا أن الفكرة التي عبر عنها فيورباخ هنا تتفق تماماً مع طريقته (المطلقة) في التفكير بحيث أن تقاربها من حجة هرزن ضد حجة سارامين برهان آخر

---

* انظر «رسالة أولى الى خصم» في الكولوكول ١٥ تشرين الثاني ١٨٦٤، وأعيد نشرها في مجموعة «الكولوكول»، «المقالات المختارة لهرزن» جنيف ١٨٨٧ مع مقدمة ليتخاميروف، المحرر الحالي لـ «موسكوفسكي فيدوموستي».

** المؤلفات. المجلد ٢ ص ٣٢٨.

على أن محرر **الكولوكول** مطلع تماماً على مؤلف كتاب **أسس فلسفة المستقبل**. لا شك أن فيورباخ سيقر حجة هرزن أن الانسان الذي يؤمن بالحياة الأخرى لا مسوغ عنده للدفاع عن حياة جاره الأرضي بحماسة.

يتبع ذلك مقطع مميز يمكن أن يستخدم حجة أخرى لصالح الأطروحة المصاغة أعلاه - وهي أن الشر بالعنف. هذا المقطع أطول قليلاً: ولكن القارىء سوف يتحملني بطيبة خاطر من أجل المزيد من صحبة هرزن الممتعة.

سامارين الذي يخشى الرب سأل هرزن بسذاجة عن العقاب الأخلاقي الذي يراه بديلاً عن العقاب الجسدي، وما اذا كان السجن والنفي... الخ ليست عقاباً جسدياً وقد أجاب الاخير أنه ليس الأمير-شيركاسكي وما فكر أن من الضروري اختراع عصا التأديب للأطفال والشيوخ، عصا التأديب الجسدي أو الروحي أو ما شابهها[٢١١] يذكره سامارين برجل يسأل الناس الذين يحاولون القضاء على الكوليرا ماذا سيجعلون مكانها وفي رأيه أن مثل هذا السؤال ليس عليه رد.

يقول: «العصي التأديبية والسجون والأشغال الشاقة كل هذه عقوبات جسدية، ويمكن أن تستبدل بنظام اجتماعي مختلف.

«لم ينظر أوين المادي الى الجرائم والعقوبات، أو التسوية بين القيود والضرب بالسياط: لقد سعى للعثور على شروط للحياة لا تدفع الانسان الى اقتراف الجرائم. بدأ بالثقافة، وتخوف من غياب العقاب للأطفال، فأغلق المتدينون مدرسته.

«وحاول فوربيه أن يجرب لمصلحة المجتمع إلام تؤدي العواطف التي تسبب الأفعال الإجرامية والانحرافات اذا ما أفلتت من عقالها، وإلام تؤدي اذا قيدت - وما رأى الناس منه سوى الجانب المضحك...

«كل الأفكار لا تعرف العقاب الجسدي، بينما في روسيا لا يزال العكس، فالمسألة هي أن تسوط أو لا تسوط؟ واذا كنت تسوط فَلِمَ الإدارة؟ واذا كنت لا تسوط فهل تلجأ الى السجن والسلاسل؟ وما الأفضل عصا التأديب أم السجن؟

«الغاء العقاب مستحيل، وسوف تقول من وجهة نظر الدين أن المختارين يسامحون في كل شيء. ربما كان هذا صحيحاً، ولكن لا ينتج من ذلك أن العقاب يجب أن ينزل ليبدو عدالة وليس على حقيقته حقيقة العاقبة الضرورية البائسة. ولا حاجة للاعتراض على التهم نفسها، فهي ليست نادرة. وطالما أن هناك اعلاناً شرعياً، طالما أن

هناك قانوناً شرعياً، طالما أن هناك قانوناً دموياً للانتقام الاجتماعي والجهالة القروسطية للجماهير فان مشرع القانون ومنفذه لن يموتا عاطلين عن العمل »*

كل هذا شيء رائع ويبدو أن هرزن يعرف جيداً فكرة الاشتراكيين المعاصرين في قضية العقاب. وبالطبع ما كان ليقتنع بها لو أن أحداً أخبره أنه في المستقبل غير البعيد سوف يظهر في العالم المتمدن نبي، كما لو أنه كولومبوس، يلبس تلك الأفكار عادة صوفية، وبعد أن يضيف إليها وشياً محتشماً يذهب بكل جمالها الأصيل، يدعي أنها اكتشافه العظيم. إنه سيفتقد أن المتنبىء بظهور هذا النبي إما أنه يسخر مه، من سامعه، أو أنه يهين العالم المتمدن...

فلنبدأ اذن. قلت من قبل أن هرزن أخطأ في اعتبار مذهب هيغل في وحدة الفكر والكائن صحيحاً ولكن من الصعب ألا نعرف أنه كان محقاً تماماً عندما اقتبس تأملات هيغل في العقوبة العظمى ما الذي يصدمنا في هذا؟ حتى يجيب هرزن عن ذلك يقتبس من هيغل مقطعاً طويلاً بالألمانية. وسوف أترجم بعض الأسطر من ذلك المقطع المشهور « إننا نصدم لمرأى الإنسان الذي يقاد وهو لا يسطيع الدفاع عن نفسه، وقد كبله وأحاطه كثير من الحرس، وصحبه منفذ الاعدام يحيط به أعوانه، كما يحيط به رجال الكهنوت الذين يشدون الصلوات التي تخفف عن المحكوم حدة شعوره باللحظة التي هو فيها إنّ الانطباع السيّء الدي تحدثه رؤية إنسان عاجر عن الدفاع يقوده الى الموت رجال مسلحون، لا يبير شعور الاسمئزاز في المشاهدين بسبب أن حكم القانون مقدس عندهم. ومع أن المنفذين يخدمون القانون، فان هذه الحالة لا يمكن أن تحطم الانطباع الذي يجعل الشعب يظر بازدراء الى حرفة أولئك الناس الذين يقومون بقتل شخص عاجز عن الدفاع عن نفسه، بكل برودة وبصورة علنية، رجال يفذون مهمتهم كالآلات العمياء أو الحيوانات المتوحشة التي يلقى المجرمون إليها لتمرقهم أرباً »**

وها هنا مقطع آخر، قمت بترجمته، وقد نسخه هرزن من هيغل: « إن من يتخلى عن الحدود كثيراً لن يحصل على أي شيء واقعي، بل يبقى بين المجردات ويغرق في

* مجموعه الكولوكول المشار إليها أعلاه ص ٥١٧

** المؤلفات مجلد ١. ص ص ٦٠

نفسه «(الانسيكلوبيديا المقطع الأول الفقرة ٩٢)* هذا المقطع يسحق أطروحة كاملة، يجب أن تكتب منذ زمن طويل لتثقيف البرجوازيين السوبرمان الذين لا يستطيعون أن يتصالحوا اليوم مع عنصر «المحدود (الذي يصفونه بالابتذال) في حركة التحرر الكبرى لعصرنا

أخيراً مقطع آخر من خطاب مشهور لهيغل الى مستمعيه عام ١٨١٨ «الموقف الرجولي من الحياة، الايمان بقوة الروح، هو الشرط المسبق للدراسات الفلسفية، إن على الرجل أن يحترم نفسه وأن يعتبر نفسه جديراً بالتفوق. إن الجوهر الخفي للكون لا يملك قوة في داخله يمكن أن تتحمل شجاعة المعرفة، عليه أن ينتج نفسه أمام المعرفـة، ويكشف عن أعماله ويضع غناها تحت تصرفه »** عندما يطلع المرء على مثل هذه المقاطع من هيغل في هذا الشخص أو ذاك من أبناء الأربعينات يفهم أي تأثير كبير تركته فيهم «قبعة إيغور فيودوريتش الفلسفية»، حيث لهم كل الحق في الهجوم طالما أنهم يقدرونها بعمق، والتي لا يمكن لجهّالنا «الذاتيين» إلا أن يسخروا منها بسبب جهالتهم الفلسفية.

في ٨ كانون الثاني ١٨٤٥ كتب هرزن في يومياته: «العقاب سخافة كاملة في الدولة المتطورة، وسوف يعجب الناس في المستقبل كيف يمكن للدولة أن تنافس كل نذل وتقترف النذالة نفسها، مع الفارق وهو أنه يقترف ما يقترف مضطراً تحت وطأة الظروف، بينما ليس ثمة أي حاجة بالنسبة إليها إن إجراءات التنفيذ جرائم كاملة، إنها شـر الجرائم. ولكن أين المقياس الأصيل الصحيح للانسان لمعرفة الخير والشر؟ إنه موجود في الادراك الفعلي للانسان في التاريخ، في اللحظة التاريخية، في البيئة التي ترعرع فيها فكل شيء يعمل على تطوير السمة المتكاملة والفردية للانسان هو خير، إما الشر فهو عندما يتعارض الفرد تعارضاً كلياً مع التطور الشمولي العام للانسان، الشر عندما يضغط الجسد ضغطاً كاملاً على الروح، لكن هذا أيضاً لا يعاقب عليه (طبعاً في الدولة المتقدمة)، فأمثال هؤلاء الرجال محتقرون، وإنها مهمة التشريع الحقيقي في أن يرى أن أولئك الأشخاص السلبيين لا يقومون بأذى حقيقي، كالبلهاء والحمقى·

---

* المرجع السابق ص ٢١٣

** المرجع السابق ص ٢٠٩.

والحيوانات »* كتبت هذه الأسطر تحت تأثير هيغل الواضح، مثلما تحت تأثير الكتاب الاشتراكيين. من السهل أن نرى أن كتابات الاشتراكيين تشتمل على الكنز الذي نجده في تعاليم تولستوي عن عدم مقاومة الشر بالقوة. وبسبب تأثير هيغل والاشتراكيين يرفض هرزن العنف كوسيلة لتحسين الأخلاق الاجتماعية، بدون المساس بقضية العنف كوسيلة لإزالة العقبات من طريق تحسين العلاقات الاجتماعية، ومعها الأخلاق الاجتماعية. إن القراء الذي اطلعوا على مقالتي « هرزن والقنانة » يمكن أن يتذكروا الحادثة بين هرزن الفتى والمعلم الفرنسي بوشوت المتزي[٢١٢]، ومن الطريقة التي يقدم بها هرزن هذه المكالمة، يمكن أن يفترض المرء أنه فهم الأهمية التاريخية العظيمة للحل الإيجابي لهذه القضية.

* المرجع السابق ص ٢٦١.

خطاب على ضريح هرزن في نيس[٢١٣]
٧ نيسان ١٩١٢

أيها السادة

يقول هايني إن تاريخ الأدب مستودع هائل للجثث. كل واحد ما يذهب لينظر إلى الميت العزيز على نفسه. ويتابع قائلا « وعندما أرى بين الجثث التي لا تهمني الوجهين النبيلين للسغ وهردر يخفق قلبي أسرع وأسرع بين حنايا أضلعي

والآن، وبمناسبة الذكرى المئوية لهرزن فان روسيا المفكرة الحرة والمحبة للحرية (وليس روسيا وحدها كما ترون) تسير الى مستودع الجثث الذي كتب على بابه « **تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي** »، وعندما ترى الصورة النبيلة لكاتبنا العظيم يخفق قلبها سريعاً بين حنايا أضلعها

روسيا المفكرة الحرة والمحبة للحرية مدينة جداً في الحقيقة لهرزن. لقد دعاه دستويفسكي مرة « الجنتلمان الروسي والمواطن العالمي لقد شحن دستويفسكي هذا اللقب بشيء من السخرية، ولكن هذه السخرية لا تليق بهرزن. ربما أوافق أن الرجل الحر التفكير يؤمن أنه يقترف إثماً إذا انتمى إلى طبقة النبلاء الروسية. إنها تلك الفئة التي حولت تاريخ بطرسبرج بعد بطرس الأول، عندما لم يكن الكثير من القياصرة، بل القيصرات، إلى تاريخ حمل الكثير من المشابهة الحزينة للتراجيكوميديا في منزل العار، إنها هذه الفئة التي إذا أُضطرت إلى تحرير الأرقاء منحتهم حصصاً ضئيلة لخدماتهم الطويلة، فلا يعيشون إلا بعوز وبؤس وجوع وانحطاط،

وأخيراً إنها الفئة التي ما تزال تدير روسيا كما لو أنها قطر محتل. يمكن أن يشعر المرء، كما قلت، بالإثم فيما لو انتمى إلى هذه الفئة، ولكن لا بد من الإشارة إلى بعض الظروف المخففة: إن الرجل لا يولد نبيلاً، ولا برجوازياً أو فلاحاً حسب اختياره. ولا يهم ماذا ولد الإنسان، بل المهم ماذا يفعل وكيف يتصرف في سني الوعي من حياته. صحيح أنه بالنسبة إلى الإنسان الذي ينتمي إلى هذه الطبقة ذات الامتياز أو تلك من الصعب أن يتبنى نظرة صحيحة كالطبقة التي لا امتيازات لها، ولكن ما يشرفه هو أنه يفلح في تبني النظرة الصحيحة فيها والجواب عن سؤال ما إذا كان هرزن نجح فيها يستغرق كامل حياته - فدوره في قضية تحرير الفلاح يبين أنه كان إلى جانب المستغَلين لا المستغِلين. ولقد اعتقد دستويفسكي أن هرزن غدا مواطناً عالمياً لأنه انفصل عن الشعب الروسي، لكن هرزن لم ينفصل أبداً عن الشعب أو عن روسيا. من ينفصل عن شعبه لا يأبه بمصالحهم، بينما كانت مصالح الشعب الروسي عزيزة جداً على نفسه. فليس افتراء أنه كتب عن نفسه أنه يكن منذ الطفولة حبا لا حدود له لقرانا وضيعنا لقد كان روسيّاً حتى أخمص قدميه. ولكن هذا الحب لوطنه الأم لم يبق في مستوى الغريزة الحيوانية الغامضة، التي كما نعرف قد تفصح عن نفسها بطريقة وحشية، لقد ارتفع به إلى مستوى الصداقة الانسانية الرفيعة. ولكن بالدرجة ذاتها التي رفع بها الحب إلى هذا المستوى، أصبح مواطناً عالمياً فبقدر ما فهم الحب الرفيع لوطنه الأم، تجلى هذا الحب في موقفه من الانتفاضة البولونية ١٨٦٣[٢١٤] وأنتم تعرفون الكثير عن ذلك: بعض الرجال دعوه خائناً، وبعضهم انتقدوه لاهانته مشاعر شعبه، لدعمه المعنوي للمتمردين البولونيين، وانفض عنه معظم المعجبين به. كل هذا آلمه كثيراً، إلا أنه ظل ثابتاً في آرائه. كتب عدداً من المقالات: «فيفا بولونيا» و«قضية دولو روزا» و«النهضة» وكثيراً غيرها، وكلها مليئة بالإشمئزاز العميق لمضطهدي بولونيا الظالمين. لم يؤمن بالقصص «الوطنية» أن الشعب الروسي بأسره هو من هؤلاء الرجال. يقول صارخاً في الكولوكول: «لا لا لا إن القضية اللعينة قضية مطاردة

شعب بأسره خارج أسرة الأمم ليست القضية العامة للشعب الروسي ». إن الشعب الروسي، أي الفلاحون الروس في ذلك الوقت، كانوا مشغولين جداً، حسب تعبير هرزن، بقضايا تحررهم وتوزيع الأرض عن قمع بولونيا. حتى لو أنهم فعلا طالبوا بقمعها، حتى لو تبنوا سياسة الفئات العليا، لما كف هرزن عن التعاطف مع المتمردين البولونيين كتب: « نحن لسنا عبيد حبنا لبلادنا، كما أننا لسنا عبيداً لحب آخر ». إن الـ حل الحر لا يريد التبعية لوطنه ولكنه لا يريد لوطنه أن يشارك في قضية ضد قناعته ووجدانه. ذاك ما قاله.

تلك الكلمات كنز نفيس حقاً. إن كلا منا يجب أن يتذكرها الآن، سواء أكانت القضية قضية البرامج اليهودية المجحفة، أو خرق الدستور الفنلندي، أو قانون عدم تعليم الأولاد الأوكرانيين من قبل الأوكرانيين، أو بشكل عام أي اضطهاد لأي شعب أو قبيلة يشكلان جزءاً من سكان دولتنا

قيل عن هرزن إنه كان مستعداً أن يمنح بولونيا الأراضي التي كانت روسية منذ أمد بعيد واعتقد أهلها أنهم روس. ولكن أولا هل من المناسب أن يبدأ الجدل حول حدود رزيكز روسبوليتا في حين روسيا البوليس والبروقراطية تمسك بخناق بولونيا وتجعلها تركع، مستعدة أن تشنقها؟ ثانياً إن وجهة نظر هرزن في هذه المسألة هي وجهة نظر الاستقلال الذاتي القومي وحرية القوميات في تقرير مصيرها لقد طرح سؤالاً «لماذا لا نستطيع أن نعيش مع البولونيين ومع الأكرانيين ومع الفنلنديين كأقطار حرة من بين أقطارنا الحرة، كمتساوين مع متساوين؟ لماذا يجب أن نجعلهم عبيداً لنا؟ ما الذي يجعلنا أفضل منهم؟ » هذا هو الآن موقف كل التقدميين وهذا هو موقف الأممية العمالية.

بذاك المعنى كان هرزن مواطناً عالمياً وعلى المرء أن يحييه لا أن يهزأ به لكونه مواطناً عالمياً من هذا الطراز.

عندما نصح نصير السلافية اكساكوف هرزن لاظهار الندم، مكررا في صحيفه شتيمة ضده، رد الأخير:

«لا يا ايڤان سيرجيفيتش، اذا تراجعنا فلن نكون مثل الأبناء المدرين أو مجدوليين برؤوس معلقة، بل نكون كرجال أحرار يطالبون بالاعتراف بسبب حياتهم. لا اعتذار ولا تسامح

لقد كان محقاً تماماً في كتابة تلك الكلمات السامخة. وعلينا الآن، في ذكراه المئوية، أن نكرم ذكراه في كلماته عن الاعتراف بحق الحياة الكامل، لا بكلمات الاعتذار والتدني والتسامح

أيها السادة. كان هرزن غير مرهون بالعودة إلى وطنه الأم. ولو عاش حتى هذه الأيام، لظل - ربما - يطوف حتى الآن في منفاه. ليس من السهل أن تصحح شيئاً استمر عدة قرون. ولكن يجب ألا نفقد الايمان. قال مرة في **الكولوكول** «الحياة الروسية متماسكة». كان محقاً إنها حقاً متماسكة. ولن يقتلها أناس أمثال بوريشكيفينش وكروبسكي وغيرموجيس أوراسبوتين. إنها تتدفق إلى الأمام على الرغم من كل شيء إنها لما تلق نيرها ما يزال هذا النير يثقل كاهلها، إلا أن فكرة الانعتاق نفذت إلى أعماق أذهان شعبها، ولم تكن الحالة هكذا أيام هرزن. هل كان ثمة الكثير من المؤيدين له عندما وقف بشجاعة يدافع عن بولونيا عام ١٨٦٣؟ بضعة رجال فقط. لم يكن الشعب فعلا يهتم ببولونيا لقد كان أبناء الشعب الروسي الجهلة مستعدين للصراخ: «أصلبوها واقتلوا البولونيين». والآن؟ إن اضراب تشرين الثاني ١٩٠٥ تم لأن الحكومة سنت قانون العقوبات لبولونيا لقد أظهرت البروليتاريا الروسية قدرتها على اتخاذ موقف واعٍ من مصير الشعب البولوني. ولقد علمت أن «الثورة المضادة تغلبت على البروليتاريا ومطلبها في حرية القوميات في تقرير مصيرها». وسوف أرد على هذا بالسؤال «إلى متى؟» لقد قال هيغل مرة أن ثمة مراحل تختبىء فيها روح تاريخ العالم (باللغة الحديثة نقول: الحركة التاريخية) تحت الأرض وتعمل هناك مثل الخلد فتقوض

[illegible] Г. К. Плеханов I

Рѣчь (на могилѣ А. И. Герцена въ Ниццѣ

(7 апрѣля 1912 г.)

Гг.

Гейне говоритъ, что исторія литературы есть обширная покойницкая, въ которую каждый изъ насъ идетъ отыскивать дорогихъ ему мертвецовъ. „И когда — продолжаетъ онъ, — между множествомъ незначительныхъ труповъ, я вижу такихъ людей, какъ Лессингъ или Гердеръ съ ихъ благородными лицами, въ моей груди начинаетъ сильно колотиться сердце."

Теперь, по случаю столѣтія со дня рожденія А. И. Герцена, вся свободомыслящая и свободолюбивая Россія, — да, какъ видите, и не одна Россія, — идетъ въ ту покойницкую, надъ дверьми которой написано: „ис-

الصفحة الأولى من مسودة مخطاب على ضريح هرزن في نيس.

أسس النظام القائم. لقد حان الوقت المناسب - والنظام التالي يتداعى، واننا لنرى كيف يعمل الخلد، وعندها نهتف جميعاً كما هتف هاملت بشبح أبيه: «أيها الخلد العجور ألا يمكنك أن تعمل في الأرض أسرع؟ صدقوني إن الخلد الروسي يعمل

بصورة أسرع مما تظنون حقاً وإننا لسا وحدنا الآن في بداية الستينات كانت شعوب أوروبا الغربية تنفض عنها غبار الإنهاك الذي ألم بها في أعقاب أحداث ١٨٤٨-١٨٤٩ العاصفة حتى البروسيون الآن يطالبون بالحرية، وحتى الصين المنهكة بدأت تتحرك فأعلنت الجمهورية. أما بالنسبة إلى الغرب فلا حاجة أن نتحدث عنه كثيراً إن الأممية العمالية قد أصبحت قوة جبارة هناك لقد سحقت القوة العسكرية بولونيا والأممية العمالية خصم عنيد للنزعة العسكرية. في ١٨٤٨ اعتاد الرجعيون الألمان أن يترنموا

الجنود وحدهم

يمكن الاعتماد عليهم ضد الديمقراطيين

للأسف كان الجنود فعلاً يحاربون الديمقراطيين. ولكننا الآن نغني:

الديمقراطيون وحدهم

يمكن الاعتماد عليهم ضد الجنود

إن حركة الطبقة العاملة في الأقطار المتقدمة الآن هي الضمانة الكبرى للسلام العالمي

بصورة عامة، عصرنا مناسب جداً لريادة فرص انتصارها النهائي. ولو عاش هرزن حتى الآن لما أصابه خيبة أمل من أوروبا الغربية.

لقد عانى كثيراً من خيبة أمله فيها ولكن حتى بعد خيبة أمله لم يفقد ايمانه بروسيا وسوف يتعاظم إيمانا في هذه الأيام بمستقبل أفضل لبلادنا التي عانت الكثير إن كل واحد منا سوف ينبعث من قبره هاتفاً مكرراً كلماته المتفائلة « الحياة الروسية متماسكة ويسعر أنه لا بد أن يكون ذلك **المواطن العالمي** الذي كانه هرزننا الخالد في عصره

(٤)

مراجعات[٢١٥]

ب. ي. شادابيف

« ب. ي. شادابيف: حياته وأفكاره » بقلم م. هرشنسون

بطرسبرج ١٩٠٨

إنه لكتاب هام. يشتمل على أكثر مما يوحي، ولا يتضمن فقط مختصراً عن حياة شادابيف و« أفكاره »، بل يتضمن في ملحقاته « رسائله الفلسفية »: اعتذار إلى سيدة، وثلاثة رسائل إلى تورجنيف ورسالة إلى سيركورت وأخيراً « رسالة إلى غريب ». كل هذا، أي مختصر السيد هرشنسون وملحقاته، يسلط ضوءاً ساطعاً على شخصية شادابيف الرائعة إن كتاب السيد هرشنسون يجب أن يقرأه كل من يهتم بالتطور التاريخي للفكر الاجتماعي الروسي

ولكن قراءة الكتاب الجيد لا تعني موافقة المؤلف على كل شيء إن تقييمنا لأفكار شادابيف يختلف في كثير من النقاط عن تقييم السيد هرشنسون، ونود أن نشير إلى النقاط التي نختلف فيها عنه.

يقول السيد هرشنسون إن اسم شادابيف لعدة أسباب بات محاطاً بالاسطورة: « الرجل الذي أدان كل شيء عن مفكرينا التقدميين، كل ما هو عزيز على قلوبهم - وحصراً اتجاههم الايجابي وثوريتهم السياسية - كان من ضمن مجمع اللبرالية الروسية كواحدٍ من أعظم الشخصيات الجيدة لحركة التحرر » (ص ٣). « سوء الفهم » هذا ابتدأ أثناء حياة شادابيف، وكان شادابيف حسب ملاحظة هرشنسون، من العبث بحيث يرفض الاطراءات غير المتحفظة، ومع ذلك كان مثقفاً بحيث يعرف قيمتها الحقيقية. والواقع أن شادابيف لم يكن سياسياً بل كان صوفياً تلك هي النتيجة التي ينتهي إليها السيد هرشنسون في كتابه.

ولكن إذا كان هذا صحيحاً كيف ظهرت الاسطورة التي يسعى مؤلفنا إلى تحطيمها وماذا يدعمها؟ كيف ظهر سوء الفهم لمدة طويلة جداً، سوء فهم يصفه السيد هرشنسون أنه فظيع؟

إن الاجابات عن تلك الاسئلة التي قدمها السيد هرشنسون تبدو لنا غير مقنعة أبداً يقول: «تلك هي نتيجة الظن الغامض عن حقيقة أكبر من الحقيقة السياسية - ظن عن حقيقة أبدية، عن حرية داخلية ليست الحرية الخارجية، وبالتالي السياسية، سوى أساس لها، ولكنه أساس طبيعي وضروري مثل الهواء للحياة. لا يوجد شعار أكثر تحرراً (وأكثر سياسة أيضاً) من القول: ارتفعوا بقلوبكم. بهذا المعنى فان شاداييف، الذي ألح بلا انقطاع على الأهداف العليا للروح وخلق جيلاً من أعظم الأجيال التاريخية عمقاً، يستحق أن تتذكره الأجيال القادمة» (ص ص ٣ - ٤).

فلنقف عند هذا لحظة. ماذا يعني قوله «حصراً اتجاههم الايجابي»؟ هل هذا الاتجاه غريب عن العناصر الدينية؟ إذا كان كذلك سوف نضطر أن نقول مثلاً إن كثيرين من الديمقراطيين لا ينتمون إلى هذا الاتجاه. ألا ينتج من ذلك أن من الخطأ ان نعد هؤلاء الديمقراطيين من بين الشخصيات الفعالية في حركة التحرر عندنا؟ فوق ذلك، هل «الثورية السياسية» سمة لكل المشاركين في حملة التحرر في روسيا؟ بالطبع لا فثمة بينهم من يكافحون من أجل الحرية السياسية ومع ذلك يتجنبون «الثورية»، وثمة أيضاً أشخاص بينهم يميلون جداً إلى «الثورية» مع أنهم يتجنبون «السياسة». وهكذا فان التعريف الذي قدمه هرشنسون يثبت مرة أخرى أنه ضيق جداً، أي غير صحيح. ولكن لنذهب أبعد. في الكنيسة السلافية القديمة المعروفة للقارىء الروسي معرفة جيدة، نداء «ارتفعوا بقلوبكم» عبرت عنه الكلمات التالية (Zopèumanbi Cepoua). ويحق لنا أن نسأل هل هذا النداء نداء تحرري «حق سياسياً»؟ إننا لا نعتقد ذلك. إن النداء الذي اقتبسه هرشنسون غامض جداً، انه أشد غموضاً من أن يفسر «حق سياسياً». إن الأمر يعتمد على الطريق التي يرفع فيها الناس «قلوبهم». يمكن للمرء أن «يرفع قلبه» ويكون عدواً لدوداً لأي حرية سياسية أو غير سياسية. ربما يقول السيد هرشنسون إن مثل هذا الرجل لم يعرف بعد ماذا يعني «رفع القلب». إلا أن تلك هي المسألة برمتها: إننا مجرد فانين، لم تباركنا أي نعمة فائقة، فلا نعرف ذلك على وجه التأكيد. إن «الحقائق الأبدية» للطبعة التي عزا

السيد هرشنسون « الحقيقة » إليها، هي حقائق جد متناقضة. ولا يكفي أن « نلح بلاكلل على الأهداف العليا للروح » لتصبح « جديرة بأن تتذكرها الأجيال القادمة ». إن المرء يحتاج شيئاً آخر هنا وعلى أي حال قدم شادابيف خدمات جلى وهامة جداً لحركة التحرر الروسية أكثر من اندفاعه إلى الصوفية. فمثلاً كان هرزن حتى آخر أيامه يكن عاطفة عظيمة لشادابيف، ولم يكن السبب في ذلك أن شادابيف كان صوفياً

السيد هرشنسون بعد أن يصف تأثير « الرسالة الفلسفية »[٢١٦] الأولى (والوحيدة المشهورة) على هرزن يلاحظ: « إن مزاج الكاتب يتطابق مع مزاج القارىء، والقارىء لا يشك أبداً أن مزاج الكاتب مشروط بأسباب مختلفة تماماً عن أسبابه. يقول هرزن: « كانت طلقة صوبت إلى الليل المظلم » وهذا صحيح، إلا أن هرزن قرر فوراً، من دون أن يحدد من يطلق على من، أنه تحالف وأن الطلقة صوبت إلى العدو المشترك، بينما ما هو مشترك لم يكن سوى المزاج والألم والنقد (ص ١٤٢).

إذن ثمة مزاج مشترك، أليس كذلك؟ فان كان الأمر هكذا فان تأثير الكاتب على القارىء أيضاً يصبح واضحاً تلك هي الطريقة التي تحدث دائماً: القراء يتعاطفون مع أولئك المؤلفين الذين يتطابق مزاجهم مع مزاج القراء وليس ثمة « سوء فهم فظيع والحقيقة أن المزاج المشترك بين المؤلف والقارىء سببه، حسب رأي السيد هرشنسون عوامل مختلفة. ولكن هل الأمر كذلك حقاً؟ ألا يخطىء السيد هرشنسون هنا؟ في اعتقادنا إنه مخطىء جداً والحقيقة إن المزاج الذي نقصده هنا لا سبب له سوى الموقف السلبي من الواقع الروسي المعاصر. وكان ذلك الموقف سمة لشادابيف وليس لهرزن. ولهذا كان تعاطف هرزن مع شادابيف تعاطفاً مستمراً وليس « سريعاً إن لهما، على عكس ما يرى السيد هرشنسون، عدواً مشتركاً، وكل واحد منهما « يطلق » على العدو المشترك بكل ما أوتي من قوة وقدرة. وعندما يطلق أحدهما طلقة صائبة لا يستطيع الآخر إلا أن يبتهج ويحييه. وهذا ما فعله هرزن تماماً لدى قراءته « الرسالة الفلسفية ». فأين « سوء الفهم الفظيع » هنا؟

عندما قابل هرزن أخيراً شادابيف شخصياً رأى طبعاً انه يتعامل مع صوفي. ولكن ذلك لم يحل دون اعتبار أفكاره مشابهة لأفكار شادابيف، إذا ما أخذنا الواقع الروسي المعاصر بعين الاعتبار. إن موقف الأعضاء الآخرين في حركة التحرر في ذلك

الوقت من شاداييف كان موقف هرزن نفسه تقريباً فعلى الرغم من صوفيته وجدوا فيه من الأسس ما يكفي لاعتباره واحداً من معسكرهم.

يقول هرشنسون في مقطع آخر من كتابه «رسائل شاداييف في الخمس عشرة سنة الأخيرة من حياته تبين أنه غارق جداً في النضال ضد أنصار السلافية. إنه يتحدث عنهم باستمرار، بحق وأحياناً بلا حق، وبشتى اللهجات، من اللهجة التراجيدية إلى اللهجة المضحكة. وعندما يكتب إلى شيلنج يتعثر كلامه في وصف تافه «لأزمة المثقف»، لـ «مذهب خبيث» للقوميين الروس. وبصدد دورة شيفيريف حول تاريخ الأدب الروسي يكتب إلى سيركوت رسالة مطولة يستخدم ببراعة سخرية حادة لتشريح سخافة المذهب السلافي، مثل طالب طب يشرِّح عضلات الذراع ولا حاجة أن نأتي بشاهد من تلك الرسائل: إنها لا تتضمن شيئاً جديداً بصورة أساسية، فشاداييف يظهر أسفه فيما يتعلق بالوهم القومي، ويسخر من **طوباوية** أنصار السلافية **الارتدادية**، ومن موقفهم الازدرائي من أوروبا الغربية الخ.. ولكن الهدف الرئيسي لهجوماته لم يكن الأخطاء التاريخية ولا الرغائب الرجعية لأنصار السلافية: لقد كان يرعبه جو الحماسة القومية التي يشيعونها في المجتمع إن شاداييف، الذي لم يحب من روسيا إلا مستقبلها، أي تقدمها الممكن، لم يستطع إلا أن يلاحظ، والألم يعتصر قلبه، التخمة الروحية التي لا يمكن أن تقارن بأي حركة تقدمية، وقد شوهت شخصية الشعب. يبدو هذا الموقف الذهني له مرضاً فتاكاً يهدد بالدمار كل مستقبل الشعب الروسي، ويؤثر في المجتمع ككل وفي كل فرد على حدة» (ص ص ١٧٦ - ١٧٧).

ماذا تريد أكثر من ذلك أيها السيد هرشنسون؟ لقد أثبت بنفسك أنك على خطأ تماماً، أي أن ثمة الكثير من الأشياء المشتركة بين آراء شاداييف وتقدميي ذلك الوقت. لقد كان شاداييف حسب قولك أنت **نصيراً للغرب وتقدمياً متحمساً** وهكذا يكفي تماماً

لا يكفي القول إن شاداييف كان نصيراً للغرب. لا بد للمرء من أن يضيف أيضاً إنه عبر في «رسالته الفلسفية» الأولى، وربما عبر أقوى من أي شخص آخر، عن الألم الشديد الذي سبّبه واقعنا المؤلم وتاريخنا المظلم لأنصار الغرب. «رسالته الفلسفية» الأولى عمل فني رفيع المستوى، لم تقدر قيمته بصورة صحيحة. ويمكن أن يقول المرء من دون أي مبالغة أنه كتب هذه الرسالة بدم قلبه. ولا جدال في ذلك: فنظرة المؤلف

الصوفية، أو بالأحرى النظرية واضحة جداً في هذه الرسالة. إن السبب الرئيسي لماضينا المظلم، ولا يقل عنه حاضرنا ظلاماً، في رأي شاداييف، هو أن المسيحية جاءت إلينا من بيزنطة

يقول: «انصياعاً لقدرنا الآثم انقلبنا إلى بيزنطيين متخلفين فيا يتعلق بالقانون الأخلاقي الذي كان يجب أن يشكل أساس ثقافتنا وبارادة رجل طموح [هو البطريرك فوتيوس - ج ب] - اغتربت هذه الاسرة البشرية عن الاخوة الشاملة بحيث أننا، نتيجة ذلك، تمسكنا بفكرة شوهتها النزوة البشرية. إن كل شيء في أوروبا في ذلك الزمان كان يبدو حياً بعد أن يمنحه الحياة مبدأ الوحدة. كل شيء ينشأ فيها ويتحول إليها وباغترابنا عن هذا الينبوع أصبحنا ضحايا الغزو».

إن أعضاء حركتنا التحررية سوف يرفضون الاعتراف بالدين على أنه «عامل» أساسي في الحركة التاريخية للبشرية. ولكن ماذا عن ذلك؟ إن الأسطر التي تلي ما اقتبسناه مباشرة سوف تذكر هؤلاء الناس بالصلة الوثيقة بين آراء شادابيف وآرائهم. وبالفعل تتابع الرسالة قائلة: «عندما نرمي النير الأجنبي، ولم تكن سوى غربتنا التي حالت بيننا وبين استخدام الأفكار التي طورها اخواننا في الغرب في ذلك الوقت، فاننا نرتمي في العبودية المريرة مضحين بتحررنا» إن انصار السلافية لن يوافقوا أبداً أن يسموا النظام القائم في روسيا الموسكوفية عبودية أشد مرارة حتى من النير المغولي. إذا ما قرأ نصير للغرب معاصر «الرسالة الفلسفية»، فانه لن يرى في المؤلف حليفاً له في مسألة كانت ملحة وقتها للانتلجنسيا الروسية، وهي مسألة إلى أي مدى يجب أن تصل العلاقة بين روسيا والغرب. إن الرسالة قدمت رداً محدداً على المسألة الملحة: إن اغترابنا عن الغرب مصدر كل آلامنا المريرة. ويشكو شادابيف قائلا «العالم بأسره بني من جديد، أما نحن فلم نخلق شيئاً، اننا بكل بلادة نختبىء في أكواخ من القضبان والقش. باختصار إن المصائر الجديدة للجنس البشري تتحقق ونحن خارجها». هذه الحقيقة لا بد أن يقرها أي نصير للغرب، بغض النظر عن رأيه في دور الدين في تطور البشرية الثقافي. إن المرء يتذكر هنا ملاحظة سيدة مجتمع فرنسية حول كتاب الروح لهلفيتوس. فهلفيتوس حسب كلمات السيدة أخبرنا في هذا الكتاب «بكل أسرار العالم». إلا أن السيدة لم تفهم شيئاً مما قاله المادي الشهير. ولكن

يمكن القول بكل ثقة ومن دون أي احتمال لسوء الفهم، أن شاداييف في « الرسالة الفلسفية » قد أخبرنا « بكل أسرار أنصار الغرب » بصراحة ووضوح، وبشكل فني راق. لقد بات شادابيف لسانهم الناطق وشاعرهم الغنائي. وهذا هو السبب في أنه أسرهم واستحوذ على عواطفهم، بينما لم ير أنصار السلافية في « الرسالة » سوى جريمة لا تغتفر وليس عبثاً أن يازيكوف يفتتح رسالته إليه بقوله:

أيها الابن الطائش لأسلاف كرام
أيها العبد المتباهي بكل شيء أجنبي
إنك ترفس وتخون كل ما يخصك
ومع ذلك لا تبدي ندماً

يعلق هرشنسون على سخرية بازيكوف المقززة: « من السهل أن ندرك مدى سخافة هذا الاتهام بنظر رجل كتب أن حب المرء لوطنه الأم شيء جميل، إلا أن ثمة شيئاً أجمل وأعلى، ألا وهو حب الحقيقة » (ص ١٧٤). لا تبدو لنا هذه الملاحظة موفقة تماماً في هذه الحالة لا يبدو لنا حب المرء لوطنه الأم متعارضاً مع حب الحقيقة. إن المرء لا يستطيع أن يفعل ذلك لسبب بسيط وهو أن « الرسالة » (أو بالأحرى نزعة شادابيف الغربية بشكل عام) مشوبة بحب جارف لوطنه الأم. لقد كتب « الرسالة » رجل كأن كلمات نكراسوف كتبت خصيصاً له:

بما أن لي عينين للرؤيا
فقد رأيت وتألمت من أجل وطني الأم.

في دفاع عن مجنون يصف شادابيف موقفه من وطنه الأم كالتالي: « إني أحب وطني أكثر منك صدقاً إني أتمنى مجده، وأقدر الخصال العالية لشعبي، ولكن الصحيح أيضاً أن الشعور الوطني الذي يلهمني يختلف عن الشعور الذي تشوش صرخاته وجودي الهادىء وترمي بقاربي، بعد أن وجد ملجأ عند قدم الصليب، مرة أخرى إلى محيط التقلبات البشرية. أنا لم أتعلم أن أحب وطني بعينين مغمضتين وشفتين مطبقتين. أعتقد أن الانسان قد يكون مفيداً لبلاده إذا هو رآها بوضوح: أعتقد أن زمن الانجراف الأعمى قد ولّى، ذلك أننا الآن مدينون لقطرنا بالحقيقة أكثر من أي شيء آخر إني أحب بلادي كما علمني أن أحبها بطرس الأكبر ». أنت ترى هنا أن شادابيف لا يعارض حب الحقيقة بحب الوطن بل يقدم الحب السابق. باعتباره عنصراً

يقرر اتجاه الآخر ، أما بالنسبة إلى قوله « أحب بلادي كما علمني أن أحبها بطرس الأكبر » فيذكر المرء بتشيرنيشيفسكي ، الذي يقول في كتابه **مقالات عن مرحلة غوغول في الأدب الروسي** أن على الروسي أن يكون وطنياً بالمعنى الذي كان فيه بطرس الأكبر وطنياً فالواضح من هذا الموقف من بطرس الأكبر أن الآراء الاجتماعية لشادابيف تشترك في عدة نقاط مع أعظم تقدمي من أنصار الغرب. أخيراً ، يقتبس السيد هرشنسون من الامير فيازيمسكي ملاحظته الصحيحة أن « رسالة شادابيف رفض من حيث الأساس لروسيا التي نسخها كارامزين عن الأصل » أي روسيا القائمة على مبادىء أوفارو الثلاثة[٢١٧] ، كما يفسر هرشنسون (ص ١٤٣). وما دام يسلم بهذا فما الضرورة لأن يستخدم مؤلفنا تعبير « سوء فهم فظيع »؟ ما هذا سوى عدم استيعاب.

إننا لا ننسى لحظة أن « رسالة » شادابيف تعبر في الوقت نفسه عن موقف سلبي من محاولة الديسمبريين السياسية. وحسب قوله كانت تلك المحاولة « حظاً عاثراً جداً أرجعنا خمسين عاماً إلى الوراء إلا أن هذه النظرة إلى المحاولة تثبت أنه لم يكن ثورياً سياسياً قلنا من قبل إن كثيراً من المشاركين في حركتنا التحررية لم يكونوا ثوريين سياسيين ، وبالتالي فان موقف شادابيف من هذه المحاولة ، مثل موقفه من حركة ١٨٣٠ الثورية ، لا يثبت فكرة هرشنسون. إلى جانب ذلك لا بد أن يتذكر المرء أن شادابيف في الرسالة الأولى بدا كشاعر غنائي لكل أنصار الغرب الروس ، وقد قال فوسكولو بحق عن الشعراء أنهم حتى عندما يتذرعون بالصبر ، يمسحون جراح القلب بالملح لأنهم يثيرون القلب بشدة. وفي إدانة شادابيف « للثورية السياسية » « تذرع بالصبر » بمعنى ما ولكن حتى في « التذرع بالصبر » أثار قلوب أولئك الذين يحاولون أن يحققوا مستقبلاً أفضل لبلادهم. إنهم نظروا إليه دائماً على أنه واحد منهم ، ومن الصعب أن نعزو « للعبث » وحده عدم محاولة شادابيف أن يثنيهم عن هذا الاتجاه.

إن العقوبة التي حلت بشادابيف كانت برهاناً جديداً عن النظرة إلى روسيا التي عبر عنها في « الرسالة الفلسفية ». قال هرزن في مكان ما (أظن في **أيامي الغابرة وأفكاري**) إن الاستبداد ظهر في الغرب أيضاً ، ومع ذلك لم يحدث أن أحداً رفع عصا التأديب في وجه سبنوزا ، أو عين ليسنغ في الجيش. إن كل هذه الأشياء تحدث في روسيا ببساطة. إنهم هنا يفعلون أكثر (إن كان ممكناً): فقد أعلنوا عن جنون رجل لأنه كان من الشجاعة بحيث اختلف عن النظرة الرسمية لروسيا هذه المعاملة السيئة

جعلت شادابيف شهيد الفكرة الغربية. لقد ضحى لقضية حركتنا التحررية (الأيديولوجية)، فمن الطبيعي أن اسمه دخل فيما سماه هرشنسون **المجمع المقدس**.

كل يوم يكفيه شره. في تلك الأيام كان الرجل الذي يدافع عن الصوفية يعتبر خطأ عضواً في حركة التحرر في تلك الأيام الصوفية، حتى من يتعاطف جداً مع الحرية، والمستعد للقيام «بعمل جريء من أجلها، سوف يؤذي القضية أكثر مما يفيدها في تلك الأيام الخادم الأصيل للتقدم أي الصلب أي غير المتردد لا بد له أولا من إزالة كل بقايا النظرات العالمية القديمة البالية من نظرته العالمية، وما لم يقم بهذا، فان **غموض أفكاره** سوف يؤدي به حتماً إلى **التشتت في أفعاله**. في مرحلة شادابيف عندما كان التمايز في «مجتمعنا وبالتالي التمايز في حقل الفكر الاجتماعي أبعد مما وصل إليه الآن، لم تتطلب الحياة تقدميين متماسكين في أفكارهم، بحيث أنه حتى صوفي مثل شادابيف عندئذ استطاع أن يقدم خدمة لحركة التحرر كل يوم يكفيه شره.

ثمة نقطة أخرى: لم تكن الصوفية هي السمة الغالبة في نظرة شادابيف العالمية، بل مطاليبه الكبرى من الواقع المحيط به. كل هذا يبدو لهرشنسون في ضوء مختلف تماماً، إلا أن كتاب السيد هرشنسون المفيد ذاته هو ما يثبت مادياً أنه - أي السيد هرشنسون مخطىء

متى تم «تحول» شادابيف؟ حسب معلومات السيد هرشنسون تم حوالي «عام ١٨٢٠» (ص ٣٤). جيد، ولكن ماذا كانت آراء شادابيف السابقة؟ يقول السيد هرشنسون أنه من قبل «كانت نظرته العالمية مركزة في الاهتمام الاجتماعي» وأنه «اعتقد أن الميدان الوحيد للتطبيق الجدير بوطني هو ما اعتبره الديسمبريون واجبهم» (ص ١٧) وفي الصفحة نفسها يقتبس السيد هرشنسون من رسالة شادابيف الى أخيه ما يبين أن الحالة كانت فعلاً على ما يرويه. إن المقطع المقتبس يتحدث عن «الثورة الاسبانية»، يكتب شادابيف (في ٢٥ أيار ١٨٢٠): «مجموعة عظيمة أخرى من الأخبار تملأ العالم بأسره: لقد انتهت الثورة الإسبانية، واضطر الملك أن يوقع دستور ١٨١٢ لقد هب الشعب بأسره، ووصلت الثورة نهايتها في ثلاثة أشهر - لم ترق نقطة دم، ولا مجزرة ولا انتفاضات ولا تهورات، وبشكل عام لا شيء، يشوه هذه القضية الرائعة: فماذا تقول في ذلك؟ هنا مثال رائع عن القضية الثورية التي تحققت

عملياً إن هذا لا يكتبه سوى معاطف مع الحركة الثورية بكل قلبه. والأن السؤال المطروح هو ما الذي يدفع شادابيف الى الصوفية؟ إن السيد هرشنسون يقدم رداً غامضاً على هذا السؤال، ومن الصعب أن يقدم رداً محدداً إن كل ما نعرفه أن شادابيف بعد «تحوله قرأ مؤلفات سيلنغ، بناء على نصيحة أحدهم، وأن تلك المؤلفات «سببت له أزمة روحية عميقة» (ص ٣٤). إلا أن ثمة شيئاً جديراً بالملاحظة. يقول السيد هرشسون. في هذين العامين، من الاستقرار الى السفر خارجاً، شعر شادابيف بالمرض شعوراً حاداً كان شادابيف بطبيعته شخصاً نشيطاً جداً، مرضه وآلامه المعنوية التي سببتها له الراحة وأسباب أخرى، وبشكل خاص الأسباب الروحية، فاقمت فيه قلة الثقة والتقلب في المراج مما جعله شهيداً فعلاً (ص ٣٥). وفي رسالة الى أخيه من لندن مؤرخة في تشرين الثاني ١٨٢٣ شخص شادابيف حالته المرضية على النحو التالي: «مزاجي العصبي (وأقول توهجه) يقلب كل فكرة الى إحساس الى درجة أنني بدلا من أن أتكلم أميل الى الضحك والصراخ أو الإيماء في رسالة أخرى (نيسان ١٨٢٤) يكتب اعترف (وأعلم أنك لا تثق بالاعترافات كثيراً) أن خيالي الجامح غالباً ما يجعلني لا أثق بأحاسيسي الخاصة فأشرع أندب حظي بشكل مضحك (الصفحة ذاتها). إن المقاطع التي اختارها هرشنسون من يوميات شادابيف تترك انطباعاً هو أن تلك الملاحظات كتبها رجل يعاني من انهيار نفسي (أنظر ص ص ٣٩-٤٣). ظل شادابيف على هذه الحالة زمناً طويلاً وظل بعد عودته من الخارج «وحيداً حرياً كارهاً للبشر» مهدداً بالجنون والهزال» (ص ٦٠). في رأي السيد هرشنسون، الذي يرجع الى دافيدوف كمصدر له، اعترف شادابيف أخيراً للكونت شتروغانوف أنه كتب «رسالته الفلسفية» عندما كان في حالة جنون و«حاول القضاء على حياته أثناء النوبات» (ص ٦٠) بالطبع سوف نأخذ هذه الشهادة بشيء من التحفظ، ومع ذلك لا يمكن غض النظر عنها نهائياً، فهي تقنعنا، مع المعطيات الأخرى، أن اتجاهات شادابيف الصوفية كانت نتيجة مرض عصبي، سببه اضطراب عضوي سابق، أو مؤثرات أليمة من محيطه. وفي الحديث عن المحيط لا بد أن نذكر ليس واقعنا الروسي فقط، ذاك الواقع الذي أجبر الفتى هرزن أن يتساءل في يومياته: «لماذا علينا ان نتنبه؟ لا ففي أيام رحلة شادابيف الى الخارج كان عشاق الحرية في العرب يمرون في أوقات عصيبة. كانت الأوقات التي وصلت فيها الرجعية ذروتها في

أوروبا الغربية لتسييع الثورة الفرسية يقول كويت أن كل الكتاب الايطاليين الكبار في بداية القرن التاسع عشر عادوا الى الذاكرة بصورة قائمة. إلا أن هذه الحالة لم تكن في إيطاليا وحدها، إذ يكفي أن يتذكر بايرون. بالفعل لم يستسلم عشاق الحرية في أوروبا الغربية، بصورة عامة، لتأثير الصوفية بسهولة: كانت صوفيتهم أساساً سيادة الرجعيين. ولكن هذا تفسره حقيقة أن التطابق بين **الاتجاهات الاجتماعية** للمفكرين **والأسس النظرية لنظرتهم العالمية** أكثر الى حد بعيد هناك بسبب التطور العظيم للعلاقات الاجتماعية الأوروبية الغربية. إن من يتجاهل هذه الظروف لن يفهم كيف أن كثيراً من «**الماركسيين**» (إحم) في عصرنا على سبيل المثال ينتقلون الى الكانتية والأحادية التجريبية والمذاهب الفلسفية الأخرى التي تعبر عن الحالة **الليبرالية** (أو قل **المحافظة** إن شئت) **لبرجوازية** أوروبا الغربية الحالية وليس هذا هو مكان مناقشة ذلك بشيء من الإسهاب. فالحقيقة أن شاداييف في الغرب أيضاً لم يستطع العثور على عزاء دائم لنفسه المريضة. ولم يستطع البحث عنه، وكلما جد البحث عنه أصبح عاجزاً أمام الصوفية. إن الصوفية بالنسبة إليه لعبت ما تلعبه الفودكا، للأسف، في الكثيرين من «الروس - كانت السبيل الى النسيان. إلا أن الفودكا لم تقض على العوامل التي سببت الآلام المعنوية للشارب. ولا استطاع شاداييف أن يجد في الصوفية القناعة التي يمكن أن يجدها في **النشاط الاجتماعي وحده**. وبسبب الصوفية بالضبط لم ترتح رغبة شاداييف للنشاط الاجتماعي، هذه الرغبة التي ابدت ميلاً نحو صوفيته.

إن الاهتمام الاجتماعي غالباً ما يأتي في المقدمة حتى في براهين شاداييف الدينية يقول في «رسالته الفلسفية» الأولى: «في العالم المسيحي يجب أن يؤدي كل شيء الى إقامة نظام كامل على الأرض وهو فعلاً يسير نحو هذا، والا فان وعد الرب أنه سيكون مع كنيسته حتى نهاية الزمن سوف تدحضه الوقائع هذه أعظم سمة لصوفية شادابيف. قارن هذه الصوفية مع النظرة العالمية الدينية للكونت تولسوي، وسوف نرى ان الاتجاهات الدينية في حد ذاتها لا تحدد ميل الرجل. إن صوفية شادابيف تبرر الانهماك في «إقامة نظام كامل على الأرض» في حين يشدد دين تولستوي أن «مملكة الرب في داخلنا»، ويدير ظهره للاتجاهات الاجتماعية في ذلك الوقت ونعرف أيضاً أن تولستوي «يصعد بقلبه». إن صوفية شادابيف لا تشبه أبداً دين تولسوي. ونأمل ألا ينكر هذا لا السيد هرشنسون ولا الذين يدعون صوفية شادابيف صوفية

اجتماعيـة. إن من الأفضل أن سميها صوفية سببتها رغبة قلقة لادخال الفكر في الحياة المحيطة به.

ولكن إذا كان ذلك هو ما تدور حوله صوفيته، فمس الواضح أن مؤلف « الرسالة الفلسفيـة لا يمكن بل يجب أن يعد بين المشاركين النشيطين في حركتنا التحررية.

في التحليل الأخير يبدو أن السيد هرشسون يعترف بذلك، أولاً يعترف بدلك يحفظات غير مقبولة، ثانياً أنه لم يلاحظ أن هذا من حيث الأساس فكرته الخاصة بأن المشاركيين النشيطين في حركتنا التحررية اعتبروا شادابيف واحداً منهم فقط من خلال سوء فهم فظيع يقول: «اذا وضعنا في الحسبان الاتجاه الذي اتخذه تفكير شادابيف في أوائل العشريات، نرى الاهتمامات الاجتماعية تتراجع الى الخلف، إلا أنها لم تتلاش نهائياً لقد تجذرت عقلية شادابيف في تربة العصور الاسكندرية، وحتى سوات نضجه كان يتغذى بما يغذي أبناء ١٤ ديسمبر. إن أبناء جيله وأصدقاءه وأولئك الذين في سنه، لا يعرفون سوى اتجاه واحد وليس لهم سوى هدف واحد في الحيـاة المصلحـة العامـة، وقـد رأينـا أن شادابيف كان مثلهم في مرحلته البطرسبرجية(٢١٨) وكان سيظل هكذا طيلة حياته، فكل شيء، كان يراه مصباً في المجتمع، وليس في الفرد إن مشاعره المدينة ظلت قوية فيه حتى عندما غرق في البحث عن الدين: وضمانة لذلك كان صديقه الذي عاش طويلاً في الخارج ن. ي. تورجنيف، وهو نموذج للفكر ذي الاتجاه الواحد في الحركة التحررية » (ص ٦١). يا للروعة. ولكن المرء، مهما أمكن أن يفعل، إذا ظل دائماً يضع المجتمع في الذهن، هل يمكن لأحد الادعاء أن الاهتمامات الاجتماعية تراجعت الى الخلف عنده؟ إن الحس العام يقول لا والسيد هرشنسون ذاته يشرع في الاشارة الى الحقيقة التي تقرر هذه الناحية المتناقضة بشكل أشد تحديداً، من غير أن يترك أي مجال لخط الرجعة. تلك هي الحقيقة. يقول سفيربييف أنه عندما قابل شادابيف أثناء رحلة الأخير الى الخارج، أي زمن اغراقه في الصوفية، تحدث شادابيف عن وضعنا القائم كالتالي: «في انفجاراته الحادة لم يخف ازدراءه العميق لكل ماضينا وحاضرنا ويئس حقاً من مستقبلنا وقد سمى أراكشييف نذلاً، وسمى السلطات العليا، العسكرية والمدنية المرتشين وسمى النبلاء المزيفين الآبقين وسمى الاكليروس الجهلة، والباقي سماهم العبيد البلداء الأذلاء » (ص ٦١). إن رجلاً تراجعت لديه الاهتمامات الاجتماعية الى الخلف

لا يتحدث مثل هذا الحديث. لا ولا يتحدث بلسان الشخص الثالث المفرد، فيبين حديثه دفء مشاعر شخص يهتم بالقضايا الاجتماعية أولا وقبل كل شيء. ذاك هو بالضبط الشعور الذي نجده في «الرسالة الفلسفية» الأولى، والذي جعل هذه الرسالة أشبه بادانة مرعبة، أشبه بخطاب ناري ثوري*

يتساءل السيد هرشنسون «هل هذا الزمن مناسب لنتذكر فيه مجتمع شاداييف الروسي؟» ويجيب «الفم، اعتقد ذلك، وهو مناسب الآن أكثر من أي وقت مضى». أما من جهتنا فاننا نعتقد إن من المناسب تماماً الآن أن نذكر جمهور القراء بشادابيف. الا أن حجج هرشنسون تبدو لنا أنها عاثرة الحظ. يكتب: «يطلعنا المجموع العام لأفكاره [أي أفكار شادابيف - ج. ب] أن الحياة السياسية للشعوب، في كفاحها لتحقيق أهدافها العاجلة والمادية، تحقق جزئياً الفكرة الأخلاقية المطلقة، أي إن أي فعل اجتماعي ليس في جوهره أقل دينية مما في صلاة أخلص المؤمنين. أنه يخبرنا عن الحياة الاجتماعية. ادخل فالرب هنا، ولكنه يضيف: «تذكر أن الرب هنا وأنك تخدمه» (ص ٤) هذه الحجج تدل على تقوى السيد هرشنسون أكثر مما تدل على فهمه الواضح لدور «العنصر» الديني في تاريخ البشرية. ومن المفيد أن نذكر شادابيف ليس لأن «الرب هنا»... الخ، بل لأننا نعيش الآن خلال فترة تخيب فيها الآمال الاجتماعية المبالغ فيها، ومثل هذه الفترات ملائمة دائماً لانتشار الصوفية. وثمة مبررات للاعتقاد أن موجة قوية في الصوفية آخذة بالانتشار بين الانتلجسنيا الروسية: فليس من الصدفة ان «مجيء المناقشات الأنيقة» طفقوا يفكرون، وان ببراءة بالأديان الجديدة، والأفضل القول أنهم يتعاطفون مع الأديان القديمة (انظر الرؤيا الدينية للنبي

---

* في ملاخظة هامشية من مجموعة مقالات من الدفاع الى الهجوم - لم يمش هذا الشعور للأسف يداً بيد مع الشجاعة عند شادابيف ففي رسالة الى الكونت أورلوف، بطريقة مخجلة ومن دون أي سبب خارجي مقنع، هاجم هرزن الذي محضه عاطفة صادقة في كراسته تطور الأفكار الثورية في روسيا (١٨٥٥). لقد حاول شادابيف اقناع أورلوف أنه - أي شادابيف - لا يستطيع البقاء محايداً «عندما يهين لاجيء مغرور الحقيقة بطريقة وقحة» عازيا إليه «عواطفه الخاصة» وملقيا «عاره» على اسمه (انظر هذه الرسالة في م ريجاريف بمقالته عن شادابيف في فيستنيك يغروبي أيلول ١٨٧١ ص ٥٠). كتبت هذه الرسالة المدهشة في ١٨٥١، في السنة داتها التي كتب فيها شادابيف رسالة ودية الى هررن في الخارج وعندما انتقد زيجاريف شادابيف «لسلوكه الرخيص الذي لا لزوم له» اعترض الأخير «يا عزيزي على المرء أن يحتفظ بجلده» (المرجع السابق ص ٥١) فيا لها من محاولة تبرير سخيفة.

لوناشارسكي في الأوبرازوفاني)[٣١٩] إن مثال شادايف رائع في أنه يعرض العجز الكامل للصوفية كوسيلة لحل المهات الاجتاعية التي لم تحلها الحياة بعد. ومن هذه الزاوية فإن حياة شادايف و« فكره » من الحيوات والأفكار المتنورة. ومن المؤسف أن هذه الناحية، لم توضح كفاية في كتاب السيد هرشنسون.

فلنحاول توضيحها بأنفسنا

إن « الرسالة الفلسفية » الأولى لشادايف تتخللها تشاؤمية عميقة عن المصير التاريخي لروسيا يتساءل: « أين عقلاؤنا؟ أين مفكرونا؟ من فكر عنا ومن يفكر عنا اليوم؟ بوقوفنا بين القسمين الأساسيين الشرق والغرب، وبدعم أنفسنا بالاتكاء على الصين من جهة وعلى ألمانيا من جهة ثانية علينا أن نوحد أنفسنا مع القسمين الأساسيين الكبيرين للطبيعة الروحية، للتصور والحس العام، وان ندمج في حضارتنا تاريخ العالم بأسره. إلا أن ذلك ليس الدور الذي خصصته لنا العناية الالهية. وفوق ذلك فان العناية لا تبدو أنها تشغل نفسها بمصيرنا أبداً وبعد أن استثنتنا من عملها الخيري في الفكر الانساني، تركتنا وحدنا تماماً، ورفضت التدخل في أي من شؤوننا ولم تعلمنا أي شيء إن التجربة التاريخية لم تخلق لنا، فالأجيال والعصور تتدفق عقيمة بالنسبة إلينا فاذا نظر المرء إلينا قال إن القانون العام للبشرية قد ألغي فيا يخصنا. وحدنا لم نقدم شيئاً للعالم ولم نعلمه شيئاً، فلم نساهم بفكرة واحدة في ذخيرة الأفكار الانسانية، ولا قدمنا شيئاً أبداً يساعد على تقدم الفكر الانساني، وقد شوهنا كل شيء قدمه لنا التقدم ».

إن هذا غاية في التشاؤم، وليس مدهشاً أن يصل شادايف إلى النتيجة التالية: « ثمة شيء في دمنا غريب عن أي تقدم حقيقي. لقد عشنا ونعيش لنقدم درساً هاماً في إبعاد الأجيال التي ستكون قادرة على استيعاب التقدم، أما في الوقت الحاضر فلم نقدم أي شيء للنظام العالمي الروحي ». وبما أن هذه النتيجة الكئيبة قد اضعفت الاهتمامات الاجتاعية عند شادايف بتأثير الصوفية، فان عليه أن يطيع ارادة العناية الالهية، التي لا ترغب في أن « تتدخل » في مصيرنا إن غافارين، الذي وجد الطمأنينة في الكاثوليكية، لم يفكر في مستقبل روسيا ومصيرها وتلك هي القضية كلها: ظلت الاهتمامات الاجتاعية في المقدمة عند شادايف، لهذا لم يستطع أن يصالح نفسه

مع «عدم اهتمام» العناية الالهية بشؤوننا وهكذا أيضاً وأيضاً يتفحص ماضينا في فكره إلى أن يكتشف فيه أخيراً السمة التي تعدنا بمستقبل مشرق. ومن الغريب القول ان هذه السمة تنقلب إلى عزلة روسيا التي رأها شادابيف من قبل أنها سبب عقم تاريخنا والحجة المؤيدة للفكرة القائلة إن العناية الالهية لم تر من الضروري أن تدخل معنا

إن فكرة شادابيف الجديدة عن مستقبل روسيا وردت لأول مرة في كتاب ناستربتسوف حول نظام العلوم الملائم الآن للأطفال المهيئين لصف أكثر ثقافة. ظهرت الطبعة الثانية من الكتاب في ١٨٣٣ وحسب تعبير شادابيف فان الصفحات المكرسة فيه لمستقبل روسيا أملاها هو ويلخص السيد هرشنسون مضمون تلك الصفحات كالتالي:

«الثقافة، وهي حصيلة العمل التعاوني لكل الأجيال السابقة، تمنح لكل وافد جديد مجاناً وما أسعد أولئك الذين يولدون متأخرين: انهم يرثون الكنوز التي راكمتها البشرية، فمن دون عمل أو ألم يحصلون على وسائل الرفاه المادي، ووسائل الثقافة، وحتى التطور الأخلاقي، إنهم يحصلون على ذلك على حساب الأخطاء والتضحيات التي لا تحصى، بل حتى المفاهيم الخاطئة للعصور السابقة يمكن أن تستخدم كدروس مفيدة لهم ذاك هو وضع روسيا: ففي عدة مجالات لا تزال فتية بالمقارنة مع أوروبا، ويمكنها، مثل أمريكا الشمالية، أن ترث غنى الثقافة الأوروبية مجاناً ولكن في التراث الذي تسلمته روسيا تختلط الحقيقة مع الخطأ لا يمكن الموافقة عليه بدون تمييز، فعلى المرء أن يفصل القش عن الحبوب الأصيلة ويستخدم الأخيرة. وهنا يكمن الأساس الرئيسي لأملنا الوطني: فميزة روسيا الكبرى ليس أنها فقط تستطيع أن تقدر ثمرة عمل الآخرين، بل انها تستطيع أيضاً أن تختار بكل حرية، فلا أحد يمنعها من اختيار الجيد ورفض الرديء إن الشعوب ذات الماضي الغني لا تستطيع ممارسة هذه الحرية باعتبار أن حياة الشعب الماضية تؤثر في كل وجوده» (ص ص ١٥٠ - ١٥١).

ويعبر شادابيف عن ذاته بالأسلوب ذاته في رسالة إلى تورجنيف عام ١٨٣٢ يقول «سوف تمر فترة قصيرة وسوف تجد الأفكار العظيمة، التي استحوزت علينا، وأنا متأكد من ذلك، تربة خصبة للتحقق والتجسد في الشعب أكثر من أي شعب آخر، لأنها

لن تجابه بالتعصبات ولا بالعادات القديمة ولا الروتين المميت... ولا بما يقف في وجهها

أخيراً الفكرة ذاتها تكررت حرفياً تقريباً في **دفاع عن مجنون** الذي كتب في ١٨٣٧ على أي حال يعبر شادايف هناك بشكل أكثر دقة عما يتوقعه لروسيا ويضيف: « إني على يقين عميق أننا مدعوون لحل معظم قضايانا الاجتماعية، ولانجاز معظم الأفكار التي فرزتها مُجتمعاتنا القديمة، وحل أهم القضايا التي تشغل البشرية ».

لو أن القارىء يتذكر الحجج الحديثة للنارودنيك والذاتيين عندنا فيما يتعلق بمستقبل روسيا الاقتصادي، سوف يرى أنه ليس فيها من الجديد إلا القليل: فهناك الاعتقاد ذاته أن أمام روسيا « الحرية الكاملة للاختيار، والقناعة الكاملة أن « الحرية الكاملة للاختيار » هي نتيجة تخلفنا، وأخيراً الاشارات ذاتها إلى بطرس الأكبر، الذي أظهر لنا بمثاله الخاص في أننا نمتلك فعلاً حرية الاختيار وهكذا يواجهنا ما ليس متوقعاً: فشادايف يتحول إلى أب للحركة النارودنيكية ولذاتيينا يقول السيد هرشنسون بصراحة: «لقد اتصفت أفكار شادايف عن طريق هرزن ودخلت الحركة النارودنيكية، كما دخلت الحركة الاجتماعية المسيحية عن طريق سولوفييف ولا يمكن للمرء في كلتا الحالتين الذهاب إلى أنهما مستعارتان من شادايف، إلا أنه يمكنه القول إن كلتيهما ترجعان إلى تعاليم شادايف » (ص ١٧٠).

ولكن إن كان الأمر هكذا، فأين تتدخل « في تاريخ البشرية فكرة النشاط الدائم لروح الرب الفكرة التي تؤلف، حسب مفهوم السيد هرشنسون « النواة الأساسية لمذهب شادايف (ص ١٤٤)؟ فلا هرزن ولا النارودنيك ولا ميخائيلوفسكي وحلفاؤه الأيديولوجيون تبنوا هذه الفكرة في أدنى درجاتها، مع أنهم وصلوا إلى النتيجة ذاتها التي وصل إليها شادايف أليس واضحاً أن المسألة هنا ليست « فكرة النشاط الدائم لروح الرب بل شيء مختلف تماماً، شيء اشترك فيه شادايف مع الكثير من « المثقفين » الروس الذين لم يشاركوه آراءه الصوفية أبداً؟ ماذا كان هذا الشيء؟ ببساطة كان طريقة تفكير « المثقف » العاجز عن مواءمة نفسه مع الواقع المحيط به، المكافح من أجل تحويل جذري لهذا الواقع والذي لا يملك أدنى فكرة عن أن تطور هذا الواقع ذو منطق موضوعي خاص، مستقل عن المنطق الذاتي

للانتلجنسيا، ويقرر في نهاية التحليل حتى متطلبات هذا المنطق الذاتي سواء في نقاطها الضعيفة أم في نقاطها القوية.

إن نظرة شاداييف عن مستقبل روسيا كانت نتيجة طريقة التفكير ذاتها التي تميز بها كل المصلحين الطوباويين. لقد انطلق المصلحون الاجتماعيون عامة من افتراض ضمني هو أن كل قطر معين في لحظة معينة يقرر بنفسه، وبوعي، طريقة تطوره القادمة. ومن يجد هذه الأطروحة صحيحة (وهي أطروحة معدلة عن التفسير المثالي للتاريخ تؤمن أن الأفكار تحكم العالم) يستنتج طبعاً أن أي قطر متخلف قادر تماماً على الاستفادة من «الدرس» الذي تقدمه الأقطار المتقدمة، ويمكنه باجتياز طريق وعرة في تطوره الداخلي، أن يصل إلى مستقبل يحسد عليه بقفزات قليلة قوية. ولكن التفكير هكذا يعني أن نعتبر عزلة القطر وتخلفه العام على أنها الضمانة الوحيدة لتقدمه المقبل*

---

* ملاحظة هامشية من مجموعة مقالات من الدفاع الى الهجوم. لا بد من أن نضع تحفظاً هنا. إن لشاداييف مكانة في تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي باعتباره مؤلف «الرسالة الفلسفية» الأولى، وليس مؤلف «دفاع عن مجنون»، أو باعتباره مفكراً تأثير قوي على باستربتسوف، الذي كتب دراسة عن نظام العلوم الأكثر ملاءمة الآن للأطفال.. الخ. ويلح زيجاريف، الذي يعرف شاداييف جيداً، أن الأخير في «دفاع عن مجنون» قدم تنازلات «ما كان ليقدمها من وجهة نظره ومن وجهة نظر الحقيقة التي لم يؤمن بها هو (المرجع السابق ص ٣٧). إنه لا يقول شيئاً عن موقف شاداييف من باستربتسوف. ويناقش السيد هرشنسون هذا الموقف بتفصيل مسهب (انظر ص ١٤٩ ما بعد من كتابه). إنه يستخلص أن «الأخير عندما هبت عاصفة على شاداييف بسبب «الرسالة الفلسفية» ارسل كتاب باستربتسوف الى ستروغانوف في محاولة لتبرئة نفسه» سائلا الأخير أن يقرأ الصفحات التي أملاها والتي أشرفا اليها هنا إلا أن موقف شاداييف من باستربسوف لم يشرح تماماً بعناية. أما بالنسبة الى الرسالة الى ستروغانوف، فيمكن أن تكون قد قدمت هذا الموقف في ضوء رائف تحت تأثير الخوف (زيخاريف يشهد أن شادابيف كان ضائعاً وقتها). وفوق ذلك فان هذه الرسالة التي تبين مرايا الوضع المنعزل الذي رأى فيه شادابيف «قاعدة نجاحنا فيما بعد» لا بد من أن تقارن برسالة شادابيف الى الأميرة ميشير سكايا في ١٥ تشرين الأول ١٨٣٦ (الرسالة الى ستروغانوف مؤرخة في ٨ تشرين الثاني من السنة نفسها). كتب شادابيف إلى ميشير سكايا بعد ظهور «الرسالة الفلسفية» ولكن قبل حلول الكارثة. ومن الملاحظ أنها لا تشير الى أي تغير في آراء شادابيف عن روسيا ولا بد أن يكون السيد هرشنسون قد أولى اهتماماً بالغاً لهذه النقطة. ولم يقل شادابيف كلمة واحدة في رسالته الى باكوشكين عن التغيرات في آرائه عندما يصف ما أحدثه ظهور «الرسالة الفلسفية». وفي رسالة إلى شلنج ٢٠ أيار ١٨٤٢ يسخر شادابيف من «الطوباوية الارادية» لأنصار السلافية، التي بحسبها «نشارك في طريق البشرية ونحقق نظرياتنا الجزئية» أي الاشتراكية الأوروبية الغربية بالضبط. ويكرر السخرية ذاتها في رسالة الى الكونت سيركوت في ١٥ كانون الأول ١٨٤٥ وهذا ما يجعلنا نعتقد أن النتيجة التي وصلها هرشنسون والتي تؤلف أساس النقاش في مقالتنا

اعتقد السانسيمونيون الفرسيون أن بامكان فرنسا تجنب رأسمالية انكلترا بالاسفادة من التجربة الانكليزية التي فسرتها «الفلسفة الجديدة أي مذهب السانسيمونيين أنفسهم. وفيما بعد حاول «الاشتراكيون الحقيقيون» الألمان اقناع ألمانيا أنها لا تحتاج أن تتبع مثال «الأقطار الأوروبية» في هذا الصدد وقد تبجح النارودنيك والذاتيون في هذا الموضوع أعلى وأطول من كل من سبقهم* ومن نافلة القول ان الحجج التي تدعم هذه الأطروحة الأساسية تختلف حسب الخصائص الاقتصادية والسياسية للقطر الآخذ بالتقدم من حيث الأهمية. لكن الأطروحة الأساسية نفسها ظلت هي هي لا تتغير، وقد ترجمت فقط إلى لغة الاقتصاد السياسي للفكرة التاريخية الفلسفية العامة التي وصل إليها شاداييف أيضاً وفي وصول شاداييف إلى هذه الفكرة أثبت أنه أصيل فقط بالمقارنة مع الصحفيين الروس المعاصرين. هذه الفكرة في الغرب لا تبدو غريبة على أي امرىء

من الملاحظ ان شاداييف في التعبير عن هذه الفكرة اقترب كثيراً (على أي حال من الناحية الشكلية أي من وجهة نظر طريقة في التفكير التاريخي الفلسفي) من أنصار السلافية، مع انه لم يكن راغباً في مذهبهم، وقد حاربه كثيراً، كما عرفنا من قبل، طيلة فترة حياته الأخيرة. وعندما بارك أنصار السلافية «جمودنا المفيد»، برروا ذلك بالطريقة ذاتها التي برر بها شاداييف هذا الجمود. وفوق ذلك لا بد من التسليم أن في آمال شاداييف عناصر طوباوية أكثر مما في تبرير أنصار السلافية، مهما بدا هذا التبرير متطرفاً أحياناً

المسألة هي أن أنصار السلافية كانوا يفهمون فهماً غامضاً حقيقة أن النواحي المختلفة للحياة الاجتماعية كانت مرتبطة مع بعضها برباط لا تستطيع فصمه ارادة

بحاجة الى إعادة نظر. يمكن أن تبين الدراسات الحديثة أن شاداييف لم يلترم بفكرة «مرايا الوضع المنعرل ونضيف أنه ساورنا الآن بعض الشكوك حول هذه المسألة لا بد من أن تزيلها الأبحاث القادمه، بيمه من قبل (قبل ظهور كتاب هرشنسون) اعتقدنا، مثل هررن، أن نظرة شاداييف في روسيا كانت دائماً معارضه مباشره مع نظرات أنصار السلافية والنارودنيك في روسيا وقد عبرنا عن هذا الرأي في الصحافه أيضاً

* سضيف، تمشياً مع القواعد، أن شيريشيفسكي أيضاً كرر في أكثر من مناسبه أنه «يعيش جدنا يروي قصة عقدته»، بمعنى أن «الشعوب المتخلفة محظوظة من حيث أنها يمكن أن تستفيد من تجارب الشعوب المتقدمة».

الانتلحنسيا لم يكن لدى شادابيف (تماماً مثل النارودنيك والذاتيين فيا بعد) أي ملمح لوجود هذا الرباط، أو أنه تناساه عندما فكر في مستقبل روسيا وهذا هو السبب في أن أنصار السلافية كانوا مصيبين تماماً في نقدهم للنزعة الغربية كما ظهرت في طوباويات شادابيف والنارودنيك والذاتيين.

كتب اكساكوف، خالطاً بين النارودنيك واللبراليين، ان الناس في الصحافة اللبرالية «يوجدون فقط في مظهر واحد، وهو المظهر الاقتصادي... أما المظاهر الأخرى لوجودهم... فإنها إما مكروهة لديها أو أنها تزدريها»* كان الأمر هكذا أو قريباً من ذلك. وبما أن أنصار الغرب التزموا بالموقف الطوباوي المشار إليه هنا، فانهم أفردوا بشكل اعتسافي النواحي المنفصلة لحياة الشعب، متخيلين بسذاجة أن المظهر المعين، لسبب عزيز عليهم، يمكن أن يعزل عن تأثير المظاهر الأخرى، ويسير عبر طريق التطور «الطبيعي». الصعوبة الوحيدة كانت في التفكير بوضع برنامج عمل للانتلجنسيا التقدمية. كان اكساكوف محقاً أيضاً عندما قال إن «التشابه بين بعض المذاهب القادمة من الغرب والآراء اليومية للشعب الروسي» (انه يضع في ذهنه الكوميون الروسي من جهة، والنمط الغربي للكوميون والفالانستير من جهة ثانية) كان تشابهاً خارجياً محضاً أخيراً كان محقاً أيضاً عندما أشار على «لبراليينا» أن المظهر الاقتصادي لحياة شعبنا التي يتحمسون لها (أيضاً كوميون الأرض) كان مرتبطاً عضوياً بنظامنا السياسي. بهذه الطريقة من المناقشة ترك السيادة للطوباوية التي يحاول اشتراكيونا من النارودنيك والاتجاهات «الذاتية الخلاص منها عبثاً

لقد شعر أنصار السلافية قبل أنصار الغرب بضرورة اللجوء إلى القانون الموضوعي الداخلي لتطورنا الاجتماعي. هذا اللجوء دفعهم إلى نقطة ما كان الآباء المؤسسون للنزعة السلافية ينوون الوصول إليها

في آب ١٨٦٢ كتب اكساكوف في صحيفة الداين: «نريد أن يكون كل شيء يرقى برفاهيتنا المادية، الموضوع الأساسي، ان لم يكن الوحيد، لاهتمامنا التشريعي وأهدافنا، وان يقدم نشاط الفكر في الوقت نفسه أثراً فعالاً

---

* انظر اكساكوف. المؤلفات، المجلد، ص ٦٢١

في البرنامج الذي لخصاه ليس سوى أمل أن « نشاط الفكر يقدم أثراً فعالاً هو الشيء الطوباوي. أما بالنسبة إلى المظهر الاقتصادي فان مثال اكساكوف كان شيئاً للمستقبل. لقد شرحت الصحافة السلافية الاهتمام بالرفاهية المادية على أنها تطوير لشبكة الخطوط الحديدية واكتشاف أسواق جديدة للصاعة وضرائب الحماية.. الخ كان أنصار السلافية أنفسهم يدفعون روسيا باقتراحهم هذا البرنامج في طريق التطور الرأسمالي، الذي عبر فيه الغرب الفاسد أبكر منا بكثير، والذي ينفي « فرادتنا العزيزة على أنصار السلافية كتب اكساكوف نفسه: خفف من غلواء الشعب يصبح للنزعة الغربية معنى في روسيا إلا أن الرأسمالية فعلت ذلك بالضبط. لقد حطمت « فرادتنا القديمة. وبذلك وضعت الأساس لظهور مثل هذه الاتجاهات الغربية في روسيا التي لا تحتاج إلى الطوباوية حتى توجد اعتقد اكساكوف أن الاشتراكية الأوروبية الغربية كانت النتيجة المنطقية لتاريخ أوروبا الغربية. وفي رأيه أن الاشتراكية في الغرب كانت في مكانها الطبيعي. وكان الاشتراكيون أبناء الحضارة الحديثة، بينما « لا مكان لهم في آسيا »* لا شك أنه لا مجال لمناقشة هذا أيضاً وما دامت روسيا قابعة في « آسيا اقتصادياً، فليس سوى الطوباويين يضعون الخطط لتحقيق المثل العليا التقدمية للغرب هناك. ولكن البرنامج الذي اقترحه اكساكوف أجهر على « آسيا وبذلك سحب البساط من تحت أقدام أنصار السلافية

هكذا كانت السخرية المريرة من تاريخ تطورنا الداخلي. لقد أوضح أنصار السلافية الطريق لانتصار النزعة الغربية التي كانت معادية للطوباويات، بتقديم برنامج جعلنا في الميدان الاقتصادي أقرب إلى الغرب « الفاسد ».

عندما كان شاداييف في معركة مع أنصار السلافية كان ما يزال ثمة منفذ واسع كان أنصار السلافية وقتها متحررين تماماً من الاتجاهات الرأسمالية بينما كانت النزعة الغربية بشتى أشكالها قائمة على تربة طوباوية. إن بيلنسكي وحده حاول تقديم نظرة علمية لنشأة واقعنا وخصائصه. بيلنسكي وحده تحقق أن نفي « الواقع الروسي المتدني يجب أن يقوم على منطق تطوره الداخلي الخاص. وكان لا بد أن تفشل

---

* روس[٢٣] ١٥ آدار ١٨٨٣ وقد أعيد طبع المقالة التي أخذنا منها تلك المقاطع في المجلد ٢ من مؤلفات اكساكوف

محاولته بسبب النقص الفاضح في المعطيات لحل هذه المسألة الهامة حلاً صحيحاً* على أي حال نظن من المفيد الاشارة هنا إلى سخرية الحياة المشار إليها أعلاه، لنذكر القارىء أن الحياة لا تهتم بما تريد بعض مجموعات من الانتلجسيا «**أن تختاره بحرية**». إن للحياة منطقها الخاص. منطقها **الموضوعي**. وفي حين كان للمنطق الذاتي لمجموعات «الانتلجنسيا تأثير ضئيل جداً على نتائجها الساخرة. فان التأثير فيها على طريق ذلك العنصر في آراء شاداييف الذي أبرزه هرشنسون بقوله «والرب يكون هنا لا يساوي في الحقيقة صفراً كانت الصوفية بالنسبة إلى شاداييف مخدراً اراحه موقتاً من أمله المعنوي وسكن الأمراض (لفترة طبعاً)، المعروفة للمثقف الروسي أنها مرض **اليأس من النضال ضد الشر الاجتماعي**. إلا أنها لم تلق شعاعاً من ضوء على الطريق الذي يمكن أن يؤدي إلى القضاء على الشر ولا يمكنها أن تقوم بهذا فبحسب طبيعتها يمكنها فقط أن تعوق اكتشاف هذا الطريق فتحرف انتباه المثقف الموهوب بعيداً في اتجاه طريق يسير عكس اتجاه الطريق الذي يجب اتخاذه إن النزعة الغربية سوف تنتصر في هذا القطر (وتنتصر جزئياً على الرغم من كل شيء) ليس في ظل **الصوفية**. بل في ظل **المادية**.

في الخاتمة نقدم ملاحظة صغيرة للسيد هرشنسون إنه مخطىء جداً، مثلما أخطأ بيبين مرة، في نظرته إلى كتاب هرزن «**رسائل في دراسة الطبيعة**» (ص ١٨٧) كان بعيداً عن ذلك. وحتى يتأكد السيد هرشنسون أن الأمر على ما نقول ننصحه أن يتناول المجلد الثاني من **مؤلفات** هرزن المنشورة في الخارج (يشتمل هذا المجلد، من جملة ما يشتمل، على **رسائل في دراسة الطبيعة) وأن يقرأ الصفحات ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٨٢ ٢٩٢: عندئذ يرى أن هرزن لم يكن مادياً في الوقت الذي كتب فيه الرسائل (بالنسبة إلى هيغل)**. ويمكن أن يقنع السيد هرشنسون نفسه بطريقة أخرى أيضاً باعادة قراءة **يوميات** هرزن المنشورة في **المجلد الأول** من الطبعة ذاتها تبين **اليوميات** أنه في ١٨٤٤، عندما بدأ يكتب **الرسائل**، كان لا يزال متردداً بين المثالية والمادية، وكان أقرب إلى **الأولى** من الثانية إنه يتحدث هناك عن الطبيعة كالتالي: «في الطبيعة توجد الفكرة متجسدة، غير واعية، خاضعة لقانون الضرورة وللدوافع الغامضة،

---

* انظر بهذا الصدد مقالتنا «بيلنسكي والواقع المعقول» في مجموعة «عشرون عاما» [المؤلفات مجلد ١٠][(٢٢١)]

ولا يمكن للتفكير الحر أن يبطلها » (ص ٣٧٧). وليحكم السيد هرشنسون بنفسه إذا كان هذا الكلام من المادية*

لقد حل الوقت الذي صار فيه لدينا معرفة أفضل بطريقة التفكير وبتاريخ التطور الفكري لشعبنا

---

* إن هرزن بسبب غموض نظرته، نراه في كتابه **رسائل في دراسة الطبيعة** يتحدث حديثاً شديد الغموض عن علاقة الفكر بالكائن، وهذا الغموض يذكرنا بديتزجن الذي كانت فلسفته تعاني نقصاً فاضحاً في فهم هذا الموضوع فهماً واضحاً.

حول كتاب هرشنسون

تاريخ روسيا الفتاة

تاريخ روسيا الفتاة، موسكو ١٩٠٨

يقول السيد هرشنسون « يجب أن يعرف كل روسي تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي ». وهذه ولا شك حقيقة. وإننا لجدِ شكورين للسيد هرشنسون لقيامه ببحث متقن في ذلك التاريخ ومن المؤسف أن السيد هرشنسون يتبنى نظرة تمنعه من اكتشاف العلاقة الداخلية بين الظواهر المدروسة

أما مدى ضرر هذه النظرة فيظهر من وصف شخصية ريفسكي في مقالة « م.ف.أورلوف »*، إن السيد هرشنسون لا يحب ريفسكي لماذا؟ يقول « كان ريفسكي ذكياً جداً (ص٤٠) إلا أن له غلطة لا تغتفر بالنسبة إلى السيد هرشنسون: كان عاجزاً عن الشعور « قوة وجمال اللامعقول في العالم »، وأن الظرف مسؤول عن حقيقة أن ذهنه الوقاد لا يحمل الثمرة التي يمكن أن تنتج، مما جعل موقفه من « اللامعقول » مختلفاً يكتب السيد هرشنسون: « بيد أن ذهناً يعجز عن الشعور بقوة وجمال اللامعقول في العالم هو ذهن تافه وضعيف. وهكذا الأمر بالنسبة إلى ذهن ريفسكي، رغم كل حدته إن المجالات العليا للروح الانسانية كانت مغلقة أمامه (ص ٤١) وحتى يثبت المؤلف ذلك يقتبس من فيجل الذي يقول عن موقف ريفسكي من بوشكين: « كان الشعر شيئاً غريباً عنه كلياً، مثلما كانت المشاعر الرقيقة، التي لم

* يتألف هذا الكتاب لهرشنسون من عدد من المقالات ١-م.ف.أورلوف -ف.س بيسيرين ٣-ن.ف.ستانكيفيش ٤-ت.ن.غرانوفسكي ٥-إ.ب.غالاخوف ٦-ن.ب.أوغارف.

يعتبرها غير أشياء غريبة (المرجع السابق). وبقدر ما أجد هذا الاستشهاد بفيجل غريباً، ولا يمكن اعتبار فيجل قاضياً مؤهلاً للحكم على «الشعر و«الأحاسيس الشعرية فاني مستعد للتسليم أن الحس الشعري عند فيجل لم يكن متطوراً إلا قليلاً وأنا بالطبع مستعد للتسليم أن هذا عيب فاضح إلا أن هذا العيب الفاضح لم يجعل الأمور سيئة كما يريد السيد هرشنسون فمثلاً نعلم من السيد هرشنسون الحقيقة الهامة التالية. التي يأخذها من ملاحظات لورير أثناء البحث في أحداث ١٤ كانون الأول قال نيكوس لألكسندر ريفسكي: «أعلم أنك لا تنتمي إلى الجمعية السرية، ولكن بما أن لك علاقات وأصدقاء هناك. فأنت تعرف كل شيء ولا تخبر الحكومة، فأين يمينك؟ فرد ريفسكي بجرأة: «سيدي، الشرف أغلى من اليمين، فالمرء لا يستطيع ان يوجد إذا فقد الأول. ولكنه يوجد من دون الآخر» (ص ٤٩). وتجرأت على التفكير أن «المجالات العليا للروح الانسانية لم تغلق تماماً في وجه رجل فيه تلك العواطف وربما يعترض السيد هرشنسون على هذا بأن الشرف ليس شعوراً «دقيقاً» كافياً عندها أذكره بحياة ريفسكي في مقاطعته بولتشكا قرب بلتافا، حيث نفي من أوديسا بأمر امبراطوري لعلاقاته بالكونتيسة فورونتسوفا وأمضى ثلاث سنوات هناك. ويخبرنا السيد هرشنسون كان ثمة انتشار لوباء الكوليرا في بولتشكا، وحاول جهده مكافحة الجائحة. غير مدخر لنفسه أدنى عناية» (ص ٧٤) وقد عرفنا من السيد هرشنسون أن أحد معارف ريفسكي لاحظ بهذا الصدد أن خدمه في بولتشكا يدعونه ملاكاً، مع أن بوشكين يدعوه شيطاناً (المرجع السابق) ما الذي يعتقده مؤلفنا في ذلك؟ إليكم ما يعتقد «إن نكران الذات الذي ظهر منه [أي من ريفسكي - ج.ب] ربما لم يكن بسبب الغيرية بقدر ما هو بسبب نزعة في الشخص (المرجع السابق) أي نزعة بالضبط؟ من الواضح أنها نزعة تجاه نكران الذات. تجاه الغيرية. فاذا كان الأمر هكذا فلا أدري ما الفرق إذن؟ يمكن أن أقول ما يلي. في المجتمع المنقسم إلى طبقات. أعظم قاعدة يركن إليها لتقدير «النزعة الأخلاقية لأي انسان من الطبقة «العليا ربما تكون بل يجب أن تكون موقفه من أفراد الطبقة «الدنيا وعلى الأخص الأفراد الذين يعتمدون عليه مباشرة. أو «ملكيته المعمدانية عندما تسمي هذه الملكية صاحبها «ملاكاً (إلا إذا كان ذلك خارج النفاق الذي لا نستطيع أن نفترضه في هذه الحالة) فان بوابات «المجالات العليا للروح الانسانية تفتح لذلك الانسان إن

هذا واضح، ولأنه واضح بالضبط. يرفض السيد هرشنسون حجته الخاصة، التي تظهر أيضاً في كتابه عن شاداييف. **الوقائع** في كتاب السيد هرشنسون غالباً ما تقف ضد **النتائج** التي يستخلصها منها إن نظرته بالضبط هي ما يلام عليها، نزوعه الخاص إلى «اللامعقول» المتشح بالضباب الكثيف، والذي يبدو شبيهاً جداً بالصوفية ومن المؤسف أنه يلترم بهذه النظرة الغريبة. كما لو أنه قصاص موهوب

لقد عالجت هذا طويلاً لأن بعض الناس في هذه البلاد أخذوا يلفون حول «اللامعقول وباعتبار السيد هرشنسون مشغولاً ببحث تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي، فانه يفعل حسناً لو تحقق أن شعار «اللامعقول» يستر تهريب النفايات النظرية إلى أدبنا، مما لا يسهل دخول القراء في «المجالات العليا للروح الانسانية بل (على العكس) يساعدهم على التنكر لتلك «المجالات إن «اللامعقول» هو الطريق الملتف الذي اتبعه قسم من الانتلجنسيا لتنفيذ رسالته التاريخية، التي تشرح أيديولوجية البرجوازي الروسي الحديث، الذي يشعر بشكل واضح بعدم مصالحة امتيازاته الطبقية مع أعظم الطموحات تقدمية ونبلاً في ذلك الوقت* إن **قصاصاً** جيداً هو السيد هرشنسون يثبت ضعفه في كل مرة يضطر إلى التعامل مع **المفاهيم**، عندما يعبر عن **فكرة عامة**. وإليكم المثال الهام التالي:

يقول «إن الحركة التي تشتمل على أفضل قطاع شباب موسكو بدءاً من أواسط ١٨٣٠ لم تكن احدى التجليات الجزئية للمثل الأعلى، كما كانت كل حركاتنا الاجتماعية اللاحقة، وبشكل رئيسي الحركات السياسية. وتلك سمتها الرئيسية المميزة - فهي تتخذ المثل الأعلى ككل موضوعاً لها، أو بالأصح جوهره وليس تطبيقه اولئك الشباب لم يحلموا ببعض التحسينات الخاصة للشخصية الأخلاقية أو السياسية، بل بانبعاث الطبيعة المقدسة في الانسان وقد قالوا مستخدمين كلمات أساتذتهم الألمان. إن الكون يحكمه الفكر، الذي يصل وعيه الذاتي في الانسان فقط، وبالتالي فان الواجب الأعلى للانسان هو أن يعيش بوعي طبقاً للقوانين ذاتها التي يسير بها الكون وكما قال اننكوف فان «**عالماً جديداً**» ينفتح للانسان في تلك الطموحات (ص ٢٠٧)

* ملاحظة هامشية من مجموعة مقالات من الدفاع الى **الهجوم**. كتبت في ربيع ١٩٠٨ وأظهر السيد هرشنسون في العام التالي في مقالته «الخلق والوعي الذاتي» المنشورة في **فيخي**(٢٢٣) السيئة السمعة، أنه كان مسعداً للاشتراك في شرح الأيديولوجيا المشار إليها في النص. وقد أثبتت ملاحظتي ذلك.

رائع، ولكن ماذا تعني «الطبيعة المقدسة للانسان»؟ الانسان هو الانسان. والمرء لا يساعد، بل يعرقل فهم طبيعته إذا أعلن أنها مقدسة وفوق ذلك، إذا كان الكون يحكمه الفكر، وإذا كان الفكر يحقق الوعي الذاتي في الانسان، فان «فكر الانسان عندئذٍ (وليس ثقافته) قادر تماماً أن يستوعب الكون، ولا يكون ثمة مكان للامعقول لا في الطبيعة ولا في الحياة الاجتماعية.

إننا نعرف، والفضل يعود للسيد هرشنسونِ، أن انساناً يعجز عن الشعور «قوة وجمال اللامعقول في العالم» لا يستطيع الدخول الى المجالات العليا للروح الانسانية. وينتج من ذلك أن تلك المجالات العليا كانت منيعة على الشباب المفكرين في موسكو في الثلاثينات أيضاً ولكن من جهة أخرى، وحسب السيد هرشنسون نفسه، أن أولئك الشباب توغلوا في تلك المجالات أكثر من أي شخص آخر فكيف يفهم المرء هذا؟ فكيف نقابل تلك النهايات؟ أنا لا أدري، ولا أعتقد أن السيد هرشنسون يدري أيضاً

مثال آخر في حديث هرشنسون عن تعصب هرزن وأوغاريف للعلوم الطبيعية في ١٨٤٣ ١٨٤٦ يلاحظ «في التحليل الأخير كانا مهتمين بالحياة الاجتماعية، وبالتالي، بالتاريخ، بحيث أن كليهما وصل في الوقت نفسه إلى النتيجة نفسها وهي أن التاريخ يجب أن يؤسس على الانتروبولوجيا، والانتروبولوجيا على الفيزيولوجيا، والفيزيولوجيا على الكيمياء، وفي أوائل ١٨٤٥ أعلم أوغاريف زميله هرزن عن الانتروبولوجيا التي بدأها أوغست كونت في باريس. ودراسات بوتكين وفرولوف في العلوم الطبيعية، مشيراً إلى أن الاهتمام بالانتروبولوجيا، بعلم الانسان المحسوس، تجلى في كل مكان وهذا في الحقيقة تحرر من كل النظرات المتعصبة، من الروحانية والمادية على السواء لقد وجدا مخرجاً للمنطق معاكساً للثنائية الطبيعية: فالمادة تجريد هابط مثلما أن المنطق تجريد صاعِد لا يوجد أحدهما ولا الآخر في الواقع الملموس، ما يوجد هو العملية فقط (ص٢٢٦) وهذا أيضاً شيء غامض جداً

إن تطور هرزن واوغاريف كان في الحقيقة تطوراً من هيغل إلى فيورباخ، أي من المثالية إلى المادية. على العكس من السيد بولفاكوف الذي تطور، كما هو معروف، من المادية التاريخية إلى دير أوبتيا[٢٢٣] والحقيقة أنهما لم يكونا على وعي دائماً بهذا الاتجاه في تطورهما والحقيقة أيضاً أنهما في تطورهما من هيغل إلى فيورباخ أصبحا

غارقين في أفكارهما الفلسفية الخاصة أحياناً ولم يستطيعا ادخال النظام الضروري فيها، ولذلك **ظهرا لأنفسهما** وللآخرين، بعيدين عن **المثالية** (وهذه الكلمة أصلح هنا من كلمة السيد هرشنسون **الروحانية**) وعن **المادية**. وهذا ليس مخرجاً على أي حال، **انه ليس سوى عجز عن ايجاد مخرج**. ولكن ماذا تعني هذه الأطروحة بقولها بأنه ليس ثمة منطق ولا مادة في الواقع الملموس، كل ما هنالك تداخل، أو عملية؟ ومن الواضح وضوح الشمس أن التداخل بين آ وب يفترض مسبقاً وجود **كل** من آ وب. وعندما نقر **بتداخلهما** نقر أيضاً **بوجودهما** ولذلك لا يحق لنا أبداً أن نلح أنهما «**لا يوجدان**». بل على العكس: ينتج من كلامنا أنهما **يوجدان فعلاً** وإلى جانب ذلك، **باقرارنا بالتداخل بين «المنطق» و«المادة»**، فاننا نحجم عن الارتداد عن **الثنائية** التي تقول إن الانسان يتألف من **جسد وفكر**، هذين العنصرين المتداخلين. **الأحادية** لا تكمن في الاتجاه الذي يبدو أن السيد هرشنسون يبحث عنه إن الأحادية **المثالية** تعتبر **المادة** («الجوهر») «**كائناً آخر** للروح وتعتبر الاحادية **المادية** الفكر على أنه **خاصة من خصائص المادة** (عندما قال فولتير «أنا جسد وأنا أفكر كان هذا الملحد يعبر عن فكرة مادية محضة) يمكن للمرء أن يميل إلى **المثالية** أو إلى **المادية**. ولكن على المرء أن يختار بينهما، **لأنه لا يوجد اختيار ثالث**.

ماذا يعني هذا الكلام الذي يكرره الآن هواة الفلسفة: **المادة تجريد؟ إن كل مفهوم ما هو سوى تجريد**. فاذا كان لدي **مفهوم عن المادة** فان المادة عندئذٍ **باعتبارها مفهومي**. هي أيضاً تجريد ولا شك إلا أن المسألة لا تكمن في هذا المسألة تكمن **فيما إذا كان ثمة شيء خارج «ذاتي» يتطابق مع ذلك التجريد**». إن السمة المميزة الرئيسية **لأي** فلسفة هي **الجواب الذي يقدمه الأخير عن هذه المسألة**. فالسيد هرشنسون يسى كل هذا ويكرر فقط المادة تجريد والمنطق تجريد كلمات كلمات كلمات

«إن على كل روسي أن يعرف تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي بهذه الفكرة عبر السيد هرشنسون عن حقيقة لا تدحض إنه لا يشك في الصعوبة القائمة في هذه الأيام في وجه تنفيذ هذا الواجب الثلاثينات والأربعينات هي البؤرة التي تقاربت وتنابذت فيها كل اتجاهات الفكر الاجتماعي الروسي إن فهم هذه المرحلة ضروري لفهم المذاهب الفلسفية التي تركت أعظم تأثير في المفكرين الروس في ذلك الوقت. أي

مذهب هيغل ومذهب فيورباخ ولكن لا هذا ولا ذاك عرف هنا بأي درجة من العمق. مادا ينتج من ذلك؟ ما ينتج واضح تماماً إن تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي لن يفهم طالما اقتصر الأمر على أهم تياراته وأعمقها وسوف يستمر هذا فترة طويلة، لأن جمهرة كتابنا لا تبدي أي ميل للقيام بدراسة عميقة لهيغل وفيورباخ إن مؤرخي الفكر الاجتماعي راضون أن يكرروا نتفاً من الرأي الشائع والتفاهات السطحية عن أولئك المفكرين وهذا هو السبب أنهم على الرغم من الموهبة الظاهرة لبعضهم، عجزوا عن أن يصيبوا «الوريد الذي وضعه الشماس في غ. أوسبسكي

إن السيد هرشنسون، كما قلت سابقاً، هو أحد الباحثين الموهوبين في مَيدان تاريخ فكرنا الاجتماعي إن بعض مقالاته في كتابه **روسيا الفتاة** جزيل الفائدة، وعلى الأخص مقالته «**ف. س. بيشرين**» التي من الصعب تلخيصها بالطبع، الاهتمام الذي تثيره هذه المقالة في القارىء يمكن أن تفسرهالطبيعة الدراماتيكية للموضوع، لكن أسلوب السيد هرشنسون الحيوي الأخاذ في التقديم يساهم بقسم كبير أيضاً ولكن من الواضح أن مؤلفنا لن يصيب «الوريد في تاريخ حياتنا الاجتماعية انه ضعيف من حيث المادة الفلسفية ان هذا لمضحك ولكن يجب أن يقال: إن السيد هرشنسون بكل جدية يجعل السيد ستروفه من بين «المفكرين» الروس وهذا يبين حكمه المزيل على المفكرين عامة ولأنه فقط قاضٍ هزيل استطاع أن يكتب الأسطر التي اقتبستها أعلاه، أن الحماسةللفلسفة من قبل شباب موسكو في الثلاثينات، اتخذت موضوعها ليس المثل الأعلى المزدري بل «جوهره الفعلي». لقد فهم هرزن من قبل (وشرح بشكل مقنع في كراسته عن تطور الأفكار الثورية في روسيا) أن المغامرات الفلسفية المعاصرة للشباب المفكرين نشأت من البحث عن وسائل تساعدهم على الخلاص من الواقع التعيس الذي يحوط بهم. من هذه النظرة، وهي النظرة الصحيحة، تصبح كل الحركات الثقافية اللاحقة مفهومة. هذه النظرة لا تبدو بنظر السيد هرشنسون جديرة بما فيه الكفاية إنه يفضل الحديث عن «جوهر المثال عن «الطبيعة المقدسة للانسان»، وما شابه ذلك من الضبابيات (ان «جوهر المثال» **هو** «لا معقول» وإن لم يكن بالمعنى العزيز على قلب هرشنسون) من السهل في هذه الضبابيات أن نفقد رؤية «**الجوهر الفعلي**» للمادة. وإني مستعد أن أراهن أن السيد هرشنسون لن يصل إلى «الجوهر ولو استوعب بيلنسكي وحاول أن يفهم «جوهر جداله مع أنصار السلافية.

ما أزال أقـول اقرؤوا كتاب السيد هرشنسون **تاريخ روسيا الفتاة**. أقرؤوه إنه يقدم كثيراً جداً من **المواد الوقائعية** لفهم تطورنا الثقافي أما بالنسبة للأخير، فان السيد هرشنسون مصيب تماماً «على كل روسي أن يعرف «تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي   ومع ذلك فان من الصعب (آه، يا له من صعب) بالنسبة «للمثقف الروسي الحديث الذي شوشته أكوام «اللامعقوليات أن يقوم بهذا الواجب بالفعل إن من الأسهل أن يدخل الجمل من ثقب الابرة ومع ذلك لا بد أن يبذل المرء قصارى جهده

حول كتاب هرشنسون

« ملاحظات تاريخية »

ملاحظات تاريخية (عن المجتمع الروسي) موسكو ١٩١٠[٢٢٤]

هذا الكتاب عبارة عن مجموعة من المقالات التي نشرت سابقاً في صحيفة فيستنيك يفروبي (١٩٠٨) وصحيفة روسكايا ميزل (١٩٠٩)[٢٢٥] كما نشرت في مجموعة فيخي بعضها ظهر هنا بشكل منقح ومطول. وهي تؤلف مع بعضها كتاباً تسترعي مزاياه النظر

إن السيد هرشنسون واحد من أولئك الكتاب الذين يتابعون الآن هدف تطبيق الآراء التي تميز قطاعاً من الانتلجنسيا « التقدمية نوعاً ما » حتى الوضع الحالي لبرجوازيتنا الواعية نوعاً ما هذا الوضع لا يمكن القول عنه إنه سائد، فلا تزال تحكمنا البيروقراطية التي تحرس بحماسة امتيازاتها التي لا حدود لها إلا أن البرجوازية قطعت شوطاً بعيداً أو بالأحرى حركتها الظروف نحو السيادة، وأي امرىء يمكنه، إلا إذا كانت بلادنا قد حكم عليها بالجمود التام، أن يشعر أن البرجوازية سوف تتحرك إلى الأمام أكثر، عاقدة صفقة مع طبقة النبلاء التي باتت متشربة أكثر فأكثر بروح البرجوازية. لتضع حداً لسيادة البيروقراطية. من المعروف، على أي حال. أنه في أي بلاد. مهما كانت مدنية في درجة الحضارة، لا بد من أن يكون للطبقـة الحاكمة أيديولوجيوها ان فئة الكتاب التي ينتمي إليها السيد هرشنسون. محققة من أنه من المفيد جداً دراسة دور أيديولوجي البرجوازية الروسية وبالفعل قامت بدراسة ذلك الدور منذ أمد بعيد. لقد بدأت تلك

الاستعدادات في الزمن الذي شرع فيه بعض (والأنسب أن نقول: كثير) من ماركسيينا « يتقدون ماركس في ذلك الزمن أدرك « من له عينان للرؤيا الطبيعة البرجوازية للتغير الفكري في قطاع من الانتلجنسيا ذاك القطاع الذي كان متحمساً لمذهب ماركس (والحقيقة ليس لفترة طويلة)[٢٢٦] ولكن الظروف كانت مختلفة وقتذاك. في ذلك الزمان كانت « الأحلام ممكنة. بينما بدت الآن « تافهة »[٢٢٧] لمعظم المرشحين لمكتب الأيديولوجيين البرجوازيين. ومع أن هؤلاء المرشحين في ذلك الوقت كان لديهم ميل جارف لـ « العودة » (« العودة الى لاسال و« العودة إلى كانت الخ) فان أحداً منهم قلما تنبأ أن الأحداث اللاحقة سوف تدفعهم بشكل قوي إلى « العودة ربما يدعونا بعضهم شكلياً « **للعودة إلى لاسال** ». بينما هم مضطرون الآن لدعوة المثقفين الروس **للعودة إلى أنصار السلافية**. في الحقيقة ثمة مسافة شاسعة بين لاسال وأنصار السلافية. ولنختر منهم على سبيل المثال خومياكوف وكيريفسكي وسامارين ولا بد من القول إن تلك المسافة الشاسعة لا يمكن اجتيازها ما لم يخط المرء خطوة محمومة واسعة

إن العودة الى أنصار السلافية هي بالضبط ما يدعونا إليه السيد هرشنسون. إلا أن المرء يخطىء كثيراً إن اعتقد أن السيد هرشنسون بعمله هذا يسعى إلى بعث المذهب السلافي لا فالمذهب السلافي بصورة عامة بات مهجوراً تماماً في هذه الأيام. والسيد هرشنسون فيه من العصرية ما يجعله يحجم عن وضع القبعة السلافية على رأسه إنه لا يستعير من أنصار السلافية برنامجهم العملي أو فلسفتهم في التاريخ الروسي أو تكريسهم الأرثوذكسي. إنه يستعير ما يسميه نواة مذهبهم (ص ١٣٩) يقول:

« بنظر الانتلجنسيا اللبرالية. من بيلنسكي حتى يومنا لا تدل النزعة السلافية إلا على سمتين: التكريس المهووس للأرثوذكسية وروح المحافظة السياسية الضيقة. لأن الأرثوذكسية لا تنبع من ميتافيزيقتها مع الضرورة المنطقية. بينما روح المحافظة السياسية عندها كانت إلى حد بعيد. بسبب الحماسة الشديدة. التي بهذه الطريقة. كما يقول هيغل. حتى ٢×٢=٤ تبدو خطأ وغير طبيعية في فم الخصم **لقد أخذت الفكرة السلافية روح المحافظة فقط إلى الدرجة التي تمثل الرغبة في الدفاع عن الشرعية الأخلاقية للتقاليد ضد اجتياحات الفكر المجرد** »٠(ص ١٣٩. التشديد من وضع هرشنسون).

هكذا اذن: السيد هرشنسون لا يستحسن « روح المحافظة السياسية الضيقة »، ولكن في الوقت نفسه يقذف « الشرعية الأخلاقية للتقاليد التي يحتاجها الفكر المجرد هذا جيد. إنه ما تحتاجه برجوازيتنا الآن - ليس إلى اليمين كثيراً (حيث البيروقراطية والمئة السود)[٢٢٨] وليس إلى اليسار كثيراً (حيث « الذين لا قانون لهم » الذين يرفضون « الشرعية الأخلاقية للتقاليد ») ومن المعروف تماماً أن برجوازيتنا لا تتألف فقط من أشخاص يؤمنون بالأرثوذكسية. إن التكريس الحصري لأنصار السلافية بالأرثوذكسية أمر مهجور الآن. والسيد هرشنسون يرفضه من دون أدنى تردد ومن المعروف أن برجوازيتنا لن تكون قادرة على أن تصبح طبقة حاكمة ما لم تحصل على حقوق سياسية جديدة - وذلك هو السبب في أن السيد هرشنسون يرفض، بشكل حاسم، روح المحافظة السياسية لأنصار السلافية أيضاً إنه بشكل عام لا يحب التطرف إن ما يدافع عنه في كتابه « **ملاحظات تاريخية** » هو المحيط الصحي القديم، المتجدد دائماً « الوسيلة الذهبية التناصف القديم ذاته إن المؤرخ لفكرنا الاجتماعي في المستقبل سيولي اهتماماً خاصاً لحقيقة أن « الوسيلة الذهبية » الحالية تجذب في البلاد أولئك الذين يعلنون، بفرص ملائمة، كرههم للنزعة « الفلسطيبية [المناوئة للثقافة المترجم] إلا أن هذا أمر عابر إن ما أريد الاشارة إليه هنا هو أن التكريس للوسيلة الذهبية، ضمن « تقليد مميز للانتلجنسيا هو أمر شاق للغاية. وليس عبثاً أن السيد هرشنسون أراد من القارىء الاعتقاد أن « تاريخ صحافتنا المكتوب بعد بيلنسكي ليس سوى كابوس مسمر طالما اسمر فهم الحياة (ص ١٦٨) إن على المرء أن يستخدم المدفعية الميتافيزيكية الثقيلة دفاعاً عن « الوسيلة الذهبية إن نقاد ماركس قلما شعروا بهذا عندما حرضونا على « العودة إلى كانت وتراجعنا « من الماركسية إلى المثالية إلا أن كانت والمثاليين الغربيين أثبتوا أنهم غير موثوقين كفاية على المدى البعيد والآن « ارتد السيد بولغاكوف عن وعي إلى ايمان طفولته، الايمان بالرب المصلوب وانجيله والحقيقة الكاملة الأعلى والأشد عمقاً عن الانسان وحياته (أنظر مقالته « الانتلجنسيا والدين في **روسكايا ميسل** ١٩٠٨ آذار) بينما يعيد السيد هرشنسون إلى ذاكرته أنصار السلافية وحتى **مقاطع مختارة من مراسلات مع الأصدقاء** لغوغول

في رأي السيد هرشنسون، إن جوهر التناقض المشهور بين أنصار السلافية وأنصار

الغرب قائم في حقيقة أن برنامج أنصار السلافية هو « الكمال الداخلي للفرد »، في حين أن برنامج أنصار الغرب يصل الى « **كمال الأشكال الاجتماعية** » (ص ١٣٧) التشديد من وضع هرشنسون).

لا مجال هنا لوصف ذينك البرنامجين اللذين قدمهما المؤلف فعلينا أن نحصر أنفسنا فقط ببعض الملاحظات. إن السيد هرشنسون مقتنع أن الشخص ذا التفكير القويم ان يفكر من غير الدين. إن أنصار السلافية رفيعو المسوى في رأيه لأنهم فقط حملوا عقيدة واحدة عبر مدة طويلة. إن « الكمال الداخلي للفرد يجب أن يتم تحت ظل الدين، وبهذه الطريقة: « فان هدف كل إنسان كفرد يوضع روحه في نظام رائع، أي في وعيه الكلي لواجبه الأخلاقي باعتباره حضوره الكوني أو الديني، وفي تركيز كل قواه الروحية في تنفيذ هذا الواجب، بينما وظيفة الإنسان الاجتماعية تكون في مساعدة الآخرين لوضع روحهم في النظام وفي الرقي مع الآخرين بتنظيم الحياة اليومية العامة، الذي سيساعد جميع أعضاء المجتمع للحصول على الهدف الفردي الأساسي بأسهل طريقة ممكنة » (ص ص ١٣٥ - ١٣٦). ينتج من ذلك، كما يقول السيد هرشنسون، أن المفكر دينياً لا يرفض أهمية النشاط الاجتماعي والتحولات الاجتماعية: « ولكنه يخضع المجتمع بالقوة للفرد، ويجعل الاصلاحات في البنية الاجتماعية أو السياسية تقوم على أهداف الكمال الروحي الفردي » (ص ١٣٦). لكن الأمور تختلف لدى « بصير الغرب أو العقلاني ».

« إنه لا يرى قصدية في العالم: القانون الوحيد الذي يسود العالم هو قانون السببية الميكانيكية، الذي تخضع له أيضاً الحياة التاريخية للبشرية. إنه يؤمن أيضاً بالنمو اللامحدود للوعي المنطقي في الإنسان الذي يحكمه تماماً قانون السببية. وهكذا يضع في الصدارة الوعي في الفرد، أما في التاريخ فان البنية الاجتماعية كمجموعة من المعطيات التي تحدد بصورة سببية نجاح وعي الفرد. إن جميع خصوصيات هذا البرنامج تنبع من هنا إن العالم الأخلاقي للفرد نحي جانباً باعتباره مجالاً غير مرتبط شرطياً، فلا احساس بتأثير هذا العالم مباشرة في هذا المرء أو ذاك، ولا هذا ممكن، فالحياة الروحية للانسان، باعتبارها مؤسسة وفقاً للقانون الحديدي للسببية، نتاج ميكانيكي للظروف الخارجية. فليس ثمة إذن سوى طريقة واحدة لرفع الحياة الى مستوى أعلى - وهي تغيير الظروف الاجتماعية التي يعيش في ظلها الفرد، أي بتحويل المجتمع الذي

فرضه العقل المنطقي وهذا يعني أن النشاط الاجتماعي معترف به باعتباره الواجب الوحيد المشروع للإنسان، ووضع المرء روحه في نظام لم يتم أبداً، وأن الأشكال القائمة بصورة واعية في المجتمع، وليس في ميدانه الأخلاقي، هي موضوع هذا النشاط». (ص ص ١٣٦ - ١٣٧)

هذه المعارضة للنظرة الدينية العالمية ضد النظرة «العقلانية، تؤلف الفكرة الرئيسية لكتاب السيد هرشنسون إن كل من له أدنى درجة من الاطلاع على هذه القضايا، سوف يرى مباشرة أن هذه المعارضة لا أساس جدي لها بالفعل يكفي أن نقرأ، مثلاً، رواية تشيرنيشيفسكي **ما العمل؟** التي تتضمن قانوناً عاماً للأخلاق «الغربية» في أشد أشكالها تقدمية في الستينات، حتى نرى أن السيد هرشنسون يفتري كثيراً على «الغربيين» باتهامهم أنهم يرفضون وضع روحهم ضمن نظام. إن الشخصيات في هذه الرواية (النماذج الإيجابية طبعاً) أبعد من أن تتخلى عن قضايا وضع روحها في نظام، أي قضايا الأخلاق الشخصية، لقد أولتها أعظم اهتمام. إن أشخاصاً أمثال لوبوخوف وكيرسانوف وفيرا بافلوفنا كانوا مهتمين بهذه القضايا أكثر من التقدميين المعاصرين في أوروبا الغربية - ناهيك عن أناس أمثال راخميتوف.

وفوق ذلك يبدو أن على السيد هرشنسون أن يقوم بشيء من التدريب الفلسفي لذلك من الغريب جداً أن نواجه في كتابته فكرة أنه اذا كان القانون الأخلاقي للانسان «مبنياً وفق قانون حديدي من السببية»، فمن المستحيل «التأثير فيه من جهة أو أخرى. فمن الواضح أن «التأثير» نفسه يمكن أن يخضع لهذا القانون الحديدي. فهل يمكن اذا فكرنا في الأمر أن يكون ثمة تفكير غير خاضع له؟ هذا السؤال أجابت عنه **بالنفي** الفلسفة الكلاسيكية الألمانية (لاحظ أيها القارىء الفلسفة **المثالية** وليس الفلسفة **المادية أبداً**). يبدو أن السيد هرشنسون ميال الى الرد بالإيجاب. من أين هذا الفرق؟ ذلك أيضاً سؤال هام. أننا لا نستطيع الإجابة عنه بهذه الملاحظات السريعة. سوف نكتفي بالإشارة الى واقعة تاريخية لا جدال فيها إن فلسفة عهد عودة الملكية الفرنسية المثالية (أي ذلك العهد الذي توافقت فيه آراء الانتلجنسيا الفرنسية مع التغيرات في مركز البرجوازية الفرنسية بسبب الثورة) حلت قضية العلاقة بين الحرية والضرورة بالموقف الايجابي نفسه الذي يقدمه السيد هرشنسون. هذا القياس مشهور أكثر من وجهة نظر السوسيولوجي.

أخيراً ليس سوى من لا فكرة لديه عن تاريخ تطور آخر مفاهيم الاجتماعية يمكنه أن يتخيل «أنصار الغرب» (أو العقلانيين) يضعون البنية الاجتماعية في المقدمة في التاريخ لسبب وحيد هو أنهم أذنبوا في تخليهم عن قضايا اندماجهم مع غيرهم في نظام. أولاً إن هذا ناقضه السيد هرشنسون نفسه، الذي يلح أن أنصار الغرب اعتبروا البنية الاجتماعية «مجموعة من المعطيات التي تحدد سبباً نجاح الوعي الفردي فاذا لم نخطىء فان «الوعي الفردي» ينتمي أيضاً لميدان «الروح ثانياً اعتبر أنصار الغرب وما زالوا يعتبرون «البنية الاجتماعية «مجموعة معطيات تحدد سبباً النجاح ليس فقط «الوعي الفردي»، بل الأخلاق أيضاً إن ماركس، وهو أعظم عبقري في «أنصار الغرب» و«العقلانيين» في القرن التاسع عشر، كتب في جداله مع برونوبوير «اذا كان الإنسان بالمعنى المادي غير حر، أي حر ليس عبر القوة السلبية لتجنب هذا أو ذاك، بل من خلال القوة الايجابية لتوكيد فرديته الفعلية، فان الجريمة يجب ألا يعاقب عليها الفرد، بل يجب أن تدمر مصادر الجريمة المعادية للمجتمع، ويجب أن يمنح كل إنسان مجالاً اجتماعياً معيناً من أجل الظهور الحيوي لكينونته. فاذا كان الإنسان من صنع البيئة، فلا بد من جعل هذه البيئة إنسانية»[٢٢٩] إن أنصار الغرب والعقلانيين الروس، أمثال تشيرنيشيفسكي ودوبروليوبوف، وأنصارهما الايديولوجيين، عبروا عن الروح ذاتها إن السيد هرشنسون، على أي حال، يحتج أنه لا يعرف شيئاً في هذا إن عليه أن يغني الآن أغنية المادية «الفجة» لـ «أنصار الغرب والعقلانيين».

بعد كل ما قيل ثمة نقطة صغيرة وهي ملاحظة حقيقة أن السيد هرشنسون عندما يحدد، من وجهة نظره، «هدف كل إنسان كفرد»، وأيضاً هدفه كانسان ذي وظيفة اجتماعية، تصبح أفكاره تافهة نتيجة غموضها الشديد: ليس فقط ذاك الذي ينتمي الى معسكر أنصار السلافية يمكنه «أن يكون واعيا تماماً لواجبه الأخلاقي و«يركز كل قواه الروحية في تنفيذ هذا الواجب، بل أيضاً كما سبق ورأينا. لا شيء يمنع «أنصار الغرب» من تحويل البنية الاجتماعية بهدف «وضع الروح في نظام وهكذا فالفرق بين «أنصار السلافية» و«أنصار الغرب» يتضاءل الى هذه النقطة. الأولون يرون نشاطهم من موقف الدين والآخرون يرون نشاطهم من موقف العقل. وليس من الواضح تماماً لماذا يجب علينا أن تفضل الموقف الأول على الموقف الثاني

فلنتوقف لحظة. أنه واضح قليلاً في نقطة أخرى. ففي ص ١١٤٤ من كتابه، بعد أن عرض فرضيته غير المثبتة بأنه لا يوجد قوة ثورية في العالم أقوى من الفكرة الديبية يضيف هرشنسون قائلاً «ومع ذلك فالفكرة الدينية، كما أشرت أعلاه، تميل الى معاملة التقاليد باحترام، مقدرة فيها النتيجة الطبيعية للتجربة الروحية الضخمة، وفوق ذلك لا تعرو أهمية كبرى للتحولات الخارجية، إنها تصبح حتماً معارضته للبية السياسية القائمة، باعتبار هذه البنية تحد مباشرة من الحرية الروحية للفرد

وهكذا فان فكرة السيد هرشنسون «الدينية» متعارضة مع البية السياسية القائمة، ولكنها في الوقت نفسه تعامل التقاليد باحترام ولا تعزو (وهذه بالطبع الناحية الرئيسية) «أهمية كبرى للتحولات الخارجية». إن مثل هذه الفكرة لا تلتقي مع الاشتراكية. إنها بالضبط الفكرة التي تحتاجها البرجوازية المعاصرة. انها فكرة المحيط الصحي، الوسيلة الذهبية، التناصف - وهذه الفكرة تقدم لنا بعد طبخها بزيت الخضار، بكل وقار

حول كتاب ف - ي - بوغاتشارسكي
« أ إ هرزن »(٢٣٠)

الكسندر ايفانوفيتش هرزن. نشرته حلقة الكسندر ايفانوفيتش هرزن، بطرسبرج ١٩١٢

إن الذكرى المئوية الحالية لهرزن قدمت من الدراسات أقل مما توقع المرء أن يقدم تجاه هذه الشخصية البارزة في تاريخ الفكر الاجتماعي الروسي والتطور الاجتماعي الروسي. وحتى الدراسات التي ظهرت لا يمكن اعتبارها مرضية أبداً ومنها كتاب السيد بوغاتشارسكي، بالعنوان المشار إليه أعلاه، فهو دليل على الفشل التام. من يسع لتكوين فكرة عن هرزن من استنتاجات بوغاتشارسكي واستدلالاته فانه يكون في السكة الخاطئة. انه لن يشكل سوى صورة هزيلة جداً عن هرزن الحقيقي

فمثلاً يكتب بوغاتشارسكي:

« اعتبر بعض الكتاب موافقة هرزن على مذهب سان سيمون على أنها تحدد بصورة كاملة نظرته العالمية: وقد حصلت روسيا على نبيها في المذهب الاشتراكي، مذهب المرحلة الطوباوية من تطورها ولكنها بالطبع ليست المرحلة **الاشتراكية**. إن هذا خطأ كامل » (ص ص ٣٢ - ٣٣)

الواقع أن هذا، على العكس، صحيح تماماً. فلنتذكر ما يقوله هرزن نفسه في هذه النقطة.

يقول في **أيامي الغابرة وأفكاري**: إن السانسيمونية شكلت أساس معتقداتنا وظلت لا تتغير في قواعدها الأساسية »*

---

* هرزن، المؤلفات، طبعة جنيف المجلد ٦ ص ١٩٧

يبدو هذا شبيهاً جداً بما يقوله عنه « بعض الكتاب »، وبما يعلن السيد بوغاتشارسكي أنه خطأ كامل.

وفي مناسبة أخرى يكتب هرزن نفسه: « لم أصبح اشتراكياً بالأمس. منذ ثلاثين عاماً دعاني نيقولاي بافلوفيتش اشتراكيا بمرسوم امبراطوري - وهذا يعني ما يعنيه. وبعد عشرين عاماً ذكرته في رسالة إلى ابنه الذي تعرفونه، وبعد عشرة أعوام أخبرتكم أني لا أرى أي مخرج للمأزق الكوني للعالم المثقف إلا في الذبول التدريجي أو الانتفاضة الاجتماعية، اما عن طريق القطع الفوري أو عن طريق التدرج، اما أن يأتي من حياة الشعب، أو يدخل إلى الشعب عن طريق الفكر النظري - لا يهم الطريقة »*

وفي هذا تشابه كبير بما يقوله « بعض الكتاب » عن هرزن، ولما لا يرغب فيه السيد بوغاتشاريسكي. فكيف ذلك؟ أيمكن أن يكون هرزن نفسه مشمولا ضمن « بعض الكتاب » الذين أشاعوا معلومات « خاطئة تماماً عن هرزن؟ ليس ثمة مستحيل في ذلك. فيحدث أن الناس عامة، والكتاب خاصة يشكلون فكرة خاطئة عن تطورهم العقلي الخاص، أو أنهم ينشرون الأكاذيب عنه. وبالطبع لا يمكن للسيد بوغاتشاريسكي أن يتهم هرزن بالكذب. فلا بد اذن أن يفترض المرء أنه يعزو لهرزن رأيه الخاطىء في تاريخه الروحي الخاص. ولكن على أي أساس؟ لنستمع إلى هذا الكلام:

« إن هرزن الثلاثينات، ليس في بدايتها وحسب بل في العقد كله، رجل يبحث باندفاع عن أشياء، وليس رجلاً وصل إلى اختياره الأخير وذلك لا يقلل منه أبداً، بل على العكس يرفعه أعلى فأعلى ويضيف عمقاً أكثر لروحه المتعمقة » (ص ٣٣)، ذلك هوِ الأساس الوحيد لأطروحة السيد بوغاتشاريسكي بعدئذٍ تتلوها عدة أسطر في الحجة نفسها، فاذا السيد بوغاتشاريسكي بعدها يدعو القارىء إلى « العودة الى أحداث الحياة الخارجية لهرزن » (الصفحة نفسها). وهكذا ترجع حجته كلها إلى حقيقة أن هرزن كان سيرتفع كثيراً في نظر بوغاتشاريسكي لو أنه لم يكن اشتراكياً في الثلاثينات، مع أنه كان اشتراكياً في « المرحلة الطوباوية للتطور »، بل كان رجلاً « يبحث باندفاع عن أشياء وهذا ليس مقنعاً كما يتراءى للمرء

---

* « رسائل الى خصم (أي الى ساماريس ج ب) الرسالة الأولى (١٥ كانون الأول ١٨٦٤) انظر الكولوكول. مقالات محارة لهرزن، نشرها ليخاميروف ص ٥١٣

ومع ذلك فلنتوقف لحظة. في صفحة ٣٧ من كتاب مؤلفنا يقدم حجة أخرى. واليكم الحجة. انها تتعلق بلقاء هرزن قبيل اعتقاله مع ن أ زاخارينا، التي أصبحت فيا بعد زوجته. لقد تحدث الشاب الفتى بكبرياء عن اعتقال أوغاريف للصبية الفتاة، فحاولت الأخيرة أن تحول أفكاره نحو الرب. بعد أن يورد السيد بوغاتشاريسكي هذه الحادثة يقول: «تلك هي كل الحادثة التي لو أن هرزن في **ذلك الوقت** كان ذلك الرجل الذي وصفه في وقت ما [كان على السيد بوغاتشاريسكي أن يقول **ذلك الرجل الذي يصفه هو** – ج.ب] لما كان له ذاك التأثير القوي في روح السانسيمونيين. إلا أن الحالة كانت كما وصفنا تماماً فما الأسباب؟ انها تكمن بالضبط في حقيقة أن هرزن في ذلك الوقت كان رجلاً ذا آراء لم تأخذ شكلها النهائي بعد كان فيه الكثير مما يغلي ويفور إلا أن القليل جداً أصبح مستقراً وثابتاً

يا للغرابة. إن الحادثة مع زاخاريا تركت تأثيراً قوياً في نفس هرزن **فقط** لأن القليل فيه أصبح مستقراً وثابتاً ولو كان سانسيمونياً لكان التأثير أقل. لماذا؟ ألا يمكن الحادثة عن الرب أن تترك تأثيراً في سانسيموني؟ هل فات السيد بوغاتشارسكي أن كل السانسيمونيين كانوا متدينين بصورة عامة، وأن الكثير مهم وصل درجة التمجيد الديني؟ وإلى جانب ذلك كان لا بد لحادثة زاخاريا من أن تؤثر بقوة في هرزن لأنها ذكرته بالحاجة الى الغيرية وأضافت أن على المرء أن يقاوم الانفعالات العابرة للجمهور المشاغب. لم تكن تلك بالحادثة التي يساها شاب ينتظر اعتقاله، وبالإضافة الى الاعتقال سلسلة من الهجمات يشها كبار «الموالين» من الجسين ومن شتى الأعمار، الذين يمتّون بصلة قربى إلى عائلته: «لقد أضيت والديك وضاعت تربيبك الخ انا لا نعتقد أن سانسيمونيا في وضع كهذا أقل تأثراً من فتى «فيه القليل جداً مما أصبح مستقراً وثابتاً من لا يعلم كيف كان يتأثر الساسيموبيون، مثلاً؟ فمن المعروف أن أولئك الذين كانت آراؤهم بالضبط «مستقرة وثابتة»، هم من تلقوا أعظم تأثير

باختصار يجب أن نعبر أن لا أساس نهائياً لمحاولة السيد بوغاتشاريسكي في رفض صحة ما يخبرنا به هرزن عن مجرى تطوره الروحي

وفوق ذلك، يقول هرزن، كما هو معروف، أنه في كل أوقات حياته، وتحت كل الظروف كانت قراءة الانجيل تأتي لنفسه بالسلام والراحة ويقول مؤلفنا بهذا الصدد أن «جوهر المسيحية» (لاحظ هذا أيها القارىء) له تأثير كبير على بوشكين وتولستوي

ودسويفسكي إنه يقتبس حتى بعض الأبيات من قصيدة بوشكين التي تروي متى ولماذا « يصغي الشاعر باهتمام قدسي لقيثارة السيرافيم ». وتتلو هذا الاقتباس الملاحظة التالية للسيد بوغاتشاريسكي: «لقد حدث ما يشبه هذا في نفس الصحفي الروسي العظيم: فيما بعد، بعد تخليه الكلي عن « العقائد »، وأيضاً عن مبادىء ايمانه الأول، حمل هرزن معه شيئاً من ذلك إلى الشاطىء الآخر أيضاً لم يحمله بعقله، بل حمله - حسب تعبيره - بذلك الشيء الذي رافقه طيلة حياته (ص ص ٣٩ - ٤٠)

هذه لقطة. لكنها غير واضحة تماماً لقد تخلى هرزن « فيما بعد » عن مبادىء ايمانه الأول. هذا ما يمكن أن يعلنه السيد بوغاتشاريسكي، **وهو صحيح تماماً** ولكن ماذا كان ذلك الايمان؟ من الواضح أنه ايمانه **المسيحي**. ما الفرق إذن بين « **أساسيات** » المسيحية و« **جوهرها** »؟ من الواضح أنه **لا فارق** على الاطلاق: انهما الشيء نفسه. فاذا كانا الشيء نفسه، ينتج من ذلك أن هرزن حتى بعد أن انفصل عن « **جوهر** المسيحية » ظلت تؤثر فيه، تماماً كما كانت تؤثر في بوشكين وفيما بعد في دستويفسكي وتولستوي، أي الكتاب الذين **لم ينفصلوا** عن المسيحية في جوهرها أبداً
هذا غريب

ومن الغريب أيضاً أن بوغاتشاريسكي لم يلحظ في انفعاله هذه الغرابة. وأغرب من ذلك أن هرزن « **فيما بعد** » خلال منفاه في نوفغورود قرأ كتاب فيورباخ الشهير **جوهر المسيحية**، بغبطة كبيرة، وفي تلك الأيام بالذات انضم إلى رجال **يشتركون في مفاهيم واحدة بحسب** « **جوهر المسيحية** ». قال فيورباخ إن **جوهر المسيحية هو جوهر القلب**. إن المسيحي يعزو إلى ربه تلك الخصائص التي يتصف بها قلبه **هو إنه يغربها** ويحولها إلى **كائن تصوري**. وحتى يكون هذا التحول ممكناً لا بد من أن ينام فكر الانسان. ثم أضاف فيورباخ: « النوم **هو** مفتاح أسرار الدين ». وبعد أن تمثل هرزن هذا الموقف في « جوهر المسيحية لم يكن تحت تأثير هذا الجوهر « فيما بعد أي عندما استيقظ عقله. على العكس تماماً، فان **موقفه تجاه ذلك كان سلبياً** كتب إلى سامارين: « اننا نقف بثقة على أرضنا الواقعية: الأرض دائماً تحت أقدام المرء، إلا أن لكم أرضاً فوق رؤوسكم، فأنتم أغنى منا، ولكن من الممكن للموضوعات الأرضية أن تبدو لكم على العكس »* اظهار الموضوعات الأرضية على العكس **هو** جوهر أي دين،

* مجموعه الكولوكول ص ٥١٨.

وفي المسيحية نجد ذلك. أصبح هرزن، يرفض الاعتراف بوجود أرض «أخرى» فوق رأس الانسان، غير خاضع لتأثير «جوهر المسيحية». ولم يكن في هذا يشبه بوشكين ودسويفسكي وتولستوي والكتاب الآخرين المؤمنين، فهو في هذا يختلف عنهم. ومن الأجدر أن نلاحظ هذا طالما أن ثمة تياراً من الصوفية يتدفق في أدبنا الحاضر يدخل التشويش الخاطىء والضار في أذهان القراء، واثباتاً لذلك انظر في «الأبحاث الدينية» الكثيرة في أيامنا وهذه هي الحالة دائماً في فترة الرجعية: فعندما تتهاوى الأرض الواقعية من تحت أقدام الضعفاء، يحاولون تعزية أنفسهم بوجود أرض «أخرى» فوق رؤوسهم. لا شك أن السيد بوغاتشاريسكي ألح على أن قراءة الانجيل لم تؤثر في هرزن بشيء فيما يتعلق بـ «الخشوع القدسي» مثلما أثرت الأصوات السرية «قيثارة السير افيم» الصوفية في روح بوشكين. إنه، للأسف الشديد، لم يقم بهذا الواجب كقصاص حكيم موثوق: العكس تماماً

إن ضيق المجال لا يسمح لنا أن نشير إلى جميع الأخطاء المحزنة الكثيرة للسيد بوغاتشاريسكي. سوف أكتفي بتقديم بعض الأمثلة. سوف أضيف الآن مثالاً آخر ليس هاماً أبداً كالأمثلة السابقة التي أوردتها

يكتب السيد بوغاتشاريسكي أن هرزن عند ما كان يعيش في نيس اندفع يعمل في قضية هي أين تكمن الضمانات الموضوعية لتحقيق المثل الاشتراكية في المستقبل. والسيجة التي وصل إليها آخذاً بعين الاعتبار أوروبا الغربية هي: يمكن أو لا يمكن للبناء الاشتراكي أن يقوم فيها، ولكن لا يمكن في كلا الأحوال الا أن تكون بورجوازية صغيرة. تلك كانت الفكرة التمهيدية عند هرزن، كما يؤكد السيد بوغاتشاريسكي. لقد اعتبر العامل الأوروبي برجوازي المستقبل الصغير. يتساءل السيد بوغاتشاريسكي تساؤل العارف: «ولكن ماذا يعني ذلك؟ إنه يعني أن هرزن رأى قصيين في فكرة «الاشتراكية». القضية الاقتصادية التي وصلت الى درجة تشريك وسائل الانتاج، والقضية الأخرى هي قضية روحية بكل معنى الكلمة - قضية حرية الفرد (ص ص ١١٨ ١١٩)

وكما هي عادة السيد بوغاتشاريسكي فانه لا يقيم دليلاً على «وسيلته إن هذا يعني أن هذه الوسلة هي أيضاً غير مسبة. فلنحاول ايضاحها ولنستمع الى هرزن نفسه ثانيه

يقول: « لا أعتبر مسألة مستقبل أوروبا قد حلت نهائياً بل... لا بد أن أقول أنني **لا أرى حلا سريعاً ولا مرضياً** وأنا لا أتصور انهياراً سريعاً للبرجوازية الصغيرة وتجديد بنية الدولة من دون قتال ضار دموي »*

وأسأل بدوري: « ماذا يعني هذا؟ المقصود ما يلي: **إن هرزن لم يعتبر انتصار البرجوازية الصغيرةَ على أنه الضمانة الأكيدة أبداً** لا أبداً إنه سلم **بأنها يمكن أن تسقط**. ولكنه اعتقد أن قتال البروليتاريا الدموي للبرجوازية **شرط ضروري لذلك السقوط**، وقد بدا له مثل هذا الشرط صعباً جداً وبعيد الاحتمال أيضاً ذلك هو السبب، **والسبب الوحيد** لماذا قال إنه لا يرى حلاً سريعاً ولا مرضياً للوضع الحالي، حيث تترنح البرجوازية. إن هذا يختلف كل الاختلاف عما اكتشفه السيد بوغاتشاريسكي الحكيم المتحمس

وفيما يَلي بعض الأسطر التي حذفها السيد بوغاتشاريسكي: « قضايانا من النوع الذي يحل عن طريق الاجراءات الاجتماعية للدولة مِنَ دون اللجوء الى **انتفاضات عنيفة** »**

وماذا يعني هذا؟ لقد كان إيمان هرزن بروسيا قائماً الى حد بعيد على اعتقاد وطيد هو أن قضايانا الروسية **يمكن أن تحل من غير** « **انتفاضات** »، فلقد أضافته « الانتفاضات كثيراً جداً لأنه تثقف في مدرسة الاشتراكية الطوباوية. **هذا ما يعني**. وذلك هو برهان جديد على أن خيبة أمل هرزن بأوروبا الغربية أساء فهمه كثيراً الحكماء اللبراليون المعاصرون أمثال السيد بوغاتشاريسكي

في رأي هرزن أنه اذا كان انتصار البروليتاريا الدموي على البرجوازية سيودي الى **سقوط البرجوازية الصغيرة**، فان من الواضح أن الثنائية التي نسبها اليه السيد بوغاتشاريسكي (المسألة الاقتصادية **من جهة** ومسألة حرية الانسان **من جهة ثانية**) لا وجود لها في الواقع، وأن وجدت فان أطروحاتها المنطقية مختلفة كل الاختلاف عن تلك التي يقدمها الكتاب. لقد شعر هرزن بالطبيعة غير المقنعة للأساس الطوباوي للآمال الاشتراكية المعاصرة، فتطلع نحو الأساس العلمي للاشتراكية. لقد كانت طريقة

---

* المؤلفات، المجلد ص ٢٨٥ التشديد من وضع هررن

** المرجع السابق ص ٢٩٢.

تفكيره في هذا الصدد طريقة عابرة. ومن الممكن أن يلمس المرء هنا تذبذب هرزن. وبالدرجة التي ظل بها اشتراكياً طوباوياً، استطاع حقاً، مثل السيد بوغاتشاريسكي، فصل القضية الاقتصادية عن قضية حرية الإنسان. ومن جهة أخرى فانه بالدرجة التي اقترب بها الى وجهة نظر الاشتراكية العلمية (وقد اقترب منها بالضبط عندما بحث عن ضمانة موضوعية لتحقيق الاشتراكية في المستقبل) أصبح فصل هاتين المسألتين اللتين لا تفصلان مستحيلاً بالنسبة إليه منطقياً ونفسياً أصبح وقتها أحادياً في الاشتراكية وفي غيرها من الأمور وقد كان هذا سهلاً جداً عليه لأنه تخرج أولاً في مدرسة رائعة هي مدرسة هيغل الأحادية، وتخرج فيا بعد في مدرسة أحادية رائعة أيضاً هي مدرسة فيورباخ. إن السيد بوغاتشاريسكي لا يعترف بشيء من هذا، لأنه لا يعرفه ولا يريد أن يعرفه.

والخلاصة التي تدعو الى الضحك أن السيد بوغاتشاريسكي لا يجد الكلمات القوية الكافية لاطراء هرزن، وهو محق بمعنى أن هرزن يستحق أعظم اطراء، سوى أن هرزن كان أباً لحركة النارودنيك الروسية. لقد اعترف بهذا السيد بوغاتشاريسكي الذي يتخد في الوقت نفسه موقفاً سلبياً كل السلبية من حركة النارودنيك. ففي كتابه «من تاريخ الصراع السياسي في السبعينات والثمانيات» (موسكو ١٩١٢) يرى أن هذه الحركة هي حركة «ثقافية» منفصلة كل الانفصال عن الحياة الواقعية. يقول السيد بوغاتشاريسكي في الكتاب المشار إليه أعلاه «انها حركة خيالية رومانسية لا نضره بالاضافة الى أنها طوباوية، لن تأتي اتجاهاتها الثورية بشيء. لكن أليس من عادة الدوائر الحاكمة الروسية أن تهلع لأي همسة في البلاد (ص ٢). اذا كنا نصدق السيد بوغاتشاريسكي يوجب أن سبب الاطراء المفرط لهرزن أنه ايديولوجي حركة هريلة جداً «يا لهرزن المسكين» إن بوغاتشاريسكي المحظوظ مخطىء تماماً في تقديره لحركة النارودنيك الثورية، التي يضعها في درجة أدنى مما وضعها فيه اللبراليون الروس المعاصرون. وهكذا فإن كلمة مسكين» تنطبق على السيد بوغاتشاريسكي نفسه وليس على هرزن.

ملاحظات

١ كتاب بليخانوف «**تشيرنيشيفسكي**» طبع في ١٨٩٠-١٨٩٢ كسلسلة من المقالات في أربعة أعداد من الصحيفة الماركسية الروسية **الاشتراكي الديمقراطي** التي نطبعها عصبة تحرير العمل في لندن في ١٨٩٠ وفي جنيف في ١٨٩٢ والطبعة الحالية سضمن المقالة الأولى من سلسلة المقالات تلك، التي تعالج بشكل رئيسي نظرة تشيرنيشيفسكي العالمية.

بالنسبة إلى «المكتبة العالمية» التي تصدرها دار نشر ديتز أدخل بليخانوف بعض التغييرات على مقالات **الاشتراكي الديمقراطي**، وكتب مقدمة خاصة تعرض خلاصة عامة عن الوضع الاقتصادي والسياسي الروسي في الخمسينات والستينات، وأضاف عدة ملاحق أعيد نشرها في هذا المجلد وقد ظهر الكتاب في الألمانية في ١٨٩٤ تحت عنوان:

ن - غ تشيرنيشيفسكي. دراسة تاريخية أدبية. ص(٤٣)

٢ - اشتعلت **حرب القرم** ١٨٥٣-١٨٥٦ بين روسيا من جهة، وبريطانيا وفرانسا وتركيا وسردينيا من جهة أخرى. لقد اندلعت نتيجة تضارب المصالح الاقتصادية والسياسية لتلك الأقطار في الشرق الأوسط. إن روسيا المتخلفة، مالكة العبيد، كانت أعجز من أن تقاوم الأقطار الأوروبية الغربية الرأسمالية المتطورة. ص(٤٣)

٣ - **روسيا الصغرى** - الاسم الرسمي لأوكرانيا في روسيا القيصرية. ص(٤٦)

٤ روسكايا ستاريا (التراث الروسي) صحيفة شهرية تاريخية طبعت في بطرسبرج من ١٨٧٠ حتى ١٩١٨ وقد خصصت مكاناً كبيراً لنشر الذكريات واليوميات والرسائل لرجال الدولة البارزين، وشتى الوثائق. ص(٤٧)

٥ إشارة إلى مذكرات زابلوتسكي دزياتوفسكي «حول العبودية في روسيا ص(٤٨)

٦ - أنصار السلافية والمتغربون - اتجاهان في الفكر الاجتماعي الروسي أواسط القرن التاسع عشر.

قدم أنصار السلافية «نظرية» أن على روسيا أن تتبع طريقاً نوعياً متفرداً من التطور التاريخي قائم على النظام الكوموني الذي يزعمون انه ميزة السلافيين، وعلى الارثوذكسية. وكانوا لا يرون امكانية الانتفاضات الثورية في روسيا، ولذلك كانوا يعارضون بشدة الحركة الثورية ليس في روسيا وحدها بل في الغرب أيضاً

وذهب المتغربون المعارضون لأنصار السلافية إلى أن على روسيا أن تتبع طريق التطور نفسه كما هو في الأقطار الأوروبية الغربية (ومن هنا أسمهم) والسير عبر المرحلة الرأسمالية. إنهم يؤكدون على الطبيعة التقدمية للنظام البرجوازي (بالمقارنة مع النظام الاجتماعي في روسيا، القائم على القنانة ويتخذون موقفاً سلبياً من القنانة، ويرون في الملكيات الدستورية، وبريطانيا على وجه الخصوص، مثالهم الأعلى. ص(٥٧)

٧ - من قصيدة بوشكين: «إلى المفترين على روسيا». ص(٥٧)

٨ - الديسمبريون: ثوريون من النبلاء الروس تمردوا في ١٨٢٥ على الأوتوقراطية والعبودية. ص(٥٨)

٩ - النص الموضوع بين قوسين مأخوذ من الملاحظة الثانية لبليخانوف على كتاب انجلز **ليودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية** (أنظر الطبعة الحالية المجلد الأول الصادر عن دار دمشق). ص(٥٨)

١٠ - تعبير استخدمه بيلنسكي في رسالته إلى بوتكين في ١ آذار ١٨٤١ ص(٦٠)

١١ - ماركس انجلز **المؤلفات الكاملة**، المجلد الخامس موسكو ١٩٧٦ ص(٦١)

١٢ ماركس انجلز **المؤلفات المختارة** (في ثلاثة مجلدات) المجلد الثالث موسكو ١٩٧٧ ص(٦٢)

١٣ ظهرت الترجمة الروسية الأولى لكتاب داروين **أصل الأنواع** في ١٨٦٤ ص(٦٢)

١٤ - يشير هنا إلى العدد الأول من **الاشتراكي الديمقراطي** الذي يشمل المقالة الأولى من كتاب بليخانوف **تشيرنيشيفسكي** (انظر الملاحظة الأولى). ص(٦٦)

١٥ - سوفريمينيك (المعاصر). شهرية علمية سياسية أدبية ظهرت في بطرسبرج من ١٨٣٦-١٨٦٦ ومن بين محرريها: تشيرنيشيفسكي وبيلنسكي وسالتيكوف شدرين. كانت **سوفريمينيك** أعظم صحيفة في عصرها لقد عبرت عن طموحات الديمقراطيين الثوريين وأثرت تأثيراً كبيراً في العناصر التقدمية للمجتمع الروسي. ص(٦٦)

١٦ - الاشارة هنا إلى كتاب تشيرنيشيفسكي ليسنغ، **عصره وحياته وعمله** جنيف ١٨٧٦ ص(٦٨)

١٧ - ولد تشيرنيشيفسكي في ١٢ تموز ١٨٢٨ ص(٦٨)

١٨ - لم تكن زوجة تشيرنيشيفسكي - وهي أولغا سكراتوفنا فاسيليفا - شقيقة بيبين. لقد كان بيبين قريباً لتشيرنيشيفسكي الذي كان ابن عمه. ص(٦٨)

١٩ - أوتيشيستفيني زابسكي (ملاحظات وطنية) - صحيفة أدبية سياسية ظهرت من ١٨٢٠-١٨٨٤ كانت بين ١٨٣٩ و١٨٤٦ احدى أعظم الصحف التقدمية في عصرها، مع بيلنسكي وهرزن من بين محرريها وفي ١٨٦٣ استولى عليها نكراسوف وسالتيكوف - شدرين وأصبحت الناطقة بلسان الاتجاه الديمقراطي الثوري. ص(٦٨)

٢٠ - ينسب مصطلح « **الواقعيون المفكرون** » إلى بيساريف وقد أطلق أتباعه على أنفسهم هذا الاسم لأنهم يؤيدون دراسة العلوم الطبيعية والحياة الواقعية كمعارضة لتلك الفلسفة المثالية التأملية. ص(٧١)

٢١ - روسكي فستنك (الرسول الروسي) - صحيفة سياسية أدبية ظهرت من ١٨٥٦-١٩٠٦ بين ١٨٥٦-١٨٨٧ طبعت في موسكو برئاسة كاتكوف. وكانت لسان مالكي العبيد الرجعيين. ص(٧٢)

٢٢ ماركس وانجلز **المؤلفات المختارة** (في ثلاثة مجلدات) المجلد الثالث موسكو ١٩٧٧ ص ١٢٩ ص(٧٥)

٢٣ - أنظر هيغل **فلسفة الحق**. ص(٧٧)

٢٤ - الاشارة هنا إلى جيوفاني باتيستافيكو (١٦٦٨ - ١٧٤٤) الفيلسوف الايطالي المعروف. ص(٧٩)

٢٥ - انجلز **أنتي دوهرنغ** موسكو ١٩٧٨ ص ٣٤ ص(٨١)

٢٦ - الكولونيون: شعب في روما القديمة كانوا يستأجرون قطعاً من الأرض من الملاكين العقاريين الكبار وكانوا لقاء استخدام هذه الأرض يدفعون كلاً من الدفع

النقدي والدفع العيني. لقد كانوا السابقين لعبيد العصور الوسطى. ص(٩٠)

٢٧ الملحقون - فلاحون رومان وبيزانطيون كانوا مرتبطين بالأرض، وكانوا بحكم وضعهم أقرب إلى العبيد ص(٩٠)

٢٨ - انجلز أنتي دوهرنغ، موسكو، ١٩٧٨، ص ص ٢٠٠ - ٢٠١ ص(٩٢)

٢٩ - ماركس - انجلز، المؤلفات الكاملة م ٣ موسكو ١٩٧٥ ص ١٧٧ ص(٩٣)

٣٠ ماركس انجلز، المؤلفات المختارة (٣ أجزاء) جـ ٣ موسكو ١٩٧٧ ص ١٣٠ ص(٩٥)

٣١ - مقتبس من قصيدة غوته Vanitas! Vanitatum – Vanitas ص(٩٦)

٣٢ الحوليات الألمانية - الفرنسية حررها ماركس وأرنولد روغ وطبعت بالألمانية في باريس. العدد الأول فقط، وهو عدد مردوج، ظهر في شباط ١٨٤٤ تضمن عدداً من مؤلفات ماركس وانجلز ص(١٠٤)

٣٣ - إن تعبير (Ad usum delphini) يعني من أجل الدوفين (والدوفين هو الابن البكر للويس الرابع عشر). وبموجب أوامر الملك فان أساتذة الدوفين «حضروا الأدب الكلاسيكي من أجل أن يطالعها تلميذهم، بحذف جميع المقاطع التي اعتبروها «غير لائقة ص(١٠٥)

٣٤ - الاشارة هنا إلى القمع الوحشي لانتفاضة عمال باريس من ٢٣-٢٦ حزيران ١٨٤٨ ص(١٠٦)

٣٥ - في «نقد برنامج غوتا» كتب ماركس عن نشاط لاسال فيما يتعلق بمنظمة الجمعيات التعاوية للمسجين: «بدلاً من أن تنشأ المنظمة الاشتراكية للعمل العام» من العملية الثورية لتحويل المجتمع، نشأت بمساعدة «الدولة» التي تقدمها الدولة لجمعيات المنتجين التعاوية، التي تخلقها الدولة وليس العمال. إن خيال لاسال جدير بالاحترام (أنظر المؤلفات المختارة المجلد الثالث ص ٢٤ طبعة ١٩٧٧) ص(١١٠)

٣٦ يضع بلنخانوف في ذهنه هنا النارودنيك اللبراليين. وعلى الأخص فورنسوف الذي كتب عدة مؤلفات يطري فيها المشاريع والصناعات اليدويه ص(١١٢)

٣٧ ماركس انجلز، المؤلفات الكاملة، المجلد السادس موسكو ١٩٧٦ ص ٤٩٤. ص(١١٤)

٣٨ - (HerrBastiat Schulze Von delilzch der Oconomische Julian, oder capital und Arbiet) العنوان الكامل لكتاب لاسال. ص(١١٥)

٣٩ - الاشارة هنا إلى النارودنيك اللبراليين، الذي كان أشهرهم ميخائيلوفسكي الذي أحرز شعبية بين الانتلجنسيا السابقة على الشعبين. إن النارودنيك الذين اعتنقوا الآراء الخاطئة لتشيرنيشيفسكي وهرزن في كومونات القرية الروسية باعتبارها جنين الاشتراكية، وأدانوا الآراء الديمقراطية الثورية لتشيرنيشيفسكي، اعتبروا أنفسهم «ورثة» هذا الأخير. ص(١١٦)

٤٠ - توفي بيلنسكي في ١٨٤٨ ص(١١٧)

٤١ كتب تشيرنيشيفسكي روايته «مقدمة المقدمة» في سجن سيبري بين ١٨٦٨-١٨٧١ أي في وقت متأخر جداً عن روايته «ما العمل؟» التي انهاها عام ١٨٦٣ ص(١٢١)

٤٢ - جميع شخصيات رواية تشيرنيشيفسكي تقريباً ذات نموذج أصلي في الحياة الواقعية. فتحت اسم ليفتسكي صور تشيرنيشيفسكي دوبروليوبوف، وتحت اسم سوكولوفسكي صور الثائر البولوني رغمونت سيراكوفسكي، وتحت اسم الكونت شابلان صور مالك العبيد المشهور مورافيوف الذي قمع بشدة الانتفاضة البولونية عام ١٨٦٣ وتحت اسم ريازانتسيف صور كافيلين، الممثل النموذجي للمادية يومها، وتحت اسم سافيولوف صور رجل الدولة مليوتين. ص(١٢١)

٤٣ آمن تشيرنيشيفسكي بإمكانية انتفاضة فلاحية في روسيا وسعى جاهداً للتحضير لها، وكتب بهذا الخصوص نداء موجهاً «إلى جميع فلاحي الضيع من محبيهم». ص(١٢٣)

٤٤ - أكاكي أكاكيفتش: الشخصية الرئيسية في قصة غوغول «المعطف». ص(١٢٤)

٤٥ إن سخط الشعب على الإصلاح الفلاحي ١٨٦١ مهد السبيل لتصاعد العواطف الثورية بين أوساط المثقفين التقدميين. وعدا عن نداء تشيرنيشيفسكي «إلى فلاحي الضيع» والنداءات التي نشرت في صحيفة هرزن **كولوكول** (أنظر الملاحظة ١٧٢)، فان عدة دوريات ونشرات طبعت بصورة سرية من قبل شتى المجموعات الثورية: نداء «إلى الجيل الجديد وثلاثة أعداد من المجلة الدورية الثورية **فيليكورس**، ونشرة «روسيا الفتاة». ومن بين المنظمات الثورية السرية في ذلك

الوقت كان أهمها جمعية «الأرض والحرية» التي انشئت عام ١٨٦٢ بمساهمة تشيرنيشيفسكي الفعالة وأصدقائه. ص(١٢٥)

٤٦ - الاشارة هنا إلى انتفاضة الحركة التحررية الوطنية الايطالية في خمسيات القرن التاسع عشر وتشكيل المملكة المتحدة في ايطاليا عام ١٨٦١

والحرب الأميركية الشمالية هي الحرب الأهلية الأميركية من ١٨٦١-١٨٦٥ ص(١٢٥)

٤٧ في هذه المقالة يدين تشيربيشيفسكي ما يسمى الشعب الفائض من النمط الذي وصفه تورغنيف في روايته رودين، وهرزن في روايته القصيرة من الملوم؟ ونكراسوف في قصيدة «ساشا ص(١٢٦)

٤٨ روسكايا بيزيدا صحيفة ذات نزعة سلافية صدرت في موسكو من ١٨٥٦-١٨٦٠ ص(١٣١)

٤٩ الفهرست الاقتصادي اسبوعية روسية صدرت في بطرسبرج من ١٨٥٧-١٨٦١ برئاسة فيرنادسكي. ص(١٣١)

٥٠ - رجال مانشستر أو التجار الأحرار - ممثلو اتجاه في الفكر الاقتصادي البرجوازي في النصف الأول من القرن التاسع عشر. دافعوا عن التجارة الحرة وعدم تدخل الدولة في الشؤون الاقتصادية. ص(١٣٥)

٥١ - اشتراكيو الكرسي - أساتذة برجوازيون دافعوا عن نظرية النمو السلمي للرأسمالية وانتقالها الى اشتراكية، وهكذا يحرفون البروليتاريا عن النضال الثوري. ص (١٣٦)

٥٢ - سفستوك (الصافرة) صحيفة روسية ظهرت من ١٨٥٩ - ١٨٦٣ كان مؤسسها ورئيس تحريرها دوبروليوبوف الذي كتب مقالاته تحت اسم كونراد ليلينشفاغر ص(١٣٧)

٥٣ - داين (اليوم) - أسبوعية من أنصار السلافية أشرف عليها اكساكوف في موسكو ١٨٦٢ - ١٨٦٥ ص(١٣٧)

٥٤ - كان كاتكوف رئيس تحرير صحيفة روسكي فستنيك (انظر الملاحظة ٢١) وكان البرتيني ودودشكين مساهمين في «ملاحظات الوطن الأم» (انظر الملاحظة ١٩). ص(١٣٨)

٥٥ - حلقة أنصار السلافية في موسكو تأسست في أواخر الثلاثيات في القرن

الماضي. واشتملت على أبرز ممثلي النزعة السلافية أمثال كيرفسكي وسامارين واكساكوف وآخرين. ص(١٤٠)

٥٦ والجملة مأخوذة من مقالة البرنامج المنشورة في العدد الأول من الصيحفة الأسبوعية «اليوم». وقد زين شعار روسيا القيصرية بنسر ذي رأس مزدوج. ص(١٤٢)

٥٧ - الروثنيون - اسم أطلقه المؤرخون وعلماء الانسان البرجوازيون على السكان الاكرانيين لغاليزيا والمنطقة الكرباتية وبوكوفينا وقد كان مستخدماً كثيراً في القرن التاسع عشر. ص(١٤٣)

٥٨ اسنوفا (الأساس) اكرانية سياسية اجتماعية شهرية ظهرت في بطرسبرج ١٨٦١-١٨٦٢ وبينما أيدتها **السوفريمينيك** في عدد من المطاليب تتعلق بتطور الثقافة الشعبية الاكرانية، انتقدتها من جهة أخرى لميولها اللبرالية. ص(١٤٣)

٥٩ إن المقالة التي يقتبس منها بليخانوف هنا ليست موجودة في مؤلفات تشيرنيشيفسكي الكاملة. ص(١٤٦)

٦٠ - في خريف ١٨٦١ قامت مظاهرات طلابية ضخمة في عدد من المدن الجامعية احتجاجاً على أنظمة الجامعة الرجعية التي فرضتها الحكومة القيصرية. ص(١٤٩)

٦١ كرس بليخانوف ثلاث مقالات لتحليل آراء تشيرنيشيفسكي السياسية الاقتصادية. وقد ظهرت في الأعداد ٢ - ٣ - ٤ من مجلة **الاشتراكي الديمقراطي** في جنيف. والمقالات هذه غير موجود في هذا المجلد. ص(١٥١)

٦٢ تبنى تشيرنيشيفسكي موقفاً نقدياً من ميل. وقد أكد ذلك ماركس في التعقيب على الطبعة الألمانية من **الرأسمال**. كتب ماركس: «وهكذا فالتوفيقية الضحلة يعتبر جون ستيوارت ميل خير ممثل لها وهذا اعلان بافلاس الاقتصاد والبرجوازي، وهذا شيء ألقي الناقد والمعلم الروسي الكبير تشيرنيشيفسكي الضوء عليه بذهن وقاد في «ملاحظات على الاقتصاد السياسي عند ميل» (رأس المال المجلد ١ موسكو ١٩٧٧ ص ٢٥) ص(١٥٢)

٦٣ - لا بد أن يكون فيتوشنيكوف وليس فيتوشكين. ص(١٥٣)

٦٤ - أكمل تشيرنيشيفسكي رواية **ما العمل؟** في نيسان ١٨٦٣ ص(١٥٥)

٦٥ - الكلمات من قصيدة نكراسوف « أغنية الى يريوموشكا » ص(١٥٥)

٦٦ لوبوخوف وفيرا بافلوفنا هما الشخصيتان الرئيسيتان في رواية ما العمل؟ ص(١٥٧)

٦٧ - اقتباس من ملهاة الفطنة تجلب النكد للكاتب الروسي غيريبويدوف ص(١٥٧)

٦٨ - بتراشفتسي اعضاء حلقة المثقفين الروس التقدميين تشكلت على يد بوتاشيفيش - بتراشيفسكي في بطرسبرج ١٨٤٥ - ٨٤٩. لقد ناقشوا كثيراً من المسائل تتضمن مشاريع لتحرير الفلاحين، والاطاحة بالارستقراطية، وإقامة جمهورية، وأيضاً الطرق الثورية في النضال. وقد تشكلت آراء النواة الثورية للحلقة تحت تأثير أفكار الديسمبريين (انظر الملاحظة ٨) وبيلنسكي وهرزن، وأيضاً أفكار الاشتراكية المثالية التي دعا إليها فوربيه والمفكرون الغربيون الآخرون. ص(١٥٩)

٦٩ - بازاروف - الشخصية الرئيسية في رواية تورغنيف الآباء والأبناء ص(١٦٠)

٧٠ الإشارة هنا الى النارودنيك الثوريين في السبعينات الذين « ذهبوا الى الشعب » (نارود تعني الشعب) تاركين بيئتهم الخاصة وأسرهم وملذاتهم. ص(١٦٢)

٧١ - ارتبطت المحاولات الجريئة لتحرير تشيرنيشيفسكي باسمي ايبوليت مشكلين وهرمان لوباتين. وقد فشلا كلاهما ص(١٦٣)

٧٢ - الاشارة هنا الى مقالة تشيرنيشيفسكي « نشأة نظرية السمة النفعية للصراع من أجل الحياة » التي نشرت في ١٨٨٨ وفيها يدافع تشيرنيشيفسكي عن النزعة التحولية أي فكرة التغير في التطور، ولكنه ينتقد دارون لتطبيقه نظرية الصراع من أجل الوجود - التي استعارها من مالتوس - على الطبيعة الحية.

وفيما بعد، في ٩ ١٩ أعلن بليخانوف تقييمه السلبي لهذه المقالة (انظر الفصل السابع من مقالة بليخانوف « تشيرنيشيفسكي ١٩٠٩ ») ص(١٦٣)

٧٣ هنا فيما بعد أقواس تدل أن الكلمات أو المقاطع من مقالة بليخانوف الموضوعة ضمنها أضيف إليها ملحق في الطبعة الألمانية. ص(١٦٤)

٧٤ - مصطلح تشيرنيشيفسكي « الشعب الجديد » يقصد شعباً من النمط ذاته، نمط لوبوخوف وكيرسانوف وراخميتوف وفيرا بافلوفنا - الشخصيات الرئيسبة في رواية ما العمل؟ ص(١٦٥)

٧٥ - حول التعليم في الاصلاح الفلاحي ١٨٦١ أقام هرزن (ولم يكن يعلم طبيعة

الاصلاح التضليلية) حفلة ابتهاجاً بتحرير الفلاحين. وقد شرب مع ضيوفه نخب روسيا وسعادتها وازدهارها ص(١٦٨)

٧٦ إشارة الى مقالة تشيرنيشيفسكي «نقد الميول الفلسفية ضد حياة الأرض الجماعية» ص(١٦٩)

٧٧ فضح بيان «**الى جيل الشباب**» الطبيعة التضليلية للاصلاح الفلاحي ١٨٦١ ودعا الى انتفاضة ثورية ضد الارستقراطية. وقد وزع في روسيا في أيلول ١٨٦١ ومؤلفاه الكاتب شلغونوف والشاعر الثوري ميخائيلوف، كانا مشهورين في الحركة الديمقراطية الثورية في الستينات. وقد طبع البيان في المطبعة الروسية الحرة التي كانت لهرزن في لندن، ومع ذلك فانه لم يؤيد ما جاء فيه. ص(١٧١)

٧٨ - بيان «الى كل الضباط» آذار ١٨٦٢ دعاهم الى الانضمام الى أحزاب «لا حسب الطبقات الاجتماعية، بل حسب المعتقدات. ص(١٧١)

٧٩ نشرة «**روسيا الفتاة**» طبعت في منتصف أيار ١٨٦٢ ووزعت بشكل واسع في بطرسبرج وموسكو والأقاليم. كان مؤلفها الديمقراطي الثوري زيشنيفسكي. ص(١٧١)

٨٠ - روسكوي سلوفو (الكلمة الروسية). شهرية طبعت في بطرسبرج من ٨٥٩ الى ١٨٦٦ ومن بين محرريها شلغونوف وشابوف. ومن ١٨٦١ حدد شخصية الصحيفة الصحافي والناقد البارز بيساريف ص(١٧٢)

٨١ في ١٩٠٨ ونظراً للذكرى العشرين لوفاة تشيرنيشفسكي القريبة، عاد بليخانوف الى كتابه ن. غ. تشيرنيشيفسكي المنشور في صحيفة الاشتراكي الديمقراطي (١٨٩٠ - ١٨٩٢) وكمجلد مستقل طبع في ألمانيا (١٨٩٤). وبمقارنة هاتين الطبعتين فان طبعة ١٩٠٩ كانت موسعة: فقد ضمنها بليخانوف المقدمة التي أعاد النظر فيها وتمهيداً وقسماً طويلاً بعنوان: «آراء تشيرنيشيفسكي الفلسفية والتاريخية والأدبية»، التي شكلت معاً الجزء الأول من هذا الكتاب الجديد. ويتألف الجزء الثاني من قسمين: «الآراء السياسية لتشيرنيشيفسكي» و«الآراء السياسية الاقتصادية لتشيرنيشيفسكي وبينما أعيدت كتابة القسم الأول فان القسم الثاني لم يخضع إلا لتغيير طفيف. والمقالات الأربع مأخوذة من **الاشتراكي الديمقراطي**.

نشرت هذا الكتاب دار شيبوفنيك للنشر، بطرسبرج في تشرين الأول ١٩٠٩.

يسمل المجلد الحالي على المقدمة والجرء الأول فقط للكتاب وفقاً لخطة نشر الأجراء الخمسة مقالة «نظرية تشيريسيفسكي الجمالية في الجرء الأول موجودة في المجلد الخامس ص(١٧٦)

٨٢ يشير تشيرنيشيفسكي الى كوميديا فونفيزين «**البريجادير**» المكتوبة في أيار ١٨٥٠ ص(١٨٧)

٨٣ إشارة الى مقدمة كتاب ن. غ تشيريشيفسكي غير المنشورة في الطبعة الحالية ص(١٩٦)

٨٤ - الكلمة التي لم يستطع الناشر قراءتها هي «مطالب» ص(٢٠٠)

٨٥ أوبلوموف الشخصية الرئيسية لرواية غونشاروف تحمل الاسم ذاته ص(٢٠٩)

٨٦ - تدور هذه الحكاية عن هرة تسرق قطعة لحم. يباشر الطاهي بالقاء محاضرة طويلة عن أن من الخطأ اقتراف السرقة، في حين تتابع الهرة التهام القطعة المسروقة. سهي الحكاية على النحو التالي: لكن فاسكا (اسم الهرة - المترجم) تستمر في الاستماع والأكل». ص(٢٠٩)

٨٧ تبين الآن أن نداء «الى الفلاحين المزارعين من محبيهم» كتبه سيريسيمسكي النشرات غير المشروعة **الفيليسكوروس** طبعت في ١٨٦١ باشراف لجنة لم يتبين حتى الآن ممن كانت تتألف ويظن أنها كانت تضم أنصار تشيرنيشفسكي أمثال فلاديمير ونقولا اوبروشيف، وقد ساهم أولهما في **السوفريمينيك**. أما مشاركة سيريسيفسكي في هذا فليس ثمة معلومات دقيقة حول ذلك. ص(٢١٢)

٨٨ - في ١٨٨٥ كتب تشيرنيشيفسكي مقالة «طبيعة المعرفة الانسانية» نشرت في **روسكي فيدومستي** باسم مسعار هو «أندرييف»، وكتب في ١٨٨٨ مقالة «نشأة نظرية السمة النمعية للصراع من أجل الحياة» وشرت في **روسكايا ميسل**. ص(٢١٩)

٨٩ كتب روسو روايه **جولي أو هيلوئيز الجديدة** التي جسدت المبادىء الرئيسية لنظرته العالمية، وهو في التاسعة والأربعين، أما رواية غودوين الشهيرة **كاليب وليامر** فكتبها عندما كان في الثامنة والثلاثين. ص(٢١٩)

٩٠ - أنظر الطبعة الحالية المجلد الأول. ص(٢٢٦)

٩١ - مقالة « نظرية تشيرنيشيفسكي الجمالية » موجودة في المجلد الخامس من الطبعة الحالية. ص(٢٣٢)

٩٢ نشر كتاب لانج تاريخ المادية في ١٨٦٥ وكان محاولة لانتقاد الممثلين الرئيسيين للمادية من موقف الكانتية الجديدة. ص(٢٣٣)

٩٣ - أنظر الطبعة الحالية، المجلد الثالث، موسكو١٩٧٦ ص١١٧-١٣٧. ص (٢٣٥)

٩٤ أنظر الطبعة الحالية، المجلد الثالث موسكو ١٩٧٦ ص ١٢٥ ٢٩ ص (٢٣٧)

٩٥ - أنظر الطبعة الحالية، المجلد الثالث موسكو ١٩٧٦ ص ١٢٥ ص(٢٤٠)

٩٦ - ماركس وانجلز المؤلفات المختارة المجلد ٤ موسكو ١٩٧٥ ص ١٣١ ص(٢٤٥)

٩٧ - ساغونتوم - مدينة تجارية في اسبانيا القديمة كانت تحت حماية روما في ٢١٩ قم دافع سكان ساغونتوم عن مدينتهم ببطولة ثمانية أشهر ضد جيش القائد القرطاجي هانيبال وفضلوا الموت محاربين على الحياة مستسلمين. ص(٢٥٧)

٩٨ - أنظر المجلد ٢ في الطبعة الحالية موسكو ١٩٧٦ ص ص ٣١-١٨٢ ص(٢٥٩)

٩٩ أنظر كتاب انجلز «لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسية الألمانية». ص(٢٧٠)

١٠٠ - اشارة إلى حرب الشعب الروسي التحررية ضد نابليون الأول. ص(٢٧١)

١٠١ - أنظر مقالة بليخانوف « في الذكرى الستين لوفاة هيغل » الطبعة الحالية، المجلد الأول. ص(٢٧١)

١٠٢ - اشارة إلى الداروينيية الاجتماعية التي سعت إلى تطبيق قوانين الطبيعة، وعلى الأخص قانون الصراع من أجل الحياة الذي لا يفعل إلا ضمن حدود في المملكتين الحيوانية والنباتية، في ميدان الظواهر الاجتماعية. ص(٢٨٨)

١٠٣ إن تشيرنيشيفسكي في روايته ما العمل؟ يستخدم النعبير الساخر « القارىء الذكي » ليشير إلى القارىء الرجعي المتميز بالنفاق والتفاهة وادعائه الغوص. ص(٢٩١)

١٠٤ اشارة الى كتاب غيزو تاريخ حضارة أوروبا وتاريخ حضارة فرانسا. ص(٢٩٤)

١٠٥ - أنظر الطبعة الحالية المجلد الأول موسكو ١٩٧٤ ص ص ٥٠١-٥١٣ ص(٢٩٤)

١٠٦ أنظر المؤلفات المختارة لماركس وانجلز المجلد ٩ موسكو ١٩٧٧ ص ٢١١ ص(٢٩٦)

١٠٧ - أنظر المؤلفات المختارة لماركس وانجلز المجلد ٦ موسكو ١٩٧٦ ص‌ص٥١٤ - ٥١٥ ص(٣٠٥)

١٠٨ أنظر المؤلفات المختارة لماركس وانجلز المجلد ٦ موسكو ١٩٧٦ ص ٥١٧ ص(٣٠٦)

١٠٩ - الصحيفة الرينانية الجديدة، دورية سياسية اقتصادية - صحيفة حررها ماركس وانجلز من كانون الأول ١٨٤٩ حتى تشرين الثاني ١٨٥٠ وظهر منها ستة أعداد فقط حررت في لندن وطبعت في هامبورغ. اشتملت على عدد من مقالات ماركس وانجلز توقفت عن الصدور بسبب ملاحقة البوليس ونقص التمويل. ص(٣٢٤)

١١٠ - المؤلفات المختارة لماركس وانجلز مجلد ١٠ موسكو ١٩٧٨ ص‌ص ٢٥٣-٥٤ ص(٣٢٤)

١١١ - رأس المال، لكارل ماركس المجلد ١ موسكو ١٩٧٧ ص ١٧٣ ص(٣٢٥)

١١٢ - أنظر الطبعة الحالية المجلد ٢ موسكو ١٩٧٦ ص‌ص ٢٨٣-٣١٥ ص(٣٣٤)

١١٣ المؤلفات المختارة لماركس وانجلز (في ثلاثة مجلدات) المجلد ٢، موسكو ١٩٧٧ ص ١٩ ص(٣٣٨)

١١٤ المؤلفات المختارة لماركس، وانجلز، المجلد ٥، موسكو ١٩٧٦ ص ٦ ص(٣٤١)

١١٥ - أنظر الملاحظة رقم ٨٠ ص(٣٥٤)

١١٦ - تؤلف مقالة «المريدَ حول فن الشعوب البدائية» الرسالة الثالثة لبليخانوف من رسائل بلا عنوان (أنظر المجلد ٥ من الطبعة الحالية) ص(٣٥٩)

١١٧ - أنظر الطبعة الحالية، المجلد الخامس. ص(٣٦٠)

١١٨ رودني الشخصية الرئيسية في رواية تورجنيف تحمل الاسم نفسه. وبلتوف الشخصية الرئيسية في رواية هرزن من الملوم؟ وساشا بطلة قصيدة

نكراسوف تحمل الاسم ذاته. ص(٣٨٠)

١١٩ - أنظر الملاحظة ٤٤ ص(٣٨٥)

١٢٠ الأغاني الدينية (إدا) مجموعة من القصائد الميتولوجية البطولية الايسلندية القديمة. وأغاني البطولة - قصائد ملحمية عن الأبطال الفرسان. ص(٣٨٧)

١٢١ كاتب مقالة «قصائد بليشنشيف» ليس تشيرنيشيفسكي بل ميخائيلوف، كما تبين حديثاً ص(٣٩٠)

١٢٢ - اقتباس من كوميديا غريبويدوف «الفطنة تجلب النكد». ص(٤٠٦)

١٢٣ كتب بليخانوف هذه المقالة في ١٩١٢ مباشرة عقب نشر رسائل تشيرنيشيفسكي من السجن والمنفى في فيلويسك من قبل لايتسكي وابن تشيرنيشيفسكي ميخائيل. ونشرت المقالة في **السوفريميينيك** - وهي صحيفة أدبية سياسية شهرية ظهرت في بطرسبرج من ١٩١١ - ١٩١٥ ص(٤٠٧)

١٢٤ - في آب ١٨٦٦ جاءت زوجة تشيرنيشيفسكي مع ابنها الأصغر ميخائيل إلى كادايا حيث كان تشيرنيشيفسكي يقضي أعصب الأوقات في الأشغال الشاقة. وأثناء اللقاء حاول اقناعها بعقد زواج ملفق مع أحد أصدقائها للخلاص من ملاحقة البوليس. ص(٤٠٨)

١٢٥ اشارة الى **الانسيكلوبيديين** مجموعة من المتنورين الفرنسيين في القرن الثامن عشر - من فلاسفة وعلماء وكتاب - تآزروا معاً لاصدار **الانسيكلوبيديا** أو معجم العلوم والفنون والحرف (١٧٥١ ١٧٨٠) وقد ساهم ديدرو وديلامبير وهولباخ وهلفتيوس وفولتير وآخرون في تحرير الانسيكلوبيديا ص(٤١٥)

١٢٦ - يشير بليخانوف إلى الأحكام العامة لجمعية الشغيلة الأممية التي كتبها كارل ماركس (أنظر المؤلفات المختارة لماركس وانجلز [في ثلاثة أجزاء] مجلد ٢ موسكو ١٩٧٧ ص١٨) ص(٤٢٣)

١٢٧ - نشرت مقالة «بيلينسكي والواقع العقلي» في ١٨٩٧ في المجلة المشروعة **نوفوي سلوفو** وهي المقالة الثانية من سلسلة «مصير النقد الروسي». وقع بليخانوف المقالات باسم «كامينسكي».

أما **نوفوي سلوفو** (الكلمة الجديدة) فكانت شهرية تعالج القضايا العلمية والأدبية والسياسية. وقد صدرت في بطرسبرج من ١٩٤ - ١٨٩٧. ص(٤٢٧)

١٢٨ كورونات الشخصية الرئيسية في قصة سلتيكوف شدرين التي تحمل الاسم نفسه. ص(٤٢٩)

١٢٩ - انني دوهرنغ لانجلز موسكو ١٩٧٨ ص ٣٤ ص(٤٣٥)

١٣٠ - ذكرات «**أيامي الغابرة وأفكاري**» كتبها هرزن ص(٤٣٦)

١٣١ يقتبس بليخانوف في الشخصية الرئيسية لقصة بيلنسكي **ديمتري كالينين** ص(٤٤١)

١٣٢ - **فاغنر** - شخصية في مسرحية «فاوست» لغوته. ص(٤٤٦)

١٣٣ إشارة الى مراجعة بيلنسكي «مقالات عن معركة بورودينو (ذكريات ١٨١٢). والكتاب الذي راجعه بيلنسكي من تأليف غلينكو **مؤلف «رسائل ضابط روسي»**. موسكو ١٨٣٩ ص(٤٥١)

١٣٤ - إشارة الى مقالة بيلنسكي «منزل، ناقد غوته». ص(٤٥٣)

١٣٥ - **فيرتلجارشريفت ويغاند** - مجلة فلسفية للهيغليين الشباب أصدرها ويغاند في ليبزيغ (١٨٤٤-١٨٤٥) ومن بين محرريها بوير وشتيرنو وفيورباخ. ص(٤٦٤)

١٣٦ - **مقالات عن مرحلة غوغول في الأدب الروسي** - كتبها تشيرنيشيفسكي. ص(٤٦٥)

١٣٧ - مانيلوف - شخصية في **النفوس الميتة** لغوغول، تمثل الحالم الفارغ التافه الذي يتخذ من الواقع موقفاً سلبياً ص(٤٧٣)

١٣٨ - يتحدث المؤلف هنا عن باكونين ص(٤٧٤)

١٣٩ إشارة الى مقالة بليخانوف «آراء بيلنسكي الأدبية» **وهي موجودة في** الجلد ٥ من الطبعة الحالية ص(٤٧٧)

١٤٠ - نشر هذا الخطاب في جنيف (شباط ١٨٩٩) ككراس لعصبة الاشتراكيين الديمقراطيين الروس. ص(٤٧٨)

١٤١ - **رسالة بيلنسكي الى غوغول** كتبت في تموز ١٨٤٧ عندما نشر غوغول كتابه «**مقاطع مختارة من مراسلة مع الأصدقاء**»، وفيها حمل على الأوثوقراطية والقنانة في روسيا وقد وصف لينين هذه **الرسالة** بأنها «من أروع ما أنتجته الصحافة الديمقراطية المحظورة» (المؤلفات الكاملة مجلد ٢ ص ٢٤٧) نشرت لأول مرة في ١٨٥٥ في صحيفة هرزن بوليارنايا رزفسدا ص(٤٧٨)

١٤٢ - **مقتبس من قصيدة ديمتريف « الى ناقد مجهول » وفيها يدين الكاتب** بيلنسكي. ص(٤٨٠)

١٤٣ - **روسكوي بوغاتسفو** (الثورة الروسية) - شهرية صدرت في بطرسبرج من ١٨٧٦-١٩١٨ في أوائل التسعينات أصبحت لسان حال النارودنيك الأحرار برئاسة ميخائيلوفسكي، مشوه الماركسية ومزيفها، شنت حملة ضد الاشتراكيين الديمقراطيين دفاعاً عن التحريفية. ص(٤٨٢)

١٤٤ - « **الاعتدال والدقة** » كلمات مولخالين من قصة غريبويدوف الفطنة تجلب النكد ص(٤٩٠)

١٤٥ إشارة الى كتاب انجلز « **لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفية الكلاسيكية الألمانية** » والترجمة الروسية التيقام بها بليخانوف نشرت في جنيف (١٨٩٢) قامت بشرها **جماعة تحرير العمل**. ص(٤٩٣)

١٤٦ - أنظر **أيامي الغابرة وأفكاري** الجزء ٤ ص(٤٩٦)

١٤٧ - أنظر المجلد الأول من الطبعة الحالية موسكو ١٩٧٤ ص ص ٤٠١-٤٢٦

النيوزيت مجلة نظرية للاشتراكيين الديمقراطيين الألمان طهرت في شتوتغارت (١٨٨٣-١٩٢٣). من ١٨٨٥ حتى ١٨٩٤ نشرت عدداً من **مؤلفات** انجلز الذي كان يساعد باستمرار محرريها بالفصحية، وغالباً ما انتقدهم لانحرافهم عن الماركسية. وفي النصف الثاني من التسعينات بدأت تظهر فيها بصورة منتظمة مقالات للتحريفيين. ص(٤٩٩)

١٤٨ يشير بليخانوف الى مجادلات الثانينات بين الماركسيين والنارودنيك اللبراليين حول مسألة تطور الرأسمالية في روسيا ص(٥٠٠)

١٤٩ - من قصيدة لبوشكين ص(٥٠١)

١٥٠ **موسكفيتانين** (الموسكوفي) شهرية أدبية ظهرت في موسكوف من ١٨٤١-١٨٥٦ برئاسة بوغودين أقامت برنامجها الرجعي على شعر « الأرثوذكسية والأوتوقراطية والقومية وقد شت كثيراً من الهجوم على بيلنسكي والصحف الديمقراطية ص(٥٠٥)

١٥١ اعمل سيفشكو في ٥ نيسان ١٨٤٧ بقضية جمعية سيريل وميتوديوس السرية، وارسل الى الجيش جندياً قضى عشر سنوات في المنفى وحرم من الكتابة

والرسم. أما رأي بيلنسكي الجارح الظالم في شيفشيرنكو فيرجع الى نقص معلوماته في هذا الموضوع ص(٥٠٦)

١٥٢ - العنوان المختصر لكتاب انجلز «لودفيغ فيورباخ ونهاية الفلسفة الكلاسيكية الألمانية». ص(٥٠٧)

١٥٣ - كتب هرزن في يومياته في ١٠ نيسان ١٨٤٣، بعض قراءة مقاطع من قصة غوغول «النفوس الميتة»: «ظهرت روسيا أمام ناظري حية، ومسألة النهار تكررت بشكل مؤلم حتى أنني انفجرت متنهراً النوم طويل وثقيل، فلماذا استيقظنا مبكراً؟ يجب أن نعود الى النوم، تماماً مثل كل شيء حولنا، يكفي ص(٥٠٧)

١٥٤ هذه غلطة تتكرر في كل طبعات الخطاب يجب أن تقرأ «أنا كارسيس سكيتيا الجديدة» (انظر هذا المجلد ص ٤٥٥). ص(٥٠٨)

١٥٥ - عولجت تلك القضايا في مقالة بليخانوف «آراء بيلنسكي الأدبية» التي يجدها القارىء في المجلد الخامس من الطبعة الحالية. ص(٥٠٨)

١٥٦ - كتب بليخانوف هذه المقالة في ١٩٠٨ وظهرت في «**تاريخ الأدب الروسي في القرن التاسع عشر**» الذي نشرته دار مير في بطرسبرج (١٩٠٩). ص(٥٠٩)

١٥٧ - ملفا (الشائعة) صحيفة ظهرت في موسكو من ١٨٣١-١٨٣٥ كملحق لمجلة **تلسكوب**. لقد قدمت مقالات نقدية وجدلية وملاحظات بيبليوغرافية.

أما **التلسكوب** فقد عالجت الأدبية والاجتماعية، ظهرت في موسكو من ١٨٣١ الى ١٨٣٦ برئاسة نادزوين. دافعت عن النظرية الفلسفية الوثيقة الصلة بالواقع. ساهم فيها بيلنسكي من ١٨٣٣ أغلقت في ١٨٣٦ لنشرها «الرسالة الفلسفية» لشادايف. ص(٥١٢)

١٥٨ - **روسكوفسكي نابليوداتيل** (مراقب موسكو) - ظهرت في موسكو بين ١٨٣٥ و١٨٣٩ وقد عمل بيلنسكي في الصحيفة في ١٨٣٨-١٨٣٩ وجعلها أفضل الصحف في تلك الأيام. ص(٥١٢)

١٥٩ إشارة الى كتاب غوغول **مقاطع مختارة من مراسلة مع الأصدقاء** ص(٥٥٠)

١٦٠ - نشرت هذه المقالة في **السوفريمينيك مير** في ١٩١٠

السوفرييمنيك مير (العالم المعاصر) شهرية تعالج المسائل العلمية والأدبية والسياسية ظهرت في بطرسبرج من ١٩٠٦ الى ١٩١٨ ص(٥٥٣)

١٦١ - **هاليش جاهربوشر**: مختصر عنوان الصحيفة الأدبية الفلسفية للهيغليين الشباب. ظهرت على شكل صحيفة يومية في ليبزغ من كانون الثاني ١٨٣٨ حتى حريران ١٨٤١ محررها في هال كان أرنولدروج. ص(٥٥٧)

١٦٢ - بالنسبة الى مقالة « فيساريون غريغوريفيتش بيلنسكي » انظر هذا المجلد ص ص ٤٦٤-٥٠٤

أما مقالة «آراء بيلنسكي الأدبية» فتوجد في المجلد الخامس من الطبعة الحالية. ص(٥٦٣)

١٦٣ - **نشيد ضيف ايغور** - كتاب من الأدب القديم (القرن الثاني عشر) يعكس المستوى العالي لثقافة الشعب ووعيه السياسي. ص(٥٦٥)

١٦٤ - انظر هذا المجلد ٣٨٧-٤٣٤ و٤٦٤-٥٠٤ ص(٥٦٨)

١٦٥ - لم يكتب بليخانوف مقالة بهذا العنوان. لقد استخدم المواد الجاهزة للمقالات اللاحقة، التي ظهرت في **السوفرييمنيك مير** في ١٩١١-١٩١٢ « بوغودين والصراع الطبقي » و« كيريفسكي » و« بصدد كتاب بردياييف « **خومياكوف** ». ص(٥٧٥)

١٦٦ - انظر الملاحظة ٦٨ ص(٥٨٥)

١٦٧ - **فوستوميزل** - حسب التسلسل التاريخي، كان أول أمير أو بوسادنيك على نوفوغورود في القرن التاسع ص(٥٨٦)

١٦٨ - أنظر الملاحظة ٦٩ ص(٥٨٩)

١٦٩ - أنظر هذا المجلد ٤٦٤ - ٥٠٤ ص(٥٩٤)

١٧٠ - اشارة إلى كوميديا غوغول. ص(٥٩٨)

١٧١ كتب بليخانوف مقالة « هرزن والقنانة » في ١٩١١ مستخدماً منطلقاً له عدة محاضرات من محاضراته عن هرزن. كانت المقالة معدة للنشر في **فستنيك يفروبي** ولكن لسبب مجهول أرسل بليخانوف المقالة **للسوفرييمنيك مير** حيث ظهرت في عددي تشرين الثاني وكانون الأول.

نشرت مقالة بليخانوف مختصره قبيل الذكرى المئوية لهرزن، وبعد أن رفض

الرأي الشائع عن هرزن على أنه ليبرالي، وصفه أنه ثوري. ص(٦١١)

١٧٢ - **الكولوكول** (الجرس) - صحيفة نشرها هرزن وأوغاريف في لندن (من ١ تموز ١٨٥٧ حتى نيسان ١٨٦٥) وفي جنيف (من ١٨٦٥ حتى تموز ١٨٦٧) تحت شعار «فيفوس فوكو» (أنادي الأحياء) وصلت **الكولوكول** إلى ٢٥٠٠ نسخة وكانت توزع بشكل واسع في روسيا. لقد فضحت الكولوكول حكم الحكم التعسفي للأوتوقراطية، وجشع الموظفين واختلاساتهم، والاستغلال الذي لا يرحم للفلاحين، وساعدت على نهضة الجماهير للكفاح ضد الأوتوقراطية القيصرية. ص(٦١١)

١٧٣ - اشارة إلى أوبراتي غلينكا «عاش القيصر» و«روسلان ولودميلا». ص(٦١٦)

١٧٤ - اشارة إلى الحرب التي شنها الفلاحون ضد القنانة في ١٧٧٣-١٧٧٥ كان قائدهم اميليان بوغاتشيف. ص(٦٢٣)

١٧٥ - كان أعضاء حلقة ستانكيفيتش، ومنها غرانوفسكي وبيلنسكي، يهتمون أيضاً بالمسائل السياسية، كانوا هم أيضاً «مغتربين جداً عن روسيا الرسمية»، حسب تعبير هرزن، وكان موقف بعض أعضائها وإن كانوا متنورين شخصياً، أكثر اعتدالاً من موقف حلقة هرزن التي كان معظم أعضائها يتبنون آراء اشتراكية وثورية. والحلقتان أولتا اهتماماً كبيراً بالمسائل الفلسفية والنظرية. ص(٦٢٥)

١٧٦ - تاريخ الاعتقال غير دقيق: لقد اعتقل هرزن في الساعات الأولى من ٢١ تموز ١٨٣٤ ص(٦٣٠)

١٧٧ - بيرون - أحد الآلهة الرئيسية عند السلاف الشرقيين، انه إله الرعد والبرق. ص(٦٣٠)

١٧٨ - اشارة إلى مقالة بليخانوف «هرزن في المهجر». ص(٦٣٥)

١٧٩ - سوباكيفيتش، كوروبوشكا، نازدريف، مانيلوف - شخصيات في رواية غوغول «النفوس الميتة». ص(٦٣٦)

١٨٠ - التاريخ خطأ: فقد ألقى هرزن هذا الخطاب في ٢٧ شباط ١٨٥٥ ص(٦٤٦)

١٨١ - عيد القديس جاورجيوس - تحتفل به الكنيسة في ٢٦ تشرين الثاني. في الدولة الروسية في القرنين الخامس عشر والسادس عشر كان يحق للفلاحين في هذا اليوم أن ينتقلوا من مالك عقاري إلى مالك عقاري آخر كان الغاء هذا الحق في نهاية

القرن السادس عشر خطوة هامة لتدعيم القنانة. ص(٦٤٧)

١٨٢ - **بولياريانا أزفدا** (نجم القطب) - مجموعات من المقالات نشرتها الصحافة الروسية الحرة في لندن العائدة لهرزن في ١٨٥٥-١٨٦٢ وقد ظهر منها ثمانية أعداد. وقد عرفت القراء بمؤلفات الكتاب والشعراء الروس الذين كانت رقابة القيصر قد حظرتها، ومن بين هذه المؤلفات **رسالة بيلنسكي إلى غوغول**. ص(٦٤٨)

١٨٣ - ر.ش- **روسكي شيلوفيك** (روسي)- الاسم المستعار لأوغاريف. ص(٦٤٨)

١٨٤ اقترح ميخائيلوفسكي «صيغة للتقدم» في ١٨٦٩ في كتابه **ما التقدم؟** وقد عبرت الصيغة عن نظرية ذاتية مثالية للتطور الاجتماعي، وبحسب هذه النظرية فان التطور التاريخي يجب أن يقدر من نظرة مثال أعلى معين يمثله «فرد متطور». هذا «الفرد المتطور»، أي الانتلجنسيا، يلعب دوراً حاسماً في توجيه عملية التطور التاريخي. ص(٦٥٣)

١٨٥ - تحدث اسكندر الثاني في خطاب ألقاه في ٣٠ آذار ١٨٥٦ ووجهه إلى رعماء النبلاء في موسكو، عن الحاجة إلى القيام بالاصلاحات. ص(٦٦٠)

١٨٦ - في مرسوم تعيين نازيموف، الحاكم العام لفيلنا، سمح اسكندر الثاني لنبلاء المقاطعات الليتوانية أن يبدؤوا بتقديم الاقتراحات «لتنظيم وتحسين حياة فلاحي ملاك الأراضي». كان نشر هذا المرسوم ذا أهمية سياسية، لأن طرح مسألة إلغاء القنانة بصورة علنية ساعد على تصعيد الصراع الأيديولوجي والسياسي المتعلق بالاصلاح المقترح. ص(٦٦١)

١٨٧ إشارة إلى تورجنيف، أحد الديسمبريين، الذين عاشوا في المهجر ص(٦٦٧)

١٨٨ - **أوتريزكي «الأراضي المقتطعة»**: كانت أراض انتزعها المالكون العقاريون من الفلاحين أثناء الغاء القنانة في روسيا (١٨٦١). وقد أجبر الفلاحون على التخلي عنها بطرق عنيفة. ص(٦٦٩)

١٨٩ - اشارة إلى ضريبة فرضت على التجار الروس الذين انقسموا قبل ١٨٦٣ إلى ثلاث نقابات وذلك حسب كمية رأس المال التي يملكونها ص(٦٧٠)

١٩٠ حتى شباط ١٨٥٨ كان ر.ش **روسكي شيلوفيك** (روسي) الاسم المستعار الذي اعتاد أوغاريف أن يوقع به مقالاته في **الكولوكول**. بعض رسائل من

روسيا حملت أيضاً هذا الاسم المستعار اعتقد كثير من الباحثين أن هذا الاسم المستعار استخدمه تشيرنيشيفسكي أو أحد أصدقائه المقربين. ص(٦٧٢)

١٩١ - ألقي الخطاب في ٢٧ شباط ١٨٥٥ ص(٦٨٠)

١٩٢ **زمليا فوليا** (الأرض والحريَة) جمعية سرية في روسيا نظمها الديمقراطيُون الثوريون. ظهرت في أواسط ١٨٦١ تلتها اتفاقية بين مركزين في الحركة الثورية الروسية، مركز بطرسبرج (ن.أوأ.أ سيرنو سولوفيتفيتش ون.أ.أ وبروشيف وآخرون) ومركز لندن (هرزن واوغاريف). المهمة الأساسية لجمعية الأرضْ والحرية الاعداد لانتفاضة فلاحية عامة. تفكك التنظيم نتيجة انحطاط في الحركة الثورية في روسيا ص(٦٨٧)

١٩٣ **أوبشي فيشي** (الجمعية العامة) - ملحق **الكولوكول** ظهر كنشرة بين ١٨٦٢ و١٨٦٤ قصد هرزن بهذه النشرة أن تكون صحيفة ثورية موجهة إلى الجماهير لم تنتشر كثيراً، وقد أصبحت لسان حال المؤمنين القدامى. ص(٦٨٨)

١٩٤ نارودنايا **فولوليا** (ارادة الشعب) تنظيم سياسي سري للارهابيين النارودنيك تأسس في آب ١٨٧٩ انطلق اعضاء التنظيم في طريق الصراع السياسي معتبرين أهم مهماتهم الاطاحة بالأوتوقراطية وتحقيق الحرية السياسية. قاموا بصراع بطولي ضد الأوتوقراطية، ولكنهم انطلاقاً من نظرية خاطئة عن «الأبطال» الايجابيين و«الجماهير» السلبية، ظنوا أنهم ينجحون من غير مشاركة الشعب، بل عن طريق الأفراد الارهابيين وتفكيك الحكومة. بعد اغتيال الاسكندر الثاني في ١ آذار ١٨٨١ قامت الحكومة باضطهاد شديد وبملاحقة واعدامات لتحطيم النارودنايا فوليا ص(٦٩٥)

١٩٥ كتبت المقالة بمناسبة الذكرى المئوية لهرزن ونشرت في **السوفريمينيك مير** ص(٦٩٨)

١٩٦ - أنظر هذا المجلد ص ص ٣٨٨ - ٤٣٤ ص(٦٩٨)

١٩٧ - هذه الصفحة من **يوميات هرزن** مؤرخة في ٢٩ حزيران. ص(٧٠١)

١٩٨ - عنوان مقالة ولهلم جوردان هو:

Die Philosophie und die Allgemeine Wissenschaft, ein Beirtrag zur kritik der philosophie ulerhaupt. ص(٧٠١)

١٩٩ قرأ هرزن كتاب «حياة جورج ولهلم فريدريك هيغل» (١٨٤٤) الذي كتبه تلميذ هيغل كارل روزنكرانر، وهو فيلسوف ألماني مثالي. ص(٧٠٣)

٢٠٠ - أنظر أنتي دوهرنغ لانجلر، موسكو ١٩٧٨ ص ٥٨ ص(٧١٠)

٢٠١ - أنظر مقالة بليخانوف «المادية مرة أخرى» (الطبعة الحالية، المجلد ٢ ص ٤١٥) ص(٧١٢)

٢٠٢ - المؤلفات المختارة لماركس وانجلز (في ثلاثة أجزاء) الجرء الثالث، موسكو، ١٩٧٧، ص٣٤٨ ص(٧١٢)

٢٠٣ - برسينيف الشخصية الرئيسية في رواية تورجنيف «في المساء». ص(٧١٤)

٢٠٤ مجلة أدبية فلسفية للهيغليين الشباب أصدرها أرنولد روج في بليبنريغ (١٨٤١-١٨٤٣) باعتبارها وريثة لهاليشي جاهر بوشر (أنظر الملاحظة ١٦١). وقد أغلقتها الحكومة. ص(٧١٦)

٢٠٥ - انتي ووهرنغ لانجلز، موسكو ١٩٧٨ ص ٣١ وما يلي ص(٧٢١)

٢٠٦ - انتي ووهرنغ لانجلز، موسكو ١٩٧٨ ص ٣٣ ص(٧٢٢)

٢٠٧ -أنظر الطبعة الحالية، مجلد١، موسكو١٩٧٤، ص ص٤٠١-٤٢٦ ص(٧٢٧)

٢٠٨ - عين تلميذا سان سيمون وتابعاه انفانتين وبازارد «المسؤولين الأعليين للمجتمع الديني الذي تشكل من المدرسة السانسيمونية. أصبح انفانتين كاهنه فوضع تنظيمات للزواج والتنصير والدفن... الخ. ص(٧٣٣)

٢٠٩ - أنظر هذا المجلد ص ص ٢٧٠ - ٣١٤ ص(٧٤٨)

٢١٠ - النصير السلافي سامارين في رسائله الى هرزن اتهمه بترغيب الشباب في طريق الضلال باشاعة تعاليم المادية والالحادية ونشر الأفكار الثورية. ص(٧٥٢)

٢١١ - كان الأمير شيركاسكي شخصية سياسية روسية وصحفياً قريباً من أنصار السلافية. في احدى مقالاته المنشورة، عندما تم الاعداد لاصلاح ١٨٦١ اقترح أن يبقى لملاك الأراضي، حتى بعد تحرير الفلاحين، حق اخضاعهم للعقاب الجسدي (يسمح حتى ١٨ ضربة عصا). وقد عورضت المقالة بشدة من المثقفين التقدميين. ص(٧٥٣)

٢١٢ - أنظر هذا المجلد ص ص ٥٥٩ - ٥٦٠ ص(٧٥٦)

٢١٣ - ألقى بليخانوف هذا الخطاب على قبر هرزن في نيس بمناسبة الذكرى

المئوية. نشر في القسم الروسي من صحيفة **الأفينير** التي ظهرت في باريس باللغتين الفرسية والروسية. ص(٧٥٧)

٢١٤ كانت هذه انتفاضة تحررية وطنية موجهة ضد اضطهاد الأوتوقراطية القيصرية. ترأس الانتفاضة اللجنة الوطنية المركزية. كانت مطالبها تتضمن استقلال بولونيا، والحقوق المتساوية لكل الناس بغض النظر عن الدين والأصل، ونقل الأرض الزراعية كلها للفلاحين من دون تعويض. ولهذا السبب لقيت دعماً من القطاعات الخارجية للسكان البولونيين.

وقد تعاطف معها الديمقراطيون الثوريون بعمق. وقد أصدرت جمعية الأرض والحرية نداء وزع في الجيش. وكتب هرزن وأوغاريف عدداً من المقالات في **الكولوكول** عرضا فيها نضال الشعب البولوني، كما قدما أيضاً المساعدة للمتمردين.

في صيف ١٨٦٤ قمعت الفصائل القيصرية هذه الانتفاضة بعنف. ص(٧٥٨)

٢١٥ - المراجعات الثلاث المنشورة في المجلد الحالي لكتب هرشنسون، وهو مؤرخ برجوازي للثقافة الروسية وناقد أدبي وصحافي، تنتمي إلى سلسلة من المقالات وجهها بليخانوف ضد أيديولوجيا الثورة المضادة في المرحلة الرجعية التي أعقبت اندحار ثورة ١٩٠٥ - ١٩٠٧ في روسيا وقد تجلى موقف هرشنسون السياسي في مقالته المنشورة في مجموعة **فيكي** حيث انفصلت الانتلجنسيا البرجوازية اللبرالية عن تقاليد الفكر الثوري الروسي.

نرى في مراجعات بليخانوف لكتب هرشنسون أن من الضروري أن نشير من جهة إلى أنها قدمت ثروة من المعلومات، ومن جهة أخرى فضحت الطبيعة الرجعية للاتجاه نحو الصوفية الذي قام به المثقفون البرجوازيون الروس.

نشرت المراجعات في **السوفريمينيك مير**: نشرت مقالة «شادايف في العدد الأول عام ١٩٠٨ ومقالة «كتاب هرشنسون: ملاحظات تاريخية (عن المجتمع الروسي)، موسكو ١٩١٠ » في العدد ٤ من عام ١٩١٠ ص(٧٦٣)

٢١٦ نشرت «الرسالة الفلسفية» الأولى لشادايف في ٢٩ أيلول ١٨٣٦ في **التلسكوب** ص(٧٦٦)

٢١٧ - هذا يرجع إلى «المبادىء» الثلاثة للأيديولوجيا الرسمية: «الأرثوذكسية، الأوتوقراطية، القومية . هذه المبادىء الرجعية الثلاثة صاغها في بداية الثلاثينات

أوفاروف وزير الثقافة العامة القيصري، وتقدم بها كبرنامج لتثقيف الشباب. ص(٧٧٠)

٢١٨ كان شادابيف في بداية العشريات، وكان يعيش وقتها في بطرسبرج، قريباً جداً من الديسمبريين، وانضم الى جمعية سرية وهي اتحاد الرفاه العام. فر إلى الخارج أثناء انتفاضة ١٤ ديسمبر ١٨٢٥ ص(٧٧٤)

٢١٩ اشارة إلى مقالات لونا تشاريسكي التي ظهرت في ١٩٠٨-١٩١١ في طبعة مستقلة بعنوان «**الدين والاشتراكية**».

أوبرا زوفايني (الثقافة) - مجلة شهرية مشروعة تعالج المسائل الأدبية والعلمية والاجتماعية السياسية. هرث في بطرسبرج من ١٨٩٢ - ١٩٠٩ ص(٧٧٦)

٢٢٠ - **روس** - صحيفة يومية برجوازية لبرالية بآراء معتدلة ظهرت في بطرسبرج من كانون الأول ١٩٠٣ حتى كانون الأول ١٩٠٥ ص(٧٨٢)

٢٢١ - أنظر المجلد الحالي ص‌ص ٣٨٧ - ٤٣٤ ص(٧٨٣)

٢٢٢ - **فيكي** (الدعائم) - مجموعة من المقالات لصحفيين ديمقراطيين دستوريين ومتحدثين باسم الانتلجنسيا البرجوازية اللبرالية المناوئة للثورة، نشرت في موسكو ربيع ١٩٠٩ في مقالاتهم عن الانتلجنسيا الروسية، سعوا للتخلي عن التقاليد الديمقراطية الثورية للحركة التحررية في روسيا كآراء بيلنسكي ودوبروليوبوف وتشيرنيشيفسكي، وسعوا إلى تشويه سمعة الحركة الثورية لـ ١٩٠٥، وشكروا الحكومة القيصرية على قمعها الثورة. ص(٧٨٧)

٢٢٣ - بليخانوف يشير إلى حقيقة أن بولغاكوف، الذي كان يوماً ما «ماركسياً شرعياً»، اعتنق نظرة عالمية دينية وأصبح فيما بعد كاهناً ص(٧٨٨)

٢٢٤ - يحلل هرشنسون في كتابه ايديولوجيا أنصار السلافية ومناهضتهم لأنصار النزعة الغربية. ص(٧٩٢)

٢٢٥ - **فستنيك يفروبي** (الرسول الأوروبي) - شهرية سياسية تاريخية أدبية، صدرت في بطرسبرج من ١٨٦٦ إلى ١٩١٨ كانت مقالاتها موجهة ضد الماركسيين الثوريين.

روسكايا ميزل (الفكر الروسي) - شهرية أدبية سياسية صدرت في موسكو من ١٨٨٠ حتى ١٩١٨، لسان حال الجناح اليميني للحزب الديمقراطي الدستوري في

أعقاب ثورة ١٩٠٥ دعت للقومية والفيكيه (أنظر الملاحظة ٢٢٢ المترجم) والتجهيلية ودافعت عن مصالح المالكين العقاريين. ص(٧٩٢)

٢٢٦ إشارة إلى «الماركسيين الشرعيين» وهم ممثلو الاتجاه الاجتماعي السياسي في الانتلجنسيا البرجوازية اللبرالية في روسيا في التسعينات. سعوا لاستغلال الماركسية لصالح البرجوازية بتحريف فرضياتها الأساسية عن استنتاجاتها الثورية. كتبوا مقالات للصحف المشروعة أطروا فيها الرأسمالية ودعوا الشعب «إلى معرفة نقصنا الثقافي والتعلم من الرأسمالية». ص(٧٩٣)

٢٢٧ - **الأحلام العابثة** تعبير استخدمه نيقولا الثاني في خطابه الذي القاه في ١٧ كانون الثاني ١٨٩٥ أمام نواب من الزيمفستو والمدن استجابة لمطالباتهم بالدستور ص(٧٩٣)

٢٢٨ - **المئة السود**: عصابات نظمها البوليس القيصري لمحاربة الحركة الثورية. وقد اغتال أعضاء المئة السود الثوريين وهاجموا المثقفين التقدميين ودبروا المذابح اليهودية. ص(٧٩٤)

٢٢٩ - المؤلفات الكاملة لماركس وانجلز، المجلد ٤ موسكو ١٩٧٥ ص ١٣١ ص(٧٩٧)

٢٣٠ - مراجعة بليخانوف لكتاب بوغاتشاريسكي نشرت في السوفريمينيك مير في ١٩١٢ ص(٧٩٩)

أسماء الأعلام للمجلد الرابع من مؤلفات بليخانوف

آ - A

أبيسيموف، الكسند أونيسيموفيتش (١٧٤٢-١٧٨٣) كاتب روسي ومؤلف حكايات وأوبرا ساخرة

أسخيلوس (٥٢٥-٤٥٦ ق. م) مسرحي يوناني.

اكساكوف، إتيان سيرغيفيتش (١٨٢٣-١٨٨٦) داعية روسي، من أنصار السلافية.

اكساكوف، كونستانتين سيرغيفيتش (١٨١٧-١٨٦٠) داعية روسي ومؤرخ من أنصار السلافية.

ألبرتيني، نيكولاي فيكينتفيتش (١٨٢٦-١٨٩٠) داعية ومساهم في مجلة أوتشستفيني زابسكي.

الكسندر الأول (١٧٧٧-١٨٢٥) امبراطور روسيا (١٨٠١-١٨٢٥)

الكسندر الثاني (١٨١٨-١٨٨) إمبراطور روسيا (١٨٥٥-١٨٨١)

الكسندر الثالث (١٨٤٥-١٨٩٤) امبراطورروسيا(١٨٨١-١٨٩٤).

الكسي ميخائيلوفيتش (١٦٢٩-١٦٧٦)قيصر روسيا (١٦٤٥-١٦٧٦).

أناكارسيس (القرن السادس ق. م) أمير اسكيتي

أناكساغوراس (٥٠٠-٤٢٨ ق. م) فيلسوف مادي يوناني.

أننكوف، بافل فاسيليفيتش (١٨١٢-١٨٨٧) ناقد روسي ومؤلف المذكرات. ليبرالي.

انطونوف، م (توفي في بداية القرن العشرين) ناقد ومؤلف كتاب عن تشيرنيشيفسكي كما نشر عدة مقالات عنه.

انطونوفيتش، مكسيم الكسينيتش (١٨٣٥-١٩١٨) فيلسوف مادي وناقد أدبي، ساهم في تحرير سوفريمينيك.

اراكشييف، الكسي اندريفيتش (١٧٦٩-١٨٣٤)أحدأبرزالممثلين الرجعيين للأوتوقراطية القيصريّة. وزير الحربية زمن

١٨٨١) ثوري فرنسي، إشتراكي طوباوي.

بوبو ريكين، بيوتر ديمتريفيتش (١٨٣٦-١٩٢١) كاتب روسي.

بوغدانوف (مالينوفسكي) الكسندر الكسندروفيتش (١٨٧٣-١٩٢٨) إشتراكي ديمقراطي روسي فيلسوف ماخي وعالم إجتماع.

بوغدانوفيتش، إيبوليت فيودورونيتش (١٧٤٣-١٨٠٣) شاعر روسي.

بوغاتشارسكي، فاسيلي ياكوفليفيتش (إسمه الحقيقي ياكوفليف) (١٨٦١-١٩١٥) شخصية سياسية برجوازية لبرالية، مؤرخ حركة النارودنيك.

بوالو، نيكولاس (١٦٣٦-١٧١١) شاعر فرنسي ومنظر الكلاسيكية.

بوتكين، فاسيلي بترونيتش (١٨١١-١٨٦٩) ناقد وداعية لبرالي روسي.

بوشوت، معلم هرزن في طفولته، أشار إليه في كتابه «أيامي الغابرة وأفكاري»

بوربون، الأسرة الملكية التي حكمت فرنسا من ١٥٨٩ إلى ١٧٩٢، ومن ١٨١٤ إلى ١٨١٥ ومن ١٨١٥-١٨٢٠

بورجين، هربرت (ولد عام ١٨٧٤) مؤرخ فرنسي صاحب مؤلفات عن تاريخ الفكر الإشتراكي.

برامبوس، أنظر سنكوفسكي.

بروتوس، ماركوس جونيوس (٨٥-٤٢) جمهوري روماني، زعيم المؤامرة ضد قيصر.

بوخنز، لودفيغ (١٨٢٤-١٨٩٩) فيزيولوجي ألماني، ممثل المادية المبتذلة.

بوكل، هنري توماس (١٨٢١-١٨٦٢) مؤرخ إنكليزي، وعالم إجتماع وضعي.

بولغاكوف، سيرجي نيكولايفيتش (١٨٧١-١٩٤٤) فيلسوف مثالي روسي في تسعينات القرن التاسع عشر أصبح «ماركسياً شرعياً» وفي ١٩٠٩ إنضم إلى هيئة تحرير ڤيكي. فيما بعد أصبح كاهناً

بولغاكوف، جاكوف ايفانوفيتش (١٧٤٣-١٨٠٩) دبلوماسي روسي، ومترجم أدبي.

بولغارين، فادي فندكتوفيتش (١٧٨٩-١٨٥٩) صحفي رجعي روسي وكاتب رواية. مخبر وعميل بوليس.

بوناروتي، فيليبو ميشيل (١٧٦١-١٨٣٧) ثوري إيطالي،

شيوعي طوباوي تعاون مع بابوف.
بوراشوك، ستيبـــان انيسيموفيتش (١٨٠٠-١٨٧٦) ناشر روسي ومحرر في الصحيفـة الرجعية ماياك.

بايرون، جورج غوردون (١٧٨٨-١٨٢٤) شاعر إنكليزي.

- س، ك - C

- كابيــه، اتيـان (١٧٨٨-١٨٥٦) شيوعي طوباوي فرنسي، مؤلف كتاب «رحلة الى إيكاريا»
كـاري، هنري تشارلس (١٧٩٣-١٨٧٩) إقتصـادي أميركي، صاحـب نظرية الإنسجام بين الطبقات في المجتمع الرأسمالي.
كاريـل، نيكولاس ارمانـد (١٨٠٠-١٨٣٦) جمهوري فرنسي.
كاترين الثانيـــــة (١٧٢٩-١٧٩٦) امبراطورة روسيا (١٧٦٢-١٧٩٦)
شاداييف، بيوتر باكوفليفيتش (١٧٩٤-١٨٥٦) فيلسوف مثـالي، مؤلف كتاب «الرسائل الفلسفية» حيث وجـه فيـه نقداً مريراً لنظـام القنانة الأوتوقراطي الروسي
شارل العاشر (١٧٥٧-١٨٣٦) ملـك فرنسا (١٨٢٤-١٨٣٠) خلعتـه ثورة ١٨٣٠
شوفلين: مراسل فولتير.
شيركاسكي، فلاديـمـير الكسندروفيتش (١٨٢٤-١٨٧٨) شخصية شعبية روسيـة، كـان صديقاً لأنصـار السلافية.

تشيرنيشيفسكايا، أولغا سوكراتوفنا (١٨٣٣-١٩١٨) زوجة تشيرنيشيفسكي.
تشيرنيشيفسكي، الكسندر نيكولا ييفيتش (١٨٥٤-١٩١٥) الإبن الأكبر لـ «ن. غ تشيرنيشيفسكي».
تشيرنيشيفسكي، غافريـل ايغانوفيتش (١٧٩٥-١٨٦١) كاهن، والد ن.غ. تشيرنيشيفسكي.
تشيرنيشيفسكي، ميخائيل نيكولا يفيتش ابن ن. غ. تشيرنيشيفسكي، وناشر مؤلفاته.
تشيرنيشيفسكي، نيكولاي غافريلوفيتش (١٨٢٨-١٨٨٩) ديمقراطي ثوري روسي وإشتراكي طوباوي، عالم وكاتب وناقد أدبي.

شيشيخـين، فاسيلي يفغرافوفيتش (إسمه المستعار شيشيخين فيترنسكي (١٨٦٦-١٩٢٣) مؤرخ أدب ليبرالي روسي.

شيسنوكوف، فاسيلي ديمتريفيتش: صديق الطفولة لـ« ن.غ. تشيرنيشيفسكي ».

سيركورث، أدولف، داعية فرنسي، تراسل مع شاداييف.

كليفورد، وليام (١٨٤٥- ١٨٧٩) رياضي إنكليزي، فيلسوف مثالي ذاتي.

كولاتينوس، لوشيوس تاركنيوس (القرن ٦ ق. م) روماني، زوج لوكريسيا

كولومبوس، كريستوفر (١٤٥١- ١٥٠٦) البحار المشهور

كونت، أوغست (١٧٩٨-١٨٥٧) فيلسوف فرنسي وعالم إجتماع، مؤسس الوضعية.

كونسيدران، فكتور بروسبر (١٨٠٨- ١٨٩٣) إشتراكي طوباوي فرنسي، تلميذ فوربيه ومن أتباعه.

كورنيل، بيير (١٦٠٦-١٦٨٤) مسرحي فرنسي

كوفير جورج (١٧٦٩-١٨٣٢) عالم طبيعة فرنسي، مبتكر ما يسمى نظرية الجائحات.

د - D

دانيلسون، نيكولاي فرانتشيفيتش (الاسم المستعار)(١٨٤٤-١٩١٨) كاتب وإقتصادي روسي، مؤدلج النارودنية في ثمانينات وتسعينات القرن الماضي.

دانتي، اليجري (١٢٦٥، ١٣٢١) شاعر إيطالي.

دارون، تشالز روبرت (١٨٠٩-١٨٨٢) عالم طبيعة، مؤسس البيولوجيا التطورية العلمية.

داڤيد، جاك لويس (١٧٤٨- ١٨٢٥) رسام فرنسي.

دافيدوف، دنيس فاسيليفيتش (١٧٨٤- ١٨٣٩) شاعر ومساهم في الحرب الوطنية ١٨١٢

ديلكوز، إتيان جان (١٧٨١- ١٨٦٣) رسام فرنسي وناقد فني.

ديمقريطس (٤٦٠-٣٧٠ ق. م) فيلسوف مادي يوناني.

درزافين، غافريلا رومانوفيتش (١٧٤٣- ١٨١٦) شاعر روسي.

ديكارت، رينيه (١٥٩٦-١٦٥٠) فيلسوف ربوبي فرنسي.

ديكورشوس (ولد حوالي ٣٥٠ ق. م) فيلسوف يوناني، تلميذ آرسطو.

ديدرو، دينيس (١٧١٨-١٧٨٤) فيلسوف مادي فرنسي. مؤدلج الثورة البرجوازية الفرنسية في القرن التاسع عشر، زعيم الانسيكلوبيديين.

ديتزجن، جوزيف (١٨٢٨-١٨٨٨) عامل ألماني إشتراكي ديمقراطي، توصل إلى مبادىء المادية الديالكتيكية بصورة مستقلة.

دانشييف، غريغوري افيتوفيتش (١٨٥١-١٩٠٠) داعية، ومؤرخ للاتجاه البرجوازي اللبرالي.

ديمتربيف، ايفان ايفانوفيتش (١٧٦٠-١٨٣٧) شاعر روسي.

دوبروليوبوف، نيكوي الكسندروفيتش (١٨٣٦-١٨٦١) داعية وناقد أدبي روسي، فيلسوف مادي.

دستويفسكي، فيودور ميخائيلوفيتش (١٨٢١-١٨٨٨١) روائي روسي.

دراغومانوف، ميخائيل بتروفيتش (١٨٤١-١٨٩٥) داعية واثنولوجي ومؤرخ أوكراني تبنى الآراء القومية البرجوازية.

دروزينين، الكسندر فاسيليفيتش (١٨٢٤- ١٨٦٤) ناقد روسي، متبني نظرية «الفن للفن».

دوبلت، ليونتي فاسيليفيتش (١٧٩٢-١٨٦٢) رئيس القسم الثالث، وقائد فصائل الدرك.

دودشكين، ستيبان سيميونوفيتش (١٨٢٠- ١٨٦٦) صحفي وناقد أدبي للجناح اللبرالي.

دوهرنغ، كارل يوجين (١٨٣٣-١٩٢١) فيلسوف انتقائي ألماني، وإقتصادي مبتذل ممثل الإشتراكية البرجوازية الصغيرة الرجعية.

دوخوفينكوف، فليكونت فاسيليفتش (توفي ١٨٩٧) مؤلف مقالة «ن. غ. تشيرنيشيفسكي»

دوماس، جان باتيت اندريه (١٨٠٠-١٨٨٤) كيميائي فرنسي.

E - إ

اكترمير، ارنست تيودور (١٨٠٥-١٨٤٤) فيلسوف ألماني، من الهيغيليين الشباب.

أكارتشوزن، كارل فون (١٧٥٢-١٨٠٣) كاتب ألماني عرف في روسيا لمؤلفاته الصوفية.

البيدين، ميخائيل كونستا نتينوفيتش (١٨٣٥-١٩٠٨) ساهم في الحركة الثورية الروسية في ستينات القرن الماضي، وإنتهى إلى عميل سري للبوليس.

انفانتين، بارتلمي بروسبر (١٧٩٦-١٨٦٤) اشتراكي طوباوي فرنسي من أتباع سان سيمون.

انجلز، فردريك (١٨٢٠-١٨٩٥)

الكسندر الأول.
اريوستو، لودوفيكو (١٤٧٤-١٥٣٣) شاعر إيطالي، مؤلف قصيدة أورلاندو فوريوسو.
آرسطو (٣٨٤-٣٢٢ ق. م) فيلسوف وعالم يوناني، تأرجح في الفلسفة بين المادية والمثالية.
ارستوف، نيكولاي جاكوفليفيتش (١٨٣٤-١٨٨٢)مؤرخ روسي من أتباع شابوف.
ارستو كسينوس (ولد ٣٥٤ ق. م) كاتب يوناني في الموسيقى، تلميذ أرسطو.
أوغيرو، بيير فرانسوا شارل (١٧٥٧-١٨١٦) مارشال فرنسا، مساعد نابليون الأول.
أفيناريوس، ريشارد (١٨٤٣-١٨٩٦) فيلسوف ألماني مثالي صاغ المبادىء الأساسية للنقد التجريبي.
اكسلرود، بافل بوريسوفيتش (١٨٥٠-١٩٢٨) اشتراكي ديمقراطي روسي عضو جماعة تحرير العمل، أول منظمة ماركسية في روسيا، إنتهى فيما بعد إلى قائد منشفيكي.

ب - B

بيكون، فرانسيس (١٥٦١-١٦٢٦) فيلسوف انكليزي، وعالم طبيعة، ومؤرخ ورجل دولة. مؤسس المادية الإنكليزية.
باكونين، ميخائيل الكساندروفيتش (١٨١٤-١٨٧٦) ثوري وداعية روسي. مؤدلج الفوضوية في الأممية الأولى تبدى عدواً لدوداً للماركسية. طرد من الأممية في مؤتمر هاغ بسبب نشاطاته الانقسامية.
باراتينفسكي، يفجيني ابراموفيتش (١٨٠٠-١٨٤٤) شاعر روسي.
بارسوكوف، نيكولاي بلاتونوفيتش (١٨٣٨-١٩٠٦) مؤرشف وكاتب سيرة ومؤرخ روسي.
باسيل الثاني (باسيل الأعمى) (١٤١٥-١٤٦٢)غراندوق موسكو من ١٤٢٥
باستيات، كلود فريدريك (١٨٠١-١٨٥٠)اقتصادي فرنسي غوغائي.
باتيو، شارل (١٧١٣-١٧٨٠) مُنَظِّر فرنسي في الفن، وفيلسوف وتربوي.
باتيوشكوف، كونستانتين نيكولايفيتش (١٧٨٧، ١٨٥٥) شاعر روسي.
بود، جان جاك (١٧٩٢-١٨٦٢) داعية فرنسي ،في ١٨٣٠ أصدر

الصحيفة المعارضة «الوقت»

بوير، برونو (١٨٠٩-١٨٨٢) فيلسوف ألماني، من الهيغيليين الشباب.

بايرهوفر، كارل تيودور (١٨١٢-١٨٨٨) فيلسوف ألماني، هيغلي يميني.

بازاروف، ف (الإسم الحقيقي رودنيف فلاديمير الكسندروفيتش)(١٨٧٤-١٩٣٩) اشتراكي ديمقراطي روسي. ساهم في عدد من المطبوعات البلشفية في فترة الرجعية (١٩٠٧-١٩١٠) كان أحد الممثلين الرئيسيين لإعادة النظر بالماركسية على أساس الماخية.

بومارشيه، بيير أوغسطين كارون (١٧٣٢-١٧٩٩) مسرحي فرنسي.

بيبل أوغست (١٨٤٠-١٩١٣) قائد في الإشتراكية الديمقراطية الألمانية للأممية الثانية.

بيلنسكي، فيساريون غريغورنيتش (١٨١١-١٨٤٨) ثوري ديمقراطي روسي، ناقد أدبي.

بنكندورف، الكسندر كريستوفريتش (١٧٨٣- ١٨٤٤) آمر الدرك، رئيس القسم الثالث وأحد رجال الدولة الرجعيين الكبار في عهد نقولا الأول.

بنتام، جيرمي (١٧٤٨-١٨٣٢) محام انكليزي، وأخلاقي، داعية للمذهب النفعي.

بير، كارل مكسيموفيتش (١٧٩٢-١٨٧٦) عالم طبيعة روسي، مؤسس علم الجنين.

بيرغسون، هنري (١٨٥٩-١٩٤١) فيلسوف مثالي فرنسي، مؤسس مذهب الحدسية.

بيركلي، جورج (١٦٨٥-١٧٥٣) فيلسوف ايرلندي، مثالي ذاتي.

بيرمان، جاكوف الكسندروفيتش (١٨٦٨-١٩٣٣) اشتراكي ديمقراطي روسي، محام وفيلسوف، مدافع عن إعادة النظر في الماركسية على أساس الماخية.

بيري، ماري كارولين فيردينايد (١٧٩٨-١٨٧٠) دوقة فرنسية.

بيريوكوف، بافل ايفانوفيتش (١٨٦٠-١٩٣١)

بلان، لويس بلان، لويس (١٨١١-١٨٨٢) مؤرخ فرنسي، إشتراكي طوباوي، ساهم فعال في ثورة ١٨٤٨، تبنى موقفاً تصالحياً مع البرجوازية.

بلانكي، لويس أوغست (١٨٠٥-

انجلسون، فلاديمير ارستوفيتش (١٨٢١-١٨٥٧) داعية روسي، لاجىء سياسي.
أبيقور (٣٤١-٢٧٥ ق.م) فيلسوف مادي يوناني.
أراسموس، ديسيديريوس (١٤٦٩-١٥٣٦) فيلسوف وصاحب نزعة إنسانية في عصر النهضة مؤلف «تقريظ الحماقة».
ايومبوس (القرن الرابع ق. م) فنان يوناني.
ايوربيدس (٤٨٠-٤٠٦ ق. م) مسرحي يوناني.

ف - F

فارادي، ميشيل (١٧٩١-١٨٦٧) فيزيائي إنكليزي مكتشف الحقل الكهرطيسي.
فيت، أفاناسي أفانا سيفيتش (شيشين) (١٨٢٠ - ١٨٩٢) شاعر روسي.
فيورباخ، لودفيغ أندرياس (١٨٠٤-١٨٧٢) أعظم فيلسوف مادي قبل الماركسية.
فيختة، جوهان غوتليب (١٧٦٢-١٨١٤) فيلسوف ألماني، مثال ذاتي.
فيليبسون، غريغوري ايفانوفيتش (١٨٠٩-١٨٨٣) جنرال قيصري مدير الثقافة في مقاطعة بطرسبرج.
فيلوسوفوف، ديمتري فلاديمير وفيتش (١٨٧٢- ١٩٤٠) داعية وناقد روسي.
فونفيزين، دينيس ايفانوفيتش (١٧٤٤-١٧٩٢) كاتب روسي.
فوسكولو، نيكولو (١٧٧٨-١٨٢٧) شاعر ايطالي، ساهم في نضال حركة التحرر الوطني في إيطاليا
فورييه، فرانسوا ماري شارل (١٧٧٢-١٨٣٧) إشتراكي طوباوي فرنسي.
فردلوف، نيكولاي غريغوريفيتش (١٨١٢-١٨٥٥) جغرافي وصحفي روسي.
فرومنتين، ايوجين (١٨٢٠-١٨٧٦) كاتب ورسام فرنسي.
فيودوروف، كونستانتين ميخائيلوفيتش: سكرتير ن. غ. تشيرنيشيفسكي في الأعوام الأخيرة من حياته في سيبيريا

غ - G

غاغارين، ايفان سيرغيفيتش (١٨١٤-١٨٨٢) عضو في جمعيات أدبية في روسيا في ثلاثينات القرن الماضي، أصبح فيما بعد كاثوليكياً

وإنضم إلى جمعية الجزويت.
غالاخوف، ايفان بافلوفيتش (١٨٠٩-١٨٤٩) عالم روسي، كان قريباً من حلقة هرزن وأوغاريف.
غاليليه، غاليليو (١٥٦٤-١٦٤٢) فيزيائي وعالم فلك إيطالي.
غان، ايفان الكسندروفيتش، مؤلف كتاب حول طريقة حياة الطبقة الوسطى الدنيا في اقليم ساراتوف.
غيوفروي، سان هيلير، اتيان (١٧٧٢-١٨٤٤) عالم حيوان فرنسي، تطوري، سلف دارون.
غيرموجين (١٨٥٨-١٩١٨) مطران رجعي متطرف.
غليم، جوهان ولهلم لودفيغ (١٧١٩-١٨٠٣) شاعر ألماني.
غلينكا، فيودور نيكولايفيتش (١٧٨٦-١٨٣٠) شاعر وكاتب روسي مؤلف «مقالات عن معركة بورودينو».
غودوين، ويليام (١٧٥٦-١٨٣٦) كاتب بريطاني وداعية، سلف للفوضوية.
غوته، جوهان ولفغانغ فون (١٧٤٩-١٨٣٢) كاتب ومفكر ألماني.
غوغول، نيكولاي فاسيليفيتش (١٨٠٩- ١٨٥٢) كاتب روسي.
غوغوتسكي، سلفستر سلفستروفيتش (١٨١٣-١٨٨٩) فيلسوف مثالي روسي جامع المعجم الفلسفي.
غلوخفاستوف، ديمتري بافلوفيتش (١٧٩٦-١٨٤٩) المدير الثقافي لمنطقة موسكو، بناء على مبادرته طرد بيلنسكي من الجامعة.
غوتشاروف، ايفان الكسندروفيتش (١٨١٢-١٨٩١) كاتب روسي.
كراشوس، تيبريوس سمبرونيوس (١٦٣-١٣٣ ق. م) وأخوه غايوس سمبرونيوس (١٥٣-١٢١ ق.م) مدافعان رومانيان عن حقوق الشعب، يمثلان ديمقراطية ملكية العبيد.
غرانوفسكي، تيموفي نيكولايفيتش (١٨١٣-١٨٥٥) مؤرخ روسي تقدمي وشخصية شعبية.
غريش، نيكولاي ايفانوفيتش (١٧٨٧-١٨٦٧) صحفي وكاتب روسي رجعي
غريغورو فيتش، ديمتري فاسيليفتش (١٨٢٢-١٨٩٩) كاتب روسي.
غريم، جاكوب (١٧٨٥-١٨٦٣) وأخوه ولهلم (١٧٨٦-١٨٥٩) لغويان ومؤرخان ألمانيان للغة والثقافة الألمانيتين.

غرون، كارل (١٨١٧-١٨٨٧) داعية برجوازي صغير ألماني، معتنق «الإشتراكية الحقيقية» ناشر التراث الأدبي لفيورباخ.

غيزو، فرانسوا بيير غيلوم (١٧٨٧-١٨٧٤) مؤرخ ورجل دولة فرنسي.

هـ - H

هيكل، أرنست (١٨٣٤-١٩١٩) عالم طبيعة ألماني، دارويني، مادي عفوي.

هانيبال (٢٤٧-١٨٣ ق. م) قائد قرطاجي.

هاكستهاوسن، أوغست فون (١٧٩٢-١٨٦٦) موظف بروسي، مؤلف أطروحات عن العلاقات الزراعية في بروسيا وروسيا

هيغل، جورج وهلم فريدريك (١٧٧٠-١٨٣١) فيلسوف ألماني، مثالي موضوعي، شرح الديالكتيك بالتفصيل.

هايني، هنريك (١٧٩٧-١٨٥٦) شاعر ألماني

هلفتيوس، كلود أدريان (١٧١٥-١٧٧١) فيلسوف مادي فرنسي ملحد.

هيراكليت الأفسسي (٥٤٠-٤٨٠ ق. م) فيلسوف مادي يوناني، مؤسس الديالكتيكية.

هيربل، نيكولاي فاسيليفيتش (١٨٢٧-١٨٨٣) شاعر روسي ومترجم، ناشر الكلاسيكيات الأوروبية.

هردر، جوهان غوتغريد فون (١٧٤٤-١٨٠٣) كاتب وفيلسوف الماني من المتنورين.

هردر، جوهان غوتغريد فون (١٧٤٤-١٨٠٣) كاتب وفيلسوف ألماني من المتنورين.

هرشنسون، ميخائيل أوسيبوفيتش (١٨٦٩-١٩٢٥) ناقد أدبي وداعية روسي، ساهم في تحرير فيكي المعادية للثورة.

هرزن، الكسندر ايفانوفيتش (١٨١٢-١٨٧٠) ديمقراطي ثوري روسي، فيلسوف مادي، داعية وكاتب. هاجر في ١٨٤٧ إلى الخارج وأسس الصحافة الروسية الحرة حيث نشر دوريته بوليارنايا زفسدا (نجمة القطب) وصحيفته الكولوكول (الجرس)

هس، موسى (١٨١٢-١٨٧٥) داعية ألماني برجوازي صغير، أحد الممثلين الرئيسيين لـ «الاشتراكية الحقيقية

هيلد براند، برونو (١٨١٢-١٨٧٨) إقتصادي ألماني، ممثل ما يسمى المدرسة التاريخية في الإقتصاد السياسي.

هلغردنغ، الكسندر فيودوروفيتش (١٨٣١-١٨٧٢) علامة في السلافية الروسية مؤرخ وجامع البيلناس الروسية.

هوبر، توماس (١٥٨٨-١٦٧٩) فيلسوف مادي إنكليزي.

هولباخ، بول هنري (١٧٢٣-١٧٨٩) فيلسوف مادي فرنسي.

هومر شاعر ملحمي يوناني شبه أسطوري.

هوراس، كوينتوس هوراتيوس فلاكوس (٦٥-٨ ق. م) شاعر روماني.

هامبولت، الكسندرفون (١٧٦٩-١٨٥٩) عالم طبيعة ألماني ورحالة.

هيوم، دافيد (١٧١١-١٧٧٦) فيلسوف إنكليزي، مثالي ذاتي يعتنق مذهب اللا أدرية.

إ - I

الطاهر الثالث (١١٦٠-١٢١٦) بابا في (١١٩٨-١٢١٦) كافح من أجل سيطرة روما سياسياً على الدول الأوروبية.

اسكاندر أنظر هرزن.

ايفانوف، ديمتري بتروفيتش (١٨١٢-١٨٨٠) نسيب بيلنسكي، مؤلف «ذكريات» عنه.

ايفانوف، ميخائيل ميخائيلوفيتش (١٨٤٩-١٩٢٧) مؤلف موسيقي روسي.

ايفانوف، فياشسلاف ايفانوفيتش (١٨٦٦-١٩٤٩) شاعر روسي، منظر الرمزية.

ايفانوف - رازومنيك (الإسم المستعار لايفانوف رازومنيك فاسيليفتش) (١٨٧٨-١٩٤٥) داعية وناقد أدبي روسي.

يـ، جـ - j

جودل، فريدريك (١٨٤٩-١٩١٤) أستاذ الفلسفة في جامعتي براغ وفيينا، معتنق المذهب الوضعي.

جوردان، ولهلم (١٨١٩-١٩٠٤) كاتب ألماني، وشخصية شعبية.

جوليان المرتد امبراطور روماني (٣٦١-٣٦٣) حاول إعادة الدين الوثني.

يانغ ستلنغ، جوردان هنريش (١٧٤٠-١٨١٧) كاتب ألماني ،صوفي

جونت، أندوخ (١٧٧١-١٨١٣) مارشال في جيش نابليون.

خـ - ك - k

كالاشيف، نيكولاي فاسيليفيتش (١٨١٩-١٨٨٥) محرر وناشر الآثار التاريخية والأدبية الشرعية.

كانت، عمانوئيل (١٧٢٤-١٨٠٤) فيلسوف ألماني، مؤسس المثالية الألمانية الكلاسيكية.

كانتمير، أنتيوخ ديمتريفيتش (١٧٠٨-١٧٤٤) متنور وكاتب وفيلسوف ودبلوماسي روسي.

كابنست، فاسيلي فاسيليفيتش (١٧٥٧-١٨٢٣) شاعر وكاتب مسرحي روسي.

كاراكوزرف، ديمتري فلاديميريفيتش (١٨٤٠-١٨٦٦)

كارامزين، نيكولاي ميخائيلوفيتش (١٧٦٦-١٨٢٦) كاتب ومؤرخ روسي.

كاتكوف، ميخائيل نيكيفوروفيتش (١٨١٨-١٨٨٧) داعية رجعي روسي، في الأربعينات أصبح مع الدوائر اللبرالية.

كافلين، كونستانتين ديمتريفيتش (١٨١٨-١٨٨٥) محام ومؤرخ روسي، لبرالي.

كيـبن، بيوتر ايفانوفيتش (١٧٩٣-١٨٦٤) اتنوغرافي وجغرافي واحصائي روسي.

كيتشر، نيكولاي كريستوفوروفيتش (١٨٠٦-١٨٨٦) فيزيائي، شاعر، مترجم. عضو في حلقة هرزن. فيما بعد غدا لبرالياً

خانيكوف، الكسندر فلاديميروفيتش (١٨٢٥-١٨٥٣) شارك في الحركة التحررية الروسية

خيراسكوف، ميخائيل ماتيفيتش (١٧٣٣-١٨٠٧) كاتب روسي.

خومياكوف، الكسي ستيبانوفيتش (١٨٠٤-١٨٦٠) كاتب روسي مؤدلج السلافية.

كيريفسكي، ايفان فاسيليفيتش (١٨٠٦-١٨٥٦) من أنصار السلافية، عالم فولكلور

كيرشا، دانيلوف: يعتقد أنه أول جامع للبيليناس الروسية التي كتبت في النصف الثاني من القرن التاسع عشر.

كيرياسكوف، جنرال روسي شارك في الدفاع عن سغاستيبول في ١٨٥٤

كولسينكوف، فاسيلي بافلوفيتش (١٨٠٤-١٨٦٢) ديسمبري.

كولتزوف، ألكسي فاسيليفتش (١٨٠٩-١٨٤٢) شاعر روسي.

كورف، مودست أندريفيتش (١٨٠٠-١٨٧٦) شخصية سياسية روسية، مؤلف كتاب الصعود إلى عرش الامبراطور نيقولا الأول».

كورف، نيكولاي ايفانوفيتش (١٧٩٣-١٨٦٩) ضابط مدفعية.

كورنيلوف، الكسندر الكسندروفيتش (١٨٠١-١٨٥٦) حاكم ڤياتكا

كورولنكو، فلاديمير غالاكتيونوفيتش (١٨٥٣-١٩٢١) كاتب روسي وشخصية شعبية.

كوشيليف، الكسندر ايڤانوفيتش (١٨٠٦-١٨٨٣) داعية روسي، نصير السلافية.

كوستو ماروف، نيكولاي ايفانوفيتش (١٨١٧-١٨٨٥) مؤرخ وكاتب، مؤدلج القومية البرجوازية الأكرانية.

كوستوماروف، فسيغولود ديمتريفيتش (١٨٣٩- حتى نهاية ١٨٦٠) كاتب ومترجم، ذو سمعة سيئة لشهادته المزورة ضد ن. غ. تشيرنيشيفسكي في محاكمته.

كوتليا ربنسكي، نستور الكسندروفيتش (١٨٦٣- ١٩٢٥) مؤرخ أدب روسي.

كريفسكي، أندريه الكساندروفيتش (١٨١٠-١٨٨٩) داعية روسي، ليبرالي ناشر مجلة أوتيشيستفيني زابسكي.

كريتسكي، فاسيلي (١٨١٠- ١٨٣١) وأخواه بيوتر (١٨٠٩- ١٨٣٦) وميخائيل(١٨٠٦-١٨٥٥)أعضاء في جمعية أنصار الديسمبريين السرية (١٨٢٧).

كروبنسكي، بافل نيكولايفيتش (ولد ١٨٦٣) مالك أرض كبير، عضو الدوما الثانية والثالثة والرابعة. رجعي.

كريلوف، ايفان اندريفيتش (١٧٦٩-١٨٤٤) قصاص خرافات.

كوردبافتسيف، بيوتر نيكولايفيتش (١٨١٦-١٨٥٨) مؤرخ ومؤلف روسي صديق ن. غ. تشيرنيشيفسكي.

كوشليف- بزبورودكو، غريغوري الكسندروفيتش (توفي في ١٨٧٦) كاتب وناشر مجلة روسكويو سلوفو

كوتورغا، ميخائيل سيميونوفيتش (١٨٠٩-١٨٨٦) مؤرخ روسي ومراقب مطبوعات.

L - ل

لافونتين، جان (١٦٢١-١٦٩٥) قصاص خرافات فرنسي.

لاختين، الكسي كوزميتش (١٨٠٨-١٨٣٨) عضو حلقة الدراسة مع هرزن في الثلاثينات.
لامارك، جان بابتست بيير انطوان (١٧٤٤-١٨٢٩) عالم طبيعة فرنسي
لامتري، جوليان (١٧٠٩-١٧٥١) فيلسوف مادي فرنسي وملحد
لانج، فريدريك البرت (١٨٢٨-١٨٧٥) فيلسوف فرنسي من أتباع الكانتية الجديدة.
لاني، جان (١٧٦٩-١٨٠٩) مارشال فرنسا في ظل نابليون.
لاسال، فرديناند (١٨٢٥-١٨٦٤) داعية ألماني برجوازي صغير، قائد إنتهازي في حركة العمل الألمانية.
لافروف، بيوتر لافروفيتش (الاسم المستعار متروف) (١٨٢٣-١٩٠٠) عالم إجتماع روسي وداعية، مؤدلج النارودنية.
ليدانتك، فيلكس (١٨٦٩-١٩١٧) بيولوجي فرنسي.
ليبنتز، غوتفريد وهلم فون (١٦٤٦-١٧١٦) عالم ألماني وفيلسوف مثالي.
ليمك، ميخائيل كونستانتينوفيتش (١٨٧٢-١٩٢٣). مؤرخ الأدب الروسي والحركة الثورية جامع الوثائق الأدبية والتاريخية النفسية ناشر مؤلفات هرزن.
ليونتيف، بافل ميخائيلوفيتش (١٨٢٢-١٨٧٤) أستاذ علم اللغة الكلاسيكي، عالم آثار
ليرمنتوف، ميخائيل يوريفيتش (١٨١٤-١٨٤١) شاعر روسي.
ليرو، بيير (١٧٩٧-١٨٧١) إشتراكي طوباوي فرنسي، يمثل الاشتراكية المسيحية.
لسنغ، غوتهولد افرائيم (١٧٢٩-١٧٨١) داعية وناقد ومتنور ألماني، وكاتب مسرحي.
ليوسيبوس (القرن الخامس ق. م) فيلسوف مادي يوناني، مؤسس النظرية الذرية القديمة.
لفتوف، الكسندر ايفانوفيتش (١٨٣٥-١٨٧٧) كاتب روسي ذو اتجاه ديمقراطي.
لويس، جورج هنري (١٨١٧-١٨٧٨) فيلسوف وضعي إنكليزي، وفيزيولوجي دارويني.
ليبغ، جوستوس فون (١٨٠٣-١٨٧٣) كيميائي ألماني.
ليبكنخت، وهلم (١٨٢٦-١٩٠٠) قائد الحركة الإشتراكية الألمانية.
لتري، مكسيميليان بول اميل (١٨٠١-

١٨٨١) فيلسوف وضعي فرنسي.
ليفي (٥٩ ق.م-١٧ ب م)
لوك، جون (١٦٣٢-١٧٠٤) فيلسوف مادي إنكليزي عمل في نظرية المعرفة الحسية.
لومونوسوف، ميخائيل فاسيليفيتش (١٧١٠-١٧٦٥) عالم وشاعر روسي
لورير، نيكولاي ايفانوفيتش (١٧٩٥-١٨٧٣) ديسمبري مؤلف مذكرات عن الديسمبريين.
لويس الخامس عشر (١٧١٠-١٧٧٤) ملك فرنسا (١٧١٥-١٧٧٤)
لويس السادس عشر (١٧٥٤-١٧٩٣) ملك فرنسا (١٧٧٤-١٧٩٢) أعدم بالمقصلة حسب أمر حكومة الميثاق.
لويس الثامن عشر (١٧٥٥-١٨٢٤) ملك فرانسا (١٨١٤-١٨٢٤)
لويس، بول (١٨٧٢-١٩٥٥) اشتراكي فرنسي، صحفي، صاحب مؤلفات عن تاريخ حركة الطبقة العاملة في فرانسا
لويس، فيليب (١٧٧٣-١٨٥٠) ملك فرانسا (١٨٣٠-١٨٤٨)
لوكريسيا (القرن السادس ق. م) إمرأة رومانية نبيلة، تروي الأسطورة أن ابن الملك وإسمه سكستوس ترانكينوس قد اغتصبها فأقدمت على الإنتحار
لوناشارسكي، أناتولي فاسيليفتش (١٨٧٥-١٩٣٣) ثوري محترف، رجل دولة سوفياتية بارز، شخصية شعبية في فترة الرجعية (١٩٠٧-١٩١٠) قام بمراجعة الماركسية على أساس الماخية وإنتمى إلى زمرة بناة الرب.
لياسكوفسكي، فاليري نيكولايفيتش: مؤلف كتب عن أنصار السلافية: «إ.ف.كيرينسكي» و«ب.ف.كيرينسكي» و«إ.س.خومياكوف».
لياتسكي، ايفجيني الكسندروفيتش (ولد في ١٨٦٨) ناقد أدبي.
ليسبوس (القرن الرابع ق. م) مثال يوناني.

م - M

م. ب [أنظر باكونين]
ماخ، أرنست (١٨٣٨-١٩١٦) فيزيائي نمساوي وفيلسوف مثالي. مؤسس مذهب النقد التجريبي
مالتوس، توماس روبرت (١٧٦٦-١٨٣٤) إقتصادي إنكليزي قدم نظرية رجعية في السكان.

مارنيك، فيليب (١٧٨٠-١٨٤٦) لاهوتي ألماني ومؤرخ المسيحية، هيغلي يميني.

مارلينسكي، الكسندر (الإسم المستعار لبُستوتزيف الكسندر الكسندروفيتش) (١٧٩٧-١٨٣٧) كاتب روسي، ديسمبري.

مارمونت، أوغست فريدريك لويس (١٧٧٤-١٨٥٢) مارشال فرانسا في ظل نابليون.

ماركس، كارل (١٨١٨-١٨٨٣)

ماسلوف، عضو حلقة هرزن الطلابية

مازيني، غيزيب (١٨٠٥-١٨٧٢) ديمقراطي إيطالي، شخصية فعالة في حركة التحرر الوطني.

مهرنغ، فرانز (١٨٤٦-١٩١٩) شخصية بارزة في الحركة العمالية الألمانية، نظري ماركسي.

مندلسن، موسى (١٧٢٩-١٧٨٦) فيلسوف مثالي ألماني، شخصية شعبية في فترة التنوير الألمانية.

مينزل، ولفغانغ (١٧٩٨-١٨٧٣) ناقد وكاتب ألماني.

ميريزكوفسكي، ديمتري سيرغيفيتش (١٨٦٦-١٩٤١) كاتب روسي منحط، صوفي.

ميشير سكايا، صوفيا سيرجيفنا (١٧٧٥-١٨٤٨) كاتبة ومترجمة روسية.

ميير، ادوارد (١٨٥٥-١٩٣٠) مؤرخ ألماني للعالم القديم، مدافع عن نظرية تطور المجتمع على شكل حلقات.

ميشليت، جول (١٧٩٨-١٨٧٤) مؤرخ فرنسي برجوازي صغير.

ميشليت، كارل لودفيغ (١٨٠١-١٨٩٣) فيلسوف مثالي ألماني، هيغلي

مسكيفتش، آدم (١٧٩٨-١٨٥٥) شاعر بولوني.

ميغنت، فرانسوا أوغست ماري (١٧٩٦-١٨٨٤) مؤرخ فرنسي للتيار اللبرالي.

ميخائيلوف، الكسندر ديمتريفيتش (١٨٥٥-١٨٨٤) ثوري روسي، نارودنيكي.

ميخائيلوف، ميخائيل لاريونوفيتش (١٨٢٩-١٨٦٥) داعية وشاعر روسي، ديمقراطي ثوري.

ميخائيلوفسكي، نيكولاي كونستانتينوفيتش (١٨٤٢-١٩٠٤) داعية وعالم إجتماع روسي، مؤدلج النارودنية اللبرالية.

ميـل، جون ستيوارت (١٨٠٦-١٨٧٣)
فيلسوف وضعي انكليزي وإقتصادي
ميليت، جان فرانسوا (١٦٤٢-١٦٧٩)
رسام طبيعة هولندي.
ملتون، جون (١٦٠٨-١٦٧٤) داعيـة
وشاعر انكليزي شخصيـة بـارزة
في الثورة البرجوازيـة في القرن
السابع عشر.
مليوتــين، ديمــتري الكسندروفيتش
(١٨١٦-١٩١٢) رجل دولة
روسي وشخصية عسكرية بارزة.
ميرابو، أونوريه فبرييل فكتور ريكيتي
(١٧٤٩-١٧٩١) شخصيـة بـارزة
في الثورة البرجوازية في القرن
الثامن عشر
موليشوت، جاكوب (١٨٢٢-١٨٩٣)
فيلسوف وفيزيولوجي هولنـدي،
ممثل المادية المبتذلة.
موليـير، جان بابتست (١٦٢٢-١٦٧٣)
كاتب مسرحي فرنسي.
مونتسكيو، شارل لويس (١٦٨٩-
١٧٥٥) متنور فرنسي وشخصية
سياسية.
مورغـان، لويس هنري (١٨١٨-١٨٨١)
اثنولوجي أميركي، باحـث في
المجتمع البدائي.
مورات، جوشيم (١٧٦٧-١٨١٥)
مارشال فرانسا، ملـــك نابولي
(١٨١٠-١٨١٥)
مورافيوف، ميخائيــل نيكولا يفيتش
(١٧٩٦-١٨٦٦) رجل دولة في
روسيا القيصرية
مياكوتــين، فنيدكت الكسندروفيتش
(١٨٦٧-١٩٣٧) داعيـة ومؤرخ
روسي، نارودنيكي لبرالي.

ن - N

ن [أنظر دانيلسون]
نـــــادزدين، نيكولاي ايفانوفيتش
(١٨٠٤-١٨٥٦) صحفي وناقـد
أدبي روسي.
نابليون الأول (١٧٦٩-١٨٢١)
امبراطور فرنسا (١٨٠٤-١٨١٤
و١٨١٥)
نابليون الثالث (لويس بونابرت) (١٨٠٨-
١٨٧٣) إمبراطور فرنسا
(١٨٥٢-١٨٧٠)
نوموف، الكسي أفاكوموفيتش
(١٨٤٠-١٨٩٥) رسام روسي.
نازيموف، فلاديمير ايفانوفيتش (١٨٠٢-
١٨٧٤) حا [illegible]
القيصري [illegible] سا وبيلو
روسيا
نفيودوف، فيليــــب دياميدوفيتش

(١٨٣٨-١٩٠٢) كاتب
روسي، نارودنيكي
نكراسوف، نيكولاي الكسندروفيتش
(١٨٢١-١٨٧٨) شاعر روسي
ديمقراطي
نيوكيرش، ايفان يافوفليفيتش
(١٨٠٣-١٨٧٠) أستاذ اللغة
اليونانية في جامعة كييف.
نفيروف، يانوري ميخائيلوفسكي
(١٨١٠-١٨٩٣) مرب وصاحب
مؤلفات في علم التربية، كاتب
مذكرات.
ني، ميشيل (١٧٦٩-١٨١٥) مارشال
فرانسا، صديق حميم لنابليون الأول.
نيزيلينوف، الكسندر ايليتش
(١٨٤٥-١٨٩٦) مؤرخ أدب روسي
نيقولا الأول (١٧٩٦-١٨٥٥) امبراطور
روسيا (١٨٢٥-١٨٥٥).
نكيتنكو، الكسندر فاسيليفيتش
(١٨٠٥-١٨٧٧) شخصية أدبية
روسية في التيار اللبرالي، ناقد
ومراقب مطبوعات.
نيكولادز نيكو ياكوفليفيتش
(١٨٤٣-١٩٢٨) ديمقراطي ثوري
جيورجي، داعية وناقد أدبي.
نوسكوف، ميخائيل بافلوفيتش: عضو
حلقة هرزن أوغاريف الطلابية.
نوفيكوف، نيكولاي ايفانوفيتش
(١٧٤٤-١٨١٨) متنور روسي
شخصية شعبية وكاتب.
نوفتسكي، أورست ماركوفيتش
(١٨٠٦-١٨٨٤) مدرس علم
اللغة في جامعة كييف، مثالي.

أو - O

أوديفسكي، الكسندر ايفانوفيتش
(١٨٠٢-١٨٣٩) شاعر روسي
ديسمبري.
أوديفسكي، فلاديمير فيودوروفيتش
(١٨٠٤-١٨٦٩) كاتب روسي
ودارس موسيقي
أوغاريف، نيكولاي بلاتونوفيتش
(١٨١٣-١٨٧٧) داعية وشاعر
روسي، ديمقراطي ثوري، صديق
هرزن ومتعاون معه.
أويغرد: الدوق الكبير لليتوانيا
(١٣٤٥-١٣٧٧)
عمر بن الخطاب: خليفة العرب
(٦٣٤-٦٤٤)
أوردينسكي، بوريس ايفانوفيتش
(١٨٢٣-١٨٦١) أستاذ اللغة
الرومانية، مترجم ومؤلف الوثائق
عن كتاب أرسطو «الشعر
أورلوف، الكسي فيودوروفيتش

(١٧٨٦-١٨٦١) رجل دولة روسي، فيما بعد رئيس الدرك.

أورلوف، ميخائيل فيودوروفيتش (١٧٨٨-١٨٤٢) جنرال روسي، ديسمبري.

أوستاد، ادريان فان (١٦١٠-١٦٨٥) رسام هولندي ونقاش.

أوستروفسكي، الكسندر نيكولايفيتش (١٨٢٣-١٨٨٦) مسرحي روسي.

استوالد، ولهلم فريدريش (١٨٥٣-١٩٣٢) عالم طبيعي ألماني، فيلسوف مثالي.

أوتو، لويزا (١٨١٩-١٨٩٥) كاتبة ألمانية تمثل «الإشتراكية الحقيقية».

أوفسيانكو كوكيكوفسكي، ديمتري نيكولايفيتش (١٨٥٣-١٩٢٠) لغوي وناقد أدبي روسي.

أوين، روبرت (١٧٧١-١٨٥٨) اشتراكي طوباوي انكليزي.

أوزيروف، فلادسلاف الكسندروفيتش (١٧٦٩-١٨١٦) كاتب روسي ومسرحي.

ب - P

بانابيف، ايفان ايفانوفيتش (١٨١٢-١٨٦٢) صحفي وكاتب روسي محرر وناشر صحيفة سوفريمينيك منذ ١٨٤٧

بانين، فكتور نيكيفيتش (١٨٠١-١٨٧٤) رجل دولة روسي رجعي، عضو اللجنة التحضيرية لالغاء القنانة.

باسيك، فاديم فاسيليفيتش (١٨٠٨-١٨٤٢) كاتب ومنقب حفريات. صديق هرزن.

بول الأول (١٧٥٤-١٨٠١) إمبراطور روسيا (١٧٩٦-١٨٠١)

بافلنكوف، فلورنتي فيودوروفيتش (١٨٣٩-١٩٠٠) طابع كتب روسي تقدمي.

بيشرين، فلاديمير سيرغيفيتش (١٨٠٧-١٨٨٥) كاتب روسي. أستاذ في جامعة موسكو أصبح فيما بعد كاثوليكياً صوفياً

بيروفسكي، ليف الكسيفيتش (١٧٩٢-١٨٥٦) رجل دولة في روسيا القيصرية وزير الداخلية (١٨٤١-١٨٥٢).

بطرس الأول (١٦٧٢-١٧٢٥) قيصر روسيا (١٦٨٢-١٧٢١) امبراطور كل الروسيا (١٧٢١-١٧٢٥).

بطرس الثالث (١٧٢٨-١٧٦٢) امبراطور روسيا (١٧٦١-١٧٦٢)

بتروشيفسكي، ديمتري موسيفيتش (١٨٦٤-١٩٤٢) مؤرخ روسي، مختص بالعصور الوسطى.

بيتي، وليام (١٦٢٣-١٦٨٧) اقتصادي إنكليزي.

فيدياس (القرن الخامس ق. م) مثال يوناني.

فيليب الثاني (١٥٢٧-١٥٩٨) ملك إسبانيا

فوتيوس (١٧٩٢-١٨٣٨) ارشمندريت شخصية رجعية في الكنيسة الروسية.

بيساريف، ديمتري ايفانوفيتش (١٨٤٠ ١٨٦٨) داعية روسي وناقد أدبي، فيلسوف مادي.

بيوس التاسع (١٧٩٢-١٨٧٨) بابا (١٨٤٦-١٨٧٨).

أفلاطون (٤٢٧-٣٤٧ق.م) فيلسوف مثالي يوناني.

بليشييف، الكسي نيكولايفيتش (١٨٢٥-١٨٩٣) شاعر روسي.

بليني الأكبر (غايوس بلنتيوس سكوندوس) (٢٣-٧٩) عالم وكاتب روماني.

بلوتارخ (٤٦-١٢٥) كاتب أخلاقي يوناني مؤلف كتاب «الحياة المتوازية لمشاهير اليونان».

بوغودين، ميخائيل بتروفيتش (١٨٠٠-١٨٧٥) داعية ومؤرخ روسي، مؤدلج الملكية.

بوليفوي، نيكولاي الكسندروفيتش (١٧٩٦-١٨٤٦) صحفي روسي وناقد.

بوليبيوس (٢٠١-١٢٠ ق. م) مؤرخ يوناني.

بوليكليتنوس (القرن الخامس ق. م) مثال يوناني ومنظر فني.

بوبوف، ميخائيل مكسيموفيتش (١٨٠١-١٨٧٢) معلم بيلنسكي في الغمنازيوم. موظف في القسم الثالث من ١٨٣٠

بريستلي، جوزيف (١٧٣٣-١٨٠٤) كيميائي إنكليزي، فيلسوف مادي.

بروتوبوبوف، ايفان يفدو كيموفيتش: المعلم الخاص لهرزن من ١٨٢٨

برودون، بيير جوزيف (١٨٠٩-١٨٦٥) داعية فرنسي، برجوازي صغير، إقتصادي وعالم اجتماع، مؤسس الفوضوية.

بوغاتشيف، يميليان ايفانوفيتش (١٧٤٢-١٧٧٥) قائد إنتفاضة الفلاحين ضد الإقطاع في روسيا ١٧٧٣-١٧٧٥

بوريشكيفيتش، فلاديمير متروفانوفيتش

ك - Q

- ر - R

مبتذل مؤدلج الارستقراطية البروسية الرجعية.

رود: محرر الصحيفة الفرنسية الديمقراطية البرجوازية الصغيرة «ليبون سنس» [الفكر القويم] ظهرت بين ١٨٣٢-١٨٣٩

رومانس، جورج جون (١٨٤٨-١٨٩٤) عالم طبيعة إنكليزي، دارويني.

روم، شارل - غلبرت (١٧٥٠-١٧٩٥) شخصية بارزة في الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر، يعقوبي معلم ابن ستروغانوف، الشخصية الروسية البارزة في الفن.

روشر، وهلم جورج فريدريك (١٨١٧-١٨٩٤) اقتصادي الماني.

روزنكرانز، كارل (١٨٠٥-١٨٧٩) فيلسوف ألماني هيغلي، ومؤرخ أدب.

روزتوفتسيف، جاكوف ايفانوفيتش (١٨٠٣-١٨٦٠) رجل دولة في روسيا القيصرية، ساهم في الاعداد لاصلاح ١٨٦١ الفلاحي.

روتشر، هنريش تيودور (١٨٠٣-١٨٧١) ناقد فني ألماني.

روسو، جان جاك (١٧١٢-١٧٧٨) متنور فرنسي، ديمقراطي، مؤدلج البرجوازية الصغيرة.

روج، ارنولد (١٨٠٢-١٨٨٠) داعية ألماني، من الهيغليين الشباب تعاون مع ماركس في إصدار «الحوليات الألمانية عام ١٨٤١ وفي الستينات أصبح لبرالياً قومياً

ريلييف، كاندرافت فيودوروفيتش (١٧٩٥-١٨٢٦)شاعرروسي،قائد حركة الديسمبريين.

س - ش - S

س. غ [أنظر غوغوتسكي]

سان كير، لوران كوفيون (١٧٦٤-١٨٣٠) رجل دولة فرنسي، مارشال فرانسا في عهد نابليون.

سان هيلير [أنظر غيوفري سان هيلير]

سان جوست، لويس انطوان (١٧٦٧-١٧٩٤) شخصية بارزة في الثورة البرجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر، عضو لجنة الأمن االعام.

سان سيمون، كلود هنري (١٧٦٠-١٨٢٥) إشتراكي طوباوي فرنسي.

سانت بيف، شارل أوغسطين (١٨٠٤-١٨٦٩) شاعر وناقد أدبي فرنسي.

سالتيكوف (سالتيكوف شدرن)، ميخائيل يفغرا فوفيتش (١٨٢٦-١٨٨٩) كاتب روسي ساخر.

«الاشتراكية الحقيقية».
سنكوفسكي، أوسيب ايفانوفيتش (الإسم المستعار بارون برامبوس) (١٨٠٠-١٨٥٨) صحفي وكاتب روسي رجعي
سيرنو سولوفيفيتش، نيكولاي الكسندروفيتش (١٨٣٤-١٨٦٦) ثوري روسي. منظم الجمعية السرية (الأرض والحرية) في الستينات.
شكسبير، وليام (١٥٦٤-١٦١٦) شاعر إنكليزي ومسرحي
شابوف، أفناسي بروكوفيفيتش (١٨٣٠-١٨٧٦) مؤرخ وشخصية شعبية روسية تقدمية.
شدرن [أنظر سالتيكوف]
شبكين، ميخائيل سيميونوفيتش (١٧٨٨-١٨٦٣) ممثل روسي، تبنى الواقعية في المسرح.
شرباتوف، غريغوري الكسندروفيتش (١٨١٩-١٨٨١) مدير مقاطعة بطرسبرج الثقافية في الخمسينات.
شلفونوف، نيكولاي فاسيليفتش (١٨٢٤-١٨٩١) داعية روسي، ديمقراطي ثوري.
شفشنكو، تاراس غريغوريفيتش (١٨١٤-١٨٦١) شاعر أوكراني ورسام وديمقراطي ثوري.
شفيريوف، ستيبان بتروفتش (١٨٠٦-١٨٦٤) ناقد وداعية، ستيبان بتروفيتش (١٨٠٦-١٨٦٤) ناقد وداعية روسي رجعي.
شيرنسكي شيخماتوف، بلاتون الكسندروفيتش (١٧٩٠-١٨٥٣) وزير الثقافة العامة من ١٨٥٠-١٨٥٣
شوفالوف، بيوتر اندريفتش (١٨٢٧-١٨٨٩) رجل دولة روسي، رئيس الدرك معاد للاصلاح الفلاحي ١٨٦١
سيراكوفسكي، زيغموند (١٨٢٦-١٨٦٣) ديمقراطي بولوني ثوري، قائد إنتفاضة ١٨٦٣ في لتوانيا
سايه، ادموند جوزيف (١٧٤٨-١٨٣٦) شخصية بارزة في الثورة البرجوازية الفرنسية في القرن الثامن عشر
سيغسموند: سلالة ملوك بولونيا (١٥٠٦-١٦٣٢).
سيمون، جول (١٨٠٤-١٨٩٦) شخصية سياسية فرنسية، فيلسوف مثالي.
سكابيشيفسكي، الكسندر ميخائيلوفيتش (١٨٣٨-١٩١٠) ناقد روسي

ومؤرخ أدب.

سكوبيليف، ايفان نيكيش (١٧٧٨-١٨٤٩) جنرال روسي ومؤلف قصص حرب، آمر قلعة القديسين بطرس وبولس من ١٨٣٩

سميث، آدم (١٧٢٣-١٧٩٠) إقتصادي اسكوتلاندي، من أعظم ممثلي الاقتصاد السياسي البرجوازي.

سنيغيريوف، ايفان ميخائيلوفيتش (١٧٩٣-١٨٦٨) فولكلوري ومنقب آثار روسي.

سقراط (٤٦٩-٣٩٩ ق. م) فيلسوف مثالي يوناني.

سولداتنكوف، كورفا تيرنتيفيتش (١٨١٨-١٩٠١) ناشر معروف في موسكو

سولون (٦٣٨-٥٥٩ ق. م) مشرع أثيني

سولوفيوف، فلاديمير سيرغيفيتش (١٨٥٣-١٩٠٠) فيلسوف روسي، رجعي صوفي.

سوفوكليس (٤٩٧-٤٠٦ ق. م) مسرحي يوناني.

سولت، نيكولاس جان (١٧٦٩-١٨٥١) رجل دولة فرنسي، مارشال فرانسا في عهد نابليون.

-سوثي، روبرت (١٧٧٤-١٨٤٣) شاعر إنكليزي.

سبنسر، هربرت (١٨٢٠-١٩٠٣) فيلسوف إنكليزي وضعي.

سبيرانسكي ميخائيل ميخائيلوفيتش (١٧٧٢-١٨٣٩) رجل دولة روسي، شخصية سياسية صاحب مشروع الاصلاحات المعتدلة.

سبينوزا، باروخ (١٦٣٢-١٦٧٧) فيلسوف مادي هولندي.

سريزنيفسكي، إسماعيل ايفانوفيتش (١٨١٢-١٨٨٠) مختص باللغة السلافية.

سانت أوغسطين، أورليوس أوغسطينوس (٣٥٤-٤٣٠) لاهوتي مسيحي وفيلسوف صوفي.

ستال هولشتاين، آن لويس جرمينيد (١٧٦٦-١٨١٧) روائية فرنسية.

ستاخيفتش، سيرغي غريغوريفتش (١٨٤٣-١٩١٨) ثوري روسي، نارودني اعتقل في ١٨٦٣ وحكم عليه بالأشغال الشاقة في سيبريا

ستانكيفتش، نيكولاي فلاديميرونتش (١٨١٣-١٨٤٠) متنور روسي، رئيس حلقة فلسفية في موسكو

ستارشيفسكي، أو البرت فيكنتيفتش (١٨١٨-١٩٠١) صحفي روسي

مؤلف العديد من المراجع والمعجمات.

ستاسيولفتش، ميخائيل ماتفيفتش (١٨٢٦-١٩١١) مؤرخ وداعية روسي.

ستكلوف، يوري ميخائيلوفتش (١٨٧٣-١٩٤١) ثوري محترف، أديب وصاحب عدد من المؤلفات عن تاريخ الحركة الثورية في روسيا

ستلنغ [أنظر يونغ ستلنغ]

شتيرنر، ماكس (الإسم المستعار لـ« كاسبار شميدث ») (١٨٠٦-١٨٥٦) فيلسوف ألماني مثالي، مؤدلج الفوضوية.

ستراخوف، نيكولاي نيكولايفتش (١٨٢٨-١٨٩٦) داعية روسي، ناقد ومترجم، فيلسوف مثالي.

ستراتو اللمساكوسي (٣٤٠-٢٧٠ ق. م) فيلسوف يوناني. تلميذ أرسطو

شتراوس، دافيد فريدريش (١٨٠٨-١٨٧٤) داعية وفيلسوف الماني من الهيغليين الشباب، فيما بعد لبرالي قومي.

ستروغانوف، سيرغي غريغوريفتش (١٧٩٤-١٨٨٢) رجل دولة روسي، عضو لجنة الرقابة السرية.

ستروييف، فلاديمير ميخائيلوفتش (١٨١٢-١٨٦٢) مترجم وصحفي روسي.

ستروفه، بيوتر بيرغاردوفتش (١٨٧٠-١٩٤٤) داعية وإقتصادي برجوازي روسي، ممثل بارز لـ « الماركسية الشرعية ».

سو، أوجين (١٨٠٤-١٨٥٧) روائي فرنسي.

سوماروكوف، الكسندر بتروفتش (١٧١٧-١٧٧٧) كاتب روسي، ممثل الكلاسيكية.

سيبرييف، ديمتري نيكولايفتش (١٧٩٩-١٨٧٦)

سفرديغايلو: الدوق الكبير لليتوانيا (١٤٣٠-١٤٣٢).

ت - T

تين، هيبوليت أدولف (١٨٢٨-١٨٩٣) ناقد أدبي فني فرنسي، فيلسوف ومؤرخ.

تالاندير، الفرد (١٨٢٢-١٨٩٠) شخصية سياسية فرنسية وداعية شارك في ثورة ١٨٤٨

تاركينيوس سكستوس (القرن السادس

ق. م) حسب الأسطورة هو إبن آخر ملوك الرومان (السابع) تاركينوس الفخور، الـذي اغتصب لوكريسيا

تاسو، توركاتو (١٥٤٤-١٥٩٥) شاعر إيطالي من عصر النهضة.

تنغوبورسكي، لودفيغ فاليريانوفتش (١٧٩٣-١٨٥٧) اقتصادي روسي احصائي ورجل دولة.

تنيير، دافيد (١٦١٠-١٦٩٠) رسام فلمنكي.

ثيرنس، ببليوس (١٨٥-١٥٩ ق. م) مؤلف كوميديات روماني.

ثاكري، وليام ميكبيس (١٨١١-١٨٦٣) كاتب إنكليزي واقعي.

تيري، أوغسطين (١٧٩٥-١٨٥٦) مؤرخ فرنسي.

تيكوميروف، ليف الكسندروفتش (١٨٥٢-١٩٢٣) قائد حزب نارودنايا فوليا (إرادة الشعب) ثم إرتد وأصبح ملكياً

توكيفيل الكسي (١٨٠٥-١٨٥٩) مؤرخ فرنسي وداعية للاتجاه البرجوازي اللبرالي.

تولستوي، ليف نيكولا ييفتش (١٨٢٨-١٩١٠) كاتب روسي.

توركيمادا، توماس (١٤٢٠-١٤٩٨) شخصية بارزة في محكمة التفتيش الاسبانية.

تروبتسكايا، كاتريبا ايفانوفا (توفيت ١٨٥٤) زوجة الديسمبري سيرغي بتروفتش تروبتسكوي، التي تبعته إلى سيبريا

تروبسكوي، ايفجيني نيكولا ييفتش (١٨٦٣-١٩٢٠) فيلسوف روسي مثالي.

تسيتوفتش، بيوتر بافلوفتش (١٨٤٣-١٩١٣) محام وأستاذ.

تورغنيف، إيفان سيرغيفتش (١٨١٨-١٨٨٣) كاتب روسي.

تورغنيف، نيكولاي ايفانوفيتش (١٧٨٩-١٨٧١) ديسمبري وإقتصادي تقدمي

يو - أو - U

أوبرفيغ، فريدريش (١٨٢٦-١٨٧١) عالم نفس وفيلسوف الماني مؤلف تاريخ الفلسنة.

أونكوفسكي، الكسي ميخائيلوفتش (١٨٢٨-١٨٩٣) عقاري روسي لبرالي صاحب مشروع تحرير الفلاح مع تعويض عن الأرض.

أوسبنسكي، غليب ايفانوفتش (١٨٤٣-١٩٠٢) كاتب روسي ديمقراطي.

اوسبنسكي، نيكولاي فاسيليفتش (١٨٣٧-١٨٨٩) كاتب روسي.

يوفــــاروف، سيرغي سيميونوفتش (١٧٨٦-١٨٥٥) رجل دولة في روسيا القيصرية. وزير الثقافة العامة.

ڤ - V

ڤالنتينوف (إسم مستعار لـ «فولسكي، نيكولاي فلادسلافوفتش») (١٨٧٩-١٩٦٤) إشتراكي ديمقراطي روسي، منشفيكي، فيلسوف ماخي.

ڤاسيليشيكوف، الكسندر الياريونوفتش (١٨١٨-١٨٨١) شخصية قائدة في الزيمستفو ممثل النبلاء، إقتصادي وداعية.

ڤاسيليفا، أولغا ساكروتوفنا [أنظر تشيرنيشيفسكايا].

ڤينيڤيتنوف، ديمتري فلاديميروفتش (١٨٠٥-١٨٢٧) شاعر روسي، عضو جماعة في الفلسفة عرفت باسم محبي الحكمة.

ڤنغيروف، سيمون أفانا سيفتش (١٨٥٥-١٩٢٠) مؤرخ أدب روسي وببليوغرافي.

ڤيرنادسكي، ايفــان فاسيليفتش (١٨٢١-١٨٨٤) إقتصادي روسي.

ڤاسيلوفسكي، الكسي نيكولايفتش (١٨٤٣-١٩١٨) مؤرخ أدب روسي.

ڤيتوشكوف، بافل الكسندروفتش: من معارف هرزن اعتقل في ١٨٦٢ على الحدود مع رسائل هرزن.

ڤتر رينسكي [أنظر شيشخين]

ڤيغل، فيليب فيليبوفتش (١٧٨٦-١٨٥٦) موظف روسي ملكي مؤلف «المذكرات» المغرض.

ڤوغت، كارل (١٨١٧-١٨٩٥) عالم طبيعة ألماني، مادي مبتذل.

ڤولسكي [أنظر ڤالنتينوف]

ڤولتير (الاسم المستعار لفرانسوا ماري أروي) (١٦٩٤-١٧٧٨) فيلسوف فرنسي ملحد، ساخر يعارض الحكم المطلق والكاثوليكية.

ڤولنسكي، اكيم لغوفتش (إسم مستعار لفلكسر) (١٨٦٣-١٩٢٦) ناقد فني روسي نصير نظرية «الفن للفن».

ڤورونتسوفا، اليزابيتا كسافيريفنا (١٧٩٢-١٨٨٠) زوجة الحاكم العام لنوفو روسيا

ڤيازيمسكي، بيوتر أندريفتش

(١٧٩٢-١٨٧٨) شاعر روسي، ناقد وصحفي.

و - ڤ - W

والاس، الفرد روس (١٨٢٣-١٩١٣) عالم طبيعة بريطاني، دارويني.

ولتر سكوت [أنظر سكوت]

واتك، جون كارل ولهلم (١٨٠٦-١٨٨٢) فيلسوف الماني ولاهوتي.

ويبر (فيبر)، جورج (١٨٠٨-١٨٨٨) مؤرخ ألماني. قام تشيرنيشيفسكي بترجمة كتابه «تاريخ المانيا» إلى الروسية في اثني عشر مجلداً

وندر (فندر) كارل (١٨٠٦-١٨٩٣) شاعر الماني، فيلسوف هيغلي.

ويغاند (فيغاند) أوتو (١٧٩٥-١٨٧٠) مكتبي وفيلسوف ألماني تقدمي.

ولف، كريستيان فون (١٦٧٩-١٧٥٤) عالم ألماني وفيلسوف مثالي.

وندت، ولهلم (١٨٣٢-١٩٢٠) فيلسوف ألماني مثالي مؤسس علم النفس التجريبي.

اكس - X

اكسونوفان (٤٣٠-٣٥٥ ق. م) مؤرخ يوناني.

ي - Y

ياكوفنكو، فالنتين ايفانوفتشِ (ولد في ١٨٥٩)، أديب، احصائي وناشر تقدمي.

ياكوفليف، ايفان الكسندروفتش (١٧٦٧-١٨٤٦) والد هرزن.

ياكوشكين، ايفان ديمتريفتش (١٧٩٣-١٨٥٧) ديسمبري، فيلسوف مادي.

ياستربتسوف، ايفان ايفانوفتش (١٧٧٦-؟) كاتب روسي، عضو أكاديمية العلوم.

يازيكوف، بيوتر الكسندروفتش (١٨٠٣-١٨٤٦) شاعر روسي.

يفريموف، بيوتر الكسندروفتش (١٨٣٠-١٩٠٧) هاوي كتب وببليوغرافي، ناشر الكلاسيكيات الروسية.

إيلاغينا، افدوتيا بتروفنا (١٧٨٩-١٨٧٧) والدة الأخوين كيريفسكي، التي كان في بيتها صالون أدبي شهير في الثلاثينات والأربعينات.

يوركيفتش، بامفيل دانيلوفتش (١٨٢٦-١٨٧٤) أستاذ في أكاديمية كييف اللاهوتية وجامعة موسكو فيلسوف مثالي.

يوشكيفتش، بافل سولومونوفتش (١٨٧٣- ١٩٤٥) اشتراكي ديمقراطي روسي سعى إلى تنقيح

الماركسية، محاولاً أن يجعلها مكان «الرمزية التجريبية».

ز - Z

زابلوتسكي روسيا توفسكي، أندريه بارفيونوفتش (١٨٠٨-١٨٨١) داعية روسي، إقتصادي واحصائي، شارك في صياغة مشروع إصلاح ١٨٦١

زاغوسكين، ميخائيل نيكولايفتش (١٧٨٩-١٨٥٢) كاتب روسي.

زاخارنيا ناتاليا الكساندروفنا (١٨١٧- ١٨٥٢) زوجة هرزن.

زلر، ادوارد (١٨١٤-١٩٠٨) فيلسوف ألماني مثالي مؤرخ فلسفة.

ريمانوف، سيمون ياكوفليفتش (١٨٣٦-١٩٠٣) ثوري روسي في الستينات، لاجىء سياسي.

زيخاريف، ميخائيل ايفانوفيتش (ولد في ١٨٢٠) إبن أخ شاداييف وكاتب سيرته.

زوكوفسكي، فاسيلي أندريفتش (١٧٨٢-١٨٥٢) شاعر روسي، نارودني.

فهرس الموضوعات

٢ - مؤلفات عن ف. غ. بيلنسكي

٣ - مؤلفات عن أ.إ هرزن

٤ - مراجعات

هذا المجلد

المجلد الرابع من المؤلفات الفلسفية المختارة مخصّص لدراسة الفكر الإجتماعي في روسيا، حيث يتناول بليخانوف، بالعرض والمناقشة والنقد، تاريخ الفكر الإجتماعي الروسي من الأربعينات إلى ستينات القرن التاسع عشر، كاشفاً عن تناقضات هذا الفكر، موضحاً إنجازاته الكبرى، مبيناً مكتسباته من الفكر الغربي. وقد أكد بليخانوف أن التناقضات البارزة، والعميقة أحياناً، في الفكر الإجتماعي الروسي مصدرها الفكر الغربي الذي شكل منطلقاً أساسياً للمفكرين الإجتماعيين الروس في الأربعينات والستينات، وعلى الأخص فكر الإشتراكيين الطوباويين الذين كان لهم الأثر الأكبر - والحاسم - في توجيه المفكرين الروس، بالإضافة إلى التأثير الهائل للفيلسوف العظيم « هيغل ».

ولا ينسى بليخانوف أن يدرس المنشأ الإجتماعي لهؤلاء المفكرين، فيبين بدقة فائقة أن طبقة الرازنوشنتسي » لعبت دوراً كبيراً في تهيئة مهاد الفكر الإجتماعي.

وهكذا يقدم لنا هذا المجلد كبار المفكرين الروس أمثال تشيرنيشيفسكي وبيلنسكي وهرزن... بتحليل عميق نفاذ وعرض ممتع أخاذ، بعيداً عن غوغائية صرخات القادة السياسيين وبهرج تحليلاتهم الخطابية الطافية.

ولا يذهب الظن بالقارىء أنه أمام « ترجمة أعلام »... إنه أمام مسائل فكرية إجتماعية فلسفية عميقة جداً، كما أنه أمام مفكر عملاق فريد بثقافته، متفرد بأسلوبه... هو جورجي فالنتينوفتش بليخانوف.

النشر والتوزيع في الأقطار العربية

دار دمشق : دمشق : شارع بور سعيد هاتف ١١١٠٢٨
بيروت : شارع سورية ـ بناية صمدي وصالحة

الثمن ٥٠ ل.ل

الثمن ٧٥ ل.س